











# عالم الفكر

المجلد العشرون - العدد الاول - أبريل - مايو - يونيو ٨٩

• تطوّر مناهج البحث  
في العلوم الاجتماعية.  
• مسيرة الفيزياء.  
• بحوث العمليات.  
• عالم حديث أم منهج جديد.



## «مجلة عالم الفكر» قواعد النشر بالمجلة

- (١) «عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .
- (٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-
- (أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .
- (ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزوده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .
- (ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .
- (د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطباعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .
- (هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .
- (و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .
- (٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة

وزارة الاعلام - الكويت - ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

# عالم الفكر

رئيس التحرير : حَسَمَد يُونُسُفُ الرُّومِي  
مُستشار التحرير : دكتور أَسَامَةُ أَمِينُ الخولي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت • إبريل - مايو - يونيو ١٩٨٩  
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣ الرمز 13002

## المحتويات

### مناهج البحث العلمي

التمهيد : في مناهج البحث العلمي

تطور مناهج البحث في العلوم الاجتماعية

سورة الفرياد

بحوث التعليلات علم حديث أم منيع جديد ؟

تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية

- ٢ ..... بقلم مستشار التحرير  
١٣ ..... الدكتور عبد الرهاب يورخطيا  
٢٩ ..... الدكتور محمد علي العمر  
٢٩ ..... الدكتور عبد الغني الإمام  
٦٩ ..... الدكتور فاسم عيده فاسم

...

### شخصيات وآراء

بيوت البرجيات وأهميتها الاستراتيجية

- ١٠ ..... الدكتور عبد الله البديوي

...

### مطالعات

معرفة جيلين : علمهما ودلائلها

- ٣٥ ..... الدكتور جوزيف لسم

...

### صدر حديثاً

تدليلات حول التاريخ والمؤرخين

الفرض : صناعة علم جديد

- تأليف : نورودس . حمود  
عرض وتحميل : الدكتور مصطفى العياشي ..... ١٥٢  
تأليف : جعفر جليليك  
عرض وتحميل : الدكتور محمد عمار ..... ٧٥



General Organization Of the Alexandria  
Library (GOAL)

*Bibliotheca Alexandrina*

### مجلس الإدارة

- حَسَمَد يُونُسُفُ الرُّومِي (رئيساً)
- د. أَسَامَةُ أَمِينُ الخولي
- د. وشاح محمد الصباح
- د. عبد المالك التميمي
- د. علي المشوط
- د. نورية الرومي

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تنقلها للنشر .



## التعريف

«البحث» في اللغة هو الطريق الواضح ، و«البحث» أصلاً طلبك الشيء في التراب ، وهو أيضاً أن تسأل عن شيء أو أن تفتش عنه . والبحث في لغتنا المعاصرة مرادف لكلمتين متميزتين في اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، إحداهما تعني التفتيش عن الشيء والثانية تعني البحث العلمي بمعنى الدارج اليوم بها بادئة (re) التي تعني التكرار واستمرار السعي ، وهذه هي السمة التي يعرفها كل من شغل بهذا النشاط في مجال أو آخر من مجالات المعرفة . ثم إن أي حديث في مناهج البحث العلمي سرعان ما يصبح ، وبحكم الضرورة ، حديثاً في فلسفة العلم ، والتي هي سعي الإنسانية المتواصل منذ أقدم العصور لتحسين فهمنا للطبيعة وزيادة رصيدنا من «المعرفة» .

ولكن ماهي المعرفة ؟ المعرفة وأشياء مرادفاتهما (العلم - الحكمة - الحقيقة) كلها كلمات تصف تراكم الخبرات والتجارب وأساليب تنظيمها . فالمعرفة إذن لا تعبر عن شيء بسيط ، وإنما عن خليط معبر من المعلومات والخبرات والتجارب والتفانيات (التكنولوجية) والنظريات والأيديولوجيات والأخلاق ، يمتد على طول طيف فسح ، في إحدى نهايته المعطيات الغفل ، وفي الطرف الآخر سعي نحو الصلح الذي يتجاوز كل فهم البشر ليمتد إلى الإلهام والوحي . ولقد كانت المعرفة قديماً «زينة» ولكنها اليوم - وبعد أن تلاحم العلم مع الثقافة - وقوة ، الأمر الذي يطرح أسئلة فلسفية واجتماعية في نفس الوقت . فعلى الصعيد الفلسفي يثور التساؤل حول ما يمكننا معرفته ، أو عن الطريقة التي نعرف بها ، بينما يطرح المنظور الاجتماعي

## في مناهج البحث العلمي : وحدة أم تنوع ؟

الحقائق منعقدة في الشبهات  
(الحسن بن الهيثم)

مسألة الطريقة التي ننظم بها ما نعتبره معرفة ونصنّفه ونستخدّمه . ولقد كانت هناك على مرّ العصور تصنيفات كثيرة للمعرفة ، ولكننا اليوم نخيّر عادة بين الإنسانية والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية والتقانة ، ونترجّع بشكل عام بين موقّفين فلسفيين يرى أحدهما أن لكل صنف منها منهج البحث المتميز والخاص به ، بينما يرى الآخر أنها تنحو نحو وحدة المنهج <sup>(١)</sup> .

وما زال هناك اليوم كثيرون يرون أن قضية المنهج قد حُسمت في العلوم الطبيعية منذ بداية عصر النهضة . إن الإرهاسات الأولى لأرسطو في التمييز بين من يرون أن العالم تحكمه كائنات خارقة للطبيعة ( وهم من ساهم (theologi) وفئة الساعين لفهم العالم بدلالة أسباب «طبيعية» (Physici) ، والتي بدأت سعي الإنسان لاختزال فوضى العالم الظاهرية إلى مبادئ بسيطة وموضوعية ، قد حفزت طاليس (Thales) وأناكسيمندر (Anaximander) للبحث عن المادة «الجوهر» ، ثم أكسيمينز (Aximenes) وإقليدس (Euclid) وأرسيميدس (Archimedes) للتمييز عن الخلافات في النوع أو الصفة بدلالة الأرقام (أي الرياضيات) ، وحتى نصل إلى جليليو ونيوتن ، عبر الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم . ولقد تبنى أرسطورؤية للمنهج العلمي ، ظلت سائدة في أوروبا لأكثر من ألف عام ، تقوم على أساسين : الأول خاص بالهيكل المنطقي ، بدءاً بالمبادئ الأولية أو السلمات . وصعوداً في طبقات الاستنتاج المنطقي الصارم ، وصولاً إلى النتائج . والثاني خاص بالاجرائيات ، بدءاً بالملاحظة الدقيقة ثم استنباط التعميمات في سلم تتصاعد درجاته حتى نصل إلى المبادئ الأولية . وتعني هذه الرؤية أن العالم يكشف بالاستقراء ما يقيم بناء معرفته في كيان استنتاجي ، هو العلم <sup>(٢)</sup> . ولقد ظلّ العالم الغربي ، حتى القرن السابع عشر وظهور أفكار فرنسيس بيكون ، أسير هذه الرؤية الساكنة الجامدة التي تكاد تقدّس المبادئ الأولية (والتي تبنّ فيها بعد خطؤها) ، والتي تؤكد على استخلاص العموميات من المعطيات الإمبريقية ، لا استخدامها لاختبار صحة النظريات . ولكن العلماء العرب كانوا قد تخلصوا من إسار الرؤية الأرسطية قبل هذا بشائنة قرون تقريباً . فقد استنكر البيروني احترام الناس المبالغ فيه لأراء أرسطو ، وأكد أنه لم يكن - على أحسن الفروض - سوى منظر . أما ابن الهيثم فقد صاغ الرؤية الجديدة للمنهج العلمي في شئون الطبيعة بوضوح أكبر عندما قال :

«إني لم أزل منذ الصبا مرتاباً في اعتقادات الناس المختلفة ، ومسك كل فرقة بما تعتقده من رأي ، حتى رأيتني أشكك في جميعه . مؤمناً بأن الحق واحد وأن الاختلاف فيه هو من جهة السلوك إليه . فلما اكتسمت وتبيّنت لإدراك الأمور العقلية ، انقطعت إلى طلب معدن الحق ووجعت رغبتي وهمي إلى إدراك ما به تتكشف قوصيات الظنون ، وتنقشع غياهبات التشكك المفتون ، فبعت عزيمتي إلى تحصيل الرأي المقرّب إلى الله جل ثناؤه ، المؤدي إلى رضا ، الهادي إلى طاعته وتقواه . . . . واستقرّ عندي أن

(١) انظر على سبيل المثال ، لا الحصر :

Paul Sayde, Toward one Science: The Convergence of Traditions (New York, St. Martin's Press, 1978).

Joseph Margolis: Science Without Unity: Reconciling the Human and Natural Sciences (Oxford, Blackwell, 1987)

(٢) لقد كان أحد المبادئ الأولية هو أن الأجسام تتحرك نحو مكانها «الطبيعي» ، بينما استنبط من الملاحظة أنها تسقط إلى الأرض . وهكذا ، فإن أحد الخصائص هو أن مركز الأرض هو المكان الطبيعي للأجسام .

في متنتج البحث العلمي : وحده أم يتبع

ليس ينال الناس من الدنيا شيئا أجود ، ولا أشد قرى الى الله ، من إثارة الحق وطلب العلم ، فحضت إلى ذلك في ضروب الآراء والاعتقادات وعلوم الديانات ، فلم أحظ منها بباطل ، ولا عرفت فيها للحق منهجا ، ولا إلى الرأي اليقيني مسلكا متجددا ، فرأيت أنني لا أصل إلى الحق إلا من آراء جوهرها الأمور الحسية ، وصورتها الأمور العقلية ، فهي تبقى بالمعقول وتقوم على المحسوس.

إن هذا التأكيد على الموضوعية والتجرد من الهوى الشخصي هو ما تبلور كمنهج علمي مع بداية عصر النهضة . في أوروبا ، ممثلا في أركان ثلاثة ، وصفها برتراند راسل في إيجاز بلغ بأنها :

(١) استناد تقرير الحقائق العلمية إلى المشاهدة ، لا إلى سلطة من يقررها من الأفراد أو المراجع ، أو مكائهم .

(٢) عالم الجهاد منظومة تخضع كل التغيرات فيها لقوانين طبيعية

(٣) الأرض ليست مركز الكون ، والإنسان ليس هو الفرض من وجودها ، إذ أن «الفرض» من وجود الأشياء مفهوم بلا فائدة في العلم .

ولقد رقد فرنسيس بيكون هذه الأفكار عندما دعا إلى اعتبار الملاحظة وحدها الطريق الصحيح للفهم والتوصل إلى الحقيقة . وتصبح جاليليو ، عن طريق قدراته الرياضية ، في التوفيق بين الموقفين عندما أقر باستحالة اختبار المبادئ الأولية اختبارا مباشرا ، بينما أكد دور التجربة في اختبار التوقعات القائمة على هذه المبادئ . ولعل الانجاز الهام لجاليليو هو إقامة التوازن بين ما يمكن ملاحظته وبين المبادئ الأولية ، التي نسميها اليوم «النظريات» ، فإن اتفق ما نلاحظه مع ما نتوقعه من تطبيق النظرية يمكننا القول باجتياز هذه الأخيرة للاختبار . ومنذ ذلك الحين ونحن نقبل لفكرة أن البحث العلمي يولد النظريات ويختبر صحتها ، وأن ممارسته هي في التفاعل المستمر بين النظرية والتجربة .

ومع انتشار هذا النهج ظهر القانون في العلوم الطبيعية إلى جانب النظرية . والقانون - على عكس النظرية - لا يساعد على فهم العالم ولا يسمح بالتنبؤ بما سيقع ، إذ أنه مجرد وصف مركز لما نشاهده ، يصاغ عادة في أسلوب رياضي كمي . وهكذا ، فإن فهم القانون يحتاج إلى نظرية لتفسير ما يسجله القانون من مشاهدات . وعلى مرقنين تقريبا من الزمان تبلور رصد طيب من قوانين الطبيعة ، مثل حفظ المادة ، وحفظ الطاقة ، القائلين بأن هناك في الكون أشياء لا تتفق ولا تنفي ، وإنما تتغير أشكالها وصفاتها .

ولقد أثار قانون حفظ الطاقة في القرن الماضي ، ومع تطور الآلات المحركة البخارية بالذات ، الاهتمام بظاهرة الانعكاسية (irreversibility) في العمليات التي تحدث في الطبيعة . وأدى هذا إلى صياغة واحد من أخطر قوانين الفيزياء في ذلك القرن ، ألا وهو القانون الثاني للديناميكا الحرارية <sup>(١)</sup> ، وإلى بلورة مفهوم الإنتروبيا (entropy)

(٣) قول الكاتب ليربطني لورد ستو (C. P. Snow) في كتاب شهير له صدر في منتصف الخمسينيات من الألفينيات ، إن من لا يعرف هذا القانون لا يجب أن يعتبر ليا مقبلا .

الذي يقيس اتجاه الأحداث في الطبيعة نحو حالة لا مفر منها من السكون والحمول . وهكذا صاغ كلاوسينوس عام ١٨٥٦ واحداً من أخطر المقولات في ذلك القرن هي :

### «طاقة الكون ثابتة وإنتروبيا الكون تسيير نحو التناوب»

وليس من غريب القول تقرير أن هذه صياغة علمية لأن للعالم تاريخاً ، فهذا أمر مسلم به ، ولكن الصدمة جاءت عندما أشارت هذه المقولة الى أن هذا التاريخ هو تاريخ الانحلال والخلل وتلاشي التميز بين الأحوال المتباينة . وهكذا يصبح مفهوم الزمن انحلالاً ، وتاريخنا سلسلة مستمرة من الكوارث ١١ ولكن هذه الرؤية لم تدوم طويلاً لأنها أسست على افتراض أن الكون نظام منمزل عما حوله ، مغلق على نفسه ولا يتفاعل مع أي شيء حوله ، ولأن شكوكنا قوية نشأت منذ اللحظة الأولى حول انطباقها على الأنظمة الحية .



وفي قرنا هذا ، وعندما ثار الجدل حول ما إذا كانت أنشطة بحثية أخرى في شئون النفس البشرية والمجتمعات البشرية مما يستأهل أن نطلق عليه اسم «العلم» ، عاد المشتغلون بفلسفة العلوم إلى تأكيد ما قاله فرنسيس بيكون من عدة قرون في شأن اخضاع النظرية الى الاختبار الصارم ، واعتبار هذا الاختبار القول الفصل في شرعية تسمية مثل هذه الأنشطة علوماً . وهنا ظهرت مدرستان مختلفتان : «رودولف كارناب Rudolf Carnap يرى أن مفتاح الموقف هو في الأفكار الخاصة بالتحقق والاستقراء . والنظرية فيما يرى ، هو وأتباعه ، تكون علمية حقاً عندما يمكن التحقق منها عن طريق الملاحظة الإمبريقية . وقاده هذا إلى محاولة صياغة منطق للاستقراء (inductive logic)»<sup>(١)</sup> . إلا أنه تبين أن هذه مهمة بالغة المشقة ، محفوفة بالمزالق المنطقية . وانتهى الأمر إلى تسليم كثيرين بأن هذا المنطق يعجز عن استيعاب ما يدركه الإنسان بالقطرة في شأن ما يعتبر تمزيقاً لنظرية ما . أما كارل بوبر (Sir Karl Popper) فقد ركز على نقض النظرية ، بدلاً من تأكيدها<sup>(٢)</sup> .

ودعا إلى أن تكون مهمة المشتغل بالعلم هي السعي لتخطئة النظريات لا لتأكيدهما<sup>(٣)</sup> . وهكذا تكون أفضل النظريات هي تلك التي تجتاز أكثر الاختبارات صرامة . ولكن هذا يعني أننا سننبذ فكرة البحث عن سند لأية فكرة يتجاوز ما تحت أيدينا من شواهد في لحظة ما ، ودون أن نكون في ولع يبرر القول بصحتها أو حتى احتمال ذلك . إن الأمر لا يتجاوز مجرد تقرير أنها قد اجتازت اختبارات دقيقة . ومن الواضح أن السير في هذا الطريق إلى آخر مداه

R. Carnap & R. Jeffrey, Studies in Inductive Logic and Probability (Berkeley, University of California Press, 1972). (١)

Karl Popper: The Logic of Scientific Discovery (Butchinson, 1959). (٢)

(٣) قد نجد صدى لهذا في مقولة ابن الهيثم : «الراغب على الناظر في كتب العلوم - إذا كان خروجه معرفة الحقائق - أن يجعل نفسه عصباً لكل من ينظر فيه ، ويجعل كرهه لي منه ، ولي جميع حوائجه ، ويخلصه من جميع جهله وإفراجه ، ويهزم أيضاً نفسه عند عصبه .



سوف ينبغي أن للنشاط العلمي قيمة ، بينما نحن نطبق ما يخلص إليه وينجح متواصل ومتصاعد ، وبالذات في التطبيقات التقنية ولنظريات والقوانين العلمية . والأكثر من هذا ، هو أن صياغة بوبر نفسها ما زالت تركز على الاستقراء الذي سمح للإبداع عنه ، إذ ما فائدة تعريض النظرية للاختبار ما لم تكن نرى أن اجتيازها إياه يدعونا إلى ترجيح احتمالات اجتيازها لاختبارات أخرى في المستقبل ؟ فمن غير المعقول أن نستمر في تكرار التجربة للتأكد من ثبات الظروف التي تجري فيها .

ولكن فلاسفة العلم ، مع اختلافاتهم ، اشتركوا في اعتبار العلم نشاطا عقلانيا تراكم معه المعرفة ويتحقق التقدم . ولكن توماس كون (Thomas Khun) جاءنا في الستينات بكتابه الذي ألّفى بظلال الشك حتى على هذا المفهوم<sup>٣</sup> ، إذ أكد على لحظات الانقطاع ، لا الاستمرار ، في تاريخ العلم عندما تظهر أفكار جديدة لتحل محل أفكار قديمة . وقد تلخّص فكره «هرون» ، دون ما خطأ كبير ، في القول بأن العلم يمر بشكل دوري في عدد من المراحل ، تتلو الواحدة منها الأخرى ، تبدأ بالعلم «العادي» ، مروراً بمرحلة «الأزمة» العلمية عندما تراكم التناقضات بين تنبؤات النظريات السائدة والمشاهدات ، وحتى نصل إلى مرحلة «الثورة» العلمية التي تحل هذه التناقضات عن طريق نظرية جديدة ، نمود على إثرها إلى مرحلة علم عادي جديدة . والعلم العادي في تشخيص «كون» يحافظ بمثل نموذج (Paradigm) يمسّد النظرية السائدة . ويقتصر النشاط في هذه المرحلة على إتقان العمل العلمي في إطار النموذج وإزالة ما بلى من غموض في شأنها حتى تتميز مكائنها . وعندما تتكاثر لظواهر الشاذة وتميز المحاولات والتفكيكية في إطار النموذج السائد عن شرحها ، ندخل مرحلة الأزمة التي لا سبيل لتجاوزها إلا بثورة . ولكن هذه الثورة لا تقتصر على تقديم إجابات أفضل لأسئلة قديمة ، بل إنها تأتي معها بطرق وأسئلة جديدة ، كثيرا ما تختفي معها المسائل القديمة . فالنظرية الجديدة كثيرا ما يعبر عنها بنقد مفاهيم النظرية القديمة ، لا استيعابها . ويعني هذا أن المقارنة بين الكيانات المعرفية المتعاقبة لمسائل مختلفة لا توفر معيارا مشتركا لقياس نجاح كل منها ، أي أن العلم ليس «تراكما» بالمعنى الدقيق للكلمة ، فالإجابات القديمة تفقد أهميتها في المرحلة الجديدة ، إذ أن النموذج الجديد يمثل قفزة إلى نظرة جديدة إلى نفس الأشياء . وقد يبدو لأول وهلة أنه ليس ثمة فارق كبير بين رؤية «توماس كون» للعمل العلمي وبين التصورات السائدة في شأن تراكمية العلم أو دقة مفاهيمه ومصطلحاته ، أو وحدته إذ أنها لا تمثل نقضا كاملا لما يقدر ما تؤكد الارتباط العضوي بين طرق التفكير والبحث ، بل ومضمون العلم نفسه ، وبين تطوره التاريخي . إلا أنه ليس من العسير التعرف على اعتراضات ربه «كون» على كل وحدة منها . وعندما استطرد البعض من طرحه الجديد إلى القول بأن النشاط العلمي لاعتقالي (irrational) ، استنكر كون هذا وقال بأن هناك أسبابا مقنعة لتفضيل نظرية علمية على أخرى ، وإن تعدد التوفيق بين هذا وبين نقده الأصلي لموضوعية العلم . ولقد أدى هذا الخضم من محاولات التأكيد والرفض والعقلانية إلى معالجة فلاسفة العلم لمسئلة جديدة تأخذ في الاعتبار ما لا سبيل لإنكاره من أن المشتغلين بالعلم قادرون على التنبؤ ببعض الظواهر الطبيعية على الأقل ، وعلى التحكم فيها بدرجات أرقى بكثير مما مضى . وهكذا ظهر مؤخرا مفهوم «الواقعية» العلمية . فبينما يرى

المشتغلون بالتجريب أن الكائنات النظرية التي لا سبيل لمشاهدتها (مثل الجسيمات الدقيقة) ليست سوى غاذخ ملائمة لانتظام خبراتهم ومشاهداتهم في نسق متناسك ، يرى «الواقعيون» أنها موجودة فعلا وأن لها كل الخواص التي تشير إليها النظريات العلمية . والجندل نفسه يثور حول النظريات . فالواقعيون يرون أنها تقرير صادق للمعنى الخفي للكلمة عما يجري في العالم ، بينما يرى الرافضون للواقعية أن النظريات قد تكون مقبولة وكافية ومعززة بالتجربة ، ولكن دون التسليم بأنها صور لواقع الأشياء . وحتى عندما يسلمون بأن بعض النظريات قد تكون صحيحة ، فإن علينا أن نمتنع عن تقرير ذلك أو حتى عن طرح التساؤل في هذا الشأن . وليس من المستغرب إذن أن يسود الفكر الرافض للواقعية بين علماء فيزياء الجسيمات الدقيقة .

وعندما استمرت مسيرة العلم الطبيعي مرَّ بانتفاضة أخرى في مطلع القرن العشرين . فمع ظهور نظرية النسبية وميكانيكا الكمّ (quantum)<sup>٢٥</sup> ومفهوم علم اليقين ، انتفخ مجالان جديداً على طرقي نفيس ، هما العمليات الكونية (cosmic) على مستوى الأجرام السماوية ومنشأ الكون ، وحقيقة ما يجري فيه ، والعالم الصغرى (microscopic) على مستوى الأجرام السماوية ومنشأ الذرة ومكوناتها ، والجسيمات المتناهية في الصغر والتي تتكاثر يوماً بعد يوم .

وجاءت هذه الانتفاضة بشيء جديد تماماً هو مفهوم الثابت الفيزيائي ، والتي نعرف جميعاً واحداً منها على الأقل هو سرعة الضوء في الفراغ . وأدى ظهور هذا المفهوم إلى موقف طريف حقاً يتناقض الفكر السائد من أن التجربة هي السبيل لاختبار النظرية ، وأنه - على حد تعبير أينشتاين - لا سبيل يؤدي للوصول من التجربة إلى نظرية . ففي فيزياء الجسيمات الدقيقة يدرك المنظرون الصعوبات الجسيمة في إجراء التجارب . والنظريات التي يفرجون بها في شأن هذه اللبئات الأساسية للمادة تظل معلقة في انتظار صدور الحكم في شأنها حتى تجري تجارب بالغة التعقيد ، باهظة الكلفة . ونحتاج النظرية قبل أن تصبح صالحة لتطبيقها في التنبؤ بما سيحدث إلى تحديد قيم رقمية لكثافة كل واحد من الجسيمات التي تسمى النظرية لوصفها . وهناك اليوم في مراجعة هذا المأزق من بين المشتغلين بالفيزياء النظرية من يرى أن التجربة هي الطريق الأمثل ، لا لمجرد وصف سلوك هذا الحشد المزبد من الجسيمات الدقيقة ، ولكن للتعرف على أسباب هذا السلوك وللكشف عن القاسم المشترك فيما بينها . لقد احتاج أينشتاين وهو بصوغ نظرية النسبية العامة إلى ابتداء ثابت جديد سيأه «الثابت الكوني» (cosmological constant) ، سرعان ما سقَّاه علماء الفلك في العشرينات عندما أخذوا يفهمون امتلاء الكون بالمجرات المنتشرة بانتظام والقادرة على حل مشكلة أينشتاين دون حاجة إلى مفهوم الثابت الكوني . وهكذا طرحه أينشتاين جانباً ، شأنه في هذا شأن كثير من الأفكار العلمية ، واعتبره واحداً من أسوأ الأخطاء العلمية التي يمكن تصورها ، من حيث أنه محاولة لتفسير النظرية حتى تتواءم مع فكر مسبق . ولكن الثابت الكوني عاد إلى الظهور في العقد الماضي على يدي عالم سوفييتي أشار إلى

(٢٥) في هذا المجلد عرض حقن الظهور حائز النظرين وتطورهما

فائدته في النظريات الخاصة ببدايات الكون ، لأنه ليس في واقع الأمر ثابتا ، بل إنه يتغير مع تغير درجة الحرارة ، بينما أشار عالم أمريكي آخر إلى أنه يعتبر الآن مقياسا لكمية الطاقة في جزء من الفراغ الفضائي ، واعتبر أن الأمر الآن مرهون بالتجربة لاستكمال كل الحقائق اللازمة لقيام نموذج متكامل<sup>(٩)</sup> على أساس هذا المفهوم .

وهكذا لم يعد من غير المألوف القول بأن العلم لا يبدو كونه الآن منظومة من الافتراضات التي لا يمكن تبريرها إلا من حيث صلاحيتها للتعامل مع الواقع ، خصوصا بعد أن قال وماكس بلانك ، أحد الرواد الفطاحل في الفيزياء الحديثة : «إننا لا نملك الحق لافتراض وجود أي قانون طبيعي » ، بل إن «بول فايرأبند» ، أحد المشتغلين المعاصرين بفلسفة العلم ، ينادي بأن المعرفة بكل أشكالها وأنواعها أمر نسبي وإن جميع الآراء مشروعة<sup>(١٠)</sup> ! ولكن لفأيرأبند نظرات ثاقبة في المنهج تستحق أن نتوقف عندها . فهو يذكرنا بأن جاليليو ما كان له أن يحقق إنجازاته لو أنه اتبع الأسلوب العلمي ولم يتهك ما يعتبر من القواعد الأساسية للمنهج العلمي .



إننا نشاهد اليوم ما يبدو وكأنه صياغة جديدة للعلم ، يعتمد فيها على الحتمية (determinism) ويسلم بمفاهيم العشوائية ، وعدم الثبات ، واللاخطئية (non- linearity) . ويأت الطبيعة تتضمن مظاهر جوهرية لعشوائية الأحداث والانعكاسية ، ويأت القوانين الحتمية التي صيغت على امتداد القرون الأخيرة لا تنطبق إلا على حالات قليلة جدا مما يحدث في الطبيعة<sup>(١١)</sup> . إن عمليات طبيعية مألوفة وشائعة مثل اضطراب سريان الموائع (turbulence) ، والانتشار (diffusion) ، والتفاعلات الكيميائية عمليات يستحيل وصفها بالقوانين الحتمية ولا تكرر حدوثها بنفس الشكل . إن النتيجة المنطقية لهذا هي انعدام إمكانية التنبؤ بما سيحدث ! ويندرج هذا أيضا ، فيها يسلم العلماء اليوم ، على الأحداث الكونية بقدر ما ينطبق على الجسيمات الفيزيائية ، إلا أن هذا لا يعني أن العشوائية تعني الجهل بما يجري في الطبيعة ، وإنما التسليم بوجود عدة «احتمالات» ، كجوهه كامن في العمليات العشوائية وحالات عدم التوازن . إن هذا التحول الجذري قد أدى إلى تقارب كبير في المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية . وإذا ما كان هذا التقارب قد بدأ أيضا بتحريك العاملين في مجال العلوم الاجتماعية نحو تطبيق كثير من أساليب البحث في العلوم الطبيعية ، مثل التحليل الاحصائي والنمذجة الرياضية ، فإن الصياغة الجديدة للعلم الطبيعي والتي تبلور الآن أمام أعيننا قد أظهرت أن النظم المعقدة التي تدرسها العلوم الاجتماعية ليست أكثر تعقيدا من النظم الطبيعية . لقد كانت المحاولات الأولى لإحداث التقارب بين مجالي المعرفة أسيرة العلم الطبيعي التقليدي ، بموضوعيته وحتميته ، ومن ثم ، كان القول بأن المنهج الحديث في العلوم الاجتماعية يجب أن يكون غير

(٩) مزيد من التوضيح لهذا المعلقة للبرسا ، انظر عدد مجلة Scientific American (أيار / مايو) ، ١٩٨٨ .

(١٠) Paul K. Feyerabend, *Against Method: Outline of an Anarchistic Theory of knowledge*, (Humanitarian Press, 1975) .

(١١) في هذا المند عرض كتاب صمو حديلا من موضوع «الفوضى» في العلوم الطبيعية وأساليب معالجتها علميا .

محمل بالقيم (not value-loaded). إلا أن الصياغة الجديدة للعلوم الطبيعية تسمح الآن ، مع وجود المعلومات غير الكاملة وأوضاع عدم الاستقرار في القيم ، بالتسليم بإمكانية تصور أشكال متباينة للمستقبل وتدعو إلى اهتمام أكثر تركيزاً على منظومة القيم في النظام الاجتماعي ، والبعد عن المحاولة اليائسة لصياغة علوم اجتماعية غير محملة بالقيم<sup>(١٢)</sup>.

والطريف في الأمر أن كثيراً من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية لم ينتبهوا بعد تماماً لهذا التحول الثوري في العلوم الطبيعية ، وما زالوا يبن منكر يؤكد أنها علوم ، وبين متحمس لإثبات «علميتها» في حدود الصياغة التقليدية للعلوم الطبيعية . ومن الأمثلة على هذا الجدل وقائع الندوة التي عقدت منذ ست سنوات خلت لمناقشة إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي<sup>(١٣)</sup> بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على إنشاء المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر . الأستاذ الدكتور توفيق الطويل ، أحد كبار أساتذة الفلسفة العرب يقرر في مداخلته في مطلع أعمال الندوة «أن العلم لا يستقيم بدون حتمية تجعل ظواهره ضرورية محتومة الوقوع ، وليست ممكنة تقع مصادفة واتفاقاً» ، مع أنه يعترف في نفس المداخلة ، وقيل هذا التقرير الحاسم بحتمية العلم ، بأن «قوانين العلوم الطبيعية دقيقة وعادة تتخطى الزمان والمكان» . وإن اعتبرت في القرن العشرين احتمالية ترجيحية وليست يقينية . لأن الحتمية determinism قد اهتزت في قرننا هذا . أما الدكتور صلاح قنصوة ، رئيس وحدة بحوث مناهج البحث في المركز فيختار لإسهامه عنواناً أخذكاً هو : «وحدة المنهج وتعدد المنحى في العلوم الاجتماعية» .

ولامر من التسليم بأن العلوم الاجتماعية تسعى لتوجيه الأفعال بشكل مباشر ، لا لمجرد التأمل ، عن طريق انعكاساتها على السياسات العامة والخطط من أجل «تغيير العالم» (على حد تعبير أنور عبد الملك) . فلا عجب إذا ما شاهدنا مظاهر تصنيف العلوم الاجتماعية ذاتها على عدة أسس : فهي لدى البعض إما علوم «قاسية» (hard) أكثر صرامة ودقة في منهجها ، تعتمد بدرجات متزايدة على عناصر كمية ، وتحليلات رياضية (الاقتصاد الرياضي مثلاً) ، أو علوم «رخوة» (Soft) ما زالت تتغلب عليها المعالجات الوصفية (علم الاجتماع) . وهي لدى البعض الآخر إما علوم تؤكد على الحياد الأيديولوجي ، أو أخرى تعتبر الالتزام الأيديولوجي متطلفاً أساسياً في البحث عن الحقيقة . إن هذه التصنيفات غير الدقيقة ، وغيرها كثير ، تعكس في حقيقة الأمر سمة تميز العلوم الاجتماعية إلى حد ما عن العلوم الطبيعية ، ألا وهي التناقض بين سعيها للوصول إلى مبادئ وقوانين اجتماعية عامة ، وبين رغبتها في أن تكون دليلاً هادياً في عمليات صياغة السياسات والخطط التنفيذية ، وانتشار أنشطة البحث فيها على امتداد طيف عريض من الدرجات المختلفة من التركيز على هذا التقيض أو ذلك . وفي تنوع أنشطة «كارل ماركس» البهيمية خير مثال على هذا . فإذا ما كان هو صاحب واحدة من أكثر النظريات الاجتماعية تجريداً ، فقد يقام هذا الكيان النظري استناداً إلى

(١٢) مزيد من التفاصيل انظر كتاب حامية الأمم للمدة (1985) — UNU — Tokyo, The Science and Praxis of Complexity

(١٣) إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي ، بيروت ، دار النشر للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ .

تحقيقه لمراجع عدة عن واقع حال المجتمعات البشرية في عصره وهو صاحب المانفستو الشيوعي ، أخطر دليل عمل ترددت أصداؤه ، وما زالت ، منذ قرن ونصف من الزمان . وما زال من المسير في يومنا هذا تصنيف العلوم الاجتماعية ما بين «المفكرين» و «الفاعلين» . إن التساؤل حول ما إذا كانت العلوم الاجتماعية «علمية» حقا سؤال ساذج . فإذا ما أتيمت بعدها عن «الموضوعة» فإن مردّ هذا إلى أن ما تطرحه من تساؤلات لا يمكن عزله عن البيئة التي خرجت عنها هذه التساؤلات . وإذا كان ما تصل إليه من إجابات أقلّ تحديدا عما ألفناه حتى زمن قريب في العلوم الطبيعية ، فإننا نسلم اليوم باستحالة قدرة العلوم الطبيعية نفسها على عزل المسائل التي تعالجها عن بيئتها<sup>(١٤)</sup> .



ويعرّفنا الحديث عن «المفكرين» و «الفاعلين» مباشرة الى كلمة أخيرة عن البحث العلمي والبحث الثقافي . اللغة قديمة قدم «الإنسان الصانع» . وهي بهذا أقدم بمئات ، بل آلاف السنين ، من العلم بمعناه الذي تبلور منذ قرون لا تتجاوز الأربعة ، إنها مجامع الخبرات والمهارات التي تراكمت على مرّ أزمنة طويلة للوفاء بطلب اجتماعي معين من الخدمات والمنتجات . ومن ثم ، فالحديث عن منهج للبحث الثقافي أمر جديد تماما ، بناء به التلاحم المتزايد في القرن الأخير بين البحث العلمي بمعناه التقليدي وبين تطبيق نتائجه كتقانات تطبق في إنتاج السلع وتوفير الخدمات . والمشتغلون بالبحث في العلوم<sup>٦</sup> اعطية (وَمَا في ذلك الحيوية) يميزون بين البحث التطبيقي والتطوير وإنتاج السلع وتوفير الخدمات . وقد تصور الأمر وكأنه «حزام ناقل» تدخل عليه في بدايته نتائج البحث العلمي الأساسي والمجرد الذي يمكن اعتباره ، بشكل عام وحتى وقت قريب جدا ، سعيًا وراء فهم أفضل للعالم من حولنا دون ما هدف نفعي معين . ومع استمرار حركته على هذا الحزام تدخل النتائج وعطلة البحث التطبيقي ، الذي هو بطبيعته بحث هادف يسعى لتحقيق هدف نفعي معين (وإن انتهى الأمر في أحوال كثيرة الى تحقيق أهداف أخرى لم تكن في الحسبان) . وثاني بعد هذا مرحلة التطوير ، التي هي مزيج فريد من التفكير المنهجي والحدس والاستغناء من تجارب وخبرات سابقة في التغلب على مشاكل استغلال نتائج البحث التطبيقي . استغلالا اقتصاديا ، ودون معرفة منهجية كاملة بسبب المشكلة أو سبب نجاح علاجها . وإذا ما كانت منهجية البحث التطبيقي لا تختلف كثيرا عنها في البحث الأساسي ، فإن التطوير أمر مختلف تماما ، حتى وإن تبلورت له في العقود الأخيرة مبادئ علمية تساعد في إنجاز المهمة ، مثل قوانين التشابه الديناميكي (Dynamical Similarity) التي تربط بين المشاهدات التجريبية على النماذج المصغرة وبين ما يتوقع حدوثه في التطبيق على المستوى الكبير . إن جهد التطوير في حقيقته مقياس لعجز المعرفة العلمية في وقت ما عن تقديم «نظرة» تصلح للتطبيق على المستوى الكبير . وكلما كانت النظرية أكثر دقة وشمولا ، قلّ جهد التطوير اللازم لتحقيق استغلال اقتصادي موثوق في أدائه . أما عندما نصل إلى اللحظة الأخيرة على الحزام الناقل ، فإننا نكون أمام منتج أو خدمة متاحة في السوق ، عليها طلب يبرر سعي الناس للحصول عليها بالثمن الذي تعرض به .

(١٤) لقد تأثرت العلوم الاجتماعية من جانب آخر بالانسياب . ولعل هذا التغيير أوضح ما يكون في التاريخ الذي يعتبر البصر ملأ بمهتمة كنا نرى أموره إلى الأبد والفسلة .

ولكن الحزام الناقل يحمل في عودته إلى نقطة البداية مسائل جديدة ، نبعث من التجربة الميدانية ، لكل من محطات البحث الأساسي والتطبيقي وأعمال التطوير . وهكذا نرى التفاعل والتعاون اللذين يزدادان ثراء وقوة بين كل هذه الأنشطة في حالنا الراهن . إن الحدود الفاصلة بين هذه التصنيفات تتضاءل حتى تكاد تتلاشى في مجتمع المعلومات وحتى يكاد الأمر يدهونا الآن ، كما قال «ماركيوز» مؤخرًا ، إلى أن ننسأل - عندما نحقق إنجازات الرياضة البحتة والفيزياء النظرية احتياجات كبرى شركات الحواسيب وهيئة الطاقة النووية يمثل ما نشاهده من الكمال - عما إذا كان هذا يدهونا إلى نظرة أكثر تنقيها في أفكارنا التقليدية من العلم نفسه .

د . أسامة الحوري

\*\*\*

ان كانت العلوم الاجتماعية ائيرة البروز على الساحة المعرفية فانها حققت في الحقبات الثلاثة الاخيرة انتصارات باهرة جعلتها تتجدد بمحق وتفرض نفسها كطرف يقرأ له الحساب ضمن سائر العلوم الاخرى ويوليها اصحاب القرار اهمية يمكن وسنحاول في هذا الاستعراض السريع الوقوف عند اهم الانجازات الجديدة التي يتمحور حولها تطور العلوم الاجتماعية شرقا وغربا وسنولي اهتماما خاصا بالمستجدات الحرة . اما النقاط التي ينبغي اثارها فانها عديدة متنوعة ولا يمكن ان نسلط بعض الاضواء الا على عدد محدود منها وهي .

١ - اهمية الدراسات الميدانية وتضمخها نوحا وعددا خاصة وان الادارة والمؤسسات أصبحت لا تكاد تتخذ قرارا في أي قضية وفي أي بلد ما بدون دراسات تمهد لسن السياسات وصيغ التناير .

٢ - تغير بعض المفاهيم وتحولها وتهديد النظريات العامة .

٣ - تطوير المنهجيات الساجم من تقانات البحث الجديدة مثل الحاسوب والاهلامية والتقنن في اتقات نظام مخزين المعطيات الاولية في بنوك غنصة .

٤ - المساءلات الملحة والمبسوطة على الساحة العلمية عند أهل الذكر نظرا لانتعاج الدراسات واتحام مجتمعات حديثة ومباين جيلدية ضمن ائيرة العلوم الاجتماعية .

٥ - مكانة البحث الاجتماعي ومعوقه المنهجية على الساحة الحرة إذ دخلت ائتنا هذا العلم من بابه العريض وهي تسعى الى ربط الماضي بالحاضر والمستقبل ولإل إحكام الصلة بين الداخل والخارج وتحقيق الشمول لتغطية مختلف النشاطات المجتمعية .

## تطور مناهج البحث في العلوم الاجتماعية

عبدالوهاب برحردية

وقد يحسن بنا أن نوضح منذ البداية بعض القضايا حتى نزيل عنها ما قد تثيره من ملاحظات - ولعل أولها تلك الاشكالية المتعلقة بتعدد المناهج المتوخاة في كل اختصاص ويتعدد الاختصاصات ذاتها وتباين العلوم الاجتماعية من حيث القطاع ومن حيث الاهداف ومن حيث التعامل مع الواقع مما قد يثير الشك والحيرة في نفس الملاحظ . ومن المفيد جداً أن نشير الى أن عديد الاختصاصات تكونت تاريخياً حول المناهج المتبعة فتعدد المناهج هو الذي أدّى الى تعدد الاختصاصات - لا العكس - فعلم العمران مثلاً وعلم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاعراق انفصلت عن علم الاجتماع لما أصبح واضحاً أن موضوعها يفرض تخصيصاً في المنهج المتبع واسلوباً يفرد به فظلت قطاعات البحث تتمفصل وتكون وحدات لها ذاتيتها وخصوصياتها - والمناهجية المتوخاة ساهمت في إثبات تلك الرحلة وبرزت - الاختصاص - فالدراسات الاحصائية واستخدام الرياضيات لتحليل المعطيات العديدة واستنباط الاسقاطات الممكنة كل ذلك أعطى للابحاث السكانية طرقة ووحدة وفتح امامها أبواباً جديدة - فجرت هذه الدراسات وراها أجزاء كبيرة من الميادين التي كانت تدرس تقليدياً تحت لواء علم الاجتماع ضمن أبواب - الاشكال الاجتماعية - أو الاحصاء الاجتماعي . ونلاحظ في فرنسا مثلاً أو في ألمانيا أن أطباء ومهندسين ورياضيين مثل الفردسوني ذهبوا الى العلوم الاجتماعية وطوروها لا العكس - ولاحظ نفس الشيء بالنسبة للدراسات الانثروبولوجية التي تكونت حول الوصف التحليلي الدقيق وما يفرضه على الباحث وجوب الإقامة في ميدان الغربة والأغتراب من توخي طرق تجعل الباحث يضمن لعمله مستوى أدنى من الدقة والموضوعية والعمق والطرافة في جميع أطواره من الملاحظة الى المراقبة الى جمع المعطيات وتحليلها واستنباط قواسمها المشتركة ثم إدراج كل ذلك في تصور شامل يعكس بصفة صادقة نزعة نوعية المجتمع المدروس وخصوصيات بنيته وأصالتها . وبهذه الطريقة ظلت الاختصاصات تتطور ثم « تتدبذ » و « تتسبب » وتفكك شيئاً فشيئاً استقلالها العلمي .

ولا فائدة في تعدد الأمثلة بل يكفي أن نسجل أن تشعب العلوم الاجتماعية ولید المناهجيات المتوخاة وهي بدورها وليدة تنوع الطلب للمعرفة الاجتماعية وإن التطور الحاصل في هذا الميدان منذ قرن - والمتسارع في العقود الأخيرة - أفرز للمناهجية دوراً معرفياً فريداً في تكوين العلوم الاجتماعية وفي تصنيفها والنهوض بها . ذلك أن التفنن والتعمق في المناهجيات أعطى للعلوم الاجتماعية قدرة أكبر فأكبر على استيعاب المشاكل معها تعقدت وعلى إسرار حقيقة الواقع الاجتماعي معها تشعب وضعه والتبس - فالمناهجية تظهر الباطن وتجلي ما كان ضمنياً في كنف طيات الحياة العادية - فترتبط بين أجزائها وتثبت الصلات بين مختلف الظواهر الاجتماعية وتبين العلاقات الكامنة وراءها . فعلاقة المناهج بالموضوع ليست كما تصورها الكثيرون من هذا الى ذاك بل هي من المناهج الى الموضوع لذلك يؤكد كل من حاول أن يمتطق العلوم الاجتماعية وأن يستقصي أسرارها « الأستمولوجية » أهمية الدور العملي للمناهجية المتوخاة وللغرضيات المضروبة في البداية وللتعريفات المتبعة ولتختلف أوجه التعامل مع الاشكالية . فالباحث قد يبتلع من اشكالية ما أو ميدان ما إلا أن هذه الاشكالية وهذا الموضوع لا يصبحان ميداناً للبحث إلا بعد أن تتوضح دقائق المناهجيات ذاتها وتضبط طرق البحث المستخدمة فلا غرابة إذن يكون تطور المناهجيات أمراً أساسياً في العلوم الاجتماعية إذ يرتبط ارتباطاً متيناً بنوعية القضايا . ونجاح العلوم الاجتماعية وتقدمها السريع يعود في نهاية الأمر إلى أن المناهجيات المتوخاة أصبحت أكثر دقة يوماً بعد يوم وأكثر موضوعية بل أصبح الباحثون بدورهم أكثر سيطرة وبراعة في تحليل الأمور والغوص فيها .



الملاحظة الثانية تتعلق بما نفرضه ضرورة الربط بين مختلف الاختصاصات نظرا للوحدة الموضوع المدروس - وواضح أن مختلف فروع العلوم الاجتماعية والانسانية لا تغطي بصفة كاملة شاملة جميع عناصر الازدواج الانسانية ولا يمكن أن يختص كل منها بعنصر دون غيره ذلك أن العناصر تتداخل وتشابك بما يؤدي إلى اللجوء إلى عدة فروع من العلوم الاجتماعية لطرح قضية واحدة ما ولتحليلها ولندرسها . وإن كان للمناهجيات فضل تطوير تصنيف الاختصاصات واكتسابا استقلاليتها النسبية فهذا لا يعني أن لكل علم اجتماعي منهجية وإن كل منهجية لا تتعلق إلا بعلم ما - فمن الخطأ إذن أن تصور أن مختلف العلوم الاجتماعية يتفرد كل منها بمنهجية معينة - ذلك أن ترابط المواضيع ووحدة المشاغل جعلت العلوم يتداخل بعضها ببعض إلى حد أن بعض الدراسات و التاخة و تستغل اضواء متعددة مأخوذة من اختصاصات مختلفة منها الاجتماعي البحث ومنها غير الاجتماعي ، وبالتالي فإن للمناهجيات أصبحت ، وبخاصة في السنوات الأخيرة ، تتأثر في صلب العلوم الاجتماعية بما يجري في العلوم الأخرى سواء أكانت متعلقة بالطبيعة أو بالحياة . ولنا في ذلك أمثلة عديدة فالتحليل الاجتماعي يستخدم مفاهيم آتية رأسا من فيزياء المجالات المغناطيسية والميكانيك التكمجية وأخرى من علم الوراثة وأخرى من علم الحياة إضافة إلى ما ينصب فيه ومبادئ العلم من الرياضيات والاحصائيات والاعلامية بسائر اتجاهاتها .

ويتجنى عن ذلك أمور غيّرت مجرى العلوم الاجتماعية إلى مدى بعيد وسيكون لها بلا شك الأثر العميق في السنوات القادمة - فبرزت على الساحة اختصاصات جديدة انتصبت في الحدود الفاصلة بين اختصاصين أصليين أو أكثر ، وإن كان علم النفس الاجتماعي معروفا منذ زمان بعيد فإن علم النفس الصناعي وعلم النفس الاجرامى وعلم النفس اللغوي وعلم النفس الجمالي وغيرها تكونت كفروع قائمة الذات لتجابه مشاكل حيوية كانت في متفرق اختصاصات متباينة . الا انه اتضح أن كل واحد منها لم يبق قادرا بمفرده على تحليل المواضيع المعقدة المبسطة على ساحة الواقع اليومي - فأصبح من المسلّم به أن استخدام مناهج مختلفة في وقت واحد ضرورة لا مناص منها لاستيعاب المعرفة ولطرح عديد الاشكاليات وللتقدم نحو حلول مفيدة لها - مما أدى بالباحثين الاجتماعيين إلى الخروج من دائرة فلهم الضيق - ولكنه واضح أيضا أن هذا الخروج ليس من العفويات الاعباطية بل يظل بدوره مضبوطة في قواعده وفي حدوده وفي موضوعه وفي دقته مما يضمن له أيضا حداً أدنى من العلمنة . وواضح كذلك أن هذا التوسع في المناهجيات يتفدى من تجارب فنون أخرى فيستفيد منها بمقدار وينهل لينصب الكل في تيار المعرفة الكونية الواسعة في العلوم الاجتماعية . لذلك أصبح تكوين الباحثين وتدريبهم يتطلب منذ البداية العناية بما يجري في العلوم المجاورة حتى يفتحوها من ناحية إلى آفاق أوسع ويتطلعو إلى استخدام طرق تحليل تفرضها نوعية الأبحاث التطبيقية الجارية أو التي سيطالبون بالقيام بها . وعلاوة على كل ذلك فإنه أصبح من التأكيد أن البحث الفردي لا يكفي لتغطية الحاجيات ولا لاجابه المشاكل بل أصبح تجاوز ضرورة بومعية فالبحث المصطب يتم في مجموعات دراسية يتحاور ضمنها الرياضي والاجتماعي والطبيب والاعلامي . وخلاصة ذلك أن المناهجيات أصبحت معقدة لأنها أصبحت مبنية على التحليل وعلى التأليف على حدّ سواء .

وبعبارة أوضح فإن رفاص الساعة في تراجع بعيد أن سارت العلوم الاجتماعية في التباين إلى حدّ أنها أصبحت مجموعة عريضة معقدة ذرية من اختصاصات واختصاصات فرعية واختصاصات داخل الاختصاصات الفرعية فها

أخذت الآن تتجمع وتكتف من جديد . إلا أن ذلك لا يعني بالمرّة أنها عادت إلى ما كانت عليه بل ازدادت تعمقا وتعمقا ونلاحظ ان التباين الذي عاشته ولا تزال تعيشه أعطاهما دفعا قويا أخرجهما من العزلة التي كانت فيها ، فالمناهجيات بدورها في حاجة إذن إلى تطوير منهجي جدلي . وكلما ازدادت تعمقا في رقعة ضيقة ازدادت حاجتها إلى التوسع الأفقي قصد الاستناد إلى معارف أخرى وإلى التعاون مع ما يستعمل في الفنون المجاورة . وهكذا فإن التباين يتلوه التجميع - ولكن هذا التجميع يعيد الصلة العضوية للدراسة تطورت في الاثناء فيأتي لينسج من جديد بينها وليحيك الربط .

فالبنيوية والهيكلية في الدراسات الاجتماعية أدخلت عديد القواسم المشتركة بين فروع مختلفة . انطلقت المناهجية من اللسانية ثم تسربت إلى الأنثروبولوجيا فألى علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والتاريخ ثم أقحمت ضمنها فروعها كانت تقليديا مستقلة إلى حد بعيد مثل الادب أو الحلق الجمالي - وأصبح على أي باحث في علوم الاجتماع اليوم ان يعبر اهتماما متزايدا للمنهجية البنيوية التي تعتمد التجريد غير الرياضي - إلى أقصى حد ممكن - وعلى الباحث اما أن يتبنى هذه المناهجية أو أن يتجاوزها بالنقد . ولكننا نلاحظ انها تفرض نفسها بصفة متواصلة في عديد من المدارس الاجتماعية وقد نؤاخذها بأن إفراطها في التجريد جعل البحوث الاجتماعية التي تتوخى أساليبها تنبعد بصفة ملحوظة عن خصوصيات الواقع وعن طرافة جزئياته وعن مواقع اهتمام اصحاب القرار الذين يبحثون عادة عن استنتاجات قابلة للتطبيق تمكنهم من الاستئارة بها لسن سياساتهم الاجتماعية والاقتصادية . لذلك نرى العلوم الاجتماعية صنفين في منهجياتها إما مجردة مفرطة وإما تلاصق مع الواقع ، أو بالأحرى فإن الاتجاهين يمثلان قطبين تتمحور حولهما عديد البحوث حسب الاهتمامات والافراض المتبعة أو المدارس الفكرية . وبما لا شك فيه أن البحوث الاجتماعية تنفلق حسب هذين التوجهين الكبيرين : توجه نحو مزيد من البحوث الميدانية وتوجه نحو تكتيف البحوث البنيوية .

ان الدراسات الميدانية أخذت منذ زمن طويل طريقها ولا تزال تشقه شبات ونجاح . وطرق البحث المستخدمة تعتبر من مكاسب العلوم الاجتماعية التي نالت إجماع أهل الذكر . والجديد هنا يتصل باقحام بعض تقانات الاعلامية الحديثة دون أن تفسد بالجواهر فلا فائدة في التعرض المفضل إلى مناهج البحث الميداني ويمكن لمن يريد مزيدا من الاطلاع ان يعود إلى المراجع القيمة المعينة<sup>(١)</sup> ونكتفي هنا بلفت النظر إلى بعض المسائل .

١ - ان تطوير الاعلامية انعكس بصفة مباشرة على بحوثنا ولا ينحصر دورها في مزيد الدقة ولا في التوسع في قدرات البحث التي حققت اذ أصبح من الممكن أن تحتوي الاستبيانات والاستمارات على أكثر من ثلاثئة أو أربعئة مادة دون أن يكلف ذلك الباحثين عناء لا يطلق - وإضافة إلى ذلك فإن الاعلامية والحاسويات مكنتنا من سيطرة قوية على الارضاع ومن اقتصاد في الوقت وفي المجهود .

(١) يمكن الرجوع إلى : Shrag Zareen, Catton-Sociologie, London 1968

- علاء الدين جليسم البيلي - علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق - بغداد ١٩٦٥

- عصمه الجوهري وعلاء شاكور وحيد علي وعبد الوهاب الشامي - دراسة علم الاجتماع الكثرة ١٩٧٣ .

- توفيق مرعي وأحمد هادي علم النفس الاجتماعي - ص ١٩٨٢ .

- يعرب فهمي - سيد طرق البحث - بغداد ١٩٧٥ .

لقد شاهدنا في السنوات الأخيرة أحكاماً أدق في التعامل الإحصائي والرياضي إذ أصبحنا نستغل التماذج لتحليل شكل الاستمارات ذاتها وللتعمق في ما يمكن استنتاجه منها ولعلّ التجربة التي حصلت في مختلف ميادين البحوث الاجتماعية منذ قرابة القرن جعلتنا اليوم نسير بثبات - ونسجّل أن تجارب « الفرد بني » عن التأثير النفسي الذي يعمل من تجري معهم الحوار أثناء الاستبيان يتأثرون بمواقف من يجري الحوار . وهذه الدراسات تطورت بصفة جذرية وأخذت عين الاعتبار مما أدى إلى وضع مناهج عملية معروفة ناجعة في مسابقة الروايات أو الحوار بل احتل التحليل اللغوي للاستمارات والتحليل البنوي هيكلية ورقة الاستبيان مكانة كبيرة في أي بحث إلى حد أن البحث الميداني ذاته أصبح عادة مسبوقة ببحث أولي مختبر قدراته وتزيد فيها .

بل أصبحنا اليوم نلاحظ تواجدها محاولات متعددة لاستخراج نظرية عامة لاستمارة ومحاولات هريس ووفلاندا أصبحت حاضرة في كل أذهان الذكر .

ومهما يكن من أمر فإن التحليل الشكلي لورقات الاستبيان تمكننا من فائدتين أولاً مزيد من استقصاء المعاني الكامنة في الأسئلة ذاتها حسب الفرضيات العملية التي يستخدمها الباحث وثانيها تشديد المراقبة على صياغة الأسئلة وتمكين الباحث من استخدام الاعلامية قصد تشديد التحكم والدقة وقصد تخزين المعطيات الخام مما جعل الاحتفاظ بها ممكناً حتى تستغل ثانية وثالثة للمقارنات يوماً ما <sup>(١)</sup> .

٢ - وفي نفس الاتجاه نلاحظ أن طرق البحث الميداني نالت شعبية كبيرة إلى حد أنها خرجت من الساحة الأكاديمية الضيقة ودخلت عالم الجماهير من ذلك أن سبر الآراء والاستطلاع إلى مواقف المواطنين لأغراض دعائية أو إخبارية أو سياسية جعلت صحفنا اليومية لا تكاد تخلو يوماً من « تحقيق » في ميدان ما . ونلاحظ أن وسائل الاعلام العربية أصبحت بدورها تلجأ إلى هذا النوع من المنهجيات بعد تبسيطها إلى أقصى حد ممكن .

الآن ما نجد في هذه الصحف وإن كان لا يمثل « حقائق » ثابتة في ذات نفسها فإنها تكون وثائق اجتماعية يمكن تسليط الضوء عليها بدرجة ثانية لأنها تميز بصفة أو بأخرى عن المجتمع - نحدد الإشارة هنا إلى طريقة تحليل المحتوى التي توصلت إلى مقدار من الدقة والرفاهة والوضوح مما جعل الكثيرين يلجؤون إليها لتفريغ محتويات الصحف أو القصص أو الأفلام أو الرسائل الخاصة أو المذكرات والكتائيش .

(١) رابع :

— Noel D. Behnap Jr., Thomas B. Steel — The Logic of Questions and Answers — Yale University Press, 1976.

— Bernadeth Bouchon — Sur la réalisation des questionnaires. These — Paris 1978.

— Claude Flamens — L'analyse booléenne de questionnaires. Paris — Mouton, 1976.

— Jean Paul Gremy — Les questionnaires d'enquête. L'année sociologique, 1982.

— R. Boudon — Les mathématiques en sociologie — Paris, 1974.

— J.P. Benzecri — L'analyse des données — Paris, 1979.

— Rodolphe Gbignones, Benjamin Matelon — Les enquêtes sociologiques — Paris, 1988.

— C.A. Moser, G. Kalton — Survey methods in Social Investigation — London, 1971.

— J. Berion — Semologie graphique.

بل أصبحت آلة القيد ذاتها توظف للبحث العلمي اختصاراً في الأجل وربما في الوقت وتيسيراً لاستخدامها في ما بعد<sup>(٣)</sup>.

٣ - ونفرد بالذكر هنا المنهاجية المقارنة لما نرى فيها من فوائد جليلة خاصة ان طبقناها على الوطن العربي كما سيأتي تبيانها فيما بعد .

الحقيقة أن المنهاجية المقارنة وقع استغلالها في مجالات واختصاصات عديدة ولعل أهمها واقلدها الأدب المقارن الذي جمع عديد المعلومات التي يمكن الاستفادة منها منهاجياً ومن حيث محتويات التحليل ومستويات الدراسة - الا أن اللسانيات وعلم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد والقانون استندت كثيرا الى المقارنة بصفة عامة ولكننا نرى أن أسلوب المقارنة بصفة عامة - كما أكدنا - أنجح وأثمر في إطار الحضارة الاسلامية لما لها من وحدة ذاتية من جهة ولقابليتها لعملية التعميط من جهة أخرى .

ولسنا في حاجة لتعديد الى الاذهان أن المقارنة العلمية الموضوعية لا بد لها من أن تحترم بعض الشروط أهمها :

( أ ) اقتطاع موضوع محدد لاستطيع البحث فيه عبر جميع المجتمعات المقارن بينها - وقد يكون هذا الموضوع في أي قطاع شتاً - مثل تصميم المدن معمارياً أو استخدام الوسائل السمعية البصرية أو تنظيم الاسرة أو أساليب الانتاج أو تنشئة الطفل - فمعن المفروض أن يكون الموضوع ذا بال في المجتمعات المدروسة .

( ب ) بسط الاشكالية الاساسية للبحث في صورة تجعل المقارنة ممكنة مفيدة لفهم ما يجري في كل مجتمع على حدة ثم لربط الصلة بين جميع الاستنتاجات الجزئية الخاصة بكل قطر قصد تجميعها في منظومة تأليفية عامة تعطي بصفة واضحة ويكثر ما يمكن من الدقة أوجه الشبه والفروق بينها .

( ج ) المقارنة تستند الى بحث مسبق يثبت النقاط والعناصر التي يجب أن تكون محل اهتمام ولا بد في هذا الصدد من توحيد الوسائل من حيث توجهاتها العامة ومن حيث وسائلها العملية كأوراق الاستبيان والاستمارة والتعليمات التي تقود الباحث في عمله وكذلك أيضاً من حيث ضبط المفاهيم وتحديد معانيها وتوضيح الفرضيات واستقصاء الصعوبات المتوقعة وتصوير بعض الحلول العملية لها .

( د ) وليس من الضروري أن تكون هذه الوسائل هي نفسها في كل حقل من ميادين البحث لان المقارنة المفيدة ليست بين تفاصيل الاوضاع وجزئياتها بقدر ما تكون بين حزم من الاستنتاجات تكوّن غاية البحث البعيدة لانها تثبت في جعلها الاتجاه الذي سارت فيه تجربة هذا البلد أو ذاك والتي تنعكس فيها طرائقها ونجاعتهما وعقريها أهلها أو تشير لمصاعب التي تصدّت لها أو المآزق التي تردت فيها .

( هـ ) ويستحسن لو تمّت هذه البحوث المقارنة بين عدد وافر في البلاد العربية أو الإسلامية وأن يكون فريق دولي لأجرائها يمكن من الاجتماع قبل إجراء البحوث الميدانية قصد وضع تفاصيل منهجية البحث واستنباط الوسائل الكفيلة بتغطيته وتوحيد أهدافه وتركيز قاعدة للحوار بين من يسهر على إجرائه وإن يمكن الفريق من الاجتماع ثانية بعد انتهاء البحوث الميدانية لاستخلاص ما يمكن استخلاصه من التجارب التي تمّت دراستها .

٤ - أما البنية فأنها أصبحت من باب الدرجة في الأوساط الثقافية الغربية والعربية ، ونالت رواجاً كبيراً وشهرة فائقة . وهذه الشهرة التي نالتها قد تكون مست من مكانتها العلمية بل زيفتها أحياناً لما أدخل عليها من تشويش أت من استعمال فوضوي وفي غير محله إلا أن هذه الحرفات لا تمنع من أنها أثبتت جدواها فلا يمكن للباحث أن يهمل الطرق التي فتحها أمامه .

فالباحث عن الهيكل أصيل واثبت عليه العلوم الأخرى ذلك أن الأفراد في الطبيعة والنبات والحيوان يتشكلون في صور ثابتة تختلف حسب الجنس والطباع والأوضاع فالمهيكل يمثل فيها عنصر العناصر ويزر الهيكل في شكل ما بعد عملية رياضية منطقية تعتمد المقارنة بين الموجدات لفرض القواسم المشتركة بينها وتحريدها من العناصر الجزئية الخاصة بكل فرد من الأفراد المتكوّن منهم النوع . وكان من الطبيعي أن تلجأ العلوم الاجتماعية إلى هذا المنهج فتحاول أن تتوصل إلى فهم القرابة مثلاً انطلاقاً من الأسرة الغربية والأفريقية والآسيوية والعربية وأن تحاول تحليل الطبقات الاجتماعية انطلاقاً من علاقات مختلف الشرائع الموجودة بالفعل في المجتمعات الرأسمالية الأوروبية والأميركية والاشتراكية والسائرة في طريق النمو .

البحث عن البنية هو بحث عن القواسم المشتركة المحدود عدداً ودورها والتي يمكن اعتمادها و لقرادة « ما يجري في أكبر عدد ممكن من المجتمعات فنقول مثلاً إن تحجير نكاح المحارم هو العنصر الفعال في تكون القرابة والأسرة أو أن صراع الطبقات هو المحرك الأصلي لجميع التطورات التاريخية لسائر المجتمعات .

وهذا الترجمة الذي انطلق من اللسانيات والأنثروبولوجيا والنقد الأدبي أخذ يترزق شيئاً فشيئاً سائر العلوم الاجتماعية إلا أن عديد الباحثين مثل « لازرسفيلد » يشكّون في جدوى هذه البحوث وفي نظريات « ليفي ستراوس » ويرون أن لا مبرر في علم الاجتماع لاستخدام هذا المنهج<sup>(٤)</sup> . الحقيقة أن الغموض يعترى أكثر من دراسة ولكن بما لا شك فيه أن أي مجتمع ما - وأي عنصر من عناصره يتهيكل حسب معايير ذاتية معينة - للمجتمعات ثلاث واصناف وطبقات وقطاعات واقتصاد أي مجتمع ما يتهيكل بدوره حسب قوانين الأسعار والعرض والطلب وعلاقة القطاع الزراعي منها والصناعي والتجاري .

فلا مانع إذن من أن يتم الباحث بالعلاقات العضوية الرابطة بين الأجزاء والقطاعات والاصناف والطبقات والشرائح وإن يحاول إثبات ما نجده بصفة متكررة في أوضاع مختلفة متباعدة - وهذه المحاولة تجرنا إلى محاولة القيام

(٤) راجع : UNESCO. Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales. Paris — 1978, T.I — P.I — p.138.

بعمديات مختلفة من اسقاط وتجريد وتقليص وهي تستند الى روح التنظير العلمي المبني على المقارنة واجلاء العلاقات الضمنية، وهذا التوجه البحثي وإن كان أقل ثراء من البحث الميداني وإن كانت نتائجه غير ملموسة وغير قابلة للاستخدام المباشر وللتطبيق فإن مشروعته ليست في حاجة الى مزيد من التبرير .

الا أن مفهوم « الهيكل » ذاته كما يستخدمه عديد العلماء - بغض النظر عن « الهيكلية » النظرية - يمكننا من التحليل القيم لانه يحول ربط الاجزاء بعضها ببعض ويخرج الدراسات الميدانية من منظارها الضيق التجريبي البحث المبني على مجرد الملاحظة والاختبار<sup>(٥)</sup> - وعلى كل فانه يتعين على الاجتماعيين ان يمتحنوا الخلط بين « النظريات الاجتماعية » وهي نظريات مشروعة يحكم الواقع لها أو عليها و « النظريات الفلسفية والسياسية » للمجتمع الامثل فالماركسية مثلاً والبنوية لمحاولان الجمع بينهما بل لا يميزان بين العقيدة الفلسفية أو السياسية والدينية الخاصة بأي باحث ما وحقيقة العلاقات الاجتماعية كما تنجلى من خلال الواقع ذاته بما في ذلك العقائد ولكن باعتبارها « شيئاً » اجتماعياً .

ان الاحتراز الذي ينبه ازاء المنهاجية البتوية كما يستخدمها بعضهم تنبع من الاشكاليات الضمنية التي تثيرها وتبقيها بلا جواب كما رأينا - وهذا الاحتراز يتدعم بتخوفاتنا من أن تنزلق الدراسات الاجتماعية العربية الى البحث عن الكليات المجردة فتهمل بذلك ما نحن في أشد الحاجة اليه وهو مزيد من التعرف العالمي الدقيق الموضوعي على الواقع الاجتماعي العربي لذا نريد الوقوف في الصفحات الموالية الى تهديد منهاجية البحث الاجتماعي في الوطن العربي ومدى مساهمته في إثراء التيارات العلمية .

هل نحن في حاجة الى التذكير بأن العلوم الاجتماعية انطلقت ايضاً من المجتمعات العربية واما رساخته القدم عندنا منذ عهد بعيد اذ كان للبروني مثلاً ولاين خلدون - وغيرهم - فضل لا ينكره احد ؟ فدراسة منهاجية ابن خلدون لا تزال لافتة للانتباه لما سته من قواعد لا تزال حدثاتها عملاً للبحث والتعليم . لقد سن اتجاهات للوصف والتحليل وللتكسيم ولربط العناصر بعضها ببعض فهاؤول من أشار الى ضرورة التحليل النوعي والكمي الذي لا بد أن ينتهي الى التركيب الهيكلي والى التنظير حتى توضع الظواهر الاجتماعية في محيطها العام وفي سياق الدفع التاريخي العام الجار لها<sup>(٦)</sup> على المساهمات العربية المعاصرة في البحوث الاجتماعية وخاصة من الناحية المنهاجية .

وأول سؤال يطرح يمثّل في مكانة البحوث الاجتماعية من المجتمعات العربية ذلك أنها لم تكن دائماً عربية ولا من حيث الباحثين ولا من حيث التوجهات ولا من حيث اللغة فالذين كتبوا « علمياً » في بداية هذا القرن عن العرب كانوا ينتمون الى مجتمعات تستخدم المعرفة الاجتماعية للسيطرة على العرب ولدم نفوذ الغرب عليهم . فالوصمة الكبرى للدراسات التي صدرت في هذا المجال أنها كانت تتم في اطار علاقات طبعها الاستعمار بطابعه الخاص فارتبطت

René Kötig. Sociologie — Paris 1972. 823

(٥) راجع

(٦) راجع : علي الوردي ، منطق ابن خلدون ، تونس 1976

حسن الساعاتي - علم الاجتماع الخلدوني القامرة ١٩٨١

البحوث الاجتماعية بالنزعة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية خاصة . ومساهمتنا الكبرى أننا أثبتنا أن المنهجية المتبعة في هذه الدراسات لم تكن بريئة وإنما فيها انحلت من تدابير فإن موضوعيتها محدودة للغاية . ولما وقع « تعريب » العلوم الاجتماعية فإن ذلك لم يكن مجرد ترجمة بل إعادة بناء العلاقة بين الباحث والموضوع فكانت البقطة العربية بمثابة يقطعه استعمارية معرفية تتجاوز كثيرا حدود المنطقة . وينبغي أنه ليس من المفروض أن يكون الأجنبي أكبر قدرة على البحث لتخلصه من المقابليات وتجرده ولبعد نظره عن الموضوع لأن ذلك قد يعرضه إلى تجاهل أمور بالغة يمكن فينقل ما جمعت لديه من أفكار وأحكام يسلطها على الموضوع . وليس أيضا من المفروض أن يكون صاحب البيت ادري بشئ وما لتعايشه معها من الداخل إلا أن هذا التلاصق والتعود واللفة كل ذلك يعرضه بدوره إلى خطر الإجماع الذاتي الذي يجعله من حيث لا يشعر يقر علاقات مغلوطة في كيانها لا شيء سوى أنه اعتادها وآمن بحقيقتها .

وهذا جدل لعب دورا كبيرا في تطوير منهجية العلوم الاجتماعية وساهم العرب في تنقيته وبلورته ولكن الخروج منه أدى البحوث الاجتماعية إلى مراجعة نوعية علاقة اطار البحث بموضوعه فاصبحتا تربط نجاحه البحث بقدرة على الجمع بين المسافة والتباعد والمشاركة الداخلية . فالبحث الأصعب هو الذي « يوضع » الاشكالية ويخرجها من الضمنية إلى المجلد ومن الباطن إلى الظاهر . وهذه العملية لا تتم إلا باستنباط العلاقات التي يتوصل من الداخل إلى معرفتها وإلى ضبطها بشيء من الانجذاب والانتساب والمشاركة اليومية لاساليب العيش - لذلك أصبح من المسلم به أن الابصار الغربي على العرب ونظرة العرب لانفسهم يتكاملان بل أصبحتا نمت ذلك ونذكر أن الحقيقة التي يبحث عنها علم الاجتماع متشعبة ، معقدة وأن الموضوعية في المنهج لا تكفي وأنه لا يمكن أن يستغني للتوصل إليها - أو على الأقل للإقتراب منها لا عن الملاحظة والدراسة الخارجية ولا عن التحليل الذاتي . والنقد هو الذي يفصل في نهاية الامر بين المغلوطة والمصيب فالمساهمة العربية كانت أولا وبالذات في إعادة الأمور إلى مكانها وإلى حصر ادعاءات الاشتراكي في النطاق العلمي الذي كان من المفروض أنها لن تخرج منه أبدا - ولذلك رأينا من الضروري أن نلفت النظر إلى امرين هامين يمكن أولهما أن البحوث العربية هي بمثابة إعادة الروح للذات لأنها جزء من الوعي وعملية كشف من الداخل لأن المنهجية ترمي إلى التعرف على الواقع ولذلك ولكونها صادرة من عقر المجتمع فإنها تساهم في تغيير الذات نفسها - مما يؤدي بنا إلى إعادة النظر في مفهوم الموضوعية وإلى أخذ ذلك بعين الاعتبار في جميع مراحل بحثنا الميدانية . والامر الثاني الذي نريد التركيز عليه أن البحث العربي مقارن أو لا يكون وأنه يتعين أن تعطي للمقارنة المكانة التي تستحق في سياستنا البحثية وفي تطويرنا للمناهجيات .

البحث الاجتماعي عنصر من عناصر السيادة السياسية وآلة للسيطرة على الوضع ، فالعلوم الاجتماعية تلتصق كما قلنا أشد الالتصاق بالبيئة التي يتكون فيها ولا أخرى تلك التي يبرز فيها وبالحضارة التي يستند إليها وبالأهداف التي يرمي أصحاب القرار التوصل إليها - فلا يمكن والحالة تلك أن تفرز بين الباحث العربي ومجتمعه - فالباحث الواعي عالم يتوخى الموضوعية مهما كانت آراؤه ملتزمة وهو في نفس الوقت ابن قومه مهما حاول أن يتجرد فهو ناطق باسمه ومعبّر عنه

(٧) راجع : - منابع المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية - مكتب التربية العربي لدول الخليج لرحلان - الرياض ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥

Orientalisme, L'Orient Créé par l'Occident - Paris, 1980.

- لودوارد سعيد - الاشتراكية -

ووسيلة يفظته وضميره الحي وبعبارة أخرى فإن المعرفة الذاتية تمثل في علم الاجتماع كنه المعرفة وهي في نفس الوقت الشرط الاساسي لتجنب الملايسات والخروج من الاحكام المسبقة التي يصدرها الباحثون الاجانب . ومن هذا المنظور فإن التعرف على النفس يمثل العنصر الاصلي في تحليل الاوضاع السائدة وفي تفكيك دواليب المجتمع وتفكيك مؤسسته ورفع القناع عن ملايسات الاقوال والافعال .

ان مختلف الدول العربية على تنوعها وتباين اختياراتها السياسية وأنظمتها الاجتماعية والاقتصادية تلجأ الى البحوث الاجتماعية - ولم تكن لتفعل ذلك لتطوير المعرفة الاجتماعية عامة من الناحية النظرية المجانية ولكن لغايات تطبيقية بحثة فهي أجمعت على ضرورة اقام البحوث الاجتماعية في صميم التحركات الاجتماعية - البحت الاجتماعي العربي موجه اليوم الى حد انا أصبحنا لا نكاد نصور قرارا يؤخذ على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي أو بالأحرى على الصعيد الاجتماعي دون أن يكون قد استند الى بحوث والى دراسات اجتماعية<sup>(٨)</sup> .

ومن هذا المنطلق أثبت الابحاث العربية في العقدين الاخيرين لتركز على المنهاجية الميدانية - أجل ليست هناك طرق بحث ميدانية متميزة في الادبيات العربية فهي تأتي جميعا في سياق ما قلناه عن التطورات الجارية حاليا على الصعيد العالمي فالمسألة تتعلق اذن بالشروط العلمية الصرفة اللازم احترامها من طرف الباحث بقدر ما هي تتعلق بتأصيل هذه البحوث في كنه المجتمع العربي من حيث اختيار المواضيع وضبط الاولويات - الا أن أساليب البحث واختيار الوسائل العلمية في تصور المشاريع وصياغة الفرضيات وتحرير الاستبيانات وسحب العينات ومعالجة الجداول الاحصائية وتأويلها كل ذلك ينصب في المنهاجيات العامة ويمثل القاسم المشترك بين جميع البحوث والدراسات أينما أجريت لأن قواعد المنهاجية العامة لا تحتاج الى أقلمة خاصة أو تطويع ما حسب المجتمع المبحوث فيه أو وضعية الباحث فهي من العناصر الشائعة التي يختار بينها حسب الظروف والإمكانات والتي تتمحور في نهاية الامر أهميتها في قدرتها على تسهيل الاجراءات وموضعة المشاكل وإعطاء الاستنتاجات طابع العلمانية ورفع الشك فيها قدر المستطاع .

أما القضية الاساسية فهي تكمن في علاقة البحث أغراضا وأهدافا واستنتاجات بالمجتمع العربي الذي يبحث فيه الى حد أنه أصبح وكأنه هو الذي يبحث عن نفسه عن طريق الباحثين ذاتهم فالعلوم الاجتماعية العربية مفروض عليها أن تكون موضوعية لأنها ترمي الى الدقة والضبط والحقيقة وأن تكون ايضا ذاتية لأنها تمس جوهر الوجود الجماعي وتعنى بأسرار الحياة وتكشف القناع عما يجري في عقر ديارنا فالبحث يقتدر بالوعي ولا يتفصل عن الاختيارات المصرية الاساسية ولا عن المشاريع الحضارية التي تنبني عليها إرادة الحياة .

إلا أن ما تستند اليه طرق البحث هذه في حاجة الى عملية تطوير وانتقاء لا في صلبها ولكن في ما يحول حولها أو ما تستخدمه من كلمات « عادية » وعبارات مختلفة ومفاهيم تقنية والفرضيات التي تنطلق منها ليست برقة في ذات نفسها والاشكاليات بدورها قد تتلازم وقد لا تتلائم مع الاوضاع العربية . أضف الى ذلك أن النظريات التي قد يتحرك البحث في أرجائها ضمنتها أم لا مثل الماركسية أو الدركايمية أو البنوية قد تكون بمثابة المنظار المقرب أو المبعد وفي بعض

(٨) راجع : سياسات العلوم الاجتماعية في العالم العربي - تونس ١٩٨٦



الحالة المشوه والمحرف - فنلاحظ أن الكثيرين من العرب المختصين في مختلف العلوم الاجتماعية يكسبون أوقانتا معينة وجهودا طائلة في بحوث متلفها غير وارد فتراهم يحصلون الحاصل ويلهثون لاثبات بندييات ثابتة منذ عهد بعيد أو يقولون الى العالم العربي استنتاجات قد تكون تحققت فعلا في مجتمعات أخرى ولكن في ظروف مغايرة فتراهم يفتانون في تدقيق بعض المصطلحات ويسلطونها من أعلى على الأوضاع الاجتماعية العربية . والحال ان تلك المفاهيم وإن كانت طريفة في ذات نفسها وجديرة بالاهتمام والدروس والعناية فإنها أصلا وليدة المجتمع المصنع الأوروبي المسيحي واستخدامها باسم كونية المعرفة العلمية غير وارد وغير مشروع لأنها لم تأخذ بعين الاعتبار كل الأوضاع الممكنة لإنسانيا ، ولكن البعض منها فقط ، فنقلها بتلك السهولة والبساطة الى المجتمع العربي يكون حجر العثرة في مسيرة البحوث الاجتماعية العربية . ولذا نلاحظ أن عديد الأبحاث لا مبرر لها سوى إرادة إثبات صحة النظرية الماركسية أو البنوية فتكون بمثابة تصريف النظريات على حساب المنهجية .

وهذا لا يعني أن الباحث العربي لا بد له ان يصد عن النظريات الغربية السائدة وإنما نعني بذلك أن عليه أن يسعى دوما الى انتقاص النظريات على المنهجية في بحوثه . فالنظريات والمفاهيم وأساليب البحث ليست الآلات مسح ووسائل تحليل عليه نقدها هي على ضوء الواقع الاجتماعي العربي لا نقده المجتمع العربي على ضوئها هي فالمفاهيم وطرق البحث قيمتها عملية ولا تستمد أي قيمة الا من جدوى البحوث الجارية - فنوعية المنهجية المتوخاة ذاتها تمل علينا إذن كثيرا من الحذر والتحري وقسلا والمرا من التواضع والتفقد الذاتي .

الوطن العربي كسائر البلاد النامية - في حاجة الى إبراز خصوصياته عن طريق البحث الميداني وعن طريق النظرية أكثر مما هو في حاجة الى تجاوز تلك الخصوصيات نحو معرفة في نهاية التجرد كما تدعونا الى ذلك البنوية أو الماركسية وعلينا الا ننسى أن تأثيرنا هو تأثر أيضا في التعرف بدقة على تفاصيل أحوالنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مما يفرض علينا أن نركز على منهجيات تساعد على مزيد من التعرف على الذات . ونأتي بعد ذلك في مرحلة ثانية من الأولويات - عملية الارتفاع بحصيلة البحوث الى مستويات من الاستنتاج والنظرية تنصب في نهاية الامر في التيار العالمي مباشرة وقد يثبت هذا التدفق والسيلان أن ما نصوصه من بحث لا يزال دون المرجو فبدع ذلك بنا ويدوره الى برجة بحوث أخرى ودراسات تكميلية واستقصائية وهكذا دواليك لان حركية البحث الاجتماعي في وطننا لم تبلغ ذلك العمق وتلك القوة التي نلاحظها في البلاد المتقدمة من أوروبا وأمريكا وآسيا - حيث وفرة الامكانيات - المهادي منها والعلمي والبشري - وتقالياد الادارة حكومية كانت أم خاصة . وتنوع الاتجاهات يجعل هذه البحوث تمتد في اتجاهات ومستويات مختلفة ولذلك كان الاقتصاد في الجهد والبحث عن الجدرى يمثلان ضرورتين تتبلور حسيهما الاوليات في تخطيط بحوثنا العربية واختيار المنهجيات الأكثر تلاؤما مع أوضاعنا وأهدافنا وقدرتنا وللملك سنظل طيلة العشريتين الفاتتين في حاجة الى تكتيف البحوث الميدانية والمنهجيات التي أشرنا اليها في الحدود التي ذكرناها والتي تمثل بالنسبة الينا الطريقة المثل .

معناه أن الافراط في التجريد وإن كان عمودا في ذات نفسه وإن كان أيضا يمكننا من توجيه بحوثنا الى أغراض معرفية كونية غير نفعية بصفة مباشرة قد يحرمنا من الاستفادة منها بالقدر المرجو ومن الخروج بها من مستوى المعرفة الى

مستوى التطبيق والاستشارة في اخذ القرار - وتفصل - البحث الميداني بالسياسات العامة يمثل إشكالية أكيدة تنزع عنها قضايا منهجية هامة نذكر أهمها :

- اختيار الموضوعات وتحديد الاهداف وتطويع طرق البحث لها .
- علاقة الباحث بموضوع البحث والمجموعة والافراد الذين سيتعامل معهم .
- علاقة الباحث باصحاب القرار
- علاقة البحوث بعضها ببعض وضرورة ادراجها في منظومة متناسقة .
- توخي منهجيات ميدانية مختلفة حتى تكامل البحوث ويستند بعضها لبعض فيزيد نصيبها من الدقة .

ولقد شاهدنا في العشرة الاخيرة من يدعو الى « علم اجتماع عربي »<sup>(٩)</sup> ، وتعرضنا الى هذه الظاهرة في الصفحات السابقة الا أنه يدولنا ان المنهجية المقارنة تمثل في الطرف الراهن افضل الطرق للاستجابة الى حاجيات الوطن العربي من ناحية ولبناء اللحمة بين مختلف أجزائه .

الحقيقة أن البحوث الاجتماعية قلما تخلو من المقارنة ، بل يمكن أن نجزم أن كل ما يكتب عن المجتمعات الاسلامية والعربية منطلق من المفاهيم الغربية المستخدمة والتي تحمل في طياتها خلفية تعتمد المقارنة بصفة أو بأخرى ضمنية كانت أم واعية . وما الماركسية والدركامية والفيبرية والوظيفية والهيكلية ، وحتى الميدانية ذاتها ، الا نتاج لتاريخ المجتمعات الغربية فالتمحور حول هذه المجتمعات واضح الى حد أن عديد الدراسات الاستشرافية ليست في نهاية الامر الا محاولة لتصدير المعرفة الاجتماعية الغربية بمختلف معاني الكلمة .

فكان لزاما علينا أن نفكك المنهجيات المتبعة في هذه الدراسات الدخيلة حتى لا تطغى علينا التقديرة المفرطة فلا نتقبل ما يكتبونه عن مجتمعنا الا بعين تميز بين الاتجاهات وتغريل بين « الحقائق » وتصفي الحسابات فلا بد من أن نعيد النظر في أسلوب المقارنة ونكسب الامكانيات المنهجية الهامة التي تضمنها هذه المنهجية وذلك على شرط ان نحولها من « الخارج » الى « الداخل » فمن « الداخل » الى « الذاتي » وهذا يتطلب نقد المفاهيم وتركيزه المواقف وفسط الفرضيات وتديق الاستنتاجات . معناه أن المطلق في كل خطوة من خطوات البحث وفي كل مرحلة منه ينبغي أن يكون واقع المجتمعات العربية باعتبارها تكون وحدة متنوعة و أن شئنا تنوعا في الحدة - الانفجار السكاني وتطور الاسرة وتقلص التقاليد وتفاقم البطالة ومعوقات التربة والفوارق الاجتماعية وتفرق المثقفين وهجر أجهزة الدولة والتزايد في عدم التوازن بين العرض والطلب والدخول في دوامة الاستهلاك وتأثير الوسائل السمعية والبصرية الحديثة وأزمة وسائل النقل . . . كل هذه عوامل وقواسم وظواهر اجتماعية مشتركة - الا أن السمات التي تتسم بها والجزئيات التي تتلون بها والظروف المحيطة بها تعطي لها طابعا خاصا بهذا البلد أو ذاك ويجب أن نرمي الى مزيد من التعرف على هذه

(٩) رابع : المركز الاكاديمي العربي للبحوث والتفريق في العلوم الاجتماعية ، نشر علم اجتماعي عربي ، القاهرة ١٩٨٣ .

مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ، سياسة العلوم الاجتماعية في العالم العربي - تونس ١٩٨٦ .

مركز دراسات الوحدة العربية ، « نشر علم اجتماعي عربي » بيروت ١٩٨٦

الخصوصيات وأن تعتبر تجربة كل بلد كجزء من تجربة أوسع ينبغي التعرف عليها ووضعها تحت تصرف أهل الذكر في البلاد وخاصة اصحاب القرار منهم .

ومهما يكن من أمر فإن المقارنة - والمقارنة وحدها - تفتح المجال أمام عملية التنميط ويبدو أن منهجية التنميط من أهم المتطلبات وأكثرها خصوصية<sup>(١٠)</sup> . ويبدو أن معظم الدراسات الحالية تنمط المجتمعات إلى شمال وجنوب وإلى مصنع وغير مصنع - وإلى تقليدي وعصري - وإلى نام وساثر في طريق النمو وسلطوي وديمقراطي إلى غير ذلك من التصنيفات الشائعة . إلا أن السؤال المطروح هو : هل من الممكن أن نتجاوز هذه التنميطات التي مردها في نهاية الأمر مقارنة مع البلاد الغربية التي انطلقت منها حركة البحث الاجتماعي في العهد الحديث ؟ لماذا يبقى البحث مقصوراً على ثنائية الغرب وبقية المجتمعات الأخرى ؟ لا بد من تجاوز هذا الحصر بما يعني بالنسبة للبلاد العربية ضرورة نقل محور البحوث ومركز الثقل المنهجي من معايير دخيلة إلى معايير ذاتية تأخذ بعين الاعتبار العناصر الموضوعية المكونة للمجتمعات العربية . وتجديد فهم المجتمعات العربية لا يمكن أن يتم إلا بإعادة النظر في التنميطات التقليدية لينطلق من معايير ذاتية ثانية أخرى مستقلة من واقع العرب ذاتهم وبما تفرضه عليهم ظروف الحياة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . وإعادة التحور هذه عملية ضرورية ومنهجية جزئية لا بد منها إن أردنا الخروج من النظرة التحليلية المألوفة والتي تمحصرنا بين مسلك التقليد الماضوي السلمي والتمزق الحضاري والاستلاب المنسوب للحداثة - بل الموضوعية في البحث تقتضي أن نضع المجتمعات العربية في صلب جدلياتها التاريخية وفي إطارها الحقيقي المتجدد المتكامل الذي يجعلها تتعامل بشق صور التعامل : الحاضر منها والمقتل المحتط ، والبدع الخلاق .

وهذا التنميط المبني على المقارنات الموضوعية الدقيقة لا بد أن يكون خاضعاً إلى ما هو أساسي وثابت في الحضارة العربية المعاصرة : علاقة الفرد بالمجموعة وبناء الشخصية الجماعية وتنشئة الأفراد ومقدار ضغط القيم والتكامل العضوي لقطاعات النشاط - وينبغي أيضاً أن يأخذ هذا التنميط بعين الاعتبار جملة المستجدات التاريخية وخصوصيات الأطر الطبيعية والاقتصادية والتنظيمية والسياسية عليها وجهودها ودولياً - إذ من البديهي أن الوضع الاجتماعي يختلف حسب كثافة السكان وشمع الموارد المالية والبعيد الجغرافي عن المراكز السياسية وقوة الضغوط الخارجية والمكانة في الاقتصاد العالمي .

هذه اعتبارات سريعة جداً ذكرنا بها فقط لنشير الانتباه إلى أهمية طريقة البحث المقارن التي نرى فيها منهجية سليمة جذرية بأن تعطي في الظروف الراهنة دفعا جديداً لبحوثنا الاجتماعية العربية حتى نخرج من العقم الذي تردت فيه بعض جامعاتنا وحتى نقبل الوضع فنساهم في فهم الذات ونعين اصحاب القرار على إفراز احسن الاختيارات وننتج كذلك صورة جديدة أو على الأقل معدلة وأكثر اتصافاً وواقعية مما تعطيه عنا عديد الدراسات الحالية وليست الحياة الاجتماعية في آخر الأمر سوى « معادلة » نهائية شاملة ضخمة لكل ما يجري على سطحها .

— Karl W. Deutche, La theorie des systemes et la Recher che comparative. Revue Internationale de Sciences Sociales n°103-1985

— E.A. Tiliak, La comparaison internationale comme methode de validation en Sciences Sociales.

وإذا أعطينا لكل هذه الاعتبارات ما ينبغي من الاهتمام فلا بد من أن نستنتج أن الأمة العربية « عنقودية » الشكل متنوعة السمات متفرعة الأساليب ولكنها متجانسة النفس أحادية الروح لأنها تتجه به بأسلمة متنوعة لتحديات هي في نهاية الامر ومبها اختلفت في الشكل وفي الطرف فاتها تعيش مشاكل جوهريّة مصريّة وبالتالي موحّدة وموحّدة تساهم بدورها في نحت تلك « المعادلة » الاجتماعيّة .

تجهيد المناهجيات في العلوم الاجتماعيّة أخذناه في مستويين بيّنا بينهما لأن التطورات الحالية تجري على الصعيد العالمي وتجري كذلك على الصعيد القومي العربي - ولفتنا الانتباه الى الحذقة واسعة النطاق التي جعلت المناهجية تغنم المكاسب التي حققها إتحام الرياضيات والاحصائيات والاعلامية في صلبها ورأينا أن التفنن في جمع المعطيات وفي تدقيقها وفي تخزينها في بنوك ترتفع طاقاتها الحاسوبية يوما بعد يوم . ولفتنا النظر ايضا الى واقع العلوم الاجتماعيّة في الوطن العربي وما يترقب عنه من مشاكل خاصة تتعلق بمعالجة قضايا التنمية والسيطرة على التغير الاجتماعيّ مما يفرض تفرع المناهجيات الى مسالك تتماشى ومتطلبات الاهداف المتبعة .

وبطبيعة الحال ما يجري على ساحة البحث الاجتماعيّ العربي ينصب في المخزون العالمي فهي تمثل المساهمة العربية لبسط مشاكل العصر كلها واكدنا على أن الذي يميزنا هو الربط الافقي بين البلاد العربية التي يرتبط كل منها بصفة اسرع واسهل مع البلاد الغربية فلا تقارن أوضاعها الا بالرجوع الى التجارب الغربية ولذا أكدنا أهمية المناهجية المقارنة على الا يفهم ذلك كغاية في ذات نفسها ولكن كأداة للفهم المشترك يرمي في نهاية الامر الى فهم الانسان والى خدمته أينما كان .

وان التامل في حاضري العلوم الاجتماعيّة يلاحظ انها تتأثر بخمسة تساقولات مصريّة كبرى .

١ - التشكيك المعمم على نطاق واسع في قيمة الايديولوجيات الكلية التي كان لها دورها الفعّال في دفع العلوم الاجتماعيّة الى الامام - لا الماركسية ولا البنيوية ولا الدركايمية ولا الفيريّة تتمتع الآن بسمعة طيبة - فضل هذه النظريات على العلوم الاجتماعيّة لا يحصى ذلك أن آلاف الدراسات مدبنة لها بشيء ما ان كبيرا فيسيرا . الا أن الاحلام العريضة التي فتحتها أمانات لم تتحقق إلا جزئيا وبصفة هشّة ، أضف الى ذلك أن المجتمعات تطورت في اتجاهات متباينة عن العقائد السائدة في أوساط الاجتماعيّين ان لم تكن متناقضة لها تمام التناقض . وربما كانت كلمة « الملاس » هنا مبالغا فيها أو في غير محلها ، الا أنه لم يبق احد ينتظر من كبريات النظريات ان تساهم بصفة إيجابية في الغفر بالبحوث الاجتماعيّة - فظلت هذه تبث عن مراجع أخرى لتنتير السبيل امامها . وواضح ايضا أن الدراسات الميدانية التجريبية في حاجة الى توجيهات تسير على هدّيا . . . والسؤال الملح يتعلق بكيفية تعمير الفراغ الحاصل .

٢ - والسؤال الثاني ناجم عن تعدد مصادر الدراسات الاجتماعيّة فحتى الستينات كان الخطاب الاجتماعيّ يعراغ في بعض العواصم بالبلاد النامية وكان أيضا اختصاصا لعدد قليل من الجامعات ومؤسسات البحث والدراسات أما اليوم فأننا نعيش توسعا أفقيا وتوسعا عموديا لمصادر الدراسات . فمن ناحية اخذت جميع الدول تتحمل مسؤولياتها في مختلف مجالات البحث العلمي بل أصبحت تعتبر البحث الاجتماعيّ عنصرا من عناصر السيادة القومية . وعصّت

القناعة أن البحث الاجتماعي لا يمكن أن يتم عن طريق الانابة وإن كانت الاغلبية الساحقة للدراسات الاجتماعية لا تزال تنتج في أمريكا الشمالية وفي أوروبا فإن دواست، هامة - وهامة جدا - صدرت عن الهند والبرازيل واليابان وكوريا ونيجيروا وطبعا من مختلف الدول العربية .

والى جانب هذا التوسع في رقعة مصدر الدراسات نلاحظ ان عديد المجموعات المحلية والاقليمية خرجت من صمتها العلمي ودخلت في المساهمات الفعلية ولئن كانت هذه المساهمات لا تزال متلعثمة محتشمة فانها تمثل بمجود وجودها إعادة النظر لما كان يصدر من أحكام ضمنية في الدراسات السابقة . ويمكن أن نقول ان البحوث الاجتماعية سترکز في السنوات القادمة أكثر فأكثر على الحوار الضروري بين الملاحظين الخارجيين والدايرين من الداخل - وقد لفتنا النظر فيما سبق إلى الجدديد الجاري في اطار منهجية المشاركة الذاتية<sup>١٠</sup>، ثرايد عدد الدراسات الاجتماعية التي تلجأ الى تحليل المحتوى أو الى استقصاء الواقع عن طريق المعاشية من الداخل . ولعل البحوث الانثروبولوجية الثقافية في مقدمة هذا الاتجاه .

٣ - القضية الثالثة تتعلق بالمتافسة التي تنجر عن دخول أجهزة الاعلام الجماهيرية في محاولة تحليل الاوضاع الاجتماعية وتغطيتها ، ذلك أن هذه الوسائل وإن كانت تمثل واقعا اجتماعيا فانها تنقلب من حين لآخر لوسائل يتم عن طريقها الوعي بالمشاكل القائمة وتحسس الجماهير عن طريقها بالافاق المفتوحة امامها أضف إلى ذلك أنها اخذت أكثر فأكثر تبادر بالقيام بدراسات بحوث اجتماعية ويسر للآراء ومن أجل ذلك لم يبق الباحث أمام وضع اجتماعي « غام » بكر يفتحه لأول مرة بل يكون الواقع قد مرّت عليه تجارب ليست دائما مثالا للبراعة فتوجه وسائل الاعلام البعض من الواقع وتشوشه أو تضفي عليه صبغة ما : صبغة الرفض أو المطلوبة أو صيغة التثبث والتمسك - إضافة الى مختلف دواحي التغير الذي تبث تلك الوسائل ضمنيا أو جهرها في طباط ما تنقله من تصورات ورموز وشعارات .

٤ - أضف إلى ذلك أيضا الجدل الجاري بين الباحثين أنفسهم حول المنهجيات التي لم تبق محل تسليم وتصدق الا بصفة نسبية ، ذلك أن التوسع الباهر الذي شهدته العلوم الاجتماعية وأخرجها من حيز الجامعات وأقمعها في مناطق لم تكن تلعب دورا فيها مثل الدواوين الحكومية والمؤسسات العامة والخاصة والبنوك والشركات والبلديات والنيابات والتنظيمات المهنية التي أصبحت تفضّل بشيء من المسؤولية في البحث وتوجهه وتطرح عديد المشاكل الميدانية المعنية بل في بعض الحالات تقوم مباشرة بها أو تكون لها مكاتب دراسات خاصة الا أن هذا النوع من طلب النجدة يتقلب أحيانا إلى عمليات تبرير ذاتي وملاعبة مع الواقع ... والأهداف هنا والمنهجيات المطروحة لها تجعل البحوث توظف الى سن سياسات مجتمعية محدودة - إلى حدّ أننا أصبحنا نفرّق أصلا بين البحوث « الاجتماعية » والبحوث « المجتمعية » . والمنهجيات بدورها تتأثر طبعا بذلك - ذلك أن الفرضيات التي تنطلق منها البحوث في تلك الصورة والاشكاليات أصبحت من تزويد الادارة وأصحاب القرار . والاعتبارات النظرية أقل ما تكون عندهم من الأهمية دون أن يعي ذلك ضياعها التام ، بل آلت المنهجيات إلى مجرد البحث عن تناغم ممكن بين الأهداف المثبتة وقدرة الواقع على تقبلها ونوعية القرارات المرجو اتخاذها ... وقد يتقلب البحث الى المجاملات ...

ولعل هذا الذي جعل مناهجية اللعب والمشاهد تحتل المكانة الفائقة التي نراها لانها تترك لاصحاب القرار اكثر عدد من فرص الاختيار حسب فرضيات معينة ونلاحظ هكذا انتقال نقاط التشديد من نوعية في طرح المشاكل الى نوعية اخرى . ففي حين كان علم الاجتماع يبحث في التضامن الاجتماعي على الطريقة الدركايمية أو الامرو أو التربية اصبحت بحوث هامة تشدد على المؤسسات الراضية للضمان الاجتماعي والتعاون والتأمين حسب اصناف المجتمع من اجراء ويطالين وشيوخ وأرامل ومعالين على المعاش ومهاجرين وغيرهم . ذلك أن هذه البحوث العلمية من النوع الحلي القابل للتطبيق السياسي هي التي تسن على ضوئها السياسات المجتمعية . والجدال قائم بين أهل الذكر ويُدعي بعض المتطرفون منهم أن هذه المناهجيات تمثل تنكرا للمناهجيات الموضوعية العلمية لانها تحمل في طياتها اختيارا جوهريا يتمثل في نقل القرارات الخاصة باجراء البحث من الباحث الى المتتبع به والحارس على اجرائه فتتغلب أهداف السلطة الساهرة على البحث والدافعة اليه وتصبح معيارا لنجاحة البحث ولجدواه بكل معاني الكلمة ماديا وأدبيا وثقافيا وسياسيا .

٥ - ثم ان تدريس العلوم الاجتماعية - والتوسع البالغ فيه وخاصة في علمي الاجتماع والنفس - أحدث مشاكل اخرى اذ واكبه نقل المناهجيات من طور الوسائل المبتكرة لفهم مشاكل ما الى صناعة وحرفة تكّرس الآلية والتكرار - فأصبحت المناهجيات صنفين : صنف يوكل الى الباحثين الاكاديميين الذين يواكبون تطور البحوث نظريا ومبدأيا ويجهلون من تلك المناهجيات خلقا مستمرا وابتكار متواصلا للتقدم في فهم القضايا المطروحة وذلك بتوظيف ما يمكن من طرق يستقونها من شق قطاعات المعرفة وعلى هؤلاء يتركز التقدم العلمي ، وصنف آخر يكتفي بالقيام ببحوث حسب المناهجيات الناجحة أو المألوفة . وسير الآراء كما يجري به العمل في الولايات المتحدة أو اوروبا أحسن مثال لذلك ، فالملطوب هنا من المناهجية أن تتوصل في أقرب الأجل ويأقل تكلفة الى نتيجة ما ولو كانت تقريبية فتتخلص المناهجية هنا الى مجرد وصفة ونلاحظ ان تدريس علوم الاجتماع انتقل في أكثر من حالة الى تلقين آلي لجملة من العمليات وبعض التفسيرات النظرية الواكبة لها فانحدرت بهذه الطريقة من مستوى المناهجية الى مستوى التقانة المطبقة .

أضف الى هذه العوامل محدثات أخرى تعود أصلا الى تفهقر فكرة الشمول في البحث وأهمية تحديد مناطق المراقبة الرجوع كل منها الى اختصاص معين والاهتمام بالتزايد بالتأويل الاجتماعي لمستنتجات البحوث وهذه مشاكل أساسية طالما غضبنا عنها النظر ورجعت تطفو على سطح الاهتمامات المباشرة مما جعلنا اليوم نشعر بحاجة أكيدة ماسة لتقييم شامل لجميع المناهجيات الاجتماعية بمعنى نقدية تراجع مبادئ العلوم الاجتماعية وتميد النظر في أحوالها المنطقية في اطار تصور شامل لها .

وهذه الاتجاهات الجديدة تعيد الى الازهان حقيقة كنا تناسيناها وهي أن العلوم - والعلوم الاجتماعية على وجه الخصوص - في حالة ذهاب واياب بين النظر والواقع . والمناهجية ليست في نهاية الامر الا الطريق الرابطة بين مشاكل الواقع وتصور الباحثين والعلماء .



« الجسم لا يبدأ بالحركة أو يكف عنها من تلقاء نفسه » : العالم الإسلامي ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) م .

« عندما نهم بالعلماء العظماء وحياتهم نستطيع أن نتحمل العلوم . لكن عندما نتبع تطور الأفكار ، تصبح العلوم ساجرة حقاً » : الفيزيائي البريطاني ماكسويل (١٨٣١ - ١٨٧٩) م .

#### المقدمة :

تقدم في الصفحات التالية عرضاً لتطور الأفكار الفيزيائية منذ نيوتن (وما قبل قليلاً) إلى أينشتاين (وما بعد) . وقد كان هدفنا الأول هو متابعة الأفكار وتطوراتها عبر الزمن من عالم لأخر - من بدايتها منذ قرون مضت إلى آخر تطوراتها المعروفة حالياً . فالأفكار كالأشخاص لا تبدأ كبيرة ، بل تبدأ صغيرة وغامضة وضعيفة . لكن ، مع مرور الزمن والتفذية المناسبة والتطوير بواسطة العقول العظيمة ، تنمو الفكرة وتكبر وتنضج وتقدم عطاءاتها الكثيرة في خدمة العلم والإنسان .

ولم نكتف هنا بعرض الأفكار وترابطاتها ، وهو أمر هام بالطبع ، ولكننا حاولنا أيضاً إعطاء ملاحظات مفيدة عن حياة العلماء ، الذين شاركوا في تطوير هذا العلم الكبير الواسع . فمن المعروف ، أنه لا يمكن فصل عمل العالم عن حياته تماماً . إن أحداث حياته تؤثر في إنتاجه العلمي ، كما يظهر مراراً في عرضنا .

نبدأ العرض بالقرن السادس عشر ، عصر النهضة ، حيث نتعرض لنماذج (كوبرنيكوس) و (كيبلر) عن حركة الأرض والكواكب في النظام الشمسي ، بعد ذلك نتطرق لأعمال (غاليليو)<sup>(١)</sup> في

**سيرة الفيزيائي على المحبل المشهود  
بين النظرية والتجربة  
(من نيوتن إلى أينشتاين وما بعد)**

محمد علي بهر

(١) في هذا هنا نستعمل حرف (خ) ، أي (خون) كمثل لفظ الحرف (ك) في اللغات الغربية وليس هناك التباس في ذلك ، إذ أن هذه اللغات لا تسمى عادة على لفظ بال حرف (خون) في اللغة العربية .

الميكانيك وحركة الاجسام الساقطة . استطاع ( غاليليو ) بابحاثه وعرض هذه الابحاث على الرأي العام بطريقة منطقية وشيقة تحريز الفيزياء الى حد كبير من هيمنة الافكار القديمة الخاطئة التي دعمتها الكنيسة في مجال الفلك والفيزياء .

ثم نتابع العرض في القرن السابع عشر ، عصر الازدهار الفيزيائي الأول - عصر نيوتن . نعرض قوانين نيوتن المعروفة في الميكانيك والثقالة . نتيجة هذه القوانين ، التي لا تزال تستخدم في معالجة حركة الاجسام على المستوى العياني (macroscopic) حتى يومنا هذا ، استطاع هذا الفيزيائي العظيم أن يفسر سقوط الاجسام على الأرض وحركة القمر والكواكب في السماء . نقدم ايضا نظرية نيوتن عن الضوء ، وهي النظرية الجسيمية ، كما نقدم نظرية (هايفنز) الضوئية ، وهي النظرية الموجية . في هذه الحالة يتغلب الأخير على الأول .

في القرن التالي ، الثامن عشر ، تشهد الفيزياء ركودا عاما ، يتسم بالابتعاد عن الطبيعة الى حد ما والتركيز على المعالجات الفيزيائية الرياضية . لكن (كولومب) يكتشف هنا قانون التربيع العكسي حول التفاعل بين الشحنات الكهربائية .

وفي القرن التاسع عشر تتمتع الفيزياء من جديد (بعد فترة الهضم والاسترخاء التي سادت في القرن السابق) . ففي مجال الحرارة والغازات ، تؤدي التطورات الى مبدأ انحفاظ الطاقة (هيلمهولتز) والنظرية الحركية الاحصائية للغازات (ول وماكسويل) ، كما تتشعب النظرية الموجية للضوء (يونغ وفريينل) وتتحدد سرعته .

ويبدأ في هذا القرن علم الاطيف الذرية (كيركوف) ، الذي أدى فيما بعد الى اكتشاف بنية الذرة . وفي هذا القرن ايضا ، توحدت الكهرباء والمغناطيسية في مجال واحد هو الكهربائية ، وذلك على أيدي (أمبير) و(فاراداي) بصورة خاصة . كما أدخل (ماكسويل) الضوء ضمن هذا المجال (الكهرومغناطيسية) ايضا .

في القرن العشرين (وأواخر التاسع عشر) تؤدي الأبحاث في أطراف إشعاعات السطوح السوداء الى فرضية (بلانك) حول تكميم الإشعاع الضوئي . هذا العمل يترسخ في نموذج (آينشتاين) الفوتوني عن هذا الإشعاع . يقوم (تومسون) ايضا باكتشاف الالكترون ، كما يبدأ رذرفورد ويوهر بتحديد نموذج لبنة الذرة الهيدروجينية والذرات الأخرى . هذا النموذج يتطور تدريجيا الى نظرية ميكانيك الكم والميكانيك الموجي للجسيمات الدقيقة على أيدي دي بروجلي ، وشرودينجر ، وهايزنبرغ ، وديراك ، وبولي .

ايضا تكتشف النواة الذرية (قلب الذرة) وإشعاعاتها وتفاعلاتها المختلفة - على أيدي (بيكريل) و(آل كوري) و(رذرفورد) ، بصورة خاصة . وتوضح البنية النووية للنوى المختلفة ، على انها تشكيل متوازن الى حد ما من البروتونات والنيوترونات . هذه التطورات تؤدي الى بناء المفاعلات النووية (لانتاج الطاقة) بجهود (فريمي) ، وايضا الى تفجير القنبلة النووية الأولى في التاريخ .



بعد ذلك ، تقدم بعض الأفكار الرئيسية في نظرية النسبية . هذه النظرية المعجبة الغربية ( آينشتاين ، ١٩٠٥ ) تؤدي إلى تعديلات في مفاهيمنا الأساسية ، كالزمن والطول والكتلة والطاقة ، فليس هناك كميات مطلقة ، بل إن النتائج نسبية تعتمد على سرعة الراصد .

وفي نهاية العرض ، نعطي لمحة عن بعض الأنشطة الحديثة في مجالات الجزيئات والجوامد التي تشكل الميكمل الاسامي في فهمنا الحاضر للحياة وسلوكها . كما تقدم عرضاً موجزاً لموضوع جسيمات الاسامية في الفيزياء ، التي تشكل « القطع » الاسامية في بنية الجسيمات المعقدة التي نشاهدتها ، هذا العرض يقودنا الى جسيم ( الكوارك ) الغريب حقاً . وفي النهاية ، نتعرض لموضوع المنهجية الفيزيائية ، وهي الطريقة المتبعة للتوصل الى القوانين الفيزيائية المختلفة .

#### ١ - القرن السادس عشر - بداية عصر النهضة العلمية :

بدأت النهضة العلمية والفنية في القرن السادس عشر ، إذ حدث في هذا القرن أن بدأ العلماء والمفكرون الأوربيون بالتحرك من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية المتشددة والتقرب من الطبيعة ، ومحاولة فهم أسرارها بدون أفكار وشروط مسبقة . إنها بداية الانفتاح الفكري .

عاش في هذا القرن بعض حبالقة الفكر والفن من أمثال الفنان - المخترع ( ليوناردو دافينشي ) والفنان الموهوب ( مايكل أنجلو ) . وفي العلوم والفلك كان هناك ( كوبر نيكوس ) و ( كيبلر ) وأخيراً الفيزيائي الفلكي ( غاليليو ) . سترسم فيما يلي الخطوط العريضة للأنشطة الفلكية والفيزيائية - التي تحققت خلال هذا القرن .

#### ١ - ١ : الفلك - نموذج ( كوبر نيكوس ) وقوانين ( كيبلر ) :

كان الفلك يفتن في ذلك الوقت بصورة رئيسية بدراسة حركة الأرض والشمس والكواكب المعروفة عندئذ ، وهي المجموعة التي نسميها الآن بالنظام الشمسي وكانت النظرية السائدة عندئذ هي ( نموذج المركز الأرضي ) ، وهي نظرية تعود في أصلها الى العلماء اليونانيين القدماء - وحسب هذا النموذج ، فإن الأرض ثابتة في مكانها ، في موقع ما في الفضاء ، وتدور حولها الشمس والكواكب المرصودة . وليس هنا المكان المناسبة للتوسع في تفاصيل هذا النموذج ، لكنه استطاع أن يقدم تفسيراً لبعض الظواهر المعروفة ، مثل حركة الشمس اليومية ودوران القبة السماوية في الليل وضربها .

لكن هذا النموذج بدا غير مقنع من عدة جوانب . فمن الوجهة البديهية الحسية ، كان يصعب التصديق بأن الشمس الضخمة ، العملاقة هي التي تدور حول الأرض الصغيرة مع أن المنطق الحسي يوحى بعكس ذلك ومن ناحية فنية معضلة ، فإن النموذج أعطى تفسيرات وشروحات معقدة جداً لحركة الكواكب . ففي هذا النموذج ، لم تظهر أية منهجية واضحة يتبناها العقل الإنساني ، في عصر الانفتاح ، لحركة هذه الكواكب .

قام الفلكي البولندي - الألماني نيكولاس كوبر نيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) بتقديم نموذج بديل للنظام الشمسي . النموذج الجديد يدعى « نموذج المركز الشمسي » ، وفيه يفترض أن الشمس ثابتة . في موقع ما في الفضاء ، وأن الأرض والكواكب الأخرى تدور في مدارات ( دائرية ) مختلفة حول الشمس وقال ( كوبر نيكوس ) بأن الأرض كروية الشكل وتدور حول محورها في نفس الوقت الذي تدور فيه الشمس . وبهذا استطاع أن يفسر ، ليس فقط حركة الشمس اليومية ، بل أيضا الحركات الاهتزازية<sup>(١)</sup> الظاهرية للكواكب وأسباب الفصول والمواسم السنوية . إن هذه الحركات الاهتزازية ، حسب ( كوبر نيكوس ) ، هي ظاهرة فقط وليست حقيقية ، وتعود الى أننا نشاهد ونرصد هذه الأجسام من أرض متحركة . إن حركة الأرض المدارية حول الشمس تجعل حركة الكواكب ، البسيطة في الأصل ، تبدو معقدة حقا .

النموذج الذي طرحه ( كوبر نيكوس ) قدم الإطار الفكري والفلسفي لطريقة جديدة في معالجة النظام الشمسي . لكن النموذج كانت تنقصه الصيغة الرياضية الكمية . هذا النقص قام بتعويضه الفلكي ( كيبلر ) الذي عاش في الفترة ( ١٥٧١ - ١٦٣٠ ) . عمل ( كيبلر ) لفترة كمساعد للفلكي التجريبي الدانمركي ( تايجوراهي ) ، الذي قام برصودات تفصيلية ودقيقة عن حركات الكواكب . ولم يكن ( كيبلر ) يحب القيام بالتجارب بنفسه ، بل كان يحب الرياضيات ، بما فيها من أشكال هندسية وأرقام ونظريات .

عكف كيبلر على دراسة نتائج براهي المسجلة عن حركة الكواكب ، وخصوصا كوكب ( المريخ ) ، وعلى محاولة تفسير هذه الحركات على أساس نموذج ( كوبر نيكوس ) الذي كان ( كيبلر ) قد درسه بالتفصيل . وبعد سنوات طويلة من المحاولات استطاع ( كيبلر ) ، بداية من عام ( ١٦٠٩ ) ، أن يعطي الصيغة الرياضية التي تعبر عن حركة الكواكب . هذه هي قوانين ( كيبلر ) الثلاثة :

الأول - كل كوكب يدور حول الشمس في مدار هو قطع ناقص ، وتقع الشمس في إحدى بؤرتي هذا القطع .

الثاني - نصف القطر الذي يصل الشمس بالكوكب ويدور مع الكوكب ، يغطي مساحات متساوية في أزمنة متساوية .

الثالث - بمقارنة الكواكب مع بعضها البعض ، فإن مربع الدور ( الزمن الدوري ) لحركة الكوكب يتناسب طرذا مع مكعب نصف المحور الرئيسي لمدار هذا الكوكب .

هذه القوانين الثلاثة أثبتت ، مع مرور الزمن ، معظم الفلكيين في تلك الفترة بصحة النموذج الجديد ، وأدت الى قلب النموذج اليوناني القديم . لكن محاولة تعميم هذه النتائج الى أوساط الرأي العام أدت الى صراعات مبروة مع الكنيسة استمرت لقرون عديدة .

(٢) - الحركة الاهتزازية تعني التأثير الدوري في بعد الكواكب عن الأرض ، إذ يبعد الكوكب عن الأرض أسفا ثم يعود ليقرب منها ، وهكذا بشكل دوري .

## ١ - ٢ : الميكانيك - (غاليليو) وحركة الأجسام الساقطة :

لم يتطور علم الميكانيك كثيرا منذ زمن العالم اليوناني أرخميدس وحتى القرن السادس عشر لكن هذا القرن شهد اهتمامات عديدة في علم (الإستاتيكا) أو علم التوازن وفي علم الديناميك (الحركة). لقد جرت هناك دراسات عن الحركة وعن القوى التي تسببها، وعن الطريقة التي تعالج بها القوى المتعددة.

ويمكن أن نحدد بداية علم الميكانيك الحديث بأعمال الفيزيائي العظيم الرائد غاليليو غاليلي الذي عاش في الفترة (١٥٦٤ - ١٦٤٢) - نفس فترة كيبلر تقريبا. درس غاليليو الطب، ثم تحول بعد ذلك إلى دراسة الرياضيات والفيزياء. بعد تخرجه، عمل غاليليو أستاذا في عدة جامعات إيطالية، منها جامعات (بيزا) و (فلورنس) و (بادوا).

كان غاليليو من الانصار الأقوياء لنموذج كوبرنيكوس عن النظام الشمسي. وبني تلسكوبا بسيطا (كان الأول من نوعه في إيطاليا) لتضخيم صور الأجسام البعيدة. ووظف هذا الجهاز لمشاهدة سطح القمر، حيث اكتشف الجبال والحفر الموجودة على السطح، كما رصد الكوكب الممخض، المشتري، واكتشف وجود عدة أقمار تدور حوله. ورصد سطح الشمس، من خلال الجهاز، حيث اكتشف وجود البقع الشمسية هناك.

وفي الميكانيك، قام غاليليو بأعمال هامة، شكلت حجر الأساس لدراسات وتطورات لاحقة. نذكر منها ما يلي :

الأجسام الساقطة الحرة : برهن غاليليو على أن الأجسام الساقطة (من برج عال، مثلا) تكتسب نفس السرعة، بغض النظر عن أوزانها، مع تجاهل تأثير الهواء. واستنتج أن الأجسام جميعها تتسارع نحو الأسفل بنفس المقدار. ويبدو أن (غاليليو) قد أعاد هذا التجربة مرارا من برج (بيزا) للمثال، وأمام حشد من أساتذة الجامعة وطلبتها، وذلك من أجل كسب الحركة ضد معارضيهِ العنيدين.<sup>(٣)</sup>

الحركة ذات التسارع المنتظم : قام (غاليليو) بتجارب عديدة على حركة الأجسام على السطوح المائلة، حيث يكون التسارع (العجلة) منتظما. وأثبت أن المسافة التي يقطعها الجسم تتناسب طرذا مع مربع الزمن الذي ينقضي منذ بداية التجربة.

حركة القذائف : كان غاليليو أول من أثبت أن المسار الذي تأخذه قذيفة (projectile) هو على شكل قطع مكافئ (parabola). لقد توصل إلى هذه النتيجة باعتبار أن الحركة هي تراكب (Superposition) بين حركتين بسيطتين : حركة منتظمة في الاتجاه الأفقي، وحركة سقوط حر في الاتجاه الشاقولي (الرأسي).

حركة النواس : لقد لغت هذه الحركة انتباه (غاليليو) في وقت مبكر من حياته ، عندما كان يصلي في الكاتيدريالية في مدينة (بيزا) . لقد لاحظ أن المصباح الكبير المعلق في السقف كان يضيء في حركة اهتزازية ، بعد أن يضاء ويترك حراً . وقام بقياس دور الحركة بواسطة « الساعة » الطبيعية الموجودة معه ، أي نبضات قلبه . وجد (غاليليو) أن الدور لا يتغير حتى عندما تبدأ الحركة بالتلاشي والحمود وتقل سعة الاهتزاز . وبرهن أيضاً على أن الدور لا يعتمد على الوزن ، وأن (الدور) يتناسب مع الجذر التربيعي لطول النواس . هذه الأفكار طورت بعد ذلك بسنوات ، من قبل العالم الهولندي (هايفنز) ، في صنع ساعة نواسية لقيت قبولاً واسعاً كأول أداة يمكن الاعتماد عليها لقياس الزمن .

إن معظم أفكار ودراسات وأبحاث (غاليليو) في الميكانيك ظهرت في كتابه التاريخي المعروف « عن علمين جديدين On Two New Sciences » . هذا الكتاب نُشر في هولندا ، وليس في إيطاليا ، في عام (١٦٣٨) ، أي قبل وفاته بسنوات قليلة . ويعتبر هذا الكتاب بحق من أعظم وأهم أعماله العلمية . وإلى (غاليليو) يعود الفضل بالإصرار دوماً على إجراء التجارب لاختبار النظريات والأفكار . لم يكن يكتفي ، مثل أسلافه ، بالاعتدال على النتائج الفكرية (النظرية) فقط . كما أنه لعب دوراً كبيراً في تحرير العلوم الطبيعية من الهيمنة التي فرضها العلماء اليونانيون القدماء ، وبخصوصاً أرسطو ، والتي أيدتها الكنيسة بقوة في ذلك الوقت . وقد تعرضت آراء غاليليو الجديدة ، وبخاصة ما يتعلق منها بالأمور الفلكية للكثير من النقد والمحاکمة وحتى الاضطهاد من قبل الكنيسة .

كما كان (غاليليو) من أوائل الباحثين الذين استعملوا الطريقة الرياضية في التعبير عن النتائج الفيزيائية . لقد كان يصبر على أن الرياضيات هي اللغة المناسبة للطبيعة ، وأن الفهم الكامل للظواهر الفيزيائية يعتمد على ترجمة التجارب الوصفية إلى تعابير كمية .<sup>(١)</sup>

#### ١ - ٣ : الكهروطيسية :

يمكن القول بأن علم الكهروطيسية قد بدأ بأعمال العالم الانجليزي « ويليام جيلبرت » الذي عاش في الفترة (١٥٤٠ - ١٦٠٣) ، وهي الفترة التي عاش فيها غاليليو على وجه التحديد . درس (جيلبرت) في جامعة (كامبريدج) وعمل في البداية كطبيب ، حيث كان ناجحاً جداً لدرجة أنه أصبح الطبيب الخاص للملكة .

تحولت اهتمامات جيلبرت إلى الفيزياء حيث أجرى تجارب عديدة في مجال الكهروطيسية . وفي عام (١٦٠٠) نشر كتابه الشهير « المغنطيس DeMagnete » ، الذي اشتمل على عدد كبير من الحقائق والتجارب والأفكار . قام جيلبرت بتجارب عديدة في الكهرباء وبخصوصاً على مادة (الكهرمان) المشحونة بطريقة الاحتكاك . وكان أول من استعمل التعابير (القوة الكهربائية) و (التجاذب الكهربائي) كما أجرى جيلبرت تجارب على الإبرة المغنطيسية

(١) - مرجع (٨) - ص ٤٤ - ٤٥

سيرة الفيزياء على الجبل المتعبدية من النظرية والتجربة

وتوجهها إلى الشمال . وكان أول من استعمل التعبير ( القطب ) فيما يخص طرف الإبرة . ثم استنتج ، بطريقة « تفكيرية » ، أن الأرض لا بد أن تكون « إبرة مغناطيسية ضخمة » .

كان ( جيلبرت ) من مؤيدي نموذج كوبر نيكوس ، وحاول في كتابه أن يقدم أدلة جديدة على صحة هذا النموذج . كما لاحظ ، ربما للمرة الأولى في التاريخ ، أن الخواص المغناطيسية للأرض تعني أن هذه تلف حقا حول محورها ، كما افترض كوبر نيكوس .

وجه جيلبرت انتقادات شديدة ولاذعة لمن سبقه من العلماء وما قاله : ( الفلاسفة الحديثون يجب أن يتجنبوا التعليم الذي يأتي من الكتب فقط ، والذي يستند فقط إلى الجدل الفروري والحدس ... على الرجال الأذكياء أن يستندوا إلى الحقائق وإلى التجربة .<sup>٢٩</sup>

## ٢ - القرن السابع عشر :

استمر الانتعاش العلمي الذي بدأ في القرن السابق ، وشمل إنجلترا وجميع أنحاء أوروبا ، ما عدا ألمانيا التي شهدت صراعات سياسية ودينية مريرة خلال النصف الأول من هذا القرن كما شهدت إيطاليا انتكاسا في أعقاب محاكمات الكنيسة لغاليليو ، مما أدى إلى إضعاف الحركة العلمية في ذلك البلد .

ومن العلماء الذين لعبوا أدوارا رئيسية في الحركة العلمية خلال هذا القرن نذكر : توريسيللي ( إيطاليا ) ، باسكال وديكارث ( فرنسا ) ، ويويل ، هوك ، هالي ، ونيوتن ( إنجلترا ) ، وأخيرا هايفنز ( هولندا ) .

## ٢ - ١ الميكانيك والفلك - قوانين ( نيوتن ) في الميكانيك والفضاء ( الجاذبية ) :

حتى علم الميكانيك باهتمام بالغ بين العلماء في القرن السابع عشر . فبعد أعمال غاليليو العديدة حول حركة القذائف ، كانت هناك حاجة إلى فهم شامل لحركة الأجسام العادية بالقرب من سطح الأرض ، كما كانت هناك حاجة لفهم حركة الأجرام السماوية مثل حركة القمر حول الأرض وحركة الكواكب حول الشمس . ورغم إسهامات العلماء المبدئين في هذا الموضوع فإن الفضل الأول في تحقيق الانتصار الكبير يعود إلى العالم الانجليزي ( نيوتن ) .

عاش اسحاق نيوتن في الفترة ( ١٦٤٢ - ١٧٢٧ ) ، حيث ولد في نفس العام الذي توفي فيه غاليليو . درس نيوتن في جامعة كمبريدج ، وكان على اطلاع تام على أعمال كيبلر وغاليليو وغيرهما . وتوصل نيوتن إلى نتائج هامة في الرياضيات والميكانيك والفلك في عام ١٦٦٦ ( أو حتى قبل ذلك ) ولكنه تأخر لنسب ما في نشر هذه النتائج أكثر من عشرين عاما ، حيث نشرت لأول مرة في كتابه الشهير « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية Principia Mathematica » في عام ١٦٨٧ . وفي هذا العمل العظيم ، قدم نيوتن قوانينه الثلاثة عن الميكانيك ، كما قدم قانونه عن التجاذب الشاقلي الكوني ( Universal gravitation ) .

قوانين نيوتن الثلاثة عن الميكانيك هي الآتية :

الأول : كل جسم يحفظ بحالة السكون أو يسير في حركة منتظمة في خط مستقيم ، إلا إذا أجبر على تغيير تلك الحالة من قبل قوى مؤثرة .

الثاني : معدل التغير في الاندفاع ( كمية الحركة momentum ) يتناسب مع القوة المؤثرة ، ويكون في اتجاه هذه القوة . (أو القوة المؤثرة على الجسم تساوي الكتلة  $\times$  التسارع) .

الثالث : رد الفعل يساوي الفعل في المقدار ويعاكسه في الاتجاه ، أي أن تأثيري جسمين على بعضهما البعض متساويان دائماً ومتعاكسان في الاتجاه .

القانون الأول يدعى أحياناً بقانون ( العطالة inertia ) إذ أنه يظهر أن الجسم يفضل أن يحفظ بحالته الطبيعية ، إلا إذا أجبر على التغير . يبدو أن القانونين الأول والثاني كانا معروفين من قبل لغاليليو وهاينز وغيرهما .<sup>(١)</sup> أما القانون الثالث فيعود الفضل فيه إلى نيوتن وحده إذ أن الذين سبقوه لم تكن لديهم فكرة واضحة عن هذا الموضوع ، ومن قوى التفاضل بين الأجسام .

وعلى كل حال فإن الفضل يجب أن يعطى لنيوتن للوضوح الذي وضع فيه كل هذه القوانين وبالانسجام المنطقي الموجود بين هذه القوانين ، خصوصاً وأنه أبرز الدور الواضح الذي تلعبه القوى في تغيير الحركة ، وهو المجال الذي يعرف الآن بعلم « الديناميك Dynamics » . كما أن نيوتن أبرز دور الكتلة في القانون الثاني ، حيث أن الاندفاع يساوي الكتلة  $\times$  السرعة وكان أول من وضع الفرق بين الوزن والكتلة والعلاقة بينهما ( بواسطة القانون الثاني )

إن قوانين ( نيوتن ) لا تزال تشكل المعادلات الرئيسية التي تصف حركة الأجسام العادية حتى يومنا هذا . إنها حقاً الأساس لعلم الميكانيك في فروعها المختلفة .

إضافة إلى قوانين الميكانيك ، قدم نيوتن في كتابه ما سمي بقانون التجاذب الثقالي الكوني ( Universal law of Gravitation ) . وهذا القانون في صيغته الحالية يقول الآتي : إن أي جسمين يتجاذبان فيما بينهما بقوة تتناسب طردياً مع مضروب الكتلتين وعكسياً مع مربع المسافة بين الجسمين . أي أن القوة تتناسب مع الكتلة الأولى  $\times$  الكتلة الثانية / مربع المسافة ، ويكون اتجاه هذه القوة على الخط المستقيم بين الجسمين . وتعرف هذه العلاقة بقانون التربيع العكسي .

وقد تمكن نيوتن ، بعد اكتشافه هذا القانون ، من شرح عدة ظواهر طبيعية هامة كانت مثار اهتمام العلماء في ذلك العصر . ونورد فيما يلي بعض الملاحظات حول هذا الموضوع :

(١) - مرجع (٣) - ص : (٤٧) .

١ - التسارع الجاذبي (الثقالي) عند سطح الأرض : استطاع نيوتن أن يشرح لماذا يتسارع جسم ما شاقوليا عند سطح الأرض . واستطاع باستخدام القانون الثاني وقانون التجاذب الثقالي أن يحسب قيمة التسارع الثقالي على سطح الأرض بواسطة كتلة الأرض ونصف قطرها . ووجد نفس القيمة التجريبية التي كان قد توصل إليها غاليليو وغيره سابقا (أي حوالي ٩,٨ م/ثا<sup>٢</sup> ثانية × ثانية).

٢ - دوران القمر حول الأرض : تمكن نيوتن من إعطاء شرح واف لدوران القمر حول الأرض . الأرض تشد القمر نحوها بواسطة القوة الثقالية . وهذه القوة ضرورية لأن القمر في حركته الدائرية يتسارع باستمرار نحو الأرض بتسارع يدعى التسارع المركزي (Centripetal acceleration) . وقوة الجاذبية ضرورية لتأمين هذا التسارع كما يتطلب قانون (نيوتن) الثاني هذا التسارع المركز ، في الحركة الدائرية ، أصبح واضحا (لنيوتن) فقط بعد تفكير طويل حول الموضوع .

٣ - دوران الكواكب حول الشمس : قام نيوتن بتطبيق قانون الجاذبية والقانون الثاني على حركة الكواكب حول الشمس التي تشد الكواكب نحوها واستطاع أن يثبت رياضيا صحة جميع قوانين (كيبلر) ، بما فيها القانون الثالث ، الذي يعبر عن العلاقة بين الدور ونصف قطر المدار (انظر الجزء ١ - ١).

قال أحد مؤرخي العلوم عن عمل نيوتن في قانون الجاذبية : في اللحظة التي برهن نيوتن هذه النظرية الرائعة (التي كانت غير متوقعة) أصبحت ميكانيكية الكون واضحة وبجودة أمامه<sup>(٧)</sup>.

لكن قانون الجاذبية ينطوي على مفهوم التأثير عن بعد (Action at a distance) فالأرض مثلا تطبق قوة على القمر حيث تنتقل القوة في الفراغ الكامل (بدون أي وسيط) وبسرعة لا نهائية . هذا المفهوم أزعج نيوتن كثيرا في وقته ، ولا يزال يزعج الكثير من الفيزيائيين حتى في يومنا هذا .

ويمكن أن نختم حديثنا عن إسهامات (نيوتن) في الميكانيك والثقالة بالآتي<sup>(٨)</sup> : رغم الإبداعات والعمق والتنوع في أعمال غاليليو وغيره من العلماء ، فإن معظمه كان متعلقا بأنواع خاصة من الحركة . أما عمل نيوتن فيختلف عن ذلك كثيرا . إنه ينطبق على جميع الحركات وجميع الأجسام ، سواء أكانت على الأرض أم في السماء . إن عمله لا يزال جملة وتفصيلا الأساس في علم ديناميك الأجسام . إن نظرية نيوتن الشاملة في الميكانيك والفلك تعرف الآن بالتركيب النيوتوني الكبير (Great Newtonian Synthesis) .

٤ - الضوء والبصريات (نيوتن وهافشز) :

شهد علم الضوء والبصريات تطورات هامة خلال القرن السابع عشر . فقد اكتشف العالم الهولندي سنل (Snell) حوالي ١٦٢٢ قانون الانكسار (refraction) ، حيث ينحرف الشعاع الضوئي عند انتقاله من وسط إلى

(٧) - مرجع (٤) - ص: ١٥٢

(٨) - مرجع (٨) - ص: (٦١)

آخر . وبعد حوالي عشر سنوات أعاد العالم الفرنسي المعروف ديكارت صياغة هذا القانون ووضعه بشكل أكثر بساطة . عزاديكارت سبب الانحراف إلى اختلاف سرعة الضوء بين الوسطين ، وهو تفسير صحيح بصورة عامة ، رغم أن ديكارت أخطأ في التفاصيل .

كما كانت هناك عدة محاولات جادة لقياس سرعة الضوء في الفراغ ( أو الأثير كما كان يعتقد ) ، بداية من محاولات غاليليو نفسه حول هذا الموضوع . قبل ذلك ، كان الاعتقاد يسود بأن الضوء ينتقل بسرعة لا نهائية . وبعد محاولات متتمة ، اقترح غاليليو أن سرعة الضوء يمكن قياسها من مشاهدة الأقمار التي تدور حول كوكب المشتري ، وتغير زمن انتقال الضوء منها ( الأقمار ) إلى الأرض بين مشاهدة وأخرى . وقد أجرى العالم الدانمركي « أولاف رومر » ( ١٦٤٤ - ١٧١٠ ) هذه التجربة بنجاح ، وتمكن من الوصول إلى قيمة مقبولة للسرعة حتى في هذه الأيام .

لكن التطور الأهم بخصوص الضوء تحقق على يدي العالم الهولندي الفذ ( كريستيان هاينز ) ( ١٦٢٩ - ١٦٩٥ ) . درس هاينز في نفس الجامعة التي كان سلفه سنل قد عمل فيها ( جامعة ليدين ، هولندا ) . وبعد أن ذاع صيته وهو لا يزال في العشرينات من عمره دعاه الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ليقم في باريس ، حيث عاش وعمل هناك من ١٦٦٦ إلى ١٦٨١ .

درس هاينز ، الذي عاصر نيوتن ، وبحث في مواضيع كثيرة منها الميكانيك والفلك وغيرها ، ولكنه ترك أثره الخالد في مجال الضوء : لقد وضع حجر الأساس للنظرية الموجية (Wave theory) للضوء . ومع أن العالم الانجليزي هوك كان قد سبقه إلى بعض التصورات من هذه النظرية ( عام ١٦٦٥ ) ، إلا أن هاينز كان الأول في وضع صورة واضحة وجلية لهذه النظرية . وحسب مبدأ هاينز فإن الضوء ينتشر في الفراغ ( الأثير ) كموجة متقلة ، مثل الموجات المائية . فالموجات الضوئية يمكن أن تنبع من مصدر الاهتزاز ، ثم تنتقل كأمواف كروية أو سطحية ، حيث أن للموجة مقدمة (Wavefront) واضحة في كل لحظة . ويمكن اعتبار كل نقطة من هذه المقدمة كمصدر جديد ينشر الموجات الثانوية ( موجيات ) في جميع الاتجاهات ( شكل ١ ) . وإذا قمنا بتركيب شله ( الموجات ) الصادرة من جميع هذه المصادر الثانوية فإننا نحصل على المقدمة الجديدة للموجة وهكذا تنتقل مقدمة الموجة ويتغير شكلها من مكان إلى آخر . وبالتطبع ، حسب اعتقاد هاينز فإن المصادر الثانوية المهتزة هي الجزئيات في هذا الوسط الغريب ، أي الأثير .

وقد استطاع هاينز ، عن طريق استخدام مبدئه هذا ، أن يشرح ظاهرة الانكسار الضوئي التي عزاها إلى اختلاف سرعات الموجات الضوئية بين الوسطين . استطاع كذلك أن يشرح ظاهرة الانكسار المزدوج (double refraction) في بعض الأجسام البلورية . لكن هاينز لم يستطع أن يقدم تفسيراً للظاهرة الواضحة بأن الشعاع يسير في خط مستقيم ، على ما يبدو ، ولا ينحرف عند الزوايا ، كما هو متوقع من الموجات . كما أنه لم يستطع معالجة الألوان الضوئية ، التي كانت معروفة آنيل ، أو ظاهرة الاستقطاب (Polarization) . بل إنه كان يعتقد أن الضوء موجة طولية (Longitudinal) ، كما هو الحال في الموجات الصوتية .



موجة عكسية هي: حيز يتكون من مقدمة وبعثة

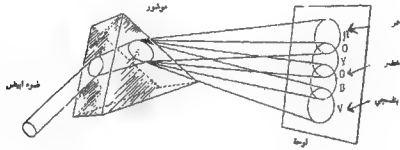


( شكل ١ )

الموجة - الانعكاس والتكسر (الضوء) ، حسب مبدأ ( هيلينز ) الموجة الساقطة على من الأسفل في الوسط الهوائي وتنعكس جزئياً عند السطح الزجاجي . الموجة تنكسر جزئياً وتدخل الوسط الزجاجي حيث تسير بسرعة أقل ، ومن ثم تغير اتجاهها . الجزء - صورة الانعكاس وتغير شكل

قدم هاينز نظريته الضوئية للمرة الأولى في محاضرة أمام الجمعية العلمية الفرنسية في عام ١٦٧٨ ، حيث حضر المحاضرة العالم الألماني روبرت كاسيني وغيرهما . وقد نشرت النظرية بالتفصيل في كتابه « بحث عن الضوء » في عام ١٧٠٤ . ورغم بعض عيوبها الواضحة ، فقد لقيت النظرية استحسانا وقبولا واسعين منذ الوهلة الأولى ، لكنها أجملت لفترة طويلة بعد ذلك بسبب معارضة نيوتن لها .

لقد بحث نيوتن في مجال الضوء في الفترة الأولى من حياته العلمية ( حوالي ١٦٦٤ ) . وقام بصقل وإعداد مشودات وعدسات من نوعيات زجاجية جيدة لإجراء التجارب عليها . وبالنسبة للموشور ، فإن الشعاع الضوئي الأبيض ( من الشمس ، مثلا ) لا ينحرف فحسب في الموشور ، بل إنه يتحلل إلى أشعة جزئية من ألوان مختلفة ومتدرجة من الأحمر إلى البنفسجي ( شكل ٢ ) هذه الظاهرة كانت معروفة قبل ذلك بزمان طويل ، لكن الآراء اختلفت في تفسيرها . أحد هذه الآراء اعتبر ، مثلا ، أن اللون الأحمر يمثل شعاعا « ثقيلًا » لا يستطيع الانحراف كثيرا ، في حين أن البنفسجي يمثل شعاعا « خفيفًا » ، ومن ثم ، فهو ينحرف بسهولة .



( شكل ٢ )

تشتت ، أو تحليل ، اللون الأبيض إلى الألوان الأساسية ، من الأحمر إلى البنفسجي وذلك بواسطة الموشور .

وقد أعطى نيوتن هذه الظاهرة التفسير الصحيح ، وهو أن اللون الأبيض ليس لونا أساسيا وإنما هو تراكم من الألوان المختلفة . وعندما يدخل الشعاع في الموشور ، فإن الألوان المختلفة تنحرف بمقادير مختلفة ، تبعا لتأثيرات الزجاج المختلفة عليها ( ظاهرة التشتت - Dispersion ) كما أجرى نيوتن التجارب على العدسات وحصل على ما يترافق بـ « حلقات نيوتن » . كما أنه أجرى تجارب أدت إلى اختراع تلسكوب الانعكاس .

أما عن طبيعة الضوء ، فقد قدم نيوتن طرعا مختلفة تماما عن طرح هاينز . لقد قدم نيوتن ما يعرف باسم النظرية الجسيمية ( Corpuscular Theory ) للضوء . وتقول هذه بأن الضوء يتألف من جسيمات ضوئية صغيرة تصدر من المصدر وتنتشر في جميع الاتجاهات . وتنتشر الجسيمات بخطوط مستقيمة ، كما هو متوقع من حركة الجسيمات . وشرح نيوتن ظاهرة الانكسار باختلاف التفاعل ( التأثير ) على الجسيمات من قبل الوسطين . فإذا كان

مسألة التواء على الحبل للشدود بين النظرية والتجربة

تأثير الوسط الثاني أقوى ، فإنه يجذب الشعاع نحوه أكثر ويسبب الانحراف . كما أنه يفسر بسهولة المسار الضوئي المستقيم وعدم الانحراف عند الزوايا .

لكنه وجد صعوبة كبيرة في شرح ظهور الانعكاس والانكسار ، معا بين وسطين ( الهواء والزجاج ، مثلا ) في آن واحد . فكيف تنعكس وتكسر الجسيمات الضوئية عند السطح الفاصل في آن واحد ؟ إن الاقتراح الذي قدمه نيوتن بدا مصطنعا وغير مقنع بتاتا .

كان نيوتن على دراية كاملة بنظرية هاينتز الموجية ، لكنه استبعد لها للأسباب التي ذكرت أعلاه ( سير الشعاع في خط مستقيم ، وعدم الانحراف عند الزوايا ) هذا مع أنه كان لديه شعور قوي بأن ظاهرة الألوان وظاهرة الحلقات الضوئية التي حصل عليها كانت تزيد بالفعل النظرية الموجية . لكن نيوتن كان يدرك أن النظرية الموجية تتطلب وجود وسط لنقل الأمواج الضوئية في الفراغ (أي وسط الأثير) ، وهي فكرة لم يكن مرتاحا لها .

نشر نيوتن نظريته الضوئية في مجلة علمية حوالي عام ١٦٧٠ وهي مفصلة في كتابه الشهير ( البصريات - Optics ) الذي نشر في عام ١٧٠٤ . لكن النظرية واجهت معارضة شديدة في الحال من قبل هاينتز وهوك وغيرهما . وقد ولدت هذه المعارضة شعورا بالإحباط لدى نيوتن جعله يشتكى إلى هالي وليبنز وغيرهما من الأصديقاء<sup>(٩)</sup> .

ولكن رغم المعارضة ، فإن نظرية نيوتن هي التي كان لها أن تسود خلال القرن الذي عاش فيه والقرن التالي ، وجزء من القرن التاسع عشر . وكما سنرى ، فإن النظرية الموجية شهدت بعثا جديدا في القرن التاسع عشر ، ليأتي بعده القرن العشرون ويورد بعض الاعتبار للنظرية الجسيمية .

## ٢ - ٣ : الغازات ( قانون بويل )

في عام ١٦٤٣ اقترح العالم الإيطالي « توريشيلي » أننا نعيش في أسفل « بحر عميق من الهواء » ، وقال بأن وزن هذا الهواء يطبق ضغطا علينا وعلى الأشياء من حولنا . واخترع جهازا لقياس الضغط سماه الباروميتر ، وهي كلمة يونانية تعني مقياس الضغط .

بعد ذلك قام العالم الإنجليزي « روبرت بويل » ( ١٦٢٧ - ١٦٩١ ) بتجارب عديدة على الغازات حيث استطاع أن يغير الضغط باستخدام مضخة جديدة في ذلك الوقت . وفي عام ١٦٦٢ أعلن القانون المعروف باسمه ، والذي يقول إن مضروب الضغط والحجم ( لكمية من الغاز ) يبقى ثابتا ، إذا بقيت الحرارة ثابتة ، أو بكلام آخر ،

(٩) - فحصل ( نيوتن ) أن تنال جائزة مالية في كل من مجال الميكانيك والبصريات قبل أن يخلع العام (١٦٦٦) . لكنه ظهر كثيرا في نشر التلخيص (كتاب البصريات) لنشر في ١٦٨٦ ، وعلى لغة صينية ( هالي ) وكتاب ( البصريات ) نشر في عام (١٧٠٤) . ولأنزال السبب في هذا التغيير فليعلمنا إلا أنه لم يعل نيوتن في مجلدات مساهمة عديدة مع زملائه حول الأسئلة في الاكتشاف لمتسا قدم نيوتن لقرونه من التجارب الفشل لدعى زبدية حرك في الحال أنه هو مكتشف الضغط لهذا الفتح وقد يكون من المستحيل إثبات الخطية في هذا المزمع إلا أن المرجح أن نيوتن ناقش هذا الفتح مرارا مع هوك قبل الإعلان عنه كان هوك كذلك من المفكرين للأدلة نظرية نيوتن الضوئية ونتيجة هذه الخلافات ، فقد نشب عداء طويل بين هالين السالطين الأكاديميون . ( انظر مرجع (٣) - ص : ٦٨ - ٦٩ .

إن الضغط يتناسب عكسا مع الحجم والعكس بالعكس . هكذا ، إذا مددنا كمية من الغاز إلى ضعف حجمها فإن ضغطها ينخفض إلى النصف إذا لم تتغير درجة الحرارة خلال العملية .

وقد قدم كل من « نيوتن » و« هوك » شرحا وصفيا لهذا القانون على أساس النموذج الحركي للغازات .

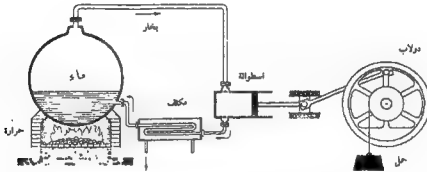
### ٣- القرن الثامن عشر- عصر الركود

لم يحصل تقدم كبير في الفيزياء في القرن الثامن عشر ، على عكس القرن الذي سبقه والذي ضم أعمال عالقة الفيزياء من أمثال « غاليليو » و« هايفنز » و« نيوتن » . مع ذلك ففي القرن الثامن عشر حافظت الفيزياء على مكانتها السابقة إلى حد كبير ، مع حدوث شيء من التراجع في بعض المجالات .

وقد تحققت بعض المكاسب في مجال الفيزياء الرياضية في هذا القرن حيث عمل بعض العالقة من أمثال « لابلاس » و« أويلر » و« لاغرانج » وغيرهم .

ففي مجال الميكانيك تمت معالجة قوانين نيوتن بطريقة رياضية جديدة لتأخذ صبغة عامة ومتجانسة ، تعرف باسم ( معادلات لاغرانج ) . أيضا قام « آرنود » بإجراء تجارب على نظم فيزيائية تنطوي على أوتار وكرات ، وبذلك استطاع أن يتحكم بمقدار التسارع في النظام الفيزيائي . هذه الأعمال ، التي لا تزال نبيذها اليوم في محاضراتنا الجامعية ، كان لها أثر كبير في توضيح قوانين « نيوتن » الميكانيكية .

وفي مجال الضوء ، أهدمت النظرية الموجية تماما وسادت نظرية نيوتن الجسيمية رغم أبحاث وكتابات الفيزيائي الرياضي الشهير « أويلر » ، الذي كان يؤيد النظرية الموجية .



( شكل ٣ )

لتحويل الوضعي لعمل الآلية البخارية . الحرارة مصدر للوقود يتحول إلى أسطوانة ، حيث يؤدي تغير ضغط ودرجة الحرارة في البخار إلى تحريك مكبس . حركة المكبس تؤدي إلى دوران دولاب دولاب يؤدي بدوره إلى رفع وحل . النتيجة النهائية لهذا النظام هي تحويل الحرارة إلى شغل ميكانيكي .

وفي مجال الحرارة اخترعت موازين الحرارة (Thermometers) بأنواعها المختلفة وسلالمها المتعددة من الفيرميات إلى السيليزس . كما أجرى الفنى السكوتلندي جيمس واط ( ١٧٣٦ - ١٨١٩ ) تجارب ناجحة وجدلية على الآلة البخارية ، التي لعبت دوراً أساسياً في الثورة الصناعية في أوروبا . وتعرف العلماء على موضوع الحرارة النوعية والحرارة الكامنة للمواد المختلفة . وقد ساهم في هذه التجارب الحرارية كل من العالمين الفرنسيين المشهورين أنتوان لافوازييه ( ١٧٤٣ - ١٧٩٤ ) الذي أهدم في أحداث الثورة الفرنسية ، وبير لابلاس ( ١٧٤٩ - ١٨٢٧ ) .

والمجال الوحيد الذي شهد تطوراً هاماً في هذا القرن هو مجال الكهربية . لقد كانت هناك تجارب عديدة حول شحن الأجسام بالكهرباء ( ما يدعى بالكهرباء الساكنة ) من قبل علماء في جميع أنحاء أوروبا . كما أجرى الكاتب والديبلوماسى الأمريكى « بينجامين فرانكلين » ( ١٧٠٦ - ١٧٩٠ ) تجارب مماثلة ، إضافة إلى تجارب أخرى عن المواسف الكهربية البرقية . وقدم بعض من هؤلاء نظريات مختلفة عن هذه « المادة » التي تعطي المواد العازلة والناقلة خواصها الكهربائية لكن اتضح أنها كانت في غالبها أفكاراً مؤقتة لم يكتب لها البقاء طويلاً .

لكن العمل الحاسم والباقي في هذا المجال قام به العالم الفرنسى الفذ « تشارلز كولومب » ( ١٧٣٦ - ١٨٠٦ ) . درس كولومب في باريس وعمل في الجهاز الحكومي كخبير علمي ، ولكنه سرعان ما اختلف مع البيروقراطيين ، مما دفعه إلى الاتجاه نحو المجال العلمي البحت . أجرى تجارب على الكهرباء في الشعر وفي الأسلاك ، واخترع ما عرف بميزان القتل . وأثبت بتجارب دقيقة مبتكرة أن التجاذب والتنافر بين الشحنات الكهربائية يخضع لقانون يمثل قانون الجاذبية بين الكتل الذي اكتشفه نوتن ، فيما قبل « قانون التربيع العكسي » ، أي أن قوة التنافر التجاذب بين شحنتين تتناسب طرذاً مع مغروب الشحنتين وعكساً مع مربع المسافة . كما برهن أن الشحنات في الفلزات تستقر في المنطقة السطحية للفلز . كان كولومب يعتقد بأن القوة الكهربية هي تأثير - عن - بعد وتنتقل في الفراغ بدون الحاجة إلى وسط مادي لنقلها . وكان يعتقد بنظرية السائلين الكهربائين ، أي سائل للشحنات الموجبة وآخر للشحنات السالبة .

ومما يذكر أن عالماً إنجليزياً ، وهو « هنرى كافينديش » ، عاش وعمل في نفس فترة كولومب تقريباً ، وقام بتجارب مشابهة لتجارب كولومب وحصل على نتائج صحيحة . لكن شخصية كافينديش الغريبة وانعزاله عن زملائه وعن الناس عامة وعدم نشره لنتائج - كل ذلك أدى إلى عدم إعطائه حقه اللازم في هذا المجال .

أما في مجال الكهرباء المتحركة ( أو ما يسمى الآن التيار الكهربائي في النواقل ) فإن العالم الأول في هذا المجال كان الطبيب الإيطالي « غالvani » ( ١٧٣٧ - ١٧٩٨ ) . لقد وجد بالصدفة أن عضلة رجل الضفدع عندما يوصل طرفها بمشط تؤدي إلى شرارة خفيفة وانتفاضة في العضلة . وقد تابع الفيزيائي الإيطالي « فولتا » ( ١٧٤٥ - ١٨٢٧ ) هذه التجارب ، ووسمها بما أدى في عام ١٨٠٠ إلى إخترائه للبطارية ( الخلية ) الأولى في التاريخ . وتتألف هذه من صفيحتين ، أحدهما من النحاس والآخرى من الزنك ( التوتال ) ، منغمستين في سائل ناقل . لو وصلت هاتان الصفيحتان بسلك ، فإن البطارية تعطي التأثيرات التي كان « غالفاني » قد لاحظها ، ولكن بشدة أكبر .

#### ٤ - القرن التاسع عشر

في هذا القرن استعادت الفيزياء نشاطها الذي فقدته في القرن السابق ، واستعادت الصلة بالروح التي سادت في القرن السابع عشر . وحصلت تطورات هامة جدا ، وخصوصا في نهاية القرن التاسع عشر ، مهدت للثورات الفكرية الفيزيائية التي حصلت في قرنا الحالي ، القرن العشرين .

ففي القرن التاسع عشر عادت النظرية الموجية للضوء إلى المسرح وسادت تماما مع نهاية القرن . كما جرى توحيد تام بين مجال الضوء والكهرطيسية ، وتوحيد شبه كامل بين مجال الكهرباء والمغناطيسية ، حتى أصبحا حقلا واحدا يعرف بموضوع الكهرطيسية . هذا الاتجاه التوحيدي ، الذي تابعه ( آينشتاين ) فيها بعد ، لا يزال من الدوافع الرئيسية في بحوث الفيزياء حتى يومنا هذا .

في هذا القرن أيضا دخل مفهوم هام جدا في عالم الفيزياء ، هو مفهوم الطاقة ( energy ) . كما جرى توضيح طبيعة الحرارة ( heat ) كنوع من أنواع الطاقة . ومنه تطور مبدأ حفظ الطاقة ( energy conservation ) ، الذي أدى إلى علم الترموديناميك ، الذي يدرس العلاقات المختلفة بين الحرارة والشغل . وأدى هذا إلى تطوير الماكينة البخارية في خدمة الصناعة والإنسان .

في هذا القرن سارت النظريات والتجارب يدا بيد ، حيث عاد احترام العالم للطبيعة ، فهي المصدر الذي يجب المقارنة معه دائما ، والذي يجب استلهامه . لذلك فإن الموائع ( fluids ) الخيالية التي كانت تفترض من أجل تفسير ظواهر الحرارة والكهرباء وضربها اندثرت ، ولم ينج إلا مفهوم الأثير ، الذي استمر حتى أوائل القرن العشرين .

وقد شاركت الدول الأوروبية عموما ، وانجلترا وفرنسا وألمانيا خصوصا ، في هذه النهضة العلمية الشاملة . ففي انجلترا ظهر مثلا يونغ وفارادي . وماكسويل وفي فرنسا استمر لاغرانج ولاپلاس وظهر فرنل وكارنو وفورييه ، وفي ألمانيا برز هيلمهولتز وغاوس وهيرتز وغيرهم .

#### ٤ - ١ الحرارة وقوانين الغازات

في القرن الثامن عشر كان العلماء يعتقدون بنظرية ( المائع الحراري - caloric ) وأن هذا المائع الخاص هو نوع من المادة ، وإن كانت مادة غريبة نوعا ما . وهكذا فإن الجسم الحار يحتوي على " كثافة " أكبر من هكا المائع ، والجسم البارد يحتوي على كثافة أقل من هذا المائع . وعندما تنقل الحرارة من جسم حار إلى جسم بارد ، فإن كمية من هذا المائع تنتقل من الحار إلى البارد . هكذا كانت تشرح الحرارة وظواهرها المختلفة .

ويبدو أن أول عالم حاول أن يقلب هذه النظرية هو الأمريكي « بنجامين تومبسون » ( ١٧٥٣ - ١٨١٤ ) ، الذي عرف فيما بعد بـ ( كونت رومفورد ) . كان ( رومفورد ) ضابطا مغامرا ، وتنقل كثيرا ، من الولايات المتحدة إلى انجلترا ثم إلى النمسا ، ثم أخيرا إلى فرنسا ، حيث توفي هناك . وخلال إقامته في لندن أسس ( المعهد الملكي )

مسألة الفيزياء على الحلل المقدمة بين النظرية والتجربة

كجمعية علمية لانتشار العلوم التطبيقية ، وهي الجمعية التي لعبت دورا كبيرا في تشجيع الأنشطة العلمية في إنجلترا خلال العقود القادة .

لاحظ ( رومفورد ) عندما كان يشرف على تنقيب المدافع في ميونخ في عام ( ١٧٩٨ ) أن الاحتكاك يولد كمية كبيرة من الحرارة . واستخدم هذه الظاهرة ، أمام حشد من الناس ، كي يسخن كميات من الماء إلى درجات حرارة مرتفعة ، تصل إلى درجة الغليان . وفكر ( رومفورد ) : من أين تأتي هذه الحرارة الكبيرة ؟ فليس هناك أي جسم ساخن في البداية يحتوي على المائع الحراري المطلوب . وتوصل بتفكير منطقي عملي إلى أن الحرارة تأتي في الأصل من الحركة ( عن طريق الاحتكاك ) ، وأن درجة الحرارة المرتفعة في الماء الحار ليست إلا مظهراً من مظاهر الحركة الداخلية في الماء نفسه . ولقي هذا التفسير تأييداً من العالمين الانجليزيين همفري ويونغ في أوائل القرن التاسع عشر ، لكن معظم الفيزيائيين في ذلك الوقت كانوا لا يزالون يعتقدون بالنظرية الماتمية القديمة .

ومن التطورات الهامة في مجال الحرارة ظهور كتاب العالم الفرنسي « جوزيف لورييه » ( ١٧٦٨ - ١٨٣٠ ) ، وعنوانه « النظرية التحليلية للحرارة » . وقد مثل نشر الكتاب في عام ١٨٢٢ حدثاً كبيراً ، حيث أعطى دفعا كبيراً لبحوث ~~الحرارة~~ خاصة ، ولبحوث الفيزياء الرياضية بصورة عامة .

وقام ~~من~~ من العلماء الفيزيائيين والكيميائيين بدراسات عن قوانين الغازات ، وسلوك هذه الغازات مع تغير درجة الحرارة . وذكر من هؤلاء الفرنسيين « جاك تشارلز » ( ١٧٤٦ - ١٨٢٣ ) و « جوزيف غي - لوساك » ( ١٧٧٨ - ١٨٥٠ ) والانجليزي « جون دالتون » ( ١٧٦٦ - ١٨٤٤ ) . أجرى هؤلاء العلماء ، مستقلين ، تجارب عن توسع ( تمدد ) الغازات ( بما فيها الهواء ) مع زيادة درجة الحرارة ، حيث وجدوا أن الحجم يزداد بالتناسب مع زيادة درجة الحرارة ( قانون تشارلز - غي لوساك ) . كما أجرى آخرون في هذه الفترة تجارب حول انخفاض درجة الحرارة في الغازات ، حيث وجدوا أن معظم الغازات تتحول إلى سوائل في درجات منخفضة مناسبة . ومن هؤلاء نذكر الفرنسي « كيلييت » والانجليزي « ديوار » ، حيث تمكن الأول من تسيليل الهيدروجين والنيتروجين والهواء في عام ١٨٧٧ ، للمرة الأولى في التاريخ .

وفي القرن التاسع عشر بدأ علم جديد مشير للاهتمام ، وهو علم ( التيرموديناميك Thermodynamics ) ، أي الديناميك الحراري . ويعالج هذا الموضوع العلاقة بين الحرارة والشغل ( كمية ميكانيكية ) . وقد كانت الغاية العلمية الرئيسية للموضوع هي الاستفادة من الماكينة البخارية لتوليد شغل مفيد لحركة الانسان . وقد أسس هذا العلم على يدي العالم الفرنسي « نيكولاس كارنو » ( ١٧٩٦ - ١٨٣٢ ) . نشر كارنو كتاباً في عام ١٨٢٢ عن الموضوع حيث قدم عدداً من المفاهيم الجديدة . منها ما عرف لاحقاً بـ « ماكينة كارنو » ، التي يمكن تمثيلها بأسطوانة يوجد في نهايتها مكبس متحرك ويحتوي على غاز ذي خواص مثالية . وتعمل الماكينة بطريقة دورية حيث يضغط الغاز في درجة حرارة مرتفعة ، ثم يسمح بالتمدد والتبريد إلى درجة حرارة منخفضة يقوم خلالها بشغل معين .

استطاع «كارنو» أن يحصل على قانون صحيح يعطى كثافة هذه الماكينة المثالية في تحويل الحرارة إلى شغل ميكانيكي مفيد ويبرهن أن هذه الكثافة تمثل الحد الأقصى لكثافة أية ماكينة عملية تعمل بين درجتى الحرارة المذكورتين .

وجدير بالذكر أن كارنو ، عندما قدم أبحاثه ، كان يعتقد بنظرية المائع الحرارى . لكنه بدأ تدريجيا بالتحويل عنها والتوجه نحو النظرية الحركية للحرارة . وفي كتاباته الأخيرة حول الموضوع ، اقرب كارنو جدا من المفهوم الذي عرف فيما بعد بمفهوم الطاقة .

وقد طورت أفكار كارنو من قبل العالم الألماني «كلوزيوس» والعالمين الانجليزيين «وليام تومسون» (لورد كيلفين ، فيما بعد) ووليام رانكين ، الذين قالوا صراحة بأن الحرارة تمثل طاقة حركية في الجسيمات التي تتكون الجسم .

وقد توصل ثلاثة من العلماء ، مستقلين ، إلى مبدأ حفظ الطاقة عند حوالى منتصف القرن التاسع عشر . فالعالم الألماني «روبرت ماير» (١٨١٤ - ١٨٧٨) بدأ طبييا ثم تحول تدريجيا نحو الدراسات العلمية ، وخصوصا حول تحويل الطاقة الميكانيكية إلى حرارة . لكن آرائه قوبلت بعدائية شديدة على منها كثيرا ، وقضى معظم سنواته الأخيرة في المرض والمعاناة الجسدية والنفسية . وقام العالم الانجليزي «جيمس جول» (١٨١٨ - ١٨٨٩) بأعمال مشابهة من تكافؤ الطاقة الحركية والحرارة ، وأجرى تجارب (حوالى ١٨٥٠) لحساب معامل التكافؤ الميكانيكي للحرارة ، حيث وجد القيمة ٤,٢٤ جول للكالورى (السعر الحرارى) ، وهي قريبة من القيمة الحالية (٤,١٩) . كان حظ جول أفضل من حظ ماير ، حيث حظي الأول بتشجيع العالم المرموق «تومسون» ، مما أعطى مجالا أوسع لانتشار أعمال وآراء جول .

لكن مبدأ حفظ الطاقة لقى دعما مؤثرا من قبل العالم الألماني الفيلسوف «هيرمان فون هيلمهولتز» (١٨٢١ - ١٨٩٤) . بدأ هذا عمله كطبيب ، ثم تحول إلى دراسة الطبيعة في مجالات الحرارة والصوت والضوء ، لكي يفهم بصورة أفضل وظائف أعضاء الجسم ، مثل الأذن والعين ثم تحول إلى دراسة الرياضيات لكي يفهم الظواهر الفيزيائية بطريقة كمية ودقيقة . لقد كان هيلمهولتز يمتلك ذكاء غارقا في العمق وفي الاتساع ، مما وضعه في الصف الأول بين معاصريه في الطب والفيزياء والرياضيات . في عام ١٨٤٧ ألقى محاضرة أمام الجمعية الفيزيائية الألمانية وضع فيها آرائه عن تكافؤ الطاقة الحركية والحرارة وأيضا عن الانحفاظ العام للطاقة . وكان العرض واضحا وجريئا وصريحا . ورغم المقابلة العدائية هذه الآراء ، التي اعتبرها معظم العلماء المعروفين في ألمانيا على أنها مجرد تأملات وتخمينات ، فإن النظرية انتشرت بعد سنوات وأصبحت النظرية المقبولة والسائدة في جميع أنحاء أوروبا وإنجلترا .

كان هناك كثير من التشاكيب بين مفهومي الطاقة والقوة اللذين كانا يستعملان ككلمتين مترادفتين . وكان أول من أطلق كلمة الطاقة بمعناها الحديث لتعنى الشغل الذي تقوم به قوة ميكانيكية هو العالم الانجليزي «يونج» في حوالى عام ١٨٤٩ .

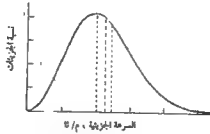


مسيرة الفيزياء على الحقل التمدد بين النظرية والتجربة

كما قام « جول » في تلك الفترة ( حوالي ١٨٥٠ ) بوضع الأسس للنظرية الحركية للغازات . أراد جول أن يقوم باشتقاق نظري لقانون الغاز المثالي وذلك باستخدام نموذج للغاز كان قد قلمه العالم السويسري « بيرنولي » ( الفترة ١٧٠٠ - ١٧٨٢ ) . قانون الغاز المثالي هذا ، والذي يمكن استنتاجه من ضم قوانين بويل ونشارلز معا ، يتلخص في المعادلة التالية : ضغط  $\times$  حجم = ثابت  $\times$  درجة الحرارة ( المطلقة ) . من أجل اشتقاق هذا القانون ، افترض جول أن الغاز المثالي يمتلك الخواص التالية : أنه يتألف من جزيئات ( أو ذرات ) صغيرة جدا ( حوالي  $10^{-10}$  سم ، في نصف القطر ) ، وكثيرة العدد ( من رتبة  $10^{23}$  جزيي / متر مكعب ) ، وفي حركة عشوائية مستمرة بسرعات عالية ( من رتبة ( ٥٠٠ متر / ثانية ) . أما قوى التفاعل بين هذه الذرات فهي ضعيفة جدا للدرجة يمكن إهمالها . وهذه الذرات - على كثرتها وسرعاتها العالية - تتصادم مع بعضها في بعض الأحيان النادرة ، لكن هذه التصادمات مرنة ، مما يعنى أن الطاقة الحركية للذرات تبقى محفوظة خلال التصادم .

تتصادم الذرات أيضا مع جدار الوعاء الذي يحتمى الغاز . هذه التصادمات مرنة وتحدث بكثرة . وقد افترض جول ، بعد سلفه بيرنولي ، أن هذا التصادم مع الجدار هو الذي يولد الضغط الغازي الذي نقيسه . وباستخدام قوانين نيوتن تمكن جول من اشتقاق معادلة رياضية للضغط في الغاز . وبمقارنة هذه المعادلة مع قانون الغاز المثالي ، تمكن جول من التوصل إلى النتيجة الهامة ، وهي أن درجة الحرارة المطلقة تتناسب مع الطاقة الحركية ( المتوسطة ) للجزيئات . وهكذا تم التوصل أخيرا إلى تفسير ميكانيكي لدرجة الحرارة .

تطورت النظرية الحركية للغازات بعد ذلك بفضل جهود العالم الانجليزي « ماكسويل » والعالم النمساوي « بولتزمان » . لقد اعتبر هذان أن الجزيئات في الغاز لا تمتلك سرعة معينة ، وإنما تتوزع هذه الجزيئات بشكل إحصائي على سرعات مختلفة - أي أن بعض الجزيئات لها سرعات صغيرة وبعضها له سرعات متوسطة والأخرى لها سرعات عالية . ويمكننا من التوصل ، بصورة مستقلة ، إلى تابع التوزيع الذي يبين كيفية توزيع الجزيئات على السرعات المختلفة ( شكل ٤ ) . وهكذا فإن درجة الحرارة للغاز تمثل في الواقع المتوسط الإحصائي للطاقة الحركية للجزيئات في السرعات المختلفة . وقد شكلت أعمال جول وماكسويل وبولتزمان الأساس النظري لمعالجة الغازات بغوصاتها الحرارية والثيرموديناميكية المختلفة .



( شكل ٤ )

توزيع الجزيئات في غاز البيرنولي على السرعات المختلفة عند درجة حرارة الصفر المطلق . الجزء الأكبر من الجزيئات تكون سرعتها حوالي  $500$  م / ث .

## ٤ - ٢ : الضوء

## ٤ - ٢ : ١ : طبيعة الضوء - النظرية الموجية

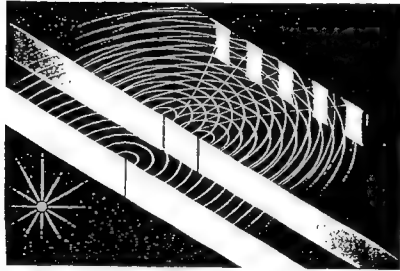
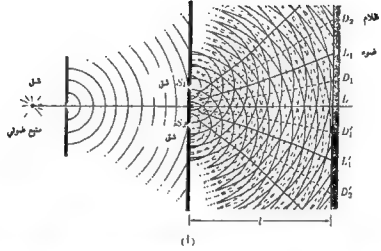
يعود الفضل في إحياء النظرية الموجية للضوء ، التي أهملت خلال القرن الماضي ، إلى أعمال العالم الانجليزي « توماس يونغ » ( ١٧٧٣ - ١٨٢٩ ) . وكان هذا طفلاً نابغاً ، حيث تعلم القراءة والكتابة الواعية قبل الرابعة من عمره ، وقراً كثيراً في العلوم والفلسفة والإنسانيات . بدأ يونغ حياته العلمية كطبيب ثم تحول إلى دراسة الضوء والصوت عندما بدأ بدراسة المين وتركيبها وتفاعلاتها الضوئية . في عام ١٨٠١ ألقى يونغ محاضرة عن الألوان في الصفائح الرقيقة . في هذه المحاضرة أيد يونغ النظرية الموجية وقدم مفهوم التداخل ( interference ) الضوئي للمرة الأولى : عندما تلتقي موجتان متوازيتان قاعدتان من مصدرين مختلفين ولكن متوافقتين ، فإن تأثيرهما هو جمع لحركتهما المختلفتين . هكذا حصل يونغ على النمط التداخلي الذي ينتج عن الشق الأزوداجي ( شكل ٥ ) والذي يشمل على الأهداب الساطعة والقائمة المتوزعة على التوالي . ورغم دقة أعمال يونغ ولأنها كانت مكثفة وغير واضحة ، وقوبلت أراؤه بنقد لاذع في إنجلترا لتعارضها مع نظرية نيوتن الجسيمية مما سبب له الإحباط طيلة فترة حياته العملية الباقية . ويعود الفضل الكبير في دفع ركب النظرية الموجية للضوء ، وإحياء أعمال يونغ نفسها ، إلى العالم الفرنسي « أوجوستين فرينيل » ١٧٨٨ - ١٨٢٧ . عمل فرينيل ، الذي لم يظهر علامات النبوغ في طفولته ، كمنهندس في الحكومة ، ثم بدأ بأبحاثه الضوئية في عام ١٨١٥ .

حصل فرينيل على النمط الحيودي لسلك موزوعي في طريق شعاع ضوئي . ورغم أن هذا النمط كان معروفاً من قبل ، فإن فرينيل قد فسّر هذه الظاهرة ، للمرة الأولى ، على أنها تعود للتداخل بين الموجات الضوئية في الشعاع ، وهو نفس المفهوم الذي استعمله يونغ سابقاً في مجال آخر ( بدون علم فرينيل ) . واستعمل فرينيل في شرحه مبدأ هايفنز في تقدم الموجات ، مع توظيف الطرق الرياضية الملقنة لشرح تقدم الموجات الضوئية . كما أنه قدّم شرحاً وافياً ومقتناً لظاهرة انتشار الضوء في خط مستقيم وعدم انحرافه عند الزوايا ( كما يفعل الصوت ) . فالسبب ، حسب رأي فرينيل ، هو أن طول الموجة قصير جداً ( حوالي ٥ × ١٠<sup>-١٠</sup> سم ) بالمقارنة مع أبعاد الأجسام التي يمكن أن تسبب له الحيود . فعندما يسير شعاع موجي ، بهذا الطول ، فإنه لا يعاني كثيراً من الانحراف أو الحيود أو التباعد . وهذا هو الجواب على أحد اعتراضات نيوتن على النظرية الموجية للضوء بأن الضوء يسير في خط مستقيم أما إذا كانت الموجة طويلة ، فإن الشعاع يتوزع بسرعة وينحرف عند الزوايا ، كما يفعل الصوت .

ورغم معارضة علماء بارزين ، مثل « لابلاس » ، فإن نظرية فرينيل سرعان ما انتشرت وحصلت على قبول واسع . كما أن فرينيل عرف لاحقاً بأعمال يونغ السابقة ، وجرى بين الاثنين حوار أدى إلى علاقة ودية دائمة ، على غير العادة في مثل هذه الظروف .

وكان على النظرية الموجية أن تجتاز عقبة أخرى وأخيرة ، وذلك فيما يتعلق بظاهرة الاستقطاب . لقد كان معروفاً ، منذ زمن نيوتن وهايفنز ، أن الشعاع الضوئي عندما ينكسر بين الهواء ومادة بلورية فإنه ينقسم إلى شعاعين

مسيرة التقريب على الحبل للتمهيد بين النظرية والتجربة



(ب)

(شكل ٥)

الخط التداخلي للشع الأزرق ، حسيه نظرية (يوانغ)  
(أ) لي للقطع - الشعاع الضوئي يأتي من الشعاع يمر في الشق الأول حيث ينتشر في موجبات نصف دائرية ، ثم يمر أجزاء من حله الموجبات عبر الشقين التاليين . وتتداخل الموجبات الصغيرة من حدين الشعاع على الشاشة لي البين ، لتشكل سويات مضيئة ومظلمة على التوالي . (ب) صورة تجريبية للجزء (أ) لي للأجزاء .

يسيران في اتجاهين مختلفين داخل البلورة . هذه الظاهرة عرفت باسم الانكسار الازدواجي . وقد تجددت الدعوة إلى حل هذه المشكلة عندما وجد الفرنسي « مالوس » ( ١٧٧٥ - ١٨١٢ ) أن الشعاع الضوئي المنعكس من سطح مائي يكتسب خواص ذات علاقة بالانكسار المزدوج . فكيف تفسر هذه الظاهرة على أساس النظرية الموجية ؟ بعد التفكير الطويل حول الموضوع ، على مدار ست سنوات ، أتى يونغ نفسه بالحل الصحيح في عام ١٨١٧ : إن الشعاع الضوئي ، كموجة منتشرة ، له خاصية الاستقطاب وهي التي تصنف اتجاه الحركة الاهتزازية للموجة . بالنسبة لاتجاه انتشار الموجة ، فال موجات الضوئية هي موجات مستعرضة ( Transverse ) ، أي أن حركة الجسيمات الاهتزازية عمودية على مسار الشعاع ، مثل حركة جسيمات الماء العمودية على مسار الموجة على سطح الماء . وبما أن هناك اتجاهين مستقلين وعموديين على المسار ، فإن بالإمكان تشكيل شعاعين ضوئيين باستقطابين مختلفين . وهكذا ، فعندما يسقط شعاع غير مستقطب على سطح بلورة ، فإن التركيب البلوري غير المنتظم ( non - isotropic ) يؤدي إلى فرز شعاعين ذوي استقطابين مختلفين ومتعامدين داخل البلورة .

هذا الشرح للاستقطاب من قبل يونغ أَرْضَى مالوس ولكنه لم يرض عالما آخر في مجال الاستقطاب ، وهو العالم الأيرلندي سير « ديفيد بروستر » ( ١٧٨١ - ١٨٦٨ ) . وكان اعتراضه من النوع الفلسفي : « لا أستطيع أن أتحيل أن الحقائق قد خلطت وملأ الفراغ بالآثار من أجل توليد الضوء » . كان بروستر يقلد تماما بأن مفهوم التأثير يقع في صلب الشرح الذي قدمه يونغ عن الاستقطاب .

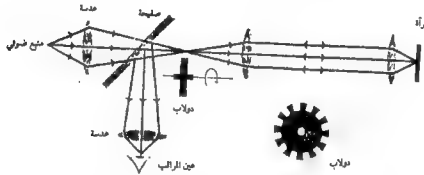
#### ٤ - ٢ - ٣ : سرعة الضوء

في منتصف القرن التاسع عشر تقريبا قام عالمان فرنسيان بتحديد سرعة الضوء للمرة الأولى ، وفي نفس الوقت تقريبا ، قام الفرنسي « جون فوكو » ( ١٨١٩ - ١٨٦٨ ) بقياسات حددت نسبة سرعة الضوء في الفراغ ( الهواء ) إلى سرعته في الماء ، وأثبت أن السرعة في الماء أقل منها في الهواء . كان ذلك في عام ١٨٥٣ . كما اخترع فوكو نواسه ( بندوله ) الشهير الذي وضع دوران الأرض حول نفسها ، كما اخترع الجهاز العجيب المسمى بالجلابر وسكوب . لقد وضع هذا العالم حقا معايير مرتفعة جديدة في دقة الأجهزة المستعملة في القياسات العلمية .

وبما يذكر أن نتيجة ( فوكو ) عن سرعة الضوء في الماء وكونها أقل من سرعته في الهواء كانت الضربة القاضية للنظرية الإبتدائية ( الجسيمية ) للضوء . فقد كان ( نيوتن ) وغيره من مناصري هذه النظرية يتوقعون عكس هذه النتيجة التي تتفق تماما مع النظرية الموجية .

وقام الفرنسي « هيولايت فيزو » ( ١٨١٩ - ١٨٩٦ ) كذلك بإجراء تجربته الشهيرة لقياس سرعة الضوء في الهواء . يدخل الشعاع الضوئي الأفقي ثقباً في دولاب ( شكل ٦ ) يمكن تدويره حول محور أفقي بسرعات دورانية مختلفة . الشعاع الضوئي ينطلق أفقياً حيث يرتطم بمرآة عمودية واقعة على بعد ٨٦٣٣ متراً في ضاحية من مدينة باريس . الشعاع المنعكس يعود إلى الدولاب مرة أخرى ، ويمر فيه عبر أحد الثقوب أو يرتطم بجدار الدولاب بين

التقريب ، حسب سرعة دوران الدوالاب وعلاقتها بالمسافة المقطوعة ذهاباً وإياباً من قبل الشعاع . هذا استطاع فيزو قياس سرعة الضوء ، حيث وجدها  $3,30 \times 10^8$  متر/ثانية . هذه القيمة تختلف بحوالي ٥٪ عن القيمة المعتمدة حالياً لسرعة الضوء في الفراغ . وقد اعتبرت هذه التجربة نجاحاً باهراً لهذا العالم الذي كرس نفسه للحياة العلمية ، وكان ذلك في عام ١٨٤٩ . بعد ذلك انتقلت القياسات الدقيقة لسرعة الضوء إلى أمريكا ، حيث كرس العالم « ماكيلسون » جزءاً كبيراً من حياته العلمية إلى هذا الموضوع . فالقيمة الأخيرة التي حصل عليها ، في ١٩٢٦ كانت  $2,99796 \times 10^8$  متر/ ثانية .



( شكل ٦ )

تجربة ( فيزو ) لقياس سرعة الضوء . الشعاع الضوئي يصدر من منبع وهو مرصعة زجاجية ثم عبر أحد ثقب القرص الدوار . الشعاع يسير إلى المرآة على البعد وينعكس منها ويسير إلى اللس الطويل ، لكن في الاتجاه العاكس . هذا الشعاع المنعكس إما أن يمر من أحد ثقب القرص ، وينعكس من الصليحة إلى عين الناظر ، أو يعجب على سطح القرص ولا يراه الناظر . هذه الاعتبارات تؤدي مباشرة إلى حساب ( قياس ) سرعة الضوء . ( انقلصت لقدم في اتجاه الشعاع ) .

#### ٤ - ٣ : الأطياف اللرية

في الربع الأول من القرن التاسع عشر بدأ العلماء بملاحظات وقياسات علمية على نوع جديد من الأطياف ، وهي الأطياف الخطية ( Line spectra ) . وقد لعبت هذه الأطياف دوراً أساسياً في تطوير النظرية الذرية للمادة فيما بعد . كما لعب العالم الألماني « جوزيف فراونهوفر » ( ١٧٨٧ - ١٨٢٦ ) دوراً رئيسياً في وضع حجر الأساس لهذا العلم الجديد . وبسبب مواهبه العلمية والفنية في صقل العدسات الكبيرة والأدوات الزجاجية الدقيقة أصبح فراونهوفر مديراً للمعهد الضوئي في مدينة ميونيخ وفي هناك أفضل تيليسكوب انكساري في وقته .

خلال تجاربه على معاملات الانكسار للعدسات المختلفة التي صنعها ، لاحظ فراونهوفر وجود خطين من لون برتقالي عندما مرر الشعاع الضوئي الصادر من مصباح يحتوي على مادة كلوريد الصوديوم . عبر شق ، حل موشور زجاجي . ولاحظ فراونهوفر خطوطاً أخرى مضيئة عندما استعمل مواد أخرى مختلفة في المصباح .

بعد ذلك وجه فراونهورف تليسكوبه نحو الشمس ، حيث كان يأمل أن يشاهد خطوطاً مضئية في شعاعها أيضاً . ولكنه وجد لدعشته خطوطاً قائمة موزعة عبر الطيف . كما درس أشعة النجوم وبعض الكواكب ، ووجد بعضاً من نفس هذه الخطوط القائمة . كما أجرى فراونهورف تجارب باستخدام محززة الحيود ( diffraction grating ) وقام بتحديد قيمة دقيقة لطول الموجة في خط الصوديوم . تألفت المحززة من شبكة من الأسلاك الرقيقة المعدنية المتوازية . وقد أعطى طول الموجة القيمة  $589.0 \times 10^{-7}$  سنتيمتراً التي هي مقاربة للقيمة الحالية . لكن أعمال فراونهورف ، التي نشرها فيما بين عامي ١٨١٥ و ١٨٢٥ ، لم تلق الاهتمام الكافي .

ولاحظ علماء آخرون فيما بعد ، ومنهم فوكو ، التطابق بين أطوال موجيات الصوديوم المضئية وبعض الخطوط القائمة الموجودة في الطيف الشمسي . عندئذ بدأ التفكير يتجه نحو الاعتقاد بأن الطيف الخطي القاتم في الشعاع الشمسي يعود إلى امتصاص أجزاء من الشعاع في الغلاف الغازي المحيط بالشمس . هذا التفسير هو التفسير الحقيقي ، كما نعلم الآن .

لكن التقدم الكبير في مجال التحليل الطيفي الخطي يعود إلى العالم الألماني العظيم « غوستاف كيركوف » ( ١٨٢٤ - ١٨٨٧ ) . وقد كانت الفترة المنتجة في حياته هي حوالي عشرين سنة من التعاون العلمي مع الكيميائي « بونزن » ، خلال عملهما في التدريس مما في جامعة هايدلبرغ . لقد اتفقا العالمان تطوير ما سمي « مصباح بونزن » ، حيث يجري تبخير المواد المختلفة إلى الحالة الغازية وإشعاعها لتعطي طيفها الخطي بكل وضوح ، بدون أي تدخل مع عوامل أخرى ، ثم يجري تحليل الطيف الخطي بواسطة المنشور ( شكل ٧ ) .

ويمكن تلخيص النتائج العلمية التي حصل عليها ( كيركوف ) بما يلي :

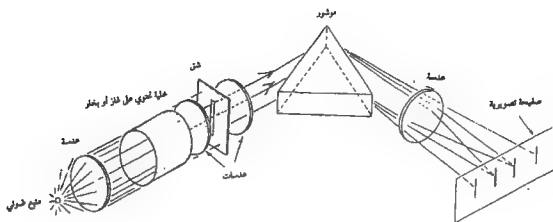
١ - كل مادة ، عندما تتحول إلى الحالة الغازية وترتفع درجة حرارتها ، تعطي نمطاً معيناً من الخطوط الطيفية المضئية . ويدهى هذا النمط بالطيف الانبعاثي ( emission spectrum ) لهذه المادة .

إن مشاهدة هذا الطيف الخاص يدل على وجود المادة بل يحدد كمية المادة ( شكل ٨ ) . بهذه الطريقة استطاع كيركوف وزملاؤه أن يكتشفوا عناصر جديدة آنذاك مثل السيزيوم والروبيديوم .

٢ - لاحظ كيركوف أن وجود غاز في طريق شعاع ما يؤدي إلى ظهور نمط من الخطوط الطيفية القائمة عند تحليل طيف هذا الشعاع . هذا النمط القاتم سمي بالطيف الامتصاصي ( absorption spectrum ) للغاز . لاحظ كيركوف أن الطيف الامتصاصي لغاز ما مطابق تماماً للطيف الانبعاثي لهذا الغاز . ويمكن شرح هذا التطابق بسهولة بواسطة نموذج ( بوهر ) الذي ( انظر جزء ٥ - ٤ - ٣ ) .

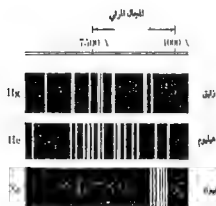
٣ - استنتج كيركوف أن الطيف الامتصاصي في الشعاع الشمسي يعبر عن وجود العناصر المناسبة في الغلاف الجوي الشمسي . ونظراً لدرجة حرارة الشمس المرتفعة فإن هذه العناصر تكون موجودة في حالتها الغازية هناك . وبهذه الطريقة استنتج كيركوف وجود الحديد والتحاس والزنك والنيكل والصوديوم وغيرها من العناصر في الغلاف الشمسي .

مسيرة الفيزياء على الحبل المشدود بين النظرية والتجربة



( شكل ٧ )

طريقة ( كيركوف ) في الحصول على الخطوط الانعكاسية للفلزات المختلطة . للتحقق التجريبي بصدور إشعاعاً متصلاً بمرحز الفلز ، الذي يتص جزءاً من هذا الانعراج عند أطوال موجية معينة . هذه الأطوال تظهر أحياناً كخطوط مظلمة على الصفحة التصويرية ، ويحدد هوية الفلز .



( شكل ٨ )

إشعاع الهيدروجين الثلاثة عناصر - زئبق ، هيليوم ، دايوترون . كل عنصر له طيف خاص يحد عليه .

لقيت أعمال كيركوف قبولاً واسعاً في المجتمع العلمي في أوروبا وإنجلترا . قال هيلمهولتز عنها « إن لها الأهمية العظمى في جميع فروع الطبيعة » .

بعد كيركوف ، انتشر علم التحليل الطيفي على نطاق واسع وتعددت استخداماته وتطبيقاته . كما بدأت الجهود نحو ملاحظة نوع من النظام أو الانتظام ( order ) في الأطياف المختلفة . مثلاً لوحظ أن الذرات الحرة تؤدي إلى سلاسل من الأطياف الخطية ، التي قد تتشابه من عنصر إلى آخر . أيضاً لوحظ أن الجزيئات ( molecules ) تؤدي إلى حزم ( عصابات ) طيفية ( band spectra ) ، حيث تندمج الخطوط مع بعضها فتشكل طيفاً متصلاً . ولوحظ أن الطيف الحزمي للنيتروجين يتحول تدريجياً إلى الطيف الخطي عندما ترتفع درجة حرارة الغاز ، مما يعبر عن تفكك الجزيئات النيتروجينية إلى ذرات نيتروجينية . كما لاحظ لوكير ( ١٨٣٦ - ١٩٢٠ ) أن الخط الطيفي نفسه يتغير عندما ترتفع درجة حرارة الغاز اللدري ، مما يدل على أن اللدرة نفسها هي كائن مركب وليس أساسياً .

أيضاً لوحظ أن زيادة الضغط ( أو الكثافة ) في الغاز تؤدي إلى اتساع ( broadening ) الخطوط الطيفية . واكتشف العالم الهولندي « ب . زمان » أن الخطوط الطيفية تتأثر بوجود مجال مغناطيسي بطريقة ينقسم فيها كل خط إلى عدد من الخطوط المتقاربة ، ويعرف هذا التأثير باسم « انشقاق زمان » ، ويستعمل كثيراً الآن في دراسة التكوين الداخلي الدقيق للذرات والجزيئات . أيضاً اكتشف العالم النمساوي « كريستيان دويلر » ( ١٨٠٣ - ١٨٥٣ ) ما عرف بتأثير دويلر الذي يقول بأن طول الموجة الصوتية أو الضوئية يتغير حسب سرعة مصدر الموجات . فإذا كان المصدر يتحرك باتجاه الراصد ، فإن طول الموجة يصبح أقصر ( ويرتفع التردد ) ، والعكس صحيح في حالة ابتعاد المصدر عن الراصد ، أعلن هذا التأثير في عام ١٨٤٣ وجرى إثباته على الموجات الصوتية الصادرة من قطار في عام ١٨٤٥ . لكن دويلر نفسه كان مهتماً أكثر بتطبيق هذه الظاهرة على الموجات الضوئية وخاصة في المجالات الفلكية . وكان يعتقد أننا نستطيع معرفة حركة النجوم ( اقتراباً أو ابتعاداً من الأرض ) من دراسة الأطياف الخطية للأشعة القادمة من هذه النجوم . فكان يعتقد مثلاً أن النجوم الزرقاء تكتسب هذا اللون لأن هذه النجوم تقترب منا ، والعكس صحيح بالنسبة للنجوم الحمراء ( افترض دويلر أن النجوم جميعها تشع لوناً أبيض ) .

إن تفكير دويلر حول التطبيقات الفلكية صحيح في لبداً وغاطىء في التفصيل . إن التغير الموجي الناتج عن تأثير دويلر صغير في العادة ، ولا يمكن أن يؤدي إلى تعدد الألوان في النجوم لكن العلماء بعده ، في النصف الثاني من هذا القرن ، تمكنوا ، من خلال قياسات دقيقة ، أن يروصلوا تأثير دويلر بالفعل في الشمس والنجوم ففي عام ( ١٨٧١ ) أمكن ملاحظة التأثير المصاحب لدوران الشمس فعندما تدور الشمس حول نفسها ، فإن إحدى حوافها تبعد عنا ، في حين تقترب منا الحافة الأخرى . ووجد العلماء بأن طيف الهيدروجين القادم من الحافة البعيدة يتزاح فعلاً نحو منطقة اللون الأحمر في حين يتزاح الطيف القادم من الحافة المقترية نحو منطقة اللون البنفسجي (١١) . (الانزياح هو التغير في طول للموجة الناتج عن تأثير دويلر) .

(١١) - لنير الآلان ، بسبب تأثير دويلر ، يحدث فعلاً في نجوم الكويكاز ( quizzers ) التي اكتشفت في السنوات الأخيرة . هذه النجوم تبعد عنا بسرعات كبيرة فريفة من سرعة الضوء .



مسحة الفيزياء على الحلل للحدود بين النظرية والتجربة

وقام عدد من الفلكيين في الراصد في أوروبا واتجلترا والولايات المتحدة بقياسات دورية لتحديد حركة العديد من النجوم في السماء . كما وجدوا أيضا أن بعض النجوم تتألف في الحقيقة من نجوم ثنائية (binary stars) ، حيث يدور النجم أحدهما حول الآخر . إن هذا الدوران يجد تعبير في الطيف الدوراني للشعاع القادم من النجم . ومن معرفة دور النجم (period) عبر الطيف يمكن تحديد كتلة هذه النجوم الثنائية .

كل هذا يعطي بعض الدلالة على أهمية التحليل الطيفي في الدراسات الفلكية ، فيما يسمى الآن بمجال الفيزياء الفلكية (Astrophysics) . إنه المجال الأكثر نشاطا في عصرنا الحاضر .

ولابد أن نذكر هنا أيضا جهود العالم السويدي « أندري أنستروم » (١٨٣٧ - ١٩٠٨) . لقد نشر في ١٨٦٨ قائمة بأطوال موجية اعتبرت ذات طويلة معايير للطول . هذه القائمة ، التي صيحت فيما بعد ، كانت مرتبطة بالمتر ، كمعيار أصلي للطول (والمتر بدوره مرتبط بنصف قطر الأرض) . لكن في عام ١٩٠٧ وفي مؤتمر علمي دولي جرى إعادة ربط الطول المعياري بحيث أصبح الأنستروم مرتبطا ليس بالمتر (والأرض) وإنما بطول موجة أحد الخطوط الطيفية في عنصر الكاديوم ، أي أن طول موجة الخط الأحمر في الكاديوم يساوي ٦٤٣٨,٤٦٩٦٠ أنستروم<sup>(١١)</sup> .

#### ٤ - ٢ - ٤ . الأشعة الحرارية (الطيف المتصل) .

في عام (١٨٠٠) أثار العالم الفلكي الإنجليزي « وليام هيرشيل » (١٧٣٨ - ١٨٢٢) السؤال حول الطيف الشمسي ، وفيما إذا كان يحتوي على أشعة خارجة عن منطقة الطيف المرئي (visible spectrum) ، وهي المنطقة من الأطوال الموجية التي تحسها العين الانسانية . ويعطي هذا الطيف المنطقة (٤٠٠٠ - ٧٠٠٠) أنستروم فباستخدام ميزان حرارة يوضع في مناطق الألوان المختلفة الناتجة عن التحليل المنشوري للشعاع الشمسي الأبيض ، وجد هيرشيل أن درجة الحرارة حتى عندما يوضع الميزان في المنطقة تحت الحمراء . إذن لابد من وجود أشعة في تلك المنطقة من الطيف .

وزعم بعض الجدل الذي أثاره هذا الاكتشاف في حينه ، فإنه لقي قبولا سريعا في المجتمع العلمي ولكن السؤال كان يدور حول طبيعة هذه الأشعة الحرارية (heat rays) التي ترافق الأشعة المرئية ولكنها ذات آثار حرارية واضحة . وقد توضح الموضوع كثيرا بفضل جهود العالم الإيطالي « ماسيدوني ميللوني » (١٧٩٨ - ١٨٥٤) ، الذي قام بأبحاث وتجارب مكثفة على هذه الأشعة الحرارية ، وتوصل أخيرا إلى فتاة بأنها من نفس طبيعة الأشعة المرئية . كان ميلوني في تجاربه يقيس قدرة المواد (على شكل صفائح من السوائل والمواد) على امتصاص هذه الأشعة . ١٠ . الأبحاث تابعتها العالم الإيرلندي - الإنجليزي « جون تيندال » (١٨٢٠ - ١٨٩٣) ، الذي بسط ، حتى على مستوى الرجل العام ، موضوع الأشعة تحت الحمراء وعلاقة الضوء بالحرارة . وأثبت بالتجارب أن للمواد ذات القدرة العالية على امتصاص هذه الأشعة قدرة عالية كذلك على إصدارها عند تسخينها .

(١١) - مثل عام ١٩٦٠ ربط لنظر المعيار بطول موجة الضوء الأحمر - المرئي المقياس من عنصر كروميوم - ٨٦ ، على الشكل التالي : ٦٦٠ ٧٦٣ ٧٦٠ طول موجة ما يتركز تاريخيا ، أن ما يكتسب ، في عام ١٩٦٢ تالي جهاز الطيف من الولايات المتحدة إلى باريس لدرجة المتر المعيار عندئذ مع الخط للقياس من الكاديوم .

## ٤ - ٣ الكهرطيسية

شهد القرن التاسع عشر تطورات كثيرة وعلى غاية من الامة في مجال الكهرطيسية حتى أنه وصف بعصر الكهرطيسية . خلال النصف الأول من هذا القرن استطاع العلماء ، وبخاصة في إنجلترا وألمانيا ، تطوير عملية صناعة الخلايا أو البطاريات الفولطية . وهذه الطريقة بالامكان الحصول على بطاريات يمكن الاعتماد عليها لإعطاء أبة قوة ( كهرطيسية ) حركة ( electromotive force ) مناسبة وهذه الطريقة يمكن الحصول على تيارات كهرطيسية مناسبة في أسلاك معدنية ، عندما توصل هذه الأسلاك عبر قطبي البطارية .

## ٤ - ٣ - ١ : التيار الكهربائي وتأثيره المغنطيسي

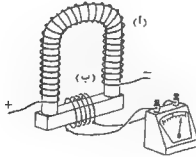
يمكن القول إن عصر الكهرطيسية بدأ بتجربة العالم الدانماركي « كريستيان أورستيد » ( ١٧٧٧ - ١٨٥١ ) في عام ١٨١٩ . كان أورستيد يشعر مع غيره بأن هناك نوعا من العلاقة بين الكهرباء ، والمغنطيسية . وأثناء تجاربه على تأثير التيار على إبرة مغنطيسية لاحظ أن الإبرة تتحرك ، وبطريقة تدل على أن القوة المغنطيسية ( المجال المغنطيسي ) عمودية على اتجاه التيار . لاحظ أورستيد أيضا أن القوة المغنطيسية الناتجة عن التيار تستطيع اختراق معظم المواد العادية مثل الزجاج أو الخشب أو النحاس . ولاحظ العالم الفرنسي المعاصر « آراغو » في ١٨٢٢ أن التيار يجذب برادة الحديد ، تماما مثلما يفعل المغنطيس . وظن آراغو أن التيار يجب أن يعتبر مغنطيسا ، وإن كان غير حديدي .

لكن الدراسات الشاملة في هذا المجال أتت على يد العالم الفرنسي الموهوب « أندري أمبير » ( ١٧٧٥ - ١٨٣٦ ) . ورغم التقلبات الحادة في حياته مثل اعدام والده خلال الثورة الفرنسية ، إلا أنه استطاع أن يقدم اسهامات كبيرة في مجال الكهرطيسية . وجد أمبير أن تيارين في سلكين متوازيين يتجاذبان عندما يكون التياران في نفس الاتجاه ، ويتنافران عندما يكون التياران متعاكسين . وعلى عكس آراغو ، فإن أمبير قال بأن المغنطيسية في الحديد المغنط هي نتيجة لتيارات كهرطيسية تسري داخل المادة المغنطيسية فعندما يكون الحديد غير مغنط فإن التيارات الداخلية تكون متجهة في اتجاهات عشوائية ، ولا يكون لها تأثير مغنطيسي صاف . وفي حالة المغنطة ، فإن هذه التيارات تنتسق مع بعضها البعض ويذلك نتج تأثيرا خارجيا كبيرا . واستنتج أيضا بأن وجود المجال المغنطيسي الأرضي دليل على وجود تيارات كهرطيسية داخل الكرة الأرضية . كل هذه الأفكار التي نادى بها أمبير منذ أكثر من مائة وخمسين عاما لا تزال صارية حتى هذا اليوم .

وفي نفس الفترة كان العالم الألماني « جورج أوم » ( ١٧٨٩ - ١٨٥٤ ) يقوم بتجاربه عديدة على المقاومات الكهرطيسية لللفافات المختلفة ، مثل النحاس ، الفضة ، الحديد ، وغيرها . وبعد عناه كبير ، وعلى الرغم من عمله في جو من الانعزاليه بعيدا عن العلماء الآخرين ، فإنه توصل في عام ١٨٢٦ الى القانون الذي سمي فيما بعد بقانون أوم : فرق الجهد ( أو التوتر الكهربائي ) بين قطبي البطارية يساوي مقاومة السلك مضروبة بالتيار الذي يسري في هذا السلك . ( التيار الكهربائي هو كمية الشحنة الكهرطيسية التي تمر عبر مقطع من السلك خلال وحدة من الزمن ، أي ثانية واحدة ) . وهكذا فإن كل سلك له مقاومة معينة لا تتغير بتغير فرق الجهد أو التيار . يسري . ثم قام أوم أيضا باشتقاق صيغة رياضية للتيار عندما تكون البطاريات موصولة بطريقة التسلسل أو بطريقة التوازي .

## ٤ - ٣ - ٣ : القوة الكهربائية المستحثة

في نفس الفترة كانت تجري في إنجلترا تجارب مثيرة للاهتمام حول موضوع العلاقة بين الكهرباء والمغناطيسية . والعالم الأول في ذلك الموضوع هو العالم الانجليزي الشهير « ميكائيل فارادي » ( ١٧٩١ - ١٨٦٧ ) . نشأ ( فارادي ) في لندن وعمل في صباه في شركة لتجليد الكتب ، حيث أتيحت له الفرصة لقراءة كتب عديدة عن الكيمياء والفيزياء . كما استمع الى محاضرات من الكيميائي المعروف آنذاك « ديفي » بعد ذلك عمل فارادي مساعدا لديفي في المعهد الملكي في لندن وتدرج في المكانة العلمية هناك حتى أصبح مديرا للمعهد في عام ١٨٢٥ . بعد بداية في التجارب الكيميائية ، بدأ فارادي بالتوجه نحو الكهرباء وتأثيراتها المغناطيسية . وكان مهتما كثيرا بتجربة أورستيد حول تأثير التيارات الكهربائية على الأبرة المغناطيسية . لكن فارادي ، أراد أن ثبت المعول العكسي ، وهو تأثير المغنطيس ، سواء من أصل حديدي أو كهربائي ، على التيار . ولهذا الغرض أجرى تجارب عديدة ، منها أنه وضع وشيعة (Coil) أو ملفا ( أ ) مثلا في مركزها حلقة حديدية ، وهي موصولة الى بطارية كهربائية ( شكل ٩ ) . وحل الجانب الآخر من الحلقة وتوجد وشيعة أخرى ( ب ) موصولة الى غالفانوميتر ( جهاز القياس الجهد الكهربائي ) . وتوقع ( فارادي ) أن التيار في وشيعة ( أ ) يولد مجالا مغناطيسيا ينتقل عبر الحلقة الحديدية الى وشيعة ( ب ) ويسبب تيارا فيها لكنه وجد لدهشته ، أن تيارا في وشيعة ( ب ) يمر فقط للحظة قصيرة عندما يوصل البطارية الى وشيعة ( أ ) ، أو عندما يفصل البطارية عنها . ولاحظ أيضا أن اتجاه التيارين المستحثين ( induced ) في الوشيعة ( ب ) متعاكسان عند الوصل والفصل . توصل فارادي الى هذه النتيجة في عام ١٩٣٨ . وبعد بعض التأمل ، توصل الى التفسير الصحيح لهذه الظاهرة الهامة : إن فرق الجهد المستحث في الوشيعة ( ب ) يتناسب مع معدل تغير التدفق المغناطيسي ( magnetic flux ) لما عبر هذه الوشيعة . هذه المقولة تعرف الآن بقانون فارادي في الكهرومغناطيسية . ورغم أن النتيجة تحمل في طياتها مبدأ المولد الكهربائي ( Dynamo ) إلا أن النتائج كانت ضعيفة في المقدار ، مما جعل فارادي يعتقد بعدم وجود تطبيقات عملية لها .



( شكل ٩ )

تجربة ( فارادي ) للحصول على التيار المستحث . عندما يغير التيار في وشيعة ( أ ) يغير جهد ل وشيعة ( ب ) .

وفي مجال ذكر أعمال فارادى الكهربائية ، لابد من الإشارة الى العالم الأمريكي « جوزيف هنري » ( ١٧٩٩ - ١٨٨٧ ) . كان هنري على اطلاع على أعمال أورستيد أمير عن تأثيرات التيار المغنطيسية ، وأعطى وقتا طويلا في تصميم وتصنيع المغناطيس الكهربائي ( electromagnets ) . وخلال هذه التجارب يبين أن هنري اكتشف قانون فارادى أو بعض أجزائه بطريقة مستقلة ويدون معرفة بأعمال فارادى ، كان ذلك في عام ١٨٣٠ ، أي قبل نشر فارادى لنتائجه بستة كاملة . لكن هنري لم يقدم بنشر نتائجه حتى عام ١٨٣٢ وبذلك خسر السبق العلمي لفريته الانجليزي . بعد ذلك سافر هنري الى انجلترا حيث قابل فارادى ، ونشأت بينهما علاقة زمالة ودية .

وأسهم فارادى في تقديم وتثبيت مفهوم المجال الكهربائي ( electric field ) الذي نستعمله كثيرا في تدريس الفيزياء في أيامنا هذه . فهو لم يكن مرتاحا لمفهوم « التأثير عن بعد » الذي كان شائع الاستعمال في أوروبا آنذاك . بل كان يعتقد أن التناثر بين شحنتين كهربائيتين مثلا يحصل بالشكل التالي : الشحنة الأولى تؤثر على المادة المحيطة بها ( حتى ولو كانت المادة هي الأثير ) ، وينتج عن ذلك تشكل مجال كهربائي يمتد في الوسط المحيط . هذا المجال يمتد ويصل أخيرا الى الشحنة الأخرى فيدفعها بعيدا ، وسمى الخطوط التي يتبعها المجال بخطوط القوة ( lines of force ) . وهكذا فإن الجو المحيط بالشحنات الكهربائية أصبح ، في نظر فارادى ، ممقدا جدا ، ويحتوى على عدد كبير من الخطوط المنحنية ، التي تساعدنا في النهاية على فهم التفاعل بين هذه الشحنات .

قام فارادى أيضا بدراسات عديدة عن الخواص الكهربائية للعوازل الكهربائية ، فوجد أنها تشعير في المجال الكهربائي . أعطى هذه المواد اسما جديدا في اللغة الانجليزية ، هو « dielectrics » . عند تطبيق مجال كهربائي على عازل ما ، فإن الشحنات الذرية الموجبة في العازل تنزع في اتجاه المجال ، والشحنات السالبة تنزاح في عكس اتجاه المجال . وهكذا يولد المجال انفصالا بين الشحنات الموجبة والسالبة داخل العازل . ويعرف هذا الانفصال بالاستقطاب الكهربائي ( electric polarization ) .

#### ٤ - ٣ - ٤ = معادلات (ماكسويل)

توجت أعمال وأفكار فارادى عن المجال الكهربائي والعوازل ، وهي ذات أسس تجريبية صلبة ، بأعمال ونتائج العالم السكوتلاندي العظيم « جيمس كليرك ماكسويل » ( ١٨٣١ - ١٨٧٩ ) وهي ذات صيغة نظرية رياضية رائعة . درس ماكسويل في جامعته إدنبره وكيمبريدج . وكانت مواهبه النظرية والرياضية والتجريبية واضحة جدا لدى أساتذته وزملائه .

أحب ماكسويل أفكار فارادى عن تأثير المجال الكهربائي على العوازل ، وكيف أن المجال يولد استقطابا كهربائيا في شحنات هذه المادة . ثم أدخل ماكسويل فكرة جديدة حقا : إن تغير قيمة الاستقطاب الكهربائي من نقطة إلى نقطة داخل العازل يمكن أن يعتبر تيارا كهربائيا على قدم المساواة التامة مع التيار الكهربائي في النواقل . هذا التيار الجديد ، الذي سمى باسم « تيار الانزياح » يؤدي الى مجال مغنطيسي ، كما هو الحال مع التيار العادي .

وعندما وضع ماكسويل أفكاره الفيزيائية عن الموجات المستمرة في صيغة رياضية مناسبة وأدخل ثيوره الجديد في الحساب ، وصل إلى معادلات رياضية جديدة أصبحت تعرف بمعادلات ماكسويل ( Maxwell equations ) . هذه المعادلات تتألف من أربع معادلات تفاضلية جزئية تصف سلوك المجال الكهربائي والمجال المغناطيسي المتغير عن الشحنات والتيارات الموجودة في النظام الفيزيائي في جميع الظروف المقبولة تقريبا . ولأنزال هذه المعادلات حتى يوصف هذا تشكل الأساس في معالجتنا لنظرية الكهرومغناطيسية في كل الظروف العادية ( الكلاسيكية ) .

والأمر المهم هنا هو أن ماكسويل وجد أن للمعادلات تؤدي ، من بين الحلول المتعلقة ، إلى حل موجي ، أي إلى وضع تنتشر فيه المجالات الكهرومغناطيسية على شكل أمواج داخل المادة ، أي أمواج كهرومغناطيسية ، ثم لاحظ ماكسويل أمرا على غاية الأهمية ، وهو أن سرعة هذه الأمواج في الفراغ ( التأثير ) هي تقريبا  $3 \times 10^{10}$  مترا في الثانية ، أي نفس سرعة الضوء في الفراغ . إذن الاستنتاج المذهل : الضوء ( في الفراغ ) هو في الواقع أمواج كهرومغناطيسية قصيرة الطول ( حوالي  $10^{-5}$  متر ) وذات تردد عال جدا ( حوالي  $10^{10}$  في الثانية ) . إنه استنتاج مذهل حقا ، أثّر بسرعة اهتمام المجتمع العلمي في أوروبا وأمريكا .

#### ٤ - ٣ - ٥ : الأمواج الكهرومغناطيسية

الأمواج الكهرومغناطيسية التي تنبأ بها ماكسويل تم كشفها بعد خمسة عشر عاما تقريبا ( ١٨٨٨ ) من قبل العالم الألماني « هينريخ هيرتز » ( ١٨٥٧ - ١٨٩٤ ) . عمل هيرتز خلال دراسته لشهادة الدكتوراة في الفيزياء تحت إشراف هيلمهولتز ( انظر جزء ٤ - ١ ) . واقترح هذا على هيرتز العمل على كشف الأمواج للماكسويلية . لكن هيرتز فضل موضوعا آخر مضمون النتائج إلا أنه عاد فيما بعد إلى الاقتراح . ولّد هيرتز الأمواج بواسطة تفرغ مكثف مشحون بعملية التفريغ تؤدي إلى اهتزاز كهربائي في المكثف يؤدي بدوره إلى أمواج تنتشر في الفراغ المحيط بالمكثف . واستعمل هيرتز كاشفا بسيطا يتألف من حلقة معدنية كاملة ، ماعدا فجوة صغيرة فيها قرص معدني به فجوة صغيرة فعندما ترتطم الأمواج بالحلقة ، يتولد فرق كهربائي عبر الفجوة ، يؤدي إلى شرارة كهربائية عبرها .

كما أجرى هيرتز تجارب تداخلية ليتحقق من الخاصية الموجية لهذه الظاهرة . فعندما عكس الأمواج من سطح معدني ولاحظ تراكبها مع الأمواج الساقطة الأصلية ، وجد أن التراكب يؤدي إلى غط التداخل للآلاف . كما قام بإجراء تجارب حيوية على هذه الأمواج . وكانت الخلاصة أن هذه الأمواج لها نفس مواصفات الضوء ، فبما عدا أن طول موجتها كبير بالمقارنة مع الضوء المرئي قال هيرتز : « إن الهدف من هذه التجارب هو اختبار الافتراضات الأساسية في نظرية فارادي - ماكسويل والنتائج تؤكد حقا هذه الافتراضات » .

وهكذا فإن ماكسويل وهيرتز نجحا خلال خمسة عشر عاما فقط في ضم علم الضوء ليصبح أحد فروع الكهرومغناطيسية .

توفي الشاب هيرتز (٢٧ عاما) بعد ست سنوات فقط من اكتشافه العظيم ، ولم تنح له الفرصة ليرى التطبيقات الرائعة لأعماله في مجالات الاتصالات اللاسلكية التي حدثت في نهاية القرن ، ثم تطورت كثيرا في القرن العشرين (أمواج الراديو والتلفزيون وغيرها) .

#### ٥ - القرن العشرون (وأواخر القرن التاسع عشر)

تابعت الفيزياء تقدمها السريع في هذا القرن على مختلف الجبهات العلمية . ففي مجال الضوء والأشعاع الضوئي ، أدت أبحاث الطيف المتصل إلى نتائج جديدة ، وهي أن الضوء نفسه يتكون من « ذرات ضوئية » أو فوتونات ، ذلك بالإضافة إلى طبيعة الضوء الموجية . هذه النتائج تم الوصول إليها بفضل جهود بلانك وآينشتاين . وفي مجال البنية الذرية ، أدت أبحاث الأطياف الذرية ( وبخاصة مع اكتشاف الإلكترون ، الجسم الدقيق الدائم الحضور ) إلى الكشف عن بنية الذرة حل أنها نواة ثقيلة وموجبة في المركز والإلكترونات خفيفة وسالبة تدور حولها بسرعة . ثم تبين أن الجسيمات الدقيقة تمتلك خواص موجية أيضا ( إضافة إلى الخواص الجسيمية مما أدى إلى اكتشاف ميكانيك الكم أو الميكانيك الموجي ) . هذه التطورات تمت بفضل جهود عدد كبير من العلماء على رأسهم رذرفورد وبوهر وشرودينغر .

كما حصل في هذا القرن التعرف على النواة الذرية للمرة الأولى في التاريخ . كانت مشاهدة بالصدفة من قبل بيكريل ، لكنها تمت وتطورت على أيدي مدام كيوري ورفرفورد ومن تلاهم لتصبح فيزياء النواة مجالاً علمياً واسع النطاق . فقد تم الكشف عن طبيعة وتركيب النواة ، التي تبين أنها تتكون من عدد من البروتونات الموجبة والنيوترونات الموجبة والنيوترونات المحايدة ، متزايدة بواسطة قوة نووية مرتفعة الشدة . وباستخدام التفاعلات النووية المختلفة ، تمكن الإنسان من صنع تجهيزات وأدوات جديدة لم يكن يحلم بها من قبل مثل المفاعلات النووية والقنابل النووية .

كما تمكن العالم العظيم أينشتاين في وقت مبكر من القرن من اكتشاف النظرية النسبية ، التي أدت إلى تغييرات جذرية في مفاهيم أساسية في الفيزياء . فحسب هذه النظرية ، التي تم اختبار صحتها في مجالات مختلفة تم إلغاء مفاهيم الزمن المطلق والأطوال المطلقة للأجسام والكتلة المطلقة لجسم ما ، على سبيل المثال . فالزمن ( بين حادثين ) والطول والكتلة تعتمد على الراصد الذي يقوم بالقياس ، وبالذات على سرعته . كما أدت هذه النظرية ، على بساطتها في البداية ، إلى مفاهيم جديدة في منتهي الغرابة والفائدة العلمية في الوقت نفسه مثل تكافؤ الكتلة والطاقة . وبواسطة هذا المفهوم نستطيع أن نفهم الآن كيف تولد الطاقة الهائلة في الشمس والنجوم .

#### ٥ - ١ : الطيف المتصل والفوتون

#### ٥ - ١ - ١ : الطيف المتصل (إشعاع السطح الاسود)

لقد أصبح معروفا في نهاية القرن التاسع عشر أن الأجسام الحارة ( الساخنة ) تصدر إشعاعات ضوئية وأن أطيف هذه الإشعاعات تعتمد على حالة طبيعة هذه الأجسام . فالأجسام الجامدة والسائلة تمطي أطياها متصلة أو

مستمرة (Continuous) في حين أن الغازات تعطي أطيافا متقطعة أو منفصلة (discrete). إن دراسة الأطياف المتصلة هي التي أدت إلى اكتشاف الفوتون، كما سنرى الآن.

إن أي جسم كقطعة من الحديد مثلا، يصدر عند درجة الحرارة العادية، إشعاعا كهربيسيا على شكل موجات كهربيسية، حسب رأي ماكسويل لكننا لا نرى هذا الإشعاع لكونه يقع في المنطقة تحت الحمراء، حيث أن طول الموجة كبيرة لدرجة لاثراء العين. لكن إذا سخنت قطعة الحديد، كما في السخانة الكهربائية، إلى حوالي ٥٠٠ د.م (درجة مئوية) فإنها تصبح حمراء اللون، لأنها تشع الآن قسما من الأشعاع في المنطقة المرئية. وإذا استمر تسخينها، فإن القطعة تبدو بيضاء اللون لأن إشعاعها يغطي معظم المنطقة المرئية. ولو مررنا الضوء الصادر عن هذا الجسم الجارم عبر منشور زجاجي لتحليله (أي الضوء) موجيا، لوجدنا أن الطيف يغطي جميع الموجات (الألوان) وينتهي أي انقطاع. هذا هو الطيف المتصل.

وهناك طيف متصل آخر مألوف لدينا تماما، وهو طيف الأشعاع الشمسي. هذا الطيف مستمر لأنه يصدر من سطح الشمس حيث الكثافة العالية، التي تقترب من خواص الجوامد والسوائل من هذه الناحية.

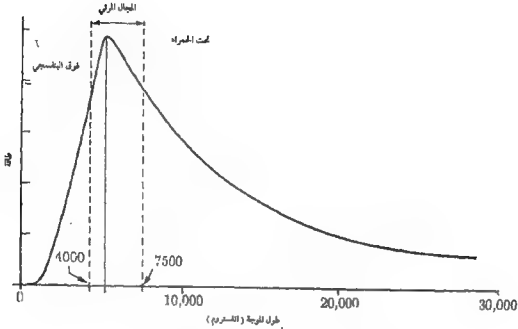
بلاحظ من الشكل (١٠) الذي يبين توزيع القدرة الأشعاعية بين الموجات المختلفة أن القدرة تبلغ ذروعا عند اللون الأخضر (طول موجة ٥٠٠٠ أنغستروم) لكن المنطقة المرئية كلها (من ٤٠٠٠ - ٧٠٠٠) أمستروم ممثلة تماما في هذه الأشعة. كما يلاحظ أن جزءا من الأشعة الشمسية يقع خارج المنطقة المرئية: في الموجات القصيرة (أقل من ٤٠٠٠ أنغستروم) المسروفة بالمنطقة فوق البنفسجية. وفي الموجات الطويلة (أكثر من ٧٠٠٠ أنغستروم) المعروفة بالمنطقة تحت الحمراء.

لقد كان هناك اهتمام كبير بالتوصل إلى اشتقاق رياضي للمنحنى الطيفي المئين، وذلك على أساس النظريات السائدة في ذلك الحين، أي قوانين الميكانيك والثيرموديناميك ونظرية ماكسويل الكهربيسية. ولتسهيل الموضوع من الناحية النظرية، تركز الاهتمام على ماسي بالسطح الأسود المثالي (deal black surface)، لأنه السطح الذي يمتص كل الإشعاع الساقط عليه، كما له قدرة كبيرة على الإشعاع من ذاته.

وقد استطاع الفيزيائيون أن يشتقوا قانونين هامين في هذا المجال تم التحقق منها تجريبيا:

١ - قانون ستيفان - بولتزمان: ويقول هذا بأن الطاقة الأشعاعية التي تصدر من وحدة مساحة في السطح في الثانية (أي معدل الطاقة الأشعاعية، أو القدرة الأشعاعية) تتناسب مع درجة الحرارة المطلقة للسطح مرفوعة إلى أس (قوة) ٤. وهكذا فإن القدرة الكلية (التي تغطي جميع الموجات الصادرة من الجسم) تزداد بصورة سريعة جدا مع درجة الحرارة للسطح.

٢ - قانون فين الأثيريحي: ويقول بأن المنحنى الطيفي يبلغ ذروته عند طول موجة معينة، وأن طول هذه الموجة يتناسب عكسا مع درجة حرارة السطح. وهكذا فعندما ترتفع درجة الحرارة يتزاح الشكل نحو الموجات القصيرة



(شكل ١٠)

توزيع الطاقة في الإشعاع الشمسي (عند ٦٠٠٠ درجة مئوية) على الأطوال الموجية. الموزع يبلغ أقلها عند الطول ٥٠٠٠ أنستروم، للرائق للون الأحمر.

وقد حاول فيزيائيون كثيرون من فيهم وإيلي وجين من إنجلترا وآخرون من ألمانيا ، أن يتوصلوا الى قانون كامل يعطي المنحنى الطيفي بكامله ، وليس فقط القانونين المذكورين ولكن المحاولات كلها باءت بالفشل ، رغم جهود استمرت ، ما يقرب من عشرين عاما .

#### ٥ - ١ - ٢ : فرضية (بلاانك) الكمية :

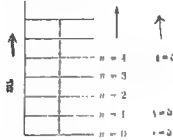
عندما وصلت هذه الجهود الى طريق مسدود ، تقدم العالم الألماني «ماكس بلاانك» (١٨٥٨ - ١٩٤٧) في عام ١٩٠٠ بنظرية (أو طريقة) جديدة تعطي وصفاً كاملاً للمنحنى الطيفي لإشعاع السطح الأسود . لكن النظرية انطوت على بعض للمقاهيم الغريبة التي تتناقض صراحة مع المقاهيم التقليدية .

يمكن شرح نظرية بلاانك بالطريقة التالية . إن الإشعاع الضوئي (الكهرطيسي) ناتج عن اهتزاز جسيمات مزانة (oscillators) مشحونة كهربائياً واقعة قرب السطح وتحت تردد معين ، وليكن (تر) إن تردد الإشعاع الصادر هو نفس تردد الهزازات . هذه الأفكار كانت معروفة ومقبولة آنذاك ، وهي التي قدمت لشرح الأمواج الكهرطيسية التي رصدها هيرتز .



لكن لكي يستطيع شرح طيف الاشعاع للسطح الأسود ، وجد بلانك نفسه مضطرا الى افتراض مفهومين جديدين .

الاول : أن طاقة كل من الحزازات كمومية (مكمية) (quantized) بالشكل التالي . الطاقة التي يمكن أن يمتلكها الحزاز هي  $E = n \times h \times \nu$  ، حيث (  $n$  ) عدد صحيح (أي ، ١ ، ٢ ، ... ) . وحيث  $h$  ثابت عالمي يدعى ثابت بلانك (  $h = 6.626 \times 10^{-34}$  جول  $\times$  ثا ) و (  $\nu$  ) هو تردد الحزاز ، كما ذكرنا . هكذا لا يمكن للحزاز أن يملك طاقة كسرية مثل ٢,٥  $h \times \nu$  . هذه التكميمية في الطاقة لم تكن معروفة أو مقبولة قبلا ، إذ كان يعتقد بأن الحزاز ، كأي نظام فيزيائي آخر ، يمكن له أن يملك أية طاقة مرغوبة الأمر يحتاج فقط الى زيادة سعة الاهتزاز . لكن بلانك افترض غير ذلك وهو أن مستويات الطاقة المسموح بها تشكل سلما منتظما (متساوي الدرجات) - شكل ( ١١ - أ ) وهكذا فإن بلانك قد قام بتكميم الطاقة لنظام ميكانيكي للمرة الأولى في تاريخ الفيزياء .



شكل ( ١١ ) أ

( أ ) سلم الطاقة المسموح للحزاز النقي ، حسب نظرية ( بلانك ) . ( ب ) رسم لجهاز انبعاث الكهرضوئي . الاشعاع الساطع يمر الكترونيات من فلز الأنود ، حيث تخرج الالكترونات ( بسبب مجال البطارية ) نحو الأنود . هكذا يجري تيار لي الفلتر ، ويستغل عليه بواسطة جهاز الأميتر .

الثاني : الحزاز يشع فقط عندما ينتقل من مستوى ( طاقي ) الى مستوى أخرى واقع تحته مباشرة . والطاقة الصادرة تساوي عندئذ  $h \times \nu$  . كما يستطيع الحزاز امتصاص كمية من الطاقة  $h \times \nu$  تر من إشعاع مناسب وينتقل الى المستوى الأعلى مباشرة على سلم الطاقة . وهكذا فإن التفاعل بين الحزاز المادي والاشعاع يتم بواسطة تبادل وحدات كمومية من الطاقة ، تعادل  $h \times \nu$  تر أو عديد صحيح منها ، كما يتبادل الناس وحدات النقود (الدنانير مثلا) .

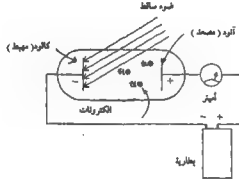
هذه الفرضية كانت أيضا خارجة عن المفاهيم الفيزيائية السائدة عندئذ ، إذ كان يعتقد بأن الاشعاع لايد أن يصدر عن الحزاز باستمرار وبكميات مستمرة خلال حركة .

لكن يلاحظ أن الفرضيتين اللتين قدمهما بلانك متسجمتان مع بعضهما تماما . فالأولى تقود الى الثانية بصورة منطقية .

ورغم نجاحه في معالجة طيف السطح الأسود ، فإن بلانك لم يكن سعيداً بما حدث ، إذ أن مفاهيمه الجديدة تشكل ضربة قاسية للنظرية التقليدية التي بدأ الفيزيائيون يشعرون بالارتياح إليها كطريقة شاملة تعطي وصفاً دقيقاً وكاملاً لجميع الظواهر الفيزيائية . ورغم محاولاته اللاحقة التي امتدت سنوات طويلة ، فإن بلانك لم يستطع أن يجد بديلاً مناسباً لمفاهيمه الجديدة . بل أكثر من فائنا سترى أن الأهمال القادمة ستترسخ هذه المفاهيم وتعممها على نظم فيزيائية أخرى ، غير التي عالجها بلانك . أما عن حياة بلانك ، فإنه نشأ في ميونيخ ودرس في جامعتها ، ثم انتقل إلى جامعة برلين حيث أتم دراساته العليا تحت إشراف هيلمولتز وكيركوف . نال بلانك جائزة نوبل في ١٩١٨ .

### ٥ - ١ - ٣ : التأثير الكهروضوئي والفوتون :

لقيت مفاهيم بلانك دعماً قوياً عندما نشر عالم شاب مضمون آنذاك اسمه « آينشتاين » في عام ١٩٠٥ . نظريته في شرح ظاهرة التأثير الكهروضوئي ( photoelectric effect ) . يتألف الجهاز التجريبي هنا ( شكل - ب ) ببساطة من أنبوب زجاجي مفرغ ، توجد فيه صفيحتان معدنيتان موصولتان إلى قطبي بطارية . وفي الحالة العادية ، لا يمر تيار في هذه الدائرة الكهربائية ( المعروفة بدائرة الحلية ) ، لأنها مفصولة بسبب الانقطاع الكهربائي في الأنبوب المفرغ . لكن وجد أنه إذا عرضت الصفيحة الكاثودية ( الكاثود ) إلى أشعة ضوئية من ألوان ( ترددات معينة فإن تياراً كهربائياً يسرى في الدائرة .



شكل (١١) ب

من ناحية المبدأ ، ليس هناك صعوبة في تفسير هذه الظاهرة . الأشعة الضوئية تحمل طاقة (كهروضوئية أو كهروضوئية) ، وعندما تصطدم هذه مع الإلكترونات الموجودة في الفلز ، فإن الإلكترونات تنحصر جزءاً من طاقة الإشعاع مما يكفي لتحرير هذه الإلكترونات من الفلز ( الطاقة اللازمة لتحرير الإلكترون من فلز مائتص ، و تابع الشغل ) ، وتعتمد قيمتها على طبيعة الفلز - كان جسم الإلكترون معروفاً عندئذ - ( انظر جزء ٥ - ٣ ) . هذه الإلكترونات تنطلق هكذا من الكاثود إلى الأنود ( الصفيحة الموجبة ) وتكمل دورتها حول الدائرة ، فهي الجسيمات المشحونة التي تحمل التيار .

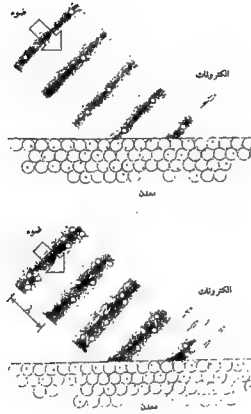
ولكن خلال دراسة الجوانب المختلفة لهذه الظاهرة والتي أجري معظمها الفيزيائي « لينارد » لوحظ شيء آخر غير حقا ، وهو أنه إذا أنقصنا تردد الأشعاع تدريجيا ( أي غيرنا اللون في اتجاه اللون الأحمر ) فإن التيار يتوقف فجأة عند تردد معين ( تردد العتبة ) . هذا التوقف الفجائي لا يمكن شرحه في إطار النظرية التقليدية . فهذه تقول بأن الأشعاع يؤثر على الإلكترون ( من خلال المجال الكهربائي للإشعاع ) ويبيجه ( يثيره ) تدريجيا ، ويعطيه طاقة إضافية بشكل مستمر . وطبقا لهذه النظرية ، فإن الإلكترون سيحصل بعد مرور وقت كاف ، على الطاقة الكافية اللازمة لتحريره من سطح الفلز ، دون أن يتأثر ذلك بالتردد . لكن التجربة كانت مخالفة تماما لهذا المنطق الكلاسيكي .

أما تفسير أينشتاين للظاهرة فهو مختلف تماما ، كان هذا على اطلاع تام على نظرية بلانك الكمومية للهزات الميكانيكية وتأثير ذلك على التفاعل بين المادة والأشعاع الكهربائي . وتساءل أينشتاين : ماذا لو كانت الطاقة الإشعاعية كمكة أيضا ؟ وهكذا افترض أينشتاين أن الشعاع الضوئي ( الساقط على الكاثود ) هو عبارة عن سيل من ذرات ضوئية كل منها يحمل طاقة بمقدار  $h \times \text{تر} .$  هذه « الذرة » الضوئية سميت فيما بعد بالفوتون (photon) . وأضاف أينشتاين إلى هذا التحليل أنه عندما تصطدم الفوتونات بالإلكترونات ، داخل الفلز ، فإن الفوتون يمتص ويغني ويعطي كامل طاقته إلى إلكترون واحد . هذا الإلكترون يستخدم عندئذ جزءا من هذه الطاقة ، أو كلها ليحرر من الفلز ويغادر سطحه مكملا الدائرة الكهربائية وليس ضروريا أن تحتفي كل الفوتونات بهذه الطريقة ، بل جزء كبير منها على الأقل .

وطبقا لهذا النموذج ، يمكن شرح توقف التيار الفجائي عند تردد معين بالطريقة المنطقية الآتية : عندما يتناقص التردد إلى حد معين فإن طاقة الفوتون (  $h \times \text{تر}$  ) التي تعطي الإلكترون ليست كافية لتحرير الإلكترون من سطح الفلز . وبالفعل فإن نموذج أينشتاين أعطى شرحا مقنعا ومرصيا لظاهرة التأثير الكهروضوئي ، بدون تعارض مع أي من التجارب المتصلة بالموضوع ( شكل ١٢ ) .

لكن طرح أينشتاين أثار اعتراضات وانتقادات عديدة من قبل قسم كبير من فيزيائي تلك الفترة ، من فيهم بلانك نفسه : وتركز معظم الانتقادات على أن المفهوم اللري أو الجسيمي للضوء يتعارض منطقيا أو تحليلا مع تصورنا للضوء على أنه أمواج مستمرة وانسيابية كما أثبتت تجارب التداخل والحيود والاستقطاب وغيرها . كيف نستطيع أن نتخيل وجود هذه الخواص إذا كان الضوء عبارة عن جسيمات متقطعة منتشرة في الشعاع الضوئي ؟

الواقع هو أن أينشتاين كان مدركا لهذا الشعور ومتعاطفا مع النظرية الجسيمية ، وجادل منطقيا منذ البداية ، بعد تقديم إطارهات خلسة من أعمال ماكسويل ، بأن النظرية التقليدية الموجية تشكلت نتيجة مشاهدات ورصودات على ظواهر مألوفة وحياتية . هذه الظواهر هي التي كونت حسنا العام البوهي من الضوء . أما عندما نبحت في التفاعلات على الجسيمات الدقيقة ، كتلك التي بين الإلكترونات والفوتونات ، فإننا قد نقابل بظواهر جديدة تعارض مع حسنا العام المحدود . هذا النوع من التفكير التوفيقي ، الذي بدأه أينشتاين ، بين الفيزياء التقليدية والفيزياء الحديثة ينطبق كما نعلم الآن على جميع المجالات الفيزيائية وليس مجال الضوء فقط .



(شكل ١٢)

تأثير الضوء (التي تتغير) على معدل البناء الضوئي. كلما زادت شدة الضوء من (أ) إلى (د) فإن سرعة تفاعل البناء الضوئي. كلما زادت شدة الضوء (أ) إلى (د) فإن سرعة التفاعل.

مسيرة التفكير على الحبل المشدود بين النظرية والتجربة

ولإعطاء تصور شامل لهذا الفوتون العجيب، طور الفيزيائيون مفهومًا (نموذجًا) جديدًا للفوتون. هذا المفهوم يدعى بمفهوم الازدواجية الموجية الجسيمية (duality Wave-particle). فالفوتون في الواقع، حسب هذا المفهوم، هو موجة وجسيم في آن واحد، أي يمتلك كلتا الخاصيتين. وليس هناك تمارض في ذلك. ففي بعض التجارب، مثل تجارب التداخل، يظهر الفوتون خواصه الموجية فقط. وفي تجارب أخرى، مثل الظاهرة الكهروضوئية، يظهر الفوتون جوانبه الجسيمية. فالإنسان الواحد مثلاً، يظهر المواطف (الخصائص) الودية مع أقرابه وأصدقائه وقد يظهر المواطف (الخصائص) العدوانية والتوحشية أحياناً مع خصومه ومع أعدائه. إنه الشخص ذاته.

وقد حصل أينشتاين من هذا العمل على جائزة نوبل في عام ١٩٢١. هذا وقد ترسخ مفهوم الفوتون إلى حد أكبر من ذلك عندما قام العالم الأمريكي « كومبتون » في عام ١٩٢٣ بإجراء تجارب عن اصطدام الأشعة السينية مع الإلكترونات الموجودة في ذرات المواد الفلزية. لقد أثبتت قياساته على الإلكترونات والأشعة المنتشرة (المستطيرة) نتيجة للتصادم أن فوتونات الأشعة السينية تسلك بالفعل سلوكاً جسيمياً تاماً.

#### ٥ - ٢ - الأطياف الذرية :

#### ٥ - ٢ - ١ : السلاسل الطيفية :

رأينا سابقاً من دراسات كيركوف وغيره أن الغازات عند التسخين تعطي أطيافاً خطية متقطعة من الإشعاع ( انظر ٤ - ٢ - ٣ ). إن الدراسة المتعمقة لهذه الأطياف الخطية أدت تدريجياً إلى فهم التركيب (البنية) الحقيقي للذرة، كما سنرى في الصفحات التالية.

عند دراسة أنماط توزيع الخطوط الطيفية (الموزعة على مقياس طول الموجة) للغازات المختلفة لم يجد العلماء في البداية أي نظام أو انتظام (order) يربط بين هذه الخطوط فالخطوط بدت موزعة بشكل كيمي ومعقد وغير واضح، بدون علاقة بين نمط طيفي لغاز ما ونمط غاز آخر. هكذا كان الوضع في حوالي عام ١٨٨٠ حين شعر علماء الأطياف بالضياع وسط هذه الغابة من الخطوط وتكهن البعض بأنه لابد من «رسالة» وراء هذه الخطوط، تتعلق ببنية الذرة لكنها رسالة «مكتوبة» برموز غير معروفة آنذاك.

وفي عام ١٨٨٥ نشر مدرس سويسري مغمور يدعى «جون بالمر» نشرة بسيطة تتعلق بالطيف الخطي للهيدروجين. وأعطى علاقة رياضية بين أطوال موجات الخطوط على الشكل التالي :

$$\text{ط} = \text{ب} \left( \frac{1}{n^2} - \frac{1}{m^2} \right) \quad (1)$$

حيث ط هو طول الموجة، ب ثابت يساوي ٣٦٤٥,٦ أنغستروم، ون هو عدد صحيح يجوز له أن يساوي ٣، ٤، ٥، ٦، ... الخ.

وأوضح بالمر أن تبديل القيم المختلفة للعدد (ن) يسمح للمعادلة بإعطاء أمواج الخطوط المختلفة في الطيف. مثلاً القيمة  $n = 3$  تعطي طم = (٦٥٦٢) آنستروم وهو خط في المنطقة الحمراء والقيمة  $n = 4$  تعطي خطاً في المنطقة الخضراء، و  $n = 5$  يعطي خطاً في الزرقاء، وهكذا، كل هذه الخطوط الواقعة في المنطقة المرئية، كانت معروفة تجريبياً قبل نشرة بالمر. لكنه تكهن في نشرته بوجود خطوط أخرى مرتبطة بقيم  $n$  أكبر من (٥)، ومن ثم واقعة في المنطقة فوق البنفسجية. هذه الخطوط جرى اكتشافها سريعاً بعد النشرة، وفي نفس الأماكن التي حددتها صيغة بالمر. هذه المجموعة من الخطوط، من أولها إلى آخرها، تشكل ما يدعى بسلسلة بالمر (Balmer series) للهيدروجين.

تنبأ بالمر أيضاً في نشرته المتواضعة بوجود سلاسل أخرى للهيدروجين، تقع في مناطق أخرى من الطيف، وموصوفة بواسطة صيغ مشابهة لتلك التي قدمها، وقد تم الاكتشاف التجريبي لعدد من هذه السلاسل على مدى عدة عقود من الزمن: سلسلة لايمان (فوق بنفسجية)، ١٩٠٦ - ١٩١٤، سلسلة باسكن (تحت الحمراء)، ١٩٠٨، وسلسلة (براكيت) (تحت الحمراء) ١٩٢٢. هكذا، إن سلسلة بالمر هي الوحيدة التي تقع في المنطقة المرئية، الأمر الذي ساعد على اكتشافها قبل غيرها. إنها صدقة محظوظة.

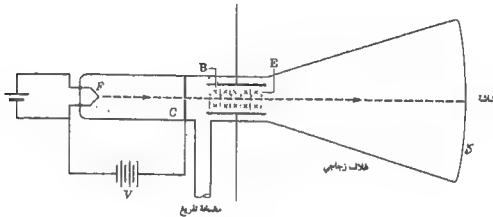
كما أشار بالمر إلى احتمال استعمال طريقة مشابهة وموسعة في وصف أطراف الغازات الأخرى، إضافة إلى الهيدروجين. وتم تحقيق تقدم كبير في هذا الاتجاه في الثلاثين أو الأربعين عاماً التي تلت عمل بالمر. لكن رغم هذا كله، فإن المبدأ (الروح) الاسامي للطريقة بقي تجريبياً بحثاً بدون أن يفهم الفيزيائيون الأسس النظرية التي تكمن وراء هذه الصيغ والمعادلات. إنها نفس الطريقة التي كان كيبلر قد استعملها عندما صاغ قوانينه حول حركة الكواكب (انظر جزء ١ = ١).

وللوصول إلى تلك النظرية كان لا بد من الالتفات أكثر إلى البنية الحقيقية للجسيم الذي يصدر هذه الخطوط الإشعاعية في الدرجة الأولى - أي الذرة نفسها. ولكن قبل ذلك يجب أن نعود قليلاً إلى الوراء ونحدث عن الجسيم الأهم في عالمنا كله، ألا وهو الإلكترون.

### ٥ - ٣ : الأشعة الكاثودية - الإلكترون - الأشعة السينية :

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت هناك دراسات عديدة عن موضوع تفريغ الغازات (gas discharges). يؤخذ أنبوب زجاجي مليء بالهواء أو بغاز آخر، وتوصل صفيحتا الأنبوب إلى عدد من البطاريات لإعطاء فرق جهد عال، قد يبلغ آلاف الفولطيات. ثم يبدأ بتفخيف الضغط الغازي في الأنبوب تدريجياً، ونرصده ما يحصل في الأنبوب (شكل ١٣). نلاحظ في البداية أن الغاز يبدأ بالتوهج بألوان غريبة، حيث يتوزع التوهج على مناطق مختلفة من الأنبوب. لكن نلاحظ أنه إذا انخفض الضغط إلى مقدار قليل جداً (حوالي ١٠ مليمتر من الزئبق) فإن الأنبوب يصبح مظلماً تماماً، ماعدا بقعة صفراء - خضراء تتطور (تتألق) على سطح الزجاج في الجهة المقابلة للكاثود، أي بالقرب من الأنود. وإذا عكسنا استقطاب الكاثود - والأنود، نلاحظ أن البقعة المتطورة تنتقل

الى المنطقة المقابلة للكاثود الجديد. واذا ادخلت صفائح معدنية حاجية في الطريق، فإن ظلالاً واضحة تتشكل على البقعة المضئية من كل هذه الدلائل تم الاستنتاج بأن جسيمات، من نوع ما، تصدر من الكاثود وتسير في خط شبه مستقيم الى أن تصطدم بالزجاج على الطرف الآخر وتسبب توهجا في هذا الزجاج. هذه الاشعة الجديدة سميت، منطقيا، بالاشعة الكاثودية. كثير من هذا النوع من التجارب تم في مختبري العالم الانجليزي. كروك والعالم الألماني لينارد حوالي عام ١٨٨٠.



(شكل ١٣)

توضيح: يبرز الأنبوب المفرغ للغاز. الكاثودات تتصلل من تعديل الفلزية الساطعة على اليسار وتنتشر بسبب جهد كهربائي، ثم تمر عبر مجال كهربائي و / أو مجال مغناطيسي.

وقد لاحظ كروك خلال تجاربه أن وجود المجال المغناطيسي يؤدي الى حرف الاشعة الكاثودية، عندما تمر الاشعة خلاله. هذا يعني ان الاشعة لها شحنة كهربائية، وان هذه الشحنة هي في الواقع سالبة، ذلك ان المجال المغناطيسي لا يؤدي الى حرف الاشعة اذا كانت حياضية الشحنة.

وخلال تجارب مماثلة، اكتشف العالم الألماني «فيلهم رونتغن» (١٨٤٥ - ١٩٢٣) أشعة جديدة غريبة، تصدر عن الأنود نفسه عندما تصطدم به الاشعة الكاثودية. هذه الاشعة الجديدة سميت بالاشعة السينية (X-rays)، لعلم معرفة طبيعتها في ذلك الوقت. لكنه كان واضحا أن الاشعة السينية تختلف عن الكاثودية، لأن الأولى تستطيع اختراق معظم المواد العادية مثل الخشب أو الزجاج أو غيرها (ماعدا المعادن الثقيلة) - بدون قدر كبير من الامتصاص. وعندما تمر الاشعة السينية في اليد فانها «ترسم» على الشاشة الفلورية خيالا واضحا للهيكل العظمي لليد. لكل هذه الاسباب، لاقت هذه الاشعة اهتماما عالميا واسعا وخصوصا في المجالات الطبية. ونال رونتغن اول جائزة نوبل في الفيزياء، في عام ١٩٠١، تقديرا على اكتشافه العظيم.

أما من حيث طبيعتها، فإن الأشعة السينية لا تنحرف في المجال المغنطيسي، مما يعني أنها لا تحمل شحنة كهربائية. ولهذا الأشعة ميزة أخرى، وهي أنها تستطيع إحداث تأين (ionization) في الغازات (في أنبوب تفرغ) بسهولة وجعلها ناقلة للكهرباء.

هذه الأبحاث حول الأشعة الكهربائية توجت أخيراً بأعمال العالم الإنجليزي العظيم «جوزيف تومسون»، أو جي. جي. تومسون، كما كان معروفاً لدى مساعديه المحبين، (١٨٥٦ - ١٩٤٠). نشأ تومسون في مدينة مانستر، حيث كان والده ناشراً، ودرس الهندسة، مظهراً تفوقاً واضحاً في الرياضيات والفيزياء. ثم أكمل دراسته العالية في كيمبريدج، حيث عمل في مختبر كافينديش الشهير، الذي أنشأه ماكسويل وإداره بعده لورد رايلي بدأ تومسون عمله تحت إشراف هذا العالم الأخير. وفي عام ١٨٩٤، أصبح مديراً للمختبر وأنشأ مدرسة فيزيائية متميزة خرجت عدداً كبيراً من العلماء المشهورين تحت إدارة وإشراف «جي جي» الذي كان عميد الفيزيائيين الإنجليز في عصره.

بدأ تومسون العمل في مجال التفرغ الغازي في عام ١٨٨٦، وظل يعمل في المجال نفسه لمدة حوالي عشرين عاماً. وأجرى تجارب لا تحصى في هذا المجال.

كان أهم الأول لتومسون هو معرفة طبيعة الأشعة الكاثودية ذات الشحنة السالبة كما لاحظنا. وهي على الأرجح جسيمات وليست موجات لأنها لا تعاني حيوداً أثناء سيرها لكن ما هي خواص هذا الجسيم، أي كتلته وشحنته، التي تتكون منه هذه الأشعة؟ لم يكن من السهل الإجابة على هذين السؤالين بشكل دقيق. بعد تفكير طويل، أجرى تومسون تجربة حاسمة في هذا المجال. لقد جعل الأشعة تمر عبر مجال كهربائي يقوم بحرفها إلى الأعلى أو الأسفل ثم عبر مجال مغناطيسي يحرفها في الاتجاه العاكس. ومن قياسات المجالين اللازمين كي يكون الانحرافان متساويين ومتعاكسين تماماً بحيث تسير الأشعة في خط مستقيم بدون انحراف، استطاع تومسون أن يلاحظ نسبه شحنة الجسيم إلى كتلته أو (شح/ك) هذا الجسيم هو ما سمي بالإلكترون فيما بعد، أما النسبة فتساوي  $1,76 \times 10^{10}$  كولومب/كيلوغرام.

لنلاحظ أن النسبة شح/ك للإلكترون مرتفعة جداً، مما يعني أن هذا الجسيم خفيف (قليل الكتلة) بالفعل. لكن كانت هناك ضرورة لمعرفة كل من الشحنة والكتلة على حدة، وليس مجرد النسبة بينهما. هذا العمل قام به العالم الأمريكي (ميليكان) في الفترة (١٩٠٧ - ١٩١٣). واستطاع من التجارب (بواسطة قطرات الزيت) التي أصبحت كلاسيكية في التدريس الجامعي هذه الأيام، تحديد قيمة شحنة الإلكترون بالقيمة  $1,6 \times 10^{-19}$  كولومب. ومن ثم فإن الكتلة تحدد بالقيمة  $9,1 \times 10^{-31}$  كجم. من هذا تبين أن الإلكترون له نفس شحنة أيون الهيدروجين ولكن كتلته (الإلكترون) أقل بحوالي ٢٠٠٠ مرة. إنه جسيم خفيف حقاً.

بعد هذه الصورة عن الإلكترون، نستطيع أن نفهم بسهولة ما يحصل في أنبوب الأشعة الكاثودية، أو في عملية تفرغ الغازات. إن المجال الكهربائي العالي الموجود في الأنبوب إلى تحرير الكترونات من سطح الكاثود. وتنتشر



هذه الالكترونات السالبة في عكس اتجاه المجال الكهربائي. أي من الكاثود إلى الأنود، وتكتسب سرعات عالية جدا بسبب وجود هذا المجال وتصطدم هذه الالكترونات السريعة بالذرات الغازية وتؤدي إلى تهييجها أو حتى تأيينها في حالة التفريغ الغازي، وعندما تعود هذه الذرات إلى حالاتها النظامية تطلق الاشعاعات ذات الألوان المختلفة التي ذكرناها. وفي حالة غياب هذه الغازات، تصطدم الالكترونات المسرعة بسطح الأنود وتؤدي إلى إثارة وتأيين ذرات المادة في فلز هذا السطح. وعندما تعود هذه الذرات إلى حالاتها المستقرة تطلق الاشعة السينية.

وتقديرًا لأعمال تومسون على الالكترون، نال جائزة نوبل في عام ١٩٠٦. كما نال ميليكان نفس الجائزة في عام ١٩٢٣. لتحليله قيمة الشحنة الالكترونية.

#### ٥ - ٤ : البنية الذرية وميكانيك دُرس :

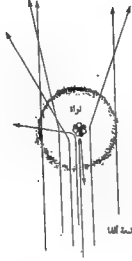
ما هي البنية الحقيقية للذرة؟ كان هذا هو السؤال الملح في بداية القرن العشرين، حين كان معروفاً بأن الذرة ككل هي حيادية الشحنة، وأنه يمكن فصل الكترونات سالبة عنها، لتترك وراءها ايونات موجبة. ولكن كيف تتداخل وتتناول هذه الشحنات المختلفة في بناء الذرة الكاملة؟

كان من الطبيعي أن يقدم تومسون حل اعطاه نموذج للذرة، لانهياكه التام في الموضوع تحيل تومسون ان الذرة تتألف من «مائع» موجب الشحنة مملأ حجم الذرة الكروية الشكل فيها تتناثر «الحبيبات» الالكترونية الخفيفة سالبة الشحنة داخل هذه الكرة. الذرة في ذلك تشبه البطيخة الحمراء، حيث يمثل القسم الاحمر المائع الموجب ويمثل البذور دور الالكترونات. ومع بعض النجاح في اعطاء نوع من التصور عن الذرة، إلا أن هذا النموذج لم ينجح في إقناع الكثيرين بصحته.

#### ٥ - ٤ - ١ : نموذج رذرفورد الذري :

الفكرة الكبرى في بناء النموذج الذري حصلت بسبب جهود الفيزيائي النيوزيلاندي «أرنست رذرفورد» (١٨٧١ - ١٩٣٧). عمل رذرفورد في البداية كمساعد لتومسون ثم انتقل إلى كندا، حيث اكتسب شهرة عن أعماله في اشعاعات جديدة، تدعى الاشعاعات النووية. ثم انتقل في عام ١٩٠٧ إلى جامعة مانشستر في إنجلترا حيث تابع أبحاثه عن هذه الاشعاعات في محاولة منه لاختبار نموذج تومسون الذري. فقام باستخدام أحد أنواع الاشعاعات النووية. وهو جسيم ألفا (α). هذا الجسيم ثقيل (حوالي أربعة أضعاف ذرة الهيدروجين) وله شحنة موجبة تساوي ضعف شحنة الالكترون في المقدار، كما كان معروفاً في ذلك الوقت. كما أن هذا الجسيم يصدر بسرعات عالية تجعله يخترق صفائح رقيقة من الفلزات بكل سهولة. وفكر رذرفورد بعمل التجربة التالية: توجه حزمة من اشعاع ألفا على صفيحة رقيقة من فلز الذهب (شكل ١٤) وحين تصطدم هذه الجسيمات مع ذرات الذهب داخل الصفيحة تنتشر جسيمات ألفا في اتجاه وشدة يبدلان على طريقة التفاعل بين جسيم ألفا والذرة، وبالتالي على تركيب الذرة نفسها (ترصد الجسيمات المنتشرة على شاشة مغلورة من كبريت الزئبق). وقد قام (رذرفورد) مع مساعديه

بتجارب كثيرة من هذا النوع حيث كانوا ينوعون فلزات الصفائح ومصادر الحزمة الاشعاعية ويسجلون النتائج عن نسبة الجسيمات المبعثرة كتابع لزاوية الانتثار.



(شكل ١٤)  
توضيح صغيرة (رذرفورد) عن تصادم لأشعة (ألفا) مع نواة أحد العناصر.

الأمور بدت عادية إلى أن لاحظ رذرفورد أمراً غريباً على غاية من الأهمية: إن بعض جسيمات ألفا تنتثر إلى الخلف تماماً، وتعود من حيث أتت. لقد قرأ عالمنا في هذا شيئاً هاماً عن تركيب (بنية) الليرة، لأن هذا التصادم الذي يؤدي إلى الانتثار الخلفي لا يمكن أن يحصل بسبب اصطدام ألفا الثقيلة مع الإلكترونات الخفيفة جداً. إن هذا التصادم، حسب النظرية التقليدية للتصادم، لا يمكن أن يتم إلا عن طريق التصادم مع جسيم ثقيل وصغير ومشحون إيجابياً وموجود داخل الليرة هذا الجسيم داخل الليرة هو ما سمي بالنواة (nucleus)، التي استطاع رذرفورد تحديد شحنتها وحجمها. من كل هذه التجارب استطاع هذا العالم أن يبين خلال سنة واحدة فقط نموذج المرفوف باسم الليرة النووية (والذي يشبه إلى حد ما النظام الشمسي) وهو باختصار مايلي:

١ - تتألف الليرة من نواة تقع في مركز الليرة. النواة صغيرة جداً ونصف قطرها من مرتبة  $10^{-10}$  متراً. النواة ثقيلة وتحوي على كل كتلة الليرة تقريباً وهي مشحونة إيجابياً، هذه الشحنة تساوي (في المقدار)  $z \times$  شحنة الإلكترون، حيث (z) هو العدد الذري للعنصر (للذهب  $z = 79$ )، حسب وجوده في القائمة الدورية للمعرفة لدى الكيميائيين.

٢ - يدور حول النواة عدد من الإلكترونات يساوي (z) في مدارات مختلفة - نصف قطر المدارات الإلكترونية الاحتمالي هو حوالي  $10^{-10}$  متراً.

هذا النموذج الذري يشبه نموذج (كيلر) للنظام الشمسي، حيث تلعب النواة دور الشمس وتلعب الإلكترونات دور الكواكب. يستنتج من ذلك أن الذرة ككل متعادلة كهربائياً حيث تتعادل النواة الموجبة مع الإلكترونات السالبة، وأن معظمها يتألف من فراغ إذ أن النواة صغيرة، والإلكترونات بعيدة جداً نسبياً عن هذه النواة.

نال رذرفورد جائزة نوبل في الكيمياء في عام ١٩٠٨، أي بعد نشر نتائجه التجريبية مباشرة. ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته أصبح القطب العلمي الآخر في المجتمع العلمي الانجليزي (مع تومسون)، الذي كان يقود العالم وقتئذٍ في اكتشاف عالم الذرة (في عام ١٩١٩، انتقل رذرفورد الذي لقبه مساعدهو المحبون بالتمساح الى كيمبريدج، وخلف تومسون المختبر كالفينيئس هناك).

لكن مع كل ذلك، فإن نموذج رذرفورد كان يعاني من بعض العيوب الواضحة. العيب الأول يخص الأشعاع الصادر عن الإلكترونات التي تدور حول النواة. فحسب النظرية الكلاسيكية فإن على الإلكترونات، كجسيمات مشحونة تسير في حركة دورانية، أن تصدر إشعاعات كهرومغناطيسية بصورة مستمرة. وعندما يصدر الإلكترون إشعاعات فإنه يفقد جزءاً من طاقته، وهذا يؤدي بدوره الى جعله يقترب من النواة في المركز ويزيد في سرعته الدورانية. وهكذا فالأشعاع المستمر يؤدي الى دوران يقترب فيه الإلكترون باستمرار نحو النواة (دوران حلزوني) الى أن يلتصق بها اذن يجب أن تلتصق كل الإلكترونات مع النواة في نهاية الامر، وهذا يعني انهيار الذرة وانهيار الكون كله! هذا يتناقض مع نموذج رذرفورد نفسه المبني على التجربة. والعيوب الثاني للنموذج أنه يتنبأ باصدار شعاع كهرومغناطيسي ذي طيف متصل، وهو ما يتناقض مع التجارب الطيفية العديدة المتوافرة آنذاك.

كان رذرفورد على دراية تامة بعيوب النموذج، ولكنه ترك لغيره تصحيح تلك العيوب وهذا ما فعله عالم شاب من أوروبا.

#### ٥ - ٤ - ٢ : نموذج بوهر للهيدروجين :

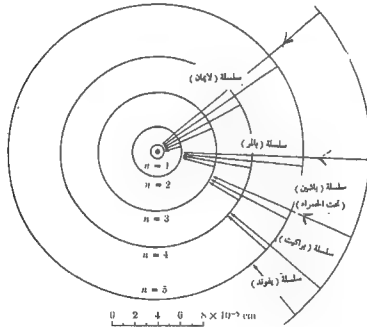
الخطوة التالية الهامة في الموضوع قام بها العالم الدانماركي الشاب (نيلز بوهر) (١٨٨٥ - ١٩٦٢). ولد بوهر في نفس العام الذي نشر فيه بالمر عمله ونشأ ودرس في الدانمارك. بعد نيله شهادة الدكتوراه في الفيزياء، ذهب بوهر مباشرة الى كيمبريدج، وعمل مع ج. ج. تومسون. وكتبها لم ينسجيا معا، على ما يبدو فانتقل بوهر بعد عدة شهور الى مانشستر ليعمل مع رذرفورد، وقد كان التعاون هنا مشمراً للغاية، حيث ادى خلال ستة اشهر تقريباً خلال عام ١٩١٣ الى نتائج هزت عالم الفيزياء بأجمعه.

كان بوهر مهتماً بالنموذج الذري بشكل خاص، وكان على معرفة تامة بنموذج رذرفورد. وكان مقتنعا بأن هذا النموذج هو الصحيح من ناحية الأساس، لكنه يحتاج الى اكمالات اضافية واصلاحات في عيوبه. وهكذا عمل على التخلص من هذه العيوب. اختار بوهر معالجة ذرة الهيدروجين، وهي الذرة الأكثر بساطة فوجد نفسه مضطراً الى تقديم فرضيتين (hypothesis) غير تقليديتين الى عالم الفيزياء:

١ - يدور الإلكترون في الهيدروجين حول النواة (البروتون) في أحد المدارات المخصصة أو المسموح بها (allowed orbits) فقط ، ولا يجوز له أن يدور في غيرها.

هذه المدارات محددة بحيث تكون فيها كمية الحركة الزاوية مكتملة ، وكل وجه الخصوص كجزء  $n \times h \times \frac{2\pi}{h}$  ، حيث  $n$  هو عدد صحيح ( $n = 1, 2, 3, \dots$ ) و ( $h$ ) هو ثابت بلانك (انظر جزء ٥ - ١ - ٢). كما افترض بان الإلكترون ، عندما يكون في أحد المدارات المخصصة (المستقرة) ، لا يصدر أي إشعاع بتاتا. هذا الافتراض مخالف للنظرية التقليدية بالطبع ، ولكنها فرضية قدمها بومر لكي يحافظ على استقرار الذرة ، وبمنعها من الانهيار الحلزوني ، أشار اليه سابقا.

ويستخدم كمومية كمية الحركة الزاوية ، وقانون التجاذب الكهربائي (كولومب) بين الإلكترون والبروتون استطاع بومر ان يحسب انصاف اقطار المدارات المستقرة . المعادلة التي وجدها هي  $n^2 \times \text{نق} = \text{نق}$  ، حيث  $\text{نق} = (53, 0)$  أنغستروم ، وهو ثابت ، و ( $n$ ) هو العدد الصحيح الذي ذكرناه سابقا . المدار الأول نصف قطره هو  $\text{نق}$  ، والمدارات الأخرى تسع بسرعة عندما تزداد ( $n$ ) (شكل ١٥). كما استطاع (بومر) حساب طاقة الإلكترون في المدارات المختلفة . والطاقة هي كمية هامة في أي موضوع . وخصوصا في الموضوع الحاضر.

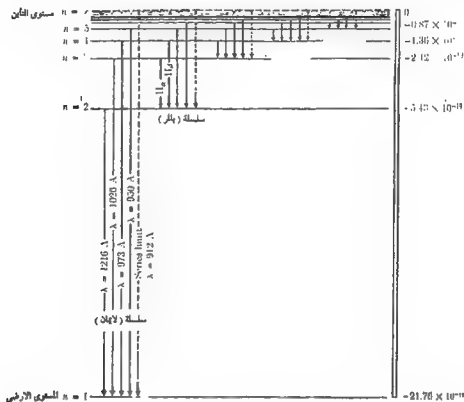


(شكل ١٥)

توزيع (بومر) للذرة الهيدروجينية - المستقرة للإلكترون والسلسلة الطيفية الناتجة من انتقال الإلكترونات بين هذه المدارات .

مسيرة الفوتون على الجمل للشدء بين النظرية والتجربة

وهي تتألف في هذه الحالة من جزأين : الطاقة الحركية المتعلقة بحركة الإلكترون الدورانية، والطاقة الكامنة (Potential) المتعلقة بجلب البروتون للإلكترون. إن فرضيته تؤدي إلى أن طاقة الإلكترون مكتمة أيضا (شكل ١٦) وعلى وجه الخصوص  $\epsilon = -6$  و  $13$  /  $2$  إلكترون فولط. (الإشارة السالبة تعود إلى أن طاقة الوضع التجاذبية (السالبة) للإلكترون في مجال البروتون تزيد عن طاقته الحركية (الموجبة).



(شكل ١٦)

نموذج (بهر) الذرة الهيدروجين - سلم الطاقة الذي يجري على السويات المسوحة للإلكترون .  
الشكل يظهر أيضا السلاسل الطيفية الناتجة عن الانتقال بين هذه السويات .

إذا نظرنا إلى قيم الطاقة المختلفة فإنها تشكل مستويات متوالية من الطاقة، تتباعد عن بعضها البعض، حسب الصيغة المذكورة أعلاه (شكل ١٦) وهي تشكل سلما من الطاقات المخصصة للإلكترون، يشبه نوعيا (وليس كميا) سلم بلانك للهباز (انظر جزء ٥ - ١ - ٢). إن درجات هذا السلم الحالي غير منتظمة في مسافاتنا، وعلى الإلكترون أن يقع (أو يسكن) على أحد درجات هذا السلم.

٢ - قدم بهر أيضا فرضية أخرى هامة غير تقليدية : الإلكترون يصدر اشعاعا فقط عندما ينتقل من مستوى طاقة إلى مستوى طاقة آخر واقع تحته (في سلم الطاقة). ويمكن حساب تردد الفوتون (تر) الصادر كإيلي : إذا رمزنا إلى المستوى الأعلى بـ (طأ) والأدنى بـ (طأ) فإن  $\epsilon_{\text{طأ}} - \epsilon_{\text{طأ}} = (هـ) - (هـ)$  (تر) .

هذه المعادلة بين طاقات الإلكترون وذبلية الفوتون المنبعث معقولة تماما، لأن  $(h \times \nu)$  تمثل طاقة الفوتون، حسب فرضية آينشتاين (انظر جزء ٥ - ١ - ٣)، كما رأينا. وهكذا فإن المعادلة أعلاه تقول بأن الطاقة التي ينفقها الإلكترون في عملية الانتقال نحو الأسفل تنتقل كاملة إلى الفوتون الذي ينبعث من هذه العملية. والعكس صحيح إذ يمكن للإلكترون أن يمتص فوتونا قادما من الخارج وإن ينتقل بذلك من مستوى إلى مستوى أعلى منه، شرط أن تكون طاقة الفوتون تساوي تماما فرق الطاقة بين المستويين، مما يعني رياضيا تحقيق المعادلة السابقة ذاتها. هذه العملية تمثل عملية الامتصاص (absorption).

هاتان الفرضيتان كانتا كائنتين، كما يرمز بوهر، إلى اشتقاق الطيف الخطي للذرة الهيدروجين بأكمله. إن الطيف خطي لأنه ناتج عن انتقالات بين مستويات منفصلة (discrete) من الطاقة وهذه هي المرة الثانية، بعد بلانك، التي تكتمل فيها كمية ميكانيكية. والدقة التي حسب بها بوهر الخطوط الطيفية بهذا النموذج البسيط كانت مذهلة حقا.

ويمكن الآن شرح السلاسل الطيفية المختلفة بالطريقة التالية: في العادة يكون الإلكترون في المستوى السفلي من سلم الطاقة، وهو المستوى الذي يمثل الحالة الأكثر استقرارا. يشار إلى هذا المستوى بالحالة الأرضية (ground state). وعندما نرفع درجة حرارة غاز الهيدروجين فإن عددا كبيرا من الذرات ترتفع إلكتروناتها إلى مستويات الطاقة العليا، وتدعى الحالات المثارة أو المثيجة (excited states). عندئذ فقط وفيها تعود الذرات (الإلكترونات) ثانية إلى الحالة الأرضية تستطيع الذرات أن تصدر فوتونات ذات موجات مختلفة هكذا تتولد سلسلة (لأيمان) الطيفية، التي تمثل جميع الانتقالات الإلكترونية إلى الحالة الأرضية، أما سلسلة بالمر الطيفية فإنها تتولد عن جميع الانتقالات الإلكترونية من المستويات العليا إلى الحالة المثارة الأولى وهلم جرا.

(هذه النظرية تفسر بسهولة سبب تطابق الطيف الامتصاصي والطيف الانبعاثي لغاز ما. فإذا مر اشعاع متصل عبر غاز بارد فإن الذرات، في الحالة الأرضية، تمتص فوتونات محددة توصلها إلى المستويات العليا).

ورغم وجود بعض النواقص في نموذج بوهر، والتي ستعرض لها قريبا، فقد كان بلا شك فتحا هائلا في مجال بنية الذرة. لقد شكل عندئذ، ولا يزال، الإطار الحسي الذي تتخيل فيه ذرة الهيدروجين والذرات الأخرى أيضا. كما نستطيع من تعميمهم أن ننظم بنية الجزيئات والجوامد. وقد نتساءل عن كيفية توصيل بوهر إلى هذا العمل الإبداعي العظيم. الواقع هو أن نموذج بوهر يجتري حل تزاوج غريب بين نموذج رذرفورد الكلاسيكي ومفاهيم بلانك وآينشتاين الكمومية. اتنا نرى بلاشك أن تكميم الطاقة في ذرة الهيدروجين هو تعميم للتكميم الذي كان بلانك قد قدمه عندما افترض تكميم الطاقة في الهزاز للمادي الذي يصدر الإشعاع في حالة إشعاع السطح الأسود (انظر جزء ٥ - ١ - ٢). أما العلاقة بين تردد الفوتون الصادر عن الانتقال الإلكتروني بين المستويات فتحمل في طيها علاقة آينشتاين حول طاقة الفوتون (انظر جزء ٥ - ١ - ٣). هذه الأفكار الكمومية كانت معروفة في ألمانيا والنمارة الأوروبية، ولكنها لم تكن منتشرة في إنجلترا، التي كانت مسرحا خصباً للأعمال التجريبية. وهكذا فإن ذهاب بوهر

«النظري الأوروبي» إلى «المختبر الانجليزي ادى، في عقل بوهر العبقري، إلى توازن سعيد وخلاق بين النظرية والتجربة على أهل المستويات الفكرية في ذلك العصر.

عاد بوهر بعد فترة وجيزة من اكتشافه إلى بلاده، حيث أنشأ في مدينة كوبنهاغن معهدته الشهير الذي ظل لفترة طويلة تقرب من عشرين عاما أعظم معهد في الفيزياء النظرية الجديدة. وقد استضاف هذا المعهد في فترات مختلفة أشهر فيزيائيي العصر، حيث كان بوهر يمثل بالنسبة لهم جميعا نموذج «الوالد الراعي والنور الهادي». حصل (بوهر) على جائزة نوبل في عام ١٩٢٢.

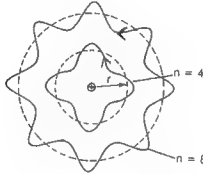
بعد نشر نموذج (بوهر) في عام ١٩١٣، طرأت عليه بعض التحسينات. فقد صممه الفيزيائي الألماني (سومر فلد) وغيره ليضم مدارات الكترونية على شكل قطع ناقص (ellipse)، وهي أكثر عمومية من المدارات الدائرية التي افترضها (بوهر). كما أدخلوا بالاعتبار التأثيرات النسبية (Relativistic effects) حسب نظرية النسبية الخاصة التي كان قد قدمها أينشتاين (انظر جزء ٥ - ٦ - ٥)، للظروف التي تكون فيها سرعة الإلكترون عالية جدا لكن هذه التحسينات كانت طفيفة، ولم تشكل تطورات جذرية في النموذج، لقد كان هذا يستند إلى أساس تكتمل الاندفاع الزاوي (فرضية بوهر الأولى)، وهذا الأساس كان وما زال يكتنفه القموض وعدم الرضا. لا بد أن الفرضية صحيحة، على الأرجح، لكنها تؤدي إلى نتائج متضقة تماما مع التجارب. ولكن علام تستند هذه الفرضية؟ هل يمكن اشتقاقها من قانون آخر أكثر وضوحا؟ هذا هو السؤال الذي حير الفيزيائيين لأكثر من عشر سنوات.

#### ٥ - ٤ - ٣ : الأمواج المادية :

الجواب أتى أخيرا من قبل العالم الفرنسي الأمير «لويس دي بروجلي» (١٨٩٢ - ١٩٨٧) في عام ١٩٢٤. انحدر دي بروجلي من عائلة أرستقراطية عريقة درس التاريخ في البداية ثم تحولت اهتماماته إلى مجال الفيزياء بعد أن خدم في الحرب العالمية الأولى، حيث كان يعمل في مجال اتصالات الراديو ومن موقع في أعلى برج إيفل في باريس بعد نشر بعض الأبحاث حول الإشعاع الضوئي، قدم دي بروجلي الفكرة الغريبة التالية، وذلك ضمن أطروحته لشهادة الدكتوراة من جامعة السوربون: أن الفوتون يظهر سلوكا ازدواجيا بين الجسم والموجة، كما بين أينشتاين وغيره بكل وضوح (انظر جزء ٥ - ١ - ٣). فهل يظهر الإلكترون، والجسيمات الأخرى، أيضا ازدواجية بين الجسم والموجة؟ أو بمعنى آخر، هل يمكن أن تكون هذه الازدواجية خاصية فيزيائية عامة، غير مقصورة على الفوتون وحده؟ قام دي بروجلي بافتراض الازدواجية للإلكترون وحاول أن يحصل على النتائج المنطقية التي تنبع من هذه الفرضية. قال بأن الكترون ذا سرعة (سر) له طول موجة طم =  $h / (K \times سر)$ ، وهي نفس العلاقة التي تنطبق على الفوتون. وقد سميت هذه العلاقة، التي أصبحت شائعة في الأدب الفيزيائي الحديث، علاقة دي بروجلي.

قام دي بروجلي بتطبيق علاقته على نموذج بوهر في ذرة الهيدروجين. وبعد للمعالجة الرياضية البسيطة، وجد أن فرضية بوهر الأولى مكافئة تماما للشروط التالي:  $2\pi r = n \lambda$ ، أي أن طول محيط المدار يساوي عددا صحيحا

(ن) من طول موجة الإلكترون في هذا المدار (شكل ١٧) هذا الشرط معروف جدا في مجال فيزياء الأمواج المستقرة أو الواقفة (Standing waves) ومن هذا المنظور، فإن فرضية بوهر تصبح منطقية وواضحة: المدارات المستقرة (المسموح بها) هي التي تتفق مع تشكيل أمواج الكترونية مستقرة، تدور حول النواة.



(شكل ١٧)

فولج (ديرويل) الذرة الهيدروجين المستقرة في المدارات المستقرة.

كانت هذه الفكرة قفزة نظرية كبيرة في عالم الذرة. ومع أنها وضحت كثيرا فهمنا لمعالجة بوهر وفهمه، إلا أنها كانت تنظر إلى الدعم التجريبي. وقد حدث هذا في عام ١٩٢٧ على يد الفيزيائيين الأمريكيين دافيسون وأوجيرمر، وبصورة مستقلة الانجليزي ج. ب. تومسون وهو ابن ج. ج. تومسون فلقد وجدوا أن الإلكترونات عندما تنتشر من الأجسام البلورية تظهر لمطا حيوديا موجيا متفقا مع فرضية دي برويل وأن نمط انتشار الإلكترونات مشابه تماما لنمط انعكاس الأشعة السينية (الموجية) من البلورات. هذه التجربة وحدها أثبتت بدون أدنى شك الخاصية الموجية للإلكترونات وبالتالي الجسيمات المادية الأخرى، إذ أن نتائجها غير قابلة للتفسير بثباتا على أساس الخاصية الجسيمية. وكانت هذه هي البداية الحقيقية لما يعرف الآن باسم الأمواج المادية (Matter Waves) أو أمواج برويل. نال دي برويل جائزة نوبل لعام ١٩٢٩ وتقاسم دافيسون وتومسون جائزة نوبل لعام ١٩٣٧ لمعلمهم في اكتشاف الطبيعة الموجية (تجريبيا) للإلكترون، وحيود الإلكترون على البلورات، حل التوابع.

$$E = mc^2 \quad \text{معادلة (شرودينغر)}$$

سببت فكرة دي برويل ضجة كبيرة في الأوساط العلمية الأوروبية، وبخصوصا في ألمانيا وإنجلترا. ولاحظ الفيزيائيون النظريون في الحال أهمية اكتشاف المعادلات الرياضية الضرورية لإعطاء الوصف الكامل للأمواج المادية. فكما أن معادلات ماكسويل التفاضلية مثلا تعطي الوصف الكامل للأمواج الكهرومغناطيسية، فلا بد من وجود معادلة أو أكثر لوصف الأمواج المادية الجديدة. هذه المعادلة الجديدة اكتشفها العالم النمساوي «إروين شرودينغر» (١٨٨٧ - ١٩٦١) الذي حصل على شهادة الدكتوراة في الفيزياء من جامعة فيينا، وعمل بعد ذلك في عدة جامعات ألمانية. كما عمل مساعدا للعالم ماكس فون لفترة من الزمن. درس شرودينغر فكرة دي برويل عن الأمواج



الالكترونية وحاول تطبيق الفكرة على جسيمات مربوطة (bounded) مثل الالكترون المرتبط مع البروتون في ذرة الهيدروجين ، وهذا يتجاوز تطبيقات دي برويل الذي عالج فقط الالكترونات الحرة التي ترتطم بالبلورات . ومع أنه أنخطئ في البداية ، بسبب طموح المعالجة الزائد ، إلا أنه حصل بعد قليل على معالجة مقنعة تماما للالكترون في ذرة الهيدروجين . إن معالجة شرودينغر هي امتداد واسع لمعالجة بوهر القديمة ، ولكن ضمن أفكار جديدة ومتعددة . قدم شرودينغر معادلة جديدة هي المعادلة الموجية ، للالكترون التي عرقت لاحقا باسم «معادلة شرودينغر» . . . هذه المعادلة تشبه المعادلات الموجية الكلاسيكية ( الأمواج الصوتية ، مثلا ) في بعض الأمور ، وتختلف عنها في أمور دقيقة أخرى . وقام شرودينغر بحل المعادلة لحركة الالكترون حول البروتون في ذرة الهيدروجين ، وعندما طبق الشروط الموجبة على حلول المعادلة ، وهي نفس الشروط التي يطبقها الفيزيائيون روتينيا على الأمواج الكلاسيكية ، توصل الى معرفة الحالات المستقرة أو الواقعة (Stationary States) للالكترون ومستويات الطاقة اللازمة لهذه الحالات . ووجد أيضا أن مستويات الطاقة التي حصل عليها بطريقته هي نفسها التي كان بوهر قد حصل عليها بطريقته البسيطة ، فالمدارات الواضحة عند بوهر أصبحت الآن غيوما متشعبة فيها بعض من الغموض ( شكل ١٨ ) . ورغم نجاحه الباهر ، إلا أن شرودينغر لم يحصل على جائزة نوبل الا في عام ١٩٣٥ . واكتشاف معادلة شرودينغر هذه تشكل ما يعرف الآن بالميكانيك الموجي ، وهو اسم آخر للميكانيك الكم .



( شكل ١٨ )

التوزيع الاحصائي (احتمالي) للالكترون .

### ٥ - ٤ - ٥ : التفسير الإحصائي :

بعد أن قدم شرودينغر معادلته ، التي هي الآن للمادة الأكثر شهرة في عالم الجسيمات المجهرية الدقيقة ، حصل جدول كبير حول المعنى الفيزيائي للمعادلة وتفسير محتوياتها ( مكوناتها ) فإذا كان الالكترون يتألف ( يتكون ) من أمواج مادية ، فما هي طبيعة هذه المادة أو المائع ( في لغة القرن التاسع عشر ) التي تشكل الالكترون ؟ وإذا كنا نستطيع في العادة أن نتجزئ موجة كلاسيكية ، فهل نستطيع أيضا أن نتجزئ الالكترون الى عدة أقسام عندما يكون في إحدى حالاته في ذرة الهيدروجين مثلا ؟ هله أسئلة صعبة جدا ، خاصة عندما نخلط المفاهيم الكلاسيكية مع المفاهيم الكمية الجديدة ، وقد واجه الفيزيائيون صعوبة في مواجهة هذه الأسئلة وأخرى مماثلة لفترة طويلة في تلك الفترة ( أواخر العشرينات ) .

التفسير الذي انتصر أخيراً ، ولا يزال سائداً حتى اليوم ، هو ما يعرف الآن باسم « تفسير مدرسة كوبنهاغن » ، والذي قلعه بصورة رئيسية العالم الألماني القدير « ماكس بورن » ( ١٨٨٢ - ١٩٧٢ ) ويوهر نفسه إلى حد ما . حسب هذا التفسير ، فإن المادة الموجية ليست مادة بحتاً ، بل أنها أمواج احتمالية (Probability Waves) ، وتنازع الموجة (Wave function) الذي يدخل المعادلة يحدد (بعد التوزيع) الكثافة الاحتمالية لوجود الإلكترون في مكان ما . فحيث يكون التابع كبيراً يكون احتمال وجود الإلكترون كبيراً والعكس بالعكس . إذن عندما تنتشر أو تنتقل الأمواج المادية من مكان إلى آخر فإن الاحتمال ( وليس الإلكترون نفسه بصورة أكيدة ) هو الذي ينتشر .

من الناحية العملية ، هذا التفسير مريض تماماً ، إذ أننا في العادة تجري قياسات وسطية (average) ، فعندما نقيس الطيف المنبعث من غاز الهيدروجين ، فإننا في العادة لا تجري التجربة على ذرة واحدة فقط وإنما على عدد كبير من الذرات ونحصل على قيمة تجريبية وسطية لهذه الذرات . فالذي ينتجاً هو احتمال وجوده في أمكنة عديدة ومختلفة وليس جسم الإلكترون ، وهذا أمر وارد ومقبول تماماً . وإذا أجرينا التجربة لنحدد وجوده في مكان محدد ما ، فإن النتيجة تكون إما إيجابية أو سلبية . واحتمال النتيجة عدد تماماً بواسطة تابع الموجة الذي ذكرناه سابقاً .

لقد تبين صحة معادلة شرودينغر وتفسيرها الاحتمالي في أنظمة فيزيائية لا حصر لها في مجالات الذرات والجزيئات والجوامد والنوى وغيرها ، ومع ذلك فإن التفسير الاحتمالي لم يرق لعدد من عظماء الفيزيائيين ، بمن فيهم أينشتاين نفسه . والذي قال كلمته المأثورة : إن الخالق لا يلعب النرد . ولكن لا يوجد إلى الآن معالجة بديلة ترقى حتى إلى مقاربة مستوى المدرسة الحالية . تؤدي نظرية الكم إلى نتائج أخرى غريبة جداً على التفكير الفيزيائي التقليدي . تقول النظرية مثلاً إننا لا نستطيع أن نحدد كلا من الموضع والانفعال للإلكترون في آن واحد . إن هذا مستحيل حتى من ناحية المبدأ . وتعرف هذه النتيجة في صيغتها الرياضية بمبدأ الارتباب (اللاتعيين) Uncertain Principle .

وفي نفس الفترة التي كان شرودينغر يعمل فيها على تطوير معادلته (حوالي ١٩٢٥) قام عالم شاب ألماني هو فيرنس هايزنبرغ (١٩٠١ - ١٩٧٦) بتقديم نظرية كمومية أخرى لوصف ديناميكية الجسيمات الدقيقة . وضعت نظرية هايزنبرغ في لغة المصفوفات (Matrices) الرياضية ، حيث تمثل هذه المصفوفات واحداً أو آخر من المتغيرات المختلفة ( الطاقة ، الدافع ... ) ، وحيث تمثل عناصر هذه المصفوفات نتائج التجارب التي يمكن إجراؤها على هذه الجسيمات . وللوهلة الأولى بدت نظرية هايزنبرغ مختلفة تماماً عن نظرية شرودينغر . لكن شرودينغر ، والفيزيائي الانجليزي ذيراك سرعان ما أثبتا أن النظريتين متكافئتان تماماً من الناحية الرياضية ، أي أنهما صيغتان مختلفتان لنفس النظرية الكمومية . ونال هايزنبرغ جائزة نوبل في عام ١٩٣٢ لاكتشافه المستقل للنظرية الكمومية .

• = ٤ = ٦ : مبدأ الاستبعاد :

بقيت نظرية الكم مع هذا تغتر إلى خاصية هامة جداً ، هي تستطيع وصف خواص الذرات ، وعصومها الجدول الدوري (periodic table) للعناصر . هذا الجدول الذي كان قد وضعه العالم الروسي « مندليف » في

منتصف القرن التاسع عشر ، والذي بناه جميع الكيميائيين ، كان يظهر بأن العناصر التي تقع في نفس العمود الرأسي لها خواص كيميائية متشابهة . فمثلا ، الهيدروجين والليثيوم والصوديوم كلها نشطة التفاعل ولها تكافؤ أحادي . كيف نستطيع تفسير ذلك على أساس نظرية الكم الجديدة ؟ حسب هذه النظرية ، وحتى وقت شرودينغر ، يجب أن تكون الإلكترونات جميعها في المدار الأول حول النواة ، لأن هذا المدار له الطاقة الدنيا ( بين كل المدارات ) والنظام الفيزيائي ( الإلكترونات ) يرتب أموره ذاتيا حتى يكون في أدنى طاقة ممكنة . هذا الأمر كان محيرا حقا للفيزيائيين والكيميائيين بمن فيهم أولئك الذين كانوا يعتقدون مبدأ البنية القشرية (Shell Structure) للذرة والتي تنبع منطقيا من نموذج بوهر الذي يحدد مواقع الإلكترونات في المدارات المتتالية المختلفة . فكل مدار يؤدي الى قشرة تسكنها الإلكترونات ( في الذرات المحتوية على إلكترونات عديدة ) .

الجواب على هذه المشكلة جاء من قبل العالم النمساوي - السويسري الشاب « فولفغانغ باولي » ( ١٩٠٠ - ١٩٥٨ ) عندما أعلن مبدأ الاستبعاد (Exclusion Principle) في عام ١٩٢٤ . طبقا لهذا المبدأ ( الغامض والغريب حقا ) لا يمكن لأكثر من إلكترونين أن يكونا في نفس الحالة الكمية . ويعني آخر ، فإن قدرة الاستيعاب القصوى لأي حالة كمية من حيث تقبلها للإلكترونات هي إلكترونات فقط . وتبعاً لذلك فإن سعة مدار ما تعتمد على عدد الحالات الكمية المختلفة المرتبطة بذلك المدار . فكل مدار يقابله مستوى معين للطاقة ولكنه يتسع لعدد ( محدد ) من قيم الاندفاع الزاوي ، أي لعدد محدود من القيم الاحتمالية أو الحالات الكمية . وهكذا فإن المدار الأول في الذرة يستطيع أن يقبل إلكترونين واحداً أو إلكترونين . ففي عنصر الليثيوم ، مثلا ، حيث يوجد ثلاثة إلكترونات ، يقع اثنان في المدار الأول ، ويذهب الثالث الى المدار الثاني . وهكذا فإن كل قشرة بوهريّة لها عدد إلكتروني معين تستطيع استيعابه . إن مبدأ باولي أعطى الأساس النظري لمفهوم البنية القشرية للذرة الدوري للعناصر ، بما يتفق تماما مع المفاهيم الكيميائية المعروفة . فلولا وجود هذا المبدأ ، لسقطت الاشترونات جميعها الى المدار الأول ، بدون أية بنية قشرية تميز بين ذرة وأخرى ولكانت صفات الكون مختلفة تماما عما نعرف .

ونظّر باولي في ١٩٢٥ بأن الخاصية الثنائية في مبدئه لا بد وأن لها علاقة بخاصية الكترونية مجهولة وأيضا بظاهرة أخرى معروفة سابقا في علم الاطراف ، وهي مقول ( زمان ) الشاذ ، حيث وجد أن بعض الخطوط الطيفية للذرات تنشق ، في وجود مجال مغناطيسي ، إلى عدد من الخطوط المتقاربة بطريقة لا تقبل الشرح الكلاسيكي .

وترسّخ هذا التنظير في نفس العام ، عندما اقترح الفيزيائيان الهولنديان « إوهلينيك » و « غودسميت » أن الإلكترون يمتلك خاصية اللف الدائري (Spin) . أي أن الإلكترون ، سواء أكان متحركا حول الذرة أم لا ، فإنه دائما في حركة دوران ذاتي أولف حول محوره ، تماما كما تلف الأرض حول محورها ، ويصاحب هذا اللف اندفاع زاوي قيمته (  $\hbar/2$  ) . وحسب قوانين الكم المتعلقة بالاندفاعات الزاوية ، فإن الاندفاع الزاوي للإلكترون يمكن أن يأخذ واحدا من اتجاهين فقط : إما نحو الأعلى وإما نحو الأسفل . هذه هي الخاصية الثنائية التي كان ينشأها

باولي . وقد أشار أولهينيك وفومسيت بأن هذه الخاصية تحقق تنظير باولي ومبدأ الاستبعاد ، وتؤدي أيضا إلى تفسير  
مفعول زيمان الشاذ ، كما تفسر جوانب البنية الدقيقة (Fine Structure) للطيف الضوئي للذرات .<sup>(١٧)</sup>

### • • • : ليزياء النواة

#### • • • : أشعة (ألفا) و (بيتا) و (غاما)

النواة (الصغيرة) تشكل قلب الذرة وتحمل كتلة الذرة بأكملها تقريبا ، بالإضافة إلى الشحنة الموجبة . وكل  
الإلكترونات والكواكب ، في الذرة تدور في فلك هذا الجسم البالغ الصغر والأهمية . إنها شمس الذرة . والأنا  
نوجه اهتمامنا إلى هذه النواة . ماذا يوجد داخلها ؟

بدأت علوم النواة صدفه في عام (١٨٩٦) عندما كان العالم الفرنسي « هنري بيكيريل » (١٨٥٢ - ١٩٠٨)  
يجري أبحاثا حول الأشعة السينية ، التي كانت جديدة وقتئذ . لاحظ بيكيريل من خلال تجاربه على مركبات  
اليورانيوم أن هناك أشعة أخرى من نوع جديد تصدر من هذه المواد . هذه الأشعة ، التي لا يمكن رؤيتها ، تستطيع  
اختراق الورق والمواد العادية الأخرى بسهولة ، كما تستطيع تأيين ذرات الهواء . وتظهر هذه الأشعة لتقائيا ، بدون  
التحفيز والتشعيط المطلوب في حالة الأشعة السينية . عرف بيكيريل في الحال أنه أمام أشعة من نوع جديد ، وأنها  
تصدر من ذرات اليورانيوم . وعرفت هذه الظاهرة بالنشاط الإشعاعي (radio — activity) .

وتابعت العائلة الفرنسية البولندية الأصل « ماري كيوري » (١٨٦٧ - ١٩٣٤) وزوجها العالم الفرنسي « بيير  
كيوري » (١٨٥٩ - ١٩٠٦) عمل بيكيريل حول الأشعة الجديدة ووجدوا من خلال دراسة منهجية للمركبات  
الكيميائية بأن معدن الثوريوم يظهر نشاطا إشعاعيا أيضا . كما اكتشفا ، بعد عناء شديد ، وجود عنصرين مشععين  
جديدين هما البولونيوم (نسبة إلى بولندا ، وطن ماري كيوري الأصلي) والراديويم . هذان العنصران هما أشد نشاطا  
من اليورانيوم بقدر كبير ، إذ تبلغ شدة نشاط الراديويم النقي مليون ضعف شدة اليورانيوم . لكن عملية تنقية  
الراديويم عملية مضنية حقا . فبدائية من مادة منجمية كتلتها بضعة أطنان ، يمكن الحصول على ٢,٢ جم فقط من  
الراديويم بعد التنقية . وقد حصل العلماء الثلاثة بيكيريل وآل كيوري على جائزة نوبل في عام ١٩٠٣ .

وقد سعى كل من بيكيريل وماري كيوري ورفرفورد لمعرفة الطبيعة الفيزيائية لهذه الأشعة الجديدة . وقد تمكن  
الأخير في عام ١٨٩٩ من تصنيف هذه الأشعة إلى ثلاثة أنواع ، حسب مقدرتها على اختراق المادة . فالأشعة التي لها

(١٧) - استطاع العالم الإنجليزي هيرك في الفترة (١٩٢٨ - ١٩٣٠) أن يقدم لسبب أسماها للفلك (السين) في الإلكترونات ، وللك من خلال تطوير سماعة درويجتر  
فتمكن حلقه مع نظرية النسبية في هذا العمل للكواديس ، بين ميكانيك الكم والنسبية يظهر الفلك كخاصية طبيعية للإلكترونات .

كما تبا هيرك في صله هذا بوجود جسم هاد للإلكترونات ، أي له نفس خواص الإلكترونات مع شحنة موجبة تساوي شحنة الإلكترون في القدر . هذا الجسم سمي  
البروتون ولم اكتشافه تجريبيا في عام ١٩٣٢ (الفكر جزء ٥-٥-٥) ومنذ ذلك الحين اكتشفت جسيمات متشعبة للبروتون والنيوترون وغيرها من الجسيمات الأساسية ،  
حيث أصبح موضوع (لفقه للعدد) أحد الفروع الرئيسية للفيزياء في عالم الفيزياء المعاصرة .

مسألة اختراق قصيرة سميت أشعة ألفا ، والأشعة ذات الاختراق الأطول سهاها أشعة بيتا ، والأشعة ذات الاختراق الطويل سهاها أشعة غاما .

وقد اتضح بسرعة أن أشعة بيتا هي في الحقيقة حزمات من الإلكترونات السريعة . تبين ذلك من حقيقة انحرافها في المجال المغناطيسي وبانحماها يدل على شحنتها السالبة ، ومن قياس النسبة ( شح/ك ) لهذه الأشعة تبين أنها نفس النسبة التي حصل عليها تومسون للإلكترون ( أنظر جزء ٥ - ٣ )

أما أشعة ألفا ، فقد قيس النسبة ( شح/ك ) لها بنفس الطريقة التي استعملت في حالة الإلكترون ( من قبل تومسون ) . وفي سلسلة من التجارب التي أجراها رذرفورد ومساعدوه في الفترة ( ١٩٠٦ - ١٩٠٩ ) ، استطاع هذا أن يثبت بأن أشعة ألفا تتألف في الواقع من جسيمات هي نوى ( جمع نواة ) ذرات الهيليوم . أي أن لها شحنة موجبة تعادل ضعف شحنة الإلكترون - لكنها موجبة - وكتلة تعادل أربعة أضعاف كتلة الذرة الهيدروجينية .

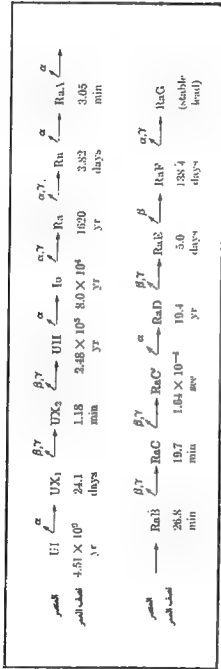
أما أشعة غاما فتبين أنها في الواقع حزمات من الفوتونات قصيرة الموجة ( أقصر حتى من الأشعة السينية ) . إنها أشعة كهرومغناطيسية ذات طاقات عالية جدا ( ملايين الأضعاف من طاقة الفوتونات العادية المرئية ) . توضح هذه النتيجة لأن هذه الأشعة لا تنحرف في المجال المغناطيسي ، ولأنها تخترق المادة لمسافات طويلة ، ولأنها تظهر أنماط التداخل والحيود الموجية .

وتعرف هذه الأشعة الجديدة الثلاثة الآن بجسيمات ( Particles ) ألفا وجسيمات بيتا وأشعة غاما . مع أنه تبين أخيرا أن هذه الجسيمات ( أو الأشعة ) ليست في الواقع كائنات جديدة كما كان الظن في البداية ، إلا أنها تظهر في مجالات جديدة من الطاقة ومن مصادر جديدة . لقد كانت الباب الذي أدخلنا إلى عالم جديد ، من المادة ( المادة النووية ) .

#### ٥ - ٥ - ٢ : التشكك الاشعاعي

شعر رذرفورد منذ البداية بأن ظاهرة النشاط الاشعاعي تحتاج إلى تغييرات فيزيائية جذرية لمعالجتها وتفهمها . وحيث إن أشعة ألفا وبينما المطلقة كمحلا كلاً كبيرة ( خصوصاً في حالة ألفا ) وشحنة كهربائية ، فإن انطلاق هذه الأشعة يؤدي إلى تغيير في طبيعة العنصر الباقي أو عنصر الابنة ( Daughter ) بعد الاشعاع . هكذا فإننا نستطيع أن نعبر عن تحول ذرة الراديوم إلى ذرة الرادون بعد انطلاق جسيم ألفا كما يلي : راديوم رادون + جسيم ألفا . وهي معادلة تشبه في روحها المعادلات الكيميائية المعروفة . لكن المعادلة الجديدة تختلف عن القديمة في أنها ( الجديدة ) تنطوي على تغيير في طبيعة العناصر الناتجة ( خلافاً للنظريات القديمة القائلة بأن الذرة لا تتجزأ وأن طبيعتها لا تتغير في أي من التفاعلات ) . المعادلة الجديدة تنطوي حقاً ، من ناحية المبدأ ، على مفهوم ( التحول العنصري - transmutation ) ، مثل عملية تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب التي كانت حلم العلماء القدامى .

وتكاثرت الأبحاث والدراسات في هذا المجال . فبين مثلا أن الرادون ، الناتج في المعادلة أعلاه ، هو غير مستقر ، إذ إنه يطلق جسيمات ألفا أيضا ويتحول الى عنصر جديد عرف بـ راديوم - أ . هذا بدوره غير مستقر أيضا ، وهكذا ... وفي نهاية هذه السلسلة الاشعاعية ينتج عنصر مستقر حقا هو عنصر الرصاص ( شكل ١٩ ) .



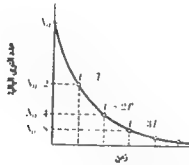
( شكل ١٩ )  
سلسلة الراديوم - الرصاص الاشعاعية . الفترة نصف الايام لعنصر الاشعاعية للصفحة ١٩

سلسلة التفرع على شكل متعديده بعد التفرع بالصيغة

ثم نعين أيضا أن بداية هذه السلسلة أو العنصر الوالد (Parent) ليس عنصر الراديوم نفسه وإنما عنصر آخر يقع قبله بعدة عناصر وفي حالة هذه السلسلة فإن العنصر الوالد هو اليورانيوم ذاته . وكما يظهر الشكل فإن هناك (١٥) عنصرا مختلفة في هذه السلسلة الإشعاعية الهامة .

وهناك عامل هام يخلط في اعتبار الانحلال أو التشكك (decay) الإشعاعي ، وهو سرعة معدل التشكك . وقد جرت العادة ، تبعا لرذرفورد ، على التمييز من ذلك بما يسمى بنصف العمر (half — life) للعنصر .

نصف العمر هو الزمن اللازم لكي يتحلل نصف عدد الذرات النشيطة فيها يبقى النصف الآخر من العدد بدون تحلل . ويختلف نصف العمر من عنصر إلى آخر بمقدار كبير ( ولكنه لا يتأثر بالعوامل الفيزيائية العادية مثل المجالات الكهربائية ، دوجة الحفوة . . . الخ ) فاليورانيوم له نصف عمر يعادل  $4,51 \times 10^9$  سنة ( أربعة ونصف مليار سنة ) ، بينما الرادون له نصف عمر يعادل ٣,٨٢ يوما ( شكل ٢٠ ) . أي أن انحلال اليورانيوم بطيء جدا عندما يقارن بتحلل الرادون . ولهذا السبب ( العمر الطويل ) استعمل اليورانيوم في تحديد عمر الكرة الأرضية . - حوالي ٤,٥ مليار سنة .



( شكل ٢٠ )

يصل التشكك الإشعاعي لعنصر ما . خلال NO عدد نوى في البداية وعلى أعقاب العمر . عدد النوى الباقية يتخلص بطريقة أسية .

واختلاف أنصاف الأعمار للعناصر المختلفة قد يؤدي إلى تعقيدات كثيرة في الظروف العملية . فلو أخذنا مثلاً حينه من اليورانيوم النقي في البداية ، فإنها ستحتوي بعد فترة زمنية على مزيج من العناصر الناتجة جميعها ، ينسب مختلفة . لكن العناصر الرئيسية الموجودة ستكون العناصر ذات أنصاف الأعمار الطويلة . ويمكن أن يقال الشيء نفسه من الكرة الأرضية ذاتها . ربما اشتملت في البداية على عناصر نووية عديدة لا نشاهدها الآن لأنها تفككت وتبدلت بسبب أعمارها القصيرة .

### ٥ - ٣ : النظائر النووية

شعر الكثيرون من العاملين في مجال الاشعاعات بشيء من الارتباك بالنسبة لكثرة (العناصر) التي كانوا يكتشفونها بواسطة التحلل الاشعاعي . فسليلة اليورانيوم التي ذكرناها تحتوي على عدد من العناصر العديدة الجديدة . هناك كذلك سلاسل أخرى ، كسليلة الثوريوم وسليلة الأكتينيوم ، تحتوي على عناصر جديدة أخرى . لكن العلماء لاحظوا أيضا أن كثيرا من هذه العناصر الجديدة لها خواص مشابهة من الناحية الكيميائية لعناصر أخرى كانت معروفة . بعد التفكير الطويل حول هذا الموضوع للمعد ، اقترح العالم البريطاني «سودي» ، أحد زملاء رذرفورد ، الحل الآتي : إن كثيرا من العناصر الموجودة في الطبيعة ، مثل الرصاص أو اليورانيوم هي مزيج من عدة «نظائر isotopes» لها نفس العدد الذري ولكنها تختلف عن بعضها بأن كتلتها مختلفة قليلا عن بعضها بعضا . الهيليوم مثلا له نظيران مستقران : هيليوم - ٤ وهيليوم - ٣ . كلا النظيرين له نفس العدد الذري (٢) ، والنتيجة لهما نفس الخواص الكيميائية . لكن هيليوم - ٤ له كتلة تساوي (٤) وحدات ذرية في حين أن هيليوم - ٣ له كتلة تساوي (٣) وحدات ذرية من الكتلة . (الوحدة الذرية تساوي كتلة ذرة الهيدروجين تقريبا ، وتستعمل كثيرا في المجال النووي) .

لكن التحقق من اقتراح (سودي) كان أمرا صعبا بالوسائل التقليدية ، وذلك لصعوبة فصل النظائر عن بعضها كيميائيا .

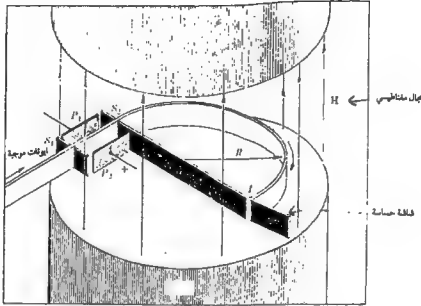
وهنا يبرز علما المشهور ج . ج تومسون مرة أخرى . قام هذا باختراع جهاز لفرض النظائر بطريقة كهربائية (شكل ٢١) يوضع العنصر قيد الدراسة في فرن ساخن ، حيث تخرج أيونات العنصر من نافذة وتدخل في مجال مركب من مجال كهربائي ومجال مغناطيسي معامد «يرشح» الأيونات لتخرج من نافذة ثانية وتدخل في غرفة مفرغة واقعة ضمن مجال مغناطيسي . في هذا المجال تتحرك الأيونات في مدارات دائرية ، حيث يكون نصف القطر متناسبا عكسا مع كتلة الأيون . وبما أن الأيونات لها نفس الشحنة مع اختلاف في الكتلة فإنها تنفرد عن بعضها عند الاصطدام بالصفحة الحساسة . هذا الجهاز يسمى مطياف الكتلة (mass spectrometer) . وقد أيدت النتائج اقتراح سودي بالكامل عن وجود النظائر للعناصر المختلفة .

حصل سودي على جائزة نوبل في الكيمياء لعام ١٩٢٢ ، بالمشاركة مع أستون ، أحد زملاء تومسون الآخرين ، اللذين طورا جهازا لمطياف الكتلي .

كما أن اكتشاف النظائر أعطى تفسيراً لحقيقة كيميائية معروفة . وهي أن (الأوزان الذرية atomic weights) للعناصر ، عندما يعبر عنها بالوحدة الذرية هي أرقام كسرية ، مثلا عنصر النيون وزنه ٢٠,٢ م وحدة وعند دراسته في المطياف تبين وجود نظيرين الأول وزنه (٢٠) وحدة ، والثاني (٢٢) وحدة . ولكنها موجودان بسبب فزارة (abundance) مختلفة وبحيث يكون الوزن المتوسط الموجود عادة في الطبيعة هو (٢٠,٢) وحدة تحتوي عينة طبيعية من النيون على ٩٠٪ من نيون و ١٠٪ من نيون - ٢٢ .



مسيرة النواة على الحبل للشدء بين النظرية والتجربة



(شكل ٢١)

مطابق كلف . تدخل الأيونات إلى المجال المغناطيسي وتحتوي في نصف دائرة . وتترطم الأيونات بشحنة حاملة تسجل كتلة الايون .

وهكذا تبين أن الهيدروجين له نظيران (العادي أو الخفيف والثقيل) ، والأكسجين له ثلاثة نظائر ، واليورانيوم له ثلاثة . . الخ .

#### • • • = البنية النووية = البروتون والنيوترون

من الواضح أن الأشعة الجذبية تأتي من نواة اللرة ( قلب اللرة ) ، إذ إن الجزء الخارجي لللرة يتألف فقط من الكثرونات حادية ، ذات طاقات قليلة ( بالمقارنة مع طاقات الجسيمات الاشعاعية الواقعة في مجال ملايين الالكرون فولط ) ، وذلك حسب نموذج رذرفورد الذي كان معروفا في تلك الفترة ( أنظر جزء ٥ - ٤ - ١ ) . هذه النواة تظهر الآن وكأنها جسم مركب ومعقد ، إذ إنه يستطيع التفكك وإصدار أنواع مختلفة من الجسيمات . والسؤال يبرز عندئذ حول تركيب أو بنية هذه النواة بشكل عام . مم تتألف أو تتكون هذه النواة ؟

أحد مكونات النواة الأساسية هو البروتون (proton) ، وهو نواة ذرة الهيدروجين العادي ( كلمة بروتون تعني الأول في اليونانية ) . هذا الأمر كان واضحا ليس من وجود البروتون في الهيدروجين فقط بل أيضا لأن البروتون قد ظهر في نواتج التصادم النووي في تجربة أجراها رذرفورد في عام ١٩١٩ . فمتدما تصطدم جسيمات ألفا مع النيوترونات ينتج أكسجين ونيوترونات ، أي : نيوترون + جسيم ألفا = أكسجين + بروتون . إذن ، استخلص رذرفورد أن البروتون كان موجودا سابقا في النواتج الداخلية في التفاعل ( نيوترون ) ثم تحرر نتيجة للتصادم . البروتون له شحنة موجبة تعادل شحنة الالكترن وكتلة تساوي كتلة ذرية واحدة تقريبا .

كانت تجربة رذرفورد هذه هي الأولى في تاريخ العلوم التي أمكن بها تحويل عنصر إلى آخر (نيوترون إلى أوكسينج) ، وهو الحلم الذي راود العلماء لآلاف السنين . الطريقة ليست مجدية من الناحية الاقتصادية ، ولكن أحدثت العلمي كان من الدرجة الأولى من الأهمية .

ومع حلول عام ١٩٢١ كان الفيزيائيون قد بنوا نموذجاً نووياً على الشكل التالي : تحتوي النواة على عدد من البروتونات يساوي العدد الذري (ز) أي عدد الإلكترونات المدارية ، ولذلك تكون الذرة الكاملة (نواة + الكترونات) محايدة كهربائياً . لكن كتلة النواة تزيد كثيراً عن مجموع كتلة البروتونات هذه ، بحوالي الضعف تقريباً . ففي نواة هيليوم - ٤ ، يوجد بروتونات في حين أن كتلة النواة تعادل (٤) وحدة تقريباً . فمم تتكون بقية الكتلة ، أي الكتلة غير البروتونية في النواة ، إذن ؟ الجواب المقترح كان أنه توجد بروتونات أخرى كافية في العدد مع عدد مماثل من الإلكترونات (داخل النواة ذاتها) ، لتحقيق كل من شرط الكتلة وشرط التعادل الكهربائي . هذا الاقتراح كان له جاذبيته ، إذ أنه يفسر في نفس الوقت اشعاعات بيتا على أنها إصدارات من هذه الإلكترونات النووية . (كان يظن أيضاً بأن هناك نوعاً من التصاحب بين الإلكترونات النووية وبروتوناتنا ، حتى إنه أطلق على النظام الصغير المؤلف من بروتون والكترون معاً اسم (النيوكليون) .

ظل هذا الاقتراح قائماً لفترة عشر سنوات تقريباً رغم وجود صعوبات نظرية تحول دون وجود الإلكترون داخل النواة . لكن في الفترة ١٩٣٠ - ١٩٣٢ أثبتت تجارب أجراها العالم الإنجليزي جيمس تشادويك والألماني الفرنسيان فريدريك جوليو وارين كوري (ابنة ماري) أن جسيمات ألفا العالية الطاقة ، عندما تصطدم بذرات البيريليوم ، تنتج نوعاً جديداً من الإشعاع الذي يخترق المادة لمسافات طويلة جداً ، وأن هذا الإشعاع له تأثير خاص في تحرير بروتونات الهيدروجين من مادة تحتوي على الهيدروجين مثل شمع البارافين .

وقد فسّر تشادويك الإشعاع الجديد ، بشكل صائب على أنه حزمة من جسيم محايد كهربائياً (شحته صفر) ، مما يفسر قدرته على اختراق البعيد . وكتلة هذا الجسم الذي سمي نيوترون (neutron) قريبة من كتلة البروتون (وحدة ذرية) ، مما يفسر أنه عندما يصطدم بالبروتون الساكن ينقل الأول إلى الثاني كل طاقته الحركية ، فيخرج البروتون بطاقة حركية عالية ، (نقل الطاقة الحركية بهذه الصورة الكاملة يحدث فقط عندما تتساوى الكتلتان تقريباً ، حسب قوانين الميكانيك تماماً كما يحدث بين كرتي البلياردو) وقد استطاع تشادويك قياس كتلة النيوترون بدقة بالطريقة التصادمية ، عن طريق تصادم حزمة من النيوترونات مع غاز من النيوتروجين .

وباكتشاف النيوترون اكتملت البنية النووية تماماً . لنفرض أن ذرة عنصر ما له عدد ذري (ز) وعدد كتل (عك) ، إذن فالنواة تحتوي على عدد من البروتونات يساوي (ز) وعدد من النيوترونات يساوي (عك - ز) و فرق الكتلة النووية الذي تكلمنا عنه سابقاً موجود الآن في النيوترونات . (فالبروتونيم) (عدد ذري ٩٢) العادي يحتوي على نسبة عالية من بروتونيم - ٢٣٨ الذي يحتوي نواته على (٩٢) بروتوناً و (١٤٦) نيوترونات .

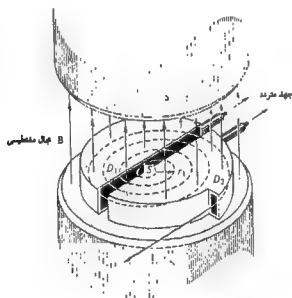
وقد تبين أيضا أن النيوترون الحر (خارج النواة) ليس جسيما مستقرا . إنه يتحلل إلى بروتون والكترون (نيوترون  $\rightarrow$  بروتون + الكترون) ونصف عمر النيوترون الحر هو (١٢) دقيقة تقريبا .

وقد حصل تشادويك على جائزة نوبل عام ١٩٣٥ تقريبا لاكتشافه جسيم النيوترون .

ومع ذلك فإن النيوترون هو جسيم أساسي ، على قدم المساواة مع البروتون ، ولا يمكن اعتبار الأول على أنه جسيم مركب من بروتون والكترون بأي شكل من الأشكال . والذي يحدث خلال عملية تحلل بيتا هو أن بعض النيوترونات داخل النواة تتحلل إلى بروتونات والكترونات ، حيث تخرج الالكترونات في الحال على شكل أشعة بيتا . هذه الالكترونات لم تكن موجودة في الأصل داخل النواة .

### • • • : سرعات الجسيمات

في بداية الثلاثينيات شهد العالم أيضا للمرة الأولى ظهور سرعات (accelerators) الجسيمات . والمهدف وراء هذه الأجهزة هو تسريع الجسيمات الأساسية مثل الالكترونات والبروتونات إلى طاقات عالية جدا (مئات الملايين من الالكترون فولط) ، تم تسديدها نحو النوى (جمع نواة) المختلفة لاحداث تفاعلات نووية مختلفة بالكيفية المناسبة . وأحد أنواع الأجيال الأولى من المسرعات هو السايكلوترون (cyclotron) ، الذي بناه العالم الأمريكي (لورنس) في منتصف الثلاثينيات في جامعة كاليفورنيا - بيركلي (شكل ٢٢) . وفي عام ١٩٣٢ اكتشف العالم الأمريكي أندرسون جسيما جديدا هاما سمي البوزيترون (positron) . والبوزيترون هذا له نفس خواص الالكترون



(شكل ٢٢)

توضيح لتجزئة العمل من مسرع السايكلوترون . جسيم مشحون يدخل عند النقطة B ثم يعود مرارا في مجال مغناطيسي . التسريع يحصل مراراً في كل حلقة بسبب وجود فرق الجهد المتردد .

(كالكثلة والانفداع المسمي وغيرها) سوى أن البوزيترون له شحنة موجبة تعادل شحنة الالكترن السالبة في المقدار. وقد اكتشف أندرسون هذا الجسم كأحد نواتج التفاعل النووي عندما عرض بعض النوى للأشعة الكونية. هذه الأشعة تأتي عادة من الفضاء الخارجي (النجوم والمجرات الواقعة خارج نظامنا الشمسي) وتتألف من بروتونات والكترونات (وجسيمات أخرى) ذات طاقات عالية جدا. وقد رصدت هذه البوزيترونات لاحقا أيضا في بعض التفاعلات المخبرية النووية عندما عرضت بعض النوى لأشعة ألفا عالية الطاقة (الصادرة من البولونيوم المشع).

ويمكن تفسير اتبعات البوزيترون من نواة ما على أنه تحلل مشابه إلى تحلل أشعة بيتا سالفة الذكر، مع الاختلاف التالي. في حالة البوزيترون يتحلل بروتون داخل النواة إلى نيوترون يبقى داخل النواة وبوزيترون ينبعث إلى الخارج في الحال. هذا النوع من الانحلال يحدث فقط داخل النواة، إذ أن البروتون الحر (خارج النواة) هو جسم ثابت مستقر.

### ٥ - ٥ - ٦ الانشطار النووي

وللنظر الآن إلى موضوع الطاقة في التفاعلات النووية، وهو موضوع على غاية الأهمية من الناحيتين العلمية والعملية. لقد كان واضحا للفيزيائيين منذ البداية (حوالي ١٩٠٦) أن الإشعاعات النووية تحتوي على قدر هائل من الطاقة، إذ أن جسم ألفا الصادر عن اليورانيوم مثلا، يحتوي على طاقة حركية تزيد عن (٤) مليون الكترون فولط، أي حوالي  $10^6 \times 1.6 \times 10^{-19}$  جول. وهي طاقة هائلة بالمقارنة مع طاقة الدرات الناتجة عن احتراق الوقود التقليدي. فحرق الفحم بالطريقة العادية يولد حوالي ٥٨ كيلو حريرة للمول الواحد (mole) أي حوالي  $10^6 \times 1.6 \times 10^{-19}$  جول للذرة الواحدة من الفحم. وهكذا فإن الطاقة في التفاعلات النووية هي أكبر من تلك التي في التفاعلات الكيميائية العادية بمليون مرة أو أكثر. من أين تأتي هذه الطاقة النووية الهائلة؟

لقد لاحظ العلماء مبكرا شيئا غريبا آخر في التفاعلات النووية، وهو أن الكتلة غير منحفظة (non conserved) في العادة. فقد تكون الكتلة للنواتج أكبر أو أصغر من الكتلة الداخلة في التفاعل. ففي التفاعل الذي أجراه العلماء كروفت ووالتون: ليثيوم + بروتون  $\rightarrow$  ٢ جسم ألفا، وجد أن الكتلة الكلية تنقص بالمقدار  $0.01862$  وحدة ذرية أي  $3.0872 \times 10^{-3}$  كغ. وكان العلماء متأكدين بأن هذا النقص يمثل ظاهرة حقيقية. وليس خطأ عارضا في الأجهزة القياسية المستخدمة. كانت درجة الدقة عالية جدا في تلك الأجهزة الحديثة.

على كل حال، هذا الخلل في مبدأ حفظ الكتلة لم يكن مزعجا عند اكتشافه. إذ إنه كان متوقعا بالقيل. ويمكن تفسيره بسهولة حسب النظرية النسبية (التي كان قد قدمها أينشتاين، عام ١٩٠٥) والتي تقول، من جملة أمور عديدة (أنظر جزء ٥ - ٦ - ٥)، بتكافؤ الكتلة والطاقة: أي طاقة = كتلة  $\times$  (سرعة الضوء)<sup>٢</sup>. هذه المعادلة الهامة تقول بأنه يمكن في بعض الظروف تحويل الكتلة إلى طاقة والعكس بالعكس. لكن الشيء المهم في المعادلة،

من الناحية العملية ، هو أن سرعة الضوء كبيرة جدا (  $3 \times 10^{10}$  متر/ ثا ) ، لذلك فإن تحويل حتى مقدار صغير من الكتلة يؤدي إلى توليد طاقة كبيرة . ففي تفاعل الليثيوم المذكور أعلاه تولد طاقة مقدارها  $9.01867 \times 10^9$  جول أو  $2.8 \times 10^{10}$  ف. (الالكترون فولت) . ولكن بأي شكل تظهر هذه الطاقة ؟ إنها تظهر على شكل طاقة حركية عالية للناتج ، أي جسيمات ( الفا ) في هذه الحالة .

هذه الطاقة قد تبدو قليلة ، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الكتلة العادية من المادة تحتوي على عدد كبير من النوى ( حوالي  $10^{24}$  ) التي تشترك في العملية ، فإن ذلك يؤدي إلى إنتاج كمية هائلة من الطاقة . فإذا استعملنا أر . كغ من الليثيوم أعلاه ، فإنا نستطيع توليد كمية من الطاقة تكفي لتشغيل محطة كهربائية قدرتها (  $10^6$  ) ميغاواط أو أكثر ، لمدة يوم كامل .. ( يمكن تحويل الطاقة الحركية الناتجة لجسيمات الفا إلى طاقة حرارة بايقاف هذه الجسيمات بواسطة سائل ما . )

لكن الطريقة سالفة الذكر ليست وسيلة عملية لإنتاج الطاقة ، ذلك أن عدد البروتونات التي تؤدي إلى هذا التفاعل ضمن حزمة البروتونات الموجهة نحو عينة الليثيوم قليل ، ولذلك فإن الطاقة الناتجة قد تكون أقل من الطاقة المستهلكة في تكوين الحزمة .

لكن الصورة تغيرت كلياً في عامي ( ١٩٣٨ - ١٩٣٩ ) . في تلك الفترة كان العلمان هان وستراسمان في ألمانيا يجريان تجارب على تصادم نوى اليورانيوم . هذه التجارب كانت في جزء منها امتداداً لتجارب عائلة كان قد أجراها العالم الإيطالي فيرمي وزملاؤه في إيطاليا حوالي عام ١٩٣٤ . وكانت تؤدي إلى ظهور أشياء غريبة ، حل ما يبدو ، حيث تظهر في نواتج التصادم عدة ذرات خفيفة ( أقل من اليورانيوم ) ، وبعضها كان مشعاً ، أي يصدر إشعاعات بيتا . وعلى سبيل المثال كان بعض هذه الذرات الخفيفة باريوم - ١٤١ وكريبتون - ٩٢ وغيرها . وبعد جدل حاد حول الموضوع توضحت الصورة التالية : عندما يصطدم النيوترون بنواة اليورانيوم تتشكل نواة جديدة غير مستقرة . تمتاز هذه النواة بشكل حاد ثم تنقسم ( تنشط ) إلى زوج من النويات المتقاربة في الكتلة ( باريوم وكريبتون ، مثلاً ) . بالإضافة إلى هذه النويات ، تولد بعض النيوترونات الجديدة نتيجة لهذا الانقسام ( ثلاثة نيوترونات في التفاعل سالف الذكر ) . عملية الانقسام هذه سميت بالانشطار النووي ( nuclear fission ) .

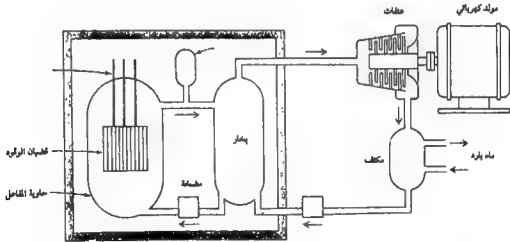
لكن الذي أثار الاهتمام في الموضوع لم يكن العملية نفسها ، إنما حقيقة تولد نيوترونات جديدة في العملية التي نتجت أصلاً من اصطدام نيوترون بذرّة اليورانيوم . فكر الفيزيائيون بالطريقة التالية : النيوترونات الجديدة يمكن أن تصطدم بنوى أخرى من اليورانيوم ، مولدة نيوترونات جديدة أخرى لتصطدم بنوى جديدة ، وهكذا . وهذا هو مبدأ التفاعل النووي التسلسلي ( nuclear chain reaction ) الذي يمكن بواسطته توليد كميات هائلة حقاً من الطاقة ، إذ إن قدرًا كبيراً من الطاقة ينتج في كل تفاعل ، ويمكن للتفاعل أن يستمر بنفسه بعد أن يبدأ .

وقد عمل فريمان علميان في الولايات المتحدة على استئثار هذه الفكرة لتوليد أجهزة نووية لأغراض خاصة . الفريق الأول كان يقوده العالم الإيطالي « إنريكو فيرمي » ( ١٩٠١ - ١٩٥٤ ) .

نشأ فيرمي في إيطاليا ، وبعد أن حصل على شهادة الدكتوراة في بحوث الأشعة السينية درس في عدة جامعات إيطالية وقام بأبحاث في مجالات فيزيائية مختلفة . لكن في منتصف الثلاثينيات تخصص فيرمي وزملاؤه العدليون ( الذين عرفوا باسم مدرسة روما ) في تصادمات النيوترون مع النوى المختلفة . ولكونه حاديا ، فإن النيوترون له مقدرة قوية على التفاعل . إذ لا تميته قوى التنافر الكهربائي مع الشحنات الموجبة لنوى اللرات كما هو الحال مع جسيمات ألفا أو البروتون مثلا وقد اكتشف فيرمي عددا كبيرا من النظائر النووية بواسطة طريقته الخاصة هذه . لقد أصبح « الفارس النيوتروني » في العالم .

وفي عام ١٩٣٨ حصل «فيرمي» على جائزة نوبل ، وهاجر إلى الولايات المتحدة هربا من إيطاليا التي كانت تمصفا بها رياح الفاشية في ذلك الوقت . وفي وطنه الجديد صبب فيرمي جهوده الكاملة ، خصوصا بعد معرفة نتائج هاهن وستراسمان على استخدام التفاعل التسلسلي لبناء مفاعل نووي . وقد نجح في ذلك فعلا في ٢ ديسمبر ١٩٤٥ ، حيث بنى المفاعل النووي الأول في التاريخ قرب ملعب رياضي بجانب جامعة شيكاغو (شكل ٢٣) . لقد وصف آرثر كومبتون ، الفيزيائي الأمريكي المعروف (انظر جزء ٥ - ١ - ٣) هذا الحدث في برقية إلى الحكومة الأمريكية كما يلي : وصل الملاح الإيطالي إلى العالم الجديد (هذا الوصف الرمزي كان بسبب دواعي الحرب العالمية التي كانت مستعرة في ذلك الوقت) .

أما الاستخدام الآخر للتفاعل التسلسلي فقد كان بناء القنبلة الذرية (النووية) ، لقد أنشأت الحكومة الأمريكية عندئذ مشروعا خاصا لهذا الغرض (مشروع مانهاتان) ، بعد وصول أخبار عن اعتزام ألمانيا النازية إنتاج هذا النوع من القنبلة ، معتمدة على تجارب هاهن وستراسمان . مشروع مانهاتن هذا أدى عندئذ إلى إنشاء مركز علمي -



( شكل ٢٣ )

توضيح لصميم المفاعل النووي . الطاقة الناتجة في القلب للمفاعل تسخن تدفقا مائيا يؤدي إلى توليد بخار تسخن بدوره الماء في المبادل الحراري . الماء الساخن يدير توربينات مولدات الطاقة الكهربائية

عسكري ، وهو (مركز لوس الاموس) في ولاية نيوميكسيكو الصحراوية في جنوب غرب الولايات المتحدة ، وقد احتشد في هذا المركز أضخم عدد من العلماء النوويين البارزين برئاسة الفيزيائي الأمريكي الشهير روبرت اوبنهايمر . وقد تمخضت هذه الجهود عن إنتاج هذه القنبلة وتفجيرها للمرة الأولى في صحراء نيوميكسيكو في ١٦ يوليو ١٩٤٥ . ودخلت الأسلحة النووية التاريخ .

#### ٥ - ٥ - ٧ : الاندماج النووي - الطاقة الشمسية - القنبلة الهيدروجينية

الطريقة الأخرى لإنتاج الطاقة من التفاعلات النووية هي في استخدام عملية (الاندماج النووي) (nuclear fusion) . في هذه العملية ، تندمج عدة نوى خفيفة (بروتونات ، مثلاً) لتكوين نواة كبيرة . والنقص في الكتلة في هذا التفاعل يتحول إلى طاقة مفيدة . هذه العملية تحدث بفزارة ، على ما يعتقد ، في المنطقة المركزية من الشمس ، تحت درجة الحرارة والضغط المرتفعين جداً ، ويؤدي إلى إنتاج الطاقة الشمسية الهائلة التي نشاهدتها (حوالي  $3.8 \times 10^{26}$  جول/ثا) .

إن عملية إنتاج الطاقة الشمسية هذه كانت لغزاً علمياً عميقاً منذ منتصف القرن التاسع عشر . منذ ذلك الوقت ، تأكد الفيزيائيون بأنه لا يمكن إنتاج هذه الكمية الهائلة من الطاقة لهذه الفترة الطويلة جيولوجياً (حوالي ٥ مليار سنة) بأية طريقة عادية تقليدية . إن الأمر يحتاج إلى عملية من نوع جديد ، لم تكن معروفة آنذاك .

ولكن في جو النشاط النووي في منتصف الثلاثينيات توصل عدد من الفيزيائيين في الولايات المتحدة (بيت ، هامو وغيرهما) إلى أن عملية الاندماج النووي هي المسؤولة عن توليد الطاقة في الشمس والنجوم الأخرى . التفاعل النووي الرئيسي هو : بروتونات ← جسيم (الفا) . في هذا التفاعل الذي يحصل على مراحل تنقص الكتلة بمقدار  $0.0276$  وحدة ذرية (أي  $0.0276 \times 1.66 \times 10^{-27}$  كغ عند توليد كل جسيم الفا واحدة) .

وهذا يساوي ، حسب معادلة آينشتاين سالفة الذكر ، (٢٥) مليون إلكترون فولط . هذه الطاقة تظهر على شكل أشعة غاما تنطلق من التفاعل وأيضاً على شكل طاقة حركية لجسيمات ألفا الناتجة في التفاعل . نتيجة لهذا الاندماج النووي ، فإن كتلة الشمس في تناقص مستمر لتوليد الطاقة الشمسية ، فهي تتناقص بمعدل (٢، ٤) مليون طن في الثانية أي ما يعادل ١٪ من كتلتها في فترة مليار سنة !

حتى الآن لم يبن أي مفاعل نووي من النوع الاندماجي ، رغم المحاولات والأبحاث المتعددة الجارية في هذا الاتجاه في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . المشاكل الرئيسية التي أعاقحت نجاح هذه التجارب هي أن الأمر يتطلب درجات عالية من الحرارة وحوالي (٢٥ مليون درجة) والضغط ( $2 \times 10^9$  ضغط جوي) والكثافة ( $200 \text{ غ/سم}^3$ ) ، أي مائتا ضعف كثافة الماء . وهي الظروف الموجودة في مركز الشمس تقريباً . ومن الواضح أن توفر هذه الظروف ليس بالأمر السهل ولكن عندما نحل هذه المشاكل ، كما يتوقع كثير من الفيزيائيين المتفائلين ، فإن

كميات هائلة من الطاقة السليمة والأمنة ستكون متوفرة للإنسان بأسعار رخيصة والملايين السنين . البعض يتوقع أن يحدث ذلك قبل منتصف القرن القادم .

وعلى كل حال ففي عام ١٩٥٢ تم بناء أداة تعمل على مبدأ الاندماج النووي وهي القنبلة الهيدروجينية الأمريكية . في هذه القنبلة يتم التفاعل الاندماجي (مثلا) : ٢ ديوتريوم  $\rightarrow$  هيليوم ٣ + بروتون ، مولدا كمية (٤,٠)  $\times 10^{11}$  . ف في التفاعل . ويتم الحصول على الحرارة والضغط العاليين في هذه الأداة بواسطة تفجير قنبلة انشطارية ، تضغط المواد الاشعاعية في قلب القنبلة .

#### ٥ - ٥ - ٨ : القوة النووية :

والآن لابد من الالتفات الى موضوع هام وهو موضوع القوة النووية (nuclear Force) . لقد قلنا إن النواة تتألف فقط من البروتونات ويدهي كل من هذين الجسيمين نيوكليون (nucleon) أي نوية (نواة صغيرة) . وهكذا فالنواة تتألف من عدد ما من النيوكليونات . ولابد أن النيوكليونات تتجاذب مع بعضها لتكوين نواة مترابطة ومستقرة ، كما هو الحال في كثير من النوى . هذه القوة هي نوع جديد من القوى ، غير القوة الكهربائية بين الشحنات أو القوة الثقالية بين الكتل . الى جانب ذلك يجب ان تكون القوة الجديدة قوية وشديدة جدا لدرجة تكفي للتغلب على التنافر الكهربائي الذي يحدث بين البروتونات الموجودة داخل النواة ، في نفس الوقت يجب أن يكون نموذجنا عن القوى النووية قادراً على تفسير ظاهرة الاشعاع النووي التي نشاهدتها كثيرا ، خصوصا في النوى الثقيلة ، وهو ما أدى الى اكتشاف النواة في المقام الأول .

يمكن أن نتخيل القوة النووية كما يلي : لتتخيل بروتونا ونيوترونا وبينهما مسافة ما . ليس هناك قوى بينهما لأن النيوترون محايد (القوة الكهربائية معتمدة) ، ولأن القوة الثقالية صغيرة جدا لدرجة الإهمال . إذا اقترب النيوترون تبقي القوة معتمدة إلى أن يصبح النيوترون على مسافة صغيرة جدا من البروتون (حوالي ١٠ سم) عندئذ تظهر فجأة قوة تجاذب شديدة تربط هذين الجسيمين في «جزء» نووي يدعى الديوتريون (deuteron) . وهو جسيم مستقر ، يمكن أن يبقى مترابطة لفترة طويلة جدا بدون أي تحلل أو انحلال . وبمساعدة فإن البروتون والنيوترون يدوران حول بعضهما ، كما تفعل ذرات الهيدروجين في جزيء الهيدروجين العادية . وطاقة الربط للديوتريون ، أي الطاقة اللازمة لفصل البروتون والنيوترون عن بعضهما ، تبلغ (٢,٢) مليون أ . ف . وهي طاقة كبيرة على مستوى الجسيمات الدقيقة . هكذا نستنتج أن القوة النووية قوة شديدة ولكنها قصيرة المدى (short range) حقا ، فهي لا تلعب دوراً إلا عند المسافات القصيرة .

هذه القوة التجاذبية النووية الثنائية نفسها موجودة أيضا بين نيوترون ونيوترون وآخر وبين بروتون وبروتون آخر . لكن في الحالة الأخيرة (حالة البروتونين) توجد أيضا قوة إضافية أخرى وهي قوة التنافر الكهربائية بسبب وجود الشحنة الموجبة على الجسيمين . إن فرضية وجود نفس القوة النووية الثنائية بين أي زوج من النيوكليونات تبسط معالجة القوى النووية في النوى الكبيرة وهي فرضية مبنية على عدد من الحقائق ، لا مجال لذكرها هنا .

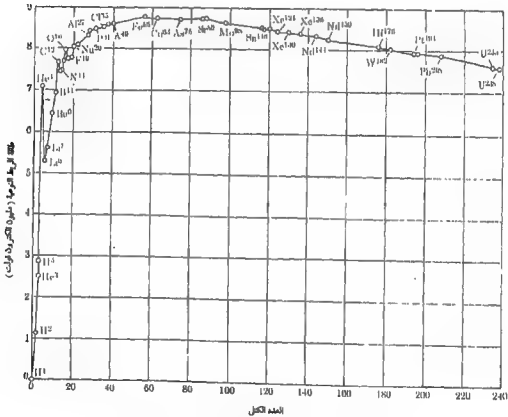


## ٥ - ٥ - ٩ : طاقة الربط النووية :

والآن نستطيع أن نفهم تراكيب النواة بالشكل التالي . في النواة يوجد عدد ما من النيوكليونات التي تتجاذب مع بعضها بعضا عبر القوة النووية الشاذية . في نفس الوقت تتنافر البروتونات مع بعضها ، لكن القوة النووية تتغلب ، وتبقى النواة مستقرة .

وفي مجال استقرار النواة هناك وسيط (parameter) هام جدا يسمى طاقة الربط (binding energy) . هذه الطاقة تعرف بانها الطاقة اللازمة لتفكيك النواة الى نيوكليونات منفصلة . ويمكن حساب هذه الطاقة من الفرق بين كتلة النواة المقاسة وبين مجموع كتلات النيوكليونات الداخلة في تركيب النواة . هذا الفرق في الكتلة ، يدعى نقص الكتلة (mass defect) ، ويمكس فرق الطاقة بين حالة التحرر وحالة الترابط للنواة ، وهي بالضبط طاقة الربط .

وهناك منحنى معروف جدا في الفيزياء النووية ويدعى «منحنى طاقة الربط - Binding energy curve» . في هذا المنحنى ترسم متوسط طاقة الربط للنيوكليون الواحد مقابل العدد الكلي عمك كما في (شكل ٢٤) (متوسط طاقة الربط للنيوكليون هو طاقة الربط الكلية للنواة مقسومة على عدد النيوكليونات في النواة) .



منحنى طاقة الترابط النووية . طاقة الترابط النووية تبلغ ذروتها عند عنصر الحديد .

طاقة الربط (النوعية) هذه هي مؤشر على مدى استقرار هذه النواة ، فكلما كانت هذه كبيرة كانت النواة أكثر استقراراً . نلاحظ من الشكل أن النوى الأكثر استقراراً تقع في المجال الكتلي  $E_k = 50 - 90$  ، وهي تضم المادان المألوفة مثل النحاس (٦٤) والحديد (٥٦) ، إن طاقة الربط النوعية هنا هي حوالي  $(10 \times 8,75)$  . ف للنوكليون . وبالمقارنة فإن هذا الرقم لنواة اليورانيوم (٩٢) (هو  $10 \times 7,61$ ) . ف وللديوتريون هو  $(10 \times 1,12)$  . أ . ف

ولهذا المنحنى مغزى هام جدا . فهو يعني بأن النوى الثقيلة ، حيث (عك) أكثر من ٩٠ ، تميل نحو الانشطار في الظروف المناسبة ، لتتحول بذلك إلى نوى معتدلة مستقرة . وللنوى الخفيفة ، حيث (عك) أقل من (٥٠) ، ميل للاندماج لتتحول هي أيضا إلى نوى معتدلة مستقرة . هذا المنحنى يعمل في طياته كلا من مفهومي الانشطار النووي والاندماج النووي اللذين سبق أن هاجسناهما .

كما يلاحظ من الشكل أن العدد  $E_k = 4$  له استقرار خاص ، كبير في مجاله . وهذا أمر متوقع لأن هذا العدد يمثل بالفعل جسيم اشعاعات (ألفا) . والدليل على استقرار الجسيم الخاص هو أنه يخرج كجسيم واحد (رغم أنه جسيم مركب) ، بدلا من أربعة نوكليونات .

#### ٦ - ٦ : النظرية النسبية الخاصة .

#### ٦ - ٦ - ١ تجربة (مايكسون ومورلي) وسرعة الضوء

نأتي الآن في عرضنا إلى النظرية النسبية (Theory of relativity) . يجب أن نعود إلى الوراء بعض الوقت ، وبالمخصوص إلى بداية هذا القرن . في ذلك الوقت ، وكانت هناك مشكلة مبدئية كبيرة تتعلق بالنظرية الكهرومغناطيسية صوما ، وبالأمواف الكهرومغناطيسية على وجه الخصوص . فالأمواف ، حسب مفهومنا لها تحتاج إلى وسط فيزيائي تتحرك فيه (مثل الأمواف الصوتية التي تتحرك في غاز الهواء) . هذا الوسط المفترض ، للأمواف الكهرومغناطيسية ، سمي الأثير (ether) وعرف بأنه مادة كونية ، مستقرة (غير متحركة) تملأ كل الكون ، وتستطيع أن تنقل الأمواف الكهرومغناطيسية .

لكن هذا الوسط غريب حقا ، إذ لا يمكن مشاهدته مباشرة بأية طريقة ، بينما تستطيع أن تتحرك الجسيمات فيه بكل سهولة ، حيث لا تمنع من أي احتكاك . ولوق ذلك كله ، فإن معادلات ماكسويل (أساس النظرية الكهرومغناطيسية) لا تظهر أي أثر لهذا الوسط الغريب .

وفي عام ١٨٨٧ قام الفيزيائي الأمريكي «ألبرت مايكلسون» (١٨٥٢ - ١٩٣١) بإجراء تجربة هامة وحاسمة وذلك للإجابة على السؤال التالي : إذا استقبلنا الضوء باستعمال كاشف متحرك في الأثير ، فما هي سرعة الضوء بالنسبة لهذا الكاشف المتحرك ؟ لقد قام مايكلسون ومساعداه مورلي بتصميم جهاز حساس ودقيق وبتكر لقياس السرعة النسبية للضوء القادم من الشمس بالنسبة للأرض التي تدور حول الشمس . الضوء هنا يأتي من الشمس

الثابتة في الأثير المستقر ، ويستقبله راصد مثبت على جسم متحرك ، هو الأرض (سرعة الأرض يمكن قياسها بواسطة مفعول دوپلر - أنظر جزء ٤ - ٢ - ٣) .

الجهاز يعرف الآن باسم : مقياس مايكلسون التداخلي . لقد كان مايكلسون ومعظم الفيزيائيين الآخرين يتوقعون عندئذ أن تختلف السرعة التي سيسجلها الجهاز عن سرعة الضوء في الأثير (سر  $= 3 \times 10^8$  م/ثا) ، بسبب حركة الأرض (ما يعرف باسم السرعة النسبية) . لكن لدهشته (وخيبة أمله) ، وجد أن السرعة المسجلة هي تماماً نفس السرعة في الإثير . كان الشعور العام أن النتيجة كانت سلبية ، (فاشلة) إلى حد ما ، رغم الجهود الكبيرة التي بذلت في تنفيذها . ولكن هذه النظرة إلى التجربة تغيرت كثيراً ، عندما بينَ أينشتاين بأن نتيجة مايكلسون السلبية صحيحة وتطوحي على مغزى في غاية الأهمية .

ولد مايكلسون في ألمانيا ، ثم هاجر أمريكا خلال طفولته . درس في الأكاديمية البحرية الأمريكية ثم في جامعات برلين ، هايدلبرغ ، وباريس . قام بالتدريس بعد ذلك في بعض الجامعات الأمريكية ، ثم أخيراً في جامعة (شيكاغو) لفترة تقرب من أربعين عاماً . وقد قضى مايكلسون معظم حياته العلمية في مجال قياس سرعة الضوء بدقة كبيرة . وحصل على جائزة نوبل ١٩٠٧ من أجل أجهزته البصرية الدقيقة والبحوث الطيفية والقياسات التي أجراها بواسطتها . لقد وصفه أينشتاين بالفنان في الملموم وقال عنه أيضاً : «تمتعة الكبيرة تأتي من مجال التجربة ذاتها ، ومن أنافة الطريقة المستخلصة فيها» . وقالت عنه لجنة نوبل عند تسليمه الجائزة : «إنه الرجل الذي علم العالم طريقة القياس» .

#### ٥ - ٦ - ٢ - فرضيات النظرية النسبية

هذا الارتباك العام حول سرعة الضوء والأثير والمفاهيم المتعلقة بها انتهت فجأة في عام (١٩٠٥) عندما نشر عالم العصر العظيم الألماني المولد ألبرت أينشتاين (١٨٧٩ - ١٩٥٥) نظريته الشهيرة المعروفة باسم . ونظرية النسبية كان عنوان النشرة العلمية «عن الديناميك الكهربائي للأجسام المتحركة» ، درس أينشتاين في سويسرا وحصل على الدكتوراة في المعهد التكنولوجي السويسري في زوريخ في عام ١٩٠٦ . وفي (١٩٠٢ - ١٩٠٩) عمل كخاص في مجال براءات الاختراع في دائرة البريد السويسرية . وفي عام ١٩١٣ ، بعد بروزه في علم الفيزياء عُيِّنَ استناداً للفيزياء النظرية في معهد القيصر وليمييم في برلين ، حيث حصل في عام ١٩٢١ على جائزة نوبل (عن عمله في التأثير الكهروضوئي) (انظر جزء ٥ - ١ - ٣) . وفي عام ١٩٣٢ هاجر إلى معهد الدراسات العالية في برنستون في الولايات المتحدة ، حيث عمل بقية حياته في ظروف هادئة وشبه انعزالية .

النظرية التي قدمها أينشتاين في نشرته تعتمد على الفرضيتين التاليتين :

- ١ - إن القوانين الفيزيائية تحفظ بصيغة ثابتة (invariant) في جميع الإطارات المرجعية (frames of references) القصورية (inertial) أي التي تختلف عن بعضها بسرعات ثابتة .

٢- إن سرعة الضوء في الفراغ لها قيمة ثابتة (ومطلقة) بالنسبة لجميع الراصدين (observers) كما أن سرعة الضوء لا تعتمد على حركة أو سرعة المصدر الذي يبعث هذا الضوء .

هاتان الفرضيتان قد تبدوان مقبولتين لأول وهلة ، بدون إثارة جوانب جدلية كثيرة ، لكنها تحمّلان في طياتها معاني عميقة ومفاهيم جدلية كثيرة عند التحليل والتعمق في التفاصيل . فالفرضية الأولى قضت بشكل نهائي حل مفهوم الإطار الأساسي (الأثير) . إن كل الأطارات القصورية متساوية في وضعها الفيزيائي . فالإطار الذي يستعمله راصد في المختبر مثلاً (الأطار الثابت بالنسبة لنا) يتساوى تماماً مع الإطار الذي يستعمله راصد آخر موجود على قطار متحرك بسرعة ثابتة نسبة إلى المختبر . إن قوانين الفيزياء لا تميز بين الإطارين بتاتا . ومعنى آخر ، لو كان القطار بدون نوافذ يستطيع أن ينظر منها الراصد ، وأجرى هذا تجارب فيزيائية داخل قطاره ، لما استطاع أن يعرف أن القطار (إطاره) يتحرك أم لا . إذن يستلخص أينشتاين ، أن الحركة المطلقة ليس لها معنى في الفيزياء ، كما أن الإطار المطلق الثابت ليس له معنى بتاتا . ليس هناك أثير (الوسط المطلق) . ثم إن الأمواج الكهرومغناطيسية تنطلق في الفراغ وليس هناك حاجة لوجود أثير ينقلها . هذا التفسير كان متفقاً تماماً مع روح معادلات ماكسويل وأمواجهها الكهرومغناطيسية .

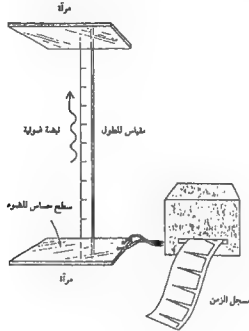
أما الفرضية الثانية وهي ثبات سرعة الضوء فهي غريبة حقاً ، لأنها تتعارض مع مفاهيم الميكانيك حول انتشار الأمواج في الأوساط الميكانيكية ، مثل الصوت في الهواء ، ففي هذه الأوساط ، تمتد سرعة الموجة على حركة المصدر وحل حركة الراصد أيضاً بشكل معروف يمكن اشتقاقه من قوانين (نيوتن) الميكانيكية . فرضية أينشتاين الثانية تقول بأن هذا لا ينطبق على الأمواج الكهرومغناطيسية (الضوئية) وانتشارها في الفراغ . والسبب وراء الفرضية هو تجربة مايكلسون - مورلي التي أظهرت ثبات سرعة الضوء . والسبب الأهم من ذلك ، بالنسبة لأينشتاين ، وهو أن معادلات ماكسويل توصي بشدة على ثبات سرعة الضوء والأمواج الكهرومغناطيسية في جميع الأطارات .

الخلاصة ، فإن فرضيتي أينشتاين قد حققنا الأمور التالية : إزالة مفهوم الأثير المحير ، تفسير نتيجة تجربة (مايكلسون - مورلي) السلبية عن سرعة الضوء ، تدعيم مركز معادلات ماكسويل الكهرومغناطيسية على أنها معادلات أساسية . هذه أمور كانت تشغل بال الفيزيائيين في تلك الفترة .

٥ - ٦ - ٣ - محمد الزمن

لكن الثمن الذي دفع مقابل ذلك كان تغييراً جذرياً في بعض المفاهيم الفيزيائية الأساسية جداً مثل مفهوم الزمن المطلق ، والطول المطلق ، وحفظ الكتلة وغيرها . لتلقت الآن إلى بعض من هذه التطورات . لنأخذ أولاً قضية الزمن والقياس الزمني . إن قياس الزمن بطريقة مقننة بواسطة فيزيائية يمكن أن يتم بالطريقة المبينة في شكل (٢٥) : الراصد (ب) لديه مرآتان متوازيتان على بعد (طول) من بعضهما ، ولديه مصدر للضوء . يرسل الراصد إشارة ضوئية عمودية على المرآتين ، تنعكس الإشارة على المرآة العليا ، تنعكس على المرآة الدنيا وتنعكس منها نحو

المعيا ، وهكذا . . . . الراصد (ب) تسجل ساعته وحلدة زمنية في كل مرة تنعكس الإشارة من المرأة الدنيا . أما الزمن الذي تستغرقه الإشارة بين الإرتطامين فهو المسافة الكلية المقطوعة (٢ طل) مقسوما على سرعة الإشارة (سض) ، أي  $z = 2 \text{ طل} / \text{سض}$  . هذه هي الفترة الزمنية التي تسجلها ساعة الراصد بين الحادئين (events) أي انعكاسين متوالين للإشارة الضوئية عن المرأة الدنيا .

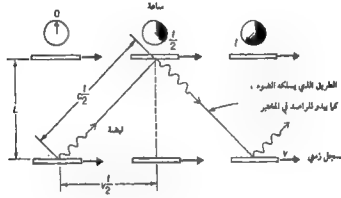


(شكل ٢٥)

جهاز بسيط لقياس الزمن من قبل راصد ثابت بقسمة للجهاز .

لننظر الآن الى هذه التجربة البسيطة من إطار مرجعي آخر . لنفرض أن الراصد (ر) كان في الواقع يجري تجهيزه في قطار متحرك سرعته (س) وهو يحتوي على كل الأجهزة التي يحتاج إليها : المرايا ، الساعات ، مقياس الأطوال ، وغيرها . في إطاره ، سيجد هذا الراصد نفس النتائج التي ذكرناها سابقا . ولو افترضنا الآن أن راصدا آخر (راصد ر) موجود في مختبر يقع بجانب سكة القطار ، وأن هذا الراصد يستطيع مشاهدة التجربة التي يجريها راصد القطار . لنفرض الآن أن الراصد (ر) أثاره الفضول وأراد أن يقيس الفترة الزمنية بين الإرتطامين ، وهي الفترة التي كان يقيسها (ر) . فإذا سيجد (ر) ؟ بداية ، يجب أن يكون واضحا بأن التجربة بالنسبة الى (ر) ستظهر كما هو مبين في (شكل ٢٦) . خلال الفترة التي يلعب فيها الضوء من المرأة (١م) ، تكون المرأة (٢م) قد تحركت (المرايا موجودة في القطار) ، هكذا يقطع الضوء خطا مستقيما كما هو مبين في يسار شكل (ب) . وحين العودة من (٢م) إلى (١م) تكون (١م) قد تحركت مرة أخرى ، فيأخذ الضوء خطا مستقيما مائلا ، كما هو مبين الى يمين الشكل ب . يحسب الراصد (ر) الفترة الزمنية الملتفضية كالتالي :  $z = \text{مسافة} / \text{سض}$  . فالمسافة هي مجموع الضلعين

(الرحلة الكاملة) ، أما متى فهي نفس السرعة التي استعملها الراصد في إطاره حسب آينشتاين . عندما يتم الحساب بواسطة احتمال بعض العلاقات الهندسية البسيطة ، يحصل المرء على النتيجة التالية :  $z = \frac{1}{\sqrt{1-v^2}}$  . هكذا نحصل على النتيجة المدهشة جدا ، أي أن (ز) لا تساوي (ز) وأن الزمن هونسي يعتمد على الراصد الذي يقيسه وبالتالي (ز) هي أكبر من (ز) . تسمى هذه الظاهرة ب (تمدد الزمن = Time dilation) أي أن الراصد (ز) يجد الفترة الزمنية بين الحادتين (الأرتطلين المتتاليين) أكثر طولاً . ويقال أيضا بأن الساعة للراصد (د) تجري بصورة أسرع من ساعة الراصد (ز) .



(شكل ٢٦)

الصورة السليمة (تجري في إطار متحرك) ، كما يبدو لراصد ثابت .

قبل آينشتاين ، ومنذ زمن نيوتن ، كان الفيزيائيون يعتقدون بوجود زمن كوني مطلق (absolute time) يمر بمعدل ثابت ويغطي جميع أنحاء الكون . وعلى وجه الخصوص ، فإن الفترة الزمنية بين أي حادتين هي مقدار ثابت ، مثلا ؛ ثانية بغض النظر عن الراصد الذي يجري القياس . أما آينشتاين فقد قال بأنه ليس هناك زمن مطلق بئنا ، وأن الفترة الزمنية بين حادتين تعتمد على الراصد الذي يجري القياس . هذه النتيجة الغريبة هي نتيجة نابعة منطقيا من ثبات سرعة الضوء .

وإذا تسامنا أي الرقمن صحيح ، (ز) أو (ز) فالجواب هو أن كليهما صحيح ، بالنسبة لإطاره . لكن الزمن (ز) أصح نوعا ما لأنه ، في إطار هذا الراصد (القطار) ، تبقى المرأة م المستعملة في القياس ثابتة في مكانها خلال القياس . ويقول آخر ، فإن الساعة الواقعة بجانب (ز) هي ذاتها التي استعملت لقراءة بداية الفترة الزمنية ونهايتها . هذا الراصد يدهى بالراصد المناسب (proper observer) والفترة الزمنية (ز) التي يقيسها تدهى (الزمن المناسب - proper time) . بالمقارنة ، فإن (الراصد د) ليس (مناسبا) لأن المرأة الحرجة (ز) تتحرك بالنسبة له ، وعليه في الواقع أن يقرأ بداية الفترة ونهايتها على ساعتين مختلفتين .

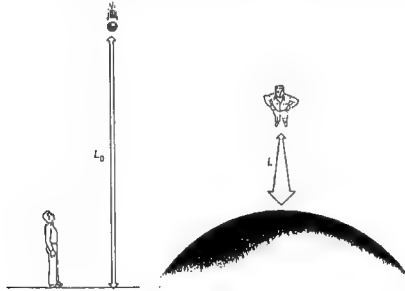
إن اختيار ظاهرة التمدد الزمني بشكل مباشر هو أمر صعب ، لأن (ز) و (ز) متقاربان جدا ، إلا عندما تكون السرعة (سر) قريبة جدا من سرعة الضوء نفسها ( $3 \times 10^{10}$  م/ثا) ، وهو أمر صعب التحقيق . ففي معظم الظروف

مسجة الميزون على الجبل المتعدد بين النظرية والتجربة

الواقعية تكون (سر) أصغر من ذلك بكثير . لكن الاختبار قد تم فعلا بالطريقة التالية : نتيجة لتصادم الأشعة الكونية مع نوى الغازات في طبقات الجو العليا ، يتولد جسيم موجب الشحنة يدعى (الميزون  $\mu$  - meson) تبلغ كتلته (٢٠٧) ضعفا من كتلة الإلكترون ، وليس مستقرا ، بل يتفكك أو يتحلل الى بوزيترون خلال فترة زمنية متوسطها هو  $2.6 \times 10^{-13}$  ثا تقريبا . هذا هو العمر الوسطى ، من الولادة الى الانحلال لهذا الميزون . لكن هذا هو العمر الوسطى (ز) المناسب (في الاطار المناسب) ، أي الإطار الذي يسير مع الميزون . هذا الميزون يسقط على الأرض بسرعة عالية جدا . تقارب  $(2.994 \times 10^8 \text{ م / ثانية})$  ، أي حوالي  $0.998 \times c$  ، إن عمر هذا الميزون بالنسبة للراصد المخبري على الأرض هو  $z = \frac{1}{\sqrt{1 - (v/c)^2}} = \frac{1}{\sqrt{1 - (0.998)^2}} = 10.998 \times 32 = 352 \times 10^8 \text{ ثا} = 3.52 \times 10^8 \text{ ثا}$  . في هذا الإطار الأرضي يكون عمر الميزون (١٦) ضعفا من عمره الذاتي (المناسب) . هذه النتيجة كانت متفقة تماما مع التجارب المعديدة التي أجريت حول هذا الموضوع (وتتعلق بالمسافة التي يقطعها الميزون بين ولادته واندثاره) .

#### ٥ - ٦ - ٤ : تقلص الطول

نأتي الآن الى مفهوم آخر أثار كثيرا من الجدل في حينه ، ألا وهو نسبية الطول . لو اعتبرنا قفصيا ما ذو طول معين (ظل) فإن الاعتقاد السائد قبل أينشتاين كان يقول بأن هذا الطول هو مقدار ثابت ، لا يعتمد على الراصد الذي يقيسه . لكننا سنرى الآن أن هذا غير صحيح في نسبية أينشتاين . الطول هو نسبي أيضا . نستطيع أن نرى ذلك من قصة الميزون (ميو) سالف الذكر . لتتابع رحلة الميزون منذ ولادته الى نهايته (شكل ٢٧) . بالنسبة للراصد (ر) على الأرض ، فإن الميزون يسير بسرعة (سر) نحو الأسفل ويقطع مسافة معينة وهي : ظل = ظل = سر  $\times$  ز ،



(شكل ٢٧)

مخطط تقلص الطول النسبي . الطول الثابت (على اليسار) ويبدو منقلبا ، بالنسبة للراصد المتحرك (الميزون) .

حيث (ز) هو الزمّث الأرضي بين الولادة والنهاية . أما بالنسبة للمراصد الميزوني ، فإن الميزون نفسه ثابت لا يتحرك والأرض هي التي تسير بسرعة (سر) نحو الأعلى . الطول ظل الذي قطعه الراصد (ر) كما يراه الراصد (ز) هو  $\text{ظل} = \text{سر} \times \text{ز}$  . من العلاقتين حول (ظل) و (طل) والعلاقة بين (ر) و (ز) المذكورة سابقا نستنتج العلاقة التالية :  $\text{ظل} = \sqrt{1 - \frac{\text{سر}^2}{\text{سر}^2}}$  . وهكذا فإن الطول ليس ثابتا ، وإنما يعتمد على الراصد وسرعته . في هذه الحالة ، الطول المناسب (proper length) . هو ظل ، لأن الطول المشار إليه لا يتحرك بالنسبة للإطار الأرضي . أما الطول (ظل) ، فهو غير مناسب ، لأن الطول أو القضيبي متحرك بالنسبة لهذا الراصد . نرى من المعادلة أن (ظل) أصغر من (طل) مما يسمى بظاهرة (تقلص الطول Length Contraction) . وهكذا فإن قضيبا متحركاً بسرعة عالية ، يبدو متقلصاً جداً بالنسبة لراصد ثابت . إن ظاهرة التقلص الطولي لم تختبر مباشرة بعد ، وذلك لصعوبة إجراء التجربة تحت ظروف السرعة العالية .

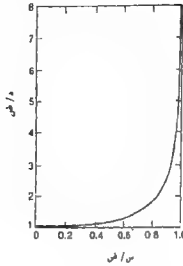
### ٥ - ٦ - ٥ = تكافؤ الكتلة والطاقة

هناك نتائج واستخلاصات نسبية عديدة أخرى يمكن التوصل إليها إذا تابنا هذا الخط التحليلي . مثلاً ، فرضية أينشتاين الأولى تقول بأن قوانين الفيزياء يجب أن تبقى صحيحة في جميع الأطارات القصورية (ذات السرعة المنتظمة) ومن أهم هذه القوانين قانون حفظ الإندفاع وقانون حفظ الطاقة . إذا اعتبرنا الآن تجربة تصادم بين كرتين ، فإننا نجد أن هذين القانونين لا يتحققان إلا إذا افترضنا أن الكتلة والطاقة (لجسيم ما) يعتمدان على السرعة بالشكل التالي :

$$\begin{aligned} \text{الكتلة : } & \text{ك} = \frac{\text{ك}^0}{\sqrt{1 - \frac{\text{سر}^2}{\text{سر}^2}}} \\ \text{الطاقة : } & \text{طا} = \text{ك} \cdot \text{سر} = \frac{\text{ك}^0 \cdot \text{سر}}{\sqrt{1 - \frac{\text{سر}^2}{\text{سر}^2}}} \end{aligned}$$

بالنسبة للكتلة فإن ك<sup>٠</sup> تمثل كتلة السكون (rest mass) للجسيم وك تمثل كتلة الجسيم المتحرك بالسرعة (سر) . نرى من العلاقة أن الكتلة تزداد مع تزايد (سر) هذه نتيجة غريبة حقاً ، إذ أن الاعتقاد السائد منذ نيوتن حتى أينشتاين كان يقول بأن الكتلة لجسم أو جسيم هي كمية ثابتة غنصه بالجسيم ، وتمثل كمية المادة الموجودة في الجسم . الآن نرى أن هذا غير صحيح ، وأنها تعتمد على حركة هذا الجسيم أيضاً . الكتلة هي نسبة أيضاً هذه العلاقة بين الكتلة والسرعة ثم اختبارها بشكل دقيق ، كما هو مبين في الشكل (٢٨) . أما علاقة الطاقة فهي أكثر غرابة . قبل أينشتاين ، كان معروفاً أن الجزء من الطاقة الذي يعتمد على حركة الجسم هو الطاقة الحركية ، حيث  $\text{طا} = \frac{1}{2} \text{ك} \cdot \text{سر}^2$  . أما العلاقة بين الطاقة والسرعة في النظرية النسبية فقد أصبحت أكثر تعقيداً . وبصورة خاصة نرى أن الجسم الساكن (سر = ٠) يحتوي على طاقة مقدارها طا<sup>٠</sup> = ك<sup>٠</sup> (سفن) . وتدعى هذه الطاقة الساكنة (rest energy) ، وتعني أن هناك تكافؤاً بين الكتلة والطاقة ، حيث يمكن تحويل الواحد إلى الآخر . هذه الطاقة كبيرة جداً جداً ، وذلك بسبب سرعة الضوء العالية . فالطاقة الساكنة الموجودة في كيلوغرام واحد تساوي  $1 \times 10^{10} = 10^1$  جول ، وهي طاقة كافية لتشغيل محطة بقدرة (١٠) ميغاوات لفترة ثلاثين سنة تقريباً .





(شكل ٦٨)

زيادة الكتلة مع السرعة .

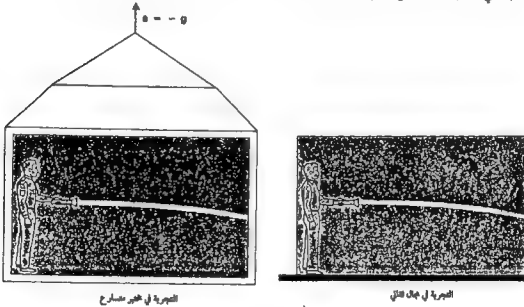
وقد ثبتت صحة هذه العلاقة عن التكافؤ بين الكتلة والطاقة في مجال التفاعلات النووية بما فيها عمليات الانشطار النووية والاندماج النووي ، كما رأينا سابقاً (أنظر جزء ٥ - ٥ - ٦ وجزء ٥ - ٥ - ٧) .

كما نرى من العلاقات المتعددة التي وردت فيما سبق فأت سرعة الضوء تلعب دوراً أساسياً في جميع المفاهيم الأساسية عن الزمن ، والطول ، والطاقة . . . . . الخ . كما أنه من الواضح ، أن هذه السرعة مضى تشكل حداً أعلى لـ سرعة الجسيمات . فلا يمكن أن تصل سرعة إلى (مضى) ، لأن ذلك سيعني أن كتلة الجسم ك وطاقته طاً تصبح لا نهائية . إن السرعة يمكن أن تقترب من (مضى) لأي درجة مطلوبة ، ولكنها لا يمكن أن تساويها تماماً ناهيك عن تجاوزها . لماذا هذا الدور الخاص لـ سرعة الضوء ؟ الجواب على ذلك غير معروف الآن ، ولكن من المؤكد أن الأمواج الكهرومغناطيسية (الضوء) التي يمكنها أن تنتشر في الفراغ لها مكانتها الخاصة في هذه الطبيعة .

كما سبق نرى أن نظرية النسبية أدخلت تعديلات جذرية في المفاهيم الأساسية للميكانيك ، لكنها لم تغير كثيراً في الكهرومغناطيسية ومعادلات (ماكسويل) ، والسبب في ذلك أن معادلات ماكسويل هذه تتعلق أساساً بالمجالات الكهرومغناطيسية أو الفوتونات التي تنتشر نفسها بسرعة الضوء . إذن هذا الجسم (الفوتون) هو جسم نسبي في الأساس ، ولا يمكن وصفه إلا باستخدام معادلات مخترى في داخلها على مفهوم النسبية ، أما في حالة الأجسام التي تسير بسرعات منخفضة (نسبة إلى سرعة الضوء) فإنه يمكن إهمال المفعول النسبي تماماً . لذلك فإن قوانين نيوتن بقيت صالحة ومستعملة ، لفترة طويلة ، ولم يظهر أي قصور فيها يشكك في مصداقية هذه القوانين . إنها صالحة ومستعملة كقريب ممتاز في مجالات السرعات العادية ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، أما عندما ندخل عالم السرعات الفائية - الأشعة الكونية ، الجسيمات الصادرة من المرعات العالية ، . . . . . الخ ، فإن قوانين نيوتن تكون قاصرة ، وليس هناك بدليل عن استعمال النظرية النسبية .

## ٥ - ٦ - ٦ : النظرية النسبية العامة - الثقوب السوداء

في عام ١٩١٥ قدم آينشتاين ما سمي بالنظرية النسبية العامة (General theory of relativity) وقد ضمن في هذه النظرية الإطارات المرجعية المتسارعة ، مما يعني تعميم نظريته السابقة (الخاصة) التي اقتصرَت على الإطارات ذات السرعات الثابتة . لا نود أن نخوض هنا في هذه النظرية المعقدة المثيرة للاهتمام لكننا نورد بعض نتائجها (الواضحة) من منطق الحس العادي ، النظرية العامة تعتمد على عدد من الفرضيات الجديدة ، ومنها ما يدعى (مبدأ التكافؤ equivalence principle) ، وهو يعني هنا التكافؤ بين الثقالة والحركة المتسارعة . إذا تخيلنا راصداً موجوداً ضمن مصعد في الفضاء الخارجي وبعيداً عن أي نوع من الثقالة ، حيث يتسارع هذا المصعد نحو الأعلى مبتعداً عن الأرض يتسارع مقداره (تبع) أي تسارع الجاذبية الأرضية (٨,٩ متر / ثا<sup>٢</sup>) . والآن يجري هذا الراصد التجارب الفيزيائية المختلفة ضمن المصعد المتسارع (شكل ٢٩) ماذا سيستخلص هذا الراصد ؟ ان هذا الراصد ، الذي لا يعرف بأنه متسارع ويفترض أنه في إطار ساكن سيستخلص من التجارب الفيزيائية المختلفة التي يمكن أن يجريها ، مثلاً حركة النواس ، أن هناك جاذبية أرضية بمقدار (تبع) لأن التجارب تعطي نتائج مطابقة لتلك في مجال الجاذبية . هذه هي الفرضية بصورة عامة . هذه نتيجة هامة جداً ولها نتائج عمدة جداً . وقد طبقها آينشتاين . بالشكل التالي . إذا افترضنا شعاعاً ضوئياً (يسير أفقياً في البداية في الإطارات المتسارع ، فإن هذا الشعاع سينحرف أو ينحني تدريجياً نحو الأسفل بسبب حركة الإطارات . إذن ، قال آينشتاين ، فإن الشعاع المار بقرب كتلة كبيرة يجب أن ينحرف أيضاً نحو الكتلة (بسبب الجاذبية المكافئة للتسارع) . ولقد ثبت صحة هذا التنبؤ في عام ١٩١٩ عندما وجد أن الشعاع الضوئي القادم من نجوم بعيدة ماراً قريباً من الشمس ينحرف فعلاً نحو الشمس بالزاوية (زاوية صغيرة جداً) التي حسبها «آينشتاين» تقريباً .



(شكل ٢٩)

توضيح لهذا التكافؤ : التحرف الضوئي في المجال الثقالي ( اليسار ) مكافئ تماماً مع التحرف في إطار متسارع ( اليمين )

ومن التطبيقات المصيرة محفزة نسبة المعنى في مجال التصويب بين الصور ولكنه يقع موضوع مثير حق وهو موضوع القرب السود (black room) عندما تكون كتلة م كبيرة جد (أمر من عشرة كتلات شمسية مثلا) من الكتلة تتلقى تدريجي ويستمرر حمل التصويب الفيزيائي الذي ، يد أن يصبح حجمه صغر في الهيئة لتوصيرا مدحا صوئيا مطلقا من هذه الكتلة نتيجة الإشعاع الخارج عن إحدى النصفين المدرة مثلا ، قد فضاء يحرف ويعد ثابة إلى الكتلة فيها ومن ثم قد هذه الكتلة لا يمكن رؤيتها بالطريقة البصرية المباشرة وبالتالي تظهر سوداء اللون - أي أنها تلب أسود ينتج كل الأحكام والإشعاعات الساقطة عليه

ومن الأخير بالذكر أن القرب السوداء كان قد نأى بها (الانلاس) صد حوالي (٢٠٠٠) سنة (١٣) ، عندما قال دى سما مصيلا ، كتلة الأرض وتطارد بعد (٢٥٠٠) مرة قطر الشمس ، سوف لا يسمح في النتيجة لأشعته أن تصل إليها . وهكذا من الممكن أن تكون الأحكام المصيبة الصحيحة في الكون غير مرئية ، لهذا السبب وهذا يتبين للعرض ، حيث كان يمكن أن يبدأ

### ٦- واقع الفيزياء اليوم

هذا الجزء من عرض يتناول عدد من المواضيع الحديثة في الفيزياء - وسب صيغ المجال هنا ، قد هذا العرض تقديم مختصر لهذه المواضيع الحديثة ، والتي تأمل أن يتابع بعضها شيئا من التعصيل في مسابقت الأخرى .

تحدثت أولا عن الحريات ، وهي الكتل المكونة من ذرات أو أكثر ، ومن الروابط المختلفة الموجودة والفاعلة في هذه الحريات ، والتي تنص وجود واستقرار هذه الكتل - بعد ذلك تنقل إلى الجوامد ، للؤلقة من أعداد هائلة من الذرات - وبواسطة الترابط في هذه الأحكام ، بعد من الروابط الجزيئية هنا أيضا ، إضافة إلى رابطة جديدة تلمد دورا هاما في ترابط الجزيئات ثم تنقل إلى نظرية (حرم الطاقة) في الجوامد ، وهو الموضوع الذي يتابع الحاضر حل له وحزي ، واحد وصحى ، ويدرس حركة الإلكترونات ضمن هذا الحاضر . وتستطيع هذه النظرية تقديم شرح مفصل وتفسير لجميع الخواص الباقية للحاضر ، مثل الباقية الكهربائية . ثم تنطلق أخيرا إلى موضوع الحسبات الأساسية ، وهو الموضوع الذي يحول الوصول إلى حقيقة الحسبات الدقيقة والأولية في الكون . وعلى هذا الموضوع لتبر حدود وأطراف المعرفة الفيزيائية والعلمية في الوقت الحاضر ، وستكون نتائجه ذات فوائد كبيرة ليس في مجال الفيزياء فحسب بل أيضا في مجال الفيزياء الفلكية . هذا ويجود الإشارة إلى أن جميع هذه المواضيع ، التي تعطينا أفكارا عميقا للغاية على المستوى الدقيق ، تعتمد بشكل مباشر على ميكانيك الكم .

### ٦-١ الفيزياء الجزيئية

لا توجد الذرات في العادة في حالة تحررية ، وإنما على شكل مجموعات من الذرات تدعى الجزيئات . والجزيء هو مجموعة من الذرات التي ترتبط مع بعضها بعضا لتكون جسيما واحدا له هوية مستقلة إلى حد بعيد . قد تكون الذرات متشابهة أو مختلفة ، ولكن الأمر المهم للمجموعة ، مما يوفر لها الاستقرار المطلوب .

وقبل أن نبدأ باستعراض الروابط الجزيئية المختلفة ، مستعرض باختصار لجزيء الهيدروجين والرابطة الموجودة فيه . هذه الرابطة ، كما سنرى قريباً ، تشكل نموذجاً لحدى الروابط الرئيسية في الجزيئات . يتألف جزيء الهيدروجين من ذرتين من الهيدروجين ، ويشار له بالرمز اللاتيني المعروف H ولكن كيف يحصل الترابط بين الذرتين الهيدروجينيتين ؟ في الجزيء المستقر ، يكون متوسط المسافة بين البروتونين اللذين يشكلان مركزي الذرتين  $7.4 \times 10^{-10}$  سم ، وهي مسافة قصيرة جداً بالطبع . وعند هذه المسافة ، يتنافر البروتونان بقوة كبيرة ، وذلك بسبب الشحنة الموجبة الموجودة على كل منهما . هذه القوة التنافرية تعمل على تباعد البروتونين عن بعضهما ومن ثم على تفكيك الجزيء . لكن الإلكترونات الموجودة يعملان على تعديل هذا التبعاد ، وفي النتيجة على ترابط الجزيء . ويتم ذلك بأن ينتشر (يتوزع) كل من الإلكترونين في المنطقة على الخط الواصل بين البروتونين (شكل ٣٠) . وبما أن الإلكترون يعمل شحنة سالبة ، فإن هذه الشحنة تعمل على تعديل الشحنة الموجبة الموجودة على كل من البروتونين ، ومن ثم على حجب (Screening) كل بروتون عن الآخر . ويمكن تمثيل كل من الإلكترونين كإلكترون ثالث مثلاً ، إلى المنطقة سيجعل اثنين من الإلكترونات الثلاثة يملكان نفس اللف ، مما يعني خرق مبدأ الاستبعاد . هكذا فإن رابطة الهيدروجين هذه تتمتع بخاصية التشبع (saturation) ، أي أنها تقبل إلكترونات واحداً أو اثنين كحد أقصى ، حيث يحصل فيها تشبع تام .

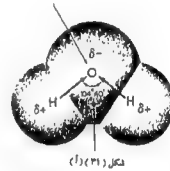
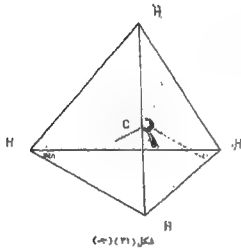


(شكل ٣٠)  
الرابطة الجزيئية (للجزيء الهيدروجيني) . الشحنة الموجبة لكل بروتون الشحنة السالبة للإلكترونات في حالة الذرتين المتجانستين (أعلى) وفي حالة الجزيء الهيدروجيني (أسفل) .

ويمكن القول بأن ميكانيك الكم هي التي تمنحنا الطريقة المناسبة لمعالجة جزيء الهيدروجين بشكل كامل . إذ نستطيع أن نكتب معادلة شرودينغر (جزء ٥ - ٤) لهذا النظام الجزيئي المؤلف من بروتونين وإلكترونين ، وأن نقوم بحل هذه المعادلة بالطرق الرياضية المختلفة التي تم تطويرها في ميكانيك الكم . كما يمكن القول بأن هذه الطريقة النظرية تؤدي إلى نتائج متفقة تماماً مع النتائج التجريبية .

هذه الرابطة المؤلفة من إلكترونين اثنين والتي تلعب دوراً هاماً في ترابط الجزيئات المختلفة ، تعرف ب (الرابطة التساهمية) أو التكافؤية (covalent bond) . ولا تقتصر هذه الرابطة على جزيء الهيدروجين ، بل توجد أيضاً في

جزيئات مكونة من ذرات أخرى . فإذا اعتبرنا جزيء الأكسجين  $O_2$  ، مثلاً ، فإنه يمكننا أن نفهم الترابط الجزيئي هنا على أنه مؤلف من رابطتين تساهميتين . والسبب في ذلك هو أن كلا من اللدتين تحتاج إلى الكترونين لإكمال عدد الالكترونات في قشرها الخارجي وهي بالتالي تساهم بالكترونين خارجيين يدخل كل منهما في رابطة تساهمية ازدواجية مع الكترون مشابه من الذرة الأخرى . وهكذا يمكن أن نرمز إلى الزوج من الروابط التساهمية في الجزيء الأكسجيني بالشكل التالي  $O=O$  ، حيث يمثل كل خط افقي رابطة تساهمية واحدة ، كما ذكرنا (رابطة الهيدروجين تظهر في هذا التمثيل على الشكل التالي  $H-H$ ) . ونفس الطريقة ، فإن جزيء النيتروجين له ثلاث روابط تساهمية من الالكترونات بل ويمكن تعميم هذه الرابطة إلى الحالة التي تكون فيها اللدتين مختلفتين . ففي جزيء الماء  $H_2O$  ، تتربط ذرة الأكسجين مع ذرتي الهيدروجين عبر رابطتين تساهميتين (شكل ٣١ أ) ، بينها زاوية مقدارها (١٠٥) درجة تقريباً . وكل من هاتين الرابطتين تتكون من الكترون من ذرة الهيدروجين والكترون آخر من الالكترونات الخارجية للذرة الأكسجين . المهم هنا هو أن هذه الرابطة تتشابه كثيراً من وجهة المبدأ مع رابطة الهيدروجين الأساسية المذكورة سابقاً . أما جزيء الأمونيا  $NH_3$  ، فيتم الترابط فيه بواسطة ثلاثة روابط تساهمية بين ذرة النيتروجين وكل من ذرات الهيدروجين الثلاث (شكل ٣١ ب) . والشكل الهندسي لهذا الجزيء هو عبارة عن شكل هرمي ذي قاعدة مثلثة متساوية الاضلاع . وتتسجم هذه التركيبات الالكترونية الهندسية مع الملاحظة الكيميائية المعروفة بأن ذرات الهيدروجين والأكسجين والنيتروجين لها رابطة واحدة أو رابطتان أو ثلاث روابط ، على التوالي ، في الجزيئات التي تدخل فيها هذه الذرات .



(أ) هيكل جزيء الماء ، (ب) هيكل جزيء الأمونيا ، (ج) هيكل جزيء الميثان .

ويشكل عنصر الكربون (الفحم) واحدا من أهم العناصر الكيميائية في حياتنا على الأرض . ويدخل هذا العنصر في تركيباته الجزيئية في أربع روابط تساهمية مع جيرانه من الذرات الكربونية أن الذرات الأخرى ، والسبب وراء هذه الروابط الأربع هو أن ذرة القشرة الخارجية لذرة الكربون تحتوي على أربعة إلكترونات وينقصها أربعة إلكترونات ولذا فإن لديها أربعة إلكترونات خارجية مستعدة لأن تدخل في أربعة روابط تساهمية مع الذرات المجاورة . وعلى هذا الأساس ، يمكن تمثيل بعض الجزيئات الكربونية على الشكل التالي : جزيء ثاني أكسيد الكربون  $CO_2$  كآلائي  $O=C=O$  ، وجزيء الأميثيلين  $C_2H_4$  كآلائي  $H-C \equiv C-H$  ، حيث أن كلا من هذين الجزيئين له شكل هندسي خطي . أما جزيء الميثان  $CH_4$  ، فإن الروابط الكربونية الأربع تؤدي إلى الشكل ذي الوجوه الأربعة (تتراهدرون tetrahedron) شكل (٣١ج) - ، حيث توجد ذرات الهيدروجين على حوافات التتراهدرون ، وترقد ذرة الكربون في مركز هذا الشكل . هذه الرابطة التتراهدرونية المركبة تضيء استقرارا خاصا على الجزيء ، وتلعب دورا هاما في بعض الجوامد أيضا ، كما سنجد قريبا .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عنصر الكربون له قابلية خاصة للدخول في رابط تساهمية متنوعة مما يؤدي إلى ملايين من المركبات الكيميائية المختلفة . بعض هذه المركبات يحتوي على عدد يسير من الذرات ، بينما يجتري بعضها الآخر على عشرات الآلاف من الذرات .

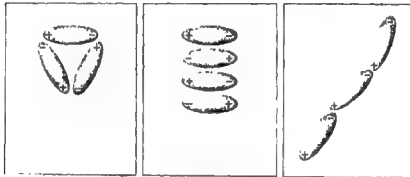
بالإضافة إلى الرابطة التساهمية ، توجد رابطة أخرى هامة وهي (الرابطة الأيونية) . فلو اعتبرنا الجزيء كلوريد الهيدروجين ، مثالا  $HCl$  ، فإن الربط بين ذرة الهيدروجين وذرة الكلورين هنا يتم بأن ينتقل الإلكترون الموجود على الهيدروجين كليا إلى ذرة الكلورين ، وبذلك يتشكل الثنائي الأيوني  $H^+ Cl^-$  ، هذان الأيونان يتجاذبان الآن بواسطة قوة (كولومب) الكهربائية ، مما يعطي هذا الجزيء استقراره . والسبب وراء هذا انتقال هذا الإلكترون من الهيدروجين إلى الكلورين ، هو أن الأخير يحتاج إلى إلكترون إضافي ثل لاشباع التكوين الإلكتروني الكامل لذاته الإلكترونية الخارجية . ويحصل على هذا الإلكترون من جاره أي ذرة الهيدروجين .

وتشكل هاتان الرابطتان ، التساهمية والأيونية ، الرابطتين الأساسيتين القويتين في معظم الجزيئات وفي أكثر الجوامد المعروفة .

ويمكن الإشارة هنا إلى أنه في الواقع لا توجد رابطة أيونية بحتة أو صرفة ، كما قد يظهر من عرضنا السابق . ففي المثال المذكور من الجزيء  $HCl$  ، لا ينتقل الإلكترون كليا من الهيدروجين إلى الكلورين بل أن الإلكترون ينتقل جزئيا فقط - وبذلك فهو إلكترون مشترك بين الذرتين ، وهذا الاشتراك الإلكتروني ، كما نذكر ، هو الخاصية الرئيسية في الرابطة التساهمية . وهكذا ، فمن الممكن النظر إلى الرابطة في هذا الجزيء على أنها رابطة تساهمية أيضا ، ولكن بشكل غير تناظري ، أي أن الإلكترونين في الرابطة متجاذبان أكثر نحو ذرة الكلورين . إنها رابطة مختلفة من الرابطة التساهمية الصرفة والرابطة الأيونية الصرفة .

هذا التمييز بين الرابطة التساهمية والأيونية يقودنا إلى الإشارة إلى إحدى الخصائص المهمة في الجزيئات ، وهي الخاصية (القطبية Polar) . فالحالة القطبية ، أو الاستقطابية ، تعبر عن أن الشحنة الكهربائية (في الجزيء) ليست

موزعة بالتساوي أو التناظر بين ذرات الجزيء. فجزيء كلوريد الهيدروجين  $HCl$  هو جزيء قطبي ، لأن هناك تجمعاً في الشحنة الكهربائية السالبة حول الكلورين وفي الموجبة حول الهيدروجين (شكل ٣٢) ، كما أشرنا سابقاً . بينما جزيء الهيدروجين  $H_2$  هو غير قطبي لأن الإلكترونين متوزعان بالتساوي بين البروتونين . وهناك جزيء قطبي ذو أهمية بالغة في حياتنا ، وهو جزيء الماء  $H_2O$  . ففي هذا الجزيء ، تنجذب الإلكترونات في الرابطتين التساهميتين أكثر نحو ذرة الأكسجين (منها نحو ذرتي الهيدروجين) . مما يعني أن هذه الذرة تصبح مركزاً لتتجمع الكهربيّات السالبة (شكل ٣٢ ب) .



(شكل ٣٢)

توضيح للتوهم الرابطة القطبية ، حيث تظم الجزيئات بشكل يترتب للمحيطات للمحاكاة الى بعضها .

هذه الخاصية القطبية تلعب دوراً هاماً في تكثف المادة إلى الطور (الحالة) السائل ففي هذا الطور تنظم الجزيئات بشكل تتجاوز فيه الأقطاب الموجبة للجزيئات مع الأقطاب السالبة للجزيئات الأخرى (شكل ٣٢ جـ) لتتكوّن مجموعات من الجزيئات التي تكون السائل ، وبخاصة تطبيقاً في إيجاد تفسير أيضاً لقدرته الكبيرة على تدريب الجزيئات ذات الرابطة الأيونية كالأملح مثلاً ، فكلوريد الصوديوم ( $NaCl$ ) يتأين إلى أيون  $Na^+$  وأيون  $Cl^-$  بالنهايات الموجبة من جزيئات الماء .

هذه الرابطة القطبية الإضافية في السائل القطبي تعطي لهذا السائل استقراراً . فالسائل القطبي ، مثل كلوريد الهيدروجين أو الماء ، أكثر استقراراً من السائل غير القطبي ، مثل الهيدروجين السائل . والدليل على ذلك هو درجات الذوبان ودرجات الغليان المرتفعة للنوع الأول من السوائل .

هذا وقد أمكن دراسة كثير من الخواص الجزيئية بالطريقة الطيفية ، فالدرتان في جزيء ثنائي مثلاً يهتزتان بالنسبة لبعضهما بعض حول وضع التوازن كهزاز ، ويمكن تحديد تردد الهزاز بالطريقة الطيفية العادية . ومن هذا التردد ، يمكن تحديد قوة التفاعل بين الذرتين .

## ٦ - ٢ الجوامد

يعرف الجامد بأنه مجموعة كبيرة جدا (حوالي ١٠<sup>٣١</sup>) من الذرات المتناسكة مع بعضها ، حيث تستقر كل ذرة في مكان محدد ثابت تقريبا داخل الجامد . ومعظم الجوامد الموجودة على الأرض لها بنية بلورية ، أي أن مواقع الذرات تشكل نظاما هندسيا منتظما بالنسبة لبعضها بعضا - حيث يدعى هذا الانتظام الكامل ، عبر الجامد بأكمله ، بالانتظام طويل المدى . ولكن توجد أيضا جوامد (أمورفية) ، حيث ينعدم الانتظام طويل المدى . لكن يتحقق فيها انتظام على المدى القصير - أي أن الجوار المباشر لكل ذرة متشابه بغض النظر عن موقع الذرة داخل الجامد . وبذلك فإن البنية في هذا النوع من الجوامد تشبه كثيرا البنية الموجودة في السوائل ، حيث لا يوجد انتظام طويل المدى بين مواقع الذرات داخل المادة ، والمثال الأفضل والمألوف للجوامد الأمورفية هو الزجاج العادي (SiO<sub>2</sub>) ، حيث أن مواقع الذرات (الأكسجين والسيليكون) لا تحافظ على انتظام محدد على مستوى الجامد كله .

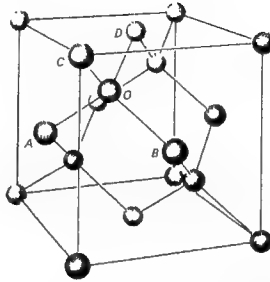
في عرضنا الحالي سنركز اهتمامنا على الجوامد البلورية ، وذلك لأهميتها البالغة في التطبيقات التكنولوجية . إذ أن الجوامد ، رغم ندرتها على مستوى الكون الشامل ، تشكل القسم الأكبر من خبرتنا الحياتية المباشرة كما تشكل الأساس في عصرنا التكنولوجي المتطور .

وإذا نظرنا إلى الروابط التي تؤدي إلى الترابط في الجوامد ، نجد أن بعضها متشابه تماما مع الروابط الموجودة في الجزيئات ، كما درسناها سابقا ، ففي بعض الجوامد ، يتم الترابط عبر الرابطة التساهمية ، وفي البعض الآخر عبر الرابطة الأيونية . هناك بالإضافة لذلك نوع ثالث من الجوامد - الفلزات - التي يتم فيها الترابط عبر رابطة جديدة تدهى الرابطة الفلزية .

والمثال البارز على الجوامد التساهمية هو السيليكون ، الذي يشكل العنصر الرئيسي في التكنولوجيا الإلكترونية الحديثة . فالشكل (٣٣) يظهر البنية البلورية لهذا الجامد ، حيث أن الوحدة أو الخلية الرئيسية للجامد هي على شكل مكعب ، حيث أن كل ذرة من السيليكون ترتبط مع الذرات السيليكونية الأربع المجاورة عبر أربع روابط تساهمية . ونذكر هنا أن كل ذرة سيليكونية تحتوي على أربعة إلكترونات خارجية ، يشترك كل منها مع الكترونات الذرات المجاورة بشكل ثنائي ليشكل الروابط المذكورة . إذن الرابطة التيتراهدريدونية (الرباعية) الموجودة في السيليكون هي في الواقع انعكاس للتركيب الإلكتروني الموجود في السيليكون . ويسبب هذه الرابطة الرباعية المركبة فإن السيليكون هو مادة مستقرة وقاسية وتحتاج إلى درجة حرارة مرتفعة لصهرها . وتوجد بلورات أخرى لها نفس البنية البلورية للسيليكون ، نذكر منها الماس والجرمانيوم .

أما البلورات الأيونية ، فإن أفضل مثال عنها هو كلوريد الصوديوم (NaCl) - وهو مادة ملح الطعام العادي . في هذه المادة ، يحصل إلى حد كبير انتقال للإلكترون الخارجي في ذرة الصوديوم إلى المدار الخارجي في ذرة الكلورين - وبذلك فإن البلورة تتألف من تشكيل منتظم من الأيونات Na<sup>+</sup> و Cl<sup>-</sup> . فكل أيون Na<sup>+</sup> محاط بستة أيونات Cl<sup>-</sup> واقعة على





(شكل ٣٣)

البنية البلورية للسيليكون . كل كرة تمثل ذرة ، وتلك ذرة محاطة بأربع ذرات مجاورة لتشكل معاً رابطة  
تتراصينية (رباعية) .

اتجاهات متعامدة ، وينطبق القول نفسه على كل من الأيونات  $\text{Cl}^-$  أيضا . ويترابط الجامد ويتماسك بسبب التجاذب الكهربائي من هذه الأيونات ، حيث أن المسافات بين الأيونات قصيرة جدا ( $\epsilon = 2 \times 10^{-10}$  سم) .

أما الرابطة الفلزنية (الثالثة) فهي التي لها الفضل في تروابط الفلزات . فمن المعروف أن ذرات الفلزات (المعادن) تحتوي على واحد أو قلة من الإلكترونات الخارجية ، التي تنفصل بسهولة نسبية عن باقي الذرة في الظروف المناسبة . وعندما تتواجد هذه الذرات في الجامد (مثل فلز الصوديوم أو النحاس) ، فإن الإلكترونات الخارجية (للذرات) تنفصل تماما عن ذراتها ، وتصبح الكثرونات «حررة» تستطيع التحرك والانتقال داخل الجامد . هكذا يتشكل «غاز» من الإلكترونات في الجامد . لكن هذا الغاز الإلكتروني يتألف من جسيمات مشحونة وهو بذلك عبارة عن (بلازما) ، ومن ثم يختلف كثيرا عن الغازات العادية المشكلة من جزيئات محايدة .

الإلكترونات (المشحونة) تتنافر كهربائيا ، لكن العامل الهام الذي يحفظها من التناثر والتطاير ويؤدي إلى التروابط في حالة الفلز ككل هو وجود الأيونات الموجبة . فعندما تأتنت ذرة النحاس وأعطت الكثرونات حرا بقي الأيون  $\text{Cu}^+$  . هكذا فإن الجامد يحتوي على بنية بلورية من الأيونات  $\text{Cu}^+$  ، مثلا ، يجرى داخل شبكتها الغاز الإلكتروني المذكور ، والروابط بين الغاز الإلكتروني والشبكة الأيونية قوية ، وذلك بسبب القوة الكهربائية التجاذبية .

هذا النموذج للفلزات تعود بدايته إلى أوائل القرن الحالي ، حيث بدأه (درويد) و(لورنتز) ، ثم طوره سمرلند في منتصف العشرينات ليتناسب مع التطورات الجديدة في ميكانيك الكم . الفائدة الكبيرة للنموذج هي مقلترته على شرح الناقلية الكهربائية والحرارية للفلزات . هذه الناقلية تنبع بشكل واضح من النموذج ، إذ أن هناك جسيمات

حرة كثيرة - الإلكترونات - تستطيع القيام بالنقل الكهربائي (أو الحراري) في حالة تطبيق مجال كهربائي (أو حراري) داخل الجامد . ثم إن هذا النموذج يستطيع تفسير خواص أخرى للفلزات - مثل الخواص البصرية (الانعكاسية المرتفعة) وكثير من خواص المخلوطنات (alloys) الفلزية الكثيرة .

وقد تطور النموذج كثيرا في السنين الأخيرة ، حيث جرى تطبيق الأفكار الجديدة لميكانيك الكم على شكل واسع - بداية بأعمال الفيزيائي (ف بلوخ) الذي وضع حجر الأساس لميكانيك الكم للجوامد حوالي عام ١٩٣٠ .

ومن الأمثلة البارزة على التطبيقات في هذا المجال الملاحظة التالية : يلاحظ تجريبي أن الناقلية الكهربائية في الفلزات ترتفع تدريجيا عند تناقص درجة الحرارة ، وتكاد تبلغ (الناقلية) حدا لا يهائلا عند الصفر المطلق . إن النظرية الحركية الكلاسيكية للغازات عاجزة تماما عن تفسير هذه الظاهرة ، إذ تفترض هذه النظرية أن النواقل للتيار - الإلكترونات - تصطدم بشكل أو آخر مع الأيونات ، الأمر الذي يؤدي إلى عرقلة حركة الإلكترونات . هذا التصادم أو التبعثر يؤدي إلى تخفيض الناقلية (أو زيادة المقاومة) الكهربائية . وبسبب وجود العدد الكبير من الأيونات فإن الناقلية الكهربائية يجب ألا ترتفع كثيرا حتى عنصر الصفر المطلق حسب النظرية الكلاسيكية - ، وهو استنتاج مخالف للتجربة . أما ميكانيك الكم ، فله نظرة مختلفة تماما للموضوع . الإلكترونات الناقلة هي عبارة عن موجات (موجات دي بروغلي) . وعندما تتحرك هذه داخل الجامد فإنها لا تصطدم مع شبكة الأيونات المنتظمة ، مثلها مثل موجة ضوئية لا تصطدم مع شبكة منتظمة من البلورات . هكذا فإن الناقلية الإلكترونية كبيرة جدا عن الصفر المطلق ، لأن الأيونات متمركزة (موجودة) تماما على الشبكة البلورية . أما عندما ترتفع درجة الحرارة ، فإن الناقلية تنخفض تدريجيا لأن الأيونات تبدأ بالاهتزاز ، مما يؤدي إلى تصادم الإلكترونات معها ، ومن ثم إلى انخفاض في الناقلية الكهربائية .

#### ٦ - ٣ حزم الطاقة

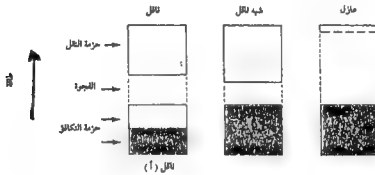
إن موضوع (حزم الطاقة Energy bands) هو واحد من المواضيع المثيرة حقا في مجال الجوامد ، حيث أدى إلى نظرة جديدة تماما من الجوامد تختلف تماما عن النظرة التي كانت سائدة في العشرينات وما قبل ذلك . هذا الموضوع نبع واستمر بشكل منطقي تماما من أعمال (بلوخ) المشار إليها سابقا . ومعطينا هذا النموذج إطارا نظريا لفهم شامل وكامل للجوامد بأنواعها المختلفة من النواقل (المواصلات) إلى أشباه النواقل أي العوازل الكهربائية .

نستطيع الدخول في هذا الموضوع بأشكال النظرية التالي . لقد وجدنا سابقا أن الطاقة للإلكترون في الذرة مكتمة عند مستويات خطية معينة ومحددة (جزء ٥ - ٤ - ٢) . ويستطيع الإلكترون أن ويسكن في أي من هذه المستويات ، لكن لا يمكنه السكن في مجالات الطاقة الموجودة بين هذه المستويات . هذه النتائج تأتي من كتابة معادلة شرودينغر المناسبة لهذه الذرة ، ثم حل هذه المعادلة ضمن الشروط المقبولة فيزيائيا ورياضيا P.T.O . نحاول الآن أن نقوم بالعملية نفسها بالنسبة للإلكترون الموجود داخل جامد ما . الأمر الآن أكثر تعقيدا من ذي قبل ، لأن الإلكترون

لا يتفاعل مع أيون واحد . فحسب ، وإنما مع كل الأيونات الموجودة في الجاماد . والسبب في ذلك هو أن الإلكترون ليس مقيداً ضمن منطقة محددة ، بل هو حر ويمتشر داخل الجاماد كله . الإلكترون هو موجة منتشرة وكاملة .

عندما نكتب ونحل معادلة شرودينغر لهذه الحالة ، ماذا نجد ؟ إننا نجد المفاجأة التالية وهي أن مجالات الطاقة المسموحة (للإلكترون) تتألف من حزم (bands) متتالية هي والحزم المسموحة . أما مناطق الطاقة الموجودة بين هذه الحزم ، فهي مناطق ممنوعة ومحرمة (Forbidden) ولا يستطيع الإلكترون أن يسكن فيها . وتسمى فجوات (gaps) الطاقة . وبالتشابه مع حالة الليرة الواحدة المذكورة سابقاً ، فإننا نرى أن المستوى الخطي الواحد للذرة قد تمدد وتوسع وأصبح عريضاً ، ليكون حزمة كاملة تشغل حيزاً معيناً من الطاقة . كما أننا نستطيع فعلاً أن نجري ترابطاً بين كل مستوى لطاقة للذرة والحزمة التي نشأت من هذا المستوى عندما تتركب الذرات مع بعضها لتشكّل الجاماد من هذه الذرات .

وهكذا إلى أن يتم استيعاب جميع الإلكترونات الحرة . الإلكترونات الحرة تسكن الآن الحزم المختلفة ، بداية بالحزم الدنيا ، ثم الحزم الأعلى . ونستطيع الآن التمييز بين التواقل والموازيل بشكل واضح على أساس مفهوم الحزم . ننظر إلى الحزمة العليا المسكونة (حيث الحزم الأدنى منها مسكونة كلياً) للجاماد فإذا كانت الحزمة مسكونة جزئياً - نصفها الأسفل مثلاً - (شكل ٣٤) فإن هذا الجاماد يسلك كثنائي كهربائي ، والسبب في ذلك هو أن وجود أي مجال كهربائي (من مصدر خارجي) في الجاماد يعطى بعض الطاقة للإلكترونات ، التي تستطيع أن ترتفع في طاقتها داخل الحزمة وتنقل التيار الكهربائي . هذا هو الوضع في الموصلات مثل النحاس والفضة وغيرها من الفلزات .



(شكل ٣٤)

التمييز بين البلّ ، شبه البلّ ، والغاز ، على أساس مفهوم حزمة الطاقة .

أما إذا كانت الحزمة العليا المسكونة متمثلة تماماً (شكل ٣٤ ب) ، فإن الجاماد يسلك كعازل حتى في وجود مجال كهربائي . والسبب هو أن الإلكترون ، حتى في المنطقة العليا من الحزمة ، لا يستطيع اكتساب طاقة قليلة من المجال ونقل التيار . وذلك أن الإلكترون لا يستطيع أن يدخل إلى الفجوة المحرمة . أما الإلكترونات في الطبقات الدنيا من

هذه الحزمة فانها لا تستطيع امتصاص طاقة كهربائية من المجال والارتفاع إلى مستوى أعلى في الحزمة ، لان المستوى مسكون مسبقا من قبل إلكترونات أخرى- ومبدأ الاستبعاد يمنع إدخال الإلكترونات جديدة إلى هذا المستوى للسكون . هذا هو الوضع ، من ناحية التشكيل الحزمي لمعظم العوازل مثل الماس .

أما أشباه النواقل (semiconductors) ، فان البنية الحزمية لها تشبه تلك الموجودة في العوازل - الحزمة المسكونة العليا ممثلة تماما . لكن الفجوة الموجودة فوقها ضيقة إلى حد ما (حوالي ١) إ . ف) مما يسمح لعدد من الإلكترونات ان تنهيج حراريا (بسبب الحرارة الموجودة في الجلامد) وتنتقل من هذه الحزمة عبر الفجوة إلى الحزمة الأخرى الموجودة فوق الفجوة (شكل ٣٤ ج) . الحزمة العالية التي اكتسبت بعض الإلكترونات تستطيع الآن نقل بعض التيار ، ومن ثم تسمى (حزمة النقل) . أما الحزمة التي تحت الفجوة ، والتي فقدت بعض الإلكترونات ، فانها تستطيع أيضا نقل بعض التيار ، لانها لم تمتد ممثلة ، كما كانت سابقا حيث تدعى الآن حزمة التكافؤ أو التساهم . وهكذا يستطيع شبه الناقل القيام بنقل بعض التيار الكهربائي عند اللزوم . ومن الأمثلة المعروفة على أشباه النواقل نذكر السيليكون والجرمانيوم حيث تعادل لجوة الطاقة لكل منهما ١,٢ و ٠,٧٥ إ . ف ، على التوالي .

في الاستخدامات التكنولوجية ، يضاف إلى شبه الناقل في العادة بعض الشوائب - ذرات غريبة - لتعطيه بعض الخواص الكهربائية المناسبة ، فإذا اضيف إلى بلورة السيليكون بعض ذرات الزرنيخ مثلا ، والذي هو خماسي التكافؤ (يحتوي على خمسة إلكترونات خارجية) ، فان أربعة من الإلكترونات الثابتة تدخل في روابط التساهم الأربع ، ويبقى إلكترون خامس حرا ليتقبل بسرعة إلى حزمة النقل . وهكذا فان إدخال نسبة قليلة من شوائب الزرنيخ (حوالي جزء من مائة مليون) يؤدي إلى رفع ناقلية المادة أضعافا مضاعفة . وتدعى المادة المشكّلة بهذه الطريقة مادة من النوع السالب (أو نوع - س) . أيضا يمكن تصنيع مادة من النوع الموجب (أو نوع + م) بإدخال شوائب ذات تكافؤ ثلاثي ، مثل الغاليوم ، إلى ذرات السيليكون . في هذه الحالة تتشكل (ثقوب) في المادة ، حيث تسكن في حزمة التكافؤ ونستطيع أن ننقل التيار وكأنها جسيمات موجبة .

وتعتمد معظم التطبيقات الالكترونية على عمل وصلة (Junction) مؤلفة من مادة سيليكون نوع - س متجاورة مع مادة سيليكون نوع + م . في هذه الوصلة يتشكل مجال كهربائي داخلي ، يضيف على الوصلة خواص كهربائية غريبة وغير متوقعة ومفيدة جدا ، في نفس الوقت . فبالصميم المناسب يمكن أن تلعب الوصلة دور المقوم الكهربائي أو الخلية الشمسية أو المكثف الكهربائي ، من ضمن عدد كبير من التجهيزات الكهربائية الممكنة . أن التركيب (أو البنية) المناسب لوصلتين معا يؤدي كذلك إلى (الترانزستور) ، المصغّر الكهربائي الذي يعتبر حجر الزاوية في عصر التكنولوجيا الالكترونية الحديثة . هذا وقد حصلت ثورة حقيقية في هذا المجال بتصنيع عدد كبير من الترانزستورات والدارات الدقيقة على قطع (chips) من مساحات ضيقة جدا - حوالي سم واحد . وبهذه الطريقة فقط أمكن اليوم تصنيع الحاسبات الالكترونية ذات السعة العالية بأحجام محدودة وتكاليف متواضعة .

## ٦ - ٤ الجسيمات الأساسية

يشكل موضوع الجسيمات الأساسية (elementary particles) المجال الأكثر إثارة في عالم الفيزياء اليوم . هذه الجسيمات ، حسب تعريفها ، هي الجسيمات الدقيقة الصغيرة التي تتكون منها جميع الجسيمات الفيزيائية التي نشاهدها ، وهي جسيمات أساسية لا يمكن تفكيكها إلى جسيمات أخرى أصغر منها . فلو كنا حقا من معرفة هذه الجسيمات ، لعرفنا الجسيمات النهائية والاحيرة للغاية في هذا الكون ، وهو نصر فيزيائي هائل بكل تأكيد . في نفس الوقت ، يتنامى الشعور الآن بأن هناك علاقة دقيقة بين هذه الجسيمات وعلم الكونيات (Cosmology) وهو العلم الذي يبحث في نشوء الكون منذ الدويء الأعظم (بيغ بانغ - Big Bang) وحتى يومنا هذا . ويتبع من ذلك أن التقدم في مجال الجسيمات الأساسية سيكون له أهمية خاصة ليس في الفيزياء فحسب وإنما في مجال الفيزياء الفلكية أيضا .

وتتذكر من جزء سابق من هذه الدراسة أن الجسيمات الأساسية للغاية ، كما كانت معروفة في أوائل الثلاثينات ، تتألف من ثلاثة جسيمات فقط - الإلكترون والبروتون والنيوترون . فالذرة تتألف من الكترونات تدور حول نواة مشكلة من عدد معين من البروتونات والنيوترونات . الالكترونات جميعا متماثلة ، فلا يمكن التمييز بين الالكترونات من ذرة إلى أخرى ، كما لا يمكن التمييز بين البروتونات أو النيوترونات من ذرة إلى أخرى ، وكان هناك أيضا جسيم أساسي آخر (رابع) وهو الفوتون - الوحدة الأساسية للاشعاع الكهرومغناطيسي .

لكن تبين بعد عدة سنوات فقط أن هناك ضرورة لوجود جسيم أساسي آخر يدهي بالنيوتريون . حيث وجد أنه في حالة شعاع (بيتا) النووي من مادة ما لا تكون الالكترونات الصادرة بالتوالي ذات طاقة واحدة . وقد سببت هذه الملاحظة ارتباكاً وجدلاً كبيراً في تفسير الظاهرة - خاصة بين (بهر) من جهة و(باولي) من جهة أخرى - حيث إن قانون حفظ الطاقة يستوجب أن تكون الطاقة هي نفسها لجميع الالكترونات الصادرة . وأخيراً تغلب افتراض (باولي) بأن هناك جسيماً آخر (النيوتريون) يصدر في نفس العملية وفي نفس الوقت ويحصل جزءاً من الطاقة . وهكذا فإن مجموع طاقتي الالكترون والنيوتريون هو مقدار ثابت ، مما ينسجم مع قانون حفظ الطاقة .

النيوتريون جسيم غريب حقاً - فهو محايد (في الشحنة) وليست له أية كتلة ، أي أن كتلته تساوي الصفر ، وهو بذلك يسير دائماً بسرعة الضوء . هكذا فإن النيوتريون يبدو مشابهاً للفوتون . لكن النيوتريون يختلف كثيراً عن الفوتون من جهة التفاعل مع المادة . فالفوتون يتفاعل بشدة مع أي جسيم مشحون كالالكترون أو البروتون . في حين أن النيوتريون يتفاعل فقط مع المادة النووية (بروتونات ونيوترونات) ويقوة ضعيفة جداً جداً . وقد قدر بأن النيوتريون يجب أن يقطع مسافة أكثر من  $10^{10}$  متراً في مادة من الحديد الصلب حتى يتم التأكد بأنه قد تم انصصاصة . هذا التفاعل الضعيف بين النيوترونات والمادة كان السبب وراء الصعوبة في المشاهدة التجريبية لهذا الجسيم ، إذ أن عملية المشاهدة نفسها تتطلب تفاعلاً بين الجسيم والمادة الموجودة في الجهاز . وقد أمكن أخيراً استكشافه مباشرة في عام ١٩٥٦ . ومن أبسط التفاعلات التي تؤدي إلى توليد النيوتريون عملية تفكك النيوترون نفسه . هذا التفاعل يجب أن يكتب الآن على الشكل التالي : نيوترون  $\rightarrow$  بروتون + إلكترون + نيوتريون .

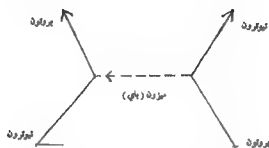
في الفترة ذاتها ، كانت تحدث تطورات هامة على جبهة أخرى من موضوع الجسيمات الاساسية . ففي أوائل الثلاثينات ، ومن خلال معالجة جسيم الالكترون بطريقة كمومية ونسبية في آن واحد ، توصل الفيزيائي النظري (ديراك) الى قناعة بضرورة وجود جسيم جديد يشابه الالكترون في الكتلة والشحنة ، ولكنه يحمل شحنة معاكسة لشحنة الالكترون - أي شحنة موجبة . وسمى (ديراك) هذا الجسيم المفترض ب (الالكترون المصادر) ، وهي تسمية تعكس العلاقة الوثيقة بين هذا الجسيم والالكترون . فهذا الجسيم ، حسب هذا التحليل ، هو عبارة عن (صورة) انعكاسية للالكترون ، حيث إن عملية الانعكاس هذه تعكس الشحنة الكهربائية للجسيم . وبعد وقت قصير أي في عام ١٩٣٢ ، تمكن الفيزيائي (أنلرسون) في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا في كاليفورنيا من اكتشاف الجسيم المفترض وسماه (البوزيترون) .

هكذا ارتفع عدد الجسيمات الاساسية بظهور جسيم جديد . ولكن الاكتشاف الجديد يحمل في طياته مغزى أكبر من ذلك ، إذ أنه كان البداية لظهور مفهوم (للمادة المضادة) وأوصى بوجود جسيمات مضادة للجسيمات الأخرى أيضا ، مثل جسيمات (البوترون المضاد) و (البوترون المضاد) وغيرها . وكما سنرى لاحقا ، فإن هذا الانبعاث ستنبت صحته غاما . وهكذا فقد كان متوقعا عندئذ أن يأخذ عدد الجسيمات الاساسية بالارتفاع في المستقبل المنظور .

عندما يتولد بوزيترون فإنه لا يبقى طويلا في الظروف العادية ، إذ أنه سرعان ما يتحد مع أحد الالكترونات المتولدة بغزارة في المادة ، وبذلك ينعدم الجسيان معا . وينطلق من هذا التفاعل فوتونات من فئة أشعة (غاما) ، وهي الفوتونات عالية الطاقة . في هذا التفاعل ، تتحول المادة (كتلة الجسيمين) كليا إلى طاقة ، وذلك انسجاما مع نظرية آينشتاين النسبية . كما يمكن أيضا توليد زوج من الالكترون والبوزيترون وذلك بواسطة تصادم فوتونين من فئة غاما ، وهو التفاعل العاكس ، حيث تتحول الآن الطاقة إلى مادة .

الخطوة التالية أتت من مكان مختلف غاما ، حيث قام الفيزيائي الياباني (ديوكاوا) في عام ١٩٣٥ بافتراض جسيم جديد من نوع مختلف كليا . كان يوكاوا يحاول الوصول إلى فهم أعمق للتفاعل بين النيوكليونات (البوتونات والنيوترونات) ، وهو ما يعرف بالتفاعل القوى . كان معروفا عندئذ أن هذا التفاعل قوي جدا (بالمقارنة مع التفاعلات الأخرى) وأنه أيضا قصير المدى . ولما كان الفيزيائيون في تلك الفترة يفضلون تمهيد التفاعل بين الجسيمات على أنه يتم بواسطة تبادل جسيمات وسيطة ، لكي يتجنبوا مفهوم التفاعل عن بعد ، فقد افترض يوكاوا أن نيوكليونين - بروتون ونيوترون ، مثلا - يتجاذبان بواسطة تبادل جسيم جديد ينبت من أحد الجسيمين وينتص الآخر (شكل ٣٥) ، وهي عملية مشابهة للتجاذب بين شحنتين كهربائيتين ، حيث يتم التفاعل بتبادل عدد من الفوتونات بينها . ويمكن يوكاوا من تقدير كتلة الجسيم الجديد على أنها تقع في المجال ٢٠٠ - ٣٠٠ ضعف من كتلة الالكترون وقد سمي هذا الجسيم المفترض «الميزون» ، وتشير التسمية إلى أن كتلته تقع في الوسط بين كتلة الالكترون (الخفيف) وكتلة البروتون (الثقل) .

مسيرة الفيزياء حل الجدل للشعوب بين النظرية والتجربة



(شكل ٣٥)

النموذج (بركاتيا) للتفاعل بين البروتون والنيوترون عبر تبادل جسيم (الميزون) المتوسط.



ميزون (ياني)



نيوترون



بروتون

(شكل ٣٦)

النموذج التكويني للبروتون والنيوترون والميزون.

وبعد عام واحد فقط ، اكتشف آندرسون نفسه وزملاؤه جسيما جديدا له كتلة في نفس المجال الذي حددته يوكاوا . وسمى هذا الجسيم ميزون أو «الميون» ، كما يشار اليه هذه الايام . وكتلة الميون هي (٢٠٧) ضعفا من كتلة الالكترتون . ثم تبين ان هناك ميون موجب وميون سالب ، حيث ان مقدار الشحنة هي نفس الشحنة . الموجودة على الالكترتون .

لكن الفرحة لاكتشاف الجسيم الجديد لم تستمر طويلا ، إذ سرعان ماتين أن الميون يتفاعل مع النيوكليونات بقوة ضعيفة جدا ، وليس بالقوة الشديدة التي كانت متوقعة . بل حل العكس من ذلك ، فقد بدا ان الميون يشبه الالكترتون في كل شيء تقريبا . ماعدا الكتلة إنه «الالكترتون الثقيل» بل ان الميون ليس مستقرا ، اذا يتفكك إلى الكترتون ونيوترينو ونيوترينو مضاد . هذه الازواجية حيرت الفيزيائيين لفترة طويلة . لقد حصلوا على جسيم جديد ، لكنه غير مرغوب .

البحث عن الجسيم المرغوب تباطأ خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) لكنه عاد بعد انتهائها وبشكل مكثف . وفي عام ١٩٤٧ تم بالفعل اكتشاف الميزون المرغوب ، حيث سمي ب «ميزون باي» أو «البالون» ، من قبل الفيزيائي «بالو» في إنجلترا وعدد من الفيزيائيين الآخرين . ومنع يوكاوا جائزة نوبل في نفس العام ، تقديرا لاهمية المساهمة التي قدمها للفكر الفيزيائي . ووجد أن الميزون باي يأتي في ثلاث شحنات مختلفة ، موجبة وسالبة ومحايدة مقدار كل منها نفس شحنة الالكترتون . وكتلة هذا الميزون هي (٢٧٣) كتلة الكترونية للموجب والسالب ، و (٢٦٤) كتلة الكترونية للمحايد .

ووجد ايضا أن البايون ليس جسيما مستقرا . فالبايونان المشحونان يتفككان ، كل بطريقة مناسبة ، إلى ميون ونيوترينو ، ضمن عمر متوسط يساوي (٢,٦ × ١٠<sup>-١٣</sup>) ثا . ويتفكك البايون الحيادي إلى زوج من لوتونات غاما ، ضمن عمر متوسط يساوي (١٠<sup>-١٣</sup>) ثا تقريبا .

إضافة إلى كل ذلك ، تبين من تجارب عديدة أجريت في أوائل الستينات أن النيوترينو الناتج من تفكك البايون يختلف عن ذلك الناتج من تفكك النيوترتون ، والذي كان معروفا سابقا . فهذا الأخير يعرف الآن بالنيوترينو الالكتروني في حين يعرف الأول وهو الجديد بالنيوترينو الميولي ، نسبة إلى الجسيمات التي تنتج مرافقة لعملية إنتاج النيوترينة .

وهكذا وجد الفيزيائيون العاملون في هذا المجال أنفسهم أمام عدد متزايد من الجسيمات الاسامية ، التي تلعب أدوارا مختلفة في التفاعلات المتنوعة . فخلال عقد من الزمن بلغ عدد الجسيمات العشرات ، بل المئات حيث يعيش معظمها لفترات زمنية قصيرة جدا - من رتبة ال ١٠<sup>-٢٠</sup> ثا ، أو أقصر ، ثم يتفكك إلى جسيمات أخرى مألوفة ، هذا الازدياد أدى إلى إثارة وإثارة في هذا المجال ، لكنه خلق في نفس الوقت ارتباكاً وحيرة بين الفيزيائيين . فمذ أحوال أينشتاين في بداية القرن ، كان الفيزيائيون يبحثون عن البساطة والتوحيد في الفيزياء الاسامية ، في حين ان هذا السيل الخيزير من الجسيمات الجديدة كان يفقدتهم في الاتجاه المعاكس نحو التعقيد والتشعب .



لكن تطورات هامة جدا حصلت فعلا في السنوات الاخيرة تبشر بالخير وتوحى بأننا ربما أصبحنا على مقربة من حل جلدي ونهائي لموضوع هذه الجسيمات . تقسم الآن الجسيمات الاساسية إلى أربعة اصناف : الفوتونات ، والليبتونات والفيرونات حيث يضم كل نوع واحد أو أكثر من الجسيمات .

فصنف الفوتونات يضم الفوتون فقط ، وهو الجسيم الاسامي المعروف الذي يشكل الوحدة الاساسية في الضوء والتفاعلات الكهرومغناطيسية .

أما صنف الليبتونات فيضم الالكترن والميون والنيوترينو (بأنواعه المختلفة) ومضادات هذه الجسيمات . هذه الجسيمات تتفاعل مع بعضها بعض ومع غيرها أيضا عبر تفاعلين ، التفاعل الكهرومغناطيسي والتفاعل الضعيف . التفاعل الكهرومغناطيسي يكون موجودا عندما يكون الجسيمان المتفاعلان مشحونين كهربائيا ، مثلما هو الحال في التجاذب بين البروتون والالكترن (أو بين الالكترن والميون) . وفي حال انعدام الشحنة يبقى فقط التفاعل الضعيف ، كما يحدث عندما يتفاعل نيوترين مع بوزيترون لتشكيل البروتون . وبما أن التفاعل الكهرومغناطيسي هو الأقوى ، فهو الذي يعلنى على التفاعل الآخر عند وجوده .

وقد تساهل الفيزيائيون ويحتوا كثيرا عن الجسيم الذي يحمل التفاعل الضعيف ، كما يجعل الفوتون التفاعل الكهرومغناطيسي . وقد تم أخيرا (عام ١٩٨٤) اكتشاف هذا الجسيم الوسيط . بل وجد في الحقيقة ثلاثة جسيمات تلعب أدوار الوسطاء في هذا التفاعل ، وهي الجسيمات (دبلو -  $W^-$ ) و (زي صفر  $Z^0$ ) . هذه الجسيمات لها كتلات كبيرة جدا (حوالي ٨٥ ألف مليون إ. د) . وهذه الكتلة الكبيرة ناتجة عن كون التفاعل ذا مدى قصير للغاية . ومن الناحية العملية ، فإن الكتلة الكبيرة تتطلب مقدارا كبيرا من الطاقة لتوليدها ، مما يفسر الصعوبة الكبيرة في الحصول على هذه الجسيمات الوسيطة ، هذا وقد تم اكتشافها ، من قبل الفيزيائيين كارلوروييا وسيمون فان ديرمير في مختبرات (CERN) الشهيرة في أوروبا . وقد نال هذان العالمان جائزة نوبل في عام ١٩٨٤ ، تقديرا لهذه الاكتشاف الهام في مجال الفيزياء التجريبية للطاقات العالية .

وقد اعتبر هذا الاكتشاف دحيا وتميزا قويا للنظرية الكهروضعيفة ، وهي النظرية الحديثة التي توحد بين التفاعلين - الكهرومغناطيسي والضعيف وقد قدم هذه النظرية في عام ١٩٦٨ ، وعطرق مستقلة ، ثلاثة من أشهر الفيزيائيين النظريين في العالم اليوم ، وهم الباكستاني عبدالسلام والأمريكيان واينبرغ وغلشاور . ولا يتسع المجال هنا للمخوض في تفاصيل هذه النظرية ، ولكنها تقول بأنه في مجال الطاقات العالية جدا (كما كان الوضع بعد حدث الدوي الاعظم الكوني) يكون التفاعلات الكهرومغناطيسي والضعيف متشابهين تماما ، ولا يمكن التمييز بينهما . لكن في مجال الطاقات المنخفضة نسبيا ، ينكسر هذا التناظر إلتام بين التفاعلين ، ويظهران كتفاعلين مختلفين تماما . وقد نال هؤلاء الفيزيائيون جائزة نوبل لعام ١٩٧٩ ، تقديرا لأهمية هذا العمل التوحدي في مجال الفيزياء النظرية الاساسية .

وللمجموعة الثالثة من الجسيمات الاساسية ، أي مجموعة الميزونات ، تتألف من عدد من الميزونات ، وهي الميزون باي والميزون كاي والميزون إيتا - والتي تسمى ب (البايون) وإل (كاون) وإل (ايتون) على التوالي . وتخدم هذه

الجسيمات من الناحية الأساسية في نقل التفاعل القوي بين الجسيمات النووية . فقد رأينا سابقاً أن الجايون يحمل التفاعل القوي (القوى النووية) بين البروتون والنيوترون ، مما يؤدي إلى ارتباط واستقرار النواة .

والمجموعة الربعية الأساسية ، مجموعة الباريونات ، تضم البروتون والنيوترون وماشبهها من الجسيمات الثقيلة التي تشارك في التفاعل القوي . والتطور الهام الذي حصل في هذا المجال هو نظرية الكوارك التي قدمها كل من الفيزيائيين غليان وزوايغ ، مستقلين عن بعضهما البعض ، في عام ١٩٦٣ . هذه النظرية ، التي اعتمدت في الأصل على دراسات بعض التناظرات الرياضية بين الباريونات ، تقول بأن البروتون والنيوترون وغيرهما من الباريونات ليست جسيمات أساسية وإنما هي في الحقيقة جسيمات مركبة من جسيمات أخرى أصغر منها في الحجم .

هذه الجسيمات المتنامية الصغر هي الكواركات (مجموع كوارك) . ويعتقد بأن هناك ستة أنواع من الكواركات ، أهمها الكواركات «أعلى» و«أسفل» . الكوارك أعلى له شحنة تعادل  $\frac{2}{3}$  مقدار شحنة الإلكترون والاسفل له شحنة تعادل  $\frac{1}{3}$  مقدار شحنة الإلكترون فالبروتون يتألف من الكواركات الثلاث التالية : (أعلى) و(أعلى) و(أسفل) ، وبذلك فإن شحنة البروتون تساوي مقدار شحنة الإلكترون (وهي موجبة) . أما النيوترون فيتألف من الكواركات الثلاث التالية : (أعلى) و(أسفل) ، و(أسفل) ، وبذلك تكون شحنة النيوترون الكلية صفراً ، كما هو معروف . كما أن الميزونات نفسها ، مثل البيونات ، تتألف كل منها من زوج من الكواركات أعلى وأسفل ومضاداتها . وهناك أمور غريبة حول الكواركات فشحناتها الكهربائية تساوي أعداداً كسرية (غير صحيحة) من مقدار شحنة الإلكترون ، وهي المرة الأولى التي تقابل فيها هذا الوضع . والأمور الأخرى هو أنه لم يتمكن أحد من مشاهدة الكواركات الآن ، بل يبدو أن هذه الكواركات توجد فقط مخبئة داخل الباريونات والميزونات (وهي مجموعة كبرى تنتمي إليها المهادرونات) ولا يمكن فصلها عن بعضها البعض إذ يبدو أن قوة التجاذب بين هذه الكواركات لا تتناقص مع تزايد المسافة ، كما هو الوضع في التفاعلات الأخرى وبذلك لا يمكن كسر الرابطة بين هذه الجسيمات . ومع ذلك ، فإن نظرية الكوارك ، إذا ثبتت صحتها كما هو متوقع ، ستخفف عدد الجسيمات الأساسية إلى حد كبير . إذ يمكن عندئذ تركيب مئات المهادرونات من عدد محدود جداً - ستة على وجه التحديد - من الكواركات ، مما يشكل قفزة هائلة في هذا المجال .

ونجرب الآن محاولات عديدة أخرى لتبسيط وتوحيد موضوع الجسيمات الأساسية فهناك الاتجاه إلى تطوير ونظرية موحدة كبرى ، وهي نظرية للتوحيد بين القوتين ، الكهربائية والضعيفة والقوية . كما أن هناك اتجاهات لتطوير نظرية الأوتار الفائقة و Superstrings التي تنطوي على مفهوم أن الجسيمات هي عبارة عن حالات مختلفة لأوتر ما ، حيث تمثل الحالات المختلفة أنماطاً مختلفة من الحركة في فضاء ما . ولاتزال هذه المحاولات في بدايتها ، لكنها تلقي أضواء على جوانب مختلفة من هذا الموضوع المثير .

وهناك أخيراً التفاعل الثقالي بين الجسيمات ، وهو الموضوع الذي وضع أسسه نيوتن في القرن السابع عشر ، هذا التفاعل هو أضعف من التفاعلات الأخرى بكثير (فهو أضعف من التفاعل الكهرومغناطيسي مثلاً بحوالي  $10^{36}$  مرة)

مرة) ، لكنه يلعب دورا رئيسيا في ترابط الأجسام العادية والكبيرة مثل ترابطنا مع الأرض وترابط الكواكب مع الشمس ، على سبيل المثال - لكنه لا يلعب أي دور مثلا في ترابط الذرات أو ترابط النوى ، وذلك بسبب ضعف هذا التفاعل «الثقالي» مقارنة مع التفاعلات الأخرى . لكن تجري الآن محاولات لمعالجة هذا التفاعل بطريقة كمومية مشابهة لمعالجات التفاعلات الأخرى . وحسب هذه النظرية فإن التفاعل الثقالي (بين كتلتين) يتم بتبادل جسيمات تدعى غرافيتونات (جمع غرافيتون) بينها ، حيث تلعب دور الجسيم الوسيط الذي يحمل التفاعل - كما يحمل الفوتون التفاعل الكهرومغناطيسي . لكن لم تتم مشاهدة لغرافيتون حتى الآن ، مما يضعف هذه النظرية إلى حد ما . إلا أن صعوبة هذه للمشاهدة أمر متوقع تماما وذلك لضعف التفاعل الثقالي .

ومعها يكن الأمر ، فإن التقدم السريع الذي يحصل الآن في هذا المجال يوحي ان المستقبل القريب سيحمل لنا نظريات هامة تكون ذات تأثير كبير في عالم الفيزياء والفيزياء الفلكية .

#### لمحة عن المنهجية الفيزيائية

بعد هذه الجولة الطويلة في عالم الفيزياء ، من قديمه إلى حديثه ، قد يكون مفيدا أن نأخذ استراحة قصيرة للتأمل في طبيعة هذا العلم وفي فلسفته وفي الطرق المستخدمة لنموه وتطوره . وقد نبدأ هذا الموضوع بالسؤال الطبيعي - ماهي الفيزياء ؟ ليس هناك في الحقيقة جواب واحد متفق عليه لهذا السؤال ، لكن جوابا يمكننا مقبولوا هو التالي : الفيزياء هو العلم الطبيعي المعني بدراسة القوانين العامة للمادة والطاقة بأشكالها المختلفة ، وبدراسة جميع التفاعلات الموجودة في الطبيعة . وبهذا فإن الفيزياء تعالج الحركة والزمن وتركيب وبنية الأجسام ، وتعالج الصوت والضوء وتعالج الذرات والنجوم والكواكب ، وتعالج أيضا فناء المادة وتوليدها وغير ذلك من الظواهر والأشياء الفيزيائية . وكلمة (فيزياء) تأتي من الكلمة اليونانية القديمة (فيزيس) ، التي تعني جوهر الحقيقة أو الصيغة النهائية للحقيقة . لذلك فإن الفيزياء تسمى أحيانا بـ (الفلسفة الطبيعية) أو فلسفة الطبيعة .

وتهدف الفيزياء ، والعلوم الطبيعية الأخرى ، إلى أن تعطينا فهما شاملا وكاملا للكون الذي نعيش فيه . و«الفهم» هنا يعني تحويل الأحداث والظواهر المختلفة التي نرصدها إلى أفكار ومبادئ عامة لها انتظامات معينة ومميزة .

وتبدأ العملية في العادة بـ (البيانات) الناتجة عن عمليات قياس ورصد على ظاهرة ما أو حادث ما ، من هذه البيانات ، يحاول الفيزيائي أن يحدد نمطا واضحا يربط هذه البيانات ببعضها بعضا . وعندما يعبر العالم عن هذا النمط بمعادلة رياضية أو (قانون) فإنه يحصل على (قانون) - أو (مبدأ) ، كما يسمى أحيانا . لكن هذا القانون يبقى تجريبيًا بحتا ، بسبب ارتباطه الوثيق بالبيانات التجريبية ، هذا القانون لا يمكن اعتباره بعد على أنه شرح كامل للظاهرة التي نرصدها ، أو لظواهر أخرى مرتبطة معها بشكل أو آخر . لكن يذل الفيزيائيون جهودا للحصول على هذا الشرح الشامل ، وعندما ينجحون في ذلك فإنهم يحصلون على (نظرية) . هذه النظرية تستطيع أن تشرح

القانون وتفسر البيانات للظاهرة المرصودة والظواهر العديدة الأخرى المرتبطة بها . فالتطور الطبيعي إذن يتم بالشكل الآتي : بيانات - قانون - نظرية .

وغير مثال على هذه العملية التطورية الفيزيائية هو دراسة حركة الكواكب في النظام الشمسي . لقد بدأت العملية جلباً بأعمال الفلكي (براهي) في القرن السادس عشر ، حيث أجرى وجمع عدداً هائلاً من البيانات الدقيقة عن حركة الكواكب ، أي عن مواقع هذه الكواكب وعن تغير هذه المواقع من يوم لآخر على مدى سنوات طويلة . هذه البيانات أتت من ملاحظة الطبيعة نفسها وكانت دقيقة وموثوقة . لكن براهي نفسه لم يستطع أن يستخلص أن غط (علاقة) تربط بين هذه البيانات ، رغم جهوده ومحاولاته في هذا الاتجاه . وقد تم اكتشاف القانون المنشود من قبل مساعده كيلس الذي درس هذه البيانات بالتفصيل ، ونجح في الربط بينها ، وخصوصاً بالنسبة لحركة كوكب المريخ . هذه هي قوانين كيبلر الثلاثة التي تكلمنا عنها سابقاً (جزء ١ - ١) . حيث يجدد القانون الأول شكل المدار الكوكبي حول الشمس (قطع ناقص) ، ويحدد القانون الثاني اعتماد سرعة الكواكب على مكانه في المدار ، ويربط القانون الثالث بين الزمن الدوري ونصف قطر المدار .

ورغم أهمية هذه القوانين ، فلها ظلت تجريبيّة بحتة ، بدون استناد إلى نظرية شاملة تستطيع تفسيرها . وقد أتت هذه النظرية أخيراً على يدي (نيوتن) - الذي قدم قوانين جديدة عن الحركة الدقة والكتلة ( قوانين نيوتن الثلاثة - جزء ٢ - ١ ) وقانوناً رابعاً جديداً تماماً بخصوص التجاذب الثقالي بين الكتلات . ( ولاحظ هنا أن قوانين نيوتن الحركية نفسها كانت مستخلصة من بيانات عديدة على حركة الاجسام على الأرض ) .

وباستخدام هذه القوانين جميعها بطرق رياضية واضحة ، تمكن نيوتن من « اشتقاق » قوانين كيبلر جميعها . وهكذا نستطيع أن نعتبر أن أعمال نيوتن تشكل نظرية كاملة . ومن خواص النظرية ، كما رأينا ، مقدرتها على معالجة ظواهر أخرى أو التنبؤ بظواهر جديدة . وهذا ينطبق على نظرية نيوتن ، التي لم تقتصر على شرح حركة الكواكب ، بل استطاعت أيضاً أن تفسر السقوط الحر للأجسام عند سطح الأرض ، ودوران القمر حول الأرض ، وهي النظرية نفسها التي نستخدمها الآن في دراسة حركة الأقمار الصناعية المتعددة حول الأرض .

ومن الصفات الرئيسية لعلم الفيزياء تطوره وتقدمه المستمر . فالأجهزة الحديثة والمتطورة باستمرار تمكنتنا من إجراء قياسات في مجالات جديدة وبدقة أكثر مما مضى . وقد أدى ذلك إلى تطور مستمر في النظريات الفيزيائية . فقياسات مايكلسون الدقيقة لسرعة الضوء ، على سبيل المثال ، أدت في النهاية إلى نظرية آينشتاين النسبية في عام ١٩٠٥ ، مما أدى إلى تغير شامل في نظرية نيوتن الحركية . وقد أمكن التأكد من صحة كثير من نتائج النظرية النسبية من خلال تجارب جديدة أجريت على جسيمات في مسرعات عالية الطاقة لم تكن متوفرة منذ وقت طويل . هكذا فإن « نظرية » نيوتن ليست مطلقة الصالحية ، وإنما هي « نظرية » أو « برنامج » عمل ومفيد صالح ضمن حدود معينة من السرعة وعوامل أخرى . وحتى نظرية آينشتاين نفسها قد لا تمثل الحقيقة النهائية عن الموضوع ، وإنما هي أيضاً

نموذج صالح ومؤقت ومفيد ، تحلفها نظرية جديدة أكثر دقة منها ، وهكذا ، وفي هذه الحالات ، يشير الفيزيائيون إلى النظرية المحددة على أنها نموذج - أي برنامج مبسط لدراسة ظاهرة ما . فلو شئنا دراسة موضوع ما ، وأردنا نمجّب التعقيدات النسبية الكثيرة - وغير الضرورية في كثير من الأحيان - فإنا نستطيع استخدام ( النموذج النيوتني ) ، على أنه كافٍ لدراستنا ضمن الظروف المحددة .

وقد لعبت الرياضيات دوراً هاماً في تطور العلم الفيزيائي . فالفيزياء علم كمي ، والمفاهيم الفيزيائية - كالكتلة والطول والتابع الموجي - يعبّر عنها برموز رياضية جبرية تدخل معادلات رياضية مختلفة للتعبير عن القياسات والبيانات والعلاقات بمعادلات رياضية له فائدة كبيرة في تلخيص كميات هائلة من البيانات والأفكار . بمعادلات قليلة جداً وإبراز الأفكار الرئيسية في الموضوع . أضف إلى ذلك ، أن المعالجة الرياضية تؤدي في كثير من الأحيان إلى نتائج جديدة غير متوقعة . ففي أمهال ماكسويل الكهروستاتيكية ( جزء ٤ - ٣ - ٤ ) ، تلخيص واحتواء لجميع أمهال من سبقوه عن الموضوع - كولومب وأمبير وفارادي - والتي تشكل مجلدات عديدة . ويمكن ماكسويل من التعبير عنها جميعها بواسطة بضعة معادلات رياضية بسيطة وأنيقة المظهر . ولكي يجهل التناظر الرياضي - الفيزيائي بين المجالين الكهربائي والمغناطيسي كلاً ، أضف ماكسويل طرفاً للمعادلة عرف باسم « تيار الانزياح » . ومن خلال معالجة بسيطة لمعادلاته هذه ، اكتشف شيتين جيلدين غير متوقعين وعلى غاية الأهمية : الأول هو إمكانية وجود أمواج كهروستاتيكية ، والثاني هو أن الأمواج الضوئية هي في الحقيقة نوع من الأمواج الكهروستاتيكية . وقد تم فعلاً اكتشاف هذه الأمواج من قبل هيرتز بعد سنوات قليلة من تنبؤات ماكسويل . وهناك أمثلة كثيرة أخرى يمكن أن نسوقها للتدليل على أهمية الرياضيات في الفيزياء ، ومن أبرزها حديثاً تنبؤ ديراك بوجود البوزيترون - أو الإلكترون المضاد . هذا الجسم هو الأول بين الجسميات المضادة التي اكتشفت نتيجة لما افترضه ديراك في أواخر العشرينات نتيجة لملاحظته لحركة الإلكترون ضمن مقتضيات ميكانيك الكم والنظرية النسبية وبعض التناظرات الرياضية .

ونذكر أخيراً أن البحث في توحيد القوى الفيزيائية والربط بينها لعب دور حيويًا وحفازاً في تقدم الفيزياء وتطورها عبر فترة طويلة من الزمن . ففي القرن التاسع عشر ، مثلاً أدت أمهال أمبير وفارادي وأخيرًا ماكسويل إلى توحيد تام وشامل بين عمالي الكهرباء والمغناطيسية ، اللذين كانا منفصلين تمامًا في القرن الثامن عشر ثم أعقبهم أينشتاين في قرنتا العشرين ليثبت أن المجالين الكهربائي والمغناطيسي هما في الواقع من طبيعة واحدة ، وأن وجود أحدهما أو عدم وجوده يعود إلى حركة إطار الراصد الذي يجري التجربة ، وفي السنوات الأخيرة قام عبدالسلام - واينبرغ - غلاشواو بتوحيد التفاعلات الكهروستاتيكية والضعيف ، وهو عمل يشبه إلى حد ما التوحيد بين الكهرباء والمغناطيسية الذي أشرنا إليه سابقاً . هذا ومن المعروف أن أينشتاين قضى جزءاً كبيراً من حياته في محاولات لتوحيد التفاعل الثقالي مع التفاعلات الأخرى .

إن الحلم الأكبر للفيزيائيين يكمن في التوصل إلى التباينة في المعادلة أو نظرية واحدة تضم محتويات جميع التفاعلات والقوى المعروفة في الطبيعة . ومع أن هذا الهدف قد يبدو غير واقعي الآن إلا أن « النظرية » الجديدة المعروفة بـ ( نظرية الوتر الفائقة ) تجسد فعلاً هذا الهدف ويأمل أنصارها أن تكون النظرية التي « تشرح كل شيء » .

لكن يجب الإشارة إلى أن هذه ليست الآن نظرية بالمعنى المعروف ، وإنما هي فرضية تتعرض لاختبارات عديدة نظرية وتجريبية - قبل قبولها كنظرية أو رفضها أو تعديلها .

ونختتم هذا العمل بقول من الفيزيائي - الرياضي الفرنسي العظيم « لوانكازي » ( ١٨٥٤ - ١٩١٢ ) عن أهمية علاقة الفيزياء بالطبيعة : « نحن اليوم لا نقوم باستجداء الطبيعة . أننا نأمرها ، لأننا اكتشفنا بعضاً من أسرارها وسنكتشف أسراراً أخرى كل يوم . نحن نأمرها باسم قوانين لا نستطيع أن نخالفها ، لأن القوانين هي قوانينها . ونحن لانطالبها بمخالفة هذه القوانين ، بل نرضخ لها بكل رضا . وهكذا يمكن أن نحكم الطبيعة بالرضوخ إلى قوانينها » . هذا القول يجب أن يذكرنا بأن الفيزياء هي ، قبل وبعد كل شيء ، علم يستمد قوته من التجربة ويتحكم بها ، ولغته هي الرياضيات ، أما هدفه فهو ليس أقل من الوصول إلى ( جوهر الحقيقة ) .

#### السجل الزمني لتطور نظريات الفكر الفيزيائي :

عام ١٦٠٠ ( جيلبرت ) يقوم بالتجارب الأولى في مجال المغناطيسية والكهربائية .

١٦٣٨ ( غاليليو ) ينشر كتابه « علمان جديدهان » وفيه وضع أسس الديناميك ، وكذلك أسس الطريقة التجريبية ( بدلا من المنطقية الفكرية ) في دراسة الطبيعة .

١٦٦٢ ( بويل ) يكتشف قانونه في الغازات .

١٦٧٥ نيوتن يعلن نظرية الضوئية الجسيمية .

١٦٧٨ هانغنز يعلن النظرية الموجية للضوء ( تطور النظرية وتوضع في صيغة رياضية في عام ١٧٥٠ من قبل الفيزيائي الرياضي الشهير أويلر ) .

١٦٨٧ نيوتن ينشر كتاب « المبادئ الرياضية » الذي يشتمل على القوانين الأساسية للميكانيك والثقالة . من أعظم التطورات في تاريخ الفيزياء .

١٧٣٨ بيرنولي يقترح النموذج الأول للنظرية الحركية للغازات .

١٧٦٦ كافينديش يكتشف خلال السنوات القادمة قانون التربيع العكسي للتفاعل بين الشحنات الكهربائية ، وقوانين أخرى في الكهرباء لم ينشر النتائج بسبب خجله وانمزاجه المفرطين لكنها ظهرت فيما بعد عندما نشر ماكسويل هذه الأعمال .

١٧٨٥ كولومب يكتشف قانون التربيع العكس بين الشحنات الكهربائية .

- ١٨٠٠ هولندا يصنع البطارية الأولى ، بعد تجارب غالvani في ١٧٨٠ عن الكهرباء الحيوانية .
- ١٨٠١ يونغ يبرهن أن تجريته في التداخل الضوئي متفقة مع النظرية الموجية .
- ١٨١٠ - ١٨٧٥ فرنيل ومالوس وفيزو فوكولت في فرنسا يشتون من خلال تجارب عديدة أن الضوء يتألف من أمواج معترضة ، ويقومون كذلك بقياس سرعة الضوء في الفراغ والأوساط المختلفة .
- ١٨١٥ - ١٨٢٠ فراونهوفر يلاحظ الخطوط للنواصر ، وايضا الخطوط الامتصاصية في الطيف الشمسي .
- ١٨٢٠ اور ستيد يكتشف أن التيار الكهربائي يولد مجالا مغناطيسيا إنها بداية الكهربائية .
- ١٨٢٣ امير ينشر النظرية الرياضية للكهربائية بما فيها المجال المغناطيسي للتيار الكهربائي .
- ١٨٢٦ اوم يكشف قانونه عن الدائرة الكهربائية .
- ١٨٣١ فاراداي وايضا هنري يكتشفان قانون الحث الكهربائي .
- ١٨٤٢ دويلر يكتشف ظاهرة اعتماد طول الموجة أو التردد على حركة المصدر او الراصد .
- ١٨٤٢ ماير يحسب المكافئ الميكانيكي للحرارة ، عن طريق الحرارة النوعية للغازات .
- ١٨٤٣ جول يقوم بتجارب تثبت التكافؤ بين الطاقة الميكانيكية والحرارة - خطوة أساسية نحو قانون حفظ الطاقة .
- ١٨٤٧ هيلمهولتز يقترح قانون حفظ الطاقة (استعمل كلمة القوة بدلا من الطاقة) .
- ١٨٨٤ جول يطور النظرية الحركية للغازات ويحصل على التفسير الميكانيكي لدرجة الحرارة
- ١٨٥٠ - ١٩٠٠ ماكسويل وبولتزمان ( وايضا جيبز في امريكا ) يطورون النظرية الحركية الاحصائية للغازات .
- ١٨٥٩ كير كوف يقوم بدراسات طيفية عديدة على الغازات والسطوح المشعة .
- ١٨٦٤ ماكسويل ينشر النظرية التي توحد الكهرباء والمغناطيسية والضوء . من أعظم الاعمال منذ كتاب نيوتن .
- ١٨٧٩ كروك يجرى تجارب عديدة رائدة عن التفرغ الكهربائي في الغازات
- ١٨٧٩ ستيفان ينشر القانون الذي يحدد علاقة القدرة الاشعاعية مع درجة الحرارة للسطح الاسود .

- ١٨٨٤ بالمز ينشر علاقة عديدة لطول الموجات في طيف الهيدروجين .
- ١٨٨٧ مايكلسون ومورلي يجران التجربة الدقيقة الأولى لقياس حركة الأرض في ( الاثير ) . النتيجة كانت سلبية ، لكنها أدت الى تطورات هامة .
- ١٨٨٧ هيرتز يثبت وجود الأمواج الكهرومغناطيسية التي تتبأ بها ماكسويل
- ١٨٩٣ فين يشتق قانون الانزياح في إشعاع السطح الأسود .
- ١٨٩٥ رونتغن يكتشف الأشعة السينية .
- ١٨٩٦ بيكريل يكتشف الاشعاع النووي في اليورانيوم .
- ١٨٩٧ تومسون يقيس النسبة بين شحنة الالكترون وكتلته .
- ١٨٩٧ رذرفورد يبدأ تجاربه عن الإشعاعات وبنووية .
- ١٨٩٨ بير ومارى كيرى يفصلان عنصرى الراديوم والبولونيوم .
- ١٩٠٠ بلانك يقدم النظرية الكمية للاشعاع .
- ١٩٠٣ رذرفورد وسودى يثبتان ان الاشعاع النووي يؤدي الى تحريك عناصر المواد المعينة .
- ١٩٠٥ آينشتاين يقدم النظرية النسبية الخاصة الفوتونية للتأثير الكهروضوئى ( ومعالجة إحصائية للحركة البراونية ) .
- ١٩٠٧ رذرفورد يقدم نموذج النوى للذرة
- ١٩٠٧ - ١٩١٢ تومسون مرة أخرى ، يبدأ بتطوير جهاز مطياف الكتلة .
- ١٩٠٩ - ١٩١١ ميليكان يقيس شحنة الالكترون
- ١٩١١ كاميرلينغ - أرنز يكتشف الناقلة الفاتكة ، بعد ان استطاع إرساله الهيليوم .
- ١٩١٣ بوهر يقدم نموذجيه عن بنية ذرة الهيدروجين .
- ١٩١٥ آينشتاين يقدم النظرية النسبية العامة . التحقق التجريبي الأول للنظرية أتي في عام ١٩١٩ خلال قياسات عن انحراف الضوء خلال الكسوف الشمسى .



١٩١٩ رذرفورد ينتج هيدروجين وواوكسجين من تصادم الفا مع النيتروجين . إنه التحويل العنصري الاصطناعي الأول في التاريخ .

١٩٢٤ دي برويل يقدم مفهوم الأمواج المادية .

١٩٢٥ أولينيك و وفود سميت يقترحان وجود خاصية اللف للالكترون .

١٩٢٥ باولي ينشر مبدأ الاستبعاد .

١٩٢٥ هايزنبرغ و بورن وايضا جوردان يطورون ميكانيك الكم .

١٩٢٦ شروديجر يقدم النظرية الكمية - الموجية للهيدروجين .

١٩٢٧ هايزنبرغ يعلن مبدأ الارتياب في ميكانيك الكم .

١٩٢٧ داليسون وجيرير وايضا تومسون الابن يحصلون على الانحطاط الحيويدية للالكترون . ويتنبأ بوجود البوزيترون .

١٩٣٢ لورانس يبني مسرع السايكلوترون الأول .

١٩٣٢ تشادويك يكتشف النيوترون

١٩٣٢ أندرسون يكتشف البوزيترون

١٩٣٨ هان وستراسمان يكتشفان الانشطار النووي في اليورانيوم بسبب ارتطام النيوترون به وتولد نيوترونات أخرى من الانشطار . بداية التفكير بالتفاعل التسلسل .

١٩٣٩ بيت وفاساكير يقترحان الاندماج النووي كمصدر للطاقة في الشمس والنجوم .

١٩٣٩ أوبنهايمر يقترح وجود الثقوب السوداء في الكون .

١٩٤٢ فيرمي . يبني المفاعل النووي الأول في التاريخ .

١٩٤٥ تطوير وتفجير القنبلة النووية الأولى في التاريخ وانتهاء الحرب العالمية الثانية أصبح كل شيء مهياً لولادة عصر جديد من التكنولوجيا وبداية الثورة الصناعية الثانية .



## المراجع

- Abbo A. The Rise of the New Physics (Dover, 1951) Vols. I and II. - ١
- Arons, A., Development of Concepts in Physics (Addison - Wesley, 1965). - ٢
- Cajori, F. A History of Physics (Dover, 1962). - ٣
- Dampier, W.C., A History of Science (Cambridge, 4th ed. 1966). - ٤
- Einstein, A., and Infeld, L., The Evolution of Physics (Simon the Schuster, 1961). - ٥
- Gribble, J., Schrodinger's Cat (Wild-Wood House, London, 1964). - ٦
- Hey, T., and Writers, P., The Quantum Universe (Cambridge, 1987) - ٧
- Holton, G., Roller, D.H.D. and D., Modern Physical Science (Addison-Wesley, 1958). - ٨
- Maggie, W.F., A Source Book in Physics (McGraw-Hill, 1935). - ٩
- Mason, S.F., A History of the Sciences (Collier, 1962). - ١٠
- Phillips, M.N., Physics History from AAPT Journals (American Association of Physics Teachers, 1985). - ١١
- 21 ' Sears, F.W., et. al., University Physics. (Addison-Wesley, 6th ed., 1982). - ١٢
- Weorl, S.R. and Phillips, M., History of Physics (American Institute of Physics-1985). - ١٣
- Webber, R.L., Pioneers of Science (The Institute of Physics, London, 1980). - ١٤
- Hecht, E., Physics in Perspective (Addison-Wesley, 1980). - ١٥

### ملخص :

تسرد هذه الورقة تسلسل الأحداث التي أدت إلى نشأة بحوث العمليات وتطور تطبيقاتها العملية بدءاً باستخداماتها في المجال العسكري ، خاصة في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وانتشارها فيما بعد لتغطي العديد من المجالات الصناعية والزراعية والصحية والتعليمية والاجتماعية . ويتطرق المقال إلى المنهج العلمي وطرق توظيفه في تطبيقات بحوث العمليات بما في ذلك خطوات تطوير وحل النماذج الرياضية .

وملحق بالبحث أمثلة لاستخدام نماذج البرمجة الخطية والنقل والبرمجة الدينامية ونماذج الانتظار في مجال الصناعة ، وتوزيع المنتجات وتخصيص الأعمال والصيانة ، وبعض تطبيقات بحوث العمليات في المجالين التعليمي والصحي ، بهدف تقريب مفهوم بحوث العمليات إلى ذهن القارئ .

ويتناول البحث التطور والنمو المتوقعين في بحوث العمليات خاصة من حيث تنوع مجالات التطبيقات وتوعية الأبحاث المستقبلية . كما يعرض للتطور في الجمعيات المهنية والدوريات العلمية وبرامج التعليم في مجال بحوث العمليات . وفيه نبذة مختصرة عن تطور بحوث العمليات في الوطن العربي ومحاولة استشفاف الدروس المستفادة من الأحداث التي أدت إلى تطور ونمو بحوث العمليات .

وتنتهي الورقة بمحاولة للإجابة عن السؤال المطروح بعنوان المقال «بحوث العمليات : علم حديث أم منهج جديد» ؟

## بحوث لعمليات علم حديث أم منهج جديد؟

عبد الغني الإمام

### البيدات :

ليس من العسير ، وعلى خلاف غالبية المجالات العلمية والتقنية الحديثة الأخرى ، التعرف بدقة على مجريات الأحداث التي أدت الى ظهور بحوث العمليات ، نظرا لقرب العهد ببداياتها ولأن تطورها موثق توثيقا جيدا. لارتباطها بالمجال العسكري في نشأتها . ففي عام ١٩٣٥ ، وكجزء من مجهودات بريطانيا لتجهيز الوسائل الكافية للتصدي للتهديد المنافس لسلح الجو الألماني ، قام العديد من العلماء باجراء سلسلة من التجارب العاجلة بهدف تحديد موقع طائرة عن طريق ارسال موجات راديو من محطات أرضية والتعرف على انعكاساتها عن الطائرة فيما عرف بعد ذلك باسم الرادار . ولقد تبلور علم بحوث العمليات لنفس السبب الذي استحدثت من أجله الرادار ، ألا وهو استيفاء الاحتياجات العسكرية للدفاع عن بريطانيا ضد الهجمات الجوية أثناء الحرب العالمية الثانية . ويصعب فهم مصدر بحوث العمليات بدون النظر الى أصل الرادار ، خاصة وأن أول مجموعة لدراسات بحوث العمليات تكونت بالكامل من الرواد والعلماء ذوي الخبرة في الأبحاث التقنية لتطوير الرادار . لقد بدأت هذه التجارب في أوفوردنيس Orfordness على الساحل الشرقي لبريطانيا على بعد حوالي مئة كيلومتر شمال مصب نهر التيمز واستمر العمل بعد هذا في بودزي Bawdsey ، على بعد ١٦ كيلومترا الى الجنوب ، حيث استقر فريق البحث وتم تركيب المعدات المصممة حديثا . ومن الواضح أن معظم الرواد الأوائل لبحوث العمليات اعتبروا عملهم علميا بالدرجة الأولى . اذ يقول بلايكت (Blackett, 1962) في عام ١٩٤١ ان دراساته ما هي الا « تحليل علمي للعمليات » ، مؤكدا توفير الظروف المناسبة لئلا هذا العمل بقوله : « المطلوب هو بحث علمي من الدرجة الأولى يقوم به باحثون ذوو قدرات علمية عالية » .

ومن الخصائص الواضحة لبحوث العمليات كما تمارس اليوم أنها ذات صبغة عملية ، اذ أن غرضها هو المساعدة في إيجاد وسائل تحسين كفاءة العمليات الجارية أو المستقبلية . ولانجاز ذلك فلا بد من دراسة العمليات السابقة بهدف التعرف على الحقائق وتوضيح النظريات التي تشرح هذه الحقائق ، واستخدام هذه النظريات والحقائق لاستشراف العمليات المستقبلية في تحقيق غاية مقصودة . وبطبيعة الحال ، فإن الاستشراف غالبا ما يتعرض لتغير كبير الا أن هناك كثيرا من الوسائل الكمية للاستشراف أعطت نتائج مرضية تشير الى الاستقرار النسبي والملموس كثيرا في العوامل التي تؤثر في العمليات المتكررة . ويلاحظ كل من مورس وكيمبال (Morse and Kimball, 1946) أن الكثير من القوى البشرية والآلات التي تقوم بعمليات معقدة تتبع خطوات منتظمة بطريقة تبعث الى الدهشة ، الأمر الذي يمكن باحثي العمليات من استشراف نتائج هذه العمليات بدقة وعلى غير ما يعتقد كثير من علماء العلوم الطبيعية .

ويميز الرواد الأوائل في مجال بحوث العمليات حداثة ما يقومون به الى سببين رئيسيين : الأول يتعلق بظاهرة خضوع نظم التشغيل (Operating Systems) الى الدراسة العلمية والثاني يتناول الترتيبات الادارية التي طورت بهدف التنفيذ العملي لما تم استخلاصه من الدراسة العلمية ، وما زالت هذه الرؤية صالحة الى يومنا هذا .

### • أحداث ما قبل الحرب العالمية الثانية وعلاقتها ببحوث العمليات :

تناول هنا الأحداث ذات الأهمية في نشأة بحوث العمليات خلال السنوات (١٩٣٣ - ١٩٣٩) ، ابتداء من تولي أدولف هتلر مقاليد السلطة وحتى انفجار الموقف عام ١٩٣٩ . ونسرد هذه الأحداث كما يروينا أحد العلماء الذين شاركوا فيها ، هارولد لارندر (1984) Harold Larnder إذ قدم باختصار أنشطة بحوث العمليات قبل وأثناء الشهور الأولى للحرب عندما ساهمت دراسات بحوث العمليات في الانتصار في معركة بريطانيا عام ١٩٤٠ . وتقف الأحداث في هذه السنوات كعلامة مميزة وسباق هام مع الوقت بين هتلر الذي أعلن عن عزمه بناء قوة جوية ضاربة تتعدى قدرات كل من سلاحي الجو البريطاني والفرنسي مجتمعين وبين بريطانيا في تطوير قدرات الدفاع الجوي حتى تصبح فعالة في مقاومة الهجمات الألمانية على الجزر البريطانية .

عام ١٩٣٣ لم تكن ألمانيا تمتلك حيتل القوة الجوية التي تهاجم بها بريطانيا ولم يكن لدى بريطانيا ، دفاع ضد الهجمات الجوية . وهناك فارق واضح بين موقف الدولتين . فلم تكن هناك معوقات سياسية أو عملية تعرقل بناء القوة الجوية الألمانية كما تصورها هتلر في ذلك الوقت . وعلى العكس من ذلك ، كانت بريطانيا تواجه مشكلة تقنية ليس لها حل . وتتعاطم المشكلة لأن الجزر البريطانية تقع على بعد حوالي ٧٠ ميلا من الساحل الألماني ، أي مجرد ١٧ دقيقة طيران للقاذفات الألمانية . ولم تتوافر في ذلك الوقت الوسائل الكفيلة بتحذير دفاعات الجو البريطانية ضد هجمات العدو عن طريق متابعة تحركات القاذفات المعادية بما يتيح للمقاتلات الجوية الدفاعية الوقت الكافي للاطلاع والاشتباك معها قبل وصولها الى معظم التجمعات المعرضة للهجمات بالجزر البريطانية .

عام ١٩٣٤ انصرف الألمان الى بناء قوتهم الجوية بينما عجز البريطانيون عن إيجاد حل لمشكلتهم الأساسية للاندثار المبكر . وعلى هذا كان من الطبيعي أن يركز سلاح الجو الملكي البريطاني على بناء القاذفات بدلا من المقاتلات . وفي الوقت نفسه ، ونظرا للحاجة لاتخاذ إجراء ما للتغلب على غياب وسائل الانذار المبكر ، كَوّن سلاح الجو في شهر ديسمبر من ذلك العام لجنة برئاسة سير هنري تيزارد Sir Henry Tizard لمراجعة الوسائل العلمية للدفاع الجوي وكانت المهمة الرئيسية لهذه اللجنة هي الاجابة عن السؤال الآتي : « الى أي مدى يمكن الاستفادة من أحدث ما توصلت اليه المعرفة العلمية والتقنية لتقوية وتعزيز الوسائل الحالية للدفاع ضد الطائرات المعادية ؟ ».

وفي غياب حل واضح للمشكلة وجهت اللجنة اهتمامها نحو دراسة امكانية بناء سلاح دفاعي لا يتطلب وقتا طويلا لانذار الطائرات المقاتلة . وعلى الرغم من أن وقت الانذار الذي تتطلبه المدفعية المضادة للطائرات مقبول ، الا أن استعمالها الفعال استبعد لعدة أسباب . لذا توجهت اللجنة نحو البحث في امكانية تطوير « شعاع الموت Death Ray » يستخدم في قتل أو شل قدرة الطيار أو تعطيل الطائرة المهاجمة . ومن أجل انجاز هذا السلاح استشارت اللجنة العديد من العلماء والمهندسين البارزين .

عام ١٩٣٥ قام أحد أعضاء اللجنة بدعوة « روبرت واتسون وات Robert Watson Watt » الى النظر في امكانية تطوير سلاح « شعاع الموت » . على الرغم من شكوكه المبدئية باستحالة الفكرة الا انه قام مع معاونيه بالنظر

والبحث في هذه المشكلة . ولقد أكدت الدراسة استحالة الفكرة الا أنها كشفت عن الحاجة الى تحديد موقع الطائرة المعادية ( حتى لو أمكن تطوير شعاع الموت ) بحيث يمكن توجيهه نحو الطائرة . وقام واتسون وات بابلاغ اللجنة انه على الرغم من عجزه عن اختراع شعاع الموت المطلوب الا أنه يعتقد أن الدراسة التي يقوم بها يمكن أن تؤدي الى تطوير وسيلة بالراديو لتحديد موقع الطائرة المعادية . وعزز واتسون وات ما قدمه للجنة بتجربة بسيطة أقيمت أعضاء اللجنة بتوفير الدعم المالي والعلمي المطلوب لتطوير ما يعرف الآن بالرادار . وبدأت التجارب في أوزفوردنيس في مايو ، وخلال شهر واحد تم التوصل الى مدى يصل حتى ٣٩ ميلا لطائرات معلومة الموقع .

وعلى الرغم من الفصور في قدرات الأجهزة ( التي تم تجميعها على عجل ) سواء في درجة الاعتماد على أدائها أو مدى انتقال الموجات الا أن نتائج هذه التجارب اعتبرت انفراسا علميا حقيقيا .

عام ١٩٣٦ قامت وزارة الطيران البريطانية بإنشاء محطة بودزي للأبحاث على الساحل الشرقي بالقرب من مدينة فيلستوك Felixstowe في مقاطعة سافوك Suffolk كمركز لجميع تجارب الرادار لكل من : الطيران والجيش . وتم تحسين قدرات أجهزة الرادار التحريية حتى أمكن الاعتماد عليها لكشف طائرات على بعد مئة ميل . وفي هذه المرحلة وجهت الدعوة الى لارندر Rader ؛ للالتحاق بفريق واتسون ، ت ليبحث الرادار

عام ١٩٣٧ تم القسم بأول تدريبات قتل الحرب على الدفاع الجوي في سبف هذا العام . وشملت المحطة التجريبية للرادار في بودزي للحصول على المعلومات التي تم تفتتها في نظام الانذار والمراقبة للدفاع الجوي . ولقد حصل فريق البحث على نتائج مرضية فيما يتعلق بالانذار المبكر ، ولكن لوحظ قصور في معلومات النامية الناجمة من الرادار .

عام ١٩٣٨ في يوليو من ذلك العام جرت المناورة الرئسية الثانية في الدفاع الجوي . واشتت أربع محطات رادار إضافية على الساحل ، الا أن المناورات كشفت عن صعوبات جديدة ومشاكل خطيرة هي الحاجة الى التنسيق والربط بين المعلومات الإضافية المتناقضة في كثير من الاحيان والتي تم استقبالها من محطات الرادار الإضافية . وهكذا أعلن رو A.P. Rowe رئيس محطة بودزي للأبحاث أنه على الرغم من أن المناورات أظهرت الجدوى التقنية لاستخدام نظم الرادار في الكشف عن الطائرات المعادية الا أن تدراته التشغيلية عجزت عن الإبقاء بمتطلبات الدفاع الجوي ، واقترح أن توجه الأبحاث فوراً نحو الاعتبارات التشغيلية (Operational) بدلا من العوامل التقنية للنظام . وشرح الاصطلاح « بحوث العمليات Operational Research » الى حيز الوجود ليصف هذا الفرع الجديد للعلوم التطبيقية . وفي اليوم نفسه تم تكوين أول فريق للدراسة بحوث العمليات من بين علماء الرادار تحت قيادة « ويليامز B.G. Williams » وخلال أسابيع معدودات تم تكوين فريق آخر بقيادة روبرتس G.A. Roberts والتحق هذا الفريق بفرقة العمليات لمجموعة القوات لملاحظة ودراسة المراقبين الذين يتعاملون مع المعلومات التي يتم تزويدها من مجموعة الرادار وسلاح الإشارة الملكي . وقام أحد أعضاء الفريق الثاني ، وهو كول I.H. Cole ، بدراسة الوسائل التقنية للتحكم في تشكيلات القتلات ضد تشكيلات القاذفات المعادية خلال العمليات النهارية ثم التحكم في

مقاتلة واحدة ضد قاذفة أثناء ساعات الظلام ، بالإضافة الى المقاتلات من طراز هاريكن Hurricane التي التحقت بالحملة في عام ١٩٣٧ ، تم تشغيل المقاتلة مبتغائر Spitfire في عام ١٩٣٨ وتغيرت الأولويات ل سلاح الجو من القاذفات الى المقاتلات .

ونشير هنا الى أن مساسي رئيس الوزراء العسكريين أنتد طلبوا منه قبل أن يذهب لمقابلة هتلر في ميونخ أن يبذل أقصى ما في وسعه لتفادي الحرب مع ألمانيا في ذلك العام .

عام ١٩٣٩ في صيف ذلك العام قام البريطانيون باجراء آخر مناورات الدفاع الجوي قبل اندلاع الحرب . وشارك فيها ما يقرب من ٣٣,٠٠٠ رجل و ١٣٠٠ طائرة و ١١٠ مدفع مضاد للطائرات و ٧٠٠ أعضاء استكشاف ومائة بالونة تمويه . وقد أثبتت هذه المناورات نجاح طرق تشغيل نظام المراقبة والإنذار للدفاع الجوي . وعزى هذا النجاح الى المساهمات القيمة التي قدمها الفريقان برئاسة كل من روبرتس وويليامز . ونظرا لأداء هذين الفريقين المتميز ، فقد طلب مارشال الجو سير هيو دونج Sir Hugh Dowding قائد قيادة المقاتلات التحاق أعضاء الفريقين بمقر قيادته في ستانمور Stanmore تحت مظلة ادارة جديدة سميت «بحوث ستانمور» (Stanmore Research) ، رأسيا لارنر ابداء من الثالث سبتمبر ١٩٣٩ . ولقد تم تغيير اسم هذه الادارة الى «قسم بحوث العمليات Operational Research Section» عام ١٩٤١ ، سداً نم الاعتراف رسميا بالاصطلاح «بحوث العمليات» . وأنشئت عدة أقسام مماثلة له في باقي قيادات سلاح الجو الملكي .

#### ● بحوث العمليات في بريطانيا (١٩٣٩ - ١٩٤٠)

تركزت هجمات الألمان الجوية ضد بريطانيا أثناء خريف عام ١٩٣٩ وشتاء وبيع ١٩٤٠ في اختراقات قصيرة فرق الساحل بواسطة تشكيلات سمعية لصرب السفن الخفيفة والفرقاطات وزرع الغام بحرية من الجو على الساحل الشرقي خاصة بالقرب من مصب نهر التيمز . ويشير تقرير لوزارة الجو البريطانية صدر عام ١٩٦٣ ( صفحة ١٢ ) الى «أن الكفاءة العالية لمحتلات الرادار التي تم التوصل اليها في وقت معركة بريطانيا ترجع الى حد كبير الى قيام ادارة بحوث العمليات بتحليل كل حالة من حالات الفشل في اعتراض الغارات النهارية تقريبا منذ غارة «Firth of Forth» في شمال البحر البريطانية في أكتوبر ١٩٣٩» . واتسعت دراسات الادارة لتشمل تنفيذ نظام المراقبة والإنذار بالمعلومات لاستثمار وتجهيز الطائرات المقاتلة الدفاعية . بالإضافة الى ذلك فقد مد قسم بحوث العمليات يد المساعدة الى البحرية البريطانية في تحديد المراق المحسنة للألغام بناء على مسارات الطائرات المعادية أثناء القتال هذه الألغام وأدى هذا الى تلقي القسم لتطلبات منتظمة للمساعدة في مثل هذه المسائل .

وكان مايو ١٩٤٠ منه شرل «انه في تلحق بحوث العمليات في الحرب» إذ طلب الى قسم بحوث العمليات القيام باستشراف نتائج عمليات «بحرية وأرحا على السياسات المحاربة» . ففي هذا الوقت صعد الألمان من هجائهم ضد فرنسا مما ابعده عن الاستعانة بحوالي ١٠ أسرا ، جوية دباعية - قيادة المقاتلات البريطانية ، الأمر الذي يتطلب

الصيانة والتشغيل من مطارات في القارة الأوروبية . وأبدى المارشال دودنج Dowding تحفه من زيادة خسائر هذه الأسراب المقاتلة عند اشتباكها مع المقاتلات الألمانية تحت هذه الظروف . ولقد تحققت هذه التخوفات عندما بلغ معدل الخسائر البريطانية حوالي ٣ أسراب كل يوم ، الأمر الذي سيؤدي ، لو استمر مثل هذا المعدل ، الى إضعاف قدرات المقاتلات في الدفاع عن الجزر البريطانية .

وفي ١٤ مايو ١٩٤٠ علم دودنج أن رئيس الوزراء « تشرشل Churchill » يميل الى الاستجابة لطلب من رئيس الوزراء الفرنسي بإرسال عشرة أسراب مقاتلة إضافية ، فطلب إذاً خاصاً لحضور اجتماع مجلس وزراء الحرب لبدء معارضته لثل هذا الاجراء . وفي الوقت نفسه وبناء على اقتراح ويليامز طلب من لارندر مساعدته في إعداد الدراسات التي تدعم موقفه . وتم القيام بدراسة سريعة لمقارنة معدل الخسائر اليومية العالية بمعدلات الاستبدال الممكنة للمقاتلات المفقودة . وتبين أن هذا التدخل سيؤدي الى إضعاف قدرات القيادة الجوية للمقاتلات الى مستويات غير مقبولة . ونظراً لصعوبة فهم وتبني جدول يربط بين أرقام الخسائر والوقت ومستويات القوات فقد مثلت هذه الأرقام في رسم بياني تم إرفاقها بالتقرير . ولقد أشار المارشال Dowding بعد الاجتماع الى أن هذه الدراسة قد ساعدته في إقناع مجلس وزراء الحرب في توصيته بعدم الاستجابة الى طلب رئيس الوزراء الفرنسي . وهكذا تم استرجاع ٦ أسراب ، ما عدا ثلاثة ، الى بريطانيا خلال أيام .

وتبلى القيمة الحقيقية لدراسة بحوث العمليات هذه في تقديم المعلومات بشكل بياني مما ساعد المارشال دودنج في إقناع المجلس بغضائ تبي قرارات قد تقضي على القوة الجوية البريطانية .

#### • مساهمة بحوث العمليات في معركة بريطانيا Battle of Britain

من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، عند تقييم فوائد النشاط المبكر لبحوث العمليات أن نغفل ذكر معركة بريطانيا في صيف عام ١٩٤٠ . وبالطبع ، فإن معركة مثل هذه تعتمد في نجاحها أو فشلها على كثير من العوامل الهامة . وبالتأكيد لا يمكن ادعاء أن بحوث العمليات هي التي أدت الى كسب المعركة . الا أن بحوث العمليات قد ساهمت بانجازين رئيسيين هامين نحو النصر في هذه المعركة :

الأول يتعلق بمد يد المساعدة للطيارين البريطانيين في التصدي للطائرات الألمانية المهاجمة عن طريق نظام الانذار والمراقبة مما مكّهم من الاقتصاد في مجهودهم واكتساب ميزة تكتيكية في استخدام الشمس والارتفاع لاختيار مواقعهم المثل بالنسبة للقوات المهاجمة . لقد كانت مساهمة بحوث العمليات في فعالية نظام الانذار والمراقبة هامة وملاحظة .

أما الشق الآخر فيلتعلق بالقرار الخاص بإيقاف إرسال أسراب المقاتلات البريطانية الى فرنسا . لقد كسبت بريطانيا المعركة بامتلاكها قوات جوية تتعادل تقريباً مع سلاح الجو الألماني . فلو تم زيادة العشرة أسراب في فرنسا الى عشرين بناء على طلب بعض المسؤولين العسكريين بدلاً من سحبها لوصل معدل الخسارة الى حوالي ٣٦ طائرة يوميا



أي ٢٥٠ - ٢٦٠ طائرة في الاسبوع ، بالإضافة الى التزيف المستمر في خيرة الطيارين ذوي المهارات العالية . فلو تغلب رأى تشرشل وتم ارسال الاصراب الاضافية الى فرنسا لحسرت بريطانيا المعركة في سبتمبر .

ولقد نوه المارشال دودنج بأهمية عمل بحوث العمليات في مذكرة مختصرة وجهها عند تقاعده الى لارنر في عام ١٩٤١ نصها كالآتي : «إن هذه الحرب سيتم كسبها بالتطبيق المنطقي للعلم على احتياجات العمليات» .

### • بداية بحوث العمليات بالولايات المتحدة الأمريكية :

نتنقل الآن الى عرض موجز لبحوث العمليات بالولايات المتحدة الأمريكية من خلال السيرة الذاتية لأحد العلماء البارزين في هذا المجال هو « فيليب مورس Philip M. Morse » وبالذات فيما يتعلق بمجهودات أول مجموعة لبحوث العمليات في الولايات المتحدة (Morse, 1986) في عام ١٩٤١ كان مورس يعمل في مشروع للبحرية الأمريكية يهدف الى التعرف على الضوضاء الناتجة عن السفن تحت المياه . واستخدمات هذه المعرفة في تصميم جهاز لانتاج ضوضاء تشبه ضوضاء السفن يمكن سحبه خلف السفن ليؤدي الى انفجار الألغام الصوتية دون حدوث اضرار للسفينة . وبنهاية ١٩٤١ تم انجاز المشروع بنجاح ، ولكنه لم يشجع رغبات مورس في الاقتراب من الدراسات المتعلقة بالقرارات التشغيلية Operational Decisions للبحرية الأمريكية . وبناء على عدة اتصالات ، تم استدعاه مورس لمقابلة الكابتن « بيكر Baker » بقيادة المنطقة البحرية الأولى في بوسطن في أواخر مارس ١٩٤٢ . وكان الكابتن بيكر يرأس وحدة تشغيلية جديدة تدعى « وحدة الحرب المضادة للغواصات » ، تكون جزءا من أسطول الأطلسي . ولقد أنشأ هذه الوحدة الأميرال كنج King لدراسة وتنسيق دفاعات البحرية ضد الغواصات الألمانية والتي كانت تعمل بنجاح على امتداد الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية . وقضى بيكر عدة شهور بانجلترا للتعرف على الوسائل التي تبنتها البحرية البريطانية وقيادة السواحل لحماية السفن ضد هجمات الغواصات . وأعجب الكابتن بيكر بالمساعدة التي قدمها العلماء المدنيون في استكشاف تكتيكات العدو وتقوم مدى كفاءة الدفاعات ضد الهجمات . وأثناء مقابلة مع بلاكيت الذي شارك في تطوير الرادار لقيادة المقاتلات ، قبل التحاقه كمستشار علمي للبحرية ، علم بيكر أن رادار الانذار المبكر لم يصبح فعالا بالكامل حتى قام العديد من العلميين المدنيين بمراقبة وتسجيل أداء الرادار في ظروف الميدان ، وبالتالي ، اكتشاف القصور في التصميمات الأولى للأجهزة خاصة عند استعمالها بواسطة مشغلين غير فنيين مما أقتنع بلاكيت وبالي العلماء البريطانيين بأهمية تناسب تصميم الأجهزة مع قدرات مستخدميها ، بالإضافة الى ضرورة تزويد المشغلين العسكريين بالتعليمات عن هذه الأجهزة . واستنادا الى ما رآه في بريطانيا طلب بيكر من مورس تكوين فريق عمل علمي لمساعدة وحدته في تحليل الدفاعات المضادة للغواصات .

وعلى الفور جمع مورس عددا من العلماء في الرياضيات والفيزياء من جامعة برنستون ومعهد ماسشوستس للتكنولوجيا ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا وجامعة كاليفورنيا في بيركلي وصل عددهم الى ١٧ ، أكثرهم من علماء الرياضيات . وبدأ الفريق بالاطلاع على العديد من التقارير والوثائق المتاحة عن هجمات الغواصات الألمانية وردود

فعل البحرية الأمريكية تجاه هذه الهجمات ، بالإضافة الى مقابلة بعض الضباط الذين شاركوا في تحديد أماكن النواصات وتعرضوا لهجتها . واتجه الفريق الى التفكير في تطوير نظرية للحرب المضادة للنواصات باستخدام تحليل كمي مبسط . واعتمد هذا التفكير على أن خطورة النواصات تنبع من صعوبة اكتشافها مما يجعل تحديد موقع النواصات المهاجمة من أهم خطوات الدفاع ضدها . وطبقا لتكتيك الألمان ، فإن هذه النواصات تشن هجبتها من تحت سطح الماء بينما تطفو أكثر من نصف الوقت فوق سطح الماء لشحن بطارياتها ولسرعة التحرك بالإضافة الى الاتصال على موجات الراديو القصيرة مع قواعدها بالمانيا ، الأمر الذي يتيح الفرصة لمهاجمتها والقضاء عليها باستخدام الطائرات لتحديد مواقعها وهي تبحر فوق سطح المياه ولكن يبقى بعد هذا العديد من الأسئلة التي تتطلب الاجابة عليها :

- ما هي أقصى مسافة تسمح برؤية غواصة تطفو فوق سطح البحر ؟

- هل رؤية النواصات ممكنة دائما ؟ وما هي نسبة الوقت التي لا يمكن خلاله رؤية الغواصة ؟

واقترح الباحثون بأن الاجابة على هذه الاسئلة ستتمكنهم من تحديد مساحة المحيط التي يمكن تغطيتها بطائرة استكشاف في غضون ساعة . وبالتالي ، يمكن حساب عدد الطائرات المطلوبة لتغطية منطقة معينة في المحيط مع تقدير احتمال رؤية غواصة فيها ، ومن ثم ، تحديد أكثأ المسارات للاستكشاف الجوي عن النواصات بأسرع ما يمكن ، بالإضافة الى تعريف هذه المسارات للمدمرات المزودة بأجهزة السونار والتي تقوم بالكشف عن النواصات العادية لحياة السفن .

وكان لأبد ، قبل تطبيق نظريتهم للاستكشاف أن ينظر الباحثون في كيفية الحصول على المعلومات اللازمة . وتتعلق هذه المعلومات بمدى فعالية رادارات الاستكشاف كما حددها مصمم هذه الأجهزة . ولكن هل تم تحديد هذه المعلومات مع الأخذ بالاعتبار أن هذه الأجهزة يقوم بتشغيلها أفراد طاقم مرهق موجودون على متن طائرة عسكرية أصواتها مزعجة ، تطير فوق محيط مكفهر لمدة ثماني ساعات ، وبدون الكثير من الأجهزة الملاحة الدقيقة المتاحة في العصر الحاضر ؟ أي أن فريق البحث كان عليه أن يحدد بدقة المدى التشغيلي والفعال للرادارات في مناخ الحرب ، لا تحت ظروف المختبر . وهكذا ، اتجه فريق البحث الى تقارير العمليات السابقة للحصول على هذه المعلومات .

وواجه الفريق عقبة رئيسية عند الاستعانة بتقارير العمليات نظرا بحجز هذه التقارير عن الاجابة على العديد من استفساراتهم . وكان الاستبيان المستخدم في هذه التقارير حافلا بالكثير من المعلومات المتفرقة التي تدل على أن الاستبيان وضع بدون تمحيص في التركيب الأساسي لعمليات الاستكشاف ، وتنبيل من التركيز على التواحي الكمية مما أدى الى قصور كبير في البيانات المطلوبة . وبالمقابل ، سمع لوط وجود تعبيرات كبر . في البيانات المتاحة يصعب شرحها .

وكان رد فعل فريق البحث نحو القصور الواضح للبيانات المتاحة هو الاقتراب من العمليات الموضوعية تحت الدراسة لتسجيل البيانات مباشرة بدلاً من الحصول عليها من خلال عدة حلقات من الاتصال ، أي أن الباحثين قرروا أن البيانات التقنية لابد أن يقوم بجمعها المختصون بدلاً من العسكريين .

ويذكر فيليب مورس انه عندما طلب من الكاتبين بيكر أن يسمح للعلماء من فريق الدراسة بالالتحاق بالقواعد المضادة للغواصات اقترح أن يرتب لقاءات بين العسكريين الذين شاركوا في الاشتباكات مع غواصات العدو وأعضاء فريق الدراسة . وبعد عدة لقاءات وضع للدارسين عدم كفاءة هذه المقابلات ، نظرا لاختلاف اهتمامات طرفي اللقاء . وعليه شرع بيكر في ترتيب التحاق أعضاء فريق الدراسة المدنيين بالقواعد المضادة للغواصات . ونظرا لان هذه الخطوة هي الأولى من نوعها فلقد تم اختيار هؤلاء الأفراد من ذوي الكفاءة والمهارة بعناية فائقة وبحذر .

خلال يونيو من ذلك العام التحق آرثر كيب وب مكاري Arthur Kip و P. McCarthy بقيادة الجبهة البحرية انشورية بنيويورك والعديد من القواعد البحرية بالمحيط الأطلنطي . وكانت الخبرات والأولويات هؤلاء الرجال متشابهة لدرجة تدعو الى الدهشة . لقد تمكنوا من اقناع القائمين بالاستكشاف بأهمية التسجيل الدقيق للمعلومات بعد أن كان اعتقاد الطيارين أن هذه التقارير لا تقرأ . وبعد مهلة قصيرة شارك أعضاء فريق الدراسة في رحلات استطلاعية ونسوا بأنفسهم العديد من التفاصيل والمعلومات التي لم تجد طريقها الى التقارير . وسرعان ما توفرت المعلومات اللازمة لتطبيق نظريات الاستكشاف في معادلتها الرياضية التي قام باستنباطها فريق الدراسة . وبدأ العلماء في إحلال الأرقام مكان الرموز في المعادلات مع تحسين المعادلات لتقرب أكثر وأكثر من الواقع . وفي وقت قصير ، قام فريق الدراسة بتقديم العديد من خطط الاستكشاف أدى تطبيقها الى زيادة ملحوظة في عدد الغواصات المكتشفة أسبوعيا . وأصبحت المعلومات القادمة من القواعد أكثر دقة ، الأمر الذي سمح بالتعرف على أية تغييرات في تكتيكات الغواصات .

وبالطبع ، فإن الاكتشاف ما هو الا نصف المشكلة فلا بد من مهاجمة الغواصة بعد العثور عليها . ولم تتوفر انئذ سوى شحنات من متفجرات الأحماق تلقى من الطائرات أو المدمرات تنفجر على عمق معين يفترض أن يكون قريبا من الغواصة . الا أن هذه الشحنات كانت ذات فعالية محدودة وخاصة عند القائها من الطائرات . فقد كانت تنفجر أحيانا على السطح لو تم إلغاؤها من ارتفاع عال وحتى عندما تنفجر بالقرب من الغواصة ، فإن الطيار لا يتوفر لديه الدليل على أن الغواصة قد أصيبت . وعند النظر في تفاصيل الهجمات ضد الغواصات ، علم أعضاء الدراسة أن الشحنة معدة للانفجار على عمق ٧٥ قدما تحت سطح الماء وهو العمق الأمثل للشحنات الملقاة من المدمرات . أما في حالة استخدام الطائرات فإن الطائرة عادة ما تجد الغواصة على السطح . وهكذا فإن حدوث انفجار على عمق ٧٥ قدما ربما يمز الغواصة الطافية ولكنه لن يصيبها بأذى . لذا اقترح ويليام شوكلي William Shockley ، الذي التحق بالفريق في مايو ، تفجير الشحنة على عمق ٣٠ قدما بدلا من ٧٥ قدما ، كما هو الحال للشحنات الملقاة من المدمرات . وخلال شهرين كان من الواضح أن هذا التغير أدى الى زيادة عدد الغواصات المصابة وارتفاع عدد الغواصات الغارقة بحوالي خمسة أضعاف .

وأدت هذه النجاحات السريعة إلى انتشار سمعة طيبة عن إنجازات وقدرات الفريق مما دعا الكابتن بيكر إلى اصطحاب المجموعة معه عند انتقال وحدته إلى مقر القيادة الرئيسية للبحرية بمدينة واشنطن . وينطوي هذا العمل على خطوة جريئة من ضابط بحري قديم ، إذ أنه اعتبر مجموعة من العلماء جزءاً هاماً من الجهاز البشري ومجموعة مستشاري الأدميرال كنج ، القائد العام لأساطيل الولايات المتحدة . وعلى الرغم من أن هؤلاء العلماء كانوا مدنيين ولم يعدوا كضباطي البحرية أو حتى كموظفين حكوميين ، بل وحتى أجورهم كانت تدفع من خارج البحرية بواسطة لجنة أبحاث الدفاع القومي ، بناء على عقد مع جامعة كولومبيا . وشكل هؤلاء العلماء مجموعة بحوث العمليات للحرب المضادة للقواصات (ASW Operations Research Group (ASWORG ، كوحدة من وحدات الكابتن بيكر وسرعان ما تقدمت المجموعة في السلم الإداري للبحرية بعد ترقية بيكر إلى أميرال ليقتد بنهاية ١٩٤٢ وحدة جديدة سميت الأسطول العاشر ، مستولة عن جميع الوحدات المضادة للقواصات .

وكلفت المجموعة بعد ذلك بجميع مسئوليات تسجيل وصيانة للمعلومات من جميع وحدات الحرب المضادة للقواصات . وتم إنشاء نظام لمعالجة المعلومات يومياً باستخدام حاسب آلي من IBM ، وتقديم ملخص لأجتماعات قيادات الأدميرال كنج الصبائية . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها معالجة بيانات في غاية السرية بواسطة آلات حاسبة ما زالت غامضة للعديد من الناس في ذلك الوقت . لذا ، فلقد وضع هذا النظام تحت حراسة مشددة وتم السماح لعدد قليل فقط من الرجال بدخول غرفة الحاسب . وقامت البحرية بتدريب رجالها على صيانة الحاسب بدلاً من طاقم شركة IBM ومرة أخرى توضح هذه الخطوات التعارض بين تأكيد العسكريين على السرية وبين حاجة العلم للمعلومات والمعرفة .

وتطورت مجموعة بحوث العمليات في وحدة الحرب المضادة للقواصات لتصبح وحدة بحوث العمليات بالبحرية الأمريكية بكاملها . واضطلعت المجموعة بالعديد من الدراسات في المحيط الهادي فيما يتعلق بعمليات القواصات ونشاط البحرية الجوي ، وأخيراً ، على جميع الأمور المتعلقة بعمليات القوات البحرية . وبنهاية الحرب ، كرم العديد من أعضاء المجموعة مثل فيليب مورس ويوب رينشرت ، فتلقوا أوسمة بالإضافة إلى منح شهادات تقدير من رئيس الجمهورية لستة آخرين من أعضاء الفريق .

#### تطور بحث العمليات بعد الحرب :

مع نهاية الحرب كان العلماء في عجلة للرجوع إلى أعمالهم المدنية السابقة بالجامعات والصناعة . وأصر مورس على أن تتم مرحلة الانتقال بصورة منظمة مسجلة لجميع الأنشطة السابقة ، وقام بتوجيه المجموعة إلى إعداد تقارير وإثبات عن الأعمال التي أنجزت أثناء الحرب بالإضافة إلى اختيار نواة من ذوي الخبرة من العاملين ببحوث العمليات للبقاء بالبحرية ، أصبحت فيما بعد الأساس لمجموعة تقويم عمليات البحرية الأمريكية . ويعود مورس إلى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT لاحظ زيادة الاهتمام بدراسات بحوث العمليات ، وتلقى العديد من الطلبات للاستشارات من الحكومة والصناعة . وقام بإنشاء لجنة لبحوث العمليات ، كما نظم وشارك في تقديم العديد من

الدورات الصيفية القصيرة في بحوث العمليات . وتطورت لجنة بحوث العمليات لتصبح مركز بحوث العمليات في ذلك المعهد وظلت تحت رئاسته حتى ١٩٦٩ .

وعمل مورس مع زملائه لانشاء جمعية مهنية لبحوث العمليات هي الجمعية الأمريكية لبحوث العمليات (ORSA) Operations Research Society of America التي خرجت الى حيز الوجود برئاسته عام ١٩٥٢ ، وامتد اهتمامه ببحوث العمليات الى الحقل الدولي ليساعد في التحضير لأول مؤتمر دولي في بحوث العمليات ، تم خلاله تكوين اتحاد الجمعيات الدولية لبحوث العمليات .

وللاسف فان السجلات التاريخية المتاحة لا تحتوي على أية معلومات دقيقة عن عدد العلماء العاملين في بحوث العمليات أثناء الحرب العالمية الثانية . الا أن هناك تقديرات متحفظة تشير الى أن هذا العدد تجاوز ٧٠٠ باحث في بريطانيا وأمريكا وكندا . واشتمل نشاطهم على العديد من الدراسات لتقييم النتائج التكتيكية والتخطيط الاستراتيجي واختيار البدائل في العمليات . بالإضافة الى ذلك ، رأى العديد من هؤلاء الباحثين في هذه التطورات العلمية أثناء وقت الحرب جرثومة لعلم جديد لنظم التشغيل وتطبيقاته لكثير من الأنشطة في وقت السلم . ولقد انطوى الكثير من دراسات بحوث العمليات أثناء الحرب العالمية الثانية على تبني وتطوير طرق ومنهجيات من العلوم الأخرى خاصة النماذج الرياضية ، تم تطويرها مباشرة باستخدام وسائل التحليل ونظرية الاحتمالات والاحصاء . ولكن نظرية الاستكشاف Search Theory التي تم استنباطها بواسطة مجموعة بحوث العمليات بالبحرية الأمريكية تمثل استثناء ملحوظا من هذه القاعدة .

وبعد الحرب العالمية الثانية تم اكتشاف عدة ظواهر طبيعية وتطوير الكثير من النظريات لشرح هذه الظواهر لتشمل العديد من فروع بحوث العمليات ، منها حل سبيل المثال لا الحصر ، البرمجة الرياضية ومراقبة المخزون ونظرية الانتظار والجداول .

#### ممارسة بحوث العمليات

ولد علم بحوث العمليات ، كما رأينا ، حاجة ملحة لحل مشاكل تشغيلية . وهكذا فقد قام العاملون في بحوث العمليات بأكثر من تطوير علم . انهم طبقوا أيضا ما اكتشفوه وما تعلموه في حل المشاكل . وخلال العقدين الثاني والثالث من تاريخها تمت أوساط العاملين في بحوث العمليات لتكثير وتنوع ، مما استدعى ظهور بعض التخصصات النظرية للتصدي لتوفير الأسس اللازمة لتطوير العلم بالإضافة الى الأنشطة الهندسية المصاحبة لتطبيق نتائج أبحاث النظريين .

ولكن هذا الشق الهندسي لبحوث العمليات ينطوي على أكثر من تطبيق المعرفة المطورة بالطريقة العلمية المألوفة ، لأنه يستخدم فنون الاختراع ( لايجاد الترتيبات التي تعمل بالطرق المرغوبة ) والتصميم لتجميع الاختراعات مع بعضها لتأدية المهام المطلوبة أو لحل مشكلة هامة ) بالإضافة الى فنون الاتصال والتفسير والتطبيق .

وفي بداية الأمر ، حجبت متطلبات السرية العسكرية الكثير من تفاصيل الدراسات التي تمت في زمن الحرب عن النشر العام لمدة طويلة . لكن العديد من هذه الأعمال نشرت في وقت لاحق . وبالمقابل ، فإن الكثير من ممارسات بحوث العمليات في الصناعة قد تغيبت عن الدوريات والمجلات العلمية نظرا لقيود مشابهة على النشر بواسطة المؤسسات المستفيدة من هذه الممارسات .

ولكن النشرات العلمية في بحوث العمليات ، وعلى الرغم من تحيزها نحو الاتجاه النظري لعدم وجود أية قيود على نشره ، تحتوي على عدة أمثلة جيدة لأعمال تطبيقية . ففي النشرات العلمية العديد من الأمثلة المبكرة لتطبيقات بحوث العمليات والتي تعتبر الآن من البحوث التقليدية ، نذكر منها دراسة إيدي (1954) Edie لمعدلات الإنتاج والتأخر أثناء دفع رسوم المرور على بعض الطرق وتطبيقات بحوث العمليات في الزراعة لتورثوث (1953) Thornton والعمل الذي قلمه أوبريان وكيرن (1959) O'Brien and Grane لجدولة خطوط الصنادل (Barges) ولكن ممارسة فنون الاختراع والتصميم لبحوث العمليات مازالت في مهدها خاصة في القطاع المدني ، في رأي كواد ويوش (1968) Quade and Boucher أما في الأمور المهنية التي تتعلق بممارسة بحوث العمليات ، فقد أبدى الرواد اهتماما خاصا بهذا المجال ، ومنهم مورس وكيمبال (1946) Morse and Kimball وبلانيت (1962) Blackett ، الذين ناقشوا اعتماد خبراتهم أثناء الحرب على الوسائل المفصلة للشروع في القيام بدراسة بحوث عمليات ، مثل البيئة والظروف المحيطة والعلامات التي تقوم مع مستخدمي النتائج التي يستخلصها . وهناك بعد هذا الكثير من النقاط الهامة التي لا بد وأن تأخذ في الاعتبار عند القيام بممارسة بحوث العمليات ، على رأسها :

- أخلاقيات وحدود المهنة في التعامل مع المشاكل والمواقف المعروضة أمام باحث العمليات . فهناك العديد من المعايير المهنية المفترضة اتباعها عند تناول دراسات بحوث العمليات . ومن أمثلة الخلافات الحادة المشهورة ذلك الذي احتدم بين علماء بحوث العمليات المشتركين في تقييم أنظمة القذائف المضادة للصواريخ مما دعا لتكوين لجنة خاصة في جمعية بحوث العمليات الأمريكية (ORSA) عام ١٩٦٩ للتصديق في الأمر . وجاء في تقرير اللجنة نقلا عن اسامة الحولي (1986) : عندما يشترك المحلل في عملية خصومة (أو خلاف) فيجب أن يتصرف كداعية وأن يتوقع معاملته بهذه العفة . وتواعد التصرف في عمليات الخصومة تختلف عنها في بحوث العمليات . فالأولى تسمح بالشهادة التحيزية أو المنحرفة ، بينما توجه الثانية نحو التقييم الموضوعي . ونتيجة لهذا الموقف كونت جمعية بحوث العمليات الأمريكية (ORSA) لجنة لوضع الأسس لممارسة بحوث العمليات وأصدرت تقريرها Caywood et al الذي اعتمد على الخبرات المتراكمة أثناء الحرب والمقدين التاليين . ولقد قوبل هذا التقرير ببعض النقد عند إصداره إلا أن مجتمع باحثي العمليات توصل إلى أن الزمن فقط كميل بتحديد فائدة التقرير في ممارسات بحوث العمليات .

- إن دراسات بحوث العمليات ، عند النظر إلى شقيها العلمي والمنهجي ، تأخذ مجراها في أوضاع يرتبها المجتمع أو البيئة المحيطة . لذا فمن المهم لباحث العمليات أن يفهم سلوك المجتمع قبل اقتراح تغييرات فيه . حقيقة الأمر أن ممارسة بحوث العمليات جزء من سلوك النظام الذي نطلق عليه المجتمع .

- أهمية العلاقات بين مجموعات بحوث العمليات والهيئات المستفيدة من عملها ولقد درست هذه العلاقة باسهاب في (Randor and Neal 1973) لقد تركت بحوث العمليات بصيات واضحة على كفاءة إدارة العديد من الهيئات . وتستمر تطبيقات بحوث العمليات في النمو سواء في تنوعها أو في عددها . واستثناء التقدم في الحاسبات الآلية ، فإن هذا النمو والتطور في بحوث العمليات وتطبيقاتها لا يضاهاه أية تطورات أخرى حديثة ! فبعد نجاح بحوث العمليات أثناء الحرب العالمية الثانية ، استمر العسكريون البريطانيون والأمريكيون في الاعتماد على مدة مجموعات لبحوث العمليات على مستويات مختلفة من القيادات . ويوجد الآن عدد كبير من العاملين يطلق عليهم باحثو عمليات عسكرية ، يقومون بتطبيق بحوث العمليات على مشاكل الدفاع القومي ، مثل تخصيص الموارد «Resource Allocation» والتخطيط التكتيكي «Tactical Plannig» وتقييم نظم الأسلحة «Weapon System Evaluation» مستخدمين في ذلك بعض التقنيات التي تحتوي على أفكار متعمقة في الرياضيات والاقتصاد ونظرية الاحتمالات والاحصاء .

كما ينتشر استخدام بحوث العمليات حالياً في كثير من مؤسسات الصناعة والأعمال خاصة الكبرى منها والتي تحتوي على مجموعات كبيرة من العاملين . ومن بين هذه المؤسسات شركات صناعة الطائرات والصواريخ والسيارات والاتصالات والمخبرات الآلية والقوى الكهربائية والإلكترونيات والأغذية والفلات والمناجم والورق والنظ والتلف ، كما أن كثيراً من المؤسسات المالية والهيئات الحكومية والمستشفيات يزداد استخدامها لبحوث العمليات بمعدل سريع .

وعلى سبيل التحديد ، نقدم بعض المشاكل التي تم حلها باستخدام أحد فروع بحوث العمليات . فلو قد استخدمت طرق البرمجة الخطية Linear Programming مثلاً - بنجاح في حل المشاكل التي تتناول خلط المواد وتخصيص الأعمال أو الأفراد والنقل والتوزيع وتخطيط الاستثمارات . كما طبقت البرمجة الدينامية Dynamic Programming بنجاح لتخطيط برامج التسويق والإعلان وجدولة الإنتاج وتحميل مستويات المخزون الأمثل . واستخدمت نظريات الانتظار Queueing Theory لتقدم حلولاً للمشاكل المتعلقة بآزدهام المرور ، صيانة الماكينات ، تحديد العدد المناسب من قنوات الخدمة ، جدولة المرور الجوي ، تصميم السدود ، جدولة الإنتاج وعمليات المستشفيات . كما طبق أيضاً العديد من طرق بحوث العمليات الأخرى مثل نظرية المخزون ونظرية المباراة والمحاكاة بنجاح في مجالات متنوعة . وفي مسح لمائة وسبعة من أكبر ٥٠٠ شركة من الشركات الصناعية بالولايات المتحدة الأمريكية يوضح تيربان Turban (1972) أن البرمجة الخطية والمحاكاة والتحليل الإحصائي تمثل أكثر وسائل بحوث العمليات شيوعاً ( جدول رقم ١ ) ، كما أظهر المسح أن اتسام بحوث العمليات تقع في المقار الرئيسية للشركات ، كما أن معظمها يتبع رئيس أو نائب رئيس أو مراقب Controllor الشركة .

وفي مسح آخر عام ١٩٧٥ نشره ليدبتر وكوكس (Ledbetter and Cox 1977) عن استخدام طرق بحوث العمليات في ١٦٧ شركة من أكبر ٥٠٠ شركة وهذارة لمدل استخدام الشركات لسبع من طرق بحوث العمليات ، يؤكد المؤلفان مرة أخرى على أن البرمجة الخطية والتحليل الإحصائي والمحاكاة هي أكثر طرق بحوث العمليات استخداماً .

وفي مسح آخر متخصص عن استخدام البرمجة الرياضية قام به فابوتزي وفالنتي Fabozzi and Valente (1976) لأكثر من ألف شركة بالولايات المتحدة ( في نوفمبر ١٩٧٤ ) أشارت ١٨٤ شركة إلى أن البرمجة الخطية تحتل المركز الأول في التطبيق خاصة في إدارة عمليات الإنتاج ( مثل تحديد توصيات المنتج ، تخصيص الموارد ، وجدولة الآلات والأعمال ) ويليهما تخطيط الاستثمار والمال ( تحديد ميزانيات رأس المال ، تحليل السيولة النقدية ، إدارة معاشات الموظفين ، إدارة النقد ، تحليل حالات الاندماج )

جدول رقم (١) : استخدام بحوث العمليات في الأنشطة الجارية  
في الشركات الصناعية بالولايات المتحدة الأمريكية (Turban ١٩٧٢)

عدد مرات الاستخدام	عدد الدراسات	فرع بحوث العمليات
٢٩	٦٣	التحليل الاحصائي Statistical Analysis
٢٥	٥٤	المحاكاة Simulation
١٩	٤١	البرمجة الخطية Linear Programming
٦	١٣	نظرية المخزون Inventory Theory
٦	١٣	طريقة المسار الحرج CPM/PERT
٤	٩	البرمجة الديناميكية Dynamic Programming
٣	٧	البرمجة البيزنطية Nonlinear Programming
١	٢	علم الانتظار Queueing
١	٢	البرمجة الموجهة Heuristic Programming
٦	١٣	طرق متنوعة
١٠٠	٢١٧	المجموع

#### بحوث العمليات كعلم :

لنبدأ بالتعرف على الاصطلاح الغامض « بحوث العمليات » Operations Research والذي خرج الى حيز الوجود أثناء الحرب العالمية الثانية وربما قدم هذا الاصطلاح وصفا مناسباً لما كان يتم عمله في هذا المجال كجزء من المجهود الحربي للحلفاء . وعلى الرغم من اتساع نطاق دراسات بحوث العمليات وتنوعها لتشمل كثيراً من التطبيقات غير العسكرية إلا أن الاصطلاح بقي يستخدم في جميع التطبيقات . وهناك الكثير من المرادفات لاسم بحوث العمليات ، فيفضل البريطانيون الإشارة الى Operational Research وكثيراً ما يستخدم الأمريكيون اصطلاح علم الإدارة Management Science ولكن السؤال مازال في حاجة الى اجابة : ما هو تعريف بحوث العمليات ؟ هناك تعريفان أحدهما يتيه جمعية بحوث العمليات البريطانية وينص على أن :



« بحوث العمليات هي تطبيق الوسائل العلمية على المشاكل المعقدة المتعلقة بتوجيه وإدارة النظم الكبرى التي تضم القوى البشرية والآلات والمواد والأموال في هيئات الصناعة والأعمال بالإضافة الى المؤسسات الحكومية والعسكرية » . وتتطوي منهجية بحوث العمليات المميزة على تطوير نموذج علمي للنظام يحتوي على قياسات لكثير من العوامل مثل درجة التقريب في استشراف ومقارنة الاستراتيجيات والقرارات المتعددة والفرض هو تقديم المساندة الى الادارة في تحديد سياستها وأفعالها .

أما التعريف الآخر الذي قدمته جمعية بحوث العمليات الأمريكية فهو : « تهتم بحوث العمليات بالاختيار العلمي لأفضل تصميم وتشغيل لأنظمة الانسان - الآلة Man Machine System وفي ظروف تتطلب تخصيصاً للموارد المحدودة » وعلى الرغم من أن كلا التعريفين يغيب عنه الشرح الدقيق لملم بحوث العمليات ، إلا أن هذين التعريفين يميلان الى التأكيد على أن الحفاظ للقيام بدراسات بحوث العمليات هو مساندة صانعي القرار في التعامل مع المشاكل العلمية المعقدة . ويؤكد التعريفان على المنهجية بأنها « علمية » ولربما أمكن تقديم تعريف لوفيق لبحوث العمليات يشير الى اعتمادها على النماذج Models حيث أن تطوير واستخدام النماذج يمثل اساس بحوث العمليات وجوهرها . والمقصود بالنموذج هنا هو تمثيل مبسط وتقريبي للواقع . وعادة ما يلجأ باحثو العمليات الى تطوير النماذج لتمثيل واقع النظام الخاضع للدراسة بدلا من التعامل مع الواقع مباشرة لعدة أسباب منها :

- توفير الكلفة أو الوقت .
- تفادي المخاطرة والتلاعب بواقع النظام .
- التخلص من التفاصيل والتعقيدات غير الضرورية للدراسة والتي غالبا ما توجد في البيئة العلمية .

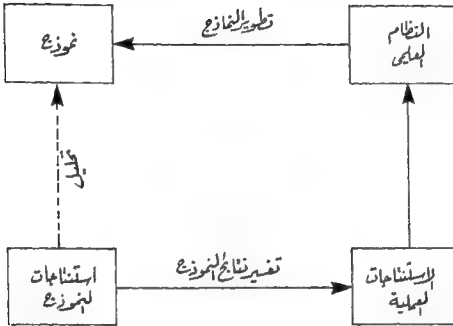
ويمكن تمثيل عملية النمذجة كما هو مبين في الايضاح المبسط بشكل ( رقم ١ ) ويتناول الشكل الانتقال من الواقع العملي الى النموذج الذي يتم تحليله بهدف التوصل الى الاستنتاجات وتفسير هذه الاستنتاجات في ضوء خصائص النظام العملي ليتم تطبيقها في الواقع . ويتميز العديد من تطبيقات بحوث العمليات بعدة صفات منها :

★ تركيز اولى على مساندة عملية اتخاذ القرار .

★ تقوم بتمتد بالاساس على معايير اقتصادية فعالة حيث تقارن العديد من الخطوات الممكنة بناء على عدة قياسات اقتصادية مثل تكاليف التشغيل ، المائد ومعدل المائد على الاستئثار .

★ الاعتماد على نماذج الرياضيات لتحليل البيانات بطريقة سليمة وواضحة ، وبالتالي التأكيد على الحصول على نفس النتائج حتى مع اختلاف الوقت والشخص القائم بالدراسة .

★ الاعتماد على الحاسبات الآلية . وتمثل هذه الخاصية حاجة ضرورية عند تناول تطبيقات بحوث العمليات نظرا لصعوبة التعامل مع نماذج رياضيات معقدة ومتشابكة تستخدم كما هائلا من البيانات وتتطلب الكثير من العمليات الحسابية المضمنة دون حاسبة مناسبة .



شكل رقم ١ : خطوات النمذجة في بحوث العمليات

## ★ المنهج العلمي

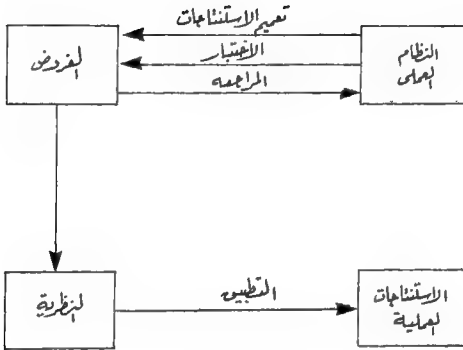
يجذب العلم الى فهم وشرح ما يجري على الطبيعة ، أي الظواهر الواقعية بما في ذلك ما يحدث بايعاز من العناصر البشرية والآلية ، Man Machine Element . ويبدأ العلم بتسجيل دقيق ومنظم للظاهرة الموضوعة تحت الدراسة . وتوجه هذه الحقائق الدارس الى تطوير النظريات التي تناسب هذه الحقائق وتقدم وصفا وشرحا منطقيا لها . وبالتالي يمكن تطويع وتوسيع نطاق هذه النظريات في حدود الواقع ، بما في ذلك استخدامها لحساب تقديرات مستقبلية وتحت ظروف جديدة ، ثم يتم التحقق من صحة هذه النظريات بمقارنة الملاحظات الجديدة بالظاهرة الواقعية . وفي حالة تطابق النظرية مع الواقع يتأكد الباحث من صلاحية نظريته فيمكنه بذلك استخدامها لدراسة ومعرفة خصائص النظام الواقعي . ومن ناحية أخرى ، فعند وجود اختلاف بين النظرية والواقع لابد أن يقوم الباحث بتعديل نظريته وتحسينها ، أو تطوير نظرية أخرى جديدة تناسب مع هذا الواقع . ويلخص كيميبي هذه العملية كالآتي :

كما أكد اينشتين عدة مرات ، لا بد وأن يبدأ العلم بالحقائق وينتهي الى الحقائق ، بغض النظر عن الهيكل النظري الذي يتم بناؤه من البداية الى النهاية . فالباحث هو مراقب يحاول تقديم وصف كامل وعام لما يراه وما يتوقع أن يراه في المستقبل . وبالتالي يقوم بالاستشراف على أساس نظرياته التي يتحقق من دقتها بمقارنتها بالحقائق مرة أخرى .

ومن أهم خصائص المنهج العلمي أنه ذو طبيعة تكرارية يتم من خلالها التوصل الى نظريات تمثل الواقع . وتتطابق جميع فروع العلوم في استخدامها لنفس المنهج ، بينما يتميز فرع من الآخر بانفراده بحدود وطبيعة المجال الخاص به للدراسة . فمثلا ، يتطرق عالم الفلك الى البحث في مجال حركة الكواكب والنجوم بينما الجيولوجي ظواهر التغير في الطبقات الأرضية .

أما بحوث العمليات فهي تستخدم المنهج العلمي لفهم وشرح ظواهر التغير في مجال نظم التشغيل Operating Systems . ويسجل علم بحوث العمليات ظواهر هذه النظم ويطور نظريات أو نماذج هذه الظواهر ثم يستخدم هذه النظريات لشرح وتقدير ما يحدث تحت ظروف متغيرة ، ثم يتحقق من دقة هذه التقديرات بمقارنتها بملاحظات ميدانية جديدة ، وعلم جرا . وبالتالي فإن بحوث العمليات هي فرع من فروع العلم لأنها توظف المنهج العلمي لتوفير أسس المعرفة المطلوبة لها ، كما أنها تتميز عن باقي فروع العلم بدراسة ظواهر نظم التشغيل وهو ما لم تتناوله فروع العلوم الأخرى .

ولتوضيح الفرق بين استخدام بحوث العمليات وفروع العلوم الطبيعية الأخرى للمنهج العلمي . يلاحظ في الشكل رقم ( ٢ ) أن الخطوة الأولى في الأسلوب العلمي تنطوي على تطوير الفروض ، والتي عادة ما يتم الوصول اليها بالاستنباط بعد فترة من المراقبة . وفي هذه المرحلة يتم تصميم تجربة لاختبار صحة هذه الفروض ، ثم يجري تعديل الفروض اذا تعارضت مع نتائج التجربة . وتكرر التجربة لاختبار الفروض المدلة ، وهكذا حتى يتم التحقق من صحة الفروض وبالتالي تصبح لدينا نظرية . وبالمقارنة بعملية النمذجة نجد أن النماذج « مخترع » بينما



شكل رقم ٢ : الاسلوب العائلي

النظريات تكتشف . النظريات لابد من اثباتها وهو ما يستحيل عمله في التنازع . فالنمذجة في تطبيقات بحوث العمليات تركز على تطوير العديد من الطرق الرياضية التي تناسب الواقع العملي ، دون الاعتداء على نظريات مثبتة . لذا فإن الأثبات الاسامي لقدرة نموذج بحوث العمليات يعتمد على خصائص ومدى تطابق وصفه مع الواقع ودرجة تقبل الحلول الناتجة منه في المجال العلمي .

إن الاستماتة ببحوث العمليات توضح مدى الاعتقاد بفوائد المنهجية العلمية المتطابقة والمنظمة في مساندة عملية اتخاذ القرار . وبالطبع فليس هناك شك في مدى الاستفادة من تطبيق المنهج العلمي في دراسة العديد من الموضوعات الاخرى ، مثل دراسة الظواهر الطبيعية أو التفاعلات الكيميائية . لذا فمن المنهجي في عصرنا الحديث أن تظهر الحاجة الى توضيح جدوى العلم ، وبحوث العمليات هي علم . ونظرا لصعوبة القيام بتجربة علمية معملية لاختبار ميزة وجدوى حلول بحوث العمليات ، فإن هناك عدة أسباب تحث الادارة على ادراك ميزة وجدوى المنهجية العلمية في مساندة عملية اتخاذ القرارات ، منها :

★ الاكتناع التام بجدوى المنهج العلمي في مساندة عملية اتخاذ القرار لايعني بالضرورة تقبل نتائج جميع دراسات بحوث العمليات .

★ الثقة الكاملة في العلم لاتعني اليتامد عن التفكير المنطقي والاحاسيس الداخلية لتخذ القرار . والواقع أن التاريخ يبين أن الكثير من النظريات والظواهر العلمية تم اكتشافها بالصدفة المحضة أو الاحاسيس ، بل وحتى الاحلام . والسؤال ليس متى نطبق العلم ومتى نلجأ الى متخذي القرار ، بل كيف يمكن دمج الاثنين لتحقيق أقصى فعالية ممكنة .

★ ان عدم امكانية تكرار المواقف ( فالتاريخ لايعيد نفسه ) والتي تزيد من صعوبة تحديد مدى التحسن الناتج من تطبيق حل مقترح ليست مقصورة على بحوث العمليات فقط ولكنها موجودة في كثير من العلوم الاخرى .

ولتقريب مفهوم علم بحوث العمليات الى ذهن القاري، نقدم عدة أمثلة لأهم أساليبه وتطبيقاتها في مشاكل واقعية في مجالات النقل والصناعة والزراعة والصيانة . وبتركز هذه الأساليب في نماذج البرمجة الرياضية، وخاصة طرق البرمجة الخطية، البرمجة الديناميكية، ونظرية خطوط الانتظار، ونقدم فيها يلي وصفا مختصرا لبعض هذه الأمثلة:

#### ★ البرمجة الخطية ومشاكل تلوث الهواء

يواجه أحد منتجي الصلب مشكلة تتعلق بمستوى الملوثات الناتجة من عملية التصنيع . وتفترض مواصفات قياسية جديدة على الشركة تخفيض كمية الملوثات المنبعثة من المصنع من أكسيد الكبريت والكروميديرات وبعض مواد أخرى تنتج من مصانعها . وهناك مصدران رئيسان للملوثات في تصنيع الصلب، هما: أفران الصهر لتصنيع كتل الحديد Blast Furnaces وأفران التحويل Open Health Furnaces لانتاج الصلب من الحديد . وأكثر طرق تقليل الملوثات فعالية في كلا المصدرين هي :

(١) زيادة ارتفاع أماكن خروج الدخان.

(٢) استخدام مرشحات لتنقية الدخان.

(٣) الاستعانة بنوعيات أعل وأنظف كوقود للأفران . ولكل من هله الطرق مءى فعالية في تقليل الملوئاء . ولكن يمكن استخدام أي منها بنسبة ما في حدود هله الفعالية في تقليل الملوئاء . وبناء على نتائج تحليل الكلفة يمكن الحصول على الكلفة السنوية لاستخدام كل طريقة في أفران الصهر وأفران التحويل بالإضافة الى مءى فعالية استخدام كل طريقة (مع اعتبار أن الكلفة عند مستويات أقل من سعة كل طريقة تتناسب مع نسبة استعمال السعة) . ولقد تم استخدام البرمجة الخطية في حل مشكلة الملوئاء باستخدام دالة الهدف Objective Function ، القيود Constraints ، المتغيرات Variables . ونظرا لأن البرمجة الخطية تتميز من أكثر طرق بحوث العمليات تطورا واستخداما نقدم للقارئ شرحا مبسطا ومختصرا لمكونات نموذج البرمجة الخطية (بالملاحق رقم ١) وبالرجوع الى عناصر نموذج البرمجة الخطية لحل مشكلة تلوث الهواء نجد أنها تتكون من الآتي :

★ دالة الهدف : هي تقليل الكلفة السنوية الكلية لتقليل كمية الملوئاء باستخدام الطرق الثلاثة لمعالجة الملوئاء .

★ القيود : هي

- مستوى الملوئاء المطلوب بالمواصفات القياسية الجديدة .
- سعة كل طريقة من طرق تقليل الملوئاء لأفران الصهر والتحويل .
- علاقة مستوى الملوئاء بالإنتاج لأفران الصهر والتحويل .
- المتغيرات : هي
- نسبة استخدام كل طريقة من طرق معالجة وتقليل الملوئاء بكل فرن .
- مستوى الملوئاء المناظرة لاستخدام كل طريقة من طرق المعالجة .

ويحل هذا النموذج باستخدام طرق البرمجة الخطية المعروفة بـ (Simplex Method)<sup>(١)</sup> تم الوصول الى الخطوة المثل الأقل كلفة للوفاء بمتطلبات المواصفات القياسية لمستويات الملوئاء . وتتكون هله الخطوة من تحديد نوع ونسبة استخدام كل طريقة من طرق معالجة وتقليل مستوى الملوئاء في كل من أفران الصهر والتحويل .

وتتميز طرق البرمجة الخطية بأنها قابلة للحل دائما حتى للنماذج الكبيرة التي تحتوي على آلاف من المتغيرات والقيود وهي واحدة من أكثر طرق بحوث العمليات شيوعا في العديد من المجالات .

★ نماذج نقل المنتجات : Transportation of Products تقوم إحدى الشركات بتغليف وتعليب البازلاء . ويتم عملية التحضير والتعليب في وحدات صناعية متعددة في مواقع متباعدة وبعيدة كل البعد عن مستودعات التخزين كما هو مبين بالشكل رقم ٣ وتستخدم الشاحنات في نقل هله للمعلبات الى مستودعات التخزين . إلا أن إدارة الشركة

(١) يمكن للقارئ الرجوع الى (Taha (1982 للاطلاع على تفاصيل البرمجة الخطية وطرق حلها .

لاحتظت ان كلفة النقل تمثل مصدر صرف رئسئ؁ ولذا قورت القئام بدراسة لتحئءء المسارات والكمئاء المثل ( أئ القئ تحقق أقل كلفة ) الئ تنقل من كل وءءة تعبئة وكل مستوع . ولقد تم تقءئر كمئة الانتاج لكل وءءة تعبئة والكمئاء المطلوبة لكل مستوع لموسم الانتاج القادم؁ كما قءرت أئضا كلفة النقل لشءئة من البازلاء لكل مسار من وءءة تعبئة الى مستوع مخزئن أو توزئع . وئاستءءام هءة البئاءات تم بمءءء التءئئ الأمثل للشءئات لكل مسار مع مراعاة سعة الانتاج لكل وءءة تعبئة والطلب عل المعلعات بكل مستوع . وأوء أن انوء هنا الى أن نماءج نقل للمنتجات تعئبر نوعا خاصا من نماءج البرئة الحطئة .

### ★ نماءج البرئة الءئنامئكة ومءصئص الأءال بالورش : «Dynamic Programming Job-shop Assignments»

تتناول نماءج البرئة الءئنامئكة المأا قرارات متتابعة ومتراطة . ونوضءها هنا بشرح مبسط لتطبئقها فئ توزئع الأءال على ماكئئات التشفئل وعملها بالورش مع الأخء بالاعتبار التبائن الموسمئ لمستوى الطلب عل انءاز الأءال . ونظرا لصعوبة تءئئ مشغلي ماكئئات جءء وارتفاع كلفة تلرئئهم؁ فإن مءبر الورشة مترئء فئ فصل العالة الزائءة أثناء موسم ئءئ الطلب عل الأءال كما يصعب علئ الاستمرار فئ مءمل أقصى مستوى لمرئبات العالة فئ الوقت الءئ تنفئ فئ الحاجة الى بعضهم . بالاضافة الى ذلك؁ فهوئء العمل فئ أوقات اضافئة بصفة منتظمة . وءئ ان ءمع الأءال ونوعئها يتم انءازها بالطلب فئس فئ الامكان استءءام المخزون لءد الاحتئاجات الموسمة . وعلئ فقد واءه مءبر الورشة مشكلة فئما ىتعلق بئساسة العالة ومستوءاتها؁ مع العلم بأن تقءئررات احتئاجات العالة أثناء فصول السنة الأربعة متوفرة للسنوات القادمة . ومثل هءة التقءئررات أءل مستوءات مقبولة للعالة أثناء هءة الفصول . كما أن أئ زئاءة فوق هءة المستوءات تمثل هءرا للموارد . وبالطبع فان المرئبات وكلفة كل من التءئئ والفصل معروفة؁ وئافتراض أن مستوءات العالة الجزئئة مقبولة خاصة عئد الأخء فئ الاعتبار تءئئ بعض العالة لجزء من الوقت فئمكن مءءئء المستوءات المثل للعالة بما فئ ذلك التءئئ والفصل أثناء كل موسم بأقل كلفة كلية للعالة . وئكون نموءج البرئة الءئنامئكة من المعالة الوظئفة « لءالة الءف » Functional Equation و « مراحل القرار » Stages و « متغئر الحالة » State Variable و « متغئرات القرار » Decision Variables ومعالة الرئط بئن كل مرحلة Transformation equation وفئما بئئ وصف مبسط لمكونات النموءج المئءءم فئ حل مشكلة العالة موضوع فئ الشكل رقم ٤ :

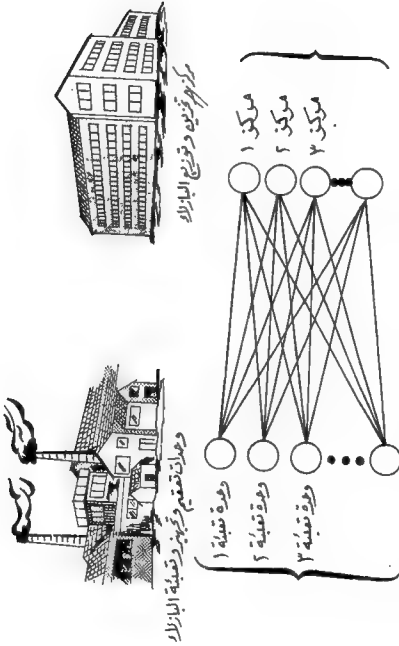
- مراحل القرار : فصول السنة لعدة سنوات .

- متغئر الحالة : مستوءات العالة فئ كل فصل من فصول السنة .

- متغئرات القرار : العالة المءئة؁ العالة المفصولة فئ كل فصل .

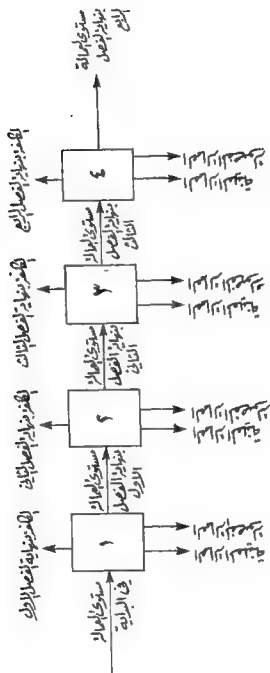
- المعالة الوظئفة لءالة الءف : الكلفة بناء عل قئمة متغئر الحالة فئ كل مرحلة ومثل المعالة الوظئفة للمرحلة الأخيرة الكلفة الكلية للعالة .

- معالة الرئط : التءئر فئ مستوى العالة بفعل ما بئاء عل هءا المستوى فئ الفصل السابئ .



شكل رقم ٣ : نظام النقل بين وحدات تعبئة ومراكز تخزين وتوزيع البازلاء





شكل رقم ٤ : تحديد مستويات العمل باستخدام نموذج بيرك دينا كينج

وتتميز نماذج البرجة الديناميكية بتطابقها مع طرق عمل الادارة نظرا لتعاملها مع اتخاذ القرار على مراحل الوقت وهو ما يواجهنا في تناول العديد من المشاكل العملية . الا ان هذه النماذج تتطلب عددا هائلا من العمليات الحسابية وبالتالي تأخذ الكثير من الوقت وتحتاج لسعات تخزين عالية على الحاسبات الالية . وهكذا ، فان حجم نماذج البرجة الديناميكية التي يمكن التعامل معها وحلها على الحاسبات الالية يعتبر محدودا خاصة عندما يحتوي النموذج على عدد كبير من متغيرات الحالة<sup>(٧)</sup>

★ نماذج خطوط الانتظار وحجم فرق الإصلاح : Queueing Theory and Repair Men تستخدم شركة عشر آلات متماثلة في مصنعها . ولكن نظرا لأن هذه الآلات غالبا ما تتعطل وتطلب الإصلاح ، فان الشركة لديها عمال لتشغيل ثنائي آلات فقط بينما تحتفظ بالآلتين الآخرين كاحتياطي للاستخدام عند توقف احدى الماكينات الثانية . وبناء عليه فان الآلات الثانية تعمل دائما طالما لا يزيد عدد الماكينات التي تنتظر الإصلاح عن ماكيتين . وبالمقابل فان عدد الماكينات على « دالة توزيع الاحتمالات » Probability Distribution Function لوقت حدوث الأعطال بالإضافة الى دالة توزيع الاحتمالات للوقت اللازم لإصلاح الماكينات المتوقفة من بيانات التشغيل السابقة . وبما أن الشركة لديها رجل صيانة واصلاح واحد فلقد لوحظ انخفاض الانتاجية نظرا لأن عدد الماكينات المشغلة يقل عن ثمانية . وبناء عليه قررت الشركة النظر في تعيين رجل صيانة اضافي حتى يمكن اصلاح ماكيتين في الوقت نفسه . وتم عمل دراسة لنظام خط الانتظار حيث اعتبر حال الصيانة كمحطات الخدمة والماكينات تمثل الوحدات المنتظرة للخدمة بهدف اختيار الحجم الأمثل لفريق الصيانة . ويقدم الشكل رقم ٥ وصفا مبسطا لنظام خط الانتظار لتحديد حجم فريق الصيانة . ولقد اعتمدت هذه الدراسة على كلفة كل عامل إصلاح بالإضافة الى كلفة تعطل الآلات .

أما نماذج خطوط الانتظار (Taha 1980) فتكون من توقيت عملية الوصول الى محطات الخدمة وعدد محطات الخدمة (متوالية أو متوازنة) بالإضافة الى وقت الخدمة . وعادة ما تكون توقيتات الوصول والخدمة عشوائية وتُخضع في تغييرها لدالة توزيع الاحتمالات . وتتطوي نماذج خطوط الانتظار على تطوير معادلات تفارقية Difference equations لحساب التنبر في وضع النظام بين فترة وأخرى . ويتم تطوير هذه المعادلات على أسس عملية التوالد والفناء Birth & Death Process وأود أن أذكر هنا الى أن هذه المعادلات عادة ما تزداد تعقيدا وبسرعة خاصة عند نمذجة مواقف عملية مما يزيد من صعوبة حلها . لذا ، فكثيرا ما يلجأ بعض باحثي العمليات الى استخدام طرق المحاكاة<sup>(٨)</sup> لتحليل هذه المعادلات بدلا من الاعتماد التام على حلها التحليلي .

#### ★ بحوث العمليات في الخدمات الاجتماعية

بالإضافة الى تطبيقات بحوث العمليات في المجالات العسكرية والصناعية والزراعية تعددت استخدامات بحوث العمليات في كثير من الخدمات الاجتماعية مثل الخدمات الصحية والتعليمية وجمع ومعالجة النفايات ومياه

Moder & Elmaghraby, 1975

(٧)

Hillier and Lieberman, 1980

(٨)

العرف الصحي وفي تخطيط وتشغيل المنشآت السياحية والترفيهية والرياضية بالإضافة إلى بعض الاستخدامات في مجال تقسيم المناطق إلى دوائر انتخابية وتخصيص عدد النواب والناخبين بكل دائرة .

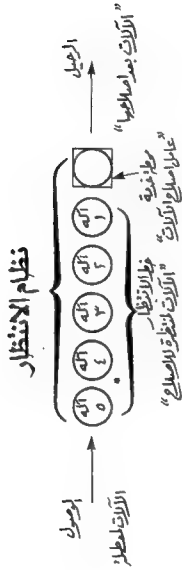
وهناك العديد من دراسات وبحوث العمليات لتخطيط القوى العاملة سواء على المستوى القومي أو على مستوى إحدى المنشآت .

ونقدم أدناه بعض الأمثلة التي توضح جزءاً من تطبيقات بحوث العمليات في مجال التعليم والصحة .

★ بحوث العمليات في التعليم : قدمت بحوث العمليات مساهمات عديدة في تحليل طرق عمل المنشآت التعليمية بما في ذلك التخطيط وتخصيص الموارد والتقييم والجدولة واستخدمت نماذج برمجة الرياضيات والمحاكاة والشبكات Networks والتحليل الاحصائي White (1987) وعلى سبيل المثال يقدم Gosselin Turchon (1986) نموذج برمجة خطية لتخصيص قاعات الدراسة بين المواد الدراسية والطلبات الخاصة . ويشير المؤلفان إلى أن النموذج قد أثبت كفاءته وسرعة وسهولة تطبيقه وتعتمد الدراسة على تجميع القاعات حسب نوعها وكذلك تصنيف الطلبات بناء على الحجم المطلوب . ثم يحدد نموذج البرمجة الخطية عدد الطلبات التي يمكن تخصيص قاعات لها . كما استخدمت بحوث العمليات في مجال التعليم على المستوى القومي سواء في تخطيط المنشآت التعليمية وتخصيص الموارد بناء على احتياجات سوق العمل كما يقدم Balinsky & Roisman (1972) في مقالها الذي يتعلق بتطوير نماذج انسياب القوى البشرية والتي تتبع القوى البشرية خلال قطاعات التعليم بمراحله والتوظيف بهدف تقليل الكلفة الناتجة من النقص أو الزيادة في العرض من القوى البشرية المدربة في كل المجالات .

★ بحوث العمليات والرعاية الصحية : يمكن وصف الرعاية الصحية بأنها عملية تنطوي على متابعة الحالة الصحية لفرد ما لتشخيص أية انحرافات أو عدم توازن في هذه الحالة ثم اتخاذ القرار باستخدام موارد الرعاية الصحية المتاحة لأعادة المريض إلى أقرب ما يمكن إلى حالته الصحية الأصلية التي يسمع بها نوع المرض والموارد الصحية المتاحة (Fetter 1975) يتضح من هذا الوصف أن الفرد والموارد يمثلان أساس نظم الرعاية الصحية . ويمكن النظر إلى تطبيقات بحوث العمليات في الرعاية الصحية على مستويين . لقد تركزت معظم التطبيقات الأولية على الدراسات التحليلية داخل المنشأة الصحية ، والتي هي عادة المستشفى (Bailey 1957) وهناك العديد من الأمثلة التي تتعلق بجدولة علاج المرضى بالعيادات الخارجية ، تحديد الطرق المناسبة لمراقبة المخزون من المقرضات والأدوية والمستهلكات الأخرى وتطوير سياسات تشغيل بنوك الدم ، تحليل معدل استخدام منشأة العلاج الداخلي للمرضى ، ودراسات الفعاليات النسبية لطرق المختلفة لتوصيل خدمات صحية معينة .

وحديثاً ، تم القيام بعدة دراسات على المستوى التحليلي القومي للنظام الصحي باستخدام طرق الرعاية الصحية ، ودراسات لتخطيط القوى البشرية وضبط النوعية في مجال الرعاية الصحية . ومن أمثلة تطبيق بحوث العمليات على مستوى القطاع الصحي هي الدراسة التي قام بها Fetter & Mills (1973) حيث قاما بتطوير نموذج لتخطيط توصيل الرعاية الصحية ودراسة لتحديد العدد الأمثل لغرفة العمليات Golden & Knappenberger (1968)



شكل رقم ٥ : تمثيل نظام الانتظار لاصلاح الآلات

تنوعت أساليب بحوث العمليات التي استخدمت في هذه الدراسات وغيرها في مجال الرعاية الصحية منها المحاكاة والبرمجة الخطية ونماذج خطوط الانتظار ويمكن للقارئ الرجوع الى (Fetter 1975) للاطلاع على تفاصيل أكثر فيما يتعلق بتطبيقات بحوث العمليات في الرعاية الصحية .

ولعل هذه الأمثلة قد أوضحت مضمون « علم بحوث العمليات » ألا وهو تطبيق المنهج العلمي ( في مجال تحليل نظم التشغيل ) الذي يمثل ما تستخدمه فروع العلوم الأخرى في مجالات مثل دراسة خصائص التربة الزراعية وأثر العوامل الجوية على معدلات النمو في مجال علم النبات .

#### \* النمو في بحوث العمليات

على الرغم من أن بحوث العمليات بدأت ، كما أسلفنا ، في المجال العسكري إلا أن مركز النقل لاهتمامات العاملين في بحوث العمليات انتقل بوضوح بعيدا عن التطبيقات العسكرية بحلول عام ١٩٥٥ . واتضح بعد عام ١٩٥٤ النمو المطرد في مجموعة من العاملين المهتمين بعلوم الإدارة Management Science ، وهو تخصص يختلف هامشيا عن بحوث العمليات . وبنهاية عام ١٩٥٥ قام فيليب موريس بمسح شامل لأوضاع بحوث العمليات ووجه الانتظار الى ضرورة زيادة الاهتمام بالنظريات الأساسية والتجارب التشغيلية بالإضافة الى تدريب عاملين جدد في حقول بحوث العمليات .

وهكذا ازدادت الدراسات النظرية بصورة ملحوظة خلال العقود الثلاثة الماضية . ولكن ما زال هناك نقص وتشتت واضحان في الأعمال الخاصة بالتجارب التشغيلية . ولقد استمر التوسع في بحوث العمليات في السنوات الأخيرة ليطغى مجالات جديدة في كثير من فروع الخدمات المدنية الحكومية ، مثل محاكم الجنائيات والنقل والإسكان ومشاكل التخطيط الحضري والعناية الصحية والتعليم والخدمات الاجتماعية . وعلى سبيل المثال تم استحداث معاهد للتخطيط الحضري أحدها في Rand Institute أصبح له باع طويل في بحوث العمليات للتخطيط الحضري ومشاكل تطوير المدن .

إن نظرة عميقة في أوضاع بحوث العمليات حاليا تكشف عن أن هناك العديد من الاتجاهات ، بعضها متوافق والآخر متعارض ، فمن جهة ، هناك إنجازات ضخمة في مجال التطورات النظرية وتطبيقاتها في العقود الثلاث الماضية بما يدعو للفخر والانتباه المهني خاصة في البرامج الأكاديمية ، وعلى الجانب الآخر ، هناك نقد واضح لتضيق بعض العاملين ببحوث العمليات في الاهتمام بالتطبيقات وبالأثار الناتجة من هذه التطبيقات ومحاولة بعضهم وضع المشاكل العملية في قالب نماذج بحوث عمليات معينة لا تتناسب بالضرورة مع احتياجات معالجة هذه المشاكل . إلا أن تطور قدرات الحاسبات الآلية خاصة الـ Supercomputer قد شجع العاملين في بحوث العمليات على التمثيل الدقيق والواقعي للمشاكل العملية حتى لو نتجت عن هذا نماذج كبيرة ومعقدة . بالإضافة الى ذلك ، فإن التطور الملحوظ في مجال « النظم القائمة على المعرفة » Knowledge-based system وطرق « الذكاء الصناعي » Artificial Intelligence قد ساهم ، وما زال ، مساهمة فعالة في حل العديد من نماذج بحوث العمليات الكبيرة والمعقدة لتفترب كثيرا من الواقع .

ويتوقع أن تستمر الدفعة القوية نحو تطوير النظريات والنماذج ، ولكن مع تعزيز أكثر لواقعية هذه النظريات والنماذج وقابليتها للتطبيق العملي . وينطوي هذا على الاهتمام بطرق جمع المعلومات من البيئة واختبار النظم العاملة . ثم إن التطورات الكبيرة في مجال علوم الحاسب خاصة في مجالات المالحات المتوازية Parallel Processing أو الذكاء الاصطناعي ستؤدي الى تغيير شامل وإيجابي في طريقة التعامل مع نماذج بحوث العمليات ، سواء من ناحية هيكلها ومحتوياتها الرياضية أو من ناحية طرق الحل . فمن المتوقع أن تؤدي القدرات الحاسوبية الهائلة من حيث السعة أو السرعة الى السماح بزيادة درجة تعقيد النماذج وحجمها ، مما يفتح آفاقا جديدة في تطبيقات بحوث العمليات . بالإضافة الى ذلك ، فإن التطور الملحوظ في نظم الذكاء الاصطناعي سيمكن باحثي العمليات من معالجة المواقف والمشاكل العملية ذات التركيب غير المنتظم Structured-III لذا ، فمن المتوقع أن يتزايد التلاحم بين هذين المجالين بهدف التكامل لفائدة كل منهما . لقد ركزت بحوث العمليات على تمثيل الواقع على شكل نماذج افتراض وجود سلوك معين ومنتهزم للواقع ، وهنا تكمن مساهمة نظم أسس المعلومات في تطوير وحل نماذج بحوث العمليات . وعلى الرغم من التطور الهائل في تحليل النظم في المجال العسكري ، إلا أن هناك قصورا في استخدام طرق تحليل النظم في المجال المدني . لذا ، فإن الأهمية القاندة تستهد توسعا ونموا في تحليل النظم المدنية بهدف الاقتراب من الواقع . وسيستجى باحثو العمليات الى الاستمانة بالنظريات العامة للنظم لتحليل المواقف العملية قبل وضعها في نماذج بحوث العمليات . وأخيرا ، فستستمر بحوث العمليات في مجهوداتها المكثفة الحالية لفتح مجالات جديدة للاستكشاف والتطبيقات بناء على التطورات المتوقعة المذكورة أعلاه .

#### ★ الجمعيات المهنية لبحوث العمليات

قام عدة علماء من الذين شاركوا في التطور الناجح لبحوث العمليات ببريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية بالاتفاق على تكوين نادي بحوث علمية بهدف تقديم إطار مستمر لتبادل الخبرات ومناقشة استخدامات بحوث العمليات في كثير من الصناعات والخدمات ، بما في ذلك الزراعة والقطن والصلب والأحذية والفحم والكهرباء وتربية الماشية والبناء والنقل . وأسس أعضاء ذلك النادي دورية بحوث العمليات الربع سنوية ، وظهر أول أعدادها في مارس ١٩٥٠ م وفي نوفمبر ١٩٥٣ م تحول النادي الى جمعية بحوث العمليات ينضم اليها العاملين في بحوث العمليات .

وفي نفس الوقت أنشأ مجلس البحوث القومي لجنة لبحوث العمليات عام ١٩٤٩ ، بغرض تعزيز الاهتمام ببحوث العمليات غير العسكرية . أصدرت اللجنة منشورا صغيرا واسم الانتشار بعنوان « بحوث العمليات مع اشارة خاصة الى التطبيقات غير العسكرية » . وبحلول مايو ١٩٥٢ ، عقد اجتماع تكونت فيه - كما أسلفنا - جمعية بحوث العمليات الأمريكية برئاسة فيليب مورس ، وعقد المؤتمر الأول لبحوث العمليات في نوفمبر من نفس العام كما صدر العدد الأول من دورية بحوث العمليات . وأنتشت مجموعة أخرى بالولايات المتحدة تدعى معهد العلوم الإدارية The Institute of management Science (TIMS) في عام ١٩٥٣ . وعلى الرغم من أن غالبية أعضائها من الولايات المتحدة الأمريكية إلا أنها نشأت كجمعية دولية . وخرج العدد الأول من دوريتها العلمية في سبتمبر

١٩٥٤ . وتكون الاتحاد الدولي لجمعيات بحوث العمليات

International Federation of Operational Research Societies (IFORS)

في يناير ١٩٥٩ ، من الجمعيات الثلاث الأمريكية والبريطانية والفرنسية ومنذ عام ١٩٥٩ حتى اليوم ، أنشئت أكثر من ٢٠ جمعية قطرية لبحوث العمليات . وعلى الرغم من أن جمعية بحوث العلماء الأمريكية جمعية قطرية إلا أنها تحتوي على أعضاء من أكثر من ٧٠ دولة . ويصعب تحديد عدد الباحثين العاملين ببحوث العمليات بدقة إلا أن سجلات عضوية الـ IFORS تشير إلى أن هناك ما يزيد عن ٣٥٠٠٠ عضو .

### ★ الدورات العلمية

تعتبر الدورية العلمية البريطانية Operational Research Quarterly أولى النشرات العلمية في مجال بحوث العمليات ، تبعها دورتان أمريكيتان عام ١٩٥٤ . وظهرت دورتان ، أحدهما فرنسية والأخرى ألمانية ، عام ١٩٥٦ ، وظهر معظم هذه الدورات في الفترة ما بين ١٩٥٥ - ١٩٦٥ . كما تم أيضا تأسيس دورية دولية تلخص مقالات بحوث العمليات من جميع أنحاء العالم ، تدعى للمختصات الدولية لبحوث العمليات (International Abstracts in Operations Research) (IAOR) .

### ★ بحوث العمليات في التعليم

لقد كان من المؤلف في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية للعاملين ذوي الخبرة في بحوث العمليات أن ينظروا إلى مجال تخصصهم على أنه غير قابل للاستفادة من برنامج موسع للتعليم والتدريب بل المطلوب هو الخبرة في عمل البحوث في أحد العلوم الأخرى المعروفة . ولكن بداية عام ١٩٥٥ شهدت تنظيم دورات تدريبية قصيرة في العديد من الدول ، تبعها برامج تعليمية أكاديمية في عدة جامعات . ويشير تقرير لجمعية بحوث العمليات بأمريكا صدر عام ١٩٧٣ إلى أن هناك أكثر من ٥٣ برنامج دراسي في بحوث العمليات بأمريكا ، بالإضافة إلى الدول الأخرى التي أظهرت نموا مشابها في برامج دراسة بحوث العمليات .

### ★ بحوث العمليات في العالم العربي

يصعب علينا تناول تطور بحوث العمليات في العالم العربي بالتفصيل نظرا لعدم توثيق مثل هذا التطور . ونعتمد في هذا العرض السريع على المعلومات المتوفرة لدى بعض المتصلين ببحوث العمليات في العالم العربي في شأن التطورات الرئيسية لبحوث العمليات ببعض الدول العربية .

على الرغم من تطور بحوث العمليات دوليا بشكل ملحوظ إلا أن العالم العربي لم يلمح بالركب إلا متاخرا ، وذلك باستثناء بعض الدراسات الأولية بمعهد التخطيط القومي ومعهد الإدارة العليا بالقاهرة في نهاية الخمسينات باستخدام نماذج برمجة رياضية في التخطيط الاقتصادي والصناعي . وفي صيف عام ١٩٧٢ وجهت الدعوة لمجموعة من العلماء الأمريكيين من أصل عربي منهم صلاح الدين المغربي وحدي طه وسعيد عاشور وتوماس ساهاني للقاء سلسلة من المحاضرات بمعهد الدراسات الاحصائية التابع لجامعة القاهرة كما قاموا بالعديد من الاستشارات لعدة

صناعات مصرية في بحوث العمليات . وأعطى نشاط هذه المجموعة دفعة قوية وأثار اهتماما كبيرا لبحوث العمليات بمصر نتج عنها إنشاء أول جمعية مصرية لبحوث العمليات . وفي بداية السبعينات أءءلت مبادئ بحوث العمليات في بعض البرامج الدراسية بكليات الهندسة والتجارة بالجامعات المصرية .

وانتشرت دراسات بحوث العمليات في العديد من الصناعات والمهئات المصرية كما أن هناك العديد من الدراسات لبحوث العمليات بالقوات المسلحة المصرية ولكننا لا نملك الا القليل من المعلومات عن نوعية وجدوى هذه الدراسات نظرا لعوامل السرية (Machol'1981) . وباءتتاح العديد من أقسام الهندسة الصناعية بكليات الهندسة بالدول العربية ، بما في ذلك مصر والسعودية وليبيا ، وءءينا الأردن ( عام ١٩٨٨ ) والكويت ( بحلول عام ١٩٩٠ ) انتشرت برامج بحوث العمليات الدراسية بالجامعات العربية . وفي مجال التطبيقات فلقء تم الاستعانة ببحوث العمليات وخاصة نماذج البرمجة الخطية في شركات النفط بالدول العربية في بداية السنينات . ونجدد الاشارة هنا الى دراسات بحوث العمليات التطبيقية التي نءمرى منذ أوائل الثمانينات في معهد الكويت للأبحاث العلمية لتشمل تطبيق نماذج البرمجة الرياضية عل العديد من المشاكل الصناعية ونظم الءءماء والانتاج الزراعي بالاضافة الى نماذج المحاكاة في كثير من المجالات الزراعية والصناعية والاقتصادية .

#### الدروس المستفءة من تطور بحوث العمليات :

ءءد استشفاف الدروس المستفءة من تطور بحوث العمليات يجءربنا انتمعن في اءءاءات الحرب العالمية الثانية بدول الحلفاء وما تبعها من تطورات بالحقل المءني . ونستنتج فبما يلي بعض هذه الدروس ، نوءزها فبما يلي :

★ تزءى أوقات الشءة الى تضاصر جهود المخلصين عل الرغم من تباين خلفياتهم العلمية ومجالات عملهم سواء في الحقل العسكري أو المءني . فلقء لجأ العسكريون الى الاستعانة بالقءدرات العلمية الوطنية للمساعدة في التصءني لتهءءءات الاءءاء .

★ تمثل المهئات العسكرية أءء عوامل الدفء الهامة نحو التطور والتقدم العلمي نظرا لتعاملها مع متطلبات الأمن القومي وما يتءعه من جدية ونظام ومءويل توفر المناخ المناسب للبحث العلمي .

★ لا بد وأن تكون هناك فءة من العلماء المخلصين الذين يأءءلون عل عاتقهم تطوير علم ما وءل الشءلة حتى يءرج هذا العلم الى حيز الوجود ويتطور عل أسس مءينة . فعلى الرغم من اءهاء الحرب الا أن أوئل العالمين ببحوث العمليات بالجيش الأمريكية والبرطانية رأوا فيها نواة علم جديد ذي أهمية وفائدة لكثير من المجالات المءنية . وبدون اصرار هؤلاء الرواء عل المضي في تطوير علم بحوث العمليات وتوثيقه وعرض خبراتهم عل الآخرين لما تم وصول هذا العلم الى مرحلة البلوغ .

★ ضرورة وجود الانتهاء الوطني والعلمي للعالمين ببحوث العمليات لءءمة وطنهم فبدون هذا الانتهاء لما تمكن العلماء من التطوير والبحث . وتوء أن نشير هنا الى أهمية فهم باءهي العمليات للبيئة التي يمارسون فيها أعمالهم .



★ تعتمد دراسات بحوث العمليات على التفاعل والتفاهم التام بين الدارسين القائمين على الدراسة والمستفيدين الأمر الذي يستدعي مراعاة احتياجات وقيد الواقع وأثرها على طرق تحليل وحل المشاكل الخاصة للدراسة .

★ لعبت الحاسبات الآلية دورا رئيسيا وهاما في تطور وانتشار دراسات بحوث العمليات . فلا مفر إذن من التفاعل الإيجابي بين علم الحاسبات وعلم بحوث العمليات لزيادة القدرات لمعالجة المشاكل العلمية من ناحية ودرجة التقيد أو الخجيم .

★ يزداد مدى الاستفادة من نتائج دراسات بحوث العمليات كلما اقترب فريق الدراسة من أعلى مستويات صانعي القرار . فلو لم يكن هناك اتصال مباشر بين المارشال دودنج وبين رئيس فريق بحوث العمليات لما أمكنه الحصول على احتياجاته بدقة ووضوح .

★ أهمية التعاون بين المختصين في العلوم المتعددة ذات الأهمية لمجال دراسة بحوث العمليات فعل سبيل المثال اعتمد تطوير نظام المراقبة لدعم الدفاع البريطاني ضد الهجمات الجوية على التفاعل بين المختصين العسكريين ومهندسي الرادار ( مصنعين ومشغلين ) ويأتي العمليات .

#### خاتمة

وختاماً نتطرق مرة أخرى للسؤال الذي يطرحه عنوان الورقة : هل بحوث العمليات علم حديث أم متج جديد ؟ هناك بعض الآراء التي تشير إلى أن بحوث العمليات يمكن تطبيقها في العديد من مجالات العلوم الأخرى مثل الزراعة والطب والتعليم مثلاً . لذا فهي تمثل منهجاً جديداً يمكن استخدامه في مجال العلوم الأخرى بهدف تحسين أداء هذه النظم . وبالمقابل يجيب الممارسون والمهنيون في مجال بحوث العمليات على هذا السؤال بالتأكيد على أن بحوث العمليات علم مستقل يتناول تطبيق المنهج العلمي وشرح ظواهر التغير في مجال نظم التشغيل ، بما في ذلك تطوير النماذج الرياضية لفهم هذه الظواهر ولاستشراف ما يحدث تحت الظروف المختلفة لنظم التشغيل . فبحوث العمليات تتطابق مع العلوم الأخرى في استخدامها للمنهج العلمي في دراساتها بينما تتميز عن باقي العلوم في تناولها لمجال نظم التشغيل .

لقد تطور علم بحوث العمليات ونما ، كما رأينا ، بحيث استدعى هذا إنشاء برامج تعليمية خاصة تعبر إلى مستوى الدراسات العليا بغالبية الجامعات في معظم بلدان العالم كما تكونت العديد من الجمعيات المهنية والعلمية يشترك في عضويتها آلاف المعاملين في البحوث وأنتشت وازدهرت الدوريات والنشرات العلمية ذات المستوى المتقدم . بالإضافة إلى ذلك نجد الكثير من الهيئات الحكومية والعسكرية والشركات الصناعية وغيرها قد أنشأت أقساماً إدارية متخصصة للقيام بدراسات بحوث العمليات .

إن بحوث العمليات تمتلك المقومات التي تؤهلها كعلم حديث باستخدام المنهج العلمي في مجال نظم التشغيل الأمر الذي يبرر ظهور وجود برامجها ومنهجها ودرجاتها التعليمية وجمعياتها المهنية والعلمية ودورياتها العلمية الخاصة بالإضافة إلى وجود أقسام متخصصة بدراسات بحوث العمليات في كبرى المؤسسات الحكومية والشركات .

ملحق رقم ١  
البرمجة الخطية Linear Programming  
نبذة مختصرة

تعتبر نماذج البرمجة الخطية أكثر فروع بحوث العمليات تطوراً وخاصة بعد أن قام جورج دانتيج George Dantzig بتطوير طريقة الحل المعروفة باسم سمبلكس Simplex عام 1947. ويرجع النجاح الحالي في تطبيق البرمجة الخطية إلى تقدم قدرات الحاسبات الآلية من حيث السرعة والسعة التخزينية. وتتمتع نماذج البرمجة الخطية بتنوع هائل في تطبيقاتها بالمجالات العسكرية والزراعية والصناعية وينظم الانتاج والتخزين والنقل والاقتصاد. ونقدم هنا شرحاً مبسطاً لنماذج البرمجة الخطية.

تستخدم نماذج البرمجة الخطية في إيجاد القيم المثلى للأنشطة (Activities) أو الأعمال التي تتطلب العديد من الموارد Resources المحدودة بمعدل معروف ويعطى لكل علاقة بين نوع النشاط والموارد.

يتكون نموذج البرمجة الخطية من دالة هدف (Objective Function) تمثل، مثلاً، كلفة الموارد المستخدمة. وفي هذه الحالة يهدف نموذج البرمجة الخطية إلى تقليل الكلفة (Cost Minimization). أو قد تكون دالة الهدف هي ربحية الأنشطة المنتجة والتي يقوم النموذج بتعظيمها (Profit Maximization) وهناك بعد هذا القيود (Constraints) التي تمثل حدود الاختيار من بين الحلول الممكنة.

وتمثل دالة الهدف معايير تقويم الحلول المطروحة كالكلفة أو (الربح). ويهدف نموذج البرمجة الخطية إلى اختيار الحل الأمثل الذي يؤدي إلى تقليل أو تعظيم التكاليف الكلية (الربح الكلي). وعادة ما تتكون دالة الهدف من ناتج ضرب الكلفة (الربح) لوحدة من وحدات المتغير في عدد الوحدات من هذا المتغير والتي يحددها الحل الأمثل للنموذج. وبالنظر إلى أن اختيار الحل الأمثل لا بد وأن يخضع للعديد من القيود التي تحد من الخيارات الممكنة حتى نحصل على الحل الممكن تطبيقه عملياً. فعلى سبيل المثال، هناك قيود على الطاقة الانتاجية لشركة ما لا يمكن تجاوزها. ولكل قيد علاقة خطية تخضع لقيمة ما (مثل الطاقة الانتاجية) سواء كانت أقل من، أو تساوي، أكثر من أو تساوي هذه القيمة.

التعريف العام لنماذج البرمجة الخطية:

يمكن تعريف نماذج البرمجة الخطية رياضياً بصفة عامة كالآتي:

## \* دالة الهدف .

Maximize (or Minimize)

$$\sum_{j=1}^n C_j X_j$$

Subject to :

\* القيود Constraints

$$\sum_{j=1}^n a_{ij} X_j \leq, =, \geq b_i$$

وحيث أن :

$$\begin{aligned} X_j &= \text{مستوى المتغيرات التي تمثل كل عمل من الأعمال} . \\ C_j &= \text{ربحية (أو تكلفة) كل وحدة من المتغيرات} . X_j \\ a_{ij} &= \text{كمية استهلاك العمل} j \text{ من المورد} i . \\ b_i &= \text{الكمية المتاحة من المورد} i . \end{aligned}$$

وتعريف المتغيرات والعوامل يختلف بشئير الموقف العملي المطلوب تمثيله بالنموذج الرياضي . وتعتمد نماذج البرمجة على ثلاثة افتراضات ، الأول : التناسب (Proportionality) مما يعني أن استهلاك الموارد بواسطة عمل من الأعمال وأثره على دالة الهدف يتناسب مع مستوى العمل . الثاني : القابلية للجمع (Additivity) مما يبين أن الاستهلاك الجماعي للموارد عبارة عن مجموع الاستهلاكات لكل عمل من الأعمال . وعدان الافتراضان يؤديان الى تمثيل خطى لجميع عناصر النموذج . والافتراض الثالث : أن المتغيرات التي تحدد مستوى الأعمال لا يمكن أن تكون سالبة (Nonnegativity) .

وبالرغم من عيوب افتراض أن جميع العلاقات بالنموذج خطية خاصة في المشاكل العملية إلا أن أهمية هذا الافتراض تتمثل في قابلية النموذج للحل بطرق مبسطة وأكثر كفاءة مما لو كانت هناك علاقات غير خطية . لذا يلجأ كثير من مطوري النماذج الرياضية الى تقريب العلاقات غير الخطية بعلاقات خطية . ولقد أثبت النتائج أن الدقة التي تفقد نتيجة لهذا التقريب تعتبر مقبولة عمليا .

## مثال ١ : مزج الزيت الخام Crude Oil Blending

في إحدى مصافي الزيت خطان لخلط نوعين من وقود السيارات باستخدام نوعين من الزيت الخام . وتتغير ربحية المصفاة حسب نوع الوقود مع التقيد بكميات محدودة من نوعي الزيت الخام الممكن الحصول عليه ، بالإضافة الى ارتباط المصفاة بعقود لتزويد السوق بكميات معينة . وبين الجدول رقم ١ البيانات الخاصة بالبدائل

واستخدامات الموارد لكل خط للانتاج . "1" يتطلب وحدة واحدة وثلاث وحدات من نوصي الزيت الخام الأول والثاني على التوالي لانتاج 9 وحدات من النوع الأول لوقود السيارات ، بينما تغطي وحدتين من النوع الثاني من الوقود خلال ساعة من الزمن . كما يوضح الجدول أن الربحية الناتجة من تشغيل الخط « أ » للانتاج تساوي 5 دنانير كويتي . ويعطي الجدول أيضا نفس البيانات لخط الانتاج « ب » . ويوضح الجدول أن كمية الزيت الخام المتاحة للمصفاة لا تتعدى 80 و 120 طنا للنوعين الأول والثاني على التوالي ، بالإضافة إلى ارتباط المصفاة بتزويد 80 و 90 طنا من النوعين "1" و "2" على التوالي لوقود السيارات ويمكن تمثيل نموذج البرمجة الخطية لمزج الزيت الخام في رسم بياني (شكل ١) .

ويتكون الشكل من خمسة خطوط مستقيمة كل منها يمثل صفا من صفوف الجدول رقم «١» . الأربعة الأولى 1,2,3,4 تمجد القيود على الحل بينما الخط رقم 5 الربحية (Profit line) ويلاحظ أن الخطوط الأربعة الأولى تحدد المنطقة المخططة والمعروفة « بمنطقة الحلول الممكنة » (Feasible Region) والمعروف في نظريات البرمجة الخطية أن الحل لا بد وأن يتكون من إحدى النقاط الحدية الأربع الناتجة من تقاطع الخطوط التي تحدد منطقة الحلول الممكنة ، فمثلا الخط رقم «2» يبين أن الحل لا بد أن يعطى ما لا يقل عن 180 طنا من وقود السيارات نوع "1" . ويمكن رسم هذا الخط بافتراض أن عدد ساعات العمل على خط الانتاج « ب » يساوي صفرا ، ويقسمه الطلب ، وهو 180 طنا على كمية الوقود "1" الممكن انتاجه واحد ، لا بد وأن يعمل الخط لمدة 20 ساعة كما هو مبين على الرسم على المحور الأفقي والذي يمثل عدد ساعات خط الانتاج الأول . وبالطريقة نفسها نصل إلى النقطة 45 على المحور الرأسي . ويوصل هاتين النقطتين ينتج الخط البياني "1" .

ونود أن نوضح هنا أن الأسهم الصغيرة على طرفي الخط «2» تشير إلى أن الحلول الممكنة تقع على يمين هذا الخط فقط . أما عن خط الربحية ، فيتم بافتراض أية قيمة للربحية الكلية ( ولتكن 100 في هذه الحالة ) . وتستخدم هذه القيمة المفترضة لحساب انحدار خط الربحية والذي يمكن استخدامه في رسم الخط . وتتطوى الطريقة البيانية ( شكل « ١ » ) على تحريك خط الربحية في حالة تعظيم الربحية إلى أبعد نقطة ممكنة من نقطة الأصل وهي النقطة (12, 32) للموضحة على الرسم . ويمكن تلخيص الحل الأمثل كالآتي :

الحل الأمثل لمثال مزج النفط الخام

● عدد ساعات العمل

خط الانتاج «أ» 32 ساعة

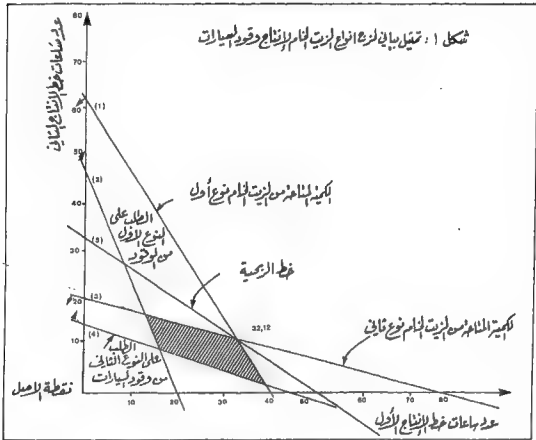
خط الانتاج «ب» 21 ساعة

● الربحية

$$= 32 \times 5.0 + 21 \times 3.25 = 199 \text{ ديناراً}$$

جدول 1 بيانات مزج الزيت الخام لانتاج وقود السيارات

الكمية		خط الانتاج		
		«ب»	«أ»	
المتاح	80	4	1	* زيت خام
	120	2	3	- نوع أول
الطلب	180	4	9	- نوع ثاني
	90	6	2	* وقود السيارات
	-	3.25	5	- نوع «1»
				- نوع «2»
				الربحية



### • الكمية المستخدمة من النفط الخام

النوع الأول : 80

النوع الثاني : 120

وهو ما يساوى الكمية المتاحة

### • الكمية للمنتجة من وقود السيارات

نوع "1" : 336 وهو ما يتعدى الطلب

نوع "2" : 632 وهو ما يتعدى الطلب

والملاحظ أن المثال يفترض أن المصفأة يمكنها أن تبيع من بيع أية كمية منتجة من نوعي وقود السيارات تتعدى الطلب .

وبافتراض أن :

$$X_1 = \text{عدد ساعات الإنتاج على خط واء}$$

$$X_2 = \text{عدد ساعات الإنتاج على خط وب}$$

يمكن وضع نموذج رياضي لهذا المثال كالآتي : يهدف النموذج الى إيجاد عدد ساعات العمل على كل خط من خطوط الإنتاج مع تعظيم الربحية المثلثة بالمخطط .

$$5X_1 + 3.25X_2$$

بحيث ينفذ هذا الحل للقيود التالية :-

### • قيود كمية الزيت المتاحة :

$$X_1 + 4X_2 \leq 80 \quad \text{أي أن الكمية المستخدمة من النفط}$$

$$3X_1 + 2X_2 \leq 120 \quad \text{الخام لا تتعدى الكمية المتاحة من كل نوع .}$$

### • قيود الطلب على الوقود :

$$9X_1 + 4X_2 \geq 120 \quad \text{أي أن الكمية المنتجة من الوقود لا بد وأن}$$

$$2X_1 + 2X_2 \geq 90 \quad \text{تتعدى الكمية المطلوبة .}$$

ويمكن تعديل القيود المعطاة أعلاه أو إضافة قيود جديدة ، مثل تعديل قيود الطلب على الوقود ، بجعلها تساوي ( = ) بدلا من أكبر أو تساوي (  $\geq$  ) أو إضافة قيد جديد على عدد ساعات العمل بأحد الخطوط بحيث لا يتعدى عدد ساعات معينة .

وجميع هذه التعديلات تخضع بالطبع للاعتبارات العملية للمشكلة التي نحن بصددها .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو : لنفترض أن عدد خطوط الإنتاج أكثر من خطين بحيث لا يمكن تمثيل المسألة بيانيا كيف يمكننا إيجاد الحل الأمثل ؟ وهنا ننتقل إلى ما هو معروف بالطرق الجبرية . والطريقة الأكثر شيوعا والمتبعة في جميع برامج الحاسب الآلي للبرمجة الخطية وهي طريقة "Simplex" والتي لن نخوض في تفاصيلها هنا ويمكن للقارئ المهتم أن يطلع على Dantzig (1963), Hadley (1962), Taha (1982)

\*\*\*



## المراجع

- عزول ، أسامة محمد ، ١٩٨٦ ، العدد والآخر ، طوره مستقلة في التكاليف لشؤون الخدمة ونظم القرار في المستشفيات ، القاهرة ، مصر ، في المراجع العلمي للجامعة مزنة ،  
لنوك ، بريش ، ١٩٨٦
- Air Ministry, 1963 *The Origin and Development of Operational Research in Royal Air Force*, Air Publication 3368  
Her Majesty's Stationery Office London
- Baskley, N J.J. , 1957 *Operational Research in Hospital Planning and Design*, Operational Res. Quart 8, pp 149-157, Sept.
- Balmsky, W. and A. Reisman, 1972 *Some Manpower Planning Models Based on Levels of Educational Attainment*, Management Science 18, pp 691-705
- Blackett, P M S 1962 *Statistics of War: Nuclear and Conventional*, Hill and Wang, New York
- Caywood, Thomas E. , Howard M Berger, Joseph H Eagel, John F Magee , . . . , Macer and Robert M Thrall, 1971. *Guidelines for the Practice of Operations Research*, Operations Research 19 pp1123-1148
- Clark, Ronald W. 1965, Thizard, Chapter 7, MIT Press, Cambridge, Massachusetts.
- Churchman, C West, Russell L Ackoff, and E Leonard Aruff, 1957 *Introduction to Operations Research*, Wiley, New York.
- Churchill, W.S 1949 *Their Finest Hour*, Vol. II of the series *The Second World War Case*, London
- Dantzig, G. 1963 *Linear Programming and Extensions*, Princeton University Press, Princeton, New Jersey.
- Edie, Leslie, 1954, *Traffic Delays at Toll Booths*, Operations Research 2, pp 107-138
- Fabozza, F.J. and J. Valente, 1976 *Mathematical Programming in American Companies: A Sample Survey*, Interfoces 7 (1): pp 93-98, November
- Fetter, Robert B. 1975 *The Health Services, Handbook of Operations Research, Models and Applications - Volume 2*, in Moder, J. and S E. Elmaghraby (eds.), Van Nostrand Reinhold, New York.
- Fetter, R.B. and J.D. Thompson, 1973 *A Planning Model for the Delivery of Health Services*, in A. Reisman and M Kiley (Eds.), *Health Care Delivery Planning*, Gordon 9 New York.
- Flagle, C.D. 1967 *A Decade of Operations Research in Health*, in F. Snyck and A.G. Wilson (Eds.), *New Methods of Thought and Procedure*, Springer-Verlag, New York, pp. 33-41
- Goldman, J. and H.A. Knappenberger, 1968 *How to Determine the Optimum Number of Operating Rooms*, Modern Hospital 111, pp. 1147, Sept
- Grosselin, Karl, and Michel Truchon, 1966 *Allocation of Chestrooms by Linear Programming*, J. Operational Research Society, Vol 37, No. 6, pp 561-569
- Hadley, G. 1964. *Linear Programming*, Addison-Wesley, Reading, Massachusetts
- Haley, K.B. (editor) 1970 *Operational Research 78: Proceedings of the Eighth International Conference On Operational Research*, North-Holland, Amsterdam.
- Hillier, F.S. and G.J. Lieberman. 1960. *Introduction to Operations Research*, Holden-Day, Inc., Oakland California, 3rd Edition.
- Horvath, W.J and M.L. Ernst, 1968. *Philip McCord Merritt: A remembrance (1903-1965)*, Operations Research, Vol 34, No. 1, Jan-Feb.
- Kennedy, John G. 1959 *A Philosopher Looks at Science*, Van Nostrand Reinhold, New York
- Larnder, H., 1964 *The Origin of Operational Research*, Operations Research, Vol 32, No. 2, March-April.
- Ledbetter, W.N and J.F. Cox, 1977. *Are OR Techniques Being Used*, Industrial Engineering, pp. 19-21, February.
- Machol, R.E., 1981, *OR/MS in Europe - An American's Impressions*, pp. 209-218, I.P. Brans (Editor) *Operational Research 81*, Proceeding of the Ninth IFORS International Conference in Operational Research, Hamburg, Germany, July 20-24.

- Miser, Hugh J. and W. Edward Cushon, 1975. *The Demand for Management-Science Services in the Future in Civil Government*, in Micheal J. White, Micheal Radnor, and David A. Tansik (eds.), *Management and Policy Science in American Government : Problems and Prospects*, Lexington Books, D.C. Heath, Lexington, Massachusetts.
- Miser, Hugh J., 1975. *The History, Nature and Use of Operations Research*, in J.J. Moder and S.E. Elmaghraby (editors), *Handbook of Operations Research : Foundations and Fundamentals*, Volume 1, Van Nostrand, Reinhold, New York.
- Moder, J.J. and S.E. Elmaghraby, (editors), 1975. *Handbook of Operations Research*, Volume 1 and 2, Van Nostrand, Reinhold, New York.
- Morse, P.M., 1986. *The Beginning of Operations Research in the United States*, *Operations Research*, Vol 34 No. 1, Jan-Feb.
- Morse, Philip M. and George E. Kimball, 1946. *Methods of Operations Research*, National Defense Research Committee, Washington D.C., (Also published by Wiley, New York, 1951).
- , 1955. *Queues, Inventories and Maintenance : The Analysis of Operational Systems with Variable Demand and Supply*, Wiley, New York.
- Neal, Rodney D. and Micheal Radnor, 1973. *The Relation between Formal Procedures for Pursuing OR/MS Activities and OR/MS Group Success*, *Operations Res.* 21: pp. 451-474.
- O'Brien, G.G. and R.R. Crane, 1959. *The Scheduling of a Barge Line*, *Operations Research.* 7 : pp. 561-570.
- Quade, Edward S., 1975. *Analysis for Public Decisions*, American Elsevier, New York. ——— and W.I. Boucher, 1968. *System Analysis and Policy Planning : Applications in Defense*, American Elsevier, New York.
- Radnor, Michael and Rodney D. Neal, 1973. *The Progress of Management-Science Activities in Large US Industrial Corporations*, *Operations Research* 21 : pp. 427-450.
- Raviadran, A., Phillips, D.T. and Solberg, J.J., 1987. *Operations Research : Principles and Practice*, Second Edition, John Wiley and Sons, New York.
- Taha, H., 1982. *Operations Research : An Introduction*, third edition, Macmillan Publishing Co., New York.
- Thorntwaite, C.W., 1953. *Operations Research in Agriculture*, *Operations Research.* 1 : pp. 33-38.
- Trefethen, Florence N., 1954 *A History of Operations Research*, pp. 3-35 in McCloskey and Trefethen.
- Turban, E, 1972. *A Sample Survey of Operations Research Activities at the Corporate*, *Operations Research*, 20 : pp. 708-721.
- Waddington, C.H., 1973. *OR in World War 2 - Operational Research against the U-Boat*, Paul Elek Ltd., London.
- Wason-Watt, Sir R. 1957. *Three Steps to Victory*, Adams, London.
- White, Gregory, P., 1987. *A Survey of Recent Management Science Applications in Higher Education Administration*, *Interface* 17 : 2 March-April, pp. 97-108.
- Wright, R. 1969. *Dowding and the Battle of Britain*. Macdonald, London.

قبل البداية : تقوم هذه الدراسة على أساس مفهوم محدد للنتيجة نلتزم به ، ومؤكد أن المنتج هو مجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التي تستخدم في حل مشكلات العلم ، وبناء العلم نفسه في مرحلة ما من تاريخه . وهو ما يعني بالنسبة لهذا البحث أن مناهج البحث التاريخي تتطور في كل مرحلة من مراحل تطور علم التاريخ نفسه ، ومن ثم فإن هناك علاقة جدلية بين بنية العلم المعرفية ومناهج البحث في هذا العلم بحيث تناسب مناهج البحث المرحلة ( التاريخية ) في تطور العلم من جهة ، كما أنها تساعد العلم على الانتقال لمرحلة أخرى بمناهج جديدة من ناحية ثانية .

وتقوم هذه الدراسة ، أيضا ، على أساس من الجمع بين تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية وتطور علم التاريخ نفسه . ونحن مع الرأي القائل إن أي حديث عن المنتج بمعزل عن الحديث في العلم ومشكلاته حيث لا طائل من ورائه . ومن ثم ، فإن الدراسة تحاول أن توضح أن كل مرحلة من مراحل تطور الدراسات التاريخية قد اعتمدت على وسائل منهجية أساسية كانت تناسب البحث في مشكلات المعرفة التاريخية في حينها ، فضلا عن أن المراحل الجديدة في تاريخ تطور الدراسات التاريخية ومناهج البحث المرتبطة بها لم تكن تقضي على مناهج القديمة ، وإنما كانت تأخذ منها مكان الصدارة لتضع بدورها المجال لمناهج جديدة في أي تطور لاحق للعلم ومناهجه •

## تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية

فاسم عبد قاسم



• استندنا على الصيغة النظرية لهذه المشكلة في الدراسة القائمة على أبحاث الصديق الدكتور حسن عبدالمجيد عن ( أنواع للهجية ) وقد ناقش مشكلة الفصل بين البحث ونتاجه والبحث في العلم نفسه ، وما ينتج من ذلك من أخطاء . وقد عرض لأصل المشكلة التي نتيج من توقع أن نخرج يمكن أن يكون متعللا من العلم نفسه . انظر حسن عبدالمجيد ، ( أنواع للهجية ) بحث في الكتاب الشكاري بمناسبة بلوغ الدكتور زكي نجيب محمود الثلاثين من عمره بعنوان : الدكتور زكي نجيب محمود ليلسلا وألغيا ومعلما ، ( الكويت ١٩٨٧م ) ، ص ٣٩٥ - ١٢٢

منذ بدأ الإنسان يسمى على سطح الأرض راوده سؤال ما يزال يلح في طلب الإجابة حتى الآن : من أين ، ولماذا ، وإلى أين ؟

وعلى الرغم من أن الأسطورة ، والفكر الديني ، والفلسفة ، والعلم ، قد حاولوا جميعا تقديم الإجابة على هذا السؤال اللغز المرتبط بوجود الإنسان في الكون ، فإن هذا السؤال ما يزال ، بالنسبة للإنسان ، لغزا محيرا مضنيا . وما يزال السؤال مطروحا على نحو أو آخر .

وفي طيات المحاولات الدائمة التي بذلها الإنسان للحصول على إجابة مرضية لهذا السؤال ظهر ( علم التاريخ ) باعتباره أحد الأدوات التي يستخدماها الإنسان لفهم حقيقة الوجود الإنساني ، في ماضيه وحاضره ومستقبله . وهكذا تمحلت ، منذ البداية ، قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية / الاجتماعية . ومن ثم كانت المعرفة التاريخية ، سواء في شكلها الأولي المنقل بالعناصر الأسطورية والدينية ، أو في تطورها الحالي الذي جعل من علم التاريخ علما متعدد الفروع ، يطور مناهجه وتطوره مناهجه باستمرار لكي يقوم بوظيفته الثقافية / الاجتماعية في خدمة الإنسان فنزل إن المعرفة التاريخية كانت ملازمة لوجود أية جماعة بشرية أيا كانت درجة نموها الحضاري . وفي غمار تلك الرحلة الطويلة التي قطعتها المعرفة التاريخية كانت تحاول الإجابة على الأسئلة التي يطرحها الإنسان في محاولته الدائمة لمعرفة ذاته ، وفي كل مرحلة من مراحل هذه الرحلة الطويلة كانت مناهج البحث تتطور بحيث تلى غايات وحاجات الدراسات التاريخية في تلك المرحلة .

وليس من المتصور ، بطبيعة الحال ، أن الوظيفة الثقافية / الاجتماعية للمعرفة التاريخية كانت واضحة لدى الجماعات الإنسانية المبكرة بدرجة وضوحها الحالية ، بيد أن إحساس الجماعة الإنسانية بالحاجة إلى المعرفة التاريخية كان قائما وموجودا على الدوام . لقد كانت الجماعات البشرية في بداية رحلتها ، التي لم تتم بعد ، عبر الزمان تشعر بالحاجة إلى هذه المعرفة التاريخية ، ولكن وهي الإنسان بحقيقة هذا النمط من أنماط المعرفة ، ومناهج البحث التي تصلح لكل مرحلة من مراحل تطوره والأركان التي يقوم عليها ، لم يتحقق سوى بعد رحلة طويلة لعلم التاريخ في رحاب الزمان سارت في خط مواز لرحلة الإنسان نفسه . وفي أثناء هذه الرحلة تطورت مناهج البحث في التاريخ وتطورت بنيتة المعرفية ، وتحطت طور التراكم والوصف ، وصولا إلى طور يحاول صياغة قوانين ونظريات تفسر حركة التاريخ ، وتنوعت مدارس فلسفة التاريخ التي تصوغ موضوعاتها على أساس المعرفة التاريخية والتفسير الوضعي لهذه المعرفة من ناحية ، ومحاولة الفهم التقريري الأخلاقي لحياة البشر الاجتماعية من ناحية أخرى<sup>(١)</sup> كما تنوعت أنماط الدراسات التاريخية على نحو جعل من علم التاريخ ، الذي يسمى إلى ماضى الإنسان الحضاري ، علما يتصل بحاضر الإنسان ومستقبله من حيث الهدف .

هذه الرحلة الطويلة التي قطعتها المعرفة التاريخية ، منذ نشأت في رحم الأسطورة حتى تطورها العلمي المثري في العقود الأخيرة ، كان هدفها معرفة الإنسان في حياته الاجتماعية ، وفي إطار ثقافته . ولم يكن ممكنا أن تتطور المعرفة

(١) ب . ب . جرينديان ، الفلسفة وللسطة التاريخ ، ترجمة جميل ط ، ومراجعة رشوان النقيب ، ( دار الفكراني ، بيروت ١٩٨٦م ) ، ص ٥ .

التاريخية في جانب بعينه بعيداً عن بقية جوانبها . ومن ثم ، فإن فلسفة التاريخ التي تبحث في اتجاه حركة التاريخ ، والقوى الفاعلة في هذه الحركة ، ومضمون التاريخ ومغزاه ، كانت تتطور بشكل يوازي تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية بهدف تطوير كيفية الحصول على المعلومات ، وتحليلها ، وعرضها ، ثم محاولة كشف العلاقة السببية داخلها وصولاً إلى استنتاجات قد تفيد في تحقيق المهدف النهائي من الدراسة التاريخية .

وفي الوقت نفسه كانت الثقل النوعية في مناهج البحث تواكبها نقلة كمية في التراكم المعرفي داخل علم التاريخ نفسه . وقد أدى هذا الوضع إلى فرض نمط من التخصص في الدراسات التاريخية بحيث انقسمت إلى فروع يهتم كل منها ببحث أنماط التطور الإنساني عبر التاريخ على مستوى بعينه ، فظهر التاريخ الاجتماعي ، والتاريخ الاقتصادي ، والتاريخ العسكري ، والتاريخ الفني ، والتاريخ الثقافي ... وما إلى ذلك .

ومع هذه التطورات كان على المشتغلين بالدراسات التاريخية أن يطوروا مناهجهم وأدواتهم البحثية ، وكان كل تطور على هذا المستوى يدفع بالدراسة التاريخية إلى تطور جديد . وهكذا كانت مناهج البحث في الدراسات التاريخية في علاقة جدلية بعلم التاريخ نفسه ، ودخلت هذه الخطوات العقلية والاستدلالية التي اصطلاح على تسميتها بالمنهج في بنية العلم الأساسية ، ولم تكن مجرد ممارسة عقلية منفصلة عن علم التاريخ الذي حل تجربة الإنسان الحضارية وقصته في الكون . والحاصل أن أر كان المعرفة التاريخية جميعها قد خضعت لنوع من التفاعل الداخلي يحتم علينا محاولة تتبع الخطوط العامة لهذا التطور .

بيد أن هذه الدراسة سوف تركز اهتمامها على التراث الإسلامي من جهة ، والتراث الغربي من جهة أخرى . وفي تقديرنا أن الشرعية العلمية لهذه المحاولة تقوم على أساس توضيح إسهام الفكر العربي في تطور الدراسات التاريخية فضلاً عن بيان دور الفكر التاريخي الأوربي الذي ما يزال يتولى ريادة الفكر التاريخي بعد أن وصل به إلى آفاقه الراهنة .<sup>(١)</sup>



منذ البداية حاول الإنسان التعرف على ماضيه لكي يفهم حاضره من ناحية ، ولكي يجد في هذا الماضي سنداً ودعماً لوجوده الآن في إطار الجماعة من ناحية أخرى . وإذا كان الإنسان قد لجأ إلى الأسطورة لتفسير المفردات المتعلقة بوجوده في الكون ، ولتفسير الظواهر المحيطة به ، فإن محاولته هذه كانت هي الخطوة الأولى لبناء المعرفة العلمية سواء في مجال التاريخ أو غيره . فقد كانت الأسطورة ملاذ الإنسان حين كان العقل البشري ما يزال في طور طفولته الأولى . ويغض النظر عن التفسيرات المختلفة للأسطورة<sup>(٢)</sup> ، فإن الأسطورة حاولت ترقيع النقص في ذاكرة الإنسان ، وفي

(١) لزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر :

Barnes, H. E, History of Historical Writing, 2nd ed, (New York 1963).

أيضاً : أريان ج . وينجري ، التاريخ وكيف يفسره - من كوفلفيريس إلى مكي ، ترجمة عبدالعزیز جليل ، القاهرة ١٩٧٢م .

(٢) انظر المقالة للبرهان والمقدمة في هذا الموضوع عند :

فراس السواح ، مقدمة للعقل الأولى - دراسة في الأسطورة : سورة ولاد الرافلين : ( دار سور ، نفوسيا - قبرص ، ط . ص ١٩٨٦م ) ، ص ١١ - ص ٢٢ .

معرفة عن الكون والأشياء . وقد ظهرت أساطير الخلق لتحاول الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالخلق والتكوين وأصل الإنسان ، وعلاقته بالكون . وكانت هذه الأساطير هي المحاولة الأولى للحصول على إجابات يحتاجها الإنسان لتفسير وجوده وقصته في العالم .

وإذا كان البعض يصف الأسطورة بأنها ( العلم البدائي ) ، فإنه ينبغي علينا أن نشير إلى أن المعرفة التاريخية قد ولدت من رحم الأسطورة ، وترت وتزعرت في حجرها . إذ أن أحداث القصص الأسطورية تدور حول أصول الأشياء ونهاياتها . وهنا نجد المجتمع الإنساني يلجأ إلى أساطيره للحصول على التفسيرات المطلوبة لمختلف الظواهر الغامضة ، سواء في الطبيعة ، أو في ماضي التطور الإنساني . ومن ثم فإن بلرة ( التاريخ ) التي زرعت في تربة الأسطورة أخذت تنمو بالتدريج وبشكل مطرد مع تزايد تحرر الكتابة التاريخية من الخيال والرمز الذي ميز « الكتابات التاريخية » الأولى . وإذا كان تصور التاريخ على أنه علم تصور حديث نسبياً ، فإن التاريخ ، من حيث كونه سجلاً لنشاط البشر وسعيهم لبناء الحضارة ، قد بدأ مع بداية المجتمع الإنساني نفسه . ولا يقلل من أهمية هذه الحقيقة حقيقة أخرى مؤداها أن العناصر « الأسطورة » كانت أكثر من العناصر « التاريخية » في هذه الكتابات المبكرة .

لقد حاولت الأساطير الأولى أن تفسر ماصعب على الإنسان إدراكه في بداية رحلته الكونية . بيد أن الأسطورة ، من ناحية أخرى ، عجزت عن توضيح البعد الزمني والبعد المكاني في القصة التاريخية . فالزمن في الأسطورة متداخل دوماً بتحديد ، لأن بناءها يقوم على أساس أن الزمن لم ينته بل ما يزال مستمراً . ولذلك فإن النكوة الأسطورية من الزمان كيميائية وجسمية ، لا كمية مجردة . فالفكر الأسطوري لا يعرف الزمن بوصفه تعاقباً للملاحظات زمنية متشابهة ، كما أن الإنسان الأول لم يعرف فكرة الزمن التي تشكل لنا إطار التاريخ<sup>(١)</sup> كذلك فإن علاقة الأسطورة بالمكان هي بعينها علاقة البناء الفنى برموزه ، فالمكان رمز للأسطورة ولكنه ليس مسرحاً حقيقياً لأحداثها التي تدور خارج حدود الزمان والمكان ولأن العملية التاريخية ثلاثية الأبعاد ، إذ أنها تقوم على العلاقة الجدلية بين الإنسان وبيئته . . . في إطار المكان ، فإن تطور المعرفة التاريخية كان يستوجب البحث داخل هذه المنظومة الثلاثية بحيث نحتم انفصال ( التاريخ ) عن ( الأسطورة ) في مرحلة لاحقة .

لقد أدخلت الأساطير مظاهر البيئة الطبيعية في نسج القصة التي ترونها لمحاولة تفسير لغز الوجود الإنساني في الكون . ويرى بعض الباحثين أن أساطير العالم القديم ، التي تمثل « واحداً من أعمق منجزات الروح الإنسانية » كانت نتاجاً لتأملات كونية عميقة من جانب الإنسان . فهناك الكثير من الأساطير القديمة تتناول موضوعات مثل الحق ، ونظام الكون ، وشكل الإنسان ، وبناء الحضارة .<sup>(٢)</sup> ومن ناحية أخرى ، فإن عدداً كبيراً من الباحثين

(١) حاتم الأزهري ، الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م) ، ص ٣٩ - ص ٤٠ .

(٢) صمويل نوح كرم ، أساطير العالم القديم ، ترجمة أحمد عبدالحاميد يوسف - مراجعة عبدالمصطفى أبو بكر ، (المجلة المصرية للدراسات ، القاهرة ١٩٧٤م) ، ص ٧ - ص ٨ .

ينفقون على أن الأسطورة تعبر عن وصي الجماعة الإنسانية بلذاتها وإدراكها لهويتها ، كما أنها تعكس بناء الحياة الاجتماعية ، وعلاقة هذه الحياة بعالم الآلهة والقوى الخفية (٦)

لقد ربطت الأساطير الكنعانية ، مثلاً بين ظروف البيئة من خصوبة أوجلب وبين صراع الإله بعل (رب الخصوبة والحياة) ، والإله موت (رب العقم والموت) . (٧) أما أساطير الخلق المندنية فتكشف عن رغبة الإنسان الطبيعية في الوصول إلى تفسير للجزء الوجود الإنساني كيف وجد الكون ؟ وكيف يعمل ؟ ومن أين أتى الإنسان ؟ وما وظائف عناصر الطبيعة ، وعلاقتها ببعضها البعض ؟ وما سر القمر والشمس والرياح والعواصف ، والفيضانات والجفاف (٨) .

لقد اختلعت محاولات الإنسان الأولى لتسجيل تاريخه بالصياغات الأسطورية ، ولم يكن له أي دور واضح في الفعل التاريخي في هذه الصياغات الأسطورية . إذ انتم التراث الإنساني الباكر في مجال الكتابة التاريخية ~~بما لا يحيط~~ المثير بين فعل الإنسان ومشية القوى الخفية . وكانت الكتابات « التاريخية » الأولى ~~تسجيلاً~~ ~~للمشية~~ ليست من قبيل الفعل الإنساني ، وإنما هي من أفعال الآلهة . ولم يكن ~~للمشية~~ ~~للمشية~~ حصة « التواريخ » الباكورة يمثلون عنصراً من عناصر القوة والنشاط والفعل ~~ولكنهم كانوا وسيلة~~ هذا النشاط وأدواته المسخرة بأيدي الآلهة (٩) . وهكذا كانت التسجيلات « التاريخية » الباكورة عبارة عن تواريخ حكومات الآلهة ، أو أشباه الآلهة . ولم يكن التاريخ قد نزل بعد من عليائه ليسجل قصة الإنسان في الكون ومسعى لبناء الحضارة . وهنا نجد الأسطورة تحكم التاريخ ، فالأسطورة حكاية مقدسة تلعب أدوارها الآلهة وأشباه الآلهة .

ويطبيعة الحال ، فقد نزلت الأسطورة من سماء الآلهة إلى عالم الإنسان ، وبدأت ترصد تاريخه وتسجله وفق شروطها وفي إطار رموزها وقد اختلف الباحثون حول هذا الأمر ، إذ يذهب البعض إلى أن الأساطير « تسجيل تاريخي » للأحداث الجارية عبر ماضي الجماعات الإنسانية والشعوب ، على حين يذهب البعض الآخر إلى القول إن الأسطورة تمثل تاريخاً قديماً متوارثاً بين الأجيال للتعاونة التي تناقلته بالتلفين الشفاهي ، ونادراً ما تأخذ الأسطورة أشكالاً أو نماذج محددة ، بل إنها غالباً ما تنطوي على عناصر يمزج فيها الخيال بالحقائق (١٠)

وفي رأينا أن الأسطورة لا تحمل التاريخ كله ، وإنما تحمل « نواة تاريخية » ، وغالباً ما تكون الصياغات الأسطورية لهذه « النواة التاريخية » محملة بتركيبات تعبر عن وجدان الجماعة التي أنتجها ، كما أنها - في الوقت نفسه - تعبير عن الذات والهوية وتحمل تصورات نفسية تعويضياً لصالح الجماعة من كونها تجسيدا للواقع « التاريخي » .

(٦) قيس النوري ، الأساطير وعلم الأجناس ، (إصدار ١٩٨١م) ص ١٠ - ص ١٩ .

(٧) صمويل نوح كرم ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ وما بعدها .

(٨) لسه ، ص ٣٨٤ - ص ٣٨٥ .

(٩) دوين جورج كولينجود ، فكرة التاريخ ، ترجمة محمد بكير خليل ، مراجعة محمد عبدالواحد خلاف (مركز البحوث والتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨م) ، ص ٥١ - ص ٥٢ .

(١٠) قيس النوري ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

ولا يمتنع هذا أن الأسطورة نتاج للخيال المجرد ، وإنما هي ترجمة للملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية ولكن في إطار فني يخدم الأهداف الثقافية الاجتماعية التي يحتاج المجتمع لتحقيقها من خلال أساطيره . ومن طريق الأساطير ، ومن خلالها ، عرفنا ما عرفناه عن تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة التي تعود إلى أزمان سحيقة تسبق « التاريخ المكتوب » . ومن هنا يمكن القول بأن الأساطير « نظام فكري متكامل ، استوعب قلق الإنسان الوجودي ، وتوقه الأبدى لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه »<sup>(١١)</sup>

ومن يبحث في الأسطورة سوف يجد مادة تاريخية ثرية تشكل بناءها ؛ ففي رأي فريق من الباحثين أن أساطير الطوفان ، أو الدمار بالنار السايوية ، أو الأعاصير ، التي تتسم بالشمولية وتكرر لدى معظم الشعوب ، دلالة على تجارب وخبرات عاناها الجنس البشري في مطلع حياته .<sup>(١٢)</sup> ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الأساطير التي تتعلق بالتكوين وفصل الساء عن الأرض قد سررت بعض تفاصيلها في الكتابات التاريخية اللاحقة على نحو يكشف عن تأثير الأسطورة الموارث في منطقة الشرق العربي ، ولاسيما أساطير التكوين السومرية .<sup>(١٣)</sup>

وإذا ما أعدنا ماكتبه العربانيون أنفسهم باعتباره تاريخاً ، فلننا سنجد أن العناصر الأسطورية والغيبية تمثل لحمة الكتابات العبرية والتاريخية ورسداها . بيد أن التراث العبراني ، من ناحية أخرى ، يمثل مرحلة أبعد سارها الفكر التاريخي حين اختلط بالفكر الديني .

ومن الممكن أن نتبع ظهور العبرانيين في المنطقة من خلال نصوص سفر التكوين التي تدلنا على ثلاث موجات من هجرات العبرانيين ، الأولى هجرة إبراهيم ( عليه السلام ) ، وهو الجد الأعلى ، من مدينة « أور » الكلدانية في بلاد النهرين إلى أرض كنعان في فلسطين حيث استقر به المقام .<sup>(١٤)</sup> أما الهجرة الثانية فيقودها يعقوب بن اسحق ، حفيد إبراهيم ( وهو نفسه إسرائيل ) . ويتحدث سفر التكوين عن عهد يحمده الرب مع يعقوب<sup>(١٥)</sup> . والهجرة الثالثة تقوم بها جموع اليهود الفارين من مصر بقيادة موسى ( عليه السلام ) ، وربما تكون قد حدثت في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد<sup>(١٦)</sup> .

هذه النصوص التوراتية التي تتحدث عن موضوعات تاريخية تعتبر من أقدم الكتابات ( التاريخية ) . وإذا كانت الأسطورة قد سبقت ( الكتابات التاريخية الدينية ) ، فإن تأثير الأسطورة لم يخف وإن خفت حدته . ويمثل سفر الملوك في التوراة اليهودية مكانة خاصة في تاريخ الفكر التاريخي بفضل مايتضمنه من مادة تاريخية غزيرة .

(١١) فراس السواح ، مغامرة النطق الأول ، ص ٢١ .

(١٢) نفسه ، ص ١٦ .

(١٣) نفسه ، ص ٢٣ - ٥١ .

(١٤) جاء في سفر التكوين ( ١٢ : ١ - ٢٠ ) ما نصه : « قال الرب لإبراهيم ، اذهب من أرضك ومن عشيرتك إلى بيت أبيك ، إلى الأرض التي أريك ، فاجعلك أمة عظيمة وأبناؤك وأحفادك اسكنك » .

(١٥) يقول نص سفر التكوين ( ٣٥ : ١٣ ) « والأرض التي أسقط إبراهيم واسحق لك أسقطها وبذلك من بعدك أعطى الأرض » .

(١٦) فراس السواح ، مغامرة النطق الأول ، ص ١١٩ - ١٢٠ .



ومن ناحية أخرى ، فإن التسجيلات العبرانية الأولى قد سارت شوطا بالتاريخ نحو توضيح الدور الإنساني فيه ، وتقليل تدخل الألهة والقوى الغيبية في شئون البشر . بيد أن اعتقاد اليهود بأنهم ( شعب الله المختار ) جعلهم يسجلون في أسفارهم أخبارا عن أفعال الله من أجلهم وتدخله في توجيه حركة التاريخ لصالحهم .

ولأن فكرة التاريخ لدى العبرانيين تتمحور حول فلسفة غائية هدفها طمأنة اليهود بوعدهم بالأمل في المستقبل ، ولأن فكرة التاريخ العبرانية تدور حول بني إسرائيل أولا ، ثم البشرية كلها بعد ذلك ، فإن كتابة التاريخ في التراث العبراني طورت منهجا يسمى إلى رسم الصورة المثالية لمسيرة التاريخ العالمي بحيث يتوافق مع فلسفة التاريخ العبرانية الغائية . وقد أدى هذا إلى صارت كتابة التاريخ في التراث العبراني لاستهداف الحقيقة التاريخية ، وإنما تستهدف صياغة الرواية التاريخية وفق النموذج اليهودي وفي إطار فلسفة التاريخ اليهودية التي تؤكد أن الرب سوف يتدخل في النهاية لصالح شعبه المختار .

وهناك من الباحثين من يرى أن اليهودية ديانة تطورت بفضل الميراث الثقافي للمنطقة . وربما تكون ديانة آتون التوحيدية في مصر القديمة قد أعطت اليهودية دفعتها الأولى<sup>(١٧)</sup> ، ثم أخذت بعد ذلك تتطور بفعل المؤثرات الثقافية السائدة في المنطقة السامية . ويبدو ذلك واضحا من خلال الحقيقة القائلة بأن أسفار التوراة ، وهي الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى ، عليه السلام ، قد كتبت على مدى ثلاثة قرون . أما آخر أسفار العهد القديم ، وهو سفر المكابيين الأول وسفر المكابيين الثاني ، فقد تم تدوينه خلال القرن الأول قبل الميلاد .

ومن الواضح أن محتوى الكتب التاريخية اليهودية في التوراة ، والنتج الذي تعرض به أحداث التاريخ في طيات هذه الأسفار ، يهدف إلى شيء آخر غير مجرد رواية الحوادث التاريخية ، أو تحليها ، أو البحث عن الحقيقة التاريخية المجردة وراءها . وإنما يهدف إلى محاولة تفسيرها في إطار منظور مستقبلي غائي يحدد الهدف النهائي .

فالتاريخ بني إسرائيل ، كما تصوره صفحات التوراة ، وكما هو في الواقع التاريخي ، ملء بالحروب والدماء والمصائب . وعلى الرغم من أنه يمكن تفسير ذلك في ضوء أخطاء اليهود أنفسهم فإن كتاب الأسفار اليهودية وضعوا التاريخ في إطار يفسر تفسيراً يخدم الغايات الدينية اليهودية<sup>(١٨)</sup> . لقد حاول كتاب سفر الرؤيا اليهود أن يشوا الطمأنينة في نفوس أبناء دينهم ، وأن يلوحوا لهم بالأمل وسط دياجير الظلام واليأس . وكان طبعاً أن يقدموا لليهود الوعد بالنجاح في المستقبل حين يتدخل الرب لإنقاذ شعبه المختار . ولما كان ماضي اليهود وحاضرهم ومستقبلهم يمثل قصة وجودهم في العالم ، فقد حاول مفسر سفر الرؤيا<sup>(١٩)</sup> وضع تقسيم زمني لتاريخ العالم يخدم الهدف الذي يسعىون إليه ، وهو ربط أقطار اليهود بما سوف يحدث مستقبلاً .<sup>(٢٠)</sup>

(١٧) كان اليهود يميلون إلى مصر حيدة العهد الأملاء ، لم فروا منها بلغة موسى عليه السلام - وقد فر موسى بفرقه من مصر بعد أن كثرتا تحت يدي العبيدية . انظر : فرانس السليح ، مغامرة العقل الأولي ، ص ١٢١ - ص ١٢٩ .

(١٨) وينجيري ، التاريخ وكيف يفسرونه ، ص ١٢٠ .

(١٩) انظر تفسير حلم (ربيعيل نصر) في سفر دانيال (٢ : ٣١ - ٤٥) ، وانظر أيضا تفاسير حلم دانيال : سفر الرؤيا ، الإصحاح السابع

(٢٠) لاسم عهد لاسم ، الرؤية الحداثية للتاريخ - قرابة في التراث الفطري العربي ، ( ط . ثنية دار المعارف ١٩٨٥م ) ص ٣٢ - ص ٣٣ .

هكذا كانت فكرة التاريخ لدى العبرانيين تتمحور حول فلسفة تاريخ غالية تنسج عجائلاً وامتصاً لدور الرب في توجيه أحداث التاريخ . وقد أدى هذا ، بالضرورة ، إلى تحلّف منهج البحث التاريخي ؛ لأن « الحقيقة التاريخية » لم تكن هدف هذا النمط من الكتابة . والمادة التاريخية في أسفار العهد القديم لاتقدم الحدث التاريخي في إطاره الوضعي ، وإنما تصرّغه في الغالب الذي ينيى أن يتقلب فيه لكى يتسق مع الغايات الدينية التي حكمت كتابة تاريخ اليهود ولصحتهم في العالم .

ويرى بعض الباحثين أن الكتابات التاريخية في التوراة تحدد بداية ظهور القصص التاريخي الحقيقي في تاريخ كتابة التاريخ ، وأن « سفر الملوك » يمثل فكرة التاريخ لدى العبرانيين خير تمثيل ، فكتاب هذا السفر يهدف إلى إقناع اليهود بأن الإخلاص الديني له قيمته ، وذلك عن طريق وضع أمثلة تاريخية على المصائب التي حلت بهم عندما تخلّوا عن دينهم <sup>(٢١)</sup> . وفي رأينا إن الكتابة التاريخية بدأت في شكلها الجيني داخل الأسطورة ، وقد سربت أساطير الخلق والتكوين والأصول التي انتشرت في المنطقة السامية قديماً كثيراً من عناصرها إلى التوراة التي ينسبها اليهود إلى موسى ( عليه السلام ) <sup>(٢٢)</sup> وقد أضاف إليها الأحبار اليهود مايزعم فكرة أن اليهود « شعب الله المختار » ، وفكرة الوعد بالأرض المقدسة والإخلاص في المستقبل .

وبينما في الدراسة أن نؤكد على أن « العهد القديم » قد استوعب فكرة التاريخ بمضامينها السائدة في المنطقة السامية منذ القدم ؛ وهو ماينى أن التراث الأسطوري الذي حكم فكرة التاريخ عند السومريين والبابليين والكتانيين والمصريين القدماء قد اتخذ شكلاً دينياً غالياً في فكرة التاريخ العبرانية . فالنظرة اليهودية إلى التاريخ ترى فيه تاريخ بني إسرائيل أولاً ، ثم تاريخ البشرية بعد ذلك . ويعتقد عامة اليهود أن هدف التاريخ هو تشييد مملكة المخلص الذي سيأتي في آخر الزمان ليقيم مملكة الرب في أرض الميعاد . وقد فسّر أحبارهم كل الأحداث التاريخية التي مرت عليهم ، أو مروا بها ، تفسيراً تعويضياً يناسب هذه الفكرة . وهكذا لم يكن هدف « التاريخ » البحث عن الحقيقة ؛ وإنما صياغة الحدث في إطار يناسب الهدف من كتابة التاريخ . وقد كان هذا الموقف من التاريخ أثره بطبيعة الحال على مناهج البحث التي حاولت حل المشكلات التي تقف في سبيل تحقيق هذا الهدف . وفي تلك المرحلة كانت مناهج البحث موازية في تطورها للعلم الذي كرسحت لحلمته ويقدر مايمهدت الكتابة التاريخية العبرانية عن التاريخ بالمفهوم العلمي الحديث ، بقدر ما كانت مناهج البحث بعيدة عن أن تكون وسائل عقلية استدلالية لبناء العلم التاريخي وحل مشكلاته .

هكذا ، إذن ، نصل إلى أن فكرة التاريخ في المنطقة السامية القديمة ( المنطقة العربية الآن ) قبل ظهور الإسلام كانت مزيجاً من الفكر الأسطوري والفكر الديني الذي وضع التاريخ ، بأحداثه ووقائمه ، داخل نطاق فلسفة غالية تهدف إلى صياغة أحداث التاريخ لحلمة أهداف أخرى غير البحث عن الحقيقة ، أو رصد العلاقة السببية في الظاهرة

٢١) F. E. Barnes, A history of historical Writing, (2nd ed., New york, 1963), PP. 19 — 20  
٢٢) انظر لفظة النعمة بين أساطير التكوين في المنطقة السامية وسفر التكوين في التوراة - فرانس السواح ، مقفلة المثل الأولى ، ص ٣٣ - ص ١١٠ .

التاريخية وفي ظل هذه الظروف اختلقت الحقائق التاريخية بالتصورات الأسطورية والخيالية ، وبقي التاريخ عملية يشارك البشر في صنعها وتتولى الآلهة توجيه مجراها . ولم يكن ممكناً في ظل هذه الظروف الفكرية أن تتطور مناهج البحث التاريخي إلى آفاق جديدة تخطوها نحو تحويل التاريخ إلى « علم » بالمعنى البسيط الذي يهدف إلى كشف « غير المعلوم » وكان هذا ، بشكل عام ، هو إطار فكرة التاريخ في المنطقة بعد ظهور الإسلام الذي بدأت معه مرحلة جديدة من التطور كان للدراسات التاريخية ومناهج البحث نصيبها منه .



قبل الخوض في الحديث عن تطور مناهج البحث والفكر التاريخي في إطار الحضارة العربية الإسلامية ينبغي أن نطرح عدداً من الأسئلة حول المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام يدخل في نسج تراث المعرفة التاريخية للمنطقة كلها ؛ فإن هذه التساؤلات تكتسب شرعيتها من التراث العربي قبل الإسلام كانت من روافد الفكر التاريخي العربي بعد الإسلام .

الثابت أنه كانت للعرب قبل الإسلام أساطيرهم التي كان بعضها بمثابة الشكل الجنيني للمعرفة التاريخية في فترة لاحقة من تاريخهم . وقد راودت العرب البدائيين الأسئلة نفسها التي راودت غيرهم من الشعوب في طور بدائي من رحلتهم عبر الزمان عن حقيقة لئز الوجود الإنساني في الكون . ويرى أحد الباحثين أن دراسة الأساطير العربية قبل الإسلام « هي دراسة كل ما سطر عند الجاهليين ، تاريخاً كان أو ديناً ، لأن الأسطورة هي صورة من صور الفكر البدائي حيثما كانت مسطورة أو مطبوعة في ألواح الأذهان »<sup>(١٢)</sup> ولقد كانت البيئة الطبيعية التي أثرت في التراث الأسطوري العربي هي التي أثرت على نمط المعرفة التاريخية لدى العرب بعد ذلك<sup>(١٣)</sup> .

لقد كان التراث الأسطوري العربي جزءاً من التراث الأسطوري العام في المنطقة بطبيعة الحال . ومن ناحية أخرى ، كان لابد للمعرفة التاريخية لدى العرب قبل الإسلام أن تتخذ شكلاً يوافق الحقائق والظروف البيئية ، ويتسق مع درجة التطور الثقافي في ذلك الحين ، كما كان من الضروري أن تصاغ فكرة التاريخ في أنماط تلبي الحاجات الثقافية / الاجتماعية . لقد كان الفكر التاريخي العربي قبل ظهور الإسلام يسير في مسارين أساسيين : الأنساب ، وإيام العرب ، فضلاً عن القصص التاريخي أو شبه التاريخي الذي تناقله عرب الجنوب . ومن ثم ، فإن نمط المعرفة التاريخية ، وهدف هذه المعرفة قد حدداً المصباح الذي استخدمته هذه الأنماط الباكرة من تراث الفكر التاريخي العربي .

ومن المهم أن نشير إلى أن التاريخ في التراث العربي قبل الإسلام قد كان شأنًا بشرياً لا دخل للآلهة فيه ، ولكن الخيال لعب دوراً أساسياً في الرواية التاريخية ، كما أن « الصورة المثل » للقبيلة حلت محل « الحقيقة التاريخية » في كثير من الأحيان ؛

(١٢) محمد عبد الحميد خان ، الأساطير والحضارات عند العرب ، ( ط ٢ ، ١٩٨٠ م ) ، بيروت ١٩٨١ م ، ص ٢٠ - ص ٢٢ .

(١٣) قسم ميدان لفس ، الرؤية الحضارية ، ص ٦٣ - ص ٦٥ .

وإذا كان نوع المعرفة التاريخية وموضوعها وهندستها يحدد منهج البحث التاريخي ؛ فإن الحياة القبلية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام قد فرضت أنماطاً معيناً من أنماط المعرفة التاريخية كان منهجها يسمى إلى صياغة صورة مثالية تستخدم الذات القبلية وتحقق أمانها بغض النظر عن الحقيقة التاريخية .

وقد استخدم العرب قبل الإسلام ( الأنساب ) باعتبارها نمطاً من المعرفة التاريخية تناسب ظروف التنظيم القبلي . فقد حرصت كل قبيلة - باعتبارها الوحدة الأساسية على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأمني - على حفظ أنسابها حتى لا تختلط بأنساب غيرها من القبائل ، ولكي تكون وسيلة في التناصر على أعدائها ، والتفاخر بأبائهم وأجدادها . وقد أشار كل من النويري والقلقشندي إلى اهتمام العرب بالأنساب وتفاخرهم بها <sup>(٢٦)</sup> ، وكان لكل قبيلة نسبائها المشهورون الذين حفظوا شجرات النسب عن ظهر قلب نظراً لأهمية النسب في حياة القبيلة <sup>(٢٧)</sup> . والتقسيم على أساس النسب في المجتمع القبلي هو التقسيم الوحيد الممكن فقد أفرز المجتمع القبلي هذا التقسيم النسبي على مستوى التنظيم الاجتماعي ، كما أفرز نمطاً من أنماط المعرفة التاريخية يناسب هذا التقسيم الاجتماعي تمثل في « أنساب العرب » . وعلى الرغم من أن الأنساب كانت نمطاً من أنماط المعرفة التاريخية يخدم الحاجات الاجتماعية / الثقافية للمجتمع القبلي ، فإن هذا النمط نفسه كان يمثل عادة من الإشارة إلى الأحداث التاريخية التي لم تكن هدفاً للأنساب أو موضوعها لها .

أما النمط الثالث من أنماط المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام ، فقد تمثل في « أيام العرب » التي كانت تتضمن أخبار الحروب والمعارك التي خاضتها كل قبيلة . ولأن التنظيم القبلي كان يمثل الشكل السائد للتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ؛ فإن « أيام العرب » كانت بمثابة السجل الذي يعبر مفاخر القبيلة ، ويسجل أيامها وانتصاراتها المجيدة ، كما يحفظ بطولات أبنائها <sup>(٢٨)</sup> . وكان رواية العرب يتداولون هذه « الأيام » في قالب شعري خالص أحياناً ، وفي قالب نثري تتخلله الأشعار أحياناً أخرى . وقد كان منهج رواية « أيام العرب » متوافقاً مع الموضوع ومع الهدف الثقافي الاجتماعي لهذا النمط من أنماط المعرفة التاريخية . فقد حرص أولئك الرواة على رسم صورة مثالية للذات القبلية .

ولم يكن رواية « أيام العرب » يبحثون عن الحقيقة التاريخية ، وإنما كانوا يتحدثون عن مآثر أسلافهم ، وبطولات قبيلتهم ، وفقاً لتصورهم أو آرائهم . ولم يكن هناك ما يقيدهم سوى الرغبة في إمتاع السامعين ، ودغدغة

(٢٥) النويري ، حياة العرب في لغز الأصب ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، ج٢ ، ص٣٦٩ ، القلقشندي ، صبح الأعلي في صناعة الإنفا ، ج٢ ، ص٣٠٨ - ص٣٠٩ .

(٢٦) يمدوطة الشناين بالقرن الحادي والعشرين ، (إذ أنا نجد دائماً أن ذكر حياة النسب يجرى مقروناً بالقرن وروايته ، ويرتبط أيضاً بأيام العرب وأخبارهم - انظر : ناصر الدين الأسد ، مصادر الفكر الحضاري ونهضة التاريخ ( ط٢ ) ، عكسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨م ) ، ص ٢١٥ - ص ٢١٦ .

(٢٧) عن أيام العرب ، موضوعاتها ، وأصلها ، ومعاركاتها جميعاً ، انظر : القلقشندي ، صبح الأعلي ، ج١ ، ص ٣٩٠ - ص ٣٩٥ ، السيد محمد عزيز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣٧٤ - ص ٣٧٦ ، صمد شكرى الأوسى ، بلغ العرب في معرفة أحوال العرب ( القاهرة ١٩٢٤م ) ، ج٣ ، ص ٦٨ ، قاسم عبد الله لسم ، الرزية الحضارية ، ص ٦٨ - ص ٧١ .

وقد جمع الثاقب من الباحثين أربعة وثلاثين (يونان) من أيام العرب انظر : عبد الله أحمد جواد الخولي وعبد الله الفضل إبراهيم ( القاهرة ١٩٤٢م ) .

مشاعر الزهو والفخر في نفوسهم . وعلى الرغم من المسحة الخيالية التي تغلف « أيام العرب » فلاشك أن هذه الروايات « التاريخية الملحمية » قد نسجت حول نواة من الأحداث التاريخية حقا ، فهي تكشف عن صلات العرب بغيرهم من الأمم قبل الإسلام ، كما تكشف عن المشاكل والحلقات التي ميزت حياة قبائل العرب في تلك الفترة من تاريخهم .

وإذا كانت « الأنساب » وسيلة القبيلة في البحث عن هويتها ، وتأكيد ذاتها من خلال شجرة النسب ، فإن « أيام العرب » كانت بمثابة الأداة لتأكيد هذه الذات والهوية وتدهيم وجودها الحاضر من خلال ماضيها الحافل بالماثور والبطولات .

وفكرة التاريخ عند أية جماعة إنسانية ليست في حقيقة أمرها سوى شكل من أشكال فهم هذه الجماعة لهويتها الذاتية . ومن خلال إدراك الجماعة الإنسانية لذاتها تتحدد أبعاد فكرة التاريخ . وإذا رجعنا إلى تراث العرب قبل الإسلام في مجال الفكر التاريخي لاكتشفنا على الفور أنهم لم يتصوروا أنفسهم أمّة واحدة يجمعها تراث تاريخي واحد ، وقد انعكس ذلك على شجرات النسب التي اهتمت بالنسب الجزئي لكل قبيلة على حدة . وإذا كان العرب قد رجعوا في أصولهم العليا إلى جد أعلى يتسبون له جميعا ، فإن الأسطورة قد تركت بصماتها على هذه المحاولات من ناحية ، كما أن تراثهم قد خلا من أية مادة تاريخية تكشف عن تصوراتهم لذات كلية يجمعهم سواها من ناحية أخرى .

لقد افترقت « أيام العرب » إلى معظم مقومات العلم التاريخي بمفهومنا المعاصر ، بيد أنها كانت نتاجا حقيقيا وإفرازا للظروف التاريخية آنذاك ، كما كانت متوافقة مع النظرة القبلية الجزئية التي جعلت من القبيلة علما قائما بذاته في مواجهة القبائل الأخرى <sup>(٢٨)</sup> . لقد ارتبطت قصص الأيام بفكرة « البطولة » أكثر من ارتباطها بفكرة التاريخ ، ولذلك لم يكن منتج الرواية يسعى للبحث عن الحقيقة التاريخية ، وإنما كان يسعى إلى صياغة الصورة المثالية لبطل القبيلة ، أو أبطالها ، وبالشكل الذي يحقق إشباع مشاعر الفخر ونوازع الكبرياء في أبناء القبيلة الذين كانت عيونهم وآذانهم تتعلّق بالرأى في سمر الليل بين مضارب خيام القبائل . لقد كانت كل قبيلة تحاول تثبيت ذاتها في مواجهة القبائل الأخرى .

من ناحية أخرى ، كان الوعي التاريخي لدى عرب الجنوب متوافقا مع ظروفهم التاريخية الموضوعية ودرجة تموجهم الحضاري من جهة ، ويختلفا عن الوعي التاريخي لدى عرب الشمال من جهة ثانية .

فقد كانت بلاد اليمن مركز حضارة قديمة استقرت دعائمها أمدا طويلا ، وحفظت النقوش المنيمة والسنية والخميرية آثارها <sup>(٢٩)</sup> ، وقد انعكست هذه الحقيقة في تراث تاريخي اختلفت عن تراث عرب الشمال من حيث الشكل والمضمون والغلاف أيضا . وكل ما وصلنا في هذا الصدد تراث تاريخي شفى شفى تداوله الرواة جيلا بعد جيل . ولقى

(٢٨) طه البدر ، أدب التاريخ عند العرب ، ( القاهرة ١٩٧٦ م ) ، ج ١ ، ص ١٤٩ - ص ١٥٠ .

(٢٩) السيد عبدالعزيم سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ٨٥ - ص ٩٦ .

ليات هذا التراث تزد أساء بعض ملوك اليمن القدماء ، وتظهر أحداث قصص تاريخية غامضة طابعها التهويل المبالغة تتصاعد منها أصداء أحداث تاريخية توارت خلف ضبابية الغموض<sup>(٣١)</sup> . وإذا كانت الأحداث التاريخية قد وارت خلف اللامع الغامضة للمبالغة والتهويل في التراث التاريخي الشفوي لدى عرب الجنوب ، فإن هذه خاصية من خصائص المأثورات الشفاهية تأتبعها من خلال تراكم الروايات الشفاهية التي تشبه تراكم الطبقات الجيولوجية فوق الحدث الأصل ، بيد أن هذا لا يحول دون الانتفاع بهذه المادة التاريخية ، ورصدها مرحلة من مراحل تطور الفكر التاريخي ومناهج البحث في الدراسات التاريخية كذلك<sup>(٣٢)</sup> .

وإلى جانب هذا التراث التاريخي الشفوي لدى عرب الجنوب وجد علماء الآثار بعض النقوش التاريخية التي دون فيها الملوك حروبهم وأعمالهم ، وقد دونت على النحاس والحجر . وربما أهلك الزمان تدوينات « تاريخية » أخرى على مواد أقل صلابة وصموداً فتحللت وضاعت عبر القرون . وقد أشار الحمداني مؤلف كتاب « صفة جزيرة العرب » إلى هذه النصوص التاريخية ، كما أشار إليها نثوان الحميري الذي ألف معجماً لغوياً<sup>(٣٣)</sup> ، وكانت هذه النقوش تتضمن بعض المادة التاريخية المتعلقة بأسماء الآلهة ، أو أنواع القرابين أو أسماء القبائل والأفراد ، كما تضمنت بعض المعلومات عن القوانين التي كانت تحكم علاقات الناس آنذاك<sup>(٣٤)</sup> . وفي تصورها أن هذه النقوش تحمل دلالة لا يخطئها الباحث على وجود وهي تاريخي يتناسب درجة التطور الحضاري لعرب الجنوب ، إذ أن الشعور بالأهمية التاريخية للإنجازات السياسية والإدارية يدل على وجود عظم متناسب من أنماط الوعي التاريخي بمقاييس تلك العصور .

وفي تقديرنا أن القصص ذات الطابع التاريخي ، التي كان القصاصون الجوالون يروونها عن ملوك العرب الجنوبيين ، ويطولانهم وأعمالهم ، وهي القصص التي تناقلها الإخباريون في صدر الإسلام ، تنبع من مدى وعي عرب الجنوب بفكرة التاريخ هذه القصص التي كان الحيات يخلفها كانت الأشعار تدخل في نسجها بدرجة كبيرة . وكان الرواة يستمدون قصصهم من الأساطير والحرفات التي دخلت ضمن تراث المنطقة تارة ، ومن الأخبار والأحداث الحرفية المأثورة عن العرب أنفسهم وهمّن جاوروهم تارة أخرى<sup>(٣٥)</sup> .

لم تكن هذه القصص تعتمد على توقيت زمني يربط بينها ، مما يدل على أن الوعي بالزمن باعتباره قاعلة للحدث التاريخي ، كان بعيداً عن هذا النمط من الكتابة « التاريخية » في تلك العصور<sup>(٣٦)</sup> ، إذ أن هذه القصص

(٣١) محفوظ جب ، علم التاريخ ، (كتب دائرة المعارف الإسلامية ، بيروت ١٩٨١) ص ٤٧ .

(٣٢) يان لافسلا ، للمأثورات الشفوية ، ترجمة وتقديم د . أحمد موسى ، (القاهرة ١٩٨١ م) ص ٨٩ .

(٣٣) تاروق وكهنا ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة د . عبدالمعطي البشير (طبعة دار المعارف) ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣٤) السيد عبدالمعز سالم ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ١٣ .

(٣٥) أساطير العرب على نمطه مثل هذه الحرفات باسم (أرباب العرب) . وقد ذكر الفيلسوف (صحيح الأضنى) ج ١ ، ص ٣٨٨ ما نصه : « وهي لم تكن العرب عليها في البداية ، بعضها يجري جرى القديسات ، وبعضها يجري جرى الاصطلاحات والمعادن وبعضها يجري جرى الحرفات . وقد جاء الإسلام ويطغى » .

(٣٦) قاسم عبد قاسم ، الرؤية الحضارية ، ص ٧٦ - ٧٨ .

ذات الطابع الملحمي لم تكن تهدف إلى البحث في المجرى التاريخي العام عن الحقائق التاريخية ، وإنما كانت نوحاً من قصص البطولة الملحمية التي تختلط فيها حقائق التاريخ بالخيال المعبر عن رؤية عرب الجنوب ووعيهم بالتاريخ .

ولم يكن هذا النمط من القصص التاريخي يتعلق بالقبيلة ، وإنما بالملكية . وإذا حاولنا استقراء تواريخ الكيانات السياسية التي شهدتها بلاد العرب الجنوبية ( أي معين وسبأ وحير ، ١٣٠٠-٥٢٧ ق . م ) ، لأدركنا مدى هامشية الدور الذي لعبته القبيلة في نشأة هذه الكيانات . فقد كانت الملكية الوراثية هي نظام الحكم السائد ، وشكل النظام السياسي ، ونمط التنظيم الاجتماعي . ومن ناحية أخرى ، فإن تراكم الثروة التي جلبتها تجارة العود أدت إلى القيام بمشروعات زراعية كبرى مثل سد مأرب . وظلت بلاد العرب الجنوبية تقوم بدورها الهام في نقل التجارة العالمية طوال عهود معين وقتبان وسبأ وحير<sup>(٣٦)</sup> . وقد أدى هذا الوضع السياسي والاقتصادي في جنوب شبه الجزيرة العربية إلى وجود وعي تاريخي أكثر شمولاً ورحابة من الوعي الجزئي الذي نجم عن الظروف التي فرضتها التقسيمات القبلية الحادة في نجد والحجاز .

لقد عرف الجنوب نظاماً سياسياً وأجتماعياً متقلداً نسبياً عن تلك التي عرفها عرب الشمال ، كما أنهم خضعوا لنمط من الحكم الملكي فترة طويلة من تاريخهم ، ومن ثم التخلت الكتابة التاريخية أشكالاً تتناسب الظروف الموضوعية ، فاهتمت الروايات التاريخية بقصص الملوك ويطولاهم وحروبهم . وهو أمر طبيعي في زمن كان فيه التاريخ ريب القصور الحاكمة . كما نجد في صفحات الكتب التاريخية اليمنية تدخلاً بين الدين والسياسة . ومن ناحية أخرى ، فإن وعي الجنوب بفكرة التاريخ لم ينحصر في إطار البيئة اليمنية فحسب ، وإنما تعداها إلى آفاق العالم الخارجي وهو ما يعني أن دور عرب الجنوب في التجارة العالمية آنذاك كانت له انعكاساته على الفكر التاريخي . ويتأكد هذه الحقيقة من خلال مابقى لنا من تراث عرب الجنوب في مجال الكتابة التاريخية مثل كتاب « التيجان في ملوك حير »<sup>(٣٧)</sup> .

ويبدو منهج البحث التاريخي متمثراً في خطواته الأولى في هذا الكتاب إذ تختلط فيه الحقيقة التاريخية بالخرافة والأسطورة على نحو مريب وحير . ويبدأ هذا الكتاب بالحديث عن الخلق ويتناول بداية الصراع الإنسان حين قتل قابيل أخاه هابيل<sup>(٣٨)</sup> . ثم يشرع بعد ذلك في الحديث عن نسب حام بن نوح ونسله ، إلى أن ينتقل إلى الحديث عن ملك حير<sup>(٣٩)</sup> ، فيخلط التاريخ بالأسطورة حين يقول : « وولى حير بن سبأ ، فجمع الجيوش ، وسار بطلاً الأمم ويدوس الأرضين ، وأمعن في المشرق حتى أبعد بأجوج إلى مطلع الشمس » ثم يفضي في حكاياته التي تجمع بين التاريخ والخيال حتى يصل إلى سيف بن ذي يزن<sup>(٤٠)</sup> . ويتأكد هذا الإنحياز من خلال الأخبار التاريخية التي تحوى

(٣٦) عبود إسحاق ، موسوعة الفكر الإسلامي - حافلة نظري ( الدار البيضاء ، ١٩٨٠ م ) ، ج ١ ، ص ٣٧ - ص ٤٠ .

(٣٧) قام مركز الدراسات والأبحاث اليمنية في صنعاء بطبع هذا الكتاب سنة ١٣٤٧ هـ .

(٣٨) التيجان ، ص ٩ - ص ٢٢ .

(٣٩) نفسه ، ص ٦٠ - ص ٦٤ .

(٤٠) نفسه ، ص ٣١٧ - ص ٣٢١ .

قصص عرب الجنوب ، وقد نشرت هذه الأخبار تحت عنوان « أخبار عبيد بن شربة الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال »<sup>(٤١)</sup>

وقد ظل هذا التراث « التاريخي » لعرب الجنوب على ألسنة الرواة الذين تناقلوه عن طريق الرواية الشفهية على مدى عدة أجيال ويحكم طبيعة الماثورات الشفهية تألفت الأخبار التاريخية التي اختلطت بالخيال ، والتي زعم رواة أنها تاريخ واف لبلاد العرب في العصور القديمة ، واقتربت بهذه الأخبار التي جمعت بين الخيال والتاريخ أسماء رجال من طراز « وهب بن منبه » ، « وعبيد بن شربة » ويرى أحد المستشرقين أن هذا التراث دليل دافع « على أن العرب الأقدمين كانت تنصهم الملكة التاريخية والغزو إلى الحقائق ، حتى في أخص ما يتعلق بحوادث عصرهم »<sup>(٤٢)</sup> .

وفي رأينا أن « السير هاملتون جب » يقسو في تقويم هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية بمقاييس البحث التاريخي الحديث ومناهجه . ففي هذه المرحلة من التطور الحضاري لعرب الجنوب كان هدف « التاريخ » إبراز البطولة على حساب التاريخ كما سبق القول . وقد أثر هذا الاتجاه ، بطبيعة الحال ، على منيع الرواة الذين كانوا يسمعون لتجسيد بطولة ملوك اليمن القدماء ومآثرهم بالشكل الذي يلقى استجابة عاطفية قوية عن يستمعون إلى رواياتهم . والكلام عن « منيع بحث » أو « دراسة تاريخية » في هذه الظروف يعتبر نوعا من الأخطاء المنهجية التي تتجاهل الحقيقة القائلة بأن « العلم » و « مناهج البحث » في هذا العلم تربطها علاقة جدلية تجعل من البحث الحديث عن مناهج بحث في وقت كان موضوع التاريخ ما يزال غير قادر عن الفكك من أسر الخرافة والأسطورة والخيال . وإذا ما تذكرنا ، مرة أخرى ، أن المنهج هو العمليات العقلية والاستدلالية التي تساهم في حل مشكلات العلم ، وتدخل في بنية العلم أيضا ، لوجدنا أن رواية هذا النمط من « التاريخ » كانت تحكمهم أغراض أخرى غير « البحث » عن الحقيقة التاريخية ، وهي ذات الأغراض التي تحكم رواية فنون الأدب الشعبي .

وعلى أية حال ، فإن التراث التاريخي يكشف عن توظيف المعرفة التاريخية في خدمة أهداف ثقافية / اجتماعية . كذلك لم يكن التاريخ بالنسبة للعرب قبل الإسلام بحثا عن الحقيقة ، كما أنهم لم يروا في العملية التاريخية نتاجا لتفاعل الإنسان مع بيئته في إطار زمني محدد ، وكان هذا في الواقع تعبيرا عن مرحلة من مراحل التطور الحضاري . وقد انقصر التراث التاريخي العربي إلى الوحي المزدوج بالزمن والحقيقة . وكانت تسجيلاتهم التاريخية الباكورة سنداً وعلماً للعرب في مواجهة ضرورات الظروف التي حكمت الحياة العربية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . ومن هنا كان منيع الكتابة التاريخية محكوماً بهذه الموقفات التي دخلت في بنية « العلم التاريخي » في ذلك الدور الباكر من تاريخه ، كما كان محكوما « بموضوع التاريخ » ، والهدف من الكتابة ، أو الرواية التاريخية .



(٤١) تم نشر هذا الكتاب عن مكتب البتجان (ص ٣٢٥ - ص ٤٠٥) ، وهو على شكل حوار بين الحليمة الأولى (معارفة بن أبي سليمان) ، (وعبيد بن شربة) .

(٤٢) جب ، علم التاريخ ، ص ٤٧ - ص ٤٨ .



بعد ظهور الإسلام حدثت تغييرات جوهرية في حياة العرب ، وانعكست هذه التغيرات على شتى نواحي الحياة . وكان لابد لفكرة التأريخ أن تخضع لهذه التطورات ، فقد كانت الأفكار القرآنية عن التاريخ بؤرة التطور الذي شهدته علم التاريخ من ناحية ، كما كانت الظروف الموضوعية والتطورات السياسية والاجتماعية والسياسية والثقافية حافزا لهذا التطور وموجهاً له من ناحية أخرى . وقد أدى هذا ، بطبيعة الحال ، إلى نقلة نوعية هامة وحاسمة في مناهج الدراسات التاريخية ، وبنية علم التاريخ نفسه . ويمكن رصد هذه المعطيات الجديدة ، التي أثرت على الفكر التاريخي ومناهج البحث في موضوعاته ، على مستويين :

أولهما : المستوى الفكري المتصل بالمعقدة نفسها .

ثانيهما : المستوى الواقعي المتمثل في الظروف التاريخية الجديدة التي فرضت نفسها في ظل تطور الحضارة العربية الإسلامية بمراحلها المختلفة .

وفكرة التاريخ في القرآن الكريم ، حل نحو ما توضحه آيات القرآن الكريم ذات المضمون التاريخي ، تمهيداً للتصور الإسلامي لرسالة الإنسان في الحياة . فالإنسان ، حسب المفهوم الإسلامي ، خليفة الله في الأرض ، وقد تحمل أمانة إعمار هذه الأرض وبناء الحضارة ونشر الحق والعدل في ربوعها وفق سنة الله <sup>(١٧)</sup> . ولكي يستطيع الإنسان أن يقوم بدوره هذا ينبغي أن يتصرف على ذاته حتى يتنجح في أداء رسالته . وقد دعا القرآن الكريم المسلمين إلى التعرف على ذاتهم الحضارية في قوله تعالى : « أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور . » <sup>(١٨)</sup> هذه الدعوة إلى معرفة الذات يمكن للإنسان أن يحققها من خلال رصد الماضي الحضاري للبشر .

وهنا نلاحظ أن فكرة التاريخ في القرآن الكريم تقوم على أساس أن التاريخ فعل إنساني في التحليل الأخير ، فالفعل التاريخي نتاج لتفاعل الإنسان مع بيئته في إطار الزمان ، وهو أيضا غير وسيلة لكشف ماهية الإنسان . ولذلك نجد المادة التاريخية في القرآن الكريم تحكي قصة الأقاليم والحضارات التي شهدتها مسيرة البشر عبر الزمان ، مثل قوم نوح وعاد وقمود وقوم لوط ومدين وغيرهم . <sup>(١٩)</sup>

يبد أن هذه القصص التاريخية الواردة في شأيا آيات القرآن الكريم ليست هدفا في حد ذاتها ، وإنما تهدف إلى وإثارة الفكر البشري ودفعه إلى التساؤل والبحث عن الحق باستمرار على حد تعبير أحد الباحثين . <sup>(٢٠)</sup> وقد أدى هذا

(١٧) لقم حيد لقم ، الرؤية الحضارية ، ص ٥٥ - ٥٧ . حيث رده مخالفة للصيغة لفكرة سخرية الإنسان في الأرض كما حكى القرآن الكريم .

(١٨) سورة الحج : ٢٦ .

(١٩) انظر على سبيل المثال : سورة الأعراف ، وسورة غفر ، وسورة الأنباء ، وسورة المؤمنون وسورة الشعراء ، وسورة القصص .

(٢٠) عبد الدين خليل ، الفكر الإسلامي للتاريخ ( بيروت ١٩٧٥ م ) ، ص ١٠٦ .

إلى تطور هام في مناهج البحث التاريخي ، إذ نزل التاريخ إلى عالم الواقع ، وراح المؤرخون يبحثون في قصة الإنسان على الأرض . أي أن البحث التاريخي اهتم بالأحداث «التاريخية» التي صنعها البشر في بيئتهم ، وداخل إطار زمانهم . وبدأ البحث التاريخي ينشد الحقيقة وبدأ خطواته العلمية الأولى في تراث الثقافة العربية الإسلامية باستعارة مناهج علم الحديث باعتبارها وسيلة لضبط الرواية التاريخية وفق مقياس أخلاقي يستند إلى «الجرح والتعديل» الذي كان منهجاً يستند إلى الجدارة الأخلاقية للرواة . وعلى الرغم من ذلك فإن مناهج البحث كان عليها أن تنتظر طويلاً حتى تأخذ شكلها العلمي الذي بلوره ابن خلدون في مقدمته الشهيرة .

ويطرح القرآن الكريم من خلال الملمحة التاريخية التي تتضمنها الآيات الكريمة ، النتائج التي يمكن الخروج بها من دراسة التاريخ الإنساني وإمعان النظر في وقائمه والتأمل في أحداثه . والهدف هنا عملي علمي وتربوي أيضاً . فالقرآن الكريم يصور في وضوح شديد أن ثمة قوة في الحق ، وأن الفشل يحمق بالباطل في النهاية . فبايناله الإنسان ، فرداً وجماعة ، يكون نتيجة طبيعة للدور التاريخي الذي مارسه . ومن ناحية أخرى ، يوضح القرآن الكريم أن التغير التاريخي لا يحدث فجأة ، إذ يحدث تراكم بطيء عبر الزمان للأسباب التي ينتج عنها تغير تاريخي كبير بعد فترة زمنية طويلة .<sup>(٤٧)</sup>

وهنا نلاحظ أن التاريخ لا يجري اعتباطاً ، كما أن حركة تطوره ليست حركة عشوائية ، وإلغاها هي محكومة بسنن وقوانين مثل بداية الخلق وحتى يوم القيامة .<sup>(٤٨)</sup>

فالملمحة التاريخية الواردة في القرآن الكريم تقوم على أساس أن للتاريخ معنى أخلاقياً وروحياً محوره دور الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض ، وبوصفه مسئولاً عن تعمير العالم وإقامة الحق في ربه . وفي هذا الصدد نجد آيات كثيرة تبرز اتجاهها يؤكد أن التاريخ مستودع للمعاني والعبر التي يجب على الإنسان أن يتلمسها في أخبار الأمم الماضية . ومن أمثلة السور القرآنية التي تضمنت مادة تتعلق بتاريخ الأمم الماضية : هود والأعراف والأنبياء والمؤمنون والشعراء والقصص . وثمة حقيقة يؤكدها القرآن الكريم مؤداها أن الفعل الإنساني في التاريخ سبب له نتائج التي يتحدد بها مصير البشرية . وبعبارة أخرى ، فإن الإنسان هو صانع التاريخ .<sup>(٤٩)</sup>

هكذا إذن ، تمهدت أبعاد فكرة التاريخ في القرآن الكريم على أساس من المفاهيم القرآنية . وكان لهذا انعكاسه الإيجابي على تطور مناهج البحث التاريخي وتقدمها نحو البحث في السببية على أسس وضعية وإنسانية . فقد

Mozheruddin Siddiqi, the Quranic Concept of History, (Karachi, 1965), p. 10.

(٤٧)

أنظر أيضاً : عبد النبي خليل ، الفكر الإسلامي ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، قسم حيد قسم الفقه الحضري ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٤٨) حمود أسبطل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ج ١ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٤٩) قسم حيد قسم ، الفقه الحضري ، ص ٥٥ - ٥٧ ، حجت الشرقاوي ، لب التاريخ ، ج ١ ، ص ٦١٠ - ٦١٢ .

استخدم القرآن الكريم المادة التاريخية لتأكيد مسئولية الإنسان عن مصيره في الحياة الدنيا ، وحرصت الآيات على تأكيد هذه المسئولية من خلال العبرة والعظة ، ولا غرو أن نظرة المسلمين إلى التاريخ لم تخل من الجانب الأخلاقي المتصل بالمعقدة في أساسه . وقد فرصت هذه الرؤية التربوية التعليمية للتاريخ نفسها على المؤرخين المسلمين ، وقد أوردوا في مقدمات كتبهم ما يشي بأنهم عملوا في إطارها كذلك فإن سطور كتبهم حفلت بالشواهد والأدلة عليها .

ولما كانت الحلفية الثقافية للمؤرخين المسلمين قائمة بالضرورة على أساس من المفهوم القرآني فقد كان طبيعيا أن ينبع فهمهم للجدوى الأخلاقية / التعليمية للتاريخ من هذه الحلفية . وقد جسد ابن خلدون هذه الرؤية بقوله : «واعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبيا في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياساتهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا والدين ...»<sup>(٥٠)</sup> . ويؤكد شمس الدين السخاوي<sup>(٥١)</sup> هذا المعنى في كتابه الذي ألفه دفاعاً عن التاريخ .

وعلى أية حال ، فإن المؤرخين المسلمين ظلوا متأثرين بالرؤية القرآنية لدور التاريخ في خدمة الجانب الأخلاقي التعليمي في المجتمع المسلم ، بل إن منهم من قسّم (فوائد التاريخ) إلى قسم دينوي وقسم أخروي ، بيد أن هذا التقسيم لم يخرج عن نطاق العظة والعبرة والمعنى الأخلاقي والمغزى التربوي ، مما يجعل الحياة ناجحة في الدنيا ، ويضمن المصير في الآخرة .<sup>(٥٢)</sup>

هذا هو تأثير الجانب العقيدى على فكرة التاريخ في تراث الحضارة العربية الإسلامية ، وهو تصور ركز على مسئولية الإنسان في الفعل التاريخي من ناحية . كما ترك بصماته الواضحة على التصور الإيجابي في مناهج البحث التاريخي من ناحية أخرى . لقد أصبح التاريخ ، بأحداثه وأشخاصه من شئون البشر ، واختفى تدخل الآلهة في مجرى العملية التاريخية لصالح القبائل والشعوب ، كما تخلص التاريخ من شبك الأسطورة إلى حد كبير . وكانت النتيجة الطبيعية أن التزمت الرواية التاريخية بإطار الزمان وحدود المكان ، كما بحث المؤرخون عن الحقيقة وفاضلوا بين رواية وأخرى . ومنذ البداية تأثرت مناهج البحث التاريخي بمناهج علم الحديث في إسناد الرواية التاريخية ، ثم نقدها على أساس التاريخ الشخصي للرواية .

ومن ناحية أخرى ، فرضت التطورات التاريخية التي لحقت بدار الإسلام استخدامات جديدة لعلم التاريخ في خدمة الحضارة العربية الإسلامية . وإذا كان تأثير الجانب العقيدى قد اتضح في صياغة لفكرة التاريخ ، فإن تأثير هذه التطورات التاريخية يمكن رصد من خلال أمشاط الكتابة التاريخية التي عرفها تراث الثقافة العربية الإسلامية . ومن

(٥٠) مقدمة ابن خلدون (طبعة كتاب الصبر ، القاهرة ١٩٦٦م) ، ص ١٤ .

(٥١) السخاوي ، الإحسان بالتاريخ لمن تم التاريخ (محقق فرانز روزنثال وترجمة أحمد صبحي طيل ، بغداد ١٩٦٢م) ، ص ٣٦ - ٣٨ .

(٥٢) ابن الأثير ، الكفيل في التاريخ (دار صادر ، بيروت) ج ١ ، ص ٦ - ٩ . ويرى ابن الأثير أن القصص وردت في القرآن الكريم فله الحكمة .

الطبيعه أن ينعكس ذلك أيضا على مناهج الدراسات التاريخية بحيث تبلورت في نهاية الأمر في ذلك المستوى الراقي لمناهج البحث التاريخي الذي أوضحه «ابن خلدون» في مقدمته الشهيرة .

يبد أننا يجب أن ندرك أن تطور أنماط الكتابة التاريخية في التراث العربي الإسلامي كان يسير في خط مواز للتطور الذي أُمّ بدار الإسلام خلال مراحل نموها الحضاري . وثمنا كان لفكرة التاريخ في القرآن الكريم أثرها في صياغة الفكر التاريخي على الصعيد النظري ، كان للرغبة في تفسير آيات القرآن الكريم أثرها على الأشكال الأولية من أنماط الكتابة التاريخية . لقد كان أول تطور في الدراسات التاريخية تلبية لضرورة ثقافية / اجتياحية ملحة في حياة المجتمع المسلم هي تفسير القرآن الكريم . وفي رأينا أن التفسير يعد ضرباً من ضروب البحث التاريخي .

وهنا نجد الخطوات الأولى لمناهج البحث التاريخي تتمثل بين الرغبة في معرفة الحقائق والنقص الحاد في المعارف والمعلومات التي توصل إلى معرفة الحقيقة . وربما كان هذا هو السبب في أن رجلاً مثل «كعب الأحرار» ( ت ٥٣٤ ) «ووهب بن منبه» ( ت ١١٠هـ ) قد استكملا هذا النقص بروايات خيالية من التراث العربي والمسيحي . وقد ظلت رواياتهما مصدراً مشتركاً لكتب التفسير طوال عصور الثقافة العربية الإسلامية .<sup>(٥٣)</sup>

واللافت للنظر أن مناهج الجرح والتعديل في الحديث كانت تستهدف الحقيقة من خلال ضوابط نقدية صارمة . وقد كانت هذه المناهج من أهم روايد مناهج البحث عند المسلمين فقد كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) شخصية تاريخية عاش في فترة تاريخية معلومة بحدود الزمان والمكان ، ومارس أفعالا تاريخية تركت أثرها في تاريخ العالم ، كما كانت أحاديثه موجهة إلى الناس ، وتناقضها بالرواية عدة رواة يحتمل فيهم الصدق كما يحتمل الكذب . ومن ثم بدأ علم الحديث يستخدم منهجه النقدي في البحث عن الحقيقة التاريخية . وكانت تلك مرحلة هامة من مراحل تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية . لقد نبذت فكرة الركون إلى دور القوى الغيبية في صنع تاريخ البشر ، وتم التأكيد على مسئولية الإنسان عن صنع تاريخه وبنائه حضارته بيد أن هذا لا يعني من ناحية أخرى ، انعدام المعاصر النفسي والأسطوري في الكتابة التاريخية ، فالواقع أن تطور المناهج الجديدة في الدراسات التاريخية قد دفع بالكتابة التاريخية إلى الأمام ، ولكن الأساليب القديمة كانت ما تزال موجودة . ومن المهم أن نلاحظ أن هذه سمة من سمات تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية (وفي غيرها من العلوم) ، إذ أن تطور مناهج البحث يدخل في الحظ العام لتطور العلم نفسه ، ولكنه لا يقضي على الأساليب والنماذج والمناهج القديمة التي تظل موجودة ، جنباً إلى جنب ، مع المناهج الجديدة فترة من الزمان .

ومن ناحية أخرى ، كان للاحتماء بالأحاديث النبوية أثره في ظهور نمط آخر من أنماط الكتابة التاريخية هو «السيرة والمغازي» التي كانت استجابة لحاجة ثقافية / اجتياحية في المجتمع المسلم الذي أراد أفرادها الوقوف على

(٥٣) حسين نصر ، لعل الكتابة التاريخية في الأدب العربي ( ط . ثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ) ص ١٧٥ - ص ١٧٧ .

تفاصيل حياة الرسول (ص) وأفعاله التاريخية . وتنقلنا «لغازي» للمرة الأولى إلى الكتابة التاريخية بالمفهوم الحديث لأنها كانت تبحث في سيرة الرسول (ص) وغزواته وسراياه ، وتجمع في الوقت نفسه أخبار الأحداث التاريخية الأولى التي وكتبت قيام الأمة الإسلامية مثل الهجرة إلى الحبشة والمدينة ، ورسائل النبي (ص) إلى الحكام المعاصرين ، وهذه كلها أخبار «تاريخية» اتخذت هذا النمط استجابة لحاجة المسلمين إلى معرفة أخبار الفترة التاريخية التي وضعت فيها اللجنة الأولى في حضارتهم ، والتي شهدت انتشار الإسلام أيضا .

وكان لابد من تغير في منهج البحث والرواية لكي يناسب هذا التطور الجدي في ميدان الكتابة التاريخية ، وبذلك غطت الكتابة التاريخية خطوة أبعد من منهج علم الحديث في ضبط الرواية .

والواقع أن اعتناق العرب للإسلام لم يجعلهم يتخلون عن تراثهم في مجال المعرفة التاريخية قبل الإسلام ، إذ أنهم احتفظوا بالآيام والأنساب ، وقصص عرب الجند ولكنهم طوعوها في خدمة الأغراض الثقافية / الاجتماعية التي وجدت بعد الإسلام . ويمكن القول إن فكرة التاريخ قبل الإسلام قد اتخذت مفهوما مغايرا بسبب التطورات التي جددت حل مناهج البحث وبنية العلم التاريخي نفسه بعد ظهور الإسلام<sup>(٥٥)</sup> وقد زاد نشاط علماء الأنساب في عهد «بني أمية» بسبب إنشاء الدواوين ، وبسبب مصالح العصبية من العرب المتنافسين<sup>(٥٦)</sup> ، كذلك ينبغي أن نلاحظ أن العرب ، بعد الإسلام ، ظلوا يحتفظون بالتنظيم القبلي أساساً للتنظيم الاجتماعي على الرغم من خضوعهم لسلطة عامة ، وقد أدت هذه الظروف إلى ازدهار علم الأنساب بعد الإسلام .<sup>(٥٧)</sup> بيد أن الهدف من هذا النمط من المعرفة التاريخية لم يظل كما كان في الجاهلية ، وهو ما أدى إلى تغير جوهره في منهج النسابين الذين اهتموا برسم شجرات النسب ، بصورة جافة ، تحل محل غاية أساسية هي تأكيد الأنساب .

على أية حال ، فإن موضوعات التاريخ في تلك المرحلة من تاريخ الثقافة العربية الإسلامية كانت تعالج أحداثا دينوية بحتة ، فسيرة النبي (عليه الصلاة والسلام) ومغازيه ليست سوى أحداث تاريخية جرت على أرض معروفة بحدودها الجغرافية في فترة تاريخية محدودة بحدود الزمان . وإذا كانت موضوعات «التاريخ» قد اختلطت بغيرها من الموضوعات ، مثل الفقه والحديث ، فالثابت أن جهود المحققين والفقهاء كانت موجهة لحل مشكلات دينوية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . بل إن فكرة التاريخ في القرآن الكريم كانت تدور حول هدف دينوي عملي هو تربية المسلمين وتعليمهم من خلال دروس التاريخ وما تحمله من عظة وعبرة .

(٥٥) حسين نصار ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ - ص ٢٢٤ ، محمود اسماعيل ، مسيولوجيا الفكر الإسلامي ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

(٥٥) جب ، علم التاريخ ، ص ٥٠ .

(٥٦) ازدهر علم الأنساب بعد الإسلام وامتد لعدة أجيال من قبله في العصر الأموي الذي شهد قسرا للعرب على غيرهم من المسلمين : انظر :

ابن خزيمة ، المنظر ، ص ٥٢٤ - ص ٥٢٦ ، بركوكيان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

والنتيجة الطبيعية لهذه البداية «التاريخية» لعلم «التاريخ» في تراث الثقافة العربية الإسلامية أن تتأثر مناهج البحث بموضوع الدراسة التاريخية وهدفها ولأن الدراسات التاريخية عند المسلمين بدأت من أرضية إنسانية وضعية ترى أن الإنسان هو صانع التاريخ ، والمستول عن قيام الحضارة أو سقوطها ، فإن مناهج البحث صارت هي الأخرى تستهدف الحقيقة وتبحث عن العلاقة السببية في الحوادث التاريخية . وإذا كانت فكرة العناية الإلهية بشئون البشر موجودة في تراث الثقافة العربية الإسلامية ، بشكل عام فالواضح في تراث الكتابة التاريخية أن العناية الإلهية لا تتوازى للمسلمين لمجرد أنهم مسلمون ، ولكنها تتوازىهم إذا كان «فعلهم التاريخي» في الدنيا قوياً متوافقاً مع أوامر الله ، وإذا تنكبوا سواء السبيل حاق بهم البوار والخسران . ويعني هذا ، في التحليل الأخير ، أن الإنسان مسئول عن فعاله في الدنيا . ولقد كانت هذه النظرة ذات تأثير عميق على رؤية التاريخ باعتباره تجربة إنسانية ، مما أثر بدوره مع مناهج البحث التاريخي التي اهتمت بالأسباب الوضعية المفسرة للظاهرة التاريخية .

ومن ناحية أخرى ، كانت للتطورات التي شهدتها الفترة الباكورة من تاريخ المسلمين ، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً تأثيراتها الفكرية والاجتماعية بعيدة المدى . إذ استمرت حركة الفتح الإسلامية في عتونها حوالي قرن من الزمان ، ونتج عنها أن دخلت تحت راية الإسلام شعوب عريقة ذات أصول حضارية بعيدة . وبطبيعة الحال أدت هذه التطورات إلى نشوء الحاجة إلى أنماط جديدة للكتابة التاريخية . وهو الأمر الذي أدى بدوره إلى تطور مناهج البحث وفق الأنماط العديدة التي أفرزها تطور علم التاريخ في الثقافة العربية الإسلامية .

لقد أوجدت حركة الفتح الإسلامية نمطاً من الكتابة التاريخية يتم بفتح البلدان بقصد التعرف على ظروف فتح كل بلد ، وكان هناك عدد من الإخباريين في كل بلد مخصصوا في جمع أخبار هذا البلد ، والروايات المتعلقة بطرق فتحه ، وتدوينها . وكان منهج أولئك الإخباريين بسيطاً يقوم على أساس الروايات المختلفة حول الحادثة التاريخية الواحدة دون محاولة للتحقيق أو التدقيق . ولأن عدداً من هذه الروايات كانت محلاً للتداول الشفهي حتى القرن الهجري الثالث على الأقل ، فإن كتب الفتح تحمل مشكلات كثيرة حول التواريخ والاحداث والأشخاص المشاركين فيها تحير الباحثين حتى اليوم . وكان العيب المنهجي الناجم عن جمع الروايات دون تحقيقها سمة مشتركة بين كثير من هذه الروايات التاريخية حول فتح البلدان .

كذلك أدى دخول الشعوب ذات الحضارات القديمة في الدين الإسلامي إلى تطور آخر في علم التاريخ ومناهج البحث فيه ، إذ نشأت الحاجة إلى معرفة تواريخ هذه الشعوب قبل الإسلام مما أدى إلى بروز مجال جديد للكتابة التاريخية . وكانت تلك هي المرحلة التي مهدت لظهور التواريخ المحلية . ويمكن أن نشير إلى عدد من مخصصيها في هذه الأخبار التاريخية التي تتناول الفترة السابقة على الإسلام ، مثل «محمد بن السائب الكلي» و«عوانة بن الحكم» (ت ١٤٧هـ) و«أبو مخنف الأزدي» (ت ١٥٧هـ) . و«سيف بن عمر» (ت ١٧٠هـ) وغيرهم . بيد أن أهم

هو<sup>٥٧</sup>، جميعاً هو محمد بن عمر الرازي (ت ٥٠٧ هـ) الذي كانت كُتبه عنواناً على تقدم واضح في مناهج البحث التاريخي .<sup>(٥٨)</sup>

ومع بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كان في متناول المؤرخين المسلمين كم هائل من المادة التاريخية التي خلفها لهم كتاب السيرة النبوية والمغازي ، ومؤلفو كتب الطبقات وكتب الفتوحات . كذلك ساعدت الظروف التاريخية على ازدهار المعرفة التاريخية ، وتعدد أنماط الكتابة ، فضلاً عن تطور مناهج البحث . ففي سنة (١٧٨ هـ) تم في بغداد تأسيس أول مصنع للورق الذي حل بالتدريج محل الرق والبردي وغيرها من مواد الكتابة التاريخية للمعرفة آنذاك . ومن ناحية أخرى كانت دواوين الدولة تحفل بالوثائق والسجلات التي بدأت تدخل ضمن نسيج المادة التاريخية<sup>(٥٩)</sup> ، فضلاً عن أن بعض الخلفاء الأوائل كانوا يرون في التاريخ نوعاً من الثقافة السياسية فقد كان «معاوية بن أبي سفيان» يخصص شرطاً من الليل للاستماع إلى قصص التاريخ التي تتناول أئمة الملوك والحروب والمكائد السياسية . ومن نتائج هذه المجالس ظهرت الروايات التاريخية المنسوبة إلى «عيد بن شربة» .<sup>(٦٠)</sup>

لقد تضافرت عوامل كثيرة لتسهل الطريق أمام التطور الهام الذي لحق بعلم التاريخ عند المسلمين منذ القرن الثالث الهجري فصاعداً . وجاء ظهور الأنماط المختلفة من الكتابة التاريخية ظهوراً طبعياً . ومثل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مرحلة تطور هامة وحاسمة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية . وظهرت المدارس الفكرية المختلفة في شتى أنحاء دار الإسلام . ومثل ازدهار العلمي والفكري في مظهرين رئيسين : السفر والرحلة في طلب العلم بين مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وتعدد المؤلفات التي كتبت في شتى فروع العلم والمعرفة . كذلك فإن السلام الذي تحقق في ظل وحدة دار الإسلام خلق جواً من الاستقرار انعكس على الروح الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية . وكان لا بد أن يتألم علم التاريخ نصيبه من هذا الازدهار .

فقد أدى ذلك بالضرورة إلى تراكم هائل ، على المستوى النوعي والكمي ، في مجال الكتابة التاريخية التي شهدت مرحلة انتقال منهجية هامة ، نقلت كتابة التاريخ من مجرد التجميع والتأليف والوصف إلى مرحلة جديدة توأمها منهج صارم يقوم على أساس ضبط الرواية وتحقيقها . فقد شهد القرن الثالث الهجري مولد كثير من الحوليات والمؤلفات التاريخية ، فضلاً عن ذلك الكم الهائل من المعلومات التي كان الإخباريون ما يزالون يتداولونها بالرواية الشفهية . ولعل أسماء عدد من أعلام التدوين التاريخي ، منهم «أبو قتيبة الدينوري» (ت ٢٧٦ هـ) ، و«ابن جرير

(٥٧) البليسي ، (علم التاريخ عند العرب) ، ص ٥١ وما بعدها . وقد أكد الرازي كتاباً في التاريخ العلم يقول فيه أن بعض تاريخ البرية منذ البداية حتى عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد ، ولكن للكتاب مظهر سوى الأجزاء التي نقلها (ابن سعد) من كتب (طبقات الكهين) .

(٥٨) قسم عيد قسّم ، الرقعة الخضراء ، ص ٩٨ - ص ٩٩ .

(٥٩) يقول إن (عيد بن شربة) قد روى أخبار ملوك العرب من حكم وثمان ، وقد روى لهمهم . وقد حل سفارة ليرى له هذه الأخبار . أنظر :

عيد بن شربة ، أخبار الجن وأخبارها ، ص ٢٢٣ - ص ٥١٤ ، بروكلمان تاريخ الأدب العربي ج ١ ، ص ٢٥٠ .

الطبري» (ت ٣١٠هـ) . ويعتبر كتاب الطبري «تاريخ الرسل والملوك» تجسداً للنزعة التاريخية العامة التي خلقتها وحدة العالم الإسلامي ، إذ يتناول هذا الكتاب التاريخ العام منذ الخليقة حتى نهاية سنة ٣٠٢ هجرة ، ويخصص مساحة كبيرة للسيرة النبوية ، إلى جانب حوادث صدر الإسلام ، ثم يرتب الأحداث التاريخية سنة وراء الأخرى .

ويعد «الطبري» رمزاً لختام مرحلة وبداية مرحلة جديدة في تاريخ التدوين التاريخي في التراث العربي الإسلامي . ففي هذا الكتاب قام الطبري بصياغة تركيبية لكل الأنماط السابقة في مجال التدوين التاريخي العربي ، مثل بداية الخليقة وأيام العرب ، والمغازي ، والسيرة النبوية ، والفتوح ، ثم النمط الحولي الذي ينسب إليه . أما من ناحية المنهج ، فقد اعتمد على منبج الإسناد إلى جانب الوثائق التي بدأ يدخلها في تنسيق الرواية التاريخية على نحو لم يكن مألوفاً قبل الطبري .

وفي كتاب «تاريخ الرسل والملوك» أرسى الطبري قواعد منبج جديد في البحث والدراسة التاريخية كان يمثل نفلة نوعية في تاريخ الكتابة العربية لم تتكرر بعد ذلك سوى في كتابات عبدالرحمن بن خلدون . ولم يكن ما جاء به الطبري «ابتكاراً» خالصاً . وإنما كان صياغة موحدة لكل التطورات والأنماط والمناهج التي حاولها مؤرخون قبله . وجاءت كتابات الطبري حصداً ناجحاً لكل محاولات من سبقوه . ويرى البعض أن سبب أهمية كتابه يكمن في أنه كان مثالا للصرامة والدقة المنهجية ، إذ طبق الطبري في هذا الكتاب منبج الإسناد تطبيقاً صارماً في مجال التاريخ . ولكي يحدث ذلك لابد له أن يصوغ كتابه على أساس الخبر من ناحية ، وعلى أساس من الجدارة الأخلاقية لمن نقل الخبر من ناحية أخرى . وقد كان من الضروري أن يرتب الطبري كتابه ترتيباً زمنياً على مواسم السنين<sup>(١٠)</sup> ، فقد اتبع طريقة الحوليات ، وقسم حوادث كتابه وفقاً لتسلسل زمني يبدأ من سنة الهجرة . وقد نهج نهجاً تنابعياً بحيث يروي حوادث كل سنة على حدة متباعدة متباعدة متباعدة .<sup>(١١)</sup>

يبد أن الطبري لم يقتصر على منبج الإسناد الذي طبقه على روايات كتابه بصرامة فحسب ، وإنما نجد في طيات كتابه الضخم ما يشير إلى هذه النقلة النوعية التي أشرنا إليها في منبج البحث التاريخي . إذ تبرز أهمية الوثائق والسجلات الحكومية باعتبارها دليلاً يدهم القصة التاريخية وهو تطور اهتم بالدليل الوثائقي في الدراسة التاريخية ما يزال يحظى بالاحترام البالغ بين المؤرخين حتى اليوم . ويعني هذا أن المؤرخين المسلمين قد تقدموا خطوة أبعد في تطوير منهجهم للبحث في التاريخ . فإلى جانب المشاهدة عن طريق الرحلة أو معاينة الأحداث ، والسماح من شهود العيان ، وانتقل عن الرواة جاءت الوثائق والسجلات مصدراً جديداً للمؤرخ لإقامة الدليل والبرهان . وكان هذا التطور في مناهج البحث موازياً لتطور في علم التاريخ نفسه . إذ لم يعد معيار صحة الخبر التاريخي هو نفس المعيار

(١٠) على قوائله : الخطيب البغدادي - حراسة المصاحف ابن خلدون «مطبوعات دار الإله العربي - بيروت» ، ص ٣٣ - ٣٤ .

(١١) الطبري ، «تاريخ الرسل والملوك» ، تحقيق عبد أبو الفضل إبراهيم (طبعة دار المعارف بالقاهرة) ، ج ٣ ، ص ١٢ وما بعدها . على سبيل المثال .



الأخلاقي الذي استخدمه منهج التعديل والجرح ، وإنما صلو موضوعاً يعتمد على توفر الشواهد المادية التي تؤكد صحة الخبر . ونكمن أهمية كتاب الطبري في أن صفحاته جمعت بين النتائج السائلة والنتائج الجديده في وقت واحد ويشكل تركيبي نادر في المؤلفات التاريخية .

وقد صلو كتاب الطبري هذا نموذجاً لكتب التاريخ الإسلامي العام في عصور الثقافة العربية الإسلامية ، كما كان مصدراً اعتمد عليه من جامعو بعده لمعرفة تاريخ القرون الثلاثة الأولى من عمر الحضارة العربية الإسلامية .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن التقدم الذي أحرزه علم التاريخ ومنهجي البحث في تلك الفترة لم يكن راجعاً إلى كثرة عدد المؤرخين ، أو غو الملة التاريخية وتراكمها ، أو تطور منهج البحث التاريخي لحسب ، وإنما كان راجعاً بالضرورة إلى تعدد اتجاهات التأليف التاريخي وأنماطه التي كان كل منها استجابة لحاجة ثقافية / اجتماعية فرضتها الظروف التاريخية للعالم الإسلامي .

وقد شهد القرن الثالث الهجري ، أيضاً ، بروز مراكز ثقافية عديدة متنافسة على امتداد العالم الإسلامي ، وازدهار النشاط العلمي والفكري في مصر وبلاد الشام والمغرب والأندلس ، فضلاً عن بلدان المشرق الإسلامي . وكان علم التاريخ واحداً من ميادين المنافسة . وغلبت النتيجة النهائية في ظهور التواريخ المحلية التي تتحدث عن تواريخ البلدان ، ثم ظهرت تواريخ للذن التي ذاعت وانتشرت على مدى عصور الثقافة العربية الإسلامية . فقد وجدت حاجة ثقافية / اجتماعية جديدة هي منافسة المراكز الثقافية في شق أنحاء (دار الإسلام) ، إذ كان المسلمون قد صاروا ، منذ القرن الثالث الهجري ، أغلبية في البلاد المفتوحة ، وأخذت كل جماعة تحاول إبراز فضائل البلد الذي تنتمي إليه . ومنذ ذلك الحين ظهرت المؤلفات التاريخية التي تهتم بجمع كل ما يتعلق بإحدى مدن (دار الإسلام) ولم يقتصر الأمر على المدن المقدسة ، مثل مكة والمدينة والقدس ، وإنما اتجه المؤرخون إلى المدن الإسلامية عامة . فظهر تاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وزبدة الحلب من تاريخ حلب لابن النديم ، وتاريخ إدرب لابن المستوفى . كما ظهرت خطط النسطاط والقاهرة لابن عبدالحكم<sup>(١٧)</sup> ، والقضاوي ، وابن زولاق والأوحد ، وابن دقاق ، والمقريزي ، والسويعي وغيرهم .<sup>(١٨)</sup>

وقد تطور هذا النمط الجديد من أنماط الكتابة التاريخية ، أي المخطط التي تجمع بين التاريخ والطبوغرافيا والسكان والجغرافيا . ويحتوي كتب المخطط عادة على قدر معلومات عن تطور المدن وتخطيطها وأحيائها وعناصر السكان والمرافق ذات الوظيفة البلدية ، أو الاجتماعية ، أو الدينية عبر العصور . وتزد في ثنايا تلك المؤلفات

(١٧) جلد هذا الجزء ضمن كتاب عبد الرحمن بن عبد الحكم ، شرح مصر وأخبارها (عشر، تدارك حموي) لندن سنة ١٩٣٠ .

(١٨) قسم عبد السلام ، فروع الحضارة ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

معلومات كثيرة هامة عن شتى جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية . وفي مصر كان «عبدالرحمن بن عبد الحكيم» هو رائد هذا النمط من أنماط الكتابة التاريخية .

ويعتبر هذا النمط الذي وصل قمة تطوره على يد المؤرخ تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥هـ) ، تطوراً نوعياً هاماً في ميدان الكتابة التاريخية ، سواء على مستوى المعرفة التاريخية أو على مستوى تطور مناهج البحث التاريخي . فقد تحمل كتاب الخطط من النمط المحلي في رواية الخبر التاريخي ، واختاروا المعالجة التي تتناول كل موضوع على حدة داخل الإطار العام للكتاب . كما أن المؤرخين الذين اهتموا بهذا النمط من التأليف التاريخي تحلو تماماً عن أية أسباب غريبة ويبحثوا عن السببية في نطاقها الإنساني «التاريخي» ، وقد تجسد ذلك تماماً في خطط المقرئ .<sup>(١٤)</sup>

وفي تقديرنا أنه من الصعب أن نتبع جلود نشأة كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية في تراث الثقافة العربية الإسلامية . بيد أننا نستطيع من خلال النظر في هذا التراث أن نكتشف مدى التنوع والثراء المذهلي في المؤلفات التاريخية ، ومدى استجابة هذه الأنماط من الكتابات التاريخية للمحاجات الثقافية / الاجتماعية التي فرضتها التطورات . وقد أحصى وشمس الدين السخاوي<sup>(١٥)</sup> أنماط الكتابة ، وقصد بهذا الإحصاء أن يكمل الإحصاء الذي وضعه الذهبي من قبل . كما أن السيوطي كانت له محاولة في هذا السبيل أيضاً .<sup>(١٦)</sup>

وقد أحصى لنا السخاوي موضوعات التأليف في ميدان التاريخ فيما يلي :

- ١ - تاريخ الرسول والأنبياء .
- ٢ - تاريخ الصحابة .
- ٣ - تاريخ الأشراف ، أي آل أبي طالب وآل علي .
- ٤ - تاريخ الفرشيين .
- ٥ - تاريخ الموالي .
- ٦ - تاريخ الرواة المعتمدين أو المصنفين .
- ٧ - تاريخ رجال علم الحديث .

(١٤) المقرئ ، لمناظر ولاعبار يذكر الخطط والآثار ، (طبعة بولاق ١٢٧٠ هجرية) .

(١٥) السخاوي ، الإعلان بالبريق عن نظم التاريخ ، ص ٢١٤ - ص ٣٣٨ .

(١٦) السيوطي ، حسن المصنفات في تاريخ مصر والقاهرة (طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ) ، ج ١ ، ص ١٥٨ - ص ١٥٩ ، ص ٢٥٦ - ص ٢٥٧ .

- ٨- تاريخ المعاجم والشيخة .
- ٩- تاريخ المسمون باسم خاص مثل «عطاء الطبراني» أو «عبدالمؤمن الديماطي» .
- ١٠- تاريخ المعمرين والشبان .
- ١١- تراجم الأفراد .
- ١٢- التواريخ المحلية .
- ١٣- تصانيف البلدان .
- ١٤- مطلق التاريخ ، وهو ما وصفه بأنه بمطلق التاريخ غير مقيد بوصف ولا جنس ، أو نحو ذلك ، وهو على أقسام :
  - أ- التاريخ على الحوادث .
  - ب- الحوادث والوفيات
  - ج- كتب عن تواريخ الوفيات
  - د- كتب التراجم
  - هـ- كتب تواريخ منوعة .

وعلى الرغم من التداخل الواضح بين هذه الموضوعات ، وعلى الرغم من غياب أنماط أخرى من المؤلفات التاريخية من (إحصائية) السخاوي ، فالواضح أن الدراسات التاريخية العربية قد ضطت كافة مجالات النشاط الإنساني ، فقد كتب المؤرخون في السيرة النبوية والمغازي ، وفي الطبقات والتراجم ، والتواريخ المحلية ، والحفط ، وتواريخ المدن ، كما كتبوا الرسائل ذات الموضوع التاريخي الواحد ، فضلا عن فلسفة التاريخ . ولم يحدث هذا بين عشية وضحاها بطبيعة الحال ، وإنما كان محصلة تطور طويل المدى . كما أن مناهج البحث كانت تتطور باستمرار لحل مشكلات كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية . وقد كانت المناهج في تطورها لحدمة الجديد في مجال الدراسات التاريخية تبقى على طرق البحث التي تناسب القديم أيضا ، ولهذا يبدو تراث التدوين التاريخي في الثقافة العربية الإسلامية وكأنه معرض لتطور علم التاريخ ومناهجه .

والعصر الذي تمثلت فيه كل أنماط التدين التاريخي العربي هو عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) الذي كان بمثابة المعرض الحي لتاريخ كتابة التاريخ في إطار الحضارة العربية الإسلامية . والواقع أن مصر والشام قد شهدت في ذلك العصر نشاطات ثقافية واسعة النطاق . لقد كان عصر السلاطين المماليك آخر عصور الحضارة العربية الإسلامية ، وكان التوجه الثقافي والعلمي فيه بمثابة خط الدفاع الأخير عن الثقافة العربية الإسلامية . فقد أدت الظروف التاريخية التي أحاطت بالعالم الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى ظهور دولة سلاطين المماليك في مصر والشام لتقوم بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامي على مدى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان .<sup>(١٧)</sup> وفي ظل الأمن والحماية التي وفرتها دولة سلاطين المماليك كانت مصر على نحو خاص مقصدا لعدد هائل من العلماء والمفكرين المسلمين من شرق العالم الإسلامي ومغربه ، إذ أن الكواثر السياسية والعسكرية التي حاقت بدار الإسلام في المشرق والمغرب جعلت العلماء والمفكرين والفنانيين يهاجرون إلى القاهرة .

لقد شهدت خمسينيات القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) اجتياح المغول لبلدان الشرق الإسلامي ، وقضت هذه الجحافل الظالمة على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، ومن ناحية أخرى ، كانت المساحة الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية تتراجع أمام زحف الكاثوليك الأسبان والأوروبيين للقضاء على الأندلس . وإزاء مذابح الكاثوليك تزايدت أعداد المهاجرين إلى مصر والقاهرة من أبناء الأندلس ، كما أن الظروف السياسية المتقلبة دفعت عدداً من أبناء المغرب الإسلامي إلى أحضان القاهرة ، ومن أشهرهم وعبدالرحمن ابن خلدونه الذي لم يكن حالة فريدة بين المهاجرين المغاربة . وكان الزمان ما يزال ينتظر بعضاً من أهم إنجازات الفكر والثقافة العربية في عصر سلاطين المماليك .

ولم يكن علم التاريخ يمتدح عن هذه التطورات والأحداث بطبيعة الحال . فقد وصلت الكتابة التاريخية في ذلك العصر إلى قمته في ظل الظروف الثقافية العربية الإسلامية ، سواء من حيث التراكم والنمو المعرفي في التراث التاريخي نفسه ، أو من حيث تطور مناهج البحث في الدراسة التاريخية التي خرجت من حيز «الحبر» و «الرواية» المجردة إلى طور جديد يتم بمناقشة الأسباب في سياقها الواسع . وزادت أهمية علم التاريخ باعتباره علماً ذا وظيفة ثقافية / اجتماعية . وتبلورت فكرة التاريخ بشكل واضح حتى وجدنا من مؤرخي ذلك العصر من يكتبون في فلسفة التاريخ ، والامس النظرية التي يقوم عليها التدين التاريخي ، ومنهج البحث التاريخي ، مثل وولي الدين عبدالرحمن

(١٧) برز للملك قوة عسكرية أثناء المجاهدة بين مصر وراوت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ، وقد انتهت الحملة بتدمير الجيش الصليبي وأسر الملك الفرنسي لويس التاسع وبرزت قوة فرسان المماليك البحرية ولقائهم من أسلاك أنطاكي وبيرويس وقلعون وغيرهم . وبعد ذلك بفترة سنوات تعاقب المغول على الخلافة العباسية وعزيمهم الجيش المصري بقيادة المماليك (٦٥٨ هـ) في معركة عين جالوت الشهيرة . وأعاد السلطان الظاهر بيبرس أسعد الخلافة العباسية في القاهرة لإشغاله الدرجة على الحكم في الدولة النورية . انظر التفاصيل في : أحمد خضر البهني ، قام دولة المماليك الأولى في مصر والفتاح (دار النهضة العربية) بيروت ١٩٨٦ م ، ص ١٠١ - ٢٨٠ .

بن خلدون (ت ٨٠٩ هـ) ، كما ظهر من علماء ذلك العصر من كتب في التاريخ مثل «شمس الدين السخاوي» و «جلال الدين السيوطي» .

وقد شهد هذا العصر الثقلة النوعية الكبيرة الثانية في تطور مناهج البحث التاريخي ، وهو الاتجاه الجديد الذي بلورته نظرياً ، كتابات ابن خلدون ، كما جسده صلياً كتابات المؤرخين الذين تلمذوا عليه وأشهرهم «تقي الدين المقرئ» (ت ٨٤٥ هـ) وتكمن أهمية ابن خلدون وكتاباته في آرائه التي طرحها في مقدمته الشهيرة عن علم التاريخ ، إذ أن هذه المقدمة تضمنت آراء ونظريات هامة تمثل حصاد التراث التاريخي على مر عصور الثقافة العربية الإسلامية . ولنا بصد تكرار ما هو معروف ومشهور من آراء ابن خلدون<sup>(٦٨)</sup> ، ولكننا نقصد أن نوضح أن تطور مناهج البحث التاريخي وصل إلى مرحلة جعلت من الضروري مناقشة وت نقد مناهج البحث التي قامت عليها أنماط الكتابة التاريخية المختلفة حتى ذلك الحين . وفي تصورنا أن أهم تطور منهجي بلوره ابن خلدون في مجال الدراسات التاريخية هو البحث عن العلاقة السببية الوضعية في وقائع التاريخ نفسها أو في «أحوال العمران» على حد تعبيره<sup>(٦٩)</sup> . فقد بلور اتجاهها جديداً في منهج البحث التاريخي يرفض الحكم على صحة الخبر بمعيار أخلاقي يعتمد على عدالة رواة الخبر (كما هو الحال في منهج الجرح والتعديل في الحديث النبوي) وإنما يجعل وقائع التاريخ واتساقها المنطقي ، ومطابقتها لقواعد الاستقراء والاستنباط ، معياراً على صحة الخبر التاريخي .

ولم يكن هذا الاتجاه جديداً «اخترعه» ابن خلدون ، ولكن المؤرخين المسلمين كانوا قد بدأوا في استخدامه بصورة أو بأخرى منذ وقت مبكر . ولكن أهمية ابن خلدون تتمثل في قدرته على بلورة هذا التطور المنهجي في إطار نظري متكامل . فقد كان المؤرخون قد تجاوزوا منهج الإسناد الذي يعتمد على أخلاقيات الرواة منذ فترة طويلة قبل ابن خلدون ، بل إن «ابن جرير الطبري» نفسه قد استخدم الوثائق والسجلات إلى جانب الإسناد في كتابه الشهير . وعلى مستوى الواقع كان علم التاريخ قد أصبح عارسة علمية مستقلة عن العلوم الدينية ومناهجها ، ولا سيما علم الحديث .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن ما كتبه ابن خلدون لإيداعنا بنهاية مرحلة ودياية مرحلة جديدة في مجال الدراسات التاريخية ، ولم يكن يمكن أن يحدث هذا . فقد استمرت الأنماط والمناهج القديمة تعربد إلى جانب المناهج الجديدة التي

(٦٨) راجع مقدمة ابن خلدون ، انظر أيضاً : على أرملين ، «المناهج التاريخية» ، ص ١٢٩ - ١٧٠ حيث يقدم مقالة مفصلة ، من وجهة نظر حديثة ، لآراء ابن خلدون .

(٦٩) مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٧ ، حيث يقول : «والأدلة التي لا يمكن أن تكون إلا من جهة الأخبار القديمة ، لأن منطقها تكليف إشكالي أوجب التشريع العمل بها حتى حصل الظن بصحتها . وسيل صحة الظن الثقة بالرواة ، بالمصادقة والفيض . وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صلاحها وصحتها من اعتبار لطيفة ، فلذلك وجب أن ينظر إلى إمكان وقوعه ، وسائر فيها ذلك أهم من التمثل ، ومقدما عليه ...» .

تبلورت في كتابات مؤرخ كبير هو تقي الدين المقرئزي<sup>(٣٠)</sup> الذي أبدى اهتماماً واسعاً بجوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وثمة غط آخر من الكتابة التاريخية يمثل كتاب السخاوي «الإعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» وهو كتاب تبريري مكسر للدفاع عن علم التاريخ وجدوى الدراسة التاريخية ، كما يتناول تاريخ التاريخ ويقدم محاولة إحصائية لفروع الدراسة التاريخية على النحو الذي يبيئه في الصفحات السابقة .

ولم يكن «ابن خلدون» و«السخاوي» فقط مهتمين بهذه النواحي المنهجية والنظرية في الدراسات التاريخية ، وإنما شاركهما في ذلك عدد كبير من المؤرخين الذين ضمنوا أراهم في مقدمات كتبهم أو في طيات صفحاتها ، لكن «ابن خلدون» ، و«السخاوي» يتميزان بأنها خصصا كتابين لهذا الموضوع وحده .

لقد كانت كتابات مؤرخي القرنين الثامن والتاسع الهجريين تمهيدا لمدى التطور الذي أحرزته الكتابة التاريخية ، ومناهج البحث التاريخي ، في التراث العربي الإسلامي . وقد أفرزت تلك الفترة عددا من المؤرخين الألفاظ ، في مصر والشام ، تجسدت في كتاباتهم فكرة التاريخ ، وعكست أيضا مدى التطور الذي وصل إليه منهج ألبعث التاريخي .

وفي كتابات كل من يبريس الدوادار الناصري (٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) وأبو الفداء (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، وابن فضل الله العمري (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) ، وشمس الدين الذهبي (٧٤٨ هـ / ١٣٤٩ م) ، وإبلفقشندى (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، وابن حجر (٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) والمقرئزي (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ، وابن خزرى بردى (٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) وابن لياس (٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) .. وغيرهم نجد تراثا متنوعا ومثيرا في أنماط الكتابة التاريخية ، كما نلاحظ تفاوت مناهج الدراسة التي تدل على أن المناهج القديمة كانت ما تزال تعربد الى جانب المناهج الجديدة<sup>(٣١)</sup> ومن البديهي أن هذا التراث المتنوع من الكتابات التاريخية الذي حفظه لنا عصر سلاطين المماليك قد عكس تطور العلم إلتاريخي من حيث المستوى المعرفي ومناهج البحث والدراسة على حد سواء .

وتكشف دراسة هذا التراث عن العلاقة بين علم التاريخ ومناهج البحث فيه كانت علاقة جدلية ، يفقد مساهمة المناهج في بناء العلم بقدر ما كان التطور المعرفي يساعد على تطوير مناهج البحث وطرق البحث وأساليبه .

(٣٠) الواقع أن فكرة التاريخ لدى المقرئزي ، ومنهجها في الكتابة التاريخية ، وإعلياء تلك الكتابة للقرائين التاريخية ، فلهذا من استعانة الكامل للأخبار التي طرحتها ابن خلدون وبقدره على تعليقها على نسو لم يستطع ابن خلدون نفسه أن يعقده في كتاب (المير) كل هذا يصل من المقرئزي علما من اعلام الفكر التاريخي . انظر على سبيل المثال كتابه المجلد الآلة بكشف القصة ، نشر محمد مصطفى زيانا وجمال الدين الشهاب (القاهرة ١٩٤٠ م) .

(٣١) انظر تحليل مؤلفات أرنوك للأرخين ومناهجهم .

وكانت تلك قمة تطور الدراسات التاريخية في تراث الثقافة العربية الإسلامية ، فمنذ القرن العاشر الهجري ( السادس عشر الميلادي ) اكتسبت الرواية التاريخية طابع السرد والاجترار ، وتسجيل الشهادات التاريخية ، أو إعادة ما كتبه المؤرخون السابقون بصورة اجترارية . وكان ذلك في حقيقة الأمر انعكاسا لتدهور عام أُلْم بالخضارة العربية الإسلامية عامة .



أما التراث التاريخي لدى الغرب الأوربي في معناه الواسع ، فقد ولدت بداياته في الإلياذة والأوديسة المتوسمين إلى هوميروس . فعلم الرزم من الطابع الخيالي العام في هاتين الملحمتين ، لأن من الممكن لدراسي الحضارة استخدام الإلياذة والأوديسة لتصوير حقبة من حياة الإغريق القدامى دون الوقوع في خطأ فادح . وعلى الرغم من أن علماء الآثار قد كشفوا عن تاريخية حرب طروادة التي أنشدها هوميروس بالشعر والقصص فإن اختلافات كثيرة ما تزال قائمة بين ما أنشده الشاعر وما كشف عنه البحث التاريخي والأثري الحديث .<sup>(٣١)</sup> ومن يبحث في هاتين الملحمتين عن التاريخ يجد خيالا كثيرا ، ومن يبحث عن الخيال يجد تاريخا كثيرا ، إذ أن هذه البدايات الأولى لعلم التاريخ عند الإغريق كانت مكبلية بأغلال الأسطورة والخيال . ومن ناحية أخرى ، تكشف هاتان الملحمتان عن أن الآلهة تمارس نوعا من الرقابة على العالم ، وأن نطاق القدرة الإنسانية ينتهي عند حدود معينة ، إذ كانت آلهة الإغريق تتدخل في مسلك الناس الواقعي .<sup>(٣٢)</sup> وقد أثر ذلك بطبيعة الحال على رؤية الإغريق للتاريخ حتى ظهور كتاب هيرودت .

ولم تبدأ الكتابة التاريخية بمعناها التقليدي قبل توفر شروط معينة في الحياة الثقافية الاجتماعية في الحضارة الإغريقية القديمة ، وهو الأمر الذي لم يحدث قبل القرن السادس قبل الميلاد . وتحمل ذلك واضحا في الكتابات النثرية الرائقة ، ونقد الأساطير التي تتعلق ببداية الوجود اليوناني القديم ، ثم تحول الاهتمام إلى الأصول الاجتماعية والمؤسسات التي تنظم حركة المجتمع ونشاطه . ويمتصّف القرن السادس قبل الميلاد بدأت الرواية التاريخية تظهر في مدينة ملطية Miletus على ساحل أيونيا Ionia ( آسيا الصغرى ) ففي هذا القرن قَدَّمَ كادموس الملطي Cadmus of Miletus نموذج الكتابة النثرية عوضا عن الشعر ، ويعدّ « كادموس » هذا واحدا من أوائل كتاب النثر الإغريق Iogographeoi<sup>(٣٣)</sup> وفي الفترة نفسها ظهرت الفلسفة التأملية التي جلبت معها أصول الفكر الحرف والفلسفة النقدية . ومن ناحية أخرى ، فإن حركة الاستعمار الإغريقي ، والنشاط التجاري مع الشرق - فضلا عن السفر إلى بلاد الشرق - كلها كانت من العوامل القوية التي ساهمت في تحضر إغريق آسيا الصغرى . ويحرّ إيجيه على السواء . وقد

لسم هذه قسم ، الرؤية الحضارية ، ص ١١٥ - ص ٣٦٧ .

(٧٢) لعلى هينالوف ، ( عالم هوميروس ) ، مجلة عالم الفكر ( ليليل الثاني عشر ، أكتوبر - ديسمبر ١٩٨١م ) ، ص ١٣ - ص ١٥ .

(٧٣) وييجري ، للشاعر الكبير في التاريخ - من كوثوقسيوس إلى فنيي ، ترجمة فوفلان فركوط ، ( بيروت ١٩٧٣ ) ، ص ٧٨ - ص ٧٩ . ومن المهم هنا أن نذكر إلى أننا استعملنا ترجمة أخرى لهذا الكتاب ( ترجمة هينالوف جلوب ) أشرنا إليها في الصفحات الأولى من هذه الدراسة . وسلف تكون إشاراتنا التالية هذه الترجمة .

(٧٤)

Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 26.

أدى هذا بدوره إلى تطوير الفكر الإغريقي ومولد الروح النقدية التي تمثل أساس الفلسفة الإغريقية والأدب ، إلى جانب الكتابة التاريخية أيضا . وهذا الاتصال الثقافي استغزى حب الاستطلاع ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن هيكاتايوس Hecataeus (ولد سنة ٥٥٠ ق.م) ، أول المؤرخين الإغريق ، قد سافر كثيرا إلى مصر .<sup>(٣٠)</sup> كما أن استيلاء الفرس على آسيا الصغرى ، أوجد المزيد من فرص الاتصال الثقافي .

وهكذا يمكن اعتبار نشوء الكتابة التاريخية الإغريقية جزءا من الحركة الفكرية الكبرى المعروفة بظهور الكتابات النثرية logographoi وظهور التيارات الفلسفية النقدية بين إغريق أيونيا (آسيا الصغرى) .

على أن الكتابات التاريخية الإغريقية في تلك الفترة لم تخل من التأثير الأسطوري والديني الذي يطبع المرحلة الأولى في تاريخ الكتابة التاريخية لدى كل أمة . ذلك أن هسيود Hesiod كتب التاريخ كما كتب عن الآلهة الإغريقية وحاول أن يجد لها نسباً .

ثم أخذت الاتجاهات الثقافية تتصاعد في مجال الكتابة النثرية . وما بين شجرات النسب التي حاول هسيود أن يثبت بها «أنساب» الآلهة ، وكتاب «التواريخ» الذي كتبه هرودوت تحت بسرعة عدة إنجازات في مجال الكتابة التاريخية ، إذ أن خارون لامباسكوس Charon of Lampascus وديونيسيوس الملطي ، ألفا في تاريخ الفرس في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، كما أن سكيلاكس كارياندا Scylax of Caryanda كتب أول سيرة تاريخية وفي آخريات القرن الخامس قبل الميلاد ألف أنطيوخوس السيراكيوزي Antiochus of Syracuse أول كتاب تاريخ عن الشعوب اليونانية . ويعتبر هيلانكوس ليسبوس Hellanicus Lesbos من أهم المؤرخين القدامى الذين مهدوا لظهور هيروdot . إذ أنه لم يتعرض لتاريخ بلاد فارس وبلاد اليونان من وجهة نظر اجتماعية واسعة فحسب ولكنه كان أيضا أول مؤرخ إغريقي يدرك أهمية نظام زمني للتتابع التاريخي .<sup>(٣١)</sup>

كان أول مؤلف تاريخي شامل كتبه واحد من الإغريق هو كتاب هيروdot Herodotus of Halicarnassus (٤٨٤ - ٤٢٥ قزم تقريبا) . وقد تناول فيه العلاقات الإغريقية - الآسيوية من سنة ٥٦٠ ق.م. حتى هزيمة الغزاة الفرس في بلاد اليونان سنة ٤٧٨ ق.م وكانت هذه النقلة في ميدان التأليف التاريخي عند الإغريق ناجمة عن الحروب الفارسية التي أبغظت في عقول الإغريق الاهتمام بحضارات الشعوب الشرقية . وفي هذا السياق ظهرت (تواريخ) هيروdot ، وهي عبارة عن تسعة كتب في مجلد واحد . وقد نزلت كتب هيروdot التسعة بالتاريخ إلى أرض البشر ، بعد أن كان التاريخ يبحث في حكومات الآلهة وأنصاف الآلهة .

وتجلى أهمية هيروdot الحقيقية في أنه أثبت أن للمعرفة التاريخية مكانة هامة على الرغم من الاتجاهات الثابتة التي لا يدرکہا التغير هي وحدها الجديرة بالمعرفة . ومعنى ذلك أن المعرفة التاريخية فاشلة لأنها تهدف إلى معرفة

Ibid, P. 27.

(٣٥)

Ibid, PP, 27 - 28.

(٣٦)



الظواهر التي يدركها التفسير<sup>(٧٧)</sup>. وقد فرق أرسطو في كتابه « فن الشعر » بين الشعر بوصفه التمثيل الأعل والتاريخ الذي يصور الأحداث الواقعة ، وأعل من شأن الشعر على حساب التاريخ<sup>(٧٨)</sup>.

لقد استخدم هيرودوت كلمة « إيسٿوريا » اليونانية عنوانا لكتبه التسعة ، وهي كلمة تعني البحث والاستفسار من أجل الفهم ، مما جعل المعنى يتركز على خاصيتين أساسيتين من خواص الفكر اليوناني القديم ، هما : المشاهدة والاستفسار . وبهذا نزل هيرودوت بالتاريخ من عالم الآلهة إلى علم إنساني يتم بالبشر ونشاطهم على الأرض . ولهذا السبب يعتبر إمام الدراسات التاريخية في التراث الأوروبي عامة . وكانت كتبه التسعة علامة على النقلة الوضعية الهامة في علم التاريخ من جهة ، ومنهج البحث التاريخي من جهة أخرى . ولأن كتاب هيرودوت كان يقوم على موضوع أساسي هو الحروب الفارسية التي كانت تعني بالنسبة له صداما بين حضارتين ، فإنه اهتم بأن يهيئ القارئ على ما يتعلق بهاتين الحضارتين . ولأن هذا العمل قد تم من منظور تاريخي / اجتماعي ، فإنه قدم لنا أيضا من المعلومات الممتعة والمفيدة عن شعوب شرق المتوسط ، وآسيا في القرنين السادس والخامس ق.م.<sup>(٧٩)</sup>

يبد أن انحياز هيرودوت للديمقراطية الأثينية جعل الجزء الذي كتبه عن الفرس يفترق إلى الدقة ، بحيث اختلطت فيه العناصر التاريخية بغيرها . كما أن الجزء الذي خصصه عن مصر يغفل بالكثير عما يدخل في باب الأسطورة والخرافة<sup>(٨٠)</sup> . يبد أن شهرة هيرودوت باعتباره أول من وضع أصول علم التاريخ في تراث الغرب الأوروبي ستظل باقية ، لأن اهتمامه بالمعطيات الجغرافية ، ومختلف أشكال التنظيم الاجتماعي ، وهادات وتقاليده الشعوب ، أكسب أعماله تلك الأهمية<sup>(٨١)</sup>.

وثاني المؤرخين الإغريق الكبار ، من حيث أهميته في تاريخ التاريخ ، هو ثوكيديدس Thucydides (٤٥٦ - ٣٩٦ ق.م تقريباً) الذي كتب تاريخ الحرب البيلونيزية بين أثينا واسبراطة . وقد تناول الأحداث التاريخية بجميع مختلف كثيرا من منجز هيرودوت ، إذ أنه تمل عن رواية القصص المسلية . . وأخذ يروي الأحداث التاريخية على النحو الذي يراه ، كما استبعد الأساطير والخرافات التي تضمنتها كتابات هيرودوت<sup>(٨٢)</sup> . فقد نزح هذا المؤرخ عن الكتابات التاريخية اليونانية غطاء الشعر الملحمي والغيبات الذي كان يجلبها ، وربط الأحداث التاريخية في علاقة سببية وضعية وسياق إنساني .

(٧٧) كوتلينججوه ، فكرة التاريخ ، ص ٧٢ - ٧٧ ، هيرودت يتحدث عن مصر ، ترجم الأعمشيت من الروايات صفر خليفة ولقد لما وفرحها أحد بدوي (غار العلم ، القاهرة ١٩٦٦م) ، ص ١٥ .

Finley, M.I., The Portable Greek Historians (New York. 14 th ed., 1973), PP. 1 - 9, Pansin.

(٧٨) أرسطو طالس ، فن الشعر - مع الترجمة العربية القديمة وفروخ القاراني وابن سينا وابن رشد ، ترجمة من اليونانية معطافرحن بدوي (الطبعة المصرية ١٩٥٢م) ، ص ٣٦ - ٣٧ .

Bornes, A History of Historical Writing, PP. 28 - 29.

(٨٠) أنظر : أحد بدوي ، هيرودت يتحدث عن مصر .

(٨١) روجيري ، للكتاب الكبير ؛ ص ٨٧ .

Bornes, OP. Cit., P. 30 .

وأهم أعمال ثوكيديديس كتابه «الحروب البلوونيزية» (٤٣١ - ٤٠٤ ق. م) الذي يغطي مجالا يضيئ كثيرا عن مجال كتاب هيرودوت. وتتمثل مساهمة ثوكيديديس في تاريخ الكتابة التاريخية في أنه أرسى أسس النقد التاريخي، وطور منهجا في البحث التاريخي على أساس أن قيمة الدراسة التاريخية لا تكمن في متعة التسلية التي يوفرها السرد القصصي، وإنما تتمثل في دقة الأسلوب. ويرى البعض أن ثوكيديديس يستحق أن يتيوا مكانه باعتباره مؤسس علم التاريخ بمعناه التقليدي والعلمي<sup>(٨٦)</sup> فقد أصر على نقد مصادره كما أدخل الوثائق ضمن النسيج الفعلي لروايته. ومن ناحية أخرى أوضح أن إرادة البشر عامل في صنع التاريخ.

وعلى الرغم من هذا كله، فإن كتابات ثوكيديديس لم تخل من بعض الأخطاء الفادحة فهو لم يستوعب مفهوم الزمن والتتابع الزمني للأحداث التاريخية، كما أنه لم يستطع أن يرى الأحداث في سياقها التاريخي الفعلي، وإنما قدم لنا صورا تبدو جامدة مثل الصور الفوتوغرافية.

وآخر المؤرخين الإغريق الكبار هو بوليبيوس (١١٧ - ١١٨ ق. م). ومن حيث إنتاجه في مجال التأليف التاريخي كان متفوقا على ثوكيديديس، ولكنه كان ندا له في تقرير الحقيقة التاريخية. وكتابه «التاريخ» مؤلف طموح في أربعين جزءا يتناول توسع الإمبراطورية الرومانية وتطور مؤسساتها حتى سنة ١٤٦ ق. م. ولأنه كان يونانيا قضى معظم حياته في روما، فقد تناول تاريخ الإغريق والرومان بروح محايدة.

وتتمثل مساهمة بوليبيوس في تقديم علم التاريخ في أنه سار خطوة أبعد من ثوكيديديس في مجال تطوير منهج البحث التاريخي. ففي الكراسي الثانية عشرة من كتابه نجد أول مقالة كبيرة عن مناهج البحث في علم التاريخ. وربما يكون من المفيد أن نقتبس بعض أفكاره، إذ يقول «علم التاريخ ذو أبعاد ثلاثة: أولا، التعامل مع الوثائق المكتوبة وترتيب المادة التي يتم الحصول عليها من هذا السبيل. ثانيا، الطبوغرافيا، أي مظاهر المدن والأماكن ووصف الأنهار والموانئ، وعموما، اللامح الميزة للبحار والبلاد، ومسافاتها. ثالثا، الشؤون السياسية ثم يتحدث عن المنهج الذي ينبغي استخدامه حتى تصبح الدراسة التاريخية دراسة مثمرة»<sup>(٨٧)</sup>

وهكذا أعطى بوليبيوس لتسلسل الأحداث التاريخية قيمة نفعية، وأبرز أن البشر، بسلوكهم وأخلاقيهم، أصحاب دور متفوق في صنع التاريخ. وقد أوضح، أيضا، أن سيطرة الرومان على العالم تعود إلى أسباب إنسانية بعثة هي «ترتيبهم لأنفسهم عن طريق غارات واسعة ومجازفات خطيرة»<sup>(٨٨)</sup>

Barnes, A Hist., PP. 30 - 31.

(٨٦) ويجهري، اللغاب الكبرى، ص ٨٤.

Barnes, A Hist., PP. 33 - 34

(٨٧)

(٨٨) ويجهري، اللغاب الكبرى، ص ٩١ - ٩٢.

أما مساهمة الرومان في مجال الفكر التاريخي فلم تكن ذات بال، ومثلها كان الحال في مختلف جوانب الثقافة والفكر، كان الإغريق أساتذة الرومان أيضا في مجال الفكر التاريخي. والدليل الواضح على أن تراث الفكر التاريخي الروماني كان فرخا من أفرخ الفكر التاريخي الإغريقي هو أن معظم الكتابات التاريخية الرومانية، حتى القرن الثاني ق.م، كتبت باللغة اليونانية.

وفي ظل الامبراطورية الرومانية كانت المعرفة التاريخية تُخدم أغراضا عملية بحتة، إذ كانت الحوليات الرومانية *Annales* عبارة عن سجلات للأحداث في تتابع زمني، وتتضمن أسماء الموظفين والجوائز التي منحت في المسابقات الرياضية المحلية، والاتفاقيات التي عقدت، أو الحروب التي تم خوضها. وكان كتاب تلك الحوليات يدونونها لكي تكون مرجعا لاستقاء المعلومات عند الضرورة.<sup>(٨٧)</sup> لقد كان الرومان يتمتعون بالإنجازات العلمية أكثر من التاملات العقلية، ولذلك اهتموا بهذه الحوليات.<sup>(٨٨)</sup>

وكانت حوليات فايوس بكتور Fabius Pictor (ولد سنة ٢٥٤ ق.م) من أوائل هذه الحوليات الرومانية. بيد أن أول مؤرخ روماني كبير، بمقاييس عصره، كان الفيلسوف الروماني الشهير يوليوس قيصر (١٠٠ - ٤٤ ق.م) الذي تميزت كتاباته بالدقة والوضوح، كما أن أسلوبه يتسم بالقوة والمباشرة. وكان كتابه عن «الحرب الأهلية» و«حرب بلاد الغال» من أفضل كتب المذكرات العسكرية في العالم القديم.

أما سالست<sup>(٨٩)</sup> Gaius Sallustius Crispus (٨٦ - ٣٤ ق.م) فيمكن اعتباره التحليل الروماني لتوكيديديس. ومؤلفه الأساسي عن تاريخ روما (٧٨ - ٦٧ ق.م) ضاع ولم يصلنا. ولكن رسالته *Monograph* عن «مؤامرة كاتيلينا» ورسالته عن «الحرب البونيقية» تكشفان عن قدرة على تحليل الشخصيات والقوى السياسية. بيد أنه أهمل العنصر الزمني كما أهمل الجغرافيا بشكل أثر سلبيا على مؤلفاته. وقد تناول سالست التاريخ باعتباره فرعا من فروع علم الأخلاق، وكان له تأثير طامخ على مؤرخي العصور الوسطى.

ويأتي ليفيوس<sup>(٩٠)</sup> Titus Livius (٥٩ ق.م - ١٧ م) باعتباره واحدا من أهم المؤرخين الرومان، بل إن بعض الباحثين يصفونه بأنه مؤرخ روما الوطني، ويأنه واحد من أعظم رواة القصص في كل العصور. ويتناول مؤلفه، الذي يعتبر ملحمة نظرية ضخمة، تطور الدولة الرومانية العالمية. وقد اتخذ ليفيوس من البلاغيين الإغريق قدوة له. وكان هدفه من تأليف هذا الكتاب تمجيد روما وإن يبيت في الشباب روح الولاء لروما والتفاني من أجل رفعتها. ويشوهه عدم الدقة في استخدام المصادر، فقد وجد أمامه عددا من الأساطير فضمهم روايته التاريخية، وعادت الألفة

(٨٧) بوجل سيالي، للمؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة قسم عهد قسم (ط). الثانية دار المعارف، ص ٢١.

(٨٨) روجري، المقاصد الكبرى، ص ٩٠ - ٩١.

(٨٩) سيالي، للمؤرخون في العصور الوسطى، ص ٢٥ - ٢٦.

(٩٠) كوليبيوس، فكرة التاريخ، ص ٨٥ - ٩١، سيالي، للمؤرخون في العصور الوسطى، ص ٢٤ - ٢٥، روجري، المقاصد الكبرى، ص ٩٨ - ٩٩.

Barrow, OP.Cit., P37

مرة أخرى نطل من روايته وتتدخل في شئون البشر اليومية . وقد اعتمد ليفيوس على كتابات المؤرخين السابقين وعلى المسجلات التي حفظت تاريخ روما الباكر ، وكان يعتقد أن نجاحه يعتمد على ما أوتي من صفات الأدب . ولكن الجديد في كتابته أنه سرد تاريخ روما منذ نشأتها ، وكان في ذلك معبرا عن الرومان الذين اعتقدوا أن تاريخهم فقط هو الجدير بالتدوين لشفتهم في تفوقهم على الشعوب الأخرى .

أما آخر المؤرخين الرومان الكبار فهو تاكيتوس ( Publius Cornelius Tacitus ) ( ٥٥ - ١٢٠ م تقريبا )<sup>(٩٠)</sup> الذي كان واحدا من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني Senato وكان من أنصار الجمهورية ، فتميزت كتاباته ضد الإمبراطورية . أهم مؤلفاته « الحوليات » التي تتناول الفترة ما بين موت أغسطس حتى سنة ٦٩ ميلادية ، « والتواريخ » الذي يبدأ بأزمة سنة ٦٩ م ويغطي فترة حكم الأباطرة من أسرة فلافيوس . وبالإضافة إلى مؤلفاته ( التاريخية ) الخالصة ، يعتبر كتابه عن الجرمان واحدا من أوائل المؤلفات في الأنثروبولوجيا الوصفية في تاريخ الثقافة الغربية ، فهو المصدر الوحيد عن عادات وتقاليد ومؤسسات الجرمان الاجتماعية في تلك الفترة الباكرة من تاريخهم . ويمكن تقييمه في مكانة وسطى بين بوليبيوس وليفيوس .

ومن خلال متابعة التراث التاريخي للرومان نكتشف أن مؤرخيهم انفتحوا إلى الأصالة من ناحية ، وكانوا باستمرار تحت وطأة التراث الإغريقي من ناحية أخرى<sup>(٩١)</sup> لقد كان المؤرخون الرومان تلامذة حقا على تراث التدوين التاريخي الإغريقي ، بيد أن الموضوع المفضل بالنسبة لهم جميعا كان تاريخ روما ، من حيث أصولها وتوسعها ، ومن حيث سير المشاهير فيها من القادة السياسيين والعسكريين . ولم يلق المؤرخون الرومان بالا إلى تواريخ الشعوب الأخرى .

أما وظيفة التاريخ الثقافية/ الاجتماعية ، فكانت تنحصر في إعداد المرء للحياة السياسية والعسكرية . وقد أثر هذا بالضرورة على مناهج الدراسة التاريخية بشكل سلبي ، فقد كان التاريخ نوعا من التأليف الأدبي ويستخدم للقراءة أو السماع . وكان التاريخ في النظام التعليمي الروماني يعد فرها من فروع البلاغة التي تؤهل الطالب في المدارس العليا للخطابة في المجالس العامة ، أو في ساحات القضاء ومن ثم فإنه يجب أن يتسلح بالأمثلة التاريخية باعتبارها أفضل الوسائل لجلب انتباه السامعين .<sup>(٩٢)</sup>

(٩٠) انظر لقائمة التي كتبها ( ماتينجلي H. Mattingly ) للترجمة الإنجليزية لكتابه *Germania, Agricola* :

Tacitus, *The Agricola and the Germania*, Transl. and edited by H. Mattingly (Penguin Classics, 1970).

انظر أيضا مقدمة كينيث ولسلي في مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتابه *التواريخ* :

Tacitus, *The Histories*, transl and edited by Kenneth Wolsley, (Penguin Classics 1974), Barnes, A Hist. of Historical Writing, P. 38.

(٩١) سيال ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٢١ - ٤٨ - 37 ، Barnes, op. Cit., وبجري ، للمعجم الكبير ، ص ٩٩ - ١٠١ .

(٩٢) سيال ، للمؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٢١ - ٢٥ ، ( Arthur Marwick, *The Nature of History*, ( Macmillan, London 1973 ) ، P, 26.

وقد أثر هذا ، بالضرورة ، على منهج الكتابة التاريخية وأسلوبها ، إذ ترسخت بعض التقاليد الأدبية التي تميز عمل المؤرخ أن يتبعها على حساب الحقيقة التاريخية . فقد كان على المؤرخ أن يجعل شخصيات مؤلفه تنطق بخطب أو كلام من تأليفه . كما كان تغيير التواريخ الواردة في النصوص الأصلية أمرا واردا ، فضلا عن أن نسخ المراسيم والمعاهدات كانت غير مستحبة لأنها تكسر النسق البلاغي للقصة التاريخية .

وفي الفترة التي اصطلح على تسميتها « العصور الوسطى الباكزة » ، وهي الفترة التي أعقبت العصر الكلاسيكي ، انحصرت كتابة التاريخ بشكل يكاد يكون تاما في الحوليات التي انفتحت إلى عنصر التحليل ، بل وغلت من السرد التاريخي . وعلى الرغم من أن مؤرخي العصور الوسطى غالبا ما يظهرون إحساسا بالمفهوم التاريخي أعمق مما يصفه بهم مؤرخو الكتابة التاريخية ، فإنهم خلطوا بين أفعال الإنسان وأفعال الرب والقدسين . في مؤلفاتهم بشكل مثير (١٣)

لقد أخذ المؤرخون الأوربيون في العصور الوسطى المحتوى والأسلوب عن الكتاب المقدس ، وكانت تلك قيودا شديدة كبلت البحث التاريخي والكتابة التاريخية طوال العصور الوسطى ، ولأنهم لم يتمكنوا من تطوير مناهجهم الخاصة ، فقد أدخلوا أشكال وأنماط التدوين التاريخي من الرومان . ولم يكن هناك أي تأليف حقيقي في مجال التاريخ ، وإنما كان ما يجتث نوعا من الجمع وصَبَّها في قوالب معدة سلفا . ولم يكن مؤرخو العصور الوسطى جاهلين بالحقيقة ولكنهم كانوا يكتبون ما ينبغي عليهم كتابته حتى يوافق النموذج السائد ، سواء من حيث المحتوى المسيحي ، أو من حيث الشكل والنمط الروماني .

لقد كان المؤرخ في العصور الوسطى يهد نفسه أمام تراثين مختلفين في مجال كتابة التاريخ ، فهما هي الناذج والأنماط وقواعد التأليف الكلاسيكية ماثلة أمامه من ناحية ، وهما هو النظام المسيحي لتقسيم الزمن التاريخي ، وتصوره لحركة التاريخ التي تحكمها العناصر الغيبية وفكرة التاريخ الغائبة في ألتراث اليهودي/المسيحي من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الرومان القدماء قد ضمّنوا كتاباتهم عناصر غيبية باعتبارها تدخلها من الآلهة الرومانية في شئون البشر ، فإن العناصر الإلهية والغيبية في إطار فكرة التاريخ المسيحية لم تدخل في بناء الرواية التاريخية فحسب ، وإنما كانت تتحكم في سياق الرواية التاريخية أيضا . ذلك أن العناصر الغيبية في المفهوم المسيحي راسخة ومحددة ، فالرب هو خالق العالم و« كاتب » تاريخه أيضا ، ولا بد لاية كتابة تاريخية أن توائم نفسها مع هذا المفهوم الذي تصور أن التاريخ يجري في قالب محدد سلفا ولا دخل للإنسان في صناعته .

وقد نكفل أوغسطين Aurlus Augustinus (٣٥٤ - ٤٣٠ م)<sup>(٩١)</sup>، المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية، بالترويج

لفكرة التاريخ الكاثوليكية، والتقسيم الزمني المسيحي لتاريخ العالم.<sup>(٩٢)</sup> لقد قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة قياساً على عمر الإنسان بمرحلة الست من الطفولة إلى الموت، وقياساً على الأيام الستة التي خلق الله العالم فيها من ناحية أخرى. ولسنا هنا بصدد مناقشة أفكار أوغسطين التي يمكن بحثها في إطار تاريخ فلسفة التاريخ، بيد أننا نود أن نشير إلى أن سيطرة مفهوم العصور الستة على الكتابة التاريخية في أوروبا العصور الوسطى جعل مؤرخي العصور الوسطى يركزون تحت وطأة صرامة قائمة للتاريخ الإنساني الذي صورته المسيحية على أنه مأساة مستمرة تنتهي بالخلاص. وكان لا بد لأولئك المؤرخين أن يضعوا مؤلفاتهم داخل إطار هذا التصور.

ولذا دققنا النظر في إنجازات مؤرخي العصور الوسطى، لوجدنا أنهم وجهوا طاقاتهم صوب كتابة ما يمكن أن نسميه «التاريخ المعاصر»، أي الحوادث الجارية وهم شهودها. إذ أن كتابة تاريخ الماضي كانت بالنسبة لهم مجرد النسخ والجمع. أما الدراسة النقدية للماضي، فكانت تتطلب من مناهج البحث ما كانوا يفتقرون إليه بسبب طبيعة الفكر السائد في مجال الكتابة التاريخية آنذاك. ففكرة التاريخ المسيحية تقوم على أساس أن الناس في التاريخ يخضعون لسلطة أهل متهم، وحركتهم في التاريخ مجرد تنقيذ للإرادة الإلهية<sup>(٩٣)</sup>.

ومن ناحية أخرى كان أهم المؤرخين في العصور الوسطى من رجال الكنيسة الذين تولوا الزمام في الحياة الفكرية عموماً، وكان الرهبان منهم على وجه الخصوص هم الذين كتبوا المؤلفات التاريخية.<sup>(٩٤)</sup> لقد كانت القرون الأولى من العصور الوسطى فترة ذبول وتدهور في مجال الكتابة التاريخية وفهم الحركة التاريخية، لذلك فإن من كتبوا التاريخ في تلك الفترة ضمنوا كتاباتهم عناصر غيبية لعبت الدور الحقيقي في توجيه أحداث التاريخ، كما شابت مؤلفاتهم عناصر ثقافية فجة نتيجة لدخول العناصر الجرمانية في التركيبة السكانية لأوروبا.

E. K. Rand, *Founders of the Middle Ages*, (Dover, New York 1967), 241 - 284, Cantor, N. F., *The Medieval World*, 2nd ed. (Macmillan, London 1968), PP. 37 - 45,

على الدبراوي، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبي البسيط، ط. ثانية (القاهرة ١٩٨٧ م)، ص ٦٠ - ٦٢، ويريل ميلال، المؤرخون في العصور الوسطى، ص ٣٨ - ٤٠، ويديري، فلاسفة الكبري، ص ١٤٩ - ١٥٢.

(٩٥) قسم أوغسطين تاريخ العالم إلى ستة أقسام على الأيام التي خلق الله العالم فيها وجعل يوماً سابعاً يمثل يوم السبت الذي خصمه الرب للراحة. هذه الأقسام التي وضعها أوغسطين هي:

- ١ - من آدم إلى الطوفان.
- ٢ - من الطوفان إلى إبراهيم.
- ٣ - من إبراهيم إلى داود.
- ٤ - من داود إلى الأسر البابلي.
- ٥ - من الأسر البابلي إلى مجيء المسيح.
- ٦ - من مجيء المسيح إلى عصر أوغسطين. وقد تصور أوغسطين أن القسم الأخير فترة بسيطة بعدما يتبعى العالم، ثم يفي اليوم السابع الذي يلحق به البشر إلى السوء.

(٩٦) ميلال، المؤرخون في العصور الوسطى، ص ٣٢، ويديري، فلاسفة الكبري، ص ٥٤ - ١٥٥.

Barnes, A. *Hist. of Historical Writing*, P. 88.

(٩٧)

وقد عرفت المصور الوسطى عدة أنماط من الكتابة التاريخية . فقد وجدت المدونات التاريخية *Chronicles* لتقوم بدور السجلات ، كما كان عامل الفخر بالماضي حافظاً على ظهور تواريخ خاصة ببعض الأسر الإقطاعية ، أو بعض الأديرة ، أو المدن . بيد أن هذا النمط لم يتضمن سوى قدر ضئيل من البحث في شئون الماضي . لأن الدعاية كانت من ضمن العوامل التي حكمت للتدوين التاريخي في المصور الوسطى ، فقد تجلت في أشد صورها فظافة وخشونة في السير الملكية ، إذ كانت أية سيرة ملكية عبارة عن مؤلف دعائي بكل معنى الكلمة<sup>(٩٥)</sup> .

وقد شابت إنجازات مؤرخي المصور الوسطى إلى حد كبير عيوب تتمثل في قلة وسائل البحث وغياب الوعي ، والإيمان الأعمى بروايات شهود العيان . كما أن كتاباتهم ضمت عناصر غيبية اعتقدوا أنها من عوامل صنع التاريخ وجعلوها من وسائل السببية في الظاهرة التاريخية . وعلى الرغم من هذا ، فإنه من العدل أن نشير إلى أن مختلف مناج البحث التاريخي في المصور الوسطى كان ناتجاً عن ظروف المجتمع الأوروبي نفسه في ذلك الحين ، إذ أن إهمال الحضارة الرومانية ، ثم الغزوات الجرمانية ، قد أنتج العنف والفوضى . وتدهور التعليم بحيث فقد أصالته وحماسته ، أو انتهى تماماً في بعض المناطق . كما أن التعصب المسيحي الكاثوليكي تسبب في ضياع الكثير من كنوز التراث الكلاسيكي . ومن جهة أخرى ازدادت صعوبة السفر وخطورته ، فضلاً عن ارتفاع تكاليفه بشكل أثر على مجال الفكر وتسبب في ضيق الأفق<sup>(٩٦)</sup> . ولذلك انحصر التعليم في الأديرة بشكل يكاد يكون مطلقاً وكان الرهبان يتولون كتابة التاريخ ، وقد أثرت انحيازاتهم الدينية وأفكارهم الغيبية على الكتابة التاريخية . وحقيقة أن الأديرة قد أنتجت معظم مؤلفات التراث التاريخي وهي التي صيغت المؤلفات التاريخية الأوروبية في المصور الوسطى بهذه الصبغة الغيبية<sup>(٩٧)</sup> .

لقد كان مؤرخو المصور الوسطى يكتبون وفي ذهنهم أن يجدوا الرب . كما أن المناهج التي استخدموها كانت بالضرورة متأثرة بدرجة تعليمهم وعلاقاتهم والمكتبات المتاحة لديهم . كذلك كان كثير منهم يكتبون لإرضاء الأمير أو الأسقف أو الملك الذي يعيشون في كتفه ويحت حمايته ، ويعولون على جمهور صغير المند من معارف حاميه أو من معارفهم وأصدقائهم . وكانت هذه الظروف من أهم حقائق انطلاق مناهج البحث التاريخي نحو العلمية والمغالاة ، بالإضافة إلى أن ظروف الحياة الفكرية والعلمية عموماً كانت تعوق مثل هذا الانطلاق ، إذ لم تكن ثمة علوم طبيعية متقدمة تدحض أخبار المعجزات من ناحية ، ولم تكن هناك علوم اجتنابية تقوم بنقد عادات وتقاليد المجتمع<sup>(٩٨)</sup> .

(٩٨) انظر على سبيل المثال السيرة التي كتبها إلهارد *Einhard* (ت ٨١٠ م) لشارلمان *Einhard and Nother the Stammer, Two Lives of Charlemagne*, (Transl. By Lewis Thorpe, Penguin 1974).

*Royal Biographies*

انظر بالتفصيل عن ذلك سبيل ، المؤرخون في المصور الوسطى ، ص ٦٧ - ٨١ . ومن ثم أن نشير إلى أن هذا النمط من التأليف التاريخي قد انتشر فيما بين سنة ٨٠٠ إلى ١١٥٠ م بشكل كبير .

(٩٩) تأسس معهد لاسم ، الخليفة الأيبوريونية للحروب الصليبية - دراسة من سلسلة الأولى ، (الطبعة الثانية - الكويت ١٩٨٨ م) ص ٩٤ - ١٠٠ .

*Bernes, Op. Cit. PP. 96 - 97*

*Bernes, Op. Cit. PP. 97 - 98*

(١٠٠)

(١٠١) سبيل ، المؤرخون في المصور الوسطى ، ص ١٣ - ٢٠

لقد كان منهج البحث لدى مؤرخ العصور الوسطى بسيطاً بقدر بساطة مهمته في تدوين تاريخ الفترة التي عاصرها . وقد تعلم من إيسيدور الأشييلي<sup>(١٠٠)</sup> أن كتابة التاريخ السابق على عصره تعني مجرد النسخ من مصادر سابقة . كما أن أرووسوس<sup>(١٠١)</sup> وضع نموذجاً قياسياً للتاريخ العالمي رتبته حسب تقسيم أوطسطين للزمن . أما الرسالة ذات الموضوع الواحد ، والسبر ، والمرائي فكانت ضمن أبحاث التأليف التاريخي التي تأثرت بنهاج قديمة موروثة عن العصور الكلاسيكية .

من ناحية أخرى ، كان اعتماد مؤرخي العصور الوسطى على مصادرهم كبيراً جداً ، ولذلك كانت شخصيات العصور القديمة وشخصيات المقدس تظل علينا من بين سطور المؤلفات التاريخية في العصور الوسطى . أما أصحاب النزعة التأملية من مؤرخي تلك العصور ، فقد اتجهوا مباشرة إلى المدارس الدبرية أو مدارس الكاتدرائيات ، أو الجامعات حديثة النشأة . وظلت الدراسة التاريخية رهينة هذه الظروف والأطر الجامدة في أوروبا العصور الوسطى فترة طويلة .

وفي وسط هذا الجو يقف أوتو أسقف فريزيا Otto of Freising (ت ١١٥٨ م) وحيداً باعتباره مؤرخاً له أفكاره من علم التاريخ ، وهي أفكار أتبع له أن يختبرها في ضوء خبرته العملية . وأهم مؤلفاته التاريخية كتابان يتصفان بقدر كبير من العقلانية وتغلب عليهما النزعة الفلسفية ، أولهما كتاب (المدينتين) الذي كتبه سنة ١١٤٦ م ، وهو عبارة عن مسح مغرط في التشائم لتاريخ العالم تحت تأثير فكر أوطسطين . وفي هذا الكتاب أوضح أوتو الفريزي أن تاريخ الممالك العلمانية يكاد ألا يكون شيئاً غير سجل للجرائم الكريهة . أما كتابه الثاني ، فهو (أهبال فردريك بربروسا) ، وقد عكف على كتابته حتى موته وأكماله سكرتيره رايفين . وهذا الكتاب أكثر نقاشاً ويؤمن بالسجيا الأخلاقية للدولة<sup>(١٠٢)</sup> .

ويمكن للمرء أن ينتقل متشياً بين صفحات المذونات التاريخية والحوليات التي دونها مؤرخو العصور الوسطى ، باعتبارها مصادر للمادة التاريخية . بيد أنه في الوقت نفسه سوف يفقد أي وعي أو إدراك عند أولئك المؤرخين بوظيفة التاريخ في خدمة الحاجات الثقافية والاجتماعية .

وبنهاية القرن الثالث عشر حدثت تطورات جديدة في مجال الكتابة التاريخية<sup>(١٠٣)</sup> . لقد شهد القرن الرابع عشر بداية ظهور المؤلفات التاريخية المكتوبة في اللغات المحلية . وفي هذا القرن أيضاً صار المؤرخ العلماني - سواء كان

(١٠٢) اسمة اللاتينية Isidorus Hispalensis (٥٧٠ - ٦٤٦ م) . ويعد من أهم المساهمين في التراث الفكري الغربي من القرن الرابع حتى القرن الثامن . وكان لإيسيدور تأثير كبير على التعليم في أوروبا العصور الوسطى المبكرة وعلى الحياة الثقافية بوجه عام . وقد وضع عدة مؤلفات في التاريخ أهمها المذونات Chronica التي عرض فيها لتاريخ العالم منذ البداية حتى عصره . أنظر :

Cantor, N.F., The Medieval History - the life and Death of a Civilization, 2nd. ed., (New York 1969), PP. 68 - 9.

على العكس ، مدخل إلى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١١١ - ص ١١٢ .

(١٠٣) كتابات أرووسوس وتأثيرها على نتائج البحث التاريخي في العصور الوسطى انظر : سيلي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ٤٨ - ص ٥٠ .

(١٠٤) فوردان ككتور ، التاريخ الوسيط ، ترجمة قاسم عبد قاسم (دار المعارف ١٩٨٣ م) ج ٢ ، ص ٥٣٧ - ص ٥٤٠ .

(١٠٥) سيلي ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ١٧٩ - ص ١٨٧ .



جنديا أو موظفا مدنيا - في المقدمة نتيجة لعدة تطورات على الصعيد السياسي والفكري والاقتصادي والاجتماعي في أوروبا آنذاك . ولدينا أمثلة على ذلك « حياة القديس لويس » التي كتبها جوفانفيل Joinville<sup>(١٠٧)</sup> عن حياة الملك لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية السابعة ضد مصر والمنطقة العربية ، والمُدونة التاريخية التي كتبها القائد العُقلاني (رومان مونتاز Roman Montanz) ومُدونة Scalachronicon الأنجلو- نورمانية ، ومُدونة فرويسار Froissart عن الحروب الأنجلو/فرنسية ، ومُدونات فيلاتي هن فُلوورنسا . . وغيرها .

ومن ناحية أخرى كان « للحروب الصليبية » أثرها على التدوين التاريخي في أوروبا العصور الوسطى .<sup>(١٠٨)</sup> إذ كان المؤرخون الأوروبيون ، حتى عصر الحروب الصليبية ، أسرى الأطر القديمة التي ورثوها عن الرومان ، والمفاهيم الغيبية التي ورثوها عن الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وكانت الحروب الصليبية تجديدا تاريخيا كبيرا في الحضارة الغربية الكاثوليكية . وبسبب ما تتسم به قصة الحروب الصليبية من جلة وطراقة ، وما تحفل به من إثارة تحورت كتابة التاريخ في أوروبا من الاحتداد على تقليد النماذج القديمة . ولأن العصور القديمة لم تشهد حركة تشبه الحركة الصليبية ، كان عليه أن يبحث عن منبع يناسب القصة الجديدة . وهكذا صارت الكتابة أقل فطرية وأكثر تلقائية ، واتسعت مساحة الفعل الانساني في الرواية التاريخية على الرض من أن الرب والقديسين كانوا ما يزالون يجاربسون أوارهم الحامسة في الرواية . كذلك اكتسب مؤرخو الحركة الصليبية خبرات جديدة ، سواء على المستوى المعرفي أو على مستوى المنهج . لأهم كانوا في حال تمكّنهم من التعرف على حضارتين في مرحلة الصدام والتفاعل .

لقد أنتجت « الحروب الصليبية » كُتّابا علمائين ، كما تطور الأدب العلماني بفضلها . وكان النمط الجديد من التدوين التاريخي الذي أوجدته الحروب الصليبية مناقضا للتدوين التاريخي الكنسي من عدة وجوه ، وفي الوقت نفسه ، كان هذا النمط من التدوين التاريخي يبدأ بتناول الحقائق ويبحث عن الأسباب الوضعية ، بيد أن الروايات الغيبية في تفسير الحدث التاريخي كانت ما تزال موجودة . وإذا كان الوجود الصليبي في المنطقة العربية قد انتهى بالهزيمة ، فقد كانت لهذه الهزيمة انتصاراتها في ميدان التدوين التاريخي . لقد أخذ مؤرخو الحروب الصليبية ، الذين كتبوا عن الفشل والهزيمة ، يبحثون عن الأسباب . ولم يعد التدهور الأخلاقي والمعقاب الإلهي كافيًا لتفسير ذلك فقد أخذوا جميعا يفتشون في الأحداث التاريخية نفسها عن السبب البشري والعوامل الإنسانية الكامنة وراء ما يسجلونه من أحداث .<sup>(١٠٩)</sup>

بيد أن التدوين التاريخي في أواخر العصور الوسطى اعترته تطورات هامة ، نتيجة لتغير موقف الناس من الماضي . فمن يلدوس تراث التدوين التاريخي في العصور الوسطى يجد نفسه وقد اعتاد الحياة في عالم فكري شخصياته كلها تتميز بالاستمرارية من الماضي السحيق حتى الحاضر . ففي صفحات كتب مؤرخي العصور الوسطى يستطيع

(١٠٦) انظر نص هذه السيرة الملصقة في الترجمة الانجليزية، ( Penguin Classics، Joinville and Villehardouin; Chronicles, of the Crusades، 1973 ).

(١٠٧) للسيرة هذه للسيرة، الحروب الصليبية - لصوص ولاتي (الطبعة ١٩٨٨ م) ، ص ٢٥ - ص ٣٧ .

(١٠٨) سيغال ، المؤرخون في العصور الوسطى ، ص ١٢٧ - ص ١٥٨ .

المزم أن يحاور آدم وحواء ، أو يوليوس قيصر ، أو شارلمان ، كما لو كانوا من جيرانه . وهو ما يعني أن الماضي كان موجودا ومستمرا في الحاضر بشكل مثير . وكان ذلك راجعا إلى عدم إدراك صيرورة الزمن من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان راجعا إلى تخلف مناهج البحث التاريخي التي كانت تحاول قبولية الأحداث التاريخية داخل القالب الذي وضعه أوغسطين ، أو الأماط الكلاسيكية . فقد كان مؤرخ المصور الوسطى يتصور أن الماضي شبيه بالحاضر .

ولكن القرن الرابع عشر شهد انكسار هذه الاستمرارية ، ولم تعد المسألة مسألة انحدار من عصر أفضل إلى عصر أسوأ . وفي الكتابات التاريخية ، العلمية والكنيسة على حد سواء ، كان التناقض بين الماضي والحاضر يبدو كثيرا بحيث يحول دون الاعتماد باستمرارية الماضي . وكان المؤرخون « الإنسانين » في القرن الرابع عشر وما بعده هم أصحاب الفضل في هذا الانحطاط .

لقد كان الماضي موجودا بالفعل في كتابات مؤرخي المصور الوسطى ، ولم يكن للمؤرخين الإنسانين فضل اكتشاف الماضي من جديد ، ولكنهم نقلوا علم التاريخ نقلة نوعية هامة عندما حاولوا التماز منظور بمالجون به تاريخ هذا الماضي . ويبدو منظور الإنسانين للتاريخ خاطئا اليوم ، إذ كانت أحكامهم على الماضي مشوشة ، ولكن مساهمتهم في تطور الدراسة التاريخية ومناهجها كانت كبيرة بالقدر الذي يجعلنا نقر أن التدوين التاريخي بدأ في القرن الرابع عشر .

ومن المهم أن نشير إلى أن البحث الحديث أثبت أن الفترة التي اصطلح على تسميتها « عصر النهضة » Renaissance قد خرجت تدريجيا من تراث المصور الوسطى ، إذ أنها في حقيقتها كانت حركة إحياء للاهتمام بالثقافة القديمة . وفي معناها العريض يبدو أن تسمية هذه الحركة ، في جانبها الأدبي ، بالإنسانية Humanism يبدو أكثر إقتناعا .

ومعنى هذا أن الحركة لم تكن مجرد ( إحياء ) للأدب الكلاسيكية ، ولكنها كانت أيضا حركة تعيد الاعتبار لاهتمامات الإنسان ومصلحته ورويته العلمية على النحو الذي كان سائدا في الثقافة الكلاسيكية . لقد كانت في أصلها رد فعل عاطفي شاعري في مواجهة الموقف المترتب للفقير لرجال الكنيسة اللاهوتيين ، ولكنها لم تؤسس أية ثورة في اللاهوت أو الفلسفة الاجتماعية ، وكان الإنسانين مرحلة وسطى بين ( المدرسين ) الذين عرفتهم المصور الوسطى ، والفلاسفة الاجتماعيين والنقاد للمحدثين<sup>(١٩)</sup> .

وكان لهذه الرؤية الجديدة تأثيرها البطيء والجزئي على مناهج الدراسة التاريخية . وكشف تراث التدوين التاريخي في القرن الرابع عشر عن أن ثمة تغير في مناهج البحث وفي المنظور قد بدأ يفرض نفسه ، بيد أن المناهج والأفكار القديمة كانت ما تزال سائدة . فقد استمرت هذه الأفكار القديمة في الوجود أكثر من ألف سنة ، وهي حقبة طويلة في تاريخ الفكر لا يمكن أن تتمحي آثارها ببساطة .

وقد كانت هناك فروق كبيرة ونوعية في طبيعة ونوعية إنتاج مؤرخي تلك الفترة ، بيد أنه كانت هناك خصائص أساسية في الكتابة التاريخية . فقد كانت النزعة الإنسانية في مجال كتابة التاريخ تهيئ في المحل الأول البحث عن النصوص الأصلية الكلاسيكية ، ثم المقارنة والنقد وضبط النصوص المكتشفة . وقد نشأ عن التناول النقدي للنصوص الكلاسيكية إحساس أولي بقيمة الدراسة النقدية للوثائق التاريخية<sup>(١١٠)</sup> وكانت تلك خطوة هامة في سبيل نقل مناهج البحث في الدراسات التاريخية إلى آفاق أخرى غير الإيمان المطلق بالمصادر على نحو ما كان سائدا في العصور الوسطى .

لقد تحول الإنسانيون مرة أخرى صوب نموذج المؤرخين الكلاسيكيين . وغثلت أهم إنجازاتهم في المنهج العقلي العلماني الذي عالج مسائل كانت تعد من قبل جزءا من الأسرار الإلهية ، كما أنهم نجحوا في تطوير شكل من أشكال الدراسة النقدية للتاريخ . وعلى أية حال ، فإن فكرة المواقف التي تحوي الشروح والتعليقات كانت إنجازا لمؤرخي أوروبا في العصور الوسطى<sup>(١١١)</sup> وأغلب الظن أنهم تعلموها من المسلمين . وقد استُخدم فاللا Valla (١٤٠٧ - ١٤٥٧ م) هذا المنهج لكشف زيف (هبة قسطنطين) الشهيرة والتي أقامت عليها الكنيسة مزاعمها طوال العصور الوسطى في نزاعها ضد الدولة .

لقد كانت ظروف التطورات التي مرت بها أوروبا آنذاك من أهم عوامل تطور الدراسات التاريخية . وذلك أن حركة الكشوف الجغرافية خلقت طلبا على المعلومات الجغرافية والتاريخية أيضا ، كما أن اختراع الطباعة أعطت دفعة قوية لوسائل الاتصال المكتوبة وقد شهدت أوروبا ثورة علمية وفكرية أدخلت تنصاعدا حتى تبلورت في رجل مثل اسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧ م) فقد أدرك المفكرون والعلماء حقيقة التغير واهتموا بها ، وكان تعلم التاريخ شأنه في هذا المجال أيضا<sup>(١١٢)</sup> وقد أدت التطورات التي لا يتسع المقام للذكرها إلى أن أصبح التاريخ لدى الإنسانيين (تاريخيا) ، بمعنى أن تركيز الإنسانيين على ثقافة فترة مضت منذ زمن بعيد قد كسر إطار « التاريخ المعاصر » الذي كان مؤرخو العصور الوسطى يحصرون أنفسهم في نطاقه ، كما تخلوا عن تقليد النماذج الكلاسيكية في شكلها ، وإن أخذوا عنها اهتمامها بالإنسان . ومن الواضح أن الإنسانيين أدخلوا على الكتابة التاريخية مزيدا من التحسينات الأدبية والفكرية ، ولكن تقدمهم في مجال مناهج البحث كان أبطأ وأقل كفاءة . فالواقع أنهم كثيرا ما انتهكوا الحقائق التاريخية لكي تتوافق مع مقتضيات البلاغة وسياق الأسلوب الأدبي .

ويمكن ملاحظة الانتقال في الأنماط والمناهج في كتابات المؤرخين الإنسانيين متجسدة في كتابات البريتوس موساتوس Albrecht Dürer (١٤٦١ - ١٥٢١ م) ، فقد كتب بلغة لاتينية كلاسيكية متنازعة عن الحوادث التاريخية وزعماء إيطاليا عند مطلع القرن الرابع عشر . ويعتبر (فرانشيسكو بترارك) بمثابة الأب الحقيقي للمذهب

Burnes, A Hist. of Historical Writing, P. 99.

(١١٠)

Arth Marwick, the Nature of History, PP. 26 - 29.

(١١١)

Arthur Marwick, Op. Cit. P. 28.

وينجري ، المذهب الكبير ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(١١٢)

الإنساني في إيطاليا، والكتابة التاريخية الإنسانية أيضا. إذ كان يحسك بأعنة اللغة اللاتينية الكلاسيكية، وتركز اهتمامه بالتاريخ في مجال الفكر والثقافة. وقد ألف كتابا عن تاريخ روما تناول فيه تراجم حوالي واحد وثلاثين بطلا تقليديا من أبطال التاريخ الروماني، من رومولوس إلى يوليوس قيصر. وبينما تشكك بترارك كثيرا في أساطير المصور الوسطى، فإن تشكك في الأساطير الواردة ضمن الكتابات الكلاسيكية كان أقل حدة - وقد شابت منيج (بترارك) في كتابة التاريخ صوب كثيرة، ربما كان أبرزها ناعجا عن إيمانه بأن المصور الوسطى كانت (عصور الظلام) التي أعقبت الفترة الرومانية، كما أنه فسر تاريخ الثقافة الرومانية في ضوء معطيات عصره هو<sup>(١١٠)</sup>.

أما نيكولو مكيافيلي (١٤٦٥ - ١٥٢٧ م) فهو أول من كتب التاريخ باللغة الإيطالية، ويعزى إليه فضل تطبيق منيج جديد في مجال الدراسة التاريخية. إذ أن مناقشاته في مجال علم التاريخ قد قامت على أساس الدليل، وليس بناء على تميز لرؤية أو نظرية مسبقة. وبغض النظر عن كتاب «الأمير» الذي اشتهر به، فقد نشر سلسلة من المقالات (سنة ١٥١٦ م) عن المؤرخ الكلاسيكي ليفيوس، كما كتب عن تاريخ فلورنسا (سنة ١٥٢٢ م). ويعتبر كتابه الأمير (١٥٢٣ م) كتابا في الفلسفة السياسية وفي التاريخ أيضا، لأن التاريخ لم يكن علما مستقلا في الغرب الأوربي حتى القرن التاسع عشر. وقد كان هذا الكتاب تقدما واقعا للتاريخ والسياسة والدبلوماسية في إيطاليا في القرن السادس عشر<sup>(١١١)</sup>.

ويمكننا أن نجد في كتابات مكيافيلي تحديا واضحا للأفكار التي حكمت مناهج كتابة التاريخ في المصور الوسطى، لا سيما في مسألة العلاقة بين الدولة والكنيسة. ومن ناحية أخرى اتفق مكيافيلي مع الإنسانيين في اهتمامه بالدولة السياسية، ورأيه بعدم مسئولية الساسة أمام رجال الكنيسة، ولكنه اختلف مع سائر الإنسانيين في عدم اهتمامه بالفرد الذي كان محور الحركة الإنسانية بشكل عام.

والحقيقة أننا لا نستطيع في هذه الدراسة أن نقوم بحصر عام للمؤرخين «الإنسانيين» في أوروبا عامة وفي إيطاليا على وجه الخصوص<sup>(١١٢)</sup>، بيد أننا نلاحظ أن الحركة الإنسانية بشكل عام كانت محدودة بحقيقة مؤداها أن هذه الحركة كانت رد فعل للتصور الكاثوليكي للتاريخ ورؤية مؤرخي المصور الوسطى لحركة التاريخ باعتبارها مجرد حركة لتحقيق الخلاص الإنساني. ولذلك كان اتجاه الحركة الإنسانية اتجاها نحو الماضي، وقدما قليلا من التطوير في مناهج البحث التاريخي بسبب هذا الموقف الذي كان يشدهم إلى الماضي الكلاسيكي الذي رأوه مجيدا وجديرا بالإحياء.

وقد شهدت أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر مشروعات علمية كبرى تخففت عن تكوين مجموعات ثمينة من الوثائق. وكان توفر هذه المادة «التاريخية» الحام من أهم عوامل بزوغ المناهج النقدية في الدراسات التاريخية.

Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 101 - 102.

(١١٣)

Arthur Marwick, The Nature of History. P. 28.

(١١٤)

ريديري، المصاحف الكبرى، ص ١٨٠ - ١٨٩.

Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 101 - 120.

(١١٥) الفهر

وفي عصر التنوير ، الذي بدأ مع بداية القرن الثامن عشر ، بدأ المؤرخون الفرنسيون يشنون الهجوم الأخير على القاعدة اللاهوتية التي قامت عليها مناهج الكتابة التاريخية في العصور الوسطى ، والتي اكتسبت دفعة إيجابية إبان الصراع بين أنصار الإصلاح الديني وخصومهم ،<sup>(١١٧)</sup> وقد جسد هذا الانحياز عدد منهم جاك بوسيه ( ١٦٢٧ - ١٧٠٤ م ) ، ومونتسكيو ( ١٦٨٩ - ١٧٧٨ م ) .

ومن بين هؤلاء جميعا لا يمكن أن يعزى فضل النقلة النوعية في مناهج البحث التاريخي إلا لفولتير<sup>(١١٨)</sup> ، الذي يميل الكثير من المؤرخين إلى اعتباره مؤسس علم التاريخ بمفهومه الحالي في الغرب . وكان أول مؤلف ينشره فولتير هو « تاريخ شارل الثاني عشر » Histoire de Charles XII ملك السويد ونشره سنة ١٧٣١ م . وبعد قطعة ممتازة في التأليف الأدبي . أما أهم مؤلفاته من حيث تطورها المنهجية فهو كتابه « عصر لويس الرابع عشر » الذي يصفه البعض بأنه أول مؤلف تاريخي حديث . ففي هذا الكتاب تحلّى فولتير تماما عن النظام الحوّل ، وعن نظام التابع الزمني للأحداث ، ونظم كتابه على أساس من ترتيب الموضوعات . ومن ناحية أخرى ، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتناول فيها كتاب تاريخي حضارة أوروبية تتأولا شاملا .

كما أن مقالته عن عادات الأمم وروحها ( ١٧٥٦ م ) يعتبر عادة أول مؤلف في التاريخ العالمي بالمعنى الحقيقي للمصطلح . وكانت هذه أول مرة يتم فيها الاعتراف بفضل الحضارات الشرقية والحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الأوروبية . وقد وجد فولتير كثيرا ممن ساروا على منبهجه من المؤرخين في سائر أنحاء الغرب الأوروبي . وقد نبه فولتير وتلاميذه إلى أن الأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، تدخل في صميم عمل المؤرخ شأن اعتبار البابوات والملوك .

لقد تقدم مؤرخو القرن الثامن عشر كثيرا صوب التاريخ الاجتماعي والتاريخ الثقافي بيد أن ثلاثة عيوب أساسية كانت تشوب مناهج البحث في ذلك القرن ، أولا : عدم إدراك المؤرخين لحقيقة التطور والتغير الإنساني بحيث خلت مؤلفاتهم تماما من أي إحساس بهذا . وثانيها : أنه على الرغم من أن الدراسة البحثية قد استمرت إلى جانب التفسير والتحليل ، فإن الرابطة بين جميع المعلومات البحثية وتحليلها كانت ضئيلة إلى حد بعيد . بمعنى أن مؤرخي تلك الفترة اهتموا بجمع الوثائق والأدلة ، لكنهم نادرا ما كانوا يكتفون على تحليلها . وثالثها : أنه حتى في القرن الثامن عشر لم يكن التاريخ مادة دراسية مستقلة في مدارس وجامعات أوروبا ، ولم يكن يدرس مستقلا سوى في قصور الأمراء ورجال الدولة باعتباره من أدوات التربية والتدريب السياسي.<sup>(١١٩)</sup>

(١١٧) من تأثير حركة الإصلاح الديني على الكتابة التاريخية انظر :

Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 121 - 135.

(١١٨) حين مؤسس ، التاريخ والمؤرخون ( طر المصنف ١٩٨٤ م ) ، ص ١٧ - ١٨ .

Arthur Marwick, The Nature of History, P. 39; Barnes, Op. Cit. PP. 152 - 154.

Arthur Marwick, Op. Cit., PP. 33 - 37.

(١١٩)

وكان الهجوم على نقاط الضعف الثلاث في الدراسة التاريخية هو الذي فتح الطريق أمام ظهور التاريخ بمعناه الحديث في أوروبا ، أي التاريخ بوصفه دراسة أكاديمية . فبعد المئات الثورية الكبرى في القرن الثامن عشر لم يعد من الممكن تصديق القول بأن طبيعة الإنسان لا تتغير ، كما لم يعد أحد يؤمن بثبات المؤسسات الاجتماعية أو جمودها . وكانت مساهمات ليوبولد فون رانكه <sup>(١١٠)</sup> Leopold Von Ranke ( ١٧٩٥ - ١٨٨٦ ) في مجال مناهج البحث التاريخي من الصرامة بحيث استوجبت أن يعتمد المؤرخ على المصادر المعاصرة في إعادة تصوير الماضي و كما حدث بالضبط .

ولكن هذا الموقف الذي اتبعه ( رانكه ) وتلاميذه كان جزءا من النزعة الرومانسية التي غلكت الأوربيين آنذاك ، وقد أدى إلى إحساس المؤرخين بالفشل حين عجزوا عن تحقيق هذه التوصية . بيد أن هذا الموقف ، من ناحية أخرى ، أحدث تطورا هاما في مناهج البحث بسبب الإصرار على دقة الوثائق . وبدأت الدراسات النقدية للمصادر والوثائق التاريخية تفرض نفسها ضمن مناهج البحث التاريخي . والكثير من كتبوا في تاريخ الكتابة التاريخية يعتبرون رانكه ومدرسته مسؤولين عن صرامة مناهج البحث في دراسة التاريخ تحقيقا لقول ( رانكه ) بأن « الصرامة في تقديم الحقائق التاريخية هي القانون الأسمى في كتابة التاريخ » . <sup>(١١١)</sup>

ولكل مؤرخ تلك الفترة نقاط الضعف التي تشوبهم بطبيعة الحال ، إذ أن ( رانكه ) قد ألزم نفسه وتلاميذه . بمجرى ضيق للغاية في دراسة التاريخ من خلال الدبلوماسية وأحوال الساسة والسياسة في مواجهة المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الحضارة ، ثم وقعوا فريسة للصياغات الرومانسية والمبالغة بسبب عدم دقة مناهجهم . ولكن النتائج الأخيرة لمدرسة « فون رانكه » تنجسد في الحقيقة القائلة بأنه أوجد الدراسة التاريخية بمعناها الحديث <sup>(١١٢)</sup> ، ولكنها - في النصف الأول من القرن التاسع عشر - كانت ما تزال بحاجة إلى التهذيب والتطوير حتى تصل الدراسة التاريخية في الغرب إلى ما وصلت إليه الآن .

وعمل الرغز من تأثير أهياا مدرسة « رانكه » ، وعمل الرغز من حلقات الدراسة والنقاش ( السمنار ) التي كان « رانكه » يقدها لتلاميذه في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فإن هذا القرن انصرف دون أن تتحول دراسة التاريخ إلى نظام أكاديمي في أوروبا الغربية ، أو في أمريكا الشمالية .

ولكن ذلك لم يمنع وجود بعض المظاهر والدلائل على تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية تمثلت في ظهور عدد من الكتب تتناول طرق البحث في التاريخ ، مثل كتاب « لانتجولوا وسينيوبوس Charles Seignobos, C.V.

(١١٠) حين مارس ، التاريخ والمؤرخون ، ص ٧٤ - ٨٢ ، وديجري ، الملعب الكبرى ص ٣٠٤ - ٣٠٦ .

Arthur Marwick, Op. Cit., P. 34; Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 245 - 248.

Arthur Marwick, Op. Cit., PP. 36 - 37.

Idid., PP. 38 - 40.

(١١٠)

(١١١)

Langlois (١٨٥٤ - ١٩٤٢ م) الذي يعده البعض من أفضل ما كتب في طرق البحث التاريخي<sup>(١٢٢)</sup> والذي ظهر تحت عنوان «مقدمة للدراسة التاريخية». وأهم ما أكد عليه هذا الكتاب هو ضرورة وجود منهج واع لدراسة التاريخ. وقد تأثر بها كثير من المؤرخين بشكل تباين في ذلك التطور الكبير الذي لحق بمنهج البحث في الدراسات التاريخية في القرن العشرين<sup>(١٢٣)</sup>.

لقد شهد القرن التاسع عشر ما يمكن أن نسميه ثورة في الدراسات التاريخية، وقد كانت هذه الثورة هي الأساس الذي قامت عليه الدراسات التاريخية الحديثة. وأصبح التاريخ علماً يهاجم المجهول من أجل الكشف عن غوامضه. وبينما كانت جذور العلم التاريخي في القرن العشرين تضرب بجذورها في عمق تربة مناهج البحث التاريخية التي تم إرساؤها في القرن التاسع عشر، فإن القرن العشرين شهد أيضاً عدداً من ردود الفعل تجاه الصياغات الضيقة التي حبس فيها «رأيه» واتباعه التاريخ. وظهرت فروع متعددة جديدة من الدراسات التاريخية، ولكن كلا من فروع الدراسات التاريخية الجديدة لم يكن «جديداً» تماماً كما يجب المتحمسون له أن يعتقدوا، إذ أن الدراسات التاريخية في القرن التاسع عشر كانت قد طورت بالفعل عدداً من الاتجاهات الجديدة في مجال التاريخ الاقتصادي، والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ الثقافي، وتاريخ النظم والمؤسسات الدستورية. وكانت هذه الاتجاهات الجديدة نتاج البيئة الفكرية التي حكمتها ظروف نشوب الحرب العالمية الأولى من جهة، ونتيجة لعدم اليقين الذي هز مسلمات القرن التاسع عشر نتيجة شيوع النظرية النسبية<sup>(١٢٤)</sup>.

وليس بوسعنا أن نتابع الاتجاهات الجديدة في فروع الدراسات التاريخية في القرن العشرين في هذه الدراسة، لأن هذا الموضوع يستحق في تقديرنا أن تخصص له دراسة مستقلة. بيد أننا سنحاول أن نشير إلى أهم المخطوط العربية لهذا التطور الحاسم في مجال الدراسات التاريخية سواء من حيث التراكم المعرفي، أو من حيث التطور النوعي الملحوظ في مناهج البحث في الدراسات التاريخية<sup>(١٢٥)</sup>.

لقد تسببت الظروف التي حكمت أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية في تحول كثير من المؤرخين إلى تغذية كافة أنشطة الإنسان في الكون باعتبارها مجالات لعمل المؤرخ، سواء كان ذلك في مجال الفكر، أو الاقتصاد، أو الاجتماع أو السياسة، فضلاً عن التاريخ العلمي والتكنولوجي. وقد ساعدهم على ذلك تقدم علوم أخرى تهتم بالدراسات الإنسانية، مثل علم النفس والعلوم الاجتماعية، كما حفزه تقدم التصنيع الحديث، وبغى الحياة الحضرية، وتطور المدن فضلاً عن تزايد النزعة العالمية. وظهرت فروع للدراسة التاريخية في كل مجال، فظهر «التاريخ الفكري» و«تاريخ العلوم» و«تاريخ التكنولوجيا»، مثلاً رسخت أقسام «التاريخ الاقتصادي» و«التاريخ الاجتماعي» و«التاريخ السياسي الدستوري»، فضلاً عن «التاريخ العالمي» و«تاريخ الحضارة

(١٢٢) حين مؤلف، التاريخ والمؤرخون، ص ١٥٣ - ١٥٦.

Arthur Marwick, *The Nature of History*, PP. 58 - 54.

(١٢٣)

Idid, P. 56 -

(١٢٤)

Barnes, A Hist. of Historical Writing, PP. 291 - 309; Arthur Marwick, *The Nature of History*, PP. 56 - 71.

(١٢٥)

والثقافة . كذلك ظهرت جمعيات متخصصة في فروع الدراسات التاريخية المختلفة . ومن البديهي أن كل فرع قد طور مناهج البحث الخاصة به ، وظهرت أسماء عديدة لتخصصين لاعمين في كل فرع من فروع الدراسات التاريخية .



هذه بشكل عام الخطوط العريضة لتطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية في رحلة طويلة عبر الزمان ، منذ أن بدأ التاريخ يحبو في حجر الأسطورة حتى صار علماً له مناهجه وفروعه المختلفة وتخصص له الكراسي في الجامعات ، كما تقام له مراكز البحث والأقسام العلمية .

والأمر الذي يلفت الانتباه أن علم التاريخ كان يتطور استجابة لتطور المجتمع نفسه من ناحية ، كما أن تطور مناهج البحث في التاريخ لم يكن يتم بمعزل عن تطور العلم التاريخي نفسه . وثمة علاقة جدلية بين تطور مناهج البحث التاريخي والتطور المعرفي للعلم نفسه . ومن ناحية أخرى ، كانت المناهج القديمة تظل موجودة إلى جانب المناهج الحديثة في بعض الأحيان طالما كانت تخدم غمطاً من أغمط الكتابة التاريخية التي تلبي حاجة ثقافية / اجتماعية . وقد تجلّى هذا كله واضحا من خلال متابعتنا للخطوط العامة لتطور الكتابة التاريخية في التراث العربي الإسلامي ، وفي تراث الغرب الأوربي أيضا .





## ١ - تهيد

## ١ - ما هي البرمجة ؟

اعتملت المجتمعات البدائية في قديم الزمان على مهارة حرفيها مثل الحداد والنجار والخياط والنساج وغيرهم . ويمتلك الحرفي مهارة لا يمتلكها أقرانه من أفراد المجتمع اكتسبها عادة بعد عتاء طويل ويدخل لا يكاد يسد رقبه عندما تتلمذ على أستاذه لسنوات طويلة . ويتلمذ الحرفي عادة بالتقليد والتدريب العملي واكتساب الخبرة والتجربة والحظ أيضا . ولا يفهم الحرفي ما يكفي من النظريات حول عمله في الهندسة والرياضيات ولا حتى الحساب . ويعمل الحرفي عادة لوحده أو ضمن مجموعة صغيرة في إطار زمني محدد وكلفة متواضعة ثابتة وتكون النتائج مرضية لزبونه عادة .

ويقول هور<sup>(١)</sup> ان المبرمج يمتلك هذه الايام العديد من صفات الحرفي من قديم الزمان ، فهو يتعلم حرفته من خلال دورات مكثفة قصيرة ضمن مجموعات صغيرة من المبرمجين ويطور مهارته من خلال خبرته بدلا من قراءة الكتب والدوريات العلمية . وهو يدرك القليل من النظريات الرياضية التي تحكم مهنته ، ولا يفضل عادة ان يشرح عمله أو يوثقه الا أنه يستطيع بشكل أو بآخر اكمال المهمة المناطة به ضمن الوقت والكلفة المحددين ارضاء لزبونه .

وفي المجتمعات البدائية في قديم الزمان ايضا اعتمد الناس على نوع آخر من التخصصين هم السحرة والمشعوذون . وتوجد اختلافات عديدة بين هؤلاء والحرفيين ، اذ يعتمد السحرة والمشعوذون على كتب السحر والشعوذة والمصادر التي لا يستطيع غيرهم فهمها

## بيوت البرمجيات وأصميتها الاستراتيجية للتنمية في البلدان النامية

عبدالله الدويهي \*

\* وزارة الصناعة - ص . ب ٥١٦٠ - بغداد - الجمهورية العراقية

Hoare, C. A. R. Programming : Sorcery or Science ? IEEE Software, Vol. 1 Number 2, April 1984.

(١)

«المهندس» وهي نوع جديد نسبيا من المهن . فالمهندس يمر عبر تكوينه بمرحـل مشابهة لمراحـل اعداد الكهنة حيث يدرس الاسـس والنظريات العلمية . ثم يتتلمذ بعد ذلك على اساليب تطبيق المهنة مثل الحرفي ويمر في خلال هاتين المرحلتين بالعديد من المؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات . وفي مرحلة التلمذة والتطبيق يحتاج للعـودة بين الحين والآخر الى تعلم اساليب واسـس جديدة تعزز قدراته في الاستجابة الى ما يطلب منه من فعاليات مهنية . وقد تطورت مهنة البرمجة خلال السنوات القليلة الماضية الى مهنة هندسية لا تختلف في طبيعة عملها عن الفروع الهندسية الأخرى .

ففي الولايات المتحدة الأمريكية ، حل سبيل المثال ، اعتمدت مقررات واضحة للتعليم الجامعي في هندسة البرمجيات في العديد من الجامعات من قبل اهم جمعيتين مهنتين هما ( ACM ) و ( IEEE ) \* تؤهلان الحرفيين للانطلاق في حقل البرمجة بدرجة مقبولة من الثقة اسوة بالفروع الهندسية الأخرى واعتمدت في مجال العمل اسـس علمية اوضح لمواصفات البرمجيات واسلوب تنفيذها بالشكل المقارب لتنفيذ المشاريع الهندسية ، وكذلك الحال بالنسبة للمملكة المتحدة التي تمثل جمعيتان هما ( BCS ) و ( IEE ) \*\* مهنة البرمجة بشكل او بآخر . كما اعطي مؤخرًا لقب (Chartered Engineer) لاهضاء جمعية الكومبيوتر البريطانية ( BCS ) وذلك تأكيداً لطبيعة العمل البرمجي الهندسية .

او حل الغائزها وعندما يحصل خطأ في تطبيق ما يطلبه هؤلاء من زياتهم قد يتقلب الامر ويصبح لعنة ضد صاحب الامر وقد يحتاج ذلك الى اعادة الشعائر والتعليمات من البداية واذا لم تنجح العملية ثانية يقع اللوم على الزبون . وفي جميع الحالات فزمرة الشعوذة معصومة من الخطأ . وتمتلك المبرمجون بعضا من صفات هؤلاء ايضا فلدينا تسميات عديدة مثل اخصائي الكومبيوتر وعمل الأنظمة والمبرمج واخصائي المعلوماتية الا ان المصطلح المناسب لكل هؤلاء هو « المبرمج » ، فجميع الاختصاصات التي تقع في مستويات مختلفة من التعقيد ما هي الا درجات متفاوتة من التجريد للحلول المطلوبة في تطبيق الكومبيوتر في بيئة ما .

البرمجة اذن في الماضي القريب ، ولا زالت حتى الآن بعض الشيء ، مجموعة من المهارات التي يتتلمذ عليها المبرمج دون التعمق الكافي في الاسـس العلمية المبنية عليها اساليب حل المسائل ليصبح في احيان عديدة اشبه بالحرفي الذي يقوم بعمله بالمهارة التي اكتسبها بعيدا عن النظريات وهو في احيان أخرى اشبه بالساحر او المشعوذ في اعتياده على اساليب مثالية قد لا تقارب الواقع الذي يحاول معالجته ويتكلم في كثير من الاحيان بلغة لا يفهمها غيره فاذا فشل يوجه لومه الى المستقبل لعدم اتباعه التعاليم الدقيقة التي تتطلبها التكنولوجيا ، واذا نجح فذلك نتيجة حسن تصميمه .

#### ٢-١ هندسة البرمجيات

مع تطور التكنولوجيا عبر العصور ظهرت مهنة

\* ACM. Association for Computing Machinery

IEEE. The Institute of Electrical and Electronics Engineers

\*\* BCS. The British Computer Society

IEE. The Institution of Electrical Engineers

منصوص عليها في ادبيات المهنة . وعلى رئيس المجموعة ان يقدر حجم العمل البرمجي المطلوب من ناحية الجهد والكلفة وقابليات الموارد المطلوبة من منظومة الكمبيوتر (جداول الكميات) والتوقيتات المتوقعة . بعد كل ذلك يبدأ العمل التنفيذي الذي قد تتولاها مجموعات صغيرة او كبيرة من المبرمجين ، او قد يعطى على شكل مقاولات ثانوية لجهات مختلفة حسب التخصص على غرار العمل الهندسي للمقاولات والتنفيذ . وعلى رئيس المجموعة (المهاري) والمستفيد ان يصادقا على مراحل اكمال العمل اولا بأول ضمن اطار المعايير المتبعة عادة في شهادات استلام العمل الهندسي .

ان هاتين المرحلتين (التصميم والتنفيذ) مرحلتان تطورتان تعقبها مرحلة تشغيل النظام ومن ثم صيانتها وتحسينه حسب الحاجة . فصيانة النظام البرمجي لا تختلف كثيرا عن صيانة الأجهزة والمعدات والمباني فهي مطلوبة لسببين ، الاول عند اكتشاف الاخطاء التصميمية في وقت لاحق من الاستلام ، والثاني عند حدوث تغييرات في مدخلات النظام من البيانات بناء على متطلبات المستفيد او جهات تشريعية خارجية غارضة .

والنظام البرمجي الكبير لا يمكن اختباره اختبارا كاملا بالوسائل البرمجية المتاحة حاليا فهو بذلك اعقد من النظم الهندسية التقليدية الأخرى كالمباني والمعدات . وهو يمتاز بالمقابل في ان اجزائه لا تستهلك بنفس الطرق المعروفة التي تستهلك فيها الاجزاء الميكانيكية او الانشائية للمنتجات الهندسية الأخرى ويطلق على مجمل المراحل هذه الدورة الحياتية للبرمجيات والذي يبين الشكل (١) النموذج التقليدي لها .

بمر المشروع البرمجي ، الكبير نسبيا ، بمرحلتين رئيسيتين .

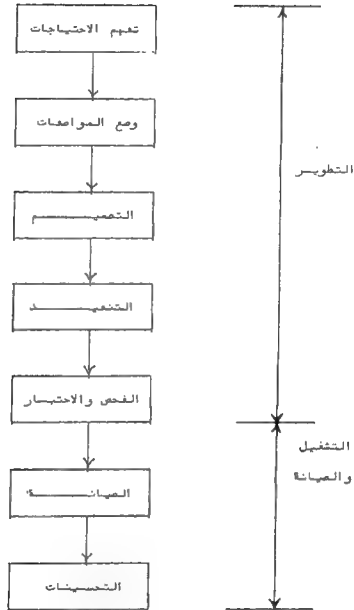
الاولى : مرحلة المواصفات .

والثانية : مرحلة التنفيذ .

ففي مرحلة المواصفات يقوم رئيس المجموعة البرمجية ، وليكن رئيس المبرمجين ، بوضع المخططات والتصاميم الأولية السريعة لميكل النظام (المتوج) الذي يفني متطلبات المستفيد (الزبون) وهو بذلك اشبه بالمهندس المعماري الذي يرسم المخططات لشكل المبنى الذي سيصممه . ويقوم رئيس المبرمجين ، وبشكل تدريجي وبالتشاور المستمر مع المستفيد ، بوضع التفاصيل التي يجب ان تدخل في اجزاء ميكل النظام ليصل في النهاية الى تحديد الشكل النهائي للنظام المطلوب .

وللمستفيد حق التنازل والتدقيق في مراحل التصميم المختلفة لغاية الوصول الى التصميم النهائي الذي يجب ان يصادق عليه قبل الشروع بالتنفيذ . ولا يكتفي المستفيد عادة بقراءة المواصفات الموضوعة بأسلوب معقد وتفصيل بالشكل الذي تعود المبرمج ان يضع به مواصفات برامج . فعلى غرار التصميم المعماري يريد الزبون ان يرى النماذج الأولية والرسومات التي تقرب اليه التصميم بالشكل الذي يفهمه الفرد غير المتخصص . وهذا ما كان ينقص مهنة البرمجة الى حد كبير حين ظهور وسائل بناء النماذج الرائدة واللغات المتطورة لتصميم النظام .

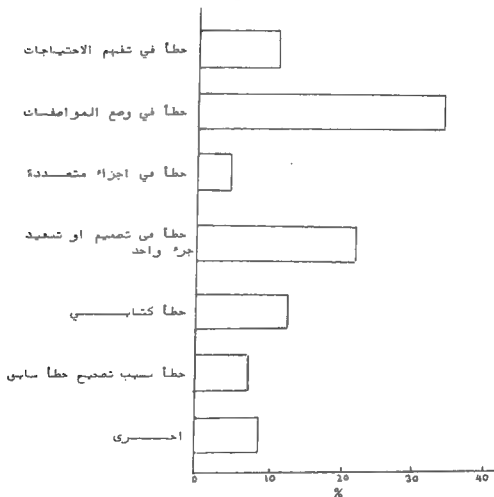
اما مرحلة التنفيذ فتعتمد على التصميم المصادق عليه والمفحوصه اجزائه بشكل مترابط وبدقة رياضية واضحة . وهذه الاجزاء قد تكون جاهزة الصنع او مصممة خصيصا لخصوصيات النظام تعتمد على أسس



الشكل (١) الدورة الحياتية التقليدية للمرجعات

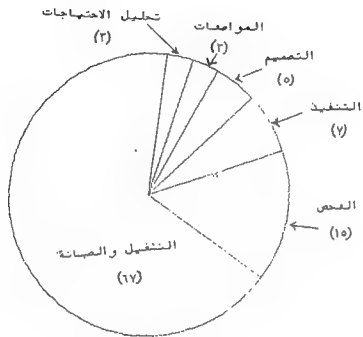
المختلفة للنظام البرمجي .  
 أما بالنسبة لتوزيع الكلف على الدورة الحياتية فيبين  
 الشكل (٣) هذه النسب . ومن الواضح ان نسبي  
 التشغيل والصيانة تحظيان بالحصة الكبرى من مجمل  
 كلفة النظام التجريبي .

وفي دراسة قام بها رامامورثي وآخرون<sup>(١)</sup> يتبين ان  
 مصادر الاخطاء في الدورة الحياتية للبرمجيات يمكن  
 تقسيمها كما في الشكل (٢) حيث يتبين ان الاخطاء  
 الناتجة في مرحلة المواصفات تحظى باكبر النسب تليها  
 مرحلة تنفيذ البرامج على مستوى الاجزاء الاساسية



الشكل (٢) انواع الاخطاء في البرمجيات

Ramamoorthy, C.V. et al, Software Engineering, IEEE Computer, Vol. 17, Number 10, October 1984. (١)



الشكل (٣) كلف مراحل البرمجيات بالأسلوب التفصيلي

الدول لأقلية حالة مشابهة أو حالة خاصة بنا ؟ وهل ستعاني هذه الصناعة ما عانتها الصناعة التقليدية في الدول النامية ؟

يمكن تقسيم الوحدات الانتاجية في الدول المتقدمة الى مجموعات أساسية ثلاث :-

**المجموعة الاولى :** الشركات المصنعة للأجهزة وهي تلك الشركات التي تصنع الكومبيوترات بكافة أحجامها وتركز هذه المجموعة من الشركات بالدرجة الاولى على البرمجيات الأساسية لمنظوماتها كأنظمة التشغيل واللغات البرمجية وقواعد البيانات وبرمجيات الاتصالات . وتقوم بعض هذه الشركات والأشخاص الكبيرة منها بتطوير برمجيات بعض التطبيقات الفعالية .

**المجموعة الثانية :** بيوت البرمجيات التقليدية التي تمت في الستينيات مع نمو استخدام الكومبيوترات الضخمة والمتوسطة واستطاعت من خلال توفير بعض البرمجيات التطبيقية ابتداء ومن ثم بعض البرمجيات الأساسية كبرمجيات قواعد البيانات ، تكوين جسور كفية ما بين الشركات المصنعة للأجهزة وما بين المستفيدين . ونجحت هذه الشركات خلال الستينات والسبعينات من خلال التعامل مع المستفيد في حالتين رئيسيتين : الحالة الاولى عندما يكون النظام البرمجي الذي يرغب المستفيد في تنفيذه معقدا لا يمتلك المستفيد الخبرة الكافية لتنفيذه تنفيذا مباشرا ، والحالة الثانية عندما يكون المستفيد مستخدما واسعا للمكبيوتر لا يمكنه تنفيذ خطته الطموحة في البرمجيات بموارده البشرية الذاتية فيضطر الى إحالة بعض الاجزاء البرمجية كمقاولات الى بيوت البرمجة .

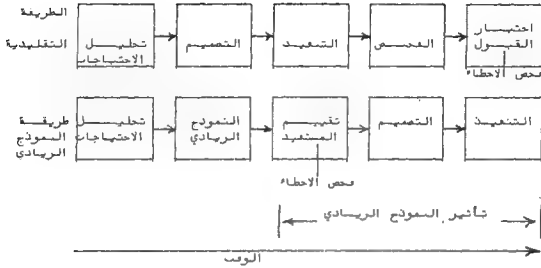
وقد ظهرت خلال السنوات القليلة الماضية اسس وتسهيلات برمجية غيرت من فلسفة مراحل الدورة الحياتية للبرمجيات وركزت بالدرجة الاساسية على مفهوم النموذج الريادي ( prototype ) للنظام البرمجي مما قرب العمل البرمجي الى حد كبير من العمل الهندسي .

والشكل (٤) يبين المقارنة ما بين المراحل التقليدية للدورة الحياتية للبرمجيات والمراحل التي تعتمد النموذج الريادي . واهم ما يلاحظ في اسلوب النموذج الريادي المرحلة المبكرة لاكتشاف الاخطاء التي تبدأ بعد اكمال المصمم للنموذج ينشأ تؤجل هذه المرحلة لحين قيام المستفيد بإجراء فحوصات القبول في مرحلة متأخرة من المشروع .

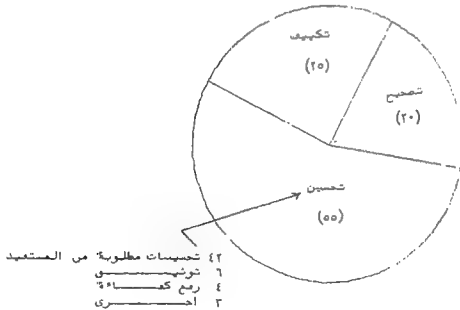
والمؤمل ان تركز الابحاث والدراسات على مرحلة الصناعة حيث تدل الاحصائيات الحالية ان أكثر من ٦٠٪ من كلفة الدورة الحياتية للبرمجيات تعزى الى الصناعة وهل خلاف ما هو متعارف عليه في مفهوم الصناعة للأجهزة والمعدات فان الصناعة البرمجية تتضمن عادة نسبة لا بأس بها من التحويرات والتطويرات والمتبقي هو توصيلها بالبرامج والنظام . يبين الشكل (٥) هذه النسب وتفاصيل بعضها لتوضيح الصورة .

#### ١- ٣ حال واقع تكنولوجيا البرمجيات

بعد هذا التمهيد السريع للبرمجة وهندسة البرمجيات للوقوف على هذه المهنة التي لا تعتبر معروفة بتفاصيلها الدقيقة للعديد من المهندسين وحتى العاملين في حقل الكومبيوتر ، ما هو إذن حال الواقع لهذه التكنولوجيا في الدول المتقدمة ؟ وهل يمكننا الاستفادة من تجارب هذه



شكل (٤) مقارنة أسلوب تطوير البرمجيات



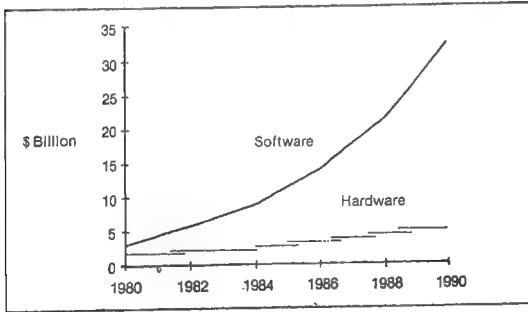
الشكل (٥) نسب الكلف باطلوب النموذج



شركات برمجيات أخرى متخصصة ببعض التطبيقات المتخصصة لانشطة محددة مطلوبة في سوق البرمجيات ولأنها لا تهم مقطعاً واسعاً ومتنوعاً من المستعملين لذا يطلق على هذا السوق بالسوق العمودي .

لقد تطورت الكومبيوتر باستخداماتها وأجهزتها المختلفة وزادت قابليات الالكترونيات ومعالجتها وصغر حجمها ورخص ثمنها إلا أن كلف البرمجيات لا زالت عالية حيث بينت إحدى الدراسات (٣) أن كلفة البرمجيات إلى كلفة مشاريع أنظمة الكومبيوتر بلغت عام ١٩٨٤ بحمدود ٧٠٪ في الولايات المتحدة وأن من المتوقع أن تكون هذه النسبة بحمدود ٨٥٪ عام ١٩٩٠ كما هو مبين في الشكل (٦) .

المجموعة الثالثة : وهي الشركات الصغيرة التي لمت مع نمو وانتشار المايكروكومبيوتر وأصبحت نشاطاً أساسياً لا يستهان به في العديد من الدول الصناعية وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية . وتخصص مثل هذه الشركات بالترواع البرمجيات الأساسية والتطبيقية المستخدمة على المايكروكومبيوتر كأنظمة التشغيل واللغات وما يطلق عليه التطبيقات الشاملة (generic applications) مثل معالجة الكمليات ومعالجة الجداول والرسوم البيانية وقواعد البيانات . ويطلق على هذا الجزء من سوق البرمجيات بالسوق الأفقي لأنه يتعامل مع مقطع واسع من الانشطة المختلفة ويقدم خدمة تناسبية مطلوبة لكافة هذه الأنشطة .. وهناك



الشكل (٦) من المتوقع أن ترتفع كلف البرمجيات مقارنة بالمعدات

من ٧٠٪ إلى ٨٥٪ خلال العقد ١٩٨٠ - ١٩٩٠

## ٢- البرجة والبرمجيات في الوطن العربي

## ١-٢ خلفية

لم يصاحب دخول الكمبيوتر في بعض البلدان العربية مع بداية الستينيات اية مفاجآت او انجازات مذهلة . حاله في ذلك حال العديد من الوسائل التقنية التي دخلت مجتمعات نامية مشابهة<sup>(١)</sup> . والحاجة لادخال الكمبيوتر في معظم البلدان العربية آت في كثير من الحالات نتيجة معاناة واخفاقات في التنظيمات الادارية واساليب العمل اكثر عما هو بسبب التطور الطبيعي والاقتصادي للحاجة والتفاعل مع الطلب .

وكانت دول المغرب العربي ، وبالأخص الجزائر وليبيا ، من الدول التي دخلتها الكمبيوتر من خلال شركات البترول الاجنبية العاملة فيها . وكذلك بعض دول المشرق العربي مثل العراق والمملكة العربية السعودية والكويت . وفيما عدا ذلك فقد كانت البنوك الاجنبية والمحلية وبالأخص في لبنان من اولى القطاعات التي اعتمدت الكمبيوتر في اعمالها .

اما الدول العربية الأخرى مثل مصر وبعد ذلك العراق فقد كان للقطاع الحكومي دوره الواسع في ادخال الكمبيوتر بسبب تضمخ العمليات المركزية التي تقوم بها الادارات كالاحصاءات والفتاوى والعمليات المالية عموما . وتبع ذلك حاجة بعض الجامعات والكليات العلمية الى الكمبيوتر ، فكانت الجامعة الامريكية في بيروت من اولى الجامعات التي انشأت مركزا للكمبيوتر وكذلك جامعة القاهرة وكلية الهندسة في جامعة بغداد وكلية البترول والمعادن في المملكة العربية السعودية .

والجدير بالذكر ان الشركات الكبيرة للبرمجيات ( المجموعة الثانية ) تمر الآن في مرحلة اعادة النظر في طبيعة اعمالها لتتناسب مع الثورة التكنولوجية التي احداثتها المايكروكمبيوتر ويبدأ عدد هذه الشركات بالنقصان بينما حدثت زيادة كبيرة في عدد الشركات الصغيرة والمتوسطة ( المجموعة الثالثة ) بسبب انتشار المايكروكمبيوتر .

وهذه الشركات الصغيرة يمكن تقسيمها الى ثلاثة انواع اساسية :-

النوع الاول : شركات البرمجيات البحتة كأنظمة التشغيل ولغات البرجة ومعظمها شركات امريكية قلما نجد شركات مشابهة لها خارج الولايات المتحدة الامريكية .

النوع الثاني : شركات البرمجيات التطبيقية الشاملة التي تستهدف السوق الاقليمي للبرمجيات وتعنى ببرمجيات معالجة النصوص وقواعد البيانات ومعالجة الجداول والرسوم البيانية ومعظمها ايضا امريكية الجنسية .

النوع الثالث : شركات البرمجيات التطبيقية المتخصصة التي تستهدف الاسواق العمودية للبرمجيات من خلال تصميم وتسويق برمجيات لتطبيقات عملية في الهندسة والتصاميم والتطبيقات الادارية والصناعية كادارة الصيانة والانتاج والرسم الهندسي والتحليلات الاقتصادية والاحصائية وتطبيقات التوثيق وغيرها . وعلى عكس النوعين الاول والثاني فان اعدادا من هذه الشركات متواجدة في دول متقدمة اضافة الى الولايات المتحدة الامريكية وقد برزت بعضها في دول اوروبا الغربية وبعض الدول الاكثر تقدما من بين الدول النامية .

<sup>(١)</sup> انظر : ج. حيد الله ، معالم حرك تلبية المعلومات ، دراسة موسعة سيتم نشرها في مجلة عالم الفكر الكويتية خلال سنة ١٩٨٩ .

- أ- التطبيقات الحاسوبية والإدارية .
- ب- التطبيقات الإحصائية .
- ج- التطبيقات التجميعية والرقابية .
- د- التطبيقات العلمية والتعليمية .

## ٢-٢ التعليم

يرتبط الكمبيوتر بالتعليم من جانبين : الجانب الأول وهو الواضح هو تعليم الكمبيوتر ومكوناته ويرجعته في المدارس بمختلف مستوياتها . والجانب الثاني استخدام الكمبيوتر كوسيلة للتعليم والتعلم في كافة الموضوعات وعلى جميع المستويات وبمنا في هذه الدراسة الجانب الأول فقد جرت محاولات متواصلة لتجربة تعليم الكمبيوتر والبرمجة في المراحل الإعدادية والثانوية في بعض البلدان العربية إلا أن مثل هذه التجارب لم تحقق التواصل المنشود لتقييمها . ولم يستطع الكادر التعليمي التقليدي التأقلم على تدريس الموضوع الجديد فاصبحت مثل هذه التجارب وهينة توفر بعض الاختصاصيين من خارج الكادر التعليمي وهو امر غير مقبول في تجارب الدول المتقدمة .

ليس من الصعوبة في الوقت الحاضر تخيل لذات برمجية تربية لتعليم حل المسائل للطلاب بمختلف الأعمار فهناك تجارب عالمية حققت النجاح يمكن الاستفادة منها وتطويرها لتلائم الطالب العربي . وبالرغم من أن لغات البرمجة في الحياة العملية لا يشترط بها أن تكون باللغة العربية إلا أن لغات البرمجة التعليمية وخاصة بالمراحل التعليمية الأولى ، يجب أن تكون باللغة العربية . ولا يتوقع من طلاب المدارس ممن هم دون سن الرابعة عشرة ، مثلاً ، أن يتعلموا حل المسائل بلغة اجنبية فوجود لغات على غطاء لغة لوغو ويسك وبرلوك باللغة العربية للاغراض التعليمية امر ضروري لترسيخ مفاهيم وتراكيب تقنية المعلومات لدى

وكانت الدول تقارن في الستينيات باعداد الكمبيوترات المنصوبة فيها كميّار لتقدمها في هذا المجال وكانت الدول العربية التي في المقدمة من ناحية العدد والاستخدام الجزائر والمملكة العربية السعودية والعراق تتبها بعد ذلك مصر بالتمهاء مختلف بعض الشيء .

أما الآن وبعد انتشار المايكروكمبيوتر وأحجام مختلفة من الأجهزة والوسائل فلا يمكن اعتياد المؤشر العددي كوسيلة لقياس انتشار تكنولوجيا الكمبيوتر او تقييم استخداماته .

لقد تخلف عن ركب الثورة الصناعية معظم الدول النامية ومنها الدول العربية وتخلفت هذه الدول ايضاً عن الثورة الأولى للكمبيوتر التي مر بها العالم لتقدم في الستينيات والسبعينيات.. ومع تصاعد الثورة الثانية للكمبيوتر ( ثورة المايكروكمبيوتر ) قد يكون لدى بعض هذه الدول فرصة حقيقية للحاق اذا ما تفاعلت مع الثورة الجديدة بشكل مختلف وفي الوقت المناسب .

لقد حققت بعض الدول العربية نجاحات جزئية عندما اتاحت للاختصاصيين والافراد عموماً التعامل مع وسائل المايكروكمبيوتر بحرية تامة ووفرت لهم المستلزمات الضرورية لتطوير هذه الوسائل وتكييفها للحاجات المحلية . فظهرت ابداعات جليلة بالتشجيع في بعض البلدان العربية كالاردن والكويت والبحرين في مجال تعريب المايكروكمبيوتر . وعلى مستوى الكمبيوترات الاكبر حجماً حققت بعض الدول العربية كتونس والمغرب ومصر والعراق انجازات متواضعة في مجال التطبيقات العامة .

وتندرج غالبية التطبيقات السائدة في الوطن العربي ضمن احد الأنواع الآتية :-

البلدان العربية في الستينات والسبعينات على وجه الخصوص يرى العديد من المهنيين وخريجي فروع الفيزياء والرياضيات يعملون كمبرمجين لأنظمة حاسوبية وإدارية والذي حظي منهم بفرص أفضل انهم نحو برمجيات المنظومة واستطاع ان يدخل في تفاصيل برامج التشغيل واللغات البرمجية الا ان عدد هؤلاء قليل . وقد اختلف هذا الاتجاه نسبيا في الثمانينات بعد ظهور المايكروكمبيوتر الا انه لم يتغير كليا . فالذي حصل ان عددا من الجامعات العربية أصبحت تخرج أعدادا محدودة من اقسام علم الكمبيوتر الذي بدأ يتشر بشكل ملحوظ في بعض البلدان العربية الا انه لا زال غالبا في البلدان العربية الاخرى .

نتج جراء هذا الواقع امران :-

الاول : المهدر للراشع في التخصصات التي يمتلكها خريجو الدراسات الهندسية والعلمية في اختصاصات ذات علاقة غير مباشرة بالكمبيوتر اذ لا تتاح لهم ممارسة ما تعلموه في الجامعات بعد التخرج .

الثاني : بعد هذه التخصصات عن الخلفية الأكاديمية المطلوبة لتصميم التطبيقات الادارية والتجارية وحتى الهندسية مما ادى الى فقدان المستفيدين الثقة في التعامل مع الكمبيوتر لصعوبة التفاهم مع المبرمجين وعلمي الانظمة .

وقد دفع جميع الاطراف ثمنا باعظا لهذه الحالة ، فالادارات العليا لم تحقق الاهداف التي من اجلها ادخلت الكمبيوتر في مؤسساتها ، او على الاقل لم تحققها في فترات زمنية معقولة او اقتصادية . وعانت الادارات المستفيدة من فشل الانظمة المتبكرة او على الاقل مقاومة متتسي هذه الادارات لانظمة الجديدة .

الطلاب . ويأتي دور المقررات والكتب المنهجية في مثل هذه الحالات ليكون العون الرئيس للتدريسي في استنباط الامثلة . ويسبق ذلك برامج تدريبية للتدريسين مترامنة مع البلد بالمقررات الجديدة . فبدون ذلك ستكون المهوة واسعة ما بين التدريسي والكمبيوتر من جهة وما بين الطالب والكمبيوتر من جهة ثانية . وبخلاف للمقررات التعليمية الاخرى التي يمكن تدريسها دون اجهزة مختبرية لا يمكن تدريس موضوع الكمبيوتر دون الاحتاد على جهاز مايكروكمبيوتر شخصي على الاقل ، وعلى شبكة مترابطة الكمبيوترات مختلفة الاحجام في الحالات المثالية .

### ٣-٢ المهنة والاختصاصات العاملة في البرمجيات

صاحب دخول الكمبيوتر في البلدان العربية في الستينات ولحد الآن ظواهر خاصة بالمنطقة العربية الى حد كبير قد لا يوجد لها مشابه في البلدان الاخرى .

اكثر الذين اتجهوا للعمل في مجال الكمبيوتر من الشباب العربي كانوا ولا زالوا الى حد كبير ، من الاختصاصات الهندسية والعلمية بالرغم من ان النسبة الكبرى من التطبيقات السائدة في المنطقة كانت ولا زالت ، تطبيقات ادارية وتجارية . ويعود هذا الاستقطاب الى ان خريجي الاختصاصات الهندسية والعلمية العربية هم اكثر الخريجين ممارسة لامرين مهمين هما من مسئوليات العمل على الكمبيوتر ، الاول : اتقاهم اللغة الانكليزية مقارنة بغيرهم من الخريجين . والثاني : تعليمهم على المنطق الرياضي التحليلي في تعاملهم مع الموضوعات التي دوسوها في الجامعات .

فالراقب لحفل العمل في الكمبيوتر في معظم

عدد من الجامعات العربية تخصصات ذات علاقة بالكومبيوتر ضمن اقسامها او تكوين اقسام جديدة لعلم الكومبيوتر فيها .

من خصوصيات حقل الكومبيوتر ارتباطه الوثيق بامرئين اساسيين ، الاول : هو ان تعليم الشباب علوم الكومبيوتر لا يمكن ان يتم بشكل متكامل وفعل دون الاعتماد على اللغة الام في تدريس المفردات بكافة جوانبها التحليلية والتركيبيه ولا يعني ذلك بالضرورة استخدام لغات حريه للبرجه فلذلك امر ثانوي ، اما ضرورة توفر المراجع والادلة والكتب المنهجية باللغة العربية لتعليم الشباب تراكيب الكومبيوتر والمعلومات والخوارزميات اللازمة لحل المسائل .

والامر الثاني : إيجاد الحلول الصحيحة وتصميم النظم التطبيقية الودودة لكسب ثقة المستخدمين من الكومبيوتر في مرافق المجتمع المختلفة للتفاعل بصورة افضل مع نظم المعلومات والعاملين على تصميمها ويرمجتها وتقليص الحلقات الوسيطة ما بين المستفيد والكومبيوتر .

ولا يوجد في معظم البلدان العربية فيها عدا بعضا منها جمعيات او نقابات مهنية تحمضن العاملين في الكومبيوتر ولا توجد اللقاءات المهنية التي يتشاور فيها الاختصاصيون بعضهم مع الآخر . كما ان الشركات الاجنبية لا تحاول في معظم الحالات تكوين رابطات مستعملي أجهزتها في معظم البلدان العربية .

#### ٤-٢ الوحدات الإنتاجية للبرمجيات

لم تتكون في الاقطار العربية وحدات واضحة للبرمجيات ، بل بقي العمل البرمجي تابعا بشكل او

من الامور التي يشكو منها حقل تقنية المعلومات في البلدان العربية ضعف الاحصائيات والارقام التي يمكن مقارنتها ما بين بلد عربي وآخر من ناحية وما بينها وبين بلدان وكثل العالم الأخرى . ويرجع سبب ذلك الى غياب الجهة العربية المسؤولة بشكل واضح ومباشر عن هذا الحقل المهم . وقد حاولنا الحصول على بعض المعلومات التقريبية عن بعض البلدان العربية وهي لا تشكل عينة وافيه يمكن الاستنتاج على اساسها . فالجداول (١) بين تراوح النسب المئوية المكونة لاختصاصات الكومبيوتر في عدد من البلدان العربية .

وقد لا تكون هذه التراوحات مختلفة عن النسب العالمية في البلدان الأخرى ومن الصعوبة هناك معرفة نوعية وكفاءة هذه المستويات الا ان ثمرات التطبيقات في البلدان العربية قد يقودنا الى الاستنتاج بان النوعية ليست بالمستوى المقبول .

اما اعداد العاملين الاجالبية التقريبية لبعض البلدان العربية فمبيية في الجدول (٢) الذي يبين ايضا نسبة هؤلاء العاملين لكل مليون نسمة وكذلك نسبة المواطنين لغيرهم لبعض دول الخليج العربي ( المملكة العربية السعودية والكويت ) .

ويمكن الاستنتاج من الارقام المبينة في الجدول (٢) وبكثير من التقريب واذا ما صبح اعتبار هذه الدول عينة مقبولة لباني الدول العربية ، ان مجمل العاملين في البلدان العربية في مجال الكومبيوتر هو بحدود (٢٢٠٠٠) اذا ما اعتبرنا ان عدد سكان البلدان العربية هو (١٣٠٠) مليون نسمة .

لقد وسعَ ظهور المايكروكومبيوتر رقعة مهن الكومبيوتر في البلدان العربية ، وساعد ذلك ايضا فتح

النسبة المئوية	
٩ - ٣	مدراء
٩ - ٧	محللو أنظمة
٢٩ - ١٦	مبرمجون
١٨ - ١٤	مشغلون
١٠ - ٣	مهندسون
٥٠ - ٣٣	مدخلو بيانات

جدول ( ١ ) تراوح نسب اختصاصات الكمبيوتر في بعض البلدان العربية

البلد	العاملون في الكمبيوتر (١٩٨٥)	نسبة المواطنين لغيرهم	عدد السكان (مليون)	عموم العاملين لكل مليون نسمة	العاملون المواطنون لكل مليون
السعودية	٢٠٠٠	%٣١	٩	٢٢٢	٦٩
الكويت	١١٠٠	%١٩	١,٨	٦١١	١١٦
العراق	٢٠٠٠	%١٠٠	١٥	١٣٣	١٣٣
الأردن	١٥٠٠	%٩٥	٣,٥	٤٢٩	٤٢٠
سوريا	٥٠	%١٠٠	٩	٦	٦
	٦٦٥٠		٣٨,٣		

جدول (٢) نسب العاملين في الكمبيوتر لبعض الدول العربية

## ٥.٢ محدثات النمو

يمثل الشدما بين العرض والطلب أهم العوامل التي تؤدي إلى غوأي صناعة من الصناعات في بلدان العالم إلا أن بعض الحكومات في العديد من الدول المتقدمة تحاول خلق البيئة المناسبة لترويج صناعة معينة دون أخرى . ففي بداية الثمانينات حل سبيل المثال قامت كل من الحكومة الألمانية الاتحادية والحكومة البريطانية باتخاذ إجراءات استثنائية لترويج الكمبيوتر في التصميم الهندسي ( computer aided engineering ) لقناعتهما بأهمية هذه التكنولوجيا لدعم التصميم الهندسي صموما ومن ناحية أخرى لأهمية استلاك الشركات القابلية التنافسية في هذا المجال مقارنة بالشركات اليابانية والأمريكية . ودعيت الحكومة الألمانية في دعم ادخال الرسائل البرمجية للتصميم الهندسي للشركات المتوسطة والصغيرة الى تقديم معونات مالية تقارب ١٠٪ من قيمة استثمار هذه الشركات في شراء الأجهزة والبرمجيات .

ومن ناحية الأنشطة المهنية فقد احتضنت العديد من الجمعيات والمنظمات المهنية نشاط البرمجيات بالرغم من ضعف الصلة في بعض الأحيان وأصبحت البرمجيات بعد فترة قصيرة جزءا لا يتجزأ من نشاط هذه الجمعيات .

أما التشريعات وسلوكية المهنة والحفاظ على الملكية الفكرية وبراءات الاختراع والمقود القياسية وحماية المستفيد فقد وفرتها الحكومات بالتعاون مع المؤسسات المهنية والشركات العاملة في هذا المجال .

أما في البلدان العربية فلا زال الترويج الرسمي لهذه التكنولوجيا محدود جدا وقد سعت بعض الدول العربية لاهفاء ادخال أجهزة الكمبيوتر من الرسوم الكمركية

بأخر الى الأجهزة اما من خلال المراكز التقليدية للكمبيوتر او من خلال فروع او وكالات بعض الشركات الاجنبية المعروفة . وهناك بعض الحالات المحدودة لشركات حاولت ان تنشأ وتطور مع منتصف السبعينات في انظار عربية مثل لبنان وبعض دول الخليج العربي الا انها تركت تخصصها البرمجي بعد ظهور المايكروكمبيوتر وانجحت نحو تسويق الأجهزة والبرمجيات الجاهزة وحاول بعض منها تبني بعض المحاولات التطويرية للتعريب او معالجة الكلمات ونجحت الى حد ما في سد جزء من حاجة السوق لمثل هذه الوسائل . الا انه لم تظهر بيوت او شركات للبرمجيات متوسطة الحجم او كبيرة للقيام بمشاريع برمجية ضخمة الحجم نسبيا فيها هذا حالات محدودة جدا .

كما قامت بعض المؤسسات الحكومية في بعض الاقطار العربية بتقديم خدمات برمجية لبعض المستفيدين واتاحت لهم استخدام أجهزتها لقاء اجور . الا ان مثل هذا العمل لم يأسد الطابع المهني الكافي وبقيت العديد من هذه الخدمات مفتقرة الى الأساليب الصحيحة والمستوى المهني المطلوب .

ومن المفيد جدا قيام جهة اقليمية بمسح الوحدات الانتاجية للبرمجيات بمختلف احجامها على مستوى الاقطار العربية للوقوف على مثل هذه القابليات ومدى نشاطها الحالي والوسائل الفاعلة التي على الحكومات اتباعها لتنشيط هذه الصناعة التي يمكن ان تأخذ اشكالا واحجاما متباينة تتراوح ما بين الوحدات الصغيرة التي لا يتعدى عدد العاملين فيها الخمسة افراد الى وحدات متوسطة او كبيرة يبلغ اعداد العاملين فيها بضع عشرات او مئات .

قامت لجنة متخصصة في وزارة الصناعة العراقية بدراسة واقع التطبيقات التي يمكن كمبرتها على مستوى الوحدات الانتاجية وتوصلت الى تحديد عدد من هذه التطبيقات التي تشترك فيها كافة الوحدات الصناعية وبالتالي يمكن النظر لها كتطبيقات نمطية يمكن ان تستخدم من قبل جميع هذه الوحدات .

وعلى ضوء ذلك اعتمدت الوزارة فكرة شراء عدد من الميني كومبيوترات (HP3000) تم نصبها في عشرين منشأة صناعية عراقية وتخصيص منظومة اضافية لاغراض تطوير البرمجيات بشكل مركزي وتم نصب وتشغيل جميع هذه المنظومات خلال العامين ٧٦ و ٧٧ وقام فريق العمل المسؤول عن التطبيقات بتصميم وبرمجة عدد من التطبيقات النمطية لخدمة هذه المنشآت . وعلى اثر النجاح الذي تحقّق خلال المرحلة الاولى من المشروع (٧٨-٧٦) اضيفت اعداد اخرى من نفس النوع من الكومبيوترات الى منشآت صناعية اخرى . ويبلغ عدد المنشآت المغطاة بالبرمجيات النمطية الآن اكثر من ٣٥ منشأة صناعية موزعة ما بين وزارتي الصناعة والصناعات الثقيلة . يتم خدمتها من النواحي البرمجية والتشغيلية من خلال مركز لتطوير الانظمة مرتبط بوزارة الصناعة يقدم الخدمات جميعها على اساس اقتصادية . فهو مركز ربحي (profit centre) يؤلّف نفسه بنفسه من خلال العوائد السنوية التي يحققها في مجال تطوير الانظمة وتقديم خدمات ما بعد النصب الى الجهات المستفيدة . ويقوم المركز الآن بنشر استخدام البرمجيات الخاصة بالميكروكومبيوتر في المنشآت الصناعية المختلفة ويبلغ عدد التطبيقات

على سبيل المثال الا انها لم تحفّ القطع الالكترونية من هذه الرسوم مما جعل شراء الاجهزة والالواح المجمعة من الخارج اربح من تجميعها في الداخل ، ولا يعتقد ان ذلك كان متعمداً ، بل لأن مفهوم الصناعة الالكترونية وترباطها العضوي مع البرمجيات لا زال غير واضح لدى العديد من المسؤولين في الدول النامية . وتعريف الصناعة التقليدية لازال السائد في مؤسسات هذه الدول .

ولا توجد لحد الآن تشريعات واضحة ومقاييس للعمل البرمجي وسبب ذلك يرجع الى ضعف الخبرة لدى ادارات الدول النامية ولغياب للمنظمات المهنية التي تعني بالبرمجة .

والسبب الاهم من هذا وذاك غياب التطبيقات المتعددة والمتشعبة التي ترفع من مستوى العمل البرمجي في مرافق المجتمعات النامية وعدم وضوح الدور الذي يمكن ان تلعبه الكومبيوتر وبرمجياته في هذا المجال .

## ٢-٦ تجربة البرمجيات في القطاع الصناعي العراقي<sup>(٥)</sup>

لعل من المفيد استعراض تجربة عملية لانشاء مركز لنظم البرمجيات في القطاع الصناعي للدولة عربية هي العراق ذلك لما لهذه التجربة من مؤشرات جديرة بالاهتمام ضمن سياق الموضوع . وتجربة البرمجيات في القطاع الصناعي العراقي مثال واضح لما يمكن لصناعة البرمجيات النمطية ان تحقّق من عوائد تكنولوجية واقتصادية . ويرجع تاريخ المشروع لعام ١٩٧٤ حيث

(٥) البورهي ، عبد الله ، تجربة القطاع الصناعي في نقل تقنية المعلومات في العراق ، مجلة الصاعون الصناعي - منظمة الخليج للاستشارات الصناعية - العدد ٢١ - يوليو ١٩٨٥ - قطر



من هذه الملاحظة يمكن القول ان البرمجيات عموما والبرمجيات التطبيقية على وجه الخصوص يجب ان تولد وترعرع ذاتيا ضمن المجتمعات المتجانسة حضاريا . والوطن العربي رقعة جغرافية غير صغيرة لها خصوصياتها اللغوية والحضارية التي تبرر قيام مثل هذه الوحدات التي تعنى بالبرمجيات .

من العثرات الاساسية التي تعوق انتشار تكنولوجيا الكمبيوتر في البلدان العربية غياب الترابط المصري ما بين هذه التقنية والحاجة الاجتماعية واقتصادية . فمهما قيل ويقال عن أهمية هذه التكنولوجيا فالحركة الذاتية لها ضمن المجتمع لا يمكن ان تنطلق دونما اكتشاف الحاجة الاقتصادية والاجتماعية للانطلاق . فلا يكفي ان تشجع هذه التكنولوجيا كونه ظاهرة حضارية سبقتنا فيها امم اخرى . ولا يكفي ايضا للحكومات ان تخصص المبالغ الضخمة في ميزانيتها لشراء الأجهزة والمعدات دون ان تنتبه الى البنى الارتكازية المطلوبة لتنمية هذه التكنولوجيا . ففي اكثر دول العالم الثالث تعتبر مراكز الكمبيوتر معارض لاطلاع الزوار ولاقتناعهم بائمان الادارات العليا بآثارها التكنولوجية . وفي كثير من مؤسسات العالم الثالث تدخل مراكز الكمبيوتر في دوامة العمل اليومي فتصبح جزءا من الجهاز البيروقراطي للمؤسسة وتضيع الاهداف وتصبح اليوميات والتوسعات وبهيئة الواقع والندوات والدورات والتخصيصات والتوظيف هي الاهداف بدلا من كونها الوسائل .

لقد حاولت في الآونة الاخيرة الرجوع الى العديد من الدراسات التي اعدتها بعض المنظمات العربية والاقليمية المهتمة بالصناعة فلم ابرز اي منها اشارة الى أهمية البرمجيات كصناعة استراتيجية . من

المجازة التي يسوقها على كافة المستويات اكثر من ١٥ حزمة برمجية جاهزة . وينظم ما يقارب من ٣٠ دورة عملية متخصصة سنويا يشارك فيها اكثر من ٦٠٠ متسبب من متسبي القطاع الصناعي . اما المحلعات البرمجية والفنية فيتم الاستجابة لها من خلال الاتصال المباشر او الزيارات المباشرة الى استخدام المطرف عن بعد لحل مشاكل المنظومات البعيدة توفيراً لوقت الاختصاصيين العاملين على النظم .

يبلغ عدد العاملين في المركز بحدود ٤٥ متسببا وفر هؤلاء المنشآت التي يخدمونها هذا العدد من الاختصاصيين مضروبا في عدد المنشآت الذين يصعب توفيرهم في ٣٥ منشأة صناعية موزعة في كافة محافظات العراق .

### ٣- البرمجيات والمستقبل

#### ١-٣ الاعتماد على الذات

لا توجد تكنولوجيا تعتمد على البيئة الثقافية والاجتماعية قدر تكنولوجيا المعلومات عموما والبرمجيات على وجه الخصوص ، ذلك لأن البرمجيات تعبر عن اساليب عمل مرتبطة بكيفية قيام وحدة ديناميكية باعمالها بأسلوب متسلسل . وبسبب هذا الترابط اصيب معظم المحاولات لاستيراد البرمجيات التطبيقية الجاهزة للأساليب الادارية والحسابية وحتى الصناعية الى الدول النامية بالفشل . ونتجاح بعض المحاولات المحدودة لاستيراد مثل هذه البرمجيات كانت على حساب التخلي عن امور وتقاليذ ذاتية اولها اللغة الام للمجتمع .

ومعوقات تنمية التكنولوجيا في هذه الدول منها :-

- في مجال سياسات تكنولوجيا المعلومات - وبالرغم من الاهتمام الظاهري لكافة الحكومات بأهمية هذه التكنولوجيا إلا أن التنسيق الاقليمي وتبادل الخبرات والتقييس في المنطقة العربية ضعيف جدا .

- في مجال ادارة التكنولوجيا والتبعات الاجتماعية والاقتصادية - بينت الدراسة ضعف التخطيط وغياب المعايير الاقتصادية والاجتماعية في اختيار التطبيقات . وبالمقابل غياب الوعي الاجتماعي والاقتصادي لمستقبلي هذه التكنولوجيا وتقييمها . فالعديد من التطبيقات الضرورية للمجتمعات النامية في مجالات الهندسة والطب والزراعة ورفع مستوى الفرد تكاد تكون مفقودة بينما يتم التركيز على التطبيقات الادارية والحلدية والتوثيقية .

- في مجال التعليم والقوى العاملة - لا يكفي تدريب وتعليم الاعداد المحدودة من العاملين في مجالات الكمبيوتر دون تطوير القابلية لدى هؤلاء على تدريب الآخرين ، وانتقدت الدراسة كذلك مستوى التعليم الجامعي في مجال الكمبيوتر والنقص الواضح في الكوادر التعليمية المؤهلة لتدريس موضوعاته المختلفة . كما اشارت الدراسة الى هجرة العديد من المتخصصين في هذه المجتمعات الى مجتمعات توفر لهم وسائل ممارسة المهنة والدخل المناسب معا .

كما اشارت الدراسة الى غياب التفاعل الاقليمي بين العاملين وذلك بسبب غياب الجمعيات المهنية التي تحتضنهم وترعى تطويرهم .

خصائص هذه الصناعة الجديدة انها لا تحتاج الى موارد مادية كبيرة انما تعتمد على النتاج الفكري والتطبيقي للأفراد والمجموعات فصناعة البرمجيات ستكون الصناعة الفاصلة لاستغلال الالكترونيات في كافة القطاعات العسكرية والامنية والمدنية وستكون الدول الرائدة في التنمية خلال العقود القليلة القادمة هي الدول التي يمكنها تطوير قدراتها الذاتية في مجال البرمجيات . فلم تعد القطع الالكترونية الناتج النهائي الاستراتيجي للبلدان المتقدمة بل ما يجزئ فيها من برمجيات تفصل ما بين استخدام وآخر بالرغم من تعاملها مع نفس القطعة الالكترونية . وحتى تعترف الحكومات العربية بأهمية صناعة البرمجيات وتفهم محتواها وترعى العاملين فيها ستبقى تكنولوجيا المعلومات متعثرة .

معوق آخر هو التعليم المدرسي والجامعي . ففي العديد من البلدان العربية لا زالت المدارس والجامعات تعتمد اسلوب الحفظ وزيادة كمية المعلومات التي ميأرها الوحيد قابلية الطالب على تذكر ما قرأه في الكتاب المقرر لغرض الامتحان ولم تطور المدارس والجامعات القابليات الذاتية للطلاب على التحليل والاستنتاج واساليب وضع الحلول الدقيقة العامة ( الخوارزميات ) لمجموعة المسائل الحاضرة لقواعد مشتركة . وللأسف فإن من اهم الاسس التي تعتمد عليها تكنولوجيا المعلومات هي القابليات التحليلية والتركيبية .

في دراسة اعلنت عام ١٩٨٤ من قبل برنامج الامم المتحدة للتنمية / المكتب الاقليمي للدول العربية عن واقع حال تكنولوجيا المعلومات في بعض الدول العربية تم تشخيص محاور اساسية تكمن فيها مشاكل

هذه الاعتبارات تؤثر الى أهمية الريحيات وضرورة رعايتها من قبل الحكومات لكي يتحقق نوع من الاستقلال او الكفاية التكنولوجية في هذا الحقل الاستراتيجي الهام .

#### ٤- الاستنتاجات

قد يكون من المفيد استنتاج بعض الاتجاهات التكنولوجية التي على المعنيين تشجيعها في الوطن العربي لكي تروج صناعة الريحيات في البلدان العربية .

(١) الريحيات صناعة لاحتاج الى استثمارات مادية عالية بل تعتمد بالدرجة الاولى على النتائج الفكرية البشري لذا فان ما يقارب ٨٠٪ من استثمارات بيوت الريحيات هي عبارة عن رواتب واجور ، اما المعدات المستوردة لثل هذه الصناعة فكلفتها متواضعة نسبيا .

(٢) ضرورة الاسراع في ادخال تعليم تكنولوجيا المعلومات في المراحل الدراسية المبكرة وتشجيع المؤسسات التي تنتج الريحيات التعليمية للطلاب العربي لتوفير المعدات والريحيات اللازمة وتشجيع التأليف لهذا المستوى من التعليم .

(٣) ضرورة تحريك الجمعيات والنقابات المهنية الهندسية لوضع الاسس اللازمة لتحديد مؤهلات المهندسين العاملين في الريحيات والاعتراف بهم اعضاء عاملين ضمن هذه المنظمات .

(٤) ضرورة قيام المنظمات الاقليمية الصناعية بمسح واقع التكنولوجيا في البلدان العربية وتحديد الموارد

- في مجال اللغة - اهتمت الدراسة بامرئين اساسيين الاول مستوى اتقان المتحدثين للغة الاجنبية ومدى قابليتهم على متابعة اختصاصهم بلغة اجنبية والثاني أهمية توفير الاجهزة والوسائل التي يمكنها التعامل باللغة العربية .

#### ٢٠٣- الترابط ما بين الريحيات والحقول التكنولوجية الأخرى

يتحدث العديد من المهتمين بالكمبيوتر عن ان تكنولوجيا المعلومات مستلزم بنيوي اساسي (infrastructural) للعديد من الوسائل التكنولوجية الأخرى ذلك لأن من الصعب التطرق الى أية تكنولوجيا في اي حقل من حقول المعرفة مالم يكن للكمبيوتر دور فيه بشكل او بآخر ولا اعتقد ان ذلك يختلف عليه احد . الا ان تطور الالكترونيات وزيادة معمولتها وسرعتها والتوسع في تقيسها جعلت من الجزء المادي لتكنولوجيا المعلومات الجزء الاسهل نسبيا من الجزء البرمجي . فاذنا قلنا ان تكنولوجيا المعلومات مستلزم بنيوي للتكنولوجيات الأخرى يمكننا القول في نفس الوقت ان الريحيات بمعناها الواسع (الدقيق والعالي) هي مستلزم بنيوي لتكنولوجيا المعلومات . وسيصبح من السهولة الحصول على المعدات المادية باشكالها المختلفة على هيئة قطع الكترونية او وحدات الا ان الفصل ما بين الاستقلال وعدمه لهذه المعدات والقطع سيتحدد في الريحيات المحملة وهل استوعبها مستخدمها ام لا . ما الذي سيحصل عندما يتعطل البرنامج عن العمل ؟ هل يمكن استبدال البرنامج العاطل بنفس السهولة التي يمكننا بها استبدال القطعة الالكترونية ؟ وهل يمكننا الانتظار دائما للحصول على المعرفة لتصلح البرنامج العاطل من هبر الحدود ؟ كل

والقواعد الصحيحة للعمل المهني السليم .

(٦) توضيح خطورة اسلوب المشاريع الجاهزة للبرمجيات التي تعطى للشركات الاجنبية كاملة دون وجود الرفاء المحليين الذين يضمنون ديمومة صيانة مثل هذه النظم بعد تركيبها .

(٧) العمل على وضع العقود القياسية للمشاريع البرمجية وقواعد سلوك مناسبة يتتدى بها عند التعاقد .

اللازمة لوضع الاتجاعات التكنولوجية اللازمة على مستوى الوطن العربي .

(٥) ضرورة تشجيع الحكومات من خلال مؤسساتها الصناعية اقامة المشاريع الصناعية الصغيرة والمتوسطة لصناعة البرمجيات وحث مثل هذه الشركات الصغيرة على التعاون التكنولوجي الوثيق مع الشركات المائلة في البلدان المتقدمة وكذلك التعاون ما بينها لوضع الاسس



تعتبر معركة حطين من أكبر المعارك في تاريخ الحروب الصليبية إن لم تكن أكبرها على الإطلاق . ولم تكن هذه المعركة وليدة يوم السبت الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ ( ٤ يوليو ١١٨٧م ) ، إنما كانت نهاية طبيعية وحتمية لظروف وعوامل عديدة سبقتها بعشرات من السنين . ثم إن النتائج التي ترتبت عليها تحكمت ، إلى حد بعيد ، في مصير الحركة الصليبية نفسها بصفة عامة ومصير الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة على وجه الخصوص . ويتناول هذا البحث الخلفيات والاعتبارات التي أدت إلى المعركة ، والآثار التي ترتبت عليها ، دون الدخول في تفاصيل المعركة نفسها إلا بالقدر الذي يخدم هذه الدراسة .

للتعرف على الظروف التي هيأت الجو لمعركة حطين ، وتحديد مكان تلك المعركة في الصراع الصليبي الاسلامي بعمامة ، وجهاد صلاح الدين ضد الصليبيين بخاصة يحسن تناول بعض الأفكار الهامة بالدراسة المركزة .

## معركة حطين: خلفياتها ودلالاتها

جوزيف نسيم يوسف

استاذ تاريخ العصور الوسطى

بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م القى البابا الروماني اوريان الثاني ( ١٠٨٨ - ١٠٩٩ م ) من مدينة كليرمون بجنوب فرنسا ، خطبته الملتتهبة التي كانت ايلدانا ببداية الحروب الصليبية<sup>(١)</sup> . وكانت صيغة المستمعين جملة صغيرة في عدد كلماتها خطيرة في مدلولها هي « هذه هي ارادة الله » ، فكانت أبلغ تعبير عن حقيقة هذه الحروب ودوافعها البعيدة المدى ، وإن كانت قد

(١) انظر نص الخطبة في المصادر التالية التي حاصر اصحابها مؤرخ كليريون والحرب الصليبية الأولى :

Foucher de Chartres, *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium*, ed. R.H.C.-H. Occ., III (Paris, 1866) 323-4; Robert le Coine, *Historia Iherosolimitana*, ed. R.H.C.-H. Occ., III, 727-30; Baudri de Bourgueil, *Historia Jerosolimitana*, ed. R.H.C.-H. Occ., IV (Paris, 1879), 12-5; Guilbert de Nogent, *Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos*, ed. R.H.C.-H. Occ., IV, 137-40.

ولم تكن هذه الحركة التي تركت آثارها لقرون عديدة تالية فجائية ، أو نتائج عامل بالذات دون عوامل أخرى . لقد كانت حصيلة قرون عديدة سبقتها ، وعوامل متعددة متفاعلة التأثير أدت إليها . ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الحروب الصليبية أو أحد فصولها من الإشارة إلى ذلك جملة أو تفصيلا وهناك مدارس عديدة تختلف في أسلوب تناولها لهذه الحركة ودوافع قيامها فتمة فريق تناول دوافعها من مختلف الزوايا ، من سياسة واقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية وعسكرية وغيرها . بينما نظر إليها فريق آخر نظرة موضوعية شاملة من أجل ، مع ربط مختلف الظروف والأحداث بعضها ببعض وصولا للحقيقة . وثمة فريق ثالث قسم أسباب قيامها إلى جوهية غير مباشرة ترجع إلى مئات السنين قبل اندلاعها ، وثنائية مباشرة أدت إلى إشعال شرارتها الأولى التي لم تنطفئ إلا بعد ثلاثة قرون من بدايتها . وحرص هذا الفريق على تحليل كل عامل على حدة ، مع ربط كل العوامل آخر الأمر في رحلة واحدة متداخلة في بعضها ، متفاعلة فيما بينها ، عبر فترات من الزمن تمتد متباعدة . وصاحب هذا البحث ينتمي إلى المدرسة الأخيرة <sup>(١)</sup> . وفي ضوء هذا المفهوم كان منهجه في تناوله لمركة حطين : خلفياتها ودلالاتها .

وإذا أمعنا النظر في الحركة الصليبية سوف نجد أنها تمثل دورا هاما من أدوار الصراع بين العالمين الأوروبي

اتخذت من الدين ستارها ، في وقت هيمنت الكنيسة اللاتينية على مقدرات الأفراد وعلى حياتهم الخاصة والعامه . وقد اصطلاح المؤرخون الغربيون القدامى على تعريف تلك الحروب بأنها «حروب جامعة» قام بها أهل الغرب المسيحي ضد العالم العربي الاسلامي ، وبخاصة في منطقة الشرق الأدنى ، بقصد تحرير بيت المقدس وتخليص قبر المسيح <sup>(٢)</sup> . وليس هذا بمستغرب في عالم كان يركز على الناحية الدينية التي اعتبرت الأساس الأول للحياة والفكر في المجتمع الغربي الوسيط . واستمر هذا التعريف متواترا في مؤلفات المؤرخين الغربيين حتى العقود الأولى من القرن العشرين <sup>(٣)</sup> . ولكن أحدث البحوث التاريخية المحايدة أثبتت ، مثلما أثبت الواقع والتاريخ ، أن الحروب الصليبية هي حروب قام بها أهل الغرب الأوروبي ضد العالم العربي الاسلامي ، تحت دله الدين استجابة لنداء البابوية ويتوجه منها ، بقصد الاستيلاء بالقوة المسلحة على بيت المقدس في قلب فلسطين ، وتأسيس «مملكة» لهم بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المملكة ، وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشق الطرق والوسائل ، لتكون نقطة ارتكاز لهم يتوسعون منها على حساب البلدان العربية المجاورة <sup>(٤)</sup> . واعتبارا من أواسط القرن العشرين بدأت هذه النظرة المحايدة تظهر في مؤلفات عدد من المؤرخين الغربيين الحديثين ، وعلى رأسهم رينيه جروسيه ، وليس هالفن ، وجورج تريفيان ، وبرتارد لويوس <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> "Hoc enim non fuit humanum opus, sed divinum". Cf. Robert le Moine, op. cit., ed. R.H.C.-H. Occ., III, 723. (٢) Riant, P., "Inventaire critique des lettres historiques des Croisades," A.O.L., I (Paris, 1881), 2.

(٣) انظر جريز نيسم بيرف : الحرب والروم اللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ط . غسلة (الاسكندرية ١٩٨٧) ، ص ٧٢ وما يليها Grousset, R., The Sum of History, tr. by A.&H. Temple Patterson (Oxford, 1951), 181, 182; Halphen, L., (٤) L'Essor de l'Europe (Xle-XIIIe siecles) (Paris, 1941), 4ff., 46ff., 63ff.; Trevelyan, G.M., A Shortened History of England (Aylesbury, 1960), 141; Lewis, B., The Arabs in History (London, 1958), 150.

(٥) انظر جريز نيسم بيرف : الاسلام والمسيحية وصراع القوى فيما في المصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٨٦) ، ص ١٥٦ - ١٩٠

من اربعة قرون ونصف . وجعلوا على رأسها أحد زعمائهم وهو جودفري الذي قسمها الى امارات إقطاعية وزعها بين أقرانه بعد أن وجدوا في ضعف المسلمين وانقسامهم فرصة ذهبية لتحقيق أحلامهم<sup>(٨)</sup> .

ويرتبط هذا بفكرتين هامتين تتصلان بموضوع البحث : أولاهما تتعلق بأسباب تلك الهزيمة التي مني بها المسلمون في الشرق الأدنى على أيدي الصليبيين والنتائج المترتبة عليها ، وثانيتهما ارتباط ذلك بتوازن القوى في الصراع بين المسلمين والصليبيين آنذاك . أما عن الأولى ، فلاشك أن السبب الرئيسي في نجاح أهل الغرب في الاستيلاء على بيت المقدس لا يرجع الى صفات خاصة تميزوا بها دون غيرهم ، كالجسارة أو الشجاعة ، وإنما يرجع أولا وقبل أي شيء الى انقسام الشرق الأدنى الاسلامي على نفسه سياسيا ومذهبيا<sup>(٩)</sup> . وقد أوضح ذلك المؤرخ شارل أوهان عندما قال انه لو كان الحكماء المسلمون قد اتفقوا وقتذاك لاخفوا بالفرنج الهزيمة ، ولكنهم بدلا من الاتحاد لمواجهة العدو المشترك ، لم يبدلوا أي جهد لوقف تقدمه في المشرق الاسلامي<sup>(١٠)</sup> .

المسيحي والعربي الاسلامي في العصر الوسيط ، ذلك الصراع الذي امتد من القرن السابع حتى القرن السادس عشر الميلادي . وهي تمثل ، في ذات الوقت ، مرحلة رئيسية من مراحل الصراع الممتد بين شقي العالم منذ القدم وحتى اليوم . فهي ، إذن ، حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة من الكفاح السياسي والحضاري عبر العصور ، منذ حروب طروادة وحروب الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين وحتى صراعات اليوم<sup>(١١)</sup> . وعلى هذا الأساس يمكن ، أيضا ، تفهم الظروف التي هيأت الجوف معركة حطين واسترداد صلاح الدين لبيت المقدس .

على أية حال ، منذلقى اريان الثاني خطبته في كليرون ، والاستعدادات كانت قائمة على قدم وساق للحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) ، التي انتهت . كما هو معروف - بتأسيس امارة الرها في أعالي الفرات (أوائل ١٠٩٨ م) وامارة انطاكية بأعالي الشام (يونيو ١٠٩٨ م) ، وملكة القدس في قلب فلسطين (يوليو ١٠٩٩ م)<sup>(١٢)</sup> . وهكذا أسس الفرنج مملكتهم ، في مدينة القدس التي كانت في حوزة المسلمين منذ عام ٦٣٧م وحتى ذلك التاريخ ، أي أكثر

Cr. Atiya, A.S., *Crusade, Commerce and Culture* (Bloomington, 1962), 23-8; Grousset, op. cit., 7-12; Arnold, T. (٧) & Guillaume, A. (eds.), *The Legacy of Islam* (London, 1952), 40-1.

Matthieu d'Edesse, *Extraits de la chronique de Matthieu d'Edesse*, ed. R.H.C.-Doc. Arm., I (Paris, 1869), 37-43; (٨) Michel le Syrien, *Extraits de a chronique de Michel le Syrien*, ed. R.H.C.-Doc. Arm., I, 328; Foucher de Chartres, op. cit., R.H.C.-H. Occ., III, 496-74; Hagenmeyer, H. (ed.), *Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum* (Reidelberg, 1890), 261ff., 353ff.; Ralmoed d' agiles, *Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem*, ed. R.H.C.-H. Occ., III, 253-7, 291ff.; Albert d'Aix, *Historia Hierosolymitana*, ed. R.H.C.-H. Occ., IV, 470ff.

انظر أيضا ابن الفلاح، وت ٥٥٥ هـ / ١١٦١ م : قبل تليخ دمشق (تريت ١٩٠٨) ، ص ١٣٦ وما بعدها .

Cf. Baldwin M.W., *The Mediaeval Church* (New York, 1960), 103.

Setton, K.M. (ed.), *A History of the Crusades*, vol. I: *The First Hundred Years*, ed. by M.W. Baldwin (١٠) (Philadelphia, 1958), 96-7; Mahmud, S.F., *The Story of Islam* (Karachi, 1959), 83, 133, 134.

انظر أيضا الخزرجي (١٤٤٧/١٤٤٥) : انماط الحفا بأخبار الأمة الفاطمية الحفا ، ج ١ (القاهرة ١٩٤٨) ، ص ٢٨٧-٢٩١ .

Oman, C.W.C., *A History of the Art of War in the Middle Ages*, I (London, 1924), 233. (١١)

وما أحرزه أولئك الدخلاء من مكاسب في بداية حركتهم، إنما كان في الدرجة الأولى بسبب تمزقهم وضعفهم. وكانوا يدركون جيدا أنهم كلما انحلوا كان ذلك بشيرا بحركة افلاحة تعقبها حملات مضادة على الغزاة. ففي اتحادهم قوة، وفي قوتهم قضاء على الفرنج وتخوير لبيت المقدس. بينما في انقسامهم ضعف، وفي ضعفهم خذلان لهم وتمكين لنفوذ اعدائهم في المنطقة. وعرضي السنين أحسن المسلمون أن وجود «ملكة» الصليبيين في قلب فلسطين أصبح يشكل خطرا جسيما يجب عليهم المبادرة بالقضاء عليه قبل أن يسرى في بقية أجزاء العالم الاسلامي. وأدركوا أن كل يوم يمر دون توحيد جبهتهم فيه خسارة محققة وتأخير لعملية الجهاد الاكبر. ومع تقادم الخطر الصليبي، ظهرت في الأفق بوادر صحوة اسلامية اعتبروا من بدايات القرن الثاني عشر الميلادي، اذ عمل المسلمون على لم شملهم لمقاومة الفرنج، وكان ذلك على هيئة وثبات عربية محلية لم تكن قد نضجت بعد في حركة واحدة. ولذلك لم يكن بوسعها تحقيق النصر النهائي على خصومهم وقتذاك<sup>(١٦)</sup>. ولكن هذا أوجد مايمرّف بحالة التوازن بين الفريقين المتصارعين: المسلمون أصحاب الديار والفرنجة الدخلاء، لم يتمكن أي منهما في هذا الدور الثاني من الكفاح من احراز نصر حاسم على خصمه، وهو الدور الذي تناوله بشيء من الاسهاب والتحليل كل

وليس من العسير أن ندرك أن أهل الغرب كانوا يعلمون تماما أنه بوسع المسلمين في الشرق الأدنى، اذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم، أن يدفعوا الخطر الصليبي عن المدينة المقدسة. ثم ان المسلمين أنفسهم كانوا يدركون، هم أيضا، أن ما أحرزه الفرنج من نجاح سريع إنما كان بسبب ضعفهم وانقسامهم. وهذا يرتبط بدوره بفكرة توازن القوى في الصراع بين الفريقين في هذه المرحلة المبكرة من الحروب الصليبية، وما يرتبط بها من مفاهيم. لقد كان مركز الثقل آنذاك يميل بقوة الى جانب الغرب الذي كان قد أفاق من غفوته بعد قرون طويلة من الفوضى والظلام. هذا بينما كان الشرق الأدنى الاسلامي متقسما على نفسه حسبيا أسفلا. لهذا أخذ الغرب بسياسة المبادرة وقام بدوره الهجوم، الامر الذي هيا له فرصة احراز انتصارات خاطفة أثناء الحملة الصليبية الأولى، انتهت باستيلائه على مدينة بيت المقدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. وقد التزم المسلمون وقتها بسياسة الدفاع عن أنفسهم ومن كياهم بوجه عام. واستمر هذا الوضع حتى بعد نهاية الحملة الأولى بسنوات. والدليل على ذلك أن الفاطميين حاولوا مرارا، ودون جدوى، استعادة المدينة<sup>(١٧)</sup>. وهذا يعني أنه مع رجحان الكفة الغربية في بداية الحركة الصليبية، لم يكن من السهل على المسلمين توجيه أي ضربة مؤثرة، أو حتى استرجاع ما فقد منهم. لم ينس المسلمون، إذن، أن ما لحقهم من خسارة

(١٦) ابن الفلاني: دليل تاريخ دمشق، ص ١٣٧، ابن تقي الدين (ت ٨٧٤/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١ (القاهرة ١٩٢٥م)، ص ١١٩. انظر أيضا المرجع التالي.

(١٧)

Runciman, op. cit., II, 166.

Albert d'Aix, op. cit., R.H.C.-H. Occ., IV, 670; Matthieu

d'Edesse, op. cit., R.H.C.-Doc. Arm., I, 19-24, 96-7; cf.

Ibn al-Athir (d. A.H. 630/A.D. 1234), Tarikh al-Dawla al-Atabikiyya Meluk al-Masul, ed. R.H.C.-H. Or., II, 26, partie (Paris, 1876), 33.



بذلك مجتمعهم . لقد كانت الحماسة مملأ أولئك القوم عندما قاموا بحركتهم . ولكن ما ان استقروا في الأراضي المقدسة ، واستمتعوا بشمسها الدافئة وأرضها الخصبة ، حتى بدأت الحماسة تحبو تدريجيا الى أن تقلصت وزالت في نهاية الأمر . لقد استهوهم الحياة الجديدة التي أدخلوا يحيونها ، وذابوا تدريجيا بين أهالي البلاد الأصليين . وتكشف المصادر اللاتينية ، وكتب الرحالة المسلمين القدامى ، عن ذلك التطور الذي طرأ على الصليبيين فقد اختلطوا بالشرقين ، وأخذوا من طباعهم وعاداتهم بنصيب ، وتزوج الكثيرون منهم وأنجبوا الأولاد ، وأعدوا أنفسهم للقائمة الدائمة في بيت المقدس وتوابعها من بارونيات وكونتريات واقطاعيات ، ولم يعودوا يفكرون في العودة الى أوطانهم<sup>(١١)</sup> وهكذا تأقلم أولئك الفرنج الذين تمشرقوا ، والذين أصبحت الأراضي المقدسة بالنسبة لهم موطنهم الأول بعد أن نسوا أوطانهم الأصلية . وبدأوا يتبلون فكرة الحرب المقدسة وصارت لهم مصالح تحتم عليهم العيش في دعة وهذه . وكان طبيعيا الا ينظر الافرنج المتمشرون الى الافرنج الجدد بعين الرضا والارتياح ، فقد اعتبروهم منافسين ومصدر لزجاج لهم ، بسبب اختلاف المصالح وتضارب المصالح والأهواء<sup>(١٢)</sup> . وكان هذا الخلاف الذي اتسعت هوته مع الأيام ، من بين العوامل التي ساعدت على انهيار الوجود اللاتيني في الأراضي المقدسة ، والتي مهدت - بالتالي - لمعركة حطين وما

من رتبته جروسية وستيفن رانسيان في مؤلفيهما عن الحروب الصليبية<sup>(١٣)</sup> .

لم يكن أمام المسلمين في مرحلة التوازن هذه سوى سبيلين لاثالث لها : إما أن يسدوا على حكام بيت المقدس اللاتين الطريق الساحلي شرقي البحر المتوسط ، ولم يكن هذا بالأمر المستطاع وقدك سبب الفلاح والموانئ التي كان الفرنج يتحصنون بها على طول الساحل . ثم ان احراز النصر النهائي عن هذا الطريق لم يكن مضمون النتائج ، بسبب ما قد يحدث من ثغرات داخل الجبهة الاسلامية نفسها قبل استكمال توحيدها قد يستغلها العدو . أما الحل الثاني الذي فرض نفسه ، فهو أن يبادر المسلمون في مصر والشام بتكوين جبهة قوية متحدة من أقصيرالشيال الى أقصى الجنوب ، بحيث يكتبها الاطبايق على « مملكة » اللاتين في القدس ، وبذلك يصبح من السهل استرداد المدينة وتحرير مقدساتها ، واخراج الفرنج من باقي المعاقل التي يتحصنون بها في بلاد الشام . وسوف يتضح ، فيما بعد ، المغزى المستفاد من عرض هذه القضايا .

هذا ، وإذا عدنا الى مدينة بيت المقدس منذ الاحتلال الصليبي لها وحتى معركة حطين ، بينا الأحداث تجري بسرعة فوق الساحة الاسلامية في الشرق الأدنى ، فسنجد أن حكامها اللاتين كانوا يبدلون قصارى جهدهم لتشجيع الفريين على المجيء اليها والاستيطان فيها ، حتى تزداد أعدادهم ويثوي

Grousset, R., Histoire des Croisades, II (Paris, 1935), 24ff., 310ff., 609ff.; Runciman, op. cit., II, 291ff.

(١٤)

(١٥) ابن منذ (ت ١١٨٨/٨٩) : كتاب الإخبار (لغت ١٨٨٤) ، ص ١٩٩ . وأيضاً :

Lewis, The Arabs in History, 150-2; Runciman, op. cit., 291; Grousset, Sum of History, 177.

"Pulani dicuntur, qui de patre Syriano et matre Francigena generantur." Cf. Joinville, J. de, Memoirs of Louis IX, King of France, tr. by Johnes of Hafod (London 1848), 466 n. 1; Ambroise, The Crusades of Richard Lion-heart, tr. from the old French by M.J. Hubert (New York, 1941), 16; Rey, E., Les colonies francaes de Syrie au XIIème et XIIIème siecles (Paris, 1883), 60-1.

بين العوامل التي أسهمت في تقويض «دولة» اللاتين في القدس، ومن الحلفائيات التي لا يمكن اغفالها عندما نتحدث عن انتصار حطين<sup>(١٧)</sup>. وسيوضح أيضا - بعد قليل، المفزى المستفاد من ذلك.

إن الحديث عن ضالة الوجود اللاتيني في الأراضي المقدسة أثناء الاحتلال الصليبي، يقودنا بالتالي إلى الكلام عن عناصر السكان في المنطقة آنذاك. لم تردنا مصادر العصر ووثائقه - من عربية وأجنبية - بأحصائيات أو بيانات عديدة دقيقة عنها. وكل ما هنالك نف مبعثرة هنا وهناك يمكن أن نستشف منها بعض البيانات التقريبية غير المحددة. واضح أن عدد الفرنج الذين أقاموا في المملكة، أثناء حكم اللاتين لها كان ضئيلا. فلم يكن عدد البارونات والفرسان وذويهم، في أي وقت من الأوقات، يزيد على ألفين. أما الأطفال الفرنج فقد كان عددهم في تناقص مستمر بسبب موت الكثيرين منهم. وإذا أضفنا إلى هؤلاء، الفرسان التابعين للجماعات الرهبانية العسكرية وبقية رجال الدين التابعين للكنيسة اللاتينية في القدس، فقد كان عددهم ينحصر بين ألفين وثلاثة آلاف ولا يدخل في هذا التعداد الأفرنج المشرقون<sup>(١٨)</sup>. والخلاصة أن الأفرنج الذين كانوا من دم لاتيني خالص، كانوا قلة في بيت المقدس وتوابعها. يؤكد ذلك مؤرخ لاتيني متأخر يدهي هيرت أوف رومانز: إذ قال في كتاب له باللاتينية بعنوان «الدعوة إلى حرب صليبية جديدة»: «وعندما نقوم بفرض بلادهم (يقصد الشرق الداخل الإسلامي)، لا توجد تحت أيدينا قوة دائمة ثابتة يمكن عن طريقها بسط نفوذنا على

حققه صلاح الدين فيها من انتصار ساحق على الصليبيين.

ولزيد من الايضاح نقول إن التجربة الصليبية كانت تخلص في قدوم الحملات الغربية لتحقيق أهدافها التوسعية تحت قناع الدين. وبعد انتهاء كل حملة يعود غالبية المغامرين الصليبيين إلى ديارهم بالغرب، بينما تبقى في الشرق أقلية منهم. وحتى هذه الأقلية أما أن تذوب تلقائيا بين الأغلبية العربية وبذلك تنمحى شخصيتها وينتهي كيانها، وأما أن تنزع إلى أوطانها بعد قليل. ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية داخل أوروبا نفسها نشد أولئك المغامرين إليها. فضلا عن اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية داخل الأرض العربية المحتلة، إلى جانب المقاومة الإسلامية الشديدة المتزايدة التي كانت تسبب لأولئك الغزاة قلقا بالغا. وأخيرا أدرك الفرنج أن المسلمين يحيطون بهم من كل جانب، وأنهم إذا تحدوا دفاها عن وجودهم ومقدساتهم، فسيطبقون عليهم ويقضون على البقية الباقية منهم. وكانت فترة التوازن في الصراع بين الطرفين قد فرضت نفسها على مسرح الأحداث. ولهذا السبب لم تكن نداءات الهجرة، مثل نداء قوشيه ذي شاور، أحد مؤرخي الحملة الصليبية الأولى من اللاتين، تلقى استجابة كافية في الغرب. يضاف إلى ما تقدم، أنه كان من عادة الصليبيين الاستقرار في المدن الساحلية، وترك المواطنين العرب في القرى يحرثون الأرض ويفلحونها. والنتيجة أن العرب كانوا دائما أغلبية في ديارهم، بينما الفرنج أقلية ليس هنالك رابطة تربطهم بالأرض التي يحتلونها وكان هذا من

(١٧) أنظر جريفي نسم يوسف: «المتون الصليبي والراي العام الغربي»، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية (الاسكندرية ١٩٦٨)، ص ١٧ - ٤٨.

Runciman, op. cit., II, 291-2.

(١٨)

واسترداد صلاح الدين لها ، حكم المدينة المقدسة تسعة  
حكام قصتهم معروفة تماماً في مراجع الحركة  
الصليبية . وبينما هنا استعراض الظواهر الهامة لتاريخ  
حكمهم ، لدلائلها في الكشف عن خلفيات المعركة  
ومعاداتها ، بالإضافة إلى ما سبق ذكره . وهذه الظواهر  
هي :

#### الظاهرة الأولى : ضعف الامكانيات البشرية

كان أكثر ما يحتاج إليه الملك الصليبي هو الحصول  
على الامدادات البشرية من الغرب . ذلك أن عدد  
المحاربين في « المملكة » لم يكن كثيراً في أي وقت من  
الأوقات <sup>(١١)</sup> . إذ لم يتعد في أحسن الأحوال بضعة مئات  
من الفرسان وعدة آلاف من المشاة حسبما أسلفنا .  
ونتيجة لذلك توالى استغاثات وخطابات المسؤولين في  
بيت المقدس إلى أهل الغرب وإلى البابوية في روما دون  
أثر ملموس <sup>(١٢)</sup> . حقيقة كانت تصل بين وقت وآخر  
جماعات مسلحة قليلة العدد من الحجاج الذين كانوا  
يحضرون لزيارة كنيسة القيامة وتقضية بضعة أسابيع أو  
أشهر في محاربة المسلمين . ولكنهم كانوا في معظم  
الاحيان يسرعون بالعودة إلى ديارهم بعد أداء الحج فلم  
يجد معظمهم بقيته المنشودة في الأراضي المقدسة في  
وقت بدأت فيه أوروبا تنشغل تدريجياً ، وبمرور  
الزمن ، عن الفرنج الشرق . ولنا أن نتصور ماذا يمكن  
أن يؤدي هؤلاء ، خصوصاً بعد اعتدال ميزان القوى

أولئك الذين يفلحون الأرض ويعيشون فيها ، طالما أن  
رجالنا لا يريدون البقاء في تلك الجهات » <sup>(١٣)</sup> .

أما غالبية الأهالي في الأراضي المقدسة وقتذاك  
فكانوا من المواطنين العرب من مختلف الفئات  
والطوائف والأجناس . وظلت كثير من المناطق التي  
احتلها الفرنج إسلامية الصيغة والطابع والسكان .  
كذلك كان الفلاحون في الجليل الأعلى وعلى امتداد  
الطريق من باتياس إلى عكا من المسلمين . وكانت  
توجد قبائل من العرب البدو على امتداد الحدود  
الجنوبية « للمملكة » وفيها وراء نهر الأردن ، وأما  
اليهود فقد قل عددهم قلة محسوسة إبان تلك الفترة من  
الزمن ، خشية من أعمال القتل والمذابح التي تعرضوا  
لها على أيدي اللاتين أثناء الحركة الصليبية <sup>(١٤)</sup> . يؤكد  
هذا ما ذكره الرحالة بنيامين التتلي عندما زار الأراضي  
المقدسة حوالي عام ١١٧٠م ، أي قبل معركة حطين  
بشأن سنوات ، من أنه لم يجد سوى جالية صغيرة العدد  
من اليهود في كافة الأراضي الخاضعة للفرنج يعيش  
منهم في بيت المقدس حوالي المائتين <sup>(١٥)</sup> . ولا يمكن  
ونحن نتحدث عن خلفيات المعركة أن نغض النظر عن  
هذه الأوضاع التي ساهمت بشكل غير مباشر في تحقيق  
هذا النصر الكبير .

وفي الفترة الممتدة من ١٠٩٩ حتى ١١٨٧م ، أي  
منذ استيلاء الفرنج على القدس وحتى معركة حطين

Throop, P., *Criticism of the Crusades: A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda* (Amsterdam, 1940), (١٩) 169.

Benjamin of Tudela, R., *Itinerary of Benjamin of Tudela* (1165-1173), tr. into Arabic from the Hebrew original (٢٠) by Ezra H. Haddad, 1st. ed. (Baghdad, 1945), 99, Runciman, op. cit., II, 294-5; Margolis, M.L. & Marx, A., *A History of the Jewish People* (Philadelphia, 1962), 359-64; Brooke, Z.N., *A History of Europe from 911 to 1198* (London, 1938), 238.

Benjamin of Tudela, op. cit., 87, 89, 90, 92, 93, 94, 95, 96, 104, 106, 108, 110. (٢١)

Runciman, op. cit., II, 324; cf. Baldwin, op. cit., 103. (٢٢)

Runciman, op. cit., II, 89-90. (٢٣)

الطرفين تكون له اليد العليا في البلاد . وقد برزت هذه المشكلة بوضوح قبل استيلاء الفرنج على بيت المقدس ، وأدت الى قيام خلافات حادة بين الاكليركيين والعلمانيين من رجال الحملة الصليبية الأولى ، فيمن يكون له الأولوية في الحكم . واستمر هذا الصراع وزادت حدته بين الفريقين طوال الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة ، وقد اتخذ اشكالا وصورا شتى متعددة<sup>(٢٤)</sup> . كل هذا كان ينخر كالموس في « دولة » الغزاة ، ويهدد الطريق في بطنه ويهدوئه أمام انتصار حطون .

#### الظاهرة الرابعة : الزيجات السياسية

كان الحكم الصليبي في الأراضي المقدسة مزيجاً عجيباً من المشاكل والمتناقضات . ومن بينها ما يمكن تسميته بالزواج السياسي ، وبكلمة أوضح ، زواج المصلحة ، أما هدف التغلب على مشكلة ما تواجه الملك اللاتيني ، أو التحالف مع قوى أخرى مسيحية ، سواء أكانت أرمينية أو بيزنطية ضد المسلمين ، أو التغلب على ضائقة مالية . والهدف أولاً وأخيراً العمل على تثبيت كيانهم المتدهاي أمام القوى الإسلامية المحيطة بهم<sup>(٢٥)</sup> . وكانت هذه الزيجات تنتهي ، في كثير من الأحيان ، بالفشل دون أن تحقق الهدف المرجو منها . وهي إن دلت على شيء ، فالأمر يدل على تداخل البنيان اللاتيني داخل « المملكة » بحيث لم يكن بوسعهم الصمود أمام الهزات والأزمات العنيفة التي كان يتعرض لها بين وقت وآخر . وكانت ضربة حطون هي المعول الذي قضى عليه .

في الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين اعتباراً من عهد الدين زنكي ، وفي عز أيام صلاح الدين على وجه الخصوص .

#### الظاهرة الثانية : ضالة الموارد المالية

لم تكن قلة الموارد البشرية هي المشكلة الوحيدة التي واجهتها بيت المقدس في ظل حكم اللاتين لما فقدت كانت المشكلة الأخرى التي لاقتل عنها خطراً هي احتياج الحكام اللاتين الدائم لليال ، للصرف منه على المقاتلين الذين كانوا يغروهم بالبقاء ، وكذلك لإدارة شؤون دولتهم<sup>(٢٦)</sup> . وكانت الحاجة لليال مشكلة شبه دائمة . وقد قام بعض الحكام الصليبيين بعمليات حربية ضد المسلمين الجاورين لهم بهدف الحصول على الغنائم ، أو الاستحواذ على الأسرى ثم بيعهم كعبيد . وكانوا ، أحياناً ، يطلقون حرية أسراهم مقابل الحصول على فديات باهظة<sup>(٢٧)</sup> . وفي بعض الأحيان كانت تعدد زيجات سياسية بهدف التغلب على هذه الضائقة المالية المستعصية التي ألقت بظلمها على الكيان اللاتيني في الأرض المقدسة ، وأفقدته حرية الحركة ، في وقت بدأت فيه اليقظة الإسلامية داهية الى تشكيل الصفوف وتوحيد القوى في المنطقة لمواجهة الخطر الصليبي ودفعه .

#### الظاهرة الثالثة : الصراع بين رجال السلك الكهنوتي والعلمانيين ، وما يعنيه .

من أعظم الأمور التي واجهت « المملكة » تلك الصراعات الظاهرة في معظم الأحيان والمستترة في بعض الأحيان بين رجال الدنيا والدين على أي

Runciman, op. cit., II, 324, 400.

(٢٤)

Runciman, op. cit., II, 72, 81-2.

(٢٥)

Grousset, Histoire des Croisades, I (Paris, 1934), 201-7; Runciman, op. cit., I, 315ff., II, 72, 82-3, 177.

(٢٦)

Runciman, op. cit., II, 36m 102-5, 177f., 292, 309, 349-50.

(٢٧)

كانت الجاليات الرهبانية العسكرية في الفترة المبكرة من تاريخ « مملكة » بيت المقدس اللاتينية ، مصدر قوة لها ، للمهام التي أوكلت إليها ، والقلاع التي كانت تحصن بها في مناطق استراتيجية هامة . وكانت تمثل القوة العسكرية الرئيسية في « المملكة » . ولكن بغي الوقت انغمس رجالها في المسائل الدنيوية ، وأصبحوا رجال دين ودنيا . وسعوا الى الربح والآثاء عن طريق التجارة والمكوس التي كانوا يفرضونها على القوافل المارة بمناطق نفوذهم . وبلغ من وفرة ثروة هذه الجياحات أنها غدت في سنة ١١٨٧م التي أحرز فيها صلاح الدين نصره الساحق على الفرنج ، من أكبر ملاك الأراضي في الشرق الأدنى ، بسبب الهبات والمعطيات من الأرض التي كان يمنحهم إياها ملوك بيت المقدس وغيرهم من الحكام الصليبيين . وأصبحت النزاعات الدائمة بينها ، والتنافس على الربح والغنائم ، شيئا عاديا مألوا ، الأمر الذي قلل مع الزمن من قوتها العسكرية في مواجهة القوى الإسلامية في المنطقة ، تلك القوى التي بدأت في توحيد جبهتها لدرء الخطر الصليبي <sup>(٢٨)</sup> .

أما الجاليات البحرية الإيطالية ، وإن كانت قد ساعدت بأساطيلها على نقل الجند والعتاد من الغرب الأوروبي الى المشرق الإسلامي ، إلا أن مشاكلها المتزايدة انعمكت على « المملكة » اللاتينية بشكل ملموس ، في وقت كانت فيه « المملكة » غارقة حتى أذنيها في مشاكل أخرى عديدة . لقد كانت حرقه هذه الجاليات التجارة وما تدره عليها من أرباح ، سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أم على حساب بني جنسها من اللاتين . ويكفي أن نعرف أن شعاع

### الظاهرة الخاصة : الفرنج القداس المشرقون والفرنج الجدد المتحمسون .

كنا قد ذكرنا أن الصليبيين الأول الذين بقوا في الشرق واستأبطوا الحياة فيه ، أصبحت لهم مصالح تربطهم به ، وأصبحوا يمشون حياة هادئة مستقرة . ولذلك لم يكونوا على استعداد لتقبل مغامرين جدد من الغرب يفضلون عليهم حياتهم . وقد بدأت العلاقات السببة والمصالح المتعارضة بين الفريقين تظهر بوضوح اعتبارا من الحملة الصليبية الثانية ( ١١٤٥ - ١١٤٨م ) وحتى وقعة حطين واسترداد بيت المقدس ، إذ اعتبر الفرنج الذين استقروا في الشرق أن موطنهم هناك وليس في الغرب ، ونظروا الى الصليبيين الجدد كعناصر منافسة وديخلة تسبب لهم المتاعب <sup>(٢٩)</sup> وترتب على ذلك أن وجد شعور بالعداء والكراهية هؤلاء الفرنج الجدد ، الأمر الذي زاد من متاعب الملك اللاتيني في بيت المقدس ، وأضاف مشكلة أخرى الى المشاكل القائمة المتفاقمة والمتراكمة . وزاد بالتالي من سوء أوضاع الوجود الصليبي أمام البقطة الإسلامية في القرن الثاني عشر الميلادي .

### الظاهرة السادسة : الجياحات الرهبانية العسكرية ، والجاليات البحرية الإيطالية .

من المشاكل الموصية التي سبب المضايقات لحكام بيت المقدس اللاتين ، وهيات في نفس الوقت الجرو للمعركة ، الجياحات الرهبانية العسكرية وبخاصة الاستبارية والداوية والتيرتوتون ، وكذلك الجاليات البحرية الإيطالية وبخاصة البنادقة والجنوية والبيازنة .

Conrad's Letter, ed. R.H.G.F., XV 534-5.

(٢٨)

(٢٩)

Lacroix, P., Vie militaire et religieuse au moyen age et à l'époque de la renaissance (Paris, 1873), 198-9; idem, La chevalerie et les croisades (Paris, 1887), 226; Grousset, op. cit., II, 510; Runciman, op. cit., II, 156-8, 312-4.

البنادقة الذي اشتهروا به كان ونحن أولا بتأق وبعده ذلك مسيحيون ، أما اجنوية فكان شعارهم « نحن جنوية أولا واخيرا » ، بمعنى أن مصالحهم الخاصة كانت تأتي في المرتبة الأولى لذلك كانت المضار الناجمة من تواجدهم في الاراضي المقدسة أثناء الاحتلال الصليبي لها أكثر من المزايا (٣١) .

وبنظرة فاحصة يمكن القول ان مصالح هؤلاء الايطاليين كانت تتعارض مع مصالح السلطات الفرنجية في المملكة ، وكان آخر ما يربون فيه هو مواصلة القتال ضد المسلمين ، الأمر الذي كان يعود بالضرر عليهم وعلى مجارعتهم . ويجب ألا ننسى أن هذه الامتيازات التي تمتعوا بها في المملكة أدت بدورها الى تقويت وتشتيت مواردها المالية وقواها البشرية ، في وقت كانت أحوالهم تتدهور فيه الى مورد ثابت من المال وجيش قائم منظم . بل ان التنافس بين الجاليات البحرية الايطالية بعضها البعض داخل بيت المقدس وتواجدها ، في سبيل الحصول على أكبر قدر من المغنم ، أدى الى قيام الصراعات المتتمة بينها ، الأمر الذي زاد الطين بلة (٣٢) ، وأضاف عاملا جوهريا لا يمكن اغفاله ، الى العوامل سالفة الذكر التي أدت الى نصر حطين وعجلت به .

#### الظاهرة السابعة : مشاكل الامارات الفرنجية في الشام .

على الرغم من البعد الجغرافي للامارات الصليبية

التي تكونت في آخريات القرن الحادي عشر وبدايات القرن الثاني عشر - على الرغم من بعدها الجغرافي عن بيت المقدس ، الا أنها أضافت الى مشاكلها المتراكمة مشاكل أخرى عديدة . لقد انشغل حكام هذه الامارات في القتال ضد بعضهم ، ضد جيرانهم من مسلمين وبيزنطيين ، وحسب الظروف والأحوال . وكثيرا ما استعانوا بحلفاء من المسلمين في صراعاتهم تلك (٣٣) وان دل هذا على شيء ، فلأنما يدل كيف انعكست مشاكل تلك الامارات على « المملكة » اللاتينية في القدس ، فزادت من أعبائها ، وأضعفت من قوتها ، حتى أنها لم تقو على الصمود امام صلاح الدين عندما وجه ضربه اليها في حطين .

#### الظاهرة الثامنة والأخيرة : سياسة الحكام الصليبيين حيال العرب الخاضعين لهم

لقد أبدى أولئك الحكام توددا ظاهريا حيال العرب الخاضعين لهم من مسلمين ومسيحيين شرقيين في مساهمهم المستميت للابقاء على وجودهم المهترئ ، فسمحوا لهم بتشديد عدد من المساجد والكنائس الشرقية ، وأذنوا للمسلمين بالقسم على القرآن في المحاكم ، وأباحوا زواج المصاهرة بين الفرنج والعرب . وفي سعيهم للتقرب من الأهالي منحوا حرية التجارة في القدس للناس من كافة الطبقات . وسمحوا لتجار المسلمين في المناطق المجاورة بالقدوم بمجارعتهم الى بيت المقدس والموانئ الساحلية التابعة

Runciman, op. cit., II, 73, 88, 92, 167-71, 294, 314-5; Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen age, (٣٠) I (Leipzig, 1885), 343-4; Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe, tr. from the French by I E Clegg (London, 1961), 30-3.

انظر أيضا جوزيف دسم يوسف : الغرب والروم اللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ص ٨٧ - ٩٠ .

Runciman, op. cit., II, 315.

Runciman, op. cit., II, 187-90.

(٣١)

(٣٢)

أثره غير المباشر ، الى جانب الاعتبارات الأخرى ، في تهيئة الطريق لنصر حطين .

لعلنا نستبين مما سبق أن المشاكل كانت تلاحق حكام بيت المقدس اللاتين منذ اليوم الأول . وهي مشاكل معقدة ، متداخلة في بعضها ، تراكت وتفاقت بمرور الزمن بحيث لم يكن من السهل تحطيطها ، أو التغلب عليها ، أو إيجاد حلول حاسمة لها . لقد كانت القدس وتوابعها وقتها مسرحا عجيبا للدماسيس والمفاجرات والمناورات والفوضى التي لا أول لها ولا آخر . زيادة على ذلك ، وجود أطفال قصر يتولون الحكم تحت وصاية أشخاص أصحاب مطامع في الحكم ، أو وجود حكام مرضى لا يقومون على ممارسة مهام الحكم والقيام بمسؤولياته . وكان هذا أمرا متوقعا . لقد بدأ مجتمعهم الاقطاعي الذي أقاموه في الشرق الأدنى متداعيا منهارا لا يقوى على الوقوف على قدميه ، ولاتوافر فيه مقومات الدول والحكومات الشرعية بالمعنى المفهوم . لقد ولد هذا المجتمع ضعيفا هزيبا . فلم توجد فيه سيات الأمم والحكومات ، كالأداب والعرف والتقاليد والجيش القومي الدائم المسلح المدرب ، والأسطول الثابت المزود بالطقم من البحارة ، أو الثروة العامة ورؤوس الأموال النامية ، بل ضم أشتاتنا من الخلق من مختلف الأجناس واللغات ، ومن مختلف الفئات والطوائف والطبقات الوافدة من الغرب في أرض غير أرضها وملك غير

لهم ، وأمرؤا بحسن معاملتهم<sup>(٣٣)</sup> وأشار الرحالة ابن جبير الى ذلك أثناء زيارته لبلاد الشام<sup>(٣٤)</sup> .

لقد اضطر حكام بيت المقدس اللاتين الى اصطناع هذه السياسة حتى يضمنوا تصريف متجائعهم من ناحية ، ولإيجاد حالة من الازدهار والرخاء في « المملكة » تعين على بقائهم وزيادة مواردهم وإيراداتهم من ناحية أخرى ، وحتى لا يظلوا أقلية منزلة عن الغالبية العربية من الأهالي من ناحية ثالثة<sup>(٣٥)</sup> . والخلاصة أنهم سعوا الى كسب الأهالي الى جانبهم ، واعتمدوا عليهم اعتمادا يكاد يكون كليا في الزراعة والصناعة والتجارة ، وفي البناء والتشييد والزخرفة . ولم يكن أمامهم إلا أن ينجحوا هذا السبيل ، ولاغرو ، فقد كان العرب وقتها يتفوقون حضاريا على الغرب اللاتيني الذي أخذ يهل من علومهم ومعارفهم في شق مناسخ الحياة<sup>(٣٦)</sup> .

وان دل هذا على شيء ، فالما يدل على أن الفرنج بعد أن اسقط في أيديهم ، بدأوا في اصطناع سياسة المداينة حيال العرب الخاضعين لهم والمسلمين المجاورين ، عليهم يحققون ما انشققوا في تحقيقه عن طريق الحرب والقتال . كما يكشف ، بشكل غير مباشر ، عن احساسهم بأن وجودهم في المنطقة لا يرتكز على أسس صلبة متينة . ولأشك أن احساسهم الدائم بالقلق وعدم الاستقرار والخوف مما يجنبه لهم المستقبل نتيجة هذه الأوضاع ، كان عاملا نفسيا له

Runciman, op. cit., II, 100-1, 156, 318.

(٣٣)

(٣٤) ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) : رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) ص ٢٧٦ - ٢٧٧ و ٢٨٨ و ٢٩٠ و ٢٩٢ . راجع لها ركني محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٥) ، ص ٨٢ - ٨٣ و ٩٨ . وكذلك :

Grousset, Sum of History, 178; G.C., Medieval

Panorama (New York, 1955), 322.

Runciman, op. cit., II, 101, 445.

(٣٥)

Runciman, op. cit., II, 318 & n. 1, 459-60, 466.

(٣٦)

وكذلك ابن مغل : كتاب الاحتيار ، نشر هليلب حتى (برستون ١٩٣٠) ، ص ١٣٢ - ١٣٤ و ١٣٧ و ١٣٨ .

والعناصر التي أسلفنا إليها ، فليس هناك من سبيل إلى تفسير أصول معركة حطين .

وإذا انتقلنا إلى القوى الإسلامية في الشرق الأدنى نقول أنه كان يقابل هذا التدهور التدريجي في الكيان اللاتيني في بيت المقدس وتوابعها ، وانشغال الغرب بمشاكله عنها ، تزايد إحساس الشعوب الإسلامية في المنطقة أن وجود هذا الكيان أصبح - على الرغم من اهتزازه - يشكل خطراً عليها يجب المبادرة بالقضاء عليه قبل أن يسري في بقية أجزاء المشرق الإسلامي . وكانت النتيجة الصحوة الإسلامية التي انفجرت واكتملت في عهد عباد الدين زنكي ونور محمد وصلاح الدين الأيوبي في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي . وكان هذا يعني بداية رجحان الكفة الإسلامية في الصراع ضد الصليبيين .

ولما كانت عجلة التاريخ في حركتها لا تعود إلى الوراء ، كذلك كان الوضع بالنسبة للصراع السياسي والعسكري القائم في الأراضي المقدسة . كانت دولة اللاتين في بيت المقدس تزداد ضعفاً وانقساماً ، بينما كان المسلمون يكتلون أنفسهم لدفع الخطر الصليبي . فقد تمكن عباد الدين (١١٢٦ - ١١٤٦م) من الاستيلاء على حلب (١١٢٨م) ، وحمه (١١٢٩م) ، والرها (١١٤٤م) (٣٨) . فكانت أول مدينة يستولى عليها الفرنج ، وأول مدينة يستردها منهم المسلمون . وتم ذلك أثناء حكم الملك الصليبي فولك أوف انجو . ثم جاء بعده ابنه نور الدين (١١٤٦ - ١١٧٤م) الذي استولى على دمشق

ملكها . ولذلك ظل عرضة للتقلبات والهزات والأزمات المتتفة ، ونهباً للكوارث والمحن والويلات التي كانت تحمل به بين الحين والحين . وكانت عوامل الضعف هذه تسري في شرايينه إلى أن قوضته من داخله في نهاية الأمر .

وفي نفس هذا الوقت الذي أصيب فيه الشرق اللاتيني بحالة من الشلل والجُمود ، بدأ الغرب الأوروبي ينشغل عنه بسبب انغماسه في مشاكله المحلية والخاصة ، وعلى رأسها الصراع العللي بين البابوية والامبراطورية على الأمور الدنيوية ، الأمر الذي أصاب المسيحية الغربية بضرر بالغ . هذا ، فضلاً عن العيوب التي نفضت في الجهاز الكنسي البابوي ، وجعلت للمفكرين ينادون باصلاحه . ولذلك لم تجد طلبات الاستغاثة التي طلبها ملوك بيت المقدس وفرنجة الشام الاستجابة الكافية . وحتى الحجاج اللاتين الذين كانوا يزورون القدس قلّ عندهم قلة محسوسة . وفقدت الحامية الدينية للحركة الصليبية ثوراً شديداً . وبدلاً من أن يندفع الناس في حروب دينية ضد المسلمين ، أصبحوا يتشككون في جدواها وفائدتها ، بعد أن ذهبت الآلاف المؤلفة من زهرة شباب الغرب بين أسير وقبيل وجريح . وتناول الكتاب والمؤرخون اللاتين المعاصرون للحركة الصليبية ، تلك الحركة بالنقد والسخرية . وكشفوا في كتبهم ومؤلفاتهم عن وجود رأى عام غربي ضد الفكرة الصليبية ، ووجود تيار معارض لها في الغرب ومنذ البداية (٣٩) .

وخلاصة القول أننا إذا تجاهلنا كل هذه الاعتبارات

(٣٧) جريزيب تسم يريف : الطوائف الصليبية والرأي العام الغربي ، ص ٣١ - ٥٢ . وكذلك المرجع التالي :

Throop op. cit., II, 2ff.

(٣٨) ابن اللاتيني : قبل تاريخ دمشق ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ ، ابن الأثير (ت ٧٣٠ هـ / ١٣٣٤ م) : تاريخ الدولة الأيوبية ملوك الرسل ، في مجموع مطبوع الحروب الصليبية ، المؤرخون الفرنسيون ، ج ٢ ق ٢ ، ص ١١٨ - ١٢٥ . راجع أيضاً :

Gregoire le Pretre, Chronique, ed. R.H.C.-Doc. Arm., I (Paris, 1869), 157.



تلك الحملات التي انتهت بهزيمة الفرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه الذي دخل القاهرة منتصرا في يناير ١١٦٩ م<sup>(١٧)</sup>. وهكذا أخضع الملك اللاتيني في محاولة ضم مصر الى «أملكه» بالشام<sup>(١٨)</sup>.

ومنذ ذلك الحين أصبحت «دولة» اللاتين في بيت المقدس محاصرة من الشمال والجنوب بقوات المسلمين، وباتت معرضة للضياع. ولم يكن أمام الفرنج، هذه المرة، سوى البحر. وحتى من هذه الناحية أصبح مركزهم مهددا بالخطر، لأن الأسطول الإسلامي القوي في البحر المتوسط كان واقفا لهم بالمرصاد. وقد انتابهم الخوف حتى لقد قال أحد كتابهم، وهو وليم الصوري الذي عاصر هذه الحقبة وشاهد أحداثها، إن هذا التغيير الجوهري الذي طرأ على القوى الإسلامية قد وقع على رؤوس الغربيين وقع الصاعقة، وكان بمثابة مصيبة كبيرة لمصالح مستعمراتهم في فلسطين<sup>(١٩)</sup>.

(١١٥٤ م)، ونجح في بناء دولة قوية متحدة ذات حدود متصلة تواجه «دولة الفرنج في القدس وباقي ممتلكاتهم في الشام، الأمر الذي أزعج الفرنج وهدد وجودهم في المنطقة<sup>(٢٠)</sup>. وحدث هذا في عهد الملك اللاتيني عموري الأول.

وبينما كان كل منها نور الدين وعموري يستنزف للآخر، تحول مجال الصراع والتنافس بينهما لتصبح مصر الفاطمية مسرحه وميدانه، إذ طرأ على الحركة الصليبية آنذاك تطور هام مظهره محاولة كل منها الاستيلاء على مصر وضمها الى أملاكه في الشام. وقد شجعهم على ذلك ما انتهت اليه حال الدولة الفاطمية في مصر من الضعف والانحلال<sup>(٢١)</sup>. وكان كل منها يعلم جيدا أن نجاحه على خصمه مرهون بنجاحه في الظفر بمصر التي أصبحت العامل الحاسم في الصراع بينها<sup>(٢٢)</sup>. وكان من نتيجة ذلك أن توالى عليها حملات كل منها فيها بين عامي ١١٦٣ و ١١٦٨ م،

(٢٩) ابن اللاتيني: قبل تاريخ دمشق، ص ٢٢٢ و ٢٢٩ - ٢١٢. انظر أيضا:

Guillaume de Tyr, *Historia rerum in partibus transmarinis gestarum*, ed. R.H.C.-H. Occ., 2e. partie (Paris, 1844), 895-7.

(٤١) ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ، في جموعة مؤرخي الحروب الصليبية، للزبغون الشرقيون، ج ١ (وايس ١٨٧٢ م)، ص ٥٥٠، ابن القدا (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٢١ م): المنصور في اخبار البشر، ج ٣ (مسألة ١٢٨٦)، ص ٤٠-٤٢، ابن قزويني (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥ (الطبعة ١٩٢٥)، ص ٢٢٨-٢٢٩ و ٢٤٥-٢٤٦ و ٢٦٣. و أيضا:

Guillaume de Tyr, op. cit., R.H.C.-H. Occ., I, 2e. partie, 833.

(٤١) ابن شداد (ت ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٨ م): سيرة صلاح الدين المسماة بالترادف السلطانية والمعلمين البوسنية (مصر ١٢١٧ هـ)، ص ٢٩-٣٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، في جموعة مؤرخي الحروب الصليبية، للزبغون الشرقيون، ج ١، ص ٥٢٥ و ٥٤٧. وأيضا:

Stevenson, W.B., *The Crusaders in the East* (Cambridge, 1907), 87.

B)24( talh djoqr flagkhts ftk ug lk ul,rx h,gr, v hq%edk lpl,% ugr lga lrv ,plilil q%l% % Xk%v h%k %v%h% ; hqk,b%v hq%v%h%h% % w 82 ' 53 % h%k h%v%v ; flrv% hq%v% h%l%h%h% % w 312 ' 912 , 632 ' 143 , 642 ' 352 ; hq%h%g td h%h%h% % w 235 ' 145 , 645 ' 155 , 355 ' 855 --- ,X%q%h :

Michel le Syrien, op. cit., R.H.C.-Doc. Arm., I, 353-9; Guillaume de Tye, op. cit., R.H.C.-H. Occ., I, 890-1, 934, 945-6. Cf. also Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury Ier. de Jersusalem en Egypte, au XIIe. siecle* (Paris, 1906), 46-8, 63-98, 172-229.

(٤٢) ابن شداد: فتاوى السلطنة، ص ٢٣-٢٤ و ٢٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص ٥٦٦-٥٦٧ و ٥٩٩ و ٦١١-٦١٢. انظر أيضا: Casanova, P., "Les derniers Fatimides," ed. *Memoires de la Mission Archeologique Francals du Caire*, VI, 3e. fasc. (Paris, 1893), 422-32; Schlumberger, op. cit., 262-91.

Guillaume de Tyr, op. cit., R.H.C.-H. Occ., I, 2e. partie, 895-7.

(٤١)

موقعة مرج عيون ، وإن لم تخرج الفرنج من معقلهم في بيت المقدس ومن الجيوب الصليبية الأخرى في الشام .

ويخرج عيون تنتهي المرحلة الأولى لتبدأ المرحلة الثانية من جهاد صلاح الدين (١١٨٢ - ١١٨٧ م) ، وكانت قد أثارت محاولات أرناط تخريب مكة والمدينة ، وأوغرت صدور المسلمين ضد الفرنج ، فقام بحملات منظمة ضدهم ، وهاجهم في معقلهم مثل عين جالوت والكرك فيها بين عامي ١١٨٣ و ١١٨٦ م ، بحيث لم يترك لهم سبيلا للراحة . وتنتهي هذه المرحلة بمحاولة غير ناجحة لصلاح الدين في حصار الكرك في أوائل ١١٨٧ م بقصد الاستيلاء عليها .

ثاني بعد ذلك المرحلة الثالثة والأخيرة من جهاده ، وهي الحرب الهجومية . ففي ٢ يوليو ١١٨٧ م استولى صلاح الدين على طبرية ، ثم التقى بجيوش الفرنج مجتمعين في حطين بعد ذلك بيومين ، وهناك وقعت أكبر معركة في تاريخ الحركة الصليبية لحقت بالفرنج فيها هزيمة ساحقة . وتبعت ذلك سلسلة من الانتصارات أحرزها صلاح الدين ، حيث أغلقت معقلهم تسقط في قبضته الواحد بعد الآخر ، إلى أن وصلت جيوشه أمام بيت المقدس التي استسلمت حاميتها ، ودخلها صلاح الدين منتصرا يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ( ٢ أكتوبر ١١٨٧ م )<sup>(٥٠)</sup> . وجدير بالتنويه هنا أن صلاح الدين لم ينتقم من سكانها الفرنج ، بل عاملهم معاملة إنسانية كريمة سجلها كتابهم ومؤرخوهم<sup>(٥١)</sup> ، وذلك بعكس ما فعله الفرنج عندما اقتحموا المسجد الأقصى وقبة الصخرة بعد استيلائهم على القدس في

كان هذا يعني تأكيد رجحان الكفة الإسلامية في الصراع بين المسلمين والصليبيين ، بحيث أصبح مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبهم . هذا ، بينما كانت مدينة بيت المقدس وتوابعها تزداد ضعفا وهزالا يوما بعد يوم ، والغرب الأوروبي في شغل شاغل عنها بسبب ما استجد على المسرح هناك من متغيرات . وكان صلاح الدين الذي خلف أمد الدين شريكوه قد أعلن نهاية الدولة الفاطمية في مصر وبداية الدولة الأيوبية التي قامت على أساس الجهاد ضد الصليبيين ، وليكون هو أول ملوكها .

وهكذا أصبح كل شيء معدا ، وياتي الظروف مهية لتوجيه الضربة القاصمة إلى الصليبيين و «ملكهم» في الأراضي المقدسة ، بعد أن قضت حركة البقعة الإسلامية على كل أمل لهم في التوسع ، بل وفي مجرد البقاء . وتم هذا أيام صلاح الدين فبعد أن اطمأن إلى سلامة الجبهة الإسلامية في الشرق الأدنى ، قام بجهاده المعروف ضد الصليبيين . وقد مر هذا الجهاد بثلاث مراحل تقع معركة حطين في المرحلة الثالثة والأخيرة منه ، المرحلة الأولى (١١٧١ - ١١٧٩ م) كانت مرحلة أعداد ومناورات . وقد بدأت منذ اليوم الأول الذي تولى فيه الملك على مصر ، عندما حاصر قلعة الشوك (١١٧١ م) الواقعة في طريق القوافل بين الشام ومصر ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها لدفاع الفرنج عنها . وفي أكتوبر ١١٧٧ م التقى أمام الرملة بأحد زعماء الفرنج وهو أرناط صاحب الكرك ، ولكنه انهزم أمام حصن بيت جبرين . وفي خريف ١١٧٩ م انتصرت جيوشه على الصليبيين في

(٥٠) ابن شداد : التواريخ السلطانية ، ص ٦٠ - ٧٣ - ١١٣ و ١١٤ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ و ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٥ و ١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ و ١٩١ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٢ و ٢١٣ و ٢١٤ و ٢١٥ و ٢١٦ و ٢١٧ و ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ و ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ و ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٠ و ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٨٩ و ٢٩٠ و ٢٩١ و ٢٩٢ و ٢٩٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣٠٠ و ٣٠١ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٠٦ و ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ و ٣١٨ و ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٢٢ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٢٨ و ٣٢٩ و ٣٣٠ و ٣٣١ و ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٥ و ٣٣٦ و ٣٣٧ و ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٤٠ و ٣٤١ و ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥ و ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٣٥١ و ٣٥٢ و ٣٥٣ و ٣٥٤ و ٣٥٥ و ٣٥٦ و ٣٥٧ و ٣٥٨ و ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٦٤ و ٣٦٥ و ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٦٨ و ٣٦٩ و ٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٢ و ٣٧٣ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٧٧ و ٣٧٨ و ٣٧٩ و ٣٨٠ و ٣٨١ و ٣٨٢ و ٣٨٣ و ٣٨٤ و ٣٨٥ و ٣٨٦ و ٣٨٧ و ٣٨٨ و ٣٨٩ و ٣٩٠ و ٣٩١ و ٣٩٢ و ٣٩٣ و ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٣٩٦ و ٣٩٧ و ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٠٠ و ٤٠١ و ٤٠٢ و ٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٤٠٦ و ٤٠٧ و ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤١٣ و ٤١٤ و ٤١٥ و ٤١٦ و ٤١٧ و ٤١٨ و ٤١٩ و ٤٢٠ و ٤٢١ و ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٢٧ و ٤٢٨ و ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٣١ و ٤٣٢ و ٤٣٣ و ٤٣٤ و ٤٣٥ و ٤٣٦ و ٤٣٧ و ٤٣٨ و ٤٣٩ و ٤٤٠ و ٤٤١ و ٤٤٢ و ٤٤٣ و ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٤٦ و ٤٤٧ و ٤٤٨ و ٤٤٩ و ٤٥٠ و ٤٥١ و ٤٥٢ و ٤٥٣ و ٤٥٤ و ٤٥٥ و ٤٥٦ و ٤٥٧ و ٤٥٨ و ٤٥٩ و ٤٦٠ و ٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٦٣ و ٤٦٤ و ٤٦٥ و ٤٦٦ و ٤٦٧ و ٤٦٨ و ٤٦٩ و ٤٧٠ و ٤٧١ و ٤٧٢ و ٤٧٣ و ٤٧٤ و ٤٧٥ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٧٨ و ٤٧٩ و ٤٨٠ و ٤٨١ و ٤٨٢ و ٤٨٣ و ٤٨٤ و ٤٨٥ و ٤٨٦ و ٤٨٧ و ٤٨٨ و ٤٨٩ و ٤٩٠ و ٤٩١ و ٤٩٢ و ٤٩٣ و ٤٩٤ و ٤٩٥ و ٤٩٦ و ٤٩٧ و ٤٩٨ و ٤٩٩ و ٥٠٠ و ٥٠١ و ٥٠٢ و ٥٠٣ و ٥٠٤ و ٥٠٥ و ٥٠٦ و ٥٠٧ و ٥٠٨ و ٥٠٩ و ٥١٠ و ٥١١ و ٥١٢ و ٥١٣ و ٥١٤ و ٥١٥ و ٥١٦ و ٥١٧ و ٥١٨ و ٥١٩ و ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٢٢ و ٥٢٣ و ٥٢٤ و ٥٢٥ و ٥٢٦ و ٥٢٧ و ٥٢٨ و ٥٢٩ و ٥٣٠ و ٥٣١ و ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٥٣٤ و ٥٣٥ و ٥٣٦ و ٥٣٧ و ٥٣٨ و ٥٣٩ و ٥٤٠ و ٥٤١ و ٥٤٢ و ٥٤٣ و ٥٤٤ و ٥٤٥ و ٥٤٦ و ٥٤٧ و ٥٤٨ و ٥٤٩ و ٥٥٠ و ٥٥١ و ٥٥٢ و ٥٥٣ و ٥٥٤ و ٥٥٥ و ٥٥٦ و ٥٥٧ و ٥٥٨ و ٥٥٩ و ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٢ و ٥٦٣ و ٥٦٤ و ٥٦٥ و ٥٦٦ و ٥٦٧ و ٥٦٨ و ٥٦٩ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٢ و ٥٧٣ و ٥٧٤ و ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٧٧ و ٥٧٨ و ٥٧٩ و ٥٨٠ و ٥٨١ و ٥٨٢ و ٥٨٣ و ٥٨٤ و ٥٨٥ و ٥٨٦ و ٥٨٧ و ٥٨٨ و ٥٨٩ و ٥٩٠ و ٥٩١ و ٥٩٢ و ٥٩٣ و ٥٩٤ و ٥٩٥ و ٥٩٦ و ٥٩٧ و ٥٩٨ و ٥٩٩ و ٦٠٠ و ٦٠١ و ٦٠٢ و ٦٠٣ و ٦٠٤ و ٦٠٥ و ٦٠٦ و ٦٠٧ و ٦٠٨ و ٦٠٩ و ٦١٠ و ٦١١ و ٦١٢ و ٦١٣ و ٦١٤ و ٦١٥ و ٦١٦ و ٦١٧ و ٦١٨ و ٦١٩ و ٦٢٠ و ٦٢١ و ٦٢٢ و ٦٢٣ و ٦٢٤ و ٦٢٥ و ٦٢٦ و ٦٢٧ و ٦٢٨ و ٦٢٩ و ٦٣٠ و ٦٣١ و ٦٣٢ و ٦٣٣ و ٦٣٤ و ٦٣٥ و ٦٣٦ و ٦٣٧ و ٦٣٨ و ٦٣٩ و ٦٤٠ و ٦٤١ و ٦٤٢ و ٦٤٣ و ٦٤٤ و ٦٤٥ و ٦٤٦ و ٦٤٧ و ٦٤٨ و ٦٤٩ و ٦٥٠ و ٦٥١ و ٦٥٢ و ٦٥٣ و ٦٥٤ و ٦٥٥ و ٦٥٦ و ٦٥٧ و ٦٥٨ و ٦٥٩ و ٦٦٠ و ٦٦١ و ٦٦٢ و ٦٦٣ و ٦٦٤ و ٦٦٥ و ٦٦٦ و ٦٦٧ و ٦٦٨ و ٦٦٩ و ٦٧٠ و ٦٧١ و ٦٧٢ و ٦٧٣ و ٦٧٤ و ٦٧٥ و ٦٧٦ و ٦٧٧ و ٦٧٨ و ٦٧٩ و ٦٨٠ و ٦٨١ و ٦٨٢ و ٦٨٣ و ٦٨٤ و ٦٨٥ و ٦٨٦ و ٦٨٧ و ٦٨٨ و ٦٨٩ و ٦٩٠ و ٦٩١ و ٦٩٢ و ٦٩٣ و ٦٩٤ و ٦٩٥ و ٦٩٦ و ٦٩٧ و ٦٩٨ و ٦٩٩ و ٧٠٠ و ٧٠١ و ٧٠٢ و ٧٠٣ و ٧٠٤ و ٧٠٥ و ٧٠٦ و ٧٠٧ و ٧٠٨ و ٧٠٩ و ٧١٠ و ٧١١ و ٧١٢ و ٧١٣ و ٧١٤ و ٧١٥ و ٧١٦ و ٧١٧ و ٧١٨ و ٧١٩ و ٧٢٠ و ٧٢١ و ٧٢٢ و ٧٢٣ و ٧٢٤ و ٧٢٥ و ٧٢٦ و ٧٢٧ و ٧٢٨ و ٧٢٩ و ٧٣٠ و ٧٣١ و ٧٣٢ و ٧٣٣ و ٧٣٤ و ٧٣٥ و ٧٣٦ و ٧٣٧ و ٧٣٨ و ٧٣٩ و ٧٤٠ و ٧٤١ و ٧٤٢ و ٧٤٣ و ٧٤٤ و ٧٤٥ و ٧٤٦ و ٧٤٧ و ٧٤٨ و ٧٤٩ و ٧٥٠ و ٧٥١ و ٧٥٢ و ٧٥٣ و ٧٥٤ و ٧٥٥ و ٧٥٦ و ٧٥٧ و ٧٥٨ و ٧٥٩ و ٧٦٠ و ٧٦١ و ٧٦٢ و ٧٦٣ و ٧٦٤ و ٧٦٥ و ٧٦٦ و ٧٦٧ و ٧٦٨ و ٧٦٩ و ٧٧٠ و ٧٧١ و ٧٧٢ و ٧٧٣ و ٧٧٤ و ٧٧٥ و ٧٧٦ و ٧٧٧ و ٧٧٨ و ٧٧٩ و ٧٨٠ و ٧٨١ و ٧٨٢ و ٧٨٣ و ٧٨٤ و ٧٨٥ و ٧٨٦ و ٧٨٧ و ٧٨٨ و ٧٨٩ و ٧٩٠ و ٧٩١ و ٧٩٢ و ٧٩٣ و ٧٩٤ و ٧٩٥ و ٧٩٦ و ٧٩٧ و ٧٩٨ و ٧٩٩ و ٨٠٠ و ٨٠١ و ٨٠٢ و ٨٠٣ و ٨٠٤ و ٨٠٥ و ٨٠٦ و ٨٠٧ و ٨٠٨ و ٨٠٩ و ٨١٠ و ٨١١ و ٨١٢ و ٨١٣ و ٨١٤ و ٨١٥ و ٨١٦ و ٨١٧ و ٨١٨ و ٨١٩ و ٨٢٠ و ٨٢١ و ٨٢٢ و ٨٢٣ و ٨٢٤ و ٨٢٥ و ٨٢٦ و ٨٢٧ و ٨٢٨ و ٨٢٩ و ٨٣٠ و ٨٣١ و ٨٣٢ و ٨٣٣ و ٨٣٤ و ٨٣٥ و ٨٣٦ و ٨٣٧ و ٨٣٨ و ٨٣٩ و ٨٤٠ و ٨٤١ و ٨٤٢ و ٨٤٣ و ٨٤٤ و ٨٤٥ و ٨٤٦ و ٨٤٧ و ٨٤٨ و ٨٤٩ و ٨٥٠ و ٨٥١ و ٨٥٢ و ٨٥٣ و ٨٥٤ و ٨٥٥ و ٨٥٦ و ٨٥٧ و ٨٥٨ و ٨٥٩ و ٨٦٠ و ٨٦١ و ٨٦٢ و ٨٦٣ و ٨٦٤ و ٨٦٥ و ٨٦٦ و ٨٦٧ و ٨٦٨ و ٨٦٩ و ٨٧٠ و ٨٧١ و ٨٧٢ و ٨٧٣ و ٨٧٤ و ٨٧٥ و ٨٧٦ و ٨٧٧ و ٨٧٨ و ٨٧٩ و ٨٨٠ و ٨٨١ و ٨٨٢ و ٨٨٣ و ٨٨٤ و ٨٨٥ و ٨٨٦ و ٨٨٧ و ٨٨٨ و ٨٨٩ و ٨٩٠ و ٨٩١ و ٨٩٢ و ٨٩٣ و ٨٩٤ و ٨٩٥ و ٨٩٦ و ٨٩٧ و ٨٩٨ و ٨٩٩ و ٩٠٠ و ٩٠١ و ٩٠٢ و ٩٠٣ و ٩٠٤ و ٩٠٥ و ٩٠٦ و ٩٠٧ و ٩٠٨ و ٩٠٩ و ٩١٠ و ٩١١ و ٩١٢ و ٩١٣ و ٩١٤ و ٩١٥ و ٩١٦ و ٩١٧ و ٩١٨ و ٩١٩ و ٩٢٠ و ٩٢١ و ٩٢٢ و ٩٢٣ و ٩٢٤ و ٩٢٥ و ٩٢٦ و ٩٢٧ و ٩٢٨ و ٩٢٩ و ٩٣٠ و ٩٣١ و ٩٣٢ و ٩٣٣ و ٩٣٤ و ٩٣٥ و ٩٣٦ و ٩٣٧ و ٩٣٨ و ٩٣٩ و ٩٤٠ و ٩٤١ و ٩٤٢ و ٩٤٣ و ٩٤٤ و ٩٤٥ و ٩٤٦ و ٩٤٧ و ٩٤٨ و ٩٤٩ و ٩٥٠ و ٩٥١ و ٩٥٢ و ٩٥٣ و ٩٥٤ و ٩٥٥ و ٩٥٦ و ٩٥٧ و ٩٥٨ و ٩٥٩ و ٩٦٠ و ٩٦١ و ٩٦٢ و ٩٦٣ و ٩٦٤ و ٩٦٥ و ٩٦٦ و ٩٦٧ و ٩٦٨ و ٩٦٩ و ٩٧٠ و ٩٧١ و ٩٧٢ و ٩٧٣ و ٩٧٤ و ٩٧٥ و ٩٧٦ و ٩٧٧ و ٩٧٨ و ٩٧٩ و ٩٨٠ و ٩٨١ و ٩٨٢ و ٩٨٣ و ٩٨٤ و ٩٨٥ و ٩٨٦ و ٩٨٧ و ٩٨٨ و ٩٨٩ و ٩٩٠ و ٩٩١ و ٩٩٢ و ٩٩٣ و ٩٩٤ و ٩٩٥ و ٩٩٦ و ٩٩٧ و ٩٩٨ و ٩٩٩ و ١٠٠٠ و ١٠٠١ و ١٠٠٢ و ١٠٠٣ و ١٠٠٤ و ١٠٠٥ و ١٠٠٦ و ١٠٠٧ و ١٠٠٨ و ١٠٠٩ و ١٠١٠ و ١٠١١ و ١٠١٢ و ١٠١٣ و ١٠١٤ و ١٠١٥ و ١٠١٦ و ١٠١٧ و ١٠١٨ و ١٠١٩ و ١٠٢٠ و ١٠٢١ و ١٠٢٢ و ١٠٢٣ و ١٠٢٤ و ١٠٢٥ و ١٠٢٦ و ١٠٢٧ و ١٠٢٨ و ١٠٢٩ و ١٠٣٠ و ١٠٣١ و ١٠٣٢ و ١٠٣٣ و ١٠٣٤ و ١٠٣٥ و ١٠٣٦ و ١٠٣٧ و ١٠٣٨ و ١٠٣٩ و ١٠٤٠ و ١٠٤١ و ١٠٤٢ و ١٠٤٣ و ١٠٤٤ و ١٠٤٥ و ١٠٤٦ و ١٠٤٧ و ١٠٤٨ و ١٠٤٩ و ١٠٥٠ و ١٠٥١ و ١٠٥٢ و ١٠٥٣ و ١٠٥٤ و ١٠٥٥ و ١٠٥٦ و ١٠٥٧ و ١٠٥٨ و ١٠٥٩ و ١٠٦٠ و ١٠٦١ و ١٠٦٢ و ١٠٦٣ و ١٠٦٤ و ١٠٦٥ و ١٠٦٦ و ١٠٦٧ و ١٠٦٨ و ١٠٦٩ و ١٠٧٠ و ١٠٧١ و ١٠٧٢ و ١٠٧٣ و ١٠٧٤ و ١٠٧٥ و ١٠٧٦ و ١٠٧٧ و ١٠٧٨ و ١٠٧٩ و ١٠٨٠ و ١٠٨١ و ١٠٨٢ و ١٠٨٣ و ١٠٨٤ و ١٠٨٥ و ١٠٨٦ و ١٠٨٧ و ١٠٨٨ و ١٠٨٩ و ١٠٩٠ و ١٠٩١ و ١٠٩٢ و ١٠٩٣ و ١٠٩٤ و ١٠٩٥ و ١٠٩٦ و ١٠٩٧ و ١٠٩٨ و ١٠٩٩ و ١١٠٠ و ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٣ و ١١٠٤ و ١١٠٥ و ١١٠٦ و ١١٠٧ و ١١٠٨ و ١١٠٩ و ١١١٠ و ١١١١ و ١١١٢ و ١١١٣ و ١١١٤ و ١١١٥ و ١١١٦ و ١١١٧ و ١١١٨ و ١١١٩ و ١١٢٠ و ١١٢١ و ١١٢٢ و ١١٢٣ و ١١٢٤ و ١١٢٥ و ١١٢٦ و ١١٢٧ و ١١٢٨ و ١١٢٩ و ١١٣٠ و ١١٣١ و ١١٣٢ و ١١٣٣ و ١١٣٤ و ١١٣٥ و ١١٣٦ و ١١٣٧ و ١١٣٨ و ١١٣٩ و ١١٤٠ و ١١٤١ و ١١٤٢ و ١١٤٣ و ١١٤٤ و ١١٤٥ و ١١٤٦ و ١١٤٧ و ١١٤٨ و ١١٤٩ و ١١٥٠ و ١١٥١ و ١١٥٢ و ١١٥٣ و ١١٥٤ و ١١٥٥ و ١١٥٦ و ١١٥٧ و ١١٥٨ و ١١٥٩ و ١١٦٠ و ١١٦١ و ١١٦٢ و ١١٦٣ و ١١٦٤ و ١١٦٥ و ١١٦٦ و ١١٦٧ و ١١٦٨ و ١١٦٩ و ١١٧٠ و ١١٧١ و ١١٧٢ و ١١٧٣ و ١١٧٤ و ١١٧٥ و ١١٧٦ و ١١٧٧ و ١١٧٨ و ١١٧٩ و ١١٨٠ و ١١٨١ و ١١٨٢ و ١١٨٣ و ١١٨٤ و ١١٨٥ و ١١٨٦ و ١١٨٧ و ١١٨٨ و ١١٨٩ و ١١٩٠ و ١١٩١ و ١١٩٢ و ١١٩٣ و ١١٩٤ و ١١٩٥ و ١١٩٦ و ١١٩٧ و ١١٩٨ و ١١٩٩ و ١٢٠٠ و ١٢٠١ و ١٢٠٢ و ١٢٠٣ و ١٢٠٤ و ١٢٠٥ و ١٢٠٦ و ١٢٠٧ و ١٢٠٨ و ١٢٠٩ و ١٢١٠ و ١٢١١ و ١٢١٢ و ١٢١٣ و ١٢١٤ و ١٢١٥ و ١٢١٦ و ١٢١٧ و ١٢١٨ و ١٢١٩ و ١٢٢٠ و ١٢٢١ و ١٢٢٢ و ١٢٢٣ و ١٢٢٤ و ١٢٢٥ و ١٢٢٦ و ١٢٢٧ و ١٢٢٨ و ١٢٢٩ و ١٢٣٠ و ١٢٣١ و ١٢٣٢ و ١٢٣٣ و ١٢٣٤ و ١٢٣٥ و ١٢٣٦ و ١٢٣٧ و ١٢٣٨ و ١٢٣٩ و ١٢٤٠ و ١٢٤١ و ١٢٤٢ و ١٢٤٣ و ١٢٤٤ و ١٢٤٥ و ١٢٤٦ و ١٢٤٧ و ١٢٤٨ و ١٢٤٩ و ١٢٥٠ و ١٢٥١ و ١٢٥٢ و ١٢٥٣ و ١٢٥٤ و ١٢٥٥ و ١٢٥٦ و ١٢٥٧ و ١٢٥٨ و ١٢٥٩ و ١٢٦٠ و ١٢٦١ و ١٢٦٢ و ١٢٦٣ و ١٢٦٤ و ١٢٦٥ و ١٢٦٦ و ١٢٦٧ و ١٢٦٨ و ١٢٦٩ و ١٢٧٠ و ١٢٧١ و ١٢٧٢ و ١٢٧٣ و ١٢٧٤ و ١٢٧٥ و ١٢٧٦ و ١٢٧٧ و ١٢٧٨ و ١٢٧٩ و ١٢٨٠ و ١٢٨١ و ١٢٨٢ و ١٢٨٣ و ١٢٨٤ و ١٢٨٥ و ١٢٨٦ و ١٢٨٧ و ١٢٨٨ و ١٢٨٩ و ١٢٩٠ و ١٢٩١ و ١٢٩٢ و ١٢٩٣ و ١٢٩٤ و ١٢٩٥ و ١٢٩٦ و ١٢٩٧ و ١٢٩٨ و ١٢٩٩ و ١٣٠٠ و ١٣٠١ و ١٣٠٢ و ١٣٠٣ و ١٣٠٤ و ١٣٠٥ و ١٣٠٦ و ١٣٠٧ و ١٣٠٨ و ١٣٠٩ و ١٣١٠ و ١٣١١ و ١٣١٢ و ١٣١٣ و ١٣١٤ و ١٣١٥ و ١٣١٦ و ١٣١٧ و ١٣١٨ و ١٣١٩ و ١٣٢٠ و ١٣٢١ و ١٣٢٢ و ١٣٢٣ و ١٣٢٤ و ١٣٢٥ و ١٣٢٦ و ١٣٢٧ و ١٣٢٨ و ١٣٢٩ و ١٣٣٠ و ١٣٣١ و ١٣٣٢ و ١٣٣٣ و ١٣٣٤ و ١٣٣٥ و ١٣٣٦ و ١٣٣٧ و ١٣٣٨ و ١٣٣٩ و ١٣٤٠ و ١٣٤١ و ١٣٤٢ و ١٣٤٣ و ١٣٤٤ و ١٣٤٥ و ١٣٤٦ و ١٣٤٧ و ١٣٤٨ و ١٣٤٩ و ١٣٥٠ و ١٣٥١ و ١٣٥٢ و ١٣٥٣ و ١٣٥٤ و ١٣٥٥ و ١٣٥٦ و ١٣٥٧ و ١٣٥٨ و ١٣٥٩ و ١٣٦٠ و ١٣٦١ و ١٣٦٢ و ١٣٦٣ و ١٣٦٤ و ١٣٦٥ و ١٣٦٦ و ١٣٦٧ و ١٣٦٨ و ١٣٦٩ و ١٣٧٠ و ١٣٧١ و ١٣٧٢ و ١٣٧٣ و ١٣٧٤ و ١٣٧٥ و ١٣٧٦ و ١٣٧٧ و ١٣٧٨ و ١٣٧٩ و ١٣٨٠ و ١٣٨١ و ١٣٨٢ و ١٣٨٣ و ١٣٨٤ و ١٣٨٥ و ١٣٨٦ و ١٣٨٧ و ١٣٨٨ و ١٣٨٩ و ١٣٩٠ و ١٣٩١ و ١٣٩٢ و ١٣٩٣ و ١٣٩٤ و ١٣٩٥ و ١٣٩٦ و ١٣٩٧ و ١٣٩٨ و ١٣٩٩ و ١٤٠٠ و ١٤٠١ و ١٤٠٢ و ١٤٠٣ و ١٤٠٤ و ١٤٠٥ و ١٤٠٦ و ١٤٠٧ و ١٤٠٨ و ١٤٠٩ و ١٤١٠ و ١٤١١ و ١٤١٢ و

أنفسهم من منازعات وحماقات ؟ أم ترجع الى شخصية صلاح الدين القوية وعزيمته التي لا تلين ؟<sup>(٧٩)</sup> . وردا على هذه التساؤلات نقول انه لا خلاف أن انتصارات صلاح الدين التي توجهها بنصر حطين واسترداد بيت المقدس ترجع ، أولا وقبل أي شيء آخر ، الى وحدة الشرق الأذل الاسلامي من مصر جنوبا حتى الشام والعراق في أقصى الشمال في عجاوبة الخطر الصليبي ، الأمر الذي أعلى يتوازن القوى بين طرفي الصراع . فبعد أن كانت كفة الصليبيين هي الراجحة في بداية الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر ، حدث التوازن في الصراع بينها في أواسط القرن الثاني عشر ، الذي أعقبته الصحوة فالوحدة الاسلامية الشاملة في أواخر ذلك القرن . وهنا أصبح الجومها أمام صلاح الدين لتوجيه ضربته في حطين وما تلاها من تحرير المدينة المقدسة . ومع ذلك ، لا خلاف أيضا ان الخلفيات السابقة للمعركة التي تحدثنا عنها ، قد أسهمت ، بشكل أو بآخر ، وبطريق مباشر أو غير مباشر ، في التمهيد للنصر الاسلامي والتعجيل به . وفي اعتقادي أننا اذا لم نضع هذه الخلفيات مجتمعة في الحسبان ، يصبح الحديث عن معجزة المعركة وظروف وعوامل اندلاعها أمرا مبتورا .

وأخيرا ، لعلنا نستخلص مما سبق عدة حقائق لها مغزاها ودلالاتها ، هي :

أولا - الصراع بين صلاح الدين والصليبيين الذي انتهى بانتصار حطين ، هو حلقة في تلك السلسلة

الحملة الصليبية الأولى<sup>(٨٠)</sup> . وتم تظهير المسجد الأقصى من كل آثار احتلال الصليبيين له . وأعاد المسجد الأقصى وقبة الصخرة لتأدية الشعائر الاسلامية جها من جديد<sup>(٨١)</sup> . ولكن العيش لم يدم طويلا لصلاح الدين ليواصل جهاده وفتوحاته ضد الفرنج في الشام ، اذ مات في ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ / ٢١ فبراير ١١٩٣ م وله من العمر اذ ذاك ٥٥ عاما .

لقد اعتبرت معركة حطين واستعادة صلاح الدين لمدينة بيت المقدس من الفرنج ، حدثا هاما في تاريخ الحركة اصيلية بصفة عامة ، وفي التاريخ الاسلامي على وجه الخصوص ، أفاض في الحديث عنه المؤرخون المسلمون مثل ابن شداد وصناد الدين الاصفهاني وابن الأثير والمقريزي ، كما تكلم عنه بمرارة المؤرخون اللاتين مثل جاك دي فيتري ووليم الصوري . ومنذ ذلك الحين انكمشت امارات الفرنج في رقعة ضيقة بالساحل الشامي وتمكن خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ومن جاء بعدهم من سلاطين دولة المماليك الاولى من إخراجهم منها في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، بعد قرنين من الصراع الدامي المرير .

وتسائل المؤرخ ستيفن رانسيان في ختام الجزء الثاني من كتابه عن الحروب الصليبية : « هل تعزى انتصارات صلاح الدين ضد الصليبيين الى رد الفعل الخمي عند المسلمين على تحدي الفرنج ؟ أم ترجع الى ما اشتهر به كبار الزعماء المسلمين الذين سبقوه من سياسة بعيدة النظر ؟ أم ترجع الى ما وقع بين الفرنج

Runciman, op. cit., II, 466.

Runciman, op. cit., II, 316.

(٧٩)

انظر أيضا حارث باشا العارف : تاريخ القدس ( القاهرة ١٩٥١ ) ، ص ٧١ - ٧٢ و ٧٤ ( ٤٨ ) جوزيف نسم بيرس : العرب والفرس واللاتين ، ص ١١١ - ١١٨ والخوالص : والدونان الصليبي على مصر ، ط . ٢ ( الاسكندرية ١٩٨١ ) ، ص ١١٦ - ١٢١ .

Runciman, op. cit., II, 473.

(٨٠)

ولكن عندما يعتدل ميزان القوى في الصراع بين الفريقين ، كان هذا يعني نوعاً من المهدنة المؤقتة أو فترة من التريص والانتظار وجس النبض مع الاستعداد والتربح لحين موافقة الفرصة المواتية للانقضاض ، مثلما حدث أثناء بواكير الصحوة الإسلامية في الشرق الأدنى . والنجاح يكون آخر الأمر لمن تمسك له الظروف رجحان كفته مثلما حدث في نصر حطين .

ثالثاً - هذه الفكرة ترتبط بسابقتها ، وهي أن المسلمين تعلموا درساً من صراعهم ضد الصليبيين . لقد أدركوا أن تكتلهم في جبهة واحدة قوية متحدة ، كان أمراً لا مندوحة عنه للدفاع عن أنفسهم ضد الفرنج ودفع خطرهم . وهذا يعني أنه لكي يحرز المسلمون نصراً نهائياً وحاصماً حل أعدائهم ينتهي بتحرير المدينة المقدسة من قبضتهم ، يجب - أولاً وقبل أي شيء - أن يوحّدوا جبهتهم الداخلية . وهذا ما أقدم عليه صلاح الدين قبل المعركة .

رابعاً - حقيقة أخرى نستخلصها من معركة حطين هي أنه ضيقاً لاحتراز نصر إسلامي حقيق ، يجب أن تسبق عملية الكفاح المسلح عملية توحيد الجبهة الإسلامية . وهذا ما فعله صلاح الدين فهو لم يبدأ بجهاذه ضد الصليبيين إلا بعد أن اطمان إلى سلامة الجبهة الداخلية وثماسكها . وفي بعض الأحيان كانت عملية توحيد الجبهة تسير جنباً إلى جنب مع الكفاح المسلح ، وفي أحيان أخرى كان الجهاد المسلح يسبق توحيد الجبهة ، وذلك عندما كان المسلمون يجدون أنفسهم مرغمين أو مكهرمين على ذلك<sup>(٥٠)</sup> .

خامساً - كانت أهداف الحركة الصليبية منذ بدايتها - وتعني بذلك التوسع والاستيطان تحت رداء الدين -

الطويلة من الصراع بين العالمين العربي الإسلامي والأوروبي المسيحي ، التي امتد قرابة ألف عام منذ ظهور الإسلام في العقود الأولى من القرن السابع وحتى بدايات القرن السادس عشر الميلادي . وهو ، في ذات الوقت ، مرحلة من مراحل الكفاح المرير بين شقي العالم منذ القدم وحتى اليوم ،

ثانياً - أفضل تعريف للصراع بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى منذ عام ١٠٩٩ وحتى عام ١١٨٧ م ، أي منذ استيلاء الفرنج على بيت المقدس وحتى معركة حطين واستعادة صلاح الدين للمدينة المقدسة ، أنه صراع سياسي وحضاري بين قوتين عظميين وحضارتين مختلفتين ، كل منهما تحاول أن تفرض نفسها على الأخرى . وكان مركز الثقل في الصراع بين الطرفين يتنبر هيوماً وصعوداً وفقاً لتفضيلات الظروف والأحوال لدى كل منها . ففي الوقت الذي ترجع فيه كفة الصليبيين لا يكون ميزان القوى في صالح المسلمين . وبالعكس ، عندما ترجع كفة المسلمين كان يقابل ذلك انحطاط وتدهور في الجانب الصليبي . ومن هنا عندما يشعر الغرب أنه الأقوى كان يقوم بهجماته على العالم العربي الإسلامي ، ويمرر عادة انتصارات سريعة وخاطفة ، مثلما حدث أثناء الحملة الصليبية الأولى .

وعندما يستجمع المسلمون قواهم ويوحّدون جبهتهم ، كانوا يقومون بهجمات مضادة تنتهي عادة بالحقاق الهزيمة بالفرنج ، مثلما حدث في معركة حطين . وباختصار ، أمسك المسلمون في عصور القوة بزمّام المبادأة وتوجيه الضربة الأولى ، بينما التزموا بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كياناتهم بوجه عام في عصور الضعف . وبالعكس صحيح بالنسبة للطرف الآخر .

Cf. Stevenson, op. cit., 723-4.

الداخلية ، مثل القاهرة ودمشق وحلب وحماه ويغداد ، حتى أثناء رجحان كفهم في الصراع ضد المسلمين ، ورغم محاولاتهم المتكررة لتحقيق ذلك . لقد كانوا يؤثرون البقاء في المدن الساحلية أو القريبة من الساحل ، وعدم المخاطرة بالتوغل في الداخل ، لأنهم كانوا يعلمون جيدا أنهم سوف يجدون أنفسهم وسط محيط من البشر المتحيزين للانقباض عليهم وتنفيص حياتهم بحيث تصبح جحима لا يطلق . وحدث هذا بالفعل بعد استكمال توحيد الجبهة الاسلامية .

ثامنا وأخيرا - تكشف تفاصيل هذا البحث عن حقيقة هامة لها دلالتها ، وهي أن بيت المقدس - بأصوغها وجلوهرها العربية الاسلامية الموعلة في التاريخ - ظلت مدينة عربية الصبغة والطابع منذ الفتح العربي لها ، وحتى تحريرها أيام صلاح الدين . وحتى وهي في ظل الاحتلال الصليبي لها الذي لم يزد على قرن من الزمان ، كانت العناصر العربية تشكل الاكثية الغالبة فيها . فلا عجب أن تكون ضربة حطين هي بداية النهاية بالنسبة للوجود الصليبي في الشرق الأدنى الاسلامي .

دافعا وحافزا لاثارة الحماسة الاسلامية التي بدأت في شكل وبنات وتجمعات هنا وهناك ، أعقبتها الصحوة والافاقة ، التي تبلورت آخر الأمر في توحيد الجبهة الاسلامية في المنطقة ضد الدخلاء ، الى أن انتهى الأمر بالخلق هزيمة شديدة بهم في حطين واسترداد البيت المقدس .

سادسا - لأن الوجود اللاتيني في الأراضي المقدسة كان يشكل ومنذ البداية « دولة » ليس لها مقومات الدول ، كانت مسرحا للقوضى والاضطراب والمشاكل ، وثوبا للمحن والكوارث ، فقد ظل وجودا مهترًا ضعيفا مفككا تمصف به الرياح من كل جانب : رياح التمزق والتفصيص من داخله ، ورياح اليقظة والصحوة الاسلامية من خارجه . ولهذا كان مصيره الى زوال ، وجاءت ضربة حطين لتؤدي هذا الدور . وكان سقوط بقية المعاقل اللاتينية في الشام مسألة وقت لا أكثر ولا أقل .

سابعا - جدير بالتنويه ، أيضا ، أنه منذ بداية الحركة الصليبية وحتى نهايتها مرورا بمعركة حطين ، لم ينس للصليبيين اطلاقا غزو العواصم والمدن الاسلامية

### المختصرات

---

A.O.L. Les Archives de l'Orient Latin.

R.H.C.-Doc. Arm. Recueil des Historiens des Croisades — Documents Arméniens.

R.H.C.-H. Occ. Recueil des Historiens des Croisades — Historiens Occidentaux.

R.H.C.-H. Or. Recueil des Historiens des Croisades — Historiens Orientaux

R.H.G.F. Recueil des Historiens des Gaules et de la France.

张宗培

كثبت هذه التأملات ليقراها المهتمون بالتاريخ بصفة عامة ، ولكنها تهتم كل من ممارسون او يمانون الكتابة التاريخية بصفة خاصة . فهي ثمرة تجربة وخبرة طويلة في دراسة التاريخ وتدرسه تزيد على ثلاثين عاماً . فالمؤلف تيودور هيمرو حصل على الدكتوراه من جامعة ييل عام ١٩٥١ وقام بالتدريس في جامعة ويسكونسن- ماديسون منذ ١٩٥٨ ، وأصبح من أعلام الحركة التاريخية المعاصرة بالولايات المتحدة الأمريكية ، فقد اكتسب شهرة ومكانة مرموقة في دراسة تاريخ وسط أوروبا في القرن التاسع عشر . ومن أهم أعماله في هذا المجال كتب ثلاثة<sup>(١)</sup> ، هي :

« إصلاح وثورة ورجعية : دراسة في الاقتصاد والسياسة في ألمانيا ١٨١٥ - ١٨٧١ » ، والثاني بعنوان « الأسس الاجتماعية لتوحيد ألمانيا ١٨٥٨ - ١٨٧١ » ، والثالث « ميلاد أوروبا جديدة ، دراسة في الدولة والمجتمع في القرن التاسع عشر » . وأوضح انه مؤرخ حرلي ملتزم في استاذته بالجامعة مبدئاً التخصص الدقيق ، فأهم أعماله الكبيرة تتركز وتكاد تنحصر في أوروبا في القرن التاسع عشر ، مع اهتمام خاص بالأسس الاجتماعية والاقتصادية للتاريخ السياسي . وليس في اختياره هذا المجال أى غرابة ، فالاهتمام بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية في دراسة التاريخ يرجع الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر كرد فعل لما حدث في الحياة الفكرية والسياسية في أوروبا تحت تأثير الفكر الماركسي . وإذا كانت ردود الفعل قد

تأملت حول التاريخ والمؤرخين<sup>(١)</sup>

تأليف : تيودور س . هيمرو  
عرض وتعليق : مصطفى العبادي

Theodore S. Hamerow:  
Reflections on History and Historians (The University of Wisconsin Press 1987).  
— Theodore S. Hamerow:

— Restoration, Revolution, Reaction: Economic and Politics in Germany in 1815-1871.  
(Princeton University Press. 1958)

— The Social Foundations of German Unification, 1858-1871 (Princeton University Press. 1969, 1972)  
— The Birth of a New Europe: State and Society in the Nineteenth Century (University of North Carolina Press, 1983)

في نهاية الثلاثينيات . وكان من أهم آثار هاتين المحتنتين وظروفهما المعقدة تراجع اللبرالية وانزواؤها بعد أن سادت أوروبا سياسة واقتصادا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . أما روح الثورة - وهي مرتبة على الصفة السابقة - فقد تمثلت في إخضاع التجربة التاريخية السابقة ليس للمراجعة فحسب ولكن لأقصى درجات النقد . وكانت النتيجة هامة جدا ، وهي أن جيل المؤرخين الجدد لم يقتنع بما حققه جيل النصف الأول من القرن العشرين من إنجازات . ورأوا أن مناهجهم - رغم ما اتسمت به من دقة علمية - أضعف من أن تصل بهم الى معرفة الحقائق التاريخية .

هذه هي الخلفية التاريخية التي عاصرها وكتب في إطارها مؤلفنا تيودور هيمرو . والطريف في كتابه الأخير ، الذي نعرض له هنا ، وهو « تأملات حول التاريخ والمؤرخين » ( ١٩٨٧ ) ، انه محاولة جديدة يتقدم بها مؤرخ عمارس ويتخذ فيها موقفا نقديا من المنهج الذي مارسه ومن المدرسة التي عمل في إطارها . وما يزيد هذه المحاولة طرافة أن هيمرو يمثل هذا العمل نموذجا غير شائع بين الممارسين للكتابة التاريخية على مستوى التخصص الدقيق . فليس من المؤلف أن يتم المؤرخون المتخصصون بمناقشة الأسس النظرية للمعرفة التاريخية ، بل إن كثيرين منهم يعزفون عنها عن عمد في شيء من الترفع ، اعتقادا منهم أن دراسة إستيمولوجيا التاريخ أي طبيعة المعرفة التاريخية وقيمتها هي من مباحث الفلسفة أكثر من كونها من مباحث التاريخ . ولذلك لم يتجه الى دراسة الأسس النظرية للمعرفة التاريخية سوى فيلسوف مؤرخ أو مؤرخ فيلسوف . أما المؤرخ الحزقي المتخصص فقد

تباينت وتعارضت أحيانا في بعض المجالات الأخرى بين اتباع المدارس الفكرية المختلفة ، فان كثيرين من دارسي التاريخ على اختلاف انتماءاتهم سلموا بأهمية وضروة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في دراسة التاريخ ، وانما تمثل في كثير من الأحيان الحقائق الأساسية وراء الظواهر والمتغيرات السياسية أو العسكرية . ولكن مناهج تطبيق وبممارسة هذه الدراسات لم تستقر على أمس ثابتة قوية الا في فترة ما بين الحربين العالميتين ، حين قفز بها روستوفتسكي قفزة العلاقات في دراسته الرائدة عن « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية » ( عام ١٩٢٦ ) ، والذي اعتبر حينئذ أهم دراسة شاملة للجوانب الاجتماعية والاقتصادية في واحدة من أهم مراحل التاريخ وهي الإمبراطورية الرومانية . وقد اعقبها روستوفتسكي بدراسة ثانية أرقى منهجا ، موضوعها التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعصر الهلنستي ( عام ١٩٤٥ ) . وقد شارك عشرات من مؤرخي النصف الأول من القرن العشرين في إلقاء الاضواء على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في عصور ومناطق أخرى من الدراسات التاريخية . ولكنها جميعا توقفت أو كانت خلال الحرب العالمية الثانية ، ولم تكد الحرب تضع أوزارها في ١٩٤٥ حتى وجدنا جيلا جديدا من شباب المؤرخين يتقدمون الى صف الصدارة ويهتمون مسؤولية توجيه الحركة التاريخية . وتميز هذا الجيل بصفتين واضحتين هما غيبة الأمل وروح الثورة . اما غيبة الأمل فكان مبعثها أن هذا الجيل نشأ تحت تأثير عنتين قاسيتين زلزلتا كثيرا من أفكارهم ومعتقداتهم ، وهما غنة الأزمة الاقتصادية الكبرى في بداية الثلاثينيات وبعث الحرب العالمية الثانية

M. I. Rostovtzeff:— The Social and Economic History of the Roman Empire (Oxford 1926)  
— The Social and Economic History of the Hellenistic World. (Oxford 1945).

(٣)



وأخضع المادة التاريخية لتبج قاس من النقد العقل أكثر مما فعل هيرودوت. وفي العصور الوسطى غلب التفكير الديني على كتابة التاريخ في الشرق والغرب على السواء، ولكن هناك بين المؤرخين المسلمين عدد تمثلت فيهم درجة راقية من الموضوعية والنظرة النقدية للمادة التاريخية. ويكفي أن نذكر مقدمة ابن خلدون الذي استطاع في القرن الرابع عشر أن يقدم آراء في الفكر التاريخي والاجتماعي لم يسبق إليها<sup>(١)</sup>. ثم كانت النهضة الأدبية، والتي تمثلت في الثورة على الفكر الديني الذي ساد طيلة العصور الوسطى: وقد بلغت هذه الثورة ذروتها في القرن الثامن عشر فيما يعرف بعصر الاستنارة (Enlightenment) والذي يمثل أحسن تمثيل أعظم مؤرخيه إدوارد جيبون<sup>(٢)</sup>، الذي مارس مبادئ «الاستنارة» من حيث استخدام العقل المجرد في دراسة موضوع «اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية». وكذلك فعل المفكر الفرنسي المشهور مونتسكيو في دراسة حول «عظمة واضمحلال الرومان»<sup>(٣)</sup>. وما من شك أن هذه الأعمال الرائدة في القرن الثامن عشر تمثل الأصول التي نمت وانطلقت منها كتابة التاريخ الحديثة في أوروبا. وفي القرن التاسع عشر بعد ذلك، وفي إطار الانجازات الرائعة التي حققتها مجموعة من العلوم، نشطت حركة علمية جادة في التاريخ، تقاوم بعض التيارات الفلسفية والفكرية التي حاولت أن تقترح نظريات لتفسير التاريخ، مثل محاولة هيجل، فتصدى لها رائد الحركة العلمية

مضى في سعيه إلى معرفة حقائق أحداث الماضي، يستخرجها من ثلايا مختلف عن الماضي من معلومات، بعد أن يخضعها لمنهج التجريبي القاسي من التحقيق والنقد والتفسير. من أجل هذا السبب كان لمحاولة هيمرو أهمية خاصة، لأنه ينتمي إلى مثال غير شائع بين أساتذة التاريخ، فإذا كان قد اتخذ مثل غيره من التاريخ مهنة، وأمضى في دراسته وتدريسه أكثر من ثلاثين عاما، فقد اختار - على غير المؤلفين - وهو في قمة تجربته الأكاديمية أن يجلس جلسة هادئة ويلقي نظرة ناقدة إلى الأصول النظرية التي قامت عليها التجربة العلمية وتجربة الجيل الذي عاشه وعاصره.

ولعل أهمية كتاب هيمرو عن التاريخ والمؤرخين ترجع إلى أنه إضافة جديدة إلى معركة علمية نشبت بين المشتغلين بالتاريخ في النصف الثاني من القرن العشرين. وهي التي عرفت بأزمة التاريخ. أما سبب هذه الأزمة فهو اختلاف المؤرخين حول أمور أساسية في مهنتهم وهي مفهوم التاريخ وأهدافه ومنهجه. ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن هذه الأزمة أو تلك المعركة هي الأولى من نوعها في دراسة التاريخ. فالفكر التاريخي له معاركه أيضا. ففي العصور القديمة عند اليونان ثار هيرودوت<sup>(٤)</sup> - أبو التاريخ - حل منبج سابقه من الاخباريين، وله الفضل في أنه أطلق على دراسة التاريخ كلمة «Historia» بمعنى بحث، ومن بعده ارتبطت بكتابة التاريخ. ثم ثار حل هيرودوت لتلميذه ثوكريدس<sup>(٥)</sup>،

(١)

— Herodotus, The Persian Wars (C. 484-425 B.C.)

(٢)

— Thucydides, The Peloponnesian War (C. 471-401 B.C.)

(٣) عبد الرحمن بن خلدون: للفتنة (١٣٣٢-١٣٣٣-١٣٣٤ م).

(٤)

— Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire (1737-1794).

(٥)

Montesquieu (1689-1755): Considerations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur decadence (1734)

لا يمكنهم تذكر الماضي ، مقضي عليهم بتكراره ،<sup>(٩)</sup> (بحق تكرار أخطائه ومآسيه ) .

هذا هو الموقف وهذه هي المكانة التي كانت قد حظيت بها دراسة التاريخ حين اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ، ولم تكن هذه الحرب تضع أوزارها عام ١٩٤٥ حتى كان الموقف قد تبدل تبدلا بعيدا ، وواجهت المعرفة التاريخية ظروفها مختلفة كل الاختلاف ، لم يتوقعها أحد من المؤرخين أو يحسب حسابها . ويمكن أن نجمل عناصر الموقف الجديد في نقاط ثلاث :

النقطة الأولى تتمثل في التأثير الذي أحدثته التطورات السياسية الملهمة والمتلاحقة على الشائبة العالمية ومآصياها من تطورات علمية مذهلة أيضا عرفت بثورة المعلومات على بعض العقول الحساسة من المشتغلين بالتاريخ ، فمنهم من لم يتمكن من استيعاب ما هو حادث ، وشعر شعورا مريرا بعجز المعرفة التاريخية عن أن تفسر كل ما هو حادث تفسيرا مقنعا . وكانت النتيجة هي الشعور باليأس .

النقطة الثانية هي تعرض دور المعرفة التاريخية كدليل للمستقبل لتحداً قويا من جانب مجموعة من العلوم الحديثة ، بدت وكأنها أقدر على تقديم حلول لمشاكل العصر أصح مما أقدم التاريخ . بدت العلوم الحديثة - وهي الاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس - أكثر دقة وعلمية وثقة مما أظهره التاريخ . فهذه العلوم تصدت لمعضلات العصر التي تقص مضاجع الحكام ونقلدت بحلولها لعدة مشاكل التضخم والبطالة ، أو الصراعات السياسية والاجتماعية ، أو الفقر والجريمة ، أو السلوك

التاريخية وهو المؤرخ الالماني ليوبولد فون رانكه ، الذي رفع شعار : أن هدف المؤرخ هو أن يعرف « حقيقة ما حدث فعلا في الماضي . » وكان لهذه العبارة - على بساطتها - جاذبية ورواج بين من نظروا للتاريخ نظرة علمية . وفي النصف الأول من القرن العشرين كانت النظرة العلمية للتاريخ قد تأكدت وازدادت صمقا وشمولا بفضل اتساع آفاق المعرفة التاريخية لتتناول الحضارة بمظاهرها المتعددة وصفة خاصة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية . وفي الوقت نفسه ارتقى منهج البحث التاريخي وأرسيت قواعده على أسس علمية تقوم على النقد والتحليل للمصادر .

وهكذا كان قد استقر التاريخ موضوعا ومبججا في النصف الأول من القرن العشرين ، واكتسب مكانة مرموقة بين العلوم والدراسات الأكاديمية . كما انضاف الى هذه المكانة الأكاديمية مكانة اجتماعية ، نشأت عن اعتقاد راسخ بأن التاريخ ضروري لفهم حركة المجتمع واتجاهه . وما من شك أن الأهمية التي حظي بها التاريخ في منهج التعليم العام كانت تعكس ذلك الاعتقاد بأن التاريخ مفتاح صحيح لفهم الماضي ورؤية المستقبل . وهنا تدخلت أيضا إحدى المدارس الفلسفية التي تبحث في طبيعة المعرفة التاريخية وقيمتها ، والتي تسمى اصطلاحاً إبستمولوجيا-epistomology وعلى كره من المؤرخين الذين ينفرون بطبيعتهم من التفكير النظري ، أخضعت هذه المدرسة المعرفة التاريخية لمباحثها ، وحددت أن قيمة التاريخ تكمن في أنه إذا أمكننا أن نعرف من أين جئنا ، لأمكننا أن نعرف أين نحن ذاهبون . وصاغ هذه الفكرة أحد أعلام هذه المدرسة وهو جورج سانتيانا ، في كتابه « حياة العقل » على هذا النحو : « إن أولئك الذين

— George Santayana, *The Life of Reason*, 5 vols. (1905-6).

(٩)

وتطبيقها حسب قواعد منهج البحث التاريخي . وقد تبلور هذا الاتجاه الجديد فيما عرف بحركة التاريخ الجديد .

هذه هي العناصر الثلاثة الاساسية التي نشأ عنها ما عرف بأزمة التاريخ منذ منتصف القرن العشرين ، وانقسمت بشأنها مواقف المؤرخين انقساماً حاداً ، وتعددت - على المألوف - كتاباتهم حول أهداف المعرفة التاريخية ومنهج بحثها . ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال الكتابات التالية :

- Geoffrey Barraclough: History in a Changing World (1955)
- Hans Meyerhoff: History and Philosophy (1959)
- B.H. Carr: What is History? (1961)
- J.H. Plumb: The Historian's Dilemma (1964).
- Historical Studies Today, Daedalus Vol. 100 No. 1 (1971) the Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences.
- B.B. Wolman (ed): The Psychoanalytic Interpretation of History (1971).
- E. Le Roy Ladurie: Le Territoire de L'Histoire (1973).

ومع نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات كانت المعركة قد هدأت بعض الشيء وساد اعتقاد أن الأزمة قد انصهرت لصالح دعة التاريخ الجديد ، حتى دفع ثيودور بكتابة الأخير ( ١٩٨٧ ) ، وكأنه لم يفتح بكل ما حدث ، فحرك شكوكا كان قد تجاوزها أطراف المعركة في بعض مراحلها السابقة . ولسنا هنا بصدد تناول جميع مراحل الأزمة أو تفصيلات الحوار الذي احتدم بين المؤرخين التقليديين ودعاة التاريخ الجديد على مدى

والاخلاق ، أو هوم الأفراد والقلق العام . وبالمقارنة بدا التاريخ أكثر غموضاً وأقل دقة وغير قادر على أن يوحى بالثقة المطلقة التي أصبح المجتمع يتوقعها من البحث العلمي . ويمكن هذا الارتقاء الذي حققته العلوم الاجتماعية في سلم المكانة الاجتماعية والأكاديمية على حساب التاريخ تصوراً عاماً له دلالة - سواء أصبح أو لم يصبح - وهو أن الماضي لم يعد يصلح دليلاً للمستقبل . فالتغيرات التي حدثت في العالم عقب الحرب العالمية الثانية بدت هائلة لدرجة جعلتنا نعتقد أن دروس التاريخ - حتى إذا أمكننا أن نتيقن ما هي - غير قادرة على أن تعلمنا لمواجهةنا . واحتل علمه الاجتياح كرسى العرفاة في المجتمع بدلاً من المؤرخين . ولكن من يدري ، فربما لاتدوم حظوظهم بقدر ما دامت للمؤرخين . فهناك أدراك متزايد أن الأبحاث العلمية لا يمكنها أن تقدم ضمانات أكيدة لحل المشاكل الاجتماعية ، وأن المجتمع مضطر أن يعتمد الى حد كبير على محض الصدفة في التجارب والحكمة الغطرية في الانسان ، وكذلك الحظ الأهمي آخر الامر . ( راجع هيمو ص ١٩ ) .

النقطة الثالثة هي ثورة جيل المؤرخين الجدد التي أشرنا اليها ، وكان لهم موقف مزدوج ، يمثل في رفض روح اليأس التي أصابت المؤرخين التقليديين أو الذين ركنوا الى بعض مذاهب فلسفة التاريخ ، وفي قبول تحدى العلوم الاجتماعية . وقد نشأ هذا الموقف المزدوج من إدراك رواد هذه الحركة أن التجربة التاريخية الماضية شديدة التعقيد والعمق والتداخل بحيث لا يحدى في فهمها منهج التقليديين ولا محاولات النظريين من فلاسفة التاريخ ، ولا بد من نظرة اجتماعية شاملة جديدة ، توجه للماضي الاسئلة التي توجهها العلوم الاجتماعية للحاضر ، وتستخدم للإجابة عليها مناهج العلوم الاجتماعية بعد استيعابها

صنعتهم ، وأن البدائل المتاحة أمامهم هي إما أن يعتزلوا التفكير في التاريخ ويتركوه للمؤرخين ، أو أن يفرؤا - كما فعل كثير من المؤرخين - من أهواء التاريخ إلى عقيدة وراء التاريخ ، تتمثل في الفن أو الأساطير أو الدين أو اللامبالاة<sup>(١٠)</sup> . وتستمر موجة التشاؤم قوية عنيدة ويلحق بها المؤرخ البريطاني ج . هـ . بلومب (جامعة كامبردج) ، الذي يعلن في أصرار أن الأسباب التقليدية التي كانت تقدم لتبرير دراسة الماضي قد بليت بدرجة بعيدة . ففي مقال بعنوان «حيرة المؤرخ» عام ١٩٦٤ يقرر : «... أن ليس للتاريخ معنى أو فاعلية أو رجاء . لقد اندثرت فكرة الرقّي المطلق بين المشتغلين بالتاريخ ، ... وأن ٩٠٪ منهم يرون أن العمل الذي يمارسونه لا معنى له على الإطلاق» . ثم يضيف ، «هنا يكمن التناقض المأسوي ، فبينما شهد هذا القرن أروع الفتح لأقصى آفاق المعرفة التاريخية ، نجد تناقصاً مستمراً في أعداد المؤرخين الذين يؤمنون أن صحتهم ذات قيمة اجتياحية ، فلا دخل لها في تنسيق الجهد الانساني أو الفكر الانساني»<sup>(١١)</sup> .

وجدير بنا أن نلاحظ أن إشارة بلومب إلى «اندثار فكرة الرقّي المطلق بين المشتغلين بالتاريخ» ، هي رد فعل سريع لموقف أقل تشاؤماً وأكثر اعتدالاً من وقفة مؤرخ آخر قبله بثلاث سنوات وهو إ . هـ . كار هام ١٩٦١ وأعلن في تحقير : «إنني مازلت غير مقتنع بأن الرقّي في التاريخ قد توقف ... وأذهب إلى أن امكانية

أربعين سنة مضت . ولكن يمكننا أن نجعل أهم المواقف والأراء التي تمثل وجهة نظر كل جانب . ونبدأ بوجهة نظر للمشائمين الذين وقفوا تحت تأثير الصدمة ، وذهبوا إلى أن أزمة التاريخ ناتجة عن عوامل عميقة وكامنة بحيث لايجدى معها كل محاولات الترميم والأصلاح ، سواء في المنهج أو المضمون . وفي عام ١٩٥٥ نجد مؤرخاً مرموقاً مثل جيفري بارا كلاف (جامعة أكسفورد) يكتب تحت تأثير الاحساس بالأزمة في الكتابة التاريخية فيقول : «إننا مهاجمون بإحساس من عدم الثقة ، بسبب شعورنا أننا نقف على حتبة عصر جديد لاثروننا فيه تجاهلنا السابقة بليليل أمين لسلوك درويه . إن إحدى نتائج هذا الموقف الجديد هو أن التاريخ ذاته يفقد - إن لم يكن قد فقد - سلطانه الذي سبق أن مارسه على أرقى العقول باعتباره السبيل لفهم الحياة المعاصرة»<sup>(١٢)</sup> . ويزداد الموقف اليائس عدداً وخطورة بانضمام واحد من رواد المشتغلين بفلسفة التاريخ في الغرب وهو هانس مايرهوف حين تصدى لتحليل الموقف كما بدا له عام ١٩٥٩ حيث قال «لقد شهد عصرنا ذروة التعقيدات التي بدأت تتكون في القرن التاسع عشر ... وأن العالم قد بلغ درجة من التعقيد بحيث لايجدى في فهمها عملية التحليل التاريخي . فبالنسبة لمعظم الناس يبدو تتابع الأحداث في التاريخ المعاصر شديد السرعة والتناقض والغموض ، وأن القوى التي تحركها شديدة الخفاء وغير منطقية ولا يمكن التحكم فيها ، لدرجة أنهم يشعرون بالضياع في هذا العالم من تاريخ ليس من

(١٠)

— Geoffrey Barraclough, *History in a Changing World*, (Oxford 1955) 1.

(١١)

— Hans Meyerhoff, "History and Philosophy" (in) *The Philosophy of History in Our Times*, ed. by Hans Meyerhoff (Garden City, N.Y. 1959) 22-23.— J.H. Plumb, "The Historian's Dilemma", (in) *Crisis in the Humanities*, ed. J.H. Plumb (Baltimore, 1964) (١٢) 25-26.

القرن العشرين قد حققوا درجة عالية من النظرة الشمولية الى التاريخ ، وقلبوا النظر في جوانبه المتعددة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والحضارية بإجمالها ، وذلك بمنهج علم التاريخ ، فإن مدرسة التاريخ الجديد تدعو الى نظرة أكثر كسفا بتطبيق مناهج العلوم الاجتماعية ذاتها . لى أهم رفضوا لفكرة التاريخ السياسى والتاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى والتاريخ الحضارى التقليدية ، ودعوا الى دراسة السياسة التاريخية والاقتصاد التاريخى والاجتماع التاريخى وعلم النفس التاريخى . وكانت النتيجة أن شهد البحث التاريخى أكبر ثورة عرفها منذ بدايته قبل أكثر من خمسة وعشرين قرنا مضت . وبحول المؤرخون بسرعة متزايدة من طريقة « الموضوعات » وأسلوب « الوصف » فى « عرض » الأحداث والأحوال السياسية والدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، الى « معالجة المشاكل » التى كانت وقفا على العلماء الاجتماعيين من قبل . وأخذ المؤرخون يستحدثون تفريعات وتخصصات جزئية فى دراساتهم لم تكن مألوفة من قبل ، مثل الاحصاء التاريخى والديموغرافية التاريخية ، والاثنوبولوجيا التاريخية ، وعلم النفس التاريخى . والمجهوا أكثر فأكثر الى موضوعات التحليل الاحصائى لأنماط التصويت الانتخابى والخلفيات الاجتماعية ، أو التغير فى نسب المواليد والزواج والوفيات ، أو بنية المجتمع وتكوين الأسرة ، أو العديد من جزئيات الحياة اليومية لجماهير الناس الذين أهمل ذكرهم عادة التاريخ التقليدى ( ص ١٤ - ١٥ ) . هكذا كان ميلاد « تاريخ جديد » أوجز تعريفه مؤرخا لورانس ستون بهذه العبارة : « وما يجعل التاريخ الجديد هاما أنه يخصص فى الماضى ذات

الرقمى أو التقدم غير محددة . »<sup>(١٧)</sup> وهو ترديد لموقف متفائل سبق أن أكدته بيرتراند راسل (١٩٥٦) فى قوله : « نحن نلرك من التاريخ أن احوال الانسانية لاتحدها نهاية ، فلا وجود لكمال ثابت على حالة واحدة ، ولا لحكمة لايمكن الارتفاع بها . »<sup>(١٨)</sup>

هذا الانقسام فى الرأى الذى شهدته الخمسينات من هذا القرن كان انقساما أكاديميا أثارته أسئلة قديمة حول نظرية الرقى (Progress) التى تضرب بجلودها الى القرن الثامن عشر ، أو حول القيمة العملية للمعرفة التاريخية التى نادى بها الايستيمولوجيون منذ مطلع القرن العشرين . هذه الاسئلة أثارها رجال من جيل ما قبل الحرب ، وقد عاشوا ليوجهوا المختبرات الجديدة بعد الحرب ، فمهم من تشام ومهم من تغال على نحو مارأينا . فى غضون هذه الحيرة وهذا الخلاف بين الفلاسفة والمؤرخين بدأ يظهر رد فعل فئة المتطرفين من شباب المؤرخين ، الذين لم يشغلوا أنفسهم بقوامض اليأس والأمل ، وأعلنوا دعوة قوية الى كتابة التاريخ الجديد . ذلك أنهم رفضوا الخوض فى الجدل الفلسفى حول المعرفة التاريخية . فإذا كان الفلاسفة يشغلون أنفسهم بمعققة المعرفة ، فإن المؤرخ يجب أن يشغل بمعرفة الحقيقة وبعد أن عكفوا على تقويم التجربة التاريخية السابقة حتى منتصف القرن العشرين ، خرجوا بنتيجة حاسمة ، وهى أن الأزمة لم تنشأ بسبب قصور فى طبيعة المعرفة التاريخية ، ولكن بسبب قصور فى تصور المؤرخين السابقين ومناهجهم . ومن أجل الوصول الى معرفة تاريخية أرقى لابد من احداث تغير فى طبيعة الدراسة التاريخية ، ولابد من استحداث مناهج جديدة . فإذا كان المؤرخون حتى منتصف

— E.H. Carr, *What is History?* (Macmillan, 1961; Penguin 1964) 119.

(١٧)

— Bertrand Russell, *Portraits from Memory* (London, 1956) 17H.

(١٨)

يتجاوز هذا الاحساس باليأس وعدم الثقة ، فيغير موقفه ويستعيد ثقة مطلقة في دراسة التاريخ ويكتسب نظرة جديدة تماماً فيكتب في سنة ١٩٧٨ : « التاريخ وحده قادر على أن يملأنا بالبصيرة اللازمة لفهم حقيقة تطور الظواهر والنظم الاجتماعية عبر الزمن . ولكن ينبغي أن يكون تاريخاً تسوده روح علمية ويحتويه توجه اجتماعي . إن التطورات الأخيرة قد جعلت مثل هذا التاريخ في متناول أيدينا ، بقي على الجيل الجديد أن يمسك به وأن يحسن استخدامه »<sup>(١٠)</sup>

وما ينبغي أن نعلن أن موقف بارا كلاف وتحوله في حماس لحركة التاريخ الجديد يمثل انتصاراً عاماً . بين المؤرخين ، فقد استمر الموقف الرافض للمشائيم يقاوم التحول والتجديد في إصرار عنيد . ففي عام ١٩٧٧ طالعتنا دافيد دونالد من جامعة هارفارد بمقال يحمل عنوانه معنى الاستغزاز والتحدى وهو « تاريخاً بلا أهمية » ، ويؤكد فيه عدم فائدة التاريخ للحاضر والمستقبل ، ويعلم : « أن التاريخ يظهر مقدار ضعفنا ، وأنها لا نتعلم من أخطاء الماضي ، وما أقل تأثيرنا فيما ينزل بنا رن أحداث ، وما أشد عجزنا في قبضة قوى طبيعية أساسية ، هي التي تشكل الوجود الإنساني »<sup>(١١)</sup>

هذا التحدي السافر الذي أعلنه دونالد لم يمر دون رد فوري من دعاة التاريخ الجديد ، على لسان بلانش كوك ، في تحكم يتحول إلى حجة سياسية أحياناً : « ربما أحدثت فينا فرضية دونالد للتاريخ أثراً بالغاً لو لم تصدر عن موقف خاطئ متعصب . لأن التاريخ كما كان

المشاكل والقضايا التي تفحصها علوم الديموغرافية والاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس في الوقت الحاضر . »<sup>(١٢)</sup>

وتعددت مراكز حركة التاريخ في أوروبا وأمريكا وتعددت منابرهما وكان من أهم مراكزها وأكثرها نشاطاً ونغماً مجموعة من المؤرخين الفرنسيين اتحدوا من دورية « الحوليات » (Les Annales) منبراً لها ، وفي إنجلترا أصبحت دورية « الماضي والحاضر » (Past and Present) منبراً كتبهم باللغة الانجليزية ، وفي أمريكا أفسحت دورية ديدالوس Daedalus مجالاً لهم حل صفحاتها ، وشخصت لها نشرة مستقلة في عام ١٩٧١ بعنوان « الدراسات التاريخية اليوم » . ويكفي أن نتابع أعمال رواد هذه الحركة التاريخية الجديدة في هذه الدوريات أو غيرها من منشورات لندرك مقدار ما أحدثته في دراسة التاريخ من تنوع وتجديد وإثراء لانعزله له مثلاً من قبل . وكانت نتائج أعمال دعاة التاريخ الجديد باهرة حقاً ، بعثت في التاريخ حيوية وأصالة - في المضمون والمهيج - كادت تبلى تحت رتابة الكتابة التقليدية التي تعلقت ببعض الأفكار الكلية التي تمحدرت من القرن التاسع عشر . وليس أدل على مدى ما أحدثته أعمال دعاة التاريخ الجديد من تأثير في دوائر المؤرخين ، من أنها استأملت إلى جانبهم بعض من أصحابهم اليأس تحت أول إحساس بالأزمة وذلك كما حدث للمؤرخ بارا كلاف الذي اعتقد في سنة ١٩٥٥ « أن المؤرخين مهاجمون بإحساس من عدم الثقة » . . . كما سبق أن ذكرنا ، ولكن بعد مرور أكثر من عشرين عاماً ، استطاع بارا كلاف بمقله المرن المنتعج أن

— Lawrence Stone, "The Revival of Narrative: Reflections on a New Old History," *Past and Present*, 85 (1979) 15. (١٠)

— Geoffrey Barraclough, "History" (in) *Main Trends of Research in the Social and Human Sciences*, Part 2, vol. (11) 1, ed. Jacques Haver, (The Hague, Paris, New York, 1978) 443.

— David H. Donald, "Our Irrelevant history," reprinted in *American Historical Association Newsletter*, (1977), 4-6. (١١)

لعلاقته أولاً يسلمه من ضوء على مشاكل المجتمع أو العصر. فالتاريخ بهذا المعنى لاعلاقة له بالواقع الراهن. « ويعد مناقشة لبعض الآراء ومقارنة بين ما حدث في التاريخ وما حدث في بعض الدراسات الانسانية الأخرى، يكرر ما سبق أن أعلنه بلومب وآخرون، فيؤكد «إنه من الصعب أن نتجنب الاستنتاج بأن مهنة التاريخ عمر حقيقة بأزمة لا مثل لها من قبل» (ص ٢٧). ثم يعود في نهاية الفصل إلى تفصيل ما أجمل في عبارته السابقة فيقول: إن التكبير الهادئ يدلنا أن التاريخ بمعنى دراسته ينبع من حاجات وإهتمامات أساسية تمتد جلورها في صميم التجربة الانسانية الجاهلية... فحب للمعرفة التاريخية كامن فينا، لأن لنا جميعاً اهتماماً غريزياً بالعلاقة بين الماضي والحاضر.... فلذا ما سلمنا بأن الطبيعة الفطرية الغريزية هي منشأ إهتمامنا بما حدث في الماضي، فإن ذلك يحميتنا على أن نعالج السؤال المقلق الذي يُهاجم به المؤرخون دائماً، وهو «ما فائدة التاريخ؟» ويرد هيمرو بقوله: «ليس للتاريخ فائدة. إنه ببساطة موجود. وهو موجود لأن حياة الجاهلية لا تستمر بدونهُ. فلذا نحن بحاجة لمعرفة من أين جئنا من أجل أن نعرف أين نحن. إننا نشعر بحاجة لأن نتخطى حدود سنوات حياتنا القصيرة على الأرض، لترى وجودنا جزءاً من الوجود العام للأمة أو الجاهلية أو الحضارة أو الانسانية جمعاء...» (ص ٣٣)

ثم يستترك هيمرو القول، فيضيف بأن التاريخ قد يلقي ضوءاً ضئيلاً على ظلام المستقبل: «فالدراسة التاريخية - إن هي مورست بذلك وبوركنت بشيء من الحظ - يمكن أن تهدى خطواتنا إلى المستقبل، وربما زادت بعضاً حكمة أو فضلاً، ولكن يبدو أنها لا تحدث

يُدرس في الماضي، ذلك التاريخ الذي اقترؤنا له بعدد أهميته، كثيراً ما أهمل الفقراء والمستضعفين والمظلومين. حقاً كثير من الدروس التي قدمها المؤرخون التقليديون ليست بلا أهمية فحسب، ولكنها خطيرة لأنها ليست ولم تكن صحيحة. الناس فقط هم القادرون على التقدم، وليست غوامض الأمل. الناس قادرون على التحكم في مصيرهم.... إننا نعيش عصر ثورة، والثورة مرحلة وليست مجرد حادثة وإن كنا نتطلع إلى أن نتعلم التاريخ، فعلياً أن نتجنب إغراء تقديس الماضي أو تمجيدهِ. «<sup>١٨</sup>

بعد أن اشتدت حدة الحوار على هذا النحو، هذأت المعركة بعض الشيء وانصرف كل فريق إلى عمله، إلى أن كتب مؤرخاً ثيودور هيمرو كتابه «تأملات حول التاريخ والمؤرخين» (١٩٨٧) وعقد الفصل الأول لأزمة التاريخ. والكتاب في رمتي يغلب عليه طابع المحافظة، ورغم أنه حاول أن يصطنع أسلوب الحل الوسط، إلا أن مناقشته للقضايا التي يعرض لها والأحكام التي ينتهي إليها تكشف عن معارضة مستمرة لمدرسة التاريخ الجديد؛ كما يتضح لنا في ثانياً هذا الفصل الأول أنه من بين المؤرخين المتأثرين بشيء من فلسفة التاريخ، حل نحو مارينا في موقف مايرهوف في مرحلة مبكرة من الأزمة (١٩٥٩)، حين اعتقد بانقطاع الصلة بين التجربة التاريخية وما هو حادث في النصف الثالث من القرن العشرين. وبعد أكثر من ربع قرن نجد هيمرو يدهوناً إلى نوع من العزلة الأكاديمية ويقول (ص ١٢): «إن المؤرخين مضطرون أن يقنعوا بفكرة أن أهمية التاريخ تكمن في ذاته، وأنها تتمثل في الاهتمام بالماضي الذي يشعر به الإنسان شعوراً فطرياً، وأنه جزء من إنسانيته، وليس

— Blanche W. Cook, in A.H.A. Newsletter (1977) 6.

(١٨)

مبدآن أساسيان يقوم عليهما تصور هيروودت للتاريخ ،  
وهما ترابط الحركة التاريخية في العالم كما عرقة ، وأثر  
التجربة الماضية على أحداث الحاضر . وعلى أساس  
هذين المبدئين راح هيروودت يدرس أحداث الحرب  
بين الفرس واليونان ، والتي يمكن أن تعتبر أول حرب  
عالمية في التاريخ . فلا يكتفى أن يقتبس هيرو عبارة  
من افتتاحية هيروودت المشهورة دون أن يُلِم ويناقش  
أبعادها التطبيقية كما أرادها هيروودت .



بعد هذا الفصل الأول الذي قُدم فيه المؤلف موقفه  
من بعض الجوانب النظرية في دراسة التاريخ ، وما  
أصاها من أزمة واختلاف في الرأي ، ينتقل إلى  
موضوع له طرافته ، وهو التاريخ من حيث هو مهنة .  
فيفرد هيرو هذا الموضوع ثلاثة من مجموع فصول  
كتابه الستة ، هي الفصل الثامن بعنوان « تحول المعرفة  
التاريخية الى مهنة (The Professionalization of  
Historical Learning) والفصل الثالث بعنوان « من  
آل اليه عمل المؤرخ (Becoming a Historian) والفصل  
الرابع دراسة التاريخ وسيلة للحياة (History  
as a Way of Life) » ويحاول المؤلف في هذه الفصول  
الثلاثة أن يدرس الجانب الاجتماعي للمشتغلين  
بالتاريخ وظروفهم المتغيرة وأثر ذلك على الدراسة  
التاريخية . وقد قام بتجميع مادة إحصائية مبعثرة وأفاد  
من بعض الدراسات الاجتماعية التي أجريت على  
الجامعات الأمريكية بصفة خاصة . وسوف نركز فيما  
يل على النقاط ذات الاهتمام العام التي قد نجد لها  
تطبيقات مماثلة في العالم العربي ، أو نقارن بين ما يذكر  
المؤلف وما حدث في التجربة العربية .

أثرا في مسلك معظم الناس . « وهنا ينتهي هيرو الى  
الاستشهاد بما كتبه هيروودت منذ نحو خمسة وعشرين  
قرنا « بأن هدف التاريخ هو ألا يحجر الزمن ما قدم  
الانسان من أعمال ، وألا تنقد مكانتها مقام به  
الاغريق والشعوب الأخرى من إنجازات عظيمة  
رائعه . « ويعقب هيرو بقوله : « ما يزال هذا هو  
واجبنا الأول . باستطاعتنا أن نستمر في صراعاتنا مع  
أفكار المستقبل ، دون أن ننسى أن احتمال الخطأ في  
حكمنا كبير ، وباستطاعتنا أن نسعى الى أن نسيطر على  
الطبيعة البشرية فينا ، متذكرين دائما مالفوى الشر من  
سلطان . ولكن الأكثر أهمية ، دعنا نكون شهداء على  
ما حدث في الماضي ، حتى لا يحجر الزمن أعمال الرجال  
والنساء السابقين ، وحتى يعلم الجميع ما قمنا به وقام  
به غيرنا من جلائل الأعمال . » (ص ٣٣)

هذه الاقتباسات المختلفة من أقوال هيرو توضح  
ضعف موقفه بين الجانبين المتعارضين ، فهو من ناحية  
يحاول أن يجمع بين التناقض ، في حين يكرر مواقف  
سابقة ذات إيماء من فلسفة التاريخ . فالتردد بين عدم  
الفائدة المحدودة للتاريخ يكشف عن التناقض ، ويعد  
أن نادى بفرزيرة المعرفة التاريخية ، يستعيد الفكرة  
التروية للتاريخ كما صاغها سانتانا ويحولها الى قضية  
ديكارتيّة : « اذا عرفت من أين جئت ، عرفت أين  
أنا . » وهو قول يتعارض مع ادعائه بعدم وجود علاقة  
بين التاريخ والواقع الراهن (ص ١٢) . ويعد هذا  
التفكير النظري المتناقض ، ينتهي فجأة الى نوع من  
التفكير الانساني والواقعي اشتهر به أبو التاريخ  
هيروودت . ومرة ثانية أوقع هيرو نفسه في التناقض  
حين تشبه بموقف هيروودت من التاريخ ، وشتان بين  
الموقفين ، فتفكير هيروودت التاريخي يقوم على أسس  
تختلف عما أعلنه هيرو . فمثل سبيل المثال هناك



أولئك المؤرخين الحرفيين . ومن مظاهر الحرف والفرع أحيانا أن يلجأ الشخص الى السخرية من خصومه أو منافسيه . ويورد لنا هيمرو مثلا طريقا لما فعله تيودور روزفلت الذي كان رئيسا للولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين ، وكان مثل جلاستون من قبله وونستون تشرشل من بعده ، سياسيا محترفا ومؤرخا هاريا ، وله عدة كتب في موضوعات من التاريخ الحديث الأوربي والأمريكي . وكان يرى أن كتابة التاريخ عمل خلاق ، بمعنى أنه عمل فني يعتمد على المؤجبة مثل غيره من الفنون الأدبية . وقد هاله غلبة المنهج العلمي الجديد على شباب المؤرخين الأكاديميين ، فهاجمهم هجوما لاذعا في أحد رسائله عام ١٩٠٤ . وبدأ بأن انتقد مبدأ الحيطة والموضوعية العلمية ، بدعوى أنه أنتج كتابة تاريخية جافة لا طعم لها ولا لون ولا حياة ، ثم سخر من شباب المؤرخين الأكاديميين بهذه العبارة : « كان من الممكن أن يكون هؤلاء العاملين المخلصين للمجدين المذققين من صفار المتحللطين بعض الفائلة في مجالهم الصغير ، لو أنهم عرفوا حدود قدراتهم ، ولكلهم - بسبب ضرورهم - أصبحوا شليدي الضرر . انهم يعتقدون اعتقادا راسخا أنه لو أن منهم عددا كاليا ، ولو أنهم قاموا بمجرد تجميع قدر كالي من الحقائق في كل مجال ومن كل نوع ، فلن تكون هناك حاجة الى كبار الكتاب وكبار المفكرين . » ويستمر في سخريته بالقتراح الوظيفية اللائقة بهم على هذا النحو : « لكل واحد منهم يصلح أن يكون عامل يومية لا بأس به ، قادرا على جر عربته المحملة بأحجار البناء وأعلا ما يتقاضاه من أجر ، فطالما أنهم يرون أنفسهم كما هم ، لأنهم جديرون بكل احترام ، ولكن عندما يتخيلون أنهم بمثابةهم قد جعلوا

أما بالنسبة لتحول المعرفة التاريخية الى مهنة ما ، فهي ظاهرة بدأت في القرن التاسع عشر مع انتشار التعليم وتعميمه تدريجيا بعد ذلك في القرن العشرين ، وأصبح التاريخ واحدا من العلوم الأساسية في التعليم العام . وكان من الطبيعي أن استجابت الجامعات والمعاهد العليا لضرورة الموقف ، وأصبح التعليم الجامعي يُعدّ المتعلمين لمهنة تدريس التاريخ في المدارس والجامعات على السواء . وهكذا نشأت للتاريخ مهنة ، بمعنى تعلمه بهدف العمل به والارتزاق منه ، شأنه في ذلك شأن أي مهنة أخرى مثل القانون أو الطب أو الهندسة . . . ولم تكن مهنة التاريخ ظاهرة منفردة ، ولكنها تمكس تطورا عاما شمل الدراسات الانسانية . ونظرا لأن التعليم الجامعي يقوم على البحث العلمي الذي يرتبط عادة بالتخصص ، وجدنا تعليم التاريخ في الجامعات يقوم أيضا على التخصص . ويلاحظ المؤلف أن من مظاهر وجود مهنة لدراسة التاريخ أن تكونت الجمعيات التاريخية التي اقترنت عادة بإصدار دورية علمية تتمتع بنشر أرقى الأبحاث التاريخية . وأسبق الدوريات التاريخية ظهرت في ألمانيا (١٨٥٩) ثم فرنسا (١٨٧٦) وإيطاليا (١٨٨٤) وبريطانيا (١٨٨٦) وأمريكا (١٩٥٠)<sup>(١٩)</sup> .

وهكذا كان من نتائج مهنة التاريخ وصعود الدوريات العلمية أن اصطبغ العمل التاريخي بالتخصص الدقيق بنسبة متزايدة . ولم تمر بدايات التخصص الدقيق دون قلق ومعاناة ، وخاصة من جانب التقليديين واهواة من المؤرخين غير الأكاديميين ، الذين أفرعهم النظرة الجديدة والطبقة الجديدة من

— Historische Zeitschrift (1859); Revue Historique (1876); Rivista Storica Italiana (1884); English Historical (١٩) Review (1886); American Historical Review.

عمل المهندس غير ضروري ، فإنهم يصبحون عناصر  
حيث وعوامل هدم .<sup>(٢٠)</sup>

رغم أن مؤلفنا يستشهد بهذه العبارة وغيرها  
( ص ٥٤ - ٥٩ ) ويصفها « بالبدية » ، فإنه لا يناقشها  
ولا يحاول بيان أبعادها الأكاديمية والاجتماعية . فموقف  
روزفلت وأمثاله في حقيقة الأمر شديد الدلالة على  
أمرين هامين : الأول هو مقدار الأثر الذي أحدثته  
الاتجاه العلمي الجديد في دوائر دارسي التاريخ في مطلع  
القرن العشرين ، مما أفرغ التقليديين والهواة ، والثاني  
هو النظرة الطبقيّة المتعالية التي تنم عنها الصورة  
الساحرة التي رسمها روزفلت للأكاديميين الذين  
يرتزقون من دراسة التاريخ وتدرسه بالجامعات .  
لطبقة روزفلت من الهواة لم يكونوا يتعششون من كتابة  
التاريخ . وكان من الطبيعي أن نجد رد فعل سريع  
لها ، ليزيل أثر البلبلة التي يمكن أن تحدثها مثل هذه  
الآراء المحاطة . ففي سبتمبر ١٩٠٤ وقف وودرو  
ويلسون مفسراً ومنبهاً مما لاهمية ودور المؤرخين  
الأكاديميين ، وأنهم السبيل إلى دفع الحركة التاريخية  
طالما يضعون نصب أعينهم قاعدة أساسية وهي « أن  
الجزئية التاريخية تظل غير صحيحة إذا عزلت وفصلت  
عن سائر الأجزاء ، فهي دائماً جزء من كلٍّ شديد  
التنوع والتعقيد ، ويجب أن توضع في موضعها  
الصحيح من النسق العام للأحداث ، حتى تتضح  
طبيعتها ومعناها الحق . ومع ذلك فيجب أن تتم  
دراستها وفهمها منفردة . . وبعبارة أخرى ، الكل  
والجزء هما سدى ولحمة نسيج واحد .<sup>(٢١)</sup>

بهذه العبارة المثترنة المتفائلة وضع ويلسون يده على  
عنصر من عناصر الأزمة منذ بداية التاريخ العلمي في

مطلع القرن العشرين ، وهو العلاقة بين الجزء والكل  
في الدراسة التاريخية . وهي فكرة غير جديدة ، وتمتد  
أصولها العلمية إلى أعظم مؤرخي القرن التاسع عشر  
ليوبولد فون رانكه ، وهو أول من دعا بجدية علمية  
إلى ضرورة دراسة تاريخ العالم لأن التجربة التاريخية  
تشهد أن الأحداث والتغيرات الإقليمية أو القومية كثيراً  
ما تكون شديدة الصلة أو التأثير بأحداث أو تغيرات  
عالية الأبعاد . ولم يكن غربياً في النصف الأول من  
القرن العشرين أن اندلعت الحركة التاريخية في  
الاتجاهين ، مما أجهل العالمية واتجاه التخصص . ومع  
ازدياد ظاهرة التخصص وتعرضها للنقد في النصف  
الأول من القرن العشرين ، برز تيار يحاول أن يحفظ  
التوازن بين النظرة المتخصصة والنظرة الشمولية .  
وتقدم عدد من المؤرخين المحترفين والهواة ، حاولوا أن  
يفيدوا من ثمار الازدهار التاريخي في القرن التاسع عشر  
ومن ثمار الأكاديميين في النصف الأول من القرن  
العشرين في بناء نسق تاريخي أو حضاري عالمي ، فيما  
يشتمل في أعمال هـ . ج . ولز ويل ديورانت وأرنولد  
توينبي وغيرهم . ورغم أهمية هذه الأعمال وفائدتها ،  
فإنها لم تقنع الأكاديميين المتخصصين ، الذين أعرضوا  
عن هذا الأسلوب ، ومضوا في طريق التخصص  
الدقيق غير عابئين بسفيرة الشموليين أو نقد المؤرخين  
الفلاسفة الذين شغلوا أنفسهم بالنظريات  
والإيديولوجيات ، أكثر مما شغلوا أنفسهم بالحياة وواقع  
التجربة الإنسانية . وقد أعانهم وثبت أقدامهم في  
مسيرتهم ما كانت تحققة العلوم الطبيعية من انتصارات  
تكاد تحطف الأبصار . وقرم موقف الأكاديميين  
للتخصصيين المتفائل على فرض أن التاريخ علم  
تراكمي مثل الطبيعة والكيمياء ، حيث الإضافات

— The Letters of Theodore Roosevelt, ed. Elting E. Morrison (Cambridge, Mass. 1951-4) III 707-8.

— The Papers of Woodrow Wilson, ed. Arthur S. Link, (Princeton, N.J. 1966-) IV 472-3.

(٢٠)

(٢١)

النظر وحيدة التفكير . فلم يحدث قبل الآن أن خضع البحث التاريخي لمبدأي الدقة المطلقة والصدق المطلق كما هو حادث اليوم .

ورغم هذه الانجازات العظيمة التي حققها التخصص الأكاديمي ، فإنه لم يخط الخطوة الخامسة نحو إقامة البناء الكامل الجديد ، واستمر العمل في تراكم أحجار البناء . ويبدو أن مؤرخي الجيل الحالي قد زرعوا عندهم ذلك الأمل ، فإن خط سير البحث العلمي يكاد يقرن أنه أقرب إلى الوهم . فهم يفقون مشفقين من شدة تمعد الماضي ومن التنوع المذهل لما مرّ بالتجربة البشرية على الأرض ، لذلك أصيبوا بنوع من اليأس من إمكان أن يصوغوا نسقا منظما من تلك الفوضى . وما من شك أن هذا الموقف السلبي قد اعتبر نقطة ضعف في الحركة التاريخية المعاصرة ومن بين عناصر الأزمة ، في حين أن علماء المؤرخين لا يتحدون في أن ينشئوا بعلماء الطبيعة والفلك والكيمياء ، واقتنعوا أنفسهم بضرورة الاعتراف مبدأ التجزئة العلمية لعالمهم ( ٥١ - ٥٣ ) .

الفصلان الثالث والرابع يتناولان بعض الجوانب الاجتماعية في شخصية المؤرخ والتزاماته ، ويوضح ذلك من عنوانيهما . « من آل إليه عمل المؤرخ » ( Becoming a Historian ) و « دراسة التاريخ وسيلة للحياة » ( History as a Way of Life ) ولعل الفصل الثالث هو من فصول الكتاب الرئيسية التي تعكس نظرة هيمرو لحركة التاريخ الجديد . فهو يتناول ظاهرة التغير الاجتماعي لفئة المشتغلين بالتاريخ ، ويلاحظ التغير الواضح في الطبقة التي كان ينتمي إليها المؤرخون حتى نهاية القرن التاسع عشر وطبقة الكثرة الغالبة من مؤرخي القرن العشرين . وإن ما يذكره عن المؤرخين السابقين في الغرب من أمثال هيرودوت وبيروكيوس

الصغيرة في العديد من مجالات التخصص تؤدي تدريجيا إلى تفسيرات شاملة . وهكذا يكون مجموع أكبر كم من المعلومات الصحيحة له ما يبرره كشرط أساسي للتقدم العام للعلم . وعلى ذلك فالأبحاث المتخصصة والمادة المستمدة من دور المحفوظات والوثائق تكون وحدات أحجار البناء التي يستطيع عالم مدرب التدريب اللائق أن يقيم صرحا من المعرفة التاريخية أكثر كيانا وثابتا أساسا . وهكذا أيضا تنتهي المقابلة بين الفن والعلم في مجال الكتابة التاريخية ( ص ٤٨ ) .

ولكن التجربة العملية في النصف الثاني من القرن العشرين أثبتت أن التطبيق والممارسة قد لا تحقق النظرية أو الفرض كما تمثل في العقل . فالذي حدث هو استغراق كثير من المتخصصين في أبحاثهم بدرجة متزايدة من التحديد والتعمق ، فزادت التخصصات التاريخية انقسامًا وتنوعًا ، وأصبحت الخبرة المتخصصة هي مطمح العلماء . وقد استتبع ذلك زيادة الاعتماد على المصطلحات العلمية والأسلوب العلمي في الآليات أو مناقشة المشاكل العلمية بدلا من الاهتمام بحسن عرض المادة التاريخية ودقة تنسيقها . وهكذا غلب على الدراسات التاريخية المعاصرة التركيز المضني أحيانا مع ضيق المجال ثم الإحاطة المطلقة بكل جزئيات المعلومات المتعلقة بنقطة البحث ، وأصبحت قراءتها في كثير من الأحيان مستحيلة على غير المتخصص . وهذه سلبية يأخذها الخصوم على الكتابة التاريخية المعاصرة ( ص ٤٨ - ٥٠ ) . ولكن لإيجابيات التخصص الأكاديمي كانت باهرة في قيمتها ونتائجها بالنسبة للتأريخ كما كانت للعلوم الأخرى . فلا بد أن نسلم بأن الحركة التاريخية المعاصرة في مستواها الراقية تتميز أكثر من أي تجربة سابقة في دقة التحليل النقدي للمصادر وحلقة البصيرة في تقدير قيمتها ، مع تجرد في

جلوره ثابتة في الانسانيات ، ولعله ما زال كذلك .  
( ١٠٦ ) .

ورغم طراقة المعلومات والملاحظات التي يوردها هيمرو ، فإن نظريته في ريب أو سخرية أحيانا الى حقيقة التحول في مفهوم دراسة التاريخ وتفسيره في ظل تغير القاعدة الاجتماعية للمشتغلين بالتاريخ ، يعكس موقفا محافظا متصليا . فهو يقرن بين اعتبار التاريخ دراسة إنسانية وبين طبقة قدامى المؤرخين ، ويجعل المفهوم الاجتماعي للتاريخ مقترنا بتغير هذه الطبقة في جيل المؤرخين الجدد . وفي الواقع إن هذه النظرة تعمل ما أصاب الدراسات الانسانية بما في ذلك الفنون الرفيعة من تحول ثوري شامل فالتاريخ لا يتفرد بالمفهوم الاجتماعي الجديد ، وإنما هو جزء من حركة متكاملة تتمثل في الانسانيات عامة . وضغطا ثان يتلاقى اليه هيمرو حيث يتهم المؤرخين الجدد بأنهم ليسوا علماء اجتماعيين ، ولا يوجد بين رواد التاريخ الجدد من يدهي أنه يهدف أو يقصد الى تكوين علماء اجتماعيين ، فهذههم ومقصدهم - كما سيتضح فيما بعد - هو إخضاع المعرفة التاريخية لنتج من التحليل جديد لتعطي صورة أصح وأقرب الى الواقع من الصورة التي قدمتها كتابة التاريخ في الماضي .

أما الفصل الرابع الذي يتناول عمل أستاذ التاريخ في الجامعة ، فلا يتوقف عنده كثيرا لتكريزه على نمط العمل والحياة في الجامعات الأمريكية بصفة خاصة . ولعل النقطة الرئيسية ذات الاهتمام العام في هذا الفصل تمدد التزامات الأستاذ - وليس المؤرخ وحده في الواقع - بين التدريس والأعباء الادارية والبحث العلمي . ويلاحظ المؤلف - وهو على حق - أنه بسبب مشقة البحث العلمي وحاجته الى درجة عالية من التفريغ والجهد والتكريز ، يقصر كثيرون جهودهم على

وجييون ورائكة وحق تويني ، يصدق أيضا على مؤرخي الاسلام مثل البلاذري والطبري وابن الاثير وابن خلدون والمقرئزي ، فجميعهم بصفة عامة ينتمون الى مجتمع النخبة أو كانوا يعملون في ديوان الحاكم . وعلى النقيض من ذلك نجد جيل المؤرخين الجدد ينتمون الى الطبقة المتوسطة الأمل الى الفقر بصفة عامة . وبعبارة أخرى تغيرت القاعدة الاجتماعية لدراسة التاريخ . ويحرص هيمرو على تأكيد هذه الظاهرة وأبعادها ، فهو يستشهد بأحصاءات اجتماعية مستمدة من الجامعات الأمريكية ، ويستنتج أن عمل المؤرخ أصبح يفتقد دخلا ومكانة اجتماعية لصاحبه الجديد ، حل خلاف الوضع في الماضي حين لم يهدف قدامى المؤرخين الى شيء من هذا . ثم هو يستدرك بأن هذا التغير لا يعني أن جيل المؤرخين الجدد أقل تفانيا في العلم ، ولكنه يمدد فيؤكد اعتقاده بأن ما جدهم الى التعليم الجامعي كسبيل للعمل ليس المائد الفكري ولكن المائد الاجتماعي ( من ٧٦ - ٨٦ ) .

ثم تضح النظرة المحافظة المؤلفنا حين ينتقل من هذا التحليل لتغير الوسط الاجتماعي الى تغير النظرة للتاريخ . فمع تغير النظرة للدراسات الانسانية عامة ، تغير وضع التاريخ أيضا ، واحتل في رأيه مكانة هامشية فيما بين العلوم الاجتماعية والانسانية . ويستنتج من ذلك وكان التاريخ قد فقد وعيه الطبيعي ، لأنه ليس علما تطبيقيا مثل سائر العلوم الاجتماعية . فالتاريخ عاجز عن أن ينفعا أو يجعلنا أكثر حكمة ، وكل ما يستطيعه التاريخ هو أن يكون شاهدا على الماضي ( ١٠٣ ) . وأخيرا ينتهي الى رفض الاتجاه الجديد بقوله : « إن المشكلة تكمن في أن المؤرخين ليسوا علماء اجتماعيين ، وليس في ذلك غرابة ، فلماذا بعيد كانت

شلوتزير في عام ١٨٠٤ بقوله : « لم يعد التاريخ مجرد سير الملوك ، وترتيب زمني يحكم لتعاقب الدول والحروب والمعارك ، ووصف الثورات والاحلاف . هكذا كان أسلوب معظم المؤلفين في الأيام الحوالي في العصور الوسطى ، ونحن الألمان كنا لا نزال نكتب بهذا الأسلوب اللعين منذ نصف قرن مضى ، قبل أن يوقفنا الانجليز والفرنسيون بنسأج أزقى من كتاباتهم . »<sup>(٢٢)</sup>

أما القرن التاسع عشر فيجمله المؤلف في أن أهلامه من أمثال رائكة وماكولي وميشليه ومومسن كانوا على علم كامل بتعدد وتعدد جوانب التجربة الانسانية الجماعية ، ولكنهم بصفة عامة أقاموا دراساتهم على أساس التركيز على أصحاب السلطان أو أهل الحل والربط كما نقول ، ومع ذلك فبين الحين والآخر ، ومن وراء الملامح التي يرسمونها لطيفة النخبة وأولى الأمر قد تبدل الجماهير العريضة في خطوط معتمة : أهلامهم وأمالهم ومشاعرهم وثوراتهم . فقد كان من الواضح الجلي لمعظم المؤرخين أن شارل الخامس ملك اسبانيا ولويس الرابع عشر ملك فرنسا اصمق أثرا في مجرى التاريخ من القروين الاسبان أو الحرفيين الفرنسيين الذين عاشوا تحت حكم كل منها . وهذه هي نقطة الخلاف الرئيسية بين التاريخ الجديد بعد ١٩٤٥ والتاريخ القديم . وقبل أن يمضي هيمرو في تحليل المواقف ، يتوقف ليكرر رأيه بأن التاريخ الجديد يعكس تفسير الوضع الاجتماعي والنظرة السياسية للباحث الجديد . فالباحث الجديد يرى أن القروين الاسبان في القرن السادس عشر والحرفيين الفرنسيين

القيام بواجباتهم التعليمية ، أو الانصراف الى الاعمال الادارية التي تحقق لهم سلطة ومكانة مرموقة في هيكل الحياة الجامعية .



نصل بعد ذلك الى الفصلين الآخرين من الكتاب وهما الفصل الخامس بعنوان « التاريخ الجديد والقديم » ، والفصل السادس بعنوان « ما غائنة التاريخ » . أولها أكثر أهمية من غير شك ، وفيه يبدأ المؤلف بإشارة سريعة لكتابة التاريخ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومن الطريف أن هيمرو في هذا العرض السريع لا يحرص على التعريف أو إظهار التحول الذي حدث في هذين القرنين في كتابة التاريخ ، بقدر ما يحرص على إظهار أن بعض أفكار مدرسة التاريخ الجديد ، ليست جديدة حقا وقد سبق أن أثارها كتاب منذ القرن الثامن عشر . ويستشهد بالمؤرخ الألماني جاترر ( Gatterer ) الذي دعا في عام ١٧٦٧ الى نظرة جديدة للتاريخ قائلا : « لماذا يتبقى لكتاب التاريخ السياسي ، اذا لم يذكر شيئا عن الاحوال الدينية أو الموقف العام أو الظروف الطبيعية أو محاصيل البلاد ، أو لم يقدم تقديره لامكانيات الشعوب ومهاراتها الصناعية والتجارية ، وأخيرا اذا لم يذكر شيئا عن فنونهم وعلمومهم ؟ »<sup>(٢٣)</sup> وقد كان جديرا بمؤلفنا أن يشير الى أن هذه الانطلاقة في التفكير التاريخي ترد أصداء الكتابة التاريخية الثائرة في كل من فرنسا وإنجلترا في القرن الثامن عشر ، التي كان من روادها وأعلامها منتسكيو وادوارد جيبون . وقد عبر عن هذه الحقيقة كاتب ألماني آخر بعد ذلك بجمل واحد وهو

— Johann Christoph Gatterer, "Von Historischen Plan und der Darauf sich grundenden Zusammen-fungen der (٢٢) Erzählungen", Allgemeine Historische Bibliothek von Mitgliedern des Königlischen Instituts der Historischen Wissenschaften 3u Göttingen, I (1767) 24-25.

— August Ludwig Von Schlötzer, Theorie der Statistik. Nebst ideen über das stadium der Politik überhaupt (٢٣) (Göttingen, 1804), 92.

ولكن بمثابة وآلافها ، حيث يلتقي وتتداخل الماضي والحاضر والمستقبل . وهم يميزون تميزاً حاداً بين البنية ( Structure ) والحادثة أو الموقف ( Conjunction ) أي بين تلك المواقف في المجتمع التي تستمر تقاروم التغيير ، والحادثات المفوية التي قد تبدل وخطيرة ساعة وقوعها ، ولكنها سوف تتضح فيما بعد مجرد موجات على صفحة المحيط الفسيح . وهم يتحدثون أيضاً عن « العقلية » في التاريخ ( Le Mentalite ) وهي مجموع المشاعر والمواقف المشتركة في الجماعة ، التي تفسر ردود فعل الجماهير للتجربة المشتركة . ولذلك حلروا من الانشغال « بالحادثة » أو « بالمواقف » أو ما يقع صدفة عما يحول اهتمام الباحث عن القوى الكامنة تحت السطح ، التي تحدد مصير الانسان « ان تاريخاً يتناول هذه القوى جذير وجهه بأن يسمى تاريخاً » ، كما يقول أحد روادها جاك لوجوف . ( Jacques Le Goff )<sup>(٢١)</sup>

وقيل أن نعرض لموقف هيمرون من هذه المفاهيم التي تمارسها مدرسة التاريخ الجديد ، بمجربنا أن نستكمل الصورة بذكر أهم ما تتميز به الاتجاهات التاريخية المستحدثة من مناهج وأساليب البحث . وقد يتضح من الاصطلاحات التي سبق الإشارة إليها أنها مستمدة من العلوم الاجتماعية ، الانثروبولوجيا أو الديموغرافية أو الاقتصاد وعلم النفس . ولعل أهم ما تتميز به حركة التاريخ الجديد في واقع الأمر هو مناهجها وأساليبها التطبيقية . فليست العبرة في الدراسات العلمية بالأفكار ولكن بالتطبيق والممارسة ، وإذا صح هذا القول على العلوم الطبيعية ، فقد أمكن تحقيقه في

في القرن السابع عشر في حقيقة الأمر أكثر دلالة على العصر من شارل الخامس أو لويس الرابع عشر وبعبارة أخرى أصبحت الأضواء تسلط على أهل الرف وجمهور المدن بدلاً من الملوك والقواد . ويمثل هذه النظرة الجديدة واحد من رواد مدرسة الحلولات ( Annales ) في فرنسا وهو لادوري في كتابه المشهور « ساحة المؤرخ »<sup>(٢٢)</sup> وفي بريطانيا يصف هوبز يوم النظرة الاجتماعية لتاريخ بهله العبارة : « لقد تجنب البحث التاريخي في الماضي مثل هذه الموضوعات باعتبارها لا تمثل النظام الحاكم ، ولا تمت الى دوائر السلطة والسيادة ، والان يتجه اليها البحث التاريخي لهذا السبب ذاته . فهذه الموضوعات أصبحت وسيلتنا للكشف عن مساوئ الماضي وأخطائه ، ووسيلتنا أيضاً لامكانية تجنبها في المستقبل ، وكذلك أصبحت وسيلتنا لاستعادة البناء الاجتماعي . »<sup>(٢٣)</sup>

وإذا كان بعض الباحثين الجدد قد اهتموا بمظاهر التغير في المجتمع ، فهناك باحثون آخرون اتجهوا الى دراسة مظاهر عدم التغير في المجتمع . بمعنى أنهم أخذوا ينظرون الى التقاليد والعادات والميول الشعبية والمواقف العقلية التي لا تتغير مع الزمن الا ببطء شديد ، وهي التي تمنح المجتمع الاستقرار والاستمرار . ونشط في هذا المجال مؤرخون فرنسيون على وجه الخصوص ، دعوا العلماء الى الغوص تحت سطح الأحداث وظواهرها ، للعثور على طبقة سفل من الحقائق الثابتة تحت مد الأحداث وجلرها العابر . وأكدوا أهمية « الامد الطويل » ( La Longue duree ) وهو ما يمثل في حقب لا تقاس بالسنين أو عشريناتها ،

— E. Le Roy Ladurie, *Le Territoire de L'Historien* (Paris, 1973), English Translation: *The Territory of the Historian* (Chicago, 1979), 223.

— E.J. Hobsbawm, "From Social History to the History of Society", *Daedalus* 100 (1971) 33. (٢٢)

— Jacques Le Goff, "La Politics Still the Backbone of History", *Daedalus*, 100 (1971) 4. (٢٣)

أما منهج التحليل الاجتماعي ، وهو من أكثر الأساليب الحديثة انتشاراً في التاريخ ، فسوف أكتفي هنا بمثال واحد لم يذكره هيمرو ، وهو كتاب للمؤرخ الفرنسي لادوري ، أصبح الآن يتخذ نموذجاً لتطبيق منهج دراسة الديموغرافية في التاريخ . والكتاب دراسة لقرية في جنوب فرنسا تسمى مونتايور (Montailion) في الفترة ١٢٩٤ - ١٣٢٤ حين حامت الشبهات حول انتهاء سكانها لمهطقة جماعة دينية عرفوا بالأطهار (L' Heresie cathare) بسبب انحرافهم عن ملهب الكنيسة الكاثوليكية الرسمي . فتكفل الرئيس الديني للتعليم بإجراءات محكمة التفتيش ، ونظراً لدقته النهائية في إثبات جميع أقوال أهل القرية ، فقد تخلصت عن هذه المحاكيات ثلاثة مجلدات ضخمة باللغة اللاتينية ، تم نشرها حديثاً ١٩٦٥ .<sup>(٢١)</sup> ثم توفر لادوري على دراستها ديموغرافياً . وهو يقدم لهذه الدراسة الممتعة ، شارحاً فكره ومنهجه بهذه الكلمات : « أن كل من يريد أن يتعرف على الفلاح في العصور الماضية أو الموهلة في القدم ، يمكنه التعرف عليه في بعض المؤلفات التاريخية الكبرى ... أقصد أعمال جوير ، وواترينو ، وفوركمان ، وفوسيه ، ودوي ، ويلوك ... ولكن إمبراً واحداً قد لا يجده فيها شيئاً ، وهو النظرة المباشرة ، الشاهد المباشر بغير وسيط ، الذي يقدمه الفلاح على نفسه ... من أجل هذا كانت المحاكيات ضد « مهطقة الأطهار » هامة حتماً لموضوعات الحياة المادية والاجتماعية والعائلية وثقافة أهل الريف . فنحن نجد في هذه المجموعة من النصوص جرعة من التفصيلات بالغة الدقة من

دراسة التاريخ بفضل حركة التاريخ الجديد . فالأفكار الاجتماعية والاقتصادية وكذلك النفسية قديمة ومعروفة في كثير من الكتابات التاريخية من قبل ، ولكن الجديد هو ممارستها وتطبيقها بمنهجية علمية صارمة ، ارتقت بها أحياناً إلى مستوى الدقة الرياضية . من أجل تحقيق ذلك استخدم المؤرخون المجلد مناهج مستمدة من العلوم الاجتماعية ، مثل المنهج الكمي أو الإحصاء ، والتحليل الاجتماعي ، ومنهج التحليل النفسي . والمهدف من تطوير المنهج التاريخي على هذا النحو هو الحصول على معلومات أكثر دقة وأكثر علمية ، وأول خطوة في هذا الاتجاه كانت زيادة الاعتماد على المنهج الكمي (quantification) الذي يقوم على الأرقام والإحصاءات قدر المستطاع . وقد سبق أن دنا إلى استخدام الإحصاء مؤرخ الماني في مطلع القرن التاسع عشر ، شلوتزر ، ودعا « المؤرخ أن يكون إحصائياً ... فالتاريخ هو الكل والإحصاء جزء منه<sup>(٢٢)</sup> » ومن قبله ابن خردادبه من كتاب القرن الثالث الهجري في الإسلام ( القرن التاسع ميلادي ) استخدم الإحصاء بإيراد قوائم الخراج .<sup>(٢٣)</sup> وغير هؤلاء كثير ، ولكن الجديد في النصف الثاني من القرن العشرين هو أن المؤرخ أصبح أكثر استخداماً للأرقام ، وأهم من هذا أنه أصبح أكثر قدرة على تقديمها وتحليلها في ضوء كم ضخم منها استطاع استخلاصه من وثائقه ومصادره . ومع تقدم هذا الأسلوب وتقدمه أصبح استخدام الكمبيوتر لازماً لهذا المؤرخ الإحصائي الجديد ، كما أشار داليد هيرفي في دراسة عن المؤرخ في الثمانينيات .<sup>(٢٤)</sup>

— A.L.V. Schlozer, *Theorie der Statistik* (1804) 92-3

(٢١)

(٢٢) — كتاب المسالك والممالك ، تأليف عبد الله بن خردادبه (تولد ١٨٨٩).

(٢٣) — David Hirschy "Quantification in the 1980's: Numerical and Formal Analysis in European History," *Journal of Interdisciplinary History*, 12 (1981-2) 135.

(٢٤) — Jacques Fournier, *Le Registre de L'Inquisition de Jacques Fournier, eveque de Pamiers (1318-1325)* (manuscript Latin no. 4030 of La Bibliothèque Vaticane, Édité par Jean Duvernoy, 3 vols, (Toulouse 1965).

حكمة ودربة لا يكادون يستبينون مجرد وجودها .<sup>(٣١)</sup> الى جانب منهج الاقتصاد والاجتماع التاريخي ، ظهرت مجموعة من المؤرخين النفسيين (Psychohistorians) الذين يدعون أن مناهج علم النفس والطب النفسي يمكن تطبيقها على المعلومات التاريخية للوصول الى فهم أعمق لسلوك الأفراد والجماعات . ونظرا لأن هذه المناهج تعتمد على ادراك جوانب الحياة الشخصية والسلوكية الخاصة بالنسبة للمرضى المصابين باضطراب نفسي او عقلي ، أُخذ المؤرخون النفسيون في البحث عن المعلومات أو أدلة في السلوك الشخصي للجهة الخاصة للاجمال الماضية ، وهي أدلة ومعلومات لم يُقبل بها المؤرخون التقليديون من قبل لأنها شديدة التناقض أو الغموض بحيث لم تثبت امام مناهج ومقاييس النقد التاريخي . وقد كانت بدايات التاريخ النفسي على أسس من العلم في النصف الاول من القرن العشرين ، ولكنها لم تحدث أثرا ملحوظا في الدراسات التاريخية الجادة .<sup>(٣٢)</sup> ومع اصرار عدد من العلماء النفسيين في النصف الثاني من القرن العشرين على أخضاع المعرفة التاريخية للدراسة النفسية ، حدث تقارب محدود بينها في مجالين رئيسيين الاول هو دراسة المواقف والمقائد الجماعية والتي يجمُلها مصطلح « العقلية » (Mentalite) مما يهتم به أيضا أصحاب النظرة الانثروبولوجية للتاريخ . ومن أمثلة دراساتهم « تغير الموقف من الموت في المجتمع الغربي

الحياة ، نبحث عنها أحيانا بغير طائل في اللوائح والسجلات المدنية . »<sup>(٣٣)</sup> الجدير بالملاحظة في عبارة لادوري هذه أن جميع المؤرخين اللذين ذكرهم هم من المهتمين بالتاريخ الاجتماعي والريفي لفرنسا في العصور الوسطى والحديثة ،<sup>(٣٤)</sup> ومعظمهم من كبار الأساتذة المعاصرين ، ومع ذلك فهو حريص على أن يميز بين طريقتهم في الكتابة وبين منهجه الذي يتمسك فيه « بالنظرة المباشرة ، بالشاهد المباشر دزن الوسيط » لما من شك أن حجر الزاوية في النتج المعاصر هو موقف الباحث من الوثيقة ، وطريقة تعامله معها . ولعل عبارة « الشاهد المباشر » ومدلولها - على بساطتها أيضا - مثل أهم إضافة الى النتج التاريخي منذ أن رفع رانكة منذ قرن ونصف شعار أن هدف المؤرخ هو أن يعرف « حقيقة ما حدث فعلا » ، ومن ثم كان ينادي بتجاوز كتابات المؤرخين الى قراءة الوثائق المعاصرة . وليس غريبا أن تضاعف اهتمام المؤرخين الجدد بالوثائق ، وأصبحت وسيلتهم الأولى للكشف عن معرفة وتفسير الماضي في ظل أساليبهم العلمية المستحدثة . ويتحدث المؤرخ الانجليزي ستوارت هيوز عن هذا الموقف من الوثيقة في حماس واضح حين يقول « لا يتوقف عمل المؤرخ عند مجرد التيقن والتثبت من محتوى الوثائق ، على العكس إن عمله يبدأ عندئذ . فمشكلات التفسير المثيرة حقا - وربما جميعها - ما تزال أمامنا في المستقبل ، فكثيرون منا ، نحن هم أقل

— E. Le Roy Ladurie, Montailou, Village Occitant de 1294a 1324 (Gallimard 1982) 9-11A. (٣١)

— P. Goubert, Beauvais et le Beauvaisis, de 1600a 1730 (Paris 1960); A. Poitrineau, La Vie rurale en basse (٣٢) Auvergne au XVIIIe siecle (Paris 1965); G. Fourquin, Histoire economique de l'Occident Medieval (Paris 1969), Le Paysan d'Occident au Moyen Age (Paris 1972); Seigneurie et feodalite au Moyen Age (Paris 1970); R. Fossier, La Terre et les Hommes en Picardie Jusque' a la fin du XIIIe siecle (Paris-Louvain 1968); Histoire sociale de l'Occident medieval (Paris 1970); G. Duby, Hommes et Structure du Moyen Age (Paris-La Haye 1973); M. Bloch, La Societe Feodale (Paris 1939-1940), Caracteres Originaux de L'histoire rurale francaise (Paris 1952).

H.S. Hughes, History as Art and as Science (1964) 3-4, 20. (٣٣)

Cf. Hamerow, pp 188-198. (٣٤)



تكشف أنه، يتسم إلى تيار المؤرخين الراضين للتاريخ الجديد. فهو من المؤمنين بأن دراسة التاريخ لازالت في معترك أزمة لانجاة منها، وإذا ماكتب أحد المؤرخين الجدد أن الوصول إلى المعرفة الكاملة للتجربة الإنسانية الماضية أمر غير ممكن، اعتبر ذلك بمثابة إعلان بفشل الحركة (١٧١-١٧٢) وقد سبق أن ذكرنا أنه يغمز المؤرخين الجدد من حيث انتهاؤهم الطبقي وأن هذا الانتباه الطبقي يؤثر في نظرتهم السياسية ويتدخل في نظرتهم التاريخية (١٦٢-١٦٤)، بمعنى أنه يشكك صراحة في موضوعيتهم العلمية. ثم هو غير راض عن الطريقة التي أصبح التاريخ يكتب بها، من حيث صعوبة الجمع بين الأسلوب الأدبي وأسلوب البحث العلمي الجاف<sup>(٢١)</sup>. ويحتد الفاظه أحيانا فيصف أسلوب بعض المؤرخين الجدد ولغتهم بأنها نوع من التصنع أو الاحتيال المهني، وأنها غير مفهومة. ويتحول من مهاجمة اللغة إلى مهاجمة المنهج بقوله «هناك اختلاف أساسي بين التاريخ الذي يؤكد على الفردية وعدم التكرار، وبين العلم الذي يسعى وراء الانظام والتكرار. وهو يشبه «عالم الاجتماع المزيخ» بأمين متحف للفن القديم الذي يحاول أن يعيد تشكيل لوحه من الفسفاة الرومانية من حفنة من جزئياتها المبعثرة. فالنتيجة قد تكون جديرة بالشاء، ولكنها لن تزيد على كونها ترميما من فعل الخيال» (١٨٧). ويستهي إلى الاقلال من شأن حركة التاريخ الجديد وأنها تبدو الآن في رمتها أقل أصالة وأقل جدة عما بدت أول الأمر (١٩٧)، وأكثر من ذلك «أن التمييز بين التاريخ

مثل العصور الوسطى. «<sup>(٢٢)</sup> أما المجال الثاني فهو دراسة سير الأعلام، ومن أهم الأعمال في هذا المجال دراسة اركسون لشخصية مارتن لوثر المصلح الديني الألماني المشهور في القرن السادس عشر. «<sup>(٢٣)</sup> ورغم هذه الجهود وأمثالها، ورغم جاذبية النظريات التي يتقدم بها التحليليون النفسيون، لازال التحليل النفسي أضعف الدراسات التاريخية الجديدة. ولعل تحلف التاريخ النفسي راجع إلى معطين خطيرين يتعلقان بطبيعته. الأول هو أن المنصر الرئيسي الذي يقوم عليه منهج التحليل النفسي غير متوفر للمؤرخ النفسي. فالمرض غير موجود لجيب عن أسئلته<sup>(٢٤)</sup>. والمطعن الثاني يعتمد على نظريات التحليل والطب النفسي ويتم تطبيقها تاريخيا بأسلوب القرض والنتيجة في حين أن المنهج التاريخي في أبسط عناصره يقوم على الدليل والتفسير المباشر، فهو منهج ينفر بالضرورة من أسلوب النظرية والقرص. لعل هذين الماعذين هما سبب استمرار ضعف التاريخ النفسي وعدم قدرته على أن يصبح أكثر قبولاً أو اقتناعاً لدى سائر المؤرخين.

لعل من المناسب بعد عرضنا لأهم مواقف ومناهج حركة التاريخ الجديد، أن نعرض أيضا لموقف هيمور منها. ولقد تمهينا ذلك بالنسبة للمقاطات المختلفة حرصا منا على وضوح الصورة وكمالها، والسبب في ذلك هو الأسلوب الذي اتبعه مؤلفنا، فهو لا يتصدى صراحة لمناقشة الموضوعات ونقد المنهج أو النتائج التي انتهت إليها دراسات المؤرخين الجدد. ولكنه يجتمع إلى التشكيك وترديد مأخذ عامة. القراءة الكاملة للكتاب

— W. Langer, "Forward", in *The Psychoanalytic Interpretation of History*, ed. B.B. Wolman (N.Y. — (٢٢) London 1971) viii f.; cf.

Ladurie, "The New History of Death," *The Territory of the Historian*, p. 273-284.

— E.H. Erikson, *Young Man Luther: A study in Psychoanalysis and History* (N.Y. 1958)

(٢١)

— Oscar Handlin, *Truth in History* (Cambridge, Mass. London 1979) 273-4

(٢٢)

— E.H. Carr, *What is History?* 43.

(٢٣)

(٢٤)

القرن العشرين . فعند الصدمة الأولى للعقول الجساسة شعر بعضهم بانعدام الصلة بين التجربة للماضية للانسان وبين ما هو مقدم عليه . فامكانات العصر الجديد العلمية والتكنولوجية فاقت أطقى تطلعات أرقى العقول لمجموع الاجيال السابقة .

ولكن رواد التاريخ الجديد لم يصفقوا ولم ييأسوا ، وأدركوا ان مظهر انقطاع الصلة بين الماضي والحاضر لا يرجع الى قصور في طبيعة الدراسة التاريخية ، ولكنه يكمن في قصور المنهج التاريخي المستخدم حيثل ، فكان لابد من تغيير المنهج ، وهذا هو حجر الزاوية في أهمية دور حركة التاريخ الجديد . فمنذ القرن التاسع عشر والاصوات المتتالية تردد الدعوة الى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية للأمة او المجتمع . ولكن مناهجهم بقيت يفتق عليها الطابع الوصفي او التصويري لما يحدث في المجتمع مع حرص متصل على الدقة العلمية . وهذا هو مآثر ضده اصحاب التاريخ الجديد ، أقصد اسلوب العرض الوصفي او التصويري مهما بلغ من الدقة العلمية والموضوعية الفكرية . فيتطويع مناهج علوم الاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد لاسباب دراسة المعرفة التاريخية ، أمكن تطوير منهج البحث التاريخي لمعالجة «فضايا» و«مشاكل» التاريخ بوسائل العلم الحديث ، وليس مجرد الوقوف عند تناول أو عرض الموضوعات بدقة علمية .

هذا التحول في منهج البحث التاريخي أفاد الدراسة التاريخية الجادة ، وبعث فيها حيوية كادت تختنق عند مفترق الأزمة ، وجعلها قادرة علميا على الاسهام في فهم الحاضر . فاذا كان عالم الاجتماع أو الاقتصاد هو أقدر الناس على دراسة وتحليل مشكلة قائمة مثل البطالة أو الكساد أو الانحرافات الاجتماعية ومعرفة مظاهرها وتقديم الرأي بشأنها ، فقد يصبح للمؤرخ

الجديد والقديم يدو مصطنعا الى حد بعيد (٢٠٣) وفي الفصل الأخير من كتابه عن «فائدة التاريخ» يردد ما سبق أن ذكره في الفصل الاول ، وهو يؤكد رفضه للأسس التي قامت عليها حركة التاريخ الجديد من الموقف العقلي والتوجه الاجتماعي لدراسة التاريخ . وفائدة التاريخ عنده تكمن في أنه «يرضي رغبة عميقة في الانسان لمعرفة جذورنا» ، وأن الهدف من دراسته سوف يظل ما قاله هيرودوت قديما وهو حق لا يمحي بفعل الزمن ذكرى الاحمال الجلييلة التي قام بها الانسان (٢٤٣) وهي نظرة أكاديمية صرفة للتاريخ ، وتكشف عن ظاهرة لما طرأها ، وهي أن الفكر التاريخي اليوناني القديم ، مثالا في هيرودوت ، لا زال قادرا على ان يحرك فكر مؤرخ معاصر على مشارف العقد الأخير من القرن العشرين .

بعد هذه المآخذ والانتقادات يسلم هيمرو لحركة التاريخ الجديد بانجاز ايجابي واحد ، وهو العمل على تعميق دراسة التاريخ واتساع آفاقه (١٩٩) . وهي حقيقة لا سبيل لإنكارها أو الجدل بشأنها . ولكنها جزء من حقيقة تخفي حقائق أخرى . ولعل من المناسب هنا أن نقدم تقريرا موجزا عن أهمية الدور الذي قامت به حركة التاريخ الجديد ، «حتى لا يمحي فضل الاحمال الجلييلة التي قام بها دعائها» - اذا جاز لنا أن نستعير الفاظ هيرودوت أيضا . لعل من الانصاف أن نقرر أن أهم ايجابياتها تتلخص في نقطتين ، هما :

أولا : أنها مكنت التاريخ من مساهمة ثورة المعرفة المعاصرة والأفاده من مناهجها ووسائلها .

ثانيا : انها جعلت التاريخ ضرورة علمية لفهم الحاضر . وهكذا تجاوز التاريخ الأزمة التي لكت به في منتصف القرن العشرين ، حين شعر مؤرخون تقليديون بالمجزع عن إيجاد صلة بين عملهم والتطورات الهائلة التي طلع بها النصف الثاني من

الاقتصادي أو الاجتماعي كما قد يتبادر إلى ذهن البعض ، ولكن الاهتمام كل الاهتمام بالجزئيات . فلم تعد هناك في المنهج الجديد جزئية أو واقعة تنقل قيمة عن الإجراءات والأحداث الكبرى . وهكذا اختفت من التاريخ ظاهرة « المعالم » الكبرى التي تزخر بها كتب التاريخ التقليدية . كما اختفت من التاريخ الجديد أو كادت ظاهرة « تمجيد الماضي أو تقليده » ، وأصبح الماضي كله يوضع موضع التشريع المعلمي لمعرفة عناصره ومقوماته ومكوناته ودرامته والقوى التي تحركه أو تمنع حركته والنتائج التي يفضي عنها . وطبق هذا المنهج على جميع العصور دون تمييز لعصر على آخر ، الأبقدر ما يقدم من مادة تاريخية أو فرت عين الباحث على جلاء غوامضه ومعرفة حقائقه . وهكذا تغير مدى الرؤية التاريخية واختلقت الصورة كل الاختلاف . وما أشبهها بمن ينظر إلى القبة السعيدة بالعين المجردة ثم ينظر إليها بنظارة إلكترونية ، وشتان بين الرؤيتين . لها من شك أننا الآن نرى الماضي بدرجة أكثر وضوحاً من أي عصر مضى .

لعل هذه هي أهم نتائج التاريخ الجديد الإيجابية ، أما نتائجها السلبية فيؤخذ عليه سلبتان يتكرر ترديدهما . الأولى إسمائه في التخصص والاسلوب العلمي ، فقد كثيراً ما الجاذبية الأدبية التي كانت للتاريخ من قبل . ولذلك فقدت الدراسات الجديدة كثيراً من جمهور القراء التقليديين ، لأن المؤرخين بنسبة متزايدة أصبحوا يكتبون للمتخصصين ، شامهم في ذلك شأن كثير من زملائهم في العلوم الأخرى . أما السلبية الثانية فهي اختفاء فكرة التاريخ العام ، فرض أهميتها وجاذبيتها أصبحت في ظل المنهج الجديد بعيدة المنال ، وربما بدت في نظر معظم المؤرخين مستحيلة . ومع ذلك فهناك من يشك أن هاتين السلبتين تدخلان في عداد السلبات ، وأنها مظهر من مظاهر الإرتقاء

دور آخر يكاد يتفرد به ويفرضه على المجتمع ، وهو أن الظاهرة الاجتماعية أو الاقتصادية الحالية ، إذا ما بقيت معزولة عن جلورها ، منبثة الصلة بأصولها ، تبقى نصف مفهومة على أحسن الأحوال ولعل هذا هو ممكن الضعف في بعض الدراسات الاجتماعية والاقتصادية للقضايا الكبرى . وقد أدرك كثيرون أن الظواهر الآتية هي نتائج ماضٍ يختلف طولاً وقصراً حسب اختلاف الأحوال ، وإن التحول وراء الظاهرة يرجع إلى عوامل هي تمكن في بناء النظم القائمة أو بنية المجتمع ، وتغرب بجلورها في الماضي . وعلم معرفة هذا العوامل الضمنية هو سبب عدم فهم بعض الظواهر الحادثة الآن فيها كلاً . ومن ثم كان إصرار أصحاب التاريخ الجديد على دراسة الحركة الممتدة في التاريخ (Process) دون التركيز على الحوادث (events) أو Conjonctures في الاصطلاح الفرنسي ) ، وهو أمر كاد يباس منه بعض المؤرخين التقليديين ، ولا زال يهجو ويحالي من هذا اليأس .

هذا الموقف الجديد يمتنجه الجديد ، كان لابد من إثباته وتأكيد جدواه بالممارسة التاريخية ، وهذا هو ما حدث في الأربعين عاماً الماضية ، حين اندفع مئات من شباب المؤرخين في تطبيق النظرة الجديدة على دراسة الماضي في كل عصوره . وكانت جهود العلماء السابقين طيلة مائة وخمسين عاماً مضت في تجميع وتحقيق ونشر ملايين الوثائق والكتابات والمخطوطات من كل موقع على سطح الأرض ، من أماكنات ومساكن المعرفة الجديدة ، مادة غنية وربما كافية أحياناً ، مكنت هؤلاء المؤرخين من دراسة مشاكل المجتمعات السابقة وقضايا اقتصادها وديانتها ، أو مظاهر الاستمرار والتغير في كل مرحلة وكان أهم نتائج هذه الحركة أن تغيرت صورة الماضي عما كانت عليه منذ خمسين سنة فقط . ولعل أهم مظهر لهذا التغير ، ليس الجانب

العلمي الذي حققته الدراسات التاريخية في النصف الثاني من القرن العشرين .



اخيرا ننهي الى كلمة لا بد منها من دراسة التاريخ في العالم العربي ، أو أين نحن من مدرسة التاريخ الجديد المعاصرة . ولابد أن نقرر منذ البداية أن البون شاسع والمواقف مختلفة كل الاختلاف . فنون أن نتطرق الى جزئيات أو مفردات الكتابات التاريخية العربية المعاصرة ، يمكن تقسيم المشتغلين بالتاريخ العرب الى فريقين رئيسيين : الفريق الاول وهم الكثرة الغالبة ، الذين لا يزالون يشعرون بالارتباط العاطفي بالماضي ، سواء أكان هذا الارتباط العاطفي دينيا أم سياسيا أم اجتماعيا أم حتى اعتلائيا ، ولذلك تتأثر كتاباتهم أو تصوراتهم للماضي الذي يدرسونه بهذه العاطفة . وعدد منهم من غير شك على أكبر قدر من العلم والإحاطة ، ولكنه عند الكتابة يستخدم علمه ومادته لاظهار عاصن ذلك للماضي أو مساوئه ، فهم اما مدافع أو مهاجم مهما بلغ من المهارة والذكاء . ومنهجهم عادة في ارتقي درجاتهم الاستشهاد النصي بالمصادر ، ويظنون أنهم بذلك قد ارضوا قواعد المنهج العلمي . اما الفريق الثاني ، وهم الأقل عددا وانضج عاطفة وأفقر منهجا ، فهم يمارسون عادة منهج التحليل النقدي للمصادر ، وهم لذلك يحققون منزلة أرقى من الموضوعية الفكرية . وما من شك أن ازدياد الاهتمام بتجميع الوثائق العربية ودراساتها ونشرها يزيد هذا الفريق قوة ويدعم منهجه العلمي . ورغم اهتمام عدد من أعضاء هذا الفريق بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، إلا أن أساليبهم في تناول الأزال يغلب عليه طابع عرض ووصف هذه الجوانب في المجتمع ، ولازال بعيدا عن أسلوب معالجة المشاكل والفضايا بمنهج الدليل المباشر بغير وسيط ، حسب تعبير

لادوري . كما أن المنهج الكمي والتوجه الاجتماعي من حيث الموقف العقلي لا يزالان غير متوفرين في كثير من دراساتنا التاريخية .

واخيرا أذكر ظاهرتين تعوقان نمو دراسة التاريخ في العالم العربي على أسس علمية سليمة . الأولى هي إهمال تعلم اللغات التخصصية التي كتبت بها الكتابات التاريخية الأصلية في العصور المختلفة . فهذا العجز اللغوي يشل عقل الباحث ويحجب عنه المعرفة التاريخية كلية . وأضرب على ذلك مثلا ما حدث عند العثور مؤخرا على آلاف اللوحات الكتابية في موقع إيلة بشمال سوريا وترجع الى ما قبل عام ٢٠٠٠ ق.م ، فلم يوجد عربي واحد يستطيع أن يتصدى لقراءتها ، وتركتها قراءتها وتفسيرها للأجانب . ومن الغريب أن هناك من المتعلمين المسؤولين من يرون من أمر اللغات التاريخية بدعوى التعصب للتراث فقط . وكلنا يعرف أنه اذا دخل التعصب من الباب خرج العلم من الشباك ، وعلينا أن نخترنا إما أن نذهب مع التعصب او نحيا بالعلم .

والظاهرة الثانية هي أن عددا من المؤرخين يجلبون الى بعض المبادئ والنظريات ، فتأثر كتاباتهم بهذه المبادئ أو تلك النظريات . وقد تكون كتاباتهم أحيانا مثيرة وبعثة عقليا أيضا ، ولكنها ليست تاريخا لان موضوع التاريخ هو الحياة ذاتها ، ولابد للمؤرخ الحقيقي ان يتعامل مع الحياة والواقع الحى مباشرة ، فالأسلوب العلمي المباشر هو أقصر الطرق وأصحها للمعرفة الصحيحة والرؤية السليمة التي يلزم أن نجتهد جميعا في تحقيقها . وإن لم نبادر الى هذه الغاية - رغم مشقة الوصول - فسوف تصدق علينا سلبا عبارة أحد المؤرخين المعاصرين وهي « ليس هناك مؤشر أكثر دلالة على شخصية المجتمع من نعيه التاريخ الذي يكتبه او يعجز عن كتابته » .

يتكون الكتاب من استهلال وأحد عشر باباً تقع في نحو عشرين وثلاثمائة من القطع المتوسط . والكتاب مليل بهوامش في نحو عشرين صفحة ، وكشاف تفصيلي في عشر صفحات . ومؤلف الكتاب محمور بجريدة نيويورك تايمز منذ عام ١٩٧٨ .

والمقصود بـ « الفوضى » هنا « الجانب غير المنتظم للطبيعة » ، على حد تعبير المؤلف . أي الظواهر التي لا تثبت على حال ، كما أنها لا تتغير بطريقة دورية ، بحيث تعود إلى ما كانت عليه كل فترة زمنية محددة . والعلم الجدي الذي يعدنا به المؤلف هو العلم الذي يدرس هذه الظواهر .

ولما كان الكتاب مكتوباً بطريقة تجعل من الممكن أن يعرض باباً باباً ، فإن العرض التالي سيأتي على هذا النحو ، لأنه - فيما أرى - يفضل العرض المجهل بأنه يتيح للقارئ فرصة أن يقرر بالنسبة إلى كل باب على حدة إذا ما كان من المفيد له أن يقرأه أم لا .

ولقد أرجأت التعليقات إلى ما بعد انتهاء العرض حتى تكون الصورة قد اكتملت في ذهن القارئ . ولا يوجد هذا إلا استثناء واحد . إذ رأيت من المناسب أن أورد من طيات عرض الباب الرابع تعليقا على بعض ما جاء فيه .



#### استهلال :

حيثما تبدأ « الفوضى » يتوقف العلم الكلاسيكي . فزعم وفرة الفزيائيين الذين يبحثون في قوانين الطبيعة ، فقد ظللنا إلى عهد قريب نمائي جهلاً فادحاً فيما يتعلق بعدم انتظام الطقس ، واضطراب البحر ، وتقلبات الحياة البرية ، وذبذبات القلب والمخ . لقد شكل

**الفوضى**  
**صناعة عالم جديد**

**تأليف : جيمز هيليسك**  
**عرض وتحميل : محمد عامر**

الجانب غير المنتظم للطبيعة لغزاً ، أو حتى كابوساً للعلم .

لكن في السبعينات شرعت قلة من العلماء من مختلف التخصصات في أوروبا وأمريكا في السعي لأن يجد طريقاً وسط علم الانتظام . وكانوا جميعاً يبحثون عن علاقات بين مختلف أنواع عدم الانتظام ، فوجد الفسيولوجيون انتظاماً مذهشاً في الفوضى المتطورة في القلب البشري . واستكشف علماء البيئة صعود وهبوط أعداد حشرة العثة النجيرية . وحاول الاقتصاديون أن يمللوا من جليد بيانات سوق المال . وقد قامت النظرة النابعة من هذا مباشرة الى العالم الطبيعي : أشكال السحب ، مسارات البرق ، التفافات الأوعية الدموية الدقيقة ، وتجميعات النجوم في المجرات .

وبعد عقد من الزمن ، صارت « أسبا مختصراً لحركة سريعة النمو تتغلغل في المؤسسة العلمية . وازداد الاهتمام بالفوضى في الجامعات وبين العسكريين ولدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . وفي لوس ألوس حيث صنعت أول قنبلة ذرية ، أنشئ مركز للدراسات غير الخطية لتنسيق العمل في الفوضى والمشكلات المتعلقة بها . ويرى بعض الفزيائيين أن الفوضى هي علم العمليات لا الحالات ، الصيرورة لا الكينونة .

والفوضى تربط التخصصات المختلفة بعضها ببعض الآخر ، وتنظر الى المشكلات في كلياتها دون ارجاعها الى مركباتها . ويرى البعض أن الفوضى هي الثورة الثالثة في علم الفيزياء ، بعد النسبية وميكانيكا الكم . وإذا كانت النسبية قد استبعدت خيال الزمان والمكان المطلقين ، واستبعدت ميكانيكا الكم حلم عمليات القياس المحكومة فإن الفوضى قد استبعدت وهم التنبؤ المحدد . غير أن الفوضى ، دوناً عن

الثورتين السابقتين عليها ، تتعامل مع الظواهر التي نلمسها مباشرة في حياتنا اليومية .

لا يمكن الا لعلم من نوع جديد أن يبدأ عبور الفجوة الكبيرة بين معرفة ما يفعله شيء واحد - مثلاً جزيء من الماء - وما تفعله ملايين من الشيء نفسه .

تقليدياً ، عندما يرى الفيزيائيون نتائج معقدة ، فانهم يبحثون عن أسباب معقدة . أما دراسة الفوضى الحديثة فقد بدأت في الستينات بملاحظة أنه يمكن لبعض المعادلات الرياضية البسيطة أن تشكل نموذجاً لبعض الظواهر العنيفة مثل مساقط المياه ، فالتنبر الطفيل في المدخلات قد يتبع عنه تغير ضخم في المخرجات . وهنا ما يعرف باسم تأثير الفراشة ، فحركة جناحي الفراشة اليوم في بكين قد تتطور الى عاصفة في نيويورك في الشهر التالي .

#### ( ١ ) تأثير الفراشة :

يتبنى العلماء الذين يسبرون على نيج و نوتن ، المغولة التالية : إذا كان لدينا معلومات تقريبية عن الشروط الابتدائية للمنظومة ، فإنها للقوانين الطبيعة ، فإننا نستطيع أن نحسب سلوك المنظومة على وجه التقريب . وتقع هذه المغولة في القلب الفلسفي للعلم .

كلاسيكياً كانت هذه المغولة مبررة ، في الفلك وعلم الفضاء مثلاً ، وتحسد التنبؤات الاقتصادية والطبية على نفس الفرض ، لكن نجاحها أقل وضوحاً .

وفي أوائل الستينات صمم « إدوارد لورنز Edward Lorenz » نموذجاً لدراسة سلوك الطقس من خلال الكمبيوتر . وأعطى الكمبيوتر الأرقام المعبرة عن الشروط الأولية مرتين . الأولى مقربة الى ستة أرقام

وعدم القدرة على التنبؤ مرتبط بعدم دورية الظاهرة . وهذه تلك مرتبطتان بعدم امكان وصف المنظومة الديناميكية عن طريق معادلات خطية . تلك المنظومات التي توصف وصفاً خطياً تصير دورية ، أو تصل الى حالة انتظام . وحتى اذا ما ادخلت عليها بعض الاضطرابات ، فانها تميل الى أن تتناقص حتى تعود المنظومة الى حالتها من الدورية أو الانتظام .

## (٢) تسوية :

تولدت عن ثورة جاليليو على أرسطو نظرة مختلفة الى حركة الأجسام . وفي إطار هذه النظرة رأى جاليليو انتظاماً في حركة البندول . فالبندول الذي له طول معين يتذبذب نفس العدد من الذبذبات خلال نفس الفترة الزمنية ، بغض النظر عن سعة الذبذبة . لكن هذا الانتظام غير موجود في الواقع . انه مجرد تقريب . فتغير زاوية الحركة يولد قدراً ضئيلاً من عدم الخطية في المعادلات . وفي حال الذبذبات الصغيرة ، فإن الخطأ لا يكاد يذكر ، لكنه موجود ، ويمكن قياسه حتى بالوسائل البدائية التي كانت متاحة في عصر جاليليو .

وقد احتاج الأمر الى ثورة أخرى ، ثورة الفوضى ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، حتى ننظر الى حركة البندول آنولين عدم الخطية في الاعتبار . وفي إطار النظرة الجدلدية درست الفوضى منظومات مختلفة :

فديناميكا البندول اتسمت لتشمل تكنولوجيا حديثة مثل الليزر . وقد لوحظ أن بعض المنظومات الكيميائية تبدي سلوكاً يشبه سلوك البندول ، شأنها في هذا شأن ضربات القلب . والانتعاش آخذ في التزايد ليشمل الطب الغضيري والنفسى ، والتنبؤ الاقتصادي ، ومن الجائز أيضاً تطور المجتمعات .

عشرية ، والثانية مقربة الى ثلاثة أرقام فقط . وكان يتوقع أن تأتي النتائج متقاربة . لكنه للغراب لم يبعدها كذلك . نحن إذن أمام ظاهرة غير تقليدية ، حيث يمكن أن تؤدي الاضطرابات الصغيرة الى نتائج خطيرة . ومن هنا قرر «لورنز» أن التنبؤ طويل المدى بالطقس محكوم عليه بالفشل .

ومن المعروف في الميكانيكا الكلاسيكية ، أن المجموعة الديناميكية قد يكون لها بعض نقاط عدم الاستقرار . والمقصود بهذه النقاط تلك التي يمكن أن يؤدي تغير ضئيل فيها الى نتائج كبيرة .

فمثلًا الكرة على قمة الجبل تكون في وضع عدم استقرار . وإزاحة صغيرة في أي اتجاه كافية لأن تجعل الكرة تسقط أسفل الجبل . لكن الجدل في المنظومات التي توصف بالفوضى أن جميع النقاط هي نقاط عدم استقرار .

وبالرغم من أن استخدام الكمبيوتر قد حسن كثيراً من قدرتنا على التنبؤ بالطقس ، فإن هذا ينطبق فقط على الفترات القصيرة نسبياً : يومين أو ثلاثة أيام ، وبعد هذا فلن يكون الأمر الا تخميناً لا أكثر . والسبب في هذا هو ما يسمى بتأثير الفراشة : أي أن تسفر تغيرات صغيرة عن نتائج كبيرة . والمصطلح الفني الذي يستخدم هنا هو : حساسية التوقف على الشروط الابتدائية . وهذا ليس مفهوماً جليداً كليا ، كما يمكن أن نتبين من المقطوعة الشمية التالية :

لنقص مسمار	فقدت الحدود
ولنفساب الحدود	فقد الحصان
وبفقدان الحصان	فقد الفارس
وبفقدان الفارس	خسرت المعركة
وبخسارة المعركة	سقطت المملكة !

## (٣) تقليلات الحيسية :

رغم تعقد الواقع البيولوجي ، فإن نماذجه الرياضية بسيطة للغاية . ولذا فهي ليست أكثر من كاريكاتور للواقع . لكنه كاريكاتور مفيد صلب كل حال . فهو يعطي علماء البيئة - مثلاً - فكرة عن تطور الأوشة وتجمعات الحيوانات أو الحشرات التي يدرسونها .

وكأحد أنواع التبسيط ، فإنه يمكن لعلماء البيئة أن يتعاملوا مع معادلات الفروق التي تنظر الى الزمن نظرة منفصلة ، بدلاً من المعادلات التفاضلية التي تنظر الى الزمن نظرة متصلة . أي أن بإمكانهم أن ينظروا الى الزمن من خلال الأعداد الطبيعية : صفر ، ١ ، ٢ ، ... ، بدلاً من الأعداد الحقيقية التي تأخذ في الاعتبار أيضاً الكسور والجلود وغير ذلك . والذي يمرر هذا التبسيط أن كثيراً من الحشرات - مثلاً - تتوالد في موسم معين ، ولذا فلا يوجد تداخل بين الأجيال . وبالتالي فيمكننا الحديث عن الجيل الأول ، والثاني . . . وهكذا . وفي هذه الحال علينا أن نبحث عن دالة تربط عدد أفراد الحشرة هذا العام بملدها في العام الذي يليه . وهذه معادلة فروق . ويظهر في معادلة الفروق معامل ( أو معاملات ) ثابت ، أي أنه لا يتغير من عام الى عام . فما تأثير هذا المعامل على عدد أفراد الحشرة المتوقع ؟ . في حدود معينة ، كلما تزيد قيمة المعامل ، يزيد العدد عند الاستقار . لكن الأمور ليست دائماً هكذا . فبيانات أكثر ، يمكن أن تصل الى الفوضى . وحتى في هذه الحال كان العلماء يقولون إن العدد يتذبذب حول توازن مقترض . ولم يخطر ببالهم أنه قد لا يكون هناك توازن على الإطلاق . نعم إن النموذج الرياضي مبسط . لكنه مبسط بحثاً عن الانتظام ، فلماذا يزعج العلماء أنفسهم برؤية الفوضى ؟ والفزيائيون أيضاً تدربوا على ألا يروا الفوضى . وبالرغم من أنهم يفضون

وقد وضع « ستيفن سمال Stephen Smale » من جامعة بيركلي نموذجاً توبولوجياً للمنظومات الديناميكية التي تسمى بالفوضى . وقد التفت مجموعة من الشباب الرياضيين للعمل في هذا المجال حول « سمال » . ثم استطاع هذا النشاط أن يجذب انظار الفزيائيين . لقد استطاع « سمال » أن يحول فرعاً من فروع الرياضيات المجردة الى عالم الواقع .

ولقد لاقى الفوضى والنظرة المنبثقة عنها نجاحاً عظيماً في تفسير ظاهرة فلكية رصدتها العلماء من أكثر من ثلاثة قرون ، ألا وهي ظاهرة البقعة الحمراء الكبيرة التي تظهر على كوكب المشتري . وفي البداية لم تكن هذه الظاهرة من الواضح بما يستدعي أن يبحث لها عن تفسير . ومع زيادة مقدرات الرصد في القرن الماضي ازداد وضوح الظاهرة ، وبدأت التفسيرات . فمن قائل إنها حمى بركانية ، الى قائل إنها قمر جديد يوشك أن يولد ، الى قائل إنها جسم صلب يسبح في فضاء المشتري ، الى قائل إنها قمة عمود غازي .

وفي عام ١٩٧٨ أرسلت سفينة الفضاء « فويجر » صوراً أكثر وضوحاً ، فلبت البقعة كما لو كانت عاصفة ضخمة . لكن كان من الصعب قبول هذا التفسير لأن المراسف على الأرض لا تستقر لآل هذه الفترة الطويلة من الزمن . ثم جاء رياضي شاب يدعى « ماركوس Marcus » فوضع في الكمبيوتر نموذجاً فوضوياً صاغه من خلال ديناميكا الموائع . وبأخذ صور على فيلم سينمائي لما ظهر على شاشة الكمبيوتر ، ثم عرض الصور بسرعة على شاشة سينا ، ظهرت دوامات تدور وتتحد في شكل يضاوي يشبه تماماً بقعة المشتري في شكلها وحركتها . وهكذا فمن الفوضى يمكن أن تنبثق ظاهرة مستقرة .



ومن مؤتمري برلين الشرقية تقابل « ماي » مع بعض العلماء السوفيت ، واكتشف أن دراسة الفوضى ليست أمراً جديداً لديهم . بل أن هناك تقاليد بحثية راسخة في موضوع الفوضى بين الرياضيين والفيزيائيين السوفيت ترجع إلى أبحاث الرياضي السوفيت « كالماجوروف » Kolmogorov في الخمسينيات . زيادة على ذلك فإن الاتحاد السوفيتي تفاعلاً بين الرياضيين والفيزيائيين أقوى من ذلك الموجود في الغرب . لكن للأسف فإن بعض ما يحصل إليه السوفيت يصاد من الغرب نتيجة سوء الاتصالات .

وقد حلت النظرة الفوضوية مشكلة نظرية كانت تقسم علماء البيئة إلى فريقين . فريق يرى أن أعداد أفراد كل نوع من أنواع الكائنات الحية ، مستقرة أساساً وبالتالي فهي محكومة بآليات محددة . وفريق يرى أن هذه الأعداد تتبدل بصورة غير منتظمة وبالتالي فهي خاضعة لعوامل بيئية لا يمكن التنبؤ بها . ثم جاءت النظرة الفوضوية التي بينت أن نموذجاً رياضياً بسيطاً ومحدداً يمكن أن يصلح للتعبير عن الرقبتين معاً .

وعلى ضوء النظرة الفوضوية أصبحت قراءة الاحصاءات الخاصة بالأوبئة ، فامكن فهمها بصورة أفضل .

#### ( ٤ ) هندسة الطبيعة :

كان الاقتصاديون يعتقدون أنه لا علاقة بين تغيرات الأسعار على المدى القصير وتغيراتها على المدى الطويل . فالتغيرات التي تجري خلال يوم هي مجرد تشويشات ، لا يمكن التنبؤ بها ، وليست جذرية بالاهتمام . أما التغيرات التي تجري على مدى الشهور والسنين والقرود فهي محكومة بقوة اقتصادية كالركود ، أو سياسية

فترة طويلة من دراستهم في صياغة وحلول المعادلات التفاضلية ، فثابهم يغفلون حقيقة أساسية : أن أغلب المعادلات التفاضلية ليس لها حلول تحليلية . وتلك التي لها حلول هي تلك التي لا تصف الفوضى . إن عدم الانتظام موجود في الطبيعة ، لكن الفيزيائيين يريدون اكتشاف الانتظام . ولذا فإنهم يتجنبون الصياغات الرياضية التي تقضي إلى الفوضى . أما إذا أجبروا على التعامل مع عدم الانتظام ، فإنهم يعالجونه كما لو كان ظاهرة ثانوية : شوشرة ، أو ضوضاء ، أو شيئاً من هذا القبيل .

لنعد الآن إلى دراسة معادلة الفروق التي تصف تغير عدد أفراد حشرة أو حيوان ما من عام إلى عام . وهذه المعادلة هي :

$$S_{n+1} = R S_n - \{ 1 - S_n \}$$

حيث  $S_n$  هي نسبة المدد في السنة النونية إلى أكبر عدد ممكن ( أي أن  $S_n$  تقع بين صفر وواحد ) . أما  $R$  فهو معامل لا يتغير بتغير السنين .

وكما هو واضح فهذه ليست معادلة خطية . وقد حلل العالم الاسترالي « روبرت ماي » Robert May الذي أتى إلى البيولوجيا من الرياضيات سلوك هذه المعادلة ، فوجد أنه إذا كانت «  $R$  » صغيرة فإن  $S_n$  تثبت بعد فترة من الزمن . ويزيادة تركب  $S_n$  عن الثبات ، لكنها تتبدل بين قيمتين ، ثم بين أربع قيم ، ثماني فست عشرة ، . . . وهكذا حتى تبدأ الفوضى حيث لا توجد دورات منتظمة . ومع استمرار زيادة «  $R$  » لا يلبث الانتظام أن يعود من جديد ، لكن هذه المرة بدورة ثلاثية ثم تصير اللذبية بين ست قيم ، فالثني عشرة ، فأربع وعشرين . . . ثم إلى الفوضى من جديد . . . وهكذا فمن الممكن العثور على انتظام داخل الفوضى .

كزيادة أخطار الحروب . ونظرياً ، هذا يعطي فرصة لفهم الأمور .

الى أن جاء « بينويت مانتدلبروت Benoit Mandelbrot » وحل على الكمبيوتر التقلبات في أسعار القطن المسجلة منذ أوائل القرن . فوجد أن تقلبات الأسعار لا تتوقف على المدى ، قصيراً كان أو طويلاً . فمتحى تقلبات الأسعار اليومية تشابه مع متحى تقلبات الأسعار الشهرية . واستمرت درجة التغيرات ثابتة على مدى فترة ستين عاماً شهدت حريين عالميتين كما شهدت الكساد الكبير .

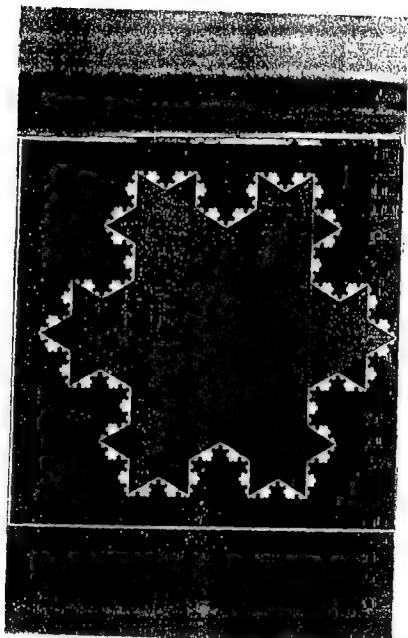
وقد وجد « مانتدلبروت » صورة مشابهة فيما يتعلق بالضوضاء التي تعترى نقل الرسائل تليفونياً . فقد كان المهندسون يعتقدون أن هناك فترات بلا ضوضاء ، وأخرى مليئة بالضوضاء . لكن عندما حلل « مانتدلبروت » الأمر ، وجد أن تلك المليئة بالضوضاء تنقسم بدورها الى فترات خالية وأخرى ليست كذلك . وعندما حلل تلك الأخيرة تحليلاً أدق وجد أنها تسلك نفس السلوك . وهكذا .

ثم يقول المؤلف إن « مانتدلبروت » لاحظ أننا عندما نقيس أطوال شواطئ البلاد نختار نقطة متالية على هذه الشواطئ . ثم نفحص أطوال الخطوط المستقيمة الواقعة بين كل نقطتين متاليتين ، وجموع هذه الأطوال هو ما نسميه طول الشاطئ . كما لاحظ أننا إذا ما قسنا طول الشاطئ مرة أخرى باختيار نقاط أكثر قرباً الى بعضها البعض فإننا نحصل على نتيجة أكبر من تلك التي حصلنا عليها من قبل ، وهكذا . ويقول المؤلف إن الحس الرياضي يتوقع أن تتقارب هذه النتائج الى عدد هو الطول الحقيقي للشاطئ . ويضيف إن هذا صحيح إذا ما كان الشاطئ شكلاً أقليمياً مثل قوس من دائرة .

لكن « مانتدلبروت » - على حد قول المؤلف - وجد أن هذه النتائج تتزايد بلا نهاية ، أو على الأقل تتزايد حتى نصل بتقسيمنا للشاطئ الى مستوى الذرات . يقول المؤلف هذا كما لو كان شيئاً جديداً بالرغم من أن الموضوع قديم ، ومنذ القرن الماضي والرياضيون يعرفون أن هناك منحنيات تتقارب بالنسبة لها هذه النتائج الى عدد يسمى طول المنحنى ، وتسمى هذه المنحنيات بالمنحنيات القوية ، وهناك منحنيات أخرى تتزايد بالنسبة لها هذه النتائج بدون حد ، وتسمى بالمنحنيات غير القوية ، أو ذات الأطوال اللانهائية . هذا طبعاً عن المنحنيات الرياضية . أما عن المنحنيات التي توجد في الطبيعة ( كالشيطان وغيرها ) فنحن في حاجة الى شيء من التجريد كي نصفها وصفاً رياضياً . ولهذا التجريد مشكلاته المعروفة قبل أن يولد « مانتدلبروت » ومؤلف الكتاب معاً .

وقد استعان « مانتدلبروت » بالكمبيوتر للتعلم في دراسة المنحنيات التكرارية المعروفة منذ بداية القرن . وكمثال على منحنى تكراري يمكن أن نبدأ بمنحنى بسيط مثل مثلث متساوي الأضلاع . ثم نقسم كل ضلع الى ثلاثة أقسام متساوية ، ونرسم على القسم الأوسط من كل من الأضلاع الثلاثة مثلثاً متساوي الأضلاع ، ثم نكرر هذه العملية على جميع الأضلاع الخارجية التي نصل إليها ، وهكذا . يرسم هنا شكل ( ١ ) المرفق .

وتتميز هذه المنحنيات بأن سلوك الجزء يشبه سلوك الكل ( أي أن صورتها تحت المجهر تشبه صورتها بالعين المجردة ) . وهي في هذا تشبه ما توصل اليه « مانتدلبروت » في تحليله لتقلبات أسعار القطن وللضوضاء المصاحبة للرسائل التليفونية . ويقول المؤلف إن « مانتدلبروت » قد أعطى لهذه المنحنيات



شكل (١)  
نموذج علم جديد

أبعاداً كسرية ، لكنه لم يوضح كيف . ولذا فإن هذه المنحنيات تسمى أيضاً منحنيات كسرية .

المهم أن « مانديبروت » أقام على أفكار كهله نوعاً من الهندسة أسماء الهندسة الكسرية للطبيعة . وقد وجدت هذه الهندسة تطبيقات في الأحوال التي نريد أن نأخذ فيها التضميلات في الاعتبار . فالفكرة الأرضية ليست في الحقيقة كرة ، بل إن هناك جبلاً وودياناً ، ولوح الزجاج ليس في الحقيقة مستوياً ، لأنك إذا ما نظرت إليه بالمجهر فستجد مرتفعات ومنخفضات ، ... كما وجدت هذه النظرة الكسرية تطبيقات في مجالات أخرى . مثلاً في البيولوجيا حيث تشبه تفرعات الأوعية الدموية الصغيرة تفرعات الأوعية الدموية الكبيرة ، وحيث وجد أن توزيع ذبذبات دقات القلب يتبع قوانين كسرية شأنها في هذا شأن ذبذبات أسعار القطن المشار إليها آنفاً . إضافة إلى هذا يمكن القول إن المنظومات التي يصالح سلوكها عن طريق معادلات غير خطية ( والسابق الحديث عنها ) هي منظومات يشبه سلوك الكبير منها سلوك الصغير ، أو يشبه سلوك الكل سلوك الجزء ، ومن هنا فيمكن فهمها والتعامل معها من خلال الهندسة أو النظرة الكسرية .

#### (٥) جواذب غريبة :

انشغل العلماء طويلاً بظاهرة الاضطرابات في حركة الموائع (أي السوائل والغازات) ، وتظهر دوامات صغيرة وكبيرة متداخلة ، واختلاط تيارات المائع بعضها ببعض بحيث يصعب تمييز بعضها عن بعض متعلراً . ما الذي يجعل المائع ينتقل من حركة سلسة تميل فيها الاضطرابات الصغيرة إلى أن تضعف حتى تختفي ، إلى حركة مضطربة يزداد فيها الخلل إلى حد الكارثة ؟ هذا

السؤال شكّل مشكلة هامة وضامضة في العلم . وقد وضع الفزيائي السوفيتي « لاندائ » Landau نظرية للإجابة على هذا السؤال مفادها أن هذا الانتقال يجري نتيجة لتراكم متزايد لموجات ذات أيقاعات متعارضة في المائع المتحرك .

وتغير الحالة ظاهرة معروفة في الطبيعة . وفي السبعينات كانت الأبحاث قد بينت أن تغير الحالة من الصلابة إلى السيولة ، ومن السيولة إلى الغازية ، ومن الاتصال إلى الاتصال الفائق ، ومن عدم المنطقة إلى المنطقة ، كلها ذات جوانب رياضية واحدة . فهل تشبه ظاهرة الانتقال من السلسلة إلى الاضطراب ظواهر تغير الحالة ؟

لقد صمم « سويني » Swinney و « جوسلوب » Gollub تجربة لدراسة الانتقال من السلسلة إلى الاضطراب من حركة السوائل . وكانوا يتوقعون ظهور أيقاعات « لاندائ » للمعارضة . وبالفعل ظهرت بعض الأيقاعات . وبينما كانوا يترقبون المزيد حدث ما لم يكن متوقفاً ، فقفز السائل مرة واحدة إلى حالة مختلطة ليس بها أية دورات مميزة على الإطلاق . لقد فشلت التجربة في تأكيد النظرية ، أو بالأحرى لقد اتضح أن النظرية لا تصف الواقع . وهذا جعل الباحثين يرون أن « لاندائ » حل خطأ ، ويتوقعون أن يكون « رويل » Ruelle حل صواب . فعلم يقوم تفسير « رويل » لظاهرة الاضطراب ؟ إنه يقوم على ما يسمى بالجوانب الغريبة . فما هي الجوانب ؟

لنبدأ بما يسميه الفزيائيون فراغ الحالة \* . وهو فراغ أقليدي ذو عدد من الأبعاد تكفي لوصف المنظومة الديناميكية من حيث الموضع والسرعة . فمثلاً إذا كانت

(\*) الأمل أن تتولد كمية الحركة (أو الزخم) وهي حاصل ضرب الكتلة في السرعة .

محصور في نطاق صغير لكنه ليس دورياً ، ولا يقطع نفسه ابداً . ولكي يمثل المنحنى حركة تسمح بظهور كل الايقاعات ( التي توجد في الاضطراب ) فان طوله يجب أن يكون لا نهائياً ، رغم أنه محصور في نطاق محدود . إنه منحني من منحنيات هندسة « ماندلبروت » الكسرية السابق الحديث عنها في الباب السابق .

#### ( ٦ ) العالمية :

اكتشف فيجنباوم Feigenbaum ثابتاً مشتركاً بين المنظومات غير الخطية . فقد اكتشف أن المنحنيات التكرارية المناظرة لهذه المنظومات تتصاغر بمعدل ثابت هو ( مقلوب ) ٤,٦٦٩ ( أو بحساب أدق ٤,٦٦٩٢٠١٦٠٩٠ ) .

أمثال هذا الثابت تسمى أحياناً ثوابت عالمية . لقد كان هذا الاكتشاف باعثاً على سعادة خامرة ، لكنه في ذات الوقت سبب صدمة قوية .

#### ( ٧ ) مجرى التجارب :

أجرى « ليخاير Libchaber » تجربة على الهيليوم السائل لدراسة التذبذب في حركة الموائع . وصمم لهذا الغرض صندوقاً صغيراً ليضع فيه سائل الهيليوم عند درجة ٤ فوق الصفر المطلق ( أي ٢٦٩ تحت الصفر المئوي ) . ويرفع درجة الحرارة عند قاعدة الصندوق رفعاً ضئيلاً ( جزء من ألف من الدرجة المئوية ) تتحرك تيارات الحمل الى اعلى وإلى أسفل . وتدرس حركة السائل عن طريق رصد درجة الحرارة عند قمة الصندوق . وقد وجد « ليخاير » أن درجة الحرارة عند القمة تتذبذب بذبذبات معينة . ويزيد درجة الحرارة عند القاع بتضايف عدد الذبذبات . لكن الذبذبات الإضافية لا يكون لها نفس سعة الذبذبات القديمة بل

المنظومة عبارة عن نقطة مادية تتحرك في خط مستقيم ، يكون فراغ الحالة فراغاً ذا بعدين ، أحدهما يمثل الموضع ، والآخر السرعة . وتغطي كل نقطة في هذا الفراغ معلومات كاملة عن موضع النقطة وسرعتها معاً . وتمثل حركة المنظومة بمنحنى من هذا الفراغ . فمثلاً إذا كانت النقطة المادية تتحرك بسرعة منتظمة ، فان حركتها تمثل في فراغ الحالة بخط مستقيم مواز للمحور الذي يمثل الموضع ، اما إذا كانت تتحرك بسرعة متزايدة ، فان حركتها تمثل بمنحنى صاعد .

والجانب هو منحني في فراغ الحالة يمثل حالة مستقرة ، بحيث إذا بدأت المنظومة الحركة من وضع ثقله نقطة واقعة عليه ، فإن النقاط التي تمثل حركة المنظومة مستقبلاً ، تظل واقعة عليه . وحتى إذا بدأت المنظومة الحركة من نقطة خارجية لكنها واقعة من منطقة جاذبه ، فإن الحركة تتطور الى وضع يجعلها توصف بنقطة واقعة عليه ، ثم تستمر النقاط التي تصف الحركة واقعة عليه . فمثلاً إذا كانت المنظومة الديناميكية عبارة عن جسم يتحرك في لحظة ما على مستوى مخشن تحت تأثير قوة الاحتكاك فقط ، فإن فراغ الحالة هنا سيكون ذا أربعة أبعاد ، اثنين لتحديد موضع مركز كتلة الجسم ، واثنين لتحديد سرعة هذا المركز ، أما الجانب هنا فيكون نقطة واقعة في مستوى الموضع ، لأن المنظومة تستقر في حالة سيكون .

وتفسير « روبل » لظاهرة الاضطراب ، أن حركة المائع تقع في منطقة جاذب بجانب غرب في فراغ الحالة ، وبعد فترة من الحركة تقع النقطة التي تصف الحالة على هذا الجانب ، وهنا يبدأ الاضطراب ، وتظل النقطة الممثلة للحركة على الجانب ، وبالتالي يستمر الاضطراب . وفراغ الحالة في تصور « روبل » هو عدد قليل نسبياً من الأبعاد ، أما الجانب الغريب فهو منحني

تكون سمعتها أقل . وهكذا يتضاعف التفرع كلما هومين بالرسم . وهكذا تتفق مشاهدات « لبيخاير » مع ما توقعته النظرية .

#### ( ٨ ) مصور الفوضى :

حتى إذا كان سلوك المنظومة الديناميكية غير فوضوي ، فإنها قد لا تكون بعيدة جداً عن الفوضى . فمثلاً إذا كانت المنظومة الديناميكية عبارة عن بندول ذي رأس مغمط ، وكان هناك مغنطيسان مثبتان تحت البندول بحيث أن البندول عندما يسكن تكون رأسه عند أحد هذين المغنطيسين ، فإن سلوك المنظومة لن يكون فوضوياً ، إذ أنها بعد فترة ستسكن هنا أو هناك .

ما علاقة هذا بالفوضى ؟ في فراغ الحالة لهذه المنظومة يوجد جاذبان ، كل منهما عبارة عن نقطة ، الأولى تناظر المغنطيس الأول ، والثانية تناظر الثاني . وتقاط هذا الفراغ تنقسم إلى فئتين بحيث إذا كانت حالة المنظومة عند بداية الحركة عملة بأحدى نقاط الفئة الأولى ، فإن المنظومة تستقر عند الجانب الأول . وبالمثل بالنسبة إلى الفئة الثانية . ما هو خط الحدود الذي يفصل بين هاتين الفئتين ؟ إنه قد يكون منحني كسرياً فوضوياً معقداً .

أيضاً يمكن الوصول إلى فئات فوضوية بطرق رياضية بسيطة نسبياً وهذا ما فعله « ماندليبروت » إذ أنه قسم

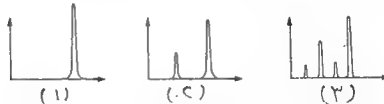
مستوى الأعداد المركبة إلى فئتين . بحيث تقع النقطة حـ في أحدهما إذا كانت المتابعة التي حلدها الأول ع ١ حـ وحدها رقم ن + ١ يرتبط بحدها رقم ن بالعلاقة ع ن + ١ = ع ٢ ن + حـ ، إذا كانت هذه المتابعة تتباعد إلى اللانهاية ، والا فالنقطة حـ تقع في الفئة الثانية .

تسمى الفئة الثانية فئة « ماندليبروت » . هذه الفئة ليست تكرارية تماماً كالمنحنيات التي سبق الحديث عنها في الباب الرابع . لكنها تكرر نفسها على وجه التقريب ، وإن لم يكن بالضبط .

#### ( ٩ ) مجمع المنظومات الديناميكية :

في أواخر السبعينات كون بعض طلبة الدراسات العليا بجامعة « ستانفورد » بكاليفورنيا مجموعة أسمائها المؤلف « مجمع المنظومات الديناميكية » لدراسة السلوك الفوضوي لهذه المنظومات .

وكان من بين الأسئلة التي سألوها هل يمكن قياس عدم امكان التنبؤ ؟ وقد وجدوا إجابة على ذلك في المفهوم المعروف باسم « أس ليابونوف » نسبة إلى الرياضي الروسي « ليابونوف Lyapunov » . وهذا الأس يقدم مقياساً للخواص التوبولوجية التي تناظر مفاهيم مثل عدم امكان التنبؤ . فأس « ليابونوف » لمنظومة ما تقيس الآثار المتعارضة لتمدد وتقلص وطى



شكل (٢)

نوع تذبذبات ليخاير

القوى : صفة علم جديد

الكل للمنظومات المعقدة دون الدخول في التفاصيل الداخلية . وهذا تطور هام ، لأن عمل نموذج حل الكمبيوتر لمنظومة معقدة كقلب الإنسان هو أمر مستحيل عملياً ، إذا ما أردت لهذا النموذج أن يأخذ كل التفاصيل الدقيقة في الاعتبار .

وعلى سبيل المثال فالتحليل البطني الذي يسبب سنوياً مئات الآلاف من الوفيات المفاجئة في الولايات المتحدة الأمريكية هو عطل في منظومة القلب ككل ، دون أن يبدو أن هناك خللاً في أجزائها . وبالمثل ، فالاضطرابات العقلية هي اضطرابات في منظومة معقدة . ومن هنا فإن خبراء الفوضى يرون ضرورة النظرة الكلية الجديدة . وبإجراء التجارب على قلوب الكلاب وجد أن النشاط الكهربائي للقلب يشبه من أوجه كثيرة المنظومات الأخرى التي تطور سلوكاً فوضوياً .

وفي إطار هذه النظرية الكلية جرت دراسة للايقاعات اليومية ، وهي نوع من الساعات البيولوجية ، أو الظواهر البيولوجية التي تتكرر كل أربع وعشرين ساعة . ومن بين هذه الايقاعات دورة نشاط البعوض التي تتكرر في الطبيعة كل أربع وعشرين ساعة . أما في المصل فقد وجد أن هذه الدورة قد تتقدم أو تتأخر تبعاً للمنبهات الخارجية . وقد تبين أن الدورة الداخلية ، أي التي تجري عند ثوبت المنبهات الخارجية ، تتكرر كل ثلاث وعشرين ( لا أربع وعشرين ) ساعة .

وبالمثل وجد أن دورة حرارة الإنسان الداخلية تتكرر كل خمس وعشرين ( لا أربع وعشرين ) ساعة . أما الناس الذين يمزلون من العالم الخارجي ويعيشون في ظل ثبوت الضوء ودرجة الحرارة وما إلى ذلك ، فإن دورة النوم - اليقظة لديهم تحتل تماماً بعد بضعة أسابيع .

الجوانب في فراغ الحالة . وبالتالي فهي تعطي صورة لخواص المنظومة التي تؤدي إلى الاستقرار أو عدم الاستقرار . فمثلاً تبين أنه لكل جانب غريب ، يكون واحد أو أكثر من أسس ليايونيوف موجيا .

ومن بين ما توصلت إليه هذه المجموعة أن المنظومة الديناميكية قد تجمع بين السلوك المنضبط في اتجاه ، والسلوك غير المنضبط في اتجاه آخر .

ولقد ربطت المجموعة بين نظرية الفوضى ونظرية المعلومات . فعندما تكون المنظومة في حالة فوضى ، ولا يمكن التنبؤ بحركة جزيئاتها ، فإن كل جزيء يقدم معلومة جديدة . فكما أن الطاقة تنتقل أثناء اضطراب المائع من المستوى الكبير إلى المستوى الصغير يتحولها من طاقة حركة إلى طاقة حرارية من خلال سلاسل الدوامات ، فإن المعلومات تنتقل بالعكس ، من المستوى الصغير إلى المستوى الكبير . ولهذا على الأقل هو تصور المجموعة . والفنورات التي تنتقل خلالها المعلومات من أسفل إلى أعلى هي الجوانب الغريبة ، فهي تكبر حالة العشوائية الابتدائية ، كما يكبر أثر الفراشة ، عدم التحديدات الصغيرة إلى أشكال طقسية كبيرة .

#### ( ١٠ ) الايقاعات الداخلية :

عززت المفاهيم والنظريات الفوضوية مجالات البيولوجيا والطب . وانطلاقاً من هذه المفاهيم أنشئ نموذج رياضي لحركة حيون مرضي الشيزوفرينيا أسفر عن عدم انتظام لا يختلف عن ذلك المسجل في البيانات الطبية . ومع قدوم الثمانينات أدخلت الفوضى نوعاً جديداً من الفسيولوجيا قائماً على فكرة أن الأساليب الرياضية تستطيع أن تساعد العلماء على فهم السلوك

## ( ١١ ) الفوضى وما بعدها :

لعل أشد ما يجلب انتباهي في هذا الكتاب هو المبالغة . فالموضوع ، ببساطة ، اتساع نيش في واقع معقد ، وفي محاولتنا لفهمه نقوم بنشاطين متفاعلين : المراقبة والتنبؤ . وفي التنبؤ تواجهنا مشكلة لا أظن أنها ستجد حلاً كاملاً ونهائياً أبداً . فمن جهة يحسن بالنظرية أن تكون معقدة حتى تكون أقرب الى الواقع . ومن جهة أخرى يحسن بالنظرية أن تكون بسيطة حتى يمكننا أن نتعامل معها وبها بطريقة مشمرة .

وأحد أهم العوامل التي قد تضطرنا الى تبسيط غير مرغوب فيه ، هو الأدوات الرياضية المتاحة ، أو التي يمكن تطويرها في عصر ما . ورغم أن المعادلات غير الخطية معروفة وموضوعة تحت تصرف العلماء منذ زمن ليس بالقصير ، فقد كان من المرغوب فيه دائماً تجنبها . وهذا يرجع الى صعوبة حلها ، أو عدم إمكان حلها بالطرق التحليلية المضبوطة ، واللجوء في حلها الى الطرق التقريبية والعديدة .

والتطور الهام الذي جرى في العقود القليلة الأخيرة هو أن مقدرتنا على تنفيذ الطرق العديدة قد تقدمت تقدماً هائلاً ، ولا يزال يتقدم ، نتيجة لاختراع وتطور الكمبيوتر . وبالتالي فقد صار لدينا الآن وسائل أقوى للتعامل مع الظواهر المعقدة التي كان يصعب علينا أن نتقرب منها من قبل .

نحن إذن لسنا أمام علم جديد يسمى « الفوضى » ، بل نحن أمام وسائل جديدة تمكننا من أن نفهم بطريقة أفضل - في إطار مختلف العلوم - الظواهر التي هي من التعقيد بالقدر الذي جعلنا نصفها بالفوضى ، بل وأن نجد الانضباط في هذه الظواهر . وليس من المستبعد أن تغير هذه الوسائل الجديدة نظريتنا العلمية في هذا الفرع أو ذاك . وأيضاً ليس من المستبعد أن تغير نظرتنا العلمية

غيرت الفوضى مجموعة من المتطلبات الضمنية التي كانت سائدة بين العلماء ، مثل « المنظومات البسيطة تسلك سلوكاً بسيطاً » ، « السلوك المعقد يتطلب أسباباً معقدة » ، « تنصرف المنظومات المختلفة بطرق مختلفة » ، وأخذ مزيد من العلماء يرون أن الفوضى قدمت طريقاً جديدة للنظر لآي البيانات القديمة . وأكثر فأكثر أخذوا يشعرون أن تجزئ العلم يمين تقدمه . وبالنسبة إليهم كانت الفوضى هي نهاية البرنامج الاختزالي في العلم .

غير أنه لا يوجد اتفاق على مصطلح « الفوضى » فهناك من يرى أنه مصطلح غير مناسب لأنه يستلزم العشوائية ، بينما الظاهرة التي نعالجها هي أنه توجد في الطبيعة عمليات بسيطة يمكن أن تنشئ صروحاً معقدة ، دون عشوائية . وهناك عدة مقترحات لأوصاف بديلة : « الديناميكا محرومة من قيود النظام والتنبؤ » ، « السلوك الذي يضحك عدم التأكد ، لكنه ليس تماماً غير قابل للتنبؤ » ، « السلوك غير المنتظم ، وغير القابل للتنبؤ للمنظومات الديناميكية المحددة غير الخطية » ...

ويرى بعض العلماء الذين يبحثون في المنظومات البيولوجية أن مصطلح « الفوضى » أضيق من اللازم . فالفوضى تستلزم أن تكون المنظومة بسيطة ، قليلة الأبعاد . هذا في نظرهم مجرد حالة خاصة ، إذ أنهم مهتمون بالمنظومات المعقدة كثيرة الأبعاد ، وهم مقتنعون بأن مثل هذه المنظومات موجودة في الطبيعة .





ويمكن القول - نظرياً على الأقل - إنه إذا كان لدينا نموذج رياضي للمنظومة ، فإنه يمكن تحديد درجة التقريب التي تسري بدءاً منها المقولة المذكورة . أما فيما عدا هذا من الأحوال فالأمر متروك للتجربة .

ج- جاء في الباب الثالث أن دراسة « الفوضى » في الاتحاد السوفيتي تعود إلى الخمسينيات . وهذا يبين أن الأمر ليس بالجدلة التي توحي بها بقية أجزاء الكتاب .

د- جاء في الباب العاشر أن « الفوضى » قد أدخلت نوعاً جديداً من الفسيولوجيا قائماً على فكرة أن الأساليب الرياضية تستطيع أن تساعد العلماء على فهم السلوك الكلي للمنظومات المعقدة دون الدخول في التفاصيل الداخلية . ويقول المؤلف إن هذا تطور هام . وقد يكون هذا تطوراً هاماً بالفعل . لكنه ليس جديداً تماماً . فتاريخ البيولوجيا في مجمله هو تاريخ محاولة فهم السلوك الكلي للمنظومات المعقدة دون الدخول في التفاصيل الداخلية . وكما هو معروف فالكشاف الحلية والكائنات الدقيقة هو أمر حديث نسبياً .

هـ- جاء في الباب الحادي عشر أن من بين المنطلقات الضمنية التي كانت سائدة بين العلماء والتي غيرتها الفوضى ، أن المنظومات المختلفة تتصرف بطرق مختلفة . والحقيقة أن البشر منذ أن عرفوا أن إضافة حصان إلى حصان ينتج حصانين ، وأيضاً أن إضافة بقرة إلى بقرة ينتج بقرتين ، واستخلصوا من هذا وأمثاله أن  $1 + 1 = 2$  ، وهم يعرفون - ضمناً على الأقل - أن المنظومات المختلفة قد لا تتصرف بطرق مختلفة .

و- جاء أيضاً في الباب الحادي عشر أن مزيداً من العلماء يرون أن الفوضى هي نهاية البرنامج الاختزالي في العلم . وهذا يثير لديّ بعض المعجب . فهذا البرنامج

العام ، وأن تؤثر على فلسفة العلوم . لكن الأمر لا يزال في حالة سيولة ، ومن الصعب التنبؤ بما سيسفر عنه . وشاهدني على هذا ، الاختلاف حتى على مصطلح « الفوضى » كما جاء في الباب الحادي عشر .

لنتقل الآن إلى بعض النقاط التفصيلية :

أ- جاء في الاستهلال أن ميكانيكا الكم قد استعجلت حلم عمليات القياس المحكومة . والواقع أن ما قالته ميكانيكا الكم هو أن هناك بعض التغيرات التي تصف المنظومة الديناميكية ( كالوضع وكمية الحركة مثلاً ) لا يمكن أن تحدد تماماً معاً . إذ أن حاصل ضرب مقادير عدم التحديد في كل منها أكبر من أو يساوي مقداراً معيناً . لكن إذا ما أردنا أن نقيس الموضع ( دون كمية الحركة ) ، أو الموضع وبعض متغيرات أخرى ( غير كمية الحركة ) كالطاقة مثلاً ، فإن هذا يمكن أن يجري بعملية محكومة .

ب- جاء في الباب الأول أن العلماء الذين يسرون على نهج « نيوتن » يتبنون مقولة « تقع في القلب الفيلسفي للعلم » ، مفادها أنه إذا كانت لدينا معلومات تقريبية عن الشروط الابتدائية للمنظومة ، ونهها للقوانين الطبيعية ، فإتانا نستطيع أن نحسب سلوك المنظومة على وجه التقريب .

وأرى أن هذه المقولة لا غنى عنها بالنسبة للمنظومات التي نأمل أن نتعامل معها من خلال العلم . ذلك لأنه من المستبعد أن تكون لدينا معلومات كاملة وحقيقة تماماً عن الشروط الابتدائية . والتجربة التي أجراها لورنز على الكمبيوتر لم ينتقل فيها من معلومات تقريبية إلى معلومات مضبوطة تماماً ، لكنه انتقل من تقريب إلى تقريب أدق .

بعد هذا النقاش لبعض النقاط التفصيلية ، أود -  
انصافاً للكتاب - أن أسوق ملاحظة عامة . فالكتاب  
محاولة جادة لرصد وفهم بعض جوانب التطور العلمي  
أثناء حدوثه . وفلسفة العلم المعاصرة لا تهتم فقط  
بالعلم كما يجب أن يكون ، بل تهتم أيضاً بالعلم كما  
هو ، وكما تطور ويتطور بالفعل . غير أن أكثر  
الدراسات منصب على التطورات التي جرت ، أي على  
تاريخ العلم . ولذا فإن هذا الكتاب الذي يدرس ما  
يجري بين ظهرائنا هذه الأيام يضع مادة قيمة بين أيدي  
فلاسفة العلم .

إضافة الى هذا فالكتاب يلقي ضوءاً على الجوانب  
السياسية والاجتماعية والتربوية المتعلقة بالعلم . وبين  
أن الجديد في العلم يلقي - حتى في عصر التقدم المدعول  
للعلم - الصعوبات ، ليس فقط من الجهات التي تضع  
السياسات وتوزع الأموال ، وإنما أيضاً من أهل  
التخصص أنفسهم . ولذا فإن على أصحاب الجديد -  
حتى في العلم - أن يصروا ويثابروا ويضحووا .

يعني محاولة إرجاع خواص المنظومات المركبة الى خواص  
المركبات والعلاقات بين المركبات . ومنذ أوائل القرن  
الماضي وهذا البرنامج يلعب دوراً محورياً في تطور  
العلم ، وفي تمهين فهمنا للمنظومات المركبة ولرابطاتها  
معاً . وهو مرتبط ارتباطاً أساسياً بالنظرية الذرية القديمة  
والحديثة ونظريات الجسيمات الأولية والميكانيكا  
الاحصائية ، وبصفة عامة بالفيزياء الحديثة ، كما أنه  
مرتبط بالكيمياء الحديثة والبيولوجيا الحديثة . . . . . ومع  
تطور الكمبيوتر فإن مقدرتنا على تطوير هذا البرنامج  
تزداد ، وبالتالي فانتوقع أن تزداد - لا تنتهي أو حتى  
تنقص - أهمية الدور الذي يلعبه في تطور العلم .

وهذا لا يعني أن ليس هناك مكان لدراسة السلوك  
الكلي للمنظومات المعقدة دون الدخول في التفاصيل  
الداخلية . بل الحاصل أن هذا النوع من الدراسة يسير  
جنباً الى جنب مع البرنامج الاختزالي ، وكل منها  
يتفاعل إيجابياً مع الآخر .

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

- ( أ ) التنمية الإدارية
- ( ب ) بين العلوم الطبيعية والإنسانية
- ( ج ) الطاقة النووية
- ( د ) اللسانيات

### العدد التالي من المجلة

العدد الثاني - المجلد العشرون  
يوليو - اغسطس - سبتمبر

قسم خاص عن  
التنمية الادارية

٥ ليرات	سوريا	٧ دراهم	ولادة الإمارات
٤٠ قرشا	القاهرة	٦ ريال	لسمودية
٣٠٠ مائلا	السودان	٤ ريال	تطير
٥٠ قرشا	ليبيا	٥٠٠ فلس	لبحرين
٥٠٠ بيعة	مستقط	٥٠٥ ريال	ليمن الشمالية
٦ دنانير	الجزائر	٤٠٠ فلس	ليمن الجنوبية
٦٠٠ ملهم	تونس	٤٠٠ فلس	لعمراق
٧ دراهم	المغرب	٥٠ ليرة	ليبنا
		٣٠٠ ظنا	الأردن

### الإشتراكات:

البلاد العربية ٥ دنانير

البلاد الأجنبية ٦ دنانير

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعتماد بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى:

وزارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت



# عالم الفكر

جلد العشرون - العدد الثاني - يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٩

## التفكير الإداري



## "مجلة عالم الفكر" قواعد النشر بالمجلة

- (١) «عالم الفكر» مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .
- (٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقاً للقواعد التالية :-
  - (أ) أن يكون البحث مبتكراً أصيلاً ولم يسبق نشره .
  - (ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث ونزوله بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .
  - (جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .
  - (د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطباعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .
  - (هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري .
  - (و) البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .
- (٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل للنشر ، وذلك وفقاً لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة

وزارة الاعلام - الكويت - ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

رئيس تحرير: محمد يوسف الرومي  
مستشارة تحرير: كثرية نوردهايل الرومي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت \* يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٩ م  
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الاعلام - الكويت ص.ب ١٩٣ الرمز 13002

## المحتويات

### التنمية الإدارية

- المشهد: التلازم بين التنمية الإدارية وإدارة التنمية  
مهمة الإدارة  
إدريس الجندية  
مساهمة التنمية الإدارية في الوطن العربي  
مؤسسات التنمية الإدارية في الوطن العربي
- الدكتور عوفي جلال بن الحسود ..... \*
- الدكتور علي السليبي ..... ١٣
- الدكتور أسامة جلال حسن ..... ٤٥
- الدكتور إبراهيم سعد الدين ..... ٦٣
- الدكتور محمد الطويل ..... ٩٣

\*\*\*

### شخصيات وآراء

- الدكتور علي طريف الخليلي ..... ١٣٣
- برنارد تيليس

\*\*\*

### مطالعات

- الدكتور يوسف بكار ..... ١٩١
- طه حسين ونظمية الترجمة

\*\*\*

### من الشرق والغرب

- الدكتور حلمي عبد القادر ..... ٢١٣
- عوامل نهضة الفكر العربي في العصر الحديث

\*\*\*

### صبر حديثا

- تأليف: طارق بريد  
معرض وتعليق: الدكتور رشاد الصباح ..... ٢٣٣
- تأليف: عتيق ماريشا  
معرض وتعليق: الدكتور اسماعيل صبري مقلد ..... ٢٩٩
- تأني: عبد الأساطير والحكمة
- مدد الإسلام في السيرة الخارجية

### مجلس الإدارة

- محمد يوسف الرومي (رئيسًا)  
• د. نورية صالح الزوي  
• د. رشاد محمود الصباح  
• د. عبد المالك التميمي  
• د. عيسى المشنوط

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة باحادة أي مادة تنلقاها للنشر .





المحرر الضيف لمحور العدد  
الدكتورة موسى عبد العزيز الحمود

المحرر الضيف لعدد « التنمية  
الإدارية » هي الدكتورة موسى عبد العزيز  
الحمود الأستاذ المساعد بكلية التجارة  
والاقتصاد والعلوم السياسية . بجامعة  
الكويت . وكانت تشغل منصب عميدة كلية  
التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية .



## التمهيد

مع بدايات هذا القرن دخل الانسان العربي طور التنمية الحقيقية لجوانب حياته المختلفة ، من اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية خاصة مع تحرر أوطانه من عبء الاستعمار في معظم أشكاله واللوانه . وبدأت القيادات الوطنية التي فرغت ، أو كادت ، من مهام التحرير في هذه الدول ، تتجه الى عملية التنمية في مجتمعاتها وهي تنشئ الرخاء والنهـاء والتطور لشعوبها ، تتلمس مشاكل مواطنيها وتعمل على تحقيق احتياجاتهم المادية والأساسية ، ساعية في الوقت نفسه الى التأثير على فكر المواطن وسلوكه لاثـمام عملية التنمية والدفع باستمرارها ، ذلك لأن التنمية وإن كانت تهدف الى خير الانسان فهي في الوقت ذاته تتركز على جهده . وبعبارة أخرى فالانسان هو وسيلة التنمية وهابنها في آن واحد<sup>(١)</sup> .

## التدرج بين تنمية الادارية وإدارة التنمية

موضي عبدالعزيز محمود

كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية  
جامعة الكويت

وتسابت الدول العربية الى رفع شعار التنمية تحديها الرغبة في اللحاق بركب التقدم والتطور المتسارع في العالم خاصة وإن امكانات هذا الوطن الشاسع ومعطياته الحضارية والتاريخية تمدها بالطاقات الضرورية للدفع بعملية التنمية الى آفاق مستقبلية أرحب . وقد استهدفت هذه الدول بصورة أو بآخرى وبلدراجات متفاوتة تحقيق التنمية لمجتمعاتها

(١) خليل النقيب وآخرون . الادارة التنموية للوطن العربي ، معهد الاملاء العربي ، ١٩٧٨ ، ص ٢١ .

ضمن اطارها التنموي الشامل وبإبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والادارية .  
ولكن لاعتبارات عديدة توجهت معظم الأقطار العربية بصورة أساسية الى الجوانب الاقتصادية في التنمية وانحازت الجهود الرسمية في معظمها الى تلك الجوانب الاقتصادية ، وتراجع الاهتمام بالجوانب الأخرى في أبعادها الثقافية والسياسية والادارية ، مما عاق جهود التنمية لفترة طويلة عن بلوغ أهدافها وأثر بصورة مباشرة على بناء وتكوين الانسان القادر على العطاء والمتفاعل مع قضايا التنمية في مجتمعه . وبدأتنا نشهد مظاهر التخلف لمعظم أقطارنا عن ركب التقدم والتطور في حين تسارعت الأمم الأخرى في هذا المضمار الحيوي والهام لحياة شعوبها .

إن التنمية بمفهومها الشامل هي عملية مجتمعية متشابكة ومتكاملة في اطار نسيج بالغ التعقيد تتفاعل فيه عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وإدارية ، والتنمية بهذا المعنى لا تمثل فقط الناتج النهائي لمجموع المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية بل هي تزيد عن ذلك لأنها محصلة تفاعلات مستمرة بين هذه العوامل<sup>(٢)</sup> ، وهي لذلك عملية حضارية شاملة لمختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الانسان وكرامته ، وهي بناء للانسان وتحرير له ، وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته على العمل البناء ، كما انها اكتشاف وتعبئة لموارد المجتمع مع الاستخدام الأمثل لهذه الموارد من أجل بناء الطاقة والقدرة الذاتية على العطاء المستمر<sup>(٣)</sup> .

وباختصار فإن التنمية بهذا المفهوم تعني تفاعل الجوانب المختلفة في المجتمع من قدرات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية وإدارية لخلق مواطن واع ومفكر ومحرك للتنمية وتحقيق لها .

إننا نلاحظ على الجانب الآخر ، وبعد سنوات طويلة من التحرر والعمل في ظل شعار التنمية أن المواطن العربي في أجزاء كثيرة من هذا الوطن لا زال يفتقر الى الخدمات الأساسية والمقومات الضرورية لحياته ولا يزال يعيش في ظروف معيشية بالغة الصعوبة ، تحيط به ظروف مادية. قاسية وأوضاع ثقافية وفكرية متخلفة وواقع سياسي متسلط ، ولم تستطع إدارة التنمية أن تحقق الكثير من أهدافه المنشودة في التقدم والنمو .

(٢) محمد صادق . التنمية في الأقطار المتوجة للفظ في الجزيرة العربية من عائدات النفط وإدارة التنمية ، دراسة مقدمة لدولة التنمية ، البحرين ٢٤ - ٢٦ ديسمبر ١٩٨٠ ، ص ١٣

(٣) محمد المبدى . آفاق التنمية في الثمانينات ، حلقة نقاشية في المعهد العربي للتخطيط ، الكويت ، يناير ١٩٨١ ، ص ١٩٥ .

## إدارة التنمية

مانعته بادارة التنمية هنا ، هو تلك الإدارة ( أفراداً وأنشطة ) المنوط بها تخطيط وتنفيذ برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ذلك لأن التنمية باعتبارها عملية مجتمعية موجهة لن تتحقق دون وجود ادارة تقوم عليها تتعدد وتتدرج في مستوياتها من الادارة السياسية على رأس الدولة الى الادارة العامة في الوزارات والدوائين الى ادارة المشروعات والمؤسسات العامة والخاصة<sup>(١)</sup> .

وتتميز ادارة التنمية بأنها تملك القدرة على بلورة تطلعات المجتمع وصياغتها في خطط وبرامج ، كما تملك القدرة على تنفيذها بكفاءة وفعالية حيث تتوفر لها الامكانيات والقدرات والنظرة الثاقبة التي تعينها على التفاعل مع أفراد المجتمع وتحريكه وتطوير رأسماله البشرى والمادى بما يحقق التطور للمجتمع في كافة قطاعاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية<sup>(٢)</sup> . . ورغم هذه الأهمية المتزايدة لادارة التنمية الا اننا نجد انها لم تعط الاهتمام الكافي في الوطن العربي حتى أصبحت ادارة التنمية في أجزاء كثيرة من هذا الوطن تواجه كثيراً من المشاكل المتعلقة بعدم وضوح الرؤى وعدم تحديد الأهداف كما ضعفت أساليب المحاسبة وتقويم الأداء ، وأصاب الترهل والتضخم أجهزتها وكوادرها وتنامت فيها البيروقراطية بمظاهرها السالبة وغابت عنها الموضوعية في التقييم لكوادرها أو نواتجها وغاب الابداع الادارى لدى قياداتها ، وقد أدت هذه المشكلات في ادارة التنمية الى تخلف التنمية بصورة عامة وتخلفت الدول العربية عن بلوغ الأهداف التي حددتها في بداية فترة انطلاقها وتحورها . . وبدأت هذه الدول تشكو من التراجع والتدهور في كثير من مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية .

لقد ادرك كثير من هذه الدول - ولكن متأخراً - أهمية الالتفات الى ادارة التنمية ومحاولة إصلاحها عليها تنبض ولو قليلاً بمسئولياتها وتلحق بالمجتمعات الأخرى في العالم المتقدم والنامي على السواء ، وأدركت هذه الدول دور الادارة الهام والحيوى في تقدم كثير من المجتمعات ليست آخرها المجتمعات الحديثة النمو التي أدهشت العالم بتطورها السريع ومنها على سبيل التحديد بعض دول شرق آسيا ككوريا وتايوان وسنغافورة ومن قبلها وبأمد طويل اليابان وكندا والولايات المتحدة وأوروبا وإستراليا .

(١) لمزيد من التفصيل راجع على خليفة الكواري . نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٦٤ .

(٢) أسامة عبد الرحمن ، البيروقراطية الضخمة ومعضلة التنمية ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٢ ، ص ٢٧ .

## التنمية الادارية

مع تزايد التحديات الحضارية وتعاضلها ، كان لزاما على الدول العربية ان تنهض لمواجهةها سواء التحديات الداخلية التي تواجهها هذه الدول كرفع مستوى المعيشة وتحقيق الخدمات وضمان الحقوق الأساسية لمواطنيها وغيرها ، أو التحديات الخارجية التي تتمثل في التقدم الهائل لدول العالم الصناعي من حولها . كل ذلك جعل التوجه الى « تنمية الادارة » عملية حتمية ومصيرية ولا تقل أهمية عن ضرورة التوجه الى اصلاح الأنظمة السياسية والاقتصادية في هذه المجتمعات . والتنمية الادارية في هذا المفهوم تعني بناء وتحديث الهياكل الادارية وتطوير النظم والاجراءات وقدرات ومهارات القائمين على ادارة التنمية وعناصرها البشرية في مختلف مواقع العمل ، ولعل القصور في جوانب الادارة على وجه الخصوص كان أحد الأسباب المباشرة في اتساع الفجوة الحضارية بين مجتمعاتنا العربية ومجتمعات العالم المتقدم ، ومن هنا فإنه يتعين النظر جديا الى الاصلاح والتطوير الاداري كمرحلة ضرورية وعاجلة لادارة التنمية في معظم أقطار الوطن العربي . ولعل أهم ما يتطلبه الأمر هنا هو العمل على تطبيق المفاهيم العلمية المتطورة وتوظيفها لرفع كفاءة الادارة والدفع بمهنتها .

ان إدارة التنمية مطالبة اليوم بتوظيف مجموعة من الدعائم الادارية كتوظيف المعلومات وتحديد الأهداف واستحداث الأساليب والوسائل المعاصرة لتسهيل العمل واستخدام المعلومات لاتخاذ القرارات الادارية الصائبة وتحديث السلوك الانساني والقدرة على مقابلة التغير والاستعداد له وذلك كله يعتمد اعتمادا أساسيا على قياديي التنمية في شتى المواقع والمؤسسات العامة والخاصة . وقد أصبح من المتعين على هذه القيادات ان تكون قادرة على بلورة السياسات وتحديد الأهداف والابتكار والمبادأة مع القدرة على التطوير والتغيير واتخاذ القرارات الموضوعية وكذلك المتابعة والتقييم الذاتي لأعمالها .

ان دور قياديي التنمية في الدفع بالتنمية والقدرة على تحقيق أهدافها ، لا يمكن إغفاله أو التقليل منه ولا نبالغ إذا قلنا إن تأخر التنمية في تحقيق طموحات الشعوب يمكن إرجاعها الى عدم العناية باختيار العناصر القيادية القادرة على تطوير أجهزة ادارة التنمية ، مما أوقع جهود التنمية ذاتها في مشاكل عديدة لم تنهض منها حتى الآن .

ولعل ابرزنا لأهمية التنمية الادارية في مجموعها يقتضي الاهتمام والعناية بمختلف المداخل المتكاملة لعملية التنمية الادارية ، ذلك لأن جهود التنمية والتطوير الاداري لن يكتب لها النجاح الملم تنتظم في خطة متكاملة وطويلة الأجل تقوم على المداخل والعناصر الأساسية التالية :

أولاً : الاهتمام باختيار القيادات الادارية ذات التأهيل والخبرة والكفاءة التي تؤهلها للأداء والانجاز الادارى الفعال . ان القدرات الادارية والمهارات القيادية هي متطلبات أساسية في هذه القيادات .

ثانياً : التدريب والتنمية المستمرة للقيادات الادارية في مختلف المستويات والمواقع الادارية لاحاطتها بالنظريات والاتجاهات الحديثة المتطورة في مجالات الادارة المختلفة ، وتوسيع مجالات اداراتها باضافة اهتمامات جديدة اليهم ، وتطوير أنماط التفكير والسلوك الادارى .

ثالثاً : توفير المناخ الصالح للعمل الادارى بشكل يساهم في تنمية المديرين ويدفعهم الى العمل المنتج . ويمتد هذا المناخ ليشمل طبيعة التنظيم الذى يعمل به المدير وبيئة العمل التي يعيش فيها ، وهذه بدورها تشمل الجوانب الأساسية التالية :

- تطوير الهياكل التنظيمية .

- تبسيط إجراءات وأنظمة العمل وأساليبه .

- توصيف مختلف الوظائف بصفة عامة ، والوظائف الادارية والقيادية بصفة خاصة .

- توفير نظم موضوعية لتقييم الأداء .

- توفير نظم الحوافز الكفيلة بتطوير الأداء والانجاز .

رابعاً : إيجاد جهاز يشرف على شئون التطوير الادارى في الدولة بحيث يمارس دوره الاساسي في مجال تخطيط أبعاد التنمية الادارية على المستوى القومي والإشراف على تنفيذها بما يضمن تكامل مختلف عناصر التنمية الادارية وعدم تركها لاعتبارات الصدفة أو الجهود الفردية أو التنفيذ العفوى السريع غير المبني على أساس من التخطيط والدراسة لاطار عملية التنمية الادارية الشاملة . وقد يلحق هذا الجهاز بجهاز الخدمة المدنية في الدولة أو يكون جهازاً مستقلاً تشترك في قيادته وإدارته عناصر وطنية إدارية ذات خبرة وقدره ادارية مشهود لها وقادرة في الوقت نفسه على التخطيط والمتابعة لجهود التنمية الادارية على المستوى القومي .

ان كثيرا من الأقطار العربية ترفع الآن شعار الإصلاح الإداري وذلك لرغبتها في تحريك الجهود الإدارية وأحداث الديناميكية المطلوبة في قطاعات الإدارة المختلفة وأجهزتها حتى تستطيع هذه الأجهزة تحقيق معدلات إنتاجية أعلى وتحقيق كفاءة أكبر في إدارة الموارد الوطنية المتاحة وهذا ما يهدف له نظم الإدارة بصورة عامة .

وتتفاوت بطبيعة الحال الإدارة في المنظمات الخاصة عنها في الأجهزة الحكومية لكونها أكثر ارتباطا بقوى السوق وأهداف الربحية مما يجعلها أكثر استجابة للتغير والتطور وبما يجعل هذه الإدارات تتفوق ولو ظاهريا في أجزاء كثيرة من الوطن العربي عن الإدارة العامة على الرغم من انها لا تواكب بصورة مطلقة التقدم المائل في أنظمة الإدارة عالميا .

ويبقى للإدارة في الأجهزة الحكومية واقعا المرتبط بالتشريعات والقوانين الجامدة والاعتبارات السياسية الحاكمة والمؤثرة في اختيار القادة وسير العمل ، وفرصتها المحدودة في التنمية والتطوير مما يجعلها في كثير من الأحيان أكثر تخلفا وأكثر حاجة للإصلاح والتطوير .

ولعل المطلع على واقع حال الإدارة العربية والإدارة العامة على وجه الخصوص يدرك ان هذه الإدارة أغرقت نفسها بتفاصيل الأمور ونمست بالنصوص والاجراءات الحرفية واحتمت خلف تلك التشريعات غير المتطورة وأصبحت أقل حساسية للتطور وأقل اهتماما باستشراف المستقبل والتخطيط والاستعداد له وأقل تقبلا للتغيير . وقد برزت بالطبع بعض الإدارات الناجحة والمتميزة على امتداد هذا الوطن وفي بعض أجزائه ولكنها ظلت كالوحدات المعزولة في الواقع الإداري العربي المتخلف .

وحق نحقق شعار المرحلة الطروح نحو إصلاح إداري حقيقي لا بد من انصاف هذه الجهود الإصلاحية بالواقعية وتلمس الأسباب الحقيقية للنهوض بالإدارة وكذلك ضرورة تخطيط هذه الجهود بصورة متكاملة ومتواصلة ومستمرة على مستوى الدولة الواحدة في البداية<sup>(٦)</sup> . مع ضرورة تشجيع التواصل وتبادل الخبرات والتجارب بين الدول لتنسيق جهود الإصلاح على المستوى العربي مستقبلا .

(٦) انظر على سبيل المثال : موسى عبد العزيز الحمود ، مدخلات أساسية للإصلاح الإداري في دولة الكويت . مجلة العلوم الاجتماعية ، جامعة الكويت ديسمبر ١٩٨٧ .





عندها في هذه المقدمة وإن تبدو هذه المحاور في إطارها المتكامل الذي يقدم للقارئ مساحة متكاملة من المعرفة في مجال التنمية الإدارية وموضوعها ، تاركين لكل باحث وكاتب فرص التناول التفصيلي والتحليلي لواحد من الأبعاد الأساسية لهذا الموضوع وثقنين أن هذا العدد في النهاية سيكون مساهمة طيبة للقارئ وللـفكر الإداري ولـفكر التنمية بصفة عامة .

د . موضي هيد العزيز الحمود

## ١ - مقدمة

تمثل الإدارة الحديثة ركنا أساسيا من أركان النظام الانتاجي والاقتصادي في أي مجتمع كما تلعب الإدارة الحديثة دورا حيويا في توجيه مؤسسات الخلفيات على اختلاف مجالاتها وتخصصاتها . ولقد تعاطت الأهمية التي توليها المجتمعات المعاصرة للإدارة حيث تبينت التأثير البالغ الذي تحدثه في دفع وتكرير معدلات النمو الاقتصادي والاجتماعي حال تقدمها وارتفاع كفاءتها ، كما انضحت آثارها السالبة على حركة المجتمع الانتاجية والخدمية في حالات فشلها وتدني مستوى كفاءتها وفعاليتها .

وإنطلاقا من الاهتمام للتصاعد بالدور الرائد للإدارة الحديثة في قيادة أنشطة وجهود التنمية القومية على مختلف الأصعدة في المجتمع المعاصر ، فقد توجهت الجهود نحو تأكيد الدألية المتميزة للإدارة باعتبارها إحدى مؤسسات المجتمع ، وتولير المقومات العلمية والعملية التي تسمح لها بمباشرة تأثيراتها الإيجابية وحمايتها من التدخلات والمؤثرات السالبة .

ومن ثم نلحظ في المرحلة الحالية من تطور الإدارة بعض الاتجاهات الرئيسية التي تعبر عما وصلت إليه على الصعيدين الفكري ( العلمي ) والتطبيقي :

أولا : انجاء نحو مزيد من التعمد والتشايك في المحتوى العلمي لعمل الإدارة ، حيث تتأثر بعديد من المتغيرات البيئية نتيجة للتحويلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . كذلك نجد ان التركيب الدألي للمنظمات الادارية يتجه هو الآخر الى التشايك والتعمد نتيجة لظهور وظايف جديدة ومهام متطورة واساليب عمل وإمكانات متقدمة تستخدم في الإدارة العلمية والتكنولوجيا الاكثر تعقيدا .

## مهنية الإدارة

علي لاسمي

استاذ الإدارة بجامعة القاهرة

نائب رئيس جامعة القاهرة

ثانياً : يراكم الاتجاه السابق اتجاه آخر نحو مزيد من العلمانية والعقلانية في الادارة بحيث تميل الى الانحسار تلك الممارسات الادارية غير المؤسسة على الدراسة العلمية والتأهيل الاكاديمي المناسب .

ويلاحظ ان بدايات هذا الاعتماد على العلم في الادارة الحديثة يتبلور الآن في معظم المنظمات في شكل اعتماد متزايد على تدفقات أكثر انتظاماً للمعلومات ، واستخدام أكثر لاساليب التحليل والبحث عن البدائل التي تعتمد على التقدير الكمي للمتغيرات ذات العلاقة . وبذلك فانه مع تزايد هذا الاتجاه نحو العلم ومناهج التفكير العلمية ، تزايد درجة العقلانية والرشد الموضوعي في اتخاذ القرارات الادارية .

ثالثاً : وثمة اتجاه آخر يفرض نفسه حالياً وهو أخذ في النمو مستقبلاً ، ذلك هو الاتجاه نحو مزيد من المرونة في العمل الاداري والتنوع بالاعتماد عن الانماط والقوالب التنظيمية والادارة الجامدة . ذلك ان الادارة تتعامل الآن مع مجتمعات تتميز اساساً بمميزات سريعة ومتصاعدة من التغير ، وتتفاعل مع مؤثرات متجددة ، وتواجه تقنيات مستحدثة ومتطورة ، كل هذا يفرض على الادارة ان تشكل بما يتفق مع معطيات الموقف ، ومن ثم فإن ما كان يسمى بمبادئ التنظيم والادارة ، او ما كان يعتبر في حكم المسلمات الشائعة في التطبيق الاداري لم يعد لها مكان الآن . ان الحلول النمطية واساليب العمل الاداري للتمائلة سوف تفقد قيمتها ولن يكون الاعتماد عليها يمكننا للتعامل مع مشكلات الادارة في المستقبل القريب .

من محصلة كل ما سبق ، نجد ان العاملين في حقل الادارة ( المديرين ) مضطرون الآن وفي المستقبل - بدرجات اعل - الى بذل جهود متميزة للتعامل مع كل موقف على حدة ومن ثم فهم مطالبون باعمال التفكير الخلاق ، والقدرة على الابتكار والتجديد . وبالتالي فإن صنع المدير واعداده أصبح - وسيزداد في المستقبل - مهمة اساسية تركز الى قاعدة علمية متزايدة في الحجم والتعقد . ان نوعية رجل الادارة ( المدير ) نفسه أخفدت في التغير ، فالادارة المعاصرة لم تعد تنطبق بسهولة ان يحترف الادارة من لا تنوافر فيه القومات المهنية والعلمية اللازمة . كذلك فان ادارة المستقبل بكل ما فيها من تعقد وتنوع وعلمانية وموضوعية لن تتوافق مع منطق ان في العمل الاداري متسعاً لكل من لا مهنة له كما هو الشائع حالياً في مجتمعاتنا العربية على وجه الخصوص .

ان الادارة تتحول الى مهنة لها كل القومات التي تتمتع بها مهنة اخرى كالطب والمحاماة والهندسة والمحاسبة ، الامر الذي يعني انه في المستقبل القريب سيتطلب امتحان الادارة ضرورة :

- اشتراط خلفية علمية محددة .

- وجود هيئة مهنية معنية تشرف على وضع وتنفيذ قواعد الترخيص بمزاولة مهنة الادارة ومراقبة تصرفات المديرين والتزامهم باخلاقيات المهنة وقواعد السلوك للمعتلة فيها .

وفي ضوء هذه الملاحظة عن طبيعة الإدارة المعاصرة والتحديات المستقبلية التي بدأت يواجهها في الظهور والوضوح في مجتمعاتنا العربية ، نحاول في هذه الدراسة ان نلقي الاضواء على خصائص الادارة ودورها المؤثر في توجيه المنظمات العامة والخاصة واساليب تطويرها في توازن بين الواقع المجتمعي المعاصر والمعطيات المهنية للإدارة .

## ٢ - الاساس الفكري للإدارة المعاصرة :

ان ما نمنيه بالادارة في أيامنا هذه يختلف جذريا عما كان يفهم منذ ثلاثين او اربعين سنة . فقد تطورت « الادارة » من مجموعة من المبادئ والقواعد المستمدة من خبرات رجال الاعمال والمديرين الأوائل ولتجارهم وحصيلته معارفهم الذاتية فاصبحت الآن مجموعة متكاملة من المنطلقات العلمية التي تمثل مزاجا متوافقا من علوم اجتماعية وطبيعية مختلفة صهرتها التجارب العلمية والدراسات الاكاديمية وطوعتها في شكل نظريات وتقنيات اكثر تقدما وتطورا تعالج امورا بالغة التعقيد والتشابك في حياة المنظمات الحديثة .

ان اساسا فكريا واضحا يتوفر الآن ليرشد « المدير » في التعامل مع قضايا رئيسية مثل :

- تحديد الاهداف والتخطيط الاستراتيجي للمنظمة .
- برمجة الأنشطة وتكوين المخططات التشغيلية للمنظمة .
- بناء التنظيم وتنسيق تشابكات الوظائف وهيكلي العلاقات الوظيفية في المنظمة .
- صنع واتخاذ القرارات الادارية .<sup>(١)</sup>
- قيادة المنظمة وتوجيه عناصرها البشرية والمادية نحو تحقيق الاهداف ، وصيانة مسارات التنفيذ في الحدود المقبولة تنظيميا .
- بناء شبكات الاتصال وقواعد المعلومات المساعدة للإدارة .
- تنسيق علاقات التعامل مع البيئة واستباق الاحداث والتنبؤ بالتغيرات لضمان أهداف المنظمة واستفادتها من التغيرات البيئية .

ويتطور البناء الفكري للمدير من ماهية الإدارة المعاصرة وخصائصها المتميزة في مجموعة المفاهيم التالية :

(١) صنع القرار يقصد به عملية تهيئة المعلومات وسهولة الدلائل لمعالجة مشكلة Decision Making بينما يشير الفكر الإداري Decision Taking الى اختيار الدلائل الأرجح أو الأفضل .

١/٢ إن الإدارة هي عمل مقصود وموجه لتحقيق أهداف معينة ، فهي وسيلة ترجمة الاهداف المرغوبة الى انجازات واقعية من خلال تنسيق استخدام الموارد المتاحة في ظروف العمل المحيطة . ومن ثم فإن « الجدلية » هي صفة لصيقة بالعمل الإداري تمثل الغاية منه من ناحية ، كما تعتبر معيار الحكم على كفاءته من ناحية أخرى ١٠

٢/٢ إن وسيلة الإدارة الأساسية في تحقيق اهدافها هي « الإنسان » كما ان الغاية الأساسية من عمل الإدارة هي رفاهة « الإنسان » . فالإنسان وسيلة الإدارة وغايتها في آن واحد . وبهذا المعنى فإن الإدارة إنما تعمل في الأساس من أجل إزالة المعوقات التي تعترض المسيرة الإنسانية في مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، وتحاول إرساء أسس واضحة ولحرص الفضل للانتقال بالحياة الإنسانية الى مستويات أعلى وأرفع .

كذلك فإن الإدارة تستخدم الطاقات الإنسانية البديعة ، وتعمل على خلق المناخ المناسب لانطلاق إبداعات البشر وتفجير طاقاتهم الخلاقة في سبيل مزيد من الانتاج والمطاء والتجديد والابتكار في مختلف نواحي الحياة .

٣/٢ تلتزم الإدارة المعاصرة - وفي الحقيقة فإنه لا مناص لها عن ذلك - بالمنهج العلمي والمنطق الرشيد في معالجة المشكلات والوصول الى القرارات وتبلور هذا الالتزام في الاستخدام للتزايد لنظم المعلومات المتكاملة ، وأساليب التحليل الاقتصادي والإداري المتمثلة على القياس الكمي للمتغيرات ، والتوسع في تطبيقات الحاسبات الآلية ونظمها المتطورة .

٤/٢ تتعايش الإدارة المعاصرة وتتفاعل مع المجتمع بشكل يحقق التكامل بينها باعتبارها نظاماً فرعياً ينبثق من النظام المجتمعي الأكبر . ومفاد هذه الحقيقة ان الإدارة المعاصرة لا تستطيع ان تتفائل عن مجريات الامور في المجتمع ولا ان تنمزل عن مشكلاته وإهملها .

بل الأساس في وجودها هو أهميتها لمعالجة مشكلات المجتمع والمماونة في تحقيق أهدافه مع الأخذ في الاعتبار ما هو متاح له من إمكانيات وموارد .

كذلك مفاد هذه الحقيقة ان مآل ما تصل اليه الإدارة من نتائج هو المجتمع ، ومن ثم فإن قبول المجتمع لخرجات النظام الإداري هو شرط استمراره .

ومن ثم فإن التصور الحقيقي لمهام الإدارة المعاصرة هو في كونها وسيلة لتحقيق أهداف المجتمع باستخدام ما فيه من موارد وإمكانات من خلال جهد منظم وخطط ومنسق .  
وتتركز هذه الحقيقة في الآتي :

• أن استمرارية الإدارة تتوقف على مدى ارتباطها وتفاعلها مع البيئة المحيطة وذلك حيث تستوعب الإدارة ما يتاح في البيئة من قيم ومعتقدات ومعلومات وإسكانات وفرص مختلفة من جانب والتأثير في البيئة بافراز مخرجات مادية ومعنوية تسهم في إعادة تشكيل الحياة في المجتمع من جانب آخر .

• أن غاية وجود الإدارة هي العمل على تحقيق أهداف عامة يريدها المجتمع ، وبالتالي فإن تحديد أهداف الإدارة إنما ينبغي على التحليل الصحيح لاحتياجات المجتمع والتنبؤ بمشكلاته .

٥/٢ إن الإدارة في سعيها لتحقيق أهداف المجتمع - إنما تعمل في ذات الوقت على تحقيق أهدافها الذاتية . ومن ثم هي تحاول استثمار الفرص المتاحة لها واستغلالها إيجابيا ، كما تحاول تجنب القيود والمعوقات التي تفرضها الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السائدة . وتبدو كفاءة الإدارة المعاصرة وفعاليتها في مدى القدرة على تحريك المواقف وتعديلها لصالحها أي للمساعدة على تحقيق أهدافها . ومن أجل ذلك تتأكد أهمية بناء استراتيجية إدارية تعمل على زيادة سيطرة الإدارة على الموارد المتاحة وفرص استثمارها من جانب ، وتخفيض أثر القيود والضغط المفروضة عليها في عناصر المجتمع المختلفة أو تجهيدها من جانب آخر .

٦/٢ تتميز الإدارة المعاصرة بالقدرة على الحركة السريعة والتكيف مع الأوضاع المتغيرة . إن سمة العصر هي التغير المستمر والتطور المتنامي في مختلف مجالات الحياة . ومن ثم فإن الإدارة لا تستطيع الركون إلى أساليب جامدة أو سياسات ثابتة أو نظم عمل مغلقة . ولذلك نجد الإدارة المعاصرة تتحلل من مفاهيم البيروقراطية التقليدية وتكتسب المخطط التنظيم المرن المتداخل الذي يتناسب مع طبيعة العمليات الإنتاجية والمستويات التكنولوجية المستخدمة .

هذه الطبيعة الجديدة للإدارة المعاصرة إنما تؤكد الحقيقة الواضحة أن الإدارة أصبحت في المقام الأول أداة للتغيير تستهدف تحقيق التحولات الاجتماعية والاقتصادية المرغوبة .

٧/٢ ولكي تصل الإدارة المعاصرة إلى أهدافها وتتمكن من مواجهة التغيرات والتوافق مع معطيات البيئة ، فإنها تعتمد على وسائل أو أساليب لتحريك المواقف وإحداث التغير الموصول إلى أهدافها . ومن أهم هذه الأساليب :

- البحث والدراسة وأعمال التطوير

- التحليل الاقتصادية والإحصائي والسلوكي

- تصميم النظم

- التخطيط وتكوين البرامج

- المتابعة والتقييم المتكامل

### ٣ - المنطق الاساسي في عمل الادارة

يرتكز عمل الادارة المعاصرة على منطق أساسي يقوم على العناصر الحاكمة الآتية :

- التكامل
- الشمول
- المستقبلية
- الانتاجية
- الفعالية

وتغل العناصر السابقة أسساً تستهدف بها الادارة المعاصرة في تخطيط أعمالها ومباشرة وظائفها الهادفة الى تحقيق نتائج محددة ، وإذا افترضت الادارة الارشاد المستمر من بعض هذه العناصر او كلها ، فانها تفضل السبل الى الاهداف ، وتصبح عبئا على المنظمة ، ومن ثم على المجتمع كله .

#### ١/٣ التكامل في عمل الادارة

يشير مفهوم التكامل الى الترابط والتزاوج والتناغم والتأثير المتبادل بين عناصر ومكونات العمل الاداري . فالادارة مفهوم متكامل ، ومجموعة من الوظائف المتكاملة ، واساليب متكاملة تهدف في النهاية الى تحقيق نتائج متكاملة .

ويتم التكامل في العمل الاداري على مستويات مختلفة يمكن ان نرصدها ما يلي على الاقل :

- التكامل بين الادارة والبيئة المحيط بها ( البيئة التي توجد وتعمل فيها ) .
- التكامل بين الموارد والامكانيات المتاحة للادارة وبين الانشطة التي تباشر بها الادارة استخدام واستثمار وتوظيف هذه الموارد والامكانيات .
- التكامل بين الموارد والامكانيات المتاحة للادارة ومنتجات (نتائج و مخرجات ) العمل الاداري .
- التكامل بين أنشطة الادارة ونتائج العمل الاداري .
- التكامل بين مخرجات العمل الاداري وأنشطته ومعطيات البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية .



كما يمكن ان ننصوّر حالات التكامل فيما بين الموارد والامكانيات الادارية بعضها البعض ، وفيما بين الانشطة الادارية بعضها البعض ، وكذا فيما بين مخرجات ونتائج عمل الادارة بعضها البعض .

وثمة مجال هام للتكامل فيما بين الاساليب والتقنيات الادارية من جانب وفيما بينها وبين الموارد والامكانيات والانشطة الادارية من جانب آخر وهكذا .

ومعنى التكامل عند اي مستوى من المستويات السابق الاشارة اليها هو ان الطاقات الكامنة والقدرات الذاتية لاي من عناصر العمل الاداري انما تساعد وتقوي من تأثير العناصر الاخرى وصولا الى الاهداف المحددة . فالأفراد بما هم من خبرات ومهارات يتكاملون مع ما هو متاح للادارة من موارد وامكانيات مادية وبيئشرون اساليب للعمل والاداء تتناسب مع انواع الاهداف التي تسعى لها الادارة . وهكذا فلو انخفض مستوى كفاءة الأفراد فان اساليب اخرى وامكانيات مادية مختلفة ينبغي استخدامها لكي تصل الادارة الى ذات مستوى الانجاز المستهدف . وبغض النظر فإن استخدام الحاسبات الآلية يبرز تطبيق اساليب اكثر تطورا في التخطيط ونظم المعلومات المتقدمة مما يكون عليه الحال حين الاعتماد على العمل اليدوي بديلا عن الحاسبات . كذلك نجد ان صور التكامل تمتد لتشمل التوازن والتناسق بين هيكل التنظيم وطرق اتخاذ القرارات من حيث المركزية او اللامركزية والتكامل بين السياسات الادارية بعضها البعض ، وبينها وبين الاهداف والخطة والبرامج الادارية .

ان التكامل سمة الادارة المعاصرة واثره واضح في تعظيم المائد في عجل ما تقوم به الادارة من اعمال وما تستخدمه من موارد . وافتراد التكامل يتمكس سلبا على عائد العمل الاداري وكفاءته .

### ٢ /٣ الشمول

تتصف الادارة المعاصرة بالشمول بمعنى ان مجال اهتمامها ونطاق مرياتها يتعدى حدود المنظمة الواحدة ويتسع ليشمل عناصر المجتمع جميعا . فلم تعد مفاهيم واساليب الادارة المعاصرة قاصرة على منظمات الاعمال او وحدات الانتاج الخاصة ، بل هي تسري كذلك في منظمات الاعمال ووحدات الانتاج العامة ( الحكومية ) وكذا في مؤسسات وتنظيمات الدولة القائمة على توفير الخدمات العامة ومباشرة الوظائف السيادية .

ان الادارة المعاصرة في حقيقة امرها هي عمل مخطط يهدف الى تحقيق نتائج معينة باستخدام موارد وامكانيات في ظل ظروف محددة . ومن ثم فهي شائعة التطبيق في كل الحالات التي تتوفر فيها تلك الأوصاف والشروط بغض النظر عن غط الملكية او صاحب الحق في القوائد الناتجة من عمل الادارة .

كذلك فإن شمولية الإدارة تعني أنها لا تقتصر على مستويات تنظيمية معينة او مجالات نشاط محددة ، بل على العكس ، فإن العمل الإداري ينسج ليشمل كافة المستويات التنظيمية ويختلف للمجالات حتى في مبادئ السياسة والخدمات الاجتماعية ، والأنشطة الثقافية والرياضية وأعمال الحرب والشؤون العسكرية . فالى عهد قريب كانت مثل تلك الأعمال تصنف على أنها أعمال فنية متخصصة ، فالعلوم السياسية مثلا كانت هي المصدر الذي يستمد منه السياسيون مبادئ العمل السياسي ، كما كان علم الاجتماع هو اساس توجيه العمل الاجتماعي والعلوم العسكرية والاستراتيجية هي اساس أعمال الحرب . ولم تكن الإدارة تذكر من قريب او بعيد في تلك المجالات إلا فيما يخص أعمالاً روتينية تتعلق بالأمور المالية وشؤون الأفراد . ولكن صفة الشمول المقررة في الإدارة المعاصرة تجعلها تمتد لتغطي كافة تلك المجالات وغيرها ، ومن ثم توجد الإدارة السياسية ، والإدارة الاقتصادية ، وإدارة الحرب ، وكلها تعني ذات المعنى الا وهو الجهد المخطط والمنظم للوصول الى اهداف محددة من خلال التوظيف العلمي السليم للموارد والامكانيات المتاحة .

### ٣/٣ المستقبل

تتجه الإدارة المعاصرة بأعمالها وقراراتها الى المستقبل تستشرف آفاقه وتحاول تصور أبعاده ومن ثم تعمل على صياغة قراراتها وتكيف أوضاعها بما يسمح لها باستثمار ما سيأتي به المستقبل من فرص واحتمالات إيجابية ، وتجنب ما يتوقع حدوثه من مشكلات او معوقات .

إن قرارات الإدارة لا تسري على الماضي فذلك الماضي قد تشكل فعلاً وأحدث آثاره ومضى بمجرد انقضاء الفترة الزمنية وحلول غيرهما محلها . وبالتالي فإن الإدارة اذ تخطط وتنظم وتوظف الامكانيات والموارد وتوجه الجهود والطاقات إنما تستهدف نتائج لم تحدث بعد أمانة تحقيقها في مستقبل لا تستطيع الا التكهن به دون تحديد ، والا التنبؤ به دون محاولة لرجم الغيب الذي لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى .

ويمكن القول عموماً ان الإدارة تحاول تشكيل المستقبل - في حدود القدرة البشرية المحدودة - من خلال دراسة الواقع وتحليله واستنتاج أهم المؤثرات التحككية في مساره من جانب ، وعن طريق استقراء الماضي وتحليله ولتجعين الدروس المستفادة من حركة التاريخ والمجتمع من جانب آخر . وبذلك تحن نرى الإدارة المعاصرة قد احتوت بداخلها على عناصر وقوى عاملة على التغير والتطور وإعادة صياغة الواقع بحيث يتشكل مستقبل يتفق مع الاهداف التي ترمى اليها . فالإدارة إذن ليست مجرد مستجيب سلبي للمتغيرات والمؤثرات المحيطة ، ولكنها في ذاتها أداة تغير .

واعتماد الإدارة في الأساس هو على المعلومات المتدفقة والمنظمة التي تسمح باستجلاء الماضي والحاضر ومن ثم التنبؤ باحتمالات المستقبل . ويجب ان نؤكد ان استشراف المستقبل ومحاولة تطويره لاهداف الإدارة او التكيف معه

بحسب الأحوال هو التحدى الحقيقي للإدارة المعاصرة ، ومن أجل مواجهته يصرار إلى ابتكار وتطوير نماذج تحاول محاكاة الواقع ويتم اختبار سلوكها تحت فروض مختلفة في محاولة لتصور أوضاعها المستقبلية .

### ٤ /٣ الانتاجية

ان المحك الاساسي لعمل الإدارة ان يتحقق عنه إضافة حقيقية ( مادية أو معنوية ) لم تكن موجودة من قبل . فالانتاجية معناها ان يتحقق هن استثمار وتوظيف الموارد المتاحة قيمة مضافة Added Value بحيث تكون قيمة الناتج من عمل الإدارة اعل من مجموع قيم المدخلات او الموارد التي استخدمت في هذا العمل . ولعل هذه الانتاجية هي ما يضفي على الإدارة اهميتها الحقيقية ، فهي تخلق قيمة مضافة تعود بفوائد وعوائد على المشاركين في العمل مباشرة وغير مباشرة .

ولعل من اهم سمات الإدارة المعاصرة انها تدفع عمليات التجديد والابتكار والتطوير مما يؤدي الى انجازات متعاطفة في مستوى الانتاجية وارتفاعات غير مسبوقة في القيمة المضافة الناشئة عنها .

### ٥ /٣ الفعالية

ان القيمة الحقيقية للإدارة المعاصرة هي قدرتها على تحقيق أهداف وإنجازات يصعب الحصول عليها بدون نشاط وجهد المتخصصين . وليس القصد مجرد الوصول الى أهداف او انجازات ما ، ولكن الأساس هو في تحقيق مستوى من الكفاءة يمثل افضل استثمار للموارد والطاقت المتاحة ، ويجعل الناتج أو العائد بقيمة حقيقية اعل من كل ما بذل في سبيل الوصول اليه . وذلك ما نقصد به الفعالية الإدارية او قدرة الإدارة على اداء الاعمال الصحيحة والتوصل الى تحقيق النتائج المطلوبة في حدود التكلفة المناسبة . وفعالية الإدارة هي خاصية كلية وشاملة تصف وتلخص الابعاد المميزة للتنظيم الإداري ، كما انها خاصية مستمرة على مدى الزمن ومن ثم لها صفة تراكمية وقدرة اشعاعية تؤثر بدورها على تلك الابعاد المميزة للتنظيم . ولا شك ان فعالية الإدارة المعاصرة تعبر عن تفاعل السمات الآتية للإدارة :

- التكامل بين أقسام وأجزاء التنظيم الإداري .
- الوضوح والتحديد في نظام اتخاذ القرارات وموضعية المعايير المستخدمة في الوصول الى قرار .
- الاستغلال وحرية الحركة التي يتمتع بها التنظيم الإداري في مواجهة المناخ المحيط ومصادر السلطة الممنوحة له .
- وتنبئ مظاهر الفعالية الإدارية في الآتي :
- حسن اداء واستثمار الوقت .

- ضبط التكلفة وترشيد الانفاق .
- انتظام وضبط تنابع العمليات في توقيتها الصحيح .
- دقة الاداء وارتفاع مستوى الجودة في الأعمال .
- التركيز على النتائج وعدم الانسياق وراء ضبط الاجراءات بدلاً عن النتائج .
- التركيز على استثمار عناصر القوة في الموقف المحيط بالادارة .

### المدير الفعال

ان فعالية الادارة هي بلا شك ناتج فعالية المدير . والمدير الفعال هو الذي يستطيع تحديد الاهداف المرغوبة ذات القيمة ويمكن من تحقيقها باستخدام المتاح من الموارد والامكانات استخداماً أمثل .

وتتبدى مقومات المدير الفعال في الآتي :

- المعرفة السليمة والمتجددة باساسيات علوم الادارة وأساليبها المستحدثة .
- القدرة الادارية أي الدقة في تصور المواقف وتحديد المشكلات واستخدام الاساليب الادارية المناسبة في مواقعها السليمة وتوقيتاتها المناسبة .
- القدرة القيادية أي امكانية التأثير في سلوك الآخرين وتوجيهه ناحية التحقن في الامثل للاهداف المحددة .
- الاحاطة بمجال النشاط موضع الاختصاص والقدرة على فهم أساسياته وإبعاده الفنية .

### نمط العمل الإداري الفعال

لكي نتصور الادارة المعاصرة في حقيقتها ، فانه من المفيد تمثل كيف يباشر المدير الفعال عمله وكيف يؤدي واجبات وظيفته الادارية .

يبدأ المدير الفعال عمله بدراسة الموقف المحيط به ومحاولة تبيين إبعاده المختلفة . إن وصف أو تقدير الموقف هو المهمة الأولى للمدير الفعال .

● بناء على المعلومات الناقية عن دراسات الموقف ، يستطيع المدير الفعال استنتاج العوامل الأساسية المؤثرة في الموقف وتأثيراتها على عمل الادارة سلباً وإيجاباً . إن تحليل الموقف يساعد المدير الفعال على تبيين العوامل المساعدة

للدارة التي يمكنه السيطرة عليها وتوجيهها ( الموارد أو الامكانيات ) ، وتلك العوامل المعوقة للعمل الإداري والتي لا يستطيع السيطرة عليها أو التحكم في سلوكها ( القيود ) .

• ويرتبط بتحليل الموقف أن يمتد اهتمام المدير إلى محاولة التنبؤ بالأوضاع المستقبلية للموقف واحتمالات التغير فيه ، ومدى تناسب التغيرات المحتملة مع أهداف المدير . من ذلك يستطيع المدير إعداد سياساته وخططه لتحقيق التغير المرغوب في أبعاد الموقف اعتمادا على الموارد وأخذها في الاعتبار القيود المفروضة .

• ثم يحاول المدير بعد ذلك إحداث التغير المحدد من خلال اتخاذ القرارات الهادفة إلى تحريك الموارد والامكانيات باستخدام الأساليب والطرق المساعدة . .

• ويستمر المدير الفعال في متابعة مدى تنفيذ القرارات وما يترتب عليها من نتائج مع متابعة ما يحدث في الموقف من متغيرات تستلزم تعديل خططه وبرامجه وقرارات الإدارة .

• ويتم المدير الفعال بمتابعة مجريات الأمور في البيئة المحيطة ويستوعب المؤشرات الدالة على اتجاهات التغير ليأخذها في الاعتبار ويعدل من قراراته وسياساته بما يتناسب وتلك المتغيرات .

ولي كل ما سبق ، فإن المدير الفعال إنما يعتمد منهجا موضوعيا يرتكز إلى منطق الإدارة المعاصرة الذي هو منطق الإعداد والتدبر ، ثم القياس والتقييم اعتمادا على تصورات شاملة ومحيطية بأبعاد الموقف السائدة والمحتملة ، مع توفر القدرة على المناورة وحللال بدائل عمل أخرى استجابة لمتطلبات المواقف المتغيرة واستعدادا لتحقيق النتائج المرجوة في جميع الأحوال .

فالمدير الفعال إنما يتبع منهجا حركيا في الإدارة لا يقتصر فيه على متابعة الأحداث ومراقبة فحسب ، بل يحاول التنبؤ بالأوضاع المستقبلية ويسبق الأحداث والمشكلات ويعد لها عدة تسهم في تخفيف آثارها السالبة أو تأكيد الاستفادة من آثارها الإيجابية بحسب الأحوال .

ومن ثم فإن نمط العمل الإداري الفعال إنما يتميز بالآتي :

- نمط يعمل على تكييف وتشكيل المواقف لخدمة أهداف الإدارة .
- نمط يعمل على تحريك المواقف واستثارة المتغيرات بما يحقق أهداف الإدارة .
- نمط يعتمد منطق مهاجمة المشكلات وإيجاد مخرج منها قبل حدوثها .
- نمط لا يقنع بما هو كائن أو ممكن ، بل يحاول الوصول إلى ما يجب أن يكون .

#### ٤ - الدعامات الأساسية للإدارة المعاصرة

لقد انتهينا فيما سبق إلى تأكيد أهمية الإدارة المعاصرة في تحريك واستثمار الطاقات والموارد المتاحة للمجتمع بحيث ينتج عن ذلك إنجازات مادية ومعنوية تشبع احتياجات المجتمع وتحقق مستوى الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية المنشودة .

ورأينا أن وصول الإدارة المعاصرة إلى هذه الانجازات هو أمر بالغ الصعوبة يتطلب جهودا منظمة تعتمد على الفكر الواضح ، والتحليل السليم والاحاطة الشاملة بالتغيرات ذات التأثير في احتمالات الوصول إلى النتائج المستهدفة .

وتنتج الإدارة المعاصرة في الغالب على المشكلات وتحقق مستويات الانتاجية والفعالية الأعلى حين توفق في توظيف مجموعة من الدعامات الادارية التي تسهم مجتمعة في انجاح الادارة وتوصيلها الى أهدافها . ولكل من تلك الدعامات أهميته الذاتية واسهامه المباشر وغير المباشر فيما تفصل إليه الإدارة من نتائج ، ولكن الأثر الأكبر ينتج من محصلة تفاعل تلك الدعامات وتكاملها معا . وفيما يلي تحليل موجز لأهم تلك الدعامات :

#### ٤ / ١ المعلومات

نحن نعيش الآن عصر المعلومات ويتمتع المجتمع الانساني بشمار ثورة المعلومات والاتصالات . ولا شك أن الادارة المعاصرة كانت من أهم المستفيدين من تلك الثورة الجديده التي أتاحت للمجتمع الإنساني والمتمثلة في كم هائل متدفق ومتجدد من المعلومات التي تصف وتعرف وتشرح وتوضح وتفسر الأوضاع والظروف الذاتية للمنظمات وما يحيطها من أوضاع وظروف محلية وعالمية . وتحمل المعلومات ركننا هاما في البناء الإداري المعاصر إذ هي أداة الربط الأساسية بين أجزاء التنظيم وهي الوسيلة الرئيسية للادارة في التنسيق والتخطيط والمتابعة . ونحن نرى المعلومات وقد توقف عليها نشاط الإدارة المعاصرة كله ، حيث نعتقد أن حركة الادارة وتوجهاتها جميعا ما هي إلا استجابات منظمة للمعلومات المتدفقة عليها من المناخ المحيط من ناحية ، والناطقة من أنشطتها الذاتية من ناحية أخرى .

وتتعدد مصادر المعلومات الواردة إلى الإدارة المعاصرة على النحو الآتي :

• معلومات صادرة عن نظم إدارية ومنظمات أخرى محلية وعالمية ، وهي تمثل الأفعال والقرارات وأنماط النشاط والحركة التي تمارسها تلك المنظمات والتي ترتبط بها الإدارة المعنية بعلاقات مباشرة أو غير مباشرة .

• معلومات صادرة عن الأفراد والجماعات الذين تعالishهم إدارة المنظمة في أي مجتمع والذين تتفاعل معهم بالتعامل أو التبادل المباشر وغير المباشر .

• معلومات صادرة عن نظم حايا في المجتمع لها سلطة التشريع والتصريح أو التنفيذ ( مثل الحكومة وغيرها من النظم السيادية أو الاشرافية بصفة عامة ) .

• معلومات صادرة عن النظم المادية والطبيعية المحيطة بالادارة .

والى جانب تلك المصادر الخارجية ، فان الادارة ذاتها تنتج اشكالا متنوعة من المعلومات بحكم نشاطها الذاتي وأوضاعها الداخلية . إن حركة أجزاء النظام الاداري وتفاعلاتها معا تستهلك ( أو تستخدم ) الموارد والعلاقات المتاحة له ، ومن ثم تصدر عن تلك الحركة مؤشرات ( معلومات ) توجه الادارة إلى ضرورة تدبير طاقات جديدة . كذلك فان حركة أجزاء الادارة اذ تنتهي إلى نتائج معين ، فانه يصاحب ذلك الناتج مؤشرات تنبه الادارة إلى ضرورة العمل من أجل التعبير عنه أو التصرف فيه .

وثمة حقيقة رئيسية عن الادارة المعاصرة هي أن المعلومات تتواجد بطبيعة الأمور في عمل الادارة وحولها . وهي غالبا تتواجد في صور مبدئية ( أو بدائية ) ولكنها تحتاج إلى أن يكشف عنها وتعاد صياغتها حتى تتاح لها فرص إحداث التأثيرات التطبيقية المتعلقة بما تحويه من دلالات . ومن هنا فان التفكير الاداري المعاصر يوجه عناية خاصة إلى تصميم وتشغيل نظم متخصصة في الكشف عن المعلومات واستقبالها ووضعها في الاطار السليم الذي يتيح لها التفاعل بطلاقة وحرية مع عناصر الادارة جميعا (٢) . وبذلك فإن الاجزاء التنظيمية المعنية بتشغيل نظم المعلومات تجتهد في التفكير الاداري المعاصر أهمية كبرى باعتبارها مراكز لضبط نبض التنظيم وحماية التدفق المنظم والمستمر لمصدر حيويته في احساسه بما حوله وبتأثيرات أعماله . ويلاحظ أن المعلومات تتناول بالوصف والتحليل ليس فقط الأحداث والأوضاع الماضية أو التاريخية ، بل تعنى أيضا بوصف وتحليل الأحداث والأوضاع المعاصرة أو الجارية ، كما تمتد إلى التنبؤ بالأحداث والظروف المستقبلية .

إن التعامل المستمر مع المعلومات والتفاعل بها ومعها هي سمة واضحة للإدارة المعاصرة .

(٢) يقصد بذلك السلطة بناء وتحليل نظم المعلومات الإدارية Management Information Systems والتي تلخص بالكلية عن المعلومات وفهمها وتحليلها واعادتها للاستخدام طبقا لاحتياجات مراكز العمل المختلفة بالتنظيم الإداري وفي التوثيق المناسبة كما تعمل على تداول المعلومات وحفظها وتحديثها Up-dating واسترجاعها Retrieval حين الحاجة .

## ٤ / ٢ الأهداف :

الأهداف هي تلك الانجازات أو النتائج التي تعمل الإدارة على تحقيقها باستخدام الموارد والطاقت المتاحة والمحتملة في إطار القيود والمحددات الذاتية والمناخية التي تصاحب العمل الإداري . وإذا استخدمنا منطق النظم - أي الإدارة باعتبارها نظاماً مفتوحاً - فإن الأهداف هي مخرجات outputs النظام الإداري .

ويوجه الفكر الإداري المعاصر اهتماماً واضحاً لمفهوم الأهداف لما له من تأثير على فعاليات الإدارة بشكل عام . ويصنفاً في هذا المجال استعراض بعض الأفكار العلمية والمحاوالت الفلسفية عن الأهداف في الإدارة :

- تستمد الإدارة أهدافها من استقراء أوضاع ومتطلبات البيئة المتاحة من ناحية ، واستكشاف إمكاناتها وطاقتها الذاتية من ناحية أخرى . إنما يتحدد النجاح بالدرجة الأولى في ضوء القدرة على حسن اختيار الأهداف ذاتها .

- أن اختيار الأهداف يتطلب المواءمة والتوفيق بين ما نحتاج إليه البيئة أوما قد تتمكن من استيعابه ، وبين ما نقرره الإدارة أوما هو متاح لها من قدرات وما يحتمل أن يتوفر لها من إمكانات .

- أن الإدارة لا تسعى بتحقيق الأهداف المختارة إلى مجرد الاستجابة الآلية لمتطلبات المجتمع ، بل هي أيضاً قد تحاول التأثير في هذا المجتمع وتغييره من خلال الأهداف التي تحققها .

- تتمكس الأهداف المختارة على اختيار وتصميم العمليات والأنشطة المختلفة في التنظيم الإداري ، كما تتمكس على اختيار واستقبال المدخلات ( الموارد ) المستخدمة فيه . من ناحية أخرى ، فإن ما يتحقق من أهداف يكون له تأثير مباشر على حجم ونوع الموارد الذي يستطيع النظام الإداري الحصول عليها من البيئة المحيطة . ومن ثم فإن استنتاجاً هاماً قد تكرر في الفكر الإداري المعاصر هو أن استمرار بقاء الإدارة وأطراف فعاليتها لا يتوقف على أحجام وأنواع الموارد المتاحة لها ، بقدر ما يتوقف على نجاحها في اختيار الأهداف وتحقيقها .

ومن الحقائق الواضحة في الفكر الإداري المعاصر أن الإدارة تصان في كثير من الأحيان من مشكلة تناقض الأهداف Goal Conflict وتتشابه هذه التناقضات من أسباب مختلفة أهمها التباين بين ما يريده المجتمع من جانب ، وما يستطيعه التنظيم الإداري من جانب آخر ، كما تنشأ تناقضات الأهداف من تباين المصالح والدوافع لعناصر التنظيم المتعددة واختلافها مما يسمى إليه التنظيم الأكبر من جانب آخر . ولقد كانت مشكلة تناقض الأهداف تبرز بقوة شديدة في التفكير الإداري التقليدي حيث كان يعتبرها مصدراً للتحلل والانشقاق التنظيمي وبالتالي خطورة يجب العمل على تجنبها .



ولكن الفكر الاداري المعاصر يرى في تناقض الاهداف - بل في التناقض بصورة عامة - ظاهرة صحية يجب العمل على ابرازها وتوفير المناخ المناسب لتطويرها الى اسلوب تنافس ايجابي . ان تناقض الاهداف يفسره مفهوم النظم على انه حالة اختلال في توازن النظام اما داخليا او خارجيا ، وحيث تنصف النظم بالقدره على الاحساس بالاختلال من ناحية ، ومحاولة استعادة التوازن من ناحية اخرى ، فاننا نرى ان تناقض الاهداف يحرك الادارة ( كما قد يحرك المجتمع ) ويثيرها بحثا عن الطرق والاساليب للوفية الى استعادة التوازن الذي يكون عادة عند مستوى افضل واعلى من الانجاز والاداء .

وثمة سؤال جوهري يتعلق بالمدى الذي يذهب اليه التنظيم الاداري في محاولته تحقيق اهدافه . فقد كان الفكر الاداري التقليدي يرى ان يتحقق الحد الاقصى للهدف Maximize وذلك على اساس تجاهل امرين : الاول هو تناقض اهداف النظم المتعددة ( او احتمال تناقضها ) ، والثاني هو الضغوط والقيود البيئية على التنظيم التي تحد من قدرته على الانجاز . ولكن الفكر الاداري المعاصر يتجه انماها معاير يتناسب مع مفهومه عن الادارة باعتبارها نظاما مفتوحا . ان المدى المقترح لتحقيق الاهداف وهو ما يسمى « حد الاشباع Satisfaction » هو كذلك الحد الكافي من الانجاز الذي ينتقل بالتنظيم خطوات الإيجابية الى الامام في مجال تحقيق هدف معين وذلك دون ان يعوقه او يهدمه الى التضحية بتحقيق حد مماثل في وقت آخر (٣) .

ونتيجة لفكرة حد الاشباع في تحقيق الاهداف ، فان الفكر الاداري المعاصر يتبنى فكرة أخرى هي « فجوة الاهداف Goal Discrepancy » وهي عبارة عن الفارق بين حجم ( كمية ، مستوى ) الهدف المختار وبين حد الاشباع الذي تحقق من هذا الهدف . ان اهمية هذه الفكرة تنبع من كونها تضع الادارة في اطار علمي سليم يستمد مقوماته من مفهوم النظم . وفي ضوء تحليل النظم ، فان فجوة الاهداف المختارة قد تكون سالبة حين تقل الاهداف المحققة عن الاهداف المختارة سواء من حيث كمية الانجاز او مستوى الاداء . وهذا القصور في الانجاز يمثل في تصورنا دافعا للادارة الى تكثيف الجهود واعادة تصميم اساليب العمل ومحاولة الارتفاع بمستوى الانجاز الى الحد المستهدف . من ناحية اخرى فقد تكون فجوة الاهداف ناشئة عن زيادة الاهداف عما كان مستهدفا . وتلك الزيادة تمثل فائضا يستلزمه التنظيم الاداري في تعويض مخلفات سابقة أو الاعداد لمواجهة صعاب وعقبات متوقعة مستقبلا .

#### ٤ / ٣ الوسائل

تعتبر الوسائل أو الأساليب أحد الأبعاد الحيوية في تكوين عمل الإدارة حيث هي المعبر الذي تستخدمه في تحريك المواقف لاجداث التغيير المتوافق مع اهدافها المختارة .

فالادارة تحاول ان تنتقل من الموقف السائد الذي تمارس فيه ، نشاطها الى الموقف المستهدف الذي يصف النتائج

(٣) Cyert, R.M., and March, J.A. *Behavioral Theory of the Firm* Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, Inc., 1962.

والانجازات التي قامت من اجلها . لتحقيق هذا الانتقال لابد للإدارة من الالتجاء الى وسائل واساليب متعددة الفعالية من جهة ، ومتناسبة مع طابع المواقف ومتطلباتها من جهة ثانية .

ويتبنى الفكر الإداري المعاصر عددا من الوسائل والأساليب التي يراها ضرورة محتمة لامكان تحقيق الاهداف المختارة . وتلك الوسائل والأساليب هي :

- البحث والدراسة وتكوين المعلومات .
- التحليل والكشف عن العلاقات والبدائل .
- تصميم النظم .
- التخطيط وتكوين البرامج .
- المتابعة والتقييم المتكامل .

فالإدارة المعاصرة تعتمد البحث والدراسة وسيلة هامة للتعرف على معطيات المناخ المحيط والأوضاع السائدة فيه ، ومن ثم تكشف عما به من فرص متاحة وما يفرضه من قيود ومعوقات . كذلك من خلال البحث والدراسة تكشف الإدارة عن طاقاتها الذاتية والإمكانات الكامنة في عناصرها المادية والبشرية . والنتائج المحققة من البحوث والدراسات ينبغي ان يكون تدفقا مستمرا ومتنظما من المعلومات التي تصف الإدارة والمحيط الذي توجد فيه ، كما تكشف هن الأحداث والوقائع ذات العلاقة بقدرتها على تحقيق اهدافها المختارة . وفي ضوء هذا التصور تصبح أنشطة البحوث وجمع الحقائق ركنا أساسيا في فعاليات الإدارة المعاصرة . . وسين تتجمع المعلومات ونتائج البحوث لدى الإدارة ، فان جهدا منظما ، متطورا يجب ان يوجه الى تحليلها واستنتاج ما تحويه من علاقات وبدائل . وعمل سبيل التحديد فان الإدارة تهتم بوسيلة التحليل من أجل الكشف عن الحقائق وخصائص المتغيرات التي تتعامل بها او معها . فاذا استطاعت الإدارة الفصل بين المتغيرات التابعة أو التي تحت سيطرتها من جانب ، وبين المتغيرات المستقلة أو المؤثرة فيها من جانب آخر ، فانها تكون في موقف أفضل من حيث القدرة على ادراك العلاقات بين تلك المجموعات من المتغيرات والمتغيرات تأثيرها على حركة الإدارة وإحتمالات وصولها الى اهدافها المختارة .

ان ما تسعى اليه الإدارة المعاصرة هو التوصل الى مجموعة من الطرق والاتجاهات البديلة التي تعمل بمقتضاها على تجميع وتوجيه طاقاتها ومواردها بحيث يتحقق عن ذلك أنسب درجة من الانجاز في إطار المعطيات والمحددات التي تتعامل في ظلها . والفكر الإداري المعاصر ، في ادراكه لاهمية توليد البدائل ، انما يضع شروطا لما يمكن قبوله منها ، اهمها ان يكون البديل ممكنا او في نطاق قدرات الإدارة وطاقاتها ، وان يكون مؤديا الى تحقيق الاهداف المختارة او بعضها .

ويمكن تصنيف البدائل المتاحة للإدارة الى صنفين أساسيين هما بدائل المستوى الاعلى - Higher Level Alternatives - وبغرضها الاستراتيجيات الكبرى التي تعتمد على الادارة في تحريك مواردها باتجاه الاهداف المختارة ، وبدائل المستوى الأدنى ونشيرها الى التكتيك الذي تلجأ اليه الإدارة تنفيذا لاستراتيجية معينة .

وبصفة عامة فإن الإدارة حين تبحث عن البدائل فإنها تأخذ في الاعتبار دائماً مبدأ التفصحية أو نفقة الفرصة الضائعة Opportunity Cost الذي تحسب على أساسه التكلفة النسبية للبدل الذي تم اختياره بالقياس إلى البدائل التي صحت بها الإدارة حين لم تقرر اختيارها .

إن اختيار البدائل ليس إلا وسيلة نحو تحقيق الأهداف المختارة . ولكي يتم هذا التحقيق لابد من استخدام وسيلة أخرى مساعدة هي مجموعات النظم والاجراءات Systems and Procedures التي يتم من خلالها تحويل البدائل إلى أنشطة تفصيلية ترتبط في علاقات منطقية وتتناسب في مرونتها أو ثباتها النسبي مع طبيعة كل بدل . وتعتبر عملية تصميم النظم Systems Design واحدة من أحدث وأهم الأساليب الإدارية التي زاد اعتماد الإدارة المعاصرة عليها لضمان الانجاز السليم عند الحد الأدنى من الجهد والوقت والتكلفة . وقد اكتشف الفكر الإداري المعاصر فعالية عمليات التعميط Standardization والروتينية Routinization باستخدام مستحدثات التكنولوجيا المعاصرة وأهمها الحاسبات الالكترونية خاصة في تنفيذ البدائل المتكررة أو المستقرة Routine . لذلك فإن الإدارة المعاصرة تصر على قيام كيان تنظيمي متخصص في دراسة وتحليل النظم System Analysis البدائل والنظم تزداد فعاليتها عندما يتم تنسيقها في إطار متكامل يضم عناصرها في تكوين متناسق من الخطط والبرامج . ويعتبر التخطيط الإداري الشامل (٤) Comprehensive Management Planning وسيلة هامة للاحداث التجميع والتنسيق نحو الغايات المستهدفة . ويحل الفكر الإداري المعاصر إلى تصور العملية التخطيطية الشاملة في إطار مفهوم النظم حيث تتولد لدى الإدارة معلومات واحداث مختلفة تمثل المدخلات في نظام التخطيط . ومن ثم تتم جهود تخطيطية تترجم تلك المعلومات والاحداث إلى هيكل متناسق من الخطط والبرامج كما يتضح من الشكل التالي رقم ( ١ ) .

وتكتمل الوسائل الإدارية باستخدام المتابعة والتقييم الشامل للاداء والانجازات . ويرى الفكر الإداري المعاصر أن تقييم الاداء هو استقرار دلالات ومؤشرات المعلومات الناتجة عن حركة التنفيذ لكي يتم الحكم على مدى الكفاءة في تحقيق الأهداف المختارة والكشف عن مجالات التخلف أو الانحراف في التنفيذ والعمل على تصحيحها وتقويم مسار الأنشطة بالتنظيم .

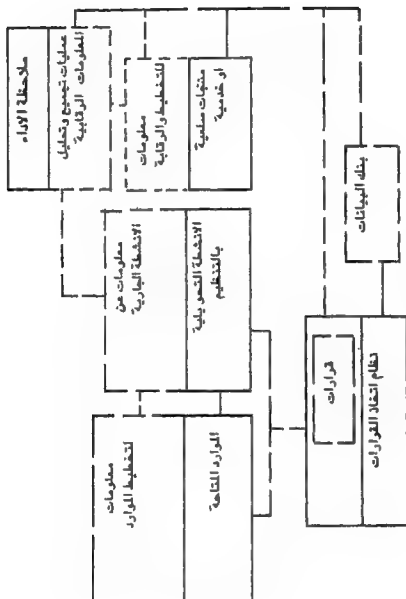
إن التقييم في تصورنا هو وسيلة حركية مستمرة تصاحب تدفق الأنشطة الإدارية في توافق زمني يسمح للإدارة باكتشاف احتمال انحراف الاداء عن مستوياته المستهدفة ، ومن ثم يمكنها من تصحيح وتطوير أساليب العمل لتأمين الوصول إلى الأهداف المختارة .

ويحل الفكر الإداري المعاصر إلى اعتبار وسيلة التقييم الشامل عنصراً مترابطاً مع نظام المعلومات المتكامل في التنظيم كما يتضح من الشكل التالي رقم ( ٢ ) .

Steiner, G.A. Top Management planning N. Y.: The Macmillan Co., 1969

(٤)





شكل رقم ( ٢ )  
نظام تقييم الاداء باختيار نظاما للمسؤوليات

## ٤/٤ القرار

تتلور المعلومات الواردة للادارة عن المتغيرات التي تتعامل معها في مجموعة من البدائل ، وبالتالي يبدأ التحلى الأساسى للادارة وهو اتخاذ قرار لكى يتم اختيار بديل ( أو بدائل ) لترجمته الى فعل وسلوك من أجل تحقيق الانجاز المستهدف وفقا لعدد من القواعد والمعايير .

وتتفاوت عملية اتخاذ القرارات في صعوبتها تبعا لتعدد البدائل المطروحة للاختيار وبحسب تداخل العوامل والمتغيرات المتفاعلة في الموقف وبناء على ذلك سنجد حالات كثيرة تصل فيها الادارة الى قرار ومن ثم تتم الاستجابة في وقت قصير نسبيا قد يبدو أحيانا وكأنه رد فعل تلقائى أو آلى للمثير الخارجى . تلك هى القرارات الروتينية التى اعتمدتها الادارة واختبرت نتائجها ووجدتها في صالحها ومن ثم تميل الى تكرارها كلما تهيأت الظروف . وهناك حالات أخرى يطول فيها الوقت الذى تستغرقه الادارة في الوصول الى قرار حيث تكون المشكلة موضوع البحث جديدة في نوعها لم تألفها الادارة بعد ، أو حيث ترتفع درجة تعقدها .

ان اتخاذ القرارات في الفكر الادارى المعاصر هو عملية عقلانية بالدرجة الأولى تخضع لقيود ومتطلبات تفرضها البيئة المحيطة من جانب ، وتتبع من طبيعة عمل الادارة وأوضاعها من جانب آخر . واتخاذ القرار بهذا المعنى هو نشاط مستمر يعتمد على كل المعلومات المتاحة عن الفرص والمعوقات في المناخ المحيط ، ثم استنادا الى معايير للاختيار يحدد بها النظام نفسه ، تبدأ عملية البحث عن السبل المختلفة ( البدائل ) التى يتمكن من خلالها النظام ان يفيد من الفرص المتاحة أو يتجنب المعوقات القائمة أو المحتملة . وحين تكتشف الادارة البدائل الممكنة فإنها تخصمها لعملية مقارنة بحثا عن ذلك البديل الذى يحقق لها هدفها بأعلى كفاءة ممكنة ( في اطار احد الاشباع ) .

ان القرار كما تبين لنا من التحليل السابق هو اختيار لطريق أو سبيل معين تتخله الادارة للوصول الى هدف مرغوب ، فهو بهذا المعنى اذن التحيز الى جانب نمط سلوكى محدد دون غيره . والاصل في القرار انه وسيلة الى تحقيق الاهداف والنتائج التى تسمى بها الادارة أو تجنب الأضرار التى توقعها .

ان اتخاذ القرارات يتمثل في عملية مستمرة متدفقة وهى ، وإن لم تكن واضحة وظاهرة ، الا انها توجد طالما كانت الادارة في موقف يحتم عليها الاختيار .

## ٤/٥ السلوك الانسانى

يحل السلوك الانسانى مكانا بارزا في الفكر الادارى المعاصر باعتباره أحد الدعامات التى تستند اليها الادارة ومن ثم المحدد لكفائتها وفعاليتها . ولقد كان التفسير السليم لآثر السلوك الانسانى في الادارة موضوعا للمجدل والخلاف في

تاريخ الفكر الادارى ولكن الفكر الادارى المعاصر بتأثير من العلوم السلوكية النامية ، قد تبقى موقفا واضحا في هذه القضية يتناسب مع نظرتة للادارة باعتبارها نظاما مفتوحا ، ففى هذه الحالة يعتبر السلوك الانسان أحد المدخلات الرئيسية في نظام الادارة ، ومن ثم فهو عامل هام في تحريك الأنشطة والاستجابات الادارية وتحديد ناتج عمل الادارة .

ومن زاوية أخرى فإن رؤية الفكر الادارى المعاصر للانسان في الادارة هي رؤية شاملة ومتكاملة تتجاوز الفرد الى الجماعة ، وتضع الجماعات في إطارها الاجتماعى والحضارى العام . فالسلوك الانسان بالنسبة للادارة هو هدف ووسيلة في ذات الوقت .

فمن حيث هو هدف نجد الادارة تعمل على تغيير سلوك العاملين والمتعاملين معها حتى يحقق أهدافها المختارة . كذلك فإن وسيلة الادارة الأساسية في أحداث هذا التغيير هو السلوك الانسان ذاته لفته من الأفراد يتولون قيادة التغيير . Change Agents

ان الانسان الفرد في النظام الادارى هو شاغل لدور معين Role وبالتالي فهو مطالب بالالتزام بأنماط سلوكية محددة تتوافق مع أبعاد الدور الادارى الذى يشغله . ان سلوك الفرد يتحدد استجابة لمعديد من المؤثرات الواردة إليه من داخل وخارج التنظيم الادارى . وكما أن الانسان يسترشد في اختياراته بالمعايير السلوكية التى تفرضها الادارة ، فإنه يتأثر بنتائج خبراته وتجاربته ورؤيته الخاصة بالموقف التنظيمى الذى يوجد فيه وما تسع له فيه من فرص وما يفرض عليه فيه من قيود .

والادارة المعاصرة تدرك احتمال ان تنشأ تناقضات بين أنماط السلوك المعادية أو المفضلة للأفراد من ناحية وبين النمط السلوكى الذى يتوافق مع أهدافها من ناحية أخرى ، وهذا ما يخلق بالنسبة لها مشكلة سلوكية تعمل على حلها .

وتعتمد الادارة المعاصرة مجموعة مفاهيم متكاملة عن السلوك الانسان واثره في عملها يمكن تركيزها فيما يلى :

- حيث أن الادارة عملية مستمرة لتحقيق أهداف محددة باستخدام الجهد البشرى والاستعانة بالموارد المادية المتاحة فإنها تدرك ان دور العنصر البشرى في العمل الادارى يزداد في أهميته بكثير على غيره من الموارد المادية .

- تتطور وظيفة الادارة المعاصرة في التركيز على دور القيادة الادارية في عمية المناخ المساعد على حفز الأفراد للعمل من أجل تحقيق الأهداف العامة للتنظيم وأهدافهم الشخصية وان الوظيفة الرئيسية للمدير ليست فقط تجميع الموارد المادية اللازمة لتحقيق الأهداف ، بل أيضا خلق المناخ الفكرى الملائم .

- ان نظام المدير يعلم السلوك الانسانى ضرورة لا تقل أهمية عن إعطائه بالجوانب الفنية لعمله .

- يلعب السلوك الانساني دورا مؤثرا في كافة مراحل العملية الادارية حيث يتم العمل الاداري كله من خلال تفاعل المديرين مع مساعديهم والعاملين معهم من الأفراد .

- ان السلوك الانساني محصلة للتفاعل بين صفات الفرد وخصائصه من ناحية ، وبين صفات الموقف وطبيعة الظروف المحيطة بالانسان من ناحية أخرى ، كما تتفاعل القدرة على العمل مع الرغبة فيه لتحديد مستوى مساهمة الفرد في تحقيق أهداف الإدارة .

وبذلك يمكن تحقيق نتائج ادارية أفضل من خلال محاولات التأثير على أي من المتغيرات الآتية :

- التأثير في صفات الفرد وخصائصه من حيث القدرات والمهارات التي يمتلكها وذلك بالتعليم والتدريب .
- التأثير في رغبات الفرد ودوافعه للعمل من خلال تطبيق نظم للمعافز المادية والمعنوية تحفزها الى بذل مزيد من الجهد في الاداء .
- تحسين العوامل الفنية المتاحة للعمل ، وتعديل الظروف المحيطة بالانسان في عمله .

ومن المعلوم ان السلوك الانساني يتخذ أوضاعا ثلاثة محتملة هي التعاون أو التناقص مع أهداف الإدارة أو الوقوف على الحياد . ويعتبر السلوك الحيادي أخطر أنواع السلوك نظرا لعدم وضوح اتجاهه بالنسبة لأهداف الإدارة ، ويستخدم تعبير المشككة السلوكية للدلالة على وجود تباين بين غبط السلوك الذي تفضله الإدارة وبين السلوك الفعل الذي يصدر عن الانسان . ويكون علاج المشككة السلوكية بتجاهلها أو محاولة فرض السلوك المرغوب بالقوة ، ولكن الحل الأمثل هو التوفيق بين أهداف الفرد وأهداف الإدارة وبالتالي بين السلوك الفعل والسلوك المستهدف .

#### ٦ / ٤ القيادة الادارية :

القيادة الادارية هي العمل باستمرار للتأثير في الأفراد واقتناعهم بقبول العمل من أجل تحقيق أهداف المنشأة وفقا للأسلوب الذي يجمعه القائد . والقائد الاداري الناجح يستطيع عادة اذابة الخلافات وحل التناقض بين أهداف الأفراد وأهداف المنشأة ، وذلك بما يتمتع به من مهارات وقدرة على التأثير والتوجيه . وهناك أنماط قيادية ( أو توجهات للقيادة الادارية ) لكل منها مزاياها ومساوئها ، أو متبسات استخدامها أو تجنبها . هذه الأنماط هي :

- الموازنة بين مطالب وضرورات الانتاج والعمل من ناحية ، ومطالب الانسان ورغباته وميله من ناحية أخرى .



- الاهتمام بالجانب الإنساني للعمل وترك مطالب وضغوط الانتاج باعتبار انها متراعى تلقائيا .
- الاهتمام بالعمل والتركيز على ضرورة الوفاء بمتطلباته وضرواته ، وهذا هو الأصل والأساس فالقيادة الادارية هي في الأساس عملية انسانية ، هي علاقة بين البشر .

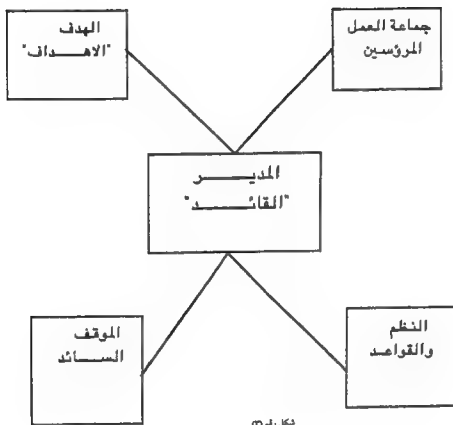
### مهارة القيادة :

المدير . . . قائد Leader المدير . . . مصدر للتأثير Influential هذه الأوصاف تصف حقيقة الدور الذي يلعبه رجل الإدارة في المنشأة الحديثة ، وهي كذلك تصف مهاراته الأساسية . فالقيادة الادارية هي التأثير الفعال في الآخرين ليعملوا حسب مايريد القائد .

ولكى نتفهم مهارة القيادة الادارية دعنا نتأمل بعض المواقف التي يجد المدير نفسه فيها :

- المدير العام المشغول الذي يعاونه عدد قليل من المساعدين كل منهم يأتي إليه بالمشاكل والمعضلات طالباً البحث عن حل لها .
- مدير الإدارة الذي يرأس مجموعة من الموظفين المتخصصين الذين خدم كل منهم في المؤسسة لمدة أطول من مدير الإدارة ذاته .
- صاحب المؤسسة التي أقامها على كنفه ويدير كل صغيرة وكبيرة فيها ويرأس مباشرة سبعين أو أكثر من الموظفين العاملين بالمؤسسة .
- المدير المسؤول الذي يجب التغيير والابتكار ويتمحس للأفكار الجديدة ويجعل العاملين تحت رئاسته يلهثون للاحقته في أعماله وتصرفاته .
- المدير العام الذي لا يستطيع اتخاذ قرار إلا في ظل الأزمة ويسعى الى كسب تعاون مرؤوسيه للخروج من تلك الأزمات .

وفي جميع المواقف السابقة يمكن أن نتبين عناصر القيادة الادارية التي يعبر عنها الشكل الآتي رقم (٣) :



شكل رقم (٣)

**LEADER : القائد**

من أهم عناصر القيادة القائد ذاته ، خبراته السابقة ، أهدافه ، طموحاته ، تكوينه الشخصي ، تأهيله العلمي ، قدراته ومؤهلاته ، أسلوبه في العمل واتجاهاته بالنسبة للآخرين .

**THE WORK GROUP : جماعة العمل**

إن المرؤ وسين هم عنصر هام في عملية القيادة إذ إن تركيب الجماعة ، وتكوين أفرادها الشخصي وخبراتهم وتجهيزاتهم ودوافعهم تتفاعل مع بعضها من ناحية ، كما تتفاعل مع شخصية القائد من ناحية أخرى .

**THE SITUATION : الموقف**

يتعامل القائد مع مرؤ وسيه في ظل مواقف محددة تتسم بظروف وتسودها مشكلات أو معوقات ، كما تتوفر فيها فرص تفرض نفسها على طبيعة العلاقات بين القائد والتابعين .

**SYSTEMS & REGULATIONS : النظم والقواعد**

لا يتعامل المدير مع المرؤ وسين في فراغ ولا تسرى عليهم أو يبيهم شريعة الغاب ، ولكن هناك نظم وقواعد موضوعية مصدرها الإدارة ذاتها أو الدولة ، وفي ضوء هذه النظم والقواعد وعلى هذاها تتحدد العلاقات ويحدث التأثير .

إن القيادة هي مجموعة من السلوك المتبادل بين القائد ومرؤ وسيه هدفها التأثير على العاملين لتحقيق أهداف الإدارة . ولكن ماهي وسائل التأثير المتاحة للقائد الإداري ؟

يستطيع المدير أن يؤثر في مرؤ وسيه ( بمعنى أن يدفعهم إلى العمل والإداء بالأسلوب والمستوى الذي يرضيه هو ) باستخدام أى من وسائل التأثير الآتية : ( بعضها أو كلها بحسب الموقف ) :

• استخدام السلطة الرسمية التي يخولها له منصبه ( كل مدير له سلطات رسمية منصوص عليها في بطاقة وصف الوظيفة أو محددة في عقد التوظيف

● التأثير في المرؤوسين باستخدام وسيلة للحوافز المالية سواء ايجابية ( منح مكافآت مالية ) أو سلبية ( الحرمان من المكافأة أو العلاقة مثلا ) .

● التأثير في المرؤوسين بما يتمتع به المدير ذاته من خبرة ومهارة وكفاءة ( الكل يدرك انه رجل يعلم ويقهم ما يفعله الآخرون ) .

● التأثير في المرؤوسين باستخدام سلاح العواطف ( الحب والكراهية ) .

● التأثير على المرؤوسين بقوة القهر والاجبار . أي استخدام النفوذ الشخصي للمدير لإجبار الأفراد على السلوك بالطريقة التي يرضاها القائد حتى ولو بدون رضاهم .

#### أنماط القيادة :

من الواضح ان المديرين ( القادة ) يختلفون في أساليبهم القيادية . وقد اتفق كثير من الدارسين لهذا الموضوع انه يمكن التمييز بين ثلاثة أساليب ( أنماط ) قيادية :

#### ١- النمط المتحفظ : CONSERVATIVE

- يعتقد القائد انه الرئيس وصفته هذه فهو الذي يتخذ القرارات .
- يعتقد انه المسئول الأساسي عن العمل .
- يشرح تفاصيل العمل ، ويوزع المهام تفصيلياً على المرؤوسين .
- يلاحظ الأداء تفصيلياً ويشار بنفسه متابعة تقدم تفاصيل العمل التنفيذية .
- يستخدم التعليمات والأوامر الكتابية الرسمية كوسيلة أساسية في الاتصال بالمرؤوسين .
- يستخدم أساليب الجزاء والثواب للمأتي كوسيلة لحفز العاملين على الاداء .
- يميل القائد المتحفظ الى الاعتقاد بأنه لولا تدخله الشخصي فسوف يعمد الأفراد الى التهاون والتكاسل .
- وأنه لايد من الرقابة الحازمة للعمل .

**LIBERAL النمط المتحرر**

- يعتقد القائد المتحرر أن واجبه الأساسي هو خلق مناخ العمل الذي يساعد الأفراد على أداء واجباتهم من خلال مبادراتهم الذاتية واعتماداً على جهودهم الخلاقة .
- يعتقد أن دوره يتلخص في التفاصيل التنفيذية ويميل بالتالي إلى تفويض السلطات للعاملين .
- يعتقد أن الحوافز المرتبطة بتنمية الفرد ( التدريب ، الترقية ، تحمل مسئوليات عمل جديد ) إحدى من التهديد بالمقاب .
- ومن ثم فإن القائد المتحرر يباشر عمله كالآتي :
- يشرك المرؤ وسين في اتخاذ القرارات .
- يوفر للعاملين معلومات كاملة عن العمل وظروفه الجيد منها والسيء .
- يراقب الحالة المعنوية للمرؤ وسين ويحاول دائماً تحسينها .
- يشاور ويدرب ويعمل على تنمية مرؤ وسينه .
- يحاور ويحدث مرؤ وسينه .

**SITUATIONAL النمط المرن**

وهنا نجد القائد لا يتمسك بنمط قيادي ثابت ، وإنما يتغير أساليبه القيادية ووسائله في التأثير على المرؤ وسينه بحسب الموقف والظروف السائدة . وقد أوضحت الدراسات والتجارب في الإدارة المعاصرة أن لكل من الأنماط السابقة مزاياه وعيوبه ، وإن أفضلها النمط المرن الذي يتناسب ويتلاءم مع المواقف المختلفة ولا يتجمد عند أسلوب ثابت .

ولقد اتضحت بعض أساسيات القيادة الإدارية الناجحة الفعالة نوردتها فيما يلي :

- القيادة الناجحة تصل إلى إحداث التأثير المطلوب من خلال فهم الناس والظروف المحيطة بهم .
- ليست هناك سمة محددة تميز القائد الإداري الناجح أهم من قدرته على إدراك وفهم طبائع البشر والتكيف مع الظروف المحيطة .
- لا بد للقائد الإداري الناجح من سلطة أو قوة يعتمد عليها في التأثير على الأفراد ومصادر السلطة أو القوة متحدة ، أهمها اقناع الأفراد بقدراته ورغبتهم في الاستجابة له .

- يستطيع القائد الإداري دائماً أن ينقل عمل تركيزه واهتمامه من الفرد إلى العمل وبالعكس . ولكن القائد الناجح هو الذي يتمتع بالقدرة على تنويع أسلوبه القيادي واختيار الأسلوب الأنسب لكل موقف .
- من المفيد للقائد الإداري أن يركز على العمل حين تكون الظروف غير مواتية ، وعلى العكس فإن التركيز على العلاقات مع الأفراد يصبح النمط القيادي الأفضل حين تكون الظروف مواتية .

#### ٧/٤ مواجهة التغيير

• التغيير أمر محتمل إذ لا شيء يمكن أن يثبت على حال واحد بصفة دائمة ، ومن ثم فإن الإدارة تحوطها باستمرار عوامل التغيير الذي يفرض على الإدارة أن تتحرك لتواجه الأوضاع الجديدة وتعيد ترتيب الأمور بحيث :

- تستفيد من عوامل التغيير الإيجابي .

- تتجنب ( أو تقلل ) من عوامل التغيير السلبي .

ويشمل التغيير كل شيء في مناخ العمل - تقريباً - فالأوضاع الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية ، ظروف السوق والمنافسة ، الوسائل والأساليب الفنية في الإنتاج ، رغبات الناس وقدراتهم ... كلها تخضع للتغيير ، وبالتالي تؤثر على أداء المنشآت .

والتغيير - مهما بدا بسيطاً - يمثل في أحد أمرين :

- فرصة جديدة للإدارة .

- قيد جديد على حركة الإدارة .

وقد أوضحت دراسات الإدارة المعاصرة أن على الإدارة الواعية أن تتحسب للتغيير ، وتعد لاستثمار الفرص الجديدة ، وتتجنب آثار القيود مع الأخذ في الاعتبار الحقائق الآتية :

• التغيير CHANGE هو محمول في وضع معين عما كان عليه من قبل ، وقد يكون التحول في الشكل ، أو النوعية ، أو الحالة .

• والتغيير ظاهرة مزدوجة ، فقد يحدث التغيير بسبب عوامل خارجية ، كما يحدث بسبب عوامل ذاتية . وتختلف الأساليب المتاحة للإدارة في مواجهة التغيير ومنها :

• الأسلوب التقليدي والذي يتمثل في محاولة سد الثغرات أو ترميم الأضرار التي يسببها التغيير مثال : تواجه المنشأة بظهور منافس جديد وانخفاض مبيعاتها فتحاول تصحيح الموقف بإجراء تخفيض في أسعارها . فالأسلوب التقليدي دفاعي في طبيعته ، ويتخذ شكل رد الفعل أى إن الإدارة تنتظر حتى يحدث التغيير ثم تحاول بعد ذلك البحث عن وسيلة للتعامل مع الأوضاع الجديدة .

وحين اعتماد الأسلوب التقليدي تكفى الإدارة بمحاولة التخفيف من الآثار السالبة الناشئة عن التغيير ، ولكنها تفشل في الاستفادة من الفرص الجديدة التي يتيحها التغيير .

• أما الأسلوب الأفضل في مواجهة التغيير فيكون عن طريق توقع التغيير ( التنبؤ ) والاعداد المسبق للتعامل مع الظروف الجديدة ، ومن ثم يمكن تحقيق نتائج أفضل . فالأسلوب الحديث هجومي في طبيعته ، وفيه تبادر الإدارة بإقتخاذ إجراءات وقائية ( لمنع التغيير المتوقع أو تجنبه ) أو مبادرات من جانبها ( للاستفادة من التغيير حين يحدث ) .

إن استخدام الأسلوب الحديث في مواجهة التغيير يتطلب مقومات أساسية في تنظيم المنشأة وإدارتها أهمها :

- نظام جيد لجمع البيانات الداخلية والخارجية ذات الصلة بمجالات عمل المنشأة .
- نظام جيد لتحليل مؤشرات الأداء للمنشأة ورصد المؤشرات العامة الدالة على احتمالات التغيير .
- نظام جيد لاتخاذ القرارات بسرعة وحسم في مواجهة التغيير المنتظر .
- ومن محصلة خبرات وتجارب الإدارة المعاصرة يمكن تركيز النصائح التالية للمدير في كيفية التعامل مع المتغيرات :
- كن سباقا ، للتعرف والمبادرة ، Be pro-active, not re-active ولا تركز الى مجرد الاستجابة للتغيير بعد حدوثه .
- كن مستعدا للطوارئ ، اعتبر الطوارئ أمرا طبيعيا محتمل الحدوث ، وليس كارثة غير عادية .
- أدخل التغيير المستهدف على جرعات متوالية ، لا تستخدم أسلوب الصدمة في فرض تغييرات شاملة دفعة واحدة .
- اجعل مساعديك ومعاونيك على بينة من احتمالات التغيير ، دعهم يتوقعون التغيير ويساهمون في أحداثه بالصورة التي تحقق أهداف المنشأة .
- الخوف من التغيير سمة انسانية يبنى قبولها والتعامل معها .

## ٥ - مقومات النجاح الإداري

إن الإدارة المعاصرة بمفاهيمها المتطورة وأساليبها المتقدمة لا تنبثق آثارها في الواقع إلا من خلال أداء متميز لرجال الإدارة ، ومن ثم فإن نجاح الإدارة في تحقيق أهدافها يتوقف إلى حد بعيد على ممارسات المديرين أنفسهم . ولو أردنا تلخيص كل ماسبق في هذه الدراسة من زاوية المقومات الواجب توافرها كي ينجح المدير في عمله ، ومن ثم تنبض الإدارة عموماً فإنه يمكن حصر تلك المقومات في الآتي :

● عدم الاقدام على أي عمل إلا في ضوء خطة مدروسة دراسة جيدة .

المديرون لا يبدؤون عملاً من فراغ ، ولكنهم يحددون أهدافاً واضحة ، ويفكرون في أنسب الطرق والأساليب المساعدة على تحقيق الأهداف .

● ضرورة تدبير الموارد اللازمة للعمل وتنظيم استخدامها وفقاً لقواعد محددة .

يحتاج العمل - أي عمل - إلى استخدام طاقات وموارد ، أهمها المورد البشري . لذلك فالمدير يحدد احتياجات العمل من هذه الموارد ويوفرها وينظم استخدامها . وعلى سبيل التخصيص يحظى المورد البشري - الأيدي العاملة - بأهمية خاصة من المديرين ويعتبر التنظيم الذي يحدد علاقات العاملين ويرتب اختصاصاتهم ومسئولياتهم من أهم عناصر النجاح للمديرين .

● احترام المساعدين والاستفادة من طاقاتهم الخلاقية .

المديرون هم في الحقيقة خبراء في العلاقات الإنسانية يعرفون كيف السبيل إلى اقناع الأفراد ، وتحفيزهم للعمل والمطاع ، انهم لا يتعاملون مع العاملين على انهم آلات تؤدي أعمالاً روتينية وفقاً لتعليمات الإدارة ، بل بالعكس فهم ينظرون إلى العامل على انه إنسان خلاق له طاقات وقدرات يمكن ان تسهم في انتاج المنشأة لذلك يجب استثمارها وتوجيهها بشكل إيجابي منتج .

● المتابعة وعدم ترك الأمور للمصادفات

المديرون لا يضيعون الخطط ثم ينسوها ، أو كما يقال ( يضعونها في الادراج ) ، بل هم يراقبون التنفيذ ويتابعون الانجازات ، ويشكل مستمر ومنظم يقيسون ما تحقق من نتائج ويقارنونها بالأهداف الواردة في الخطط .



الرقابة والمتابعة إذن هي من واجبات المدير حتى يستطيع - أولاً بأول - أن يكشف أي قصور في الأداء أو انحراف في التنفيذ ، ويعمل على تحليل أسبابه والبحث عن سبيل علاجه حتى يضمن - في النهاية - أن يحقق الأهداف التي حددها لنفسه .

فالمديرون إذن يقيمون صلة مستمرة مع العمليات ولا ينمزلون عن مجرى الأحداث في منشأهم .

#### ● مواجهة المشاكل واتخاذ القرارات :

الإدارة كما عرفها الكثيرون هي « حل المشاكل » وعليه فإن يكون للمدير أسلوب في « حل المشاكل » معناه أنه يزيد من قدراته على تحقيق الأهداف والوصول إلى أفضل النتائج .

وحل المشاكل لا يأتي عفواً أو عشوائياً ، ولكنه يحتاج إلى منطق في تحديد المشكلة ووصفها بدقة ، واساليب لتحليل المشكلة إلى مكوناتها وأجزائها المتشابهة ، وقدرة على تمييز المشكلة الحقيقية من المشكلات الفرعية ومهارة البحث عن البدائل وأخيراً معيار اختيار البديل الأفضل .

#### ● حسن استخدام الوقت

الوقت من أثمن الموارد التي يستخدمها المدير وما ينفق من وقت لا يمكن استرجاعه . والمدير المتميز يدرك أن للوقت نفقة أو تكلفة ، وبالتالي يحاول استثماره إلى أقصى حد ممكن ولذلك فهو يبحث دائماً عن أساليب العمل التي توفر الوقت TIME SAVER فهم يحققون إنتاجية أهل في وقت أقل .

#### ● تخطيط المستقبل الوظيفي والتنمية الذاتية

يستند الفرد عادة إلى من يأخذ بيده في مسار التقدم الوظيفي ولكن المتميز يرسم لنفسه خط المستقبل ويعمل جاهداً بعلمه وخبرته واجتهاده لكي يصل إلى المستوى الوظيفي الذي يتنمله لنفسه ، لذلك نجد المدير المتميز :

- يعلم نفسه بشكل متصل .
- ينمي قدراته ومهاراته بالاطلاع الذاتي .
- يستفيد ويتعلم من خبرات الآخرين .
- يواظب على الاطلاع والتثقيف بكل جديد .

### مراجع الدراسة

- (١) د . حل السلى ، الأءارة العامة ، مكبة غرب ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ .
- (٢) د . حل السلى ، الأءارة المعاصرة ، مكبة غرب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- (٣) د . حل السلى ، السلوك التنظيمى ، مكبة غرب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

(4) Archer, M., *Call Yourself A Manager*, Mercury Business Book, 1987

(5) Handy, C.B., *Understanding Organizations*, The Penguin Business Library, Harmondsworth Middlesex, England, Third Edition, 1987

(6) Leigh, A., *20 Ways to Manage Better*, Institute of Personnel Management, IPM House, Canys Road, Wimbledon, London, SW19 4UW

(7) Lock, D., and Farrow, N. (eds.), *The Complete Manager*, Wildwood House Ltd., Gower House, Croft Road, Aldershot, Hants GU11 3HR, 1983.

### مقدمة :

أصبح مفهوم التنمية متشفا عليه الى حد كبير بصرف النظر عن الوزن الذي يعطى لكل بعد من أبعاد التنمية فهي لم تعد قاصرة على التنمية الاقتصادية كما كان المفهوم سائدا بل انما تشمل التنمية بكافة أبعادها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والادارية والثقافية . وكل هذه الابعاد متلاحة ومتداخلة ومتأثرة ومؤثرة ومحاولات التنمية في أقطار الوطن العربي وفي دول العالم الثالث عموما لم تكن ناجحة . والأسباب وراء ذلك متعددة فمفهوم التنمية الفعلية الشاملة ليس مستوحيا ولا مدركة أبعاده ولم تنطلق تلك المحاولات من مفهوم التنمية الصحيح ولم تكن هناك ايدلوجية تنموية أو منهج تنموي واستراتيجية مدروسة لتطبيق تلك الايدلوجية أو ذلك المنهج ولم يكن هناك اهتمام بالتنمية الاجتماعية والادارية والسياسية والثقافية ناهيك عن أنه كان هناك قصور في استيعاب مفهوم التنمية الاقتصادية الذي يتجاوز الاطار الاقتصادي البحت في تسبيح متشابك ومشق مع أبعاد التنمية الأخرى .

### إداريو التنمية

مدخل لدراسة دور إداريي التنمية  
والهمية تأهيلهم لتحقيق الأهداف التنموية  
المشودة على صعيد الوطن العربي

أسماء عبد الرحمن

ومفهوم ادارة التنمية كذلك ليس مستوحيا ولا مدركة أبعاده فهو ليس مجرد زيادة القدرات الادارية أو رفع مستوى الاداء ولكنه يبدأ من أول نقطة في التنمية الفعلية الشاملة ابتداءا بالتخطيط ووضع الاستراتيجية المدروسة وتحديد الاهداف موزعا بحشد الطاقات والامكانات البشرية والمادية المتاحة واستثمارها الاستثمار الأمثل . ويأتي في سياق ذلك زيادة القدرات الادارية والارتقاء بمستوى الاداء والتعبئة المجتمعية من خلال مشاركة فاعلة وكذلك تقسيم الاداء ومدى تحقيق أهداف التنمية الفعلية الشاملة بكافة أبعادها .

ولهذا فان الدراسة لا بد وأن تنطلق من إحدى فرضيتين :

**الفرضية الأولى:** انه في أقطار الوطن العربي ودول العالم الثالث عموماً يهيمن القرار السياسي من منطلق فردي في أكثر الأحيان هيمنة كبيرة . وفي ظل هذا الوضع فإن ادارة التنمية ان كانت تتمثل في أولئك الذين يشتغلون الوظائف القيادية الادارية وكذلك الوظائف الاستراتيجية والحاكمة في الاجهزة الحكومية والمؤسسات العامة فإنه يتعذر عليها الى حد كبير حتى المساهمة الملموسة في وضع الابدولوجية التنموية أو المنهج التنموي لأن تبني ذلك يعتمد على القرار السياسي . وإذا لم يكن المنظور السياسي مسترعياً أو مدركاً لأهمية الابدولوجية التنموية أو المنهج التنموي فقد ينقض أو يرفض تلك الابدولوجية وذلك المنهج مع أن نجاحها يعتمد الى حد كبير ليس على مجرد تبنيها ولكن على الارادة الجادة المساندة والملتزمة . وإذا كانت محاولات التنمية الادارية في أقطار الوطن العربي ودول العالم الثالث متعثرة وفاشلة عموماً فإن من الاسباب عدم استيعاب مفهوم التنمية الادارية وإدراك أبعادها من قبل المنظور السياسي . وبالطبع فإن عدم وجود الارادة الجادة المساندة والملتزمة أسباب رئيسية وراء تلك العثرات أو ذلك الفشل وهذه الفرضية تمثل الواقع .

**الفرضية الثانية:** ان القرار السياسي ليس مهيمناً وذلك في حكم الامنية لما ينفي أن يكون عليه الوضع حتى يتسنى لاداري التنمية أن يضطلعوا بالرد المرجو منهم ابتداء بالتخطيط ووضع المنهج والاستراتيجية وتطبيقها من خلال الاستئثار الامثل للموارد المتاحة . بل انه في ظل هذه الفرضية يفترض أن تكون السلطة السياسية مستوعبة لمفهوم التنمية استيعاباً واعياً ولديها ارادة جادة ملتزمة ومساندة مستمرة .

ولقد اعتمدت الدراسة على عدد يسير من المراجع وان بدأ اننا اعتمدت بصورة أكبر على محصلة مؤتمر « تطوير القوى البشرية العربية في مواجهة تحديات العصر » الذي عقد في القاهرة من ١ - ٣ مارس ١٩٨٨ وشارك فيه عدد كبير من المهتمين بادارة التنمية والتنمية الادارية .

#### مفهوم التنمية :

أصبح من المتفق عليه أن التنمية عملية حضارية تمثل نقلة نوعية على الصعيد المجتمعي كله . وهذه العملية الحضارية ذات أبعاد اقتصادية وسياسية وإدارية واجتماعية وثقافية وهي تمثل نقلة نوعية لانها تتجاوز الشكل الى المضمون ويعني ذلك تغيراً جليراً نوعياً يحقق الكيان القوي المعتمد على ذاته اقتصادياً وسياسياً وإدارياً واجتماعياً وثقافياً . ويذكر جاسم السعدون<sup>(١)</sup> ان مفهوم التنمية في معظم انحاء الوطن العربي قد اقتصر على استيراد اللفظ من جملة مستورداته المتنامية من الخارج أما المضمون فقد ظل في حكم الامنية التي يتخفى بها بعض المختصين بصرف النظر عن الفلسفة الاقتصادية للمعنة لهذا القطر العربي أو ذلك ثم يستعرض من بين تعريفات التنمية انها عملية مجتمعية واعية وموجهة لاجراءات تحولات هيكلية تؤدي الى تكوين قاعدة واطلاق طاقة منتظمة في متوسط انتاجية الفرد وقدرات المجتمع ضمن اطار من العلاقات الاجتماعية يؤكد الارتباط بين الكفاءة والجهد ويعمق متطلبات المشاركة مستهدفاً

(١) جاسم السعدون ، دور القطاع الخاص في التنمية ورقة مقدمة الى ندوة تحويل الإستراتيجية العامة الى القطاع الخاص ، الدار البيضاء ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٨٨ ص ٣٠ .

توفير الاحتياجات الأساسية موطناً للامن الفردي والاجتماعي والقطري<sup>(١)</sup>. ويضيف مقولة ليوسف صايغ « بأن التنمية العربية لكي تندفع بقوة وثبات لابد لها من الاعتدال على قواعد اقتصادية سليمة تعطيها عملية النمو المتصل ولكنها بالإضافة الى ذلك تحتاج الى ركائز ثلاث هي زوايا المثلث الحرج وزوايا ذلك المثلث الحرج هي :

- الحرية والتعبير الديمقراطي عن الإرادة العامة .

- العدالة الاجتماعية والاقتصادية

- الوحدة بين الاقطار العربية وان كانت مرحلة تبدأ بالتعاون مروراً بالتكامل والانتماء ثم الوحدة<sup>(٢)</sup> .

وهناك عدد من المفاهيم قد يلتقي أو يتداخل أو يستوى مع مفهوم التنمية ومن هذه المفاهيم التقدم والتطور والتحديث . وقد درج الوضع في بعض الاقطار العربية على إشار مصطلح الانماء على مصطلح التنمية على اعتبار أن الانماء يعبر عن الاتجاه القصدى في التنمية بينما ينسحب مصطلح التنمية على العملية ذاتها . وبالطبع فإن المسألة ليست إشار مصطلح على آخر وإنما هي مسألة المضمون الجوهرى الذى يستهدف الرقي الحضارى في كافة الأبعاد ويحدد طريقه للتطبيق من مطلق إرادة جادة وإدارة كفية . ويرى البعض أن التنمية أو الانماء لا يميزان بالضرورة عن الواقع المقصود في الدول النامية حيث الحاجة الى التغيير الجذري في أوضاع متخلفة بينما التنمية في الدول المتقدمة هي تنمية لأوضاع لاأبعد متخلفة<sup>(٣)</sup> . ومن المعروف أن التنمية في الدول النامية عموماً يفترض أن تنطلق نقطة البداية الصحيحة للانطلاق تكسر أطر التخلف المتعددة وهي تواجه العديد من العقبات والتحديات بينما التنمية في الدول المتقدمة تكاد تتم بصورة تلقائية بعد أن حققت تلك الدول الانطلاقة منذ أمد طويل نسبياً وتجاوزت في مسار التنمية آفاقاً بعيدة عما زاد الفجوة كثيراً بينها وبين الدول النامية .

ولهذا فإن التنمية بالنسبة للدول النامية في حد ذاتها تمثل تحدياً معبراً في عالم تسير فيه الدول المتقدمة حثيثاً ويسرعه على مسار التنمية الى آفاق أبعد مرسعة بذلك هيئتها على الانتاج والتكنولوجيا بصورة خاصة بينما الدول النامية مستهلكة أكثر بكثير مما هي منتجة ويعيد عن امتلاك ناصية التكنولوجيا وهي تمثل التحدي المستقبلي الكبير بين تحديات التنمية . ومع ازدياد الفجوة بين الدول المتقدمة والتنمية تزداد هيمنة الأولى ويزداد انكشاف وتبعية الثانية .

#### إدارة التنمية :

رغم تعدد تعريفات ادارة التنمية فإنها تعني ادارة وإرادة التغيير والتطوير والتحديث للارتقاء بمستوى الاداء والانتاجية والاستثمار الأمثل للطاقات البشرية والامكانيات المادية في سبيل تحقيق أهداف التنمية الفعلية الشاملة .

(١) نفس المرجع ، ص ٢٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٣ .

(٣) جمال الدين « التنمية ومعضلاتها » مجلة العمل العربية ، نوفمبر ١٩٧٥ ، ص ١٧٧ .

وبالطبع فإن إدارة التنمية تعني الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة والشركات العامة وكذلك القطاع الخاص ذات العلاقة بتخطيط وتنفيذ برامج التنمية كما تعني نشاط هذه الأجهزة والمؤسسات والشركات وكذلك الأفراد الذين يتسمون وظائف القيادة الإدارية أو الوظائف الاستراتيجية والحكامة فيها . ومن المعروف في دول العالم الثالث إجمالاً وكذلك على صعيد أقطار الوطن العربي أن الأجهزة الحكومية والمؤسسات والشركات العامة تتولى مهام إدارة التنمية بصرف النظر عن الميخ السياسي والاقتصادي نظراً لأن القطاع الخاص في بعضها غير فعال وفي بعضها الآخر طفيلي وفي كلا الحالتين فليس له دور رئيسي في عملية التنمية . ورغم أن الأجهزة الحكومية والمؤسسات والشركات العامة تتولى مهام إدارة التنمية فهي ليست مؤهلة لأداء هذه المهام بحكم طبيعة البيروقراطية في الأجهزة الحكومية وأوزارها وأوضاعها وبحكم حداثة المؤسسات والشركات العامة أو امتداد لوزار البيروقراطية وأوضاعها إليها أو مد الحظلة الرقابية عليها والقاسم المشترك بينها جميعاً قد يتمثل في عدم انتقاء القيادات الإدارية .

وإدارة التنمية هي كافة المراحل التي تبدأ من وضع السياسات التي تتصل بتحقيق أهداف التنمية وتحريك وتنظيم واستخدام كافة الموارد المتاحة استخداماً أمثل لتحقيق تلك الأهداف والسياسات<sup>(٩٩)</sup> . ويعني ذلك أن إدارة التنمية ليست قاصرة على البعد الإداري من بين أبعاد التنمية وتتجاوز كثيراً مفهوم التنمية الإدارية وإدارة التنمية كمنهج تقوم على إيدولوجية لوضع أولويات التنمية والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية<sup>(١٠٠)</sup> . ولهذا فإن إدارة التنمية لا تبدأ من فراغ كما أنها تتداخل مع كافة أبعاد التنمية من اقتصادية واجتماعية وسياسية وإدارية وثقافية بل أنها قد تكون شاملة لكل المراحل بدءاً بالتخطيط ووضع الاستراتيجيات وتحديد الأهداف ثم الاستخدام الأمثل لكل الموارد المتاحة في سبيل تحقيق تلك الأهداف . وتتجاوز هذا المفهوم لإدارة التنمية مفهوم التنمية الإدارية لأنها تعني كافة الأنشطة المتعلقة بأعداد وتنفيذ وتقييم السياسات والبرامج التي تهدف لأحداث تغييرات اقتصادية واجتماعية ( وغيرهما ) بينما تعني التنمية الإدارية تطويراً في التنظيمات والأساليب والوسائل وزيادة القدرات الإدارية<sup>(١٠١)</sup> .

ورغم أن تحقيق أهداف التنمية موكلاً إلى الإدارة الحكومية في أقطار الوطن العربي ودول العالم الثالث إجمالاً بحكم طبيعة الدور الذي تؤديه نظراً لعدم توفر القطاع الخاص القادر على أداء الدور الأكبر من منطلق قدرته وتوجهه وكفاءة أدائه فإن الإدارة الحكومية هي التي تتولى هذا الدور الأكبر بصرف النظر عن الميخ السياسي أو الإيدولوجية الاقتصادية . وطبيعة الإدارة الحكومية وتوجهها يختلفان وقد يتناقضان مع طبيعة التنمية الفعلية الشاملة وتوجهها ذلك أن الإدارة الحكومية في أقطار الوطن العربي ودول العالم الثالث تمتورها الكثير من الأوزار والأوضاع وتكاد تكون عاجزة عن أداء مهامها التقليدية بكفاءة ناهيك عن أداء المهام الجديدة التي تقتضيها عملية التنمية الفعلية الشاملة . والإدارة الحكومية تكاد تكون كذلك بعيدة كل البعد عن استيعاب مفهوم التنمية الفعلية الشاملة وكذلك عن إدراك

٩٩) B. Schmitter, *The Administrative Factor*, London, Chat (1963).

١٠٠) فضل الله في فضل الله : إدارة التنمية ، الامارات العربية المتحدة . صوت الخليج ١٩٩١ ، ص ٤٠ .

١٠١) محمد صادق : التنمية في الاقطار العربية للقطر في الجزيرة العربية بين عائلات القطر وإدارة التنمية . ورقة مقدمة لل ندوة التنمية في البحرين ٢٤ - ٢٦ ديسمبر ١٩٨٠ ص ١٣ .

مقتضيات الدور المفترض أن تؤديه . بل ان الادارة الحكومية بطبيعتها قد تكون مناهضة ومناقضة لاحداث التغيير والمساهمة الفاعلة فيه تخطيطا وتطبيقا ذلك أنها تستمرى الابقاء على الوضع على ما هو عليه وترسيخ مفاهيمها ونفاليدها البيروقراطية وكذلك نمط السلوك البيروقراطي .

ومن المعروف أن الادارة الحكومية في هذه الاقطار وغيرها من دول العالم الثالث هي ادارة كانت لها مهام تقليدية محددة خلال الهيمنة الاستعمارية المباشرة ، وقد ترك المستعمر هذه الاقطار والدول تحت وطأة التخلف ليس في الادارة الحكومية فحسب ولكن تركها تحت وطأة التخلف بكافة أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والادارية والسياسية والثقافية . وما كان من المنتظر أن يترك المستعمر هذه الاقطار والدول منطلقة في مسار التنمية الفعلية أو قادرة على الانطلاق في ذلك المسار اعتادا على قدراتها الذاتية وكفاءة أدائها وحسن استخدام مواردها المتاحة لتحقيق أهداف التنمية الفعلية . كما انه ما كان من المنتظر أن يترك الاستعمار هذه الاقطار والدول بإدارة حكومية مستوعبة لمفهوم التنمية ومدركة أبعاده وقادرة على أداء الدور المرجو منها في سبيل تحقيق أهداف التنمية الفعلية . وبالإضافة الى ذلك فإنه ما كان من المنتظر أن يترك الاستعمار خلفه في هذه الاقطار والدول قطاعا خاصا ذا توجه إنتاجي تتمثل فيه كفاءة الاداء والقدرة على أداء دور رئيسي في عملية التنمية الفعلية .

ولهذا كانت التحديات التي تواجه هذه الاقطار والدول كبيرة وعظيمة وممتدة تتمحور حول التنمية الفعلية الشاملة بكافة أبعادها . وكان من المفروض أن تبدأ هذه الاقطار والدول بداية جادة ملتزمة تخرج بها من ردهات التخلف بكافة أبعاده من منطلق ايدلوجية تنموية واستراتيجية محددة وأهداف واضحة وأولويات مدروسة وتعتمد على ادارة التنمية لهجا وأسلوبا ووسيلة من خلال التغيير الجذري على كافة الاصعدة وفي جميع القطاعات وتأهيل اداري التنمية الذين يساهمون تخطيطا وتطبيقا في احداث ذلك التغيير الجذري سحيا وراء تحقيق أهداف التنمية في اطار الايدلوجية التنموية واستراتيجياتها .

#### مواصفات اداري التنمية :

ان اداري التنمية الذين يتسمون الوظائف القيادية الادارية وكذلك الوظائف الحاكمة والاستراتيجية يجب أن تتوفر فيهم مواصفات معينة منها القدرة على استيعاب مفهوم التنمية الفعلية الشاملة وإدراك ابعاد التنمية وتحدياتها وعيها بما من منطلق انتقاء ذاتي وتوجه ذهني راسخ تلتمح معها ارادة جادة وقدرة على التطبيق والاداء الكفهي وتقييم الاداء . ولذلك يفترض باديء ذي بدء أن يكون هناك حسن انتقاء هؤلاء الافراد على أساس توفر الاستعداد والقدرة لديهم بالنسبة للبرامج التعليمية والتدريبية الخاصة التي تحول ذلك الاستعداد الى ارادة وتحول القدرة من منطلق التوجه الذهني والادارة الى منطلق الاستثمار الامثل لتلك القدرة في سبيل تحقيق أهداف التنمية الفعلية الشاملة . وبالطبع فان من أهم المواصفات التي يجب أن تتوفر لدى اداري التنمية القدرة على بلورة السياسات وتحديد الأهداف . ومعروف في ظل الاطر السياسية السائدة أنه رغم توفر القدرة لدى اداري التنمية قد لا يكون القرار قرار

إداري التنمية ولكنه قرار السلطة السياسية التي قد توافق أو قد تناقض وربما تناهض السياسات والأهداف التي يطورها إداريو التنمية . كما أنه من بين المواصفات القادرة على الحركة والابتكار والمبادرة وذلك شرط أساسي لكسر الأطر الروتينية والتغلب على المعطيات المناهضة لمسيرة التنمية ولكن الحركة والمبادرة والابتكار تحتاج الى مناخ ملائم لاتبسره الأطر الروتينية وقد تناقضه أو تناهضه السلطة السياسية . وعلى إداري التنمية أن يتوفر لديهم مع القدرة على الحركة والمبادرة والابتكار القدرة على كسر الأطر الروتينية وتجاوز سمود المناخ غير الملائم لأحداث التغيير المطلوب في كافة الأبعاد وكل القطاعات بحيث يكون تغيير المناخ جزءاً من إحداث التغيير المطلوب .

كما أنه يجب أن يتوفر لدى إداري التنمية القدرة على مواجهة المواقف المتغيرة في وضع تتلاحق فيه المتغيرات والمستجدات على الساحة وذلك عنصر أساسي في أي استراتيجية لأحداث التغيير المطلوب . وبالطبع فإن إداري التنمية يجب أن تتوفر لديهم القدرة على إحداث التغيير وإن كان ذلك بالأمر العسير ذلك أنه لن يكون هناك مجال لاستثمار الأرباح الواسع والافتتاح اللذان والإرادة الجادة وكذلك الحركة والابتكار والمبادرة والقدرة على مواجهة المواقف المتغيرة دون إرادة وقادرة جادة في ذات الوقت على إحداث التغيير المطلوب . كما أنه يجب أن يكون لدى إداري التنمية القدرة على التطوير الإداري وذلك يأتي في سياق أحداث التغيير في كافة الأبعاد وكل القطاعات بما فيها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإدارية والثقافية . ومعروف أن إداري التنمية يجب أن تتوفر لديهم القدرة على اتخاذ القرارات الموضوعية من خلال نظم المعلومات المتطورة وكذلك من خلال تقييم المعطيات والمتغيرات والمستجدات على الساحة وأن يكون لديهم القدرة على تطبيق كل ذلك بكفاءة وفعالية تأخذ في الحسبان الاستخدام الأمثل لكل الموارد المتاحة ويجب أن يتبع ذلك تقييم ذاتي لمحصلة التوجه الذهني والافتتاح اللذان والإرادة الجادة والاستخدام الأمثل لكل الموارد المتاحة في سبيل تحقيق الأهداف المرجوة من التنمية الفعلية الشاملة .

إن من أهم خصائص إدارة التنمية ما يلي :<sup>(٥)</sup>

- القدرة على بلورة السياسات وتحديد الأهداف .

- القدرة على الحركة والابتكار والمبادرة .

- القدرة على مواجهة المواقف المتغيرة .

- القدرة على إحداث التغيير .

- القدرة على التطوير الإداري .

(٥) لسفة عبد الرحمن : البيروقراطية السليمة وبمسطة التنمية ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٢ ، ص ٢٧٤ .



- القدرة على اتخاذ القرارات العلمية والموضوعية .

- القدرة على التنفيذ بكفاءة وفعالية .

- القدرة على المتابعة والتقييم الذاتي .

وتتمثل توجهات ادارة التنمية فيها بـ :

- بناء القدرة الاقتصادية ( وغيرها ) الذاتية .

- تحقيق الرقي الحضاري .

- توفير الرفاه للاجيال القادمة .

أما مقومات ادارة التنمية فهي :

- ارادة تنموية .

- أهداف وسياسات محددة .

- قيادة سياسية واعية .

- قيادة ادارية ذات كفاءة .

- قوى بشرية مؤهلة ومدربة .

- دعم سياسي فعال .

- تفاعل مجتمعي حقيقي .

- قاعدة اقتصادية انتاجية .

ويتبين من ذلك أن ادارة التنمية تشمل خصائصها وتوجهاتها ومقوماتها كافة أبعاد التنمية. ولا تمثل التنمية الادارية أو التطوير الاداري الا بعدا واحدا من أبعاد ادارة التنمية فهي المسؤولة عن التنمية الفعلية تخطيطا وتطبيقا

بكل مقتضيات ذلك التخطيط والتطبيق ومتطلباته وأهدافه . ولهذا فإن إدارة التنمية هي التي تملك القدرة على بلورة تطلعات المجتمع من خطط وبرامج كما تملك القدرة على تنفيذها بكفاءة وفعالية وتتوفر لديها الأرادة التنموية والتصميم والمثابرة على مواجهة التحديات والارتقاء الى مستوى التعامل الكفهي مع المتغيرات والمستجدات وكذلك المعطيات والقدرة على تحريك المجتمع من منطلق مشاركته الفاعلة وتطوير أساليه البشري والمادي واستثماره الاستثمار الامثل الذي يحقق المستوى الحضاري المتطور ذاتيا في كل القطاعات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والادارية والثقافية .<sup>(٩)</sup>

#### (١) استيعاب التنمية وتحديداتها :

من المقترض باديء ذي بدء أن يكون لدى اداري التنمية استيعاب كامل وواضح للتنمية الفعلية الشاملة وكذلك تحديداتها . وبالمطبع فإن ذلك الاستيعاب يعني التوجه الذهني نحو أبعاد التنمية وتحديداتها ذلك التوجه المرتكز على اقتناع ذاتي محصلته ارادة جادة حتى يمكن لاداري التنمية أن يؤدوا الدور المنتظر منهم . ومثل ذلك التوجه الذهني يمكن أن تساهم فيه برامج تعليمية وتدريبية خاصة ولكن يجب أن يكون هناك الاستعداد والقدرة للانصهار في ذلك التوجه الذهني باعتبار التنمية الفعلية الشاملة هي الشغل الشاغل وهي التحدي المصري في ذات الوقت . ولا يفتقر الامر عند الاستعداد والقدرة على الانصهار في ذلك التوجه الذهني ولكن يجب أن تكون محصلته ارادة جادة ملتزمة وقادرة في نفس الوقت على الارتقاء الكفهي الى مستوى التعامل مع ذلك التحدي المصري .

#### (٢) القدرة على بلورة السياسات وتحديد الاهداف :

يفترض أن يكون من بين أهم مواصفات اداري التنمية القدرة على بلورة السياسات وتحديد الاهداف ذلك أن هذه السياسات تمثل للمبج الذي تنهجه التنمية في كافة المنطلقات ، كما أن تلك الاهداف هي الاهداف التي يجب أن تحشد لها الطاقات والامكانات المتاحة وهي تمثل أهداف التنمية الفعلية الشاملة . وبالمطبع فإن بلورة السياسات وتحديد الاهداف يعتمد على استثمار القدرة والرصيد المعرفي الواعي من منطلق الاستيعاب الشامل والمتكامل لمرامي التنمية وغاياتها وعطاياتها وتحديداتها . والقدرة على بلورة السياسات وتحديد الاهداف يجب أن يكون هناك رصيد منها ذاتي أصلا يضيف اليه الرصيد المعرفي الواعي من خلال البرامج الخاصة بتأهيل اداري التنمية .

#### (٣) القدرة على الحركة والمبادأة والابتكار :

ومن القدرات الاساسية التي يجب أن تتوفر في اداري التنمية القدرة على المبادأة والابتكار حتى يمكن كسر الاطر التقليدية في كافة القطاعات والارتقاء الى مستوى التعامل الكفهي مع المستجدات واحداث التغير والتطوير على

(٩) نفس المرجع ص ٢٨ - ٢٩ .

كافة الأصعدة . والقدرة على المبادرة والابتكار يجب أن تكون متوفرة مواصفاتها منذ البداية في الذين ينتظمون في البرامج التعليمية والتدريبية الخاصة بتأهيل إداريي التنمية ويكون لتلك البرامج دور في صفات تلك القدرة . وبالطبع فإنه يفترض توفر المناخ الملائم للمبادرة والابتكار وأن كان من المفروض أن يكون لدى إداريي التنمية القدرة على إحداث التغيير حتى في المناخ إن كان غير ملائم في إطار استراتيجية مدروسة تأخذ بالمعطيات والمستجدات في الحساب وتنفذ من خلال القدرة على المبادرة والابتكار من خلال أي منفذ لاجداث التغيير بما في ذلك تغيير المناخ .

#### (٤) القدرة على مواجهة المواقف المتغيرة :

إن الإدارة على صعيد الوطن العربي إجمالاً وكذلك دول العالم الثالث ينبغي أن تؤدي دورها المرجو وإن كانت الظروف الذاتية والمحيط صعبة وملينة بالمتناقضات والمستجدات . والقدرة على مواجهة المواقف المتغيرة تبدأ أولاً بالظروف الذاتية للإدارة ارتفاعاً بقدرة وإدائها حتى تكون بعد ذلك قادرة على مواجهة المستجدات المتلاحقة . ولعل المتناقضات والمستجدات المتلاحقة على صعيد الوطن العربي كبيرة ويجب على إداريي التنمية أن تكون لديهم القدرة للتعامل بمعدل سريع وكففي مع هذه المستجدات المتلاحقة .

#### (٥) القدرة على إحداث التغيير :

يجب أن تتوفر لإداريي التنمية القدرة على إحداث التغيير ذلك أنها جوهر عملية التنمية في كل بعد من أبعادها فالنمية تغيير إلى وضع حضاري متطور وإلى وضع حضاري أكثر تطوراً في سباق مع الزمن وهو تغيير لا يتوقف عند وضع معين . والتغيير يجب أن يكون تغييراً جذرياً وليس مجرد تغيير شكلي أو سطحي ذلك أن التنمية نقلة حضارية في نسق متلاحق من نقلة إلى أخرى ومثل تلك النقلة الحضارية لا يمكن أن تكون دون تغيير جذري في كافة الأبعاد وجميع القطاعات . ولهذا فإن القدرة على إحداث التغيير قد تكون أكثر القدرات أهمية لأن استيعاب مفهوم التنمية بكافة أبعادها وكذلك التحديات التي تواجهها التنمية والاقتناع الذاتي والتوجه الذهني التنموي وإن كانت محصلته أروادة جادة لا يحقق الأهداف المرجوة ما لم تكن هناك القدرة على تحويل الإرادة الجادة إلى إدارة جادة قادرة على إحداث التغيير من مطلق استيعابها الواعي واقتناعها الذاتي وتوجيهها الذهني التنموي .

#### (٦) القدرة على التطوير الإداري :

يفترض أن يكون لدى إداريي التنمية القدرة على التطوير الإداري ارتفاعاً بأداء الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة من خلال إحداث التغيير الجذري في هيكلها وطرائقها وتوجهها وأنماط السلوك الإداري السائدة ، لأن كل ذلك يمثل القاعدة التي تحمل إداريي التنمية أكثر قدرة على إحداث التغيير المطلوب في كافة الأصعدة وجميع القطاعات من خلال دورهم الريادي في الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة .

### (٧) القدرة على اتخاذ القرارات الموضوعية :

تتقدم الاعتبارات غير الموضوعية في كثير من الأحيان على الاعتبارات الموضوعية في عملية اتخاذ القرار في ظل ظروف وقيم مجتمعية ضاغطة ومحيط يتدخل القرار السياسي فيه الى حد كبير . ولذلك فان دور اداري التنمية صعب ولكن من منطلق قدرتهم الذاتية وما يضيفه الرصيد المعرفي الواسع لديها يفترض أن يكون بإمكانهم اتخاذ القرارات الموضوعية دون تأثير للظروف والقيم المجتمعية الضاغطة كما أن عليهم أن يلتزموا باتخاذ القرارات الموضوعية من منطلق التأثير على وجهة القرار السياسي وإن كانت هذه المهمة شائكة .

### (٨) القدرة على التنفيذ بكفاءة وفعالية :

ان بلورة السياسات وتحديد الأهداف بمتبران المنهج الذي يجب أن يجد طريقه للتطبيق . وبالطبع فان اداري التنمية يفترض أن تكون لديهم القدرة من خلال دورهم في بلورة السياسات وتحديد الأهداف في ترجمة ذلك تطبيقاً من خلال حشد كل الطاقات والامكانيات المتاحة والارتقاء بأدائها لتحقيق الأهداف المحددة بأقل التكاليف ومستوى مرتفع من كفاءة الاداء . ومعروف أن ذلك يقتضي من اداري التنمية استقطاب الطاقات البشرية نحو الاستيعاب الواسع للتنمية وإبعادها وتحدياتها والارتقاء بأدائها . ومن نافلة القول التأكيد على أن اداري التنمية يجب أن تكون لديهم القدرة القيادية .

### (٩) القدرة على المثابرة والتقييم الذاتي :

يجب أن يكون لدى اداري التنمية القدرة على تقييم الاداء تنظيمياً ووظيفياً ولا يوجد غالباً في الأجهزة والمؤسسات العامة على صعيد الوطن العربي تقييم للاداء مع ماله من أهمية قصوى للتعرف على مستوى الاداء وعصرته ومدى تحقيق الأهداف المحددة ومدى حسن الاستفادة من الموارد المتاحة بكفاءة وفعالية . والمثابرة والتقييم الذاتي مكملاً لمسيرة التنمية ونهجها ابتداء من بلورة السياسات وتحديد الأهداف مروراً بالتطبيق الكففي والفعال وتقييم عصلة ذلك التطبيق ومستواه .

### تأهيل اداري التنمية :

ان عدد الجامعات على صعيد الوطن العربي اجمالاً كبير نسبياً فقد زاد عددها على السبعين في منتصف الثمانينات . وفي كل هذه الجامعات أو معظمها كليات للادارة أو العلوم الادارية أو التجارة بتخصصات في الادارة وتخرج منها رصيد كمي كبير نسبياً ولكن هذا الرصيد الكمي من خلال الأطر التقليدية التقليدية لم يكن له دور يذكر

أو ليس بالدور المرجو للارتقاء بمستوى الأداء الإداري . ولا يحتاج ذلك الى تدليل فالأداء الإداري ، على صعيد الوطن العربي اجمالاً متدن ومزال التخلف الإداري ، وهو واحد من أبعاد التخلف بصفة غالبة . وينطبق ذلك الى حد كبير على معاهد الإدارة في معظم أرجاء الوطن العربي التي تتوجه بمخرجاتها رغم تعاطفها الى برامج تقليدية غالباً ولذلك فلم يكن لهم دور ملموس في احداث التغيير المطلوب حتى في البنية الادارية أو السلوك الاداري أو المناخ الاداري . ويشير نيل شعث الى أن مجتمع الإدارة العربية يتوقع أن يزداد بنحو نصف مليون مدير عام ٢٠٠٠ فضلاً عن نحو ٢٥٠,٠٠٠ مدير من المستوى الاشرافي الأول ومدى عجز المعاهد والجامعات المتخصصة عن توفير الجانب الرئيسي منهم وفقاً لنوعية واعداد الخريجين المتوقعة<sup>(١٠)</sup> .

وإذا كانت الجامعات ، وربما عبر عقود طويلة ، لم تأخذ بزمام المبادرة في إحداث التغيير النوعي المطلوب في برامجها ومناهجها وطرائقها وتوجهها وأهدافها إذ ظلت مخرجاتها رصيدا كسبا متعاطفا وعاجزا في ذات الوقت عن أداء الدور المرجو منه بل هو غير مستوعب لذلك الدور وغير مهيا أو مؤهل له لكي يحدث التغيير المطلوب ابتداء بالبنية الادارية وهيكلها وطرائقها وأنماط السلوك الاداري السائدة في محاولة الارتقاء بأداء الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة التي يلتحقون بالوظيفة العامة فيها ، اذا كان الأمر كذلك فان تأهيل اداري التنمية يفرض أن يتم من خلال بضعة معاهد على صعيد الوطن العربي يكون هناك منذ البداية استراتيجية مدروسة لانشائها وهيكلها وطرائقها ونوعية برامجها ومناهجها وكذلك توجهها وأهدافها وحسن انتقاء لادارتها والمسؤولين عن تطبيق مناهجها وبرامجها وكذلك حسن انتقاء للذين يلتحقون بها .

والوطن العربي يحتاج الى مائة ألف تقريبا من اداري التنمية وليس ذلك بالعدد الكبير مقارنة بالرصيد الكمي المتعاطف من خريجي الجامعات ومعاهد الإدارة . ويمكن أن تكون هناك ضمن معاهد موزعة جغرافيا على صعيد الوطن العربي ويكون هناك تنسيق مستمر بين هذه المعاهد وملاحقة مستمرة مواكبة للتطور المتلاحق في الرصيد المعرفي وفي الطرائق المثلئ لبلورة السياسات وتحديد الأهداف واتخاذ القرارات الموضوعية في ضوء نظم المعلومات المتطورة وكذلك متابعة مستمرة للمتغيرات والمستجدات على الساحة وكيفية الارتقاء الكفني للتعامل مع تلك المتغيرات والمستجدات . ومن نافذة القول التأكيد على أنه يجب أن تكون هناك متابعة مستمرة للبرامج والمناهج وتحديثها وتطويرها باستمرار .

ان قطعاً حربيا كمصر من بين أسبق الأنظار العربية الى التخطيط والتعليم وغيرها ما زالت بعد عقود طويلة وكأنها لم تمارس التخطيط وما زالت محصلة التعليم كماً كبيراً دون مردود ملموس . ولا تختلف باقي الأنظار العربية عن مصر رغم أن بعضها ليس لديه خطط للتنمية حتى في الوقت الراهن لحداثة عهده بهذا المفهوم وعهده بالتعليم حديث نسبياً . وهو على بلد فان مصر رفعت شعار التخطيط منذ عقود ولكن سجل الخطط فيها ، كما هو الحال في دول

(١٠) عدنان قاسم : مؤثر تطوير القوى البشرية العربية في مواجهة تحديات العصر ، للنقل العربي ، يناير ١٩٧٩ ص ١٦٦ .

العالم الثالث اجمالا ، حافل بالفشل أكثر عما هو حافل بالنجاح . بل ان مصر التي رفعت شعار التخطيط منذ عقود آلت الى وضع أكثر تعقيدا وأكثر انكشافا وتبعية وازدادت وطأة الديون الخارجية عليها وهي في مثل هذا الوضع لا تملك الارادة ولا الادارة الفاضلتين على التعامل الكفهي مع تحدياته .

وليس ثمة شك في أنه لم يكن بمقدور الرصيد المتعاظم من غريحي الادارة من خلال القنوات التقليدية التلقينية أن يؤدي دور اداري التنمية بدءا بالتخطيط وبلورة الاستراتيجيات الهادفة الى احداث التغير المطلوب للارتقاء بالاداء في الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة وكذلك حسن استثمار الموارد المتاحة الى أقصى حد ممكن . ويتعاطم ذلك الرصيد من غريحي الادارة ولا يكاد يكون له دور ملموس في احداث تغير يذكر إذا ظلت البرامج في الجامعات ومعاهد التدريب في أسر الأطر التقليدية ولم تكسر تلك الأطر في محاولة جادة للانطلاق الى تغير جذري في تلك البرامج من منطلق ما تقتضيه عملية التنمية الفعلية ودور تلك البرامج في تأهيل اداري التنمية المنتظر منهم أن يؤدوا دورا رياديا في احداث التغير المطلوب على كافة الأصعدة وكل المجالات . وبالطبع فان مثل ذلك التغير يفترض ألا ينطلق من فراغ وإنما من استراتيجية مدروسة وقادرة على وضع تلك الاستراتيجية وتطبيقها .

ان التعليم في اليابان على سبيل المثال ساهم في خلق وتشكيل طبقة متوسطة ومتعلمة اضطلعت بعملية التحديث وفتاعت معها ودفعت بها الى آفاق بعيدة . ويعترف اليابانيون بأهمية الثروة التعليمية والتربوية كركيزة أساسية في عملية التحديث<sup>(١١)</sup> . ومعروف أن اليابان تمكنت من خلال برامجها التعليمية من تكوين كوادر اداري التنمية الذين ساهموا في الارتقاء بأداء الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة وشركات القطاع الخاص في نسق لا يبعد التنمية المتعددة اقتصاديا واجتماعيا واداريا وتكنولوجيا . وبالطبع فان ما جعل مهمة اداري التنمية أقل صعوبة انتشار التعليم على نطاق واسع بحيث كوّن وعيا مجتمعيًا ، وكذلك التقارب والتعاون في المرحلة التأسيسية الأولى بصفة خاصة بين المسؤولين عن التنمية والسلطة السياسية . وإذا كان دور اداري التنمية على صعيد الوطن العربي أكثر صعوبة فانه من المنتظر منهم في اطار استراتيجية متبلورة احداث التغير في قطاع التعليم وغيره من القطاعات واستئراج السلطة السياسية لتبني ارادة التغير ومساندة ادارة التغير وهذه قضية الفضايا بالنسبة للتنمية الفعلية الشاملة على صعيد الوطن العربي .

ان تأهيل اداري التنمية يجب أن يكون تأهيلا نوعيا يتجاوز مخرجات الأطر التقليدية من خلال برامج ومناهج وطرائق ووسائل متقنة ومتطورة . ولقد سبق الإشارة الى أن مخرجات الأطر التقليدية المتشكلة في الرصيد الكمي الكبير نسبيا من غريحي كليات وبرامج الادارة في الجامعات وكذلك معاهد الادارة تكاد تقف عند كونها رصيدا كميًا متعاطليا غير قادر على أداء الدور المرجو من اداري التنمية في احداث التغير الجذري المطلوب ابتداء بالأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة التي يفترض أنها تضطلع بالدور الكبير في عملية التنمية ويمتد دورها على كافة الأصعدة

(١١) جلس مبدئي : العرب وحرية التعليم اليابانية ، للنجل العربي . يناير ١٩٨٩ ، ص ٣٤ .

وفي كل القطاعات . ان هذا الرصيد الكمي المتعاظم يلتحق بالوظيفة العامة التي تكاد تكون مطمحة وهو غير مهيأ ولا مؤهل لاداء الدور المرجو ولذلك فان البيروقراطية تستوعبه بأغماطها السائلة للنهضة وللناقضة لعملية التنمية الفعلية وهو قابل لهذا الاستيعاب . وتأهيل اداري التنمية يكون من خلال برامج تعليمية وتدريبية . وبالطبع فمن المفروض أن يكون هناك حسن اختيار للذين يتنظمون في هذه البرامج وكذلك حسن اختيار لادارتها والمسؤولين عن تطبيقها اذ يجب أن تتوفر لأولئك استعدادات معينة يضيف اليها الرصيد المعرفي النوعي وبصقلها . ويجب أن يكون لدى هؤلاء الرصيد المعرفي النوعي تعليميا وتدريبيا وتكون لديهم القدرة على إلهال ذلك الرصيد من خلال وسائل وطرائق منتقاة ومتطورة .

ان عدد مخريجي الجامعات العربية يزداد مع استمرار الانقسام بين التخصصات والمقررات وبين متطلبات التنمية<sup>(١٢)</sup> . والجامعات العربية تكاد تكون أطرا بيروقراطية لا يختلف النمط السائد فيها عن النمط السائدة في الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة . ويعد مرور عقود طويلة نسبيا بالنسبة لكثير من هذه الجامعات فأنها لم تشهد تغيرا ملموسا يكسر أطرها التقليدية كما يكسر أطرها التعليمية التقنية بحيث تكون مهضبة خرجاتها رسيدا نوعيا لا كمي من خلال برامج نوعية وكذلك من خلال طرائق ووسائل متطورة ومناخ ملائم يتيح الفرصة لاكتساب المعرفة موضوعيا وكذلك لاكتساب الوعي المعرفي والانطلاق منه الى الابداع والابتكار الذي يضيف الى ذلك الوعي المعرفي المتواصل من خلال استشارته والاضافة المتلاحقة له في مواصلة معرفية لا تقف حتى عند هذه النقطة مع أهميتها القصوى ولكنها تتجاوزها الى امكانية استشار ذلك الوعي المعرفي المتواصل تطبيقا لاحداث التغيير الجليري المطلوب .

والبرامج الخاصة بتأهيل اداري التنمية يفترض أن تركز على كل إبعاد التنمية انطلاقا من الواقع ومعطياته ومستجداته والتحديات التي تواجهها التنمية وكيفية الارتقاء الى مستوى التعامل الكفي مع كل التحديات وكذلك كيفية التغلب على العقبات والصعاب وكيفية احداث التغيير المطلوب على كافة الأصعدة وكل القطاعات . ويجب أن يكون إعداد هذه البرامج مدروسا بحيث تكون مقرراتها متسقة ومتكاملة وذات نسيج تعليمي يدهمه رصيد معرفي نوعي يرسخ الوعي المعرفي المتواصل كما يرسخ الاهتمام الجاد باستشار ذلك الوعي المعرفي المتواصل ممارسة وتطبيقا من منطلق عملي محوره إحداث التغيير المطلوب وفق ما تقتضيه التنمية الفعلية الشاملة .

ان تأهيل اداري التنمية يمكن أن يتم كما سبقت الإشارة اليه من خلال انشاء بضعة معاهد يكون التخطيط لانشائها وبرامجها وطرقها وادارتها وتوجيهها وأهدافها تخطيطا نوعيا . وهذه المعاهد تختلف اختلافا كبيرا من نمط معاهد الإدارة ومدارسها على صعيد الوطن العربي اذ لا جدوى من وراء معاهد ادارة التنمية ان كانت لا تختلف عن معاهد ومدارس الإدارة القائمة حاليا . ومعاهد ادارة التنمية يجب أن يكون انشاؤها منذ البداية خارج اطار النمط التقليدي وأن يكون هناك حسن اختيار للقائمين على ادارتها وكذلك حسن اعداد للبرامج بالاضافة الى الانتقاء النوعي

(١٢) حاتم لاسم ، مرجع سابق ، ص ١٩٦ .

للمسؤولين عن تطبيق البرامج وكذلك الذين ينتظمون في هذه البرامج . وفي كل الأحوال فإن هذه المعاهد يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن المداخلات البيروقراطية وأن تتمتع باستقلالية تامة . وهذه كلها شروط أساسية لنجاح هذه المعاهد في تأهيل اداريي التنمية تأهيلا نوعيا جيدا .

ان هذه المعاهد يجب أن تكون منذ البداية خارج إطار النمط التقليدي ، وأن تتمتع باستقلالية تامة تمكنها من حرية الحركة والمرونة والمبادرة والابتكار في مناخ ملائم بعيدا عن القنوات التقليدية للتلقين ، ويجب ان تكون قضية التنمية الفعلية الشاملة هي الغاسم المشترك بينها ابتداء من النمط المتطور تخطيطا وإدارة وإعدادا للبرامج وتطبيقا لها . ويجب أن يكون الاستيعاب الواسع لهذه القضية محور اهتمام المسؤولين عن الادارة والمسؤولين عن تطبيق البرامج ، بالإضافة الى الذين ينتظمون في هذه البرامج وهم المحصلة المرجوة من وراء كل ذلك حتى يكون في الامكان تكوين رصيد نوعي من المستوعبين بقضية التنمية الفعلية الشاملة استيعابا واعيا مدركين كل الادراك أبعادها وتحدياتها وأهدافها ، وبذلك مالكون لخاصية الوسائل الادارية الكفيلة بالتعامل الكفئ مع تلك الأبعاد والعقبات والتحديات والاهداف وقادرين على احداث التغيير المطلوب في الاجهزة والمؤسسات والشركات التي يتسمنون فيها الوظائف القيادية وكذلك الوظائف الاستراتيجية والحاكمة بحيث يستطيعون كسر الاطر التقليدية البيروقراطية والارتقاء بمستوى الاداء والكفاءة والانتاجية والعطاء والاستفادة القصوى من الطاقات البشرية والامكانيات وكذلك التعامل الكفئ مع المناخ الداخلي في هذه الاجهزة والمؤسسات والشركات والمناخ الخارجي المحيط بها ايضا . وليس معنى التعامل الكفئ مع المناخ الداخلي والخارجي هو قبول أوضاعه وأوضاعه ، ولكن احداث التغيير المطلوب ادارة وإرادة وأداء يمكن بها إزالة تلك الأوزار والأوضاع والانطلاق بهذه الاجهزة والمؤسسات والشركات انطلاقا جادة في المسار التنموي الفعلي .

والقدرة على احداث التغيير تقتضي امتلاك القدرة على المبادرة والابتكار والابداع وكذلك القدرة على وضع استراتيجية التغيير وتطبيقها ومتابعة التطبيق وتحقيق الاهداف المرجوة من التغيير . وهذه القدرات لا غنى عنها وهي من أهم مواصفات إداريي التنمية ولذلك فإن حسن انتقاء من ينتظمون في البرامج شرط أساسي من بين شروط عدة ويجب أن يراعى حسن الانتقاء توفر مثل هذه المواصفات منذ البداية .

#### الدور المحوري لأداريي التنمية : احداث التغيير :

ليس إحداث التغيير المطلوب عملية يسيرة وليس مستحيلا في ذات الوقت ولكنه عملية صعبة في كل الأحوال . ومن المعروف أن البيروقراطية تناهض التغيير بطبيعتها وان رفعت بين وقت وآخر شعار الإصلاح الاداري وهي ليست جادة في تطبيقه . ولو أحصينا هيئات ومجالس ولجان الإصلاح الاداري على صعيد الوطن العربي لوجدناها متمدة وبعضها مغنى عليه زمن طويل نسبيا ومع ذلك فإن محصلة دعاوى الإصلاح الاداري كان أكثرها



زيدا ذهب جفاء وكانت كلها قاصرة عن تحقيق الاصلاح الاداري الفعلي اذ أن مثل هذا الاصلاح يقضي التغيير الجذري في هياكل وإدارة وطرائق وتوجهات وأهداف الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة ، كما يقتضي تغييرا جذريا في المفاهيم والقيم والمخاط السلوك البيروقراطي السائدة وتأهليا نوعيا وتدريبيا نوعيا كذلك الافراد على كافة المستويات .

ان محاولات الاصلاح الاداري على صعيد الوطن العربي وقفت تقريبا عند حد تبسيط الاجراءات في بعض الأجهزة الحكومية أو إعادة تنظيمها هيكليا أو تغيير محدود في اللوائح والأنظمة واقتباس يكاد يقف عند حدود الشكلية لبعض المفاهيم الادارية المطبقة في بعض الدول المتقدمة . ولذلك ظلت الأجهزة الحكومية وسحق للمؤسسات العامة في أسر الاطر البيروقراطية التقليدية بكل أوزارها وأوضاعها . وبالطبع فما كان هناك ارتقاء في مستوى الاداء والانتاجية وما كان هناك تغيير جذري في إدارة وطرائق وهياكل وتوجهات وأهداف الأجهزة الحكومية والمؤسسات العامة في نسق يتسجم مع طبيعة الدور الكبير الملوكل لهذه الأجهزة والمؤسسات في إدارة التنمية .<sup>(١٣)</sup>

ويرى مدير معهد الإدارة العامة في الأردن أن المدير العربي ضعيف ومستهدف في مواجهة التحديات وإن الإدارة في كثير من الأحيان تابع وليست دافعا لاجداث التغيير . ويشير محمد الغرنلى إلى أن المدير العربي يتحمل جل أوزار الوضع الراهن فالخديث عن تحديات مستقبلية هو نوع من الهروب أمام التحديات الآتية فضلا عما يعطيه من انطباع وكان المدير العربي أنجز ما هو أمامه من تحديات وأتم متطلبات التنمية قطريا وهربيا في حين أن العكس هو الصحيح إذ أنه اساء أو لم يحقق الصورة المناسبة لاستغلال الموارد . لقد أهدرت الثروة النفطية واستخدمت عوائلها في تنمية بلاد أخرى بأوروبا وأمريكا وغابت خطط التنمية ، وبخاصة في الاقطار الغنية ، وعومل التدريب معاملة الترف فهو ضروري عندما تتاح الاموال وهو حل العكس من ذلك أن شححت الاموال<sup>(١٤)</sup> . ومن الانصاف الاشارة إلى أن عثرات التنمية تعود أصلا ويأدى ذي بدء الى عدم وجود الارادة السياسية الجادة من منطلق واضح وتبين ملتزم لاستراتيجيات مدروسة ذات أهداف محددة ، ذلك أن القرار السياسي هو المهيم على الساحة . والمؤسسات التعليمية من صنع السلطة السياسية وتخضع لهيمنتها المباشرة . وفي ظل عدم وجود الارادة الجادة والتي للملتزم لمقتضيات التنمية وكما نراها وأهدافها فإن خرجت تلك المؤسسات التعليمية ليست مهيأة لاداء الدور المرجو من ادارى التنمية في احداث التغيير المطلوب في اطار بلورة استراتيجية هادفة تتسق في تكامل أبعاد التنمية الفعلية الشاملة .

ويشير مدير عام معهد الإدارة العامة في الأردن في سياق استطراده أن الإدارة تابع وليست دافعا لاجداث التغيير في ظل هيمنة القرار السياسي إلى أنه وإذا كانت السياسة في النظم المتطورة هي القيام على الجماعة بما يصلحها

(١٣) عدنان لاسم ، مرجع سابق ، ص ١٦٧ .

(١٤) عدنان لاسم ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

وذلك ضمن مجموعة من النظم والمقائد والمركزات فلها - على صعيد الوطن العربي - أفراد ومصالح وجماعات خالية المحتوى ويصعب فيها التأسيس الشخصي على الذهني .<sup>(١٦)</sup> وأنه نتيجة لذلك وفي ضوء المؤثرات البيئية وال خارجية كان النتائج قيادات تم استقطابها دون إعداد منظم أو تقييم مقنن لا تغنى تدور حتى تصبح جزءا من العجلة وتكرس جهودها في الدفاع عن مصالحها الشخصية<sup>(١٧)</sup> .

ويرى نبيل شعث أن رجال الادارة يمكنهم أن يعلموا دورهم بذكاء لاستدراج السياسيين لتحقيق الكفاءة والانتاجية والمعادلة وسائر الاهداف الاخرى بما يتطلبه هذا الاستدراج من اتباع أساليب مبتكرة غير تقليدية<sup>(١٨)</sup> . ويتفق كثيرون مع مذهب اليه مدير عام معهد الادارة في الاردن مؤكدا دور العامل السياسي أو أن السلطة السياسية يجب أن يقتصر دورها على القيادة لا السيطرة التي تتدخل في كل صغيرة وكبيرة<sup>(١٩)</sup> .

ان مهمة ادارى التنمية في ظل الواقع الذي يهيمن فيه القرار تكاد تكون مستحيلة طالما ان القرار السياسي هو المهيمن وليس لديه التصور الواضح وطالما ليس هناك الاستيعاب الواحي لمفهوم التنمية الفعلية الشاملة والادراك الواضح لابعادها ومحدداتها وتبني النهج التنموي من منطلق ارادة جادة ومساندة ملتزمة . وبالطبع فان تأهيل ادارى التنمية ربما يتعذر لان القرار السياسي يتدخل في كثير من الاحيان حتى في انشاء الجمعيات الاهلية والمهنية كالاتحادية . ومثل ذلك يجعل الحديث عن تأهيل ادارى التنمية ودور ادارى التنمية تنظيرا بيننا الطريق العملي لتطبيق ذلك طريق مسدود . وينطبق ذلك على التنمية اجمالا اذ تبقى الامنية مطروحة تنظيرا بيننا التطبيق العملي لمقتضيات التنمية ومركزاتها يبلو طريقا مسدودا أيضا .

ولهذا فان هذه العنصرة في الوقت الذي تستعرض فيه الواقع تتطلع الى الامنية والا لما كان هناك جدوى من التطرق لادارى التنمية وكيفية تأهيلهم والدور المرجو منهم ، كما أنه ليس هناك جدوى من أية دراسة للتنمية لو كان استعراض الواقع يهيمته القرار السياسي عليه وعدم وجود الاستيعاب الواحي للتنمية والادراك الواضح لابعادها والارادة الجادة والمساندة للالتزمة يقضي ذلك كله بالنسبة للتطبيق العملي الى طريق مسدود ، فلعل وعسى أن تخفف هيمنة القرار السياسي أو أن يفرغ من حول مجتمعي أو ضغوط مجتمعية ذلك في بلورة لارادتها اعتيادا على منطق الحركة التاريخية وإن استغرق ذلك أمدا .

(١٦) عاتق لقس ، نفس المرجع ، ص ١٧٠ .

(١٧) عاتق لقس ، نفس المرجع ، ص ١٧٠ .

(١٨) عاتق لقس ، مرجع سابق ، ص ١٧١ .

(١٩) عاتق لقس ، نفس المرجع ، ص ١٨٩ .

خاتمة :

ان تأهيل ادارى التنمية على صعيد الوطن العربي ليس بالامر العسير متى مقترنت الارادة السياسية الجادة والمساندة الملزمة او على الاقل متى ما اتاحت السلطة السياسية الفرصة لتحرك القيادات الادارية المستوعبة للتنمية استيعابا واعيا والمدركة كل الادراك لابعادها وعقباتها وتحدياتها في ايكال المهمة الى نخبة من ذوي الرصيد المعرفي الواسع في مجالات التنمية لبلورة فكرة تأهيل ادارى التنمية . ويوجد في الوطن العربي رصيد غير ضئيل من أولئك القادرين على صياغة استراتيجية تأهيل ادارى التنمية واعداد مناهجها وبرامجها والقدرة على الادارة الكفئة ، وعلى تطبيق تلك المناهج والبرامج تطبيقا نكيا أيضا . وليس ثمة شك ان هيمنة القرار السياسي قد تكون عائقا الا انه يفترض أن يكون في امكان بعض القيادات الادارية الواعية من منطلق اقتناعها بأهمية ادارى التنمية وكذلك أهمية دور ادارى التنمية اقتناع السلطة باعتبار أن هذه الخطوة الرائدة لها مردودها الكبير على مسار التنمية وأهدافها وان التنمية في الوقت الذي تمثل فيه رقيا حضاريا متواصلا فانها تمثل تحديا فيه ارادة على ساحة التاريخ ليس للكيان الضعيف اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا أو اداريا أو ثقافيا . ولذلك فان التخلف بكل أبعاده وبأي منها ليس في صالح الانظمة السياسية كما أنه ليس في صالح الامن القطري والقومي . .

والوطن العربي يقع في إطار أطباع استعمارية صهيونية يخطط لها لتحطيطا مدروسا في وقت تتناهب فيه هذا الوطن العربي التجزئة والانقسام وتكاد تكون التنمية شعارا مفرغا من المحتوى اذ أنه في ظل هذا الشعار يزداد الانكشاف ويزداد التبعية وتتهدد الامن القطري والامن القومي الاطباع وليس هناك كيان قوي اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا واداريا وثقافيا وتكنولوجيا وعسكريا بمعنى أنه ليست هناك تنمية فعلية شاملة . ولهذا فان القرار السياسي يجب أن يستوعب كل ذلك لان الواقع الراهن ليس في صالحه ولا في صالح المصلحة القطرية والقومية .

وتأهيل ادارى التنمية اختصار للوقت والجهد من خلال ريادة ادارية لديها القدرة على بلورة السياسات والاستراتيجيات في إطار نهج تنموي يحد طريقه للتطبيق من خلال الاستفادة المثل من الموارد المتاحة والارتقاء بالاداء وصولا للاهداف المرجوة للتنمية الفعلية الشاملة وهي تمثل مدخلا ميسورا يجعل في الامكان احداث التغيير الذي تقتضيه التنمية الفعلية الشاملة في كافة أبعادها وعلى جميع الاصعدة .



## المراجع :

- (١) إبراهيم سعد الدين (وأخرون) التنمية العربية : مشروع استثمار مستقبل الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧ .
- (٢) أحمد فؤاد شهاب : أساليب تنمية المشتريات الدولية من موارد القوة العاملة . القاهرة ، المعهد القومي للدراسات العليا ، ١٩٦٣ .
- (٣) أسامة حيدر زهران : التجريبية التطبيقية ومعضلة التنمية ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ .
- (٤) أمين عز الدين : السياسات الاقتصادية في الدول العربية التي تعاني قصوراً في القوى العاملة ، مجلة العمل العربية ، العدد ٩ يوليو ١٩٧٩ .
- (٥) جاسم السنكون : دور القطاع الخاص في التنمية ، ورقة مقدمة إلى ندوة تحويل المؤسسات العامة إلى القطاع الخاص ، الدار البيضاء ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٨٨ .
- (٦) جاسم عبدالقادر : العرب وحرية التصديت اليابانية ، المستقبل العربي يناير ١٩٨٩ .
- (٧) جليل المريش : حول الجامعات في البلاد العربية ، ورقة غير مطبوعة .
- (٨) جمال البنا : والتنمية وشفافها ، مجلة العمل العربية ، نوفمبر ١٩٧٥ .
- (٩) عازم الحسام : العلاقة بين التسليم والتنمية في البلدان العربية في الثمانينات - ورقة مقدمة إلى لندوة العربي للتخطيط بالكويت ، الحلقة الثالثة ٣ ، ١٩٧٩ / ١٩٨٠ .
- (١٠) سامي خضرة : التخطيط التبريري والتنمية ، مجلة المشرق الاجتماعية ، الكويت أبريل ١٩٧٩ .
- (١١) عادل حسين (وأخرون) - دمج فهم أفضل للتنمية باعتبارها عملية حداثوية التنمية العربية الواقع والمستقبل . مركز دراسات الوحدة العربية . نوفمبر ١٩٨١ .
- (١٢) عادل لسم . مؤثر تطوير التفكير البشري في مواجهة تحديات العصر ، المستقبل العربي ، يناير ١٩٨٩ .
- (١٣) عامر الكبيسي ، واقع الإدارة العامة في الوطن العربي وأثره على نظم الترقية والتسليم فيها ، للمجلة العربية للإدارة العدد ٣ أكتوبر ١٩٨٠ .
- (١٤) عبد العزيز الجلال : تربية اليسر وكلفة التنمية ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٥ .
- (١٥) عبدالحق عبد السلام . الترقية وتنمية الموارد البشرية ، ورقة مقدمة إلى ندوة تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي ، الكويت ٢٨ - ٢٩ نوفمبر ١٩٨٧ .
- (١٦) جل الكواري : نمو استراتيجي بديلة للتنمية الشاملة . مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٥ .
- (١٧) كحلل لله علي فضل الله : إدارة التنمية ، الأبحاث العربية للصحة . صوت الخليج ١٩٨١ .
- (١٨) محمد صادق : التنمية في الأقطار النامية للخط في الجزيرة العربية بين حركات لفظ وأدلة التنمية . ورقة مقدمة إلى ندوة التنمية . ديسمبر ٢٤ - ٣١ ديسمبر ١٩٨٠ .
- (١٩) محمد عبدالقادر : نظريته وعناصر مستقلة . المستقبل العربي . نوفمبر ١٩٨٨ .
- (٢٠) ناصر جرجاني (وأخرون) التنمية لمنطقة في الوطن العربي ، بحوث ودراسات الوحدة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٧ .
- (٢١) يوسف صايغ : استراتيجيات التنمية في العالم العربي . دراسات عربية . العدد ٧ مايو ١٩٨٠ .

### مدخل

التنمية الادارية ، والاصلاح الادارى ، وتطوير الادارة كانت ومازالت تعتبر مدخلا ضروريا لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة تنتشل أقطار الوطن العربى من حالة التخلف التى أورثها إياها الاستعمار وتسربها قديما في طريق بناء مجتمع عربى متقدم قادر على الوفاء بالاحتياجات المادية والروحية المتنامية للشعوب العربية وعلى تحقيق الأمن الوطنى والقومى العربى . ويشار كثيرا الى ان اصلاح قطاعات الادارة الراهنة وتنميتها يعتبر أحد الأهداف الاستراتيجية الأكثر إلحاحا ضمن أى استراتيجية عامة للتنمية لما للدائرة من تأثيرات حاسمة على مسيرة التنمية ونوعيتها<sup>(١)</sup> .

وقد بذلت عمليات الاصلاح الادارى أو التطوير أو التنمية الادارية في الوطن العربى منذ فترة طويلة ، وظلت تعتبر من السمات الأثرية في أقطار الوطن العربى المختلفة منذ مطلع الخمسينات . وقد اهتمت أغلب الأقطار العربية بعد حصولها على الاستقلال السياسى بإقامة مؤسسات وأجهزة للتنمية الادارية لتساعد في تدريب وتأهيل الطاقة البشرية المحلية اللازمة للأجهزة الادارية المختلفة في الدولة ومؤسساتها وفي المؤسسات العامة والخاصة أيضا . وقد حدثت طفرة كبيرة في نشاط هذه المؤسسات خلال الستينيات والسبعينيات والثمانينيات وزاد نشاطها زيادة كبيرة في مجالات التدريب والبحوث وتقديم الاستشارات . إلا ان النتائج بقيت رغم ذلك دون الطموحات<sup>(٢)</sup> ، وبقيت

## مستقبل التنمية الادارية في الوطن العربي

ابراهيم سمعان

(١) دكتور على خليفة الكواري ، نمو استراتيجي بديلة للتنمية المتداولة - للتأهيل العامة لاستراتيجية التنمية في إطار اتحاد أقطار مجلس التعاون وتكاملها مع خطة الإنعاش العربى . . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ص ٦٠ .

(٢) دكتور حسن البشر القطيعة ، الاصلاح الادارى في الوطن العربى بين الأمثلة والممارسة ، الفصل الثالث من الباب الثالث من كتاب الادارة العامة والاصلاح الادارى في الوطن العربى تحرير الدكتور ناصر الصالح المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٨٦ ص ٨١٦ .

خرجت عمليات الإصلاح أقل بما لا يقاس بحجم الجهود والمداخلات التي بذلت في هذا المجال . وقد استمر القصور الإداري عقبة أساسية تعيق نجاح جهود التنمية . ويتشتر القول بين المتخصصين أو حتى بين العامة بأن « مشكلتنا هي مشكلة إدارة » .

ويزداد الإحساس بالقصور الإداري نتيجة لادراك عظم التحديات التي يواجهها المجتمع العربي في هذه المرحلة الحاسمة من حياته ، ومقدار الهدر للامكانيات الذي تحقق خلال السنوات الخمس عشرة الماضية التي أعقبت استرداد العرب للسيطرة على نفطهم وقدرتهم على تحديد إنتاجه وإسماره بالمشاركة مع دول الأوك الأخرى .

لقد أتبع للعرب إذ ذاك فرصة نادرة لأحداث دفعة حقيقية لمجتمعهم في طريق التقدم والاستقلال والخلاص من التبعية ، وتوفرت لهم امكانية تمويل التنمية المنشودة دون صعوبات كبيرة . ولكن قدراً هاماً من هذه الأموال وجد طريقه الى بنوك وخزائن الدول المتقدمة أو مول طفرة استهلاكية غير مسبوقة ، دون أن تحدث تنمية قابلة للاستمرار والاستقرار . ورغم عظم حجم الاستثمارات التي تمت في الدول العربية خلال فترة الغفرة الاقتصادية التي أعقبت ارتفاع أسعار النفط في السبعينيات فإن تأثير هذه الاستثمارات على تحقيق التنمية ظل محدوداً نتيجة لانخفاض الكفاءة . ولهذا فقد أدى انهيار أسعار النفط بدءاً من عام ١٩٨٢ الى كساد في أسواق الخليج العربي ، وإلى تحول معدلات نمو الناتج القومي الى معدلات سلبية . وانعكس ذلك على بقية الاقتصاديات العربية التي تأثرت بهبوط مستوى التدفقات المالية اليها بعد أن كانت قد اعتمدت على استمرار هذه التدفقات بلا انقطاع ، فالتفتت بها الأمر الى عجز كبير في مواردها وزيادة كبيرة في مديونيتها ، وتردي معدلات النمو بها ، وانتشار الكساد في أسواقها والبطالة بين قواها العاملة في نفس الوقت الذي ترتفع فيه معدلات التضخم ارتفاعاً كبيراً ومتصاعداً . وقد عانت الأقطار العربية فضلاً عن ذلك من النزاعات العربية والفتن الداخلية والحروب . والسودان ولبنان والعراق أمثلة بارزة على مقدار الهدر والدمار والخراب الذي أحدثته الفتن والحروب .

وتواجه المؤسسات العربية حالياً ، كما ستواجه في المستقبل تحديات ضخمة نتيجة لأن المجتمعات العربية هي جزء من نظام دولي يتصف بتسارع معدلات التقدم فيه ويزداد توجهه نحو العالمية ، ويتميز بدرجة عالية من الحركة والتغير وتسارع ظهور سلع وعمليات جديدة وأشكال تنظيمية مستحدثة نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية التي تتسع أفاقها باستمرار . إن المؤسسات العربية تعمل وتحرك وتتأق وتتماون مع مؤسسات خارجية يتسارع تطورها وتسمى في ضوء حدة التنافس في الأسواق العالمية إلى تحقيق الامتياز . ولا يقتصر هذا التفاعل والاحتكاك على المؤسسات العربية التي تتعامل في الأسواق الدولية بل إنه يطول حتى المؤسسات المحلية البتة لأن الأطار المحلي نفسه هو مجال لأنشطة مختلفة تقوم بها المؤسسات الدولية كما أن الأقطار العربية في مجموعها هي جزء من نسيج العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية الذي يتصف بتزايد الاعتماد المتبادل بين أجزائه .

إن المؤسسات العربية مطالبة بمسيرة التقدم العالمي فالمجتمعات التي لا تستطيع التقدم تخلف ، ولا تتمكن حتى من المحافظة على وضعها النسبي المتفق .

إن التغلب على نواحي القصور الإداري التي برزت في الماضي وإحداث قفزة حقيقية في القدرات الإدارية يبقى لذلك أحد المداخل الرئيسية لتحقيق تقدم مستمر وسريع في قدرة المجتمع على تعبئة موارده وحسن تخصيصها وإدارتها لتحقيق أهداف الشعوب العربية في الاستقلال والحلاص من التبعية وإشباع الحاجات المادية والروحية التنمائية للشعوب العربية وتحقيق أمن الأمة العربية ، وهو ما يطرح قضية التنمية الإدارية باعتبارها قضية مركزية تتعلق بالمستقبل العربي ويتعلق بها هذا المستقبل .

وتسعى هذه الورقة الى إلقاء نظرة مستقبلية على متطلبات تحقيق تنمية إدارية فعالة في الوطن العربي وهو ما يتطلب في البداية تحديد مفهوم التنمية الإدارية والتعرف على العقبات والمشاكل التي عاقت جهود التنمية الإدارية والاصلاح الإداري في الوطن العربي حتى الآن .

### التنمية الإدارية في الدول الرأسمالية المتقدمة والدول النامية

نشأت الحاجة الى التنمية الإدارية في البلاد الرأسمالية المتقدمة عندما تطور حجم وحدات الأعمال ونشأت المشروعات الكبرى التي تضم أعدادا ضخمة من العاملين ، وتسيطر على رؤوس أموال ضخمة ، وتنتج للبيع في أسواق وطنية أو دولية تتسع بصفة مستمرة . وتعددت طبيعة الأسواق وعلاقات وحدات الأعمال بعضها ببعض الآخر ، وبالذولة ، والتغابات المعملية وغيرها من مؤسسات المجتمع بحيث أصبح يستحيل الاعتماد على المدير الفرد أو مجموعة من المديرين الأفراد من أصحاب رؤوس الأموال لإدارة مشروعات الأعمال الكبرى في ميادين الصناعة أو المؤسسات المالية أو التجارية ، أو مؤسسات النقل أو غيرها بكفاءة . وبات من الضروري بالنسبة للشركات الكبيرة التي تم تكوينها في العديد من الحالات بواسطة « قادة أفراد » والتي استمرت لفترة في إطار الملكية الفردية أو العائلية ونحت إدارة ملاكها ، ثم تحولت الى شركات أموال قادرة على الاستمرار والبقاء بما يتجاوز بقاء عناصرها القيادية ، ان تسعى لتوفير قيادات إدارية بديلة قادرة على الحلول محل الإدارة العليا القائمة لضمان تسيير وحدات الأعمال الكبرى بنجاح .

لقد برزت في الولايات المتحدة الأمريكية منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم في الدول الرأسمالية الكبرى بعد ذلك ( وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ) ظاهرة انفصال الملكية عن الإدارة ، والاعتماد على فئة من المديرين المحترفين الذين يتولون إدارة المشروعات الكبرى .

وقد تزامن وصاحب هذا الانفصال بين الملكية والإدارة ، وبرز الحاجة الى توفير قيادات بديلة حدوث تقدم سريع في علوم الإدارة . وقد نشأت تلك العلوم وتمت المراحل الأولى لتطورها في الولايات المتحدة الأمريكية أيضا . وجاء هذا النمو من طريق راغبين أساسيين : الرواد الأول للإدارة العلمية الذين كانوا يمارسون عملهم الرقابي والإداري في منشآت الأعمال نفسها ، والأكاديميين الذين اهتموا بدراسة منشآت الأعمال ، هيكلها ، وعلاقاتها وسلوك مديريها وهكذا .

لقد برزت الليات الأولى للعلوم الادارية نتيجة لجهود الرواد الأول للادارة العلمية الذين كان أغلبهم يتولون مناصب إشرافية في وحدات الأعمال الكبيرة والفضخمة . . . . . والذين سعوا لتحسين تنظيم العمل ، وتحديد الطريقة المثلى للاداء ، وتحديد الوقت المنطى للعمل وربط الأجر بالانتاج وغير ذلك . لقد كانت هذه الجهود هي استجابة لما ترتب على نشوء منشآت الأعمال الضخمة وزيادة قوة الحركة النقابية واشتداد الصراع بين العمال الرأسماليين من استحالة الاعتماد على زيادة الاستغلال المباشر للعمالين من أجل زيادة الأرباح ، مما استوجب السعى لزيادة انتاجية العمل بما يسمح بزيادة الأجور والأرباح في نفس الوقت . وقد شرحت تلك الجهود ووضحت بواسطة ممارسيها مكونة الأدبيات الأولى حول الادارة العلمية .

واهتم الأكاديميون من مختلف فروع العلوم الاجتماعية في نفس الوقت ، بتطبيق أبحاثهم البحثية في دراسة وحدات الأعمال الكبرى التي تطورت لتصبح من أهم الظواهر الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع المعاصر ، وقد انتسعت هذه الدراسات على مر الزمن لتشمل نواحي متعددة وكثيرة تضمنت الميكانك التنظيمية لتلك المؤسسات والمستويات الادارية المختلفة والعلاقة بين تلك المستويات ومسائل قيادة الأفراد ، وطرق اتخاذ القرارات وغير ذلك كما تضمنت فضلاً عن ذلك العلاقات بين مؤسسات الأعمال والعلاقات مع العاملين والممولين والمستهلكين ، ومسائل وحدات الأعمال في تخطيط الانتاج والتسويق والتمويل وإجراء المفاوضات وتحفيز العمال . وغير ذلك من نواحي النشاط المختلفة التي تقترن بها تلك المؤسسات . وحاول الأكاديميون استخلاص أسس ومشتملات العمليات الادارية وخطواتها ، وآلياتها وشروط تحقيق الكفاءة والكفاءة وغير ذلك مما أصبح يكوّن حجماً ضخماً من الأدبيات المتعلقة بالادارة وجوانبها المختلفة وعلومها المتخصصة والمتنامية باستمرار .

وقد مكن توفر هذه القاعدة المعرفية المتنامية ، وتطور وسائل تدريب الكبار من تحقيق تعاون فعال بين الإدارات في الشركات الكبرى وبين العناصر الأكاديمية في بعض الجامعات لتطوير برامج تستهدف المساعدة في تكوين وتطوير المهارات الضرورية لتوفير الكوادر اللازمة لشغل الوظائف الادارية بوحدات الأعمال . كما طورت خطط وبرامج داخل وحدات الأعمال لاختيار العناصر التي يجري عقول قدراتها . وتستند تلك الخطط والبرامج الى جهود منظمة لدراسة قدرات الأفراد وقياس ادائهم وتقدير مدى كفاءتهم وقابليتهم . ويتم اكساب العناصر المناسبة المعارف الجديدة والمهارات اللازمة لتحسين وتطوير عملهم وتبشيتهم للانتقال الى مستويات إدارية أعلى .

إن التنمية الادارية تشمل كل هذه الأنشطة لاختيار وتهيئة العناصر الادارية وإكسابها المهارات والقدرات والانجماحات التي تؤهلها لاداء عملها بطريقة أفضل . وهي تشمل فضلاً عن ذلك تطوير الميكانك التنظيمية في مؤسسات الأعمال نفسها لتصبح أكثر كفاءة وقدرة على تحقيق الاستمرار والنتاج والتطور المستمر في عالم يتصف بالتغير السريع والمتنافسة الحادة . إن دور الجامعات والمعاهد ومراكز البحث العلمي وبيوت الخبرة والاستشارات هو دور مساعد في هذا المجال . ويأتى الطلب على خريجات هذه المعاهد من مؤسسات الأعمال ، على ضوء مدى التطور في الخدمات التي تؤديها ووظائفها واحتياجات مؤسسات الأعمال التدريبية والتعليمية والبحثية والاستشارية .



وقد نما النشاط التعليمي والتربوي والاستشاري والبحث المتعلق بالادارة في الدول الرأسمالية المتقدمة نمواً فلكسياً في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية . لقد كانت البداية في تطوير هذا النشاط في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أدت الحرب العالمية الثانية الى تبوء مؤسسات الأعمال الأمريكية مركزاً قيادياً في العالم الرأسمالي . وأدى التحدي الأمريكي لمنشآت الأعمال الأوروبية واليابانية الى اهتمام المشروعات الكبرى في هذه البلاد بقضية التنمية الادارية بها . وسارت في نفس الاتجاه الأمريكي فطورت برامج لتطوير وتنمية القيادات الادارية عن طريق جهود مشتركة لوحدات الأعمال الكبرى والجامعات والمعاهد ومؤسسات البحوث والاستشارات . وكما هو الحال في الولايات المتحدة فإن التنمية الادارية في هذه البلاد من مسئولية وحدات الأعمال التي تستعين بخدمات المؤسسات العلمية والبحثية والاستشارية .

وقد تطورت خطط ومناهج التنمية الادارية والتكنيك المستخدم لتحقيقها في البلاد الرأسمالية المتقدمة بصفة مستمرة نتيجة للتطورات المتلاحقة التي طرأت على مؤسسات الأعمال نفسها ، وتغير طبيعة نشاطها وظروف التي تعمل في اطرافها وطبيعة المشاكل التي تواجهها من ناحية ونتيجة لتطور العلوم الادارية من ناحية أخرى . وقد تركز الاهتمام في البداية على اكتساب المهارات الخاصة بوضع الميالك التنظيمية السليمة وتقسيم العمل تقسيماً وظيفياً ، وإنشاء إدارات قائمة على تناسق الوظائف والاختصاصات وتحديد الفواصل بين السلطات ، وتحديد المسؤوليات لكل مستوى وظيفي ، وتنظيم مراحل وإجراءات العمل ، وتأكيد وحدة القيادة وإتباع الأسلوب المناسب لرفع التقارير والتنسيق بين الأقسام ، وتطبيق مبادئ التدرج الهرمي والالتزام بالأوامر المكتوبة ، فضلاً عن المهارات المتعلقة بالتخطيط والتنظيم واختيار العناصر المناسبة ، وتحفيزها على العمل وإنشاء نظام مناسب للرقابة وغير ذلك مما هو ضروري لتكوين بيروقراطية صالحة ذات كفاءة في تنظيم هومي على أساس نموذج ماكس فيبر الشهير .

وقد أدت التطورات في المجتمعات الرأسمالية خلال فترة الكساد الكبير في الثلاثينيات ثم في فترة الحرب العالمية الثانية فضلاً عن التقدم السريع في العلوم السلوكية الى إدراك الإدارة بأن العاملين في المشروعات يتأثرون بالجماعات البشرية الذين هم جزء منهم قدر تأثرهم بقرارات الإدارة وتوجيهاتها ، وأن السلطة لا تتبع دائماً خطوط المسؤولية الرسمية وأن السلطة الحقيقية هي رهن بقبول التوجيهات والأوامر لايحق إصدارها . وقد أدى ذلك الى الاهتمام باكتساب المديرين معارف تتعلق بالجماعات ، والتنظيمات غير الرسمية ، والحوافز الاجتماعية ، والسلطة المكتسبة وأهمية القيادة الديمقراطية وغير ذلك ، والسعى لاكتسابهم قدرة أكبر على القيادة عن طريق إحداث تغيير في الاتجاهات والقيم واكتسابهم قيماً واتجاهات جديدة في التنظيم والإشراف عن طريق فرق العمل وغير ذلك .

وقد أدت زيادة حجم مؤسسات الأعمال وتعقد تنظيمها وتطور الدراسات الخاصة بالنظم وتزايد دور المعلومات ، خاصة بعد انتشار الوسائل الكمية واستخدام النماذج الرياضية وطرق بحوث العمليات وما إليها ، الى النظر الى المشروعات باعتبارها أنظمة جزئية في نظام كلي هو الاقتصاد الوطني أو الدولي ، وباعتبارها تتكون من أنظمة جزئية متعددة توجد بينها علاقات متشابكة تصنف بدرجة عالية وأشكال مختلفة من الاعتماد المتبادل .

وقد تطلبت التنمية الادارية في هذه الظروف تطوير وتوفير عدد كاف من محمل النظم والسعى لتوفير المهارات اللازمة للاستفادة من نظم المعلومات المتقدمة للسيطرة على إدارة منظمات الأعمال الكبيرة والمعقدة ، مما دفع الى تطوير برامج تدريب وتطوير القيادات الادارية العليا ليصبح للمديرين المهارة والقدرة على تحليل وإدارة الأنظمة الكلية .

ويبدو أن مرحلة جديدة هي على وشك النشوء نتيجة لانهاء وحدات الأعمال الى العالمية واتجاهها في الوقت نفسه الى قدر كبير من اللامركزية تحت ضغط المنافسة الشديدة بين الوحدات ، مما يدفع بالادارة الى الاهتمام بتوفير عناصر قادرة على المبادرة والفعل والسعي لتغيير البيئة المحيطة بدلا من مجرد التأثر السلبي بها ، والقدرة على الالام باستراتيجية المؤسسة والمبادرة في اطارها وتحفيز العاملين على المبادرة والفعل<sup>(٣)</sup>

ان اشتداد المنافسة بين المشروعات الرأسمالية الكبرى على النطاق العالمى أدى الى قفزة كبيرة في التعليم الادارى وجهود التنمية الادارية خلال العقد الأخير . ويكفى ان نشير هنا الى أن أكثر من ربع طلاب الجامعات والمعاهد العليا في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٨٥ ( نحو ٢٥٠,٠٠٠ طالب ) كانوا يدرسون ادارة أعمال . وإن نحو ٧٥٠٠٠ من المحاصلين على الماجستير في ادارة الأعمال قد انضموا الى قوة العمل في الولايات المتحدة في العام نفسه . وقد كان ما أنفقت الشركات الأمريكية على التعليم والتدريب في عام ١٩٨٥ ما بين ٤٠ و ٦٠ مليار دولار سنويا طبقا لتقدير معهد كارتيجي وهو ما يقارب كل الاتفاق على التعليم الجامعى والدراسات العليا في الولايات المتحدة في العام نفسه ، وهو مايميز مدى ضخامة جهود التنمية الادارية والتكنولوجية التى تضطلع بها مؤسسات الأعمال .

ويلاحظ أن أهم التطورات في طرق وأساليب الادارة في الدول الرأسمالية المتقدمة يتم بصفة أساسية داخل المؤسسات الادارية نفسها ، وبخاصة مؤسسات الأعمال . ان مثل هذا التطور يكون نتيجة لمحاولة مواجهة مشاكل معقدة وحل مسائل جديدة يطرحها التطور العلمى والتقى والتطور في الأسواق وفي البيئة المحيطة وغير ذلك . وإذا كانت مؤسسات الأعمال تستعين في تطوير الادارة وأساليبها بعلماء الادارة سواء من داخل المؤسسة أو من خارجها ، فإن أى تطورات تحدث في كل الأحوال مرتبطة بشكل وثيق بالممارسة الفعلية وتستجيب لمتطلبات معينة تطرحها الحياة نفسها .

وتسمى العلوم الادارية للاحقة ما هو حادث بالفعل واستنباط الدروس من النجاح والفشل في مختلف المجالات . كما تسعى أيضا الى نقل الخبرة ودروس التجارب الواقعية الى الغير عن طريق وسائل التعليم والتدريب المختلفة التى تكون هى أيضا موضوع تطوير وتحسين مستمر على ضوء الخبرة ونتائج البحوث والدراسات .

(٣) لتصرف على التطورات للألاحة في مصدر رابع التطوير الادارى انظر :

**The Journal of Management Development, Vol. 6, Number 1, 1987. "Management Development: The fourth blue Print"**

By David Limerick and bert Cunningham pp. 54 - 67.

**The Journal of Management Development Vol. 7 No. 2 1988 (٥) "Corporate Management Development and Education:**

**The State of Art"** By robert M. Fulmer oo. 57 - 68.

ويلاحظ أيضا أن التطورات في وسائل الإدارة وأساليبها في أي مجال من المجالات يكون له تأثيره وصداه في المجالات الإدارية الأخرى . ان استخدام أساليب بحوث العمليات بواسطة القوات المسلحة للمساعدة على ترشيد بعض القرارات خلال الحرب العالمية الثانية قد فتح الطريق لانتشار استخدام هذا الأسلوب وأساليب رياضية مماثلة لترشيد القرارات الإدارية في مؤسسات الأعمال وعلى الأخص في المؤسسات الكبرى . وقد استعانت الدولة والمؤسسات الإدارية العامة المختلفة بالعديد من الأساليب الجديدة الخاصة بالتخطيط وصنع القرار والرقابة ، وتحديد التكاليف ، والتنظيم ووضع نظام سليم للمعلومات وغيرها من الأساليب التي طورت إحصاءا في ميدان الأعمال .

ومع أن جهود تنمية الإدارة تشمل الآن في الدول المتقدمة كافة مجالات العمل الإداري بما فيها المؤسسات الإدارية العامة ومؤسسات الأعمال وغيرها ، فإن تطوير وتنمية الإدارة يبقى في كل الأحوال مسئولية المؤسسات الإدارية نفسها سواء عامة أو خاصة ، على خلاف ما يتم في أغلب الدول النامية كما سنشير فيما يلي .

ان مايميز الدول النامية ، بصفة عامة ، هو أنها قد تعرضت خلال عهود طويلة للسيطرة الاستعمارية المباشرة أو غير المباشرة ، وألحقت بالسوق الرأسمالي الدول من موضع تابع . وقد ترتب على ذلك العديد من الأثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي لاتدعو الحاجة لعرضها في هذا المجال . ونكتفي فقط بالإشارة إلى ان كل الدول النامية قد تعرضت لنزوع من الانقطاع في مسارها التاريخي والتطور التفاضلي لمؤسساتها . لقد حلت الإدارة الاستعمارية محل الإدارة الوطنية حلولا كاملا في بعض الأحيان ، أو سيطرت الإدارة الاستعمارية على الإدارة الوطنية وعادت تشكيلها بما يوافق أهدافها ووسائلها ومفاهيمها . وازيحت العديد من المنشآت الاقتصادية الوطنية أو حجمت وسيطرت الشركات التابعة للدول المهيمنة على أهم نواحي النشاط الاقتصادي وعلى الأخص في ميادين التجارة الخارجية والتسويق والصناعات الاستخراجية وغيرها من الأنشطة التي اعتضمت اقتصاد المستعمرات وأشباه المستعمرات للدول الاستعمارية ووضعت في خدمتها . وتم خلال فترة السيطرة الاستعمارية غمو مشوه في أغلب الدول النامية أدى إلى اختلال التوازن الاقتصادي القطاعي الداخلي وتفكك الروابط بين مختلف قطاعات الاقتصاد الوطني ، كما أدى إلى ثنائية في الاقتصادات الوطنية تتمثل في وجود قطاعات اقتصادية حديثة في بعض المجالات تخضع للسيطرة الاستعمارية المباشرة أو غير المباشرة إلى جانب استمرار قطاعات تقليدية تزداد تخلفا نتيجة لما تعرضت له من تقليص مستمر في أسواقها وانحسار في مجالات نشاطها ، حيث أصبحت القطاعات التقليدية تركز على إنتاج سلع الاستهلاك الشعبي التي تحتاجها الجماهير والتي زادها الاستغلال الرأسمالي وتشوه النشاط الاقتصادي فقرا .

لقد واجهت أغلب الدول النامية مجموعة من المهام الصعبة والمعقدة إثر حصولها على استقلالها السياسي . يأل في مقلعتها إنشاء وبناء جهاز دولة حديث أو استعادة السيطرة الوطنية على جهاز الدولة الذي كانت قد أنشأته الإدارات الاستعمارية ، « ومولته » وإعادة تنظيمه للقيام بالخدمات الجديدة التي طرحها السعي لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية متسارعة تخرج البلاد من حالة الفقر وترفع مستوى معيشة السكان . وتعيد هيكلة الاقتصاد الوطني وبناء قاعدة اقتصادية حديثة قادرة على مواصلة النمو الذاتي في المستقبل . كما تشمل تلك المهام السعي الواهي لاجداث تنمية

اقتصادية واجتماعية تخرج البلاد النامية من الدائرة الجهنمية للتخلف في ظروف تتصف باستمرار السيطرة الاقتصادية للدول الرأسمالية الكبرى على النظام الاقتصادي العالمي وتحديد شروط عمله وآلياته ، واستمرار معاناة الدول النامية من نقص وتحلف المؤسسات والتنظيمات القادرة على تعبئة الموارد المحلية وحسن تخصيصها لتحقيق الأهداف المرجوة ، وغرياب المظمين القادرين على الابتكار والتجديد وتحمل المخاطر .

ورغم الثباتات بين البلاد النامية ، في مستوى التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، أو في أنظمة الحكم التي تتبعها ، واستراتيجيات التنمية التي تتبناها فإن التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتضمن في كل الأحوال انشاء وتطوير مؤسسات حديثة كبيرة للقيام بالخدمات الضرورية أو تحقيق الإنتاج المطلوب . ان التنمية تتطلب ان تلعب الدولة دورا أساسيا متزايدا في توجيه الحياة الاقتصادية وفي انشاء وتطوير الهياكل الارتكازية الضرورية ، وفي تطوير القوى البشرية وتعليمها واعدادها ، وفي تعبئة المدخرات الوطنية وتوجيهها للاستثمار وفي توفير الظروف الملائمة للاستثمار وغير ذلك .

وتتضمن التنمية أيضا تعديل هيكل الاقتصاد الوطني في اتجاه أحداث توازن أفضل وترابط بين فروع الاقتصاد المختلفة وانهاء ثنائية الاقتصاد ، وبذلك جهود لزيادة الإنتاج والانتاجية . ويتطلب ذلك في العديد من الحالات انشاء وتطوير فروع جديدة للنشاط الاقتصادي واستخدام أساليب إنتاج أكثر تقدما وتطورا ، والاعتماد بإنشاء وتطوير قطاع صناعي حديث وغير ذلك . وسواء أتم الجزء الأكبر من هذا النشاط بواسطة القطاع العام أو الخاص ، وسواء أبقى الاستثمار الأجنبي يلعب دورا أساسيا في الاقتصاد الوطني ، أم حاولت الدولة الوطنية ان تستعيد السيطرة على الموارد والنشاط الاقتصادي فيها ، فإن التنمية تتضمن في كل الأحوال إنشاء وتوسيع العديد من المؤسسات الحديثة للخدمات والإنتاج التي تتطلب حرجا ضخما من الكوادر المحلية لتسييرها وإدارتها ( حتى وإن استمرت الاستعانة الواسعة بالخبرة الأجنبية ) . ان ذلك يعني ضرورة السعى لتوفير أعداد متزايدة من القيادات الإدارية ، واكتسابها المهارات والقدرات اللازمة للمساهمة الفعالة وقيادة عمليات انشاء جهاز دولة وطني عصري ، يضطلع بدور هام في مجال توفير الخدمات الضرورية للسكان وتسيير الاقتصاد الوطني ، ويوفر الآلية اللازمة للتنمية ويحفظ بها وطورها باستمرار في ضوء التغيرات الكمية والتحولات الزمنية التي تترتب على عملية التنمية ذاتها أو التي تكون نتيجة للتغير في الظروف المحيطة . هذا إلى جانب توفير القيادات اللازمة لتسيير المؤسسات العامة والخاصة العاملة في مجال الإنتاج والخدمات والمجتمع بصفة عامة وتحقيق نجاحها في عالم يشهد فيه التنافس والاتجاه نحو العالمية . ولا يتم ذلك دون جهود مكثفة ومنظمة لاختيار العناصر الصالحة التي تملك القدرة على اكتساب الخبرة والمهارات الضرورية وتدريب هذه القيادات والمحافظة عليها وتحقيق اصلاحات إدارية جذرية في الجهاز الإداري القائم لرفع كفاءته وتوفير فعاليته .

ولا تمتلك الدول النامية بحكم تحالفها ، وبحكم ماحداث من انقطاع في نمو مؤسساتها الوطنية ، وسيطرا وهيمنة العناصر الأجنبية على أهم الأنشطة الحديثة ، مانستند اليه من محارب خاصة أوقاعدة معرفية عملية تؤهلها لاعداد وتوفير القيادات الادارية اللازمة . وهي تضطر لذلك إلى الاعتماد على نقل الخبرة ونقل المعرفة ونقل التجارب في مجال الإدارة كما تنقل المعرفة والتقنية في مختلف الميادين الأخرى .

وهي تنقل المعرفة ، او تسعى لنقلها خلال العديد من الوسائل التي تشمل جهودا تعليمية وتدريبية تتم بواسطة مؤسسات وطنية او خارجية ، الى جانب الحصول على الخدمات الاستشارية إما من مؤسسات دولية أو من افراد أو بيوت خبرة اجنبية كما تكتسب الخبرة ايضا عن طريق العمل في المؤسسات الاجنبية الحديثة او فروعها في الدول النامية ، او عن طريق التعليم والتدريب في الخارج سواء في مؤسسات أكاديمية او في شركات ومؤسسات دولية مشابهة في الخارج .

وتستند جهود التطوير الإداري ، في الدول النامية في الأغلب ، الى الاعتقاد بأن الإدارة قد أصبحت علما له قواعده ، وأدواته ووسائله التي تنطبق ويمكن استخدامها في كل الظروف والاحوال . وان اتباع مبادئ الإدارة العلمية كفيل بتحقيق النجاح في قيادة كل أنواع المؤسسات الإدارية . وان وسائل التدريب الإداري وتطوير القدرات الإدارية التي استخدمت بنجاح في الدول الصناعية المتقدمة يمكن أيضا ان تساعد في نقل الخبرة والمعرفة واكتساب المهارات والقدرات في البلاد النامية رغم ما قد يكون هناك من فروق في الظروف الاقتصادية والاجتماعية وخلافات في الثقافة والتقاليد والعادات بين الدول المتقدمة والدول النامية .

لقد اتجهت الجامعات والمعاهد ( من خلال التدريب الإداري ) الى الاعتراف من الحصيلة العلمية التي جمعت من الإدارة وطرقها ووسائلها وشروط نجاحها . الخ في البلاد الصناعية المتقدمة ، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية ، ومالت الى استخدام نفس اساليب التدريب الإداري التي طورتها هذه البلاد لتنمية مدبريها .

وبالنظر لان علوم الإدارة واساليب التدريب والتطوير كانت موضع تغيير مستمر في العالم المتقدم ( بكم التطورات الموضوعية في عمل وحجم المؤسسات وتغير ظروف السوق والبيئة وكم المعرفة العلمية كما أسلفنا ) فان الدول النامية تجد نفسها مضطرة الى ملاحقة التطورات في الدول المتقدمة وتطوير برامجها للتنمية الإدارية لتتماشى مع التطورات في علوم الإدارة والنظريات التي سادت في العالم المتقدم بين مرحلة وأخرى . وكانت اتجاهات الإصلاح الإداري والبرامج التدريبية والتعليمية تؤكد في كل فترة وتتبع النظريات والمقاربات الأكثر شيوعا في الفكر الإداري في الدول المتقدمة .

ويمكن للمتابع لجهود التطوير الإداري في الدول النامية ان يلاحظ تغير مضمون برامج التدريب الإداري واتباعها لنفس الاتجاهات التي سادت في الدول المتقدمة ، والتي اشرنا اليها فيما سبق . لقد انتقلت برامج التدريب الإداري في الدول النامية أيضا من الاهتمام والتركيز على المدخل التنظيمي ، الى المدخل السلوكي ، الى مدخل اصدار القرارات والنماذج الرياضية والتحليل الكمي ، واخيرا الى التأكيد على التخطيط الاستراتيجي والنظرة الكلية الاستثمارية والسعي للعالمية .

واذا كانت التطورات في طرق واساليب الإدارة في الدول المتقدمة تتم ، كما سبقت الاشارة ، في المؤسسات

الادارية الاكثر تقدما في ارتباط وثيق بالممارسة الفعلية واستجابة لمتطلبات معينة تطرحها الحياة ، وتطور العلوم الادارية بالتالي عن طريق ملاحظتها لما هو حادث بالفعل وبحثه ودراسته لاستخلاص دروس النجاح والفشل في ظروف معينة وأوضاع محددة فان جهود التطوير الاداري والتنمية الادارية في الدول النامية تستند الى النقل ومحاولة اللحاق بكل ما هو مستحدث على اساس التراض قابل للشك بان مشاكل الادارة في الدول النامية هي نفسها مشاكل الادارة في الدول الاكثر تقدما وان ما هو صالح لحل مشاكل الادارة في الدول المتقدمة هو صالح ايضا في الدول النامية ، وان التنمية والتطوير الاداري يتطلبان دائما تبني واستخدام الاحداث والاكثر تطورا .

ويتم الجهد الاكبر لاحداث التنمية والتطوير الاداري بوساطة مؤسسات حكومية واكاديمية تسعى بصفة اساسية لاصلاح الجهاز الاداري للدولة وتطوير القطاع العام .

### التنمية الادارية في الوطن العربي : الانجازات وتواحي القصور :

باستثناء السعودية واليمن الشمالي كانت كل الدول العربية قد أخضعت للهزيمة الاستعمارية . وقد حصلت كل الدول العربية على استقلالها السياسي في الفترة التي امتدت بين انتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية السبعينيات . وانتهت الحكومات الوطنية في البلاد حديثة الاستقلال ، وفي السعودية التي يزغ فيها عصر النفط ، ثم في اليمن عقب ثورتها ، نحو بناء جهاز الدولة . ورغم الاختلافات بين البلاد العربية واختلاف نظمها الادارية التي ورثتها من عهود السيطرة الاستعمارية او التي كانت تطبق في المجتمعات التقليدية ، فقد سمعت الدول العربية بعد الاستقلال الى ثلاثة امور في آن واحد : محاولة موطنة الوظائف الحكومية ثم موطنتها في حالة الدول النفطية ، ومحاولات وضع تنظيمات احق للخدمة المدنية ، ومحاولة وضع نظم مالية موحدة ومنظمة للخدمة العامة<sup>(٤)</sup> .

ورغم الانهاء للاعتماد بدرجة اكبر على المواطنين لشغل الوظائف العامة وتشبيد الجهاز الحكومي فقد لعبت الخبرة الاجنبية دورا رئيسيا في اعادة تنظيم وتطوير الجهاز الاداري . ففي مصر تم الاستعانة بالخبير الانجليزي سكر واسفرت دراسته عن صدور القانون الخاص بنظام موظفي الدولة في عام ١٩٥١ . ثم أنشئ معهد الادارة العامة بمعاونة خبراء الامم المتحدة سنة ١٩٥٤ وأنشئ معهد الادارة العليا بعد التأميمات الكبرى في عام ١٩٦١ بمعاونة مؤسسة فورد وتم استخدام الخبيرين الامريكيين جولييك وبولوك للمعاونة في إعادة الادارة الحكومية في عام ١٩٦٤ .

وفي المملكة العربية السعودية استند تطوير الجهاز الاداري الى دراسات قام بها البنك الدولي في سنة ١٩٦٠ ومؤسسة فورد سنة ١٩٦٩ بالإضافة الى استشارات قدمتها بيوت خبرة امريكية متعددة . وقد استعانت العراق بخبراء

(٤) الدكتور نزيه الأبي ، المخططات ونهج الادارة العامة في الوطن العربي ، العمل الاول في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي ، تحرير الدكتور ناصر محمد الصالح سابق ذكره ص ٤٣ - ٥٩

أجانب لإصدار قانون الخدمة المدنية في عام ١٩٥٦ وصدرت القوانين المتعلقة بإنشاء ديوان الموظفين في الأردن استنادا إلى تقارير خبراء الأمم المتحدة .

وتزايدت الاستعانة بالخبرة الأمريكية في عمليات تنظيم وتطوير الإدارة في عدد من الدول العربية في السبعينيات ، وبخاصة في السعودية ودول الخليج الأخرى ودول الشرق الأخرى ، وذلك نتيجة للإنبهار بالخبرة الأمريكية من جانب ولأن برامج الأمم المتحدة للمعاونة الفنية تعتمد اعتمادا كبيرا على الخبراء الأمريكيين في مجال الإدارة . كما إن الولايات المتحدة الأمريكية قدمت منذ أواخر الخمسينيات عددا كبيرا من المنح لمواطني البلاد العربية في مجال العلوم الإدارية والدراسات المتصلة بها .

ورغم أن الدول العربية قد تعرضت لتأثيرات إدارية مختلفة في مرحلة الاستعمار ، ورغم الاستعانة الواسعة بالخبرة الأمريكية لأحداث إصلاح إداري ، إلا أن الارتباط الشديد بين الإدارة في الدول العربية وبين القيادات الحاكمة واهتمامها بخدمة الحاكم أو النخبة الحاكمة أكثر منها بخدمة الشعب قد أدى إلى اتجاه الإدارة العربية إلى درجة عالية من المركزية والتأثر بدرجة أكبر بالتمودج المركزي الفرنسي للإدارة العامة مع ما يصاحب هذا التمودج من تركيز على الجانب القانوني المكتوب والميل إلى كثرة إصدار القوانين واللوائح وما يستتبع ذلك من أهمية دور أجهزة الرقابة الإدارية اللاحقة التي تهتم بالكشف عن الأخطاء والمعاقبة على التجاوزات . وقد أدى ذلك إلى تبني نموذج مركزي بيروقراطي يقوم على تمطيط التنظيم والإجراءات ومباشرة العملية الإدارية بأسلوب إداري موحد بغض النظر عن تعدد وتنوع المهام المطلوب إنجازها والجماهير المطلوب خدمتها .

وقد لعب القطاع العام دورا هاما في التنمية في الوطن العربي ، إما للاضطلاع بالمشروعات الكبرى التي يتراخى القطاع الخاص عن القيام بها ، أو لأن بعض الدول قد تبنت نوعا من التوجهات الاشتراكية أو اعتمدت على شكل من أشكال رأسمالية الدولة . وتبنت أغلب الدول العربية لذلك فكرة المشروعات العامة ، وإن اختلفت أوضاع المشروعات العامة القانونية والتنظيمية والمالية بين بلد وآخر . لقد مالت بعض الدول مثل مصر إلى تمطيط التنظيمات والإجراءات ونظم العاملين في المشروعات العامة وإنشأت مستوى تنظيميا وسيطا بين الوزارات والشركات العامة اتخذ اسم المؤسسات العامة أو الهيئات العامة مما أخضع المشروعات العامة لقواعد قريبة من القواعد المعمول بها في المصالح الحكومية . وقد مالت دول أخرى إلى إعطاء للمشروعات العامة درجة عالية من الاستقلال جعلتها أقرب إلى المشروعات الخاصة .

وبغض النظر عن مدى استقلال القطاع العام أو خضوعه للسيطرة الحكومية ، فإنه ليس مختلفا عن المصالح الحكومية التقليدية . مما يؤدي إلى القول بوجود نوعين من « الإدارة العامة » في أغلب الدول العربية<sup>(٥)</sup> .

(٥) نزه الأيوبي ، المصدر السابق ص ٥٤ .

وقد اهتمت اغلب الدول العربية بإنشاء أجهزة للخدمة المدنية او الوظيفية العامة على اختلاف مسمياتها وتبنيها . وقد تولت هذه الأجهزة فيما تولته مهمة التنمية الادارية التي تخضع لاشراف مركزي في بعض الحالات ( كما في حالة مصر ) او التي تعتمد أجهزتها في حالات اخرى ( لبنان وتونس والسعودية والكويت كمثال ) .

وقد قامت أجهزة الخدمة المدنية في البلاد العربية بأنشطة متنوعة واعتمدت على أساليب مختلفة لتحقيق الاصلاح الإداري وتحقيق التنمية الادارية . وقد شملت هذه الأساليب تقنين وترشيد النظم خلال إصدار التشريعات المنشقة او المجلدة او الصالحة لنظم العاملين من حيث الاختيار والتعيين والرواتب والترقية والتقاعد والتأمينات ، وإجراء اصلاحات تنظيمية تتضمن بناء المنظمات وتطويرها ، وتحديد المسؤوليات والعلاقات الرأسية والأفقية بين الأجهزة ، وتحديد التدرج الوظيفي والسلطوي للمؤسسات ، ووصف الاختصاصات ، وتوصيف الوظائف وتنميطها وربط المكافآت بالعمل ، والسعي لزيادة كفاءة المنظمات وتحسين انتاجيتها عن طريق الاخذ بنظم ميزانيات الاداء او اتباع برامج الادارة بالاهداف والمحاسبة على أساس النتائج وتطوير نظم تقييم الاداء ، والتوسع في تدريب المديرين والقيادات عن طريق برامج تدريبية او إنشاء معاهد للتدريب ، وتنمية القيادات وتقديم الخدمات الاستشارية لتطوير التنظيم وتحسين الاداء .

ورغم نواح متعددة للقصور سنشير اليها بعد الا ان جهود التطوير الاداري والتنمية الادارية قد مكنت البلاد العربية من تحقّق قدر هام من النجاح في التغلب على التحديات الضخمة التي واجهتها في المرحلة التالية لنيل استقلالها التّيبانيي وخلال ممارستها من أجل تثبيت الاستقلال ونفّذ او الحد من الهيمنة الاستعمارية على مقدراتها .

لقد أمكن إحداث قدر هام من تطوير التشريعات وأحكامها ، وضبطت ونظمت قوانين وترتيبات شئون العاملين وأمكن تحقيق قدر أكبر من المساواة فيما بينهم . وتم ايضا الارتقاء بمستوى الميزانيات في المنظمات الادارية على مستوى الدولة وتطوير أساليبها الفنية ومفاهيمها ، فضلا عن توفير أعداد متزايدة من القادة الاداريين الذين زودوا بقدر هام من المعرفة والخبرة عن طريق التدريب الاداري ، الذي اتسع اتساعا كبيرا ، واكتسبوا الخبرة خلال العمل والممارسة .

ومن المفيد أن نذكر أن الدول العربية قد استطاعت أن تدبر مؤسسات اقتصادية ومؤسسات أعمال كبرى تم تعريبها أو تأميمها دون أن يحدث نقص ذويال في مستوى الاداء الاداري ، بل حدث تحسّن في مستوى الاداء في بعض الأحيان . ويكفي أن نشير هنا إلى النجاح في إدارة مؤسسات كبرى مثل قناة السويس ، وشركات النفط الكبرى والبنوك ، وشركات التأمين ، وشركات التصدير والاستيراد وشركات المقاولات والانشاءات والشركات الصناعية الكبرى فضلا عن إدارة الخدمات الحكومية ومنشآت الأعمال التي اتسعت اتساعا هائلا بعد الاستقلال .

صحيح أن بعض المؤسسات العربية اضطرت للاستعانة بالخبرة الادارية الاجنبية ، من أجل بناء هيكلها التنظيمية ، أو لتقديم الخبرة والمشورة لها اوسى لادارتها بشكل مباشر ، الا ان ذلك لا ينفي أنه تم تكوين ادارة عربية



وتطويرها من خلال ممارستها لنشاطها الاداري وعن طريق التدريب والتعليم واكتساب المعرفة ، ولا ان هذه القيادات قد مارست دورا هاما في تسيير المؤسسات التي تقودها بنجاح . وقد تم اكتساب تلك الخبرات التي لم تكن البلاد العربية تملكها من قبل من خلال جهود مكثفة للتنمية الادارية من جانب وعن طريق الممارسة الفعلية والتجربة والخطا من الجانب الآخر .

ان الانجازات التي تحققت يجب ألا تحجب حقيقة هامة وهي استمرار تعثر التنمية في الوطن العربي نتيجة للعديد من نواحي القصور في ادارة التنمية العربية ، والفشل في تعبئة الموارد العربية وتوجيهها للتنمية وعدم القدرة على تعبئة وإطلاق القدرات البشرية المتاحة والاستفادة منها الاستفادة الكاملة وقصور المجتمع العربي عن تكييف البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لتحقيق التنمية المنشودة . ان تعثر التنمية يعود ، ضمن أسباب أخرى ، الى نواحي القصور الاداري التي تبدى فيها يلي :

(١) استمرار الطابع المركزي الشديد للادارة العربية سواء في الجهاز الاداري للدولة او في القطاع العام او الخاص وذلك رغم التعريف باهمية النهج اللامركزي للادارة في المؤسسات الكبيرة وضرورة إفساح المجال لقدرة من التفويض بالسلطة لتجنب تعطيل الطاقات والكفاءات ولسرعة اصدار القرارات ، ولتنمية صف ثان من المديرين القادرين على أخذ المبادرة .

إن توفر هذه المعرفة لا يمنع القيادات الادارية في الجهاز الاداري والقطاع العام من التشبث بالسلطة والاحتفاظ بمركزية القرارات ، حتى وإن أدى ذلك الى انشغال القيادات الادارية العربية بالروتين اليومي مع ما يترتب على ذلك من عدم قدرة على متابعة التوجهات الاستراتيجية للمؤسسات واعطاء الجهد الكافي لتطويرها . ان مثل هذا التشبث يعكس بدرجة أو بأخرى الفلسفة الادارية السائدة ، التي تضع الادارة العامة في خدمة الحاكم او الفئة الحاكمة والتي تعطي أهمية أقل للفئات التي تقدم اليها الخدمة . كما يعكس النظر الى الوظائف الادارية العليا باعتبارها أداة لتحقيق القوة والسلطان والمركز الاجتماعي . كما أنه يعكس سيادة الملكية الفردية والعائلية في القطاع الخاص - حتى في حالة شركات الاموال والشركات المساهمة التي هي في الاغلب شركات عائلية تتخذ الاطار القانوني لشركات المساهمة - حيث يتم الربط الوثيق بين حق الملكية وحق الادارة . وتتركز كل القرارات الادارية في يد المالكين أو ممثلهم ولا يسمح بالتفويض بالسلطات الا في أضيق الحدود .

(٢) تزايد التضخم الاداري والوظيفي في الأجهزة الادارية للدولة والقطاع العام : أدى التزايد المستمر في الوظائف التي تقوم بها الدولة في الوطن العربي وتحمل الأجهزة التنفيذية مهام ومستويات تنمية متزايدة الى إنشاء مزيد من الأجهزة الادارية او إضافة اختصاصات جديدة لأجهزة إدارية قائمة بالفعل . ولم يكن غم المؤسسات الادارية في كل الاحوال استجابة لحاجات موضوعية فالعديد من الأجهزة الادارية تميل الى النمو والتشعب وتسمى باستمرار الى اضافة

اعمال واختصاصات لها تراها ضرورية اما للوفاء بأهدافها او لتحقيق قدر من السيطرة الداخلية على الامور والحذر من الاعتماد على مؤسسات ادارية اخرى . ويؤدي مثل هذا الاتجاه الى بناء امبراطوريات إدارية يغيب التنسيق الفعال فيها بينها . ان مثل هذا التضخم في المؤسسات الادارية إضافة الى ظاهرة المركزية التي سبقت الإشارة اليها يقود الى قصور العديد من الاجهزة عن تحقيق اهدافها الاساسية وانشغالها بالمعاملات الروتينية ، وهو ما يؤدي بين حين وآخر الى عمليات اعادة تنظيم يتم فيها تفكيك وإعادة تركيب بعض المنظمات واعداد فيها توزيع الاختصاصات . . . الخ . وبدلا من ان تساعد مثل هذه العمليات على إبعاد المؤسسات عن الضرورية فانها كثيرا ما تؤدي الى تداخل وترهل إداري وعدم وضوح خطوط السلطة والاتصال وغموض في الصلاحيات والمسئوليات وزيادة تعقيد العمل الاداري .

ان هذا التضخم المستمر في الجهاز الاداري وتعقده يرجع ايضا الى نوعية الفلسفة الادارية السائدة وعلاقة الجهاز الاداري بالنتيجة الحاكمة ومجموع الشعب الذي يفترض ان الجهاز الاداري يسمى لخدمته . ان ميل اجهزة الادارة في الدول العربية لان تنظر الى نفسها كاجهزة سلطة تسمى لخدمة الحاكم بدلا من ان تكون اجهزة خدمة للمصالح الشعبية يجعلها قليلة الحساسية للتكلفة والمائد خاصة وانه يندر ان تخضع لاي محاسبة اقتصادية بواسطة سلطة شعبية .

وقد ارتبط بالتضخم الاداري تضخم وظيفي كبير لأن الحكومة والقطاع العام قد اعتبرا وكالات استخدام في العديد من الدول العربية التي تحملت مسؤولية اجتماعية عن توظيف مواطنيها ، وبخاصة المتعلمين منهم ، ولم يؤد النشاط التنموي الى خلق فرص حقيقية كافية للتوظيف في القطاعات الانتاجية .

(٣) تنامي ديكتاتورية البيروقراطية وأمراضها وانتشار الفساد الاداري : لقد أدى النمو المتسارع لدور أجهزة الدولة والقطاع العام في عملية التنمية والتطوير مع ضعف أجهزة الرقابة عن طريق مجالس منتخبة او أي شكل من أشكال التمثيل الشعبي الاخرى ، وغياب وجود حقيقي للرأي العام ممثلا في منظمات مستقلة للمجتمع المدني ، الى تحول البيروقراطية العامة الى مركز قوة حقيقي في المجتمع واكتسابها حصانة ومناعة ضد المساءلة والمحاسب ، رغم وجود وتعدد الاجهزة الرقابية الادارية .

وقد ترتب على ذلك ، وعلى ظاهرة التكلس الاداري والوظيفي التي سبقت الإشارة اليها ، امتصاص الاجهزة البيروقراطية العامة لجوء هام من موارد المجتمع وخصصات التنمية ، ويزود العديد من الظواهر المرضية للبيروقراطية في الوقت نفسه . ويأتي في مقدمة هذه الظواهر انخفاض انتاجية وكفاءة العمل الاداري العام ، وارتفاع تكاليف الخدمات ، وتوسع ظواهر الامال والتسيب والتراخي في ممارسات العمل ، الى جانب الافراط في الرسمية والشكليات ونمو ممارسات الفساد الاداري بصورة مختلفة بما في ذلك الرشوة والاختلاس واستغلال المال العام والوظيفة العامة وتوسع ظاهرة المحسوبية والمحاباة .

ان مثل هذه الظواهر تشيع في كل البلاد العربية ، ولو بدرجات متفاوتة ، فهي تنتشر في البلاد التي ينخفض فيها

متوسط الدخل نتيجة لندرة الموارد التي تخصص للمدولة مقارنة بالاهداف الطموحة التي تسعى الدولة لتحقيقها . وهو ما يؤدي الى اشغال المنافسة بين افراد الجمهور للحصول على الخدمة الحكومية ، ويعطي القيادات الادارية التي تملك السلطة قوة تمكنها في غياب المساءلة الديمقراطية من أن تصبح ، دون غيرها ، هي القادرة على المنع والتمنع ، مما يهيء الجو لطواهر الفساد والمحاباة واستغلال النفوذ . ويزيد انتشار الفساد بصفة خاصة حينما يشند التمييز الاجتماعي في الدولة ويزداد الاتجاه الى سيادة الاتجاه الاستهلاكي مع ضعف مرتبات ومهالبا من يملكون سلطة القرار . وتنتشر هذه الظواهر نفسها حتى في البلاد العربية التي يتمتع أهلها بمستويات دخل مرتفعة بالنظر الى الدور الاساسي الذي تلعبه الحكومة في توزيع « الريع » ، وفي تخصيص الاعمال والعطائد وغيرها .

(٤) غياب مقاييس موضوعية لكفاءة الادارة والاعتماد على الولاء او صلات الرحم في اختيار القيادات الادارية العليا ، اذ تعمل اغلب المؤسسات الادارية العربية العامة او الخاصة في ظروف تجمعها من أي منافسة حقيقية ، وتقع وجود أي ضغوط فعالة تمكن من فرز القيادات الادارية على أساس من الكفاءة والفعالية .

ان العديد من مؤسسات الاعمال العامة او الخاصة تتمكن في الظروف العربية من توسيع نشاطها وزيادة رقم اعمالها وتحقيق أرباح طائلة نتيجة لقوة علاقتها واتصالها ونفوذها في أجهزة الحكم بغض النظر عن مدى كفاءتها الادارية والانتاجية ، والدولة هي المحمل الاساسي والاكبر في اغلب الدول العربية . وتستطيع العديد من المؤسسات في حالات كثيرة استغلال أشكال الفساد الاداري المختلفة لتوسيع نشاطها وزيادة أرباحها . وبغض النظر عن استغلال الفساد الاداري فان المؤسسات الوطنية تحظى في العديد من الحالات بحق التعامل مع الدولة دون منافسة خارجية ، وهي تتمكن من تحديد الاسعار وتوزيع رقم الاعمال فيما بينها عن طريق الاتفاق بما يمكنها جميعا من تحقيق قدر هام من الارباح . وتتمتع مشاتل الاعمال الوطنية فضلا عن ذلك بدرجة عالية من الحماية من السوق الوطني الذي يغلق لصالحها في بعض الحالات . وتحظى بعض المشروعات باحتكار يكاد يكون مطلقا في بعض الانشطة نتيجة لمحدودية حجم السوق مقارنا بالحجم الامثل للوحدات الانتاجية ولخلق السوق في مواجهة أي منافسة خارجية .

وتعمل الحكومات العربية ايضا الى تقديم دعم لمؤسسات الاعمال في حال تحملها للخسائر بما يمنع إفلاسها او تصفيتها . ويتم ذلك بصفة خاصة بالنسبة للمؤسسات الكبيرة التي تعمل في مختلف مجالات النشاط ، بما في ذلك المصارف وبيوت التمويل وشركات التأمين والشركات الصناعية وشركات المقاولات والشركات العقارية وغيرها ، وهو ما يؤدي الى استمرار بقاء وحياة مؤسسات ذات كفاءة متدنية .

ان المشروعات العامة تتعرض فضلا عن ذلك لقدر هام من تدخل الاجهزة الحكومية في نشاطها ، بما في ذلك تحديد لوائح العاملين وشروط العمل والفصل والاجور والعلاوات ، فضلا عن تحديد أسعار العديد من المدخلات والمخرجات وفرض تشكيلة معينة للمنتجات . ان ذلك كله ، فضلا عن التدخل المباشر في شؤون الادارة اليومية الذي

كثيرا ما يحدث بواسطة الهيئات المشرفة على تلك المشروعات ، يعني عدم إمكان الاعتماد على نتائج الاعمال في هذه المشروعات كمقياس صحيح لدى كفاءة او عدم كفاءة الإدارة فيها .

ويمكن القول بصفة عامة إن الظروف التي تعمل فيها منشآت الاعمال الخاصة أو العامة لا تساعد على فرز القدرات الادارية ، وقياس أدائها قياسا موضوعيا صحيحا ، ومن ثم يصعب الاعتماد على عامل الكفاءة والفعالية كأساس في ترشيح العناصر المؤهلة لقيادة المنشآت الادارية .

والواقع ان اختيار قيادات المشروعات يتم في الاغلب على أسس لا تمت للكفاءة الادارية بصلة . ان ادارة المشروعات الخاصة ، التي لم يزل أغلبها يتخذ الطابع العائلي في أرجاء الوطن العربي ، تبقى في أيدي الأبناء أو الأصهار أو الأقرباء بغض النظر عن قدراتهم وكفاءتهم . اما بالنسبة للمشروعات العامة فإن العامل الأهم في اختيار قياداتها لم يزل هو الولاء والصلات الخاصة بمتخذ القرار . وقد تكون تلك الصلات أو الولاء مبنية على القرابة أو المعرفة والزمانة أو الانتباه القبلي أو الجهوي في بعض الحالات ، كما يكون مبنيا على الولاء الحزبي والسياسي في أحوال أخرى .

(٥) غياب أي ابتداء عربي إداري ، والنظر إلى الإدارة باعتبارها عملية فنية بحثه لها قواعد علمية وأسسها الموحدة بغض النظر عن الزمان والمكان ونوع المجتمع والثقافة والقيم السائدة فيه .

ويبرز مثل هذه النظرة في مجال التعليم والتدريب الإداري ، وخلال محاولات الإصلاح والتطوير الإداري المختلفة التي تتم في البلاد العربية . ان المؤسسات العلمية العربية التي تقوم بتدريس علوم الإدارة تعتمد على النقل عن أدبيات الإدارة الغربية - وخاصة الأمريكية - دون أي محاولات جادة للتأصيل أو لتطوير فكر إداري عربي مستقل . وينطبق الشيء نفسه على جهود التدريب الإداري خلال مختلف برامج التدريب التي نقلت عن برامج التدريب الخارجية وطبقت نفس وسائلها وطرقها ، وسارت على خطاها دونما تحايل للاحتياجات التدريبية الحقيقية للمنظمات والأفراد في الوطن العربي ودونما توفيق بين هذه الاحتياجات ومحتوى ما يقدم من برامج ، ولا قياس لأثار هذه البرامج على مؤشرات الاداء والفعالية . وقد سادت النظرة نفسها في جل محاولات التطوير والإصلاح الإداري . ان اهلب المؤسسات العلمية والاعلمية والفكرية قد انتقلت من افتراض أن ما هو صالح لمواجهة المشاكل الإدارية في الدول الأكثر تقدما صالح كذلك لمواجهة المشاكل الإدارية في دول العالم النامي بما فيها الدول العربية ، وأن الإصلاح يتم بتبني النماذج والقواعد ووسائل الإدارة الملهدة التي ثبت نجاحها في مؤسسات يشهد لها بالكفاءة والامتياز في الدول الأكثر تقدما . ومن ثم فقد ندرت الدراسات الهادفة للتعرف على مدى تأثير النظم الادارية والثقافة والقيم السائدة والبيئة المحيطة ، ودراسة الواقع المحلي واستنباط الوسائل أكثر صلاحية لمواجهة لمشاكل الإدارية التي تواجهها المؤسسات في وطننا العربي أو تطويع الوسائل والأساليب لتكون أكثر اتفقا مع الظروف المحلية .

وقد ترتب على ذلك محدودية نتائج محاولات الإصلاح والتطوير الإداري رغم الجهود والموارد الضخمة التي وجهت لهذه الغاية ورغم التكاثر السريع لمنظمات التنمية الادارية العربية .

وإذا كان الابداع العلمي والإداري نادراً في منظمات التنمية الإدارية ومؤسسات التعليم الإداري العربي فحين الطبيعي ومن باب أولى أن يفتقر الاتجاه الإداري في مؤسسات الأعمال والمنظمات الإدارية العربية . وتبين بعض الدراسات التي أجريت على المنظمات الإدارية في الوطن العربي أن الهيئات التنظيمية لتلك المنظمات تنسم بالتسلط والقهر المركزية وتفتقر أي اتجاه إبداعي<sup>(١)</sup> .

#### خاصة : للمشاكل الإدارية الرئيسة هي مشاكل مجتمعية

إن محدودية نتائج التطوير الإداري في الوطن العربي ، وعدم النجاح في التغلب على نواحي القصور الأساسية التي سبقت الإشارة إليها ، لا يعود إلى قصور في استراتيجيات الإصلاح الإداري فحسب ، بل ولأن المحاولات المذكورة لا ترتبط بمجهودات أكبر لاحتداث تطور اجتماعي أشمل وأعمق يؤدي إلى إحداث تغييرات في نفس الاتجاه، على مستوى القيم والبنى والمؤسسات والعلاقات التي تشابك مع بعضها لتكوّن النسق الاجتماعي السائد .

إن عمليات التطوير والتنمية الإدارية تركز على اكتساب معارف إدارية جديدة أو اكتساب بعض المهارات أو تعديل في الاتجاهات لدى المديرين ، كما تسعى لإدخال تعديلات على الهياكل التنظيمية والإجراءات واللوائح وغير ذلك دون أن تنظر إلى ما هو أبعد من ذلك من العوامل ذات التأثير الحاسم على السلوك الإداري .

وتبين العديد من التجارب في الوطن العربي ، كما في غيره من الدول النامية والمتقدمة أيضاً ، أن المعرفة وحدها ليست هي الفصيل دائماً في تحديد السلوك . إن العديد من المؤسسات التي نال القائمون عليها تسطاً كبيراً من المعرفة الإدارية - بما فيها منظمات التنمية الإدارية نفسها - تبقى رغم ذلك تشكو من عدم كفاءة الإدارة وعدم فعاليتها .

إن السلوك ، بما في ذلك السلوك الإداري ، تحكمه إلى حد كبير القيم الاجتماعية السائدة . والقيم ، طبقاً لتعريفات علماء الاجتماع « هي المعتقدات حول الأمور والغايات وأشكال السلوك المفضلة لدى الناس التي توجه مشاعرهم وتكبرهم ومواقفهم وتصرفهم واختياراتهم وعلاقاتهم بالواقع والمؤسسات والآخرين وأنفسهم والمكان والزمان وتسرع مواقفهم وتحدد هويتهم ومعنى وجودهم »<sup>(٢)</sup> .

وتشكل القيم القابض التي توجه السلوك البشري والتي يستند إليها في إصدار الأحكام والمقارنة والتقييم والتبرير والاختيار بين البدائل في المناهج والوسائل والغايات . وتستند القيم الاجتماعية بشكل مباشر أو غير مباشر إلى أنماط المعيشة والوضع الطبقي والمالي والدين والنظام العام السائد . وتعتبر العائلة من أهم مصادر القيم في المجتمع

(١) دكتور سراج محمد صبري ، الابداع الإداري والتطوير التنظيمي ، الفصل الثاني من الباب الرابع لكتاب الإدارة العامة والإصلاح الإداري في الوطن العربي ، بيروت ، ناشر محمد الصالح .

(٢) الدكتور سليم بركات : المجتمع العربي المتغير ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢٤ .

العربي . وتتحكم القيم التي تحكم العلاقات ضمن العائلة الى حد بعيد في العلاقات ضمن المؤسسات الاخرى والمجتمع ككل لان الانسان يرث طبقته ودينه من خلال عائلته وتتأثر رؤيته السياسية والتربوية بتنشئته العائلية .

وتتكامل نظم القيم لدى البعض ويدعم بعضها بعضا خلال أساليب التنشئة الاجتماعية ، وطرق العقاب والاثابة ، والضغوط التي تمارسها الجماعات والمؤسسات ، والاحترام الذي يرتبط بالمراكز الاجتماعية والوضع الاجتماعي وغير ذلك . وقد يعمل التكامل في نظم القيم لدى البعض درجة تتوحد فيها القيم العائلية والدينية والسياسية والتربوية .

الا أن المجتمع يروج في الوقت نفسه بالتحاهات قيمية متعارضة ، فقد تتواجد التحاهات قيمة تعارض التحاهات السائدة بحكم الاختلاف في لمط الحياة او الوضع الطبقي او الاثني او المصالح الاقتصادية . كما يتأثر العديد من الافراد بثقافات اخرى وافدة خاصة عند وقوع المجتمع تحت هيمنة خارجية ، او عند اتصال المجتمع بالمجتمعات الاخرى في وضع يتصف بالتبعية والاحساس بالنقص أو الدونية .

وكثيرا ما يقع الفرد الواحد تحت تأثير تيارات والتحاهات قيمة متعارضة في مجتمعا العربي المعاصر الذي تتألف في إطاره العديد من التناقضات والذي يتصف بالتنوع وأنه يعيش في مرحلة انتقال يتعرض فيها لتأثير العديد من الثقافات الوافدة .

ويتصارع في المجتمع العربي الحاضر ، ولدى كل واحد منا بدرجة أو بأخرى ، تيارات والتحاهات قيمة متعلدة متكاملة ومتشابكة ومتفاعلة في آن واحد . ونشير بوجه خاص الى استمرار وحلة الصراع بين قيم القدورية وقيم الارادة الحرة ، وبين قيم السلفية والقيم المستقبلية وبين قيم الابداع وقيم الاتباع ، وبين قيم القلب وقيم العقل ، وبين قيم الشكل وقيم المضمون ، وبين القيم الجمعية والقيم الفردية وبين القيم العار وقيم الذنب ، وبين قيم الانغلاق وقيم الانفتاح ، وبين القيم العمودية والقيم الافقية ، وبين قيم الطاعة وقيم التمرد وبين قيم الاحسان وقيم العدالة .

ويشير الدكتور حلوم بركات في دراسة عن المجتمع العربي المعاصر الى أن القيم التقليدية لا تزال هي الغالبة في الثقافة العربية . فالثقافة السائدة ترتكز على القيم القدورية والسلفية والعمودية وعلى قيم الاتباع والشكل والانغلاق والعار والاحسان ولكن غلبة الثقافة التقليدية لا تحدد هوية العرب الثقافية المعاصرة ، اذ انه الى جانب الثقافة التقليدية تنشأ في الوطن العربي ثقافة مضادة تقوم على القيم المستقبلية والاختيارية والابداعية والانفتاحية والافقية وقيم العدالة والشعور بالذنب والتعد الذاتي والمواجهة وتوازن بين قيم العقل والقلب والمضمون والشكل والجمعية والفردية والاصالة والحداثة . ان الصراع بين تلك التحاهات المتناقضة هو ما يحدد هوية العرب الثقافية الخاصة في هذه المرحلة الانتقالية .

إن أقصى ما يمكن أن تؤدي إليه جهود التطوير الإداري الحسنة الإعداد والتنفيذ هو نقل بعض المعارف ودعم بعض الاتجاهات والقيم في مواجهة اتجاهات وقيم مضادة . وتسمى مثل هذه البرامج إلى دعم النظرة المستقبلية على حساب النظرة السلفية ، وتبرز أهمية الابداع بدلا من الاتباع ، وتناصر قيم الانفتاح في مواجهة قيم الانغلاق ، وتعطي قيم العدالة والقيم الجماعية وقيم الفعل .

ولكن هذا الجهد التنويري والتطويري لا يجري في فراغ أو على أرض عمدة فالقيم التي تطرح حتى وإن قبلت شكليا فإن تأثيرها على السلوك الفعلي يحدده ما هو راسخ من قيم ومعتقدات وضغوط تمارسها المؤسسات المجتمعية المختلفة والمتعددة على متخذي القرار .

وفضلا عن ذلك فإن الجهود التنويرية والتطويرية لا تقف وحدها في الساحة فألى جانبها تنتشر دهورات ويتم صراع في ميادين مختلفة من أجل الحفاظ على القيم التقليدية والانغلاق على النفس ورفض الوافد وغير ذلك ، وهي أمور لا بد وأن يكون لها تأثيرها على السلوك الفعلي للأفراد في مجالات النشاط والعمل المختلفة . فالفرغ ، حتى وإن تعايشت دءخله اتجاهات قيمة متضادة ، فإن سلوكه الفعلي في كل المجالات يكون حصيلة لتصارع تلك الاتجاهات وأولويتها وقوتها لديه .

ورغم ما قد يكون لجهود التطوير الإداري والتنمية الإدارية من مردود في هذه المؤسسة أو المنظمة الإدارية أو تلك ، فإن أهم نواحي القصور الإدارية التي سبقت الإشارة إليها تستعصي على التغيير عن طريق الجهود الجزئية . إن تخيرا في السلوك بشأن هذه العقبات يرتبط في النهاية بحدوث تغييرات أساسية في القيم على نطاق المجتمع في مجموعه . ولذا يلي عرض سريع لبعض المتطلبات الرئيسية لتحقيق إصلاح إداري جذري والعوائق المجتمعية التي تقف عتبة أمام تحقيق ذلك :

(أ) اختيار العناصر الإدارية ، وبخاصة القيادية منها ، على أساس من الكفاءة دون غيرها ، واستبعاد أي تمييز ديني أو طائفي أو قبلي أو جغرافي على أساس من الجنس أو اللون . إن مثل هذا التوجه له أهميته القصوى في تحسين وتطوير الأداء في أي منظمة إدارية وفي إيجاد الظروف الملائمة لتلبية كل القرى البشرية في المنظمة الإدارية في اتجاه تحقيق أهدافها . ولكن وضع هذه القاعدة الذهبية موضع التطبيق في منظمة تعيش في مجتمع تسوده الصراعات الطائفية أو القبلية أو الدينية . وتوجد فيه درجة عالية من عدم المساواة أمر صعب للغاية ، خاصة وإن حدة الصراعات من هذا النوع قد تشتد بشكل خاص في داخل المنظمات الإدارية على المزايا المحدودة التي يمكن أن يتمتع بها البعض ويحرم منها البعض الآخر . وتزيد حدة هذا الصراع بشكل خاص كلما كانت الديمقراطية الداخلية في المنظمة الإدارية محدودة وعندما تكون القدرة على التنظيم والحصول على الحق شبه منقولة .

ان أي نظام للاختيار مهما كان موضوعيا يتم بواسطة أفراد هم أنفسهم جزء من هذا الصراع بين الجماعات البشرية التي تتعايش في إطار المنظمة الادارية وسيكون متأثرا بنفس القيم السائدة في المجتمع ككل . ان أعمال عامل الكفاءة وحده في الاختيار في المنظمات الادارية يتطلب أن تكون علاقات المساواة الحقيقية وتكافؤ الفرص للجميع سائدة في المجتمع نفسه .

(ب) اكتساب الادارة طابعا ديمقراطيا ليتمكن تعبئة كل الجهود البشرية لتحقيق أهداف المنظمة وإطلاق طاقات الافراد وإمكاناتهم . ان ذلك يعني بالنسبة للمشروعات العامة والخاصة القبول مبدأ لتحقيق أوسع مشاركة ممكنة في الادارة ، والاستعداد للقبول بالتمثيل المستقل للمعاملين ، وتوفير أساليب مناسبة للتفاوض المشترك وإنجاد سبل للتنظيم من أي قرارات يظن أنها جائرة ، ووجود إمكانية حقيقية لرفع الظلم في حالة وقوعه . كما يشمل ذلك في حالة الادارات الحكومية خضوع الادارة العامة لارادة ورقابة الرأي العام عن طريق أجهزة التشريع والرقابة البرلمانية والقبول بحرية الصحافة والنقد وغير ذلك من وسائل توجيه أجهزة الادارة الحكومية لخدمة الصالح العام .

ان تحولاً في المنظمات الادارية في هذه الاتجاهات رغم اهميته لن يصبح ميسورا ما لم تكن الديمقراطية قد اصبحت اسلوب حياة في المجتمع ، وما لم يكن الاسلوب الديمقراطي هو السائد في التعامل في الأسرة وفي المنظمات الاجتماعية المختلفة وفي العلاقة بين الحاكم والمحكوم . ان جهود التطوير الاداري مهما كانت شاملة غير قادرة على احداث اي تغيير يذكر في هذا الاتجاه اذا كان المجتمع الذي تتعايش المنظمة في داخله تسوده ايدولوجيات تؤكد عدم المساواة ولا تتيح تكافؤا في الفرص وتهدر كرامة الانسان' .

(ج) عدم تركيز المسئولية والاستعداد للتفويض بالسلطة . ويرتبط هذا الامر ايضا بمدى انتشار وسيادة مبادئ الديمقراطية وغيابها في المجتمع . كما يرتبط من ناحية اخرى بمدى التقارب الثقافي والقيمي بين أعضاء المجتمع .

ان سيادة « السلطة الابوية » في المجتمع تفرز في المنظمات الادارية ادارات تجمع في أيديها كل السلطات ويكون لها وحدها القول الفصل في كل الامور ، وتكون غير راغبة في التخلي عن تلك السلطة او تفويضها لاي شخص آخر .

من ناحية أخرى فان التمايز الثقافي الواسع داخل المجتمع واقتصار التعليم المتقدم على فئات مميزة محدودة ووجود انقسام اجتماعي واضح يؤدي الى تضارب في القيم والعادات بين أفراد المجتمع الواحد يجعل الادارات المسئولة اقل ميلا للتفويض بسلطاتها .

(د) سيادة روح المبادأة والابداع وعدم الاكتفاء بالاتجاه للاتباع بالغير ، الذي يتبدى بصفة خاصة في الاقتصار على نقل التكنولوجيا المعاصرة دون تعديلات لجعلها أكثر اتفاقا مع ظروف البيئة ، والاعتماد الكامل على الغير في التطوير والتجديد سواء في المعدات او العمليات او المواد الأولية او المنتجات وفي ميدان الادارة ايضا .



ان كل برامج التطوير الاداري تبرز كيف أصبح الابداع ، والتركيز على البحث والتطوير والتجديد المستمرمة أساسية من سمات المؤسسات العالمية الناجحة ، ولكن إدراك هذه الحقيقة وحده لا يؤدي الى خلق روح المبادرة والابداع في المؤسسات العربية . ان ذلك يرتبط بمجمل القيم السائدة في المجتمع ومدى تشجيعه على الابتكار والخروج عن المألوف ومدى تأكيده على ضرورة اتباع سلوك تقليدي وعدم الخروج عن الأعراف او الطرق المتبعة . كما يرتبط ايضا بالنظام التعليمي السائد ومدى تشجيعه للملكات الحفظ والتريد او البحث والابتكار لدى الشباب الذين سيكونون في الغد هم القوى البشرية المنتجة ، وقيادات للمؤسسات وعناصرها الادارية والعلمية .

(هـ) علاج الفساد الاداري في الادارة الحكومية والذي هو أحد المعوقات الأساسية للتطوير الاداري سواء في المنظمات الحكومية او في منظمات الأعمال العامة او الخاصة . وتنتشر هذه الظاهرة في العديد من البلاد النامية بما فيها الأنظمة العربية . ورحم ان الفساد قد يوجد بقدر أو بآخر في كافة النظم البيروقراطية فانه ينتشر في بعض الدول العربية بدرجة تجعله هو السلوك المادي للعاملين في الجهاز الاداري للدولة .

ويعود انتشار هذه الظاهرة لعند من الأسباب التي قد يكون بعضها اقتصاديا او اجتماعيا او سياسيا . فالفرق الاقتصادية والاجتماعية الضخمة وتتم القلة بنمط استهلاكي مرتفع لا يستطيع أغلب العاملين في الجهاز الاداري للدولة الوصول اليه خلال عملهم ومرتباتهم قد يساعد على انتشار الفساد . كما يشجع عليه الاحساس بعدم عدالة الأجور ووجود فروق وامتيازات لا مبرر لها يتمتع بها العاملون في المستويات الادارية الأعلى . ويدفع اليه أيضا السلطة الكبيرة التي تملكها عناصر الجهاز الاداري في الإذن أو المنع أو تسهيل أداء الأعمال . ويساعد على انتشاره جهل المواطنين بحقوقهم وعدم قدرتهم على الدفاع عنها وعدم خضوع الإدارة الحكومية لمساءلة حقيقية من السلطة التشريعية وصعوبة الرقابة القضائية . كما يدفع اليه انتفاء روح الخدمة العامة بين العاملين في الجهاز الحكومي وتدهور المستوى الاخلاقي والقيمي في المجتمع بصفة عامة والذي هو نتيجة لبعض هذه الأسباب وغيرها .

وإذا كان من الممكن معالجة بعض الأسباب السابقة في إطار نوع من الإصلاح الاداري الشامل الا انه يتطلب معالجة العديد من الأسباب الأخرى الا في إطار جهد إصلاحي أكبر .

(و) معالجة ظاهرة التكلس الوظيفي في الإدارات الحكومية وفي شركات القطاع العام والتي هي من أكثر الظواهر انتشارا في العديد من الدول العربية حتى تلك المحدودة السكان .

ان وجود هذه الظاهرة هو تعبير عن عدم كفاءة الأداء كما أنها سبب من أسباب انخفاض الكفاءة في الوقت نفسه .

ولا يعود التكلس الوظيفي في الغالب لأسباب فنية ، بل انه في العديد من الحالات نتيجة لأوضاع اقتصادية واجتماعية معينة ، ولتنوع السياسة العامة التي تتخذها الحكومة لمواجهة تزايد العرض من قوى العمل وعدودية الطلب

الحقيقي عليها . ان الإدارة الحكومية تلعب في العديد من المجتمعات العربية دور وكالة تشغيل العاطلين وبخاصة بين الفئات المتعلمة . ان البديل لقيام الحكومة بهذا الدور في كثير من الأحيان هو زيادة معدلات البطالة السافرة .

ان الاختلال بين العرض والطلب على العمالة قد يكون نتيجة للعديد من العوامل ، وعلى رأسها زيادة معدلات نمو السكان ومعدلات نمو المعلمين والحلل في النظام التعليمي وعدم ارتباطه باحتياجات السوق من العمالة . كما يرتبط ايضا بضعف النشاط الانتاجي داخل المجتمع لسبب او آخر وانخفاض معدلات نمو الاستثمارات ، ونوعية التكنولوجيا المستخدمة وغير ذلك .

ان معالجة مثل هذا التكلس الوظيفي نستحيل في العادة عن طريق تلك الاصلاحات الادارية التي تركز على دراسة عبء العمل ووصف الوظائف وتحليلها ودراسة وتحديد معدلات الاداء بهدف الحد من الاعداد الزائدة عن الحاجة لاداء الوظائف المطلوبة . إن إصلاحات من هذا النوع كثيرا ما تصطدم لا بعدم إمكانية تصفية الزيادة غير المطلوبة لأسباب اجتماعية فحسب بل و بضرورة استيعاب أعداد جديدة كبيرة عن ينضمون الى سوق العمل في اطار الإدارة الحكومية كوسيلة للحد من أخطار البطالة بين المعلمين . إن مشكلة التكلس الوظيفي لا تعالج الا في اطار اقتصادي واجتماعي أشمل يتضمن مواجهة كل الأسباب العميقة التي تكمن وراء الظاهرة .

#### سادسا : التحديات المستقبلية للإدارة العربية

يدخل المجتمع العربي الحقبه الاخيره من القرن العشرين من موضع يتصف بالضعف وزيادة حدة تشوه الهياكل الاقتصادية والانكشاف الاقتصادي على العالم الخارجي و بروز أزمة مجتمعية حادة يمكن الاشارة الى أهم سماتها فيما يلي :

(أ) لم يزل المجتمع العربي يعيش مرحلة انتقالية طالت لفترة تجاوزت القرن بعد فترة طويلة من الركود زادت على خمسة قرون . وقد طالت فترة الانتقال تلك نتيجة للتدخل الاجنبي والسيطرة الخارجية من جهة ولانحداد واستمرار الصراع بين اتجاهات مختلفة في الوطن العربي حول سبل النهضة من جانب آخر . فبينما يدعو البعض الى محاكاة من سبقونا وتفوقوا علينا والاخذ بالاسباب التي أدت الى تقدمهم وتبني لثقافتهم ونبد التقاليد والمادات والقيم السلفية الخبيثة التي اعتبرت أسبابا للتدهور والركود والتخلف ، تشدد اتجاهات اخرى على أهمية رفض الجديد والالذ والالتكفاء على النفس والتمسك بالتقاليد ورفض الانفتاح على الثقافات الاخرى والتحذير من الغزو الثقافي . بينما يدعو آخرون الى تبني موقف انتقائي - وصل احيانا الى التلقيفية - يأخذ بالاسباب ومناهج الحضارة الغربية في ميادين العلوم الطبيعية والبحث ، وطرق الانتاج المادي ويرفض تبني القيم والمادات والالاسس الثقافية والفلسفية التي استندت اليها تلك الحضارة او التي كانت إحدى نتائج تطورها .

لقد سارت حركة النهضة العربية لذلك في خط شديد التعرج وعلى بالانحناءات دون تراكم في اتجاه المصعد او

الحل . وأدى التدخل الاجنبي اضافة الى الأخطاء الداخلية ونواحي القصور والضعف الى هزائم عسكرية كانت تصحب دائما بتعديلات أساسية في التوجهات نتيجة لصعود بعض الاتجاهات ونفوت اتجاهات أخرى مضادة . لقد صغيت المحاولات الأولى للنهضة عن طريق التدخل الاستعماري المباشر وتكفلت نكبة فلسطين في عام ١٩٤٨ بانهاض محاولات الإصلاح الليبرالي والتحديث على النمط الغربي في عدد هام من الدول العربية . وأدت هزيمة ١٩٦٧ الى التنصيف التدريجي لمحاولات الإصلاح « الاشتراكي العربي » وإقامة الدولة العربية الموحدة ، إذ كانت الهزائم العسكرية في كل الأحوال تعبيراً عن جوانب الضعف الأساسية التي تعاني منها الانظمة القائمة ومؤشراً على عدم قدرتها على إنجاز نهضة شاملة تحقق أمن الوطن ورفاهية المواطن والوفاء باحتياجاته المادية والمعنوية المتنامية ، كما كانت دافعا الى العودة مرة بعد أخرى الى اشتداد الصراع بين الاتجاهات والتوجهات المختلفة حول الماهية والهوية وأفضل الطرق للخروج من الازمة وتحقيق النهضة .

(ب) بالرغم من محاولات التحديث والتنمية والكفاح في سبيل التحرر السياسي والاقتصادي بقي المجتمع العربي متخلفا تنسج الفجوة الحضارية بينه وبين المجتمعات المتقدمة التي تستمر في ممارسة هيمنتها عليه واستغلالها له وتدخلها في شؤونه الداخلية بأساليب وآليات مختلفة ومتجددة . وتستمر لذلك وتعمق أوضاع التبعية العربية للخارج في مختلف المجالات بما في ذلك المجالات الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية والسياسية والعسكرية وأنماط وأساليب المعيشة .

وتتسع في إطار الهيمنة وتعمق التبعية الفجوة في مستويات الدخل بين الاقطار العربية ، وبين الطبقات الميسورة والكادحة داخل كل قطر ، وتتزايد الفتنة العربي وتشتد الصراعات بين الاقطار العربية وداخلها سواء بين الطوائف او الجماعات الاثنية او بين الطبقات الاجتماعية .

ويؤدي استمرار نموذج النمو التابع واستمرار اللحاق بالعالم الاكثر تقدما من وضع أدنى الى انتشار ردود افعال عكسية تتخذ شكل الرفض والدعوة للانكفاء على النفس والحنين الى ماضٍ ذهبي .

(ج) بالرغم من ظهور وجود بعض التنظيمات الاجتماعية الحديثة ( الثانوية ) في المجتمعات العربية كالتقانات والجمعيات والأحزاب السياسية وغيرها . . . فقد استمرت العلاقات الاجتماعية في المجتمع العربي علاقات أولية شخصية وثيقة لا رسمية تلعب فيها الجماعات الوسيطة المبنية على القرابة او التجاور الجغرافي دورا مرموقا ( القبيلة ، الطائفة ، الفقة ، القرية ، الحي ، او المجتمع المحلي ) وتتم الصلة بين المؤسسة العامة التي تمثل المجتمع ( الدولة ) والأفراد خلال هذه الجماعات وتتأثر حتى التنظيمات الاجتماعية الحديثة نفسها بالعلاقات الاجتماعية التقليدية التي تستمر في نفوذها رغم ما قد يكون قد ألم بهذا النفوذ من ضعف نتيجة لتوسع المدن والهجرة والتعليم وازدياد دور الدولة وتوسع نشاطها .

(د) تستمر سيادة ايديولوجية عائلية هومية على أساس من الجنس والعمر ، تعمم دور رب الاسرة الى ميادين

المحل والتربية والسياسة . وتؤكد تلك الأيديولوجية أن الأب والمدير والمعلم والقائد السياسي أو الرئيس أو الأمير هو الذي يعرف ويعي مصالح أسرته أو عماله أو تلاميذه أو تابعيه أو رعاياه ، وأنه الأقدر على التقييم والحكم ، وأنه دون غيره صاحب الحق في إصدار القرار الأخير وتحديد ما يجب وما لا يجب عندما تتور الخلافات .

أما أعضاء الأسرة أو العاملون أو الطلاب أو الرعايا فإن أهم واجباتهم هي إطاعة واحترام رب الأسرة الصغيرة أو الكبيرة ، والامتناع عن الخروج على القواعد والأوامر والنواهي ، وتكون أشد مخالفتهم التي تستوجب العقوبة أو العقاب هي الجهر بالعصيان أو التمرد على الأوامر أو القواعد والنظام .

ومع أن هذه الأيديولوجية السائدة لا تتعارض مع قدر من الاستثناس بالرأي وطلب المشورة فإنها ترفض مشاركة حقيقية في القرارات تنبعث من قاعدة المساواة في الحقوق والواجبات . وتبقى القرارات النهائية ، في آخر المطاف وبغض النظر عن الشكل ، في يد الأب أو المدير أو الرئيس أو الزعيم أو الحاكم .

(هـ) مكنت الأيديولوجية العائلية الهرمية السائدة من نشوء واستقرار أنظمة حكم تؤله الزعماء الأفراد ، وتتبنى بحكمتهن الواسعة وقدراتهن الفائقة ، وتقانيهن في الدفاع عن مصالح أهمهم . وتم التوحيد بين أمن الزعيم أو الرئيس الفرد وبين أمن الوطن . وقيل بشكل عام إسكات المعارضين أو المخالفين في الرأي الذين ينظر إليهم باعتبارهم عناصر عدم استقرار . ويمكن لتلك الزعامات أن تحظى بنفوذ شعبي واسع طالما كانت تحقق ما يبدو أنه إنجازات لصالح شعوبها . على أن عجز تلك الزعامات والأنظمة عن تحقيق الأهداف التي بشروا بها سرعان ما طهر وانقلبت الأنظمة الفاعلة على الأبرية إلى أنظمة سلطوية شديدة البطش والنفذ تعتدي على حقوق الشعوب وتكبل بها وتفرض عليها الاستكانة وصرف اهتمامها لمجرد استمرار المعيشة والوجود ، أو لتوفير مقتنيات من السلع والأشياء مما فرض على الإنسان العربي الاغتراب داخل وطنه .

(و) لقد أنتج ذلك كله حالة من التفكك والخلخلة والتجزئة السياسية والاجتماعية في الوطن العربي قادت إلى اشتداد النزاعات لا بين الاقطار العربية وحسب ، بل وفي داخل العديد من الاقطار وحتى داخل الطوائف والفئات في القطر الواحد مما أصبح يهدد وجود المجتمع أو الدولة في أكثر من قطر عربي .

وتقرب على التفكك وتبعية الوطن العربي واغتراب الانسان العربي فيه زيادة حدة التناقضات ونشوء حالة من الفوضى في القيم عندما فقدت بعض القيم قدرتها على ضبط السلوك دون أن تحل محلها قيم جديدة ، الأمر الذي وسع من انتشار روح الكسب الفردي والانتهازية ، والانحرافات الاجتماعية والنزعة الاستهلاكية المظهرية المقترنة بآبراز المكانة ، وأدى من ناحية أخرى إلى شيوع الاتجاه إلى الانسحاب والحرب ، أو الخضوع والانسجام والتلازم ، أو اللجوء إلى حالات من التمرد الفردي للمنزل .

ان المنظمات الادارية العربية هي جزء لا يتجزأ من هذا المجتمع العربي ولكنها تعمل وتحثك وتتنافس وتتعاون وتواجه تحدى مؤسسات خارجية تعمل في إطار سوق دولي يزداد توجهه نحو العالمية وتتعاظم فيه سيطرة وهيمنة الشركات متعددة الجنسيات ويتميز بدرجة عالية من الحركية والتغير وتسارع ظهور سلع وعمليات جديدة وأشكال تنظيمية مستحدثة نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية التي تتسع آفاقها باستمرار .

ان هذا التفاعل والاحتكاك مع العالم الخارجى لا يقتصر على المؤسسات العربية التي تعمل في الأسواق الدولية ، بل يتعداها الى المؤسسات والمنظمات المحلية البحتة ذلك لأن الشركات متعددة الجنسيات تقتحم السوق الداخلى وتجعله مجالاً لأنشطة مختلفة لها . كما ان الدول العربية كلاً على حدة وفي مجموعها هي جزء من نسج من العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية يتصنف بتزايد الاعتماد المتبادل بين أجزائه وتوسع التكتلات الاقتصادية الدولية ، وزيادة حدة المنافسة من أجل تحقيق التمييز . ان مثل هذا الاعتماد للتبادل لا يقوم على أساس المساواة في كل الأحوال ، بل تنتشر في إطاره علاقات هيمنة من جانب الدول المتقدمة وثيمة من جانب دول العالم الثالث بما فيها الدول العربية . وفي مثل هذا الاطار فإن حركة المؤسسات والمنظمات العربية تبقى أقرب الى رد الفعل من الفعل . وهي تتأثر بالتطورات المتسارعة في التكنولوجيا وفي نظم الانتاج والادارة والاتصالات وفي طبيعة الأسواق وغيرها من العوامل دون أن تكون مصدراً فاعلاً في هذه التطورات .

#### سابعاً : مستقبل التنمية الإدارية في الوطن العربي : بعض قضايا رئيسة

يصعب في هذه المرحلة من مراحل تطور الوطن العربي الاقبال على نوع من الاستشراف للتطورات المحتملة في مجال التنمية الادارية العربية . ان النسق الادارى العربى سيظل مرتبطاً ارتباطاً شديداً بالنسق الاجتماعى الأشمل . وكما سبق أن أشرنا فإن المجتمع العربى يمر حالياً بمرحلة انتقال ممتدة تختمل بالصراعات والتوجهات المتعارضة التى يصعب معها التنبؤ باحتمالات التطور المقبلة . في ضوء ذلك نكتفى بالإشارة الى بعض القضايا الرئيسة التى تتعلق بالمستقبل والتى تنبثق عن استعراضنا السابق لنواحي القصور ومشاكل التطوير والتنمية الادارية في الوطن العربى .

أ - يتضح من استعراضنا السابق ان تحقيق نهضة إدارية عربية هو رهن بتحويلات مجتمعية أشمل تخرج المجتمع العربى من أزمتته وتكون عملية التنمية الادارية فيه جزءاً لا يتجزأ من جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بحيث تساهم محاولات التطوير والتنمية الادارية على مستوى المؤسسات والدولة تغييرات أعمق في القيم والبنى والمؤسسات المجتمعية والثقافة السائدة .

ان ذلك لا يعنى إهمال نشاط التنمية والتطوير الادارى الى حين انقاس التغيرات الاجتماعية المستهدفة ، ولكنه يعنى فقط أهمية إدراك الترابط بين النسق الاجتماعى الكلي والنسق الادارى وأهمية قيام القيادات الادارية بدور فعال في تحديد

السياسات العامة والسعى لاجراء التغييرات الضرورية وتوفير الحد الأدنى من الشروط الضرورية لنجاح عملهم على رأس مؤسساتهم ومنظمتهم الادارية .

ان التأكيد على هذه النظرة ينطلق من إدراك أن القيادات الادارية العليا في المؤسسات الخاصة والعامة والحكومة هي جزء من العناصر القيادية في أي مجتمع . وهي تلعب بحكم موقعها ومكانتها دورا هاما في تحديد سياسات التنمية والتطوير على نطاق المجتمع في مجموعه - وبخاصة في المجتمعات المستقرة - كما أنها تلعب الدور الرئيس في مجال تنفيذ تلك السياسات والتوجهات .

ان القيادات الادارية في المجتمعات المستقرة - أي المجتمعات التي ليست عرضة لتغيرات ثورية أو حادة في الاطر الاجتماعية والسياسية نتيجة لتولي قوى اجتماعية جديدة لثقافة السلطة أو استبدال النخبة الحاكمة بنخبة جديدة سواء عن طريق العنف أو بالطريق السلمي - تلعب دورا هاما في تحديد توجهات التنمية الاقتصادية الاجتماعية خلال الأديوار التي يلعبها القادة الاداريون كأفراد ضمن بيروقراطية الدولة المسؤولة عن دراسة المشكلات واقتراح السياسات وطرح البدائل ، أو ضمن مؤسساتهم ومشروعاتهم العامة التي تشارك بشكل أو آخر في تقديم الاقتراحات حول المشروعات والمخطط التنمية على مستوى المشروع أو مستوى القطاع ، أو باعتبارهم عناصر قيادية في مجال الأعمال الخاصة يؤخذ رأيهم ويستشارون أو يشاركون في أعمال اللجان المختصة بوضع المخطط واختيار السياسات وتأخذ ردود أفعالهم المختلفة في الحسبان عند الاختيار بين البدائل المختلفة وإصدار أي قرارات بشأن السياسات . من ناحية أخرى يلعب القادة الاداريون ورجال الأعمال دورا هاما في التأثير على السياسات العامة للدولة خلال منظماتهم المختلفة وجماعات الضغط التي تمثلهم وخلال وجودهم ونشاطهم في للمنظمات السياسية الحاكمة . أما دورهم الرئيس في مجال التنفيذ فلا يحتاج إلى شرح أو توضيح .

ومع ان القيادات الادارية لا تنفذ بأمر تقرير السياسات الكلية - التي هي في النهاية حصيلة ضغوط قوى اجتماعية وصراع قوى ومصالح حتى وإن كانت القرارات تتخذ بواسطة قيادة فردية مطلقة - فإن دورهم ولاشك يكون له تأثيره الهام الذي يصعب في كل الأحوال تجاهله . وتزداد قوة تأثيرهم في إحداث الإصلاحات اللازمة إذا كانوا على إدراك صحيح بحركة المجتمع وتفاعلاته وعلاقات القوى والمؤسسات المختلفة فيه ، وإذا كانوا على وعي بمهاجمة الشروط التي يجب توفرها للنجاح وتجاوز العقبات وطبيعة التغييرات المؤسسية والقيمية التي يجب السعي لتحقيقها ، وإن كانوا مقدرين تقديرا صحيحا لأهمية دورهم وحساسيته ومستعدين لإبصار وجهة نظرهم والدفاع عنها والترويج لها .

ان البيئة الخارجية التي تعمل في إطارها المؤسسات والمنظمات الإدارية العربية يجب ألا ينظر إليها من قبل القيادات الادارية كمعطيات نأخذها الادارة في الحسبان دون أي قدرة لها في التأثير عليها . ان البيئة الخارجية في المجتمع الذي تعمل فيه للمؤسسات العربية هي واحدة من التغيرات الكثيرة التي يكون لها تأثيرها على الادارة والتي يكون للادارة تأثيرها عليها ودور فعال في تغييرها .

ان التغييرات الثورية في المجتمعات غير المستقرة تحدث في العادة من خارج نطاق القيادات الادارية بواسطة قوى سياسية منظمة لا تضم من هؤلاء الا بعض عناصر فردية هي في حكم الاستثناء لا القاعدة . وتشمل مثل هذه التغييرات في العادة طرح مفاهيم جديدة والدعوة لقيم واتجاهات تعارض الاتجاهات السائدة ، وتنطوي على تغييرات واسعة في القيادات الادارية للمنظمات والمؤسسات المختلفة للمجتمع .

على ان نجاح القوى الثورية الجديدة في تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة لن يكون ممكنا الا ما ش خلال مؤسسات ومنظمات تكون مسؤولة عن وضع أهداف المغير الثوري موضع التنفيذ .

وبغض النظر عما إذا كانت قيادة تلك المؤسسات ستبقى في يد ادارة سابقة قبلت وأثبتت أهداف التغيير الثوري أو كانت في أيدي عناصر جديدة تم اختيارها من بين من قادوا ذلك التغيير أو تحالفوا مع عناصره فإن النجاح في إحداث نقلة للامام في المجتمع سيتوقف ضمن أشياء أخرى على مدى كفاية القيادات في إدارة المؤسسة التي هي مسؤولة عنها ، ومدى التناسق والتناغم بين النسق الاجتماعي الجديد والنسق الإداري الذي يعمل في ظله ، ومدى توفر الشروط الضرورية لإطلاق طاقات العمل الخلاقة على كل مستويات العمل الإداري .

ب - تبرز النتائج المحدودة لمحاولات إعادة التنظيم والإصلاح الإداري التي اعتمدت على النقل شبه الكامل لأنظمة إدارية أجنبية ونقل التكنولوجيا الإدارية السائدة في البلاد الصناعية المتطورة وزرعه أو فرضه في مجتمعات أخرى تختلف في المثل والقيم والعادات والمؤسسات ، أهمية الإبداع الإداري كبديل عن الاتباع في مجال التطوير والتنمية الإدارية .

وينطلق التوجه الإبداعي من الدراسة المعمقة والمكثفة للواقع القائم بهدف التعرف على أسباب الخلل ومعوقات النجاح وتبني الحلول التي تعالج تلك الأسباب وتحد من تأثير تلك المعوقات والتي تمنع النظام الإداري المقدم من العمل بيسر وسهولة وكفاءة لأجل تحقيق أهداف المؤسسة دون استهداف صورة مثل معينة محددة على أساس نظري مسبق ، أو اتباع نموذج سبق نجاحه في هذا المجتمع أو ذاك . وهو يسعى أيضا أن تكون نقطة البدء في تنمية وتطوير الإدارة في الوطن العربي هي التوجه إلى البنية المحلية لانتقاء عناصرها الإيجابية الموجودة بالفعل وتعزيزها ، وللتعرف على العناصر السلبية والسعي للحد من تأثيرها دون إهمال المتابعة المستمرة لعلوم الإدارة الحديثة وتطوراتها ودراسة النماذج المقارنة للادارة في الدول المختلفة لا بهدف النقل والتقليد وإنما بهدف تطوير نظم إدارية عربية تستند إلى المزج الإبداعي بين عناصر مستقاة من الخارج مع عناصر إيجابية محلية وهو ما يتطلب إلماما بالتجارب الإنسانية المعاصرة بهدف انتقاء مايفيد التنمية العربية وبنائها مع تكيفه لكي يتوافق مع مقوماتها ومكوناتها<sup>(٨)</sup> .

(٨) دكتور حسن بنصر الطيب ، الإصلاح الإداري في الوطن العربي بين الأصالة والمعاصرة الفصل الثامن من الكتاب الادارة العامة والإصلاح الإداري في الوطن العربي لعمير د . ناصر همد الصالح .

إن اتباع هذا المنهج يتطلب ارتباطاً وثيقاً بين الممارسة والبحوث والدراسات الأكاديمية ، وانطلاق محاولات الإبداع والتطوير من داخل المنظمات العربية الإدارية بالاستعانة بالخبرة الأكاديمية ، وذلك من أجل البناء التدريجي لأنظمة عربية إدارية ذات كفاءة وفعالية تستند الى فلسفة واضحة للإدارة العربية . إن ذلك هو السبيل الوحيد الذي يسمح بتراكم معارف وخبرة إدارة عربية خاصة يمكن أن يعتمد عليها في تنمية القادة الإداريين العرب وتطوير قدراتهم ومهاراتهم .

إن تطويراً إدارياً فعالاً من هذا النوع يتطلب أن تقترب جهود التنمية أكثر فأكثر من ميادين الممارسة والنشاط وأن ترتبط ارتباطاً مباشراً بخطة العمل ، وأن تمارس بالتالي في المؤسسات الإدارية نفسها ، دون استبعاد لأنشطة تدريبية خارجية عندما تكون هناك حاجة لذلك<sup>(٩)</sup> .

جـ - إن التطوير والتنمية الإدارية على المستوى المجتمعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتنمية الإدارة - وبخاصة الإدارية العليا - على مستوى المؤسسات والمنظمات الإدارية وعلى رأسها مؤسسات الأعمال العامة والخاصة .

وتتطلب عملية التنمية الإدارية على المستوى المؤسسي إحداث تعديلات أساسية وتطوير الأداء في عدد من النواحي في الوقت نفسه .

إن أحد العناصر الرئيسة التي يجب أن يتجه اليها الاهتمام هو أن يتم اختيار القيادات الإدارية في المؤسسات على أساس الكفاءة والقدرة على المبادرة والتطور واكتساب مهارات جديدة ، والقدرة على قيادة الأفراد وتوجيه الجهود لتحسين الأداء وتحقيق أهداف المؤسسة . ويتطلب ذلك توفير جو عام في المؤسسة وفي المجتمع يسمح بفرز العناصر الإدارية على أساس قدراتها الفعلية وإمكاناتها ، وهو ما يعني توفير قدر من حرية الحركة وإمكانات اتخاذ القرارات المستقلة وتحمل المخاطر التي ترتبط بهذه القرارات . كما يتطلب توفير قدر من المنافسة بين الوحدات تسمح باختيار قرارات قياداتها مع ما يعنيه ذلك من استبعاد ، أو على الأقل الحد من ، الاتجاه المبالغ فيه لحماية المؤسسات الوطنية ضد المنافسة الخارجية وسماحتها على تجاوز العثرات التي قد تواجهها عن طريق مختلف أشكال الدعم الحكومي .

إن اختيار القيادات الإدارية على أساس الصلاحية يتطلب التوجه الى الفصل بين الإدارة والملكية في القطاع الخاص ، وهو ما يتطلب تطوير شركات الأموال والحد من السيطرة العائلية في إطارها .

Charles Margerison: Trends in Management Development. The Need for Some Hard Based Rules. The Journal of Management Development, Volume 7 No. 6 1988 p. 361.



ان اختيار القيادات يتم من داخل المؤسسات الادارية أو خارجها . ودون اخلاق لامتكانية الاستعانة بعناصر ذات كفاءة من خارج المؤسسة فالأصلح أن تتاح الفرص للعناصر الداخلية في المؤسسة لترقي الى المناصب الإدارية العليا فيها . ويتطلب حسن الاختيار من الداخل المتابعة المستمرة للعناصر الادارية في المؤسسة والتعرف على قدراتها وفتح الطريق لتقديم العناصر الصالحة منها وكسابها المزيد من الخبرة والتجربة والمهارات سواء عن طريق التدريب الداخلي في أثناء العمل أو عن طريق التدريب واكتساب خبرات إضافية عن طريق برامج يتم اختيارها بعناية .

ويعنى اختيار القيادات على أساس الصلاحية الاستناد الى الأداء في تقييم العناصر الادارية في المؤسسة أو المنظمة وهو ما يتطلب بالضرورة تحديدًا واضحًا لماهية الأداء المطلوب وإيجاد مقاييس موضوعية لقياس ذلك الأداء . ان الاداء المطلوب قد يختلف من عمل لآخر ولكنه يشمل بالنسبة لتقنيات الادارية في كل الأحوال مدى القدرة على التصرف والمبادرة في المواقف الصعبة ، وعلى تلبية كل الجهود والعناصر لتحقيق أهداف المؤسسة ومدى الوعي بالعلاقة بين التكاليف والمنافع ومدى الحرص على اختيار البدائل الأكثر تعظيلاً للنفع أو الحد من التكاليف والخسائر . الخ .

إن الأداء المطلوب وكيفية وطرق قياسه يجب أن يكون معلوماً للقيادات الادارية ليكون موجهاً لسلوكها الفعلي . كما أنه لا بد وأن يصبح هو الأساس الذي تستند اليه مكافأة تلك القيادات أو عقابها بما في ذلك فتح الطريق للترقي وتولى مسؤوليات أعلى أو إخراجها من ذلك .

ولاتعمل العناصر الادارية منفصلة أو في فراغ ، بل هي تمارس عملها في ترابط مع باقى أجزاء المؤسسة أو المنظمة التي تعمل في إطارها . ولا يتوقف أداء أى قيادات إدارية على جهودها الخاصة وحسب ، بل وعلى مدى التنسيق والترابط والعمل المشترك مع العديد من إدارات المؤسسة أو المنظمة الأخرى . ان اختيار الشكل التنظيمي والعلاقات التنظيمية الملائمة لتحقيق مثل هذا التعاون والترابط الذى يسمح بتعبئة كل الجهود لتحقيق الأهداف المشتركة هي شروط أساسية لتحسين الأداء على مستوى المنظمة في مجموعها ، ولتوفير القدرة على قياس أداء القيادات الادارية في مختلف أجزاء المنظمة أو المؤسسة .

وتستهدف العلاقات التنظيمية أن توفر أكثر الظروف ملائمة لتحسين وتطوير الاداء ومن الضروري الاتصاح قيدا على إمكانات التقدم . ومن ثم فإننا نخفض أو يجب ان نخفض للتغير لتلائم التطورات التلاحقة والسريعة في المنظمة ونشاطها أو في أحوال السوق أو البيئة التي تعمل فيها أو في التكنولوجيا المستخدمة أو في أدوات ووسائل الاتصال أو غير ذلك .

ويتوقف تطوير الاداء كذلك على مدى توفر المعلومات الضرورية في الوقت المناسب لتخذي القرارات ، ومن ثم فإن تطوير نظم المعلومات وتحديد تيار البيانات الذى يتنقل من إدارة لأخرى داخل المنظمة أو المؤسسة أو من خارج

المؤسسة إلى داخلها ومعالجة هذه البيانات وتحليلها وعرضها بطرق مناسبة لمتخذي القرارات هي من الشروط الضرورية لتطوير وتحسين الأداء على مستوى المؤسسة وفي كل قسم من أقسامها الإدارية . إن نظم المعلومات هي أيضا المصدر الأساسي لامكان الحكم على أداء القيادات الادارية المختلفة في المنظمات الكبيرة . ومن ثم فإن تطوير نظم ملائمة للمعلومات شرط أساسي لتحسين الأداء وللرقابة الفعالة والموضوعية عليه .

ويعتبر توفير قدر من حرية الحركة وامكانيات اتخاذ قرارات مستقلة شروطاً ضرورية للنجاح وبصفة خاصة في المؤسسات التي تواجه منافسة شديدة في الأسواق الدولية والتي تتجه إلى التصدير لأسواق متسعة تنسم بقدر هام من الاختلاف ، وتعرضها لتغيرات متلاحقة وسريعة . وتقترض عالمية الأسواق واشتداد المنافسة بين الشركات متعددة الجنسيات وحاجة الدول العربية للتصدير في المستقبل ضرورة توفير مثل هذه القدرة على سرعة الحركة ومواجهة المواقف الصعبة براسطة قياداتها الادارية المختلفة . ان السماح بمثل هذه الحرية في الحركة مع الحفاظ على وحدة المؤسسة أو المنظمة الادارية وتحسين الترابط بين أجزائها يتطلب أن تطور المؤسسات والمنظمات الإدارية العربية فلسفة موحدة للمؤسسة أو المنظمة ونوعاً من الثقافة العامة المعلومة لناصرها الادارية المختلفة والتي تؤكد على تبنيها كل القيادات الادارية للمؤسسة أو المنظمة .

ولابد ان ترتبط المهارات المطلوب اكتسابها والاتجاهات والقيم التي يتم السعي لتغييرها أو تأكيدها أو اكتسابها ارتباطاً وثيقاً بعمل المؤسسة أو المنظمة الادارية وفلسفتها وثقافتها العامة وتوجهاتها لتكون أداة في التطوير والتنمية الادارية التي تحقق نجاح المؤسسة أو المنظمة وتزورها . وتستفيد المؤسسة أو للمنظمة في تحديد ما تسعى لتطويره من مهارات وقدرات من التطور والتقدم في علوم الادارة والتقدم في الممارسات الادارية لدى الغير مع الاستفادة من خبرات الاستشاريين والعناصر الأكاديمية الذين يقتصر دورهم على المساعدة في نقل الخبرات والتدريب على المهارات التي يرى الاستفادة منها .

إن التدريب ، وإن لعب دوراً هاماً في تنمية قدرات المديرين ، لا يعدو أن يكون عنصراً واحداً من العناصر المتعددة التي لابد أن تضمها عملية التنمية الادارية التي أشرنا إلى بعض جوانبها المهمة فيما سبق .



## ١ - مقدمة - أهمية مؤسسات التنمية الإدارية في الوطن

العربي :

ان تطوير الأجهزة الادارية في أية دولة وتنمية قدرات العاملين فيها أمر تقتضيه ظروف التنمية الشاملة التي تسمى معظم الدول لتحقيقها.

ويزداد الأمر إلحاحاً في الدول النامية ومنها الدول العربية التي تعاني في الغالب عجزاً إدارياً كبيراً يجعل عملية التنمية عملية صعبة ومعقدة تترفع ذات اليمين وذات الشمال لزال أجهزتها الادارية وعجزها عن تحمل الأعباء التي فرض عليها أن تؤدبها دون أن تبدأ لتحملها.

ومن هنا نجد أن تحقيق أهداف التنمية الشاملة يعتمد الى حد كبير على كفاءة الإدارة في التخطيط والتنفيذ والمراقبة. وهو الإدارة في التنمية كما أصبح معلوما اليوم هو دور مؤثر ومناثر ومتعدد الجوانب. ويقتضي ذلك بالضرورة العمل على تأصيل الجهات التطوير وإحداث التنمية الإدارية عن طريق إحداث أو تقوية مؤسسات التنمية الإدارية لكي تنفع في الأجهزة الإدارية روحاً جديده تساعد على تحمل المسؤوليات الجسيمة والأعباء المتعددة التي تفرضها ظروف التنمية.

وبالتالي فإن عملية التنمية الإدارية لم تعد من قبيل الترف الذي تسعى إليه الدول التي عتبت إنشاء مؤسسات التنمية الإدارية، بل ان الأمر أصبح ضرورة حتمية من ضرورات العمل اليومي، لمواجهة أمراض الضعف المستمرة داخل الأجهزة الحكومية التي تزدهر بمرور الأيام، مما ألغى عن تحقيق دورها المطلوب بالكفاءة والفاعلية المستقرة والرجوة، ولقد دعا الى حيز اداري يتطلب الجهود المشتركة على كافة مستويات الدولة لمعالجه. ولعل ذلك ما عناه زميلنا الدكتور / أسامة عبدالرحمن عندما قال :

مؤسسات تنمية إدارية في  
الوطن العربي وواقع تجربة  
المملكة العربية السعودية

محمد الطويل

مدير عام معهد الإدارة العامة  
المملكة العربية السعودية

«لعل معالجة العجز الإداري يحتاج إلى تدخل أوسع لا يأخذ متطلبات الحاضر في الاعتبار لحسب، ولكنه يأخذ متطلبات المستقبل أيضاً. ولا تعتبر مسئولية معالجة هذا العجز قاصرة على هيئات الإصلاح الإداري ومعامد الإدارة وأجهزة التنظيم والأساليب، ولكنها مسئولية تشترك فيها جميع الأجهزة والمؤسسات الحكومية وعلى كافة المستويات ويجب أن تتجاوز الأطار المعروف للتنمية الإدارية»<sup>(١)</sup>.

إن متطلبات التنمية الشاملة من التشعب والكتلة بحيث تتطلب أجهزة إدارية فعالة لتحمل أعبائها المتمثلة في العديد من المتطلبات التي يمكن إنجازها في التالي<sup>(٢)</sup>:

- الفعالية في إعداد الخطط وتنفيذها.
- الفعالية في توفير المصادر المالية وحسن إدارتها فنيا وسلوكيا.
- تحقيق فاعلية القوى العاملة اعدادا وتأهيلا وتوظيفا وسلوكا.
- القابلية لتطوير التنظيمي وكسر حدة مقاومة التغيير لمعالجة متطلبات التنمية.
- تطوير الأنظمة والأساليب والتقنية الحديثة وجعلها أداة لخدمة أهداف التنمية.
- الانفتاح على حصيلة المعرفة والفكر والبحث العلمي واستخدام المفيد منها لخدمة أغراض التنمية.

ومن هنا نشأت أهمية إيجاد أجهزة ومؤسسات للتنمية الإدارية تتولى هذا الجانب الهام من جوانب التنمية ضمن منظومة متكاملة من الأجهزة يختص بعضها بالتنظيم ويعنى بعض منها بالقوى العاملة ومعالج بعضها الآخر موضوع الاجراءات والبحوث والاستشارات والتقنية الإدارية. وهي جميعا ومثل أداة ووسيلة ناجحة للتغيير الهادف، ويمكن لها متى ما تحقق تكوينها في إطار مؤسسي متكامل، موفور الحظ من القدرات المؤهلة والامكانيات المالية والفنية الواجبة، أن تقوم بدور رأس الرمح في اعداد وتنفيذ خطط الإصلاح والتنمية والتطوير الإداري»<sup>(٣)</sup>.

ومن هذا المنطلق تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على دور المؤسسات المعنية بالتنمية الإدارية في الوطن العربي في احداث التطور المنشود في الإدارة، والدفع بالتنمية الإدارية إلى مستوى أفضل من واقع دراسة تجربة المملكة العربية السعودية في هذا المجال، مع الإشارة - عندما يقتضي الأمر كذلك - إلى تجارب بعض الدول العربية الأخرى.

وفي استعراضنا لتجربة المملكة سنركز المقارنة على تجربة اللجنة العليا للإصلاح الإداري، وتجربة معهد الإدارة العامة، باعتبارهما شخصان بموضوع التنظيم بشكل أساسي. أما الأجهزة الأخرى فسنستعرضها لفرض التعريف بدورها فقط كأجهزة مساعدة في عملية التنمية الإدارية، وهي:

(١) د. أسامة حداد، أهمية الإدارة للتنمية في دول الجزيرة العربية التنمى للقطر، بحث مقدم إلى ندوة دراسات التنمية، البحرين، ١٩٨٠، ص (٦).

(٢) تقييد من التفاصيل لرجوع إلى:

عبد حداد، المجلد الطويل، «دور الإدارة العامة في التنمية الاقتصادية»، بحوث لدولة أهمية الإدارة العامة للتنمية، معهد الإدارة العامة - الرياض، ١٩٧٨م، ص. ١٥ - ٤٥.

(٣) د. حسن أبشر الطيب، مؤسسات التنمية الإدارية، لؤشاعها فرقة واللق لتسليط، للخطبة العربية للعلوم الإدارية - عمان، ١٩٨٤م، ص ٩٧.

- ١ - مجلس الخدمة المدنية.
  - ب - الديوان العام للخدمة المدنية.
  - ج - مجلس القوى العاملة.
  - د - لجنة تدريب وإبتعاث موظفي الخدمة المدنية.
  - هـ - الادارة المركزية للتنظيم والادارة.
  - و - كليات الادارة بالجامعات السعودية.
- ٢ - واقع مؤسسات التنمية الادارية في الوطن العربي وتجربة المملكة العربية السعودية في هذا المجال:
- كما أسلفنا تتطلب عملية التنمية الادارية وجود منظومة متناسقة من الأجهزة والمؤسسات تعمل بتسيق متكامل لتحقيق أهداف التنمية الادارية، تتمثل في التالي:
- ١ - أجهزة مركزية تعنى بالاصلاح والتطوير الاداري إما على شكل لجان عليا أو على شكل وزارات متخصصة في هذا المجال، هدفها العناية بأمور تطوير الهياكل التنظيمية وإجراءات العمل وأساليبه.
  - ٢ - أجهزة مركزية على شكل مجالس أو وزارات متخصصة تعنى بشئون التخطيط للقوى العاملة هدفها تحديد القوى العاملة التي تحتاجها الدولة بقطاعها الحكومي والاهلي على المدى القصير والطويل، والتنسيق مع كافة المؤسسات التعليمية والتدريبية والادارية لتوفيرها بالنوعية والعدد المطلوب.
  - ٣ - أجهزة مركزية تعنى بشؤون الخدمة المدنية على شكل لجان ومجالس ووزارات وادارات مركزية، تهدف الى العناية بالقوى العاملة بالدولة من حيث وجود الأنظمة الحديثة والمتطورة التي تضمن زيادة الانتاجية وتوفير الانضباط الوظيفي والسلوكي والولاء الوظيفي وارتفاع معدلات الأداء للعاملين بالدولة.
  - ٤ - أجهزة مركزية على شكل مدارس ومعاهد وكليات للادارة العامة متخصصة، تعنى بشئون تدريب الأفراد العاملين أو الذين سيعملون بالدولة وتقديم الاستشارات الفنية لأجهزة الدولة والقيام بالبحوث لتشخيص المشكلات الادارية وأساليب القضاء عليها.
- هذه المتطلبات تمهد الى حد كبير مدى اهتمام الدولة بعملية التنمية الادارية من علمه. ولذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو مدى توفر مثل هذه الأجهزة والمؤسسات في أرجاء الوطن العربي ومدى فاعليتها في تحقيق التنمية الادارية المنشودة.
- ولأغراض هذه الدراسة فإننا سنعرض تلك الأجهزة من واقع تجربة المملكة العربية السعودية مع الإشارة الى تجارب بعض الدول العربية.
- واختيار تجربة المملكة ليس أمراً اختيارياً بالنسبة للكاتب، بل تم بناء على طلب المشرع من هذه المجلة. ولعل ذلك عائد الى تكامل أجهزة التنمية الادارية في المملكة مقارنة بما عليه الوضع في بقية الدول العربية، وهي

حقيقة يدركها الكثير من الباحثين العرب في مجال التنمية الادارية، ووردت الاشارة بها في الكثير من كتاباتهم. وفي ذلك يقول الدكتور/ نزيه الازهرى:

« من مظاهر القصور السائد في كثير من الدول العربية عدم التنسيق ومحدودية التكامل بين أنشطة مؤسسات التنمية الادارية من ناحية، وأنشطة أجهزة التنمية الادارية من ناحية أخرى. مما يؤدي الى كثير من مظاهر التكرار والازدواج. فضلا عن اهدار كثير من فرص التعاون والاستفادة المتبادلة. والسبيل الى تجنب هذا المزالق - كما سنرى فيما بعد - هو توحيد المنظمات المسئولة عن التنمية الادارية في اطار مؤسسي واحد، ولا نقول بالضرورة توحيدها في منظمة واحدة، وإنما في اطار مؤسسي واحد. وهو أمر اقترت منه الى حد ما التجربة السعودية، مما أضفى على جهود التنمية الادارية فيها حيوية لا تتمتع بها كثير من الدول العربية الاخرى »<sup>(٤)</sup>.

ويؤيد في ذلك د. حسن أبشر الطيب اذ يقول :

« إن صورة العلاقات المؤسسية بين مؤسسات وأجهزة التنمية الادارية في الوطن العربي، وإن لم تكن مشرقة تماما فهي أيضا ليست بقائمة كليا. هناك بعض التجارب لعدد محدود من هذه المؤسسات تستحق التأمل والنظر والاهتمام بها في بناء وتنمية العلاقات المؤسسية بين مؤسسات وأجهزة التنمية الادارية. إن من أبرز هذه التجارب الرائدة تجربة المملكة العربية السعودية . . . . إن هذا النموذج من العلاقات والقنوات المؤسسية بين مؤسسات وأجهزة التنمية الادارية جدير بالدراسة والتأمل والافادة منه في بقية الدول العربية »<sup>(٥)</sup>.

ويؤيّد على رأيها الدكتور/ ناصف عبدالحق فيقول :

« تقدم المملكة العربية السعودية نموذجا متكاملًا لمنط التنمية وإدارة التنمية التي تجاوزت حدود الادارة العامة التقليدية لمجموعة الخدمات الاساسية المعروفة في الدولة الى الادارة الديناميكية المتطورة، التي تلاحق الارضات والمتطلبات المتزايدة، وليس هذا فحسب - بل تعمل على تطوير وتحريك هذه الارضات من أجل دفع عملية التنمية في مجالاتها ومستوياتها المختلفة. إنها باختصار ادارة تفود وتمهد للتنمية، وتوفر لها ظروف عملها، وتلذل من أمامها ما يعوق جهودها أو يعترضها من تحديات »<sup>(٦)</sup>.

(٤) د. نزيه الازهرى، أجهزة تنمية الادارية ومؤسساتها في الاقطار العربية : وضعها وتطورها في مجلة التنمية ، المجلد العربية للادارة، المجلد التاسع، العدد الرابع، صيدا، عريف ١٩٨٥م، ص. ١٨ - ٢٠.

(٥) د. حسن الطيب، مؤسسات التنمية الادارية، مرجع سابق، ص. ٣٧ و ٤٠.

(٦) د. ناصف عبدالحق، دراسة تحليلية لمؤسسات وأجهزة تنمية الادارية في للمملكة العربية السعودية، مقدمة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة الكويت، ١٩٨٨م، ص. ٣٠.

وشهادة الآخرين عن تجربة المملكة العربية السعودية لا تعني بالتأكيد خلو هذه التجربة من بعض السلبيات، وحاجتها الى مزيد من التطوير والتنسيق. وفي ذلك يقول الدكتور / غازي القصيبي :

« وأنصوّر، وتصوري قابل للطعن والتجريح لأنه من قبيل مداح نفسه يقرّك السلام. ان كائننا الاداري تمكن خلال السنوات القليلة الماضية من تحقيق منجزات كثيرة للانسان السعودي. ولعل اوضح دليل على ذلك أنه تمكن في وقت قصير من اتفاق عشرات البلايين من الريالات في مشاريع تصل على نحو أو آخر بالتنمية وذلك ليس بالانجاز السهل كما قد يتبادر الى ذهن أحد عن يقفون متفرجين على شواطئ البيروقراطية مكتفين بتوجيه كلمات الاستحسان أو كلمات الاستهجان الى السابحين في المحيط. غير أن هذه الحقيقة اذا سلمنا بأنها حقيقة لا يجب أن تدفعنا معشر الكائنات الادارية الى أن نهب فيماتق بعضنا البعض في موجة عامة من موجات الرضا عن النفس وتبنته الذات. ذلك أن هناك حقيقة أخرى لا يجادل فيها أحد وهي أن الكائن الاداري السعودي لا يزال يحتاج الى جهد طويل وطويل لكي يواجه التحديات التاريخية التي ألّفت بها قدر التنمية على أكتاف هذا الجيل»<sup>(٨)</sup>

بعد هذا الاستعراض القصير لمسيبات اختيار تجربة المملكة العربية السعودية نتقل الى استعراض هذه التجربة.

#### ١/٢ مجلس الخدمة المدنية :

أنشئ مجلس الخدمة المدنية بالمرسوم الملكي رقم (٤٨/م) لعام ١٣٩٧هـ (١٩٧٨م) ، المعدل بالمرسوم رقم (٥٣/م) بتاريخ ١٦/١١/١٤٠٢هـ (١٩٨٣) (٨). ويتولى مجلس الخدمة المدنية بالتعاون مع الجهات المختصة التخطيط وتنظيم شئون الخدمة المدنية في جميع الوزارات والمصالح الحكومية والأجهزة ذات الشخصية المعنوية العامة والاشراف عليها بما يؤمن تطوير مستوى الخدمة المدنية ورفع الكفاءة الانتاجية<sup>(٩)</sup>. ويختص مجلس الخدمة المدنية بما يلي:<sup>(١٠)</sup>

- إصدار اللوائح المتعلقة بشئون الخدمة المدنية وإبداء الرأي في المعاملات التي ترفع من الوزارات والمصالح الحكومية ذات العلاقة بالعاملين في الخدمة المدنية.

(٨) د. غازي عبدالرحمن القصيبي، «الكفاءة الانتاجية لتدويرة الاطارية للتنمية، بحوث تدويرة وأهمية الادارة للتنمية»، معهد الادارة العامة - الرياض، ١٩٧٨م، ص.

١٢.

(٩) مدّل المرسوم الملكي رقم (٥٣/م) ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م بتشكيل مجلس الخدمة المدنية ببحث يرأسه عظيم الحزمون رئيس مجلس الوزراء ويتوزع عنه في رئاسته نائب رئيس مجلس الوزراء وعضو أربعة من الوزراء واللثة من ذوي الاختصاص.

(٩) المادة (١) من نظام مجلس الخدمة المدنية الصادر بالمرسوم الملكي رقم (٤٨/م) ١٣٩٧هـ - ١٩٧٨م.

(١٠) المادة (٩) من نظام مجلس الخدمة المدنية.

### ٢- التعاون مع الجهات المختصة في المجالات التالية :

- رسم السياسات العامة للخدمة المدنية ووضع الخطط والبرامج اللازمة لتنفيذها.
- تنمية القوى العاملة في الجهاز الحكومي ورفع كفاءتها الانتاجية عن طريق التدريب والاعداد.
- تطوير التشكيلات والنظم الادارية القائمة في الأجهزة الحكومية وتحسين إجراءات وأسابيل العمل فيها.
- إحكام الرقابة الادارية على جميع ما يؤدى ضمن شئون الخدمة المدنية من أعمال وإجراءات من قبل الأجهزة العاملة في الدولة بما فيها الأجهزة ذات الشخصية المعنوية العامة والتأكد من تمشيها مع الأنظمة واللوائح.
- تصنيف الوظائف.
- دراسة معدلات الأجور والرواتب واقتراح تعديلها، وتحديد وتنظيم صرف المكافآت والبدلات للعاملين في الدولة.

ويعاود مجلس الخدمة المدنية لجنة إدارية تحضيرية حُدِّثت صلاحيتها في دراسة وتقديم التوصيات حول الموضوعات التي يجيئها إليها أمين عام مجلس الخدمة المدنية بناء على توصية مجلس الخدمة المدنية أو رئيس الديوان العام للخدمة المدنية، وتتكون من مدير عام معهد الإدارة العامة، ونائب رئيس الديوان العام للخدمة المدنية للشئون التنفيذية وأمين عام مجلس الخدمة المدنية ومدير عام الإدارة المركزية للتنظيم والإدارة.

كما أن لمجلس الخدمة المدنية أمانة عامة يرأسها أمين عام المجلس وهو بدرجة وكيل وزارة، تعمل تحت إشراف وزير الدولة رئيس الديوان العام للخدمة المدنية. وقد وفر مجلس الخدمة المدنية القيادة الجماهيرية للخدمة المدنية، وأصبح الجهاز المخطط والمنسق مع أجهزة التنمية الادارية الأخرى لتطوير الخدمة المدنية وعلاج مشكلاتها العامة، وأزاح بما له من صلاحيات ويحكم تشكيله كثيراً من الأعباء عن مجلس الوزراء مما كان يرفع اليه في الماضي قبل قيامه.

### ٢/٢ الديوان العام للخدمة المدنية :

مر الديوان العام للخدمة المدنية في تطوره بعدد من مراحل النمو في الفترة من ١٣٦٣هـ (١٩٤٣م) وحتى عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٨م) عندما صير نظام جديد للخدمة المدنية <sup>(١)</sup> عدل مساهم من ديوان الموظفين العام الى الديوان العام للخدمة المدنية، وعرف الديوان بأنه <sup>(٢)</sup> : «هيئة مستقلة تتولى الاشراف على شئون الخدمة المدنية في الوزارات والمصالح الحكومية والأجهزة ذات الشخصية المعنوية العامة ويرتبط بمجلس الخدمة المدنية».

كما حددت المادة (١٠) من نظام الخدمة المدنية اختصاصات الديوان فيما يلي :

٢- مراقبة تنفيذ أنظمة الخدمة المدنية واللوائح والقرارات المتعلقة بها.

(١) نظام الخدمة المدنية الصادر بالمرسوم الملكي رقم (م/٤٩) وتاريخ ١٠/٧/١٣٩٧هـ (١٩٧٨م).

(٢) المادة (٣) من نظام الخدمة المدنية.



- اجراء الدراسات والبحوث المتعلقة بالخدمة المدنية وخاصة في مجال تصنيف الوظائف، الأجور، البدلات، المكافآت، والتعويضات.
- اقتراح الأنظمة واللوائح المتعلقة بشئون الخدمة المدنية وتقديمها الى مجلس الخدمة المدنية.
- وضع القواعد والاجراءات الخاصة باختيار أفضل المتقدمين لشغل الوظائف الشاغرة.
- تصنيف الوظائف واقتراح الرواتب والأجور والبدلات والتعويضات والمكافآت وكذلك دراسة الوظائف المطلوب احداثها للتأكد من مطابقتها لقواعد التصنيف.
- وضع القواعد والاجراءات الخاصة بحفظ سجلات الموظفين بما يكفل تكامل المعلومات المطلوبة من كل موظف.
- التعاون مع ادارات شئون الموظفين وتوجيهها الى أفضل الطرق لتنفيذ الأنظمة واللوائح والقرارات المتعلقة بشئون الموظفين وضبط السجلات الخاصة بالتعيينات والترقيات والنقل وغير ذلك من الأمور المتعلقة بشئون الخدمة المدنية.
- فحص تظلمات الموظفين المحالة اليه من الجهات المختصة وإبداء الرأي فيها.
- أية اختصاصات أخرى تسندها اليه الأنظمة واللوائح وقرارات مجلس الخدمة المدنية.
- وقد قام الديوان العام للخدمة المدنية بالعديد من الانجازات التي تمثلت في :<sup>(١٧)</sup>
- فتح فروع رئيسية له في مناطق المملكة لتخفف من سلبات مركزية التوظيف.
- فتح مكاتب الخدمة النسائية بالمناطق المختلفة بالمملكة.
- فتح مكاتب توظيف خارج المملكة لتوظيف غير السعوديين.
- القيام بالدراسات المتخصصة التي ساعدت في صدور قرارات مجلس الخدمة المدنية حول اللوائح التنظيمية الهامة، مثل لائحة تقويم الأداء الوظيفي ولائحة الترتيب، ولائحة توظيف غير السعوديين.
- إعداد قواعد التصنيف وتنفيذ قرارات مجلس الخدمة المدنية.

(١٧) مزيد من التفصيل حول انجازات الديوان انظر :

- خالد جبالكريم الحمد، مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٥ .

- جبالكريم الركابي، « الأجهزة المركزية للخدمة المدنية ودورها في الإصلاح الإداري : تجربة المملكة العربية السعودية »، الديوان العام للخدمة المدنية، ١٤١٤هـ، ص ١٠٦ .

- التقرير السنوي للديوان العام للخدمة المدنية.

كما أن هذا النظام الجديد يفي على نظام الجدارة في الخدمة المدنية وهو أحدث الاتجاهات الحديثة في مجال الخدمة المدنية، وأهم أسسه ما يلي:

١ - مركزية التوظيف : مما يعني وجود مقاييس موحدة على صعيد الخدمة في اختبار وتوزيع الأفراد على الأجهزة الحكومية المختلفة عن طريق الاعلان والمسابقة التي يجريها الديوان العام للخدمة المدنية.

٢ - تصنيف الوظائف : حيث قسمت الوظائف الى مجموعات مهنية مختلفة مع تحديد مسؤوليات وواجبات كل وظيفة، والمؤهلات المطلوبة لها، بحيث يمكن تطبيق مبدأ الموظف للموظفة وليس العكس.

٣ - فترة التجربة : حيث يكون الموظف تحت التجربة لمدة عام يمكن خلالها إنهاء خدمته كجزء مكمل يحقق سلامة وفاعلية طرق الاختيار.

٤ - الترقية والنقل : حيث أصبحا يخضعان لنفس الأسس والمقاييس التي تستخدم في التعيين ويوجه خاص جواز الترقية عن طريق المسابقة.

٥ - التدريب : حيث نص النظام على أنه جزء من واجبات الوظيفة والزم أجهزة الدولة باتاحة المجال للموظف لتزيد من التدريب لزيادة قدرة الموظف على أداء عمله.

ومع أن هذا النظام يعتبر من النظم المتطورة في مجال الخدمة، فإن ديوان الخدمة المدنية لا يزال مترددا في تطبيق بعض بنوده واستكمال إصدار لوائحه التي كان النظام يهدف منها الى التفويض التدريجي للأجهزة الحكومية في ممارسة بعض مهام الديوان كالمسابقات للمراتب من الخامسة فما دون، وتفويض الوزراء في التعيين من المراتب العاشرة حتى الثالثة عشرة.

وما لم يخفف الديوان من مركزته وتفويض الأجهزة الحكومية بعض الصلاحيات التي تسهل أعمالها، فإن روح النظام وعصره ستفقد قيمتها وتصبح نصوصا جامدة تكبل أيدي المسؤولين بدلا من أن تساعد على تطوير القوى العاملة في أجهزتهم.

### ٣/٢ مجلس القوى العاملة :

عانت المملكة العربية السعودية ولا زالت تعاني نقصا كبيرا في القوى العاملة، وخاصة في المجالات التخصصية والفنية والحرفية، مما أدى الى الاعتماد بشكل كبير على العمالة الوافدة من حرية وأجنبية. ولقد شكلت العديد من اللجان الوزارية المؤقتة لدراسة أوضاع القوى العاملة. وانتهت هذه المحاولات بصدر المرسوم الملكي رقم (م/٣١) بتاريخ ١٤٠٠/٨/١٥ هـ (١٩٨٠م) الى إنشاء مجلس القوى العاملة والمواظقة على نظامه.

تشكيل المجلس :

يرتبط المجلس برئيس مجلس الوزراء، وتشكيله في الوقت الحاضر وفقاً للملئى<sup>(١٥)</sup>.

رئيس	النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران
نائباً للرئيس	وزير الداخلية
عضوا	نائب وزير الداخلية
عضوا	وزير الخارجية
عضوا	رئيس الاستخبارات العامة
عضوا	وزير التعليم العالي
عضوا	وزير العمل والشؤون الاجتماعية
عضوا	وزير التخطيط
عضوا	وزير الصناعة والكهرباء
عضوا	وزير المعارف
عضوا	وزير المالية والاقتصاد الوطني
عضوا	نائب رئيس الحرس الوطني
عضوا	وزير الدولة رئيس ديوان الخدمة المدنية
عضوا	محافظ المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني

وللمجلس لجنة تحضيرية مهمتها القيام بدراسة الموضوعات التي ستعرض على المجلس وتقديم توصيات بشأنها إلى المجلس وتتكون من :<sup>(١٦)</sup>

- وزير العمل والشؤون الاجتماعية.
- وزير التخطيط.
- وزير المعارف.
- وزير الدولة رئيس ديوان الخدمة المدنية وأمين مجلس القوى العاملة.

الأمانة العامة :

للمجلس أمين عام بدرجة وكيل وزارة، وكان مرتبطاً في البداية بوزير التخطيط ولكنه ربط في عام ١٤٠٢هـ برئيس المجلس، وأصبح للأمانة ميزانيتها المستقلة<sup>(١٧)</sup>.

(١٥) قرار مجلس الوزراء رقم ١٢٢ وتاريخ ١٤٠٠/٧/١٢هـ، ورقم ٣١ في ١٤٠١/٦/٢٩هـ.

(١٦) حضر اجتماعات المجلس رقم (٦) في عام ١٤٠٢هـ، ورقم (٢٠) في عام ١٤٠٥هـ.

(١٧) لترسيم للتكمي رقم (٤٤/٢) في ١٤٠٦/٦/١٤هـ.

**مهام المجلس :**

تشمل مهام مجلس القوى العاملة التالي: (١٧)

- ١ - دراسة الاحتياجات القائمة للقوى العاملة بمختلف فئاتها من السعوديين والأجانب وفق متطلبات وخطط برامج التنمية، ووضع السياسات العامة التي يجب على جميع أجهزة الدولة التمشي بموجبها في تنفيذ مسئولياتها في هذا القطاع.
- ٢ - اقتراح التنسيق بين البرامج الحكومية المختلفة لتنمية طاقات المملكة البشرية، وذلك بالتأكد من كون البرامج التعليمية والتدريبية المتصلة بهذا الحقل متمشية ومتطلبات تطوير القوى العاملة وقدراتها على تنمية المهارات اللازمة لاحتياجات المملكة مستقبلاً.
- ٣ - رسم السياسات لتوزيع القوى العاملة السعودية وغير السعودية في المملكة بما يكفل الاستفادة القصوى منها واتخاذ الخطوات التي تكفل التقليل من استخدام الأيدي العاملة غير السعودية.
- ٤ - وضع السياسات لتتبع مهارات القوى العاملة السعودية ورفع مستواها.
- ٥ - رسم السياسات في مجال زيادة مساهمة السعوديين في مجموع القوى العاملة لزيادة عدد السعوديين من جميع الأعمار ومن يشاركون بفعالية في جهودات التنمية.
- ٦ - رسم السياسات الكفيلة باعطاء العمالة الحوافز المادية والمعنوية التي تشجع على العمل.

**أعمال المجلس :**

قام المجلس منذ انشائه بالعديد من الدراسات المتعلقة باختصاصاته<sup>(١٨)</sup>. ولكن الذي يعاب على مجلس القوى العاملة هو انصرافه عن مهامه الأساسية والتي يأتي في مقدمتها اعداد خطة وطنية للقوى العاملة تكون أساساً لدراسات أخرى.

اذ أن المتبع لقراراته يرى بوضوح أنها تعالج جزئيات من مشاكل القوى العاملة تتداخل أحياناً مع جهود مركزية أخرى وذلك على حساب الاهتمام بمهامه الرئيسية.

**٤/٢ لجنة تدريب وإتصاف موظفي الخدمة المدنية :**

أنشئت لجنة التدريب المركزية بالديوان العام للخدمة المدنية برئاسة رئيس الديوان العام للخدمة المدنية

(١٧) الرسم الفكر، رقم (٣١/م) لعام ١٤٠٠هـ - (١٩٨٠ع).

(١٨) توريد من التفاصيل انظر :

اللائحة العامة لمجلس القوى العاملة، التقرير السنوي لمجلس القوى العاملة، الرياض، طبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

وعضوية مدير عام معهد الادارة العامة، ونائب محافظ المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، ووكيل وزارة التخطيط، ووكيل وزارة التعليم العالي، ووكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني للتنظيم والميزانية ثم تم دمجها في لجنة ابحاث الموظفين بناء على توصية اللجنة العليا للاصلاح الاداري بقرارها رقم (١٨٣) وتاريخ ١٤/٩/١٤٠٨هـ، وضم لمصورتها وكيل وزارة المعارف والأمين العام لمجلس القوى العاملة. وأسندت لها بموجب لائحة التدريب المهام التالية: (١٩)

- رسم السياسة العامة لتدريب وابتعاث الموظفين.
- التنسيق بين المراكز التدريبية للموظفين ومتابعة نشاطها، واعطاء المشورة لها، ودراسة مدى استفادة الأجهزة الحكومية منها.
- قبول أو رفض طلبات الابتعاث للدراسة أو التدريب في الخارج مهما كانت مدة التدريب.
- تحديد مدة التدريب والابتعاث للموظف المبتعث في الخارج.
- الموافقة على قبول منح الابتعاث والتدريب.
- وتعاون لجنة الابتعاث والتدريب ادارة التدريب بالديوان العام للخدمة المدنية سكرتارية متخصصة لها.
- وقد أدت لجنة التدريب دورا هاما في التنسيق بين الأجهزة الحكومية في مجال التدريب، كما وضعت اللجنة عددا من القواعد التي تسترشد بها الأجهزة الحكومية في اعداد خططها التدريبية. . ومن أبرز هذه القواعد: (٢٠)
- على الجهات الحكومية التأكد من عدم قيام معاهد ومراكز التدريب بتنفيذ برامج تدريب عائلية للبرامج التي ترهب في تنفيذها بنفسها.
- يراعى في برامج التدريب المقترح الابتعاث لها في الخارج ألا تكون بنفس المستوى والتخصص الموجود في معاهد ومراكز التدريب في الداخل.
- يجب ألا يقل عدد المتدربين سنويا من كل جهاز عن ٥٪ من عدد العاملين به كما نصت لائحة التدريب.
- مطالبة الجهات الحكومية بتقديم خطط سنوية للتدريب.
- وأدت اللجنة دورا هاما في مجال تنظيم الابتعاث للتدريب بالخارج وفي مجال تنظيم التدريب بالداخل (٢١).
- كما أنها تعد الآن قواعد عمل جديدة بالنسبة لابتعاث الموظفين للدراسة وقد بلغ عدد من ابتعث للتدريب في الخارج خلال عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) (٥٤٦) موظفا، كما بلغ عدد المبتعثين للدراسة خلال نفس الفترة (٤٤٦) موظفا. (٢٢)

(١٩) د. محمد بن عبد الرحمن الظويل، «عدد أجهزة تنمية الادارية في تحقيق التنمية الادارية»، مرجع سابق، ص. (٢٦).

(٢٠) خالد عبدالكريم الحشد، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٢١) يزيد من التفصيل سبل انجازات لجنة التدريب، انظر «الاجازات التدريبية في مجال الخدمة المدنية»، سلسلة الإصدارات الاعلامية للديوان العام للخدمة المدنية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص (٨).

(٢٢) التقرير السنوي لديوان الخدمة المدنية ١٤٠٧/١٤٠٨هـ، ص ٨٩ و١٣٨.

ولكن نقطة الضعف الأساسية التي لم تستطع اللجنة معالجتها حتى الآن هي القيام بمهمتها الرئيسية وهي وضع سياسة وخطط علمية للتدريب والابتعاث، ويعود ذلك بشكل أساسي الى ضعف ادارة التدريب في الديوان من ناحية العدد والكفاءات اذ أنها الجهة المفروض منها أن تعد الخطط السنوية والحمسية للاحتياجات التدريبية لموظفي الخدمة المدنية. كما أن عليها أن تعد خطة لاحتياجات الأجهزة الحكومية من القوى العاملة.

#### ٥/٢ الادارة المركزية للتنظيم والادارة :

أنشئت الادارة المركزية للتنظيم والادارة كادارة عامة في وزارة المالية والاقتصاد الوطني بموجب المرسوم رقم (١٩) لعام ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، الا أنها لم تبدأ في ممارسة أعمالها الا في عام ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، وبموجب قرار وزير المالية والاقتصاد الوطني رقم ١/١٨/١٤٤٧ الصادر بتاريخ ١٣٨٦/٢/٢هـ. وقد أوكلت لها المهام التالية :

- دراسة وتحليل أساليب العمل في أجهزة الدولة بقصد تطويرها وزيادة فعاليتها لتمكينها من القيام بخدمات أفضل.

- العمل على تحليل وتبسيط العمليات المكتبية في الادارات الحكومية المختلفة واستعمال الأجهزة والمعدات الحديثة وتوحيد النماذج المستعملة.

- التعاون مع خبراء مؤسسة فورد الذين يعملون في برنامج الاصلاح الاداري فيما يتعلق بتنظيم البرنامج وتنفيذه.

- تقديم المشورة في جميع ما يرتبط بالأجهزة الادارية المختلفة من أعمال في مجالات التنظيم والتوظيف والأساليب الادارية.

وفي مرحلة لاحقة تحددت مهام ومسئوليات الادارة المركزية للتنظيم والادارة بموجب قرار وزير المالية والاقتصاد الوطني رقم ١٨/١٦٦٩ في ١٣٨٧/٨/٢٤هـ (١٩٦٧م) على النحو التالي :

- تطوير الأساليب التنظيمية في الأجهزة الحكومية المختلفة في جميع المستويات ووضع معدلات الاداء المناسبة ونشرها للاسترشاد بها في تنظيم هذه الأجهزة وتحديد حاجتها من القوى العاملة .

- مراجعة مشروعات إنشاء الأجهزة الجديدة قبل ادراجها في الميزانية ومراجعة اعادة تنظيم أو تعديل اختصاصات الأجهزة القائمة قبل اعتقادها من السلطة المختصة .

- إعداد وإيذاء الرأي في مشروعات الأنظمة واللوائح المتعلقة بالنواحي التنظيمية والادارية ومراجعة جميع الأنظمة القائمة بغرض العمل على تطويرها وتنسيقها عندما يطلب إليها ذلك .

- التعاون مع معهد الادارة العامة في تنسيق وعقد دورات تدريبية خاصة لموظفي التنظيم والادارة العاملين في الوزارات والأجهزة الحكومية ، واختيار المراجع العلمية التي تتعلق بطبيعة عمل التنظيم والادارة والتوجيه باطلاع موظفي الوحدات عليها .

- المساعدة في تأسيس وتنظيم وحدات التنظيم والادارة بالأجهزة الحكومية المختلفة والتنسيق بين أعمالها واعداد دليل يوضح اختصاصها وأهدافها ومدها بالمساعدات اللازمة لزيادة مقدرتها وكفاءتها ومتابعة أعمالها وتحليلها واستخلاص النتائج وتعميم المقيّد منها .

- الاشتراك مع الادارة العامة للميزانية بوزارة المالية والاقتصاد الوطني في تحليل طلبات إحداث الوظائف الجديدة في الوزارات ، وأجهزة الدولة الأخرى .

- نشر دليل سنوي عن التنظيم والادارة لأجهزة الحكومة .

ولقد تحولت جهود الادارة في الوقت الحاضر الى التركيز على مناقشة الوظائف التي يتم احدثها في الميزانية وذلك لعدة أسباب ، يأتي في مقدمتها :

- قيام معهد الادارة العامة واللجنة العليا للاصلاح الاداري بنفس المهام التي يمكن أن تقوم بها .

- عدم وجود ادارات فعالة للتنظيم والادارة في الأجهزة الحكومية .

- محدودية الخبراء العاملين بها .

- الجهد الكبير الذي تبذله في مناقشة الباب الأول من ميزانية الدولة .

#### ٦/٢ كليات الادارة بالجامعات السعودية :

اهتمت المملكة بالتعليم العالي ، وتمثل ذلك الاهتمام في التوسع في اتاحة فرص التعليم العالي . فمن جامعة واحدة ارتفع عدد الجامعات في المملكة العربية السعودية الى سبع جامعات في وقتنا الحاضر ، وبالتالي ارتفع عدد الطلاب في الجامعات وتضاعفت أعدادهم ، حيث بلغ (٧٨,٨٧٥) طالبا وطالبة في عام ١٤٠٧/١٤٠٦ هـ .<sup>(١٣)</sup>

وقد ارتفع عدد الكليات بالجامعات من (٥٣) كلية عام ١٤٠٠/١٤٠١ هـ الى (٧١) كلية عام ١٤٠٦/١٤٠٧ هـ (١٩٨٦/١٩٨٧ م) . كما يوجد الآن بالمملكة ( ١١ ) كلية جامعية و ( ١٤ ) كلية متوسطة للبنات تتبع الرئاسة العامة لتعليم البنات .

(١٣) الكتاب الاحصائي السنوي العدد الثالث والعشرون، مصلحة الإحصاءات العامة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨ هـ.

ومعظم هذه الجامعات (جامعة الملك سعود ، وجامعة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الملك فيصل وجامعة الملك فهد للبترول والمعادن وجامعة الإمام محمد بن سعود) تقوم بتدريس الإدارة في كلياتها ، وتمنح درجة البكالوريوس في الإدارة العامة وإدارة الأعمال والإدارة الصناعية - فيها عدا جامعة أم القرى والجامعة الإسلامية فهما جامعتان متخصصتان في تدريس العلوم الدينية والقيام بالأبحاث المتعلقة بعلوم الدين وعلوم اللغة العربية .

والجدول التالي يوضح تقديرات المتخصصين في مجال الإدارة خلال العام ١٤٠٦/١٤٠٧هـ .

#### جدول رقم (١)

تقديرات المتخصصين في عام ١٤٠٦/١٤٠٧هـ  
بالجامعات السعودية في مجال الإدارة\*

الجامعة	طلبة	طالبات	المجموع
جامعة الملك سعود (الرياض) كلية العلوم الإدارية	٢٨٧١	١٠٢٩	٣٩٠٠
جامعة الملك عبدالعزيز (جدة) كلية الاقتصاد والإدارة	٣٨٧٤	١٤٤٩	٥٣٢٣
جامعة الملك فيصل كلية العلوم الإدارية	٣٨٣	-	٣٨٣
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن كلية الإدارة الصناعية نابغ	٤٣٢	-	٤٣٢
المجموع	٧٥٦٧	٢٤٧٨ ٢١٧٨	١٠٠٣٨



ولاشك أن كليات الإدارة قد وفرت أعداداً كبيرة من الجامعيين الذين سدوا فراغاً كبيراً في الأجهزة الحكومية والأهلية . وإن كان ما يعاب عليها ما ذكره أحد قياديينها ، وهو الدكتور / أسامة عبدالرحمن :

« إن الجامعات في دول المنطقة لا تكاد تخرج عن كونها غملاً منقولاً في تنظيمه وبرامجه ، ولذلك فهي تعيش في عزلة عن المجتمع ومشاكله وطموحاته . وربما كان من المؤشرات الدالة على صدق هذا الاستنتاج أن خريجي الجامعات لا يكادون يستفيدون إلا بالترز اليسير مما استوجبهوا في الجامعات ، ويشعرون منذ اليوم الأول الذي يضعون فيه أقدامهم في الأجهزة والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية بالفجوة الكبيرة بين الجامعات وبين تلك الأجهزة والمؤسسات »<sup>(٢٤)</sup>

ثم يستطرد فيقول :

« ودور الجامعات في تكوين الطليعة الإدارية دور رئيسي رغم أن الجامعات لم تضطلع بعد بما يقتضيه هذا الدور »<sup>(٢٥)</sup>

ويؤيده في هذا الرأي قيادي آخر هو الدكتور / حمود البدر حيث يقول :

« إن تخطيط التعليم العالي يتم في مؤسسات تقلك أفضل الوسائل العلمية وأكثرها تطوراً لدفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فهي الأقدر بحكم تركيبها العلمية على أن تكون أكثر التصاقاً بالمشاريع الصناعية والزراعية التنموية الرائدة في المملكة . وهذا الالتحام المفروض لم يتم حتى الآن بالدرجة المطلوبة ، ولم تتخذ حتى الآن خطوات علمية لترجمة دور الجامعات في رفد هذه المشاريع بالخبرات العلمية والتطبيقات العملية للبحوث وبالكوادر البشرية . ونقصد ترجمة هذا الدور في خطط تعد وتنفذ ويتابع تنفيذها باستمرار »<sup>(٢٦)</sup>

## ٧/٢ اللجنة العليا للإصلاح الإداري :

قامت المملكة العربية السعودية منذ أواخر الخمسينيات بمحاولات جادة لدراسة الوسائل التي تؤدي إلى تطوير وتحديث أجهزتها الإدارية ، وذلك بإنشاء العديد من المؤسسات التي تعنى بالتنمية الإدارية<sup>(٢٧)</sup> .

(٢٤) د . أسامة عبدالرحمن ، البيروقراطية الضخمة ومعضلة التنمية ، بيروت ، يوليو ١٩٨٣م ، ص (١٧٩) .

(٢٥) المصدر السابق ، ص (١٨٣) .

(٢٦) د . حمود البدر ، « دور الجامعة في التخطيط لبرامجها الجامعية » ، بحث مقدم لندوة برامج الجامعات ومدى تلبيتها لاحتياجات الدولة من القوى العاملة ، معهد الإدارة العامة ، الرياض ، ١٩٨٨م ، ص (٣١٤) .

(٢٧) مزيد من التفاصيل ارجع إلى :

د . عبد الرحمن الطويل دور أجهزة التنمية الإدارية في تحقيق التنمية الإدارية ، رسالة دراسية عن أجهزة الإدارة في المملكة العربية السعودية ، معهد الإدارة العامة - الرياض ، ١٩٨٠م .

وقد أدت الدراسات العديدة التي تمت عن الوضع الاداري في المملكة من جانب مؤسسة فورد الأمريكية الى انشاء اللجنة العليا للاصلاح الاداري بموجب قرار مجلس الوزراء رقم ( ٥٢٠ ) في ١٣٨٣/٧/٥ هـ ( ١٩٦٣ م ) ، وذلك بهدف الاشراف على عملية الاصلاح الاداري في المملكة والاسراع في عملية تنظيم الأجهزة الحكومية وتطوير الادارة .

### تشكيل اللجنة :

تتألف اللجنة في الوقت الحاضر من :

- خادام الحرمين الشريفين للملك رئيس مجلس الوزراء رئيساً
- النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع والطيران نائباً للرئيس
- وزير المالية والاقتصاد الوطني عضواً
- وزير التخطيط عضواً
- وزير الدولة رئيس الديوان العام للخدمة المدنية عضواً
- اثنين من وزراء الدولة أعضاء

ويشارك في اجتماعاتها رئيس اللجنة الادارية التحضيرية مدير عام معهد الادارة العامة ، ويتولى أمانتها أمين عام لها يرتبط برئيس اللجنة التحضيرية .

### مهام واختصاصات اللجنة :

نصت الفقرة الرابعة من قرار مجلس الوزراء المنشئ للجنة على ما يلي :

« تختص هذه اللجنة باتخاذ جميع الاجراءات التي تحقق الاصلاح الاداري وتكون قراراتها واجبة التنفيذ في حدود ما يقضي به هذا القرار » .

كما نصت الفقرة الخامسة من القرار نفسه على أن « يفوض مجلس الوزراء هذه اللجنة ممارسة اختصاصاته المنصوص عليها في الفقرة الثانية من المادة ( ٢٥ ) من نظام مجلس الوزراء الصادر بالمرسوم الملكي رقم ( ٣٨ ) لعام ١٩٥٨ م فيما يتعلق باحداث وترتيب المصالح العامة . فلذا كان الاحداث والترتيب يس مجموعة من قطاعات الدولة وأجهزتها ، فيكون قرارها نافذاً بمقتضى اصداره ، الا اذا قبلت اللجنة ضرورة عرض الامر على مجلس الوزراء لاحاطته بالقرار قبل اصداره ، أو أخذ رأي أعضاء مجلس الوزراء مقدما في موضوع ترى فيه أهمية خاصة .

أما اذا كان الاحداث والترتيب يس وزارة أو مصلحة حكومية معينة بذاتها ، فيجب على اللجنة أخذ رأي الوزير أو رئيس المصلحة المعنية ، ثم تصدر قراراتها بما تراه محققاً للمصلحة العامة . وقرارات اللجنة التي تقتضي

تعديل الأنظمة يجب أن تتخذ طريقها النظامي الواجب . وللمجنة أن تصدر قرارات وتعليمات تعدل أو تلغي القرارات والتعليمات السابقة أو تنقيح أحكامها إدارية جديدة » .

ووفقا للاتحة عمل اجراءات اللجنة الصادرة بقرار اللجنة العليا للإصلاح الإداري رقم (١) وتاريخ ١٣٨٣/٨/٨هـ . فإن مهامها قد تحللت في التالي :<sup>(٣٥)</sup>

- ١ - وضع وإقرار الخطة العامة لتنظيم الإدارة الحكومية وإصدار القرارات والتعليمات اللازمة لتنفيذ الخطة العامة .
- ٢ - دراسة وإقرار نتائج التقارير والتوصيات المقدمة من قبل اللجنة الإدارية التحضيرية .
- ٣ - أخذ رأي مجلس الوزراء في القرارات التي ترى اللجنة ضرورة عرضها على المجلس لأخذ الرأي فيها أو لاحاطة المجلس علما بها فقط .
- ٤ - إبلاغ الوزارات والمصالح الحكومية بالقرارات والتعليمات الواجبة التنفيذ .
- ٥ - دعوة المسؤولين في أي وزارة أو مصلحة حكومية للاستئناس برأيهم فيها هو معروض على اللجنة من توصيات وتقارير .
- ٦ - دراسة وإقرار الخطة العامة لمراقبة وتبج تنفيذ القرارات التي تصدرها اللجنة وتبليغها للادارات الحكومية .
- ٧ - اتخاذ جميع الاجراءات التي تحقق بصفة مباشرة أو غير مباشرة اصلاح الجهاز الإداري الحكومي ، أو التي من شأنها تسهيل تحقيق هذا الاصلاح .

#### الجهاز التنفيذي للجنة :

يتولى الأعمال التنفيذية الفنية للجنة ، معهد الإدارة العامة من خلال أمين عام مرتبط بمدير عام المعهد ورئيس اللجنة التحضيرية للإصلاح الإداري . وهذه اللجنة التحضيرية تضم بجانب رئيسها ، نائب رئيس الديوان العام للمخدمة المدنية ، ووكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني لشئون التنظيم ويلميزانية ، وحددت مهامها بموجب قرار اللجنة العليا للإصلاح الإداري رقم (١) بالتالي :

- ١ - مناقشة ودراسة التقارير والموضوعات كافة وإبداء الملاحظات عليها وإعداد التوصيات اللازمة بشأنها تمهيدا لعرضها على اللجنة العليا للإصلاح الإداري .
- ٢ - دعوة المسؤولين في الوزارات والمصالح الحكومية وذلك للاستئناس بأرائهم في بعض الموضوعات المطروحة على اللجنة العليا للإصلاح الإداري إذا رأت أن هناك حاجة لذلك . كما أن لها أن تدعو من تراه من الموظفين أو غيرهم بصفتهم الشخصية للاستئناس بأرائهم أيضا .

(٣٨) الأمانة العامة للجنة العليا للإصلاح الإداري ، اللجنة العليا للإصلاح الإداري : مهامها ، تنظيمها واتجاهاها ، معهد الإدارة العامة - الرياض ، ١٤٠٥هـ .

- ٣ - الاتصال بالوزارات والمصالح الحكومية للحصول على المعلومات والبيانات اللازمة .
- ٤ - رفع أية توصيات أو مقترحات أو خطط إلى اللجنة العليا للإصلاح الإداري ترى من شأنها تسهيل مهمة تنفيذ برامج الإصلاح الإداري لجهاز الدولة بوجه عام .
- وأمين اللجنة العليا المتفرغ لأعمال اللجنة بمرتبة وكيل وزارة مساعد ويرتبط بمدير عام المعهد ، يساعده حوالي ٢٠ خبيراً سعودياً متفرغاً من أعضاء هيئة التدريس بمعهد الإدارة العامة . ويستعين عند الحاجة بكافة خبراء المعهد . ومقر الأمانة في معهد الإدارة العامة . وقد حدد القرار رقم ( ١ ) للإصلاح الإداري مهام الأمانة بالتالي :
  - ١ - القيام بأعمال السكرتارية الخاصة للجنة العليا والإدارية التحضيرية بما في ذلك إعداد محاضر الجلسات ، وتسجيل الملاحظات والآراء ، وتنظيم وحفظ الملفات والأوراق وأعمال السكرتارية الخاصة كافة .
  - ٢ - تحضير الوثائق والبيانات والمعلومات التي تستلزمها أعمال اللجنة .
  - ٣ - الاتصال بالمستولين في الوزارات والمصالح وغيرهم ممن تود اللجان دعوتهم وإحاطتهم بالفرض من الاجتماع .
  - ٤ - إعداد التقارير والدراسات التي تعرض على اللجنة ( العليا والتحضيرية ) ، ويدخل في ذلك القيام بزيارات ميدانية للوزارات والمصالح الحكومية ذات العلاقة بالدراسات لأغراض جمع المزيد من المعلومات واستطلاع آراء ذوي الاختصاص بالموضوع .
  - ٥ - إعداد قرارات اللجنة العليا للإصلاح الإداري .

#### خصائص اللجنة العليا للإصلاح الإداري :

من استقراء التركيب التنظيمي والمهام المسندة إلى اللجنة العليا للإصلاح الإداري يتبين لنا أنها تتميز بمزايا وخصائص فريدة ساعدت على استمراريتها وإعطائها موقعا مميزا ساعدها على أن تلعب دورا مؤثرا في مجال التنمية الإدارية للأسباب الآتية :

- أسندت رئاستها لأهل سلطة في الدولة ، وضمت في عضويتها العديد من الوزراء المؤثرين في مجال قراراتها ، مما أعطى لقراراتها سندا سياسيا قويا .
- حولت لها صلاحية مجلس الوزراء الذي يمثل السلطة التشريعية والتنفيذية في المملكة فيما يخص مجاهدها . ولذلك أصبح لقراراتها قوة التنفيذ المباشر دون خوف من أن تؤثر قوى أخرى في توجيه قراراتها ووجهة مغايرة .
- أوجدت الأداة الحكيمة الفنية التي تضمن دراسة كافة الموضوعات المعروضة على اللجنة العليا أو المادة باقتراح أساليب وأسس جديدة للتنمية الإدارية عن طريق دراسات واقعية ومتربطة من خلال إشراك الجهات المعنية بالتنمية الإدارية في المملكة في اللجنة التحضيرية ، وهي : معهد الإدارة العامة المسئول عن التدريب والاستشارات الإدارية

والبحوث والتوثيق الاداري ، وديوان الخدمة المدنية للمعني بشئون التوظيف وتطوير أنظمتة وإجراءاته ، ووزارة المالية والاقتصاد الوطني المسؤولة عن تبسيط إجراءات العمل في الأجهزة الحكومية وأعضاء الوظائف . هذا التشكيل ساعد على المشاركة في صنع قرارات اللجنة العليا من قبل الجهات المعنية بالتنمية الادارية وتضامها لنجاح تطبيق تلك القرارات .

- ربطت أمانتها بمعهد الادارة العامة مما أتاح لها الفرصة للاستفادة من قاعدة كبيرة من الخبراء الذين يزيد عددهم على الخمسةائة خبير في مختلف مجالات عمل اللجنة ، مما أتاح مجالاً واسعاً لأن تكون القرارات الصادرة عنها مبنية على خبرة علمية وعملية من منطلق واقعي يتلاءم والاحتياجات البيئية للادارة في المملكة .

هذه المميزات أعطت التجربة السعودية في مجال الاصلاح الاداري نموذجاً مميزاً عن باقي التجارب العربية وصنفه أحد المختصين في هذا الموضوع بقوله :

« هناك بعض الاستثناءات القليلة الجديرة بالتأمل والدراسة والاهتمام بها على أنها نماذج لتأصيل منهج مؤسسي في الاصلاح الاداري ، ومن أهم هذه النماذج تجربة المملكة العربية السعودية حيث أنشئت اللجنة العليا للاصلاح الاداري في عام ١٩٦٣م . وكان معهد الادارة العامة القاعدة الفكرية لها . وتؤكد هذا الموقف بإنشاء اللجنة الادارية التحضيرية للاصلاح الاداري برئاسة مدير معهد الادارة العامة ، فصار المعهد بشقيه الرسمي والعرضي جزءاً لا يتجزأ من برنامج الاصلاح الاداري . لم يكن فقط مقراً للاجتماعات الرسمية لكلا اللجنتين العليا والتحضيرية ، ولكنه كان ولم يزل بمثابة خلية التفاعل الفكري للكثير من معطيات وفعاليات التطوير الاداري في المملكة »<sup>(٣٩)</sup>

وبالرغم من هذه الجوانب الايجابية في تجربة الاصلاح الاداري بالمملكة فان هناك جوانب سلبية تعقيرها ويمكن تلخيصها في التالي :

- ترك الخيار للأجهزة الحكومية لطلب وضع هياكل تنظيمية متطورة لها بدلاً من أن يكون الاصلاح وفقاً لخطة شاملة من منظور متكامل للأجهزة الحكومية يحدد مهامها ويضع الازدواجية في أعمالها ، أعداها في الاعتبار الجانب التنظيمي والأنظمة واللوائح والقوى البشرية مما يجعل عملية التطوير الاداري عملية متجورة وجزئية .

- مقاومة التغيير وهو مبدأ معروف على المستوى العالمي ، فالقيادات الادارية في الأجهزة الحكومية تسعى لمقاومة التغيير الاداري ، وقد ظهر ذلك واضحاً في محاولات اللجنة حالياً لتبسيط الإجراءات في الأجهزة الحكومية ذات العلاقة بالجمهور ، مما يؤدي الى بطء العملية وإهدار الكثير من الوقت في الانتاج .

(٣٩) د. حسن أبشر الطيب، الاصلاح الاداري في الوطن العربي بين الأصالة والمعاصرة، في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي، المنظمة العربية للعلوم الادارية، ١٩٨٦م، ص (٨١٩).

## ٨/٧ تجارب بعض الدول العربية في مجال الإصلاح الإداري :

ولو استعرضنا بعض التجارب العربية فيما يتعلق بمؤسسات الإصلاح الإداري فإننا سنجد تفاوتاً كبيراً في وضعها التنظيمي ومدى فعاليتها .

ففي دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، نجد أن دولة الكويت هي الدولة الوحيدة بجانب المملكة التي أنشأت لجنة عليا لتحديث وتطوير الجهاز الإداري بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٨٤م برئاسة رئيس مجلس الوزراء وعضوية ثلاثة من الوزراء واثنين من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الكويت ، واثنين من القطاع الخاص ، وعهد لها بدراسة السياسات والمخططات والوسائل اللازمة لتطوير نظم الجهاز الإداري في الدولة . وشكل لها ثلاث لجان تحضيرية ، وأرسل لديوان الموظفين أمانة سر هذه اللجان وكذلك اللجنة العليا التي تعرض توصياتها على مجلس الخدمة المدنية أو مجلس الوزراء وفقاً لاختصاص كل منها في الموضوعات المعروضة لاتخاذ الإجراءات المناسبة بشأنها .<sup>(٣٠)</sup>

ولا يزال الحكم على فاعلية هذه اللجنة سابقاً لأوانه ، إذ أن الحكم عليها يتوقف على مدى قدرتها على تخلص الإدارة الكويتية من كم هائل من التراكمات والمشكلات الإدارية التي أنشئت اللجنة لمواجهتها والتي وصفها أحد المتصلين بها بأن :

« الإصلاح الإداري بطبيعته عملية أو عمليات متكاملة ، يساند بعضها بعضاً . والتأمل في هذه الجهود السابقة يلاحظ بوضوح الطابع الجزئي لمعالجتها ، الأمر الذي جعل كثيراً مما ذهبت إليه هذه الجهود لا يحقق أهدافه ، فسياسة التدريب لم تتكامل مع قانون الخدمة المدنية ، ونظام تقييم أداء العاملين لا يساعد على تحديد الاحتياجات التدريبية ، وأساليب العمل لا تساندها الأوضاع التنظيمية القائمة . وهكذا كانت الجهود جزئية وموضعية تفتقر إلى استراتيجية تحكمها أو إطار عام يربط بينها » .<sup>(٣١)</sup>

أما في بقية دول الخليج الأخرى فلا توجد لجنة أو جهاز مركزي مختص بالإصلاح الإداري ، وإنما أسندت هذه المهمة في البحرين إلى قسم التطوير الإداري والتنفيذي التابع لإدارة التطوير والتدريب بديوان الموظفين . وفي دولة عمان أسندت إلى إدارة التنظيم وتسيط الإجراءات بديوان شؤون الموظفين . أما في قطر فقد عهد بها إلى قسم التنظيم والبحوث المرتبط بإدارة التنمية الإدارية بإدارة شؤون الموظفين المرتبطة بوزير المالية والبترو .<sup>(٣٢)</sup>

وفي الأردن ، لحص الوضع تقرير رسمي مقدم من معهد الإدارة في الأردن على النحو التالي : « غياب سياسة

(٣٠) للرسم الأثري تاريخ ١٤/١٠/١٩٨٤م .

(٣١) د . تامر عبدالحق جاد ، تجارب الإصلاح الإداري في دول مجلس التعاون الخليجي : دراسة تحليلية مقفلة ، في كتاب الإدارة العامة والإصلاح الإداري في الوطن العربي ، المؤسسة العربية للدراسات - جدة ، ١٩٨٦ ، ص (٨٧) .

(٣٢) فريد من للمؤلفات يرص الرجوع إلى :

د . محمد بن عبدالحق فطرس ، تحديات التنمية الإدارية في الدول العربية الأمهات بمجلس التعاون الخليجي ، معهد الإدارة العامة - الرياض ، ١٩٨٥م .

واضحة المعالم للتنمية الإدارية ومحدودية جهود التطوير والإصلاح الإداري وضعفها وتشتها وعدم استمراريتهما واحتياجها عدم التفرض وعدم التخصص<sup>(٣٣)</sup>.

ولقد أنشأت الأردن في عام ١٩٨٤م لجنة ملكية لتطوير الإدارة برئاسة رئيس الوزراء وعضوية سبعة من الوزراء وخمسة آخرين ، لوضع التوصيات المناسبة لتطوير الإدارة في المملكة الأردنية<sup>(٣٤)</sup>. ولعل ذلك يساعد في المستقبل على إيجاد سياسة واضحة ومستمرة فيما يتعلق بالإصلاح الإداري في الأردن ، وإيجاد الأجهزة المتخصصة للعناية به .

أما في سوريا ، فقد أوضح اثنان من المحكيين بأمور التنمية والإصلاح الإداري بها وضعها على النحو التالي :

« من الصعب القول بوجود إدارة مركزية للتنظيم والأساليب في القطر العربي السوري من الناحية العملية . ولا تجازف إذا قلنا بعدم وجود حتى لجان دائمة للإصلاح والتطوير الإداري على أي مستوى من مستويات الهيكل التنظيمي الإداري للدولة<sup>(٣٥)</sup> ».

وفي لبنان ليس هناك جهاز مركزي معني بالإصلاح الإداري . وبالتالي « فعل الرغم من حداثة الحركات الإصلاحية التي طرأت على الإدارة اللبنانية ، فقد حققت تقدما لا يمكن إنكاره ، وإن كان هذا التقدم ليس على مستوى تطلعات وآمال اللبنانيين في إرساء إدارة متطورة وحديثة<sup>(٣٦)</sup> ».

أما في الجمهورية العراقية ، فقد أسندت عملية الإصلاح الإداري إلى المركز القومي للاستشارات والتطوير الإداري الذي يرتبط بمجلس التخطيط الأعلى . وقد أنشيء بموجب القانون رقم ١٨٦ لسنة ١٩٧٠م ، وقد أصبح هذا المركز منذ صدور قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٢٣٣ وتاريخ ١٩٧٢م مستقلا عن وضع خطة لتطوير جهاز الدولة الإداري والإشراف على تنفيذها ، بالإضافة إلى مسؤولياته في التدريب والاستشارات الإدارية والبحوث . وللمركز مجلس إدارة يرأسه مدير المركز ، وهو موظف بدرجة خاصة . ويضم ممثلين عن ست وزارات وأعضاء آخرين . وقد أنشئت أقسام للتنظيم والأساليب حولت فيما بعد إلى أقسام للتطوير الإداري في كافة الأجهزة الحكومية بلغ عددها ١١٧ قسما في عام ١٩٨٨م ، كان المركز يقوم بالإشراف الفني عليها . وقد أسندت إلى المركز في المراحل الأولى عملية إعداد الخطط والإشراف على تنفيذها<sup>(٣٧)</sup>. ولكن الأهداف والاستراتيجيات والسياسة العامة لخطة التنمية الإدارية لعام ١٩٨٦ - ١٩٩٠ قللت من دور المركز وأصبح مستقلا عن وضع الأسس

(٣٣) معهد الإدارة العامة في الأردن ، الإدارة العامة في المملكة الأردنية الهاشمية تقرير عام للدور العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية ، ص ١٩٨٦م (٢٥٠).

(٣٤) المصدر السابق ، ص (٢٥٤).

(٣٥) دلال بركات سمور والدكتور/ محمد صالح علي ، الإدارة العامة في الجمهورية العربية السورية ، بحث مقدم للدور العشري للمعهد الدولي للعلوم الإدارية - ص ١٩٨٦م ، ص (٤٧٠).

(٣٦) مجلس الخدمة المدنية ، الإدارة العامة في الجمهورية اللبنانية ، بحث مقدم للدور العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية ، ص ١٩٨٦م ، ص (٢٢٢).

(٣٧) د. حاتم الأحصيني ، نظريات التطوير والتنمية الإدارية ، جامعة بغداد ، ١٩٨٨م ، ص. ص. (١٥٥ - ١٦٢).

والضوابط والإرشادات ، وإصدار الأدلة اللازمة لإعداد الخطط الفرعية في التنمية الإدارية ، وجمع المعلومات وتحليل البرامج الواردة بها ، ونشر المعلومات والإحصائيات المتعلقة بها ، وجمع المعلومات عن تنفيذ الخطط وإصدار معلومات تحليلية وإحصائية عنها .

أما وضع الخطط واعتبارها فتقوم بها الأجهزة الحكومية من خلال هيئة مركزية للتطوير الإداري في كل جهاز يرأسها وكيل الوزارة ، وتضم في عضويتها رؤساء أقسام التطوير الإداري ويمثل عن الجامعات العراقية<sup>(٣٨)</sup> . ولا شك في أن تجربة العراق في بداياتها تعتبر من التجارب الجيدة في مجال الإصلاح الإداري ، أما التطورات الأخيرة فمن الصعب تقييمها في الوقت الحاضر وإن كانت في كلتا الحالتين تفتقر إلى مجلس أو لجنة عليا تكون مسؤولة عن الإشراف على وضع الخطط وتنفيذ عمليات الإصلاح الإداري .

وفي الجمهورية العربية اليمنية ، أنشئ في عام ١٩٨١ م مجلس أعلى للخدمة المدنية والإصلاح الإداري . كما أنشئت وزارة للخدمة المدنية والإصلاح الإداري في نفس الوقت . ويتكون المجلس الأعلى من رئيس مجلس الوزراء رئيساً ومن ستة من الوزراء ومدير جامعة صنعاء أعضاء . وهناك وكيل وزارة لقطاع التنظيم والإدارة في وزارة الخدمة المدنية والإصلاح الإداري . وقد قام هذا القطاع بإعداد ونشر دليل تنظيمي للدولة عام ١٩٨٥ م ، وإعادة تنظيم بعض الوزارات ، ودراسة إجراءات العمل وأساليبه في بعض الوزارات ، وإعداد تنظيم عملي لكل من الإدارة العامة للشئون المالية والإدارية وإدارة تخطيط المتابعة<sup>(٣٩)</sup> .

ولا شك في أن هذا يعكس اهتماماً جيداً بموضوع التنمية الإدارية ويعطي مؤشراً على الاتجاه الجاد للتطوير الإداري ، سيزيد عندما تتوفر كوادر عالية التأهيل في هذا المجال .

أما في السودان ، فقد أنشئت وزارة للخدمة المدنية والإصلاح الإداري وأفردت إدارة خاصة بموضوع الإصلاح الإداري . وفي عام ١٩٧١ م تم إنشاء العديد من وحدات التنظيم والأساليب في الأجهزة الحكومية حتى بلغت ١٧ وحدة في عام ١٩٧٤ م ، ولكن عدم الاستقرار السياسي أضعف دورها ، ثم ألغيت عام ١٩٨١ م ، وأعيدت إلى الوجود عام ١٩٨٧ م . ولقد وصف وضعها تقرير رسمي بقوله :

وهنا تفتقر لأبسط مقومات التنظيم داخلياً ، حيث فقدت أغلب كوادرها المدربة ، وهي الآن بلا قيادة وبلا إمكانيات وبلا أقسام محددة ، وما لم ينتبه المسئولون عن أمرها إلى ضرورة دمجها وتنشيطها وتحسين ظروف العمل بها ، فستظل أسياً بلا معنى ، ذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه .<sup>(٤٠)</sup>

(٣٨) د. حاسم الأحريص، المرجع السابق، ص. ص. (١٩٠ - ١٩٣).

(٣٩) وزارة الخدمة المدنية والإصلاح الإداري، الإدارة العامة في الجمهورية العربية اليمنية، بحث مقدم للوزير العشرين للمشهد الدولي للعلوم الإدارية، حران - الأردن، ١٩٨٦ م، ص. ص. (٧٥٥ - ٧٥٩).

(٤٠) أكاديمية السودان للعلوم الإدارية، الإدارة في جمهورية السودان، بحث مقدم للوزير العشرين للمشهد الدولي للعلوم الإدارية، حران - الأردن، ١٩٨٦ م، ص (٤٢٨) .



ومع ذلك فإن لدى السودان كنزا من المختصين في مجال التنظيم والأدارة يمكنهم - متى توفرت الظروف الملائمة - من إيجاد برنامج ناجح للتطوير الإداري .

وفي الجمهورية الجزائرية ، أنشئت وزارة للأصلاح الإداري عام ١٩٦٤ . وكانت مكلفة بتحضير الدراسات المتعلقة بسير الإدارة واقتراح العناصر الضرورية للأصلاح<sup>(١١)</sup> ، ولكنها ألغيت ونقلت اختصاصاتها لوزارة الداخلية حتى عام ١٩٨٢ م حيث أنشئت كتابة الدولة المكلفة بالوظيفة العمومية والأصلاح الإداري والمرتبطة برئيس الوزراء . ثم تحولت في عام ١٩٨٤ م إلى محافظة للأصلاح والتجديد الإداريين بديوان رئاسة مجلس الوزراء . وتقوم بشكل أساسي بدراسة واقتراح كل مامن شأنه أن يحسن تنظيم المصالح العامة وتسييرها ، وذلك وفقا لمتطلبات التنمية وتطوير الإدارة وتقريبها من المواطن .

أما في المملكة المغربية ، فقد كان هناك وزارة للوظيفة العمومية والأصلاح الإداري عام ١٩٦١ م ، ومرت بعدة تغييرات إلى أن أصبحت وزارة متدبئة لدى الوزير الأول المكلفة بالشؤون الإدارية في عام ١٩٨٥ م . ويرتبط بها مديرية الأصلاح الإداري المسؤولة بشكل أساسي عن إعداد الأدلة التنظيمية للأجهزة الحكومية والقيام بالأبحاث والدراسات الرامية لتحسين الإدارة ودراسة احتياجات الدولة من الموظفين<sup>(١٢)</sup> .

ولكن مشكلة دول المغرب العربي هي الافتقار لمختصين في مجال الإدارة العامة والاعتماد بشكل أساسي على المختصين في القانون الإداري ، مما يؤدي إلى توجيه الأصلاح الإداري إلى وجهة تمنى بالشؤون النظامية أكثر من عنايتها بالشؤون التنظيمية وتحديث الإجراءات وإدخال المكنة الإدارية الحديثة واستخدام الأساليب العلمية في التخطيط والمتابعة .

أما في جمهورية اليمن الديمقراطية والصومال وموريتانيا وليبيا ، فلا يوجد لجان أو أجهزة للأصلاح الإداري .

#### الخلاصة :

يعكس الاستعراض السابق الحقائق عن وضع مؤسسات الأصلاح الإداري في الوطن العربي :

- عدم توفر أجهزة تعنى بالأصلاح أو التنمية الإدارية في عدد كبير من الدول العربية مما يدل على عدم اهتمامها وإدراكها لأهمية تلك الأجهزة .

- التذبذب في إحداث وإلغاء أجهزة الأصلاح الإداري في الكثير من الدول العربية مما يعكس أن عملية الأصلاح في بعضها هي عملية شعار مرحلة سياسية تختفي معه أجهزة الأصلاح الإداري بتغير النظام السياسي أو الحكومة ، وليست نتيجة لاستراتيجية وطنية طويلة الأمد .

(١١) المدرسة الوظيفية للإدارة ، الإدارة العامة في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، بحث مقدم للدور العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية ، مكن - الرباط ، ١٩٨٦م ، ص (٣٥٥) .

(١٢) وزارة الشؤون الإدارية ، الإدارة العامة في المملكة المغربية ، بحث مقدم للدور العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية ، مكن - الرباط ، ١٩٨٦م ، ص - ص .

- لاتوفر لكثير من تجارب الدول العربية الأداة الفنية التي تساعد في عملية صنع القرارات المتعلقة بأنشطتها .

- عدم تكامل وارتباط جهاز الإصلاح الإداري مع أجهزة التنمية الإدارية الأخرى في الدولة ، وبالتالي فإن كل جهاز يعمل في فلك منفرد يدور حوله دون الارتباط العضوي في عملية تنمية متكاملة مع الأجهزة الأخرى .

- يغلب الطابع الإداري الفني الجزئي في عمليات الإصلاح الإداري في الوطن العربي وذلك بتولي أجهزة الإصلاح الإداري إصدار قرارات بتجميل الوضع الإداري وترقيع ثقب الأجهزة الإدارية دون القيام بخطة شاملة للإصلاح الإداري تشمل الجوانب الأساسية للعملية ، وهي الاستراتيجية السياسية والربط بعملية خطة التنمية الشاملة قصيرة وطويلة الأمد ، وتوجيه عملية الإصلاح لعناصرها الأساسية : التنظيم ، الإنسان ، السلوك والأهداف المرجوة من عملية الإصلاح .

- محاولة تقليد الأنظمة والتنظييات في الدول المتقدمة التي لاتتلاءم والبيئة الإدارية بمعطياتها المختلفة .

#### ٩ / ٢ معهد الإدارة العامة :

نشأة المعهد :

أنشئ معهد الإدارة العامة نتيجة لدراسات قام بها فريق من إدارة المساعدات الفنية للأمم المتحدة لدراسة الأوضاع الإدارية في المملكة العربية السعودية<sup>(١٣)</sup> .

وقد صدر مرسوم إنشاء المعهد برقم (٩٣) وتاريخ ١٣٨٠/٢/٢٤ هـ (١١ أبريل ١٩٦١ م) ، عل أن يكون هيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية . ويرتبط تنظيمياً بوزير المالية والاقتصاد الوطني ، ويديره مجلس إدارة مكون على النحو التالي :

رئيساً	وزير المالية والاقتصاد الوطني
عضواً	مدير معهد الإدارة العامة
عضواً	وكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني
عضواً	وكيل وزارة المعارف
عضواً	وكيل جامعة الملك سعود
عضواً	نائب رئيس الديوان العام للخليفة المدنية

(١٣) نسخة من الملخصات هي شاة المعهد فريج ال :

1. Mohammed A. AL-Tawail, *The Institute of Public Administration in Saudi Arabia, A Case Study in Institution Buildings*, University Microfilm, U.S.A., 1974.

2. Dr. Mohammed A. AL-Tawail, *Process and Instrument of Administrative Development in Saudi Arabia*, University of Pittsburgh, 1970.

١٣٨٦ م . عند من محرر في الطبع ، الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية ، معهد الإدارة العامة - الرياض ، ١٩٨٦ م .

والمجلس هو السلطة العليا للمعهد يقوم بتحديد ووضع السياسات العامة للمعهد ، والموافقة على خططه السنوية والخمسية ، وإصدار اللوائح ونظم العمل الداخلية وخطط ابتعاث موظفيه ، وتعيين كبار موظفيه ، وإقرار مشروع ميزانيته وحسابه الختامي ، وتعيين مراقبي حسابات خارجيين للمعهد .

#### الفروع :

يوجد للمعهد ثلاثة فروع ترتبط بمدير المعهد مباشرة ، هي : فرع المنطقة الغربية في جدة ، وفرع المنطقة الشرقية في الدمام ، وفرع للتدريب النسائي في الرياض . وتقوم بنفس المهام التي يقوم بها المركز الرئيسي .

#### مهام المعهد :

أنشأ المعهد لتحقيق الأهداف التالية :

- رفع كفاءة موظفي الدولة وإعدادهم علمياً وعملياً لتحمل مسئولياتهم وممارسة صلاحياتهم على نحو يكفل الارتقاء بمستوى الإدارة ويدعم قواعد تنمية الاقتصاد الوطني .
- المساهمة في التنظيم الإداري للإدارة الحكومية .
- إعطاء المشورة في المشكلات الإدارية التي تعرضها عليه الوزارات .
- القيام بالبحوث المتعلقة بشئون الإدارة .
- جمع الوثائق الإدارية للمملكة .
- توليق الروابط الثقافية في مجال الإدارة العامة .

#### الهيكل التنظيمي للمعهد :

يدير المعهد مدير ويتولى إدارة كافة الأمور التنفيذية للمعهد الذي سينقسم إلى القطاعات الرئيسية التالية : قطاع التدريب ، قطاع البحوث ، وقطاع الاستشارات .

#### إمكانات المعهد :

تتوفر في المعهد إمكانيات بشرية وفنية ومالية ساعدته على التوسع والتطور خلال مسيرته الطويلة التي تقترب من ثلاثين عاماً ليصبح مركزاً متكاملًا وأداة فعالة في عملية التطوير الإداري . وهو يعتبر من أكبر معاهد الإدارة على مستوى العالم أجمع من حيث تكامله في وظائفه ومن حيث التدريب والبحوث والاستشارات ، ومن حيث حجم التدريب الذي يقدمه وتنوعه ، وحجم القوى البشرية المتوفرة له . كما يتميز بأنه يسير بخط صاعد منذ إنشائه حتى الآن . ويمكن استعراض إمكانياته في التالي :

#### - القوى البشرية :

تبلغ القوى البشرية العاملة في المعهد في العام التدريسي ١٤٠٩ / ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ / ١٩٩٠ م (٩٦٣) منسوبة ومنسوبة من السعوديين وغيرهم .

ويتوزع أعضاء هيئة التدريس حسب مؤهلاتهم كالتالي :

المؤهل	الدكتوراه		الماجستير		البكالوريوس		المجموع	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
	٦٢	٪١١,٥٥	٢٨٩	٪٥٣,٨٢	١٨٦	٪٣٤,٦٣	٥٣٧	٪١٠٠

كما توافر للمعهد إمكانات فنية ومالية على هيئة ميزانية مستقلة للصرف على انشطته التدريبية الأمر الذي يسر مهمته إلى حد كبير .

#### إنجازات المعهد

ساعدت الإمكانيات المتوفرة للمعهد على استعداد المcente وقدرته على القيام بأبحاثه حيث انمكس ذلك على إنجازاته في المجالات التالية :-

#### أ- في مجال التدريب :

المعهد هو جهة التدريب المركزية في المملكة في مجال التدريب الإداري ، وقد نصت لائحة تدريب موظفي الدولة في مادتها (٧/٣٤) على : وأنه لايجوز إنشاء مراكز تدريب للموظفين إلا بعد موافقة لجنة التدريب ، كما لايجوز قيام أى أجهزة حكومية بتنظيم دورات لتسويها إذا كانت هذه الدورات متوفرة في أجهزة التدريب المركزية في الداخل .

ويقوم المعهد بالتدريب الإعدادي أي تدريب من سيلحقون بوظائف في أجهزة الدولة أو القطاع الأهلي ، وذلك في برامج حملة الثانوية العامة وحملة الشهادات الجامعية ، وبدة كل برنامج مستان ، وهي :

- برامج حملة الشهادة الجامعية ، وتشمل :

برنامج الأنظمة ، برنامج الدراسات البنكية ، برنامج الرقابة المالية ، برنامج مدربي الاعمال المكتبية ، وهناك ثلاثة برامج قدمت اعتباراً من بداية عام ١٤١٠ هـ وهي : الإدارة الفندقية ، إدارة التسويق ، دراسات التأمين .

- برامج حملة الثانوية العامة ، وتشمل :

برنامج الحاسب الآلي ، برنامج مشغلي الحاسب الآلي ، برنامج دراسات المكتبات ، برنامج إدارة المواد ، برنامج الدراسات الإحصائية ، برنامج إدارة المستشفيات ، برنامج شئون الموظفين الإعدادي ، برنامج السكرتارية المتقدم ، برنامج الدراسات البنكية المتوسط ، برنامج الدراسات المالية ، برنامج النسخ الثانوى بلغتين ، برنامج النسخ الثانوى بلغة ، برنامج دراسات التأمين ، برنامج الخدمات الفندقية ، برنامج المبيعات ، برنامج المحاسبة التجارية ، برنامج دراسات مكاتب السفر والسياحة ،

كما يقوم المعهد بالتدريب أثناء الخدمة للموظفين العاملين في الأجهزة الحكومية من خلال أربع مجموعات من البرامج هي :

- برامج الإدارة العليا : وهي موجهة لوكلاء الوزارات وشاغلي وظائف «مدير عام» . وتقدم على شكل ندوات وحلقات تطبيقية في موضوعات مختلفة ، وتتراوح مدتها بين ثلاثة وخمسة أيام .

- برامج الإدارة التنفيذية والمتوسطة : وهي موجهة للموظفين من المرتبة الأولى إلى المرتبة العاشرة ، وتضم ١٧ مجموعة من البرامج كل مجموعة تتكون من عدد من البرامج ، وهذه المجموعات هي : الإدارة العامة ، المحاسبة والشئون المالية ، شئون الموظفين ، الأعمال المكتبية ، المشتريات والمستودعات ، الميزانية ، الإدارة الهندسية والمشروعات ، الحاسب الآلي ، المكتبات ، العلاقات العامة ، التدريب والتعليم ، الإحصاء ، القانون ، الآلات الناسخة والميكرو فيلم ، الاعلام ، الإدارة الصحية ، والتخطيط .

- البرامج الخاصة : وهي برامج تصمم خصيصاً لمقابلة احتياجات تدريبية تنفرد بها جهة حكومية عن غيرها من الأجهزة مثل : الجمارك ، والعمل ، والعدل ، والزكاة والدخل .

- برامج اللغة الانجليزية : وهي مخصصة لتعليم اللغة لمن يراد إبتعاثهم للدراسة في الخارج للتدريب أو الدراسة ، أو لمن يتطلب عمله الالام باللغة الانجليزية .

ويوضح الجدول التالي المجموع الكلي للمتدربين حتى نهاية العام ١٤٠٨/١٤٠٧ :

جدول رقم (٢)

المجموع الكلي للمتدربين في نهاية العام ١٤٠٨/١٤٠٧ هـ

مجال التدريب	العدد	النسبة المئوية
برامج الإدارة العليا	٦٥٣٧	٧,٧٩%
البرامج الاعيادية	٥٩١٥	٧,٠٥%
البرامج التدريبية	٥٠٤٩٤	٦٠,٢٤%
البرامج الخاصة	٥٢٩٣	٦,٣١%
برامج اللغة الانجليزية	١٥٥٧٤	١٨,٥٨%
المجموع	٨٣٨١٣	١٠٠%

ولا يقتصر التدريب في المعهد على موظفي الحكومة السعودية فقط ، ولكن يلتحق به مجموعة من موظفي الحكومات العربية الأخرى عن طريق منح من حكومة المملكة هذه الدولة . وتتجمل المملكة بالنسبة لهم كافة

(٥) بلغ عدد المتدربين ببرامج المعهد المختلفة في عام ١٤٠٩/١٤٠٨ هـ (١٢,٩٧٧) متدرباً .

مصاريف التدريب والإقامة والسفر . وقد بلغ عدد الذين أنهوا تدريبهم في المعهد من هذه الفئة (١٩٢٧) موظفاً حتى نهاية العام التدريبي ١٤٠٨/١٤٠٩ هـ (١٩٨٨/١٩٨٩ م) .

#### ب - في مجال الاستشارات :

يتكون نشاط المعهد في هذا المجال من نشاطه عن طريق الأمانة العامة للإصلاح الإداري ، وعن طريق الإدارة العامة للاستشارات ، وهي الإدارة التي تقوم بتقديم الاستشارات للأجهزة الحكومية في مختلف المجالات الإدارية ، أو الحكومية والمنظمات العربية والإسلامية ، وذلك بتشكيل فرق متفرغة لأعداد الدراسات المطلوبة ومناقشتها مع المسؤولين في الجهات المستفيدة ، ثم إعداد التقارير النهائية وتقديمها للجهة المستفيدة . ومساعدة تلك الجهات في تطبيق تلك الاستشارات .

وقد بلغ عدد الاستشارات التي قدمها المعهد حتى نهاية العام ١٤٠٧/١٤٠٨ هـ (٨١٢) استشارة . وطبيعة هذه الاستشارات تختلف ، فمن أعداد هيكل تنظيمي متكامل للأجهزة الحكومية إلى دراسات تنظيمية جزئية في مجالات الإدارة المختلفة لتنظيم الملفات والمكتبات ومراكز الحاسب الآلي .

ولم يعد المعهد بيت استشارة للحكومة السعودية فقط ، بل أنه يقدم خدماته لعدد من الدول والمنظمات العربية والإسلامية . وقد بلغ عدد الاستشارات التي قدمها لتلك الجهات (٤٢) استشارة حتى نهاية العام التدريبي ١٤٠٧/١٤٠٨ هـ ، كان من أبرزها أعداد هيكل تنظيمي لكل من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ومجلس التعاون لدول الخليج العربية .

#### ج - قطاع البحوث :

يقوم المعهد بنشاط واضح في مجال البحوث وذلك من خلال إدارتين عامتين ، أحدهما للبحوث ، والأخرى للطباعة والنشر . وتركزت نشاطات المعهد في مجال التأليف والبحوث والتجريب على الموضوعات التي تشملها مجموعاته التدريبية المختلفة . وقد بلغت حصيلة المعهد منها حتى نهاية العام التدريبي ١٤٠٧/١٤٠٨ هـ (١٨٥) مطبوعاً .

كما أن المعهد يصدر دورية كل ثلاثة أشهر هي «الإدارة العامة» وهي مجلة محكمة تعنى بموضوعات الإدارة العامة .

بعد هذا الاستعراض لانجازات المعهد وتجاريه الطويلة تأتي إلى نواحي الضعف التي تؤثر بشكل أو بآخر على الاستفادة من نتائج المعهد خاصة في مجال التدريب أو الاستشارات أو البحوث .

#### ففي مجال التدريب :

يماني المعهد مشكلتين أساسيتين ، أحدهما تتعلق بالعملية التدريبية نفسها داخل المعهد ، والأخرى تتعلق بمدى الاستفادة من التدريب الذي تلقاه الدارسون في المعهد .

ففيما يتعلق بالعملية التدريبية نفسها فإنه يمكن تحديد المشكلات في التالي :

- الوقت الطويل الذي يأخذه إعداد المدرب ، فالتدريب كما هو معروف عملية تتطلب عن يارستها ، بالإضافة إلى المؤهل العلمي ، الخبرة العملية من جهة وخبرة في أسلوب التدريب نفسه . ولأن المعهد كان يعتمد في السابق - ودرجة أقل الآن - على غير السعوديين من أساتذة الجامعات ومن يأتون للعمل لفترات محدودة ، فقد كان يعاني من غلبة الجانب النظري في برامجهم ، الأمر الذي دفعه إلى معالجة الموضوع وفقاً لما يلي :

- إحداث إدارة لتصميم وتطوير البرامج بدأت منذ أربع سنوات في إعداد حزم تدريبية نظمية ليستخدمها المدرب ، وتشمل رؤوس الموضوعات والمادة التدريبية ومساعدات التدريب التي يجب استخدامها .

- تكثيف برنامج الابتعاث لتوفير كوادر محلية يمكن استمرارها في المعهد مدة طويلة تضمن إيجاد المدرب الناجح . إذ أن تجربة المعهد مع غير السعوديين هي عودتهم إلى بلدانهم بعد أن يمر وقت طويل في إعدادهم كمدربين ، ويعد أن يتفهموا طرق وإجراءات العمل وأنظمتهم في الأجهزة الحكومية ، أي أنه يترك العمل ويعد أن يصبح مدرباً جيداً يمكن الاستفادة منه .

- إنتاج أفلام محلية تعالج مشكلات محلية ، ليكون التدريب من واقع ما يجري في الأجهزة الحكومية ، برغم تكلفة ذلك .

- تكثيف برامج تدريب المدربين ، إذ أن الخريج الحديث من السعوديين أو المدرب من غير السعوديين ينقصه الآلام بوسائل التدريب الحديثة واستعمالها .

- توجيه الخريج الجديد من السعوديين المتدربين في المعهد للعمل في الأجهزة الحكومية ذات الصلة بتخصصه ليكون ملماً ببيئة العمل ونظمها وأنظمتها ومشكلاتها .

- إشراك المدربين في الاستشارات والبحوث الميدانية ليكتسبوا خبرة عملية من واقع الجهاز الإداري في الدولة ، وفي الدول والمنظمات العربية والإسلامية ليكون ذلك مساعداً لهم في عملية التدريب .

- أما فيما يتعلق بالاستفادة من المتدرب بعد تدريبه في المعهد ، فإن المشكلات تكمن في التالي :

- تقوم بعض الجهات بترشيح بعض موظفيها في برامج لاتلامم والعمل الفعلي الذي يارسه ، وبالتالي فإنه يتلقى التدريب وفقاً لسمي وظيفته الممن عليها لا الوظيفة التي يارسه . وهي مشكلة ناتجة من أن نظام الخدمة المدنية يوجب أن يعمل الموظف في تخصص وظيفته ، ولكن كثيراً من الجهات لا يتقيد بذلك ، ورغم أن المعهد يضع في استراتيجيات الترشيح حيزاً لوصف عمل الوظيفة التي يارسه الموظف فعلاً ، فإن جهة التدريب تحاول أن تضع وصفاً عائلاً لسمي وظيفته ، لأن التدريب قد وضعت له نقاط تساعد على الترقية في الوظائف . وبالتالي فإن المتدرب يضيع وقته ووقت المعهد في التدريب على أشياء لا يارسهها فعلاً .

- ضفب ادارات التدريب في الأجهزة الحكومية ولللك فهي غير قادرة على تحديد الأشخاص الذين يحتاجون فعلا للتدريب لتحسين مستواهم ، وبالتالي فان توزيع استمارات الترشيح للبرامج يتم عشوائيا ويبنى بشكل كبير على مدى رغبة الموظف في التدريب ، الأمر الذي يهتم به من هو حريص على التدريب ، وقد لا يكون بحاجة الى اليه . وقد حاول المعهد حل هذه المشكلة باحداث ادارات للتطوير الادارى في الجهات التي يقوم بتنظيمها لتتولى عملية تحديد الاحتياجات التدريبية لموظفي الجهاز ومتابعة آثار التدريب . ولأن تصميم تلك الادارات سيأخذ وقتا ، فقد أعدت دراسة معروضة الآن على اللجنة العليا للاصلاح الادارى لاحداث ادارات في كافة الأجهزة الحكومية تمنى بالتطوير الادارى .

- يركز التدريب في المعهد على استعمال أساليب وطرق العمل الحديثة وخاصة في مجال الأعمال المكتبية وسير الأوراق وتداولها ولكن المشكلة أن بعض الأجهزة ، وخاصة ذات العلاقة بالجمهور - لا تزال تدير وفقا لاجراءات معقدة وبالية . ورغم أن أى تطوير لهذه الأجهزة لا يمكن أن يكون فعالا بدون رغبة المسؤولين عن هذه الأجهزة في تطويرها ، فان تدريب موظفي هذه الأجهزة لن يكون ذا فاعلية دون تطبيق ماتدربوا عليه في المعهد ، الأمر الذي دعا المعهد الى اتخاذ عدة خطوات منها :

- البدء باعداد اجراءات وطرق عمل نمطية أنجز منها حتى الآن مايتعلق بالبلديات والمحاكم والأحوال المدنية ، وسترفع للجنة العليا للاصلاح الادارى لاعتقادها .

- تصميم برامج خاصة لتلك الجهات لتطبيق اجراءات العمل فيها يتعلق بالادارة المكتبية .

- التركيز على تدريب مديري الادارات القطاعية في حلقات تطبيقية قصيرة لاكتمال حلقة التدريب لكافة المستويات لتسهيل أو محاولة كسر حدة مقاومة التغيير ، وهي ظاهرة معروفة في مجال التطوير الادارى

#### وفي مجال الاستشارات :

مع أن المعهد قد وصل الى مرحلة متميزة في مجال الاستشارات بحيث أصبح نشاطه في هذا المجال يمتد لخارج المملكة ، فان هناك بعض العقبات التي تواجه الدراسات الاستشارية يمكن تلخيصها في التالي :

- صعوبة الحصول على المعلومات التفصيلية اللازمة لتحليل الجوانب التنظيمية المختلفة ، اما بسبب سوء نظم المعلومات المتوفرة في الجهاز ، أو بسبب محاولة اخفاء الجوانب السلبية التي تؤثر على عمل الجهاز من قبل العاملين في الجهاز الأمر الذي يضطر معه القائمون على الاستشارة الى استخدام العديد من الوسائل للحصول على المعلومات كالمقابلات الشخصية والاستبيانات والتقارير السابقة وغيرها .



- عدم وجود ادارات للتطوير الادارى في كثير من الأجهزة وإذا وجدت فانها تكون غير مزودة بكفاءات متخصصة في التنظيم والادارة ، مما يلقي العبء على الفريق الاستشارى ويصبح دور الفريق المناظر من الجهاز الحكومي مجرد ضابط علاقات عامة .

- يمارس المعهد أسلوب تقديم تقرير مبدئي للجهاز الذى يطلب الاستشارة لمعرفة الانطباع نحوه ومحاولة التوفيق بين متطلبات الجهاز ومتطلبات الأصول الفنية للتنظيم . وفي تلك المرحلة تبدأ عملية مقاومة التغيير من يشعرون بأن وضعهم التنظيمي في الجهاز قد يطاله التغيير . وعملية الاقتناع عملية تأخذ كثيرا من الوقت خاصة عندما يترك المسئول الأول عن الجهاز القرار لأشخاص سيمس التنظيم مصالحهم .

- الكائن الادارى في الغالب حبيس تقاليده وعاداته سواء في المنزل أو المجتمع أو العمل . وبالتالي فإن التنظيم الحديث يؤدي الى تقديم أساليب عمل وتقنيات جديدة ، قد يشعر بالخوف من عدم قدرته على تطبيقها وبالتالي فانه يقاوم التنظيم بدافع الخوف من المجهول .

ولقد حاول المعهد علاج هذه المشكلات عن طريق تبني، انشاء وحدات للتطوير الادارى في كافة الأجهزة الحكومية ، وتقديم برامج تدريبية في مجال التطوير الادارى ، وإلزامية تطبيق الاستشارات عن طريق اللجنة العليا للإصلاح الادارى .

#### ولي مجال البحوث :

تواجه البحوث في المعهد مشكلتين رئيسيتين ، هما :

- تعثر البحوث الميدانية بسبب عدم توفر نظم للمعلومات في كثير من الجهات الحكومية من ناحية ، وبسبب الخوف من نقاط الضعف التي تكشف عنها البحوث الميدانية .

- الضحالة في كثير مما يكتب مما يؤدي الى رفض الكثير من الكتب والبحوث والمقالات . وعلى سبيل المثال فمجلة المعهد ترفض في الغالب تسعة من كل عشرة مقالات ، وتطلب تعديلا في كثير من المقالات المقبولة للنشر .

وقد اضطر المعهد إزاء ذلك الى أن يغلب النوعية على الكمية في مجال البحوث ، وللجوء الى أسلوب ترجمة الكتب الجيدة في مجال اختصاصاته من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية ، ثم الى إعطاء حوافز مادية مغرية للمؤلفين تشمل مكافأة عمل المؤلف من ١٥ - ٥٠ ألف ريال ، وطبع الكتاب على حساب المعهد ، وإعطاء المؤلف ١٠٠ نسخة مجانية على سبيل الاهداء .

#### ١٠/٢ معاهد الادارة في الوطن العربي :

نأتي الآن الى استعراض الوضع بالنسبة لدارس ومعاهد ومراكز الادارة في الوطن العربي .

ففي الكويت لا يوجد معهد للإدارة العامة وإنما يتولى ديوان الموظفين تقديم بعض البرامج بنفسه أو بالتعاون مع مؤسسات داخل الكويت أو خارجها .

وفي البحرين لا يوجد أيضاً معهد للإدارة ، وإنما يقوم قسم التدريب بإدارة التطوير والتدريب بتقديم بعض البرامج التدريبية ويستعين بجهات أخرى في الداخل والخارج لتدريب موظفي الحكومة .

وفي قطر يوجد معهد للإدارة العامة أنشئ في مدينة الدوحة بالمرسوم (١٥) لسنة ١٩٦٤ م<sup>(١٤)</sup> ، ويرتبط بوزارة التربية والتعليم ، ويقدم دبلوما مدته عامان في مجال الإدارة العامة ويستوعب حوالي عشرين متدرباً في العام . وهو يحمل اسم المعهد بدون محتوى . كما تقوم إدارة شؤون الموظفين بوزارة المالية والتبترول بتقديم بعض الدورات التدريبية بالاستعانة ببعض المنظمات العربية .

أما في دولة الإمارات العربية المتحدة ، فقد قام معهد الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية بدراسة لإنشاء معهد للتنمية الإدارية وإعداد تنظيمه ونظامه الأساسي ، وقد تم إنشاؤه بموجب القانون الاتحادي رقم (٢) وتاريخ ١٩٨١ م ، وهو هيئة مستقلة تتمتع بالشخصية المعنوية ، ويشرف على إدارته مجلس إدارة يرأسه وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء ويشرف في عضويته عدداً من وكلاء الوزارات ومدير عام المعهد .<sup>(١٥)</sup>

وقد حددت مهامه ليقوم بالتدريب والاستشارات والبحوث ، وقد قدم عدداً لا بأس به من البرامج والتدوات والاستشارات وإن كان بحاجة إلى استكمال تجهيزاته الأساسية ودعمه بعدد أكبر من أعضاء هيئة التدريب .

وفي عمان بدأ معهد الإدارة العامة في عام ١٩٧٨ ثم صدر المرسوم (١٨) لعام ١٩٨٠ م بإنشائه رسمياً<sup>(١٦)</sup> . وهو هيئة مستقلة تتمتع بالشخصية الاعتبارية ، ويتبع وزير شؤون الديوان السلطاني رئيس مجلس الخدمة المدنية وهو رئيس مجلس الإدارة الذي يتكون من وزيرين ووكيل وزارة المالية ومدير عام ديوان شؤون الموظفين ومدير المعهد أعضاء . وهو يقوم بالتدريب والبحوث والاستشارات ، وهو من المعاهد النشطة نسبياً ويتوقع أن يكون له أثر فعال عند اكتمال بناء كوافره الفنية في مجال التنمية الإدارية في عمان .

أما في جمهورية اليمن الديمقراطية ، فقد أنشئ معهد للمعلوم الإدارية بموجب قرار مجلس الوزراء رقم (٣١) لسنة ١٩٨٠ م ، ويأشر نشاطاته ابتداءً من سنة ١٩٨٢ م . وهو مرتبط بوزارة العمل والخدمة المدنية . ويرغم أن نظامه ينص على أن يقوم بتقديم التدريب والبحوث والدراسات ، فاته يزاول تقديم برامج محدودة للموظفين التنفيذيين لعدم وجود كوادر فنية في المعهد ولحدودية إمكانياته المالية .

وفي الجمهورية العربية اليمنية أنشئ المعهد القومي للإدارة العامة الذي كان اسمه في البداية معهد الإدارة العامة والسكرتارية (في عام ١٩٦٦ م) ، وهو مؤسسة عامة مستقلة مالياً وإدارياً وذو شخصية اعتبارية . وكان مرتبطاً

(١٤) تقرير مودة قطر للعام للمؤثر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، عمان، ١٩٨٦.

(١٥) تقرير مودة الإمارات العربية المتحدة للعام للمؤثر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، عمان، ١٩٨٦م.

(١٦) تقرير سلطة عمان للعام للمؤثر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، عمان، ١٩٨٦م.

في عام ١٩٦٢ م بمجلس الوزراء ، وفي عام ١٩٧٠ م ارتبط بالهيئة العامة للخدمة المدنية ، ثم أعيد ربطه بمجلس الوزراء في عام ١٩٧٤ م . وفي عام ١٩٨١ م أعيد ارتباطه بوزير الخدمة المدنية والإصلاح الإداري الذي هو رئيس مجلس إدارة المعهد حاليا وأعضاء المجلس وزيران ونائب وزير المالية ومدير جامعة صنعاء وعميد المعهد .<sup>(٣٣)</sup>

وللمعهد فرعان ، أحدهما في تعز والآخر في الحديدة ، ومهمة المعهد هي القيام بالتدريب والاستشارات والبحوث . ويقدم برامج متعددة اعدادية وتقريبية وبعض الاستشارات ، • ان كان يحتاج الى الكثير من الكوادر الفنية والامكانيات المادية .

أما في العراق فان المركز القومي للاستشارات والتطوير الإداري قد أنشئ بالمرسوم (١٨٦) لعام ١٩٧٠ م . وقد سبق الحديث عن تركيبه التنظيمي في صفحات سابقة ، وهو معني بالتدريب والبحوث والاستشارات والتطوير الإداري . وكان في بداية نشأته ويعتبر الجهة المركزية للتدريب والتطوير الإداري في القطر . فقد تولى منذ البداية الدور المركزي وتحمل العبء الكبير في تدريب وتطوير الكوادر الإدارية ، غير أنه جابه صعوبات عديدة في تلبية الاحتياجات التدريبية لأجهزة الدولة ، الأمر الذي دفعه الى اتباع سياسة حث مؤسسات الدولة المختلفة على القيام بنشاط تدريبي خاص وقيامه بدهم هذا النشاط<sup>(٣٤)</sup> . وقد صدر بالفعل قرار مجلس قيادة الثورة رقم ١٦٢٧ بتاريخ ١٩٨٢/١٢/٢٨ م الذي نص في الفقرة الثانية منه على أن وتولى أقسام التطوير الإداري ممارسة مهام التدريب الإداري للمستويات الإدارية المختلفة وفي المواضيع الإدارية والتخصصية .

ولا شك في أن هذه القرارات ستؤثر على فاعليات المركز الذي كان يعتبر من المراكز المتميزة في العالم العربي . ولعل لظروف الحرب العراقية الإيرانية تأثيرا في ذلك بما قد يعيد المركز مرة أخرى لدوره الايجابي في عملية التنمية الإدارية .

أما في الجمهورية العربية السورية فحال التدريب في مجال الإدارة العامة هو حال التنظيم في الإدارة العامة ، إذ لا يوجد حتى الآن معهد للإدارة العامة ، ولكن التقرير السوري المقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية يشير الى أنه : وتجري دراسة إحداث وزارة متخصصة للقوى العاملة تتولى إعداد خطة القوى العاملة ، هذا الى جانب إخراج معهد التنمية الإدارية (الذي صدر مرسوم إنشائه) الى حيز التنفيذ . إضافة الى دراسة امكانية إحداث هيئة عامة للتنمية الإدارية<sup>(٣٥)</sup> .

وفي الجمهورية اللبنانية أنشئ المعهد الوطني للإدارة والآنهاء ضمن مجلس الخدمة المدنية عام ١٩٥٩ م ، وهو يعمل بأسلوب المدرسة الوطنية في فرنسا ، بمعنى أنه يقدم بتقديم دورات اعدادية هي : المرحلة العليا لحملة الشهادة الجامعية الذين يدخلون وفقا لسابقة وظيفية ، ومدة الدراسة ستان . والمرحلة الوسطى وبعدها سنة لحملة الثانوية العامة الذين يدخلون وفقا لسابقة أيضا . الى جانب القيام بالبحوث في مجالات يتغلب عليها طابع القانون الإداري . كما يقدم بتقديم بعض الندوات والحلقات التدريبية .<sup>(٣٦)</sup>

(٣٧) تقرير الجمهورية العربية السورية لتقديم المؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، صدر سابق، ص. (٣٦٨).

(٣٨) التقرير العراقي للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، مرجع سابق، ص (٣٠٣).

(٣٩) التقرير السوري، مصدر سابق، ص (٤٩٤).

(٤٠) التقرير اللبناني، مصدر سابق، ص (٦٤٣).

وفي المملكة الأردنية الهاشمية أنشئ معهد الإدارة العامة بموجب القانون رقم (٢) لسنة ١٩٦٨ م ، وتم تعديل نظامه عام ١٩٨٥ م . وهو مؤسسة عامة مستقلة ماليا وإداريا وذات شخصية اعتبارية ، ويرتبط برئيس ديوان الموظفين الذي هو رئيس مجلس إدارة المعهد . ويضم بجانيه وكيل الديوان وثلاثة من المديرين العامين لوزارات التعليم والتخطيط والمالية ومثلا عن جامعة اليرموك والجامعة الأردنية ، وممثلين عن اتحاد الغرف الصناعية والتجارية ، ومثلا عن اتحاد نقابات العمال ، ومدير المعهد ، وللمعهد فرع في أربد بجامعة اليرموك ، ويضم مديرية للأبحاث والاستشارات وأخرى للتدريب وهو يقوم بالتدريب والاستشارات للقطاعين الحكومي والخاص . وهو من المعاهد النشطة وإن كانت مشكلته تنحصر في شح امكانياته المادية والبشرية . وقد قام بتدريب (٨٧٩١) متدرجا في برامجه منذ إنشائه حتى عام ١٩٨٥ م من القطاعين الخاص والعام . كما قام بأعداد (٤٥) بحثا في نفس الفترة . وقدم عددا من الاستشارات .<sup>(٥٦)</sup>

وفي جمهورية الصومال أنشئ معهد التنمية الإدارية عام ١٩٦٥ م ، وهو مؤسسة عامة مستقلة ماديا وإداريا وذات شخصية اعتبارية يرتبط بوزير العمل والشئون الاجتماعية باعتباره رئيس مجلس الإدارة . وهو يقوم بالتدريب والبحوث والاستشارات . ويرغم أنه يتلقى دعما من البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة التي ساعدته في إنشائه فإن جهوده تعتمد على الخبرات التي تعيها الأمم المتحدة له ، مع وجود عدد محدود من العناصر الوطنية العاملة في المعهد .<sup>(٥٧)</sup>

وفي جمهورية السودان أنشئ معهد الإدارة العامة عام ١٩٦٠ م وتحول بعد ذلك الى أكاديمية السودان للعلوم الإدارية في عام ١٩٧٨ م ، وهو هيئة عامة مستقلة ماديا وإداريا وذات شخصية اعتبارية ، وهي ترتبط بوزير الخدمة العامة والإصلاح الإداري .

والأكاديمية هي الجهة المركزية للتدريب في مجالات الإدارة العامة وتقديم الاستشارات والبحوث ، ويقوم بتقديم العديد من البرامج والاستشارات . وهي من المعاهد الإدارية النشطة ، وإن كانت تسير صعودا وهبوطا وفقا للأوضاع السياسية في السودان . والكثير من عناصرها الفنية والقيادية تعمل في عدد من الجامعات ومعاهد الإدارة في منطقة الخليج . ولاشك في أنه متى ما توفرت الإمكانيات المالية ، فإنها تستطيع أن تلعب دورا إيجابيا أكثر مما تقوم به حاليا في مجال التنمية الإدارية .

وفي الجايميرية الليبية أنشئ معهد الإدارة العامة عام ١٩٥٢ م لتدريب الموظفين التنفيذيين . وفي سنة ١٩٦٤ م أنشئ معده آخر باسم (معهد الإدارة العامة) لتدريب جميع موظفي الدولة تحت إشراف الأمم المتحدة . وفي سنة ١٩٦٨ تم دمج المعهدين تحت اسم (المعهد القومي للإدارة) كهيئة مستقلة ماليا وإداريا وذات شخصية اعتبارية . ويرتبط المعهد بأمين الخدمة العامة ، وهو يقوم بالتدريب والبحوث والاستشارات ، ولديه إمكانيات جيدة تساعده على القيام بعلوم أكبر في مجال التنمية الإدارية .

(٥٦) معهد الإدارة العامة في الأردن - تقرير الشوي - ١٩٨٥م.

(٥٧) عبد الأمين الباتر، التصرف بؤسست التنمية الإدارية في الوطن العربي، للجنة العربية للإدارة، المجلد العاشر، العدد الثالث، ١٩٨٦م، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، ص (٣٣٦).

وفي تونس أنشئت المدرسة الوطنية للإدارة عام ١٩٤٩ م على غرار المدرسة الوطنية في فرنسا . وفي سنة ١٩٥٦ م سميت بالمدرسة القومية للإدارة ، وهي مؤسسة عامة تتمتع باستقلال مالي وذات شخصية اعتبارية ، وترتبط بوزير الوظيفة العمومية والإصلاح الإداري<sup>(٣٧)</sup> . وهي تقدم على النمط الفرنسي مرحلتين تدريبيتين إعداديتين هما :<sup>(٣٨)</sup>

- المرحلة العليا : وتقدم حملة الشهادات الجامعية بعد اجتياز مناظرة قبول ، ومدة الدراسة بها ٢٧ شهرا :

- المرحلة الوسطى : وتقدم حملة الثانوية العامة بعد اجتياز مناظرة قبول ، ومدة الدراسة بها ٤ سنوات .

كما تقوم المدرسة بالبحوث في مجالات معظمها في القانون الإداري . وتتمتع الى حد كبير على أساتذة متعاونين للتدريس . ويبلغ عدد طلبة المدرسة عام ١٩٨٦ م (٢٦٩) دارسا .

وفي الجمهورية الجزائرية أنشئت المدرسة الوطنية للإدارة في عام ١٩٦٤ على غرار المدرسة الوطنية للإدارة في فرنسا ، وهي مؤسسة عامة مستقلة ماليا وإداريا وذات شخصية اعتبارية . وترتبط تنظيميا بالوزير الأول ، ولها مجلس إدارة ، وقرعان أنشأ عام ١٩٨٢ م في كل من وهران وقسنطينة . وتقدم برنامج المرحلة المتوسطة لحملة الثانوية العامة وفقا لمناظرة قبول في برنامج مدته أربع سنوات ، وقد تخرج منها (١٥٠٠) دارس حتى نهاية ١٩٨٥ م<sup>(٣٩)</sup> . كما تقوم المدرسة بإجراء البحوث الإدارية التي يغلب عليها طابع القانون الإداري .

وفي المملكة المغربية أنشئت المدرسة المغربية للإدارة عام ١٩٤٨ م ، وأصبحت المدرسة الوطنية للوظيفة العمومية عام ١٩٧٢ م على نسق المدرسة الوطنية للإدارة في فرنسا . وهي مؤسسة عامة مستقلة ماليا وإداريا وذات شخصية اعتبارية . وترتبط بأكاديمية الدولة المسئول عن الشؤون الإدارية ولها مجلس إدارة يشرف عليها . وتقدم المدرسة للتدريب الإعدادي لنمط مشابه لنمط المدرسة القومية للإدارة في تونس الذي وصفناه منذ قليل . كما تقوم ببحوث يغلب عليها جانب القانون الإداري .

أما في جمهورية موريتانيا الإسلامية ، فقد أنشئ مركز التكوين الإداري السريع عام ١٩٦٦ م ، الذي تحول في عام ١٩٦٨ م إلى المدرسة الوطنية للإدارة على غرار المدرسة الوطنية للإدارة في فرنسا . وهي مؤسسة عامة لها استقلال مالي وذات شخصية اعتبارية ، وترتبط بوزير التربية والتعليم بعد أن كانت ترتبط في السابق بوزير الوظيفة العمومية<sup>(٤٠)</sup> .

وهي تقدم مرحلتين إعداديتين هما : المرحلة العليا والمرحلة الوسطى على شاكلة مدارس الإدارة في المغرب العربي .

(٣٧) للمدرسة المغربية للتعليم العالي ، وزارة التعليم العالي ، المدرسة القومية للإدارة ، تونس ، ١٩٨٦ ، ص (٧) .

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٧ - ٨ .

(٣٩) التقرير الرسمي للحكومة الجزائرية للوزارة المعنية للتعليم العالي ، مرجع سابق ، ص (٣٥٠) ، وحيد الباقولي ، مرجع سابق ، ص (٢٢٠) .

(٤٠) التقرير السنوي للوزارة المعنية للتعليم العالي ، مرجع سابق ، ص (٧٧٧) ، وحيد الباقولي ، مرجع سابق ، ص (٣٢٧) .

ان الحديث عن معاهد ومراكز ومدارس الادارة العربية لا يمكن أن يكتمل دون الحديث عن المنظمة العربية للعلوم الادارية ودورها في التنمية الادارية في الوطن العربي . هذه المنظمة التي أنشأتها الدول العربية لتكون بيتها ومركز ارتكازها في تعاونها في مجالات التنمية الادارية العربية .

لقد كان حلم المهتمين بالادارة العربية من أكاديميين وتنفيذيين أن توجد هذه المنظمة التي أوصوا بإنشائها في مؤتمرين عقد أحدهما في دمشق عام ١٩٥٧ م ، والآخر في الرباط عام ١٩٦٠ م . وقد أقر مجلس الجامعة العربية المشروع الخاص باتفاقية للمنظمة عام ١٩٦١ م . وعقدت جمعيتها العمومية اجتماعها الأول في اليوم الأول من يناير ١٩٦٩ م .<sup>(٣٧)</sup>

ولقد سعت المنظمة منذ انشائها الى تحقيق أهدافها ، التي طرأ عليها تعديل جدرى في عام ١٩٨٢ م وأصبحت كالتالي :<sup>(٣٨)</sup>

- وضع استراتيجية قومية للتنمية الادارية في الوطن العربي ، بما ينسجم واستراتيجيات التنمية القومية والوطنية الشاملة ، ويسهم في توحيد العمل العربي ، وذلك بالتنسيق والتعاون مع الأجهزة المختصة في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، والمنظمات العربية المتخصصة ومؤسسات وأجهزة التنمية الادارية في الدول العربية .

- ودعم مؤسسات وأجهزة التنمية الادارية العربية في الوطن العربي والمساهمة في تطويرها ، ورفع مستوى أداء العاملين بها .

- تنمية القوى العاملة في الأجهزة الادارية العربية ، وبخاصة المستويات القيادية العليا .

- تبادل الخبرات والتجارب بين الأجهزة الادارية في الوطن العربي وبشكل خاص أجهزة التنمية الادارية والمؤسسات العلمية المعنية بتطوير العلوم الادارية .

- توحيد وتطوير التشريعات والنظم والأساليب الادارية في الوطن العربي .

- تطوير المفاهيم الادارية العربية وتعميم المعرفة الادارية الحديثة ، وتعريف العالم بالفكر الادارى العربي .

- التعاون مع المنظمات الاقليمية والدولية المعنية بشئون التنمية الادارية .

(٣٧) للغة العربية للعلوم الادارية ، للغة العربية للعلوم الادارية والادارة العامة العربية ، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية ، حان - الأردن ، ١٩٨٦ م ، ص (٣٠١) .

(٣٨) للغة (٢) من اتفاقية المنظمة العربية للعلوم الادارية .

والممنظمة كغيرها من المنظمات العربية مجلس إدارة وجمعية عمومية وجهاز تنفيذي يرأسه المدير العام ، وأربع إدارات : التدريب ، والبحوث والدراسات ، والاستشارات ، والتوثيق والمعلومات .

لقد حققت المنظمة الكثير من الانجازات منذ نشأتها ، سواء في مجال التدريب أو البحوث أو الاستشارات أو التوثيق ، وإن كانت لم تسر على نمط واحد ، ففي المرحلة الأولى وحتى العام ١٩٨٠ م كانت تركز على برامج تدريبية عامة وأبحاث ينقصها الكثير من التركيز ، ثم بدأت في عام ١٩٨٠ م تنجس الى التركيز على مهامها الأساسية بشكل أكثر ، وخاصة: توجيه برامجها للعاملين في مؤسسات التنمية الإدارية ليكونوا قادرين على تأدية مهامهم في دولهم ، وتقديم برامج خاصة للدول التي لا يوجد بها معاهد للإدارة أو برامج تدريبية في مدارسها ، مع تركيز الاستشارات على المؤسسات المركزية في الدولة ، وليس على الحالات الفردية ، وتحسين مستوى بحوثها لتخدم مؤسسات التنمية العربية ، واستمرت في هذا المجال بخطط متصاعدة ومؤثر على المستويين العربي والعالمي من خلال مشاركتها النشطة في المؤتمرات العالمية .

الا أن نظرة الدول العربية للمنظمات المتخصصة وامتناع الكثير من الدول عن تسديد حصصها في ميزانية المنظمة كغيرها من المنظمات العربية أوقف هذا المد الى الحد الذي أصبحت معه خلال الأعوام الثلاثة الماضية غير قادرة على ممارسة نشاطها . واقتصر نشاطها على عدد محدود من الحلقات التطبيقية التي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .

والى أن يقض الله للحرب رعباً بأهمية بقاء مؤسساتهم القومية ، وإيماناً بأهمية دورها في تفاعل القيادات العربية في مختلف التخصصات فإن أثر هذه المنظمة سيبقى ذكرى لمرحلة مضيئة على تاريخ التعاون العربي في مجال الإدارة العربية .

#### ١١/٢ الخلاصة :

في استعراضنا السابق يتضح لنا وضع معاهد ومدارس وفراكرز الإدارة العربية على النحو التالي :

- قليلة هي تلك المؤسسات التي هُئِئت لها الإمكانيات اللازمة لتأدية مهامها ، ولذلك فإنه ليس من العدل أن ينحى الكتاب العرب في مجال الإدارة العامة باللائمة على هذه المؤسسات التي لم توفر لها مقومات النجاح .

- تتسم المؤسسات المرجوة في المشرق العربي بشموليتها من حيث النظام الأساسي للمكونات الناجحة لأداء تلك المؤسسات لدورها في مجالات التدريب والبحوث والاستشارات والتوثيق .

- تتسم المؤسسات المرجوة في المغرب العربي ولبنان بإتباعها للنموذج الفرنسي الذي يقتصر على الأعداد التدريبية والبحوث ، ويهمل العنصر الأهم وهو تدريب القائمين على رأس العمل ، وتقديم الاستشارات . كما أن برامجها لاتشمل الحقول الإدارية المختلفة ، وإنما يغلب عليها جانب القانون الإداري .

- فيها عداد ثلاث دول عربية هي : الكويت والبحرين وسوريا ، فانه يوجد مدارس ومعاهد للادارة بدرجات متفاوتة من حيث الفاعلية ، والشمولية ، والامكانات المادية والبشرية .
- يغلب طابع المؤسسة العامة المستقلة على معظم المؤسسات العربية وهي نقطة هامة هدفها اعطاء هذه المؤسسات القدرة على المرونة والحركة في تأدية مهامها . وأسندت مجالس ادارتها في معظم الحالات الى وزراء ، وأشرک في مجالس ادارتها العديد من الجهات التي تهتم بأعمالها ، ولكن ذلك لاقیمة له بالطبع اذا لم يعزز بإمكانات مادية وبشرية ودهم سياسي ينفخ الروح في تلك المؤسسات .
- قليلة هي المعاهد والمدارس التي هيء لها دور مؤسسي في مجال التنمية الادارية المتكاملة ، ويكاد يقتصر الأمر على تجربتي معهد الادارة العامة في المملكة العربية السعودية ، والمركز القومي للاستشارات والتطوير الإداري في العراق . وهما الجهتان اللتان تعانان بالتدريب والاستشارات وعمليات الإصلاح الإداري في هاتين الدولتين ، مما أعطاهما مركزاً مميزاً له تأثيره في عمليات التنمية الادارية .
- يکبس وضع تلك المؤسسات أن الاهتمام بالتنمية الادارية في الوطن العربي لايزال في معظم حالاته قاصراً ، وأن الكثير من الدول العربية لم تدرك بعد الأهمية الاستراتيجية لدور مؤسسات التنمية الادارية العربية في اعداد وتنفيذ خطط التنمية الشاملةك ، وذلك يکبس بالتالي الدرجة التي وصلت اليها في مجال التنمية الادارية .
- تبرز تجربة المملكة العربية السعودية في مجال مؤسسات التنمية الادارية نموذجاً رائداً لما يجب أن يكون عليه الوضع في الدول العربية الأخرى .





## المراجع

## الكتب العربية :

- ١ - د. أسامة عبدالرحمن ، أهمية الادارة للتنمية في دول الجزيرة العربية كالتجربة للفظ ، بحث مقدم الى ندوة دراسات التنمية ، البحرين ، ١٩٨٠م.
- ٢ - د. أسامة عبدالرحمن ، البيروقراطية الضخمة ومعطلة التنمية ، مكتب دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣م.
- ٣ - أكاديمية السودان للعلوم الادارية ، الادارة في جمهورية السودان ، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية ، حبان ، ١٩٨٦م.
- ٤ - الامانة العامة لمجلس القري العاملة ، التقرير السنوي لمجلس القري العاملة ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ .
- ٥ - الامانة العامة للجنة العليا للاصلاح الاداري ، اللجنة العليا للاصلاح الاداري : مهامها ، تنظيمها ، انتاجاتها ، معهد الادارة العامة ، الرياض ، ١٤٠٥هـ .
- ٦ - الديوان العام للخدمة المدنية ، انتاجات التدريب في مجال الخدمة المدنية ، سلسلة الاصدارات العلمية للديوان العام للخدمة المدنية ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- ٧ - الديوان العام للخدمة المدنية ، التقرير السنوي ، الرياض ، ١٤٠٧هـ / ١٤٠٨هـ .
- ٨ - د. حسن أبشر الطيب ، الاصلاح الاداري في الوطن العربي بين الأصالة والمعاصرة ، في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي ، المنظمة العربية للعلوم الادارية ، ١٩٨٦م.
- ٩ - د. حمود البدر ، دور الجامعة في التخطيط لبرامجها الجامعية ، بحث مقدم لندوة برامج الجامعات ومدى تلبيتها لحاجة الدولة من القوي العاملة ، معهد الادارة العامة ، الرياض ، ١٤٠٨هـ .
- ١٠ - د. حسن أبشر الطيب ، مؤسست التنمية الادارية ، أوضاعها الراحة وآفاق المستقبل ، المنظمة العربية للعلوم الادارية ، حبان ، ١٩٨٤م.
- ١١ - خالد عبدالكريم الحمد ، تقرير عن التنمية الادارية في المملكة العربية السعودية ، الديوان العام للخدمة المدنية ، الرياض ، ١٩٨٤م.
- ١٢ - دلال بركات مسعود ود . محمد صالح علي ، الادارة العامة في الجمهورية العربية السورية ، بحث مقدم للمؤتمر العلمي للمعهد الدولي للعلوم الادارية ، حبان ، ١٩٨٦م.
- ١٣ - د. حليم الأعرابي ، نظريات التطوير والتنمية الادارية ، جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٨٨م .
- ١٤ - عبدالمنعم الركابي ، الخدمة المدنية في المملكة العربية السعودية ، الديوان العام للخدمة المدنية ، الرياض ، ١٤٠٤هـ .
- ١٥ - عبدالمنعم الركابي ، الأجهزة المركزية للخدمة المدنية ودورها في الاصلاح الاداري : تجربة المملكة العربية السعودية ، الديوان العام للخدمة المدنية ، الرياض ، ١٤٠٤هـ .
- ١٦ - د. غازي عبدالرحمن القصبي ، الكلمة الانتاحية ، يبحث ندوة أهمية الادارة للتنمية ، معهد الادارة العامة ، الرياض ، ١٩٧٨م .
- ١٧ - د. ناصف عبدالحق جاد ، تجارب الاصلاح الاداري في دول مجلس التعاون الخليجي دراسة تحليلية مقارنة ، في كتاب الادارة العامة والاصلاح الاداري في الوطن العربي ، المنظمة العربية للعلوم الادارية ، حبان ، ١٩٨٦م .
- ١٨ - د. ناصف عبدالحق ، دراسات نظرية لمؤسسات وأجهزة تنمية الادارية في المملكة العربية السعودية ، كلية التجارة والاقتصاد ، جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٨٨م .
- ١٩ - نظام مجلس الخدمة المدنية ، صانعو المرسوم الملكي رقم (٤٩/م) لعام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٨م .
- ٢٠ - نظام مجلس الخدمة المدنية ، صانعو المرسوم الملكي رقم (٤٨/م) لعام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٨م .
- ٢١ - مجلس الخدمة المدنية ، الادارة العامة في الجمهورية اللبنانية ، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الادارية ، حبان ، ١٩٨٦م .

- ٢٢ - مجلس الفزى العاملة، محاضر اجتماعات المجلس رقم (٦) لعام ١٤٠٢هـ، ورقم (٢٠) لعام ١٤٠٥هـ.
- ٢٣ - د. محمد عبدالرحمن الطويل، دور أجهزة التنمية الإدارية في تحقيق التنمية الإدارية : حالة دراسية عن أجهزة التنمية الإدارية في المملكة العربية السعودية ، معهد الإدارة العامة، الرياض، ١٩٨٠م.
- ٢٤ - د. محمد عبدالرحمن الطويل، تحديات التنمية الإدارية في الدول العربية الأعضاء بمجلس التعاون الخليجي، معهد الإدارة العامة، الرياض، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٢٥ - د. محمد عبدالرحمن الطويل، دور الإدارة العامة في التنمية الاقتصادية، من بحوث ندوة إحمدة الإدارة العامة للتنمية، معهد الإدارة العامة، الرياض، ١٩٧٨م.
- ٢٦ - د. محمد عبدالرحمن الطويل، الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية، معهد الإدارة العامة - الرياض ، ١٩٨٦م.
- ٢٧ - المرسوم الملكي رقم (م/٤٤) في ١٤٠٢/٧/٤هـ.
- ٢٨ - المرسوم الملكي رقم (م/٣١) لعام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).
- ٢٩ - المرسوم الأميري في ١٤٠١/١٠/١٤م ، الكويت، ١٩٨٤م.
- ٣٠ - المدرسة القومية للإدارة، ثلاثون سنة في خدمة الإدارة التونسية، تونس، ١٩٨٦م.
- ٣١ - المدرسة الوطنية للإدارة، الإدارة العامة في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، حبان، ١٩٨٦م.
- ٣٢ - معهد الإدارة العامة، التقرير السنوي، حبان، ١٩٨٥م.
- ٣٣ - معهد الإدارة العامة، الإدارة العامة في المملكة الأردنية الهاشمية، تقرير مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، حبان، ١٩٨٦م.
- ٣٤ - مصلحة الإحصاءات العامة، الكتاب الإحصائي السنوي، العدد الثالث والعشرون، الرياض، ١٤٠٧/١٤٠٦هـ.
- ٣٥ - وزارة الخدمة المدنية والإصلاح الإداري، الإدارة العامة في الجمهورية العربية اليمنية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، حبان، ١٩٨٦م.
- ٣٦ - وزارة الشؤون الإدارية، الإدارة العامة في المملكة المغربية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، حبان، ١٩٨٦م.
- ٣٧ - المنظمة العربية للعلوم الإدارية، المنظمة العربية للعلوم الإدارية والإدارة العامة العربية، بحث مقدم للمؤتمر العشرين للمعهد الدولي للعلوم الإدارية، حبان، ١٩٨٦م.

#### المجلات العربية :

- ٣٨ - محمد الأمين البانوي، التعرف بمؤسسات التنمية الإدارية في الوطن العربي ، مجلة العربية للإدارة، المجلد العاشر، العدد الثالث، حبان، ١٩٦٦م.
- ٣٩ - د. نزيه الأيوبي، أجهزة التنمية الإدارية ومؤسساتها في الأفكار العربية ودورها في إدارة التنمية، المجلة العربية للإدارة، المجلد التاسع، العدد الرابع، حبان، ١٩٨٥م.

#### الكتب الأجنبية :

1. Dr. Mohammed A. AL-Tawall, *The Institute of Public Administration in Saudi Arabia, A Case Study In Institution Buildings*, University Microfilm, U.S.A., 1974.
2. Dr. Mohammed A. AL-Tawall, *Process and Instrument of Administrative Development In Saudi Arabia*, University of Pittsburgh, 1970.

## شخصيات وأراء

أولاً: مدخل الى عالم بول تيليش

لـ الالتقاء بين الوجودية والدين:

بول يوهانس أوسكار تيليش Paul. J. O. Tillich (١٨٨٦ - ١٩٦٥) قسيس بروتستانتي ومنظر لاهوتي، وفيلسوف ديني، من أعظم وأبرز فلاسفة المسيحية في القرن العشرين. آمن بأن الوحي ليس فقط إجابة عن تساؤلات نظرية، ولكنه كذلك حلول لمشكلات عملية. فكان أقدر من غير من حلالة العقيدة الدينية بالحياة الحضارية للإنسان المعاصر وموقفه الوجودي، وبصورة جعلته من طليعة المعنيين بالاشكالية الحضارية المعاصرة، سواء لاهوتيين أو علمانيين، فهو على الحدود بينهم.

تدور أعماله حول تأكيد قدرة اللاهوت الفذة والفريدة على تقديم الاجابات المرضية والشعبة لتساؤلات الوجود الانساني الملحة، وبالتالي على تقديم العلاج الناجح للأدواء المؤمنة التي تعاني منها الحضارة الغربية في القرن العشرين. هذا شريطة الثورة على الميراث التقليدي، وتجديت اللاهوت وإعادة صياغته. وقد فعل تيليش هذا، ولكن على أسس وجودية.

ان اللاهوت والوجودية يلتقيان في فكر بول تيليش، ليمثلا نقطة انطلاق الى غد أفضل وحضارة أفضل... الى وجود جديد، لإنسان جديد. لذلك كان بحثنا هذا من أجل الوقوف على الوجودية اللاهوتية والدينية كما تحققت مع بول تيليش، في واحدة من أقوى وأخصب صورها.

والواقع أن ثمت أكثر من دافع وراء هذا البحث، وأكثر من هدف يُرمع لتحقيقه. فمثل الرغم من وجود

بول تيليش  
فيلسوف على الحدود

بمعى طريق الحقولى

كثرة من الفلاسفة والمفكرين الذين ينزلون بصورة أو بأخرى، تحت مصطلح «الوجودية» Existentialism، المراءى، فإن القلة هي التي تتعرف بالهوية الوجودية صراحة، ربما لأن هذه القلة هي التي تدرك صراحة المعنى الدقيق لهذا المصطلح الواسع الانتشار والكثير الالتباس. وعلى أية حال، فإن تيليش من الوجوديين الذين يؤكدون وجوديتهم بمنتهى الاصرار والامعان - قولاً وتطبيقاً.

فهل يرجع ذلك لأنه قسيس بروتستانتي؟

لقد كان البروتستانتي الدانمركي العظيم سرن كيركجور Sren Kierkegaard (١٨١٣-١٨٥٥) أكثر البروتستانتين بروتستانتية، أو «بروتستانتي البروتستانتية»<sup>(١)</sup> هو الأب الشرعي للفلسفة الوجودية - ومع هذا جرى العرف على تقيي أثره وتتبع مسارات ونمو الفلسفة الوجودية بعده، في معاتل الفكر المعاصر - في الفلسفة وبعض التيارات والأصالح الأدبية.

لكننا نلاحظ أن اللاهوت البروتستانتي في القرنين التاسع عشر والعشرين تأثر بشدة بالفلسفة الوجودية واستقطبها، وعرف كيف يستغل مقولاتها في إقامة دعاويه.

وعلى الفور يهز في هذا الصدد اللاهوتي الوجودي رودلف بولتمان R. Bultmann (١٨٨٤ - ١٩٧٦). الذي رأى أن العهد الجديد في جوهره رسالة وجودية بأصق ما في الكلمة من معنى، لكن الكونزومولوجيات البدائية المعاصرة له - ذات الأصل الفنوصي - قد

ألحقت به الأساطير وشوخته، بحيث نجده لا يصلح البتة موضوعاً للإيمان الحقيقي للإنسان في القرن العشرين - في أوج عصر العلم. من هنا كان بولمان ناقدًا تاريخياً قاسياً للعهد الجديد، بنية إعادة صياغته على أسسه الحقيقية - الوجودية - التي تجعله أجبر وأقندر على البقاء في الحضارة المعاصرة أي أن بولمان كان يهدف إلى إعادة بناء المسيحية على أسس وجودية، تنتهي إلى قرار إنساني باختيار الوجود الأصيل ورفض الوجود الزائف. وهذه رسالة يعجز عنها العقل المنطقي. وكانت وسيلة بولتمان لتحقيقها هي المفاهيم الوجودية ومصطلحات مارتين هيدجر M. Heidegger (١٨٨٩ - ١٩٧٦) بالذات. وثمة على وجه الخصوص مفهومان قنهما هيدجر بالألمانية - لغته ولغة بولتمان - وليس لها مقابل دقيق بالانجليزية اكتسبا أهمية خاصة بالنسبة لهيدجر، وقد جعلهما بولتمان هكذا بالنسبة للاهوت الوجودي.

هذان المفهومان هما أولاً Fragestellung، أي طريقة طرح التساؤل، التي تعالج التساؤلات اللاهوتية بوصفها قبل كل شيء تساؤلات عن وجود الإنسان في علاقته مع الرب، وتفسر الكتابات المقدسة بوصفها عبارات معنية أساساً بوجود الإنسان، وثانياً مفهوم Begrifflichkeit أي نسق من المفاهيم الأساسية المشتقة من لفظة الوجود<sup>(٢)</sup>.

وبرفقة بولتمان يقف فردريش جوجارتن F. Gogarten (١٨٨٧ - ١٩٦٧) الذي آمن بأن إمام البروتستانتية مارتين لوتر قد حطم تأثير الميتافيزيقا على اللاهوت، ووجه تفكير الكنيسة إلى ما نسبته الآن

Walter Kaufmann, *Existentialism From Dostoevsky to Sartre*, Meridian Book, New York, 1975.P.11.

John Macquarrie, *An Existentialist Theology: A Comparison of Heidegger And Bultmann*, penguin Books, london, (١) 1960.P.13.

كوارث جعلت أساسيات الحركة في حاجة الى بحث وإعادة صياغة. وهذه هي المهمة التي تكفل بها تيلش، وأنها بنجاح ملموس. واللاهوت الليبرالي - قبل عام ١٩١٤ - يعدل - يستند الى خطوط وجودية واضحة، بل أنه يستمد أولى أصولياته من القديس أوغسطين St. Augustine (٣٥٤ - ٤٣٠) أول المبشرين بارهاصات الوجودية.

وكان الاتجاه البروتستانتي المعارض له يستند ايضا الى الوجودية، فكلارك كانت K. Barth (١٨٨٦ - ١٩٦٨) هو أشد اللاهوتيين البروتستانتين نفورا من اللاهوت الليبرالي ورفضاً له وتبرؤاً منه. قادة الثورة عليه وقدم لاهوتاً مناقضاً يبدأ من الله كما تجل في المسيح لا من الحرية الإنسانية والمضاربة ويفسر اللاهوت بصلب ذاته. وبارت هو الآخر وجودي صميم. توضح أحواله، وإصمها (رسالة الى أهل روما) وأضحىها (دوهماتيكيات الكنيسة)، مدى اقتضائه لحظي كيركجور وانتهاجه لأسلوبه في الكتابة. وكان لوجودية كيركجور تأثير عظيم على لاهوت بارت الخجص، وربما أيضاً على اللغة التي عبر بها. وهو على أية حال قد اعتقد فيها بعد أن طريق الوجودية سوف يؤدي لا محالة لنقطة بدء القرن التاسع عشر الى الانسان الديني (أي الى نقطة بدء اللاهوت الليبرالي) فكانت الوجودية معه فقط لتعطينا وصفاً أعمق وأثقل لهذه النظرة الدينية في أفضل صورها، بيد أنها لا تمنحنا الأساس العقلي لللاهوت. يريد أن يتحدث عن الرب بمصطلحات عقلانية ومتعقلة، كما كان يطبع بارت في نهاية الأمر. ومع كل هذا كان كيركجور معبراً هاماً عبر عليه بارت الى العالم الجديد للاهوت المطور، وربما لم

وبالقنوات الوجودية». بيد أن استبصارات لوثر ضاعت في فترة أصوليات البروتستانتية التقليدية التي تلتها، ونحن الآن في حاجة الى إعادة توكيدها. وأفضل طريقة لفهمها، ليس عن طريق اللاهوتيين، بل عن طريق فلاسفة علمانيين أمثال مارتين هيدجر. <sup>(٥)</sup> والایمان في نظر جوجارتين ينشأ على أساس التفسير الوجودي للتاريخ المقدس، الذي يجعلنا نراه فضاء لمخاليق وجودنا نحن التاريخي، في ظل الثقة بكلمة الرب. وهذا شيء لا نتعلمه فقط من الوجودية الحديثة، بل وأيضاً من الفهم السليم لتعاليم لوثر. أما فريتس بورى Fritz Buri (١٩٠٧ - ٩٠) فقد صدق بمجامع نفسه على دعوى بولتيان بالتفسير الوجودي للمهد الجديد وتجريده من الأساطير، وللدرجة جعلته بولتيانيا أكثر من بولتيان نفسه، فقد سار في طريقه الى أبعد مما سار. وأصق صورة لتطبيق الوجودية على المشاكل اللاهوتية وأكثرها جدلية إنما نجد لها في مشروع بورى «اللاهوت الوجودي» <sup>(٦)</sup>.

وبولتيان ومدروسته يقفون ضمن فئات الثورة على اللاهوت الليبرالي أو اللاهوت المتحرر. واللاهوت الليبرالي بدوره حركة بروتستانتية انتشرت في القرن التاسع عشر، وذاعت وشاعت حتى سادت الأجواء مع مطلع هذا القرن وهي تفسر اللاهوت على ضوء الخبرة الإنسانية وبالتالي التغيرات الحضارية. واستمرت في ذيوها حتى عام ١٩١٤، أي قيام الحرب العالمية الأولى. فحتى هذا التاريخ كان اللاهوت الليبرالي - ومجمل الفكر الديني - يسير أكثر في اتجاه النزعة المتفائلة خصوصاً بعد ما تلقت بروائع من الجدل الميجل والتطور الدارويني. ولكن نواتج الحرب وما خلفته من

John Macquarrie, 20th Century Religious Thought: The Frontiers of Philosophy And Theology, SCM press Ltd, (٢) London, 1971.P.364.

Ibid, P.365.

(١)

يفلح تماما في زجزة تأثيره<sup>(١)</sup> وسوف نتعرض فيما بعد بالتفصيل للاهوت الليبرالي، والصورة التي اتخذها عند تيليش تحت اسم «اللاهوت الحضاري»، وأيضا لموقف بارت للمعارض.

وما ينبغي أن نصوب عليه الأنظار الآن، هو كيف أن كبار أئمة اللاهوت البروتستانتي المثلثين لأهم اتجاهاته المعاصرة، بولتيان وبارت وتيليش ينطلقون من الأرضية الوجودية على الرغم من اختلاف مشايرهم البروتستانتي بل وتناقضهم بمبدأ قضية مبدئية هي أكون تفسير اللاهوت من صلب ذاته أم من قلب التجربة الإنسانية؟ وهذا ينطبق أيضا على رجالات الصف الثاني لفلسفة اللاهوت البروتستانتي المعاصر أمثال أوجدن S. N. Ogden، ووليم كاملاه W. Kameish من أتباع بولتيان، وإميل برنر E. Brunner (١٨٨٩ - ١٩٦٦) أعظم المثلثين لما أسماه كارل بارت بلاهوت الكلمة، وإن كان قد الترق مع أساتذته في بعض النقاط، ويزالمه في اتباع اللاهوت أوسكار كلين O. Cullman (١٩٠٣ - ١٩٠٩). أما أخلص تلاميذ تيليش فهو الأسقف روبرنسون J. A. Robinson، الذي يوضح كتابه «مخلص للرب، Honest To God» كيف أنه أجاد استعجاب فلسفة أساتذته وقتلها، وأضاف إليها وطورها حتى وصل إلى درجة أثارت عاصفة شديدة بين اللاهوتيين، حين صدره عام ١٩٦٣. ولا يفتونا ذكر أعلام لهم أهميتهم في اللاهوت الفلسفي البروتستانتي، ولم أيضا استقلالهم، مثل فلاهم، وادولا وهم أتباع. وأهمهم ديتريش بونهورف D. Bonhoeffer (١٩٠٦ - ١٩٤٥) الذي ينافس تيليش في إيمانه بالقيمة العملية والفعالية إلمة للاهوت وأيضا

ضرورة تحديثه. ويذكرنا كل سطر من سطور العمل الذي توج حياته القصيرة و«من التبعة» «The Cost of Discipleship» بروح كيركجور. وثمة أيضا رابنرلد نيور R. Niebur (١٨٧٢ - ١٩٧١) الرافض للاهوت الليبرالي، بحيث يعتبره البعض تابعا لبارت<sup>(٢)</sup>. أبدى اهتماما فائقا بالمسائل الاجتماعية والسياسية وعني بنقد الليبرالية الديمقراطية للحضارة الأوربية، مؤكدا أهمية الدين الاخلاقية. وأهم أعماله في هذا «إنسان اخلاقي ومجتمع لا اخلاقي» «Moral Man And Immoral Society» سنة ١٩٣٢، و «أبناء النور وأبناء الظلام» سنة ١٩٤٤. «The Children of Light And The Children of Darkness» وقد أخذى هو الآخر حلو كيركجور في اعتبار الإنسان معقفا بين التناهي والحركة، ولا متلوعة له عن تقبل كليها كي يميا بصحة روحية. وهذا التعليق للإنسان يتبدى من خلال القلق الذي هو ظرف مبدئي تنشأ عنه كل خطيئة<sup>(٣)</sup>.

كل هؤلاء اللاهوتيين البروتستانتين، وسواهم من لا يتسع المجال لحصرهم، ووجوديون صرحاء، ولكن طيعا بدرجات متفاوتة في مدى تململمهم وتمثيلهم للفلسفة الوجودية. ولئن كان لاهوت بولتيان ومدرسته أكثر وأخلص ووجودية من لاهوت تيليش، فإن تيليش هو أقدر من أستطاع أن واحد. أن يجعل الوجودية تنساب في شرايين البروتستانتية، والبروتستانتية تنساب في شرايين الوجودية، والحياة تنساب في كليهما.

إن اللاهوت الفلسفي هو البحث في التضمينات الفلسفية للعقيدة الدينية، وليس يصعب إدراك الخاصية الوجودية للتضمينات الاساسية المعيزة

William Nicolas, Systematic and Philosophical Theology, pelican Book, London 1969.P.82.

H.D.Jewis, Philosophy of Religion, Hodder & Soughton London 1975.P.326.

W.Nicolas, Op. cit, P.294.

(١)

(٢)

(٣)

## والفلسفة الوجودية.

وبعد كل هذا، يظل التوقف عند مثال تطبيقي لهذا الالتقاء، هو فلسفة تيلش، ليس فقط وتوقفاً عند شريحة معينة عن قطاع هام من الفكر اللاهوتي أو الغربي المعاصر، بل هو مسألة أصمق. إنه وتوقف على طبائع وخصائص مميزة لفلسفة ذات عناصر أساسية.



لئن كانت الطبيعة الخاصة للبروتستانتية تلقي بها تو في قلب الفلسفة الوجودية، فإن العكس ليس صحيحاً، أي أن الطبيعة الخاصة للفلسفة الوجودية لن تلقي بها في قلب البروتستانتية فقط، بل هي كثيفة يجعلها تتوغل في أعطال أي فكر لاهوتي رام وشائع فلسفية حية. وإذا كان المنشور البابوي الكاثوليكي لعام ١٩٥٠ قد استبعد الوجودية بوصفها واحدة من الفلسفات المعارضة غير المرغوب فيها، فإننا نرى هذا عناداً في البروتستانتية وليس في الوجودية. وثمة فلاسفة وجوديون وكاثوليك، من الطراز الأول في وجوديتهم وفي كاثوليكيته، من أمثال جيريل مارسيل G. Marcel.

إن الوجودية هي الأساس الفلسفي للنظر في الموقف الإنساني المتعين بمسؤوليته الفردية الربية حيث لا يتسع للنطق الجليد ولا يتسع للمنج العقلائي الصارم. لذلك يصعب أن يناقش أي لاهوتي متسلِّف دعاويه غير الاستعارة من المفاروس الوجودي والالتجاء إلى المفاهيم والمصطلحات الوجودية من قبيل «المهم» و«القلبي» و«التناهي» و«الائتم» و«الاغتراب» والوجود الأصلي<sup>٨</sup>.

للبروتستانتية، فلا يدهشنا كل هذا الالتقاء بين اللاهوت البروتستانتي والفلسفة الوجودية، فهو مسألة تنبئ لكل من يمين النظر في منطقات ومضمون دعوة لوتشر: أما عن الزاوية التاريخية لهذا الالتقاء، فقد أشار إليهما تيلش نفسه، حين فرق بين ثلاثة وجوه للوجودية: الوجودية بوصفها وجهة نظر - وبوصفها احتجاجاً (Protest) - وبوصفها تعبيراً.

ونجد وجهة النظر الوجودية ماثلة في معظم الأعيال اللاهوتية أو في جانب يمتد به من الأعيال الفلسفية والفنية والأدبية، ولكننا وجهة نظر لا تترك في بعض الأحيان بوصفها كذلك. أما الوجودية بوصفها احتجاجاً فقد ظهرت كحركة واعية بذاتها منذ الميلاد الرسمي للوجودية مع كيركجور، لتصبح بوصفها تعبيراً خاصة سمة الفلسفة والفن والأدب، في مرحلة الحريين العالميتين.<sup>(٩)</sup> وإذا كان ديكرات - كما هو معروف - قد شق الطريق المناوئ للوجودية، فإن تيلش يؤكد أن البروتستانتية برفضها للإتصالات الميتافيزيقية والانطولوجية حل العقيدة الدينية، كانت هي التي تحمل لواء وجهة النظر الوجودية. لكن البروتستانتية تراجعت عبر تاريخها عن الكثير من الأراضي الوجودية. وبخاصة تحت ضغط المجتمع الصناعي الذي تنامي في القرن التاسع عشر والذي يتطلب لحسن إدارته لنفسه وللعالم فلسفة ضد الوجودية ولاهوتاً ضد الوجودية. وتحت تأثير الحركات الاجتماعية والتيارات السيكولوجية في القرن العشرين أصبحت البروتستانتية أكثر انفتاحاً على المشاكل الوجودية للموقف المعاصر<sup>(٩)</sup> فكان ما أشرنا إليه من التقاء حميم بين اللاهوت البروتستانتي

Paul Tillich, The Courage to Be, Yale University Press, New York, 1960. P126  
Ibid, Pp. 132; 134.

(٨)

(٩)

للمشاكل التي تصدى لها. وجعلتهم باحثون من الانطلاقة أو الثورة الروحية للإنسان، بغية راب الصدى العميق في بتيان الواقع الجاف. منهم من عرف كيف يحطم الحدود التقليدية المستهلكة للملة اللاهوتية، من أجل تطويرها وتوسيعها وإثرائها، فتكون أقل على إنقاذ «الوجود الشخصي». وكانوا بهذا يعطوننا أمثلة نموذجية على الفلسفة الوجودية وأسلوب ارتكازها على الدين واللاهوت واستعانتها به. هؤلاء الأربعة هم مارتن بوبر M. Buber (١٨٧٨ - ١٩٦٥) ممثل الفلسفة اليهودية وذا التأثير الكبير على تيليش، وجاك ماريان J. Maritain (١٨٨٢ - ١٩٧٥ م) ممثل الفلسفة الكاثوليكية، ونيقولا بيرديالوف N. Berdyaev (١٨٧٤ - ١٩٤٨) ممثل الفلسفة الأرثوذكسية - ويأتي تيليش لمثل الفلسفة البروتستانتية. لقد انتقينا هؤلاء الأربعة فقط ليمثلوا التيارات اللاهوتية الأربعة في الفكر الغربي المعاصر. لكن من وراءهم يقف جمع غفير لفلاسفة تكفلوا بمثل هذه المهمة. ولعل أسبانيا تقدم بأكفاً فيلسوفين في هذا الصدد هما ميغل دي أونامونو M.de Unamuno (١٨٦٤ - ١٩٣٦) وأورتيجا جاسيت Ortegay Gasset (١٨٨٣ - ١٩٥٥). ومثل انجلترا جون مكموري G. Macmurry وثمة أيضاً كارل هايم K. Heim (١٨٧٤ - ١٩٥٩) وسرجيوس بولجاكوف S. Bulgakov (١٨٧٠ - ١٩٤٤) . . . . . ويوضح المؤرخ جون ماكوري أن هؤلاء الفلاسفة - خصوصاً بيرديالوف وأونا مونو اللذين يعتبرهما أعظم ممثلين للوجودية حين التبرأ أن الدين أساساً فعالية شخصية إنما يهدفون المتطور بذهمهم في صورة اللاهوت الوجودي<sup>(١١)</sup> الذي رأيناه مع تيليش وبولتيان وزملائهما

الشرعي والوجود الزائف . . . الخ»<sup>(١٢)</sup> وإذا كان ماكينري صاحب هذه الملاحظة يقول في التعقيب عليها إن الوجودية في حقيقة الأمر مبدأ لاهوتي عايد، لأنها تبرز الولاء للاعتقاد بأن الشخص قد اختاره، وهذا تبرير ينطبق أيضاً على العقائد الإلحادية،<sup>(١٣)</sup> فإننا قياساً على تعقيب ماكينري نقول إن الفلسفة الوجودية هي فقط الكفيلة بإعطاء الإيمان الديني تعميقاً وتفسيراً وتبريراً، لا بد وأن تسلم بها جميع الأطراف، حتى وإن كانوا ملحدون. فالرأي عندي - وهو رأي سيعطينا تيليش للمثال الحي والشاهد الأصدق عليه - أنه لا توجد وسيلة أكيدة لتفسير الحياة في اللاهوت وتعميق معاشة التجربة الدينية أنجح وأفضل من الفلسفة الوجودية أو حتى تيارها خصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار أن الدين أولاً وقبل كل شيء عقيدة، ثم يأتي تطبيق الشريعة كنتيجة وعصمة للإيمان بالعقيدة، أو بالتعبير الوجودي لقرار إختيار العقيدة تحقيقاً للوجود الشرعي (أو الأصل) في تراجعات أخرى نراها (الأصوب).



وإذا تركنا الآن رحاب اللاهوت الفلسفي، ودلفنا بتوغل أكثر إلى رحاب الفلسفة ذاتها، أي الفلسفة اللاهوتية أو المستعينة باللاهوت أو حتى مجرد الفلسفة للمؤمنة، أي إذا تركنا تيليش اللاهوتي، فسنجد أن تيليش الفيلسوف واحد من أربعة فلاسفة ممثلين لتيار هام من تيارات الفكر الغربي المعاصر هو تيار الفلسفة اللاهوتية، التي تركز على اللاهوت ويعتمد منه حلولاً

(١١) A. MacIntyre, *Existentialism*, in: *Encyclopedia of Philosophy*, P. Edwards (ed in Chief) Macmillan, (١٩٦٥) New York, 1972. Vol. 3, P.151.

J. Macquarrie, *20th Century Religious Thought*, P.289.

(١٢)



إن صلب التفكير الوجودي يقوم على المقابلة بين (الوجود - لذاته) أي الإنسان وبين (الوجود - في ذاته) أي الشيء. ولا يخرج من هذه المقابلة إلا بوجود - من أجل - ذاته ومن أجله كل وجود آخر، أي الألوهية. ونحن يحقق الإنسان مبدئيات الموقف الوجودي أي حين يصوب تفكيره تجاه الشخصنة الوحيدة المحاطة بالفلق والأعتراب والتأتمهي والعدم والمثقلة بععب الحرية، فالأرجح أن يلتجئ فوراً إلى الموجود المتعالي - الله، أو كما يقول بير ياليف: (كلنا أحكم عالم الذات اغلاق الباب على نفسه، فإنه يكشف فجأة وجوداً متعالياً).

ليس هذا مقصوداً على الألوهية فحسب، بل وعلى الذين بمعناه الحرفي، والمقصود الأديان السابرة - فحديثنا لا ينطبق على الكونفوشية أو البوذية مثلاً - الذين السابري له قدرة يصعب مناقشتها على تضمين مسئلة الوجود الفردي إلى الحد الذي يجعله حقيقةً بالنظر الوجودية. ولنخط خطوة أبعد ونقول ليس التجربة الدينية في عموميتها، بل وأكثر من هذا التجربة الصرفية هي التي تحمل أسمى تحقق للفلسفة الوجودية، والمتصوفة الذين هم أكثر عباد الله عبودية - أو عبودية حسب المصطلح الإسلامي الدال على الدرجة القصوى - هم أيضاً أكثر الوجوديين وجودية. فالوجودية فلسفة للذات لا للوضوع، والإنسان لا الطبيعة، والتجربة الحية لا العقل النظري، ولن نجد ذاتية تنبذ كل موضوعية، وإنسانية تزودي الطبيعة المادية، وتجربة ذوقية وجدانية تغرب عرض الحائط بمقولات العقل والعقلانية، مثلاً نجاهها مع المتصرفية. وهل يحادل أحد في أن اليستر وإكهارت Eckhart

اللاهوتيين، حين اكتملت فلسفة الوجود الشخصي بفلسفة الانطولوجيا.

والتبرغل أكثر في رحاب الفلسفة، تلقى في النهاية الوجودية المؤمنة فحسب. وحل رأسها الفيلسوفان الشهيران صاحبيا البصيات في بلورة وتطوير مفهوم الوجودية، وهما الفرنسي جيريل مارسيل، والألماني كارل ياسبرز K. Jaspers (١٨٨٣ - ١٩٦٩) الذي فلسف للاهوت الليبرالي البروتستانتى، ومع هذا كان له تأثير كبير على جورج جانت بقوله إن اللطف والوحي ليسا في فعل معين. وثمة كثيرون أقل شهرة، أهمهم الروسي ليون شستوف Leon Shestov (١٨٦٦ - ١٩٣٨) الذي جعل عنوان أهم كتب كيركجور (أما... أو Either.. Or) أساساً أو هيكلًا لفلسفته. وقد انشأ (شستوف) بوجوديته المؤمنة من الثورة البلشفية فانضم - مع بيرو ياليف - إلى ميرب الطيور للمهاجرة التي غادرت روسيا طوعاً أو كرها.



وإذا ما درسنا شيئاً من اللاهوت الفلسفي ثم من الفلسفة اللاهوتية، فأننا ننتهي إلى أن العلاقة تبادلية بين اللاهوت والفلسفة الوجودية. فكما استعان اللاهوت البروتستانتى بالفلسفة الوجودية ليكون أقوى وأكثر حياة فإن الفلسفة الوجودية أيضاً قد تستعين باللاهوت لتكون أقوى وأكثر حياة بل، ولتكون أكثر وجودية، فكما قال الرائد كيركجور (الوجودية الحقة هي المسيحية، أو هي بتعبير أدق صيرورة الإنسان مسيحياً) (١٦)

(١٦) روجي جريفيه، للفلسفة الوجودية: من كيركجور إلى جان بول سارتر، ترجمة فؤاد كحل، مراجعة د. محمد عبدالمعطي أبو ردة، دار المصرية للنكف والدراسة، القاهرة د. ت. ص ٢٠

الإنساني. وينفس الطريقة يمكن أن يقول المرء إن الوجودية هي الحظ السعيد للاهوت المسيحي<sup>(١٤)</sup>



وبعد هذا الحديث حول وجودية اللاهوت، ولاهوتية الوجودية، أي العلاقة التبادلية الوثيقة بين الوجودية والدين بقي أن نلاحظ أن الوجودية اللاهوتية أوحى المؤمن وهي الأصل كما نشأت مع كيركجور- توارت في الظل وقمت بالوقوف من وراء الوجودية الملحة التي انشقت عنها، والتي حظيت بنصيب الأسد، إن لم نقل استأثرت بما لحق الوجودية من شهرة طبقت الخافقين حين حطمت جدران الأروقة الأكاديمية وانسابت في تيار الحياة اليومية، كما لم تفعل فلسفة أخرى، لا من قبل ولا من بعد، باستثناء الماركسية طبعاً.

ذلك أن الوجودية ظلت كاتبة في مستويات البحث العميق والثقافة الربعية، يعبر عنها فلاسفة راموا أن يكونوا إنسانيين بمعنى ما، وتلقى بظلالها على أفعال أدياب وشعراء عظام أمثال دستوفسكي وهولدرلين واليوت، ثم جيمس جويس وكافكا وبيكيت وغيرهم... حتى كانت الأربعينيات من هذا القرن، التي شهد جميلها في أوروبا أهوال حربين عالميتين. رأى هؤلاء أن الدول والحكومات تتخذ قرارات من المفروض أنها عقلانية مدروسة لكنها تؤدي إلى الخراب

(١٦٦٠ - ١٣٢٧) (طبعة عظام المتصوفة<sup>(١٥)</sup> هو مفكر وجودي من الطراز الأول، وإن يعقوب بومه J. Boehme (١٥٧٥ - ١٦٧٤) أعظم المتصوفة، هو حامل لواء الوجودية في فترة ما قبل الديكارتية<sup>(١٦)</sup>

ومحصلة كل هذا ما نلمسه من أن الغالبية العظمى من الفلاسفة الوجوديين كانوا ذوي علاقة متينة مع الدين. والوجوديون الملاحدة الممثلون لمعال على طريق الوجودية قلة (نيتشه وهيد جروسارتر وربما كاسي) وإن كانت لهم فعلاً أهمية كيفية تفوق كل كم، فليست تتعلق أهميتهم الكبيرة بمفولة الاتحاد في حد ذاتها، ولا هي اكسبت فلسفاتهم شيئاً مما لها من قوة فائقة.

أما من الناحية الأخرى التي قلنا بها الحديث، أي ناحية اللاهوت، فإن تيليش يعتقد أنه (قد تلقى هبة عظيمة من الفلسفة الوجودية<sup>(١٧)</sup>، حتى أنه - أي تيليش - يؤلف مرجعاً أكاديمياً ضخماً يحيط بتاريخ الفكر المسيحي منذ أصوله اليهودية والأفريقية وصولاً إلى الفلسفة الوجودية أو انتهاء بها، مؤكداً أن الانجيل يحمل عناصر مبكرة للتفكير الوجودي<sup>(١٨)</sup>. يقول تيليش إن المسيح أتى ليخلص دهرنا جديداً New eon، وأن (الوجودية قامت بتحليل الدهر القديم، أي مازق الإنسان وهاله في وضع الغربة. والوجودية يتجاوزها لهذا إلهاماً حليف طبيعي للمسيحية. وذات مرة قال إيمانويل كانت إن الرياضيات هي الحظ السعيد للعقل

Elmer O'Brien Varieties of Mystic Experience, Mentor Omega New York. 1965 P. 123

Paul Tillich, Theology of Culture, ed. by R.C. Kimball, Oxford university Press, 1959. P.76.

ولي لتعمل تأثير بومه على اللاهوت الألماني والأفريقية : الفصل الثالث من كتابها : لغز الإنسانية والعالم : مشكلة فلسفية .

P. Tillich, Op. Cit. 126.

P. Tillich, A History of Christian Thought, From Its Judaic and Hellenistic Origins to Existentialism, ed. by: (١٧)

C.E. Braaten, Simon, Schuster, New York 1967. P.549

P. Tillich, Systematic Theology, Vol II, The University of Chicago Press, 1957. P.27

(١٨)

الملحدة ، سارتر ثم نيتشه ثم هيدجر . ولئن كانت قد ظهرت بعد ذلك بعض الدراسات القيمة والترجمات الرصينة لآثار الوجودية للمؤمنة ، وعروض شاملة للوجودية فإن الوجودية للملحدة خصوصاً عند سارتر بالنسبة للمعتقين وعند هيدجر بالنسبة للمتخصصين هي التي تقفز إلى الأذهان كلها ورد المصطلح في الأوساط العربية . . وقد تذكر أو لا تذكر الوجودية للمؤمنة ناهيك عن الوجودية اللاهوتية والدينية .

ويلغ هذا القصور الفلسفي حداً جعل مصطلح الوجودية يرتبط عندنا في أذهان أنصاف المتفكرين بالإلحاد .

والواقع أن هذا الخلط لا يعود فقط إلى الغدرات الفلسفية للوجوديين الملاحدة ومواقفهم الأدبية أو إلى ظروف حضارية لهم مؤسمة ، ساعدت على رواج أصحاحهم ، بقدر ما يعود إلى ضموهم أو التباس شديد يلحق بمفهوم الوجودية ، لا في أوساط المتفكرين أو حتى للتخصصيين فحسب ، بل وفي أوساط الفلاسفة كذلك . والفلاسفة الوجوديون أنفسهم الذين ينطبق عليهم هذا الاسم جمع غفير من الفلاسفة ، وليس يجمعهم شيء ، بقدر بغضهم وتقاضهم لبعضهم ، وتبرؤ بعضهم من هويته الوجودية<sup>(١١)</sup> ، حتى شك سارتر نفسه في أن لقب الوجودية قد أصبح خالياً من المعنى . وهيدجر وباسبرز وبامبريل الذين لا بد وأن يشملهم أي نقاش للوجودية ، رفضوا جميعاً هذا اللقب حتى انتهى روجر شن R.Shinn ، إلى أن الوجودي الذي يجترع نفسه لا بد وأن يرفض أن يطلق عليه لقب وجودي ، وهو يقصد أن الوجودي الحقيقي يرفض التقولب في قالب معين بحيث يصبح فرداً في فئة

والدمار والفزع واليتم والترمل والكل . ساد هذا الجليل القلق والمماناة والرفض لكل ما هو موضوعي جمعي عقلائي ، وأمن بأنه لا أمل إلا في الخلاص الفردي . فكان المربع الحصيب للوجودية التي تنجرت في بلدان القارة الأوروبية ، وأصبحت زاد الثقافة بل الحياة اليومية . هل أن وطأة أتعاب الحرب أشاعت التشاؤم والسوداوية وفقدان المعنى والأمل والثقة في كل كيان إنساني ، مما جعل الأجواء مهينة أكثر للسير في مقولة الفردانية حتى الوصول إلى أن الإنسان مهجور في هذا الكون - أي انكار وجود إله يلوذ برحمته الواسعة وقدرته الشاملة . وكتيار فرعي للوجودية التي رأيناها أصلاً وأساساً مؤمنة - انبثقت الوجودية الملحدة التي يعد فردريك نيتشه F.Nietzsche (١٨44 - 1900) رائدها ، وهيدجر أعظم منظريها ، وهو في الواقع أعظم منظري الوجودية على إطلاقها . أما الوجوديون الملاحدة في فرنسا بزعامة قطب الوجودية الأشهر جان بول سارتر J.P.Sartre (١٩٠٥ - 1980) - ورفيقاه سيمون بوفوار والبيركامي - فقد تميزوا بمهجة أدبية دافقة فصاغوا وجوديتهم المعيشية التشاؤمية في قوالب فنية جذابة ، مقالات ومسرحيات وروايات وقصص رائمة أكسبتهم - دون سائر الوجوديين - شهرة واسعة وجمهوراً غفيراً من القراء الذين ما كان أحد منهم ليقراً حرفاً واحداً من البحوث الفلسفية المتخصصة . لقد كانت كتاباتهم انتجيل جميل الأربعينيات والخمسينيات والستينيات .

ووصل هذا المد إلى المكتبة العربية في الستينيات ، وامتلات بأعمال جمّة تعرض للفلسفة الوجودية ، بحثاً ودراسة ونقداً وترجمة ومقارنة وتأسيساً وأحياناً إضالة . ولكن الدنيع كان كذلك من نصيب الوجودية

تعرف بالوجوديين<sup>(٢٠)</sup> ويبدو أن هذا هو السبيل الوحيد الذي تراه لروجر شن كي يخرج من متاهات الوجودية .

ونرى لزما علينا قبل الدخول في عالم تيليش أن نبذل قصارى الجهد لتحديد مفهوم الوجودية تحديدا دقيقا ، منذ نشأته مع كيركجور في النصف الأول من القرن التاسع عشر وحتى تبلور تماما في الربع الثاني من القرن العشرين ، بفضل الوجوديين الملاحدة . وسوف نراعي أن يكون هذا التحديد شموليا وموضوعيا ، بصرف النظر عن قضية إيمان الوجودية أو إلحادها حتى لا يعمل شبهة المصادرة على المطلوب . وسوف نلاحظ كيف يستجبه المنحى للموضوعي من تلقاء ذاته في اتجاه الوجودية الدينية وبالتالي في اتجاه عالم تيليش .

#### ب - ماهي الفلسفة الوجودية :

لعل أحد مصادر اللبس الذي لحق بهذا المصطلح أن الوجودية ذاتها تتسم بقدر من الغمالية فهي ليست البتة مذهبا فلسفيا دقيقا ، منهاجا وتطبيقا . ولاهي مدرسة يمكن صياغة تعاليمها في قضايا محددة ، بل إن فعل المخاض الذي أنجب الوجودية ، والذي سيظل دائما إلهاما لعمله هو ذاته التوتر من المذهب والمهنية . وعلى وجه التحديد يمكن اعتبار الميلاد الرسمي للفلسفة الوجودية بمثابة رد فعل رافض للمذهب الماهية Essence ، كما وصل إلى ذروته مع هيغل F.G.Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) . قامت الفلسفة الوجودية لتعاضدها وتقول إن تلك الماهية الثابتة

موضوع الخبرة المعرفية العقلانية ليست هي الحقيقة في تعينها واكتشافها . الحقيقة هي بالأحرى الوجود الذي غمر به في الخبرة القوية الحية . وسوف نرى أن التمييز بين الوجود والماهية من أسس الفلسفة الوجودية .

وكدأب البحث الفلسفي ، بذلت محاولات عديدة لتعقب جذور الوجودية في أعمق التاريخ حتى وصلت من دي بيران Main De Biran (١٦٦٦ - ١٧٢٤)<sup>(٢١)</sup> ويلييز بسكال B.Pascal (١٦٢٣ - ١٦٦٢) والقديس أوغسطين ، بل وحتى سقراط العظيم<sup>(٢٢)</sup> . ولكن المعتمد أن فلسفة كيركجور أول صورة ناضجة مكتملة لها ، وفي عصر كيركجور كان الاقتناع بالعقل - الذي بدأه أبو الفلسفة الحديثة ديكاكارت ووصل إلى ذروته مع هيغل - قد بلغ مداه . فضلا عن أن العلم قد أحرز اللزوة الشاهقة بنظرية نيوتن ، التي هي نسق شامل للعلم بالطبيعة ، تمجدد بقية أفرع العلوم البيولوجية والإنسانية للدخول في أعطالها . يرازي هذا نجاح الفلسفة العقلانية - خصوصا الألمانية - في بناء أنساق شاذة ، تحاول استيعاب الوجود بأسره في قلب فئة من التصورات<sup>(٢٣)</sup> . فالشرق القرن التاسع عشر في أحضان ما يعرف (بعصر التنوير) - عصر الإيمان بقدرة العقل على فض مغالطات هذا الوجود . وكرد فعل متوقع تمخض عصر التنوير عن الحركة الرومانتيكية ، من حيث تمخض عن فلسفة كيركجور الوجودية ، التي كانت نقطة بدايتها رفض العقلانية التنويرية حيث سيادة المذاهب النسقية سواء العلمية أو الفلسفية . فهي في كلتا الحالتين باردة جافة مقطوعة الصلة بالتجربة الحية للعاشة ، وتنتظر إلى أية حقيقة واقعة -

(٢٠) د . إيمان عبد الفتاح إنعام ، سرور كيركجور : دكان الوجودية ، الجزء الأول ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٢٦

(٢١) انظر في فلسفة (من دي) بيران تأثيرها التي امتدت حتى شكلت حركة فلسفة القرنية تعرف باسم فلسفة الحرية كتابنا المذكور (الحرية الإنسانية والعلم) والكتاب بطل لغة الاتفاق بينا وبين الحرية . أما بحوار الوصول لنفس علوياتها فيكون على أساس العقلانية بل وبالنظر إلى العالم من منظور العلم نفسه

(٢٢)

J. Macquarrie, An Existentialist Theology, op cit, P. 15-16.

مصطلحا شديدا للدلالة وصائبا جدا . فهو مشتق من الجذر EKO-sistere الذي يعني في أصوله اللاتينية (الابتثاق to Emerge ، والوجودية فعلا فلسفة الانيثاق في هذا العالم ، وليست فلسفة الكينونة Being فيه . فمع الكينونة لا توجد امكانية غير متحققة ، الكينونة تحقق خالصا - أما الوجود - الذي هو مقابل للماهية - فامكاناته مفتوحة دائما ، تنتظر الاختيار والقرار لكي تتحقق . وهذه الامكانات هي ما تصوب عليه الفلسفة الوجودية أنظارها . وليس اسمها (الوجودية) فقط ، بل وكل مصطلحاتها نحتت في اللغة الألمانية ، فالوجودية نبتة ألمانية نشأت أصلا من توتر موقف العقلية الألمانية في بدايات القرن التاسع عشر . وكما أوضحنا ، كانت فلسفة كيركجور وهو دانمركي رد فعل لفلسفة الماهية مع هيجل الألماني<sup>(١٧)</sup> .

الوجودية إذن مجرد اتجاه عام لتحليل الوضع الإنساني ، بل واتجاه ظل مضمرا . ولم يخرج من الصحائف ويتبدأ إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، في ألمانيا ثم في فرنسا . ولم يكتسب حتى اسما إلا عام ١٩٢٩ . لاغرو إذن أن يضم الاتجاه الوجودي لفلسفة شتي مختلف مشاريع إما اختلاف وقد تتألف ، ليس فقط في قضايا الفلسفة العامة ، بل وفي مصمم القضايا التي تشكل صلب الاتجاه الوجودي . ولن نجد مقولة واحدة اتفقوا عليها ، أو يمكن أن تنطبق عليهم جميعا بلا استثناء ، فلا تتوقع قائمة موحدة بتعاليم الوجودية ، ولا سبيل إلى وضع تعريف جامع مانع لها . وبدلا من هذا ، سنحاول تحديد الاتجاه الوجودي عن طريق

حق الإنسان كموضوع كشيء غريب عنها ، وتسحق فردانيته بما فيها من موضوعية وعمومية وتجريد .

ولقد ظل المركز الذي دار حوله الوجوديون منذ البداية وحتى النهاية يرفض كل ما يمس فردانية الفرد . (فهم يجعلون محور النظر الفلسفي السؤال : ماذا أكون)<sup>(١٨)</sup> من أجل إبراز قيمة الفرد (وتحليل الوجود البشري من حيث انحصار ما فيه من فردية وعينية)<sup>(١٩)</sup> ، ومن حيث هو جزئي عارض لا يندرج تحت أية بنية نفسية عقلية ، ليصلوا إلى الوجود كما يتجلى في مواقف الفرد الإنساني - مواجهة الموت مثلا وهو أقصاها . بهذا يصبح العالم متأصلا في مصمم الفرد ، لافارقا عنه في مذهب عقلي مصمت لا يعترف به ولا بفردانيته .

الوجودية إذن فلسفة للوضع الإنساني ، وعلينا أن نميز بين الاتجاهين هذه الفلسفة الأولى هو الماهوي الذي ينظر إلى الإنسان في حدود طبيعته الماهوية داخل الكون ككل . والاتجاه الآخر هو الوجودي الذي ينظر إلى الإنسان في معضلته في الزمان والمكان ويرى الصراع بين ماهو موجود فيها ، وماهو معطى في الماهية<sup>(٢٠)</sup> ، كإمكانية تنتظر التحقيق .

والفيلسوف الألماني المنتمي للكتانية الجديدة هاينريخ F.Heinemann هو الذي قدم مصطلح (الوجودية Existentialism) فقط عام ١٩٢٩<sup>(٢١)</sup> وكان

Georgel Marcel, *Mystery of Being* (trans) by G.S Fraser, Vol. I, Indiana, P.84.

(١٧)

(١٨) روجي جولييه ، للمذهب الوجودية ، ترجمة نواد كمال ، ص ٥ .

P. Tillich, *History of Christian Thought From its Origins To Existentialism*, oF, cit, P 539-40

(١٩)

M. Rosenzweig & P. Yudin (ed), *A Dictionary of Philosophy*, progress, Moscow, 1967 P.153.

(٢٠)

P. Tillich, *Theology of Culture*, PP 76: 81.

(٢١)

نقطة البداية واليسار والغدق ، وأبرز المعالم وأهم الخصائص<sup>(٢٨)</sup> .



الواقعة الوحيدة الجلية هي (أنا موجودون) ومنها بدأت الوجودية . وكان ينبغي أن تبدأ من علاقتنا الأولية بما هو في ذاته : أي بوجودنا - في - العالم<sup>(٢٩)</sup> على أن أميز تمييز الوجودية هو أنها لا تبدأ من الوجود كقولها عامة - كهاية ، بل كواقعة عينية متشخصة في فرد محدد . فالوجود البشري يمتاز عن سائر الموجودات بأن كل فرد ملقى في موقف وجودي معين خاص به ، لا أحد يمكن أن يحل محله أو يشاركه فيه . إنه فرد فريد ، لا يجوز اعتباره عنه في فئة . هكذا تبدأ الوجودية من الأنا . . . الأنت . . . فهو . . . من الذات . فيقدر الوجود ذاتيا ، لا يمكن أن نتجرده ونعرفه من الخارج كمعطى موضوعي ، أو أن نرده إلى قوالب تصورية . فهو لا يرد إلى سواء . إنه يتصف بالذاتية العميقة من حيث يتصف بالسر الذي يجعله يتأق على كل محاولة لجعله موضوعاً .

وهذه الذاتية أو الفردانية لا تنقل من شأن العالم ، ولأن شأن الآخرين . « فإذا كانت مشكلة وجود العالم قد أرقت الفلاسفة الذي وضعوا الذات في جانب ، والعالم في جانب آخر ثم حاولوا الجمع بينهما ، فإنها لا تستغل الوجودية البتة ، لأن نظرتهم تقوم على وحدة الذات والموضوع<sup>(٣٠)</sup> اعتلاك الإنسان لجسد ، والجسد كأداة للإنسان ، يجعله يشارك في العالم ، كظاهرة

طبيعية وهو في الوقت نفسه فائق للطبيعة المادية ، لذا يرى الوجودي الإنسان كوحدة بذنية نفسية ، فلا يبدأ من الذات الميتافيزيقية بل من (الوجود - العمي) في العالم ، حيث الذات البشرية والعالم حقيقتان أصيلتان متساويتان لا ذات بغير عالم ، ولا عالم بغير ذات . وهذا يفضي إلى (الوجود - مع - الآخرين) الذي هو سمة أساسية من سمات الوجود البشري . « وجود الإنسان في جسد يتبعه فعل الشعور ، وفعل الشعور لا يمكن تفسيره إلا من خلال المشاركة مع الآخرين<sup>(٣١)</sup> » هكذا نخلص إلى أن الوجودية تبدأ من وحدة (الوجود - مع - الآخرين) - في - العالم التي يجسدها الوجود اللاعقلاني المحسوس ، التجربة الحية الخافتة في الصدور ، لا المتجرية في العقول . هذه هي نقطة البداية والتي يلخصها ببراعة مصطلح هيدجر Dasein (الموجود - هناك الكائن الملحق به في العالم مع الآخرين) ، وهذه هي نقطة البداية .

أما نقطة النهاية ، أو الهدف الرئيسي عند الفلسفة الوجودية ، فهو الوصول إلى الوجود الأصيل (الشرعي) والحيلولة دون السقوط أو الوقوع في الوجود الزائف . الوجود أصيل بقدر ما يشكل الفرد نفسه ، وزائف بقدر ما تشكل مؤثرات خارجية يفقد ذاته . من هنا كان اهتمام الوجوديين بالحرية ، ونقدهم للمجتمع وأعرافه ، ودعوتهم الفرد للخروج على كتلة الجماهير ، ورفض القيم الجسارزة وسائر العموميات . . . وذلك ليحمل وحدة مسؤولية ذاته ، فيكونها ، ويحقق وجوده الأصيل . وهذا لن يتأتى إلا

(٢٨) انظر في هذا بصورة موجزة وبسطة : عفانيا : الوجودية ، مجلة الثقافة ، العدد ١٥ ، ١٤ مايو ١٩٨٥ .

(٢٩) جان بول سارتر ، الوجود والعدم : بحث في الوجوديات الظاهرية ، ترجمة د . عبد الرحمن باحوي ، دار الآداب ، بيروت ، سنة ١٩٦٦ ص ٥٠٤

(٣٠) جون ماكغوري ، الوجودية ، ترجمة د . إمام عبد الصنع إمام ، مراجعة د . فؤاد زكريا ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ١١٦ ، وباشبها ، ومراضع أخرى .

(٣١)

لا يفعل شيئاً إلا أن يجبرها عن نفسه ، وهو يجبرها بحرية . إن العبد الذي يطيع يختار أن يطيع . واختياره لا يبد أن يتجدد في كل لحظة . إن الإنسان يخلص لأنه يريد ذلك بكل إرادته ، وهو يريد ذلك لأنه يأمل ببله الطريقة أن يستعيد كينونته<sup>(٢٠)</sup>

وبالطبع لاشيء مطلق . فثم ما أسماه الوجوديون (بالمواقف الحدية) التي تمثل حداً لحرة الإنسان فلا يستطيع أن يفلت منها ، كالموت والقلق ، واهضا الجنس واللون والطبيعة . . . فضلا عن سوسة المواقف الحدية الشاذة ، كالمجاهات وحالات المعلقين والأمراض الزمنية . حل أياها - جميعا وغيرها - تمثل حدود الموقف الذي تمارس الحرية داخله ، ولا تنفيها لأن حرية الفرد غير قابلة للنفي ، طالما لاشيء ينفي كونه موجودا .

إن الوجودية أصلا فلسفة الموقف ، لأن الموقف هو الحياة والحياة هي الوجود في موقف والموقف هو ما يجعل الإنسان (الوجود - لذاته) لا يشابه بحال الشيء (الوجود - في ذاته)<sup>(٢١)</sup> . فكان المسرح الوجودي مثلا مسرح موقف لا مسرح دراما أحداث . . .

ونأتي للاخلاق الوجودية ، فنجدها أخلاق موقف مشدود إلى المستقبل ، لا قانون مستكن في الماضي ، لذلك قيل إن (الاتجاه الأخلاقي للوجودية يمدد النظر إلى التاريخ على ضوء المستقبل)<sup>(٢٢)</sup> ويتصور البعض أن

حين يصل إلى «الفعل المشتمل على الحرية والفكر والقرار» .

هائنا نضع الأصحح على العمود الفقري في الاتجاه الوجودي حرية الإنسان «إنهم لا يحملون الوجود الإنساني إلا من حيث أنه أساسا فعل حرة ، تتكون بأن تؤكد نفسها ، وليس لها منشأ أو أساس آخر سوى هذا التأكيد للذات»<sup>(٢٣)</sup> . فكل خلاف مبع الفلاسفة في القول بحرية الإنسان ، لا يحاول الوجوديون وضع أية براهين تثبتها أو دحض أدلة تنفيها ، فهذا نقض للوجودية التي تعني المطابقة بين كون الإنسان موجودا كونه حرا . فكما يقول سارتر «الحرية ليست وجودا ما ، إنها وجود الإنسان» ويستأنف موضعا : «إنني محكوم على أن أكون حرا . وهذا يعني أنه لا يمكن أن يوجد لحررتي حدود أخرى غير ذاتها ، أو إذا شئت فنحن لسنا أحرارا في الكف عن أن نكون أحرارا»<sup>(٢٤)</sup> ولو كانت كل وقائع حياة إنسان ماثلة بأنه ليس حرا ، كان يفضح لمشيئة غير مشيئته ، أو حتى للعقل الجمعي في قرار ما ، لقال الوجوديون إنه بفعل من أفعال الحرية اختار التنازل عن الحرية ، وبالتالي عن الوجود الأصيل وقنع بالوجود الزائف ، اختار أن يكون مشتا محروفا بلا إرادة - باصطلاح سارتر : سيء النية .

وسوء النية يعني أن الموجود الإنساني «لا يمكن أن يتخذ مواقف سلبية بإزاء نفسه»<sup>(٢٥)</sup> وتقول رفيقه صهره سيمون دي بوفوار : «إن الإنسان لا يستطيع أبدا أن يتنازل عن حريته وحين يزعم أنه يتخلى عنها ، فإنه

(٢٠) ريجيني جولييه ، للذهب الوجودية ، ترجمة فؤاد كمال ، ص ٢٠

(٢١) جان بول سارتر ، الوجود والعدم ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوي ، ص ٧٠٣

(٢٢) المرجع نفسه ، ص ١١١ .

(٢٣) سيمون دي بوفوار ، مدافرة الإنسان ، ترجمة جورج طرابياي ، دار الآداب ، بيروت ، ص ١٩٦٣ ، ص ٧٢ .

(٢٤)

Gabriel Marcel, *Mystery Of Being*, P. 125. ff

paul Tillich, *Theology of Culture*, P. 101.

(٢٥)

وجودي ، مؤمن أو ملحد ، يقول إن كل شيء مباح .  
والفروض أن المسؤولية اللازمة للحرية تقوم بعملية  
الضبط الأخلاقي المنشودة دائماً ، في كل موقف ،  
فردني أو جمعي .

وتلك المكانة الفارقة للحرية من ناحية ، وللموقف  
من الناحية الأخرى ، جعلت الوجوديين شديدي  
العناية - على وجه الخصوص - بالمواقف التي تتجلى فيها  
معالم الحرية ، كالتصميم والتعهد والالتزام والولاء ،  
وعلى رأسها موقف الاعتبار واتخاذ القرار - الطريق إلى  
الوجود الأصيل من هنا كان القرار أحد محاور  
الفلسفة الوجودية . وكلنا نعلم صعوبته ، وقد نحاول  
إرجاعه أو تجنبه ، خصوصاً حين تكون القرارات  
خطيرة يترب عليها مواقف ذات دوام ، كقرارات  
المهنة والزواج والصدقة . هل أن القرار في كل حال  
يتضمن وثبة وتجاوزاً للموقف المباشر ، بحيث تكون قد  
ألزمت أنفسنا بظروف لم تتبين وتحقق بعد . فمن  
طبيعة الإنسان أن يلتزم وأن يراهن على المستقبل ،  
لذلك لابد وأن يتخذ قرارات ، وعنها تنبثق  
الذات<sup>(٣٦)</sup> .

الذات ليست معطاة جاهزة منذ البداية وإنما المعطى  
هو حقل من الامكانيات غير المتعبر - يختار الإنسان  
عن طريق القرار بعضها منها لتكوين وتشكل الذات .  
وعلى الرغم من أن القرار شاق ومؤلم ، فإن النزعة  
الوجودية - على وجه الدقة - هي رفض كل ما يحول دون  
اتخاذ القرار حول الوجود الخاص ، كالعرف والتقاليد  
والرؤوس . انهم يجربون كل ما يعمل على تشكيل حياة  
الأفراد في قوالب غطية تجعلهم يسرون كالداهية وراء

الحرية الوجودية مستجلبها فلسفة انحلال وإباحية ، في  
حين أنها تحمل الإنسان المسؤولية خطية لآخر  
ذاته فحسب بل من الإنسانية جمعه ، على أساس أن  
اختيار قيمة معينة تأكيد لها ودعوى للآخرين كي  
يختاروها . إنها اختيار للذات وللإنسانية جمعه ، الالتزام  
والزام<sup>(٣٧)</sup> . فتتلخص أخلاقيات الوجودية في تصرف  
بحسب يصبح فعلك ألفوجنا للتصرف في كل موقف  
مماثل ، في أي زمان ومكانه . وكاننا وصلنا بالطريق  
المكسوس إلى أقصى صورة عرفتها الفلسفة للأخلاق  
المتشددة ، أي مبدأ الواجب المطلق عند إيمانويل  
كانط . ولئن كان الوجوديون ، حتى بعض المؤمنين  
منهم ، يحثرون الأخلاق المتعارف عليها ، لأن اتباعها  
الأعمى انقياد للآخرين وطمس للفرد ، فانه ليس في  
مقدور الإنسان أن يُلغى عند حد رفض القيم  
الجاهزة ، إنما هو مقضي عليه أن يؤسس قيمياً يلتزم بها  
ويلزم بها الآخرين على الرغم من أنها في أصلها ذاتية .  
هكذا يصبح الإنسان الأخلاقي مشرماً ومنتقداً ، فهو  
الحالق الوحيد لمعنى القيم في العالم : إنهم يبحثون عن  
مستوى أعمق للتمييز ، فيسلمون بحرية الإنسان  
ويرفضون عنه كل وصاية أو إلزام مسبق ، حتى لا يلتزم  
إلا بما يختار ويقرر هو الالتزام . به . وهذا تكون  
الأخلاق ذاتية نابعة من أهليق الفاعل متصلة فيه ،  
لا خارجية مفروضة عليه دوماً بصورة فارغة . وتكون  
المسؤولية عن الفعل من حيث كانت الحرية في الإقدام  
عليه . فالحرية والمسؤولية وجهان لعملة واحدة كما  
تقضي بدليات التفكير ، وكما يسلم كل مستور أو  
قانون ، فلا يبعد الفاعل مسؤولاً عن أية جريمة - مهما  
كانت بشمة - أُرغم على ارتكابها بصورة أو بأخرى .  
وطبعاً لا يوجد - ولن يوجد - فيلسوف وجودي أو غير

(٣٦) جان بول سارتر ، *الوجودية فلسفة اختيارية* ، طر بيروت سنة ١٩٥٩ ، ص ١٨ ولاحقاً .

(٣٧) جون ماكوري ، *الوجودية* ، ترجمة إسماعيل خلفاني ، ص ٢١٣ ولاحقاً .



الإنسان وجود في الحاضر ، فضلا عن مسؤوليته في مراجعة مستقبل مفتوح مليء بالمسكنات لنظير الأنا - الماهية هي مقبل أفعالها ، أنها اختيار يجب ابتكاره مجلدا وداليا . لهذا كان الإنسان مسؤولا عن ماهيته فهو الذي يشكلها وهي مسؤولية سوف تمتد إلى ذاتيته إلى الإنسانية جمعاء . لا يمكن القرار منها لأن الإنسان حر . ولما كانت المسؤولية الوجودية رهية إلى هذا الحد ، حتى أنها تجعل لعل الاختيار والقرار مؤلما ، فلا بد أن يلازمها قلق . من هنا كان الشعور بالقلق أساسيا في الوجودية .

ولكي يتحمل الإنسان هذه المسؤولية تماما ، فإن الوجودية تضعه أمام كينونه ، أي أمام كونه موجودا ، وفي هذا استغلت كثيرا من الفينومينولوجيا (ملعب الظاهرات) ، ملعب انمودهوسرل E.Husserl (١٨٩١ - ١٩٢٨) الذي رام أن تصح الفلسفة علما دقيقا ، فدهاها لأن تقتصر على الوصف التصيل للظاهرة كما تعطي للوعي ، شريطة أن يتخلص الذهن من الافتراضات والانسيات المسبقة . وضع هوسرل منهجا دقيقا ومعقدا لهذا ، يتلخص في ثلاث خطوات : «تقوس» الظاهرة ، أي وضعها بين قوسين ليكون أمانا كل الظاهرة ولا شيء سواها «التجريد» والتطبيق . وقد أقام هوسرل بنائه على فكرة مجردة حقا للوجودية أولا وهي (الفصنة) «البنية الجوهرية لكل شيء»<sup>(١)</sup> والتي تعني أن الوعي شيء مايقصده ، فهي فكرة تربط ربطا وثيقا بين الذات والموضوع ، لما بينهما من (إسالة) متبادلة . هكذا نجد

قرارات اتخذت بالفعل ، يفقد الإنسان ذاته ، ويقع في براثن الوجود الزائف .

وأية كل هذه يلوده بين الوجود والماهية . ورضم أن هيدر قال إن ماهية الإنسان كاملة في وجوده ، فإنه يمكن اختيار القول بأسبعية الوجود على الماهية من المعالم البارزة للوجودية . ذلك أن أي جاد أو نيات أو حيوان ، ماهيته سابقة أو متأنية مع وجوده . المنظمة مثلا قبل وبعد أن تصنع ، وفي أية مرحلة من مراحل وجودها مجرد منظمة . الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يسبق وجوده ماهيته ، (إنه لا يأتي إلى الوجود كموضوع في مكان وزمان ، بل كششاط مستمر للحرية)<sup>(٢)</sup> فهو يوجد قبل أن نستطيع تعريفه بأية فكرة ، (والقصود بذلك أن الإنسان يوجد قبل كل شيء ، وأنه يلقى ذاته ، ويرى إلى العالم ، ثم يعرف بعد ذلك)<sup>(٣)</sup> فطبعيا لا يمكن تحديد ماهية الوليد وقيمه وأهدافه ومثله والثرائمه . . . أو حل الإجمال علاقته بالعالم : (علاقنا بالعالم ليست مقررة من قبل نحن الذين نقررهما)<sup>(٤)</sup> ألم تنفق على أن الذات مطعة كحقل من الممكنات . الإنسان مشروع وجود ، فهو يقرر نفسه ما الذي سيكونه ، وفي النهاية لا يكون إلا بحسب مايتوحي ويخار ، ذاته ليست إلا مجموع قراراته وأفعاله ، هذه هي حياته نفسها ، وبالتالي لا مجال لتعلق القشل على ظروف خارجية عن ارادته . إذن فالإنسان - لاهوامل البيئة والورثة - هو الذي يصنع ذاته ، و(أن يوجد الإنسان هو أن يختار بنفسه)<sup>(٥)</sup> ، في عملية مستمرة لا تنتهي أبدا ، اللهم إلا بالموت .

(١) د . حبيب القادري ، فلسفة جان بول سارتر ، مجلة عالم الفكر ، لؤيله الثاني عشر ، الجزء الثاني ، سبتمبر ٨١ ، ص ١٠٣

(٢) جان بول سارتر ، الوجودية لفلسفة إنسانية ، ترجمة حضاميان ، ص ١٩

(٣) سيمون دي بوفوار ، مشافة الإنسان ، ترجمة جورج طرابياي ، ص ١٧

(٤) جان بول سارتر ، الوجود والعدم ، ترجمة د . حيدلر حرمين بدوي ، ص ٧٠٤

(٥) جان بول سارتر ، القليل ، ترجمة د . تلمي تولا ، الجزء العامة للكتاب ، القفارة ، سنة ١٩٨٢ ص ١٠٦

صورها ، فلسفة أزمة ، فلسفة الموقف المتأزم للإنسان دون سائر الموجودات . ليس هذا من صعوبة القرار ومسؤولية الحرية والقلق فحسب ، بل ومن مفاهيم أخرى كثيرة دارت حوفا ، مثل التناهي والموت والاعتراب والهمم والألم والحظيطة الأولى في المسيحية . . . وغيرها . كلها مواقف جدية ، وأقاسها التناهي ، وهو خاصية أساسية للموجود البشري . فهو محدود من ناحية بلحظة الميلاد ، والألفظ من الناحية الأخرى بلحظة الموت . حتى عرف هيدجر الإنسان (أو الأنية Dasein) بأنه (وجود - للموت) ، من حيث أن الموت هو نهاية الحياة وقانونها المحتوم . الكائنات الحية الأخرى تنتهي أما الإنسان فهو وحده الذي يموت ، لأنه هو وحده الذي يتم بأهل إمكانات وجوده وأخصبها ، وهي إمكانية استحقاقه وانتهاهه وموته<sup>(١٤)</sup> فإذا كانت الذات حقلًا من الممكنات فإن الموت هو أصعب هذه الممكنات ، لأنه الممكن الوحيد اليقيني ، وهو في الوقت نفسه نهاية كل الممكنات التي نجعلها جميعا غير ممكنة . لذلك كان الموت عند الوجوديين الملاحدة - خصوصا البيركامي - برهانا نهائيا على صحة الكون والناس . وهذه العبثية لا تنفي ، بل لعلها تؤكد إغراز الوجوديين المضمين لتجربة الحياة . وكامي نفسه يقول وإن جزعي من الموت ينال من غيرتجربة الشديدة على الحياة و «وإذا كنت أرفض رفضا باتاً وجود العالم الآخر ، فالسبب في ذلك أنني لا أرغب في التحلي عن خصوبة اللحظة الماثلة ومآلها من ثراء . كما أنني لا أؤثر الاعتقاد بأن الموت يؤدي إلى حياة أخرى . فألوت بالنسبة في باب موهبة<sup>(١٥)</sup> ، إن الموت هاهنا يعبر عن اليقين الحسي والشك الروحي . اما مع

القصدية والإحالة يحققان وحدة الذات والموضوع التي حرصت الوجودية على البدء منها . بيد أن الفينومينولوجيا ، إحدى ذرى العقلانية ، والوجوديون الذين أدخلوا بها أو منها - وأهمهم هيدجر وسارتر وميرلوبونتي - قد أولوها تأويلا شديدا لتلائم أغراضهم ، حتى أن هوسرل قد انتقد استخدام تلميذه وهيدجر لأفكاره .

تقول سيمون دي بوفوار : «من المغالطة اعتبار الوجودية مذهباً بالسا . فهي أبعد ما تكون عن ذلك ، إنها لا تخضع على الإنسان بيوس لعلاج له . «إن الإنسان هو سيد مصيره الوحيد المستقل ، إذا شاء فقط أن يكون كذلك . هذا ماتزكده الوجودية . وإن هذا هو الضالول . «وإذا كانت الوجودية تغلق ، فليس ذلك لأنها ترفض الإنسان ، بل لأنها تتطلب توتراً مستمراً<sup>(١٦)</sup>» والوجودية فعلا - حتى وإن كانت الحافدة تشاؤمية - فلها ليست ألبنة مؤسدة . وهي أيضا ليست بالضرورة تشاؤمية . والأمل كبير في الوجودية الدينية والمؤمنة ، وبخصوص مع جبريل مارسيل الذي وضع كتابه (الإنسان الجوال) وبجمل له - كمعادته - هنرانا فرميا ، هو (ميتافيزيقا الأمل) ، وكأنه بهذا يواصل مسار أرتنتس بلوخ E.Bloch (١٨٨٥ - ١٩٧٧) الذي جعل (مبدأ الأمل) هنوا أهم أعماله ، هوذا لفلسفته اليتوتية التي تجمع عناصر وجودية وماركسية وصوفية وعلمية وأنتروبولوجية . . . وهذا لا يمنع أن الروح العامة للوجودية هي بلاشك ، رؤية سوداوية للحياة ، وإحساس بمأساويتها وكآبتها وثقلها ، وبالماناه الألبية . فالوجودية في حد ذاتها وفي أية صورة من

(١٤) سيمون دي بوفوار ، الوجودية وحكمة الشعوب ، ترجمة جورج طرابياي ، دار الآداب بيروت ، سنة ١٩٦٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ .

(١٥) مارتن هيدجر ، لقاء الحظيطة ، ترجمة وتقديم وراسلة ، د . محمد الفهدل مكاي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٢ - ٣٣ ، ٨٤ .

(١٦) جون كروكسليك ، غير كلي وأب التردد ، ترجمة جلال الشامي ، دار الوطن للنشر ، بيروت ، د . ب . د . ج . ١٩٦٥ .

ولكن لكل شيء حدودا . فأي خطر يتهدد المجتمع لو أن الوجودية أخلت مأخذها حقيقيا وأصبح كل فرد يتصرف كما لو كان عالما مستقلا ؟ ببساطة لن يظل مجتمعا ، بل زحاما متناقرا . سيرد الوجوديون بأن كل وجود بشري محفوف بالمخاطر ، وكما أن هناك إمكانية خطر الفوضى بل وانعدام الأخلاق ، فثمة أيضا إمكانية التقدم الأخلاقي الجذري . ربما . ولكن حتى لو افترضنا مستوى الوعي اللائق وإخلاص النية وإصابة جادة الصواب من كل فرد وهو يدع قيمه ، فلا مندوحة عن عموميات يلتزم بها الجميع لكي تستقيم حياتهم معا . ثم لماذا يتصورون أن كل النجاة لعموميات ونهريذات جاهزة فيه سلس بالفرد ؟ الواقع أنه من وجوه كثيرة فيه إتكاء ، وسبيل إلى تحررية وجودية أفضل . ليس الوجوديون أشد من سواهم إدراكا لتناهي الموجود البشري ومحدوديته ، حياته إذن قصيرة وإمكاناته قاصرة ، لاستوعب تفصي كل الإبعاد في كل موقف وصولا إلى القرار السليم . فلماذا لا يستفيد من المبادئ العمومية التي أسفرت عنها تجارب أخرى طويلة عنيفة ؟ سيرد الوجوديون على الفور بأن حرية القرار أهم من سلامته . . لذا يؤخذ عليهم إعلام التحمس للاختيار المتفرد فوق الإنصات لصوت الحكمة الرصين . إنهم ينشدون تحقيق مآسموه بالوجود الأصيل بأي شكل كان وبأي ثمن كان ، في مغامرة أو مقامرة ليس من الصواب دائما الإقدام عليها بسهولة .



وبنظرة عميقة نلاحظ أن هذه المآخذ الشهيرة على الوجودية تتلخظ كما تتلخظ دوائر بلجة ماء للقي فيه بالحجر ، فقط لو كانت لاهوتية أو حتى مؤمنة ، أي

الوجوديين اللاهوتيين والمؤمنين ، فقد اكتسب الموت دورا ودلالة مختلفة . ولكنه في كل حال يزيد من حدة الهم الذي يأتي من التناقض بين كون الإنسان محدودا كواقعة ، وكونه مشلولا للمستقبل ، فهو مهموم بتحقيق إمكاناته ، في بحثه الدائم عن الوجود الأصيل المحفوظ بالموت .



لامندوحة عن الاعتراف بأن الوجودية نزعة أوستقراطية تبني الرقي بالإنسان فهي دائمة الترفع والتميز عن الحشد وكتلة الجماهير . ولاشك أنها اتنا باستبصارات عميقة ونافذة عن الموجود البشري ، كانت صالحة لحد أنه قد شاع علم النفس الوجودي والعلاج النفسي الوجودي كمقابل للاحتياجات السيكلوجية التعميمية - خصوصا السلوكية الآلية - بصورة نهائية الواقع . فواحرز العلاج النفسي الوجودي نجاسا ملحوظا في علاج الأمراض اللفظية وأمراض التخاطب وخصوصا التي لا تعود إلى أسباب عضوية<sup>(١)</sup> وقد بدأ هذا الاتجاه السيكلوجي بما يسمى بالتحليل النفسي الوجودي . ويعد لودفيج بنسفاونجر L.Binswanger رائده ، وكان يصف عوالم مرضاه بالاعتقاد على تصورات انطولوجيا هيدجر للوجود الإنسان .

وستظل الوجودية دائما حائزة لنوط شرف في صونها لفردية الإنسان وحرية ضد أخطار قد تحمله إلى مجرد رأس في القطيع - يتميز نيتشه ، أبرزها الآن نظام الدولة الشمولية ذات السلطة الجامعة ، ووسائل الإعلام الدائمة ، والضيوط التي يمارسها مجتمع الجماهير ، أو العقل الجمعي .

كلا بالطبع . يكفي الاشتراك في المطلقات المبدئية ،  
أو الدوران حول المحاور الأساسية .

يكفي أيضا اقتفاء غطى أعظم الرواد كبركجور أو  
هيدجر أو سارتر . إن الوجودية ككل تيار فلسفي  
رئيسي ، تنهوى تحت لوائها وتسم بمسحها مدارس  
فلسفية كثيرة . قام بعضها ليستغل عنها فكانت صورة  
معدلة أو مصغرة لها - كالفلسفة (ماريتان ،  
بيرداليف) فلسفة الحياة (أونامونو) ، فلسفة القوة  
والحياة أيضا (نيتشه) ، فلسفة الوجود الشخصي  
(جاسيت ويولجاكوف) ... والملاحم الوجودية  
الواضحة لمعلمي الوجوديين شاموا أم أبوا . كل  
الفلاسفة الوجوديين - من ذكرناهم ومن لم نذكرهم -  
هم وجوديون فقط بدرجات متفاوتة ، طبعا ، أي لن  
يتحقق المفهوم الكامل الذي رأيناه مع أي منهم ، وإن  
كانت أهل درجة تسجل كبركجور وهيدجر وسارتر .  
وهيدجر هو أقدر من استطاع أن يفلسف الوجودية ،  
وهو أعمق روادها فكرا وأعمدهم تأثيرا . ومع هذا  
يرفض أن يسمى نفسه فيلسوفاً وجودياً ويفضل لقب  
فيلسوف وجود !! .

الخلاصة أن الوجودية ، كأي اتجاه فلسفي خصيب  
وثرى ، ليست كقيلة بتحديد فلسفة الفيلسوف ولا  
بوجود فيلسوف فلسفته بمقردها كقيلة بتحديددها .

أذن ليست الوجودية مصطلجا مرادفا لفلسفة تيليش  
للتعددية الأبعاد والمتزاوية الحدود . يقول تيليش موضعا  
موقفه - وهو قول يصلح قاعدة عامة لمناهج البحث  
الفلسفي : « كثيرا ما يوجه إلى السؤال : هل أنا  
لاهوتي وجودي ؟ وإجابتي دائما مقتضية ، فأقول :

حين ينتار القرار الإيمان بالدين والألوهية لغهر العدم  
والتناهي والاثم ... ولتحقيق الوجود الأصيل ، بكل  
ما يتضمنه هذا القرار من التزام وتعهد وولاء . وهذا  
نعود إلى حيث بدأنا ، إلى الوجودية الدينية كمدخل  
لعالم تيليش .

وقبل الدخول إلى هذا العالم ، ينبغي أن تكون على  
حذر من أكلوية تصنيفية نجعلنا ننظم الفلاسفة في  
صفوف أشبه بالجذور المنعزلة . ولعلها أشبه بطواير  
الأمعاب الرياضية ، كل صف أو طابور يحمل بطاقة  
معينة ، هذا مثالي .. وذلك تجريبي ... والآخر  
وجودي .. الخ هذا الأسلوب الاجرائي التبسيطي لو  
أخذناه كقاعدة جامدة مائة مائة ، كان ضلالة ضالة  
ومضللة وأبعد ماتكون عن الواقع الفلسفي الحي  
للتدقيق للتأليل لفعالية ، وأحيانا بمنف ، يرفض  
ويقبل ويعطو ويصوب وينقد ويتراجع وينظم ....  
ولا يوجد فيلسوف فواحية يستطيع فلسفي واحد تحديد  
فلسفته من رأسها حتى أخمص قدميها . وانتباه  
الفيلسوف لاتجاه معين أو حتى المدرسة معينة لا يعني أن  
كل مأساوها حرام عليه ، ولا يعني أنه لزام عليه أن  
يطبق تعاليمها حرفيا ، فلا تنفوت منها صغيرة ولا  
كبيرة . إن هذا ينطبق على المتنمين لأشد الاتجاهات  
الفلسفية إسكائا ووصاتة مطلقة ودقة في الأسس  
المنهجية ، لما بلنا بالاتجاه الذي هو على التعرض من  
الاحكام والوصاتة والمطلقية - أي الوجودية ؟

لقد حددنا بدقة - تصاري ما استطعنا - ملحة  
الاتجاه الوجودي بكل أبعاده وآفاقه ، كي تكون على  
بينه من الحدود . ولكن ليس يعني هذا أن فلسفة  
الفيلسوف لا بد وأن تكون ، أو حتى يمكن أن تكون  
صورة طبق الأصل من هذا ، لكي يكون وجوديا .

### ثانياً : مصادر فكر تيلش .. النباء .. والتمرة

#### ١ - حياته : وتطوره الفكري

تيلش اللاني ، ولد في العشرين من أغسطس عام ١٨٨٦ في قرية إشتار تسيدل Starzeddel بمقاطعة براندنبورج Brandenburg في بروسيا وهي الآن بألمانيا الشرقية<sup>(١)</sup> . أبوه منيا ، ولكن أمه من مقاطعة رينلاند وهي الآن ( بألمانيا الغربية ) ولعل هذا أول توتر له على قلب الحنود التي سوف تقسم ألمانيا بعد الحرب الثانية إلى ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية لعمل الأولى ميلاً ما للتأمل ، مرتبط بكافة وحي حاد بالواجب والحقيقة الشخصية ، ولا يزال بها احترام كبير للسلطة والتقاليد الإقطاعية . أما ألمانيا الغربية فتتميزها الفتنة بالسياسة ، وسحب التعيين والحركة والعقلانية والديمقراطية وهي سيأت متصارعة أثرت على سياتل حياته الداخلية والخارجية . وعلى الرغم من أن أمه ماتت مبكراً ، وبالتالي كان تأثير أبيه هو المهيمن ، فإن أطر ميراثه من يتيته لم تعرف الترابط والإنسجام أبداً ، بل التوتر على الحدود دائماً ، مما يفسر لنا رؤيته للتاريخ بأنه اختيار لحظ يتجه صوب هدله ، بدلاً من فكرة الكلاسيكية التي تراه دائرة مغلقة . فمضمون التاريخ في نظره تشكل فكرة الصراع بين مبدئين متعارضين . والحقيقة ديناميكية ، نجد لها في قلب الصراع أو القدر<sup>(٢)</sup> أو على الحدود بين المبدئين المتصارعين .

وقد قضى سنوات شبابه في شونفلنس ، حيث كان أبوه - وهو لاهوتي محافظ وقسيس بروتستانتي كبير من رعاة الأبرشية اللوثرية - يعمل في منصب ديني رفيع

إنني النصف والنصف وهذا يعني أن الوجودية والمهاوية بالنسبة لي يتميان لبعضهما . ومن المستحيل أن يكون المرء ماهوياً خالصاً إذا كان في الموقف الإنساني يصفته الشخصية ، وليس يجلس على عرش الله ، كما نفهم ضمناً من هيجل وهو ينشئ تاريخ العالم الآتي لنهايته تبعاً لمبدأ في فلسفته . تلك هي الغطرسة الميتافيزيقية للمهاوية الخالصة . ومن الناحية الأخرى الوجودية الخالصة مستحيلة . فكي يصف الإنسان الوجود لا بد أن يستخدم اللغة ، واللغة تتعامل مع الكليات . وباستعمال الكليات تكون اللغة بصميم طبيعتها ماهوية ، ولا يمكنها التخلص من هذا<sup>(٣)</sup> .

ليست المهاوية فحسب ، إنه على الحدود بين الوجودية وسائر المقاطعات المحيطة بها . وهو دائماً وأبداً على الحدود ، لا يتوقع في قلب المقاطعة فتستقره ويستقر لها ، لا المقاطعة الوجودية ولا حتى المقاطعة اللاهوتية .

لكننا وجدنا الوجودية اللاهوتية والدينية المنظور الأشمل والمداخل المثالي لعالمه ، والذي يمكننا من الاطاعة به والتجول في سائر أرجائه . إنه نظراً لعمق وجودية فلسفة تيلش وأصالتها من ناحية ، واتساق تفكيره وتشابك أطرافه وتلاقح عناصره من الناحية الأخرى ، فلن نجد هنا كثيراً وضع الأصبع على دعاويه الوجودية . وبدلاً من هذا الأسلوب المبتسر ، سنعرض لشخصية الفيلسوف ككل ، ومقومات فلسفته بعمامة ، وسيكون هذا العرض المتكامل بدوره أكمل أسلوب لاستشراف نزعة الوجودية .

P. Tillich, A History of Christian Thought: From its Jewish and Hellenistic Origins to Existentialism, P.541. (١٩)

and Tillich, My Search For Absolutes, Simon And schuster, New York, 1967. P.23-24 (٢٠)

Paul Tillich, On The Boundary, Charles Scribner's Sons New York, 1966. P.14-15 (٢١)

كأسقف ومدير لكنيسة الأقليم . وشونفليس مدينة صغيرة وهادئة شرق الألب ، أنشئت في العصور الوسطى ومازالت محتفظة بشيء من طابعها ، ومحاطة بمراع خصيبة وغابات كثيفة ، مما ترك في الصبي انطباعاً عميقاً بالطبيعة وإحساساً رومانتيكياً بهيئ التاريخ . فضلاً عن الارتباط بالكنيسة بوصفها حاملة المعنى المقدس في قلب الحياة الإنسانية ، « إنها المكان الذي ينبغي أن نعيش فيه الخيرة بالسر المقدس ، نعيشها برهبة وعشوق علوي »<sup>(٢١)</sup> .

ومع هذا كان يتازعه دائماً اشتياق لزيارة المدينة الكبيرة ، برلين . وكان الخط الحديدي الذي ينقله إليها هو في حد ذاته نصف أسطورة . وهذه الفترة التي حملتها المدينة وقته خطر الرفض الرومانتيكي للحضارة التقنية ، وعلمته أن بقدر أهمية المدينة من أجل تطور الجانبات النقدي للحياة العقلية والفنية . لقد ظل حتى آخر لحظة في حياته يشعر بالارتباط الأقوى بالريف والطبيعة صموماً . وهذا الارتباط تنلم في ذهنه أكثر عبر رحلاته وسفرائاته البحرية في عرض البحار ، وهو يرى أن مشهد البحر الصائخب المتراخي الأفاق الذي يفتش دوماً على الشاطئ الجماد قد ألهمه بالكثير من رموزه وأفكاره ، ومعظمها تخلق إما تحت الأشجار وأما في عرض البحار<sup>(٢٢)</sup> ومع هذا فإن الريف لم يستأثر به ، وظل على الحدود بينه وبين المدينة ، أو بين الطبيعة والمدينة .

وهو على أية حال قد خرج من أصطاف حياة شونفليس الهادئة الوادعة المشبعة بزخم الدين ، حين التحق بالمدرسة الثانوية في كونجسبرج Königsberg

- موطن كانط - وتلقى تعليمًا علمانيًا ، فواجه لأول مرة المثل الكلاسيكية لليبرالية الأوروبية ، مثل حرية التفكير الخاضع فقط لمعايير العقل . وعلى الرغم من رفضه لليبرالية الاقتصادية ، فإنه يؤكد دائماً ليبراليته في التفكير . لقد تلقى هذه المثل - التي عاشها أكثر في برلين حين انتقل والده للعمل هناك عام ١٩٠٠ - بحمس شديد ، لكنه لم يخل إطلاقاً من ولائه للدين وتحمسه الأعمق لحشيات اللاهوت . فقيمة تيلش تتجلى في وقوفه على الحدود بينهما - حسب تعبيره الأثير - وجمعها معاً ، بحيث جعلها القطبين المتعامدين والمشكلين فيكل تفكيره ، القطب الديني اللاهوتي الذي استقطبه في طفولته وصباه ( شونفليس ) والقطب الفلسفي الناسوتي الذي استقطبه في مرافقته وبقائه ( كونجسبرج وبرلين ) . هل أن الأول بالطبع هو الأساس والجذر والجمع . إن تيلش ينشغل بالدين ويصره شاخص إلى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والحرية ، والقضايا الثقافية ، أو مشاكل الحضارة المعاصرة ، ومن قبل ومن بعد بالمعضلة الوجودية للإنسان الفرد .

ونحن نأجج في شاطره بين سن الرابعة عشرة والسابعة عشرة ولزمه طوال حياته ، هو الذي حال بينه وبين الوقوع في براثن « المدرسية » - بالمعنى الخرفي للكلمة . وكان الخيال وأعظم تعبيراته - أي الإبداع الفني ، له دائماً تأثير كبير على أفكاره الفلسفية واللاهوتية . لقد تدلوق الموسيقى منذ طفولته ، وكان أبوه يؤلفها ، ويؤكد أن الموسيقى الكنتاتسية شيء أكثر من ضروري لتحقيق التجربة الدينية . ولكن عشقه للفنون انهم ترواً للادب ، فله

الفكر الأوربي . وكان قد حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من برسلاو Breslau عام ١٩١١ برسالة موضوعها : ( التصوف والوحي بالذنب في تطور شلنج الفلسفي (Mystic und Schuldbewusstsein in Schellings and Philosophischer Entwicklung وبعد هذا بعام - ١٩١٢ - حصل من جامعة هال Halle على الدكتوراه وإجازة في اللاهوت فعين في نفس العام قسيسا في الكنيسة اللوثرية الانجليكانية . وعمل طوال الحرب العالمية الأولى كقسيس وواعظ في الجيب ، في قلب الجبهة<sup>(٥١)</sup> .

وكانت الحرب هي التجربة العميقة ، التي حددت معالم تفكيره واتجاهه . فقد تركت في نفسه آثارا أليمة بما خلفته من دمار وخراب ، خصوصا في وطنه ألمانيا . وقدمت له دليلا على الملاس الحضارة الغربية<sup>(٥٢)</sup> وأنها في انتظار نهاية حقة من تاريخها . هذا لأن إيمانها بالعقل فقط جعلها حضارة علمانية معتمدة فقط على نفسها فكانت كل نواحيها التي جسدتها الحرب تشهد عليها بالخراب والتناهي والعجز عن إشباع ذاتها ، وأنها تعيش في قرننا العشرين نهاية هذه الحقبة . فبالتالي لا الفرصة المتاحة لاهادة بنائها على أساس جديد ، وهو الأساس الديني أو الشيولوجي ، لتغزو حضارة ثيوقراطية أي معتمدة على الدين Theonomous هذا هو المثل الأعلى المنشود الذي يحدد المهمة الإيجابية للاهوت في القرن العشرين . على أن الخروج من مرحلة الاعتماد على النفس - والاستقلال ، لا يعني العودة فوراً إلى النقيض

محر خاص وهو أكثر الفنون تضمنا للفلسفة « ويرى تيلش أن تعاطفه الغريزي مع الفلسفة الوجودية يعود من ناحية ما إلى فهم وجودي لأعمال شكسبير التي ترجمها شليجيل إلى الألمانية ، خصوصا ( هاملت )<sup>(٥٣)</sup> . ولم يجد تيلش أبعدا وجودية في أعمال جوته ، لذلك لم تجلبه كثيرا . وبعد ذلك أكثر الشعراء الألمان تأثيرا عليه ، لواقعيته المستقاء من التحليل النفسي ولتراثه الصولي والشعنة الشاعرية المشبعة بمضمون ميتافيزيقي . على أن زوجة تيلش هي التي قادته حقيقة إلى عالم الشعر . ولم يكن الأب يبدى اهتماما بالفنون البصرية ، فلم يلتفت إليها في طفولته وصباه ، لكن الحروب والقيح الذي خلفته الحرب العالمية الأولى جعلاه فن التصوير يجتلبه . وتطور الأمر إلى دراسة منهجية لتاريخه ومعاشه عميقة لانتمائه الحديث . وأثرت فيه فنون العمارة والموازيكو والفسياس والممار الكنسي .

وقد تلقى تيلش تعليمه العالي في اللاهوت والفلسفة بجامعة ماربورج ودرسند وفرانكفوت ووجد في فلسفة شلنج F. W. Schelling ( ١٧٧٥ - ١٨٥٤ ) للطبيعة بعينه التي تتجاوب مع عشقه لها وتمثله الإطار النظري لتفسيرها بأنها المظهر الدينامي لروح الخلق والمهاد إلى إدراك الحرية المتعالية على الثنائية التناقضية القائمة بين الحرية الإنسانية والحقبة الكونية<sup>(٥٤)</sup> . والواقع أن شلنج هو الوثن الفلسفي لتيلش ، فهو يبالغ كثيرا في تقدير قيمته وتأثيره على

(٥١)

Ibid, P. 26-27

(٥٢) لي تحصل هذا التألف ، وتأثيره على الفلسفة الحديثة مقدمة كتابا : العلم والخراب والحرة : مقال في لفظة العلم من الجمعية إلى الاستجابة ، مجلة الدعاة للكتاب ، القاهرة ، ص ١٩٨٧ ، ص ٧ : ٣٣

(٥٣)

P.T, My Search For Absoluten., P.33.

(٥٤) رغم أن علم النفس والاجتماع والاثريولوجيا يعتمدون (الذات) ترجمة هذا المصطلح ، فإن (الذات) عاينت ترويض في الفلسفة بأبعاد تراثية ثقافية ، لذلك لهذا حضارة لتدل على العلم المصغر . أما Civilization فهي مدنية وهي لعلا منطقتي من Civil أي مدنية .

ولم يظهر الجزء الأول منه إلا عام ١٩٥١ . وفي عام ١٩٦٩ قبل منصب أستاذ الفلسفة في جامعة فرانكفورت ، وهي من أكثر جامعات ألمانيا حداثة وليبرالية ، وليس بها كلية للاهوت ، فحاول أن يتخذ من هذا فرصة لكي ينجز للفلسفة إنجازا للاهوت .

شارك بهامس أثناء تدريسه الجامعي في مناقشات نظامية كانت تدور من أجل فهم جديد للموقف الإنساني ، فكتب وشرعها بين عامي ١٩١٩ و ١٩٣٣ أكثر من مائة مقالة ودراسة حول هذا ، مؤكدا أن الفهم الجديد للموقف الإنساني ، لا مندرجة له عن أن يكون دينيا ثيولوجيا ، لتتعد الحضارة ثيولوجية . إنما المنطلق لجعل فكر تيليش . وإذا كان المتمند أكاديميا أن هذا المنطلق هو ( اللاهوت الحضاري ) فإننا نرى المصطلحين اسما لمسمى واحد هو علاقة تبادلية هيمية بين اللاهوت والوحي المنزل وبين الحضارة الإنسانية . لو نظرنا إلى هذه العلاقة من ناحية

اللاهوت لكان المشروع هو « اللاهوت الحضاري » ، ولو نظرنا من ناحية الحضارة لكان المشروع هو « الحضارة الثيولوجية » . وفي استيفائه لها ، لم يتم فقط بل مجالات الفعلية للحضارة كالفن والفلسفة والسياسة . . . الخ ، بل اهتم أيضا بالإبعاد المعيارية - أي الأخلاق . فوضع تقابلا بين أخلاق الحضارة العلمانية فقط ، أي الاثوثيولوجية ، وبين أخلاق الحضارة الثيولوجية ، مؤكدا أن الأولى مشروطة وهي أخلاقيات السلطة والقانون والمدالة ، أما الثانية فغير مشروطة وهي أخلاقيات المغامرة والطفب الإلهي والحسب<sup>(٢٢)</sup> .

المباشر ، التبعية والاعتماد على الآخر Heteronomy . وقد كان تاريخ النهضة في أوروبا وبعده حضارتها الحديثة ، تاريخاً لمصرع دام وطويل للخروج منها . وتيليش بلا شك يرفض أي نتيجة ، سواء دينية أو علمانية . إن ما ينشده وقوف يفظد واع على الحدود بينهما ، ويركب جلدي من تيمية العصر الوسيط واستقلالية العصر الحديث . إن التساؤل بشأنها تساؤل بشأن المعيار التبعي للوجود الإنساني . فلا بد طبعاً من الاستقلال والاعتماد على النفس ، لكن بصورة هتروثيولوجية إلى حد ما ، أي معضلة ومستفيدة ومشبعة بالبعد الثيولوجي ، أي صورة ثيولوجية . ( بالثيولوجي يتم فهم وتجاوز التناقض بين الأوثونومي والهتروثيولوجي )<sup>(٢٣)</sup> . وقد مثلت فكرة الثيولوجي محكا نهائيا يوجه فلسفة تيليش ويحدد تقييمه للفلسفات الأخرى . والفلسفة التي يعجب بها ويستفيد منها ، يعتبرها ثيولوجية ، حتى ولو كانت إلحادية كفلسفات نيتشه وهيدجر<sup>(٢٤)</sup> .

ولم يبدأ تيليش عمله الأكاديمي إلا بعد انتهاء الحرب ، وفي جامعة برلين ، حيث حاضر فيها بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٤ في تطور لاهوت الحضارة ، معنيا بعلاقة الدين بالسياسة والفن والأدب والفلسفة وعلم نفس الأحياء والاجتماع ، وكانت محاضراته هذه باكورة مشروعه الثيولوجي وجعل الدين مركزاً تتصل به كل مجالات الحضارة .<sup>(٢٥)</sup> وجاهر أيضا في جامعتي فريسن ولويسج . وفي عام ١٩٢٥ انتقل لتدريس اللاهوت في جامعة ملربورج ، حيث زامل هيدجر وويلزبان . وبدأ في عمله الضخم « اللاهوت النسقي »

Paul Tillich, Systematic Theology, Vol. I, University of Chicago Press, 1951. P.147.

Paul Tillich, My Search For Absolutes, P. 41-44

P. Tillich, Theology of Culture, P.P 127. 145.

(٢٢)

(٢٣)

(٢٤)



والتقارب الطبقي وعدالة توزيع الثروة في المجتمع - أي الاشتراكية - ويستلزم من الناحية الأخرى - أو الجهة الأخرى للحدود - الدين ذا التجربة الروحية والأبعاد الوجودية العميقة . لذلك لا يتم المنشود إلا بواسطة إحلال الاشتراكية الدينية محل الثقافة البرجوازية . إنها تستهدف إصلاح المجتمع بحيث يصبح الدين روحه ، فيمكن أن تصبح الحفارة تيرومونية . يقول تيلش : ( الاشتراكية الدينية ينبغي أن تفهم بوصفها حركة صوب التيونومي الجديد . فهي أكثر من مجرد نسق اقتصادي حديث . إنها فهم شامل للوجود ، صورة للتيونومي المطلوب والتوقع الآن )<sup>(١٠)</sup> إنها تبدو الحل الذي يفرض نفسه . فتيلش يرفض فكرة البوتويا ، ويرى أن مملكة الله لا تتمتع أبداً في المكان والزمان فطالما يوجد إنسان حل ظهر الأرض سربد دائما الخير والشر والصواب والخطأ ، مملكة الله أو مدينة الله فكرة متعالية ترانسندنتالية يمكن فقط أن تمثل معيارا للحكم على المجتمعات . أما الاشتراكية الدينية فهي البديل الواقعي والسلام .

وقد كانت حركة الاشتراكية الدينية منتشرة في أوروبا ، وقوية في ألمانيا وكانت تصدر جريدة « أوريك من أجل اشتراكية دينية » Blatter Fur Religionen • « Socialismus فانهم إليها الشاب النحس بارل تيلش ، وشارك بمقالات في هذه الجريدة ، ولكنه بدأ يستشعر روح الوهن والشيوخة والدمجاطيقية فيها ، فانفصل مع جمع من زملائه الشباب في حركة تروم أن تبث في اللاهوت الصارم للاشتراكية الدينية الألمانية حيلة وهزما أنشر وقدره على مواجهة متغيرات الفكر والواقع ، وأصدر مع زملائه مجلة « أوردان جديدة

وقد أُرْدِف هذا بمناقشة ( الترية ) في ضوء هذا الهدف - الحفارة الشيونومية .



ومن الناحية الأخرى للحدود ، نجد أن تيلش ينتمي للبرجوازية الرقمية ، وقد أتاحت له مهنة والده - بوصفه الراعي الديني الكبير - أن يقيم علاقات شخصية وثيقة مع البرجوازية الرقمية جدا - بقايا الاسترطاطية . ومع هذا نلقاه يتماخض بشدة وإيجابية مع اليسار ، مهتديا في هذا بالقول المسيح ضد الظلم الاجتماعي وضد الأثنياء . وانضم عام ١٩١٨ للحركة الاشتراكية ، وكان مناصرا للحزب الاشتراكي الديمقراطي . وتيلش شديد الإعجاب بماركس ، ينسب إليه آيات من التفلسف بدءاً من العملية الصارمة ، وانتهاءً بالمنصر النبوي وطابع الرسالة في فلسفته ، ومروراً « بالوجودية » السياسية !! مدحها - مثلاً - أن مفهوم الصديق عنده هو نفسه عند كيركجور ، الصديق بالنسبة للوجود الإنساني ، وما يخص موقف حياتنا ويفهر الاغتراب<sup>(١١)</sup> ولكن لم يكن أبداً ماركسياً أو شيوعياً .

وفي عام ١٩٢٠ عملدت هويته تماماً بالاشتراكية الدينية Religious Socialism وكان دائما من أبرز وأنشط أعضائها ، وذلك على أساس ما تقدم من خطوط عامة في فكره . فالجميع المعاصر فقد تكامله وغسر جوهر وجوده ، وجعله طفيا المالحيات في ضواء ، وفي ميسس الحاجة إلى نوع من الخلاص . وهذا الخلاص يستلزم من ناحية قيم العدالة الاجتماعية

P. Tillich, A History of Christian Thought, p. 484-485.  
P. Tillich, On The Boundary, P. 81.

(١٠)

(١١)

بدورها تفتش على رموزها المقدسة من مد الفكر الاشتراكي ، فتقف في وجهه وتبدو مضادة أكثر للزرعة الإنسانية . وتجاهر طبقة الصفوة باعجابها بالكنيسة لوقوفها في وجه الوثنية القومية ، فيقوى موقف الكنيسة الناتج عن مطالب الطبقة العاملة وهي الكثرة الغالبة . ولنا أن نذكر القول لماثور عن الاشتراكيين والشبهويين الملاحدة من أن الله اختار الوقوف في صف الأغنياء وعلى الفقراء البحث عن إله آخر . وعلى هذا تبدو جهود تيلش مسألة ملحة ، وهي تبلور في مقاله « المبدأ البروتستانتي والموقف البروليتاري »<sup>(١٦)</sup> حيث يعالج هذه الاشكالية معالجة هامة بالنسبة للاهوت وللإشتراكية ولل فلسفة الوجودية على السواء .

والتقابل معروف بين الاشتراكية بنزعتها الشمولية التي تجعل الفرد يضيع في غبار الطبيعة ، وبين الوجودية بنزعتها الفردية ، ولكن تيلش فيلسوف على الحدود ، فيقول « علينا ألا نخلط لغز اللامساواة ، مع واقعة أن كل فرد منا ذات فريدة لا تقارن . كوننا ذواتا ينتمي بالفعل لكرامتنا كبر ، هذه الكينونة منحنت لنا ، ولا بد أن نعملها ونكتفها ، ولا نجعلها تفرق في المستنقع الآسن الذي يحلنا كثيرا هذه الأيام . لا بد وأن يزود المرء عن كل فردانية ، ومن تفرد كل ذات إنسانية ، ولكن لا ينبغي أن ننخدع باعتقاده أن هذا هو حل لغز اللامساواة . ولسوء الحظ ثمت الرجعيون الذين يروجون لهذا الخلط كي يبرروا الظلم الاجتماعي »<sup>(١٧)</sup> . ويمثل الاشتراكية الخلاص الوحيد من الظلم الاجتماعي ، الخلاص المتكامل المتوازن ، لأنها دينية - صوب التوثوني . آمن تيلش بأنه بعد

للإشتراكية Neue Blätter Für Sozialismus « تهدف إلى إعادة قوتيلها على أساس منظور ديني وفلسفي حديث . وهو شخصيا لم ينشغل بالمسائل النظرية ، ولكن المجلة بتأثير زملائه تصدت للمشاكل العملية والواقع السياسي الجاري »<sup>(١٨)</sup> .

وفي هذه الدعوى نجد الدين يساند الاشتراكية ، بقدر ما نجد الاشتراكية تسانده . وتلعب هذه الدعوى إلى أن الرب ذو علاقة ، لا بالفرد وحده الداخلية فحسب ، أو بالكنيسة بوصفها كيانا اجتماعيا فقط وإنما الرب ذو علاقة بالكون بما في ذلك الطبيعة والتاريخ والشخصية . ومن هنا يؤكد تيلش أن الكنيسة سوف تفشل في أداء مهمتها إن صاغت رسالتها بصورة مطلقة وبغير أن تضع الصراع الطبقي في اعتبارها ، وأن الاشتراكية الدينية هي فقط التي تستطيع أن تحمل رسالة الكنيسة إلى كتل البروليتاريا التي لم تعد تدخلها اللهم إلا للتعميد والزواج والجنائز . لذلك فالإشتراكية الدينية ، وليست الرسالة الداخلية ، هي الشكل الضروري للنشاط المسيحي بين الطبقات العاملة . على هذا المحور انصبت جهود تيلش لجلو العدا عن المبادئ البروتستانتية الأصلية وإعادة صياغتها لتواصل قدرتها على الاستمرار وعلى أداء دورها . ولم تكن مهمته سهلة ، لأن البروتستانتية اللوثرية كانت من الأصول الملكية التي ارتكزت عليها نشأة الليبرالية والرأسمالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فضلا عن أن الاشتراكيين يخشون من تأثير الكنيسة على تنشيطهم النازعة إلى تحقيق الحكومة الاشتراكية . والكنيسة

Ibid, P.42.

P. Tillich, The Protestant Era, University of Chicago Press, trans. by J.L Adams, 1948. Pp. 161: 181

P. Tillich, The Eternal Now, Charles Scribner's Sons, New York 1963. P.41-42

(١٦)

(١٧)

(١٨)

وموضوعها وغاية ، فلا بد منه هذا كثيرا . المهم أن تيلش على الرغم من ميوله اليسارية ، تلقى دعوة للعمل كأستاذ اللاهوت وفلسفة الدين في المعهد اللاهوتي الاتحادي بنيويورك ، وظل بهذا المعهد حتى عام ١٩٥٥ . ثم تقلد الأستاذية بجامعة هارفارد المرموقة (من ١٩٥٥ حتى ١٩٦٢) ، ثم جامعة شيكاغو منذ عام ١٩٦٢ وحتى وفاته في الثاني والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٥ ، عن تسعة وسبعين عاما . وقد ظل عضوا نشطا وقدرته على العمل والانتجاز ، وتأثيره على الأوساط الثقافية حتى آخر لحظة في حياته . والمحصلة رصيد ضخم من الأعمال اللاهوتية / الفلسفية .

#### ب - تحليل اللاهوت :

يمكن اعتبار فكر تيلش بأمره نتيجة لازمة عن مقامين ، الأول أنه « لا يمكننا البتة الدخول في نظرة كتّاب الانجيل الذين يقع بيننا وبينهم قرابة ألفي عام من الفكر »<sup>(١٥)</sup> أما المقامة الثانية فقد وقفنا عليها ، وغلاصتها أن اللاهوت يقدم العلاج الناجع لأمراض الحضارة المعاصرة وتردياتها وصعزها من اشباع الإنسان . فإذا كانت التناقضات الآتية من كون الإنسان موجودا متناحيا تطرح على العقل أسئلة ، يقوم الوحي بالإجابة عنها بحيث يمثل خلاص الإنسان من تنامي عقله ، فإن العقائد المسيحية ليست مجرد إجابة عن تساؤلات نظرية ، بل هي حلول مثل للمشاكل العملية ، أي أن الدين من أجل الحضارة : وهكذا تقوم فلسفته على تبرير المسيحية وإثباتها بمقولات

الوحي السايوي لا يوجد ما هو أسمى وأعظم من الاشتراكية الدينية وكان على يقين دائما من أن اللحظة التاريخية لتحقيقها قد أتت . ولم يفقد أبدا إيمانه بها على الرغم من أنها لم تتحقق ولم تأت لحظتها التاريخية . بل أتت النازية إلى مفاهيم الحكم في ألمانيا .<sup>(١٦)</sup>

وإيمان تيلش بالحركة جعله يجاهر بنقد قاس وعنيف لهنر ، ويعدله للنازية ، فأبعد عن العمل في الجامعات ليكون أول أكاديمي غير يهودي تستلمه النازية من العمل في الجامعة . وفي صيف عام ١٩٣٣ تصادف أن كان ألمانيا راينرلدنيور الألماني المهاجر إلى أمريكا ، الذي قام بترجمة بعض أعمال تيلش المبكرة من الألمانية إلى الإنجليزية . وهو يتفق معه في الاشتراكية الدينية ويختلف في اللاهوت الحضاري . التقى نيور بتيلش وأتاح له فرصة الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بفضل « وسفرو لأمريكا وفق علاقته بحركة علم نفس الأعراق Depth - Psychology التي اهتم بها من منطلق اهتمامه بالعلاقة بين الدين والتحليل والعلاج النفسي »<sup>(١٧)</sup> والملاحظ أن تيلش كان سمعياً جداً بالتحليل النفسي مع فرويد وخلفائه وأنه اهتم اهتماما بالغا به وعود عليه تمويل كبيراً ، وبغير أدنى إشارة إلى الاتهامات السيكلوجية العلمية حفيظة . لكن يمكن القول بصفة عامة أن ثقافة تيلش العلمية ضحلة جدا ، فهو غير ملم بالتطورات العلمية ، لا في الرياضيات ولا العلوم الطبيعية ولا الإنسانية وإن مكان الدين والعلم مجالان لا يلتقيان الآن في أي فكر فلسفي وهما منفصلان تماما ، منهجيا

W.Nicolson, Systematic And Philosophical Theology, P.247.

P.Tillich, My Search For Absoluter, P.49.

John Macquarrie, An Existential Theology, op cit. cit, P.14

(١٥)

(١٦)

(١٧) ولابد وأن أزعج ذكرني لاسفاني الجليل الذكور حسن حطفي . لفضل مكتبة سيده استعانت بالمرسل إلى ما من على المصطلح علم من كتب تيلش ، حتى اكتسبت لي كل أماله . فاستعنت بمخرج هذا البحث الذي يحاول أن يحيط بفلسفته .

(١٧)

أبعاد حضارية أصبحت ملحمة في عصرنا هذا ، وبات واضحا استحالة تحقيقها بغير الاتجاه لأفاق الابداعية .. أفلق الألوهية والأيمان الديني .

هكذا يفلسف تيليش للاهوت ، وحيونه مفتوحة على الواقع المعاصر ، على الإنسان والحضارة والبناء الثقافي بصميم المشاكل المميزة للقرن العشرين ، مما أدى إلى راديكالية - تجديد جيلري في مفاهيمه اللاهوتية والميتافيزيقية .. فكان حقا معاصرا وليس كدأب اللاهوتيين مجرد مواصل ليراث السابقين .

والحق ان تحديث اللاهوت - وخصوصا مفهوم الألوهية - بلغ مع تيليش مبلغا من الجراءة قد لا تورثه إلا النزعة الوجودية ، ولكنها على أية حال جراءة محسوبة وعناية بالغة تذكرنا دائما ببسبب عتري ، ودجل دين متعمق لا يستمد الجراءة إلا من رغبة عارمة في أن ينجح الحياة في اللاهوت ، ويفجر اللاهوت في الحياة . وإذا كان يبرر جراته ويحسب حدودها على أسس وجودية ، فإنها تبررات وحسابات تلقى بنا في قلب مستقبل أفضل للاهوت ، بأن يقدو لاهوتا حضاريا ، وبالتالي أقدر على البقاء ، وللحضارة بأن تقدو حضارة لاهوتية ، ثيولوجية وبالتالي أقدر على الاستمرار .

أما عن الأسس الوجودية لتحديث اللاهوت فتتلخص فيها وهبه الله للإنسان من قوة النسيان وقوة التذكر ، أمها ملكتا التعامل مع الماضي . النسيان من أجل تجاوز ما يبنني تجاوزه ، والتذكر من أجل الاحتفاظ بما يبنني الاحتفاظ به . ولتعلم من حكمة

الحضارة ، ومن متعلق احتياجاتها ومن منظور مشاكلها . إنه يقف على الحدود بين العقيدة المسيحية وبين الحضارة العلمانية المعاصرة ، معلنا أن هدفه إقامة الجسور بينها ، كي تصب التقاليد المسيحية الروحية الخصبة الدافئة في قلب الحضارة المعاصرة ، لتصبح مقدسة ، وعصاها أن تزهر بعد أن شابها اصفرار .

وقد لاحظ تيليش أن قوة الاتجاه العلماني تكمن في ممارستها المستمرة للتقدم الذاتي ، وبالتالي قدرته الداخلية على التصحيح والتصويب الدائم ، فرام أن تكتسب بعضا من هذه القدرة . ومن هنا دأب على تصويب النقد لأخطاء الكنيسة ، ولا يفتوه أن يقول : « أنه على الرغم من أنني أرجه النقد كثيرا لجلايئة الكنيسة وممارساتها ، فإنها ظلت دائما موطن »<sup>(١٨)</sup> فقد نشأ في أعماقها وهو ، بلا شك ، يقيم بها عشقا بالقلب والعقل والنفس والروح ، ومع هذا عرف كيف حطف على الحدود بينها وبين المجتمع بعلباته . وهو يعترف « بأن الحدود استغلت انجازات العلمانية حيثما وجدتها ، سواء في مصر أو اليونان أو روما لكي<sup>(١٩)</sup> تبني نفسها ، فلا يبيد أهدا عن محاولاته لاستدراج العلمانيين إلى داخل الكنيسة ، كي يكون العالم العلماني أفضل وأعصب - ثيولوجيا<sup>(٢٠)</sup> ، ولكن يسلم بتقسيم الأراضي بين العلمانية والكنيسة . فيعترف للعلمانية بانتجازاتها العظيمة وإضافاتها الفذة في العلم والتقنية والمناهج والمذاهب الفلسفية ، والفن والسياسة والفكر الاجتماعي ... إلخ ولكنه يثقل يطالب العلمانيين باحترام الرموز الدينية والاعتراف بقدرات اللاهوت الوجودية والنفسية الفالقة ، التي تتمكن من تحقيق

(١٨)

P.Tillich, On The Boundary, P.58.

(١٩)

P.Tillich, Christianity, And The Encounter of the World Religions, Columbia University Press, New York, 1964.

P.47.

(٢٠)

P.Tillich, The Protestant Era, P.55 ff

إن النسيان قوة مجدية لأقصى الحدود ، ولا خوف من البتة ، لأنه لا شيء أبدي سمردي أو إلهي مقدس يمكن أن ينسى . فلا ينسى إلا ما هو عداو ووقتي زائل . باختصار لا ينسى إلا ما هو خليق بالنسيان . يقول تيليش إن الحياة لا يمكن أن تستمر بغير إلقاء الماضي في قلب الماضي ، وتحرير الحاضر من عبئه . وبغير هذه القوة يمكن أن تغلب الحياة بغير مستقبل ، سوف يستعيد الماضي . ويستشهد بأنه كانت هناك أمم عاجزة عن أن تلقي بأي شيء من ميراثها في قلب الماضي ، ويبدأ حرمت نفسها من النسيان طاملاً أن ثقل ماضيها يسحق حاضرها ويردها موارد الانطفاء والانقراض . وفي بعض الأحيان قد نساءلها إذا كان هذا هو حال المسيحية ، والأديان الأخرى . أليست ترتبط كثيراً بماضيها ولا تترك منه إلا ما ندر ؟ يجب تيليش بأن نسيان الماضي فعلاً أصعب بالنسبة للدين . لكن الله ليس فقط البداية التي أتيها منها . إنه سبحانه ، وهبنا النهاية التي سئولب إليها . إنه الأول والأخر ، المبدئ والمعيد ، خالق الماضي القديم ، وأيضاً المحدث الجديد . وهبنا الوجود الحاضر الذي يركز على الماضي ولكنه مشدود للمستقبل . ووجب يركز على الماضي ولكنه مشدود للمستقبل . وهب الإنسان نعمة النسيان ، والكنيسة التي تتكرر هذه النعمة ، تقع في مهاوي الإغراء التي وقعت فيها الكنائس السابقة ، أي تجعل من نفسها إلهاً سمردياً . إن الإنسان لا ينسى اسمه وهويته ، كذلك الكنيسة ليس مطلوباً منها أن تنسى أسسها . ولكنها إذا كانت عاجزة عن أن تخلف وراءها الكثير مما تم تنازه على هذه الأسس ، فسوف تفقد مستقبلها.<sup>(٣١)</sup>

الله وديع صنعه وتنتظر في هو النبات والحيوان ، لثري المراحل السابقة التي يمر بها تنتهي ويتم تجاوزها ، لكي تفسح الطريق للمستقبل الآتي ، فالحياة ناضرة متجددة دوماً من حيث هي حياة . ولكن طبعاً ليس الماضي بأسره يروح في الماضي ، بل يبقى منه دائماً شيء ما في الحاضر يمثل أساس قوة النسيان في اتجاه المستقبل . تلك سمة عامة للحياة تنطبق على الإنسان مثلاً تنطبق على كل كائن حي آخر ، لكن الإنسان فقط هو الذي يدرك هذا ، ويدرك أنه يملك قوة النسيان وقوة التذكر<sup>(٣٢)</sup> . وتعمل النبرة الرجوعية ، حتى نجد تيليش يعلم من قيمة النسيان الذي يمر الإنسان من ماضيه فيجعله مشدوداً أكثر نحو المستقبل والموقف الآتي ، مصداقاً على أن قوة شخصيته الفرد تعتمد على كم الأشياء التي يستطيع إلقاءها في الماضي ، بحيث تفقد تأثيرها على الحاضر . ما حدث قد حدث ولا يمكن تغييره ، لكن الدين يمنحنا القوة على تغيير معناه وقيمه حين يفتح أمامنا طريق التوبة الكفيل بإبراء أضرار يمسح الطب النفسي عن إسرائيلها . التوبة الحقيقية القوة ليست الوقوع في برائن الندم والخروج على ما ارتكبنا من أخطاء ، بل هي الانفصال التام عن الخطأ ، وإلغائه بمجمل عناصره في غياب النسيان . والتوبة يوازنا أصل من أصول الدين هو ( الغفران ) ، والذي يعني الموافقة الإلهية على إلقاء القديم في قلب الماضي ، لأن لمة جديداً أت . الغفران اذن مقدمة شرطية وضروية لتحقيق الوجود الجديد ، هدف الديانة المسيحية الأخير<sup>(٣٣)</sup> وكل ما يصدق على الفرد يصدق على الأمة .

P. T. W. Sch., The Eternal Now, P. 27-38.

P. T. W. Sch., The Shaking of the Foundations, Charles Scribner's Sons, New York, 1966. P. 184. (٣١)

P. T. W. Sch., The Eternal Now, P. 28-29.

(٣٢)

على الرغم من الخلافات الشديدة بينهم . انها زمرة الباحثين عن مفهوم جديد للألوهية والروحي والعقيدة . ووصفة أكثر عمومية ، يلاحظ جون ماكجوري في مسحه للفكر الديني الغربي للقرن العشرين ، أنه على الرغم من التعدد الضخم في تياراته وتضاربها وأحيانا تناقضها ، فإن سمته المميزة هي الرغبة في التحديث والتغيير والانقلاب أو على الأقل الاقتراق عن القديم ، نظرا لأنه قرن تغير فيه كل شيء تقريبا ، ولا مندوحة عن الاعتراف بأن تغيرات الفكر الديني كانت بدورها جلوية حقا .<sup>(٧١)</sup> ومع هذا فإن أحدا لم يبدل مثل ما بذله تيليش من أجل تحديث اللاهوت والتعبير عن العقيدة المسيحية تعبيرا جديدا مصوغا وفقا لتقاليد ومصطلحات الفكر الغربي الحديث ، بحيث يحافظ على جوهر الديانة المسيحية الفريد ،<sup>(٧٢)</sup> وفي الوقت نفسه يجعلها معقولة وملائمة تماما لإنسان هذا العصر ولأزمته الراهنة .

إن تيليش لاهوتي أولا وفيلسوف ثانيا . وكان فيلسوفا دينيا يتخلف من الداخل أي من قلب التجربة الدينية ، أكثر منه فيلسوفا للدين ينظر إليه من الخارج . « ومنذ البداية وعلم التعليل اللاهوتي للمسيح Christology مركز تفكير تيليش » وإذا كان هو نفسه يقول إنه دائما على الحدود بين اللاهوت والفلسفة ، ومنذ أن كان في المرحلة الثانوية وهو يعلم بأن يكون فيلسوفا ، فلنأنا نرى أن رغبته في تحديث اللاهوت ، ولاشيء سواها ، هي التي دفعته إلى الإنشغال في رحاب الفلسفة .

ومن حديث تيليش هذا ، نلاحظ أنه ينطبق على كل الأديان بلدر ما ينطبق على المسيحية ، فضلا عن البروتستانتية ، ويغدو واضحا أن غايته من كل تحديث هي ضمان المستقبل الآتي للكنيسة وللدين ، ومن الجبهة الأخرى لفلسفته أو للحدود ، ضمان المستقبل الآتي للحضارة ، وإن تيليش مشدود صوب المستقبل مبرا من خطر التثلب بالماضي والوقوف في برائه ، وهو خطر كان رجال الدين واللاهوت في طليمة ضحاياها . وأحسب أن اللاهوت الليبرالي الحضاري البروتستانتي هو الذي كفل له هذه الحيلة وجعله على وحي بالملاقة التي ينبغي أن تكون بين الدين وبين المتغيرات الحضارية . يقول تيليش إن مشكلته اللاهوتية الأساسية تأتت من تطبيق العلاقة بالمطلق للمتضمن للألوهية ، على نسبية الديانة الإنسانية ، لأن الدوجماطيقية الدينية نشأت حين ارتدى الدين التاريخي حياة الصحة غير المشروطة للمقدس ، كيا يحدث حينها يطلب كتاب أو شخص أو جماعة أو مؤسسة أو مبدأ . . . بالسلطة المطلقة وبانضاع كل واقع آخر لأنه لا يمكن أن يوجد مطلب آخر بجوار المطلب غير المشروط للمقدس . ولكن كون جلوس هذا المطلب في الواقع التاريخي ، يجعل هذا هو أصل كل تبعية (هتروноми Heteronomy)<sup>(٧٣)</sup> أي كل انقياد خاطيء ومرفوض أدت إليه الكاثوليكية ، وقامت البروتستانتية أصلا لترفضه .

والحق أن تيليش ليس فريدا في هذا الصدد . إنه يتدرج مع بولتيان ونيوزر ويوتنوفر وسواهم من اللاهوتيين البروتستانتين المعاصرين في زمرة واحدة ،

P. Tillich, On The Boundary, P. 48.

J. Macquarrie, 20 th Century Religious Thought, P. 19.

W. Nicolas, Systematic And Philosophical Theology, P. 233, (79) Ibid, P. 240

(٧١)

(٧٢)

(٧٣)

ولسنا نتصرف كما لو كان العالم كله ملكا لنا . الكنيسة ذاتها ليست أقل في هذا والسبب أننا نحن وكنائسنا لا نعرف كما عرف بولس معنى : أن تكون للمسيح ولأننا للمسيح فنحن نكون له »<sup>(٨٩)</sup>

والحق أن وهج الحرية الذي استطاع تيلش تفجيريه في التجربة الدينية وتحديثها ، عن طريق الاستعانة بالفكر الفلسفي على العموم والوجودي على الخصوص ، هو أعظم مصداق على قوله هذا ، أو على موقفه اللاهوتي / الفلسفي ، والذي يصر على أنه تعبير عن اللاهوت بما هو لاهوت ، حيث يستحيل أن يتجرد من الفلسفة .

### ثالثا : فلسفة تيلش : اللاهوت والوجودية

#### ١ - اللاهوت والفلسفة :

يقول تيلش : « وقعت بحذر على الحدود بين اللاهوت والفلسفة ، ومعنىً بالإضيق أحدهما في الآخر » و« بوصفي لاهوتيا حاولت أن أبقي فيلسوفاً ، والمكس بالمكس . ربما كان أيسر أن أهجر الحدود بينهما ، واختار أحدهما أو الآخر . داخليا ، كان ذلك هو المستحيل بالنسبة لي . ولحسن الحظ كانت الظروف الخارجية مؤاتية ليهودي الداعية »<sup>(٩٠)</sup> فظأتحت له . كما رأينا - القرصة النظامية لدراسة وتدريس اللاهوت والفلسفة معا ، وأن يسول ويجول في كليهما والمحصلة أنه بز اللاهوتيين بتملكه لخاصية الفلسفة ، وبز الفلاسفة بتملكه لخاصية اللاهوت .

وقد أعلن صراحة أن مهمته الأساسية هي توضيح العقيدة المسيحية توضيحا متبجيا تسقيا بواسطة التحليل الفلسفي ، وإخضاع المفاهيم اللاهوتية للمنظور الفلسفي . فلما فعل هذا في كتابه التخصصي « اللاهوت النسقي » ثار في وجهه اللاهوتيون المحترفون بحجة شائعة ومستهلكة مؤداها أن اللاهوت أبسط وأصفى وأنقى من الفلسفة التي يريد أن توضحه . ولكن أين هو اللاهوتي العميق ذو الفكر الجدير بالاعتبار اللافت للانتباه ، والذي لم يستفد من الفلسفة ؟<sup>(٩١)</sup>

وتيلش نفسه يؤكد أن المحاولات الشائعة للتخلص من الفلسفة ورفضها جملة وتفصيلا ، سواء من قبل الطب أو من قبل اللاهوت - وكلاهما إيراد وشفاء - كلها محاولات يبدو سجلها أنها غير ناجحة سواء أدركت هذا أم لم تدرك<sup>(٩٢)</sup> ويقول : « ثمة ضلال عميق في الاهتمام الموجه ضد استخدام البحوث التاريخية والفكر الفلسفي في اللاهوت . إن المرء في الحياة اليومية ينمت بالضلال حين يقذف ويشهر بأولئك الذين يستفيد من خدماتهم . ولا ينبغي أن نرتكب مثل هذا الضلال في أمثالنا اللاهوتية . ولا بد من القول : لنستخدم القليل ( من الفكر الفلسفي ) ولكن لاستخدم الكثير ، وهذا لكي نهرب من الخطر المتضمن فيه »<sup>(٩٣)</sup> ويستشهد بقول القديس بولس إن كل العالم ملك لنا لتجربتنا الدينية ، لأنه ملك لله « ولكننا نخاف أن نقبل ماهو ممنوح لنا إننا في عز - ذاتي قهري يؤزاه حالنا ، ونحاول الهروب من الحملة بدلا من أن نتحكم فيها .

P. Tillich, The Courage To Be, P.72.

(٩٨)

P. Tillich, The New Being, P.111.

(٩٩)

Ibid, P.113.

(١٠٠)

P. Tillich, On The Boundary, P.52-53.

(١٠١)

واحد وجهة ثقافية حضارية واحدة، وسلاحنا  
بسلاح مشترك أو أداة واحدة .

المربع الواحد يعني أن الموضوع واحد هو الحقيقة  
Reality والوجود Being على أن الفلسفة هي التناول  
المعرفي للحقيقة ، حيث تكون موضوعاً مفارقاً  
للذات . أما اللاهوت فيثير نفس المشاكل التي تثيرها  
الفلسفة بشأن الحقيقة ، لكن بأسلوب يجعلنا نعيش  
هذه المشاكل بوصفها متضمنة قينا ونابعة منها ، لا  
منفصلة عنا مفارقة لنا كما طرحها الفلسفة . الفلسفة  
تبحث في بنية الوجود أما اللاهوت فمعنى الوجود  
بالنسبة للإنسان واهتمامه القوي . وهل الرض من هذا  
القدح الممل لللاهوت - خصوصاً من الزاوية  
الوجودية ، فإن الباحثين متذاعلن . الفيلسوف يتم  
بمعنى الوجود ، واللاهوتي يبدأ ببينة الوجود (١٧) .

اللاهوت والفلسفة أيضاً ريفاً سلاح ، أو أن أداتها  
واحدة هي العقل الأنطولوجي . ذلك أن تيليش يمثل  
العقل في حدود محطين متقابلين له ، هما العقل  
الأنطولوجي الذي نستعمله في التحليلات  
المتافيزيقية ، والعقل التقني الذي نستعمله في حل  
المشاكل العملية . (١٨) وفي عصرنا الذي يتسم  
بالاستقلال يمثل العقل التقني قصب السبق ، فأصبح  
الاهتمام فقط بالوسائل المؤدية إلى الأهداف الجزئية ،  
وأهم العقل الأنطولوجي . أحملت بنية العقل التي  
تمكنتنا من استكناه الحقيقة ومن تشكيلها ولأن العقل

وثمرة هذا نلمسها منذ البداية في عمله المبكر  
( بالألمانية ) ( نسق العلوم تبعاً لموضوعاتها ومنهجها )  
١٩٢٣ . لقد كان الهدف النهائي من هذا العمل هو  
تقديم الإجابة عن التساؤلات الآتية : كيف يمكن  
للاهوت أن يكون علماً بمعنى ( علم Wissenschaft )  
وكيف تتصل أسئلته المعقدة بالعلوم الأخرى ؟ ما هو  
الشيء المميز بشأن منهجه ؟ وقد أجاب بأن صنف كل  
الأنساق المنهجية بوصفها علوماً للتفكير ، وللوجود ،  
وللحضارة ، ونسك بأن أساس نسق العلوم ككل هو  
فلسفة المعنى . وعرف الميتافيزيقيا بأنها محاولة التعبير  
عن غير الشروط أو المطلق في حدود الرموز العقلية  
وعرف اللاهوت بأنه الميتافيزيقيا الثيولوجية . وبهذه  
الطريقة حاول أن يكسب للاهوت مكاناً في قلب كلية  
المعرفة الإنسانية . ونجاح هذا التحليل يفترض مقدماً  
أن الخاصة الثيولوجية للمعرفة ذاتها لا بد من الاعتراف  
بها ، أي أن جذور التفكير كائنة في المطلق بوصفه  
أساساً وبنية المعنى . ويخلو موضوع اللاهوت  
افتراضات مسبقة لكل معرفة ( والمعركة هنا بالمعنى  
الفلسفي ، أما المعرفة بمعنى العلوم الرياضية  
والتجريبية فلا ترد على بال تيليش ) . وهكذا نجد أن  
اللاهوت والفلسفة ، أو الدين والمعرفة ، يتضمن كل  
منها الآخر . وبالوقوف على الحدود بينهما ، تبين أن  
تلك هي العلاقة الحقيقية بينهما . (١٩)



وكل نبضة من نبضات فكر تيليش تؤكد أن  
اللاهوت والفلسفة متآزران - إنها يقفان في مربع

Ibid, P.53-56

(١٧) المصطلحات المبكرة للمعرفة من أعمال تيليش قبل عام ١٩٢٣ سوف نلجأها في صوره الألمانية أما بعد هذا - أي بعد هجره لأمريكا - فسنعلمها بالإنجليزية . وأما  
المصطلحات العربية المترجمة .

P. Tillich, Systematic Theology, Vol. II, P.22

Ibid, P.72.

(١٨)

(١٩)

(٢٠)



تتنازعان عقليته ، أو أنه يقف على الحدود بينهما .  
فحين يفكر في الله يفكر تفكيراً مثالياً وحين يفكر في  
الإنسان يفكر تفكيراً وجودياً - وليس يوجد موضوع  
من موضوعات تفكيره إلا ويندرج بصورة أو بأخرى  
تحت لواء العلاقة بين الله والإنسان .

وتيلش نفسه يؤكد أنه فيلسوف مثالي ، وعل أن  
نفهم المثالية بمعنى دخول الوجود والفكر في ذات  
المهوية ، وكمبدأ للحقيقة (٨٥) ، أي أن الاستمولوجيا  
(فلسفة المعرفة) ترد إلى الاستمولوجيا (فلسفة  
الوجود) فهي مجرد فرع منها وكل تقرير إستمولوجي  
هو ضمناً استمولوجي . إن مفهوم الفلسفة عنده دائماً  
يدور حول الاستمولوجيا .

لذلك فنحن نرى أن تيلش فيلسوف مثالي بمعنى  
أنه فيلسوف استمولوجي ، وليس بالمعنى الحرفي  
لمصطلح المثالية الذي يفيد أسبقية الفكر على الوجود .  
وهو فيلسوف استمولوجي بكل ما في الكلمة من معنى .  
الاستمولوجيا هي إطار تفكيره وطريقته التي يمكن من  
خلالها العثور على المعنى الجذري لكافة المبادئ حتى  
رأى أن فلسفة الأخلاق - مثلاً - « وهي علم الوجود  
الأخلاقي للإنسان ، الذي يسعى للوصول إلى جذور  
الالتزام الأخلاقي ومعياري صحته ومتابع مضامينه وقوى  
تحقيقه . وتعتمد الإجابة من هذه الأسئلة بصورة  
مباشرة على مبدأ الوجود » (٨٦) ، أي على فلسفة  
الاستمولوجيا . كان لا بد وأن يبقى استمولوجياً من حيث  
هو لا هو .

الاستمولوجي هو مصدر القيمة والمعنى ، فقد ضاعوا من  
إنسان هذا العصر .

ويعتقد إلهدين الوسيلة الفعالة لرأب هذا الصدع ،  
فهو الذي سيعرض علينا مباشرة وبحيوية جوهر العقل  
الاستمولوجي ، ويعيد إلينا عودة حيمة معاشة ، لأن  
جوهر العقل الاستمولوجي يتحد مع مضمون الوحي  
للتزل . وما هو استمولوجي ، وما هو لا هو . يتطابقان  
في نقطة واحدة ، إذ يعالج كلاهما الوجود كإلهو  
وتيلش يتحدث عنها بمصطلحات واحدة .

وهل هذا النحو نجد أن حال الحضارة المعاصرة ،  
وتطوراتها ، أو بالأحرى تدهورها ، وجعلها في حاجة  
ملحة للدين - للوحي المسيحي كأساس ثقافي لها ، أي  
لأن تصبح دينية مقدسة . هذه هي الأطروحة الرئيسية  
لتيلش . وكما نرى أيما كانت زوايا تفكيره ، فإنها تميلنا  
إليها .



وبقى أثر الفلسفة المثالية الألمانية المتنبئة على فكر  
تيلش فقد ترعرع في أجوائها وتشبع بها ، واستلها حماساً  
لها ، وعانى من كآته الحرب العالمية الأولى حين كرست  
فلسفته المثالية الأثرية ، فلسفة شلنجر . ثم أن المثالية  
الألمانية كانت دائماً فلسفة الانشطار على العقل والعلم  
والعالم من أجل الحرية الإنسانية التي هي ضرورية  
لفكر تيلش ، اللاهوتي والفلسفي على السواء . لذلك  
كان تفكير تيلش الذي يصطبغ بالعصبية الوجودية ،  
هو أيضاً تفكير مثالي . فقول إن المثالية والوجودية

P. Tillich, On The Boundary, P. 32.

(٨٥)

(٨٦) برل تيلش ، الحب والغيرة والمثالية ، ترجمة كامل يوسف حسين ، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ، سنة ١٩٨١ ، ص ٩٧

في النسيج العقلائي كما أن كلمة الرب هي الكلمة متوعدة في كافة الكليات<sup>(٨٧)</sup> الحقائق الدينية لا تقتصر على حياة الفرد ومشاعره واتجاهاته وسلوكه ، بل تتضمن إشارة إلى الواقع الخارجي المستقل عنه ، إشارة يمكن التحقق منها تحققاً عقلياً وفلسفياً . لهذا تمثل الانطولوجيا تأييداً للدين ، ولهذا أيضاً كانت إطار تفكير تيلش .

إن الانطولوجيا هي التي تميز تيلش عن الوجوديين اللاهوتيين والدينيين الذين جعلناهم قياً سبق رفاقاً له أمثال مارتن بوير وبيديانيف وأونامو وجاسيت . . الخ فقد انصبت عنايتهم على الوجود الشخصي فحسب . ووجودية تيلش بذلك الأساس الانطولوجي أصح من وجوديتهم وأقرب إلى اللاهوتيين الوجوديين خصوصاً بولتيان ومدرسته جوسارتز وهوردي . .

ولما كان تيلش فيلسوفاً وجودياً فإن الأنطولوجيا ليس لها عنده الدلالة القديمة من حيث أنها بحث ميتافيزيقي مطلق في مجردات ثبوتية ساكنة ، كالجوهر والماهية . . الأنطولوجيا عنده من أجل تحقيق ( المهمة التي لا تنتهي ، والمتحصلة في إيضاح الوجود باعتباره كذلك ، أو باعتباره ذلك الذي يشارك فيه كل ما هو كائن<sup>(٨٨)</sup> . وقد ظلت دالماً انطولوجيا إنسانية ، إن صح التعبير .

فييلش فيلسوف وجودي ، لذلك كان لابد وأن تكون نقطة بدئه المنظرية الأنطولوجية هي الموقف الإنساني . وأكد أن تحليل الوجود الإنساني هو الطريق

لقد لاحظنا من حديثه عن الرفعة المشتركة بين اللاهوت والفلسفة أن الأنطولوجيا هي حلقة الربط بينهما . بل نرى أن الأنطولوجيا عند تيلش هي حلقة الربط بين اللاهوت والعقل على الأجل . أنه بطبيعة الحال - كلاهوتي وكوجودي - لا عقلائي إلى حد ما ، يرى إبعاداً تند عن سلطان العقل ونطاقه . وهو لم يعتقد أبداً بصحة التباين الميتافيزيقية أو للمنطقة على العقائد الدينية المعينة ، خصوصاً على وجود الرب ، وأكد أن جوهر الانجيل لا يمكن استنباطه من المبادئ الفلسفية ، بل كان شديد العناية بالدلالة العميقة جداً للعقائد اللاهوتية في الديانة المسيحية ، وأهمها ميلاد المسيح . . الرب الذي هو طفل رضيع . . ثم مدان مصلوب . وعلى الرغم من هذا فإنه كما يقف على الحدود بين المثالية والوجودية ، يقف على الحدود بين العقلانية واللاهوتية . لم يفعل ما فعله كيركجور الذي أكد أن الإيمان جملة وتفصيلاً هو الخروج من دائرة المعقول الحاققة للمسيح ، هو عينه اللامعقول ( أو مايسميه الآخرين الجنون الإلهي )<sup>(٨٩)</sup> لم ينكر تيلش كل وأية علاقة بين الدين والمباحث العقلية ، ولم يخرج التجربة الدينية بأسرها من عالم المعقول ، أو جعلها حراماً على العقل ، وليس صحيحاً في نظره وأن العقلية الدينية هي الإيمان بأشياء بغير دليل<sup>(٩٠)</sup> . . وهذا بسبب التطابق الذي ذكرناه بين ما هو لاهوتي وما هو انطولوجي ، والذي يجعل المباحث الانطولوجية تستطيع أن تؤخذ الدين ، فقط إذا ما بدأت من مصادره ، أو أكدت على محصلة مؤداها أن الرب هو الوجود ذاته ، ويجداً يصبح الوحي هو العقل معوّلاً

(٨٧) صرون كيركجور ، خوف وودعة ، ترجمة فؤاد كافي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ . من مقدمة وهم ودار لاوري ، ص ٦ .

(٨٨)

P. Tillich, The New Being, P. 126

(٨٩) بول تيلش ، الحب والقوة والحكمة ، ص ٥٧ ، من الترجمة العربية .

(٩٠) المرجع السابق ، ص ٦١

### ب - الوجودية الدينية :-

يقول تيلش : « حين قدمت الفلسفة الوجودية إلى ألمانيا ، استطعت أن أصل إلى فهم جديد للعلاقة بين اللاهوت والفلسفة »<sup>(١)</sup> هذه العبارة توضح بجلاء كيف أصبحت الوجودية حبر الزاوية والعمود الفقري لفكر تيلش الذي أصبح من أقدر المعبرين عن الوجودية المؤمنة والدينية ، كانه يواصل مساره الشرعي ، كما بدأت مع سرن كبير كجور - أقوى المؤثرين عليه ، والذي يشترك معه في العناية بالمعزي الدني للموقف الإنساني ، ولما تأكد أن التساؤلات الدينية لا يمكن إثارتها بصورة ملائمة الا من حيث هي متصلة بالموقف الإنساني - أي العناية بدينية الوجودية التي كرس لها كتابه « الشجاعة من أجل الوجود » ، وتأكد وجودية الدين التي كرس لها الجزء الثاني من كتابه « اللاهوت النسقي » . حل أن تيلش ارتبط أكثر من والده كير كجور بتاريخ ونصوص ومؤسست المسيحية ، فهو حل خلاله لاهوتي عتريه رسميا وهو بلا شك ، من أكثر الوجوديين إطلاقا وتأثيرا وانتشارا في العالم المتحدث بالانجليزية ، والذي لم يكن أرضا خصبة للوجودية التي تفجرت فقط في قلب القارة الأوروبية ، وخصوصا غربا .

وهو يجد لنا ثلاثة فلافسة ، أحدهم يعيش فكرهم بعق ، فمثلوا أساسا انطلق منه خمسة الشديد للوجودية ، وهم شلنج وكير كجور ونيتشه . وهو لم يقرأ نيتشه إلا بعد أن بلغ سن الثلاثين ، ومع هذا كان ذا تأثير ضخم عليه ، وكثيرا ما يشهد بأقواله ويجعلها

الوحيد لفهم البنية الانطولوجية للحقيقة ، أما بقية الكائنات أو الأشياء فنفهمها عن طريق المائلة Analogy الإنسان - ذات الإنسان وذات كل نفس حية ، ويمتد منبع المائلة إلى كل فرد حتى في المملكة غير العضوية وأساسه أن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي تتحد فيه كل مستويات الوجود . فليس الإنسان محض موضوع فائق بين الموضوعات ، بل إنه الوجود الذي يطرح السؤال الانطولوجي ، والذي يمكن أن نجد الإجابة الانطولوجية في وعيه بذاته ، لأنه يمر بعبارة فورية ومباشرة ببنية الوجود وعناصره ، خبرة تعني التداخل بين النفس والعالم ، والاعتدال المتبادل بينهما . إنها القطبان المشكلان لبنية الوجود وبالتالي لبنية الانطولوجيا .<sup>(٢)</sup> وعينان أن وجود الإنسان يرتد إلى مبدئي التفرد والمشاركة مع الآخرين .

إنها عين نقطة البدء التي حددناها للفلسفة الوجودية والتي يلخصها مصطلح هيدجر الـ Dasein (الوجود هناك) في العالم بمجمة الآخرين وتتوغل وجودية الانطولوجيا التيليشية حتى تصبح العناصر الانطولوجية هي ذاتها عناصر أو مقولات للموقف الإنساني ، أي الفردية والمشاركة - الديناميكية والصورة - الحرية والمصير .<sup>(٣)</sup> فالذات ذات فقط لأنها في عالم كون له بنية ، تنتمي اليه ، ولكن أيضا تتفصل عنه . إن انطولوجيا تيلش أو فلسفته بعملة ، أو بصفة أكثر عمومية العلاقة التي أرتأها بين اللاهوت والفلسفة ، قد أفضت بنا - وكان لابد وأن تفصح - إلى قلب نزعت الوجودية .

P. Tillich, Systematic Theology, Vol. I, P. 168.

(١١)

Ibid, pp. 174:186.

(١٢)

P. Tillich, On The Boundary, P. 56.

(١٣)

الحال من القرن الماضي حتى احتوته الكاتبة<sup>(٩١)</sup> ، وصاغت منه عام ١٩٢٩ المصطلح الدال على هذا الاتجاه الفلسفي ، كما ذكرنا .

والحق أن تيليش لا يعاني كثيرا في تقدير قيمة شلنج ، فقد كتب كير كجور في يومياته بتاريخ ٢٢ فبراير سنة ١٨٤٢ يقول : « أنا سعيد سعادة لا توصف لساعي معاصرة شلنج الثانية حتى أنني تبهت طويلا بما فيه الكفاية ، وتبهت الأفكار بداخلي »<sup>(٩٢)</sup> ولا يغيب عن بال تيليش الفوارق بين الأصول والأرواحات التاريخية الواسعة النطاق ، وبين الريادة الموحية وبين النشأة وبين النصج . فقد قام في كتابه ( الشجاعة من أجل الوجود ) مسح تاريخي سريع - كعادته في كتب أخرى - استخرج فيه عناصر وجودية من فلسفة كل فيلسوف تقريبا من الفلاسفة العظام ، حتى أبعدهم عن الوجودية . بدأ من الملائون وأفلوطين ، وطبعا أوغسطين ، ومن معظم الاتجاهات الكبرى في فلسفة الوسيطة حتى الاتجاهين الواقعي والإسمي ، ثم كوميديا دانتي ومدرسة فلورنسا ، حتى كانط نفسه بل وهيجل !! وصولا إلى شلنج وشونهور وروماكس شتيرنر وكارل ماركس وطبعائيش ، وانتهاء بالبرجاني « وجيمس » ، « دلتاي » ، « ويرجسون » « وصمويل الكسنتر » و « ماكس » « فيبر » وغيرهم وطبعا الأدباء العظام أمثال « بودلير » و « رامبو » في الشعر ، « وفلوير » « وجستوبسكي » في « الرواية » ، و « إيسن » « شترينديبرج » في المسرح وهو في هذا يسلم قطعا بأنهم ليسوا وجوديين بالمعنى الدقيق للمصطلح ، فقد أثاروا الاعتراضات فقط ضد تشيؤ

عمورا للنقاش . وجد تيليش في نشته وجوديا عظيما ومن أهم الوجوديين ، « إذ يكشف عن شجاعة أن ينعم المتظر لمحاوية العدم ، في تفرده الكامل الذي تقبل رسالة موت الله »<sup>(٩٣)</sup> « وتحمس بشدة لفلسفة الحياة » معه ، حيث الحياة في هذا المصطلح هي العملية التي بها قوة الوجود تحقق ذاتها . ورأها ضرورية لمرحلة ما بعد الحرب . فكد فعل للجوع والموت في سنواتها ساد بعدها التفكير التواقي لتأكيد الوجود ، والذي جعل تأكيد نشته للحياة شديد الجاذبية . يقول تيليش : « لما كان هذا التأكيد النيتشوي للحياة يعود من ناحية ما إلى جذور في فلسفة شلنج ، فقد كنت على استعداد لتقبله »<sup>(٩٤)</sup>

وشلنج كما ذكرنا هو الوثن الفلسفي لتيليش ، وإذا كان المتمد أنه رائد المثالية الذاتية فلان تيليش يصبر على أن شلنج الرائد الحقيقي للوجودية ، والذي سار في ركابه كير كجور . وذلك لأنه أول من قاد الهجوم الوجودي على ( فلسفة الماهية ) لصديقه هيجل والتي هي قمة الفلسفة التي تلني الاتجاه الوجودي ، وسأها ( فلسفة ملبه ) لأنها تنجر من الوجود الحقيقي ، وجعل ( الفلسفة الإيجابية ) هي فلسفة الفرد الذي يمر بالحيرة ويفكر ويقرر من داخل موقفه التاريخي . ليس ذلك فحسب بل كان شلنج أيضا هو أول من أهاب بمصطلح الوجود ليتألف فلسفة الماهية . وكان هذا في سلسلة محاضرات عن فلسفة الأسطورة ، ألقاها شلنج خلال شتاء ١٨٤١ - ١٨٤٢ في جامعة برلين ، وأمام مستمعين محبين : كيركجور وأنجلز وياكونزين . فانضجر المصطلح في الأجواء الألمانية خلال العقد

P. Tillich, The Courage To Be, P.30

P. Tillich. On The Boundary, P.53.

P. Tillich, Theology. Theology Of Culture. P. 77-78.

(٩١)

(٩٢)

(٩٣)

(٩٤) خلا من : : . إمام عبدالله ، سر كيركجور ، مرجع المذكور ، ص ٢٧ .

موجود آخر فيستهل كتابه (الآن الأزلي) بالفقرة التالية : « لقد كان هناك بمفرده ، وكذلك نحن . إن الإنسان بمفرده لأنه إنسان أو بمعنى ما تلقى كل خلوق بمفرده . وياتفرد مهيب يرحل كل نجم عبر ظلام الفضاء اللامتناهي . وتتمو كل شجيرة وفقا لقانونها هي الخاص محقة إمكاناتها الفردية . ونجما الحيوانات تقاتل ، تموت من أجل ذاتها ، وهي بمفردها . بعضها جماعيا ، بيد أنها جميعا بمفردها ! وأن نجا يعني أن توجد في جسد - جسد منفصل عن كل الأجساد الأخرى . وأن تكون منفصلة يعني أن تكون بمفردها . يصدق هذا على كل خلوق ، ويصدق على الإنسان أكثر مما يصدق على أي خلوق آخر . إنه ليس فقط بمفرده ، لكن يعلم أنه بمفرده . ولكنة على وهي بما هو عليه فإنه يثير التساؤل عن وحدته ، يسأل لماذا هو بمفرده ، وكيف يستطيع الانتصار على كونه بمفرده ، فهو لا يستطيع تحمل هذه الوحدة ، ولا هو يستطيع الفرار منها . إن قدره أن يكون بمفرده ، وأن يكون على وهي بهذا . ولا حتى الرب يستطيع أن يرفع عنه هذا القدر »<sup>(٩٨)</sup>

يقول تيليش هذا وهو يناقش مأزق الإنسان ، وفي فصل بعنوان « الانفراد والفردي » يوضح براءة اللغة ، حيث أن المصطلح الأول ( الانفراد Loneliness ) يشير إلى الجانب المساوي من الوحدة الذي يبلغ ذروته في موتى الذنب والوت . فلا أحد يشارك في رفع وزرها . اما المصطلح الآخر ( العزلة Solitude ) فيشير إلى الجانب النيل الجليل الجميل للوحدة المحتومة على الإنسان ، ويوضح لماذا لا يستطيع الله أن يخلصه منها . وذلك أن عظمة الإنسان في أنه يتقرد :

الإنسان وقوضمه . وفي النهاية يؤكد أن الفلسفة التي ظهرت في القرن العشرين شيء آخر ، إنها أسطع وأقوى وأخطر معنى للوجودية ، وهي وحدها التي تتشغل بمشكلة المعنى حين تتحدث عن التناهي والذنب ، وهي حين قدمت إلى ألمانيا - منبت وموطن الوجودية - مثلت له فيها جديدا للعلاقة بين اللاهوت والفلسفة .

من ثم أحس تيليش بروح الفلسفات الثلاث : شلنج ، كيركجور ، نيتشه ، وقد انصهرت واندجعت معا في فلسفة هيدجر . إذا كان تيليش يجاهر بولائه لشلنج ، فإن أسلوب ومضمون فلسفته بل وطبيعة مصطلحاته تؤكد أن هيدجر في الواقع أعظم المؤثرين عليه ، ونحسب أن هيدجر هكذا بالنسبة لكل وجودي ذي اعتبار ، خصوصا إذا كان لا هويتا . وتيليش على أية حال يرى أن كتاب هيدجر ( الوجود والزمان Sein und Zeit ) أهم ما أخرجه الفكر الألماني في القرن العشرين ، بعد كتاب إدموند هوسرل ( دراسات منطقية Logische Untersuchungen ) الذي أسس به الاتجاه الفينومينولوجي . وقد استفاد تيليش كثيرا من الفينومينولوجيا التي توثقت العلاقة بينها وبين الوجودية ، ويؤكد تيليش هذه العلاقة الوثيقة بينها وبين اللاهوت قوله ( لا بد أن يطبق اللاهوت تناول الفينومينولوجي على كل مفاهيمه الأساسية )<sup>(٩٩)</sup> ، لأنه مقدمة تمهيدية ضرورية لمناقشة صحتها وفعاليتها .



وينطلق تيليش ، كأي فيلسوف وجودي ، من واقعة أن الإنسان رسيد في هذا الكون ، وهو فرد فريد لا يمكن أن يشاركه في موقفه الوجودي أو يحل محله

P. Tillich, Systematic Theology, Vol. P.118.

(٩٨)

P. Tillich, The Eternal Now, P.15-16

(٩٩)

الشجاعة حدث الانفصال في مفترق الطرق بين الوجودية الدينية والملمدة - ولأنك أن قلق اللا معنى ليس فقط معلولا مباشرة للحرب العالمية ، بل يعود أيضا إلى رفض الألوهية في القرن التاسع عشر . والذي بدوره نيتشه بقوله ( الله مات ) ، فهاث معه نسق القيم والمعاني التي يحيا عليها الإنسان . هذا أمر محسوس بوصفه خسارة وفقدانا ، ويوصفه بحزنا وانطلاقا . فإما أن يؤدي إلى شجاعة العلمية ، وإما إلى شجاعة تحتوي العلم داخلها . ويعمل نيتشه قمة التعبير عن الشجاعة العدمية المولدة للمحطة للذات ، انما شجاعة اليأس *Courage of Despair* ، وأعمق تعبير فلسفي عنها في كتاب هيدجر ( الوجود والزمان ) . هي بلا شك شجاعة جسورة ، تفصح عن قدرة على مواجهة العالم كما هو ولكنها تدفع ثمنا باهظا هو فقدان المعنى والحواء - فقدان كل شيء . فالإس هو الموقف الحديضي والذي لا يمكن أن يتجاوز المرء . صميم معنى كلمة اليأس : لا أمل ، لا طريق يبدو إلى المستقبل <sup>(١٠٠)</sup> هكذا أفضت الوجودية الملمدة إلى شجاعة اليأس . أما الوجودية الدينية فقد أفضت مع تيليش إلى شجاعة الكينونة وتأكيد الذات *Self - Affirmation* . فكيف ذلك ؟

يتضح ذلك في كتاب تيليش الذي يعمل هذا الاسم : شجاعة الكينونة *The Courage To Be* وهو مكرس لتحليل جدلي وتوصيف فينولوجي للشجاعة كمقولة بنائية للطرف الإنساني . وتبعاً لما رأيناه في فلسفته الانطولوجية ، ستكون الشجاعة واقعا أخلاقيا ، وتضرب بجذور قسمة في بنية الوجود ذاته ، أي أنها أيضا مفهوم انطولوجي والشجاعة كواقع أخلاقي تشير إلى فعل عيني وإلى قرار يعبر عن مضمون

بتمركز داخل ذاته ويتفصل عن عائله ، فيكون قادرا على أن يعلن عليه وينظر إليه ويعمره ويحيه . وفي التفرد يتحقق أسمى أشكال وتعبيرات الوجود الإنساني أي الإبداع ، وأيضا تنمو وتترعرع أعظم قوة قادرة على مقاومة الوحدة الانفراد ، أي الحب وأيضا التواصل الجنسي ، وإن كانت قوة محدودة بإمكانات رفض الحب أو موت وفقدان المحبوب . ( الإنسان وحيد ) إذن سلاح فوجدلين وهو أولا وأخيرا قدر الإنسان المحتوم - فقط الإنسان . ويؤكد تيليش أن الذي يستطيع أن يكون وحيدا بمفرده ، هو فقط الذي يمكنه الزعم بأنه إنسان . ذلك هو مجد الإنسان ، والحمد الذي ينوه به .

سبق أن ذكرنا أن ويلات الحرب جعلت الأجواء مهيأة للوجودية كي تستأنف طريق نيتشه ، وتسير في مقولة الفردانية إلى منتهاها ، إلى المجر ، الاتحاد ، الإنسان وحيد تماما ، - مهجور في هذا الكون ، لا إله يقيم معه شيئا من التواصل . تلك هي الوجودية الملمدة التي شاعت وذاعت . والجرح الذي قامت لتدأويه جعلته يفرغ فاهه بشراسة أكثر . ولكن حين التعرف على سيرة تيليش وجدنا أن ويلات الحرب هي نفسها التي جعلته يؤكد الاحتياج لحضارة ليونومية ، للألوهية ، ولوجودية دينية كي يلتئم الجرح . ونحن نتساءل : أي الطرفين الوجوديين - طريق الاتحاد وطريق الإيمان - أكثر تحقيا لمضمون التجربة الوجودية ؟ نحسب أنه الطريق الثاني .

بداية ، يوضح تيليش إن الوجودية التي قويت وتألقت في القرن العشرين هي : تعبير عن قلق الحواء واللامعنى ومحاولة قهره بشجاعة محتويه داخلها . وبهذه

ويميز تيلش بين ثلاثة أنماط للقلق : (١) القلق الأونتولوجي *Ontic* ، قلق المصير والموت (٢) القلق الأخلاقي ، قلق الذنب والإدانة (٣) القلق الروحي ، قلق الخواء واللامعنى . في القلق الأونتولوجي نجد المصير يبد التأكيد - الذاتي لوجود الفرد تهديدا نسبيا ، أما الموت فيهدده تهديدا مطلقا . وينشأ قلق المصير من الوعي بالعرضية التي لا يمكن استئصال شأقتها ، والتي تتخلل أعماق أهلك وجود المرء ويقف الموت من وراء المصير بوصفه التهديد المطلق لتأكيد - الذات الأونتولوجي . ويفضح الموت العلمية الكلية للوجود . غالبا ما يحاول الإنسان تحويل هذا القلق إلى خوف ، قد ينتج إلى حد ما ، لكنه يدرك أن التهديد لا يمكن أبدا تحصيله في موضوع معين . إنه ينشأ من الموقف الإنساني بما هو كذلك . فيجربنا السؤال : هل ثمة شجاعة كينونه ، شجاعة تأكيد الذات ، على الرغم من التهديد الأونتولوجي لتأكيد الذات الذي يقيق بالإنسان ؟

وتهيئنا العلم على مستوى آخر ، حين نشأ عنه قلق أخلاقي . يجعل قلق الذنب تهديدا نسبيا وقلق الإدانة تهديدا مطلقا ، تبحث النفس عن تأكيد ذاتها أخلاقيا ، عن طريق تحقيق إمكاناتها لكن العلم يعبر عن نفسه في كل فعل أخلاقي . بأن يصجز الإنسان عن التحقيق الكامل لكل إمكاناته فيظل مفتقرا عن ذاته الجوهري . ويتدخل الانتباس الأخلاقي في كل أفعاله . والوعي بهذا الانتباس ذنب والذنب قد يؤدي

فيحي . أما بوصفها مضمونا انطولوجيا ، فإنها تشير إلى تأكيد الذات للفرد تأكيداً جوهريا وكليا في حضور التهديد بالعدم . ويلذهب تيلش إلى أن هذين المفهومين للشجاعة يجب أن يتحدا إذا أردنا تفسيراً ملائما للظاهرة .<sup>(١١)</sup> ثم أعطى تيلش تخطيطا يتتبع مفهوم الشجاعة طوال تاريخ الفكر الغربي منذ أفلاطون حتى الوجودية في القرن العشرين ، معتبرا مبدأ المسيحية في الغفران من أجد صور شجاعة الكينونه . ومفهوم الشجاعة لا يمكن فهمه وإدراك قيمته إلا في حالته بالقلق . ما هو القلق *Anxiety* ؟ إنه ذلك المفهوم الشعير في الفلسفة الوجودية والمقترن بها يعرفه تيلش بأن الخوف له موضوع محدد كالقتل أو الموت أو رفض الحب أما القلق فهو خوف من مجهول . وثمة مجهولات كثيرة ، لكن لا نواجهها بقلق . إن مجهولا من نوع معين هو الذي تقابله بقلق ، مجهولا بصميم طبيعته لا يمكن أن يعرف ، لأنه عدم<sup>(١٢)</sup> *Nonbeing* . القلق خوف غير محدد الموضوع ، خوف من مجهول هو العلم الذي ينفي كل موضوع ، هو الوعي الوجودي بتهديد العلم ، بالانتهائي المتأصل في الإنسان . والشجاعة هي التصميم على مواجهة هذا القلق بطريقة تحتوي العلم تماما وتتضمنه داخل الوجود . وهي بهذا تمثل الفارق بين القلق الوجودي والقلق المصابي الذي يتفادى العلم بواسطة تفادي الوجود أو تقليل نطاقه فالشخصية المصابية تبحث عن تأكيد لما بقي من ذاتها المنقوصة ، فتؤكد شيئا ما أقل جوهريا ، تأكيداً سلبيا موهوما .

(١٠١) F. MacGill & J.P. Megrahn (ed), *Mysteries of World Philosophy*, Harper Row, New York. 1961. P.1146  
(١٠٢) P. Tillich, *Op. Cit.*, P.37.

(١٠٣) أونتولوجي *Ontic* تعني التواجد الحقيقي الفعلي ، وهي مشتقة من اللغة الأوغري *Ont* أي الوجود ككل أو الوجود بما هو موجود والظهور منها والألمولوجيا . فلسفة الوجود . لكن أونتولوجي أكثر دينا من *Ont* بأنها من الكثيرة *Being* أو *To Be* وأقل دينا من الثلاثة الوجود *Existence* . إنها مشكلة تواجه كل من يتعمق لفلسفة أونتولوجية كالفلسفة تيلش . الكثير من مصطلح لا يتأهلها لي العربية إلا أصل لادري واحد هو الوجود . وحتى الكثيرة التي تسمى *Being* لا تأتي كثيرا ، حين نتحدث عن الأهمية عند تيلش *Being-itself* نجد أن (الوجود - ذاته) أكثر ملاءمة نسبيا لأنها أكثر عمالية وجوهية من (الكثيرة) . (داهم) والواقع أن تلك الكثيرة كترجيب اصطلاحات الأهمية التي يبره *Being* (إلا حين كنا نحسن اصطلاحها بالترجمة للإنساني في الفلسفة الوجودية) .

لوائه . وكما أشرنا ، في هذا العصر يسود القلق الروحي ، قلق الحواء واللامعنى . ولا سبيل البتة إلى نحو القلق الوجودي ، بأشكاله الثلاثة . فهو متاصل في صميم الموقف الإنساني بتناهيهِ وليس يستطيع مواجهته واحتواءه الا هؤلاء الذين يملكون شجاعة تأكيد - الذات على الرغم من تهديد القلق بوصفه - وصيا وجوديا بالمعدم ذي الاشكال الثلاثة .

وظلما أن النفس والعالم هما القطبان المشككان لبنية الموقف الوجودي الفردي وايضا لبنية الانطولوجيا - كما أوضحنا - فإن شجاعة الكينونة لا بد وأن تتضمن كليهما ، فتتضمن شجاعة أن يكون المرء ذاته ويحقق وجوده الاصيل ( النفس ) ، وتتضمن شجاعة المشاركة والتواجد بجميع الآخرين ( العالم ) وباستفاضة يناقش تيليش محاولات الحضارة المعاصرة ، التي هي حلانية أو تونومية ، لمواجهة قلق الحواء واللامعنى الذي يهددها ، وينتهي إلى انها جميعها فاشلة ، تعجز عن تحقيق شجاعة تتضمن الفردانية المشاركة معا . الرأسالية تنجح تماما في تحقيق شجاعة أن يكون المرء ذاته ولكنه يفقد شجاعة المشاركة . والاشتراكية تحقق شجاعة المشاركة ، وتعجز عن تحقيق شجاعة أن يكون المرء ذاته . وبالمثل كل الانتماءات الأخرى كالرومانتيكية والفاشية والنازية . . . . الخ لا سبيل إلى شجاعة الكينونة الحقيقية ، التي تتضمن الذاتية والمشاركة - النفس والعالم ، إلا بشجاعة تقرب بجذورها في الألوهية الوجود - ذاته ، الذي يعمل على النفس / العالم فيحتويهما ويتجاوزهما . باختصار شجاعة الكينونة شجاعة دينية . والإيمان بالعناية الالهية يقهر القلق الاونطيقى ، والإيمان بالفرقان يقهر القلق

بالذات إلى الرغص الكامل لذاتها ، إلى التهديد المطلق الذي تحمله الإدانة وثار السؤال : هل ثمة شجاعة كينونة ، على الرغم من التهديد الأخلاقي لتأكيد الذات ؟

وأخيرا ، قلق الحواء واللامعنى ، التهديد الروحي لتأكيد الذات . الحواء تهديد نسبي ، واللامعنى تهديد مطلق . ينشأ الحواء عن موقف تفشل فيه الذات في أن تجد إشباعا من خلال المشاركة في مضمونات حياتها الحضارية والثقافية ، فتفقد معتقدات الانسان واتجاهاته وأنشطته معناها ، وتتحول إلى موضوعات للامبالاة . « نحاوّل في كل شيء ، ولا نجد إشباعاً من أي شيء ، فنضمحل القوة الخلاقة المبدعة ، وتهدد الذات بالملل والسأم . ويصل الحواء إلى ذروته في قلق اللامعنى ، يشعر الإنسان أنه لم يعد يستطيع أن يمضي قدما ، لا في تأكيد مضمونات حضارته ولا في تأكيد قناعاته الشخصية . هكذا تصبح الحقيقة ذاتها موضوعا للتساؤل ، ويهدد الحياة الروحية شك كلي . وثار السؤال : هل ثمة شجاعة كينونة تؤكد ذاتها على الرغم من تهديد العلم ؟ والعدم هنا هو الشك الذي يهدد تأكيد الذات الروحي »<sup>(١٠٧)</sup>

( الأنماط الثلاثة للقلق ) من أعصّب وأمتع أفكار تيليش ، وتوضح مدى اتساق وتشابك أطراف فلسفته المترامية الحدود ، فتوضح مدى عمق وتغلغل وجوديته . إنها أساس فلسفته الوجود الإنساني الفردي وأيضاً أساس فلسفته الحضارية . فهذه الأنماط الثلاثة حاضرة في كل شخص وفي كل الأزمنة الحضارية بيد أن واحدا منها هو الذي يسود ويهيغ العصر والشخص بصيغته ويطوي النمطين الآخرين تحت



إليه تحرك التاريخ نحو الأفضل ليحقق في النهاية مدينة الله على الأرض. وهي عقيدة ميزت المسيحية منذ أوغسطين، لكنها انحطت تدريجياً مع الحرب العالمية الأولى، ومع العام الخامس منها كان الإيمان بها قد تلاشى تماماً، وشيبه هذا ما حدث خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، وبأن التفسير الوجودي للدين ليعيد إليها الحياة. يوضح تيلش أولاً أن الصورة القديمة للعناية الإلهية ليست نتيجة للعقيدة المسيحية، بل للتفكير المتضائل<sup>(١٠٠)</sup> فهي لا تعني أن الله يسير العالم بلا مأس أو مشاكل وكأنه إله بالغ الكمال، بل تعني فقط قدرة على التحقن قائمة دوماً ويستحيل نفيها، فيكون الإيمان الحقيقي بالعناية الإلهية هو شجاعة تقبل الحيلة بصلو مفتوح ونفس مطعنة على الرزم من كل شيء<sup>(١٠١)</sup> إن الشك في المعتقدات الدينية قائم دائماً، والإيمان هو الشجاعة التي تقهره لا بأن تزعمه، بل بأن تحتهه داخلها.

حين تدعو المسيحية إلى الوجود والدهر الجديد تكون هي الطريق لتحقيق الوجود الأصيل والحيلولة دون الوجود الزائف. ضغوط العقل الجمعي المؤدية للوجود الزائف لا ينشأ منها الثوريون التقدميون أكثر من الرجمين المحافظين - فإن اختلفت الجاهاتان، فإن المصير في أي منها مقولوب بقولاب جماعته، ولا ينشأ منها المتقنون أكثر من البسطاء، فالمتقنون خاضعون للقيم والمعايير الثقافية السائدة... الخ ولا الكتيبة نفسها تنفذ منها. لكن أصول العقيدة المسيحية تنفذ منها وترسم الطريق إلى الوجود الأصيل. فللسيح نفسه وقفت في وجه أسرته وروابطه المالية وأعلن أن

الأخلاقي، والإيمان بالرب ذاته - بالوجود ذاته يقهر الغلق الروحي.

هكذا نجد حيثيات الفلسفة الوجودية تصب توا في قلب الإيمان الديني، فيعطينا تيلش أقوى تفسير ديني للوجودية.



وإذا انتقلنا إلى الوجه الآخر للعملة، التفسير الوجودي للدين، فنسجد أن تيلش يكرس الجزء الثاني من «اللاهوت النسقي» وعنوانه الفرعي «الوجود والمسيح» لاعطاء كل العقائد المسيحية الأساسية دلالة وجودية، بحيث نجده يصب الديانة المسيحية بأسرها في قلب الفلسفة الوجودية فالسقوط، سقوط آدم في الخطيئة وسخروجه من الجنة إلى الأرض يعني الانتقال من الماهية إلى الوجود<sup>(١٠٢)</sup> تحطيم الذات الوجودية هو مبدأ الشر في العالم، والاضطراب الذي هو مسألة دينوية يحته حتى لو ارتبط بالذنب، يعمل تيلش على إبراز التماثل والتشابه بينها وبين فكرة الخطيئة في اللاهوت المسيحي. باختصار الحقيقة الدينية بأسرها حقيقة وجودية، لا تفصل عن الممارسة - أو الفعل كما يقول انجيل يوحنا - فهي رهان بصميم وجود المرء. هذا التفسير الوجودي للدين يتجه أن تغدو وظيفة الدين وجودية، هي قهر الغلق والخوف اللذين هما ميراث البشر أجمعين كما اكتشف كير كجور.

وبهذا التفسير الوجودي للدين ينفذ العقائد المسيحية التي مستها التغيرات الحديثة، وإصمها الإيمان بعناية

P. Tillich, Systematic Theology, Vol 2, Existence And Christ, The University of Chicago Press, 1957, P.29:39

P. Tillich, The New Being P. 52-53.

P. Tillich, Shaking Of The Foundations, P.190

(١٠٤)

(١٠٥)

العقائد الخاصة بالمسيحية كالتثليث وصبب المسيح . . الخ ، نراه يقع في الطب التريص باللاهوتيين وهو التمسب وتيليش حريص ذاتيا ونلج على تفاديه ، لكنه بعد كل هذا يأتي ليؤكد أن التفسير الوجودي للدين ( مجد البروتستانتية فقط ) . لا شك أنها في مناهضتها للكاثوليكية كانت أكثر وجودية ولكننا كنا نتظر من لاهوتي ينساب في دمه حق الفلسفة ذات الشمولية والعمومية ، وحريص على الحوار والتلاقي بين الديانات كما سنرى - كنا نتظر منه أن يبرز خطوة أبعد ويرى التفسير الوجودي للدين من حيث هو دين .



إن هذا المطلب لا ينفي أن تيليش - كما رأينا - أنذر وأبرع من غير من التجادل والتواؤم والتلاحم العميق بين الزعة الدينية والزعة الوجودية . وهذا يتطور فيما أسماه بالاهتمام القوي أو ( الانشغال المطلق ) الذي لا يد وأن يطالنا في كل أحوال تيليش تقريبا . إنه يعود من محاور فلسفته الدينية ، وأساس تعريف كل مفاهيمها ، ويمكن تناوؤها بأسرها من خلاله . والاهتمام القوي Ultimate Concern - كما فهمناه - هو ببساطة التفسير الوجودي للإيمان . ولعل الإيمان هو الذي دفع تيليش أصلا لمغامرة تحديث اللاهوت ، فقد لاحظ أن الإيمان ( فقد معناه الحقيقي واتسع حتى أصبح يدل على الاعتقاد في أشياء لا يمكن الاعتقاد بها ) - و ( أنه في حاجة إلى إعادة التأويل أكثر من أي مصطلح ديني آخر )<sup>(١٠٧)</sup>

ومثلا قال القديس أوغسطين إن الإنسان خلق

من يعجز عن هذا لا يصلح أن يكون مسيحيا حقيقيا . ويخرج تيليش من هذا إلى أن ما فعلته الكنيسة طوال التاريخ من تكريس للنظم والروابط بتألف الوجودية ، هو ( فهم خاطيء ) بل مضاد للرسالة المسيحية الحقيقية<sup>(١٠٨)</sup> .

أما من صلب الوجودية المتمثل في حرية الاختيار والقرار ، والذي تعارضه المؤسسات الدينية فإن تيليش يقول : ( منذ زمن بعيد نسبت الكنيسة كلمة الإنجيل بأن المسيح هو الحق ، وادعت أن تعاليمها عنه هي الحق . هذه التعاليم مهما كانت ضرورية وخيرة ، فقد ثبت أنها ليست ذات الحق الذي يحررنا وسرنا ما أصبحت أدوات القهر والإخضاع للسلطات . لقد أصبحت وسائل لمنع البحث المخلص عن الحق ، وتصل لشطر أرواح البشر بين الولاء للكنيسة وبين الإخلاص للحق . وبهذا قدموا أسلحة فتاة للهجوم على الكنيسة وتعالمها باسم الحق . وليس كل شخص يشعر بهذا الصراع . فتنة كتل من الجماهير تشعر بالسكينة في كنف التعاليم والقوانين . إنهم آمنون ، لكنه أمان من لم يجد تحرره الروحي ولم يجد نفسه الحقة . ذلك هو مجد البروتستانتين وأيضا عطورتهم . إنهم يتحملون مغية السؤال عن الحق بأنفسهم . وهم بهذا يتلقون حرية ومسؤولية القرارات الشخصية ، والحق في الاختيار بين الوسائل المؤدية للرب الذي هو الحق المجرد<sup>(١٠٩)</sup> .

وبالأسف ! بعد نجاح تيليش الشديد في التفسير الوجودي للدين ، والذي مكنتنا من أن نمزج عن

(١٠٧)

(١٠٨)

(١٠٩)

يسأل عن معنى وجوده هو شخص غير ناضج حتى ولو كان عالما مبدها أو سياسيا عظيما .

الاهتمام القوي إما أن يكون دينيا ، أو دينويا بواحد من شواغل الدنيا السامية أو بها جميعا : الأشياء المادية والأموال أو المركز الاجتماعي ، أو مصالح الطبقة ، أو الأمة ، أو الحركة السياسية أو للثل العليا من الأشخاص العظام سواء دينيين أو علمانيين ، والأشكال الحضارية والثقافية كالفن والفكر والعلم . . . الخ <sup>(١١١)</sup> كلها مواضيع تستحق الاهتمام الفلني ، بل إن بعضها - خصوصا العلم والمال والطبقة - كانت في مراحل تاريخية متفاوتة بمثابة آله . إنها أشياء عامة ، لكن لا تكفي ، ولا تصلح لأن تكون الاهتمام القوي الحقيقي ، لأنها متناهية ووقتية متغيرة وتشكل عبئا يثقل بقله وعينا لأنه يعجز عن أن يعدل بينها <sup>(١١٢)</sup> لا بد من البحث عن اهتمام أعمق منها جميعا ، أبعد وأبقى وأقدر على إشباع كل الاحتياجات الروحية ، اهتمام قصي حقيقة ، بمطلق لا متناه غير مشروط ، واهتمام من هذا النمط لا بد وأن يقود إلى المستوى الفائق للوجود ، إلى الوجود ذاته - أي إلى الألوهية . معنى هذا أن الإيمان الديني هو الاهتمام القوي الأمثل لكل إنسان . وكل اهتمام قصي عدا الإيمان زيف ووهم إذ يقود إلى موضوعات دنيوية - أي زائلة ، فكيف تكون قصة ؟ !!

إن ديناميات الإيمان الديني هي عينا ديناميات الاهتمام القوي . والإيمان بوصفه اهتماما قصيا هو فعل للشخصية ككل Total Personality ، يحدث في مركز حياة الشخص ، ويتضمن كل عناصرها ، فيشارك في

بحيث يوجهه حب فائق ، يقول تيلش إن الإنسان خلق بحيث يوجهه اهتمام قصي <sup>(١١٣)</sup> ما معنى الاهتمام بشيء ؟ معناه أننا منشغلون به ، ونشارك فيه بجماع النفس ، بل وأكثر من هذا ، يعني الطريقة التي تشارك بها - أي بقلق - وبراحة اللغة تطابق بين الاهتمام والقلق في هذا اللفظ (وايضا في العربية : الشخص المهوم) مشتقة من نفس مصدر الاهتمام ، تعني (الشخص القلق) - وهذا الاهتمام القلق قد يكون بالعمل وإدائه والنجاح أو الفشل فيه ، أو بالآخرين . . . بالاصدقاء وحبهم وتشاركهم الروحي معنا والخوف من أن نفقدهم أو نضرهم والخوف مما قد يكون مهيوتا في نفوسهم من شيرة وحسد أو حتى كراهية . . الاهتمام القلق قد يكون بأنفسنا بمسئولية التطور تجاه القوة والنصح والحكمة ، ثمه ايضا التوق للمساعدة واتخاذ القرارات السديدة ، وثمره طمعا الاهتمام القلق بالحياة اليومية والحيز والكساء والمسكن . . . . . مثل هذه الاهتمامات ليست حقيرة أو تافهة ، بل ضرورية لكي تستمر الحياة والحضارة لكن . . ألا يوجد فوقها اهتمام أعلى منها جميعا ؟

وبالتأكيد يوجد فوقها (الاهتمام القوي) الذي يمثل هدفنا آميرا لا هدف بحد ذاته للحياة . . . لتنجية الوجودية ، ولابد لها من مثل هذا الهدف ، لكي يكون لها معنى . ونلاحظ أن ما اسماه تيلش بالقلق الروحي ، قلق الحواء واللامني ، ينجم عن فقدان اهتمام قصي ، فقدان معنى يمنح للمنى لكل المعاني ، فقدان إجابة - مهما كانت رمزية وغير مباشرة - للسؤال عن معنى الوجود . وتيلش يؤكد أن كل شخص لا

W.P. Alston, Paul Tillich, Art in Encyclopedia For Philosophy, Vol. 8, P.125

P.Tillich, Dynamics Of Faith, Harper & Row New York, 1957. P153

P.Tillich, The New Being, P.137.

(١١٠)

(١١١)

(١١٢)

كل ديناميات الحياة الشخصية،<sup>(١١٦)</sup> محققا شجاعة الكينونة بقطبيها: الفردانية والمشاركة، (لأن مصطلح الاهتمام القضي، يوحد بين الجانبين الذاتي والموضوعي لفعل الايمان، ذاتي من حيث هو مركزي للشخصية، وموضوعي من حيث ان فعل الايمان يتجه الى القضي ذاته<sup>(١١٧)</sup> يحدد الموقف الوجودي للفرد، فما هو الايمان بالدين؟ هو اكتشاف ان كل شيء في حياة الفرد له مغزاه وقيمه، على قدر مايتصل بالوجود الفائق المتعالي - بالرب .

وسين يعرف الايمان بأنه الاهتمام القضي، سوف يكتبس ديناميكية تجعله ابعد مايكون عن الثبوتية، المقرنة بالدين التقليدي . (ولقد يبدو ان المفهوم الديناميكي للايمان لايتيح مجالا للغة التوكيدية المربحة التي نجدها في مواثيق الايمان الكبرى، بما فيها للمسيحية . لكن ليس هذا هو الحال . المفهوم الديناميكي للايمان نتيجة لتحليل المفاهيم لكلا الجانبين الذي الموضوعي للايمان . انه بالتأكيد وصف لحالة متحققة دائما للعقل، وتحليل للبيئة . وهذا ليس وصفا لحالة الاشياء<sup>(١١٨)</sup> الراكدة المبسطة . والذي يدخل منطقة الايمان يدخل الحرم للقدس للحياة . فحيثما يكون إيمان، يكون هناك وحي بالقدس، يجب شجاعة الكينونة وتأكيد - الذات، على الرغم من العلم بامكانه الثلاثة .

لذا يتمسك تيليش بالاهتمام القضي كتعريف للايمان ، وايضا رفضا للتشوهات التي تلحق الايمان من جراء التفسيرات العقلانية والباطنية او تفسيرات

اصحاب مذهب الارادة الحرة Voluntarism ليس الايمان لحسب، فالدين نفسه هو ايضا - وقطع - الاهتمام القضي، واي اعتبار آخر تشييق للدين بل هراء، ولعله تمهيد . الرب ايضا هو الاهتمام القضي والا . . فسوف ننظر اليه على انه موضوع سام، طرف آخر من المفيد الدخول في علاقة معه، شأن أطراف أخرى عديدة . . . المقصود من العقيدة الدينية ان تكون معينين ومنشغلين بها، مهتمين ومهمومين بها، بصورة قصوى غير مشروطة، انها تحتويها داخلها، ونحن نحويها داخلنا .

غير ان تيليش يحدد الاهتمام القضي بأنه الايمان ، ويعرف الايمان بأنه الاهتمام القضي، في دوران منطقي واضح . والدوران مغالطة ينسر بل يستحيل ان ينفذ منها اللاهوتي . ثم تراسي شأن الاهتمام القضي وانفلت من بين يدي تيليش، بحيث لانجد حدودا نقف عليها اوحق نتخطاها، فعل الايمان هو الاهتمام القضي . . والدين هو الاهتمام القضي . . والرب هو الاهتمام القضي، اي أصبح مفهوم الاهتمام القضي يعني كل شيء في التجربة الدينية، وبالتالي لايعني اي شيء .

ولا يكتفي تيليش بهذا ، بل يخفي قدما في تعريفاته حق يعرف المؤمن، وايضا الملحد على أساس الاهتمام القضي . فالملحد (من ليس له اهتمام قضي، وبالتالي ليس لحياته حق، إنما ضحلة)<sup>(١١٩)</sup> وهو غير ناضج لأنه لايسأل عن معنى الوجود - الذي هو الإيمان بالالوهية . أما الشخص المؤمن فهو من له اهتمام قضي، ولكن هذا التعريف الأخير ينطبق على المؤمن،

P. Tillich, Dynamics Of Faith, P. 4

Ibid, P. 30

Ibid, P. 21

P. Tillich, Shaking Of The Foundations, P. 63.

(١١٦)

(١١٧)

(١١٨)

(١١٩)

بالمقدس . وهذا يؤدي إلى التمييز بين معنيين للدين .  
قصة معنى واسع حيث يظهر المقدس ونخبره كعبد  
للمعنى ذاته ، بعد الحقيقة القصبة في المجالات  
المختلفة لمواجهة الإنسان مع الحقيقة في الالتزام  
الأخلاقي .. العدالة الاجتماعية .. التعبير الجمالي ..  
الإبداع الفكري أو العلمي . المقدس حاضرا  
وكموضوع للاهتمام القصي في كل هذه البنات  
العلمانية ، لكن خفي غالت باحت . أما في المعنى  
الضيق للدين - المعنى الحرفي - فإن الحيرة بالمقدس  
مباشرة وصريحة وجلية ، وذلك هو الاختلاف  
الوحيد<sup>(١١٧)</sup> بين معنيي الدين .

هكذا نلاحظ أن « الاهتمام القصي » أو التفسير  
الوجودي للدين قد أدى بتيليش إلى تحديث راد يكالي  
جلري ربما كان خطيرا وانهم بأنه يوهن العقيدة  
الدينية ، ولكنه يعمل الدين متوشجا في صميم بنية  
هذا العصر . ونظيرنا تيليش بأنه استوحى الأصول  
الأولى لهذه الفكرة في ماريورج بالماتيا حين كان يتمشي  
مع زميله ورفيقه اللاهوتي رودلف أوتو R.Otto  
(١٨٦٩ - ١٩٣٧) . الصليح بالأديان الأسبوية  
وصاحب الكتاب الشهير « فكرة المقدس » The Idea  
of Holy وسأله تيليش : ما معنى المقدس ؟ فأجاب :  
هو الغامض ، هو المطلق ذاته ، اساس كل  
الطليقيات<sup>(١١٨)</sup> فكانت الالهية Deity ، قصة المقلات  
اللاهوتية - او قصة المقلات على إطلاقها - هي مطلق  
هذا التحديث وهي في الواقع مناهج تحديث تيليش  
الثوري الجريء ، خصوصا في ارتباطها بالرمزية  
الدينية ، لذا لا بد أن نغرد لها حديثا .

وايضا على للمحدث في الاهتمام القصي غير الالهية ،  
واذا كان ساميا بدرجة كافية ، كالإبداع العلمي أو  
الفني أو الاتجاز السياسي فليس من الضروري أن  
يعاني قلق الحواء واللامعنى . إذن فتميمات تيليش  
ليس لها معنى ، ما لم تصادر معه على المطلوب ، أي  
على أن الاهتمام القصي هو فقط الايمان الديني ، وهي  
مصادرة لاتلزم إلا من اختار منذ البداية أن يكون  
دينيا !

وقع تيليش في مغالطتي الدوران المنطقي والمصادرة  
على المطلوب ، ولن يستطيع الانتكار . ومع هذا  
نحسبه لن يعدم ردا . فقد دافع عن هذا التفسير  
الوجودي للدين بأن المقابلة التقليدية بين الدين  
والإلحاد غامسة . فهي كالأتي : هل الدين وحي منزل  
للإنسان ؟ أم من خلق الإنسان ؟ اللاهوتيون أصحاب  
البديل الأول حينما يحاولون البرهنة عليه ، إما يتخلون  
الخطوة الأولى للإلحاد ، وهي إنكار أو تشديد تلك  
البراهين . والمخرج من هذه الأشكالية هو أن الدين  
أولا وقبل كل شيء شعور وبهذا ينأى عن كل  
اعتراضات عقلانية أو عملية أو تاريخية ... لكن كلمة  
شعور لا تكفي ، فلتقدم خطوة تضادى سلبية الشعور ،  
لتجد الدين في النهاية ، ( اهتمام قصي ) ، يفصح عن  
نفسه في كل الوظائف الخلقة للروح الإنسانية<sup>(١١٩)</sup> وهو  
يعترف بأن الأطر التقليدية للدين سوف تتأثر كثيرا .  
لكنه يتساءل : هل مواجهتنا للمطلق المقدس غيرة  
محدودة فيما نسميه مادة بالدين ؟ ويقول : إجابتي هي  
بالقطع لا . قصة شيء ما مقدس في كل شخص حتى  
في المحدثين . ذلك أن ثمة طريقتين للمرور بالحيرة

P. Tillich, *Theology Of Culture*, P. 571.P. Tillich, *My Search For Absolutes*, P. 130

Ibid, P. 130

(١١٧)

(١١٨)

(١١٩)

## جـ - اللاهوتية والرمزية الدينية :

يتلخص مفهوم اللاهوتية عند تيليش في الرفض التام - حل أسس وجودية - للاله التقليدي المشخص واليحث عن رب يعلم على الرب God-Above-God بداية ، يستغل تيليش ( للمعنى الواسع للدين ) ليستخرج كل الأطراف . وعلى اساسه يؤكد للملحدين ان الاتحاد الحقيقي مستحيل ، لان اللاهوتية اقرب الى الانسان من حبس الوثنيين ، انها الافاق اللامتناهية المحيطة بعالمنا ، ولا يوجد مكان نفر منها اليه . ولن نستطيع ان ننكر اللاهوتية إنكارا مطلقا ، فقط نستبدل بها آله زائلة . مثلا : الله قاطن في السماء ، لكن الغريب حقا - بل المستحيل ان نحاول المروج اليهاكي نفر منه . وهذا ما يفعله المثاليون اللادينيون ، حين يحاولون الصعود الى سماء الكمال والصدق والعدالة ، كي يبرروا الاستغناء عن اللاهوتية ، كي يفروا منها ، ولكن الى حيث لا عين ، الى يوتوبيا . وشبيه بهذا ما فعلت الحضارة الثقافية المعاصرة في تقديمها العلمي المنطرد . كلاما يحاول الفرار من الله بان يتقدم الى الأمام أكثر ، ويقتصر آفاقا أكثر . لكن يد الله فوق ايديهم . اللاهوتية كما اخبرتنا المزامير ، وكما ادرك مارتن لوتر بقوة ، هي الحضور الدائم الأبدى يتغلغل في كل موجود ، ليكون أكثر حضورا<sup>(١٢١)</sup> .

ان القرار الزائف ليس خطأ الفارين فحسب ، بل يعود ايضا الى الفكرة التقليدية عن رب خلق الكون من العدم ثم يقتصر دوره على مراقبة البشر لعقاب الحاطثين وثابة للحسنيين ، ومن يطعمون اواسره ،

وكأنه طاغية ، او شرطي كوني Cosmic Policeman مهمته الضغط الاخلاقي وهو في الآن نفسه يمنح علينا حقن الاب على أبنائه القصر ويكفل لنا الخلود والتمتع الدائمة والسعادة النهائية . يقول تيليش : ( ليست هذه صورة حقيقية للرب ، بل بالاحرى صورة للانسان حين يحاول ان يصنع ربا في خياله ، من اجل راحته . انه نتاج خيال الانسان وتفكيره التواقي . ومن حق كل ملحد غلصن لمحيثات العقل ان ينكره . فليس هذا إله البتة ، وليس ذاتا حقيقية<sup>(١٢٢)</sup> . ولخطأ يعود الى اللاهوت التقليدي ، فقد تسربل في أحابيل المفهوم الملوكي للتوحيد Monarchic-Monoth- eism وجعل الله مجرد شخص سهاوي تام الكمال<sup>(١٢٣)</sup> . هذه الصورة المشخصة الساذجة مصدر عراقيل امام انطلاقه الفكر الديني ، وإذا امكن للدينين ان يشعروا ، فانه يمكن للملاحدة ان ينفروا ، كما سبق ان اوضح كانت . وأحسن القديس برنار انه يكرهه من نفس المنطلق الذي تتدفق منه ينباع الحب للرب الحقيقي . وثار ضده الوجوديون ، لانه مجرد الانسان من ذاتيته وفردانيته وحرية ، أعلن نيشه موته . فيقول تيليش : ( ان فردريك نيتشه ، هذا الملحد الشهير وألد أعداء الدين والمسيحية ، قد عرف عن قوى فكرة اللاهوتية ، أكثر عما يعرفه غالبية المسيحيين المؤمنين )<sup>(١٢٤)</sup> .

يؤكد تيليش ان إله العهد القديم فعلاً مات ، أو ان هذا المفهوم لللاهوتية لا بد وان ينتهي وراح يبحث عن مفهوم جديد لرب يعلم على الرب . ولعل بهذا يباعد بعض المثقفين بينه وبين كلاسيكيات المسيحية

P. Tillich, The Shaking Of The Foundations , P.44

(١٢١)

Ibid, P.42

(١٢٢)

P. Tillich, Systematic Theology, Vol. I, P.271.

(١٢٣)

Op. Cit. P.42.

(١٢٤)

المسيح ليس إلها أصبح إنسانا ، بل إنسانية جوهرية ،  
تجيب على التساؤل الوجودي المطروح ، فتظهر قوة  
الاغتراب ، قوة الموت والافادة واللامعنى ، وتفتح أمام  
الإنسان طريق المشاركة في الوجود الجليل . ومشاركة  
الإنسان حقيقية ، بيد أنها جزئية . هكذا تتكاتف  
المثالية مع الوجودية ، لتحديد الألوهية . والمهم أن  
ثمة طريقين للتفكير في الألوهية : طريقا لغير  
الاغتراب ، وطريقا للقاء غريب . وقد اختار تيليش  
الطريق الأول .<sup>(١٢٧)</sup>



ولكن تيليش أطلق لنفسه العنان وهو يفلسف  
الألوهية . وكيفها تكييفها كي يكون الإيمان بها قهرا  
للعلم الروحي الذي يحدد عصرنا بقلق الحواء  
واللامعنى ، فكان الرمي لمعظم سهام النقد التي  
وجهت له . ثار عليه اللاهوتيون والفلاسفة على  
السواء .

اللاهوتيون التقليديون قالوا أن مفهوم الرب ينبغي  
أن يملك في صلب ذاته كل حشائته ، وتيليش جعله غير  
مستقل ، بل معتمدا على وجود الوجود ، ووجود  
الإنسان .<sup>(١٢٨)</sup> وهو فعلا ينكر أية حجة على وجود الرب  
ولا يثبت دليلا إلا رضى الإنسان بتناحيه ، الذي يعني  
وعيا بلا متناه . . . برب ، ويدفع إلى شجاعة تأكيد  
الذات التي تقهر التامع والمعلم فتؤكد قوة الوجود ،  
الوجود - ذاته الرب . فرأى البعض في هذا أن تيليش  
واتباعه وإصمهم الأسقف رويسون ، إنما يواصلون  
اتجاه اقوى منظرى الإلحاد لودفيج فوير باخ  
L.Feuerbach ( ١٨٠٤ - ١٨٧٢ ) القائل أن الرب  
يعبر عليه الإنسان داخل ذاته ، في أعماق تأكيده

التقليدية ، ويقترب من الطريق الذي شقه المتصوف  
الوجودي اكهارت . وتيليش يحاور بأعجاب به ،  
ويحاول الاستشهاد بأقواله . وقد بحث اكهارت عن  
ربوبية Godness مفارقة للرب ، للثالوث المسيحي ،  
لكنه تحدث بعد هذا عن صيرورة او عملية Process  
الحقيقية ، التي تنبثق من الربوبية إلى الكلمة غير  
المنطوقة ( الاب ) ، إلى الكلمة المنطوقة ( الابن ) ،  
إلى الحب ( الروح القدس ) - أن الثالث : الاب  
والابن والروح القدس ، أو الكلمة غير المنطوقة  
والكلمة المنطوقة والحب ، يحتويه الله - ومن الحب  
( الروح القدس ) ، إلى الخلق المثالي ، إلى الخلق  
الظاهري . . . وعلى المتصوف أن يتحد بالحقيقة عبر  
نفس المراحل ، ولكن بالمعكس ، أي يبدأ من الخلق  
الظاهري .<sup>(١٢٩)</sup>

أما تيليش فهو أكثر تحريدا ومعقولة ، وذلك من  
منطلق رفض أن تكون الألوهية موضوعا ، يقبل  
الاثبات أو النفي ، ومفارقا لعالم اللوات ، الرب  
متعال على عالم الموضوعات ، وبالمثل على عالم اللوات  
يتجاوزها ، ويعمل على الثنائية القائمة بينهما ، ويبن  
النفس/العالم . أنه لا متناه ، وهذه خاصية لا يشاركه  
فيه أي موجود آخر ، لذلك فهو مستوى فائق  
للوجود ، يعمل على الوجود . أنه الوجود ذاته ، قوة  
الوجود التي تقاوم العلم ، عمقه وإساسه ، وبالتالي  
إساس وجودنا . ومنه - من الرب - نستمد شجاعة  
تأكيد - الذات على الرغم من العلم الذي يحددنا  
بصوره الثلاث .

وبهذا لا يكون الرب كينونة ثابتة ، مادية  
استاتيكية ، أنه روح حية . فيؤكد تيليش أن يسوع

E.O.'Brien, Varieties Of Mystic Experience, P. 124-125

P. Tillich, My Search For Absolutes, P.10.

H.D.Lewis, Philosophy Of Religious, CII, P.128

(١٢٤)

(١٢٥)

(١٢٦)

لذاته<sup>(١٢٦)</sup> وانتهى الى ان الانسان هو الذي خلق الرب  
او مفهوم الرب ، وليس العكس !!

ويسخر كارل بارت من رفض الالهوية التقليدية ،  
قائلا ان تيليش لا يزال يكافح ضد ( الفتش الاكبر )  
لديستوفسكي . واعترف تيليش بهذا ، بل وأكد انه  
عنصر حاسم في تفكيره . ويرد موقفه بأنه يجارب فلور  
المترنومي ، نشداناً للثيولوجي .

اما الفلاسفة فقد ازعجهم الالتباس الشديد في  
المفهوم ، والمصطلحات الدالة عليه . ففضلا عن  
الاهتمام القوي والالهوية والرب ، ثمة الوجود ذاته  
واساس الوجود وبعد الوجود وعمق الوجود ، وكلها  
مردودة الى قوة الوجود ، التي هي قوة ان يكون . ويأتي  
جاريت A.C.Garnett وهو لا يتدرج رسميا مع  
فلاسفة التحليل المنطقي ولكنه يتم جدا بمنطق اللغة  
الدينية ، وأثبت بتحليلات مسبهة ان تيليش لو كان  
ملما بأبسط مبادئ التحليل المنطقي واللغوي لأدرك ان  
حججه تستند الى فشل في فهم منطق فعل الكينونة To  
Be<sup>(١٢٧)</sup> . والحق اننا لم نلحس من تيليش اي اللام ولا  
اهتمام بمسألة المنطق وقواعده .



ولعل المهرب الوحيد لتيليش من هذه الانتقادات  
هو تأكيد ان اللغة العادية تعجز عن ان تقول اي شيء  
عن الرب حتى كلمة « مطلق » لتكفيه ، فكل ما نقول  
متزعج من مادة واقننا للمتناهي ، فكيف يعبر عن  
اللاتمتناهي ، اللهم الا بصورة مجازية اورمية ١٩ ان  
اللغة الرمزية هي فقط القادرة على التعبير عن

القضي<sup>(١٢٨)</sup> ، والعبارة غير الرمزية الوحيدة التي يمكن  
ان يقال عن الرب هي كل عبارة يمكن ان يقال عنه  
عبارة رمزية ،<sup>(١٢٩)</sup> فكان تيليش من ابرز المعبرين عن  
التفسير المجازي الرمزي للغة الدينية ، اي النظرية  
القائلة ان كل العبارات الدينية ومضمونات الكتب  
المقدسة ليست البتة تقريرات عن وقائع ، بل هي  
مجازات ، رموز في رموز ، امكانية فك طلاسمها  
مفتوحة ومتجددة دائما . وقد عمادى تيليش في هذا حتى  
وجه اليه نقد بأنه يعجز عن اعطاء اي وظيفة واضحة  
او محددة للغة الدينية<sup>(١٣٠)</sup> .

ولكن ليست اللغة فحسب . فتقريبا كل شيء ديني  
عند تيليش . هو رمزي ، حتى حلد المهمة الرسمية  
للاهوت بانها توضيح وظيفة الرموز .

والرب الذي يظهر في كل فعل من افعال الايمان ،  
هو الرمز الاساسي لاهتنا القوي ، رمز الرموز المطلق  
الشامل الحاوي لكل الرموز . وكل العقائد الدينية  
ينبغي ان تفهم على انها محض رموز له . وتيليش -  
بتعصيد من البروتستانتية - يرفض اعتبار اي شخص او  
شيء او مؤسسة - مقدسا . لاشيء مقدس سوى المطلق

الابدئي اللاتمتناهي غير المشروط . الرب . الرموز  
الدينية الاخرى كاصليب قدسية لاما تشارك في  
قدسيته ، لكن المشاركة ليست الدخول في ذات  
الموية . لذلك فهي ليست قدسية تحمل قيمتها  
ومعناها في حد ذاتها ، بل فقط من حيث هي رموز  
للحقيقة لقضية - للرب . لذلك يفرق تيليش بين

P.Edwards, Atheism, Art in: Encyclopedia For Philosophy, Vol. 1, P.186.

(١٢٦)

J.Macqurrie, 20 th Century Religious Thought, Op, Ch, P.314

(١٢٨)

P.Tillich, Dynamics Of Faith, P.41.

(١٢٩)

P.Tillich, Systematic Theology, Vol. 2., P.93.

(١٣٠)

W.P Alston, Religious Language, Art in: Encyclopedia Of Philosophy, V 6.7.P.173.

(١٣١)



يتعامل مع موضوعه مباشرة او في صورة مفهوم محدد - فقط من خلال الرمز .

والرمز لا يخلق ولا يكتسب وظيفته بآية نية متعمدة . فمن أي رحم تتخلق دلالة ؟ يقال عن رحم اللاوي الجمعي . لكن تيلش يقول عن رحم العلالة للتخيرة - تبعاً للظروف الحضارية بالفصحى ، بالرب .

هكذا نلاحظ ان الرمز الديني يميل لتقاطع - او يقف على الحدود بين الموقف الفردي والموقف الجمعي . وجرّص تيلش الدائم على هذا من أبرز النقاط التي تسجل له ، او للوجودية الدينية عموماً . لانه غالباً ما يفتل من أيدي الوجوديين للملاحدة ، او انهم يفضلون في تحقيقه حتى ولو حرصوا واهتموا بمقولة المعية والتشارك .

وأبلغ آيات نجاح تيلش في هذا ، إنما هي انطلاقته تفسيره الديني للتجربة الوجودية الفردية يخلو من الجهة الاخرى للحدود أساساً مكنياً للبناء الحضاري المروم - التيونومي . ولكن لكي يقوم اللاهوت نفسه بهذه المهمة ، فلا بد وان يخلو - بدوره - لاهوتا حضارياً .

#### د - اللاهوت الحضاري :

يمثل تيلش مع كارل بارت الطرفين القصين اللذين يحصران بينهما متغيرات اللاهوت البروتستانتية المعاصر . بارت يواصل تيار لوتر وكالفن مباشرة - ( فيقيم لاهوته على أساس مطلقية الرب ، أي انه ليس موضوعاً لمعرفتنا او لاعنائنا ، فلا ينبغي ان يطرح عقل الانسان المتناهي لاستكناه سره . الانسان على الارض والرب في السماء<sup>(١٧)</sup> مفارق ) ، لقد تعال علواً كبيراً .

مستويين للرموز الدينية : لمستوى المتعالي الفائق لواقعنا ورمزه الاساسي الرب ، والمستوى الكامن اي الذي يواجهنا داخل واقعنا التجريبي كتجسد المسيح والعائلة المقدسة والام المدراء .. وبقية الرموز . ولكن الرب ليس مجرد رمز ، انه الوجود ذاته ، اساس الوجود ، لذلك امكن لاشياء تواجهنا في الزمان والمكان ، مأخوذة من خبرة الواقع المتناهية ، كحادثة من التاريخ الديني او معجزة ، ان تكون رموزاً له . . للمقدس . ونحن نذكرها ونذكر قيمتها ومغزاها من خلال التواصل بين الله والانسان من خلال الوحي . وانها تصبح قدسية ، لكن تظل دنيوية تاريخية لافائقة للطبيعة ، لنذكرنا باننا مشدودون الى الاشياء الدنيوية المادية ، تماماً كما نتحدث عن العمق والعميق كخصائص روحية ، في حين انهما مستمدان من الابداء المكانية .

والرموز الدينية لاتظهر منفصلة ، بل مترابطة في كل واحد . ولايموزها ان تكون صادقة ، يكفي انها ذات فعالية وجودية ، أي تحتوي على قوة الرموز اليه فتستثير الوحي بقوة الوجود .

أي رمز - ديني او غير ديني - يفتح لنا مستوى من الحقيقة كان غيبواً ، والحديث غير الرمزي لايناسبه . وكل رمز له وظيفة معينة لايمكن ان يؤديها غيره ، فلا يمكن ان يحل رمز محل آخر . وهذا هو مايميز الرموز عن العلامات . والرمز الديني هو فقط لاسواء الذي

يفتح لنا المستوى الاقصى للحقيقة ، البعد اللاهوتي - أي الالوهية . لذلك فهو جوهرى جداً في التجربة الدينية الفردية . العقل حين يغوص غارها بعمق ، يحويه ماوراء العقل ، ويحتوي هو اياه . فلا يمكنه ان

استقلالها - عن الارتبوعية تماما ، وربما عن نفسها ، وهي لا يمكنها ان تتخل عن الحق والعدل والحرية والعقل باسم المطلق الديني . والحقيقة ان الدين هو الجوهر غير المشروط للحضارة ، والحضارة هي الصورة المشروطة للدين<sup>(١٣٧)</sup> .

ان تيلش يستأنف الطريق الذي شقه تلميذه شلنج ، إمام اللاهوت الليبرالي فردريش شلايرماخر F.Schleiermacher (١٧٦٨ - ١٨٣٤) والذي اعتبره ابا لللاهوت البروتستانتي الحديث والمعاصر باسمه . فاذا اخذنا في الاعتبار انه قام ليهتلف عن اللاهوت الارثوذكسي والكاثوليكي ، فلا بد وان يكون تركيبا من الله والانسان . وقد قام شلايرماخر - على حد تعبير تيلش - بهذا ( التركيب العظيم ) . وهو ، وان لم ينكر فلسفة التنوير ، لكنه بتركيبه ، انتصر عليها في قلب المجال اللاهوتي . فقد كان الدين في عصر التنوير فقط لتحقيق الامر الاخلاقي . اما في المجال المعرفي فالفصل تام بين الرب والانسان وعمله ، بحيث يتساوى الايمان والاحاد . وجاء شلايرماخر ليرفض هذا الفصل . لم يقل بوحدة الوجود الصوفية ، لكنه تمسك بمبدأ هوية الله في العالم . والمصطلح الذي استعمله للمخيرة بهذه الهوية هو الشعور . الدين ليس معرفة نظرية ، ولا مجرد فعل اخلاقي ، انه أساما شعور بالاعتقاد المطلق حل غير المشروط - على الرب . والشعور ليس البتة عاطفة شخصية ، انه حدى بالكلية غير المحدود ، ويضغوه على عتق أساس الوجود . هكذا - قدم شلايرماخر للمفكرين التنويريين الذين يتكروون الدين ، فلسفة تحلق لها جديدا للدين ، يقوم على ان كل لاهوت لابد ان يجيب بطريقة أو بأخرى

المسيحية ليست لها اية أسس عقلانية ، ولا ينبغي ان يكون - الوحي يحمل في ذاته كل حقيته ، فيرفض بارت أي دفاع عن الوحي وأي اثبات أو تبرير له بأسايد انسانية حضارية . اللاهوت لاهوت الكنيسة فقط ، فليدخلها من يريد الحقيقة ويمارس الطقوس الدينية التي لن يفهمها الا المؤمنون . بهذا فقط تدخل الروح المقدسة في النفس الانسانية . هذه هي الصورة التي خلدها بارت لاعادة صياغة واحياء المسيحية ، والتي ينبغي ان تكفل بها البروتستانتية . لذلك يمثل أحفاد مهاجري اللاهوتات الليبرالية التي تفسر الوحي تبعا لمصالح الانسان وحضارته . انها تلك الحركة البروتستانتية التي تفجرت في القرن التاسع عشر . بل ومنذ ايام كانط أصبحت الحضارة هي معيار صدق العقيدة ، وباتت مهمة اللاهوتيين الليبراليين ( الاحرار ) هي الدفاع عن العقيدة بمصطلحات الحضارة ، ولي حيلدها . وتلك سخرية ، نتيجتها مسيحية الحاضر الراهنة وتقلص نفوذها . وعلى هذا يؤكد بارت ان اللاهوت ينبغي ان يقف في مواجهة الحضارة العلمانية ولا يتعامل معها إطلافا<sup>(١٣٨)</sup> .

ويمثل تيلش الرفض اتمام هذا التقابل بين اللاهوت والحضارة ، ويؤكد ان فلسفته للدين معنية اولا بالعلاقة بينهما ، والتي ينبغي تحديدها على أساس كليهما . الدين لا يمكنه ان يهجر للطق - الالوهية ، ولن يسمح لنفسه ان يصبح مجرد منطقة مغلقة داخل الحضارة ، او ان يتخذ موقعا بجانبها . وهذا ما حاولته الحضارة الليبرالية ليصبح الدين نافلة مستندثر يوما ما ، لان بنية الحضارة مكتملة بدونه . ان الحضارة بدورها قد ترى انها لن تستسلم للدين بشئ ان تتخل عن

P. Macquarrie & E. L. Mac Green (ed) *Master pieces Of World Philosophy* P. 1159-1160.  
P. Tillich, *On The Boundary*, P. 69-71.

(١٣٧)

(١٣٨)

تلمخصها كلمتا القديس بولس ( الوجود الجديد ) صورة جنيدة لحضارة الانسان<sup>(١٣٦)</sup> . ولم يعتبر تيلش الوعظ مهمة استراتيجة وكان قليل بل عديم الاهتمام بالدعوة المستهلكة الى الوصايا العشر . وبالإطلاع على مواظبه نلقاه لا يلجأ البتة الى الوعد والوعيد بالجنة والنار فهذه الأساليب لم تعد تجدي كمدخل للتجربة الدينية في عصرنا هذا . للدخل الحقيقي الفعال هو التجربة الوجودية ، بل ولم يحتن بالمشاكل التقليدية لللاهوت المسيحي . وفي كتابه ( الموقف الديني ) سنة ١٩٢٩ ) أعلن انه لا يدافع عن أي مضمون محدد للوحي ، كالتجسيد والعشاء الرباني .. بل يدافع عن العقيدة المسيحية في تفسيرها الصحيح كعلامة أبدية بين الله والانسان ، متضمنة دوما في أوجه الحضارة .

وليس الدين سرا ملغزا لا شأن للعقل به كما رأى بارت ، ولا هو في حاجة الى التباينات المجردة التي اعنت الكاثوليكية في إثقال كاهله بها . وليس ثمة لغة قدسية هبطت من سواوات علوية ، ووضعت بين خلافي كتاب . اللغة الدينية لغة عادية ، تتغير تبعا للقرى التي تعبر عنها ،<sup>(١٣٧)</sup> فيمكن ان يفهم الدين جدا ، ولكن في إطار التاريخ والحضارة الانسانية . تماما كما أنها يمكن ان يفهم من زاوية دينية .



وعلى هذا الأساس قام ( اللاهوت النسقي ) لتيلش ، ليؤكد أن ثمة عدة وجوه للتأجيل ، كل وجه يلائم عصرًا من العصور . ومصادر اللاهوت النسقي ثلاثة : الانجيل وهو طبعاً المصدر الأساسي ، والتقليد ، وتاريخ الدين والحضارة . ولكن ما هو

على السؤال الذي يطرحه العقل الانساني في كل مرحلة حضارية<sup>(١٣٨)</sup> . وقدم ايضا الطريق الذي يسير فيه تيلش ، كما هو واضح .

وتيلش يوقوف على الحدود بين الدين والحضارة ، بين الموقف الفردي والجمعي ، يؤكد كما أكد القديس ارغسطين ان المجتمعات تشكلت على اساس ولائها القصي لموضوع ما للحب المشترك يؤكد ان الاهتمام القصي ، لا يشكل تجربة الفرد فحسب ، بل وايضا المجتمع ، فيحد القيمة والمصير لكل أمة او جيل ويتغلغل في كل منتجات الحضارة خصوصا الفن ، ويعطيا طابعها الفريد ، لذلك لا بد وان يحلل اللاهوتيون هذه المنتجات لكي يصفوها بالصحيح على العقيدة في كل موقف حضاري . وفهم للموقف الحضاري بدوره يستلزم قبلا معطيات قيمة وترجمات وجودية . انه اذن دائرة مغلقة تبدأ من العقيدة الدينية وتنتهي اليها .

يتوغل تيلش في اللاهوت الحضاري ، مستندا الى التمييز بين الدين كعقيدة تمثل تجربة وجودية عميقة وتصلح أساسا لبناء الحضاري ، وبين الدين بممارسته الضرورية وطوقه الشككية التي أعلن انها غير ذات أهمية إطلاقا . او بتعبيره اللاذع « الحثان او عدم الحثان ، ليس هو المشكلة » ولن يمثل حجة للمسيحية - في مواجهة الأديان الكبرى الأخرى او العلمانية والثالية الاخلاقية - ان طوقسها أبسط او شعائرها أفضل ، خصوصا وان العلمانية والثالية وما اليها سوف تنهيه بانها متحررة اصلا من الطوقوس وايضا الخزعبلات ، مجد المسيحية في بساطتها التي

P. Tillich, A History of Christian Thought, P. 387 ff.

P. Tillich, The New Being, P. 16-17

P. Tillich, Theology of Culture, P. 48.

(١٣٥)

(١٣٦)

(١٣٧)

الغفور الرحيم ، وصاغت لاهوتاً يجعل الانجيل ييب  
الانسان الخلاص وطريق التوبة والغفران . وتفاقم  
الامر حتى انتهى بصياغة صكوك الغفران !!

ثم ظهر العصر الحديث بسقوط الحكم  
الاستبدادي ، وعلو الليبرالية والديمقراطية ، ثم نشأة  
الحضارة التقنية . ان ماحدث انتصار للانسان على  
القوى المخالفة السياسية والطبيعية معا ، فتراجع قلق  
الموت . ولما كان الانتصار للانسان لاهليه فقد اكسبه  
ثقة بنفسه ويبلوغه سن الرشد ، فتراجع ايضا القلق  
الاخلاقي ، وصار العلم الروحي هو المسيطر .  
والسؤال الوجودي لعصرنا ، والذي يشكل معيارنا  
لصياغة اللاهوت من مصادره الثلاثة انما هو من  
تأكيد - الذات على الرغم من الخواء واللامعنى .  
والاجابة التي نخرج بها من الانجيل هي انه يعطينا  
الامان ويدراً هنا العلم الروحي الذي يهدنا حين  
يمنحنا فرصة المشاركة في القوة اللامتناهية للوجود -  
ذاته ، الرب ، عن طريق الايمان به . هذه هي اجابة  
الانجيل عن سؤالنا المعاصر . (وهي لاتلغي إجابتي  
المرحلتين السابقتين ، ولا تحل عليهما) . (١٤٠)

ويسهولة يمكن ملاحظة كيف ان روح التثليث  
المسيحي قد شغبت هذه النظرة ، سواء بوعي او بدون  
وهي من صاحبها . فاللاهوت ثلاثي المصادر ،  
يتصدى لثلاثة أسئلة ، ليعطي ثلاث إجابات ملائمة  
لثلاث مراحل حضارية ، هانت أمخاطا ثلاثة من  
القلق ... لكن تيليش أسبر المشروع التقائي الغربي ،  
أطر الحضارة الغربية هي القضايا الحديديّة التي يصب  
فيها فكره ، اللاهوتي والقيسني على السواء !



معيان Norm الانتباه الى هذه المصادر ، والاخذ منها ؟  
المعيار هو التساؤل الوجودي الذي تطرحه طبيعة  
الحضارة في مرحلتها التاريخية للمينة . (١٣٨) فقد ساد في  
نهاية الحضارة القديمة القلق الانطيطي ، وفي نهاية  
العصور الوسطى ساد القلق الاخلاقي ، اما في العصر  
الحديث فيسود القلق الروحي . وسيادة غلط يحدد  
المعيار اللاهوتي لا يفي ان النمطين الآخرين حاضران  
ومؤثران كما سبق ان اوضحنا . (١٣٩)

شهدت نهاية العصور القديمة صراع  
الامبراطوريات : غزو الاسكندر للشرق ، الحروب  
بين اثابيه وقادته ، غزو روما للشرق والغرب ، تحوّلها  
لامبراطورية على يد قيصر ، طغيان الاباطرة ، انهيار  
المدينة المستقلة ، والدولة القومية .... وتلاشى  
البقية الباقية من الهي الهي الارستقراطية - الديمقراطية  
للمجتمع . ساد الفرد شعور بان مصيره في يد قوة  
سياسية او طبيعية هائجة لايرتكن اليها ، سيطر القلق  
الانطيطي ، وصار التساؤل الملح عن المصير والموت .  
فكانت الكنيسة القديمة مشغولة بالمثل وصاغت لاهوتاً  
يجعل الانجيل ييب الانسان الخلود ، ولاسيا من  
خلال المشاركة في ماهية المسيح .

لقد كان التأثير الحاسم للرسالات السبورية في  
العصور الوسطى هو تقاليم والتخاذا رمز القلق  
الاخلاقي ، هو غضب الرب ويطشه وعقابه الرهيب .  
فكانت مظاهر الحياة الدينية التي طبعها العصر كالحج  
والاستغفار والولاء للايقونات ... من اجل نوال الرحمة  
الالهية ومغفرة الذنوب . فكانت الكنيسة مشغولة  
بالاجابة عن تساؤل الذنب والادانة ، بالخطيئة وبالاله

P.Tillich, Systematic Theology, Vol. 1, P.34 ff.

P.Tillich, The Courage To Be, P.37.

W.Nicolas, Systematic And Philosophical Theology, Op. Cit. P.236.

(١٣٨)

(١٣٩)

(١٤٠)

بين الديانات المختلفة فالمسيحية نفسها لم تجلد موقفها حيال الأديان الأخرى، ولا ألفتها جميعا. أنبياء اليهود اعتبروا الله الديانة الوثنية مجرد قوى أدنى من (يهودا) خصوصا فيما يتعلق بالتنبؤ بالمستقبل وتحديدته والاستجابة إلى الصلوات ونشر العدالة. الآلهة الأخرى حقائق منافسة، ويوه له القوة العليا. ثم كان يسوع ليؤكد مطلقه الرب، وأنه الوجود الفريد الذي لا يقارن ولا ينافس. ومع المسيحية المبكرة كان الحكم على الأديان الأخرى تجلده فكرة اللوجوس اليوناني (العقل / الكلمة) الذي هو كائن في معظم الأديان الأخرى<sup>(١١٦)</sup>

كل هذه الحقائق المعروفة جيدا، والتي تعنى العالمية الملله للمسيحية، ينبغي أن نأخذها الآن في الاعتبار ونحن ننظر في المواجهة بين المسيحية والأديان الأخرى لنذكر أن المسيحية لم تنظر للدلائل أبدا بوصفها الديانة التي تستبعد تماما أو تنكر إنكارا بوضوحها الديانة الأخرى، أنها لم تفقد تميزها وتفعل هذا إلا بعد النجاح المذهل السريع للإسلام، وارتفاع لدول من المسيحية، أهمها مصر. إنه محصلة لأول مواجهة للمسيحية مع ديانة جديدة للعالم والحملات الصليبية أقوى تمييز عن هذه الخاصية غير العقلانية والاستحواذية التي اكتسبتها المسيحية تحت تأثير نجاح الإسلام، وهي في الوقت نفسه أقوى دليل على أن المسيحية كانت محاروب حكما سياسيا قويا واستبصارا دينيا عميقا<sup>(١١٧)</sup>.

إن مشكلة المسيحية في مواجهة من يرفضونها وتمسكون بديانات أخرى ليست حتى الرفض، بل

فهل يشفع له أن تعامله المرن مع اللاهوت مكته من العناية بالحوار بين الديانات المختلفة على أساس أنها جميعا تملك عنصرا مشتركا يمثل في أن الألوهية هي الاهتمام القصي، وكأنه يواصل حلم أو مشروع ابن عربي، بوحدة الأديان؟ ربما كان يدفعه من أعماقه شعور محض بأن الحرب العالمية حدثت بسبب من غماء وتعاظم النزعة القومية، مما جعله يحلم دائما بمجتمع يضم البشر أجمعين.

يقول تيليش «حوار، لا مواجهة فلا ينبغي أن تنافس الأديان الكبرى بعضها، بل عليها أن تلتقي معا من أجل مواجهة التحدي الحقيقي وهو أشياء الديانات المعاصرة من قبل النزعة الانسانية الليبرالية والنزعة القومية والشيوعية والفاشية والنازية والعلمية المتطرفة». الخ وتيليش يقول عنها أشباه Quasi ديانات وليس ديانات زائفة Pseudo لأنها تحمل تماثلا مع الدين من حيث قوة استحواذ الاهتمام القصي، على الشخص، ولقد قد يدفعه لتكريس الحياة، وربما بذلها. إن الدين لن ينتهي أبدا، والهجوم الحقيقي عليه من هؤلاء. فلتتحد الأديان معا من أجل السؤال المطروح عن مستقبل الدين في مواجهة انتصار العلمانية الاوثنومية، الذي عم وساد في معظم أنحاء العالم الآن.

يقول تيليش صراحة: (إننا نسيء إلى يسوع حين نفر بأنه مؤسس ديانة جديدة أو آت بشيء آخر أنقى واصفى)<sup>(١١٨)</sup> لم يكن يبحث إلا عن الوجود الجليد. والمسيحية بغير أن تفقد أسسها التاريخية يمكنها استيعاب الكثير من العناصر في الجهود الفلسفية القديمة للتوفيق

F.Tillich, The Shaking Of The Foundation, P.99

F.Tillich, Christianity, And The Encounter Of The World-Religions, P.31-32. Ibid, P.38.

(١١٦)

(١١٧)

(١١٨)

طبيعته. فإذا كان رفضاً شاملاً فهو خطأ لأنه لا يجعل أرضية مشتركة تكفل قبولاً أو رفضاً. أما إذا كان رفضاً لاجزاء وقبولاً لاجزاء، فهذا موقف أكثر تسامحاً، لكنه أسلوب تجزئي لا يناسب الحكم على الدين، ولا حتى على الفلسفة. أما أسلوب الرفض الثالث فهو مركب جدلي من الرفض والقبول. وهذا هو الموقف الذي ينبغي التمسك به، لأنه يمكن أن يخلق أرضية مشتركة بين الديانات المختلفة<sup>(١١٦)</sup>



يبقى أخيراً المحك وأية الانقباض، يبقى المنهج. والواقع أن تيليش أضفى النسيطة على لاهوته، فغلبت اللاهوت المسيحي عموماً وأثراه، حين قدم منهجه الفريد، منهج التضائيف Method of Correlation الذي يجعل سمة تيليش المميزة، فيحلو له أحياناً أن يسمى لاهوته (لاهوت التضائيف).

ومنهج التضائيف - بحكم طبيعة المنهج - الاطار لكل ما سبق. إنه تبرير وتعميق اللاهوت بأن تضائيفه إلى الموقفين الفردي والحضاري. وقد كانت وظيفة الكنيسة دائماً هي الاجابة عن التساؤلات المتضمنة في كل وجود إنساني. فلا بد وأن يستغل اللاهوت المادة الضخمة والمعقدة لتحليل الوجودي في كافة المجالات الحضارية، وهو لا يستطيع أن يقلبها ببساطة. فكيف إذن؟ الكيفية أو المنهج هو (أن يأخذ بيمناه تحليلات الموقف الوجودي ويسيره رسالة الوحي المسيحي، ويضائيف الاسئلة المتضمنة في الأولى على الإجابات المتضمنة في الثانية)<sup>(١١٧)</sup> أي يواجه التحليل الوجودي بالرموز التي عبرت بها المسيحية عن الاهتمام القصي. وهذا هو المنهج اللاملم لكل من رسالة يسوع وللأزق

الإنساني كما تكشف في الحضارة المعاصرة. والبروتستانتية بما تنطوي عليه من نزعة نقدية ورفض التبعية المطلقة للسلطات الدينية أمر جيد لكن لا بد لها من البعد البنائي من الوجود في قلب التوتر، ظل الحدود بين البنائي والتصويبي<sup>(١١٨)</sup> وحين نجعل من العقيدة إجابات عن أسئلة الوجود الإنساني في مرحلته التاريخية المعينة، فسوف يتحقق البعدان التصويبي والبنائي، وسوف يتعين على اللاهوت أن يتواجد في توترات حقائق الوحي مع الموقف الوجودي والحضاري للإنسان.

والاجابة اللاهوتية ليست مشتقة من التساؤل الوجودي، لأن الفلسفة الوجودية لا تمنحني أبداً أية إجابة بل تحدد شكلها فقط. والسؤال لا يحدد الإجابة بأكثر مما تحدد الإجابة السؤال. الإثنان متضائيفان التضائيف أساس فلسفي عام، حتى إن الوحي هو التضائيف بين العقل وبين أساس الوجود - الألوهية.

من الواضح أن التضائيف هو منهج الربط بين اللاهوت والحضارة، على الأسس الوجودية. وينظره أعمق نلاحظ أنه منهج الربط بين المقاطعات الشاسعة، التي أراد تيليش أن يقف على الحدود بينها. فهل تراه استطاع؟

#### - أخيراً:

على الرغم من أن تيليش يميل، كدأب الألمان، إلى نحت مصطلحات جديدة، مما يضفي على كتاباته صعوبة ما بالنسبة للقارئ العادي، فإنها تتميز

Ibid, P.29-30.

P.Tillich, Systematic Theology, Vol. I., P.8

P.Tillich, The protestant Era, P.208.

(١١٦)

(١١٧)

(١١٨)

## ٣ - القرار الاشتراكي

Die Sozialistische Entscheidung, Potsdam, 1933  
في هذا الكتاب يوضح تيلش لماذا تقبل للمذهب الاشتراكي بصورته الفلسفية. فهو يجري فيها جليداً عن طريق المفاخرة بأقوال المسيح، وتبيان المنصر النبوي والتضمنات الدينية للفلسفة الماركسية، وهذا ما تكرر كثيراً في أعمال تيلش بعد ذلك.

## ٤ - (الموقف الديني)

The Religious Situation, New York, 1932.  
أشهر أعمال تيلش، وأكثرها تعبيراً عن فلسفته ككل وإجمالاً لخطوطها العامة وهو أصلاً مجموعة مقالات والكتاب صدر في ألمانيا عام ١٩٢٨، ثم ترجمه راينولد نيورا ليصدر في نيويورك قبل هجرة تيلش إليها.

## ٥ - (تأويل التاريخ)

The Interpretation Of History, 1936.  
وهو أيضاً صدر في ألمانيا. ثم قام رازيتسكي N. A. Razetiski وثاني E. A. Talmey بترجمته ليصدر في نيويورك وهو يقدم التفسير الوجودي للتاريخ من زاوية الاشتراكية الدينية الألمانية.

## ٦ - (يوميات ترحالي) خواطر عامة، لاهوتية وفلسفية

## ٧ - (الحقبة البروتستانتية)، The Protestant Era,

مجموعة مقالات. ويعد صدورها بالألمانية بمشرين عاماً، اختارها وجمعها وترجمها إلى الإنجليزية جيمس لوتر آدمز J. L. Adams لتدور حول تعهد الخطأ في الحضارة المسيحية وهل البروتستانتية تحتاج إلى بحث

بسلسلة أخاذة وعدوبة أسرة وصلحق حميم متوهج ومتنصر في أن واحد، يجلب مجاميع قلب الفاردي. لذا حازت أعماله الكثيرة على شهرة عريضة وانتشرت انتشاراً واسماً، حتى بين أوساط غير المؤمنين لا بالمسائل الدينية ولا بالمسائل الفلسفية، وكان لها تأثيرها الكبير على الفكر والثقافة في العالم المتحدث بالإنجليزية، أكثر من تأثيرها على العالم الألماني. لقد كتب المقالات والكتب في المرحلة الأولى من حياته حتى عام ١٩٣٣ بالألمانية. ولما هاجر إلى الولايات المتحدة كتب بالإنجليزية كما أن معظم أعماله الهامة ترجمت إلى الإنجليزية، وسوف نشر إلى ذلك تفصيلاً فيما يلي:

## أولاً: الكتب (★) :-

## ١ - Das System der Wissenschaften nach gegen-standen und Methoden: Ein Entwurf, 1923—

«نسق العلوم تبعاً لموضوعاتها ومناهجها: مشروع أو تخطيط عام لتطوير مفهوم واضح للعلاقة المنطقية بين اللاهوت والفلسفة، (العلوم) هنا مقصود بها علوم اللاهوت والفلسفة.»

## ٢ - (التحقيق الديني).

Religio se Verwirklichung, Berlin, 1929.

هذا الكتاب أول أعماله اللاهوتية الضخمة وهو أصلاً مجموعة مقالات. وتحقيق البروتستانتية بالذات هو ما أوحى له بهذا العنوان. والحق أن الكتاب لاهوتي، لكن يتطرق أيضاً للمسائل السياسية. وفيه استعمل لأول مرة التعبير «على الحدود»، إذ كتب يقول: على الحدود أفضل موقع لاكتساب المعرفة وسرعان ما أدرك أن هذا التعبير غير ما يدل على موقفه جملة وتفصيلاً، إنه رمز لحياة تيلش وفلسفته وآرائه... الخ، ككل وكأجزاء.

Vol.I: Reason And Revelation, Being And God, 1951—

### ج ٢ الوجود والمسيح

Vol.II: Existence And The Christ, 1957.

### ج ٣ الحياة والروح، التاريخ ومملكة الرب .

Vol.IYI: Life And The Spirit, History And The Kingdom Of God, 1963

### ١٢ - (الآن الأزلي)

The Eternal Now, 1952.

تحليل عميق للموقف الديني، يقتحم أعماق أغوار معضلة الإنسان المعاصر، لكي يمنحه في النهاية الحضور الدائم للأبدية الألوهية، كحل ناجح للمعضلة.

### ١٣ - (شجاعة الكينونة)

The Courage To Be, 1952.

هو أصلاً مجموعة محاضرات (حيفور) يعمل تحليلاً وجودياً عميقاً للموقف الروحي للإنسان المعاصر، يثبت مدى احتياجه للدين. وهو أهم أعمال تيليش بالنسبة للمعنيين بالفلسفة، ويخصرنا الوجودية إنه على وجه التحديد حجر الزاوية ونقطة الالتقاء التيليشية بين الفلسفة الوجودية والإيمان بالدين.

### ١٤ - (الحب والقوة والعدالة)

Love, Power, Justice, 1955

- هذه المفاهيم الثلاثة يتبهرها تيليش جذرية أساسية لا يمكن تفادياً في كل منقط من منقطات اللاهوت والفلسفة على السواء. الكتاب يحدد فلسفة الانطولوجيا لتيليش. وله ترجمة عربية مذكورة.

Biblical Religion And The Search For

Ultimate Reality, 1955

وإعادة صياغة، أم أن الحقبة البروتستانتية ستتجه إلى غير رجعة.

### ٨ - (زعزعة الأسس)

The Shaking Of The Foundation, 1948.

وهو أصلاً مجموعة مواظ. لذا يأتي بلغة بسيطة يفهمها الجميع، بعيدة عن المصطلحات الفنية والتعابير المركبة والصياغات النسيقية المعقدة، ليوضح التضمنات العملية الوجودية لللاهوت. وتستغل - خصوصاً في الفصل الأول الذي يحمل نفس العنوان - الظروف المتساوية التي خلفتها الحرب، ليطور ويخرج الصياغة النهائية للتساؤلات الوجودية والحضارية الملحة.

### ٩ - (الوجود الجديد)

The New Being, 1955

مجموعة مواظ كذلك، بلغة مبسطة. يقدم الأجوبة عن التساؤلات التي صاغها في (زعزعة الأسس)، بحيث يمكن اعتباره جزءاً ثانياً له

### ١٠ - (الأخلاقيات وما وراءها) طبعها الاخلاق النيوغوية .

Morality And Beyond

### ١١ - (اللاهوت النسفي) .

Systematic Theology

أصبح أهم أعماله - وأهمها على وجه الإطلاق. فهو معالجة فلسفية دقيقة لمسائل اللاهوت والاعتقاد. يقع في ثلاثة أجزاء. الجزء الأول بالذات له أهمية خاصة، لأن تيليش يطرح فيه تخطيط النسق ككل، ويحدد مقولاته الأساسية، ويطور منهجه - متبع التضاليف. الأجزاء الثلاثة كالآتي:

ج ١ العقل والوحي، الكينونة والرب .



العقلي، فكان لابد وأن يكون عنوانه هذا التعبير الأثير لتيلش.

٢٠ - (بحث عن المطلقيات)

My Search For Absolutes, 1967.

الجزء الأول منه سيرة ذاتية لحياته. وبقية أجزائه مناقشة لقضية المطلق والنسبي في مجالات الحقيقة والأخلاق والدين. والكتاب مزود برسوم سيرالية وكاريكاتورية بريشة سول شتاينبرج Saul Steinberg، ومقدمة توضح أوجه التلاقي بين فكر تيلش وفن شتاينبرج، خصوصاً في تصورهما للمطلق أو بحثهما عنه، يلتفت نظرنا رسم ص ٥٩ الذي يصور الواقع كواقع سيزيف كما يروي حجر متدحرج، وفي مقابله المطلق في صورة نصف دائرة لانهاية، تحوي بداخلها الهرم المصري الخالد ويجواره التخلية المصرية الرشيقية. إنه يتربس في وجدان كل مكان من العالم المتحضر: مصر بحضارتها الفرعونية العظيمة رمزا رامزا لبداية وغاية المطلق الذي استطاع الإنسان أن يصل إليه. وقد تكرر رمز الهرم والتخلية في رسوم أخرى.

٢١ - وتاريخ الفكر المسيحي، منذ أصوله اليهودية واليونانية وحتى الوجودية، A History of Christian Thought: From Its Judae And Hellenistic Origins To Existentialism, 1967.

- مرجع ضخم وممتاز للباحثين. فهو كتاب مدرسي أو أكاديمي بالمعنى الحرفي للكلمة، حتى أنه مزود بأشلة وإجاباتها التوضيحية. يقدم مسحا شاملا لتاريخ الفكر الأوربي من الزاوية اللاهوتية. وهو أصلا محاضرات لتيلش أعدتها للنشر في كتاب س. إ. براتن C. E. Braaten

Braaten

- (الدين الإنجيلي والبحث عن الحقيقة القصية) يحدد من الإنجيل الدعائي المطروحة فيه، ذات الصلة الوثيقة بمبحث الأنطولوجيا.

١٦ - (ديناميكيات الإيمان)

Dynamics Of Faith, 1957

كتاب صغير الحجم كبير المضمون يجيب عن تساؤلات حول: ما هو الإيمان، صدق الإيمان ما الذي لا يكونه الإيمان: أي ما الذي يفسده ويشوهه، رموز الإيمان، أمشاط الإيمان، صدق الإيمان، حياة الإيمان

١٧ - (لاهوت الحضارة)

Theology Of Culture, 1959.

مجموعة مقالات، تدور حول فعوى وجوه فكر تيلش - أي الصلة الوثيقة بين الوحي والدين وبين أوجه الحضارة - اختارها وأعدتها للنشر في صورة كتاب ر. س. كيمبل R. C. Kimball

١٨ - والمسيحية ومواجهة ديانات العالم Christianity And The Encounter of The World Religions 1964.

- حصيلة دعوة تلقاها لإلقاء محاضرات في اليابان. حول هذا الموضوع، والمحاضرات أو الكتاب في حقيقة الأمر درس عميق في أصول وحيثيات وفلسفة التسامح الديني. إنه الإنجاز الذي أنجزه تيلش وحضارنا المعاصرة فعلا في أمس الحاجة إليه، وإن كان تيلش شخصيا لم يلتفت لهذا، وكان تحديد نقطة الالتقاء التي ينبغي أن تجتمع فيها كل الأديان في العالم أمر يسير. وبعد وفاته عام ١٩٦٥م، نشرت له الكتب الآتية:

١٩ - (على الحدود)

On The Boundary, 1966.

السيرة العقلية الذاتية لتيلش، يوضح فيها تطوره



## ثانياً: المفاالات:

يوضح تيليش في هله المقالة نظرية (الكتلة الديناميكية) أي ذات القوة المؤثرة، التي استوحاها من أجواء البحر. المهم أن نلاحظ التورية التي يجعلها مصطلح (الكتلة) بالألمانية die Masse وبالانجليزية mass فهي تعني الكتلة بمعنى فيزيائي أي قطعة المادة، أو بتعبير أدق مقدار ما يحتويه الجسم من مادة، ويعني أيضاً الجماهير وهذا هو المعنى المقصود. وعلى وجه التحديد كمقابل للصغيرة أو الإنجليزيسا Intelligentsia فالقال مناقشة فلسفية للعلاقة بين الشخصية الفردانية وكتلة الجماهير، من النواحي السياسية، وأيضاً الوجودية.

Grundlinien des religiösen Sozialismus: Ein systematischer Entwurf, Blätter für religiösen Sozialismus, Berlin, IV. No. 8110 — 1923.

- (مبادئ الاشتراكية الدينية: مشروع نسقي) وكما هو مذكور منشورة في مجلة «أوراق من أجل اشتراكية دينية» التي كانت تصدرها حركة الاشتراكية الدينية القديمة، في ألمانيا. والمقال يعمل تحطيطاً عاماً لتصور تيليش للاشتراكية الدينية.

Das Problem der Macht: Versuch einer philosophischen Grundlegung, Neue Blätter für den Sozialismus, Potsdam. Alfred Protte, 1933.

- (مشكلة القوة: محاولة تأسيس فلسفي)، وهي في مجلة «أوراق جديدة للاشتراكية» التي أصدرها تيليش مع زملائه الشباب. وهو في هذا المقال لا يتخذ الموقف الاشتراكي العادي المناهض للبرجوازية بل يحاول أن يفك على الحدود بينها وبين البروليتاريا، فإساء فهمه كثير من الاشتراكيين، حتى من هم من أنخلص أصدقائه.

لما بالنسبة للاهوت، فالقالات الألمانية الهامة هي:

يقول تيليش إن متطلبات الواقع تجعل عمله أساساً في صورة مقالات. وبعض كتبه - كما أشرنا - لجميع المقالات. إنها كثيرة تفوق الحصر. لكن المقالات الآتية لها أهمية خاصة:

1 - Logos und Mythos der Technik, Logos (Tübingen), XVI, No. 3 (November, 1927).

- (لوجوس التقنية وأسطورتها).

اللوجوس يرمز إلى الجوانب العقلانية أو الحاضرة للعقل في الحضارة التقنية، أما الأسطورة فترمز إلى ما يفوق أو ينقض العقل فيها.

2 - Die Technische Stadt als Symbol, Dresdner Neueste, Nachrichten, No. 115, 17 May, 1928. - (المدينة التقنية بوصفها رمزاً)

هاتان المقالتان الألمانيان - أي المبكرتان - توضحان كيف أعطى المدينة حق قدرها - فوقف على الحدود بينها وبين الطبيعة، ولم يفقه حب الأعمرة أو يعم أبصاره عن منجزات الحضارة الحديثة التي تبلورها المدينة. وبالنسبة للاشتراكية الدينية:

3 - Masse Und Geist: studen zur Philosophie der Masse, Volk und Geist, No. 1.

Berlin/ Frankfurt a. M.; Verlag der Arbeitsgemein — Schaft, 1922.

- (الكتلة والروح: دراسة في فلسفة الكتلة، وهي المقالة الأولى من كتاب «الشعب والروح»، الصادر عن دار نشر العمل الجماهيري.

والكنيسة في باطنها. وكان هدفه أن يجلب حركة المسيحية الإنسانية المنشقة عن الكنيسة أو الكائنة خارجها.

ويمكن ملاحظة أنه في المرحلة الأولى من حياته - في وطنه ألمانيا - كان أكثر اهتماما بالاشتراكية وبعد أن هاجر إلى أمريكا أصبح أكثر اهتماما بالوجودية. لكنه دائما اشتراكي ووجودي معا، ومن قبل ومن بعد لاهوتي بروتستانتي. أو لم نره (ص ٤٠) يبرد تراجع البروتستانتية عن الأراضي الوجودية بضغط وتأثير الليبرالية الرأسمالية، التي هي على وجه الدقة الحضارة الأوتونومية؟

ولاهية الرمز في فلسفة تيلش اللاهوتية، فإن أهم مقالاته التي كتبها بالإنجليزية، هما الغتانان:

The Religious Symbol, in Journal of Liberal Religion, Vol. 2. No. I. Summer 1940., pp. 13 : 33.

Theology and Symbolism, in F. B Johnson - ١٢ (ed), Religious Symbolism, New York, 1955.  
- اللاهوت والرمزية (مساهمة تيلش في هذا الكتاب: الرمزية الدينية)

هذا بخلاف العديد الحجم من المآلات الصحفية السريعة في المجلات والجرالد اليومية، والمحاضرات في الجامعات العلمية. هل أن هذا الكم الهائل من الأعمال لا يوازئ نفس الكم في مضمون فلسفة تيلش. نبغض كنه تلخيص أو تبسيط للبعض الآخر، أو بالكثير دخول من زاوية أخرى، ولك أن تتوقع نفس المضمون تقريبا في الغالبية العظمى من هذه الأعمال، حتى أن (اللاهوت النسقي) يعني عن ثلاثة أرباعها. لا يملك نملة فقد ظل محتفظا باقتاده حتى آخر لحظة في حياته.

٦ - Rechtfertigung Und Zweifel, Vorträge die theologischen konferenz zu Giessen, 39 Tage. Gissen: Alfred Topelmann, 1924.

(التبرير والشك)

يقارن فيها بين الشك والخطيئة، كلاهما متأصل في الطبيعة الإنسانية. وكما أن غفران الخطيئة متأصل في المسيحية، فلا بد وأن يكون الأمر كذلك بالنسبة للشك.

٧ - Religionsphilosophie, Lehrbuch der Philosophie, ed. Max Dessor, Vol 2: Die Philosophie in ihren Einzelgebieten. Berlin, Ullstein, 1925.

- (فلسفة الدين)، فصل من كتاب فلسفي ضخم، وضع بهدف التدريس.

٨ - Die Idee der Offenbarung, Zeitschrift für theologie und kirche (tubingen, N.F, VIII, No. 6. (1927).

- (فكرة الوحي)

يقول فيها إن المسألة متناقضة ظاهريا، لكنها تماما مثل فكرة غفران الخطيئة.

٩ - Protestantismus als Kritik und Gestaltung. Darmstadt: Otto Reichl, 1929.

- (البروتستانتية بوصفها نقدا وبناء)

المقال فصل من كتاب اشترك فيه مع آخرين، لبحث إمكانية تحقيق البروتستانتية.

١٠ - Kirche Und humanistische Gesellschaft, Neuverk (Kassel), XIII, No. 1. (April - May 1931).

- (الكنيسة والمجتمع الإنساني).

يناقش العلاقة بينهما، ويبرز بين الكنيسة المعلن عنها،

Supplementary BibliographyWorks On Tillich

- Adams, I. L., *Paul Tillich's Philosophy Of Culture, Science And Religion*, Harper Row, New York, 1965.
- Kegley, c W. Bretall, R. W., *The Theology Of Paul Tillich*, New York 1952.
- Kelsey, D.H., *The Fabric Of Paul Tillich's Theology*. 1964.
- Lyons, I.R., (ed), *The Intellectual Legacy Of Paul Tillich*, Detroit, 1969
- Rhelm, C., *Paul Tillich: Philosophy And Theology*, 1967.
- R.W.L., *Religious Symbols And God: Aphilosophical Study Of Tillich's Theology*, 1968.
- S.Charlemann, *Reflection And Doubt in The Thought of Paul Tillich*, 1949.
- Unhjem, A, *Dynamics of Doubt: A preface To Tillich*, 1966.
- Wilhelm Marion, *Paul Tillich: His Life And Theology*, 1976.

- ١ -

قضية الترجمة «بالية» من «باليات» طه حسين،  
وركنية من ركائز دعوته الفكرية والعقلية والثقافية،  
ويجمل من مجالاته الحسبة الكثيرة. لم يتصد لها الى  
الآن فيها أعلم، لحد تصديا جزئياً كافياً أو كلياً يرصد  
أبعادها ويكشف لبها، ولم تثر فيها خلا هبات جدل  
سريعة حول بعض دواحيها وأولويات ما يترجم،  
معارك أو خصومات شديدة عنيدة.

وإذا ما استثنينا ما يلوح في مبحث «الإنتاج العقلي»،  
في مستقبل الثقافة في مصر» (ص ٤٥٩ - ٤٦٣)، وفي  
رد طه حسين على الزبوية التي هبت على مشروع ترجمة  
«الأثار الشكسبية» وغيره» في الإدارة الثقافية  
بجامعة الدول العربية في كتابه «نقد واصلاح» (ص  
١٨٠ - ١٩٦)، وفي ما نشب بينه وبين عباس العقاد  
من جدل غير حاد حول سبب من أسباب الترجمة رده  
العقاد، من ملاحظة الوقائع التي صاحبت الحرب  
العظمى والحروب القوية التي تقدمتها فقط، الى  
والمناصفة الحربية وروية الاستطلاع» دون ان يجعل  
المنافسة اصل المعرفة في كل الأحوال. فتصدى له طه  
حسين من واقع «الصلة الحقيقية الأولى لكل ترجمة»  
الكامنة في «الطبيعة الانسانية التي تجعل الانسان حيوانا  
اجتماعيا كما يقول أرسططاليس في السياسة، وحيوانا  
مفكرا كما يقول أرسططاليس في المنطق»<sup>(١)</sup>، اذا ما  
استثنينا هذا، فإن جهده النظري في الترجمة متأثر مبشر  
في أرجاء كثيرة من آثاره: مؤلفات، وترجمات ومقالات  
ومقدمات ترجمات عدد من اصدقائه وزملائه  
وتلامذته، وأساتذته. ولا مندوحة لمن يتصدى له من

## طه حسين وقضية الترجمة

يوسف بكار

أستاذ النقد الأدبي بجامعة اليرموك  
أربد - الأردن

(١) راجع، مثلاً: محمد حسد حسن، حيوانا مهدمة من داخلها ١٩٧٣ - ١٩٦٩، للكاتب الاسلامي - بيروت، ط ٥ : ١٩٧٨.

(٢) التفاصيل في: ساعات بين الكتب ٦٤٠ - ٦٥٤، للكتبة المصرية - صيدا، بيروت ١٩٧٩.

ان يحمي، يصبر وتؤدة وعمق، خلال هذه الآثار لرصده والاخاطة به.

لا يتكفي طه حسين، في الترجمة، على قراءاته وتأثراته ومساوئ ثقافته حسب، انما يمتح من نفسه وخلاصات ألفاويق تهاويله وعجرات ما أسند إليه من مسؤوليات علمية وإشراف مباشر ومشاركة في غير هيئة من الهيئات واللجان التي كانت الترجمة مشروعا من مشروعاتها.

أليس هو القائل<sup>(١)</sup> : «الأخذ من الكتب من غير تعليم ولا تثقيف جدير أن يجعلك صورة او نسخة من الكتاب الذي إخذت منه، تقلد في علمك دون ان تستطيع ان تكون لنفسك رأيا يصدر عن اجتهادك وحسن علمك بما تقول ولا تقول؟»

## - ٢ -

لِمَ الترجمة وما دواعيها؟ للترجمة، عنده، دواع كثيرة ما كان يمل ان يجهر بها ويتحدث عنها او عن بعضها ماوأت الفرصة. وهي، على تمدحها في الظاهر، تصدر عن «دائرة التراث الانساني» او «الوحدة العقلية للجنس البشري» او لتلقي فيها بأخرة دون اغفال لما بين الثقافات من وجوه اختلاف وما لكل ثقافة من ملامح خاصة. فالعقل البشري انما هو عقل واحد، تختلف عليه الظروف لتباينة فتوثر فيه آثاراً متباينة متضادة ولكن جوهره واحد ليس فيه تفاوت ولا اختلاف<sup>(٢)</sup>. ولا يحول هذا دون ان يظل «الذوق

الغربي غالف من وجوه كثيرة للذوق الحديث على تغيره وتطوره»<sup>(٣)</sup>.

لا مشاحة في أن طه حسين بنى نظريته الشمولية هذه، في المقام الأول، على قانونين معروفين متعارضين عند صاحبه ابن خلدون: «قانون التشابه» و «قانون التباين»<sup>(٤)</sup>. «فالمجتمعات البشرية كلها تشابه من بعض الوجوه... والسبب الجوهري في المشابهات الاجتماعية هو الوحدة العقلية للجنس البشري». غير أنه، وفقا للقانون الآخر وليس كل المجتمعات متماثلة بصفة مطلقة، بل توجد بينها فروق يجب ان يلاحظها المؤرخ». وقانون التباين «قانون تجريبي محض... ينسبه ابن خلدون الى اسباب جغرافية وطبيعية واقتصادية وسياسية. وبالرغم من توحيد الارواح واتفاق الاصل يتأثر للمجتمع البشري بمؤثرات تبعث اليه الخلاف والتباين».

لقد أحس طه حسين لهذا ولأن «العرب الأولين... اقبلوا في شره رافع على آثار الامم المتحضرة فنقلوها الى لغتهم، ومزجوها بترائهم، وغلبوا بها عقولهم وقلوبهم، وكوتوا منها حضارتهم»<sup>(٥)</sup> بتعصيرنا، في أوائل هذا القرن في الحياة العقلية «ومظهر هذا التعصير إيماننا الشنيع للترجمة والنقل عن اللغات الأوروبية الحية. فيا أكثر الآثار العلمية والفنية والأدبية التي تنتم بها الانسانية الراقية، وما اشد جهلنا لهذه الآثار وغفلتنا عنها! وما أقل حظنا من الاستمتاع بلذاتها النقية الممتازة»<sup>(٦)</sup>.

(٣) كتابات ١٠٨. دار العلم للملايين - بيروت. ط ٣. ١٩٧٩.

(٤) سجل الثقافة في مصر ٢٨-٣٩. للصورة الكاملة مؤلفات الدكتور طه حسين. (المجلد ٩). دار الكتاب اللبناني - بيروت. ط ١. ١٩٧٣.

(٥) سجل وثقفي ١٩. منشورات الحلبي وجعلنا - القاهرة، بيروت (د.ت).

(٦) للسنة ابن خلدون الاجابية ١٦-٥٢. ترجمة محمد عبد الله علان. للصورة الكاملة (المجلد ٨). دار الكتاب اللبناني - بيروت. ط ٢. ١٩٧٥.

(٧) سجل الثقافة في مصر ٤٥٩.

تحمس لتتاح للغات الأوروبية القديمة والحديثة، فبالقوة إلى ما سيكون للثقافة المحلية القديمة والفنسية الحديثة من تأثير:

«وإنني أعتقد بمسئولية اليقين أن تأثير أوروبا، وفي مقدمتها فرنسا، سيميد إلى الذهن المصري كل قوته ويخصبه بالماضين»<sup>(٩)</sup>.

لكنه كان يدرك أن دائرة التراث الانساني لا تكتمل بهذه الأبعاد وما يتضاف إليها من أبعاد أخرى محدودة، ففضاق باستشراق الثقافات الفرنسية والبريطانية في الأغلب، لمواكب السياسة، يقولون وثقافتنا في القرن الماضي بحيث كاد الوطن العربي لا يظهر على الثقافة الغربية منها تختلف فروعه ومواطنها، إلا من طريق هاتين اللغتين، وطالب بإلغاء هذه الاحتكاك وتفتح الأبواب والتوافد على معاصرها للثقافات الأجنبية الحديثة دون استثناء، وتلويح للغات الكبرى للحضارة الإنسانية في المدارس لتتاح لنا أن نعرف الحياة العالية الحديثة معرفة مباشرة من أصولها خالصة من كل شائبة مبرأة من كل غرض. وكان، من الطبيعي، أن تشمل مطالبته شيئاً من العناية بالحياة الأمريكية واستقصاء أصولها والتعرف على الروايات الأجنبية وثقافتها التي تشكلت بفعل اغلاط الناس الذين هرعوا إليها من كل الشعوب في الشرق والغرب ويصورون الروايات الحياة الانسانية كلها على اختلاف هذه الألوان وتباينها وثقافتها في القوة والضعف»<sup>(١٠)</sup>.

ولكن لا تضيق بين يديه دائرة التراث الانساني،

وتحمس بسبب تكوينه الثقافي والعقلي الجديد، وإيمانه الخاص بالفكرة المصرية في إطار حضارة البحر المتوسط والذي ظل عليه إلى رحيله عن الدنيا، فيها يبدو من آخر حديث له:

ولماذا يغيبكم البحر المتوسط كأنه ليس بحرنا، أم أنكم صدقتم أنه بحر الروم، أنه بحرنا كما هو بحرهم، وهو ليس عازلاً مائياً بين الأمم بقدر ما هو وسيلة اتصال.

ليس لدي جديد في هذه النقطة. فرنسا وإيطاليا واليونان حضارتنا كما نحن نخصصهم. قرابتنا لهم قرابة حضارية، فمن المستغرب أن يضمنا معهم شاطيء واحد ولا تأثير بهم أو تأثير فيهم. والطبيعي أن تتبادل وإياهم التأثير والتأثر، لا يمتنع الدائن والمدين ولا يمتنع التاجر والزائر، وإنما يمتنع الجوار. وليس المهم أن نأخذ منهم بقدر عطائنا لهم. فقد لا يكون بحرنا إلا ما نعلمه، ولكن المهم هو احتكاك العقل والضمير والروح. لا تملك اليونان في وقتنا الحاضر ما تعطيه لنا أو لغيرنا. . . ولكن اليونان القديمة استطاعت، وأقول لك أنها لا زالت قادرة على العطاء. بغير سوفوكل وهوريديس وسفيلوس وأرسطو وأفلاطون وهيرودوت لا نستطيع أن نقيم دعائم حضارتنا الحديثة. هكذا فعل الفرنسيون والأيطاليون في فجر حضارتهم. . . ولكننا جميعاً - مصريين وهرياً - نحتاج إلى الفضائل الحضارية مع أوروبا. وما أقوله بوضوح هو أن شعوب البحر المتوسط مؤهلة أكثر من غيرها لهذا الاتصال»<sup>(١١)</sup>.

(٩) هكذا نكلمه عن حبس لآخر مرة: «حزني على بلادي شكري». مجلة الهلال المصرية الشهرية، السنة الأولى - العدد التاسع عشر ١٩٧٢، ص ٢٥.

(١٠) ليلسة ابن مغلوث الأمازيغي ١٦٦.

(١١) راجع مقدمته على كتاب دراسات في الأدب الأمريكي، في: «كتب ومطالعات» ١٠٧، ١١٠. طر هيلم للناشر - بيروت ١٩٨٠.

ولفظل لنا ثمة عاصم من الفناء في الاجنبي لم ينس قط  
او يفل عن اهمة تراثنا وتراث غيرنا من اسم الشرق  
الاخرى فيها :

ونحب لادبنا القديم ان يظل قواما للثقافة، وغذاء  
للعقول، لانه اساس الثقافة العربية، فهو اذن مقدم  
لشخصيتنا، محقق لقوميتنا، عاصم لنا من الفناء في  
الاجنبي، معين لنا على ان نعرف انفسنا. . . ولكننا  
نحب ان يظل ادبنا القديم اساسا من أسس الثقافة  
الحديثة، لانه صالح ليكون اساسا من أسس الثقافة  
الحديثة. . . والذين يظنون ان الحضارة الحديثة قد حملت  
الى عقولنا خيرا خالصا يخطئون، فقد حملت الى عقولنا  
شرا غير قليل، لم يأت منها هي، وانما اى من اننا لم  
ننهضها على وجهها، ولم نتمتع اسرارها وقادتها، وانما  
اخذنا منها بالظواهر، وقمنا منها بالهوى الميسر، فكانت  
الحضارة الحديثة مصدر جرد وجعل، كما كان التعصب  
للقديم مصدر جرد وجعل أيضا<sup>(١٦)</sup>.

وظل شديد الايمان بان ادبنا حي. والادب الحي  
ولا يستطيع العزلة، وانما هو مضطر الى ان يتصل  
بالادب الاخرى. وسيله الى ذلك النقل والترجمة  
والتلخيص والتصريف بالادباء من الاجانب. والادب  
الحي ولا ينبغي ان يتهاك على الادب الاجنبي، يغفل  
منها ويترجم عنها، وذلك احرى ان يفني ويقدم عليه  
الحياة القوية التي تأتيه من شخصيته الخالدة واصوله  
القديمة. فليس له بد من ان يوازن بين قوته التي تأتيه

من نفسه وهذه القوة الطارئة التي تأتيه من غيره<sup>(١٧)</sup>.

وتدل مقدماته التي كتبها لترجمات بعض تلاميذه عن  
تراث فارس وتعرفه بما نفى به، كذلك، بعض  
اصدقائه وزملائه والثناء عليه، على صدق ما كان يدحر  
اليه من وجوب العناية بالصلة بين الادب العربي  
والادب الشرقية، بل باستئناف هذه الصلة<sup>(١٨)</sup>.  
لنتلمس هذه الاداب عند اهلها لا «عند الانجليز  
والفرنسيين والامان الذين سبقونا - مع الاسف - الى  
العلم بهذا الادب وتلقوه. ويكني اننا عرفنا اولها  
عرفنا - عصر الحيام في هذا العصر الحديث عن طريق  
التراجم الانجليزية، وعن طريق ما كتب عنه  
الانجليز<sup>(١٩)</sup>»، ولنتسلك «الطريق التي سلكها العرب في  
عصورهم القديمة وسلكها المصريون في تاريخهم  
الحديث<sup>(٢٠)</sup>» والطريق التي مازلتا نسلكها، فان سلوكها  
«يسير ادبنا العربي الى قوة ويمتدحه حياة الى حياة .  
وسيمتدح لفتنا العربية حفظا من المرونة فيمكنها من ان  
تؤدي معاني واغراضا لم تتعود ان تؤديها من قبل<sup>(٢١)</sup>».

ولقد رغب في هذا المضمار باحياء صديقه وزميله  
عبد الوهاب عزام ترجمة البنداري القديمة للشاهنامة  
بتحقيقها واكمال نقصها، وهذا «ثروة جديدة قديمة الى  
ادبنا العربي القوي<sup>(٢٢)</sup>». ورحب بترجمة تلميذه ابراهيم  
الشولادي «أخالي شيراز - غزليات حافظ الشيرازي»  
لأنها «تستد من ثروة الادب العربي وانما يستثير في

(١٦) حديث الاربعه ١ : ٢٣٠ دار الشروق بصرى ١٤٠٥ هـ.

(١٧) خطبت ١ : ١٦٨ للموسومة الكاملة (المجلد ١٦) دار الكتاب العربي وسكبه للدارس - بيروت - ط ٢ : ١٩٨٣.

(١٨) مقدمه على «أخالي شيراز - غزليات - حافظ الشيرازي» ترجمة ابراهيم الشولادي. دار الكتاب العربي والنشر - القاهرة ١٩٤٤، ص ٢.

(١٩) مقدمه على كتاب «حافظ الشيرازي في الشعر القديم» دار الكتاب العربي والنشر - القاهرة ١٩٤٤.

(٢٠) خطبت ١ : ١٦٨.

(٢١) مقدمه على «أخالي شيراز - غزليات».



لغاتها ما لا تستطيع ان تصل الى العلم به...  
 وانما حرصت دائماً على ان تُنقل الآداب الاجنبية الى  
 اللغة العربية، مهما تكن لغتها، ليقراها المثقفون اللذين  
 لم يتح لهم ان يقرأوها في اصولها الأولى. على ذلك  
 جرت الامم المتحضرة كلها، وليست الامة العربية الا  
 واحدة من هذه الامم، فليس لها بد اذن من ان تسلك  
 الى العلم سبيل غيرها من الامم، والامة العربية من  
 اقدم الامم التي اقلعت امورها الثقافية على الترجمة،  
 فهي قد نقلت آثار اليونان والرومان والفرس والمند الى  
 لغتها منذ اكثر من عشرة قرون، وهي قد اتاحت بذلك  
 للغتها ان تكون لغة عالمية وقتاً طويلاً، واتاحت لأدبها  
 ان يكون أدباً إنسانياً عالياً لا يتنحى به مشغره  
 وحدهم، وانما يشاركهم في الانطباع به غيرهم من  
 الشعوب. وهي بهذا كله قد شاركت في تكوين التراث  
 الانساني الخالد فحفظت تراث الامم القديمة ونقلت  
 مشاغلها الى الامم الحديثة في القرون الوسطى، فانتارت  
 للحضارة الانسانية سبيلها الشاقة وجلت من بعضها ما  
 كان يكتنفها من الظلمات، وليس لها الان بد من ان  
 تسلك نفس السبيل التي سلكتها من قبل، ومن ان  
 تنهض بنفس العبء الذي تحضت به اثناء القرون  
 الوسطى»<sup>(١٩)</sup>.

وأحسب، في ضوء ماسلف، ان شهادة الفرنسي  
 روجر ارنالديز Roger Arnauldz التالية نجيء في مكانها  
 الصحيح:

نفوس كثير منهم (القراء) الوائس من التفكير المتبحر وفنونا  
 من الشعور الخصب، ولعلها تفتح لبعض التشبيب ابوابا  
 في الحس والشعور والتفكير لم تفتح لهم من قبل»<sup>(٢٠)</sup>.  
 كما رحب بترجمة تلميذه يحيى الخشاب (بالاشتراك  
 مع صادق نشأت) كتاب «تاريخ البيهقي»<sup>(٢١)</sup>.

وما هذا كله الا لأنه ظل يؤمن، مثلياً يؤمن اكثرنا  
 اليوم، بأنه «انقضى الوقت الذي كان الناس يؤمنون فيه  
 بان الادب العربي غني بنفسه لا يحتاج الى ان تلمده  
 الاداب الاخرى بما فيها من قوة وروعة وجمالة»<sup>(٢٢)</sup>.

وجماع القول انه دعا من اجل هذا كله الى ان  
 «تترجم الثقافات الاجنبية - مهما يكن مصدرها - الى  
 اللغة العربية، وشجعت على هذه الترجمة وشاركت في  
 شيء منها... ولم افهم قط ان نعي بالاداب والثقافات  
 الاوروبية وان نترك أدباً وثقافات اخرى تزدهر في  
 اقطار الارض ولا يبلغنا منها الا الصدى»<sup>(٢٣)</sup>. وردد،  
 وما اكثر ما ردد «وليس كل الناس قادراً على ان يقرأ  
 الاداب الاجنبية في لغاتها التي كتبت فيها او مترجما الى  
 لغات اجنبية اخرى».

وكثرة الشعوب، كما تقتضيه طبيعة الاشياء، ليست  
 مكلفة ان تعرف اللغات الاجنبية وحسبها ان تتقن  
 لغتها الخاصة.

وعلى المثقفين الممتازين من ابنائنا ان يقدموا اليها في

(١٩) مقدمة «البيهقي».

(٢٠) راجع مقدمة: كثر جديد - تاريخ البيهقي (ترجمة يحيى الخشاب وصديق كركاش) ج ٢، ٦٦ العدد ٧٤ - نيسان ١٩٦٦.

(٢١) مقدمة «البيهقي».

(٢٢) كتب وولفون ١١٢.

(٢٣) كتب وولفون ١١٢ - ١١٣.

اللغات الأجنبية على كثرتها واختلافها قليلون<sup>(١٢٥)</sup>، وأن عقولنا كانت محتكرة للغة أجنبية واحدة هي الفرنسية فترة، والانجليزية فترة أخرى وكان الذين يحسنون هذه اللغة أو تلك قليلين جداً عما ينبغي لشعب أن يحيش في القرن العشرين ويطلع الى ما نطمح اليه من الرقي<sup>(١٢٦)</sup>.

ولقد ظل «الشعب» وتقليده عموماً هاماً من محاور قضية الترجمة عنده، لأن «الشعب كله لا يمكن أن يكون ملزماً أن يحسن اللغات الأجنبية، ولكن من الواضح أيضاً أن من الحق على كل شعب أن تكون بين أبنائه طوائف تحسن اللغات الكبرى على أقل تقدير لتحقق الصلة بين شعبها وبين الحياة العقلية في العالم الخارجي<sup>(١٢٧)</sup>»، ولأن الشعب في هذه العصور يسأم «ما ألف قراءته من كتب، وما تعود استماعه من مختلف النظريات العلمية، والوقوف عليه من آثار الفن، ويود لو استطاع أن يجد من الطريف المستحدث ما يشغى عقله ويتنقح خلته، ويخرجه من هذه البيئة التي طال بها عهده وثقل عليه فيها احتمال الحياة. وقد كان يحسب نفسه كل شيء فإذا هو يشعر بأن على الأرض شعوباً أخرى... وأن هذه الشعوب قد التحلت لنفسها من نظم السياسة والاجتماع ومن مناهج البحث والتفكير ما لم يألفه ولم يبتد إليه... فكل من نقل إليه كتاباً من كتب العلم أو لخص له فصلاً من فصول الفلسفة أو ترجم له من الآثار الفنية والأدبية ما يثير عن شعور هذه الشعوب وعواطفها، وعن ضروب احساسها

«وإذا كان له حسين يعترف بأهمية الثقافة الغربية ويجب أن يرتوي بها نفساً وفهماً، فهو على العكس لم يستسلم لأغراماتها، بل لم يتخل عن أصله ولم يتردد في نقد هذه الثقافة الذي كان أحياناً شديداً للغاية... لقد أحب له حسين هذين النمطين من الثقافة (الشرقية والغربية) حبا مضافاً ومتساوياً مما جعله يتغلب على ما نسميه في أيامنا هذه «المقدد»<sup>(١٢٨)</sup>.

ويضد هذا أن دعوة طه حسين إلى الترجمة لم تكن «مصرية» ضيقة، بل كانت وخاصة في «مشروعات الروائع» كترجمة آثار «شكسبير» أو «راسين» أو «جوتة»، قومية شاملة: «وأننا حين أفكر في هذه الأشياء لا أفكر في مصر وحدها، وإنما أفكر في البلاد العربية كلها، وأفكر في كل الذين يتخلطون العربية وسيلة إلى الثقافة وإلى الثقافة العليا خاصة... فليس بأس، إذن، من أن تبدأ بما ينفع أضخم عدد من العرب، وأن تنتظر قليلاً بما ينفع الخاصة<sup>(١٢٩)</sup>». وكان يحرص على تنمية العلاقات الفكرية المحيطة بين ثقافتنا والثقافات الأجنبية تنمية تشمل الوطن العربي كالمادة<sup>(١٣٠)</sup>.

وكان يبحث تفكيره في هذا النمط الواسع العام من الثقافة والترجمة فيه أن «حفظنا من الثقافة الواسعة العميقة قليل جداً مما ينبغي لنا في هذا العصر الحديث، وفي هذا القرن الذي كثرت فيه أنواع المواصلات بيننا وبين العالم الخارجي<sup>(١٣١)</sup>»، وأننا «ولا نقرأ الكتب في لغاتها المختلفة لأن الذين يحسنون

(١٢٥) ذكرى طه حسين ١٢٧ - ١٢٨. مجلة المصرية المقلد للكتاب - القاهرة ١٩٧٧.

(١٢٦) نقد وإصلاح ٩٥ و ١٨٩. طه حسين للماضين - بيروت، ط ١٩٨٠.

(١٢٧) لقاء مع طه حسين. أجراه مائدة طرقي ليهوس. الأناب. شب ٥ - العدد ٢. شباط ١٩٥٧، ص ٩.

(١٢٨) ٢٨ - كليات ١٢.

(١٢٩) كليات ٩٢.

(١٣٠) المصدر نفسه ١٤ و ٧١ كذلك.

أن يفرض في ما يُترجم وما لا يُترجم لولا «الزبوة» التي هيئت عليه من عزمه على إخراج آثار شكسبير مترجمة.

لقد ظل يُعنى ويدعو إلى الترجمة والثقافة، لأنها مزاج يجب أن يأتلف من عناصر مختلفة، وأن تمتدل هذه العناصر فلا يطفئ بعضها على بعض<sup>(٣١)</sup>، على الرغم من هبات النكير والإنكار التي رأى أصحابها وأن ترجمة الأدب إضاعة للوقت والجهد والمال، وأن الخير كل الخير، إنما هو في ترجمة العلم، لأن الناس فيها زعموا يحتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الأدب<sup>(٣٢)</sup>. وظل يدعو، كما في التعليم، إلى أن تصير «الثقافة» للناس كلاء والمواهب كذلك، وليس من سبيل إليها، بعد التعليم، غير التأليف والترجمة والتلخيص في الموضوعات الأدبية والفنية. لكنه لم ينتكر ترجمة أي ضرب من ضروب العلم والمعرفة التي نظمها في سلكين : عام وخاص، فوضع في العام كل عناصر المعرفة والثقافة العامة، وفي الخاص عناصر العلم البحت والمعارف العقلية المتخصصة. وجعل لكل عنصر ميزاته وأفاته وموجبات ترجمته ومترجميه. وقد جرب هو المناطق شتى ورشح بأعمال أصديقاته التي أظهرها في مختلف الأنماط، فكتب عنها وعرف بها ونقدها، كالذي بقي منه عن «الأم لوتر» لجوته وترجمة أحمد حسن الزيات، وعن «علم الأخلاق» لارسطاطاليس وترجمة أحمد لطفي السيد وعن «فاوست» و«هرمن ودرويت» لجوته وترجمة محمد عوض محمد.

للاشياء وتأثرها بها، فقد صادف منه مكان الحليمة وأشرف من البنية على ما يريد<sup>(٣٣)</sup>.

ومن هنا انطلقت مطالبته المترجم بأن «يلاحظ استعداد الشعب وحاجته، وألا ينقل إلا ما يوافق استعدادهم ويلائم مزاجه ويكون من النفع والفائدة بحيث يصلح من حاله ويقوم من عوجه ويمينه على التطور والانتقال<sup>(٣٤)</sup>». ومن هنا أجاز نفسه أن «يلخص» تلخيصاً، لا ترجمة، طائفة من القصص التمثيلية التي نقلها الفرنسيون عن اللغات الأجنبية كالروسية والألمانية والانجليزية، وفي النفس شيء كثير من السخط والألم لأنه كان يجب وأن تقوم الترجمة مقام التلخيص الذي «يلهب بجبال الترجمة إلى حد أبعد، فلا يبقى للقارئ العربي المسكين من هذه الآثار الأدبية الرائعة إلا صور فضيلة شاحبة لا تكاد تنفي شيئاً». وكان عزاءه أنه ينوع «بعض التنوع، ولنعرض على القراء صوراً مختلفة من الأدب التمثيلي الغربي، مثل أمزجة الأمم الأوروبية الكبرى على اختلافها وتباينها<sup>(٣٥)</sup>».

- ٣ -

٣ - ١ :

وماذا نترجم إذن؟ لم يكن طه حسين يُعنى بشير الموضوعات الثقافية والفكرية الفيلسفة والمناسبة من تراث الأمم المختلفة قديماً وحديثاً ولم يكن في نيته، فيها يلبس،

(٣١) كتب رولفون ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣٢) المصدر نفسه ١٩٤ .

(٣٣) من أمب التمثل الغربي ٢٨ - ٣٠ . طه حليم للملايين - بيروت . ط ٦ : ١٩٩٩ .

(٣٤) نقد واصلاح ١٩٠ .

(٣٥) كليات ٦٩ .

يستطيعون أن يقرأوا العلم ولا أن يصبوا بحكم هذه القراءة عليهم. وأن العلماء يحسنون اللغات الأجنبية ويقرأون فيها علمهم، وهم ليسوا في حاجة إلى أن يُترجم لهم. وأقول مثل هذا بالقياس إلى الفلسفة. فليس كل الناس يستطيع أن يسبح فلسفة ديكرات وكانت وأوجست كوت وأمثالهم من أعلام الفلسفة في المصور القديمة والحديثة، وإنما يسبحها ويتنفع بها الذين يفرغون لها من الأساتذة والطلاب وأصحاب الثقافة العليا، وكل هؤلاء يحسنون لغة أجنبية... ولا أعرف أحداً يستطيع أن يجادل في أن قراء الأدب والمتنوعين به والمطهرين عليه أكثر جلاءً من قراء العلم والفلسفة... فليس بأس إذن من أن نبدأ بما ينفع أضخم ما يمكننا من أن نترجم للخاصة والكثرة معاً<sup>(٣١)</sup>.

٣ - ٢ :

وأضاف في هذا السياق مسألة تفسير عرُوف العرب القدماء عن ترجمة الآداب اليونانية واللاتينية بربطها بالوثنية التي لا تلائم الإسلام، وميلهم، لذلك، إلى الفلسفة وترجمتها حتى غدت مقولة شائعة سائغة. فرأى أن العرب الأولين لم يؤثروا الفلسفة على الأدب حين ترجموا ما ترجموا من آثار الأولين، وإنما ترجموا ما عرفوا وما أتبع لهم أن يترجموا، ولو أنهم عرفوا الآداب اليونانية واللاتينية كما كان ينبغي أن تعرف لما قصرُوا في ترجمتها... وأنا مطمئن إلى أن العرب لو عرفوا الشعر التمثيلي جَدَّ وهزل لترجموه ولحاولوا أن يصنعوا مثله،

ولا يُفهم من هذا أنه كان يصد أو يذهب إلى الصَدِّ عن ترجمة الآثار العلمية والمفلية التي لا شك في «حق» ترجمتها على الشخصين والعلماء والدولة بمؤسساتها ومراكزها العلمية المتخصصة:

- فأما الذين يجيئون ترجمة العلوم، فمن حقهم أن يطلبوا ذلك إلى العلماء وإلى الحكومة<sup>(٣٢)</sup>.

- «وأنا مؤمن أشد الإيمان وأقواء بأن ترجمة أصول الفلسفة الإنسانية ضرورة من ضرورات الحياة الراقية<sup>(٣٣)</sup>».

- ولطمئن الذين يريدون ترجمة الفلسفة، فسنترجم الفلسفة إلى اللغة العربية... وسنترجم قديمها وحديثها معها اختلقت مذاهبها وأوطانها، لأن طبيعة الحياة الحديثة تقتضي هذه الترجمة وتفرضها فرضاً<sup>(٣٤)</sup>.

- ويذهب هذا، عملياً، استشاره بترجمة عبد العزيز فهمي «مدونة جوستيان» الذي كان يصراً من قياصرة الروم في القرن السادس الميلادي، أما كتابه فلاتيني ففيه خلاصة الفقه الروماني كله. ولترجمته غطوها العظيم، لأنها أول كتاب في المشرق يُنقل من اللاتينية - تقريباً - إلى العربية. وهو ينسب عن تقارب وتشابه واتحاد - أحياناً - بين الفقه الروماني وكثير من فقهنا الإسلامي<sup>(٣٥)</sup>.

لكنه كان يضع في حسابه دائماً وأن الناس جميعاً لا

(٣١) قد راجع ١٩١.

(٣٢) المصدر ص ١٩٢.

(٣٣) المصدر ص ١٩٤.

(٣٤) خلاصة : عرض وقد ٢٣٦ - ٢٣٧. المصورة الكلية (الطبعة ١٦). طر الكتاب الثاني - بيروت. ط ١ : ١٩٨١.

(٣٥) قد راجع ١٩٤ - ١٩٥.

يحملهم على أن يُعترفوا بهذا الفن الثاني في أدبنا حناية  
ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً.

ويقول بين يدي قصة «قانون الرجل» لبول هرليو:

والحق أني لا أجد سهلاً أو لا أكاد أجد سهلاً إلى  
مفارقة هذا الكاتب لأن صحبته لليلة وإصجابي به  
شديد، لاني لا أعرف تمثيلاً أعجب من تمثيلي ولاني لا  
أعرف قصصاً أغنى من قصصه، ولاني أجد في صحبته  
للة العقل ولذة الشعور معاً، ولاني أجد في صحبته  
هذه اللذة التي يجدها من يسمح لفيلسوف وفي في وقت  
واحد. فهذا الكاتب الذي أثره قد جمع بين الفلسفة  
والفن فأرضى العقل وأرضى الشعور<sup>(١)</sup>.

### ٣ - ٣ :

وكان يأخذ على حركة الترجمة، في هذا الجانب،  
القوض والمضي على غير نظام وتهميل أشياء قد تكون  
من الخير ألا تهمل، وتهمل إلى أشياء قد لا تكون  
الحاجة إليها شديدة<sup>(٢)</sup>.

وأوصي في هذا لأأخذ بهذين هاتين، عند طه  
حسين، في الترجمة، رأيت أن أدهو الأول ومبدأ  
الاختيار، والآخر مبدأ الاصطفاء. وقد يتداخلان  
لصومية الاختيار، وبصومية الاصطفاء.

ويجب في الاختيار ما يلائم استعداد الناس  
ورغبتهم، فخلق «الناقل» أن يلاحظ استعداد الشعب

وحاولوا كذلك أن ينشروا التمثيل ويجعلوه فناً عربياً  
أصيلاً كما ترجموا الفلسفة ثم جعلوها فلسفة عربية  
أصيلة<sup>(٣)</sup>.

ولما عرض لمقالة الزاعمين بأن تلك الآداب لا  
الفلسفة هي التي كانت لا تلائم الدين رد بمجيب  
وتعجب وسخط وكان كل ما ترجموا كان يلائم الإسلام  
ويطابقه ولا يخالفه قليلاً أو كثيراً ! لا أعرف مقالة أشد  
امعاناً في الحق والسخط من هذه المقالة. فقد ترجم  
العرب من فلسفة الفلاسفة ما يخالف الإسلام أشد  
الخلافاً، لم يمنعهم ذلك من ترجمته والرد عليه<sup>(٤)</sup>.

وأبغى النقاش في المسألة على نحو من جدل قدامة  
ابن جعفر أو منطق من تأثر بهم من اليونان ووجههم  
تعمدوا هذا الأعراس، فمن الذي يستطيع أن يلزمنا  
أن نخطفه كما أخطأوا ونقصر كما قصروا، إن كانوا قد  
تورطوا في خطأ أو تقصير<sup>(٥)</sup> ؟ وإشال أنه لم يعد سراً  
أن قسماً كبيراً من اهتمام طه حسين بأدب التمثيل  
اليوناني وأدب التمثيل الغربي وقصصه التمثيلية ترجمة  
وتلخيصاً وتعريفاً كان تمهيداً استودائياً تعليمياً  
توجيهياً ينسحب عليه مبدأ «الاختيار» و«الاصطفاء»  
معاً. يقول في مقدمة «قصص تمثيلية» (ص ٧) : «ولقد  
كتبتها وجمعتها لا أريد من ذلك إلا أمرين اثنين :  
الأول أن أظهر قراء هذه اللغة العربية على نحو من  
أنحاء الأدب الغربي. الثاني أن يكون هذه القصص وما  
فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثري  
نفوس الأدباء الذين يمتنون بالتمثيل العربي خاصة،

(١٤١) (٥٢٠) نقد واصلاح ١٩٢ - ١٩٣.

(١٣) المصدر نفسه ١٩٤.

(١٤) قصص تمثيلية ٦٦. دار العلم للملايين - بيروت. ط ٢ ١٩٥٥.

(١٥) لقاء مع طه حسين (مجلة الآداب، ص ٩. مصدر سابق) والبيان ١٩. دار المعارف مصر. ط ٢ (١٩٥٠).

« وترجمة بعض هذه الآثار دون بعضها الآخر نقص لا يليق بالقادرين على التيام . وما أحب أن أمتنع لنفسي ولا لطائفة من أمثالي القضاء بأن بعض آثار هذا الكاتب أو ذلك أجدر بالعناية من بعضها الآخر . ففي ذلك شيء من الجراءة لا أستحيه ، وفي ذلك شيء من الاعتدال على الكتاب والشعر لا أسبهه ، وفي ذلك آخر الأمر اعتدال على أخواق القراء .

فالاختيار قطعة من الذوق ، وهو بعض العقل بالقياس إلى الذين يختارون . وما أحب ولا أستحي أن أجعل ذوقي وعقلي مقياساً لأخواق الناس وعقولهم ، ولا أن أفرض عليهم ما يؤثر ذوقي وعقلي من الاختيار ، وأنا أستطيع أن أختار لنفسي إن شئت ، ولكني أرى من الغرور أن أفرض اختياري على غيري<sup>(١٦)</sup> .

ومع أن ظاهرة ترجمة «الآثار» أو «الأعمال» الكاملة للبدع ما هي ، في الأغلب بدعة فنية غريبة ، فهي ، انطلاقاً مما ذهب إليه طه حسين واستكمالاً له ، ضرورة واجبة ، للإحاطة بالكيان الفني والكيان العقلي كاملاً عند هذا المبدع أو ذلك ، ولعلاقة تطور مراحل الإبداعية معرفة لا يقدمها «النموذج الأعلى» المصطنع الذي يفقد - في أحيان كثيرة - إلى أنه يمثل «مستوى» صاحبه في مراجله كافة . فالمبدع عرضة للمد والجزر والارتفاع والانخفاض وتلذذ المستوى الفني وغير الفني . وما أحسن ما تشبه به الظاهرة بتقديم مبدع ما «من خلال منظرها السياسي الجميل فقط دون أن ننسب إلى الأكواخ الأخرى الجلفية»<sup>(١٧)</sup> .

وحاجته ، وألا ينفل إلا ما يوافق استمذاده ويلائم مزاجه ، ويكون من النفع والفائدة بحيث يُصلح من حاله ويُقوِّم من عوجه ويعينه على التطور والانتقال<sup>(١٨)</sup> . ويمكن هذا في ترجمة أحمد حسن الزيات «الأم فرقة» . فالكتاب وحل ما له من شهرة تلزم كل ناشره أن يقرأه ويتفهمه يمثل حياة الأدب الأوروبية في عصر هو أشد المصور شيئاً بهذا العصر الذي نسلكه . فقد كانت أوروبا حين كتب «جوت» «الأم فرقة» تعبر عن عصر انتقال كعصرنا الذي نعبه<sup>(١٩)</sup> .

أما مبدأ «الاصطفاء» فمن أظهر أمثلته ما انجس عن تصني طه حسين لتأليفه حول ترجمة آثار شكسبير كاملة . فقد ارتفعت بعض المقاييس ولم تُترجم كل ما ترك شكسبير من الآثار ولا نختار منها أجودها وأرقها وأعظمها امتعاً وأمنها إلى عقولنا وأخواقنا؟ وتترك ما دون ذلك لتلقى الجهد والمال في ترجمة آثار فريق غير شكسبير من أعلام الثقافة والأدب والفلسفة<sup>(٢٠)</sup> .

قد تكون هذه الأسئلة / الاعتراضات منطقية ومقبولة في الترجمات الانفرادية من حيث الذوق والإمكانات للمادة وغير المادة . أما في مشروعات «الروائع» كالتى تمهدا طه حسين وأشرف عليها فإن الأمر وجهاً آخر قد يفهم فيه «الاصطفاء» أنه - وهو كذلك - «حكم» ، بنحو ما ، على المبدع واعتداله على أخواق المتلقين والقراء ، وهما محور رد الرجل ودفاعه :

(١٦) كتب وبولتر ١٩٤ .

(١٧) المصدر نفسه ١٩٦ - ١٩٧ .

(١٨) نقد راسلح ١٩٦ ، وكليات ٦٦ .

(١٩) نقد راسلح ١٩٦ - ١٩٨ .

(٢٠) عناية نقاشي : كتابه في مجلة الحوادث - ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨ ، ص ٤٤ - ٥٥ .

## ٣-٤ :

فيها الأسماء والمصطلحات بوجوب إعداده «كتب» بها جميعاً وتفسير ما يحتاج منها إلى شرح وتفسير، كالذي اقترحه على عبدالعزيز لهمي بأن يضيف إلى الطبعة الثانية من «مدونة جوسنيان» شيئاً بما فيه من المصطلحات والأسماء، مع ما قد تحتاج إليه هذه الأسماء والمصطلحات من شرح وتفسير. «ذلك أحرى أن تتم الفائدة ويعم النفع»<sup>(١)</sup>. ولذا امتدح محمد عوض محمد في ترجمة «فاوست» إذ شرح بعض النصوص الغامضة، وفسر بعض الأسماء الغريبة، ورد بعض المعاني إلى مصادرها الأولى<sup>(٢)</sup>.

وأصر على إعادة النصوص العربية القديمة - أو أية نصوص من لغة أخرى في حالات مماثلة - إلى أصولها الأولى وليس ترجمتها في ما يكتب عن التراث العربي بلغة أجنبية ويترجم إلى العربية. ويتجلى هذا في امتداحه ترجمة أنور لوقا كتاب «تقاليد الفروسة عند العرب» الذي ألفه بطرس غالي بالفرنسية (باريس ١٩١٩) وصدرت ترجمته بالقاهرة (دار المعارف ١٩٦١):

«ولم ألاحظ لأحد للمترجم عناية بحسن النقل. ولم أكن أعانف عليه شيئاً كما كنت أخاف أن يتورط في ترجمة النصوص العربية كما ترجمها المؤلف مضطراً إلى ذلك، ولكن الأستاذ أنور لوقا كان عند حسن الظن به والرأي فيه، فأتى بالنصوص في لفظها العربي القديم»<sup>(٣)</sup>.

ومن مستلزمات «ما يترجم» وأساسياته ما يلوح عند طه حسين من إيمانه بالتمهيد والتعريف بالموضوع الذي تُراد ترجمته أو الشخصية المنوي ترجمة آثارها. فقبل أن يترجم «نظام الأتنيين» لأرسطو طاليس (١٩٢١) مهد له بكتابه هو والظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الألفه وأثرها في المدينة (١٩١٩).

ورغب إلى المقادير أن يعرف الناس بشكبير قبل أن تظهر ترجمة أماله<sup>(٤)</sup>، فكتب العقاد والتعريف بشكبير (١٩٥٨).

ومنها ما نبه عليه في كلامه على غير جهد من جهود غيره في الترجمة، وما تناوذه على جهد حسن عثمان مترجم والكوميديا الإلهية عن الإيطالية<sup>(٥)</sup>، من حيث التعريف بصاحبها وتصوير حياته تصويراً دقيقاً في مقدمة «البحر»<sup>(٦)</sup>، ومن حيث الدرس التحليلي المتبع الذي قدمه بين يدي «الأعراف» ودراسة الكتاب دراسة دقيقة بليغة «بحيث يستطيع الذين يكتبون من القراءة بأيسرها أن يستفوا بقراءة هاتين المقتضيتين عن قراءة الكتاتين نفسيهما»، ما تناوذه إلا دعوة ضمنية للمترجمين ليؤمنوا في مقدمات ترجماتهم بالتعريف الدقيق بأصحابها ودراسة محتوياتها بدقة وروعة وتفصيل لا يحوزه الجبال الأدبي.

ومنها ما طالب به المترجم، في الترجمات التي تكثر

(١) كليفت ٧٠.

(٢) شباط ١٢١ - ١٢٤. ط ٤ : ١٩٧٧.

(٣) مقالات : عرض وقد (المجموعة الكاملة ١٦ : ٣٣٣).

(٤) كتب وولفون ٢٠٩.

(٥) المصدر نفسه ١٠٦.

- ٤ -

أن منزلة المترجم التي وضعه فيها طه حسين بين «المستهلكين» و «المنتجين» تؤكد أن تحمل منه «مبدعاً»، وهو كذلك عند من يعدّ الترجمة «إبداعاً»<sup>(٥٦)</sup>. لأن الترجمة الناجمة هي اكتشاف تعبيرك لدى الآخرين، ولأنك «اكتشفت إبداعك الشخصي في إبداع الآخر فترجمته وهذا هو شرط النجاح في الترجمة والا تكون الترجمة عملية آلية، عملية اصطناعية أو حرفية. الشرط الأساس هو أن تكتشف إبداعك في النص الذي تريد أن ترجمه»<sup>(٥٧)</sup>، وهذا هو معنى أن المترجم «يرى نفسه» ولا «يدخل شيئاً من نفسه» في الترجمة<sup>(٥٨)</sup>.

وقد تكون مقارنة المترجم للمبدع عند طه حسين سبباً من أسباب عدم ممانته لظاهرة «تعدد ترجمة الأثر الواحد في اللغة الواحدة». فالترجمات كالإبداعات «تفاوتت فيها بينا دقة وتقصيراً، وجودة وردادة، ولها ما يرتقي لفظه وأسلوبه وأداؤه، ولها ما يخطئ لفظه ويفسد أسلوبه ويسجع أداؤه»<sup>(٥٩)</sup>.

منزلة المترجم ليست يسيرة، بل عظيمة جليلة الخطر، وحسبك أنها هي التي تحقق الصلة القوية بين الأجيال والشعوب، فتزِل ما بينهم من الفروق، وتبذل بعضهم من بعض، وتقربهم من هذا المثل الأعلى الذي يقوم على رقي العقل والخلق والشعور وحس الخير<sup>(٦٠)</sup>.

وتستدعي منزلة المترجم العظيمة، بالقوة، بمنزلة

وننتقل إلى ركاز تحقق الترجمة ونجاحها الحقيقي وأصالتها الفنية التي تكاد تتركز في هذين السؤالين وما يتصل بهما من أسباب: من المترجم وما الشروط الواجب توافرها فيه؟ وما الترجمة وكيف نترجم؟ إن كتابات طه حسين المبثورة في كثير من آثاره هي التي أملت السؤالين، وهي التي نجيب، مجتمعة متكاملة بعد أن كانت شتاتاً، عنها إجابة قد تشكل مع ما تقدم «مشروع» نظرية طاهوية في الترجمة أو لمحو، في الأقل، وجوه وقضية الترجمة عنده.

٤-١:

المترجم ليس ناقلاً يترجم «كلاماً» إلى «كلام». ولو كان هذا هو المطلوب حسب لأغنت عنه آلات وأدوات كثيرة أو أي «مكتب» من مكاتب الترجمة.

المترجم «مبدع» بنحو خاص وليس هو بالفقير المستريح ولا المنتج النابتة، ولكنه صلة بين الرجلين، لاحظ له من راحة الأول ولاحظ له من جهد الثاني، وإنما هو خادم مخلص مؤثّر أمين يرفع القاريء إلى حيث يلدق جمال الفن وجلاله، ويشق لأثار التابيين من الأدباء والفلاسفة طرقاً جديدة إلى عقول الناس وقلوبهم، ويخبر لهم بسط سلطانهم الخبير على مختلف البيئات والأجيال<sup>(٦١)</sup>.

(٥٦) كتاب رولفون ٢١٧.

(٥٧) انظر: مثل: ك. سورديان: الأهمية كاريكلاوف. لي فن الترجمة ٢٥. ترجمة خبة شرارة. وزارة الثقافة والقانون. بغداد ١٩٧٩.

(٥٨) مجلة الطليق: لقد سمع. قصير السان.

(٥٩) ك. سورديان: قصير السان ٢٧.

(٦٠) لقد راسلنا ١٨٥.

(٦١) كتاب رولفون ٢١٧.



التعبير. والثاني أن يحاول المترجم الإعراب عن هذه الصورة والإفصاح عن دقائقها وغاياتها بأشد الألفاظ تمثيلاً لها وأوضحها دلالة عليها<sup>(٢٦)</sup>.

هذه الفقرة عملة بأهم ما يشترط في المترجم والترجمة. فليس يكافئ أن يتقن المترجم لغتي «المصدر» و «الهدف»، وإنما يجب معرفة «الموضوع» أو «الفن» المترجم في الموضوعات الفنية والأدبية، و «التخصص» في الموضوعات العلمية والفلسفية. وهذا هو لباب ما أوجبه الجاحظ منذ القرن الثالث الهجري على المترجم من «أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيها سواء وغاية<sup>(٢٧)</sup>»، وهو مازال أصلاً هاماً من أصول الترجمة عند جمهور الغربيين:

«ولكن معرفة اللغة بوجه عام شيء وامتلاك معرفة خاصة بموضوع معين شيء..... يجب أن يملك المترجم، بالإضافة إلى معرفته بلغتين أو أكثر تشترك في عملية الترجمة، اطلاعاً شاملاً بمادة الموضوع المعنية<sup>(٢٨)</sup>. ويظل أبعد مرسى وأقوى غاية من شرط<sup>(٢٩)</sup>، أين دوليه «Etienne Dolet» (١٥٠٩ - ١٥٤٦) واضح أول نظرية للترجمة: «ولا بد أن يكون المترجم على معرفة رفيعة باللغة التي يترجم منها، وأن يمتلك بنفس الشكل معرفة رفيعة باللغة التي يترجم إليها<sup>(٣٠)</sup>».

عظيمة للترجمة الأدبية والفنية بخاصة. ولا سبيل إلى تحقيق هاتين المزلتين إلا بتوافر موجبات وجودها في الترجمة والمترجم وتشابكهما، كذلك، لأن الفصل بينهما أمر غير يسير. فالترجمة الجيدة الناجحة للمتوخاة تتم، ببساطة، عن عظم منزلة صاحبها، ولا مناص للمترجم العظيم، إذا ما أراد أن يضمن لترجمته المتزلة العظيمة، من أن يتسلح بما يجابه به «صعوبة الترجمة».

فالمترجم وليس خروياً أن يحسن اللغة العربية التي ينقل إليها واللغة الأجنبية التي ينقل عنها فحسب، بل هو خليق أن يحسن الفن الذي ينقله إحساناً تاماً، وأن يكون من إجادته بحث يستطيع النقد والمناقشة إذا كان موضوعه علمياً أو فلسفياً، فإذا كان فنياً أدبياً فالصعوبة أثقل عبثاً وأشق احتمالاً، لأن الناقل ملزم حيثئلاً أن يكون من القدرة والكفاية بحيث يستطيع أن يقوم مقام المؤلف الأول فيشعر بقلبه ويحس بحسه، ويرى الأشياء بتلك العين التي رأى بها المؤلف ووصفها بهذا اللسان الذي وصفها. فإن الترجمة في الأدب ليست وضع لفظ عربي موضع لفظ أجنبي إذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور في اللغة الطبيعية، فكيف بها في لغة أخرى؟ إن الترجمة الفنية والأدبية عبارة عن عمليتين مختلفتين كليهما صعب عسير: الأول أن يشعر المترجم بما شعر به المؤلف، وأن تأخذ حواسه وملكاتة من التأثير والانفعال نفس الصورة التي أخذتها حواس المؤلف وملكاتة إن صبح هذا

(٢٦) المصدر نفسه ١٩٤ - ١٩٥، و ٢٠٤ كذلك، وأكرام ٢٢.

(٢٧) الجيران ١ : ٧١. تحقيق عبد السلام هارون. منشورات محمد الفقيه - بيروت ط ٣ : ١٩٦٩.

(٢٨) لغة الجوارب واضح بين صمداء ما يراه د. حسين وهادي «دولة الأساسية الحسنة في الترجمة: فهم شعبين لئلا الترجمة وفاسدة، والفرقة بالثلاثين، و«الرجة الحرفية، واستخدام صيغ الكلام في استعمالها الشائعة، وتولية التأثير الكلي والشمائل. (يرجى نقلاً: نحو علم الترجمة ٤٥ - ٤٦). ترجمة ماجد النجار. وزارة

الأعلام - بغداد ١٩٦١.

(٢٩) يرجون نقلاً: المصدر نفسه ٢٩٤.

(٣٠) المصدر نفسه ٤٥.

إليها نفلاً صحيحاً ما قصد إليه جوته في قصته هذه من الساذجة العلبة الحسبة . وهذا دليل واضح على قدرة لغتنا العربية على أن تسع الفنون الأدبية لجوته وغير جوته (٣٣) .

## II - ٧ :

وقبل أن نفرنا والدقة و « الترجمة الاتصالية » بمتابعة آراء طه حسين فيها وموقفه منها ، وبشأن نظره إلى « الترجمة الحرفية » وما يتصل بها جميعاً من ملحقات وذيول تجرد الإشارة إلى أنه ، كغيره من فنّاء الترجمة والتفسير لها قديماً وحديثاً ، كان يؤمن جداً بأن الترجمة ، عموماً ، تذهب بجبال الأصل ، وأن التلخيص يلعب بجبال الترجمة إلى حد أبعد (٣٤) . وهذا هو الذي سبّاه القدماء « الملقى البلاغي » ويسميه المحدثون « أدبية النص » . وهو ، دون شك ، جوهر مقالة الجاحظ « أن الترجمان لا يؤدي أبداً مقال الحكيم ، على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيهما حقها ، ويؤدي الأمانة فيها . . . . » (٣٥) ، ومغزى المثل الإيطالي « الترجمة خيانة » أو المترجم خائن ، الذي حلا لأحد معاصرينا أن يحوره ويطوره إلى « الترجمة خيانة جميلة » ، ولولاها لما تعرفنا على الثقافات العالمية (٣٦) .

وإذا ما جاد المترجم اللغتين وأتقن معرفة موضوع الترجمة ، فهد صائر ، بالقوة ، إلى ما أصبر عليه طه حسين من شعور المترجم بما يشعر به المؤلف وهو ما يعبر عنه جمهور منظري الترجمة حديثاً بـ « التمسك » أو « تمثيل روح النص » ، ولا بد أن يبدع ، حيث لا يقدر ، وبالقوة كذلك ، ترجمة دقيقة غير حرفية أو « اتصالية ضمنية Covert » (٣٧) وهي المثل عند طه حسين ، لأنها تغرس في القارئ إحساساً من يقرأ كتاباً مؤلفاً لا ترجمة (٣٨) .

وهو ما نادى به « بروجازكا Prochazka » من أن « الترجمة يجب أن تخلق لدى القارئ نفس الانطباع الذي يحققه انطباع النص الأصلي على قرائه » (٣٩) . ومن المدهش أن « ليوينارد فورستر Leorand Forester » يعرف الترجمة الجيدة بأنها هي التي « تعني بنفس الغرض في اللغة الجديدة مثلاً فعل الغرض الأصل في اللغة التي كتب فيها » (٤٠) .

ومن نماذج هذا الغريب ، عند طه حسين ، ترجمة محمد حوض محمد لأثري جوته : « فاوست » و « هرمن ودروته » عن الألمانية . فقد استطاع في الأول « أن يلبس نفس جوته ، ويص كما يص ، ويرى الأشياء كما كان يراها ، لا في أطوار الترجمة وحدها ، بل في حياته العادية المتصلة » (٤١) ، « ويمكن في الآخر « أن ينقل

(٣٦) هي الترجمة التي يحاول المترجم أن يعطي لقارئه لغة المؤلف نفسه ، تقريباً ، الذي يعطيه الأصل لقراء اللغة المصدر . (يترجم برونك . الجمادات في الترجمة ٥٥ وغيرها . مجلة عبود لاسمائل صبيح . طر لفرغ - الرياض ١٩٨٧)

(٣٧) كتب دوتلر ٢٠٨ .

(٣٨) بوجين ليد : المصدر السابق ٣١٧ .

(٣٩) المصدر نفسه ٣١٣ .

(٤٠) كتب دوتلر ٣٠٤ .

(٤١) المصدر نفسه ٢٢٥ .

(٤٢) من أدب التمثيل الغربي ٢٩ .

(٤٣) التحولات ١ : ٧٥ - ٧٦ .

(٤٤) مجلة لطيف : المصدر السابق ٥٤ - ٥٥ .

المقصود بـ «الترجمة الكاملة»؟ وما معنى «الترجمة الدقيقة»؟

«الترجمة الكاملة» أن لا يترك المترجم أو يميل من العمل المترجم شيئاً كما فعل حافظ إبراهيم حين أهمل الصفحة الأولى من «الوئاسه» إهمالاً تاماً دون أن يشير إليها بحرف<sup>(٣٧)</sup>. لكن طه حسين فعل مثل هذا، بل أكثر من هذا ببعض «روح التورية» لغوصات لويون، فلم يترجم كاملاً ولم يلتزم بالأصل حتى قال هو «إن ترجمت هذا الكتاب ولم أترجمه متذكراً جواب أرسطاطاليس للإسكندر «ألفزها ولم أألفزها» رأي أألفزت كتبي على العامة ولم أألفزها على الخاصة، لما كتب الأخير إلى الأول، وقد أعدها كتبه ولقد ألفت كتبك<sup>(٣٨)</sup>».

لماذا لجأ إلى ما قد يصحح بعضه أو أكثره أو كله «سنة» للأخوين أو «ذريعة»؟ لقد أجاب<sup>(٣٩)</sup>:

وترجمته، لأن رأياً من الآراء التي وردت فيه لن تنفوت القارىء. ولم أترجمه، لأنى لم أتكلف النقل الحرى. ولم أعدل عن النقل الحرى كسلاً أو مللاً. وإنما عدلت عنه، لإشارة لما يؤثر المؤلف من القصد والإعجاز. فالؤلف مطبوع شديد الإطناب، يكرر نفسه كثيراً شأن المؤمن المقتنع برأيه. وهو كثير النقل مسرف في الاستشهاد بآراء الراى الواحد بعشرات من القطع ينقلها من الكتاب والعليل المختلفين. ولو لى ذهبت في الترجمة ملعبه في الكتاب لأضفت إلى هذا

وأكد أزعهم أن طه حسين اطمأن إلى هذه الحقيقة القديمة الحديثة وطالب، ليتجنب «الحرج الذي يأتي من الدين والفن جميعاً<sup>(٤٠)</sup>»، بإحياء فكرة ترجمة ومعاني القرآن إلى اللغات الأجنبية وفي ذهنه، فيها أرجح، أن ترجمة ومعاني القرآن، لا تعني «قرآناً». وقد هم هو نفسه بهذا، لأنه كان من أهدافه الكبار.

وقدنا لاأريد أن أنقل إلى اللغات الأجنبية ما في بيان القرآن الكريم من روعة وإعجاز، وإنما أريد أن أعطي الأجانب من القرآن الكريم صورة صادقة تؤدي إليهم معانيه وإن لم تؤد روعة التنظيم وجمال اللفظ وبراءة الأسلوب....

وإنما أريد أن ينهض المسلمون بهذا الواجب الذي نهض به كثير من غير المسلمين، يخلص أكثرهم وينصرف قليل منهم عن الإخلاص، ويتورط أولئك وهؤلاء في الخطأ الذي لا ينفع أسداً والذي يسوء الإسلام ويسوء المسلمين عن عمد وعن غير عمد. والإسلام دين يتجه إلى الناس كافة لا إلى العرب منهم خاصة. وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن تفرض على الناس أن يقرأوا القرآن في نصه العربي، إذا أرادوا أن يعرفوه، لأن هذا تكليف بالمحال كما يقول الأزهريون<sup>(٤١)</sup>.

٤ - ٣ :

لقد كان ينشد الترجمة «دقيقة كاملة<sup>(٤٢)</sup>»، فما

(٣٧) لقد واصلاح ٢٠٦.

(٣٨) المصدر نفسه ٢١٧- ٢١٨.

(٣٩) حواضر ١٢١، وكتب ويولفون ٢٠٨.

(٣٩) حافظ رشدي ٨٦.

(٤٠) كتب ويولفون ٢٢٨.

السفر مقداراً عظيماً من الصحف يمكن الاستغناء عنه ويقلل المضي في قراءته . ولا سيما والكتاب لم يوضع لنقد التعليم في الشرق وإنما وضع لنقد التعليم في فرنسا .

ومهما يكن أمر هذه المفاضل ، فهي ، في دولة الترجمة ، «تصرف» ، بل «تصرف كبير» ، وليته سبأها «ترجمة تصرف» . فالحلف في الترجمة محظور مهما تكن أسبابه . والمعروف الواجب الاتباع أن يترجم أي كتاب كاملاً ، وللمترجم الحق في أن يعلق ويبدى كل ما يئن له من ملاحظات على مالا يسوغ من آراء المؤلف الذي من حقه ألا يُعيب بكتابه . وليت طه حسين «لم يترجم الكتاب» بتعبيره هو ومعتاده ، واستعاض عن الترجمة بعرضه والتعريف به أو تلخيصه كالذي فعله في أعمال كثيرة من القديم والحديث ما دام الكتاب ولم يوضع لنقد التعليم في الشرق وإنما وضع لنقد التعليم في فرنسا وما دام «عل» من يريد أن ينفع بهذا الكتاب ويتضح أن يستخلص منه الآراء التي تمس الحبوب المشتركة بين التعليم الفرنسي دون أن يمسح الكتاب أو يفسده . ولم أنفل غير هذا .

يبد أن ترجمة عادل زحير الكاملة للكتاب<sup>(٨١)</sup> ومقدمته عليه تشي ، بصورت حاله ، بنماز وثيقة ببعض ثوابت مفاهيم طه حسين التي آمن بها وسعى من أجلها وتناضل في سبيلها فغشم وغشم ، وأهمها إيمانه ومطابته بإدخال اللاتينية واليونانية في مناهج التعليم ، في حين كان أحد أهداف صاحب «روح التربية» الرئيسة من نقد مناهج التعليم في مراحل التعليم الفرنسي كلها يرمي إلى التقليل من أهمية هاتين اللغتين

بخاصة والتشكيك في نفعها لأنها من اللغات الميتة التي ليس فيها «فصيلة علمية خاصة» بل اعتقد بالعكس أن اللغات الحية أفضل من اللغات الميتة لأنها حية» . وكان يرى أن تعليمهما «ينطوي على إضاعة للوقت» .

وغلاصة ماراه عادل زحير في ترجمة طه حسين «أنه حلف نحو الظل من ذلك الكتاب العلمي الاجتماعي» ، وأنه حلف من الكتاب فصلاً بأبهرها ، وأنه سرد أقوالاً على أنها للمؤلف مع أن المؤلف عزاه في كتابه إلى غيره ، وأنه لم يشر إلى مواطن الحلف إلا قليلاً ، وأنه لم يُعِنْ بلغة الترجمة ليزيل العجمة منها جهد الاستطاعة .....» .

أما غوستاف لويون نفسه ، فقال بعد أن رأى الكتاب وتُرجمت له مقدمة طه حسين :

- «يظهر أن المترجم المصري راغب في جعل الترجمة جزأين أو أن يخطم اختراي<sup>(٨٢)</sup> .

- «والذي أرى أن المترجم المصري أزال حيوية الكتاب» .

#### ٤ - ٤

أما «الترجمة الدقيقة» ، فالتى تكون «صورة صحيحة للأصل» من غير أن تكون «حرية» أو «فوتوغرافية» ، وهيئات أن يستقيم هذا لكثير من المترجمين .

ترجمة حافظ إبراهيم للبؤساء ، مثلاً ، لم تكن «دقيقة»<sup>(٨٣)</sup> ، وترجمة «علم الأخلاق»<sup>(٨٤)</sup> «توشك أن

(٨١) طبعة دار إمام الكتب العربية - القاهرة ١٩٤٩ . ص ٣ - ٣٧ .

(٨٢) حافظ وادري ٨٧ - ٨٨ .

(٨٣) طبعة الآريه ٣ : ٥٦ - ٥٧ .

ترجمة جصاصي، دقيقة دقة لا غبار عليها إلا في مواضع قليلة أعلن المٌترجم أنه تصرف فيها بعض الشيء، ولأحظت أن غيره من المترجمين الأوربيين تصرف فيها أيضاً لأنها لا تستطيع أن تؤدي في غير الألمانية (٣٥).

ومعها ما اتفق لطف حسين نفسه، والسبب ذاته، في ترجمة «العنوانات» بخاصة. عنوان قصة «الطائر الحديث» للكاتب الفرنسي «رستاز برنار» ليس «ترجمة صادقة ولا دقيقة للعنوان الفرنسي، وإنما هي ترجمة مقارنة أو قل هي إشارة إلى معنى العنوان الفرنسي، لأن نقله إلى لغتنا ليس بالسير (٣٦).

وعنوان «هدوم السر» هو ترجمة *La Paix chez Soila* وإن رأى أنه قد يُغضب للمجمع اللغوي هذا العنوان الذي يصور لغة العامية أكثر مما يصور لغة الفصحاء، ولكنني مع ذلك أؤثره لأني أجده فيه الترجمة الصادقة للعنوان الفرنسي.... كما أجده فيه تصويراً صحيحاً دقيقاً للقصة نفسها (٣٧).

ومثلها عنوان «سجين» الذي ليس «مطابقاً ولا مقارناً للعنوان الفرنسي الذي وضع لهذه القصة، فلو أتت الترجمة الحرفية لجعلت عنوانها «كان هناك سجين». ولكنني آثرت هذا العنوان البسيط لأن العنوان الفرنسي يدل على معنى خاص يأتي من وضع الفعل بفعل فاعله. وليس إلى ترجمة هذا المعنى الخاص من شجّل (٣٨). وعنوان قصة «أرض البجيم» لفرنسوا دي كويول لا يترجم ترجمة صحيحة عنوان القصة..... وإنما يؤدي شيئاً من معنى هذا

تكون حرفية» باعتبارها حرص المترجم على الأمانة المبالغ فيها حتى جئحت به إلى «النقل الفوتوغرافي».

ومعها يكن مما يلاحظ على الكتاب وفلا تأخذ به المترجم العربي بل عذبه به المترجم الفرنسي. أما المترجم العربي فزعم لك بأن ترجمته عن الفرنسية صحيحة لا تقبل نقداً ولا طعناً، ولأننا أيضاً زعميم بصحة هذه الترجمة عن الفرنسية، وأكد أننا بأن الترجمة عن اليونانية دقيقة أيضاً وإن كان بعض الذين يدوسون فلسفة أرسطاطاليس لا يطمئنون إلا علمت أن كله إلى «برتلي سانت هيلان» (المترجم الفرنسي)..... ومعها يكن من شيء، فإن هذه الترجمة العربية الجديدة..... أصح وأقرب من أكثر التراجم العربية القديمة التي نقلت أيام العباسيين لا عن اليونانية مباشرة، بل عن السريانية التي اشتملت على أخطاء فالوان من المسخ والتعريف.

وينبغي تحت لواء الدقة ما يدعو طه حسين «علم الدقة غير المقصودة» وهو ما اضطلع على تسميته «التصرف» العادي المهود لا «التصرف الكبير» أو «الترجمة غير الكاملة» كما مضى.

يرى طه حسين أن لغة «المصدر» هي التي تلجى المترجم إجابة إلى هذا الضرب من عدم الدقة، ولهذا استعنت عنه نعت «غير المقصودة». ومن أمثلتها ما احترض محمد عوض محمد في «فاوست» وثبه عليه طه حسين ووجسي أن أراجع في كثير من الأحيان إلى الأصل الألماني مع مترجمين غير الأستاذ عوض، فلذا

(٨٤) كتب بولفون ٢٠٨.

(٨٥) من آداب النقل العربي ١٥.

(٨٦) المصدر نفسه ١٣١.

(٨٧) المصدر نفسه ١٠٢.

العنوان دون أن يؤديه كله ، بل دون أن يؤدي منه الشيء الكثير .

والترجمة الحرفية لهذا العنوان هي «أرض لا إنسانية» أي أرض لا يعيش فيها الناس ، وإنما يعيش فيها أشخاص لهم طباع وميول وخواطف وأهواء لم يعرفها الناس ، ومع ذلك فهذه الأرض التي تقع فيها القصة أرض إنسانية حقاً ، ويعيش فيها ناس مثل ومثلك<sup>(١٨)</sup> ، كما أن عنوان «البطولة» لعزري برنستين لا يترجم عنوانها الصحيح . فمناواتها والسمو يقصد به الكاتب إلى سمو النفس الإنسانية ومجاورتها طور الإنسان فيما ألف من حياته أيام السلم إلى عالم يكتف من المعجزات في التضحية وتقديم الأشخاص أنفسهم وأهواءهم وخواطفهم وسعائهم قرباناً للوطن المقدس حين يثير عليه العدو ويعرض لغزو الفاشيين<sup>(١٩)</sup> . إن ما نذهب إليه طه حسين وتبوية صلياً في الأمثلة المذكورة هو أسد المتطلبات الحقيقية في الترجمة الإبداعية التي يجب أن تستجب النقل التطويري بين اللغتين وتتركز على إيجاد المصطلحات المناسبة والبحث عن «المعادل الوظيفي» الكامل بقدر الإمكان<sup>(٢٠)</sup> .

ويتدرج في الإطار نفسه ما أجازته طه حسين نظرياً وطبقته صلياً ، مراعاة لطبيعة لغتي المصدر والمُراد ومعايير البنية والتراكيب الأساسية فيها ولاختلافات حضارية جارية فيها . المترجمين للأدبيين ، من جديد التيروط في ترجمة بعض «الألفاظ الأجنبية» وتفسيرها

إذا لم يكن ثمة مسوغ ما . ولا بأس ، بعد ، في تفسيرها تفسيراً موجزاً . لقد فوجيء بهذا وهو يترجم «نظام الأثنين» ، فأبقى على «البوليأركوس» كما هي ، وقال «معنى الكلمة الحرفي : رئيس الحرس»<sup>(٢١)</sup> ، وعلى «الأزكون» وفسرها بأنها «رئيس الحكومة في أثينا»<sup>(٢٢)</sup> ، وعلى «الكولاكريتا» وشرحها «وهم الذين كانوا يتولون الإنفاق على الموائد العامة»<sup>(٢٣)</sup> . ثم خرج بهذه الفاحلة<sup>(٢٤)</sup> :

في هذا الكتاب ، بحكم الضرورة ، ألفاظ يونانية كثيرة ليس من سبيل إلى ترجمتها ، لأنها تدل على معاني لم يعرفها المحدثون من الإنجليز والعرب . لذلك احتفظ بها المترجمون الأوروبيون واحتفظت بها أنا أيضاً في الترجمة العربية ، مفسراً كل لفظ منها تفسيراً موجزاً ، ولم أشأ أن أغير صورتها اليونانية بما يسمونه «التعريب» إلا في لفظين اثنين .

وهما أجازته نظرياً وصلياً ، أيضاً ، الإبقاء على «الأسياء» دون تغيير إذا ما رأى المترجم ما يبيحه ، كالذي فعله في ترجمة «أوبيب» : آثرت في هذا الكتاب إيراد الأسماء اليونانية كما ينطقها ويرسمها الفرنسيون<sup>(٢٥)</sup> .

#### ٤ - ٥ :

وأما «الحرفية» . فكان باباها أشد الإباه وأن الدوق العربي وأباها . واعتراه هذا حلقة في سلسلة حلقات

(١٨) المصدر نفسه ١٩٩ .

(١٩) المصدر نفسه ١٩٩ .

(٢٠) س . قويدس : نظرات فكرية . في : فن الترجمة ، ص ٥٥ . مصدر جليل (ترجمة حية شرارة) .

(٢١) ، (٢٢) نظام الاثنين : ٢٢٥ . للموسم القصة (المجلد ٨) . دار الكتب القاهري . ١٩٧٥ . ٢٥ : ١٩٧٥ .

(٢٣) المصدر نفسه ٢٣٥ .

(٢٤) المصدر نفسه ٢٢٢ .

(٢٥) ١٧٨ : القصص القصة (المجلد ١٥) . دار الكتب القاهري ونسبة القادس . ١٩٨٢ .

## ٤ - ٦

ولما كانت أكثر مسائل هذا المحور توصل إلى لغة الترجمة بعمامة ، فإذا يرى فيها طه حسين ؟

مذهبه فيها أن تكون سهلة يسيرة واضحة وباللغة التي يتكلمها الناس ويفهمونها خالية من الغريب و الجملة للتضخمة ، وأن يكون الكلام فيها علباً منسجماً لا يصرف عن المعنى ولا يلقي عن الموضوع إلا أن يكون الأصل نفسه غامضاً فببه المترجم عليه ، أو أن يكون صعباً ، كما هي الحال في وعلم الأخلاق الذي جاءت درجته العربية كالأصل اليوناني لا تحل من صعوبة ، ولا يستطيع القارئ أن يفهم فيها شيئاً سهلاً ، وإنما هو محتاج إلى شيء من الأناة والتدبر ليفهم<sup>(٩٧)</sup> .

وعاب أن يعمد للترجمون ، إذا ما نقلت عليهم الترجمة ليخففوا عنهم نقلها ، إلى تكلف اللفاظ الغريبة وإتسائها في المعجمات مألوفة للأذان أم غير مألوفة وإلى الجري وراء الجملة الفخمة ليخفوا ضعفهم في الفهم أو قدرتهم على الأدلة<sup>(٩٨)</sup> . وربما تأتت له هذه القاعدة ، في الأخص ، من نقده ترجمة «البؤساء» لحافظ إبراهيم الذي جانب فيها «روح العصر» لغة وإسلوباً ووقفاً ، فاضطر مكرهاً أن يقول<sup>(٩٩)</sup> :

«ماذا تقول في كتاب لا تكاد تحفي في قراءته حتى تشعر بأنه إنما كتب في غير هذا العصر . كتب أيام

اعتراف أهلية منشؤها أن الحرفية والاتصاف بها يقتل والروح<sup>(١٠٠)</sup> .

لكن طه حسين ، مع هذا ، تكلف الحرفية في ترجمة ديوان وأنتاء للشاعر الفرنسي «بول جيرالدي» . لماذا ؟ لأنه «ليس الديوان هزلًا وليس من ضروب العبث ، وإنما هو طائفة من المقطوعات الشعرية الحلوة التي تقرؤها فتسبغها ثم تعيد قراءتها حتى تستظهرها استظهاراً» .

٢

وقد كنت أستطيع أن أحدث إليك فيه جلدًا ، وأن أترجم لك منه ترجمة عربية صحيحة لا تخلو من مائة وإن كان هذا صعباً ، ولكني ، مع ذلك ، تعمدت أن أحدث<sup>(١٠١)</sup> إليك فيه مازحاً وأن أتكلف الترجمة الحرفية . . . . . لأنني أردت من هذا الخلط بين الجلد والمزح أن أعرف هذا الشاعر من جهة ، وأعرف كيف يفكر القوم وكيف يتحدثون من جهة أخرى ، ونشر بأن الترجمة الحرفية في الأدب قد تكون نافعة وقد تكون قبيحة . ولكنها مفيدة للجمال الأدبي في كثير من الأحيان . . . . . أن أترجم ، إذن ، ترجمة حرفية خالصة ، وأتكلف الأسلوب الفرنسي في اللغة العربية ، وأعرف أن هذا الأسلوب قد يفضي كثيراً من الناس فاسارع بأن أعلن أنه يفضي أيضاً . وأعرف أنه قد يعجب كثيراً من الناس فاسارع وأعلن أنه يعجبني أيضاً . فهو يفضي حين أريد الجلد ويعجبني حين أريد الضحك<sup>(١٠٢)</sup> .

(٩٧) راجع لهذا : المصدر السابق ٣١٤ .

(٩٨) خلطات ١ : ١٥٧ - ١٥٨ .

(٩٩) حديث الأرملة ٤ : ٥٦ .

(١٠٠) تكملة ديوان بول ٢٠٩ .

(١٠١) حافظ وشوقي ٨١ - ٨٥ .

كانت اللغة العربية بدوية جزلة لم تخلع بَعْدُ أسبال البداوة ، ولم ترتد حلال الحضارة ، أيام كانت لغة الصحراء يصنعها الخدائد والمناجون ..... هو يصف هذه اللغة البدوية عواطف حضرية ، ومعاني حضارية . عواطف ومعاني نشأت في عواطف كتاب القرنين في القرن التاسع عشر !» .

وانتهى مازحاً متهاكياً جداً :

«لقد كنت أظني أحرف العربية واستطيع أن أقرأ فيها كتاباً ولا سيما من هذه الكتب المعاصرة ، دون أن أحتاج إلى بحث كثير في القاموس ، فلما قرىء عليّ البؤساء عرفت أن من تواضع لله رفعه . وأقسم لولا هذا الشرح الذي تفضل به حافظ على القراء لما تقدمت في قراءة الكتاب إلا مع شيء غير قليل من المشقة والعناء . ولكني لا أدري : أمة هذه أم نقصة ؟ ولعلها مزية ونقصة في وقت واحد :

مزية لأنها تدل على أن حافظاً قد وحى لفته وأحسن الألفام بها والانضاع واستظهر .....»

ونقصة لأنها تكلف ، ولأنها عقبة تحول بين الفاري وبين الفهم ، ولأنها لا تلائم روح العصر ، ولأنها لا تعين على ما قصد إليه من نشر آراء فيكتور هوجو وإذاعة عواطفه بين شعبنا .... الذي لا يعرف لغة رؤية والمعجاج منه إلا نفر يُصَوَّن .... أحد لحافظ هذه اللغة العربية الجزلة ، لأنها تدل على عناء وجهد عظيمين ، وأنكرها عليه لأنها تكاد تجعل هذا الجهد غير نافع وهذا العناء غير مفيد .....» .

إن مراعاة «روح العصر» في اللغة والأسلوب والمصطلح والذوق سمة عامة في الترجمة وقاعدة من قواعدها العامة . وهي حير وشاقة وامتحان صعب لمنزلة المترجم وحذقه ومعرفته الفن الذي يترجمه ، ولقد يلوته وحيداً في ترجمة كتاب «سياسة نامه» لنظام الملك الطوسي (من القرن الخامس الهجري) من الفارسية إلى العربية ، ومع صديقي الأستاذ الدكتور غلام حسين يوسف في ترجمة كتاب «قصتي مع الشعر» لنزار قباني ، وكتاب «مختارات من الشعر العربي الحديث» لمصطفى بدوي من العربية إلى الفارسية (١٠١)

وعلى أية حال ، فالترجمة بالنثر تظل ، وإنها كذلك ، «أيسر وأقرب» (١٠٢) ، كما تظل الترجمة بالشعر «أشق وأعسر» (١٠٣) ومرد هذا غير «أدبية النصوص» و«بلاغتها» الخالصة في لغاتها ، تبين الأنواق فالذوق الغربي ، مثلاً ومخالف من وجوه كثيرة للوقتنا الحديث على تغييره وتطوره ..... ومن هنا كانت - في الشعر الأجنبي خاصة والأدب الأجنبي عامة - صور قد يصير جداً نقلها إلى اللغة العربية ، حتى إذا نقلت لم تسفها ولم تطمئن إليها نفوسنا وأذنانا ، ومع ذلك فهي تعجبنا وترضيها كل الرضا حين نراها في لغاتها الأجنبية الخاصة (١٠٤) .

ـ هـ ـ

وأخر المطاف مع قضية الترجمة عند طه حسين ما يسميه هو ، وغيره كذلك ، «الترجمة عن ترجمة» . هذا الضرب ولا يمكن الرضى به أو الاطمئنان إليه ،

(١٠١) راجع : كافي - لفتايل اللغة والشعر ٩٧-٩٨ ، دار الأندلس - بيروت ١٩٨٨ ، وترجمي العربية لكتاب «سياسة نامه» ، ص ١٦٠ ، دار الثقافة - الدوحة ٢٥ : ١٩٨٧

(١٠٢) كتاب ديوان ٢٠٩ .

(١٠٣) ١٠٦٤ و ١٠٦٥ - حافظ راجحي ٤٩ .



«ديسيوس» لسوفوكليس عن «اندريه جيد» الفرنسي<sup>(١٠١)</sup>، وليس عن اليونانية دون أن يذكر شيئاً أو يبين حلة، اللهم الا ما قد يكون من حبه الكاتب وإعجابه به. وأظهر رضاه بترجمة صديقه أحمد حسن الزيات «آلام فرتر» واطمئنانه اليها مع ملاحظة أن الزيات لم ينقل الكتاب عن «لغة الأولى»، وإنما نقله عن الفرنسية. وربما عزز موقفه أن الرجل وقد استطاع، مع هذا كله، أن يخرج لنا منه صورة صحيحة واثمة، عرفنا مقدراً ما عانى في سبيل ذلك من مشقة وما كابد من صعوبة<sup>(١٠٢)</sup>.

واغبط حين أخرج أستاذة لطفي السيد كتاب «السياسة لأرسطاطاليس مترجماً عن الفرنسية»، لكنه لم يُغَيِّب رأيه بل أعلنه ويرر صنع أستاذة بالفلسفة الصابئة: «وأحمد لطفي باشا يعلم - ولا يخفى - أن أقوم الترجمة ما نقل عن الأصل مباشرة».

ولكنه يعلم أن العرب قد نقلت لهم آثار اليونان من طريق السريانية لفظة الذين كانوا يحسنون اليونانية، وأن الذين يحسنون اليونانية حين بدأ بترجمة أرسطاطاليس كانوا لا يوجدون الا في الوهم والأمل.

فلم يكن من الممكن ولا من المعقول أن يتنظر بترجمة أرسطاطاليس حتى يوجد الشباب الذين يحسنون اليونانية ويحاولون الترجمة منها مباشرة. وهو يرى أن شيئاً غير من لا شيء، وأن ما وسع للمسلمين في العصر

وهو في أية حال، نقص أو قصور لا بد من أن يعدل عنه الى الترجمة وعن اللغة التي كتب فيها الأديب أو العالم أو الفيلسوف<sup>(١٠٣)</sup>، ومن أجل هذا ظل يلح على الدعوة الى تعليم اللغات الأوربية الكبرى كلها في المدارس والجامعات، ويرحب بتعليم اللغات الشرقية<sup>(١٠٤)</sup>، لأنه كليل بالآلة ونقل آثار الكتاب الألمانيين مثلاً أو الروسيين عن الترجمة الفرنسية أو الانجليزية لهؤلاء الكتاب وعاصم لنا من اللجوء الى ما لجأ اليه قدامنا حين نقلوا الفلسفة اليونانية عن السريانية، وحين نقلوا بعض الآثار الهندية عن الفارسية<sup>(١٠٥)</sup>، فوقع وكثير من الخلط والاضطراب في النقل. ومن هنا صرف بعض المذاهب الفلسفية اليونانية عن موضعه، وأضيف بعضها الى غير أصحابه، وظهر شيء من الاضطراب في تاريخ الفلسفة الاسلامية وفي الصلة بينها وبين الفلسفة اليونانية<sup>(١٠٦)</sup>.

يبد أنه يظل ثمة وجه للمسألة عنده، وهو أنه لا ضير - حين اللزوم - في الترجمة عن ترجمة أو «النقل» بالواسطة «بالمقياس» الى بعض اللغات التي لم ينتشر درسها في الشرق العربي<sup>(١٠٧)</sup> مادمتا لا نجد من يحسنها أو يعرفها وفيها أحوال نرى ترجمتها لازمة وضرورة ثقافية أو فكرية، فشيء - دائماً - خير من لا شيء.

ووظل ثمة استثناءات فيها بعض مصادرة حل رأية. فقد ترجم هو نفسه قصتي «أوديب» و

(١٠٥) نقد وإصلاح ١٨٥.

(١٠٦) كليات ٤٣.

(١٠٧) نقد وإصلاح ١٨٥ - ١٨٦، وكليات ٤٣.

(١٠٨) القرآن ٢١.

(١٠٩) القرآن ٢٢.

(١١٠) ص ١: للمجموعة الكاملة (الجلد ١٥).

(١١١) كتاب روتلوتون ٢٠١ -.

وإنما نقد واستقصى وراقب الترجمة واستقصى النصوص وقابل بين التراجم المختلفة ورجع بعضها على بعض ، ولولا ذلك لما استعار مني المعجم اللاتيني وكتاب النحو اللاتيني . فالذين يقرأون هذا الكتاب يجب أن يعلموا إلى أنهم لا يقرأون ترجمة ثانية عن ترجمة أولى ، وإنما يقرأون كتابا ترجم عن أصله اللاتيني ، وكانت ترجمته الفرنسية هاديا للاستاذ ودليلا<sup>(١١٦)</sup> .

وقد يشفع لطفه حسين ، فضلا عن احتياظه في الرضى بترجمة الزيات وأطمئنانه إليها وتبريره لترجمي لطفي السيد وترجمة عبدالعزيز فهمي ، أن رأيه في الترجمة عن ترجمة أن في مرحلة متأخرة عن المراحل التي صدرت فيها ترجمة الزيات (١٩٢٣) ، وترجمنا لطفي السيد ، وترجمة عبدالعزيز فهمي ، وترجمته هو (١٩٤٧) .

العباسي ، والأوروبيين في القرون الوسطى ، يمكن أن يسع الشرقيين المحدثين في هذه الأيام<sup>(١١٧)</sup> . غير أن محيطه المبررة ، كذلك ، نحو ترجمة لطفي السيد وعلم الأخلاق لأرسطاطاليس عن الفرنسية ، أيضا ، كانت أشد ، ومؤاخذته كانت أقوى . فقد ونقل الكتاب عن ترجمة فرنسية ، وكنت أود لو نقل عن أصله اليوناني ولكن الأستاذ نفسه يجيب في التصدير بأنه كان يرد ذلك أيضا ، ولكنه لم يدرس اليونانية ، وقد فعل ما استطاع أن يفعل ويذل ما استطاع أن يذل من الجهد لتحرير الصواب في ترجمته العربية ، فلم يقتصر على ترجمة فرنسية واحدة بل اعتمد غير ترجمة<sup>(١١٨)</sup> .

ولمخ لما ترجم عبدالعزيز فهمي ومدونة جوستين<sup>(١١٩)</sup> عن الفرنسية مستعينا كثيرا بالأصل اللاتيني ، وهو ما سوغ له اعتقاده بأن المترجم ولم يؤمن للترجمة الفرنسية أو للترجم الفرنسية التي اعتمد عليها اعتيادا مطلقا



(١١٦) ملاحظات : عرضي وقد ٣٣٨ .

(١١٧) حديث الأربعة ٢ : ٥٦ .

(١١٨) ملاحظات : عرضي وقد ٣٣٩ .

## من الشرق والغرب

### توطئة :

ارتبطت نهضة الشعر الديني في القرن الأخير بنهضة الشعر عامة ، فقد أتبعت الأمة بفعل عوامل عديدة لتواجه ماضيها وحاضرها مواجهة فعالة ومؤثرة جعلت الحياة الفكرية والأدبية - ومن داخلها الشعر - تحفل بالكثير من التجارب والتيارات والرؤى ، بحثاً عن هوية الأمة ومستقبلها ، وكان الشعر باعتباره فن العربية الأول ، خير معبر عن صوت الأمة وحركتها ، وخير مسجل لمسيرتها أيضاً ، باعتباره في جانب من جوانبه سجلاً للأحداث ، وعلقاً عليها من وجهة نظر الشعراء ، التي قد تختلف بتفاوت رؤاهم وقدراتهم .

لقد وصل الشعر في القرن الثالث عشر الهجري إلى حالة من الجمود والقفول ، ربما لم يكن لها مثيل من قبل ، فكانت أغراضه متراصة ، تعبر عن بعض المطامحات والمساجلات بين الشعراء ، وكان مستواه الفني رديئاً ، حافلاً بالتقليد ، والصور الجافة والألفاظ البراقة ، والبدعيات المتكلفة والمفصلة ، وكان الشعر في وضعه هذا ، في تشابه حقيقى مع ما وصل إليه المجتمع من ركود وخمود . وإن كان هذا القرن قد شهد في أواخره بداية النهضة الاجتماعية والفكرية والأدبية ، التي كانت ثمرة جهود أسرة محمد علي بإنشاء المدارس أواسال البعث إلى الخارج وإقامة بعض الصناعات ، والوصول إلى عصر الصحافة ، وترجمة بعض المواد الفكرية والأدبية إلى اللغة العربية ، وغير ذلك من عوامل هيئت ومهدت لاختلاجة الحياة الحقيقية داخل المجتمع ، والحركة الثقافية بعمامة<sup>(١)</sup> .

ومع دخول الإنجليز إلى مصر ، واحتلالها ، وما وابت ذلك أو سبقه من ثورة الغياض بقيادة عرابي ،

## عوامل نهضة الشعر الديني في العصر الحديث

حلمي محمد القاعود

كلية الآداب - جامعة طنطا - مصر

(١) لعل كتاب د. في الأدب الحديث ، يوزنه ، من أفضل الكتب التي تناولت تلك الفترة بشكل وافٍ . وانظر حل سبيل تأثر تاريخه لشعره في الجزء الأول - ٨٨ .

دار الفكر - بيروت ١٩٧٣ م ص ٣١ ، ٣٢ ، ١٦١ ، ١٨٤ ، ١٨٨ .

الارتباط بالدين وثيقا الى هذا الحد ، فان الارتباط بالنبي الذي جاء بهذا الدين لابد أن يكون أشد وثوقا وأقوى أصرة ، ومن هنا كان لمحمد - صلى الله عليه وسلم - مكانه البارز على غارطة الشعر الديني ، حيث يحتل مساحة كبيرة منها ، إن لم تكن المساحة الأكبر ..

يمكننا إذا أن نقول : إن ازدهار الشعر الديني سواء ما يتكلم منه عن قضايا دينية عامة ، أو يتناول شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وكلاهما مرتبط بالأخر - يرجع الى عوامل أو دوافع عديدة يمكن أن نوجزها فيما يلي :

١ - عوامل فنية .

٢ - رؤية الحاضر من خلال الماضي .

٣ - التأثير بالغرب .

٤ - التجربة الذاتية .

وستعالج فيما يلي ، ويبيهاز غير غفل ، كل عامل من هذه العوامل على حدة ، لنرى في النهاية كيف ساعدت هذه العوامل أو أدت إلى نهضة الشعر الديني .

#### ١ - العوامل الفنية :

لا ريب أن الشعر العربي المعاصر قد شهد نقلة كبيرة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ( وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي ) من واقع شعري باهت الملامح ، قليل المطاء ، إلى واقع شعري تفجر فيه نبض الحياة وإشراق الديباجة ، وشرف الغرض ، وسمو التعبير على رائد النهضة الحديثة « محمد سامي البارودي » ، ثم بلغ ذروة عالية من الازدهار في عهد شوقي وحافظ وغيرها ..

الذي هُزم في معركة التسل الكبير أمام الجيش الانجليزى ، فقد تحركت مصر والعرب تبع لها ، لمواجهة الهزيمة المريرة التي انتهت بالاحتلال . لقد تحركت الدول الأوروبية القوية على مدى القرن الرابع عشر الهجري لتفترس الدول العربية واحدة بعد أخرى ، بالاحتلال المباشر أو غير المباشر وصاحب ذلك ثورات ومعاهدات واتفاقيات ، وخروج عن الارتباط بدولة الخلافة في تركيا ، وسعت مصر والعرب الى بناء حياة جديدة تتناسب مع أمانيهم ، وتعيدهم الى المجد ، أو تعيد المجد إليهم ، ولكن الفزوة اليهودية الصهيونية بمساعدة القوى الكبرى ، والتي توجت بانتصار اليهود وانتزاعهم لفلسطين ، والسيطرة على القدس ، واحتلال أراضي عربية أخرى ، وليرض وجودهم السياسي والعسكري على العرب ، قد أحدثت في الواقع العصر الإسلامي رد فعل عنيفا يعبر عن الاحساس بالهزيمة والتشوق الى الثار ، وألححت عن أساليب عمالية وثقافية للبناء الحضارى ، ومواجهة الانهيار الذى جرف الأمة ، وأرهقها بالزبد من العناء والقهر والمذلة .

كان على فن العربية الأول أن يعبر عن الرؤى المتباينة في مواجهة كل القضايا التي فرضت نفسها على الساحة طوال القرن الرابع عشر الهجري ، بالسلب أو الإيجاب ، وكان للجانب الديني في المسألة حجمة الكبير ، وأثره الفعال ، إذ إن الدين الإسلامي يمثل في واقع الأمة الإسلامية بعامة ، والعرب خاصة ، حياتها ومستقبلها ، هويتها وشخصيتها ، حضارتها ومدنيتها ، تاريخها ومجدها حصنها وسلاحها ، فلسفتها وحلمها ، وقد ظل الدين في الوجدان الشعبي والفقوى يمثل ذلك الرباط الوثيق الذى يربط أبناء الأمة الى الجهاد والمقاومة والدفاع من الحطسة والذلات ، وكان على الشعراء أن يعبروا عن هذا الوجدان تمبيراً قويا وفعالا ، وإذا كان

مطحياً أو شكلياً ، لأنها لم تنبه الضمائر إلى هذا التراث من أي منظور تفسيري ، ولم تلتفتهم إليه من حيث هو حصيلة مواقف إنسانية لها أبعادها الروحية والفكرية خلف العبارة وخلف ألفن ، وإنما هي قد اقتصرت مهمتها على استنحاء هذا التراث ، وإعادة - بكل شخصاته الفنية - ألى قارئ العصر ... » (٢) .

إن قراءة شعر البارودي ومدرسته تدلنا بلا أدنى ريب على أن هذا الشعر قد عمل هموم عصره وأنه لم يتوقف عن مجرد الإحياء ، وإن كان الإحياء في حد ذاته طاقة لا يستهان بها ، وانصرف إلى التعبير عن واقعه من خلال التراث « عبارة ونما » ولنا في تلك القصائد الطويلة ، والتي بلغ بعضها عند البارودي ما يقرب من أربعمئة بيت ، ما يؤكد قسوة حكم الدكتور عز الدين اسماعيل على مدرسة البارودي ، فقد حملت هذه القصائد آمال الأمة وأمان الشاعر في واقع جديد وامتياز ، له هويته الخاصة في مواجهة تيار الانبعاث الكاسح الذي استهدف الشخصية القومية والخصائص الذاتية للأمة .

إن الدكتور عز الدين يرى أن التقيدة الطويلة هي « الكشف الحقيقي في ميدان الشعر العربي الحديث بعامة ، والإضافة الجديدة الجديرة بمزيد من الاهتمام في وقتنا الحاضر » ثم يرى أن ذلك كان طموحاً في التجربة الشعرية الجديدة كانت له مقدمات ضد المدرسة الرومانتيكية وشعراء المهجر (٣) وهذا القول يحتاج إلى مراجعة ، فللبارودي قصيدة الشهيرة « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » وتقع في حوالي خمسين وأربعمئة بيت ، وربما كانت أطول قصيدة في شعرنا الحديث ، وهناك قصائد طويلة أخرى للبارودي وغيره من غير

لقد كان الدافع إلى هذه النهضة الفنية في الشعر هو عامل التقليد البحث وينصرف إلى تقليد تلك النماذج الرائعة التي طالعها الشعراء في شعر الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي . فكانت هنالك نماذج لامرئ القيس وكعب وحسان والفرزدق وجعير والأخطل وابن الرومي وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء وغيرهم . . . ولعل « البارودي » كان يبدل من تقديم « مختاراته » إلى تقديم نماذج شعرية تنموية في عصر مختلف ليحتذيا الشعراء المحدثون وينسجون على منوالها ، من أجل الارتقاء بالشعر العربي والوصول به إلى غايات أفضل حفظاً من واقعه المروث من العصور السابقة مباشرة ، والتي انحدر فيها الشعر - إلا قليلاً - إلى دركات من الانحطاط لم يعرف لها مثيلاً في تاريخه الطويل .

ومن هنا يمكن القول إن البارودي ، وشوقى إلى حد ما - كانا في تقليديهما واحتداثييهما للأقدمين مثلاً ذلك الشوق العارم إلى عبسة الشعر بصيغة حاسة ، وأن ما فعلاً - خاصة ، البارودي باعتباره الرائد - كان يمثل ذلك الدم الجديد الذي فجر في تراثنا الشعري وشعرنا الحديث أيضاً طاقات روحية وفكرية ولا يمكن إنكارها ، ولا الغض من قيمتها ، وأحسب أن الدكتور عز الدين اسماعيل كان قاسياً في حكمه على هذا الدور الذي قام به البارودي ومدرسته تجاه تراثنا الشعري الساطع حيث نفى أن يكون للبارودي أو مدرسته أي أثر في تعجير الطاقات الروحية أو الفكرية في التراث الشعري العربي ، ورأى أن مدرسة البارودي « قد أحدثت النقص لهذا التراث في نفوس الناس فقط » وبني على ذلك نتيجة تقول بأن ارتباط مدرسة البارودي بالتراث « كان ارتباطاً

(٢) « عز الدين اسماعيل - الشعر العربي المعاصر : قضايا وأطراف نقدية والعصرية - دار الكتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ - ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) السابق ، ص ٢٦٧ .

لكيف يَرُضَى الفقى بالذلِّ بمِجَلَّة  
والذلُّ تأنفُه العبدانُ والحسدُ  
ولا تحسِفُ وِدةَ صَوْبِ أنتِ وَاوِدَّةُ  
من أخطائه الرُّزَايا غَالَةُ المِرْمُ<sup>(٥)</sup>

وهكذا نجد أن شعر البارودي ومدرسته لم يكن مجرد إعادة النبض إلى التراث في نفوس الناس ، بل كان أكبر من ذلك ، وإن لم يحقق كل ما يأمله الناقد المعاصر للزُّود بتفافة خفيفة تجمع بين الموروث والمعاصر في بيئته وتاريخها .

نعود إلى القول بأن نبضة الشعر العربي الحديث على يد البارودي ومن بعده ، شملت أحد جوانبه أو معالنه الأساسية وهو « الشعر الدينى » ، فقد استطاع هذا الشعر أن يحقق تقدماً تعبيرياً وفنياً واضحاً ، وأن تكون نبضته في بعض الأحيان هاملاً له أكثر من دلالة معنوية وفنية .

إن الشعر الدينى أقرب إلى الوجدان الشعبي من أى شعر آخر ، لأنه يمثل ذلك الملاذ الذى يجد فيه الإنسان غايته من اتصال بالخالق الأعظم ، والعقيدة المتصلة بروحه ونفسه ، وحامل الرسالة « صلى الله عليه وسلم » وما يحظى به من مكانة في القلوب والأفئدة . وكانت المحن التى تمر بها الأمة الإسلامية في الوطن العربى وخارجة حافزاً قوياً على اللجوء إلى ساحة الدين باعتباره قارب النجاة الذى يطمح إلى ركوبه الذين أطاح بهم اليُثم المالح ، ويحاول أن يفرقهم في جوفه العميق ، ولهذا كان الذين عجزوا على استمرار الحياة ، والأمل في المستقبل ومواجهة عوامل اليأس والقنوط والهزيمة .

المدرسة الرومانتيكية وشعراء المهجر ، تتميز بقدرات تعبيرية وفنية متفوقة ويكفى أن نذكر مطولات شوقي وحافظ وعزم والزهاوى والنهال والطرابلسى وغيرهم ومن ثم ، فإن مقاييس الدكتور عز الدين نفسها تؤيد قسوته في الحكم على مدرسة البارودي وعلاقتها بالتراث الشعرى العربى ، وسدى قدرتها على تعجير طاقاتها روحية أو فكرية من خلاله .

وإذا كان البارودي يجد مثلاً في نظريته التاريخية لمصر ، وهى نظرة حزينة متشائمة أن بلده كانت دائماً غنيمة للغريب ، وأن أهلها كانوا دائماً ضحايا لهذا الغريب ، فإنه لا يلبث أن يستلهم روح التراث المناضلة التى لا تعترف بالاستكانة والخضوع . يقول في إحدى قصائده معبراً عن حزنه وتشاومه :

وما مصرَ عصر الدهر إلا غنيمة  
لمن حل مغناها وهب مقسم  
تداولها السلاك من كن أمة  
ونال بها حظاً فصيحاً وأعجم  
فما أهلها إلا عبيد لمن سطا  
ولا ربحها إلا لمن شاء مقتم<sup>(٦)</sup>

هذه النظرة بالرغم من تشاؤها ، وامتلائها بالمبالغة أو الاحباط الذى كان يفرضه واقع الاحتلال الانجليزى لمصر ، وانصراف الكثيرين أو خذلانهم للشوة العرابية بعد استيلاء الأمر للمحتل ، ولا تجعل البارودي يستسلم أو يرضى بالهوان ، ولكنه يستوعب التراث وحكمته الخالدة ، أو طاقاته الرائعة في تعجير المقاومة والكفاح وهو ما يعبر عنه « البارودي » بقوله :

(٥) ديوان البارودي لمحقق محمد شفيق سرور ، ط للبروف ١٩٧٢ :- ١٩٧٢ ، ٣/٥١٢ .

(٦) ديوان البارودي : ٥٤٠ ، ٣ .

من يسعها ، ومنهم من يسعها ومنهم من يسعها ،  
 ومنهم من ينجح بها ومنهم من يفشل فيها ،  
 عن الشروح والتعليقات التي وضعت حولها . وفي دار  
 الكتب المصرية مجموعتان كبيرتان الأولى تحت عنوان  
 تخفيض البردة المسماة بالكواكب الدرّة في مدح خير  
 البرّة وهي تسع وستون تخميّسا لم يعلم جامعها ،  
 والثانية عنوانها : الشهب المضيئة في خميس الكواكب  
 الدرية ، وهي ثلاثون تخميّسا لم يعلم جامعها ، ولا تخالو  
 مكتبة في أوروبا من شروح للبردة وتخفيض لها<sup>١٧</sup> .

وقد عارض البردة كثيرون ، من ابراهيم في العصر الحديث : البارودي في قصيدته «كشف الغمة في مدح سيد الأمة» وشوقي في قصيدته «تهنئ البردة» ومحمد عبد المطلب في «ظل البردة» وإبراهيم داود عبد القادر فطاني «تهنئ البردة» و د . حسن ابراهيم ومحمد رسول الله ومحمد خليل الخطيب «بشرى العاشقين بولوغ سيد المرسلين» وعمل أحمد باكثير «كشف ما جرى في مدح سيد تلوي» ومهاشم الرفاعي «تهنئ البردة» .

وقد شطر البردة كثيرون منهم « عبد العزيز باشا  
 محمد » و « محمد بك فرغان » و الشيخ أحمد بن  
 شرقاوى الخلفى ، كذلك فقد أحسها كثيرون من بينهم  
 « عبد الرحمن السوطى المالكى » الجرجاوى ( توفى بعد  
 عام ١٣٧٠هـ ) ، و « عبد اللطيف المصرى » .

و هذا التقليد الذي اعتمد على المارسة والتشجيع... صاحبه انتشار ملحوظ للبردة نفسها ، وإيمان لقراءها ، خاصة في بعض البيئات المشبعة ، فضلا عن الطرق الصوفية ، ويمكننا أن نذكر أن قراءها أو تلاوتها باستمرار كانت من العوامل الحافزة

وقد وجد الشعراء - باعتبارهم السنة الأمة - الفرصة مواتية للتعبير في المناسبات المختلفة خاصة ما تعلق منها بالنبي - صلى الله عليه وسلم مثل - : مولده ، الحج ، العيد ، رمضان ، غزوة بدر ، العام الهجري . . . عن الحموم والأشجان والآمال والأحلام التي تستعمرها الأمة على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي . .

وكان للشعراء دور هام ازاء التعبير عن خلال الشعر  
الديني ، فقد وجدوا تراثا هائلا وحياً وناضيا بذاته ،  
فحاولوا تقليده ، والإبداع على غرارهِ ، واحتلته في  
اللفظة والصورة والبناء والتركيب والوزن . . . وحاول  
بعضهم أن يتفوق على النماذج المقلدة - بفتح اللام  
المشددة - ليصل الى الغاية المرجوة في التعبير عن فكرته أو  
رؤيته الشعرية .

ويمكننا أن نرصد أهم محاولات التقليد في ثلاثة أنواع أو ثلاثة أنماط من التقليد : أولها تقليد القدماء ، وثانيها تقليد المحدثين للمحدثين ، وثالثها تقليد المحدثين لنماذج في الشرق أو الغرب من غير الشعراء العرب ، وسنكتفي ببعض النماذج ، حرصاً على الإيجاز .

لقد اشتهر بجمال تقليد القدماء نجد أن البوصيري  
وعقبه بن زهير والامام البرقي وابن الفارض والكميت  
وحسان يحظون على الترتيب - بالتقليد لدى الشعراء  
المحدثين ، وبالطبع فإن البوصيري وقصيدته « البردة »  
ثم « الحمزية » يحظى بأكثر نصيب في هذا المجال .

وقد لقيت « البردة » حفاوة عظيمة في عصرنا الحديث ، وما سبقه من عصور ، ويشير الأستاذ « محمد سيد كيلان » الى أن الشعراء أقبلوا على البردة « فتمت من يصورها ومنهم من يحجزها ومنهم من يحمسها ومنهم

(٦) ، (٧) محمد سيد كيلاني - مجلة الرسالة المجلد ١٨ - العدد ١٩٥٠ - ص ٩٢٣ . وانظر مقدمته كديوان البوصيري : ص ٣٩ ، ٣٠

هل تشطيرها أو تخميسها . يقول « عبد العزيز محمد بك » في مقدمته لتشطير البردة :

« ولما كنت من المعجبين بها المستلدين لتلاوتها آنست من نفس ميلًا لتشطيرها على ماى من قصوره ، وقلة استعداد ، وصادفت فراغا من عمل في صيف هذا العام فرأيت خيرا ما أشغله به محاولة الخصى مع ذلك المبل . . . الخ »<sup>(٨)</sup> .

ومن نماذج تشطيره للبردة قوله في التوصل :

( خلعته مبدىح أستقبل به )  
كسب الخطايا بقلب غير ذى لَومٍ  
قد كان حَظِّي من الدنيا وزينتها  
( ذُنُوبٌ تُحْمَرُ مَضَى فِي الشَّعَرِ وَالْحَتَمِ )  
( إِذْ نَلَذُّ مَا تَخْشَى سَوَائِقِهِ )  
من التَّكْذِبِ والتَّفْرِيطِ فِي الْحَرَمِ  
فأرتعاه في لُحْوِي وَلِي لَسَعْبِي  
( كَانَفِي بِهَيَا بَلَدِي مِنَ النُّعْمِ ) . . .<sup>(٩)</sup>

ويقول « عبد اللطيف الصيرفي » عن تخميسه للبردة :

« الحمد لله الذى حسن أوقات الصلاة لأهل دينه القويم ، وزرع عنهم الإصر إجابة لسؤل من أوجب عليه الصلاة والتسليم . حببيه محمد - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه السارين على منهجه وشواله - . وبعد ، فقد عُنَّ للمخمس لطف مولاه الواضح الخفى . الفقير محمد عبد اللطيف بن المرحوم السيد محمد أفندي

الصيرفي . أن يشرف اللحن والقلم بتخميس على قصيدة البردة التى هى أشهر من نار على علم . عسى يكون له حظ من القبول لدى مملوحها . وطريق للوصول الى أبواب فتوحها . وقد أخرجت هذه الفكرة من التصور للوجود بإلهام واجب الوجود . فجاء تخميسا لا بأس به في بابهِ يقتضيه عطاءه بجانب صوابه على أنه أوضح كثيرا عما ألحَّ عنه المؤلف بالإشارات ودعا شرح ما اتبهم له من غريب العبارات وقد سميت أربع الوردة في تخميس البردة لأنه تآرج مبدح من تتش الأشباح والأرواح فحات طيِّبه وطيب . . . الخ »<sup>(١٠)</sup>

وهذا نموذج من تخميسه ، يقول فيه :

هذا محمد من لدنا بجانبه  
ونال كل به أقصى مطالبه  
فوالذى صانته من سوء عاقبه  
ما سافى الدهر يوما واستجرت به  
إلا وتلت جواراً منه لم يُضم  
كلا ولا رام قلبى نيل مقصده  
من حسن عيش يمينى بأرضه  
أودعت فضيل جميل من معوده  
ولا التمت غنى السارين من يده  
الا استلمتُ النَّدَى من غير مُسْتَلِمٍ<sup>(١١)</sup> .

ويلاحظ أن الشاعر في هذا الديوان يعترف صراحة بأنه يقلد ، ويتطالع عبارات يصدر بها قصائده ومقطوعاته نحو : « قلت من نوع التوليد . . » و « قلت في المحنى أيضا » ، « وقلت مشطرا » ، « وقلت مشطرا بناء على طلب الإخوان . . . »<sup>(١٢)</sup> .

(٨) عبد العزيز محمد بك - تشطير البردة للإمام البوصيري - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م - ص ٩ .

(٩) السابق : ص ٥٢ ، وبإذن القرويين شعر البوصري .

(١٠) ديوان الصيرفي - لشرابته السيد عبد العزيز الصيرفي - مطبعة الملايكة بالهيكسية القاهرة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٨ م - ص ٢٧ .

(١١) ديوان الصيرفي : ص ٤١ .

(١٢) السابق : ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، مثلا .



لا تترك العين منها حين تلمحها  
إلا مثلاً كَلَمَحَ البرقي في الظلم  
كأنها حرف برقية نَبَضَتْ  
بالك فانتشرت في السهل والعلم  
لا شيء يسبقها إلا إذا اعتقلت  
بنتاني في مديح المصطفى قلمي  
(محمد) خاتم الرسل الذى خضعت  
له البرية من حُرْبٍ ومن عَجَمٍ .. (١٧)

وإذا كان البارودى قد التزم البوصيرى ، مع توسع  
واستفاضة ، فإن شوقى حاليج « البردة » بروح شعرية  
عالية وأداء متفوق ، مع إشارة قوية وواضحة إلى ما  
تعبه الأمة في حاضرها ، وفي « نيج برده » تظهر  
شخصية شوقى مثل مطلعا ، حتى نهايتها ، وإن بدا  
متاثرا في بعض صوره شعرية آخرين ، هل نحو ما  
يقول شوقى في البردة :

يا جاهلين على الهوى وذقوا  
هل تجهلون مكان الضائق العلم ؟  
لنبتكم أسير القوم في صغر  
وما الأمين على قوم بمتهم  
فلاق البدور وفاق الأنبياء لكم  
بالخلق والخلق من حشر ومن عظيم  
جاء النبوة بالآيات فالتصرفت  
وجئنا بحكيم غير منصرف  
آية كل طائر الملى جند  
يخربون جلال الجنى والهدم  
يكاد في لفظ منه شرف  
يوصيك بالحق والنوى وبالرحم

ومن هنا نستطيع أن نعمل تقليد « البارودى » و  
« شوقى » « وعيد المطلب » وغيرهم « بالمواعيل الفنية أو  
الرغبة في التقليد البحث ، وإن كان هذا لا يمنع أن  
تكون هناك رغبة في بحث الماضى أو عرض هموم الأمة  
بحوار ذلك المهدف الفني الخالص ، كما سنرى عند  
باكثير » مثلا .

وقصيدة « البارودى » في تقليد « البردة » تعد من  
أقوى القصائد التي نظمت في هذا المجال ، فضلا عن  
كونها أطولها جميعا ( تعادل تقريبا ثلاثة أضعاف  
البردة ) ، وقد عالج فيها الشاعر بعض القضايا بتوسع  
واستفاضة خاصة ما يتعلق منها بالحروب وانتصارات  
النبي - صلى الله عليه وسلم - والتوسل به . والتشجع ،  
ويبدو أن الإلحاح حل هذه الجوانب كان يلمس وترا  
حساسا لدى « البارودى » حيث هزمت الأحداث ،  
وجرعت مرارته وحيدا في منفا ويعد عودته . يقول  
البارودى واصفا حاله :

تكاء دثني خطوب لوزنت بها  
مناكب الأرض لم تثبت على قدم  
في بلدة مثل جوف العير لست أرى  
فيها سوى أسير تحنو على صمم  
لا استفر بها إلا على قلبي  
ولا ألد بها إلا على ألم  
إذا تلفت حوّل لم أجد أثرا  
الا غيابة ولم أسمع سوى كليم  
فمن يرؤ على نفسه كباتها  
أو من يصير قواي من يد القم ؟  
لئت القطارين سارت غلوة حلت  
عنى رسائل أشرافى إلى إسم

بما أفصح الناطقين الضادة قاطبة  
 حديقك الشهد عند الداعي الفهم  
 حلت من خطر جيد البيان به  
 في كل شئ في حسي منتظم  
 بكل تولد كريم أنت قائله  
 تحمي القلوب ونحي ميت المسم . . (١٤)

أما الشيخ محمد عبد المطلب فقد كان وفياً للتقليد  
 البحث في « ظل برده » انطلاقاً من مفهومه للأصالة  
 والوفاء للماضى ، حيث تضمنت القصيدة ألفاظاً وصور  
 القدماء ، فضلاً عن وفائه لنظام البردة كما وضعه  
 البوصيري وإن حاول أن يثبت أنه يعيش في القرن الرابع  
 عشر الهجري . يقول الشيخ في المطلع :

أخرى بك الشوق بعد الشيب والمهرم  
 ساي طوى اليد من نجد الى الهرم  
 ياساري الطيف يجنب السقام الى  
 جفن مع النجم لم يدا ولم ينم  
 يفره بالدمع حاو بات مرهجراً  
 يمد والمطر لاجزاع بلدى سلم  
 اذا غلب البرق اذكى في جوانبه  
 نارا تزججهما المذكرى بلا غرم  
 يهابق ممالك لا تحكى جوى تجدى  
 اذا تالفقت ليلاً في تلسم  
 وياصبا ردى فقد فحبت  
 بها التوى بعد عهد البيان والعلم  
 ياساكى البيان طال البين في غير  
 اريت حل الصبر فاستعصى حل المهم (١٥)

وعندما يتوقف « عبد المطلب » أمام شخصية محمد  
 ( ص ) ليصفه بأوصاف عظيمة ورائعة ، فإنه يذكرنا بما  
 فعله « أبو تمام » مع المتعصم . يقول عبد المطلب عن  
 النبی ( ص ) :

لاحت تحايله تنبيك أن له  
 قدراً تفرد في السادات بالعظم  
 المجتد محمله والمؤمن سويله  
 والحمد مؤوده ، معنى اسمه العلم  
 يرمى النجوم بسين في تقلبها  
 معنى يهتوت مدى الافلاك والنجم  
 يا أحمد الرسل ما هذا الجلال به  
 جبال هذا المحيا باهر الشيم  
 مهابان بالثيم لكن زانه غطراً  
 وقد يوت بنو السادات بالثيم . (١٦)

وهناك من الشعراء من تجاوز المعارضة الشعرية للبردة  
 الى اقتباس أهم ملامحها خاصة في صياغة المطالع ،  
 وأسلوب التوسل والشفاعة والصلاة والتسليم على  
 النبي ، دون أن يلتزم بتقليدها كاملاً كما رأينا  
 البارودي وشوقي وعبد المطلب . فعاشلة التيمورية مثلاً  
 في قصيدة لها تبلغ الستين بيتاً تقريباً ، تنقسم الصياغة  
 « البوصيرية » وتتركز فقط على شخصية محمد ( ص ) ،  
 وتتكلم عن عبته وتترسل به . تقول في مطلع قصيدتها .

أعن ويهجر سرى في حشيس السكلم  
 أم نسمة هاجت الأشواق من إضم  
 لجندحت لي عهداً بالفرام مفسى  
 وشاكى نحر أحباب بلدى سلم

(١٤) التوحيات - الجزء الأول - دار الكتاب اللبناني - بيروت - بدون تاريخ من ١٩٧٧ .

(١٥) ديوان عبد المطلب - شرح وصحح إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ دالي - ط ١ مطبعة الاحمد - القاهرة ( بدون تاريخ ) - ص ٢٥٧ .

(١٦) ديوان عبد المطلب - ص ٢٥٩ .

وَلَيْدَ الْهَيْدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ  
وَقَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَنِشَاءُ  
السُّرُوحِ وَالْمَلَأُ الْمَلَأُكَ حَوْلَهُ  
لِلَّذِينَ وَالذُّنُوبُ بِهِ بَشْرَاءُ  
وَالْعَرْشُ يَزْهَوُ وَالْخُضِرَةُ تَزْجِي  
وَالْمُسْتَهْيُ وَالسُّدْرَةُ وَالْعَصِيَاءُ  
وَحَدِيقَةُ الْفُرْقَانِ ضَالِكَةُ الرُّيَا  
بِالسُّرُجَانِ شَدِيدَةُ غُنَاءُ  
وَالْوُحْيُ يُفْطِرُ سِلْسِلًا مِنْ سُلْسُلِ  
وَاللُّوحِ وَالْقَلَمِ الْبَدِيعُ رُؤَا . . (١٨)

كذلك ، فقد ازدادت هذه القصيدة شهرة حينما حاولت بعض الدول العربية أن تطبق ما أسمته « بالاشتراكية » العربية وراحت تبحث عن جذور للاشتراكية في الإسلام ، وكان بعض آيات القصيدة متشعبا على ذلك ، أو هكذا رأى القوم أن هذه الآيات تعقد وجهة نظرهم وتقويها . نقول الآيات :

الاشتراكيون أنتَ إِنْشَاهُ  
لَوْلَا دَعَاؤِي الْقَوْمَ وَالْغُلَاةُ  
فَلَوَيْتَ مَسْجِدًا وَدَاوُيَا طُفْرَةَ  
وَأَعَفْتُ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءِ  
الْحَرْبُ فِي حَقِّ لَدِيكَ شَرِيعَةُ  
وَمِنْ السُّمُومِ الْإِنْسَانِيَّاتِ قَوَاةُ  
وَالْبَرْهُ هُنَاكَ فَنَّةٌ وَلِغْرِفَةِ  
لَا يَنْتُ عَمَلُكَ نَجَاةُ  
جَاءَتْ فَوَحَّدْتَ الزُّكَاةُ نَجَاةُ  
حَقِّ التَّقَى الْكَرْسَاءُ وَالْخُفَاةُ  
أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَجْلِ الْغَى  
مَا اخْتَارَ إِلَّا ذِيكَ الْفُقَرَاءُ . . (١٩)

دعا فداوى من بعد السُّلَا إلى  
ما كنتَ أَهْلُهُ فِي قَلْبِي مِنَ الْجَنَمِ  
وَمَا يَنْبَغِي لِحَبِيبٍ عِشْقُ مَنْظَرِهِ . .  
مَحْمُودِيَّتُ مَا يَدَّاهُ مِنْ عَنِي  
رَامَ الْوَشَاةُ سُلُوكِي مِنْ عَجَبِهِ  
وَلَمْ أَوْفُ لِمَنْ عَدَايَا وَلَمْ أَرْمِ  
حَقِّي تَصِلَ إِلَى قَوْلِهِ :

إِنْ زِدْتُ جِنَانِي عَنْ غَوَايَةِ  
وَقُلْتُ : يَا نَفْسُ خَلِّ بِسَاعَتِ النَّهْمِ  
وَلَسْتُ بِالسُّلْطَانِ رَبِّ الشَّقَاةِ إِذْ  
يَدْعُو الْبَلَاءُ فَتُخَيِّبُ النَّاسَ مِنْ رَجَمِ  
طَهَ الَّذِي قَدْ كَسَى إِسْرَاقَ بَعْثِهِ  
وَبُشَّةَ الْوُجُودِ سَنَاءَ السُّلْطَانِ وَالْكَرَمِ  
طَهَ الَّذِي كَسَلَتْ أَنْوَارُ سَنَاهِهِ  
نَجْمَانِ أَمْتُهُ فَضْلًا عَلَى الْأَتَمِ  
يَنْعَمُ وَالْحَبِيبُ الَّذِي مِنَ الرَّقِيبِ يُو  
وَهُوَ الْقَرِيبُ لِرَاجِي الْمَجْدِ وَالنَّعَمِ . . (١٧)

ولم يتوقف الشعراء عند البردة وحدها كما سبق  
الإشارة بل تجاوزوها إلى قصائد أخرى كان من أبرزها  
« الحمزية » أو « أم القرى » في ملح سيد الزوى « كما  
سمّاها أبو بصير » ولم تقلد « شوقي » هذه القصيدة  
أفضل ما قام به الشعراء للماصرون في هذا المجال وقد  
اكتسبت هذه القصيدة شهرة كبيرة حين غشها « أم  
كلثوم » وأذيعت في الأمصار العربية والإسلامية . يقول  
شوقي في مطلعها :

(١٧) حله الطراز : ديوان عائشة الجبورية - لجنة نشر الألفاظ الجبورية - مطبعة دار الكتاب العربي - القاهرة - ١٩٥٢ - ص ٢٦٩ .

(١٨) الموقلات ج ١ ص ٣٩ .

(١٩) السبليل ج ١ - ص ٢٨ ، ٣٩ .

قضايا معينة تعاقب منها البلاد آنشد . يقول عمر عن الشورى مثلا :

يارافعا راية الشورى وحارسها  
جزاك ربك خيرا عن محيها  
لم يهلك النزع عن تأييد ذويها  
وللمنية آلام .. تحايا .. ١



الى أن يقول :

وما استبغت برأى في حكومتها  
إن الحكومة تُغري مُستبغتها  
وأي الجماعية لا تشقى البلاد بسو  
رغم الخلاف ورأي الفرد يُقيها . (٢١)

وقد تابع « حافظ » في هذا البعج الشاعر وحمد عبدالمطلب « حين كتب قصيدته « العلوية » التي يتحدث فيها عن الخليفة الرابع « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه ، ويشيد بصفاته ومناقبه ، وأغلب الظن أن محمد عبدالمطلب لم ينظم هذه القصيدة إلا تحديدا لعمرية حافظ إبراهيم (٢٢) فقد ألفها عبدالمطلب في يوم الجمعة ٢٤ صفر الحير سنة ١٣٣٨ هـ - ٧ نوفمبر سنة ١٩١٩ في حفلة أقيمت برئاسة صاحب السعادة اسماعيل صبري باشا (٢٣) والفاوق بين القاء العمرة والعلوية على هذا الأساس يكون حوالي العام تقريبا ، إذ عرفنا أن « حافظا » ألفى قصيدته في مدرج وزارة المعارف بدمرب الجماهير في ٨ فبراير عام ١٩١٨ م (٢٤) .

وبالطبع فإن هذه المحاولة جامت متكلفة ومتعسفة لأسباب تخرج بنا عن مسار البحث ، ولكنها بطريقة أو أخرى كانت عاملا من عوامل ذبوع القصيدة وانتشارها الى جانب ضناه أم كلثوم لعظم آياتها .

ومهما يكن من شيء فقد كان التقليد القدماء خاصة البوصيري عاملا من العوامل التي ساعدت على انتشاج الشعر الديني وبهضته خاصة ما تعلق منه بالنبي ( ص ) ، مع تفاوت واضح في مستوى التقليد ، وإن كان شوقي قد أحرز « القدر الملل » في هذا الميدان ، موضوعا وفنا .

أما النوع الثاني من أنواع التقليد ، فيتمثل في تلك القصائد التي كان الشعراء يتنافسون للتفوق على بعضهم بعضا من خلال نظمها وألفائها . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما رأيناه لدى الشعراء الكبار شوقي وحافظ وعبد المطلب وعبد الحليم المصري . فقد ركز « شوقي » على القصائد التي تتحدث عن النبي ( ص ) وتتأوله ، وقد رأينا فيها سبق مدى شهرة قصائده التي قلده فيها « البوصيري » مثل « البردة والمزمزة » ، وقد أراد حافظ بفعل عوامل أخرى بجانب التقليد (٢٥) أن يشارك « شوقي » ولكن في مجال ديني آخر فركز على شخصية « عمر بن الخطاب » - رضي الله عنه - وقدم لنا قصيدته الشهيرة « العمرية » وهي قصيدة طويلة تقرب من التلامذة بيت ، حملها « حافظ » سيرة الخليفة الثاني - رضي الله عنه - بمخرجة هجوم عصره ووطنه ، وركز على

(٢٠) لدا دراسة مطولة حول هذه القصيدة تقريبا مجلة « الدعوة » السمرية مطبعة بصيرا من العدد ٩٨٨ ومجان ١٤٠ هـ - يونيو ١٩٨٤ م - ولها إشارة الظروف لملها وإفها ، وأبعد ندرتها مجمعة في مجلة « الشعر » بالقاهرة - العدد ٤٦ / ١٩٧٦ -

(٢١) دوران حافظ إبراهيم ج ١ - البردة المسورة المشاة للكتاب - القاهرة ١٩٨٠ ص ٩١ -

(٢٢) في الأدب الحديث ج ٢ - ص ٤١٨ -

(٢٣) انظر مقدمة القصيدة المدارية - دوران عبد المطلب - ص ٣٣٠ -

(٢٤) انظر دوران حافظ - ج ١ ص ٧٣ -

فهب في ذات اجنحة لسمي  
القصي ليل السحب الإمام  
امام بني المهدي وهو ابن تسع  
وأول مسلم صل وصام<sup>(٢٢)</sup>

فهو- أي عبدالمطلب- في هذا المطلع ، لا يتبع نهج القدماء في ذكر الناقة- وسيلهم في الانتقال- ولكنه يذكر الطائرة وسيلة المعاصرين ، فيحدث عن غزو الإنسان لآفاق السماء ، ويكني عن الطائرة بـ « بنت الهواء » ، ويشبهها وهي تشق الفضاء بالظيف ، ويصف ما تحذنه من أثر وصوت يشبه الرعد ، وتترطب من الأرض طورا ، ومن السماء طورا آخر ، ويقارن بين الطائرة وكل من النياق يخوض بها الصحراء والقطارات يدفعها البخار فيرى الفارق الشاسع ، ومن ثم يطلب طائرة يكني عنها بـ « ذات اجنحة » لعله يلقي حل السحاب « الإمام علي بن أبي طالب » موضوع القصيدة المطلوبة .

وقد أثارت هذه المحاولة اهتمام النقاد والدارسين ، ولعل ما قاله العقاد في هذه المجال عبر خير تمييز عن مفهومه للتجديد والمعاصرة حين لقي « عبدالمطلب » بعد أن ألقى الأخير علقته : « إني أعجب بقوة الأمر في العبارة ولكنني أدرك الآن في صميم التقليد وأنت تحب تجويز منه بطيافة ١ » ثم يبين العقاد أن وصف أداة المواصلات « لا يعني التجديد ولكن التجديد يعني وصف جزء من الحياة وجزء من الشعور وجزء من الانسان لأن الشرط الأول في الشعر الحديث أن يصف الانسان ما يحس ويعي لا أن يصف الأشياء مجازة ، للأقدمين ، عكسا أو طردا في أنواع المجازة » ثم يقول العقاد « ولم يكن عبدالمطلب- رحمه الله - بالوحيد في

« العلوية » لا تتوقف عند تقليد العمرية « في كونها تتناول شخصية صاحبها جليل ، بل إنها تمضي إلى أكثر من ذلك ، حين حاول ناظمها أن يكون عصريا ، وأن يستجيب لدعوات بالتجديد التي كانت تقودها مدرسة الديوان آنئذ بزعماء العقاد . فبدلا من أن يجعل المطلع مرتبطا بذلك التقليد الشعري المنتمي إلى البيئة البدوية أو المطلع الجماهيلي القديم بمعنى أحق ، فقد حاول أن يستبدل الطائرة بالجمال أو الناقة ، وأن يستبدل العناصر الجديدة المخترعة بالعناصر القديمة الموروثة .

يقول عبدالمطلب في مطلع العلوية :

أرى ابن الأرض أصغرهما مقاما  
فهل جعل النجوم بها مراما  
رُحاه رونق الخضر ما  
تلفت في مجرّتها وشاما  
فشدّ على كواكبها مُخيرا  
وحلّق في جوانبها وحاما  
صل يبت الهواء كأن طيفا  
يسحق الجو يقطععه لاما  
إذا ما هزمت في الجو عيلا  
جبال النجم تهبط انداما  
وان زجّر السراخ جرت رُحاه  
وولّت حيث يامرّها الزماما  
يسفّ على الثرى طورا وطورا  
تراه على الثرى شقّ الفصاما  
اجنّك ما النياق وما سراها  
تخوض بها المهامة والاكاما  
وما قَطُر البخار إذا استقلت  
بها التياران تضطرم اضطراما

غطته هذا ولا في تباه عن الفارق الصحيح بين شعر التقليد وشعر الصلوق والحرية ... » (٢٥).

ومهما يكن من أمر « العلوية » فقد كانت عنصراً من العناصر التي أثارت في الواقع الشعري روح الجدل والحوار حول ما نعرفه الآن بالأصالة والمعاصرة ، وإن كانت غايتها الأساسية هي التقليد ، سواء تقليد « عمرية » حافظ ، أو محاولة تجاوز الموروث إلى المعاصر والمكتسب من خلال بناء القصيدة ويكفيه في كل الأحوال شرف المحاولة .

وحل نفس الدرب تقريباً سار الشاعر « عبدالحليم المصري » : « وإن كان قد حقق نوعاً من التفوق الفني في تقليده لم يجره » محمد عبدالمطلب « في « علويته » . فقد نسج عبدالحليم قصيدته المشهورة « البكرية » والتي يتناول فيها مسيرة الخليفة الأول « أبي بكر الصديق » رضي الله عنه - ويتحدث عن صفاته وآثره وخدماته للإسلام والمسلمين . يقول مثلاً عن جيش أسامة وإصرار أبي بكر على إنفاذ هذا الجيش بعد انتقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى ، فيخاطب أبا بكر قائلاً :

نهضت يا عمر الناس والدين لم يزل  
رضيماً بأطراف الجزيرة حاييا  
فلولاك عُلّت الأصر بعدد محمد  
هَلُّوا من الإسلام ما كان بنايا  
وأوشك جيش الشام يطوي لرواه  
ويصرف حيا كان الله ... ناوليا

وقال رجال لسليخينة لأبيه  
إلى السلم ، وإرفاً بالرجال الحواشيا  
فقال وأيُّم الله لو أن أنزبا  
تخطفن لحمي أو حسون دماشيا  
لما كنت عن رأي النبي بمادل  
ولو أنني وحدي خرجت مغازيا (٢٦)

وقد أثارت هذه القصيدة حين نظمها وأنشأها نوما من الغيرة لدى حافظ « جعله يشكو إلى « شوقي » عند عودته من الخارج ، ويتمثل نشر قصيدة كان نظمها لينشدها في استقباله ، ويتحدث في بعض أجزائها عن أولئك « المنافسين » الذين يزعمون دولة الشعر وكان يشير بذلك إلى « عبدالحليم المصري » و« بكريته » التي لقيت حفاوة كبيرة غطت حل عمرته (٢٧) ، وهذا بمعطينا دليلاً على أن المنافسة الشعرية القائمة على التقليد كانت سبباً من أسباب ازدهار الشعر الديني بصفة عامة .

**النوع الثالث من التقليد** ، يتجاوز تقليد القدماء والمحدثين من الشعراء العرب إلى تقليد الشعراء الأجانب في الشرق أو الغرب . وقد لا يكون التقليد هنا ذا قيمة فنية عالية أو ذا أثر واضح في الواقع الشعري الديني ولكنه يكتسب أهمية في محاولة استشراف العالم الشعري الخارجي ، ونقل بعض ملامحه إلى شعرنا الحديث ، لتحاول الأجيال اللاحقة تدعيم الملامح المشرقة والمثمرة بصورة ما .

ويمكننا أن نرى بعض الشعراء قد اتجهوا لتقليد نماذج شعرية في الآداب الشرقية الفارسية والأديبية ، وهي

(٢٥) ديوان عبد المطلب ، ص ٢٣٠

(٢٦) جباس صهريه المقاد - شعراء مصر وتجمع لي الحبل المكسي - كتاب الملائح ٢٥٢ - القاهرة ١٣٩١ - ١٩٧٢ - ص ٤١ ، ٤٢

(٢٧) البكرية - مطبوعة مطروسة بني سويف القصصية - بني سويف ١٩١٩ - ص ٢٢ -

قد سمعنا من القصيد نشاء  
وعلى الذف والبطبول غناءه  
كل هذا حلل سنالك غيبار  
حجبوا بالفضيج ذاك الضياء



حلب الوجد ماضيك فصاحوا  
وتعالى زلسيرهم والأتنس  
ونظرونا إلى سنالك هيارى  
بعلن الصمت وجدنا في سكون



ليس بالصعب أن تكبر والأصن  
شام صرعسى وللاذان درى  
إنما الصعب أن تكبر والأصن  
شام تُرعى وإمرسا سائى<sup>(٢٨)</sup>

وقد قام هزام بترجمة « محمد إقبال » إلى العربية ، مما  
كان له أثر واضح في شعره ، ولا ريب أن هنالك تأثيرا -  
وإن كان محدودا - على شعراء آخرين ، خاصة أولئك  
الذين اتصلوا بالفارسية والأردية بسبب ، كما نرى عند  
للمرحوم ، « الصاوي شعلان » ، مثلا .

يبد أن شط و الثاني أو الربايعات ، كان له حضور  
لدى عدد كبير من الشعراء العرب ، بل إن هنالك  
دراوين نظم معظم شعرها ، على هذا النمط ، إن لم  
يلتزم بعضها النغمية في الأقطر الثلاثة واكتفى بالشطر  
الثلاثي والرابع ، كائما نايبا بيتين . يقول الشاعر  
« هبلى شيب » في بعض ثنائياته كما سمعنا :

قريبة إلى أدينا العربي من بعض الوجوه الفنية . وتختلف  
أسباب هذا التقليد باختلاف أصحابه ، ولكن السبب  
الأساسي فيها أرى هو الاهتمام بتلك الآداب الشرقية  
ومعايشة بيتها . ولعل أوضح النماذج على ذلك ما نظمته  
المرحوم الدكتور « عبد الوهاب هزام » في ديوانه  
« الثاني » ، والذي نظمته على هيئة ربايعات فارسية  
متأثرة في ذلك بما اطلع عليه لمشاهير شعراء القوس . وقد  
أشار إلى تلك المسألة باستفاضة في مقدمته للثاني ،  
وحاول أن يعطي القارىء العربي صورة للثاني أو  
الربايعات عند العرب وعند القوس ، وقد وضع عدداً  
من النقاط تفهم منها :

١ - أن الربايعات لم تشع في العربية حتى زمن  
الباخرزي و فلم يسمع بها حتى أنشدها له بعضها .

٢ - وأن الربايعات العربية على وزن الفارسية .

٣ - وأن النغمية في ربايعات العرب تتعلم الشطور  
الأربعة ، مع أن الفارسية تلتزم فيها النغمية بين أشطر  
ثلاثة ، والشطر البائي وهو الثالث منها ، يبرز املالة  
وتقفئته .

٤ - وأن ناظمي الربايعات العربية استعملوا النغمية  
المردولة أحيانا ، وهي التي تكرر فيها كلمة بعينها ،  
وتراعى النغمية قبلها ... »<sup>(٢٩)</sup>

ومن النماذج التي نظمها « هزام » ما نظمته بمناسبة  
حفل للمولد النبوي في دار أحمد الكبراء في كراچی  
( كراتشي ) ( ١٢ ربيع الأول ١٣٧١ هـ ) ،  
« والفصولون يبخنون بمدح الرسول ويصفقون  
ويطربون » :

(٢٨) حلقة من قصائد الوضعية - المراجعة لعمدة الكتاب - القاهرة ١٩٧٣ - صفحات ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢٩) عبد الوهاب هزام - الثاني - دار الفاروق - مصر - بدون تاريخ - ص ٣٣ .

العرب لولا الدين ما سجلت  
تاريخ تحفهم وعساكين  
لا تستعيد العرب تاريخها  
إلا إذا عادت إلى السنين<sup>(٣٠)</sup>  
أو يقول :

بالحلم والسكين أوجسوا يابتي لكم  
فوز الحياتين في أسعى الميامين  
أضفت الصابكم للدين من شغني  
بالدين كي تحرصوا مثلي على الدين<sup>(٣١)</sup>

إذا كان هذا التقليد المتعمي إلى الآداب الشرقية يركز على بناء المخطوطات سواء سميت مثالي أو رباعيات أو ثنائيات ، فإن التقليد المتعمي إلى الغرب ، أخذ ينتج نهجا آخر ألا وهو نظم الأعمال الشعرية الطويلة التي ركزت عادة على السيرة النبوية الشريفة والحديثة عن أجداد الإسلام وحضارته . ولعل معرفة الشعراء العرب لبعض الأعمال الشعرية التراثية في الغرب قد بدأ منذ أخذ شوقي ومحمود وغيرهما ينظمان المخطوطات التي تتجاوز المئات بل الألوف من الأبيات ، وتعمي بعرض التاريخ الإسلامي من خلال سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومسيرة أصحابه رضوان الله عليهم . ولا يعني هنا مدى توفيق المقلدين فنيا أو عدم توفيقهم فليس هذا موضعنا ، ولكن المحاولة ذاتها نبهت الأذهان إلى تلك العوامل أو المجالات التي يمكنها أن تنجز طاقات الشعراء العرب وتدفقهم دفعا إلى تنمية قدراتهم الشعرية ، فضلا عن إمكاناتهم الثقافية فيها أسموه بالإلياذة أو الملحمة أو المسرحية .

لماذا رأينا مثلا « أحد محرم » ينظم مطوالت التي سميت

أو أطلق عليها « الإلياذة الإسلامية » ، نعلم أن لفظة « الإلياذة » لم تكن مألوفة لدى السابقين على محرم وشعراء عصره ، وإنما كان وجودها عندنا استجابة لداعي التقليد والتمهي أن يكون لنا مثل ما لليونان والرومان والفرس من « إلياذة وإنياذة وشاهنامة » كما عبر عن ذلك الأستاذ « عجب الدين الخطيب » - رحمه الله - في مقدمته لإلياذة محرم . لقد اقترح على محرم أن ينشئ « الإلياذة » ، وقال له : « لعل الله سبحانه قد ادخلك هذه المهمة واختارك لها ، لأنك أقرب شعرائنا إلى إخلاص القول والمعمل ، وأكثر توخيا لمرصاته . فاستجاب - رحمه الله - لهذه الدعوة وجاءت نفسه بهذه الفوائد الغزيرة من ديوان ( مجد الإسلام ) ، فأخذت أنشر وألها على الناس من صحيفة الفتح ، ثم نشرت منها قطعة في مجلة الأزهري لما كنت أشرف على تحريره<sup>(٣٢)</sup> .

لقد بذل محرم جهده في تسجيل أجداد العروبة ومفاخر الإسلام قدر استطاعته ، ففتح بذلك المجال أمام شعراء آخرين ليواصلوا الطريق في محاولة لفتح آفاق جديدة للشعر الديني من خلال التقليد ، وإن كانت محاولة شوقي في ديوانه « دول العرب وعظماة الإسلام » أسمى في هذا الميدان ، وإن لم يكن الهدف الوحيد منها التقليد البحث .

وما قاله « محرم » في إلياذته هذه الأبيات التي نشرت أولا ضمن قصيدة بعنوان « أسلا الأرض يا محمد نوراً » ، ثم نشرت ثانيا في الإلياذة تحت عنوان « مطلع النور الأول من أفق الدعوة الإسلامية » ، ولعل العنوان الثاني يستق مع طريقة ترتيب الإلياذة . يقول محرم :

(٣٠) السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٣١) جبريل تيز - جواهر وصور - دار الكتب العلمية - بيروت ( بدون تاريخ ) ص ١٤٤ .

(٣٢) السابق ، ص ١٨٩ .



أملأ الأرض يا (محمد) نوراً  
 واغمر الناس حكمة والنعورا  
 حجبستك الخيوط سرّاً تجلّ  
 يكشف الحجب كلها والستورا  
 عبّ سيلُ الفساد في كلّ وادٍ  
 فتدقّق عليه حتى يثبورا  
 جنت ترمي عبابه بعباب  
 راح يطوي سُيوله واليهورا  
 ينقذُ العالمَ الغريقَ ويصمي  
 أسم الأرض أن تلوق الشبورا  
 زاعراً يشملُ البسيطة مسداً  
 ويغمّ السّبح الطبايق هديرًا (٣٣١) (٣٣٢)

صوت : محمد . محمد . محمد . . . (٣٣٥)

وهكذا نرى أنّ التقليد البحث من خلال نماذج  
 المتعددة ، كان عنصرًا فعالاً من عناصر نهضة الشعر  
 الديني في عصرنا الحديث بصفة عامة ، وتناول شخصية  
 محمد - صل الله عليه وسلم - تناولاً يتسم بالتنوع  
 والغزارة على وجه الخصوص .

## ٢ - رؤية الحاضر من خلال الماضي أو العودة إلى التاريخ

لا ريب أنّ الظروف الحضارية المختلفة التي تمر بها  
 العرب في القرن الرابع عشر الهجري كانت حاسة من  
 العوامل الأساسية التي انعكست على الشعراء وأثرت  
 فيهم ، ودعتهم إلى العودة إلى التاريخ ، أو رؤية  
 الحاضر من خلال الماضي . والتاريخ أو الماضي الذي  
 تقصده هنا ، هو الماضي بعينه الظاهر ، وليس ذلك  
 الماضي الذي ينسحب على فترات الجسود والحياة في  
 حياة الأمة ، حتى إن كانت العودة إلى الماضي الجاهل أو

ويمكن أن نصيف إلى هذه المحاولات التقليدية ،  
 ما قام به الدكتور « عبده بدوي » في إنشاء قصيد  
 سمفوني ، ولي اعتقادي أنّ الشعر العربي لم يواجه هذه  
 المحاولة من قبل ، وإن كانت الفكرة موجودة في الشعر  
 الأوروبي منذ زمان ، والقصيد السمفوني يعتمد على  
 الأداء المميز للشعر من خلال مصاحبة الموسيقى وفقاً  
 لترتيب فني خاص . ويعد كتاب « محمد - قصيد  
 سمفوني » للدكتور عبده بدوي الأول من نوعه في هذا  
 المجال ، ونورد هنا مقطعاً من مقاطعه لتضج لنا طبيعة  
 المحاولة الشعرية التقليدية على بعض ملامحها على الأقل ،  
 ففي الحركة الثانية من القصيد ، يصور الشاعر « مكة »  
 عند الغزو الحبشي الذي قاده « أبرهة » ليهلك الكعبة ،  
 وعدم قدرة أهلها على الدفاع عنها ، هنا يقول المقطع :

الراوي : « البيت له رب يحميه ! »

(٣٣٣) أحمد عمر - حيوان عهد الإسلام أو الألفاظ الإسلامية - مكتبة دار الحرية الثقافية ، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م - المجلد من ٩ - ولا يمكن أن تتصل في هذا المجال بأثر ترجمة  
 الألفاظ غومريرس التي قام « البستاني » بالترجمة في ١٩٢٥ م ، في جفّ الشعراء على تقليدها (انظر في الآداب الحديث ج ٢ - ص ١٨٨) .  
 (٣٣٤) جلد نور الإسلام - المجلد السادس - ربيع الأول ١٣٥٤ هـ - ص ٣٠ - وقد رويت القصيدة في الألفاظ على صفحات ٢ ، ٤ ، ٥ .  
 (٣٣٥) عبده بدوي - محمد قصيد سمفوني ، دار المصنعي للثقافة والنشر والتوزيع - طرابلس - ليبيا - ١٩٩٩ - ص ٢٤ ، ٢٥ .

الجهاد ، فإنما تكون الغاية الأساسية هي العبرة التي تقود إلى الظفر والانتصار الحضاري على الجزمة القائمة والمحنة القيمة .

لقد أذل الاستعمار الغربي العرب المسلمين إذلالاً لم يسبق له مثل منذ الحروب الصليبية في كافة المجالات ، وأمام هذا الإذلال ، كان عليهم أن يستنفروا قواهم الكاسنة لمواجهته وأخرجهم من بلادهم وبلورة شخصيتهم الإسلامية من جديد . وقد نجحوا إلى حد كبير في معظم الأقطار العربية وحققوا جانباً هاماً من جوانب الاستقلال السياسي والرسمي ولكنهم للأسف الشديد لم يتمكنوا من تحقيق الحرية المستقلة فكرياً وثقافياً . لقد ارتبطوا بصورة ما بالغرب المستعمر ، على الأقل في الجانب الثقافي أو الفكري ونشأ صراع مازال مستتباً فيما يرى بين تيارات عديدة ، تدور حول محور واحد : من نحن ؟ إلى من ننتهي ؟ كيف نصوغ أيدولوجية تواجه بها المستقبل ؟

ويمكننا القول بأن هنالك تياران قويان متميزان يفران بحق في عقول المسلمين منذ بداية هذا القرن ، وهما تيار الأصالة الذي يتحرك من مفهوم الاسلام الصافي ، وتيار التبعة للغرب ، باعتباره رمز الحضارة المنظمة والمتفوقة وقد تصادم التياران ومازالا ، وإن كان التصار الأول قد حقق في نهايات القرن الرابع عشر الهجري نوعاً من التقدم والانتصار خاصة بعد حرب رمضان ١٣٩٣ هـ ( أكتوبر ١٩٧٣ م ) حيث برزت ضرورة الالتفات للجلود الإسلامية والانطلاق منها في تكوين شخصية الأمة وبناء حضارتها الجديدة .

لقد حاول الغرب - ومازال - أن يضلّل الشعوب بالانتماء إلى الجلود الإسلامية أو يناه هوية ذات ملامح

إسلامية متميزة ، وساعده على ذلك تأثيره في نظم التعليم ، وذرع التصور الغربي في الرسوم ، وتكوين طلائع ونية ومخلصه لفكره ومفهومه .

ونحن لا نستطيع الإفاضة في هذا الموضوع لأنه قد يخرج بنا عن موضوع البحث ، ولكن الذي نريد أن نوضحه هنا ، أن ظروف الصراع حول الهوية الإسلامية ، سواء كان عسكرياً أو سياسياً أو فكرياً ، قد وجد صدها في الحياة الاجتماعية والشعر ما ، من خلال التوجه إلى الماضي وإضاءته كي يسير الصراع في طريقه الصحيح ، مزوداً بالأمل واليقين في تحقيق غايات الأمة .

ووجدت دعوات الإصلاح صدها الواضح ، في إثارة الحنين إلى الإسلام الصافي الغربي وأجاده العظيمة لانتشال الأمة من هذه التخييل والانحدار والهمزة ، ولعل أبرز تلك الدعوات : الوهابية والسنوسية والأخوان المسلمين ، ليهللا عن وجود أشخاص بدواهم قاموا بأدوار كبيرة في هذا المجال أمثال : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والأمير عبدالقادر الجزائري والبشير الإبراهيمي ومحمد رشيد رضا وعلاء الفاسي وعز الدين القسام وسيد قطب . . . وغيرهم .

ويأكب تلك الدعوات وهؤلاء الأشخاص ، إنشاء جمعيات دينية ، وإقامة احتفالات إسلامية بالمواسم والأعياد ، وإصدار صحف ودوريات ، تبرز صورة الإسلام المثل وتاريخه المضيء ، وتصنّف المفاهيم المحاطة (٣٦) .

كللك فقد كان هنالك من الكتاب والأدباء من تعرضوا لمقولات الغرب حول الإسلام ، وانتقاصه

في الحرب أو في الألب ، أو في السياسة ، أما محمد فمظيم في كل شيء .

وأثار العظماء في البشر واضحة جلية ، ولكن لم يصل أحد أجل ولا أجل عما فعل محمد . نفخ في هذه البداية الفاحلة ، وهذه الأمة المتفرقة الجاهلة ، فأخرج منها أمة ، قوية عالة عاملة . . . حلت مشكاة النور في وقت هم فيه الظلام ، ونشروها اعتدى ، ويستدي كل إنسان ، في كل مكان إلى آخر الزمان ، ولولا محمد ما كانت قوية ، ولا الأميركان (٣٧) .

ونذهب كتاب آخرون إلى استدعاء شخصية النبي الكريم (ﷺ) لتكون عوناً على مواجهة الواقع الرحيب الذي يحيشه العرب والمسلمون ، ففي مجلة الرسالة مثلاً ، نقرأ مقالة « لاستاذ جليل » يتأدي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستجد به ، ولي ثانياً مقالته يستحضر أمثلة من التاريخ ، وصراع المسلمين مع الرومان ، ثم يحصل في ختام مقالته إلى هذا النداء الأسوان الحزين :

« يا محمد ! يا محمد !

لقد ضامنا في هذا الزمان الأفريقي والتركى حتى ذاك الذي ضربت عليه الللة جيهلاً بك بأمنية جيهل - وكان ضيعتنا ولؤمنا وتعدائنا وصدحائنا وفضحنا حيننا ، غصبك على الخلف الخائف من أجل ذاك - أقوى معين لكضامين !

فإن لم تكن على اللتمتين إلى عربية ( قرآنك ) العربي بشيء من صف ورضا ، هلك ياسيدي أبا القاسم ، أتباعك ، عذام ( كتابك ) عذام ( لستك ) عذامك - في المالكين .

للدين ، ومستعرض لها ضمن العوامل التي نتحدثت عن تأثير النهضة الدينية بالغرب إن شاء الله .

يبد أنه يمكن الآن أن نتوقف قليلاً أمام بعض النماذج التي عبرت عن صدق العودة إلى التاريخ أو دعت إليها صراحة من خلال الصحف والدوريات الإسلامية ، وسوف نرى بعدها إلى أي مدى كانت تلك العودة إلى التاريخ تمثل حاجساً يهرك صواطف الأديباء والشعراء جميعاً .

ومن الملاحظ أن الكتاب والشعراء جميعاً جعلوا - فيها بينهم - الماضي أو التاريخ الذي يدعون إلى العودة إليه - يبدأ من محمد - صلى الله عليه وسلم - ونقطة البداية هذه يسبقها عالم الظلم والظلام والضياع والقهو ، ولتكنها خاصة في عهد البعثة والحلانة الراشدة الصورة الرائعة للنور والعدل والحق والإحساس بالحياة .

وبالطبع فقد كانت شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - هي الصورة النموذج والمثال الذي يحسلى ويستدعى ، يستقي في ذلك الحاكم والمواطن القرد ، فمحمد (ﷺ) صورة الحاكم العادل ، والزعيم المحبوب والفاقد الواعي ، والبطل الذي يقل نظيره بل لا يوجد نظيره - وعهد (ﷺ) صورة الفرد المعاني ، المؤمن ، المثني ، الذي المتكشف ، الورع ، الزاهد العامل ، الصاب . . . لهذا فقد كان الإلحاح على شخصيته أمراً طبيعياً في وقت اشتد فيه الفساد على مستوى السراحي والرحمية . يقول الأستاذ « صلى العنطاري » وهو يصور محمداً - صلى الله عليه وسلم - :

« إن العظماء كثيرون ، ولكن العظيم عظيم في ناحية ، صليبي في سائر النواحي ، فهو عظيم في العلم أو

المهوى وأقن الرأي والأهيب الذكاء... تسلم لك نفسك  
أولا، والانسانية ثانيا، والطبيعة كلها ثالثا.

فلم يبق لك بد أن تغفر الى هذا الرجل وتستعينه في  
جهاد ما يجتاح الأرض الآن من الشر والتقدير السيء  
للنفس الانسانية والحياة والاجتماع...»<sup>(٤١)</sup>.

ويمكننا الآن أن نيلور صدى العودة الى التاريخ، أو  
رؤية الحاضر من خلال الماضي في الشعر، من خلال  
الوجوه التالية :

**أولاً :** التصريف بأجساد الإسلام وصظمته  
وانتصاراته، وتقديمه للمسلمين عامة، والنشر خاصة  
كي يكون نبراساً يهدي في مسيرة الحياة ومواجهة  
صعابها. وقد اهتم الشعراء خاصة في النصف الأول من  
القرن الرابع عشر الهجري بالعودة الى التاريخ، ونظمه  
في قصائد أو مطولات تركز عادة على السيرة النبوية  
الشريفة وتبرز أحداثها. وقد تفاوت تناول الشعراء  
للتاريخ بين إشارات محدودة في ثانيا قصائدهم للمقارنة  
بين الواقع والتاريخ، وبين قصائد ومطولات خصصت  
بأكملها لسرد التاريخ وظواهره أو تجميله باستفاضة.

من ذلك مثلاً ما ورد في قصيدة من وحي المولد  
النبوي الشريف « لأحد حرم »، حيث يتنزه فرصة  
المولد ليخاطب الرسول - صل الله عليه وسلم - ليقرم في  
الناس من جديد فيعشون على نور الكتاب وتتجدد أيام  
« بدر » الظاهرة :

تَمِّمْ يَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتَ نَاصِرَ  
حَقِّ تَقْوَمَ، وَمَا لِدِينِكَ مَنَجِدُ

بأسيد الوجود يارسول الله ! يا أبا بكر الصديق ! يا  
عمر الفاروق، ياذا النورين ! يا أبا الحسين ! إن الدهر  
قد جاز على قوم عرب !»<sup>(٣٨)</sup>.

ولم يقتصر تناول الكتاب على شخصية محمد - صل  
الله عليه وسلم - بل تعدى ذلك الى قضايا تتعلق بموقف  
الإسلام من القضايا التي ظهرت في هذا القرن مثل  
قضية القوميات أو الإسلام والقومية، فنراهم يحاولون  
أن يستخرجوا من التاريخ ما يؤيد مواقفهم سواء من  
القومية أو معها، وهناك من حاول أن يتناول المسألة  
بوعي وموضوعية، فيرى أنه لا تعارض بين الاثنين،  
وينظر الى بعيد حيث أصابع المبشرين وغيرهما من  
الأصابع الأجنبية الخبيثة التي تقوي الخلاف بين القومية  
والإسلام، وتحوله الى نزاع مستحكم « سيفضي في  
النتيجة حل كلتا الفكرتين القومية والإسلام »<sup>(٣٩)</sup>،  
وهكذا يتواصل الحوار حول التاريخ أو الماضي باعتباره  
منطلق الحركة الى المستقبل ووصل الأمر ببعض الكتاب  
الى الاعلان الصريح بأن واقع الأمة يجتث التعامل مع  
« محمد » فقط، وأنه هو الطريق الوحيد الباقي الذي لا  
مفر من السير فيه بعد التخليط والانحدار والهزيمة  
والضياح. يقول الأستاذ « عبدالمعزم خلاف » في مقالة  
ب عنوان « ضح بذك في يد محمته » :

« ضح بذك في يد محمد وسر معه في الطريق الذي  
شقه له باري الطبيعة بين السبل المتفرقة الى الحقيقة  
والعدالة والسلامة الاجتماعية، وقرة الاعتزاز بالقيم  
على السموات والأرض، وشدة الحرص على اتباع  
أسلوبه في حفظ الفطرة سليمة من زيغ الحس وتخادع

(٣٨) الرسالة - السنة السابعة - ١٩٣٩ - ص ١٨١٩ .

(٣٩) نظري مقال « بين دين محمد وجهه » - للاستاذ علي حيدر الركابي - الرسالة - السنة الثامنة - ١٩٤٠ - ص ١٢٨ .

(٤٠) الرسالة - السنة الثامنة - ١٩٤٠ - ص ٤١٦ .

الحمد لله القديم الباقي  
 ذي العرش والسيح العلا الطباقي  
 الملك المنفرد الجبار  
 الدائم الجلال والاكابر  
 وارث كل مالك وما ملك  
 وهلك الحي ويحيى من هلك  
 منزل الذكر يخبر الألسن  
 مشتملا على البيان الأحسن  
 أوصى الى رسوله كما أوصى  
 من كل غزاة تضيء اللوحا  
 وقص أبشاء القرون في السؤر  
 بموائل الحسن كأمثال الصُور<sup>(٤٣)</sup>

ثم يصلي ويسلم على أجل رسل السلام ، وبين  
 فضله على الأمة ، ويشير الى خلفائه الراشدين أئمة  
 الهدى ، الفاتحين بالحق ، المتقين من قيود الرق ، ثم  
 يتحدث عن أثر الحرب الكبرى والثغر ، ويوضح كيفية  
 نظم الأرجوزة ، ويعلن أنه يرجعها للناشئة . ويبدأ  
 المنظومة بدءاً فعلياً بحدث عن لغة العرب ويبيان فضلها  
 وقيمتها :

فاجبر على عاصمي اللسان  
 تجل في مواطن الإحسان  
 وامش بآداب الكتاب تهتد  
 وقف بأبواب الحديث واجتد  
 هُنا الخالب فيه يفرغ  
 ومعدن الحسن الذي لا يفرغ<sup>(٤٤)</sup>  
 ثم يتحدث شوقي عن التاريخ وطبيعته ونشأته

فم في جنودك غزائياً ، وافتح بهم  
 دنيا الجحود لامة لا تمحد  
 ثمثي على نور ( الكتاب ) فتهدى  
 وتقسيم آداب الحياة فتستد  
 جدد لنا ( أيام بدي ) إنها  
 أبائنا اللآي نحب ونحمد  
 حفظت على الإسلام ياتع غريبه  
 والجاهلية بالقواضب تمحصد  
 فرس غما ، فالأرض من بركاته  
 تحطى الحياة كريمة وتزود<sup>(٤٥)</sup>

ولعل أبرز الأعمال الشعرية المطولة التي نظمت في  
 مجال التعريف بأبعاد الإسلام وعظمت وانتصاراته ما كتبه  
 « أحمد شوقي » عاصية في ديوانه أو مطولته « دول العرب  
 وعظماة الإسلام » ، فقد كتبها وهو في فترة النفي  
 بالأندلس ، ولعله أراد أن يعزى نفسه في مقامه بعودته  
 الى الماضي أو التاريخ المضي . يقول الأستاذ محمود  
 خاطر في مقدمته لهذا العمل الشعري :

« هذه درة في تاج الأدب ، وغرة في جبين الفريض .  
 نظم أمير الشعر عقدا . وصاغ معناها ولفظها . وهو  
 يعاني ألم النفي . وتجرع غصص النوى إبان الحرب  
 الكبرى . بين ربوع الأندلس . التي عمر الاسلام فيها  
 ثم درس . ولما وترعرع وأزهر . ثم فدى وأقفر<sup>(٤٦)</sup> .

والديوان أو المطولة أو المنظومة تبدأ بمقدمة نستشر  
 فيها رنة الأسمى ، والاحساس العميق بالزوال والتثني ،  
 والتسليم المطلق لصاحب الملك « منزل الذكر يخبر  
 الألسن » :

(٤٣) المطلة - السط الحاسة - ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م - ص ٢٥٨ .

(٤٤) أحمد شوقي بك - دول العرب وعظماة الاسلام - مطبعة مصر - ١٩٣٣ - للخدمة .

(٤٥) السابق : ص ٥ .

(٤٦) نفسه : ص ١١ .

الجليد وهو يواجه الحياة الصعبة الطاحنة القاهرة .  
الثانية تعزية نفسه المقهورة في منفاها وغربتها وتسليتها  
حتى تتحقق العودة إلى الوطن . ولعل في ختام أبيات  
الأرجوزة الخاصة بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم - ما  
يوضح هذا التصور :

نسال الرسول الضرب من هداه  
وسبلغ الأذى به مَدَاهُ  
وسمت من آوى دوى واصطنع  
وذاد عن غير التبيين وتسنع  
حتى أظلل العرب والإسلام  
وفصل الجزيرة السلام  
وبلغ الصمم بلأغ السداسي  
واسمعتهم حجة الدواع  
هناك حان أجل الطبيب  
وحكم الحبيب في الحبيب  
سبحان من له البقاء دون حد  
وليس فوق غيره أحد<sup>(٤٦)</sup> .

وتعتبر هذه المنظومة من أشهر النماذج التي انتكأت  
على التاريخ ، واعتدت عليه في جلاء صورة الإسلام  
والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري ،

ولا يمكن بالطبع أن نعمل الإشارة إلى أعمال كبرى  
أسهمت في هذا المجال ، وإن كانت قد حلت إلى جانب  
التعريف بالدين واستدعاء التاريخ غايته أخرى فنية أو  
لكرية ، كما رأينا في الإلياذة محرم وكفا نرى في ملحمة  
« عين جالوت » و« الملحمة المحمدية » « أكمل أمين »  
« زفير الأنبياء » لعامر محمد بحيري ، ومن إشرافات

وأهميته ورأيه في المؤرخين ، ويتقل إلى الحديث من  
الوطن ويتوقف عند البيت الحرام ، فيصفه ويذكر تاريخه  
وموقعه ، ويشير إلى أبناء أسمايل ومكانة مكة وهاشم  
وقس بن ساعدة وتأثيره على النبي صلى الله عليه وسلم -  
ثم يذكر سيرة الرسول ( ﷺ ) ومولده ونشأته ويمتد  
والوحي ويتوقف أصحابه وأعوانه ، والمجرة والنزوات  
وانتصار الإسلام ، ولا ينسى شوقي أن يذكر من حين  
إلى حين هدفه التلميع من الأرجوزة أو المنظومة ،  
وكانه يعالج قضايا اجتماعية معاصرة ، فنراه مثلا  
يتحدث عن الرزق وطرق أبوابه ، ويرى أن هذا كان  
شيمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كذلك الرسل  
الكرام السابقين عليهم أفضل الصلاة والسلام :

كان رسول الله في شبابه  
لا يدعُ الرزق وطرق بابيه  
أي رسول أو نبي قبله  
لم يطلب الرزق وسبلغ مُبْلَهُ<sup>(٤٧)</sup>

ويواصل شوقي سرد التاريخ بعد وفاة النبي صلى الله  
عليه وسلم - فيتحدث عن الخلفاء الراشدين والصحابه  
أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونخالد بن الوليد وحمزة بن  
الناصر وفولة بني أمية وصقر قريش ( عبدالرحمن  
الداغل ) وجده الله بن الزبير وآل العباسي وقولة  
الفاطميين . وفي ثلثها حديثه لا ينسى أن يلج حل  
المجرة ، والتأكيد على بقاء الباقي وحله سبحانه  
وتعالى ، ولعله كان يريد من وراء ذلك إلى إقناع نفسه  
وغيره بأن « بقاء الحال من الحال » ، وأن الوضع الذي  
يعيشه هو « في » الحق « لن يستمر إلى الأبد فيحقق بذلك  
غايته . الأولى ترسيخ العبرة من التاريخ أمام الجيل

(٤٦) دول العرب وهداية الإسلام ، ص ٢٤ .

(٤٧) السلي : ص ٢٧ ، ٢٢ .

ولأخذ شوقي قصيدة مشهورة تنطلق من هذا الموقف المؤيد للخليفة، يمجس فيها «أحمد عرابي» ويسخر منه، ويبتكته. ويقول فيها مخاطباً «عرابي» بعد عودته من المنفى بيته الشهير:

صغار في السحاب وفي الإياب  
أهذا كل أمرك يا عرابي؟

يبد أن الشعراء وقفوا أمام الخلافة بصفة عامة وقفة إجلال وتقدير باعتبارها الحلم الجميل الذي حقق وسيحقق للأمة الإسلامية عزتها ونصرتها، وتغلبها على الأعداء والتخلف ولكن الدول الأوربية كانت تعمل ليل نهار على تقويض الخلافة، وإكراه نيران القومية والطائفية والعنصرية في أرجاء العالم الإسلامي والعربي على وجه الخصوص - وقد نجحت أخيراً في تقسيم الدول العربية والإسلامية فيها بينها باعتبارها تركة الرجل المريض - بل الميت، بعد وصول الاتحاديين إلى الحكم في أنقرة.

وقد شهدت الفترة الأخيرة من الخلافة مواقف حارة ودافقة بالمعاطفة المشبوبة من جانب الشعراء العرب تجاه الخلافة والخليفة باعتبارها فكرة تاريخية يتوحد من خلالها المسلمون، ويعبرون عن هويتهم المتبلورة والوحدة في الساحة الصليبية أمام القوى الأخرى، وكانت للمواسم والأعياد الإسلامية مناسبات طيبة للتعبير عن مشاعرهم تجاه الوحدة الإسلامية والخليفة باعتباره الرمز ومركز الدائرة.. وكانت هنالك أجزاء يكاملها في معظم دواوين تلك الفترة خصصها أصحابها الشعراء لمجد الخليفة، وفي ديوان «الكاشف» مثلاً، قسم بأكمله عنوانه «الحمديات» يمدح فيه الخليفة العثماني

السيرة الزكية لعزير أباطة و ميلاد النبي «محمد عمود زيتون .. وغيرهم»<sup>(١٧)</sup>.

**ثانياً:** الدفاع عن الإسلام من خلال بعض رموزه التاريخية القائمة مثل الخلافة، وقد شهد الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري المراحل الأخيرة لتنظام الخلافة الإسلامية حتى سقط الخليفة العثماني الذي كان منصبه يرمز، إلى وحدة المسلمين على مدى التاريخ. وقامت في دولة الخلافة - تركيا - دولة علمانية، تربط أسبانيا بالغرب، وتفصل الدين عن الدولة، وتغير اللغة الرسمية من العربية إلى التركية، وتغير طريقة الكتابة، فاستبدل الحرف العربي بالحرف اللاتيني، بل يصبح «الأذان» أيضاً بالتركية، وتقلع تركيا «الطربوش» وترتدي «القبعة» ورمز المدنية الأوربية في ذلك الحين، وتصبح الخلافة وما تمثله سطوفاً في تاريخ ميتوت العجلة بالواقع الجديد الذي صنعه «أتاتورك» وجماعة «الاتحاد التركي»!

كان المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إلى الخليفة العثماني نظرة تاريخية باعتباره مركز الدائرة الإسلامية وحامي حمى الإسلام، للرجة أن الإنجليز حين أرادوا أن يصرفوا التأييد الشعبي عن الزعيم «أحمد هزاني» خبثوا كي يستصدروا فتوى من الخليفة العثماني يصف فيها «عرابيا» بالمرق والتمرّد. وقد وقف بعض الشعراء من «عرابي» موقفاً معادياً بسبب هذه الفتوى، من ذلك ما قاله «أحمد الكاشف» في الثورة العربية:

هلاً نطليح سوى عبد الحميد ولا  
نرضى أميراً سوى هباسبك الشامي

(١٧) ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضاً تلك القصائد التي امتدت بسيرة النبي ﷺ مثل القصائد التي احتلت الرتبة، وكذلك القصائد التي تلتبت لتناول سيرة الصليبيات وخرابن الله عليهم مثل العمرة والبركة والمطيرة وفضائل الزامي حول بعض عائلته بني العباس.. وان كان ذلك لا يبرحها من فعلها الأصلي وهو التمدح.

« أتاتورك » الذي اشتغ في تصرفاته بإلغاء الخلافة وتحويل تركيا عن الإسلام وكان المسلمون قد أملوا فيه خيرا بعد انتصاراته على اليونان ولكنه خيب ظنهم ، يقول شوقي في مطلع قصيدته الباكية :

عادت أغاني العرس رجع نواح  
ونصبت بين معالم الأفراح  
كفنت في ليل الزفاف بشويو  
ودفنت عند تبجج الإصباح  
شعت من هلع بعبرة مناحك  
في كل ناحية وسكرة صاير  
ضجت عليك مآذن ، ومنابر  
ويكت عليك عمالك ، ونواير  
الهند والهة ، ومصر حزينه  
تبكي عليك بمسمع سحار  
والشام تساله ، والعراق ، وفارس  
أنا بين الأرض الخلافة ما ح ؟  
وأنت لك الجتمع الجلائل ما لنا  
فقلعن فيه مقاييد الأنواع (١٩)

ويستمر « شوقي » على هذه النغمة المتجمعة على مصير الخلافة وما أصاب المسلمين ويعان عن موقفه المؤيد لبني عثمان ، الذي لا يتغير ، ويلمح على القادة الجدد أن يروا أهمية الوحدة الإسلامية والمحافظة على انتصاراتهم التي حققوها للإسلام في اليونان ، فهذه الانتصارات ليست لتترك وحدهم ، بل هي للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهي التي حركت مشاعر الشعراء في كل مكان للإشادة بها وتخليدها . ولعل موقف الشاعر « محمد عبد المطلب » في هذا المجال يعطينا

السلطان عبد الحميد ، وكان يخصص في مناسبة عيد جلوسه أو توليه الخلافة ، قصيدة ينشدها كل عام ، يتحدث فيها عن صفاته وخدماته للدين والمسلمين ، ودفاعه عن ديار الإسلام ، يقول في إحداها :

لدينك والدنيا قيسامك مفرداً  
ترة العدى وهي العديد المجهز  
لكم هاجموا طامعين فأنفقوا  
وما الريح في الطود المكين تؤثر  
وكم فكر في الشر يرموننا به  
وفي خير ما أنفاهم لم يفكروا  
أينقلب من كان المسال لسواء  
يميط به جند الفضاء المسخر ؟  
فمنه ضياء للميون ومنجل  
هذا حاصداً روح الذي يتجبر  
أينقلب من أجنائه تملأ الفضاء  
يسد سوماها الفضاء المقلد  
لما سكن في سلمها فهي أجبيل  
ومضطرب في خربها فهي أبسر  
إذا حاستت فهي التسييم لطفلة  
وإن خاشت مستعلية فهي صرصر (٢٠)

وقد حفلت دواوين كبار الشعراء خاصة في النصف الأول الذي رافق سقوط الخلافة بقصائد تفيض لوعة وحسرة على ما أصاب الخليفة والخلافة وتستدعي عناصر التاريخ الساطعة لبناء خلافة قوية ظافرة ، ولعل « شوقي » وحافظ « أبرز الشعراء في هذا المجال ، ولشوقي « قصيدة بعنوان « خلافة الإسلام » ، يري فيها الخلافة وبنه الدول الإسلامية إلى إسداء النصيح إلى

(١٩) ديوان التكايف ج ١ - مطبعة التراثي - ط ٢ - القاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م ص ١٢ ، ١٣

(٢٠) ديوان لؤلؤي ج ١ : ص ١٠٥ ، ١٠٦ .



ويعقب عبدالمطلب بعد هذه الأبيات مباشرة بقوله :  
« وكان السبب في وقوفي جامد القرينة فجأة إذ فاجأنا  
أخبار انحراف أرولك النفر - يقصد الاتحاديين »<sup>(١)</sup>.

وواضح أن عبدالمطلب الذي وصف نفسه « شاعر  
الاسلام » في البيت الأول ، يرفض أن ينساق في تأييد  
قوم انحرفوا عن منهج الإسلام والفكرة التاريخية  
للخلافة الى منهج القومية المتعصبة أو المنصيرية  
الضيقة .

وقد ظلت فكرة الخلافة موضع تناول بين الشعراء ،  
وبعد سقوطها ظهر - بوضوح - عدد من الشعراء الذين  
شتموا في سقوط الخلافة وانتهاك الخلافة كفكرة تاريخية  
يلتفت حولها المسلمون ومعظمهم كانوا في بلاد الشام ،  
ولعل ذلك يرجع الى نحو الفكرة القوية هناك بقوة ،  
وتغلبيتها من جانب نفر من غير المسلمين ، وضييق أهل  
الشام بظلم بعض الولاة الأتراك وبماملتهم القاسية .  
وقد عبر « إيليا أبو ماضي » عن شتماته دون موازبه في  
أكثر من قصيدة عند سقوط السلطان عبدالحميد . ففي  
قصيدته « فتنة ١٣ إبريل » يتحدث عما جرى من عزل  
للخليفة ويصفه بأقذع الصفات وهي أخف من بعضها  
الأخر في قصائده الأخرى يخاطبه قائلا :

شَلْ مِنْكَ التَّاجُ مَهْتَفِيًّا  
مِنْ بُعَادِ الشَّعْبِ تَتَقَسَّمُ  
بِتُّ لَا جَيْشَ وَلَا عِلْمَ  
بِأَصْرِعِ الْجَيْشِ وَالْعِلْمِ  
وَفَشَى مَا كُنْتَ تَضْمُرُهُ  
فَعَرَفْنَا نَاقِضَ السَّقَمِ

دلالة عميقة ، هل أن الغالب الشعراء كان حول الفكرة  
الاسلامية التاريخية للخلافة أساساً ولم يكن حول الأتراك  
لأهم. أتراك كما يتهم بذلك شوقي لانتمائه اليهم بصلة  
الدم - فالفكرة الاسلامية التاريخية تنبض في كل القلوب  
ما كان منها تركياً أو غير تركي ، ولعل ذكر شوقي للهند  
الواحة ومصر الحزينة والشام والعراق وقارس المسائلة ،  
يجعل بعض هذا المعنى - بيد أن « عبدالمطلب » وقد كان  
يشيد بالخلافة وانتصارات جيوش الخلافة ، وقف موقفاً  
صريحاً عندما انحرف الاتحاديون وتصرفوا على أساس  
غير إسلامي تجاه الخلافة والدين . كان عبدالمطلب قد  
بدأ ينظم قصيدة في انتصار الترك على اليونان في  
« سقاريا » ويعد نظم أبيات منها لم يكملها . وهذه  
الأبيات هي :

هذا مقامك شاعر الإسلام  
قفف القريض على أجل مقام

عادت صوارمنا إلى أحمادها  
من بعد ما ظفرت بخير صرام

هذا الحنيف يسير تحت ظلها  
فنحن الجلالة ساسي الأعلام

ضحك الحلال لها الغداة وربما  
أجرى مداسمه شئون غمام

قف بالغالل على السنام من العلا  
فمكاته منها بكل سنام

وقف الأسنة والصوامر تحته  
ظمأى وكل مقلف مرزام

كنت تَسْلُوبُ الكسرى جَلِيلًا  
ولقد أَصْطَفَيْتُهُ قَنَمًا<sup>(٥١)</sup>

ومهما يكن من شيء ، فإن قضية « الخلافة » باعتبارها فكرة تاريخية إسلامية كانت عاملاً أساسياً من عوامل نهضة الشعر الديني في القرن الرابع عشر الهجري ، وبخاصة في النصف الأول منه الذي شهد أفول هذه الخلافة والتي كانت دائماً في عرف الشعراء رمزاً سامعاً من رموز الإسلام ينفي الدفاع عنه وحمائته ، حتى أولئك الذين وقفوا من الخلافة أو الخليفة موقفاً عدائياً فإنهم كانوا على اتفاق أن قيم الحق والعدل والأمن ينبي أن تتحقق من خلال مفهوم إسلامي ، وإن لم يكن عن طريق الخلافة أو الخليفة .

ثالثاً : تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة حول الدين أو بعض الأحداث التاريخية الإسلامية ، وقد وافق هذه القصاصد أوافقت هي ، مقالات وكتب ألفها مدافعون عن الدين لتصحيح الصور المشوهة التي رسمها ونشرها المصادون للدين ، أو بعض المستشرقين ، خاصة ما يتعلق منها بحياة النبي صلى الله عليه وسلم . وتصحيح المفاهيم الخاطئة بالشعر لم يكن ضرباً من العبث أو الرياضة الذهنية ، بل كان إحساساً داخلياً عميقاً لدى الشعراء المسلمين في العالم العربي بضرورة الدفاع عن الدين وعن النبي ( ﷺ ) من أجل البعث الديني أو البعث الحضاري الإسلامي ، إذ تصحيح المفاهيم الخاطئة عتبة في طريق النهضة وبناء الحضارة .

ويمكن أن نجلد نماذج عديدة لهذا التصحيح نكتفي منها بنموذجين ، يتحدث أحدهما عن موقف الإسلام من العلم ، والثاني يصحح الفرية التي انتراها أهل الإنفك حول السيدة عائشة - رضي الله عنها - زوج الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم . وفي النموذج الأول يتحدث الشاعر « أحمد زكي أبو شادي » في قصيدة بعنوان « النبي محمد وروح العلم » عن المقولة الشائعة بأن الإسلام دين الأوهام والجهل والجمود ويرى أن الإسلام قد هدم الأوهام قديماً وحرر عقول الناس من الضلال ، ودعاها إلى التفكير والتدبير . يقول أبو شادي :

هَنَئْتُ أوهام القديم عَمَرًا  
أَيُّقَالُ دِينُكَ مَلْؤُهُ الأوهام ؟  
وشرعت للعقل الحكيم سياسة  
ضمنتُ بقاء جلالها الأيَّام  
بنيت على النفع الأئمة وكلُّ ما  
للعلم فالعلم الصحيح يسوِّام  
عقلُكم قلُّك لن يبيح جهالة  
أبدأ ، فكم سطعت له أحكام<sup>(٥٢)</sup>

ويعد أبيات يعود الشاعر إلى التاريخ ، ويذكر بدء الدعوة التي راقت انتصارها تكسر الأصنام وهدمها باعتبارها رمزاً للجهل والتخلف والجمود والتعصب والتقهقر :

(٥١) جبران « ألياً أبو ماضي » - المجلد الكامل - دار العودة - بيروت بدون تاريخ - ص ٦٦٤ - وقد كان حافظ إبراهيم مولفاً حين تنازل السلطان عبد الحميد بعد خلعته ومضى موقف الناس من من خلال رواية لها طمس المرأة العظيمة :

كُفْتُ أبكي مَلَأَسَ منك قبا لي  
فرض السمرقند ليل التفتاح  
فستروا كلهم وليس من المود ... إن يعلقت القوَى لي طريدة

(انظر جبران حافظ ج ٢ - ص ٤٣) .  
(٥٢) أحمد أبو شادي - الشفق الباقي - الطبعة الثالثة بمصر - ١٣٥٥ هـ - ١٩٦٦ م - ص ١٤٢ .

ساحتها ويتوعد الذين جاموا بالافك . قال تعالى : وإن  
الذين جاموا بالافك عصبة منكم لا تحسبه شرّاً لكم ،  
بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لكل أشرىو منهم ما اكتسب من  
الافك ، والذي تولى كثرة منهم له عذاب عظيم . لولا إذ  
سيعتصروهُ ظَنُّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ،  
وقالوا هذا افك بين<sup>(٥٤)</sup> .

بأن الشاعر المعاصر ليعمد صياغة الحدث شعراً ،  
فيقطع الطريق على ما قد يتردد في بعض الصدور أو  
تنطلق به أدوات التشكيك في دين الإسلام ونبه وآله -  
صلى الله عليه وسلم - ويصور لنا السيدة عائشة رضي  
الله عنها ، وقد أخلت ثيكي وحيدة بعد أن تركها الركب  
وتعرضت للاقتراء ، ويدور في داخلها صراع رهيب  
يتوازى مع صراع الوحشة في الخلاه تحت جنح الليل ،  
ويأتي جبريل ليحمل الغم ، وينزل بالوحي ليصفو الأفق  
ويتلأأ ضياء الكون على صوت الحق ، ويقول الشاعر  
د. محمد رجب البيومي في ختام قصيدته التي استأصاها  
من نبع القرآن :

أي حسناء حصاناً حصنها  
رَبِّها الأعلى بِرُكْبَلِيلِ الشَّهْنَاءِ  
أشرفت في سورة الشُّورِ فيها  
مثلها في أَوْجُهها ذات بهاء  
إن تكن سروراً نالت فخرها  
لهما في دولة الحسنى كفاء

يا هادم الأصبان دينك قلدر  
أن لا تمت لوحبه و الأصبان  
بين الذين تعصبوا وتقهقروا  
وَحَبَّكَ يا علم الهموب خصام  
هم يحسبون الدهر ليس بسائي  
ودليل شرعك للزمان إسام  
آبائه بنت الفخار ولم تزل  
تسع الذي ترضى به الألهام  
من أنكر العلم الصحيح فدينك  
وشم ، وليس لشله إنسام<sup>(٥٥)</sup>

وقد تكون هذه المسألة و الاسلام والعلم ، غير مثيرة  
في أيماننا باعتبار أن من يدخلون الآن المجالات العلمية  
المختلفة ويدعون فيها كثيرين ، ولكننا إذا عدنا الى  
أوائل القرن الرابع عشر الهجري وجدنا الأمر مختلفاً .  
فقد روج الاستعمار وأشباعه مقولات خاطئة عن وقوف  
الإسلام ضد العلم والمدنية والتحضّر . ولعل كتاب  
د مصر الحديثة و للورد كرومر - المندوب السامي على  
مصر أيام الاحتلال ، والذي يحمل بصفراوة على الإسلام  
والمسلمين ، ويزيف وقائع التاريخ الإسلامي ، أبرز  
الأمثلة على الكتب التي تزيف الحقيقة وتتجنى على  
الإسلام بالتعصب والخطأ والهو<sup>(٥٦)</sup> .

النموذج الثاني يتناول حديث الإفك الذي تنقله نفر  
من الناس حول السيدة عائشة رضي الله عنها حيث  
اتهمت ظلماً في شرفها ، ونزل القرآن الكريم يبري

(٥٣) السابق : ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

من الضمائر المبهمة في الرد على د كرومر و قصيدة لأحمد هرم بعنوان د كرومر والإسلام وسرقة مصر و بقلمه ١٣٤٠  
رسمت هذين والفران جاما  
رسمت (مستمدة) ثم برزت زلفاً  
لذلك كنه لتفك شفا

( انظر ديوان هرم ج ٢ - مطبعة الفتح الجديدة بدمشق ١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م - ص ١٦ )

(٥٤) سورة النور : ١١ ، ١٢ .

أصبحت أسوة غيد بعدها  
 صرّون تهبّ لا دعاء التّعساء  
 فرغم الأمر لله كما  
 رفعت والله عرّون الضعفاء  
 ليت من يرسي بسفك غداة  
 يسارك المعنى فيثنيه الحياء<sup>(٥٥)</sup>

وواضح أن الشاعر إلى جوار الغاية الدفعية عن عائشة والواقعة التاريخية ، يهدف إلى غاية تعليمية لدفع الاتهامات التي يتسرع بها البعض في قلب البريئات ، فضلا عن الدفاع عن قيم الإسلام النبيلة في السلوك الاجتماعي .

رابعاً : العودة إلى التاريخ للتعبير به رمزياً عن الواقع ، وقد ركزت حركة الشعر الحديث على هذه الناحية تركيزاً واضحاً ، ولم تترك علماً إسلامياً بارزاً أو حادثة إسلامية ذات تأثير إلا واستخدمتها في الإطار الرمزي للتعبير عن الحاضر الراهن أو المستقبل المأمول ، ويمكن القول أن ازدهار الاستخدام الرمزي كان مصاحباً لحركة التجديد الشعري في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري تقريباً ، ولم يقتصر الأمر لدى الشعراء على استخدام التاريخ الإسلامي بل تعداه إلى التاريخ الإنساني بعمامة ، بما فيه من أسطورة أو خرافة أو تراث شعبي ، ويمكن لمن يطالع الشعر الحر أن يجد زموراً لمحمد ( ص ) وأبي بكر وصهره وأبي ذرّ ويلاّل ومعاوية وصالح الدين وهارون الرشيد والمعتصم والمعتبي والحلاج والغزالي والمري والمحيي وأبي فراس الحمداني وأبي القيس وطرفة بن العبد وديك الجبل

وصفر قریش وقرطبة ومدريد وغرناطة وطليعة وأرم ذات  
 العماد ودمشق والقدس ، فالإضافة إلى المسيح ويهوذا  
 وسقراط وأفلاطون وأبي الهول والاسكندر المقدوني  
 وهاملت وديون كيشوت وسيزيف واسبرطة وغيرها من  
 الملامح التاريخية والتراثية<sup>(٥٦)</sup> .

وسوف نكتفي هنا أيضا بنموذجين من تاريخنا الإسلامي أو يرتبطان بتاريخنا الإسلامي استطاع الشاعر المصاصر أن يستخلص منها دلالة معاصرة لرؤيته للحدث الذي يعالجه . في قصيدة « حكاية لأطفالنا » للشاعرة « فهدى طوقان » عن السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، تصوّر الشاعرة انتقال العرب من مرحلة اليأس والهزيمة إلى مرحلة الأمل والانتصار ، فتحدث عن الأعوام الستة بين الهزيمة الساحقة التي لحقت بالعرب والمسلمين بعد ١٩٦٧ وظلت تغلف حياة الناس بالسواد والذل ، حتى جاء عام ١٩٧٣ فتراه الشاعرة يشبه عام القيل الذي ولد فيه الرسول صل الله عليه وسلم - وكان بداية لمشرق النور وحاملا للنبوة وقاضيا على الخرافة :

« وجاء عام القيل  
 مُتَطَيِّاً مسافه

تقطعها الفصول بين المؤرت والحياه  
 تغبّر الصوت العظيم بالرهيد والبروق  
 حاملا النبوة  
 مجتأ الخرافة . . . »

لقد نظمت الشاعرة دلالة الحدث التاريخي « عام القيل » الذي ارتبط بميلاد النبي صل الله عليه وسلم وهزيمة أبرهة الغالط الحبشي الذي أراد هدم الكعبة ،

(٥٥) مجلة القصص الإسلامي - مكة المكرمة - السنة ١٣٩٥ هـ - ( ١٩٧٥ م ) - ص ١٧ وما بعدها وقد جمعها في ديوانه « من تبع القرآن » - طر الاسئلة للنشر - الرياض - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م .

(٥٦) تنزل كتاب « استخدام الشخصيات التاريخية في الشعر المعاصر » لتفكير علي حشري زايد ، الرمز الخرافة بتفصيل وصف غسان في الشعر النثري .

كُرِّتُ أَهْجَاءُ الرُّسُولِ ، وكل أَهْجَاءِ الصَّحَابَةِ  
كُرِّتُ عَقَبَةٌ - ألف مرة !  
كُرِّتُ طَارِقٌ - ألف مرة !  
ووضعتُ من عندي الكثير ،  
كَلْبْتُ في أَسْبَبٍ وَخَسِرَهُ . . . (٥٨٩) .

ويعد أن يستعرض الشاعر واقع الأمة من خلال  
المقارنة بين الواقع والتاريخ ، يوجب بها أن تتحرك نحو  
الواقع الجديد ، غير الكلام والخطابة ، يضيف أبعاداً  
جديدة الى الأبعاد القديمة التي صنعها السابقون :

« يَا أُمِّي . . قومي امنحي هذي الرِّبَايةَ  
غَيْرَ الْبَرَاةِ في الخطابه  
لِحَنٍّ جَدِيداً . .  
وامنحي الأجيال . . أبعاداً جديدة ! » (٥٩٠) .

وهكذا يستدعي الشاعر التاريخ ليرى به الحاضر ،  
أو يرى الحاضر من خلال الماضي مستخدماً الرمز  
التاريخي الذي يبلور رؤية الشاعر ، ويعمقها في وجدان  
المتلقي ، ويضفي عليها ملامح الارتباط الزئبق  
بالماضي ، باعتبار الماضي والحاضر والمستقبل حلقات في  
سلسلة واحدة .

لقد لعب التاريخ دوراً كبيراً في إثراء التجربة الشعرية  
الدينية المعاصرة ، وأضاف على التجربة الشعرية بصفة  
عامة نوعاً من الموضوعية في التعبير ، خاصة في الجانب  
الدرامي ، الذي اعتمد الإلهام أو اللحمة أو الأرجوزة  
أو المسرحية ، وهو ما ألغى عليه « البهوت » في مطلع  
القرن العشرين الميلادي في مقالاته الشهيرة « الانبعاث »

فكان العبد يمثل هذا القائد الذي لا قبل لأحد به ،  
وكأن عبور القنطرة يمثل ولادة الأمل الذي حمل النبوة ،  
وقضى على الحرافقة :

وانطلق المجدد المسحوق ، نظرةً على الطريق  
ونظرةً على السبيل الرجبة المضينة  
وغطى في القنطرة  
مغتسلاً متمماً وضوءه  
وقامت الصلاة ! » (٥٩١) .

ولعل اللامسات الدينية التي أضفتها الشاعرة في  
عباراتها وإشاراتنا الى الاختزال والوضوء وإقامة الصلاة  
تعني التطهر من عوامل الخوف والتردد والمزمنة  
الداخلية ، والتفرغ للجهاد وهو الهدف العظيم باعتباره  
العبادة التي تقرب الى الله وتدخل الجنة مباشرة . وهذا  
في النهاية يبرهن نجاح الشاعرة في استعمال الرمز  
بطريقة فعالة ومؤثرة .

النموذج الثاني من الشاعرة « سميح القاسم » في  
قصيدته « ثورة معنى الرِّبَاية » حيث يرى نفسه صوت  
التاريخ الذي يذكر العرب بأعماقهم واتصاراتهم  
« ويدهوهم الى تحتفي العقبات والتغلب على الهزائم ،  
وان كان الاحساس المتشائم يلفق قصيدته . وفي  
المقطع التالي نراه يتحدث عن أبعاد الرسول ( ص )  
والصحابة ، وعقبة بن نافع وطارق بن زياد ، ويخاطب  
أمتة قائلاً :

« يَا أُمِّي !  
عَدَدْتُ أجيالاً على هذي الرِّبَايةِ

(٥٧) ديوان لحن طرطان - المجلد الكامل - ص ٥٥٨ .

(٥٨) ديوان سمح القاسم - الأعمال الكاملة - دار العودة بيروت - ١٩٧٣ - ص ٢١٦ .

(٥٩) السابقين - ص ٢١٨ .

عملية الترجمة ، أو الاطلاع على ما يقدمه الغرب من خلال الإلام بلغاته وفلسفته ، حيث أنشئت في مصر أول مدرسة للترجمة في عهد رفاة الطهطاوي ( مدرسة الألسن ) ، وفي بلاد الشام كان للإرساليات المسيحية التبشيرية مدارسها التي تنشر اللغة الفرنسية - خاصة - وتعلمها للعرب هنالك .

ومن خلال عملية الاتصال المباشرة وغير المباشرة يمكن أن نرى أثرًا واضحًا للنهضة الدينية في مجالات مختلفة ، من بينها الشعر الديني الذي يتم بقصبة الاسلام ونبهه صلى الله عليه وسلم بالدرجة الأولى ويمكننا أن نلمح من خلال المتابعة لعملية الاتصال بالغرب ، والتأثر به جانيين هامين في عملية إثراء النهضة الدينية في شتى مجالاتها ، أحدهما : دفاعي والآخر بنائي ، وكلاهما متصل بالآخر بطريقة وأخرى .

أما الجانب الدفاعي فيمثل في تلك الحركة النهضة التي استعزت أقلام وأفكار كبار المفكرين والدعاة الاسلاميين لمواجهة الغرب بمشترقيه وكتابه من غير المستشرقين ، دفاعاً عن الاسلام كعقيدة وفكرة وحضارة ، وعن نبي الاسلام - صلى الله عليه وسلم - كرسول ونبي صادق النبوة .

لقد كان الاسلام مع نبيه صلى الله عليه وسلم في وجدان الغرب ، ومنذ الحروب الصليبية يمثل ذلك الخطر الداهم ، والعلو الدائم الذي تنهض مقاومته ، وتحطيمه في عقر داره ، ولعل الموجات الاستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين ، كانت تعبيراً من أبعد الوجوه عن ذلك الشوق العارم الى القضاء على الإسلام

والموهبة الفردية ، حيث يرى أنه ليس لشاعر أو فنان في أي نوع من الفنون قيمته الكاملة بنفسه ، وإنما تترتب قيمته على أساس صلاته بالسلف من الشعراء والفنانين « وأن » الحاضر ينبغي أن يغير الماضي بمقدار ما يوجه الماضي الحاضر »<sup>(٢١)</sup> .

### ٣ - التأثير بالغرب

كان تأثير الغرب - ومازال في أدبنا العربي الحديث بصفة عامة ، والشعر بصفة خاصة ، واضحاً وقوياً ، وتتفاوت درجة التأثير في البلدان العربية بتفاوت مستوى الوعي السياسي والثقافي والحضاري - وقد كان لهذا التأثير بروزه الملحوظ في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، والذي توافقت بدايته مع الاحتلال الانجليزي لمصر ، عاصمة العالم الإسلامي العلمية والفكرية ، وساعد على بروز هذا التأثير مجموعة من الظروف والأوضاع المختلفة هيأت في مجموعها عملية الاتصال المباشر أو غير المباشر بأوروبا .

ويمكن أن نبلور عملية الاتصال المباشر من خلال حركات الاستشراق وإنهاء الغريبين إلى دراسة الشرق وتراثه ، وهي حركات بلغت مداها وقمة ازدهارها في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي ( أوائل القرن الرابع عشر الهجري ) ، بالإضافة إلى حركة البعث التي نظمتها البلدان العربية والإسلامية إلى أوربة ليطلع أبناءها على علوم الغرب وآدابه ، ويتكلموا من معين ثقافته وحضارته التي فرضت نفسها على العالم ، وصار الناس يلتهون وراءها لملاحقتها وتقليدها .

أما عملية الاتصال غير المباشر فيمكن حصرها في

(٢١) - أ. لطيفة الزيات - مقالات في النقد الأدبي - مكتبة الأنجلو فرنسي - ط ٥ ، وانظر : د. حمود الربيعي - في نقد الشعر - ط ٤ - دار المعارف - ١٩٧٧ ص ١٥٣ .  
واسبقه من النصوص التراثية : ص ٣٣ ، ٣٤ .

تتألقها الألسن شفاعلة حتى دَوَّتْ في القرن الحادي عشر الميلادي ، ولم يعرف من قاتلها أو واضعها ، فإن الكتابات التي دوت عن النبي صلى الله عليه وسلم واعتمدت على بعض الأصول التاريخية ، كانت خليطاً عجيباً من الحقائق والخيال ، فسرت فيه الحقائق بشكل مفرض « متوقع النتائج ، ويوجه الخيال فيه إلى جمهور يبدو لنا اليوم مفرط البسالة »<sup>(٦٧)</sup> . وقد استهدت هذه الكتابات للقرصة التشكيك في أهلية النبي - صلى الله عليه وسلم - للنبوّة ، وشدّت على وثيقته قبل ادعائه النبوّة ومعانيه المصريح بأنه ادعى أن جبريل يزوره في أثناء النوبات ليخفي مفرسه ، ورووا قصص زيجاته بأسهاب واستعجروا منها أنه كان جيداً لحواشه ( مما يتناقض مع روحانية المسيح ) ، وأنه لذلك لا يصلح للنبوّة وأنه كان دجّالاً لأنه لم يتم بعمل معجزات ، ولم يتنبأ بأحداث المستقبل مثلاً فعل أنبياء التوراة<sup>(٦٨)</sup> .

وقد حيرت الكتابات الأدبية الأوروبية بصفة عامة عن تلك النزعة التي ظهرت في الكتابات ذات الأصول التاريخية بصورة محمد والمسلمين في الكوميديا الإلهية لدانتى مثلاً لا تقل بشاعة وانحرافاً عن الصورة التاريخية في التصور الصليبي وفيلها عن ذلك ، فإن المسلمين يطلق عليهم اسم « سراسين » أي وثنيين بل إن كلمة Moumet الإنجليزية والتي تعني صنماً أومية تعمر بجلودها إلى الحقبة الصليبية ، والكلمة مستمدة من اسم النبي « محمد » وبصفة عامة ، فقد ظلت صورة الاسلام المشوهة تتردد ، وظلّ يتردد معها اتجاه واضح العداء للإسلام والمسلمين<sup>(٦٩)</sup> .

وفكرته فيها فعلته فرنسا في الجزائر من « فرنسة » و « تغريب » ، وما فعله « كرومر » و « دنلوب » في مصر - خاصة في مجال التعليم - يمدّ أوضح الأمثلة على هذا الهدف الاستعماري الشرير الذي يعني تحويل وجهة المسلمين في بلاد الإسلام الى وجهة أخرى وعالم آخر .

وإذا نظرنا الى بعض الكتابات أو النصوص الأدبية التي تحدثت عن الاسلام والرسول ( ﷺ ) والمسلمين ، فسوف نجد أنها تفيض كراهية وتصبّياً ضد الاسلام والرسول ( ﷺ ) والمسلمين . ولعل أقدم النصوص التي حملت مشاعر الكراهية والتعصب ، تلك الأنشودة الشهيرة اللدائمة في التراث الأدبي الأوروبي منذ العصور الوسطى والمصروفة « بأنشودة رولان » وهي ملحمة غنائية تنفي بالبطولات الحارقة لرولان وصه الامبراطور شارلمان امبراطور فرنسا في موقعة « رونسيغو » عام ٧٧٨م بين جيش شارلمان وبجموعة من المسلمين . وقد حولت هذه الأنشودة موقعة رونسيغو الى حملة صليبية في القرن الثامن ، قبل أن تعرف الحملات الصليبية للمسيحية بوقت طويل ، جعلت من شارلمان أباً للمسيحية ، ومن المسلمين كفاراً ملاحدة يميلون محمداً ويميلون كذلك « أبوللو » ولا يمجون الله ! وقد كتبت الأنشودة في القرن الحادي عشر في مناخ نفسي تعبر عنه الحملات الصليبية الأولى التي قامت في ذلك الحين واستهدفت القدس والشام ومصر<sup>(٧٠)</sup> .

وإذا كانت « أنشودة رولان » ذات طابع شعبي ظلت

(٦٧) اعتمدت في هذه الفقرة على دراسة سطورية لي كشر بعد تقديم ترجمة أجزاء « أنشودة رولان » للدكتور أحمد مريش .

(٦٨) محمد مصطفى - صورة الاسلام والمسلمين في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر - بحث في مجلة « عالم الفكر » ، للعدد الثامن لسنة الرابع - الكويت ١٩٧٨م - ص ٩٦٣ .

(٦٩) السابق : نفس الصفحة .

(٧٠) صورة الاسلام في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر - عالم الفكر - ص ٩٦١ .

الاسلامى وقفة فيها الكثير من التحامل والتسليح المسبق . ولا يتسع المجال هنا لرصد هذه الهجمات وشرح أبعادها ، ولكننا نشير هنا إلى أن عددا من كبار الكتاب والمفكرين المسلمين قد تصدوا للدفاع عن الدين دفاعا جديدا من خلال مقالات وكتب شرحت طبيعة التصور الاسلامى الصحيح ، وموقفه ازاء بعض القضايا التى تثارها الغريبيون وأنصارهم في بلاد المسلمين . لقد حفلت « الحرية الوثقى » طليعة المجلات الاسلامية ، بالمقالات التى كتبها جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبيد معتبرة عن روح الدين ، وعن علاقة الغرب بالاسلام ، وتصدت للدفاع عن الاسلام والمسلمين ، فتصدى له واستقبل في بيان إمكانات الاسلام الرائعة ، وعطائه العظيم ، وكذلك ما فعله « قاسم أمين » في مواجهة الدوق « داركور » الذى تحامل على الاسلام والعقيدة الاسلامية ، فحضر مزاعمه ، وفند دهاواه ، وكلما مضى الزمان بالقرن الرابع عشر الهجرى ، وجدنا من علماء الاسلام ومفكره ، من يواجه الحملات الغربية المحتملة على الأكاذيب والأضاليل ، بالفكر الواعى ، والعلم الصحيح ، ولعل ما كتبه الجفاد في كتبه « ما يقال عن الاسلام » و« حقائق الاسلام وإباطيل خصومه » و« التفكير فريضة اسلامية وغيرها » أشهر من أن يعرف به في مجال رد الشبهات والمفتريات التى أذاهاها الغريبيون وأتباعهم من أبناء المسلمين !

وسوف نتوقف عند بعض الأمثلة التى شهدت مواجهة بين الغرب وعلماء الاسلام ، ونرى موقف الشعر وتأثره بذلك تأثرا واضحا وقويا .

من ذلك ما كتبه السيود « هانوتو » وزير خارجية فرنسا

ويلاحظ أن التركيز على شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - كان مقصودا ، فقد كان من همّ الجنل المسيحى أن يفتد الإسلام عن طريق تشويه سمعة محمد ( ص ) على الطريقة التى دهاهاها المناطقة - Grey women tum and hominem - والى كانوا يظنونها أقوى سبل الهجوم<sup>(١٥)</sup> . وهناك سيرتان للنسب (ص) تطبيقا لهذا المنهج الأولى كتبها « لا نيسلون أديسون » بعنوان « حالة المذهب المحدث الأولى ، أو وصف للدعوى الباطلة وحياة مؤلفها » ، ونشرت أولا دون أن « تنسب مؤلفها عام ١٦٧٨م ، ثم نشرت ثانيا مع نسبتها إلى المؤلف عام ١٦٧٩م تحت عنوان « حياة محمد وموته » . أما السيرة الثانية فنموتها والطبعة الصحيحة للدعوى الباطلة كما تظهر على أوضحها في حياة محمد ، ونشرت عام ١٦٩٧م ، وكتبها هجرى بريد . وفي السيرتين تظهر الروح العدائية المتعصبة التى تتهم محمدا بالجدل والمرفقة<sup>(١٦)</sup> .

لقد ظلت هذه الروح العدائية المتعصبة مترسبة في الوجدان الأوربي حتى يومنا هذا ، وإن كانت حديثا قد خفت إلى حد ما بظهور الكتابات المنصفة والواعية ، والى نشير إليها بعد قليل أن شاء الله ، وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجرى . كان الصدام مع الاستعمار الأوربي باعثا على البلاغ وهزالة وقت الهجوم الضارى على الاسلام ونبيه - صلى الله عليه وسلم - ، فقد تضارفت لهجمات الشرسة المغلفة بالتعصب والكراهية على الدين الاسلامى ومحمد ( ص ) ، من خلال بعض الكتابات في الغرب ومن خلال تفسيرات وتحليلات بعض المستشرقين لسيرة الاسلام وحركة الفكر الاسلامى ، والوقوف أمام بعض حوادث التاريخ

(١٥) السابق : ص ٩٧٧ .

(١٦) السابق أيضا : ص ٩٧٧ / ٩٧٨ .



المدنية الحاضرة» (٢٨) ويستمر الأستاذ الإمام في رده وبين كيف اشتغل المسلمون بالعلوم الأدبية والعقلية ، ويتحدث عن الإسلام في أوائل القرن العشرين (أواسط القرن الرابع عشر الهجري) ، ويتكلم عن الإسلام ومدنية أوربه ، ويواجه للسائل الحساسة بعق وصراحة دون غموض أو مواربة ، يقول مثلا عن الإصلاح والمصلحية «للقائل أن يقول : كيف تدعي أن دولة العلم والدين قليل بين المسلمين ، مع أننا نسمع أصواتهم تتعالى في جو مصر وسورية وغيرها من البلاد في هذه الأيام ؟ كل يقول : دعي مائى ، إسلام مسلمون ، قرآن سنة بعد الإسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعلم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر أنه الداعين إلى العلم أو المنهين إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامي كثيرين ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين إلا أذاتا صبا وأهنا صميا ، وصدا عما يدعو اليه هؤلاء ؟ .

ونكتفى أن أقول له : ان الصائق في هؤلاء ليس بكثير عنه ، والجسماء منهم قلما يخلص قصده ، وما نجد أكثرهم إلا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض درجعات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الأسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليفقوا على الحقيقة منه ، وإنما يلفظ بعضهم من بعض ظواهر كالزبد لا تمسك في الأرض ، وإنما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشد عما يملكون خصوصا في أمر الدين ، والجمع بين وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا ولكن الإصلاح ليس ربحا عيب فتسح الأرض من الشرق إلى الغرب في وقت قريب فانظر . (٢٩)

في جريدة «الجورنال» الباريسية عن الإسلام والمسالمة الإسلامية ، ونشر مترجما في جريدة «المؤيد» ، وكان مقال «هانوتو» يفيض بالحقد والضغينة والكراهية للإسلام والمسلمين ، ويصيح مذكرا بما فعله «بطرس الحاق» عند بدء أول حملة صليبية ، أن أدركوا أوربه التي يتهددها خطر الإسلام ، ومن أطرف ما قاله «هانوتو» في هذا المجال من أجل التحريض : « ترى في قرراتنا وبلداننا درويشا فقيرا شاحب اللون مدترا بأرديته البيضاء المقلّمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلوذ به من ذلك شيء ، هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة إلى خيمة ، ومن قرية إلى قرية ، راويا حوادث الاضطهاد والأولياء من مشايخ الإسلام ، إنما ييلر في القلوب حيثما حل وأبنا توجه بذور الحقد والضغينة علينا » (٣٠) .

لقد رد الأستاذ الإمام «محمد عبده» رحمه الله - ردا علميا ، طويلا ومفصحا تناول كل ما أثاره «هانوتو» من قضايا كلية وجزيئة ، ومزج في رده بين التاريخ والفقه والعقيدة والفلسفة والروح بمحركة الأحداث للماصرة ومما قاله الأستاذ الأمام مبعرا عن وحيه بحفارة الإسلام :

« إن أول شرارة أقيمت نفوس الغريين ، فطارت بها إلى المدنية الحاضرة ، كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطم ضوءها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واليوم يرى أهل أوروبا ما نبت في أرضهم بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة للعلم والحرية وطوال

(٢٨) محمد عبده - الإسلام بين العلم والمسلية - كتاب الهلال - المجلد ٢٨٨ - القاهرة - يناير ١٩٠٣ م - ص ٢٩ وما بعدها .

(٢٩) السابق : ص ٦٨ .

(٣٠) السابق من ٢١٠ و ٢١١ .

هذا الرد على « هانتوتو » الذي حل رؤية إسلامية ناضجة وواحة ، كان له وقع عظيم على مشاعر وأفئدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وعرّ الشمرء من الأعماق في مصر وخارجها ، فبدأت قرائعهم تفيض بالأفكار التي تضمنها ردّ الإمام على « هانتوتو » ، فضلاً عن الإشادة بالإمام ودوره العظيم في بيان عظمة الإسلام . وسأكتفى بذكر بعض النصوص التي سجلت هذا الحدث الفريد والمتميز .

يقول الشاعر « أحمد الكاشف » في قصيدة بمناسبة رد الرئيس الحق الأستاذ الشيخ محمد عبده « على هانتوتو وشيعته .

سلاماً حجة الإسلام فيها  
ورضواناً رجاء المسلمينا  
عنيت بما كتبت فكان وشياً  
يؤيد وحى ملهمك المبين  
سلم تحرك لستهم مكاناً  
يسرى فيه المزاعم والظنون  
لما بطلّ يخوض الحرب فرداً  
لما يدعوا يتعنتر مستجبين  
جهاداً في سبيل الله يمشين  
بمعجزة السواطين أن تمون  
بأبقي منك أثراً وثقراً  
وتقدراً في قلوب العالمين  
وكان مراعك المنصور سيفاً  
وكان كسائلك الدرع المصين  
ملكته به مصقل عالي  
نبت منها سيرة الفياضين

وماضى الضلال الخلق حق  
نفعتهم وأوضعت اليقين  
فرشقاً بالكابير فقد كفا  
مجادلة وأوشك أن يهونا  
ودعه في تسلل عساه  
يجيئك باعتراف المهندينا  
ولو ملكك ملوك الشرق يوماً  
سلوكك بيننا ديناً ودينا  
ثمادى الحق متبعنا مصوناً  
وقام الملك ممتدا أميناً  
وصالح الشجاع مؤلفاً رهيباً  
ودام العرش معتزلاً معينا  
ومثلك لو تحكّم مستبدا  
فقد ملأ الضمائر والمئون (٧١)

ويلاحظ أن الشاعر مع إشادته بالاستاذ الإمام ويراعته في البلاغ عن الدين ضد هانتوتو وشيعته لم ينس أن يشيد بخلق الإمام ودينه وفكره ، وسلوكه ويرى فيه النموذج الصالح للحاكم المطلوب الذي يصلح الأمة ويقودها الى شاطئ النجاة والأمان ، ويشير صراحة في تعليقه على الحاكم المستبد الى قول أحد علماء الصمران ، لا تصلح الأرض حتى يكون ملوكها حكاماً ، وحكامها ملوكاً ، وبنت ذلك في هامش القصيدة ، مما يعنى ان الواقع الذي تعيشه الأمة في صراعها مع النفس ، ومع الغير ( الغرب ) وتأثرها بهذا الصراع ، يفرض نفسه ، ويدعوها الى البحث عن النجاة ليعيش « الفلاح مؤلفاً رهيباً » باعتباره رمزاً للسيادة والعزة والفكرة من خلال الدين .

وقد جهر محمد بكير من الشمرء في مصر عن هذا



الاسلامى والغربى ، جعلت من كتابه هذا موضع احترام وتقدير لدى المسلمين المتقنين - ومن بينهم الشعراء والكتاب الطبع في كل مكان - ويكفى أن نذكر كيف حالج نظرة الأتراك مثلاً الى عملية التجديد الدينى ، وعلاقتهم بالغرب بمعالجة واعية وراقية من خلال شاعرهم المشهور « ضيا » ، والذي كانت له آراؤه بالنسبة للخلافة وعلافة العلم بالدين ، والدين بالفلسفة ، ونظرتى الى تحرير المرأة ، وتحمسه لمساواتها بالرجل ، واندهاشه الى إعلان رغبته في إحداث تغييرات جوهرية في أحكام الأحوال الشخصية في الإسلام ، وتعميل الطريقة التى تفهم بها هذه الأحكام وتطبق في هذا العصر ! يقول « ضيا » « عن المرأة » مثلاً :

« هاهى المرأة ! أواختى أوبرتى ، هى التى توقظ أنبل العواطف في أحداق وجودى !

هاهى حبيبتى ، هى شمسي ، هى قمرى ، هى نجى . إنها هى التى تقلدنى على فهم شعر الحيلة ! فكيف يمكن أن تمجّر شريعة الله المقدسة هؤلاء المخلوقات الجميلة كانتات حقيرة الشبان ؟ لا بد أن يكون هناك خطأ في تفسير العلماء للقرآن .

إن الأسرة أساس الأمة والدولة ! ولعلنا لا ندرك حقيقة شأن المرأة ، فإن حثاها القومية تظل ناقصة .

ان تنشئة الأسرة يجب أن تجرى على أساس العدالة . ولهذا لا بد من مساواة المرأة بالرجل في ثلاثة أمور : في الطلاق والانفصال والميراث . ومادامت المرأة تعد نصف الرجل في الميراث وربعه في عدد الأزواج ، فلن ترقى الأسرة ، ولن ترقى البلاد . لقد فتحنا للقضاء محاكم وطنية تقضى في الحقوق الأخرى ، وتركنا الأسرة في أيدي مذاهب الفقهاء . ولا أدري لماذا تخلينا عن نصرة المرأة ؟ أليست المرأة تعمل في سبيل البلاد ؟ أم يجب عليها أن تتور ، وتتخذ من إربتها سلاحاً فاتهاكبا تنتزع به حقوقها من بين أيدينا ؟ « (٢٧٤) .

وواضح أن الشاعر التركي قد تأثر الى حد عظيم بتلك الحركات الأوربية الداعية الى تحرير المرأة ، وساعده على ذلك مناخ التثريك والعلمانية الذى صاد تركيا في ظل حركة « الاتحاد والترقي » ، وأيضاً ، فإن تركيا لم تكن وحدها التى ظهرت فيها مثل هذه الدعوى في العالم الاسلامى ، فقد كان هناك دعاء هذه القضية (تحرير المرأة) في أماكن أخرى خاصة في مصر ، وأبرزهم « قاسم أمين » ، والذي كان لدعوته التى هرفت آتت باسم « السفور والحجاب » صدى عميقاً في الشعر العربى بين مؤيد ومعارض (٢٧٥) .

سعداء من حكموا سحره

سعداء من لم يروطوا القلب ببال الإزنج

لا تكن يا صا وأعرف ذلك

فأرجل كافر قبل ردا زائراً ويسبون كللك

أطوار الأتراك أملاً جديداً وروية

ورؤسوا أساساً أضر لمسلمهم

أهم كاشفاً للعقاب من وجه اللذر

تكن أين السلام الذى يرى ؟

( انظر ترجمة أرمغان شهابي للترجمة مسير حيد الجيد إبراهيم - للكتبة العلمية - لاهور - باكستان - ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م - ٢٢٨ / ٢٢٩ ) .

(٢٧٤) حمد الهال لجهد الفكر الذي « ترجمة حسان حمود » - مجلة التكليف والفرجة والنشر - ط ١ - القاهرة - ١٩٨٨ م - ص ١٨٥ - ١٨٦ ، انظر الفصل السادس : مبدأ الحركة في بناء الإسلام في نفس الكتّاب - ص ١٧٨ وما بعدها ترى نموذج للمعالجة .

(٢٧٥) انظر مقال « نصيحة لولاي » بين الحجاب والسفور في ديوانه جـ ١ ، ص ١٧٦ ، قصيدته « كل للرجل » جـ ٢ ، ص ١٦٦ .

قيمة رغم الأخطاء التي تشوب عملية الاحياء ، فقد نهبت الأذهان العربية والإسلامية الى دخول هذا المجال والمشاركة في احياء التراث ، وتصحيح الأخطاء التي يقع فيها المستشرقون وفقاً لمقاهيم إسلامية أو تصور إسلامي صحيح<sup>(٧٦)</sup> .

كذلك لسان دور الاستشراق في عملية جمع المخطوطات العربية والترجمة واتشاء المعاجم ودائرة المعارف الإسلامية ، كان دوراً مهماً أسهم في تنمية وعي المسلمين بأهمية الحضارة الإسلامية ودورها الرائد في القرون الأولى للإسلام ، وإمكانية إعادة هذا الدور من جديد في المستقبل<sup>(٧٧)</sup> .

وقد عرف القرن الرابع عشر الهجري عدداً من المستشرقين والكتاب الأوروبيين المتعلمين الذين أنصفوا الإسلام والمسلمين ، ومازلنا حتى اليوم نرى بعضهم ، وهو يعلن في صراحة ووضوح قاطعين من تقديره لدور الإسلام العظيم في صنع الحضارة الإنسانية ، وأصبح أمراً غير مستغرب أن نجد بعضهم يدخل في دين الإسلام ويصبح من أنشط الدعاة الى دين الله . ولعل من أبرز الأساه في مجال إنصاف الإسلام ، وتبنيه - صل الله عليه وسلم - تلك المجموعة التي اشتهرت لدى الباحثين العرب والمسلمين مثل : سيرتوماس أرنولد ، صاحب « الدعوة الى الإسلام ، وأميل درنجم ، مؤلف « حياة محمد » ، وإيتين ديتيه وسليمان إبراهيم ، مؤلفا كتاب « محمد ورسول الله » ، و د . ف . بولي مؤلف « الرسول ، حياة محمد » ، وارلشتنسون أوفنج ، مؤلف حياة محمد ، وتوماس كارلايلي ، مؤلف

و خلاصة الأمر أن التأثير بالتقريب كان مسألة شاملة ، على مستوى العالم الإسلامي وعلى صعيد الفكر الديني ، وقد أفاد المسلمين والإسلام باستنغار القوى الفكرية والعقلية للدفاع عن الدين ، وجلاء القضايا المختلف عليها والمطروحة للنقاش ، وإن لم يمنع ذلك من استنابات بعض القوى المؤيدة للغرب على طول الخط ، والتابعة له فكرياً وثقافياً ، والمؤمنة بمنهجية السلوكي والحضاري ، سواء اتفق مع الدين أو تعارض معه . . وقد شهد الشعر ومازال أصداء لهذا التأثير بنوعه السلي والابحاث .

الجانب الثالث للتأثير بالغرب هو الجانب البنائي ، وقد شارك فيه المستشرقون وبعض الكتاب الأوروبيين ، بالإضافة الى الكتاب المسلمين في العالم العربي والإسلامي .

وبالرغم من أن بعض المستشرقين قد قاسوا - ومازالوا - بدور عدائي تعصبي يهدف الى تشويه الدين الإسلامي والانتقاص من قدر نبى الإسلام - صل الله عليه وسلم - فإن الاستشراق بصفة عامة قد ساعد من ناحية أخرى في إثراء النهضة الإسلامية والأدب الديني في القرن الرابع عشر الهجري . ويمكن أن تعتبر الحدود الذي قام به المستشرقون في احياء التراث الإسلامي سواء ما يتعلق بالدراسات في القرآنية أو الحديث النبوي الشريف أو شخصية الرسول - صل الله عليه وسلم - أو الفقه الإسلامي أو التاريخ العربي أو الفلسفة الإسلامية أو الحضارة الإسلامية أو علوم العرب أو الفنون الإسلامية أو اللغة العربية أو الأدب العربي . . دوراً ثاماً

(٧٦) انظر عرضاً مفصلاً لهذا المجهود في كتاب :

د / أحمد سباهيولفتش - لفظة الاستشراق في القرعيا في الآداب العربي للعاصم - مطبع طر فلفطلفر - القاهرة - ١٩٨٠ م - صفحات ٧٢ ، ١٨١ .

(٧٧) لمحة المرفد من جهود المستشرقين راجع : د / حمود حيدر زكريا - الاستشراق والحياة الفكرية للعصر الحديث - كتاب الأنا - العدد ٥ - لفر - ١٩٨٤ هـ - ص ٥٩ وما بعدها .

وللفظة الاستشراق في القرعيا في الآداب العربي للعاصم - ص ١٥٦ وما بعدها .

كتاب « الأبطال » . . . ولعل الحدث الذي شهده ختام القرن الرابع عشر الهجري بإسلام « روجيه جارودي » الفيلسوف والكتاب الفرنسي الشهير ، يمثل مرحلة جديدة في مجال نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين ، وإن كانت هذه المرحلة بالطبع محدودة ولا تنفي أن النظرة القديمة مازالت تسيطر على مساحة كبيرة وعظمى من وجدان الجماهير الأوروبية .

إن هؤلاء المستشرقين والكتاب المعتدلين ، سواء من ظل على مسيحيتهم أو دخل ( إلى عالم ) الإسلام ، قد وضعوا بأبحاثهم وكتابتهم أسسا جديدة وجيدة للتعريف الصحيح بالإسلام ونبى الإسلام - صلى الله عليه وسلم - بعد أن ظلت الصورة المشوهة للدين ولمحمد هي الأقوى لفترة طويلة أمام العين الأوروبية .

ولعل السر في قدرة هؤلاء المستشرقين والكتاب المعتدلين على التغيير المحدود في النظرة الأوروبية للإسلام ونبىه ( ص ) هو معرفتهم بأسلوب الخطاب الملائم للغرب ومهارتهم في ترتيب المعلومات التاريخية وعرضها عرضا جيدا ، فضلا عن انطلاق معظمهم في عرض المسألة من مفهوم محايد ، كما فعل « الكيس كارلايل » حين تناول محمدا ( ص ) ، كبطل من أبطال التاريخ ، وأخذ يقيم تصورات حوله من خلال أعماله وسلوكياته وأقواله ، ورغم الاختلاف بين التصور الإسلامى وحقائق التاريخ الإسلامى أيضا ، وبين ماذهب إليه كارلايل في بعض النقاط حول النبى صلى الله عليه وسلم فإنه يقر منذ البداية خلافه مع النظرة التاريخية الأوروبية الموروثة عن النبى ( ص ) ، ويقول في صراحة :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متعلمين من

أبناء هذا العصر أن يصفى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وإن محمدا خداع مزور . وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السفينة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدمئة اثني عشر قرنا . » (٧٨) .

ويبدو أن « كارلايل » كان متأثرا بنظرة الشاعر الألماني « جوته » ، حيث استشهد ببعض أقواله في ثنايا حديثه عن محمد ( ص ) ، و « جوته » يعد من أبرز عوامل « التأثير الغربى » بالإسلام والتأثير في المسلمين أيضا ، ولنذكر أولا أن ترجمة كتابات الغربيين في القرن التاسع عشر والقرن الثامن عشر الميلاديين لم تزدهر إلا في القرن العشرين ( الرابع عشر الهجري ) ، فتعرف القارىء المسلم على الكتابات الظلمة والكتابات المنصفة في آن واحد .

لقد تأثر « جوته » بالإسلام من خلال احتكاكه بالشرق ، ومحاولة البحث عن طريق للنجاة من حالة الفلق والاحباط التى مر بها . بعد سقوط « نابليون » في موقعه « ووترلو » عام ١٨١٤م . وكان « جوته » معجبا بنابليون وعند سقوطه عانى من حالة نفسية عنيفة ، وبدأ الاتجاه للشرق بأخذ رغبة ملحة عبر عنها في مسرحية « فاوست » لتتجه النظرة الصائبة نحو الشرق (٧٩) .

وكان الاتجاه نحو الشرق يمثل تعبيرا عمليا عن ظاهرة الاغتراب الروسى « التى يشعر بها الأديباء وتلك الحركة القوية التى انتشرت عند أصحاب النزعة الرومانتيكية في القرن التاسع عشر الميلادى للهجرة الروحية إلى الشرق » ، واتى شملت الكتاب والأديباء والفنانين من مصورين وموسيقين ثم امتدت إلى الفلاسفة ، وعمل

(٧٨) الأبطال - ترجمة السراي - ص ٥٨ .

(٧٩) جوت - البيان الشرقى للثقافة الغربية - ترجمة عبد الرحمن بدوي - الطبعة المصرية - القاهرة - ١٩٤٤م - المقدمة : ص ٥ .

(ص) ويدين الإسلام ، ويهله الروح يتفنى في كتابه الأول من الديوان<sup>(٨٢)</sup> .

وفي كتاب « الخلد » يتوقف « جوته » عند النعم صلى الله عليه وسلم . ويتحدث عن الذين دخلوا الجنة من شهداء المسلمين الذين قتلوا في سبيل الله ، فيصور النعم (ص) بعد موقعة بدر وقد وقف تحت سماء صافية مرصعة بالنجوم يؤيّن الشهداء ، فيقول :

« لَيْلِكَ الْكَفَارُ مَوْتَاهُمْ ، فَقَدْ مَاتُوا إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ ، أَمَا أَنْتُمْ مَعَشَرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا تَبْكُوا إِخْوَانَنَا لِأَنَّهُمْ صَعِدُوا إِلَى أَعْلَى عَالَمِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، ثُمَّ يَصِفُ كَيْفَ دَخَلُوا الْجَنَّةَ وَكَيْفَ يَنْعَمُونَ فِيهَا . وَهَذَا يَفْصِلُ « جوته » القول في وصف الجنة وصفا دقيقا كالوصف الذي ورد في القرآن ، في سورة « الرحمن » و « الواقعة » على وجه التخصيص<sup>(٨٣)</sup> .

و « لجوته » مسرحية بعنوان « محمد » كتبها بعد أن أطلع لأول مرة على ترجمة مصان القرآن للاستاذ « ماغزولين » لسحرته بلاغة سورة « إبراهيم » واستهوته طفولة محمد (ص) ، فعكف عليها وخرج منها بيله « الرواية التمثيلية » - كما سماها المترجم الأستاذ معروف الأرفاموط - وقد سببت له هذه المسرحية عداء شديدا من جانب خصومه الذين اتهموه بالكفر والاحاد والخروج على النصرانية ، وقد رد على ذلك برسالة التي عنوانها : « لماذا آمنت بمحمد » ، وذكر فيها أنه أحب محمدا (ص) كما أحب عيسى بن مريم عليه السلام وأنه يرى في الإسلام « ديانة الخلق السامع الصحيح<sup>(٨٤)</sup> » .

رأسهم ، « فريدريش اشليجل » الذي قال في البرنامج الخاص بالمدرسة الرومانتيكية « يجب علينا أن نبحث في الشرق عن أسنى المواد والصور الرومانتيكية » وهو يقصد بالشرق هنا بلاد الهند<sup>(٨٥)</sup> .

ويعد الديوان الشرقي للمؤلف الغربي ، الذي ألفه « جوته » من أشهر الأعمال الأدبية الأوربية التي ترجمت إلى العربية ، ولقيت حفاوة كبيرة ، وتأثر به عدد كبير من أدبائنا العرب . ويتقسم الديوان إلى قسمين : الأول شعر والثاني نثر عبارة عن شروح وتعليقات لفهم الشعر . ويتقسم القسم الأول إلى اثني عشر كتابا هي : الخفي ، حافظ ، المشرق ، التفكير ، الضيق ، الحكمة ، تهمور ، زليخا ، الساق ، الأمثال ، اليارس ، الخلد وأروع ما في الكتاب الأول قصيدة « الحجارة » ويقصد بها هجرته إلى الشرق ، وفيها يقول .

« الشمال والغرب والجنوب تحطم وتتأثر ،  
والعروش تُنْقَل ، والممالك تتزعزع وتضطرب ،  
فلتهاجر إذاً إلى الشرق في طهره وصفائه .  
كفى تستروح جو الهداة المرسلين !  
هناك حيث الحب والشرب والأثناء  
سيهلك ينبوع الخفيّر شاباً من جليله . »<sup>(٨٦)</sup>

ولم يحمّد « جوته » في نفسه حرباً ، وهو الغربي المسيحي ، أن يعتبر نفسه مسلماً يؤمن برسالة محمد

(٨٢) السابق : القادة ص ٢٠١ .

(٨٣) الديوان الغربي للمؤلف الغربي . ص ١٥ ، ١٤ .

(٨٤) السابق : ص ١٨ .

(٨٥) السابق أيضا : ص ٤٦ ، ٤٥ .

(٨٦) الرسالة - الجزء الأول - لتجلد الأول العدد ١٤ - ص ٢٢ .

وواضح أن « جوته » في هذه المسرحية يتميز بجرأة ملموسة ، حيث أجرى الحديث على لسان النبي ( ص ) قبل بعثته ، وأطلق لعناته الخيالات ، وجعله يتحدث بطريقة تفوق مستواه العقل آنذا ، ولكن قد يغفر له نبل هدفه الذي يتنمياً عرض الفكرة الاسلامية من خلال الحوار التمثيل .

الى جانب هذه المؤثرات الغربية في الواقع الأدبي العربي ، وفي مجال الأدب الديني خاصة ، فقد قامت حركة أدبية بنائية ، تهدف الى كتابة السيرة النبوية بمنهج علمي ، تحقيقاً وثائقياً ، متأثرة بالغرب فقد رأى الناس مثلاً أكثر من تحقيق لسيرة ابن كثير وابن هشام ، مع شروح وتعليقات عملية ، مع نشر المذاهب النبوية في العصور المختلفة بما فيها « المولد النبوي » الذي يعبر عن رؤية شعبية يمتزج فيها التصوف بالمحاربة بحسب آل البيت ، وأيضاً رأينا أول مختصرات ومؤلفات للسيرة النبوية بلغة العصر . ولعل أول جهد في هذا المجال ما قام به « رفاعة الطهطاوي » في كتابه « نهاية الأيماني في سيرة سكان الحجاز » ، ويأت بعدها أول مؤلف عصري ذي قيمة علمية ، وهو « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، ثم كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد ، وقد دخلت الكتابات الروائية والمسرحية وهي بضاعة غريبة أصلاً الى هذا المجال ، فكتب توفيق الحكيم كتابه « محمد » من خلال إطار مسرحي وكتب طه حسين « الوعد الحق » وعمل هاشم السيرة « وعبد الرحمن الشريقاوي « محمد رسول الحرية » وعبد الحميد جوية السحار « محمد رسول الله والذين معه » من خلال عرض روائي ، أو يتميز بالأداء القصصي . وبالإضافة الى ذلك فهناك من الكتب جعل

في الفصل الأول المشهد الثاني - يجري حوار بين محمد ( ص ) وحملة السعدية مرضته حول عزلته وعباد الله ، نجتزئ منه هذا المقطع .

« حليلة : أرايت الله يابني ؟

محمد : وأنت ألا تبصيرته ؟ إنه خير بعيد عني ولا يرحس يترامى لي عند الزنبوع الدافق المهادر ، ونحت السرحة الغناء ، ولي الظل الرفيق البهي . . لقد توافى الى من عليائه فأحسست حرارة حبه وشق صدرى وأتنزع من قلبي حوياته حتى يتسلح لي أن أفهم معنى حبه !

حليلة : ولكنك تعلم ! اذن كيف يتندر لك أن نجها ، وقد شق الله صدرك ؟

محمد : سأصل صلاتي لله فلمله يفسد عقلك فلا يبدلك حنطتي خافضاً مبها .

حليلة : وأي إله هذا الذي تعبد ؟ أهر اللآل أم هو كُفيل ؟

محمد : أي شمس الشمس ! إنك لتفضل السبيل وتنزع الى الحجارة والأصعاد فتجعل منها إلهاً يُعبد ! ولكني ما زلت أحبك على شديدي تنسك ، وهذا الحب الشديد العنيف هو الذي يحفزني الى مباحثتك بأن هذه الحجارة التي تصل لها لا تستطيع أن تستمع لك ، وليس في مسوورها أن تفتح لك ذراعيها .

حليلة : أين يسكن إلهك ؟

محمد : انه في كل مكان يا حليلة . ا . . ( ٢٨٥ ) .



موضوعها حيويًا وغنيًا لا يتسرب اليه للذل، ولا يسرب الضجيج إلى القفوس الباحثة أو المتلقية وقد دارت دراسات شتى حول الكتب التي صدرت منه - صلى الله عليه وسلم - في العصر نفسه مثلاً : كتاب « محمد في الأدب المعاصر » الذي كتب فاروق غورشييد وأحمد كمال زكي وكتاب « محمد وهؤلاء » بقلم الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي ، وتعرض للكتابية في مجال السيرة ، وأشار إلى ما يعنيه ذلك حضارياً . وقد رد مؤلفا الكتاب الأول على أصحاب المقالة التي اتهم أدبنا بالرجعية وفكرنا بالتخلف وتسمى حضارتنا ماشاء لها الهوى أن تسمى . . . ولكننا نعرف أنهم ما كانوا إلا لأننا كنا ، وأنهم ملابنا إلا لأننا بنينا ، وأنهم ما يذعنون هذا الذي يلوكونه إلا ليعيدونا عن الطريق خوف انطلاق المصالح من جديد . ثم اتنا « نعرف أن أقوى ما في حياتنا كلها دعوة الاسلام . . . ونحن نعرف أن أروع ما في الاسلام أنه دعوة الأقوياء إلى السلام » ونحن نعرف أن أجمل مثال قلعه الاسلام هو شخصية صاحب الرسالة محمد عليه أزكى سلام<sup>(٨٧)</sup> ويتحدث مؤلف الكتاب الثاني عن يعتبرون الكتابة في الاسلاميات نوعاً من الرقة العقلية عن الفكر العلمي إلى الفكر الغبيى ، ويرد عليهم عطفًا بأهم بأنهم يفتخرون إلى النتائج لقروا بغير احتياط أو تفكير ، وأنهم يفتنون أن كل ظاهرة فكرية إنما هي تعبير سليم عن الواقع السياسي والاجتماعي ، وهذا الفن يفترض وجود مجتمع ساكن عاقل من أي تناقض ، ويكرر تابع يناظر ولا يوتر . ويخلص إلى القول : « إن ما كتبه المثقفون المصريون في سيرة محمد يضعهم في صف النفل والحجرة لا في الصف العادي للمقل والحجرة »<sup>(٨٨)</sup> .

من هم تصحيح الأخبار التي وردت في كتب السيرة وتسربت إلى المؤرخين ، كما فعل محمد لطفي جمعه في كتابه « ثورة الاسلام وطل الأنبياء » وفي هذا الكتاب يعزل المؤلف إلى وصف النبي ( ص ) بأنه إنشراق إلى ويقول :

« فليس النبي إنساناً كثيراً من المظاهر بقراً تاريخه بالفكر الذي يلازمه المنطق ، والمنطق يصاحبه الشك ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ، ولكنه إنسان كوكبي يقرأ بمثل المنظار للمغرب في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية الإلهية . لأن النبي إنشراق إلى على الإنسانية بقومها في فكها الخلقى ، ويحبها إلى الكمال في نظام هو صورة لقانون الجاذبية في الكواكب . ويضيء النبي ( ص ) نجمة حبيبة الألوهية معه في مثل بلاغة الفن البياي لتكون أقوى أثراً وأيسر فهماً وأبعد عمقاً . »

وهذا الرجل الفرد إنما يخلفه الله ويكملة ويحيته ليكون هو التفسير لما مضى وما يأتي فتظهر به حقائق الكون العليا في صبرة الإنسان العامل المنظور<sup>(٨٩)</sup> .

وهذه الرؤية تبدو أقرب إلى نظرية النور المحمدي التي تجعل وجود محمد ( ص ) سابقاً على وجود المخلوقات وترى أن الكون قد خلق من أجله ، وهي نظرية يعتنقها الصوفية وبعض الفرق الإسلامية .

المهم أن الاهتمام بسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - قد امتد على مساحة فكرية عريضة جعلت منه

(٨٧) محمد لطفي جمعه : ثورة الإسلام وطل الأنبياء - مكتبة الهدية المصرية - القاهرة - ١٩٥٨ م - ص ٥ / ٥ .

(٨٨) فاروق غورشييد وأحمد كمال زكي - محمد في الأدب المعاصر ط ١ - مكتبة التي للنشر - القاهرة - ١٣٧٨ م - ١٩٥٩ م - ص ٩ .

(٨٩) أحمد عبد المعطي حجازي - محمد وهؤلاء - الكتاب الذهبي - روز الفولب بالقاهرة - ١٩٧١ - ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

وقد شارك عدد من الكتاب النصارى في العالم العربى في مجال السيرة النبوية ، منهم الدكتور نظمي لوقا ، نصرى سلهب . .

ونعتقد أن هذه الكتابات النبائية حول الاسلام ونبيه - صلى الله عليه وسلم - ما بين مترجم ومحقق ومؤلف ، قد جعلت من الأدب الدينى ، خاصة ما يتعلق بشخصية محمد ( ص ) ، أمرا واقعا وملموسا ، دفع الأبداء والشعراء الى البحث في جوانب هذه الشخصية ومعالجتها بالوان فنية متنوعة وقد رأينا في الشعر بالذات أكثر من عمل فنى طويل يرصد الملامح المحددية ويتناول خلالها تجربة ذاتية أو تجربة عامة وقد سبقت الإشارة الى الياذة محرم ، ومجد العرب وعظيمة الاسلام لشوقي ومطلولات حافظ وعبد المطلب وعبد الحليم البكرى ، وفي هذه المناسبة يمكن أن نضيف ما كتبه كامل أمين وعلمر بحيرى ومحمد محمود زيتون وغيرهم . وقد عالجوا كتابة الملحمة المسرحية التى تدرج حول شخصية النبي ( ص ) ، وسكبوا خلالها مشاعرهم وأحاسيسهم الخاصة والعامة ، ويمكن أن نأخذ نموذجا من مسرحية « ميلاد النبي » لمحمد محمود زيتون ، يعبر عن ملمح من الملامح في حياة الجاهليين ، يظهر ذلك التناقض الذى يحسونه داخل حياتهم بسبب تلك الازدواجية التى يعيشونها من خلال انجذابهم بوجود الله وابتعادهم بالأصنام ومحبوبهم لها ، وهو ما تحدثت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى على لسانهم تعبرا عن سبب عبادتهم للأصنام « ما تعلمهم الا ليقرىونا الى الله زلفى » (٨٩) . قفى الفصل الرابع من المسرحية نرى هذا المشهد داخل الكعبة يضم أبى سفيان وهو يسجد للأصنام وأمىة بن أبى الصلت الذى ينكر عليه ذلك : أبوسفيان :

الى ( السلات ) والعزى ( خفصنا رؤوسنا .. وطننا بيت الله صبا ومغربا وهامت النفس الى طال شؤفها .. الى ( هبل ) والقلب مازال تجديبا

أمىة :

يا . ( أبى سفيان ) لا تسجد له .. وتروخ العقل في كل الأمور إنه صخر .. ولا يعنوله .. غير قلب قد من ميت الصخر

أبوسفيان :

( أمىة ) إن القلب مازال جامدا .. حل ما يتنه أصغر ودهور

أمىة : أمالك من دين سواه ؟

أبوسفيان : وكيف لي ؟

أمىة : أتوضى بدين ليس فيه شعور ؟

أبوسفيان : (أمىة ) دهنى من حجابك واعفى فإنى بالدين الصحيح خير .

أمىة : لعمرك ما أصنام بيت تؤمه بنافمة والحادثات كثير

ولكن ( أبوسفيان ) مازال عاقلا .

أبوسفيان : بل القلب منى جامد وكفور . . الخ (٩٠)

ثم اننا نأخذ من هذا النص - ثانيا - فكرة تاريخية - بنائية - عن الفترة السابقة على بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف كانت الحياة العقيدية في تلك الفترة ، وهو ما يعنى أن جهود الشعراء العرب في الجانب « البتائي » للنهضة الدينية أدبيا وعقديا كانت في مستوى المرحلة ، بل تفوقت عليها .

(٨٩) سورة المزمل آية ٣ .

(٩٠) محمد محمود زيتون محلة الفنى - لجنة النشر للجمعيتين ، مكتبة مصر ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م ص ٦٩ ، ٧٠ .

وقد اتجه كثير من الشعراء العرب في القرن الرابع عشر الهجري الى التعبير عن همومهم الذاتية من خلال تصور إسلامي يرى في الحقائق الأعظم للخلق والملاذ الذي يحصي من الخوف ، ويقبل العثرات ، ويبتع الأمل لمواصلة الحياة الدنيا ، والاستعداد للأخرة .

وقد ساعد الشعراء على الاتجاه إلى هذا اللون من التعبير ، عوامل عديدة منها طبيعة العصر الذي يعيشونه ، والظروف التي انعمت عليهم بفعل هذه الطبيعة ، والموروث التي انتقلت إليهم عبر أجيال سابقة من تصورات ورؤى تحكم التعامل مع النفس والعالم الخارجي .

إن العصر الذي عاشه شعراؤنا العرب كان أو مازال - يمثل مرحلة صراع ضار بين حضارتهم الإسلامية المهزومة ، وبين المدنية الغربية المنتصرة ، والتي تعبر عن انتصارها بصورة متعددة ، مثل الاحتلال العسكري السافر ، أو السيادة الثقافية والعلمية والفكرية والتكنولوجية . . . وهذا الواقع الغريب لابد أن تكون له آثاره السلبية على كثير من الشعراء الذي يستشعرون الأخطار والأحزان قبل غيرها من الناس ، وقد رأينا كثيرا منهم يميرون في تنابها قصائدهم عن مصافي الفهر والاستلاب والمزمنة ، وهذا التعبير يأتي عادة في صياغة إيجابية ، إذا ما كانت هناك حالة مد نفسي يعيشها الشاعر فيدهو إلى المقاومة والصمود والإصرار على تخطي الطغيان ، ولكنه قد يأتي في حالة سلبية متقلبة بالأسى واليأس والحزن إذا كانت القدرة على لمواجهة ضيقة أو معدومة .

إن هذا النص يعطينا أولا فكرة عن الصراع الذي تصنعه ازدواجية العبادة لله والأصنام ، بين أبي سفيان الذي يؤمن بهله الازدواجية ولا يقبل بتحكيم العقل والمحاكمة المطلقة وبين أمية بن أبي الصلت الذي يرفض هذه الازدواجية ويرفض عبادة الأصنام التي لا تنفع معتمدا على فطرته وبعض قراءاته في التراث القديم .

وعلى كل ، فإن الجانب الدفاعي والجانب البائي في مجال نهضة الأديب الديني والشعر خاصة قد تضاعفا بشكل ملحوظ ، لتصبح مقولات عديدة حول النبي - صلى الله عليه وسلم - والدين الإسلامي ، ورموز هذا الدين ( خاصة في مجال اللغة العربية )<sup>(٩١)</sup> ووضع الأسس الروائية في مجال تعريب الألوان الأدبية القادمة من الغرب مثل المطولات والملاحم والمسرحيات وغيرها ، وإعطائها جنسية عربية وإن لم تحقق الملامح الفنية الكاملة والمفترضة .

#### ٤ - التجربة الذاتية :

تعد التجربة الذاتية من أهم روافد الشعر الديني في العصر الحديث ، فالشاعر يكون - عادة - أقرب إلى التعبير الجيد حين تلتصق هذه التجربة بنفسه أو تنبع منها ، فهملك حينئذ قدرة تعبيرية أقوى من الشاعر الذي يتعامل مع التجربة الشعرية خارج ذاته . والدين أقرب إلى النفس الإنسانية بحكم الفطرة وغالبا ما يلجأ الإنسان إلى الله أو الدين حين يصيبه مكروه ، أو تلم به نازلة ، أو يأسوه قلق ، والشاعر باختياره واحدا من بني الإنسان وأقربهم إلى التعبير ، فإنه يسمى بصفة عامة إلى المثال الذي تستحق لديه السكنة واليقين والراحة النفسية ، فضلا عن مطالبه الأخرى من الحياة .

(٩١) يتأكد أن الشعراء قد تميزوا في النطاق من اللغة العربية وأيضها الشعرية عامة بعد أن وجدت مجرعا متينا من رموز الاستعار والرمز في مصر مثل السيوطي ، والكرسي والفرزدق كرمز واللوب واحد لظني السيد وملازمة موسى وفرهم وغلظ إبراهيم نصبة للندوة التي نشرت عام ١٩٠٣م وبغداد .

ونصحت نفسي فاصبحت خضافي  
عشت فلم أفرغ لثوب مقلبي  
ربما وأخفاه فالتفتي . . . الخ

رسمت نفسي فاصبحت خضافي  
رسمت بدمع في الشنباب ولبسني  
تلكت ولما { لبث لمراسني

» ديوان حافظ ج ١ ص ٢٥٤ .

أنا يا الهي عند بابك واقف  
لا ابتغي عنه الزمان عدولا  
ما جئت أطلب أجر ما قدمت  
حاشا لجودك أن يكون قليلا  
عظمت آمالي وصغرت السورى  
من ذلها إن لم تك المأمولا  
إلى ليعجبني وقوفي سائلا  
إن كنت أنت السيد المشغولا (٩٣)

وقد تتكاثر المومم الخاصة حل الشاعر ، كأن يرى  
قومه يتذكرون له ، والزمان يتجهّم في وجهه ويتحول من  
حال طيبة الى حال لا ترضيه ، فلا يجد ملأداً إلا الله ،  
والتمسك بعروة الدين كي يتغلب على هذه المومم التي  
لا تبرح مكانها . ولعل تجربة « البارودي » في هذا  
المجال أوضح التجارب ، فقد كان الرجل ذميراً وشاعراً  
مشهوراً وصاحب مكانة مرموقة ، ثم قاد ثورة مع آخرين  
بزعامة أحمد عرابي ضد الخديوي توفيق والإنجليز الهزاة .  
ولمّا تغير الوضع لمعش الشاعر هزمتين . هزيمة عامة  
من ملاحظها : انكسار الوطنيين وسحق الثورة وثبيت  
دهائم الاحتلال والحكم التابع للاحتلال ، وهزيمة  
خاصة تتمثل في فقدان مناصبه ومكانته ، ثم محاكمته  
وسجنه ونفيه بعيداً عن أهله وأصدقائه ووطنه ولذا  
تتقابل في ديوان البارودي مع قصائد أو مقطوعات تلهج  
بذكر الله والاستماتة به ، وتعبّر عن الزهد وطلب العفو  
والغفران من خالق الناس . يقول « البارودي » مثلاً :

إلام ينفو بحلمك الطرب ؟  
أبعد حسين في الصبا أرب ؟  
هيهات ، ولي الشباب واقربت  
سامة وِدّ فَنَاشِئ الغرب  
فليس دون الحِمَامِ مبتعد  
وليس نحو الحياة مقترّب

في مثل تلك الظروف تكون العودة الى الذات أو  
التأمل الذاتي من خلال العزلة عن العالم الخارجي أمراً  
طبيعياً ، فيكثر شعر الزهد والمناجاة والتأمل في خلق الله  
والدهاء . قد لا يكون الشاعر مدركاً تماماً لواقع الهزيمة  
والاستلاب والقهر ، ولكنه يرى بالتأكيد ، أن التوجه  
الى الله فيه الفائدة كل الفائدة حتى ولو لم يكن هناك شيء  
يؤرقه أو يؤرق المجتمع من حوله . ومن ثم ، فإننا نرى  
كثيراً من الشعراء يتوقفون أمام « باب الله » الذي لا يرد  
سائلاً ومحتاجاً ، والسؤال هنا أو الاحتياج لا يتعلق  
بطلب شيء مادي ، ولكنه ينصرف الى طلب الخير  
والرحمة والمغفرة ، وكثيراً ما ارتبط السؤال أو الطلب  
« بالتوسل » بالحبيب المحبوب - صلى الله عليه وسلم ،  
كما نرى مثلاً في قول عائشة التيمورية :

إلهي سيدي أنت الجليل  
بسبب رجالك العبد الذليل  
ضعيف الحال منكبنير فقير  
كثير الخفي ناصره قليل  
لأنت لذنبه رب غفور  
كريم صفحه السامي الجزيل



فصلت حاك تشر قبح هيبي  
يسر المصطفى ابي دخيل (٩٤)

إن الله سبحانه أقرب الى العبد من نفسه ، لذا تكون  
الشكوى اليه واللجوء الى يابه أمراً طبيعياً ولأن الشاعر  
يجد فيمن يسأله أو يشكو اليه صفة الخلود الذي لا  
يزول ، والثبات الذي لا يتمحى ، فاته أمام التفريزات  
الزمنية التي يعايشها ولا يجد فيها أملاً حقيقياً يكون الأمل  
الحقيقي عند « باب الله » ، ولنتقرأ هذه الأبيات:

لا سماعيل صبري باشا :

(٩٢) حلية الطراز ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٩٣) ديوان اسماعيل صبري باشا - إهداء - كمد الزين - جلد الثاني والثالثة والنشرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م - ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

هول ، فإن الشاعرة تحتفظ بطبيعته وكنهه وسره لنفسها .

ومن هذا القبيل ، ما عالجه « الرافعي » في بعض قصائده حين صرح بضيقه من الدنيا وقسوتها عليه ، وتكاثر الموم من حوله ، دون أن تعرف ملائح هذه الموم أو تلك القسوة أو ذلك الضيق . وله قصيدة مؤثرة في هذا المجال يتوسل فيها بصاحب الشفاعة العظيم - جنل الله عليه وسلم ، غتمها بتلك الأبيات .

رسول الله جئتكَ مستغيثاً  
وجوئك ضامنٌ أن لا أخيباً  
سقى تحضرُ أبيامي وتزهر  
ويصيحُ صوتهُ آسالي وطيباً  
فقد ضاقت بي الدنيا وهبت  
لجنائنها على قلبي هبوباً  
ومالي غير حبيكَ من نصير  
فقل من المنايا في نصيباً (٩٦)

وعلى العكس من ذلك نجد شاعراً مثل « بدر شاكر السياب » وقد دهمه المرض وأنعده طويلاً ، وتعلب غربياً مريضاً محتاجاً ، فقد صبر عن كل ذلك بروض وصرامة وتفصيل ، كما نرى في قصيدته الطويلة « سفر أيوب » والتي ظهر فيها شعوره الديني والضمح ، وتسليمه لله مطلقاً بعد مروره بمراحل فكرية متعقدة كان فيها بعيداً عن الدين ، وعن الله . يقول في مطلع القصيدة :

لك الحمدُ منها استأطَّلَ البلاء  
ومنها استبَدَّ الألمُ ،  
لك الحمدُ إنَّ الرَّدَايَا عَمَلُهُ  
وإنَّ المصِيبَاتِ بعضُ الكَرَمِ

ثم يقول :

لستُ بى الله قبل مستنعمٍ  
تكثر فيها الموم والكُربُ  
واعتمد على الحبر ، فالهولُ منْ  
هلبهُ الاعتبَادُ والذُّرْبُ (٩٧)

وربما كان الشاعر يعيش عنة خاصة ، ومما ذاتياً لا يعرفه أحد ، فلا يجد من يطلب نجده إلا الله ، ويصبح الإفضاء إليه وحده بالسَّ ، « أمراً خاصاً » فيما بين الشاعر وبين ربِّه ، باعتباره « علم الشكوى » ولورجعتنا إلى « عائشة التيمونية » ، فسوق نراها تقول في إحدى قصائدها « متوسلة » بأخييب الهادي - صل الله عليه وسلم .

لعب الهوى بفؤاد صبَّ نالتي  
وسقاه كأس لوعة وصنم  
ما باله لزم الهوى حتى غدا  
في الحب لم يسرح من البرحمان



يساهم الشكوى وحسرتونجهم  
وإلى عظيم الفرح جُذِّ بلوإلي  
بحبيبك المهادي سالتك دُأني  
لملاح أمراضٍ وجلب شغالي  
ثم الصلاة عليه ما هب الصبا  
مُحسراً مطر سائر الأرجاء (٩٨)

ونحن هنا أمام شاعرة تشكو من أوجاع وآلام ، وتطلب من « عالم الشكوى » أن يهرد بالدواء لأنها « عظيمة القرح » ، وأن يدها على الدواء لتعالج الأمراض وتحقق الشفاء ، ولكننا لا نعرف أمراضها أو آلامها وأوجاعها ، وإن كانت قد أشارت إلى « القرح العظيم » ! ورغم ما يشير إليه « القرح العظيم » من

(٩٦) ديوان البازدي ج ١ - تحقيق الجلام ومروفي - دار المشرق - ١٩٩١ - ص ١٢٢ ، ١٢٧ .

(٩٧) حيلة الظراف - ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٩٨) ديوان الرافعي ج ١ - (مخطوطات حائل الرافعي) - ط ١ - شرحه عبد كافي الرافعي - الطبعة السابعة - ١٩٩١ - ص ١١٩ .

ألم تُعطيني أنت هذا الظلام  
وأعطيتني أنت هذا السحر؟ (٩٧).

وفي الجزء الرابع من القصيدة نراه يتوجه إلى الله بأن  
يحقق آمانيه ورجائيه بعد أن أضناه الألم :

يارب أيوب قد أحيا به الداء  
في غربة دونما مالٍ ولا سكن ،  
يدعوك في السجّين  
يدعوك في ظلمات الموت : أحياه  
نَدَّ الفؤادُ بها ، فارحمه إنَّ ههنا  
يا منجيا فلك نوح مرق السدفا  
جني . أعذني إلى داري ، إلى وطني (٩٨).

وهناك من الشعراء من صرّح بمشكلاته الخاصة ،  
أومّأ الذي يعانيه ، دون أن يمثّل في نظرنا أمراً ذا بال أو  
معيّراً من نوع من المهوم الطريفة ، ولكنه من وجهة نظر  
الشاعر يمثّل له أرقاً خاصة إذا كان يرى مناسنين له أو  
حائزين عليه . ولعل من أطرف المشكلات أو المهوم  
التي طالعتها ، ما عبر عنه الشاعر « أحمد الصافي  
النجفي » حين أحس فيها يلبس بعدم التقدير لشعره وقلة  
الإشادة به ، ورغم تفوقه على كثير من أقرانه ، فقد صاغ  
مفارقة بين الكفر والشعر ، وصنع قصيدة تحمل عنوان  
هذه المفارقة « عالم الكفر وعالم الشعر » ، يقرّان فيها بين  
دور محمد - صلى الله عليه وسلم - في غزو عالم الكفر  
بسلاح الحق ، ففتح الدنيا بعد أن حطم الأصنام ، وبين  
دوره - أي النجفي - كشاعر فتح الدنيا بشعره الذي يمثّل  
شرح الله وكتابه ، أو ينبع منها ، والذي يتحدى القائلين  
به من خلال دواوينه الثمينة أو آياته التي تتسع كما صورها ،  
وأثبت هنا القصيدة بكاملها ، لنرى إلى أي مدى  
استطاع الشاعر أن يمزج عبء « الطريفة » بالرؤية  
الدينية :

عمدٌ جدّي قد غزا عالم الكفر  
وها أنا أغزو بعنقه عالم الشعر  
كلانا سلاح الحق كان سلاحه  
فلا غرو أن تحقّق لنا راية النصير  
كلانا رأى دنياه ملأى زخارفاً  
وزروا غايزي الزود بالمنطق الحبر  
كلانا له الفتح المبين ، ففتحته  
لدنياه ، ديني وفتحني لها شعري  
كلانا رأى أصنام دين ومنصب  
فجاء على أصنام دنياه بالكسر  
لئن كان ربّ القصر معبود شهرهم  
فمعبودنا في شعرنا ، ربّة القصر  
زخارف أقوال ودنيا فُتِلَتْ  
اليس لهذا الموت يارب من حشر ؟  
محمد ذم الشعر قبلما وأهله  
ولو كنت لاستقي بلا ريبه شعري  
يمثل شعري شرعه ، وكتابه  
كتماني ، وأبائي بأبيائي الخمر  
كلانا تحلى القائلين بقوله  
ليفضي على بطل وأفضى على هلب  
لشعري وحي الأنبياء ملائكت  
إذا كان شيطانان للشعر والكفر  
ولي تسع آيات ، دواوين تسع  
حسوت شعري الأثري في عصرنا الدري (٩٩) !

وهناك من التجارب الذاتية ما يحتاج إلى وقفة طويلة  
لأنه يشكل ظاهرة ملحوظة لدى عديدين ، كما نرى مثلاً  
هند « فدوى طوقان » ، والشاعر « صالح الشروني »  
فقد مرّ كل منهما بتجربة حياتية ذات خصوصية وتميز ،  
والتجربة الذاتية هنا تمرّح من ذلك القلق أو التوتر الذي  
يملأ أفق الشاعر ، ويغلّف حياته ، ويصعب واقعه ، ومن  
خلال المعاناة يصل الشاعر بعد حين إلى برّ السلامة

(٩٧) المجموعه الكاملة للشّاعر : ٢٤٨ .

(٩٨) السجّين : ٢٥٧ .

(٩٩) أحمد الصافي النجفي - القصائد نظم - مؤسسة المطر في بيروت - ١٩٦٥ ، ص ٤ وما بعدها .

يا أرضُ ، أحزنك مهباً قَتَتْ  
وطبقتْ حُزُنِي بِجَنَائِي الوجودِ  
هيهات أن تلمس روحاً سَرَى  
فيها من الله ضياءُ الحُلُودِ<sup>(١٠٠)</sup>

هذه الطمأنينة الألبية التي سرت في أعماق الشاعرة نراها كذلك لدى الشاعر « صالح الشرنوبى » ، وإن كانت هناك فرواق بين كل منهما ، صلى الأخص فيها يتعلق بأسلوب التعامل مع الحياة والأحياء ، فلذا كانت « فلدوى » يحكم تكوينها الأنثوي ، تعيش واقعا محدودا ، يمتد في تعامله على رد الفعل ، وانتظارا ما يأتي من خوارج الذات وتأمله والحكم عليه ، فإن « صالحا » عرك الحياة ، وامتزج بالمجتمع ، واضطل بلهب الصراع بين قيمة الفصيلة المشرقة ، وبين واقع مليء بالزيف والظلام ، إنذا فهو يعمل على التأثير في هذا الواقع بانتقاده وطب تغييره من خلال سخرية مريرة أو تسكلات لها طعم الملقم ولون الاتصال الحادة من خلال استغاثته بالله ، يخاطب ربه في قصيدته « صلاة » قائلا :

يارب .. هلي السُّلُرُ مَلْ نَزِيلها  
فسلامها ألا يندم سلامها ؟  
الحين الميسور من أرواقها  
تنبال دون مناله آلاها  
قلبي ؟ وما قلبي سوى أنشودة<sup>\*</sup>  
خلعت ممانها ومات كلالها  
روحي ؟ وهل روحي سوى ألقاة  
تخفي على لعب الأسي آياتها  
شمري ؟ وأي قصيدة لم يَشَقها  
تقي .. ولم تَبِك الوري أنشأتها  
يارب نفسي قد أُلْتُ سَقَاتها  
ودولها في أن يحين جاشها  
أنا لا أَدُمُ من الرواية بَشَفها  
لكن أقول متى يكون غشامها ؟<sup>(١٠١)</sup>

واليعين ، ويرى في الخائق الأعظم الملاذ والملمجا والحقيقة المطلقة ، التي تملك أسرار الوجود ، وشفاء الموجودات روحيا وماديا أيضا .

في قصيدة طويلة عزائنها « طمأنينة السياه » تناول « فلدوى طوقان » ظروف الأسى والحزن التي عاشتها « وحيدة » تعاني « جراح الزمن الفائزة » فتخرج من غدورها الى الشرفة وتقلب البصر في قلب الظلام ، فلا ترى « ومضة » ، ولا تستشعر الا « هزيز الريح » وأصداء القلب المحروم ، وتستفيض في الحديث عن « الوحشة » و « الأمس الغابر » و « حطام المني » والغد البهيم والاختراب والظلم الكاسر ، وفي قلب هذا الجو المرعب الكئيب ، « ينشق » صدر الليل عن كوكب مشتعل الروع .. :

كان روح الله من فوقه  
تمله بنورها ، هن سخاء  
فانحطفت في ذهلة رجها  
خافت الهبات ، وراه الفضاء  
هناك حيث النور لا ينتهي  
فُناك ، حيث النور فوق الفناء

هذا الذي حدث نتيجة التأمل الذاتي للشاعرة في فاضلها وما حولها ينتهي بها إلى الطمأنينة والسكينة بعد أن عاشت في عالم « الوحشة » و « الإفق » و « الأسى » و « الوحشة » ، وتحمم قصيدتها بذلك الحتام المبرر من اليقين الذاتي :

هناك غشها طمأنينة  
علوية ، ما لداها حُلُود  
وصاح من أصواتها صياح  
يتظلم الأرض صده البعيد  
يا أرض ، أهولك مهباً طفت  
وأكدت خطوئي بثقل الضيود

(١٠٠) الرسالة - المجلد ١٧ - ١٩٤٩ - ص ١٠٩٦ ، وقد نشرت ضمن مجموعتها « وخطي مع الأيام » في النشرة الخاصة ط ١ - طر الفوتة - بيروت - ١٩٧٨ - م ٥٧ .

(١٠١) صالح الشرنوبى - عزائنه تحقيق د . عبد الحى حجاب - دار الكتاب العرب بالقاهرة ، بدون تاريخ ص ٣٧٥ .

ومع هذه النيرة الحزينة المشائمة ، إلا أننا ندرك إيمان الشاعر بأن السلام والأمان والطمأنينة ليست عند الناس ، ولكنها عند الله حيث يكون جواره أحسن جوار . وفي تلك اللحظات التي يستقيم فيها مزاج الشاعر ، ويتعامل مع الواقع بهدوء وسكينة ، نراه يتحدث عن الذات الألهية حديث المؤمن للمرك لما تملكه هذه الذات من فيوضات الرحمة والنعم :

وراء حلود الثيب .. عجم فيوضه  
على خافي في الصدر .. جف جهيد (١٠٦)

ويعبر الشاعر رغم قومه الذي قد يبدو أحياناً في بعض القصائد - من حسن ظنه بالله لأنه رب الإحسان والتدبير ، وهو صاحب الفضل والتيسير ، وهو الأحق بالضرعة لأن إليه كل مصير ونفحات الله لا تنتهي .. مما يجتم على السلم أن يستقبلها بقلب طاهر :

أخبرن الظن بالصل الكبر  
فهو رب الإحسان والتدبير  
واسأل الله فضله .. فهو رب الله  
ففضل .. وأذكر نبيسه للصير  
وتسرع السيه في كل وقت  
فإليه مصير كل مصير  
كل حين لسرنا نضحت  
فتصرف لها بقلب طهور (١٠٧)

وينتظف الشاعر ، وهو في ذلك يعبر عن أشواق كاملة ، الى النفس أو الذات ليدعو المسلم الى التجرد من الهوى ، ورفض اليأس ، لأن اليأس أو القنوط من صفات الشيطان الرجيم :

لا تدع للهوى عليه سبلا  
فالهوى سيئ الغوى الغرور

واحق اليأس بالرجاء .. وسلم  
وكبر الأمر للعليم الخبير  
إن شر النفوس نفس يؤوس  
دائم سخطه على للسفور  
حاله في الحيا من حاله إيلين  
قنوط من الرحيم الغفور  
إن معنى الإيلين من جعل اليأس  
س من الله حفظه من الأمور (١٠٨)

وتتناهى تجربة « الشروبي » حين يصل الى الوقوف على « باب الله » كما رأينا من قبل عند عائشة التيمورية واسماعيل صبري باشا ، فنراه من خلال إحساس يشبه إحساس الصوفية ونداءاتهم يخاطب ربه بصيغة الجمع :

أنا بالباب واقف .. فدعوني  
أنطهر بغيضكم .. وتُسُوني  
أنا بالباب واقف .. وسأبقي  
واقفا غاشمحو .. ولا تحموني ..  
الح (١٠٩)

وسوف نرى التجربة الذاتية تتماق مع الموروث الصوفي باعتباره أقرب الى الوجدان الفردي ، فضلاً عن كونه يمنح الشاعر فرصة التعايش مع العالم الروحي السامي . والصوفية من جانب آخر تمثل نوعاً من العبادة باعتبارها دعاء وفكراً للمخالف الأعظم ، سواء تم ذلك من خلال حلقات الذكر أو الإنشاد الشعري أو دقائق الطبول أو المواكب الصوفية (١١٠) وإذا كانت الصوفية قد تعرضت للمهجوم من بعض علماء الدين ، خاصة حين غالى بعض الصوفية في مفاهيمها فلإنها لم تعلم من يدافع عنها ، ومن يدافع عن أتباعها ، باعتبارهم يلزمون ، أنفسهم فوق الطاقة ، بما لا يلتزم به العاديون من الناس ، وهم

(١٠٦) السابق : ص ٤٧٠ .

(١٠٧) السابق أيضاً : ص ٤٧١ .

(١٠٨) نفسه : ص ٤٧٢ .

(١٠٩) ديوان الشروبي : ص ٤٧٢ .

(١١٠) السابق : ص ٤٧٤ .



البعيدة ليضحكوا على البسطاء . يقول « الشارف » في قصيدة بعنوان « الصوفية الكاذبة » :

نور الشريعة عن قلوبهم احتجب  
لا يتشئون الى القيام بما وجب  
جعلوا شعاع ذوي التصوف حرفة  
يتكسبون بها ورش المكتسب  
عمل لآخر قد طلبوا به  
فئسا هو طلب الحب لمن أحب  
هجموا باللفاظ الحقيقية وانثروا  
بتموهون بها لن لهم انتسب  
من كيدهم نسجوا ثياب خديعة  
كي يعملوا منها غطاء للكلب  
لما تعمدر بالثدينة صيغهم  
نصبوا حبالهم بيادية العرب  
إيليس آدم لا يزال ولم يزل  
لنيه يتبع أينما ذهبوا فقب (١٠٨)

وقد وجدت الصوفية في القرن الرابع عشر الهجري اهتماماً كبيراً لدى الشعراء للدرجة أن بعضهم قد أوقف معظم دواوينه أو أشعاره على الفزول الصوفي أو الانطلاق من المفاهيم الصوفية (١٠٩)، ولهذا لم يكن غريباً على رجل مثل « زكي مبارك » أن يعلن وهو يتحدث عن خصائص ديوانه « الحان الخلود » بأن المصيبة الثالثة هي : « التزعة الصوفية » فأكثر القصائد في التشبيب لم تكن لها موجهات من الجمال الإنساني ، وإنما كانت موجهاتها من الجمال الرباني :

أحبك ياربى قل أنت شالحي  
الى سرحة في شط دجلة زهره

يعيشون في صفاء ونقاء . يقول الشاعر « أحمد الشارف » في إحدى قصائده مدافعاً عن الصوفية :

نور لديهم نُضرة  
تزين من لهم نظر  
سادوا على كل الزرى  
واستهلوا صبغ القفر  
أنوارهم منهما بدت  
تزهو على نور القنر  
ياليتي طولي بهم  
تسترجعي حسن القنر  
ما أنستي الا بهم  
يا عاذلي كن في سقر  
ولو ملأت الكون لوما  
ساذك عندي الا فر  
يا أهل تمهيد لقد  
نلتهم رضى الشيخ الأبر  
أستاذنا محمد  
الطاهر الذي اشتهر  
وما عفت أعلامه  
إلا على أسمى البصر (١٠٧)

والشاعر هنا بهم وجداً ، ويدعو العذار ، ولا يعابى باللوم ، ثم يشر أهل الطريقة بنوال رضا الشيخ الأبر « محمد الطاهر » الذي ظهرت أعلامه واشتهرت . والشاعر « أحمد الشارف » رغم انجازه الى الصوفية ، وأهل طريقته ، لا يدافع عن الصوفية المتحرفة أو الكاذبة ، بل يتاجها ويرى أن « نور الشريعة » - فضلاً عن نور الحقيقة - قد احتجب عن قلوبهم لأنهم تقاصوا عن أداء الواجب وجعلوا من التصوف حرفة للارتزاق ووقعوا في شرك المخادعة والتهمويه والكلب ، وحين انكشف أمرهم في المدن ذهبوا الى البواقي والأماكن

(١٠٧) أحمد الشارف - دراسة بعنوان بقلم في مصطلح الشعر في ط ١ - لكتب التجارية ، بيروت ١٩٦٣ - ص ٢٦٤ .

(١٠٨) السابق : ص ٢٦٩ .

(١٠٩) انظر مثلاً دواوين شعراء السودان المحليين ، التي أفرج بالتصوف ولها يرجع إلى انتشار الطرق الصوفية في السودان ، وانظر مثلاً ديوان البرنات للشاعر « الرضي الصولي » المرحوم أبو الرضا حمزة رمزي نظام - كما وصف نفسه على خلاف القديرات - وقد يدر من خلال الأجواء والموضوعات الصوفية على مدى إلى التمتع تلك البيت .

رأيت فنسائي فيك حين رأيتها  
تحاول إضلائي وتُنشدُ إقتنائي  
ومن أنت ياربِّي أجيبني فإنتسي  
رأيتك بين الحسن والزهر والمساو<sup>(١١٠)</sup>

وإذا كان « زكي مبارك » قد وقف عند حدود التشبيب الصوفي، فإننا نرى بعض الشعراء يتجاوزون ذلك إلى عملية مزج المذهب القوي أو الاجتماعي بالشوق الصوفي، ولعل ذلك يظهر بوضوح لدى شاعر مقتدر مثل « عبدالله الطيب » الذي تكاد تكون معظم أشعاره رموزاً صوفية وأشواقاً روحية تشير إلى الواقع السيء الذي يتقلب الشاعر على جره ويغفو إلى النجاة منه، أو تغييره تماماً، ولناخذ مثلاً من بعض قصائده التي يعلن فيها عن هراء الصوفي واستخدامه المجاز للتعبير عن هذا الهوى. يقول في قصيدة بعنوان « مَثَلُ الصوفي »:

« صَبَرْنَا عَلَى حُلُوِّ الْحَيَاةِ وَوَسَّرَهَا  
وَالِي النَّفْسِ أَسْمَالَ تَرِيدُ مُرَادَا  
كُنَّيْنَا بِأَوْصَافِ النِّسَاءِ عَنِ الْمَوْتَى  
خَفَانَتُنَا إِلَّا يُظَنُّ سَدَادَا  
وَبَدَانَا دَارَ الْحِفَافِ جُدُودُنَا  
وَكَسَانَا يَرْوَنَ الْكَرِيمَاتِ تِلَادَا  
وَلَوْ أَنَّ مِنْ لَبِنِ الْكَفَانَةِ غَضَّةٌ  
لَدِينَا لَقَدْ طَابَ الْمَقَامُ وَجَادَا<sup>(١١١)</sup> »

والشاعر يحمل قصائده الصوفية همومه من خلال جو صوفي سامع ينسج من يقين قوي وثقة مطلقة في جنب الله، لحل المشكلات والصعوبات التي تعترضه، أو تعترض قومه. وهو يمثل إلى حد كبير صوت الصوفية الاجتماعية، بعكس آخرين يمثلون الصوفية في صورتها السلبية التي تنحصر في حدود الذات أو تلج على ملاحق غير متفق عليها من أهل السنة. فقي قصيدة بعنوان

« الحيات »، يشير إلى رفض اليأس، ويدعو إلى الصبر وذكر الله القريب المجيب الدعاء، من خلال الفاظ الصوفية وطول القافية وضريح شيخه وخنيته إلى الصحراء. يقول فيها:

وقد نَبَّيَ الْقَوْمُ السُّهَامَ السَّيِّ إِذَا  
تَرَأْسَ لَهَا رُؤْمِلَ اللَّيْلِ أَرْضُنْ  
وَحَيَاكَ عِنْدَ الْبَرِّ قَوْمُكَ لَهْمْ  
لَا كِبَادَهُمْ حَقًّا عَلَيْكَ نَحْنُنْ  
فَلَا تَأْسَ وَأَصْبِرْ وَادْكُرْ اللَّهَ إِنَّهُ  
قَرِيبٌ مَجِيبٌ وَالِدَعَاءِ يَطْمُنْ  
وَأَنْ طَبُولَ الْقَادِرَةِ لَمْ تَزُلْ  
إِذَا صَدَحَتْ قَلْبِي لَهَا يَتَحَوَّنْ  
وَزَرْتُ ضَرْبِ الْعَشَى الْأَغْيَثِ بِفَقْرَةٍ  
قَوْمًا وَقَلْبِي لِلْبَارِئِ بِرُكْنِ<sup>(١١٢)</sup>

وفي بعض البلاد العربية يكون للطرق الصوفية تأثيرها الفعال في بناء الوجدان الشعبي بحيث تكون هناك رابطة قوية بين تلك الطرق ووجدان الناس، وتقوم هذه الطرق باحتفالاتها الموسمية في الموالد والأعياد بتسيير مواكبها المعتمدة على الدفوف والطبول والأعلام والمنشدات، وقد حظيت هذه المواكب باهتمام الشعراء، فرأينا من يصفها ويذكرها وقد رأينا بعض الملامح فيها اختزنها من نماذج للشاعر « عبدالله الطيب »، وقد يوضح الصورة أكثر أن نورد هنا نموذجاً آخر يقف على وصف « مواكب الصوفية » وهم يؤدعون الحجاج إلى بيت الله الحرام وزيارة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ومن خلال وصف هذا الموكب نرى الشاعر يفصح عن أشواقه وتطلعاته نحو الأماكن المقدسة، ويحمل وصفه معجم الصوفية ورؤاهم فيقال لنا « موكب الحب » و« الشعاع » و« حمرة الحقيقة » و« ذكر مبدع الأكرام » و« الدفوف »... الخ.

(١١٠) د. زكي مبارك لحاف الخليفة، ط ١، دار الكتاب العربية بدمشق، ١٣٩١ هـ - ١٩٤٧ م. للتحفة ص ٩.

(١١١) حمد الطيب - يافك ولف ط ١ - الدار السودانية - الخرطوم - ١٩٧٠ - ص ١٣٦.

(١١٢) السابق: ص ١٨٧، والأغني عن الفكر: أحمد الطيب، روحه الله - والبارئ للمصري.

عن مزيج من التصور الأيماني الصوري ، مع وعي بأشواق ، الوجدان الشعبي خاصة في مصر ، حين تتهاى تلك المراكب لتوديع الحجاج والمسافرين إلى الأرض المقدسة ، فلهذه المراكب طعم خاص ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمشاعر الناس نحو الأماكن المقدسة ، وهذه المشاعر عادة تكون مثقفة ورفيعة ، ويكون هنالك إحساس عام بأن الرحلة الحجازية تحقق الصفاء والنقاء والطهارة للحجاج فضلاً عما يصحبها من وقوع الفرق والرحيل . وهكذا يكون الموكب المودع - بكسر الدال - ممثلاً بالمشاعر المتنافسة ، بين فرحة الرحيل لقاء الحبيب - ﷺ - والكمة الزهراء والإحساس بالولادة الجديدة ، وبين حزن الفراق والخوف على الراحل الكريم . . ومن ثم ، فإن الشاعر حاول أن يعبر عن ملامح هذا الموقف بعض التفاصيل التي ينفرد بها المصريون عند الرحلة الحجازية ، فبينما يفرحون بالرحلة نجدهم يكون شوقاً إليها ، وإنشاقاً منها أيضاً ، وبينما تتصاعد « الزغاريد » ، والأمازيج ، تجيش الصدور وتسخ العيون . . ولم يستطع الشاعر في الأبيات التالية أن يستوعب كل ملامح الموقف ، فعرضه من خلال تقديم بعض الملامح الصادرة عنه كردة فعل للموكب ، وأسمنا صوت الدفوف الشجي الهاديء الذي يملأ النفس بالخشوع فتبكي بدموع غير منظورة ، ويسمع الزغاريد والأغاني ، فيسجم معها بوجدانه وقلبه :

والدفوف التي ترون زينا  
هو أشجى من رنة الصيادين  
هاديء الوقع في القلوب ، مشير  
حين نصفني إليه بالأفان  
مألاً النفس بالخشوع فتبكي  
بدموع لم تبليها العينان

يقول الشاعر « إبراهيم نجا » في قصيدة بعنوان :  
« من وحي الإيمان - موكب . . . » :

موكبٌ هزّ خاطري وجناني  
وأثار الحنين في رجلي  
وقدّاني إلى البيان ، فهذا  
ذوبٌ قلبي سكّيته في بَياني  
موكب الحبّ للذي خلق الح  
ب ، وحلّ به بني الإنسان  
موكبُ الحبّ للرسول الذي جا  
لنا بالهدى وبالفراق  
صاغه الله من مناه شعاعاً  
باهر النور ، ساحر الألوان  
لم تحمّد مثله القلوب ، ولم تـ  
عُسر إلى مثله العيون الروابي  
وتَرائه من رقة وصفاء  
وسلام وزخمة وعنان  
فهفت نحوه القلوب سِراضاً  
كطيور تحمّد في السطيران



وقلوبٌ سرّقات من الشو  
ق ، سكارى بغير بنت الدنان  
شربت حمرة الحقيقة واهتز  
ت على « ذكر » مبدع الأكوان  
كل من ذاقها فقد عاش ما عاش  
بعميداً عن حُرقة الظلمان  
ووجوه ، تكاد تنطق بشراً  
حين نالت ما تشتهيهِ الأمان  
والدفوف التي ترون زينا  
هو أُنشئ من رنين العيدان (١١٧)

والشاعر « إبراهيم نجا » في هذه القصيدة التي  
يعبر فيها عن أشواقه الخاصة نحو النبي - ﷺ - يصدر

والزغاريضُ وهي ناسِرُ قلبِي  
والأغصاني ، وما لوقُ الأغصاني . (١١٤)

أن التجربة الذاتية للمشاعر بما فيها التجربة الصوفية ، بل وتجربة التشيع لآل البيت وما تحمله من أبعاد ودلالات ، قد أسهمت بقدر كبير في إثراء الشعر الديني وساعدت على نهضته بجانب العوامل الأخرى ، وسوف نلاحظ أن التجربة الذاتية ، قد ارتبطت إلى حد كبير بشخصية الرسول ﷺ - باعتباره الشفيع والمتوسل به عند الله سبحانه وتعالى .

#### خاتمة

بعد هذه الرحلة الخاطفة مع عوامل نهضة شعرنا الديني في العصر الحديث ، يتضح لنا أن الشعر الإسلامي يمثل محوراً هاماً في مجال التعبير عن العاطفة الدينية بصفة خاصة ، وفي مجال نهضة الشعر العربي الحديث بصفة عامة ، وإذا كنا قد أثرنا تيسيراً للبحث أن نحصّد عوامل أربعة كانت وراء النهضة الشعرية الإسلامية في العصر الحديث ، فإن ذلك لا يمنع أن تكون هنالك عوامل أخرى غيرها ، ولا يمنع أيضاً أن تتداخل هذه العوامل ، وتشكل منطلقاً في الماضي والحاضر والمستقبل - لإثراء التجربة الشعرية العربية ، ومنحها المزيد من التمدّد على مساحات جديدة في القرن الشعري .

صحيح أن صوت هذه النهضة الشعرية في المجال الإسلامي قد خفت إلى حد ما في العقود الأخيرة ، وحلّ

عله أكثر من تصوّر ، وأكثر من اهتمام بحكم الظروف السياسية والاجتماعية التي تمر بها الأمة العربية . . ولكن هذا لا يمنع أن ينتج الشعراء العرب مرة أخرى إلى معين الإسلام الثمر ، واستلهامه بجسارة وجبرأة من خلال تصور صحيح في البناء الشعري وتجديده .

لقد شهدت حركة الشعر طوال القرن الرابع عشر الهجري مدّاً هائلاً في استلهام الإسلام والانطلاق منه للتعبير عن هموم الأمة وآمالها ، وتقديم التجارب الشعرية المتنوعة بصورة حققت الكثير من التفوّق والامتياز . . ولا شيء يعوق عودة هذا المدّ مرة أخرى ، وبخاصة على أيدي الشعراء الموهوبين الذين يملكون طاقة شعرية عالية ومتوهجة .

واعتقد أن بعض العوامل المؤثرة والدافعة للنهضة الشعرية على أساس إسلامي ما زالت قائمة ، إن لم يكن كلها ، فالعوامل الفنية مثلاً ما زالت تستدعي أن يجود الشعراء الإسلاميون من خلال النماذج الشعرية الجديدة ، بعد أن تعددت التجارب الفنية وتنوعت ، وكذلك الحال بالنسبة لعوامل استدعاء التاريخ ، والتأقّر بالغرب والتجارب الذاتية . . فهذه كلها ما زالت قائمة في الوجدان العربي الإسلامي المعاصر بكل ما تحمله من آثار ومؤثرات .

ولا شك أن شعراءنا المجيدين والذين يملكون تصوّراً إسلامياً ناجحاً ، يعرفون طريقهم جيّداً إلى منبع الإسلام الذي يروي العطاش ، ويشبع الصادين . هذا ، وبالله التوفيق ، ، ،



## صدر حديثاً

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨١م عن دار نشر جامعة  
كمبريدج في بريطانيا في ٣٨٥ صفحة ، ويشتمل على  
مقدمه وثلاثة أجزاء تتناول على التوالي :

أولاً - الإنسان والكون ، حسب منظور دانت الذي  
يمكس الى حد بعيد آراء العلماء والفلاسفة الغربيين في  
العصور الوسطى الموروثة عن معتقدات ونظريات  
المدرسة التقليدية للفلسفة الاغريقية - الرومانية -  
ويتناول بوييد مفاهيم دانت ومعاصريه حول طبيعة  
الإنسان والكون من حيث :

- أ - المعرفة والإيمان بالمعجزات .
- ب - العناصر الأربعة ( الهواء والماء والنار  
والتراب ) .
- ج - العلوم المتعلقة بالظواهر والأحوال الجوية .
- د - اليابسة والبحر .
- هـ - الطبيعة والوجودية .
- و - السماوات .
- ز - الملائكة .

ثانياً - خلق الإنسان :

- أ - الله بوصفه الخالق الأزل .
- ب - عملية خلق الكائن البشري ، كما جاءت في  
الانوشودة التاسعة والعشرين من كتاب الفردوس  
الكوفيديا الالهية .
- ج - التولد والطبيعة الكونية .
- د - المواد والعناصر التي صنع منها الإنسان .

## دانتى : متجالبندراساطير والحكمة

تأليف : با تريك بوييد  
عرض وتحميل : ريشا الصباح

## ثالثا - الملاحظات :

ويحتوى هذا الفصل على المواقف والاختصاصات والافتباسات والمراجع . كما يتضمن قائمة بيبليوغرافية ، يشير المؤلف من خلالها الى عدد من الكتب والدراسات الاضافية مقترحا على القارئ الاطلاع عليها . وينتهي هذا الفصل بقائمة تفصيلية لحتوى الكتاب . . .

\* يبدأ باتريك بويد ، أول ما يبدأ ، بقوله ان ليس هنالك من جديد في ذلك الزعم القائل باستحالة دراسة شعر دانتي منفصلا عن دراسة فكره . فلقد نجح الناقد بنديكت كروتشه في إقناع جيل كامل من النقاد بأن كلاما من الاطار الايديولوجي للكوميديا الالهية ومحتواها انما يعدان العبث الكؤود في طريق التعبير الحر عن عبقرية دانتي . لكن محاولة كروتشه لاستبعاد أمور الشكل والمضمون والسياق من أي مناقشة للقصيدية باعتبارها شعرا - محاولة ارتدت الى عكس ما كان يرمى اليه ، ذلك ان هذه المحاولة لم تنجح الا في افتان اللاحقة له من الدارسين بأهمية هذه الأمور واستحالة تناولها منفصلة عن بعضها الآخر . هذا ، فضلا عن انه في عام ١٩٨٤ ، لم يعد هنالك من يستخف بما اطلقه قراء الكوميديا الالهية على مؤلفها من صفات عدة نسوق منها مايلي :

« انه لفيلاسوف من الطراز الأول ، مع انه كان رجلا من عامة الناس »<sup>(١)</sup>

« رجل له من الفكر ثاقبه ومن الذاكرة حاضرها ومن الدراسات ماهر أكثر دأبا واجتهادا »<sup>(٢)</sup>

« لاهوتي لا تحفى عليه من أمور العقائد والمذاهب

خافية »<sup>(٣)</sup>

« فيلسوف شاعر يحكم الصنعة »<sup>(٤)</sup>

ولقد تركزت دراسات بويد التي قام بها لأعمال دانتي ، في المقام الأول ، حول عبقرية كشاعر غنائي ، بمعنى انه تناول في أكبر قدر منها ، أشعار دانتي التي خلد فيها عبويته « بياتريش » وهي تلك الأشعار التي نظمها في وقت سابق على ظهور الكوميديا الالهية .

وهل كل ، فالكاتب الذي بين أيدينا يعد نقطة تحول في النهج النقدي الذي سلكه باتريك بويد في تناوله لأعمال دانتي . ذلك ان الغرض الذي استواه في هذه الدراسة يكمن في اصراره على ان دانتي كان في المقام الأول شاعر الحياة الفكرية ، وانه قد استمر أكثر للملامح نمجرا في شعره الناضج من خلال تعمقه في دراسة الفلسفة . ومصادقا لهذه النظرية ، فان باتريك بويد - في مقدمته لهذا الكتاب - يبسط أمام قارئه خططه أوليا حول فهمه الشخصي للعلاقة المتبادلة بين ماهر محض معرفة وبين ماهر شعر خالص في الكوميديا الالهية . ويمثل هذا الفهم في تلك المقارنة المستفيضة التي يعقدها بين دانتي من ناحية وبين الشاعر الرومانى لوكريشيوس<sup>(٥)</sup> من ناحية أخرى .

وقد يبدو اختيار بويد للشاعر لوكريشيوس طرفا في هذه المقارنة ، أمرا غاية في الغرابة بالنسبة للمختصين في

Cf. G. Villani Cronaca IX p.136

Cf. Boccaccio Vita di Dante XX

Cf. Giovanni del Virgilio, First line of Dante's epiph

Cf. Marcello Fiesco, Prohemio Sopra La Monarchia... od.

P. A. Shaw, Studi Danteschi, 51 (1978) , P.327

(٥) « داهر رومان ترايست صف اللذة والشعر ، وقد أسفر هذا التفرع عن صبيته الفلسفية ( في طابع الأشهاد ) وكان غائرا اها ثار بالفلسفة الايقونية .

بصحية قلبه بياتريشي . لكن بياتريشي تفسطع بمجة الدليل بدلا من فيرجيليوس ، فتأخذ بيد داني وتصدد به الى أحالي جنان الفردوس .

د - وهذا الاحترام العميق الذي يكتسه داني لفيرجيليوس ، وكذلك اعتراؤه بالفضل له في تكوينه الشعري ، فضلا عما كان للشاعر اللاتيني العظيم من أثر عميق في حياته وأعماله - هذه الأمور مجتمعة لا تظهر لنا جليلة في أي موضع من أعمال داني بقدر ما تظهر في تلك الكلمات التي يزجي فيها التحية لاستاذ فيرجيليوس ، حين يلتقي به للمرة الأولى ، وهو مقبل على رحلته الخيالية ، بالكوميديا الالهية :

« أحقا ، إذن ، أنت ذلك ال « فيرجيليوس » ؟ هل أنت حقا فيسكس النبتوس المنجس من هز من تسر الكلمات ؟ ياخر جميع الشعراء وشعائهم ... هانذا استهدى خطاك .

شغيفي وشغيفي في هذا ما أنفقت في سفر من طول دراسة ، وما أضمره لشخصك من حب صلب شعبي ان أبحث فيه ... أنت أستاذي ... وكما تبني الأثير ... يا من عنه وحده أخذت ذلك الأسلوب الذي نغني به جماله بأسباب الشرف » .

لكن باتريك بويد يلعب الى انه من الجائز الا يكون داني قد سمع مجرد سمع - باسم لوكريشوس في الوقت الذي كان فيه على معرفة وثيقة وسدافة حميمة مع أعمال فيرجيليوس . كما يذهب الى ان داني ، وهذا في حكم المؤكد ، لم يكن يعرف سوى أبيات معدودة من رائعة لوكريشوس المسماة : « في طباع الأشياء » De Rerum Natura

دراسة داني ، هذا ان لم يكن أمرا مستوجبا للدهشة ذلك لأن الشاعر الذي يرد ، عادة ، في الحساب عند عقد أي مقارنة بين داني وأي شاعر آخر - إنما هو الشاعر اللاتيني الأكبر فيرجيليوس ، صاحب الانباهة . أما الشاعر لوكريشوس فأمر مستبعد تماما . وآية ذلك ان نقاط التلاقي بين داني وفيرجيليوس الذي ينظر اليه داني على انه « نموذج الحكمة البشرية » - نقاط كثيرة كثيرة يعز على ان أضمتها دفني هذا المرض السجيز للكتاب الذي نحن بصده . غير أن أبرز هذه النقاط يمكن ان نجعلها فيما يلي :

أ - لقد أوسع داني أعمال فيرجيليوس دراسة وبحثا ، وكانت أشعاره قريبة الى نفسه ، وكان يستظهر معظمها .

ب - هنالك بيت معروف في الكوميديا الالهية ، يمكننا ان نعتبره غير مثال على القول بأن داني قد اتخذ من هيوط اينياس الى العالم الآخر - كما ورد وضعه في الانباهة - اتخذ نموذج له في رحلته الخيالية الى الجحيم في الكوميديا الالهية ، أو انه على الأقل قد تأثر بهذا الوصف وأخذ منه الى أبعد الحدود<sup>(٦)</sup> .

ج - لقد كان داني يكتن لفيرجيليوس احتراماً عميقاً ، مبته احساساً ما بأن هنالك قرابة روحية وشعرية تربطه بهذا الشاعر العظيم ، وهي قرابة يترجمها ما بين الشاعرين من تشابه وتلاق في كثير من النقاط والمواضع ، وقد تجل هذا الاحترام في إثارة فيرجيليوس دون سائر الشعراء فاصطفاه ل دليلاً في رحلته الخيالية عبر عوالم الآخرة ، سواء في هيوط الى أغوار الجحيم أو في صعوده الى قمة جبل الأعراف ( المطهر ) حيث التقى

(٦) « ولكن لم أذهب هناك ؟ ومن ذا الذي يتخلى هذا ؟ ليست اينياس ولا كالا ولا هيري ويحدد في هذا جدير » .  
الكوميديا الالهية : الجحيم ، الاشارة الثانية (٣٦) ترجمة حسن عثمان ، دار الطلوع مصر ١٩٥٥ .

اليونان والرومان وفلاسفة المسلمين . . من هنا فإن تناول بريد لهذه القضية ، مع أهميته لسائر الدارسين ، أمر على درجة كبيرة من الأهمية للقارئ العربي . ففضلا عن إفساح المؤلف مجالا لا يراى وجوه الشبه بين دانتي ونظيره الرومانى لوكريشيوس ، ملقبا كليهما « بالشاعرين المتفلسفين » - فإنه لا يعمل في تناوله لأعمال دانتي البعد العربي أو الاسلامي ، أى آراء فلاسفة المسلمين ونظرياتهم التي مثلها دانتي في قصيدته الروائية ، إن سلبا وإن إيجابا ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ففي ميدان علم الفلك أو علم الهيئة ، على سبيل المثال تعلم دانتي وهو في سن مبكرة نسبيا - أى وقت أن أخرج كتابه « الحياة الجديدة » - تعلم من العالم العربي الفراعاني (٢) حساب التقاويم السورية والعربية ، وبالتالي تعلم منه الكثير من الطرق المتعلقة بحساب السنين ( انظر : الحياة الجديدة ١/٢٩ ) . كما أخذ عنه الجدول الفلكي لبطلوموس ، وهو الجدول الذى يقول ان بالسياه ١٠٢٢ نجما يمكن رؤيتها بالعين المجردة اذا ما نظر اليها من خط عرض « مصر السفلى » . ولقد اعتبر دانتي هذا الجدول جامعا مانعا لعدد النجوم الموجودة في السماء الثامنة . وعن الفرغاني أيضا ، أخذ الأفكار المتعلقة بالمناطق السبع المأهولة على الأرض . ( المسائل ) ( انظر : الخ ) ، ( Questions 5, 16 ، فضلا عن المعلومة المتعلقة بالسياء الثامنة أو السياء النجمية المشكلة للفلك الخارجي والسياء التاسعة وهي المعلومة التي اقتضى فيها أثر الفرغاني وبطليموس وأسمائها ( المحرك الأول )

وهناك جانب آخر في فلسفة دانتي نجده متأثرا فيه بأبلغ التأثير بساهب على الصفحات ( ١٩٥ - ١٩٧ )

ناهيك عن ان المصدر الوحيد لمعرفة هذه الآيات كان من خلال تلك الشواهد التي كان يرددها أثناء الدرس أحد أساتذة اللغة اللاتينية ابضاحا لقاعدة نحوية ما ، أو ربما يكون سمعها على لسان أحد آباء الكنيسة ، ذلك ان هذه القضية على أهام دانتي ، لم يكن موجودا منها سوى نسخ ثلاث تقع مقبورة بطون مكتبات الاديرة القائمة في شمال الألب .

أما والأمر هكذا ، فما هو السبب الذى حدا بباتريك بريد أن يجعل من لوكريشيوس نموذجا للمقارنة مع دانتي ؟ ذلك انه اذا كان هنالك من وجه شبه جوهري بين « في طبائع الأشياء » وبين الكوميديا الالهية ، فمن البدهي استحالة عزو هذا الأمر الى تأثير العمل الثاني بالعمل الأول تأثرا مباشرا ، طالما انه كان في حكم الاستحالة اطلاع دانتي على ما كتبه لوكريشيوس فضلا عن عدم سماحه به أصلا . إذن . . . قد يكون وجه الشبه بينهما الذى حدا بباتريك بريد الى عقد هذه المقارنة كما في أمر له وجهاته . إن منطق الأشياء يقول بأنه ليس من المستغرب أبدا أن يتوصل رجلان في مثل صبريتها وتقارب مزاجهما الى نتيجة مماثلة لتجربة مماثلة عاشها كلاهما ، سواء أكانت تجربة شعرية أم حياتية أم سياسية أم فلسفية ، خاصة وان كلا منهما قد عاش ظروفًا ثقافية متماثلة الى أبعد الحدود في كثير من جوانبها الرئيسية ، وان باعد الزمن بينهما .



الواقع ان رائعة دانتي عمل روائي يتناول قصة لا يمكن النظر اليها الا على أنها مجرد إطار لجملة من الأقوال والآراء الفلسفية الطافية على السطح على أهام دانتي . وكان قوام هذه الآراء والأقوال ما قال به فلاسفة

(٢) من العلم العربي في الهندس أحمد بن محمد بن كثير ، الذي حصل في القرن التاسع الهجري ، ومن مؤلفاته : جوامع علم النجوم والحركات السماوية .



هنا : عما للأساطير والمعتقدات

إثراء ، بل إنهم قد انفطروا لشرح أطرافها واستجلاء غوامضها . كما أنهم أبرزوا وجوه الشبه القائمة بين تدرج الشخص أو الأقاليم الأفلاطونية وبين نظرية الجواهر المنفصلة <sup>(٨)</sup> والأرسطية ، وهي الجواهر المحركة للأفلاك السماوية عند أرسطو . وسأ إن تحقق هذا التوحيد بين ما قال به أرسطو في صيغة جديدة ، حتى تسلسل إلى صلب هذه الصيغة شتى الأفكار الشعبية المتعلقة بالتنجيم وما يتصل به الأفكار من اعتقاد جازم بتأثير النجوم والكواكب على مصائر البشر .

ونتيجة لهذا ، أمكن تعديل الكثير من الأفكار الخاصة بعلم التنجيم واعتبارها أفكاراً لا غير من تداولها في نظر علماء الدين الإسلامي ( وفي نظر علماء اللاهوت المسيحي في وقت لاحق ) . كذلك لم تعد هناك ضرورة لاعتبار الأجرام السماوية قوى طبيعية غاشمة ، تعمل مستقلة عن الإنسان ، بل إنما على هذا النحو قد أضحت أدوات تستعملها الأقسام في نشاطاتها الاتفاقية . وما « الشائعات » النجمية على البشر في بساطة متناهية سوى جانب واحد من جوانب مهمتها الدلالية لبث الصور في المادة .

وفي بدايات القرن الحادي عشر الميلادي ، استطاع ابن سينا ( المتوفى عام ١٠٣٧ م ) أن يمزج الأفكار الأرسطية بالأفكار الأفلاطونية ، وأن يمزج الفلك بالتنجيم والأقاليم بالكرات ، وانتهى به الأمر إلى النسق التالي : الله هو العلة الأولى المباشرة للأقنوم الأول ، والأقنوم الأول هو العلة المباشرة لروح المحرك الأول وجسده . وروح الاقنوم الثاني وجسده ، والأقنوم الثاني هو العلة المباشرة لروح السهل النجمية وجسدها وروح الاقنوم الثالث وجسده . وتستمر هذه العملية عبر الأفلاك النجمية وأقاليمها إلى أن تصل إلى

ولاشك أن فلاسفة المسلمين تأثروا في تناولهم لهذا المفهوم بفلاسفة الاغريق ، وبخاصة أفلاطون وأفلوطين .



يرى أفلاطون - في أسطوته الطويلة التي دَبَّجها عن فعل الخلق ، والتي تشكل كامل مادة محاورته طيمائوس - أن الفاعل الأعظم قد استعان في خلق الأشياء بالأجرام السماوية ، تلك الكائنات التي يتعامل معها على أنها كائنات إلهية . كما استعان بالمثل الأدنى منزلة منه - ولذا للميثولوجيا الاغريقية بالسطع . ويرى أفلاطون أن الأشياء المادية لا تعد كونها صوراً للنماذج الأصلية الكونية . ويتميز عمل الفاعل لفهم هذه الأسطورة الاطلاع على هذه المحاور ( والاطلاع بالمثل على محاوره فيندروس التي تتناول قضية الابداع الفنى ونظرية المحاكاة ) .

وقد احترى هذه الأسطورة قدر كبير من التغيير والتحوير على يد فلاسفة الأفلاطونية المحدثة ، وبخاصة أفلوطين . فقد تصور هؤلاء فعل الخلق على أنه ( فيض ) أو « انبثاق » أو « اتجاس » من الواحد . لها هو أفلوطين ( المتوفى عام ٢٧٠ م ) يقول بثلاثة شخصوس أو أقانيم للخلق هي : الواحد ، الروح ( العقل ) <sup>(٩)</sup> . . . النفس والواحد هو الذي يعمل ولا يعمل عليه ، إذ يعمل على الكون بأسره لأن الكون مترتب على وجوده . ومن الواحد يصدر الروح ، ومن الروح يصدر النفس ، والنفس هي المسؤولة عن تكون الأجسام في العالم المنظور ، وهي ضمتا مسؤولة عن مادة الكون بأسره .

وقد أثرى فلاسفة العرب هذه النظرية الترتيبية ، أما

(٨) انظر الجزء الأول من كتاب « تاريخ الفلسفة الغربية » تأليف برتراند رسل ، ترجمة د . زكي نجيب محمود ، مراجعة د . أحمد أمين ، ص ١٧٢ ، مادة الفلك ونظرية الكون

ط . ٣ ، القاهرة ١٩٧٨ .

الحال بالنسبة لشخص ( أتايم ) الأفلاطونية المحدثة أو « الجواهر المنفصلة » ولذا أكد أن هنالك فقط عقلا يمكننا واحدا يشترك فيه سائر البشر وأن المعرفة لا تملك وإنما تستأجر وأن يوسع أي فرد أن يكون شريكا في ينبوع العقل ، لكن العقل ليس ، على أي نحو من الأنحاء ، جزءا جوهريا من نفسه أو ملكة من ملكاتها . ولذا ، فهو منفصل انفصالا تاما عن فردية . وإن كل كائن حي لا يعرف الا بفضل العقل الممكن وحده ، لكنه يوجد بفضل نوع محدد من الروح الحساسة .

ولا بد لكل كائن حي أو جدته الروح الحساسة أن يتولد في كليتها . وكل ما يتولد مصيره إلى الفناء والزوال . ( ولذا ، يذهب ابن رشد إلى بقاء الكليات وفناء الجزئيات ) كما يذهب إلى أنه حين يكون العقل الكل خالدا أبديا ، يكون الموت هو النهاية المحتومة لكل نفس فردية . والخلاصة أن ليس هنالك من خلود فردي أو شخصي .

نتهي من قراءتنا لهذا الكتاب إلى القول بأن الموضوعات التي اشتمل عليها ليست بأكثر أهمية من القضية التي انطلق منها المؤلف وسمى إلى استجلائها . وصل الرض من تلك التضييقات وعقد المقارنات والاستطرادات وإبرازه لجوانب بعضها - وهي أمور ربما تكون قد عنت للمؤلف للمرة الأولى وهو ماضٍ في كتابته - فيما لا شك فيه أن هنالك من سبقه إلى وضع البلور في حقل الدراسات الدائنية « ذلك أن كتابا من هذا النوع مبنى في أسامه على معلومات قد سبقه إلى البحث فيها أعداد لا حصر لها من الدارسين والنقاد والشارحين بدءا من القرن الرابع عشر الميلادي وانتهاء بيوينا هذا . وربما كان ظهور مثل هذا الكتاب أمرا له ما يبرره لو أن كاتبه قد توخى الوضوح والدقة في الأجزاء الخاصة بالتعليق على النصوص وشرحها ، ولو أنه أبرز لنا تحليلاته الأدبية على نحو أكثر إثارة وإقناعا .

سماه القمر . والاقنوم التاسع هو الذي يكون روح الفلك القمري وجسده ، كما يكون « العقل الفعّال » المشغول بدوره من بث الصور أو طبعها في الوجود الواقع فيها دون القمر . ويحذرنا أن نذكر بأن « العقل الفعّال » يتقن في وصفه ، إلى أكبر حد ، مع وصف ذاتي لمفهوم الحظ « Fortuna » وهو تلك الكلمة التي قالها ذاتي على لسان فيرجيلوس في الجحيم (٧) ( الكوميديا الإلهية ) خاصة في الأبيات ٧٧ - ٧٨ - ٨٦ - ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٦ . وبالمثل يستعرض بويد في براعة نادرة فلسفة أرسطو المتعلقة بمفهوم الخلق والأفعال البشرية ، كما يقد نظرية ابن رشد في هذا الصدد ، وذلك على الصفحات ٢٧٦ - ٢٧٩ .

لقد ذهب أرسطو واتباعه إلى أن ما ليس بمادة أي ذلك العقل الخالد ذا الهيبة الإلهية - أمر لا يمكن انتقاله بوسيلة مادية كالبلورة « Sperm » كما لا يمكن انتقاله عن طريق الروح الطبيعية الإلهية التي غالبها ما تكون كائنة في البلورة وبخاصة القول ، كما يقول أرسطو إن : « العقل وحده يدخل من الخارج » .

أما الخطأ المستثنى « حاليا ، فكان من بنات أفكار فيلسوف القرن الثاني عشر الميلادي الذي نشأ في إسبانيا الإسلامية ، ألا وهو ابن رشد . وابن رشد هو الفيلسوف الذي حظيت شروحه لجميع مؤلفات أرسطو تقريبا بمنزلة لا تقاومها منزلة أخرى ، حتى أضحي من قبيل المرف أن يشار إليه ببساطة في الغرب اللاتيني باسم « الشارح » . ومع أن المؤرخ ستانيس ، قد أعاد اكتشاف المنزلة الفكرية لابن رشد وقدره حتى قدره . إلا أنه يرفض تفسيره لقولة أرسطو المفردة ، وهي للقولة المتعلقة « بالعقل الممكن » .

والواقع أن ابن رشد - وقد ضلته إشارة أرسطو إلى أن العقل جهاز بلا جسد ومنفصل عن الجسد - قد تعامل مع العقل كما لو أنه « متصل » تماما ، كما هو

يكاد يجمع أساتذة العلاقات الدولية على أن التصدي لقياس حجم المؤثر الأيديولوجي وغيره من المؤثرات النفسية والعاطفية في قرارات السياسة الخارجية للدول ، والتوصل من ذلك إلى نتائج واقعية صوفوق فيها ، يعد من أعقد الأمور إطلاقا . وأسباب ذلك التعقيد كثيرة وإن كان أغلبها ينبع من طبيعة عملية صنع السياسة الخارجية نفسها ، فهذه السياسة الأخيرة هي نتاج التفاعلات الحية والمتشابكة التي تحدث بين أوضاع الداخل والخارج في نطاق الأهداف والمصالح التي تسعى الدولة إليها من وراء علاقاتها بالدول الأخرى ، فيقدر ما تنهيا للدولة صاحبة هذه السياسة الخارجية من عناصر القوة وأسبابها ، ومن دقة الحساب والتقييم لكافة المعطيات والحقائق والأوضاع التي تتعامل معها ، وكذلك من حسن التنفيذ والاختيار لامتراتيجيات التنفيذ الملائمة ، تبرز في النهاية مقدرتها على إنجاز أهدافها المرسومة بالفاعلية المنشودة . . الخ . يضاف إلى ذلك طبيعة الحال ، أن هذه السياسة الخارجية قد تشكل أحيانا كمجرد رد فعل لمؤثرات أقليمية أو دولية معينة لا تستطيع الدولة للتحكم فيها تماما ، ومن هنا ، فإن تأثير بعض العوامل اللامادية ، كالدعم أو غيره على مسلك الدولة الخارجي ، قد ينخفض إلى الحد الذي قد ينفي الزعم بوجود مثل هذا التأثير من أساسه .

## دور الإسلام في السياسة الخارجية \*

تأليف : عيسى داوديشا  
عرض وتحليل : اسماعيل صبري مقلد \*

والكتاب الذي نحن بصدد تقديمه وتقييمه ، هو محاولة جادة بلها عدد من الباحثين الأكاديميين المتخصصين للتغلب على هذا التحدي الذي تثيره صعوبة الرصد الواقعي للدقوق لتأثير العامل الديني على صنع السياسة الخارجية في عدد من البلدان الإسلامية

الرئيسية وغيرها من الدول التي تعتقد الديانة الإسلامية نسبة لا بأس بها من مواطنيها .

كما أن محور هذا الكتاب عن « الإسلام في السياسة الخارجية » هو الباحث العربي الأصل المتخصص في دراسات الشرق الأوسط عفيف داوودا الذي أنجز في لسنوات الأخيرة من البحوث والمؤلفات القيمة ما يشهد به بطول بابه في هذا المضمار ، وقد صدر الكتاب بالتعاون بين المعهد الملكي البريطاني للشؤون الدولية وجامعة كامبردج البريطانية الشهيرة في طبيعته الأخيرة في عام ١٩٨٦ م .

ركز داوودا في مقدمة هذه الدراسة على توضيح الفكرة المحورية التي تدور حولها مناقشات هذه النخبة الكبيرة من الباحثين ، كما انطلق من هذا التوضيح إلى طرح بعض المشكلات المتباينة التي وقفت حصر عشرة في طريق إنجاز هذا البحث على النحو المأمول .

وفي البداية أشار داوودا إلى عدد من المتغيرات التي استحدثت في الساحة الدولية منذ نهاية السبعينات ، والتي أبرزت أهمية المؤثر الإسلامي في العلاقات الدولية بشكل غير مسبوق ويحيي في مقدمة تلك المتغيرات : أحداث الثورة الإسلامية في إيران ، والتدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان ، واختيار الرئيس المصري أنور السادات على يد مجموعة من المسلمين الأصوليين ، ثم اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية التي سلطت الأضواء الدولية مرة أخرى على دور الإسلام في تضخيم هذا النزاع الاقليمي والاقليمي والاقليمي عليه في ذروة السخونة والخطر طوال السنوات الماضية . الخ . إن هذه الحقبة التاريخية التي يشير إليها الباحث هي بعينها الحقبة التي شهدت بروز ما أصبح معروفًا بالصحة الإسلامية التي تدعمت بلا شك بفعل التأثير المتعاظم

للثورة الإسلامية في إيران على ما كان يجري في العديد من الدول والمجتمعات الإسلامية ، وهو تأثير بدأ يشعب ويضرب ويتلاشى فيها بعد لأسباب لا يتسع المقام لتفصيلها هنا .

ومن سياق التحليل المبني الذي أجراه الباحث عن علاقة المؤثر الإسلامي بالسياسة الخارجية ، خلص إلى بضع ملاحظات هامة صاغها على النحو التالي :

أ - أن رصد تأثير الإسلام على السياسات الخارجية لمجموعة الدول التي ركز عليها البحث أو غيرها من الدول ، يتطلب توخي أقصى درجات الدقة والحرص من جانب الباحثين ، إذ أن الميل إلى الاطلاق أو المبالغة قد يكون خادعا ومضللا إلى أبعد الحدود .

ب - أن من الصعوبة بمكان الزعم بوجود عالم إسلامي موحد ومترابط السلوك والاتجاه ، ومن ثم فإن البحث في المدى الذي يؤثر به العامل الإسلامي في السياسة الخارجية يجب أن يقتصر على دراسة السياسة الخارجية لكل دولة إسلامية على حدة وذلك بدلا من تناول هذا التأثير من زاوية الدور الجماعي لدول العالم الإسلامي ككل ، الخ .

ويزيد داوودا المعنى السابق إيضاحا عندما يقول أنه يصعب الزعم بوجود تفسير سياسي إسلامي واحد أو حتى متقارب لما ينشأ في محيط السياسة الدولية الراهنة من ظواهر أو وقائع ، فهذه التفسيرات تبين بل وقد تتضارب كلية تبعا لما تؤثر به الخلفية التاريخية والاجتماعية والاقتصادية لكل واحدة من هذه الدول والمجتمعات الإسلامية ، ومما دام الأمر كذلك ، فإنه يتلو من غير الواقعي تبني الافتراض بوجود مثل هذا التأثير « الواحد » للإسلام على السياسات الخارجية

محاولته بالبحث في ما وصفه بتأثير إسلام الخميني على السياسة الخارجية لجمهورية إيران الإسلامية ، وضمن هذا الإطار المحدد ، يعرض لنا تلك القائمة الطويلة من الصراعات والمصادمات التي وقعت بين قادة بعض أجنحة هذه الثورة الإسلامية خاصة في مراحلها الأولى مما انتهى إما بتصفيتهم نهائياً أو نفيهم بعد أن جرت إزاحتهم من مواقع السلطة لينبأ الخميني بعدها بفرض هيمنته المطلقة على توجهات هذه الثورة والتحكم في مساراتها الداخلية والخارجية . ومن دلائل هذه السطوة الخمينية وصفها الولايات المتحدة بأنها الشيطان الأكبر وأن إيران لم تكن بحاجة إليها بقدر ما كانت حاجة الولايات المتحدة إلى إيران ونفطها . وهذا التطرف في معاداة الولايات المتحدة جعل بسقوط الجناح المعقول في الثورة الإسلامية الإيرانية الذي تزعمه في البداية مهدي بازرگان ثم أبو الحسن بني صدر ، وصعود نجم مجموعة المتطرفين ( بهشتي / رفسنجاني / رجائي ) وتولاهم مقعد السلطة في طهران .

ولذا لم يكن مستغرباً بحال عندما وقعت أزمة الرهائن الأمريكيين أن يطلع الخميني بالتصريح الذي أشار فيه إلى أن الصراع الذي تدور رحاه لم يكن في حقيقته محصوراً بين الولايات المتحدة وإيران وإنما بين الإسلام وأعدائه ، كما رفض الدور الوسيط للأمم المتحدة في فض هذه الأزمة بدعوى أن هذه المنظمة العالمية لم تكن أكثر من أداة طيعة في يد السياسة الأمريكية .

ويحاول ومضاني أن يرسم لنا معالم المنظور السياسي الذي يطل منه آية الله الخميني على العالم فيشير في هذا الصدد إلى أنه أولاً يرفض النظام الدولي المعاصر الذي نواته الدول التي يعتبرها نتاج أفكار وعقائد وضعية ضيقة وضيقة ، وهو ما لا بد وأن يختلف على طول الخط

للدول الإسلامية . ثم يستدرك فيذكر أنه وبالرغم من كل تلك التباينات والتعارضات ، فإنه يظل للعقيدة الإسلامية كقوة أيديولوجية تأثير رمزي على المسلمين في كل بقاع العالم . ولعل ما يقصده الباحث من وراء هذا التنويه الأخير هو أن للإسلام قوة روحية ومعنوية ضخمة على معتقيه ولكن دون أن يعني ذلك بالضرورة أن هذا الزخم الروحي والمعنوي انعكاساً ملموساً على عملية وضع السياسة الخارجية في الدول التي يمسها هذا التحليل .

ولا شك أن العديد من الظروف والتوضيحات والتحفيزات المبدئية التي أشار إليها داوود في صدر هذه الدراسة يعد صحيحاً ولا خیار عليه بحال ، ومن أمثله ذلك أن التوظيف السياسي والمقاليدي للإسلام في دولة مثل إيران في ظل ثورتها الإسلامية الراحنة قد يقف على طرف نقيض منه في دولة أخرى مثل العراق أو السعودية أو حتى باكستان . ومن شأن هذا الاختلاف في النظرة والتصور أن يثير بالنسبة إلينا سؤالاً مبدئياً غاية في الأهمية ألا وهو : أي تأثير هذا الذي يراود منا رصده وقياسه وتقييمه ، وبأي مفهوم ، وضمن أية سياقات سياسية واجتماعية وثقافية وبيئية ؟ ونتصور أن العثور على الرد المناسب على هذا التساؤل قد ينتهي بنا إلى نتائج تختلف تماماً في مضمونها من تلك التي تراود أذهان الكثيرين ممن يميلون في أحكامهم إلى اعتقاد أسلوب المبالغة والتصميم . وعلى أي حال ، فقد يكون المفيد التريث في إصدار حكم أخير في القضية المطروحة للبحث ، إلى أن نفرغ من مطالعة آراء بعض الباحثين الرئيسيين اللذين ساهموا في كتابة هذه الدراسة العلمية .

فالدكتور روح الله ومضاني ، استاذ علم الحكومات والسياسة الخارجية بجامعة فرجينيا الأمريكية ، يبدأ

(١) رفض التبعية سواء أكان مصدرها الشرق أم الغرب .

(٢) التأكيد المستمر على عداء الولايات المتحدة المتأصل للشوكة الإسلامية في إيران ومن ثم اعتبارها الخصم الرئيس الذي لا تجوز مصالحته أو حتى مهادنته .

(٣) مواصلة الصراع ضد القوتين العظميين وكذلك ضد الصهيونية .

(٤) توثيق روابط إيران بالشعوب المقهورة وبخاصة الشعوب الإسلامية .

(٥) العمل باتجاه تحرير القدس ، ومناصبه الدول التي تناصر إسرائيل العداء ، الخ .

وتمثل هذه المبادئ كما يذكر الكاتب خروجاً سافراً على مبادئ السياسة الخارجية الإيرانية إبان عهد الشاه ، إذ أثبتت هذه السياسة على :

( أ ) التحالف مع الولايات المتحدة والغرب .

( ب ) اعتبار الاتحاد السوفيتي الخطر الرئيسي الذي يهدد إيران .

ولو كان مضاني قد توقف عند هذا الاستنتاج الأخير لأمكننا انتقاده بشدة على ما تحمله تلك العبارات من إطلاق وتعميم شديد . بيد أنه رجوع وتدارك الأمر عندما أشار إلى أن هناك صعوبة كبيرة تواجه الباحثين حول المدى الحقيقي الذي يؤثر به الإسلام في السياسة الخارجية التي تنتهجها جمهورية إيران الإسلامية . ومرد ذلك الصعوبة في رأيه هو أن تحليل واقع تلك السياسة الخارجية يكشف عن الهوة العميقة التي تفصل بينه وبين ما تمكسه تصريحات قادة هذا النظام . ومن الأمثلة

عن عالم تظلمه رايات الإسلام وتباركه العناية الإلهية ولا يصبح فيه مكان للحكومات التي تتحرك بتأثير الشيطان . ويترتب على هذا الرفض من جانب الخميني لمجتمع الدول المعاصرة ، إطلاقه الدعوة نحو إقامة ما يمكن اعتباره عالمية إسلامية . وتكتمل هذه النظرة الخمينية إلى العالم باعتقادها بضرورة وجود زعامة عالمية روحية تركز جهدها من أجل تحقيق هذه الغاية النبيلة ، أي تحويل العالم في نهاية المطاف إلى نظام إسلامي عالمي ، ولا يوجد في رأي أتباعه بطبيعة الحال من هو أجدر منه ، أي من الخميني للقيام بهذه الرسالة المقدسة ، ويأتي هدف تصدير الثورة الإسلامية إلى البلدان والأقطار الأخرى ليشكل بعداً أساسياً ثانياً من أبعاد هذا المنظور الخميني . وفي هذا المضمار يمتد أثباع الخميني أن هدف تصدير الثورة الإسلامية يمكن أن يتحقق بإحدى وسيلتين أو بكتلتيهما معاً : القدوة والدعاية ، ولا يلحون من قريب أو بعيد إلى إمكانية استخدام أدلة التخريب والعدوان المسلح كركيزة ثالثة لتنفيذ هذا المخطط الخارجي .

والتساوق مع هذه النظرة الخمينية إلى العالم ، تأتي تصريحات كبار المسؤولين الإيرانيين لتبرز هذه التوجهات وتمكسها بجلاء تام . ومثال ذلك ما أعلنه وزير الخارجية علي أكبر ولايتي من أن الأولوية في علاقات إيران بالعالم الخارجي تذهب إلى الدول الإسلامية فدول العالم الثالث ، فغيرها من الدول . وضمن الإطار نفسه يصرح الرئيس الإيراني علي خامنئي : « لقد قسمنا دول العالم إلى مجموعات جيدة : مجموعة الدول الشقيقة ، ومجموعة الدول الصديقة ، ومجموعة الدول المحايدة ، ومجموعة الدول المعادية » .

وعند مضاني مجموعة المبادئ التي أصبحت تحكم في سياسة إيران الخارجية الحالية في الآتي :

تمكس تلك الواقعية بوضوح تام ، أنه عندما وقعت مصر على اتفاقات كاسب دافيد التي مهدت لصلحتها المفرد مع اسرائيل وأثارت خطوبتها موجة عنيفة من التلمر والامتناع على امتداد المنطقة العربية من انصافها إلى انصافها ، فإن السعودية لم تتردد - برغم العلاقة السياسية الوثيقة التي كانت تشنها الى مصر آنذاك - في انتقاد تلك الاتفاقات ومعارضتها ، مما اقترب بموقفها من مواقف بعض الدول العربية الراديكالية وفي طليعتها سوريا وليبيا والعراق . . الخ .

كذلك فإن معارضة السعودية للكثير من السياسات والممارسات التي نفلتها جمهورية إيران الاسلامية استندت في الجهر والصميم الى اعتبارات سياسية لا صلة لها بالمزاعم الدينية للنظام الحاكم في إيران ، أو بشعارات الصبغة الاسلامية التي رفع لواءها وحاول توطينها سياسيا على طريقته .

من هذا وغيره يتضح أن دور المؤثر الاسلامي في قرارات السياسة الخارجية للسعودية لم يكن ساحقا في كل الأحوال ، وإنما هو دور داعم ومساند لها حيثما وأينما كان ذلك ممكنا ، وتبقى هذه السياسة بعد ذلك كله ، محكومة بمنصر المصلحة والضرورة شأنها في ذلك شأن غيرها من السياسات الخارجية لأي دولة من الدول .

في فصل آخر بعنوان عزلة ليبيا في مواجهة العالم وتحديات الاسلام بمحاول سكارسيا أموريي استاذ الدراسات الاسلامية بجامعة روما التنصدي لانجاز هذه المهمة الصعبة .

ويعد مقدمة موجزة يشر فيها الى التناقضات التي تحيط بفهم العالم الغربي لدور الاسلام في تقرير مسارات السياسة الخارجية للبلد ، يذكر أن هذا التأثير موجود

العملية البارزة لذلك التناقض بين القول والفعل أزمة الرهائن الأمريكيين في طهران وهي الأزمة التي أمكن تسويتها من منطلق سياسي واقتصادي كان أبعد ما يكون عن روح التزمزيم الديني الذي أوحى به أقوال القادة الايرانيين والأزمة في أوج حدتها . كذلك فإن الاتصالات التي تجري مع الولايات المتحدة في الحفاء وما تسفر عنه من اتفاقات يحرص الطرفان على كتمانها ، لا تتفق مطلقا مع وصف إيران الاسلامية المستمر لها بالشيطان الأكبر ، الخ . .

وفي الفصل الذي جاء تحت عنوان : ( القيم الاسلامية والمصلحة الوطنية : السياسة الخارجية للمملكة العربية السعودية ) يحاول جيمس بيسكاتوري الباحث بالمعهد الملكي للشئون الدولية بلندن لمس إجابة ملائمة على التسؤل المركزي الذي تطرحه تلك الدراسة ألا وهو مدى ارتباط الاسلام بالسياسة الخارجية لتلك العينة من الدول التي وقع عليها الاختيار كنواة لهذا التحليل .

وينطلق الكاتب من فرضية مؤداه أن الاسلام يشكل سمة دالة ومميزة للسياسة الخارجية للسعودية ، وأن ذلك يبدو واضحا منذ قيام المملكة ، أي ابتداء بحكم الملك عبدالعزيز آل سعود وانتهاء بالحقبة الراهنة . ويذكر بيسكاتوري العديد من الوقائع التي يحاول بها أن يبرهن على صحة تلك الفرضية .

يبد أنه وبرغم قوة هذا التوجه الاسلامي الذي يرتكز على أسس تاريخية عميقة ويمتد عبر الماضي ، فإن ذلك لم يحل دون تحمي السياسة الخارجية للمملكة بدرجة عالية من الواقعية السياسية في علاقاتها الدولية على الصعيدين الاقليمي والعالمي . ولعل من أبرز الأمثلة العملية التي

ومن باكستان ونجحت عنوان : « البحث عن هوية : الاسلام وسياسة باكستان الخارجية » وتحدث شيرين طاهر خيلي أستاذة العلوم السياسية بجامعة قميل الأمريكية عن دور الاسلام في السياسة الخارجية لدولة باكستان ، فتشير الى تطور هذا الدور ضد نشأة الدولة في أعقاب الحرب العالمية الثانية وتؤكد ما للاسلام من تأثير في جلور تكوين النخبة الحاكمة في تلك الدولة ، وتذكر أنه منذ عام ١٩٧٢ تأكد ارتباط باكستان بالعالم الاسلامي بصورة واضحة للغاية ، وهو ما كان يخدم مصلحتها الوطنية من عدة نواح : فالارتباط بالعالم الاسلامي كان ضمانا لاستمرار باكستان كدولة إسلامية مستقلة خاصة بعد هزيمتها أمام الهند في حرب ١٩٧١ وانسلاخ جزء من أراضيها في دولة بنجلاديش الجديدة ، كما أن هذا الارتباط كان يهيء فرصة كبيرة أمامها للانفاد من التراث الاقتصادي لبعض الدول الاسلامية النفطية .

ومن هذا تخفي الى مناقشة تأثير سقوط شاه إيران على سياسة باكستان الخارجية وتشير الى أن انتصار حكم ديني شيوعي في إيران كان من الممكن أن يثير العديد من المتاعب أمام باكستان ، ومن هنا يمكن تفهم حرص باكستان على خطب ود حكومة الثورة الاسلامية من خلال التذكير المستمر بالروابط التاريخية الودية بين البلدين ، ومن هنا أيضا كان تضامنها مع إيران الثورة في الانسحاب من حلف الستور في مارس ١٩٧٩م ولم يكن هجر عضوية هذا الحلف الغربي يعني الكثير بالنسبة لمصالح الباكستان ، إذ أن الستوركان في عداد المحالفات الدولية الميتة بالفعل .

غير أن هذه المرحلة الودية في العلاقات الباكستانية/ الإيرانية ما لبثت أن تحللت وانتهت بتأثير الصيحة التي أطلقها حكام إيران ودعوا فيها الشعوب المجاورة ، بما

بصورة يصعب تجاهلها ، فتحت مظلة التضامن الاسلامي ما برحت ليبيا تدعوون ككل للوحدة العربية الشاملة ، فضلا عن أن للاسلام موقعا متميزا في أيديولوجية الغداني المعروفة بالنظرية الثالثة ، فالغداني يعتقد أن لليبيا تحت زعامته رسالة هامة يجب عليها تأديتها في هذا العالم العربي ، وهي رسالة تقوم في جوهرها على بحث الناصرية ولكن في رداء إسلامي أي مزاجية القومية العربية بالتراث النابع من العقيدة الاسلامية . ويكلمة أخرى ، فإن ليبيا الغداني تسعى إلى تأكيد نفسها وتعزيز دورها كركيزة قوية في الدفاع عن الاسلام والقومية العربية في ذات الوقت .

كما يؤكد أموري أن الطموح السياسي للنظرية الدولية الثالثة يذهب في أفقه الى مدى بكثير من حدود العالمين العربي والاسلامي ، إذ يتجاوزهما في محاولة منه للوصول الى المجتمع الانساني في أبعاده العالمية الشاملة ، وذلك باعتباره أن للاسلام جاذبية خاصة تسهل تحقيق مثل هذا الهدف السياسي البعيد .

ومرة أخرى فإن المنطق الذي يستخدمه الكاتب في مناقشاته وتحليلاته يبرهننا بالسؤال الهام التالي والذي نتصور أنه بقي عالقاً في ألبجودون حسم وهو : هل يأتي هذا الميل المكثف نحو توظيف الاسلام سياسيا على هذا المستوى الاقليمي والدولي الراسع من جانب ليبيا الغداني كتصوير عن قناعات أصيلة وراسخة وأيضا كتصوير عن ارتباط قوي بكل ما ترمز اليه هذه العقيدة الاسلامية من قيم ومبادئ ، أم أن هذا المؤثر يقوم هنا بدور الأداة وبالتالي يكون مجرد غطاء شكلي يستر هذه التحركات الخارجية ولا شيء أكثر من ذلك ؟ إن الأجوبة الدقيقة عن هذا التسؤل لا تعني من منظورنا الشيء الكثير الذي يصعب إدراكه مع تعميم الأحكام أو تسطيحها .



القومية العربية وعدم الانحياز بين ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ومرحلة مهادنة السعودية حول اليمن والمشاركة في اول مؤتمر قمة إسلامي بالرباط عام ١٩٦٩ ، وقد استمرت هذه المرحلة الأخيرة لفترة من ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٠ . ويشير إلى أن عبد الناصر لم يتورع عن استعمال الاسلام لدعم أهدافه السياسية ولهذا السبب نفسه فإنه لم يتردد في مساندة بعض الدول غير الاسلامية ضد دول إسلامية كما في حالة النزاع الهندي الباكستاني أو في نزاع اليونان وتركيا حول قبرص ، الخ .

أما السادات فإنه صعد هذه العملية ووصل بها إلى آفاق غير مسبوقة ، ومن أمثلة ذلك : إحراز حركة الإخوان المسلمين ، وتشجيع الجماعات الاسلامية لمقاومة الاتجاهات التي تمثلها القوى اليسارية ، وحرب أكتوبر ١٩٧٣ التي أسماها بحرب رمضان . كما جاء دستور ١٩٧١ متضمنا الاشارة إلى أن مبادئ الشريعة الاسلامية هي مصدر رئيسي للتشريع ، وبحلول عام ١٩٨٠ أصبحت المصدر الأول ، الخ . ومن ناحية أخرى ، فقد جرى إطلاق وصف الرئيس المؤمن على السادات وتوسع في استعمال صلاة الجمعة للدهابة الشخصية ، كما استخدم الآيات القرآنية بكثرة في خطبه وأحاديثه لمضاعفة هذا التأثير الدعائي لشخصه .

ويقول هلال إن زيارة السادات للغدس في عام ١٩٧٧ جاءت ضمن الإطار نفسه .

وقد أصاب الباحث كبد الحقيقة عندما ذكر أنه رغم هذا الاستخدام السياسي المكثف للرموز الاسلامية ، فإنه لم يكن يبدو أن للاسلام تأثيرا فعالا على رسم سياسته الخارجية ، فقد انتقد بحة الثروة الاسلامية في ايران ، ودعا الشاء المخلوع للالفة في مصر ، ورفض

فيها الشعب الباكستاني ، لأن توزيع من كاهلها النظم الدكتاتورية التي تحكمها ، وإحلال حكومات اسلامية محلها . وقد لقيت تلك الدعوات التحريضية بعض الصدى الذي عبر عن نفسه في المظاهرات الشعبية التي عمت أرجاء باكستان في أعقاب الاستيلاء على الحرم المكي في نهاية عام ١٩٧٩ ، وذلك عندما اتهمت ايران المخابرات المركزية الأمريكية بتدبيرها والوقوف وراءها ، وقد خلقت تلك الغلاقل والاضطرابات موقفا سياسيا داخليا عصيبا لحكومة الرئيس ضياء الحق . وتذكر الباحثة أن تأثير الحلفيني على شعبة الباكستان يخلق احتمالا كبيرا بحدوث غلاقل مستقبلا .

ونختتم مناقشتها بالحديث عن دور باكستان بعد الغزو السوفيتي لأفغانستان وما نتج عن هذا الاجراء من تخلخل أمني وضربها أمام خيارات جديدة لتداركه وتصحيحه .

وحول دور الاسلام في السياسة الخارجية المصرية يتحدث الدكتور علي الدين هلال أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة ، الذي بدأ بمقولة مفادها أن الاسلام كان على الدوام مقوما رئيسيا من مقومات السياسة الخارجية المصرية ، فقد استعمل كبل من الرئيسين عبدالناصر والسادات الاسلام كأداة : إما للحصول على التأييد أو لوصم الخصوم السياسيين . ومع نمو التأثير الاسلامي في حقبة السبعينات ، توسع النظام الحاكم في مصر في توظيف الرموز الاسلامية للأغراض السياسية .

يقسم الباحث موقف عبدالناصر من الاسلام في نطاق ثلاث مراحل متميزة : مرحلة التركيز على الاسلام كأحد أركان السياسة الخارجية المصرية ، وذلك في الفترة بين ١٩٥٢ و ١٩٥٦ ، ومرحلة التحول باتجاه

وصف هذه الثورة بالاسلامية ، كما مساند العراق في حربها ضد ايران ، فضلاً عن أنه أقام علاقات وثيقة مع نظام ماركوس في الفلبين رغم معاداة هذا النظام للمسلمين الفلبينيين .

وفي عام ١٩٨٩ هاجم السادات الاخوان المسلمين وغيرهم من المجموعات الاسلامية مما هيجل باغتياله وانهار نظامه .

وبالنسبة لنا نظل مقولة الدكتور علي الدين هلال التي انطلق منها صحيحة تماماً ، وهي أن دور الاسلام في السياسة الخارجية المصرية خلال سنوات الثورة لم يكن أكثر من ورقة أو إن شئت فعل مجرد أداة تكتيكية جرى توظيفها ومحريكها في هذا الاتجاه أو ذاك طبقاً لما أمتهه مصالح حكومات الثورة في الداخل والخارج .

نجمي بعد ذلك إلى وليام زارتمان أستاذ الدراسات الأفريقية بجامعة جونز هوبكنز الذي حاول بدوره أن يبين لنا حدود هذا التأثير الاسلامي على السياسة الخارجية المغربية . وبدأ بالقول ان من الصعوبة بمكان الزعم بوجود سياسة خارجية مغربية اسلامية وإن كانت هناك قوى سياسية في المغرب طالما دعت إلى انتهاج سياسات تقوم على تحقيق مبدأ التضامن الاسلامي ، ومثال ذلك حزب الاستقلال تحت زعامة علال الفاسي .

ويشير الكاتب إلى دور المغرب في منظمة المؤتمر الإسلامي ، فأسامة الملك الحسن الثاني لجنة تحرير الملك الحسن أدار هذه السياسة بارة شديدة يحسد عليها .

ويخص علاقة المغرب بحكومة الثورة الاسلامية في ايران بوضع ملاحظات منها عدم رضائه عن سياساتها وتوجهاتها منذ قيامها في عام ١٩٧٩ ، وهي لذلك لم تسع إلى إقامة علاقات دبلوماسية معها ، كما لم تبدل جهداً يذكر لتحسين تلك العلاقات المتوترة . ويختلف ذلك كثيراً وطبيعة الحال عن الوضع الذي كانت عليه العلاقات المغربية / الايرانية إبان حكم الشاه .

ثم يتحدث عن علاقة المغرب الوثيقة بالسعودية ، وكذلك عن الحساسيات التي شابت العلاقات المغربية / الليبية لفترة طويلة من الوقت .

ويختتم إلى أن السبب وراء ضعف تأثير الاسلام على السياسة الخارجية للمغرب راجع إلى عوامل عديدة منها أن المغرب يعد من أقل دول العالم الاسلامي تأثراً بحركة الصحوة الاسلامية ، كما أن الاسلام لا يمت بصلة وثيقة للمشكلات الكبرى التي تواجهها المغرب في علاقاتها الخارجية ، سواء ما تعلق منها بجوارها الاقليمي المباشر أو بالمحيط الدولي الواسع الذي تتعامل معه .

ثم ينتقل بنا عضيد داوود إلى مناقشة دور الاسلام في السياسة الخارجية للرئيس العراقي صدام حسين .

ويشير الباحث إلى أنه في الفترة السابقة لحدوث الثورة الاسلامية في ايران كان دور الاسلام في السياسة الخارجية العراقية محدوداً تماماً ، فعلاقة ايران بدول المنطقة المجاورة لها تحكمت فيها المصالح الحيوسراتيجية وأيضاً الاعتبارات الأيديولوجية التابعة من الأيديولوجية القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي أكثر مما أثرت فيها الحساسيات الاسلامية .

تقول الباحثان أنه حتى وقوع حرب يونيو ١٩٦٧ في الشرق الأوسط كان اهتمام الاتحاد السوفيتي يتركز على تأييد السياسات التحررية المعادية للغرب في دول هذه المنطقة باعتبار أن ذلك سوف يتكفل بإحباط محاولات الغرب نحو إقامة أحلاف وتكتلات عسكرية تابعة له هناك ، وفي الوقت نفسه فإنه لم يكن للاتحاد السوفيتي أي تعاطف مع الاسلام لأسباب عقائدية ليس من الصعب تفهمها وإدراك أسبابها .

غير أن السوفيت المجهو بعد حرب يونيو إلى فتح قناة اتصالات جديدة وربما لأول مرة مع دول المنطقة العربية عن طريق ممثلين للشعوب الاسلامية التي تتركز في الأجزاء الآسيوية من الدول السوفيتية ، قاصدين من ذلك توظيف تلك الاتصالات لأغراض سياستهم الخارجية بطبيعة الحال .

ثم تبدأ مرحلة جديدة في تطور هذا التوجه السوفيتي إثر قيام الثورة الاسلامية في إيران ، وهي الثورة التي حاول الاتحاد السوفيتي التودد إليها والتقرب منها لنزعها المعادية بشدة للسياسة الأمريكية ، مع العمل في الوقت نفسه على عزل تأثيرها على شعبه المسلم في الجمهوريات المحافظة لإيران . غير أن السوفيت أوقعوا أنفسهم في حرج شديد بفزوحهم العسكري لأفغانستان إذ أصبح عليهم أن يتعاملوا مع المشاعر الاسلامية المعادية لهم هناك والتي تفاقمت إلى حد الانتفاضة المسلحة الشاملة ضد كل ما يرمز اليه هذا التواجد السوفيتي في بلادهم ولم يجد السوفيت مناصاً من استخدام أقصى العنف لاختاد تلك الانتفاضة الاسلامية والقضاء عليها .

وهذا التوزع في السياسات السوفيتية بين تأييد الثورة الاسلامية في إيران ، ومناسبة القوى الاسلامية الثائرة

وقد استمر هذا الاتجاه على حاله تقريباً حتى بعد أن تسلم الرئيس صدام حسين مهام الرئاسة في يوليو ١٩٧٩ ، وذلك من حيث الميل لتأكيد على البعد العربي في سياسات العراق الخارجية أكثر من البعد الاسلامي . ويتضح هذا التوجه جلياً في الميثاق القومي العربي الذي طرحه الرئيس صدام في فبراير ١٩٨٠ ، إذ لم ترد فيه الإشارة إلى الاسلام ، كما أنه لم يبدل محاولة أخرى من جانبه لاقتراح ميثاق مماثل لمعالمات الدول الاسلامية .

وفي خارج الدائرة العربية انجهدت القيادة العراقية نحو مجموعة دول عدم الانحياز التي وثق علاقاتها بها أكثر من حدث بالنسبة لمجموعة دول العالم الاسلامي . وبعد أن انفجر النزاع العراقي - الإيراني ، اتجه الرئيس صدام بنظره إلى منظمة المؤتمر الاسلامي للانفاذ من دورها وجهودها في إسناد موقف العراق في نزاعه ضد إيران .

كما يذكر لنا داوود أن العراق انتهج سياسة خارجية علمانية لا تفرق في المعاملة بين قطر اسلامي وآخر غير اسلامي ، وكان في ذلك متفقاً مع نفسه في تعامله مع الداخل حيث استطاع حزب البعث بوسائله وأجهزته وكذلك بسياساته الاجتماعية النشطة احتواء النزعات الاسلامية الراديكالية ، وإخاد الحركات الدينية للظفرقة كحزب الدعوى ، الخ . ومن هنا فإن التوجه البحثي العراقي لا يعاني من مفارقات بين قول معلن وسياسة واقعة ، وإنما هو صريح في تعامله مع هذا الأمر إلى أقصى حدود الصراحة .

على أن أهم مآلي الجزء الأخير من هذه الدراسة هو ذلك الفصل الذي كتبه كارين داوودشا وهلين دانكوسيه عن تأثير الاسلام على السياسة الخارجية السوفيتية .

ضدكم في أفغانستان العداء يجعل السوفيت واقعين في اشكال معقد عليهم أن يجدوا مخرجاً لأنفسهم منه .

وتخلص الباحثان من عرضهما الى القول بأن المشكلة التي يواجهها السوفيت حاضراً وسوف يواجهونها مستقبلاً هي كيف يمكن استخدام الاسلام كأداة فعالة في خدمة أهداف سياستهم الخارجية مع الإبقاء في الوقت نفسه على تماسك مجتمعاتهم في وجه تصاظم المد الإسلامي ، الخ .

يبقى القول بأن هذه الدراسة تمثل إسهاماً عملياً طيباً

ومثمراً ، وهي تعد ، في رأينا من الدراسات الرائدة في موضوعها ، وإذا كان هناك الكثير من الطروحات الواردة في هذا العمل الجاد التي لا يسع الإنسان إلا أن يخالف أصحابها الرأي ، إلا أن هناك كذلك وبالمقابل الكثير من الاستنتاجات والملاحظات الصائبة التي يستحق أصحابها التهنئة عليها . إن ما قام به هؤلاء الباحثون هو فيما نتصور خطوة أولى على طريق شاقة طويلة على غيرهم من الباحثين أن يقطعوها بالمزيد من الجهد والاجتهاد .



العدد التالي من المجلة  
العدد الثالث - المجلد العشرون  
أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر  
قسم خاص عن  
اللسانية



ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

- (أ) بين العلوم الطبيعية والإنسانية
- (ب) الطاقة النووية
- (ج) اللسانيات
- (د) الإعلام المعاصر

دائرة الحوار ( دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر » )

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لا تمثل فصل الخطاب أو تجماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثرى ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبوا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرغدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ كلمة ، حول ما ينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الادارة

٥ ليرات	سوريا	٧ دراهم	ولة الإمارات
٤٠ قرشا	القساهرة	٦ دراهم	لستعمودية
٣٠٠ مائتا	السجودات	٤ دراهم	قطر
٥٠ قرشا	ليبيا	٥٠٠ فلس	بحرين
٥٠٠ بية	مسقط	٥٥٠ ريال	البحرين الشمالية
٦ دراهم	الجزائر	٤٠٠ فلس	البحرين الجنوبية
٦٠٠ مائتا	تونس	٤٠٠ فلس	العراق
٧ دراهم	المغرب	٥٠٠ ليرة	لبنان
		٣٠٠ فلسا	الأردن

### الاشتراكات:

البلاد العربية ٥ دراهم

البلاد الأجنبية ٦ دراهم

تحول قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خاصة المصاريف على بنك الكويت المركزي ، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبوعة محمودة الكويت









